الزهراء للإعلام العربي

أطلس تاريخ الإسلام

د. حسين مؤنس

الزهراء للإعلام العربي

AL- ZAHRAA FOR ARAB MASS MEDIA

١٤ شارع الطيران – مدينة نصر – القاهرة

14 AL Tayaran Street - Madinat Nasr - Cairo

ص.ب : ١٠٢ مدينة نصر – القاهرة – تلغرافياً : زهراتيف – تليفون : ٦٠١٩٨٨ – ٢٦١١١٠٦ – تلكس : ٩٤٠٢١ رائف يو إن

P.O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 2611106 - Telex : 94021 Raef U N

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

صدق الله العظيم
فصلت/٣٣

الزهراء للإعلام العربي

أطلس تاريخ الإسلام

د. حسين مؤنس

الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م

رقم الايداع : ٨٧/٤٢١٢
الترقيم الدولي : ٣ - ٤٩ - ١٤٧٠ - ٩٧٧

رئيس التحرير
أحمد رائف

مساعد رئيس التحرير
محمود حلمي

تصميم ورسم الخرائط
چيوفاني دي أجوستين
مرسم خرائط - ميلانو
إيطاليا
مهندس محمود حلمي
مرسم خرائط الزهراء - مدينة نصر
القاهرة - مصر

الإخراج الفني
عصمت داوستاشي

تصميم الغلاف
عبد السلام الشريف

متابعة المادة التاريخية على الخرائط
أ. أحمد عادل كمال
أ. أحمد رائف
د. صلاح عيسى
د. عصام الدين حسن
د. وجية عتيق
د. عبادة كحيلة
د. محمود عرفة

رئيس لجنة مراجعة اللغة العربية وترتيب الفهارس
عبد الحكيم خاطر

رئيسة السكرتارية والمتابعة
سحر الطويجي

رئيس التجهيزات الفنية
شعبان حسن

الخطوط العربية
المرحوم عبد المنعم الشريف
محمود منصور
مصطفى البنا
ماجد محمود

الإشراف المالي
أحمد الموجي

الطباعة:
مطابع تين واه - سنغافوره

الناشر : الزهراء للإعلام العربي
١٤ ش الطيران - مدينة نصر القاهرة
ص.ب :١٠٢ مدينة نصر - القاهرة مصر
تلكس: ٩٤٠٢١ RAEF UN
تليفون: ٦٠١٩٨٨ - ٢٦١١١٠٦

هذا الأطلس

عرفت الأستاذ **الدكتور حسين مؤنس** منذ زمن طويل ، عرفته كاتباً وعالماً مؤرخاً ينفق وقته فى طلب العلم وخدمة التاريخ . وقد تعاون معنا فى **دار الزهراء للإعلام العربى** مشيراً بالرأى ودارساً لما نعرضه عليه من كتب التاريخ . ثم جاء الوقت الذى حدثنى فيه عن أكبر همومه وهو « **أطلس تاريخ الإسلام** » الذى كان يعمل على إنجازه وخذله فيه الناشرون ، الذين يفكرون فى الكسب السريع دون النظر إلى رسالة نراها على عاتق الناشر لخدمة الإسلام والمسلمين .

وتحمست للمشروع وبادرت من فورى بالموافقة على نشره وأنا سعيد ، مع إدراكى تماماً لضخامة العمل ومايحتاج إليه من جهد بالغ ، ومعقد ونفقة كبيرة ، ووقت قد يتعدى السنوات التى انقضت فى إنجازه إلى سنوات أخرى .

ومع إدراكى هذا منذ أول وهلة فإن الانغماس فى قطع الأشواط مع هذا الهدف العظيم أثبت لى أن صعوبة إنجازه على الوجه الذى نبغيه أكبر مما قدرت وظننت وتخيلت . فهذا عمل مضن حقاً يتطلب وقتاً بلا حدود ، وصبراً لاينفد ، لكى نتوخى الدقة والإتقان البالغين . وكتب التاريخ عندنا تذكر الكثير من الأحداث والوقائع والمعلومات ولكنها نادراً ماتدقق ، وقد أشار إلى ذلك عالم مسلم ذائع الصيت هو **أبو الريحان البيرونى فى كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية »** ، وقد تأكدت من صحة ذلك وأنا أتتبع خط التطور فى إنجاز هذا الأطلس ، وقد تبينت أنه إذا تم وضع أطلس دقيق شامل للتاريخ الإسلامى فإننا نضع بذلك تاريخاً جديداً مطوراً لأمة الإسلام ، لأن قلة الضبط التى لاتتبين فى النصوص المرسلة تتضح فى الخرائط التى تحتم على واضعها دقة فى تحديد المواقع وربط الحوادث وتحقيق الحدود .

وهكذا كان لابد من إنشاء قسم خاص فى **الزهراء للإعلام العربى** لأطلس تاريخ الإسلام يتناسب مع خطورة المشروع وضخامته ، حشدنا فيه جمعاً من أساتذة الجامعات ومن المختصين والمؤرخين والفنانين والفنيين والماهرين فى رسم الخرائط ، ومن المراجعين للعمل مع المؤلف ومساعدته فى استكمال مسيرة إنجاز هذا الأطلس ، واستطعنا بفضل هذا الفريق المتميز أن نتجاوز عقبات تسبب فيها الخرائطى الإيطالى ، الذى ابتدأنا العمل معه فى أول الأمر ، ثم انفرد بالعمل فريق كبير من الاختصاصيين الفنيين كونته الشركة تحت إشراف المؤلف ، وكان على رأس هذا الفريق الأخ **الأستاذ فتحى صوابى** والأخ **المهندس محمود حلمى** اللذان تدين لهما بالكثير - بعد المؤلف - فى خروج هذا الأطلس على هذه الصورة التى بين أيديها بعد سنوات مضنية من العمل الدءوب المتواصل ليلاً ونهاراً ، حيث تمت مراجعة الأطلس وتصويبه وتنسيقه فصلاً بعد فصل وخريطة بعد خريطة وهو بين أعين ثاقبة لحشد العلماء ، ولاننسى أن نذكر من بينهم الأخ الأستاذ المؤرخ العلامة **أحمد عادل كمال** الذى كان له الفضل الكبير فى مراجعة وتدقيق مايتعلق بالفتوحات الإسلامية ، وهو صاحب الباع الطويل فى هذا الحقل .

ودار **الزهراء للإعلام العربى** يسرها ويملؤها بالفخر - وهى تقدم **أطلس تاريخ الإسلام** للقارئين والباحثين - أن تشعر أنها إنما تقدم تاريخاً دقيقاً لدول الإسلام جميعاً من منظور يربط الحوادث ويفسرها ، وهو فى أحيان كثيرة تفسير جديد غير ماعرفه القراء وألفوه من قبل ، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل فى ميزان الحسنات يوم القيامة .

لقد صرفنا فى هذا العمل سنوات خمساً صعبة وعسيرة تهدد المشروع فيها بالتوقف مرات ومرات ، ولكننا تجاوزنا العنت بحول الله وقوته وأمكننا فى النهاية بحمد الله وتوفيقه أن نملأ فى المكتبة العربية فراغاً كان واجباً علينا ملؤه ، فنسجد شكراً لله سبحانه وتعالى الذى بنعمته تتم الصالحات .

وآخر دعوانا ﴿ أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

أحمد رائف

مقدمة المؤلف

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، الرحمة المهداة . .

منذ بدأت عملى فى كلية الآداب فى جامعة القاهرة ساورتنى فكرة عمل أطلس للتاريخ الإسلامى على مثال ماكنت أرى من الأطالس التاريخية التى يصدرونها فى بلاد الغرب . وقويت الفكرة فى نفسى عندما تأملت المحاولات الخرائطية الناجحة التى قام بها بعض المستشرقين من أمثال **جى ليسترينج** فى كتابه المعروف « **أراضى الخلافة الإسلامية الشرقية** » .

وعندما خاطبنى أحد الناشرين فى شأن عمل أطلس للتاريخ الإسلامى نشطت الفكرة فى نفسى وتحركت همتى ، لأننى ماكنت لأقدم على عمل أطلس شامل للتاريخ الإسلامى إلا إذا كان معى ناشر مستعد للنشر وتحمل تكاليفه . وبدأت من أواخر **١٩٧٢** فى العمل ، فذهبت إلى لندن وباريس وهامبورج ، واتصلت بمؤلفى الأطالس وناشريها ، وأفدت أفكاراً نافعة وعملية عن طريقة إنشاء الأطالس التاريخية على أساس علمى سليم .

ومن ذلك الحين إلى أن ظهر الأطلس على الصورة التى تراه عليها وأنا فى عمل متصل لإنجاز هذا الأطلس مابين قراءة وتفكير ورسم خطط وتقسيم إلى فصول ، وعمل تصورات لخرائط الفصول ، وبحث عن الحركة التاريخية ، ومحاولة رسمها فى خرائط كروكية . لأن الأطالس التاريخية تصور الحركة التاريخية بين حركات الأجناس والفتوح والدول ، وخطوط سير الجيوش ، وتفاصيل المواقع العسكرية ، وطرق التجارة أو الحج بالبر والبحر وما إلى ذلك ، وكل فصول هذا الأطلس وخرائطه أعيد عملها المرة بعد الأخرى . والصورة التى تراها عليها الآن هى ثمرة جهد لايصدق فى التفكير والتصور والقراءة والرسم والعمل وإعادة العمل .

وعندما تفضل الأخ الكريم **أحمد رائف** صاحب **دار الزهراء للإعلام العربى** بالموافقة على أن تتولى داره نشر الأطلس تضاعف الجهد والعمل ، وبخاصة وأن الدار قد حشدت معى خبراءها ومتخصصيها الذين كان لهم جهد كبير فى إتمام العمل على هذا النحو ، كما حشدت الدار العديد من المراجعين والرسامين والخطاطين والمصممين الفنيين والمصورين وحشداً كبيراً من الإداريين ، وبدون ذلك كله لاأعتقد أن هذا العمل المجيد كان يمكن أن يخرج على هذا النحو من الإتقان والجودة .

وفيما بين **١٩٨٢** و **١٩٨٦** أعدت عمل الأطلس كله مرة أخرى بتشجيعه وحماسته وإخلاصه وسخائه فى النفقة ، هذا إلى علمه الغزير الذى نفعنى به فى المراجعة والتصويب ، ومهما أقل فإن الكلام لايفى — ولو بقدر يسير — حق الأخ الكريم **أحمد رائف** فى الشكر والتقدير .

ورغم صعوبات العمل التى اعترضتنى واعترضت **دار الزهراء** فإننى لم أشُكَّ قط — فى بعض الفترات العسيرة التى مرت بى — فى أن الأطلس سيخرج إلى النور يوماً ما ، فلا شىء فى ميدان العلم يعز على الإنسان مادام قد جعل اعتماده وثقته فى الله سبحانه ، وقصد إلى خدمة الناس ، وأجمع الإرادة على تقديم عمل جيد ينفع العلم والناس . وأمتنا الإسلامية — والحمد لله — أمة علم وتأليف ، وأصحاب الأعمال العلمية الباهرة ذات المجلدات الكثيرة فى تاريخنا الفكرى كثيرون ، وأنا هنا فى ميدان التاريخ أقف فى نفس الخط الذى يقف فى بدايته **أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى** شيخ مؤرخى العرب ، وبالأمس القريب وضع القلم المرحوم عميد مؤرخينا المحدثين **عبد الرحمن الرافعى** بعد أن فرغ من تاريخ الحركة القومية المصرية بمجلداته الكثيرة ، و **عبد الرحمن الرافعى** يقف فى نهاية خط باهر من مؤرخى مصر ، فقبله كان **عبد الرحمن الجبرتى** و **محمد بن إياس الحنفى** ، و **جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى** ، و **جمال الدين بن واصل** ، و **تقى الدين**

المقريزى ومن فى طبقتهم ، فأنا فيما فعلت مواصل لتقليد علمى عربى مصرى ، وواحد من خدم العلم من العرب الذين يرضون أقدار أنفسهم وأمتهم بخدمة الإسلام وأهله .

ولايعرف مدى الجهد الذى بُذل فى عمل هذا الأطلس إلا من يعرف مراجعنا العربية وطبيعتها ، فهى كثيرةٌ جداً ، وبعضها وافٍ بالحوادث ، ولكنها جميعاً تنقصها الدقة ، فأنت تقرأ فيها – مثلاً – أن مدينة فيد فى منتصف الطريق من مكة إلى البصرة ، ولكن أين هذا المنتصف وأين تضع فيداً ؟ وذات عرق وقرن منازل إلى شمال طريق العراق من مكة ، ولكن أين هذه وأين تلك ؟ والكلام المطلق لايتطلب التحديد ولكن الخرائط تتطلبه ، فأنت لابد أن تضع كل مدينة فى موضعها بالضبط ، ومن هنا فأنت تضع البلدة كما يتراءى لك ثم تقرأ الأصول فترى أن الوضع الذى اخترته لايستقيم . فتعود وتبدل . ويتكرر هذا مرات ، وهذا كله عمل وجهد ، ولم أجد من يصبر معى على مصاعب هذا العمل إلا حينما تولت **دار الزهراء** نشر الأطلس ، فوجدت من صاحبها الأخ **أحمد والف** خير معين ، فهو أستاذ مؤرخ ، ثم إنه وضع معى جماعة من الشباب العامل أسهمت فى المراجعة والتصويب فيسر العمل ، ولاأريد أن أطيل الحديث عن جهدى خشية مظنة الامتنان ، وأنا أبعد ماأكون عن ذلك ، ولكنى أحببت – فحسب – أن أشرك القارىء فى متاعبى ستة عشر عاماً أنفقتها – عن طيب خاطر – فى خدمة العلم الإسلامى ، وانتهت إلى إخراج عمل بالغ الإتقان وافٍ بالموضوع رفيع المستوى .

ولكنى بعد أن تم هذا العمل المجيد وجدت نفسى – فعلاً – أمام صورة لتاريخ أمم الإسلام جديدة ، فإن الخرائط توضح وتبين ، ولكنها كذلك تعرض التاريخ فى صورة جديدة وبمفهوم جديد ، وقد اقتضى الأمر وضع خطة لعمل ذلك التاريخ المصور وتقسيمه إلى فصول ، كل فصل خاص بناحية من نواحى عالم الإسلام ، وفى كل فصل مجموعة من الخرائط تمثل تطور هذا التاريخ ومراحله أو عصوره . وهذه الخطة وضعت على أساس المعلومات المستخرجة من الأصول والمراجع التاريخية التى قرئت مرة بعد أخرى ، ثم العودة إلى الصياغة ورسم الخرائط بعد كل قراءة ، وهكذا حتى انتهينا إلى الصورة التى تراها ، وهى – سواء فى النص أو الخرائط – تاريخ جديد لعالم الإسلام وأممه ودوله إلى سنة **١٩٨٥** وهى أداة علمية أرجو أن ينفع الله بها الناس .

وقد تفضل الأخ الأستاذ المؤرخ **أحمد عادل كمال** بمراجعة جانب كبير من خرائط الفصول الأولى ونصوصها ، وأشار بتعديلات كثيرة أَدْخَلْتُ ماكان يجب إدخاله على النص والخرائط منها ، وشكرت له الجهد الكبير الذى بذله واليد الطولى التى أسداها إلَىَّ ، جزاه الله عنى كل خير .

وفى صفحة قائمة بذاتها عبَّرت عن شكرى لكل من تفضل بمعاونتى فى عمل هذا الأطلس من الزملاء والطلاب المخلصين . فلم يبق لى الآن إلا أن أكرر الشكر إلى **السيدة الكريمة حرمى** ، صاحبة الفضل علىّ فى كل ماألفت أو عملت ، وماأكثر ماأعانت وصبرت وأنا منصرف إلى هذا العمل المجهد لنا معاً .

والحمد لله حمد الشاكر بلا حدود ، فقد أعاننى على إنجاز هذا العمل ونور البصر قليل ، والسن متقدمة ، ولولا العون السابغ منه – جل وعلا – لما تيسر لى أن أخط حرفاً فى هذا الأطلس أو غيره مما ألفت . وهو جلّ ثناؤه من وراء القصد والنية ، وهو صاحب كل نعمة وعطية .

خادم العلم
د. حسين مؤنس

القاهرة فى ذو القعدة ١٤٠٦ هـ
يوليو ١٩٨٦ م

الفهرس

الفصل الأول

مدخل فى علم الخرائط عند المسلمين

الفصل الثانى

مراحل انتشار الإسلام فى العالم حتى اليوم

الفصل الثالث

جداول تاريخية مقارنة لأهم أحداث التاريخ الإسلامى وتعاصر الدول الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى آخر القرن الرابع عشر الهجرى

الفصل الرابع

العالم قبل الإسلام

الفصل الخامس

السيرة النبوية والعصر النبوى

شجرات الأنساب

الفصل السادس

الفتوحات الإسلامية

الفصل السابع

الدولتان الأموية والعباسية

الفصل الثامن

المغرب والأندلس

الفصل التاسع

شبه الجزيرة العربية

الفصل العاشر

الجناح الشرقى لدولة الإسلام « إيران »

الفصل الحادى عشر

الهند الإسلامية

الفصل الثانى عشر

الحروب الصليبية

الفصل الثالث عشر

المسلمون فى البحر المتوسط

الفصل الرابع عشر

مصر والشام

الفصل الخامس عشر
مصر

الفصل السادس عشر
مصر والسودان

الفصل السابع عشر
الدولة العثمانية

الفصل الثامن عشر
الإسلام يوسع عالمه

الفصل التاسع عشر
الاقتصاد وطرق المواصلات والحج

الفصل العشرون
عالم الإسلام فى العصور الحديثة

الفهرست

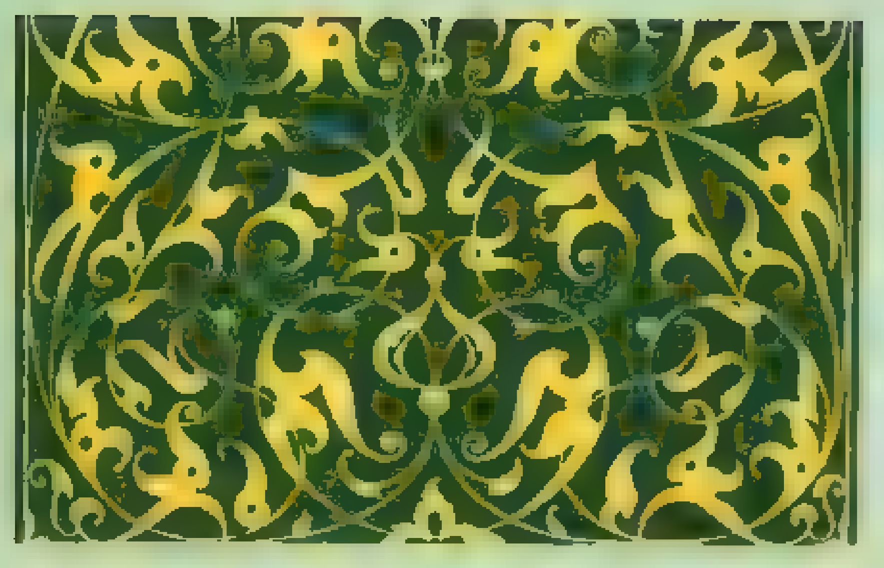

الفصل الأول

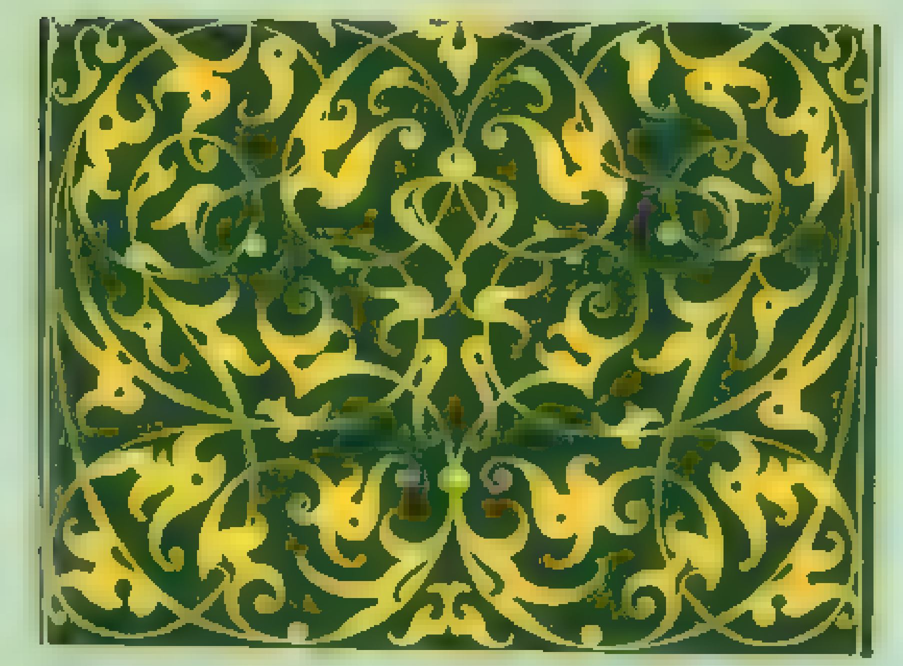

مدخل في علم الخرائط عند المسلمين

بيان الخرائط

صُورَة الجزيرة

للبلخي (المتوفى سنة ٣٢٢هـ-٩٣٤م)

الخريطة رقم ٣٤

عن ميلر، الخرائط العربية، جزء ٣ لوحة ١٣

خريطة ١

صُورَة ثانية للعالم

للأصطخري (المتوفى سنة ٣٤٦هـ-٩٥٧م)

خريطة ٢

صُورَة ديار العَرَب

للبلخي (المتوفى سنة ٣٢٢هـ - ٩٣٤م)

الخريطة رقم ٣٣
عن مجلدة الخرائط العربية، جزء ٣
لوحة رقم ١٩ - ٣

خريطة ٣

صُورَة العِرَاق

للبلخي (المتوفى سنة ٣٢٢هـ - ٩٣٤م)

الخريطة رقم ٣٢ عن مجلدة الخرائط العربية، جزء ٣ لوحة ١٦ - ١

خريطة ٤

صورة ديار العرب
للمقدسي حوالي سنة ٣٧٥هـ-٩٨٥م
خريطة ٥
الشمال
المشرق
المغرب
بادية العرب
مكة
الأحقاف
الكوفة
القادسية
بغداد
مدينة السلام
المدائن
دير العاقول
جرجرايا
النعمانية
جبل
فم الصلح
واسط
الصليق
بوادي فيها عرب
خوزستان
صورة العراق
للمقدسي حوالي سنة ٣٧٥ هـ-٩٨٥م
جزء ٣ لوحة ١٨أ
خريطة ٦

حوض النيل عند الإدريسي

خريطة ١١

خريطة العالم للإدريسي

خريطة ١٢

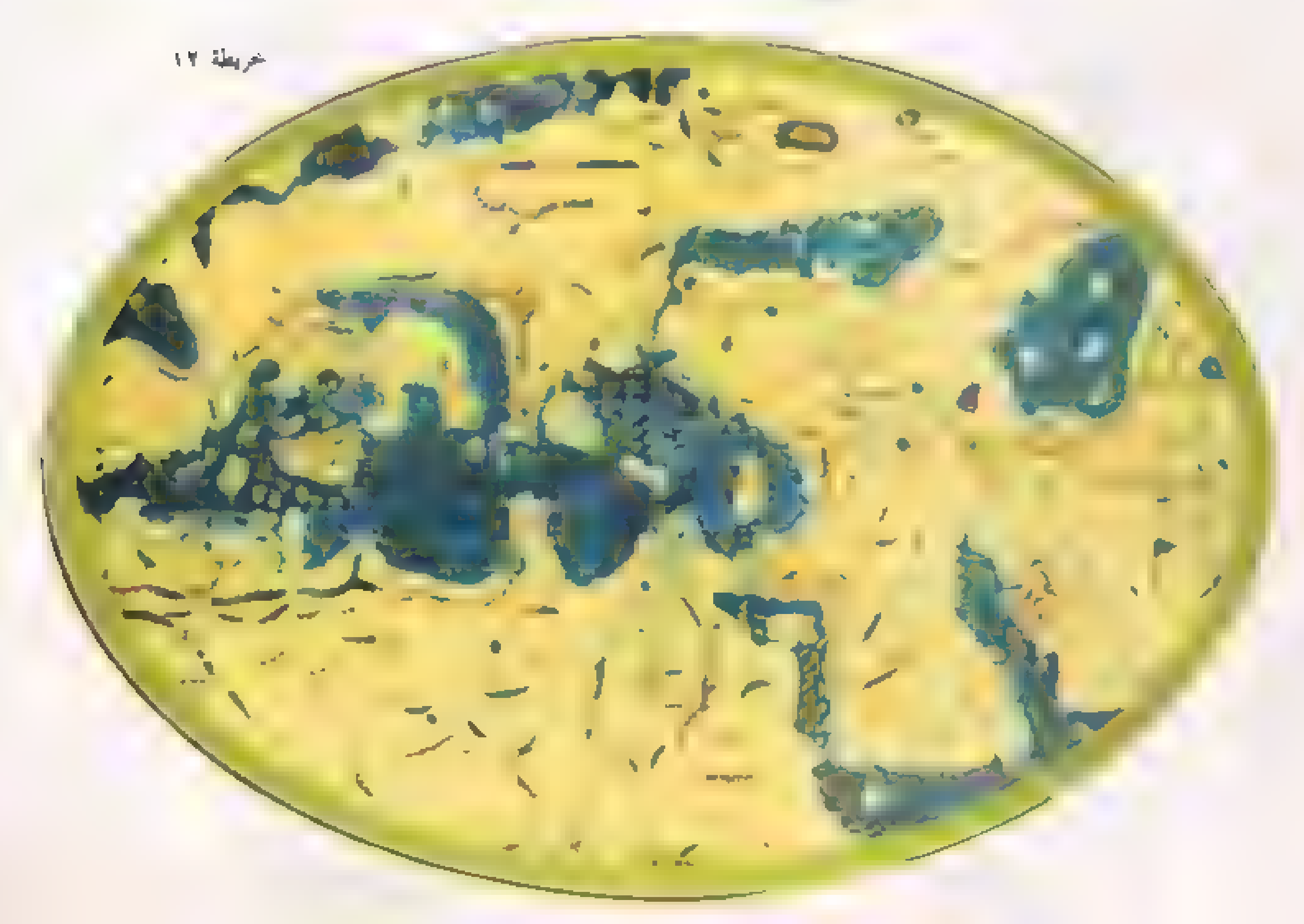

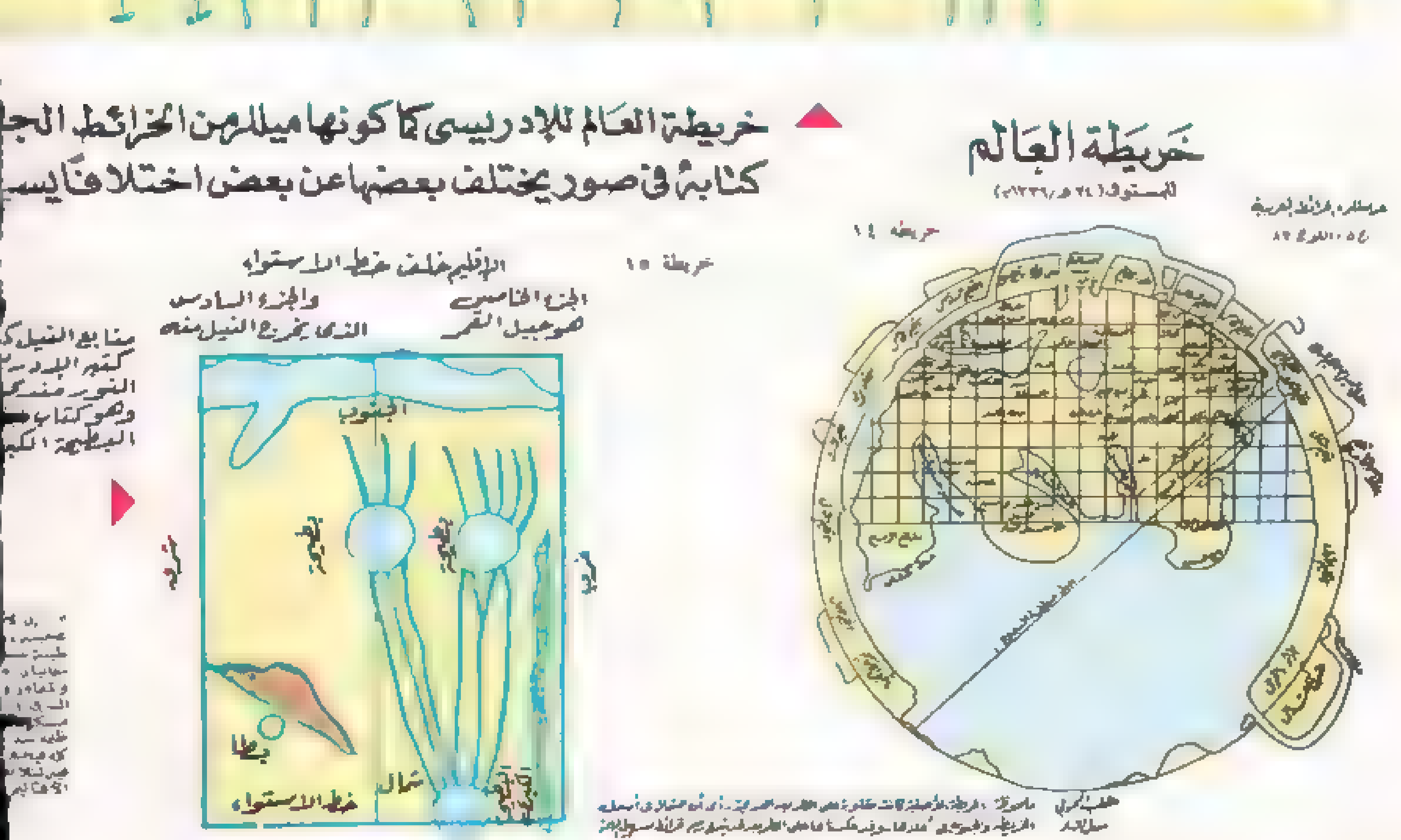

خريطة العالم للإدريسي كما كونها ميللر من الخرائط الجـ
كتابه في صور يختلف بعضها عن بعض اختلافاً يسـ

خريطة ١٣

...ية التي عملها الإدريسي ووجدت في مخطوطات
...وقد جمعها ونشرها ميللر في كتاب الخرائط العربية

خريطة ١٦

...وجد في مختصر كتاب نزهة المشتاق للإدريسي وقد ... بنفسه وقدمه للملك غليالم (أي جيوم) الثاني وليام ... الذي خلف رجار الثاني. واسم الكتاب أنس المهج وروض الفرج ... أو ينشر بعد. والبطيحة معناها البحيرة. والمفروض أنه ... هنا تقابل بحيرة فكتوريا.

خريطة العالم
للقزويني (٦٠٠-٦٨٢هـ)-(١٢٠٣-١٢٨٣م)

مقتطفات من كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد)

[illegible]

صورة الأرض
للصفاقسي ٩٥٨هـ - ١٥٥١م

خريطة ١٧

صورة الأرض
للشريف الإدريسي المتوفى ٥٦٠هـ - ١١٦٤م

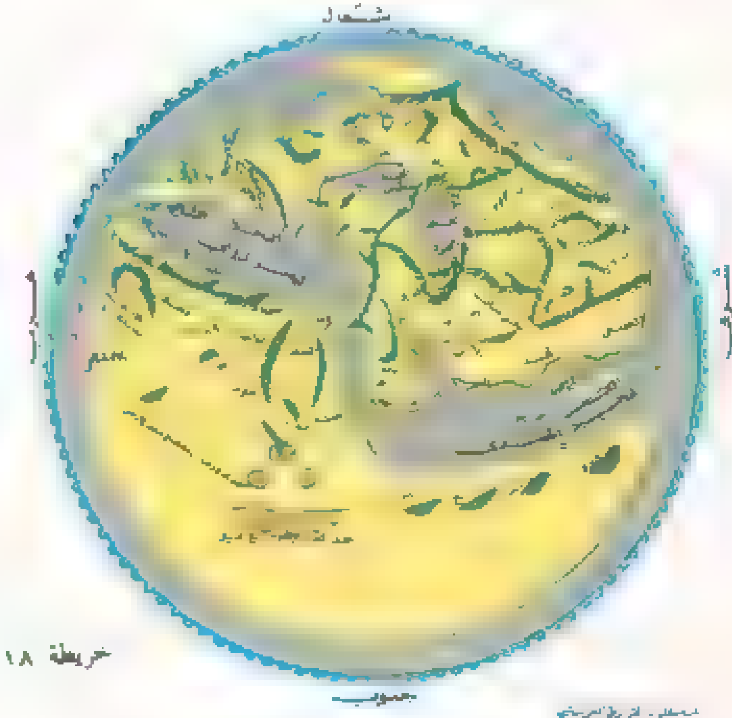

خريطة ١٨

صورة الأرض
لجغرافي مجهول من جغرافيي العرب

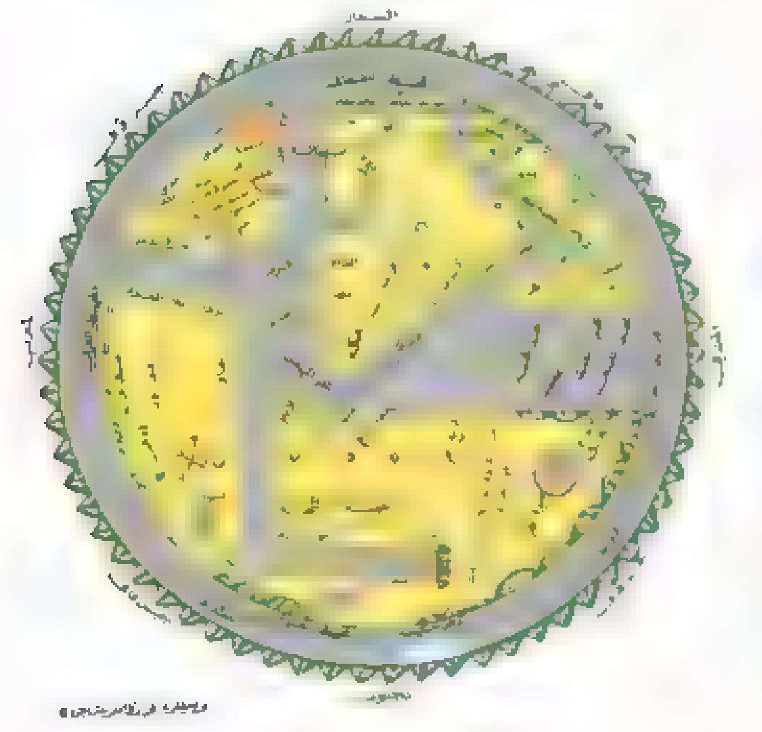

خريطة ١٩

صورة البلاد الإسلامية
بالنسبة إلى مكة المكرمة
للمصنف قسنى ٩٥٨ هـ - ١٥٥١م

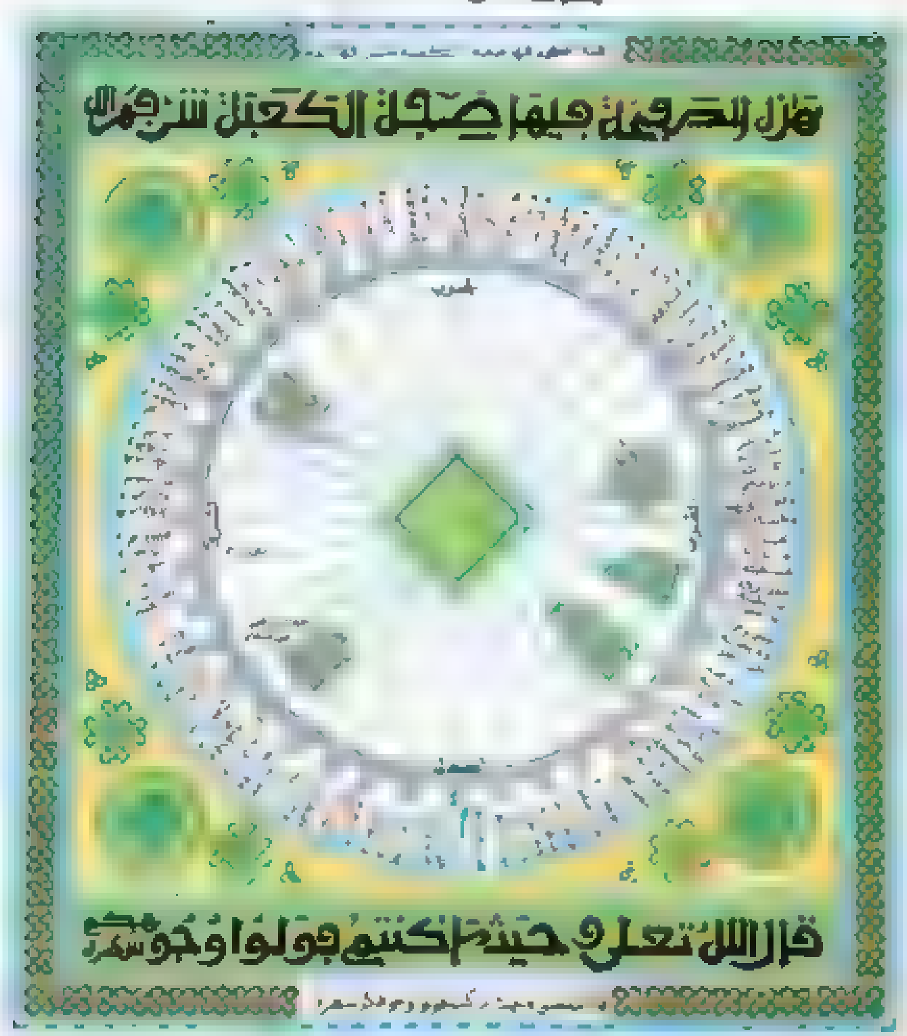

خريطة ٢٠

خريطة الكرة الأرضية

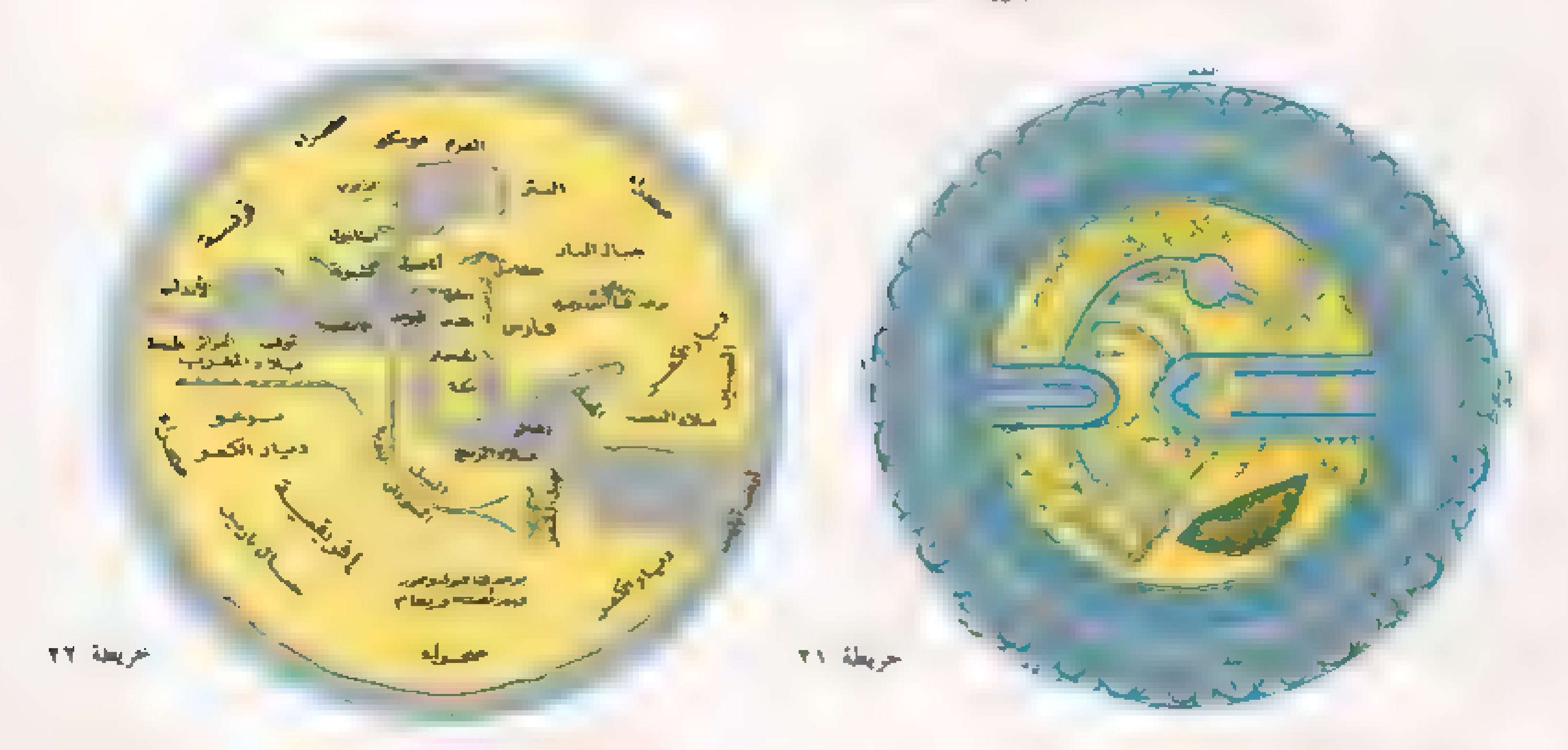

خريطة ٢٢

خريطة ٢١

صورة الأرض - المرسومة على الشرفي الصفاقسي سنة ١٠٠٩ هـ (١٦٠٠-١٦٠١م) كما هي على هيئة خريطة على قطعة واحدة من جلد محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس. عن ... الخرائط العربية.

كما جاء في كتاب «التفهيم لأوائل صناعة

خريطة تو

تقسيم الأقاليم السبعة كما رسمها البيروني

خريطة ٢٣

خريطة ٢٥

...يع البحار للبيروني

خريطة ٢٦

تقسيم الكشوارات السبعة كما وردت في معجم ياقوت

مدخل في علم الخرائط عند المسلمين

التاريخ والجغرافية عند العرب .

لم يؤثر عن العرب التفكير في رسم خرائط تاريخية – قبل الإسلام – لكنهم رغم هذا قد خطوا بعد الإسلام خطوات واسعة في فن الخرائط الجغرافية فوجدنا أنه من المناسب أن نقدم بين يدى هذا الأطلس التاريخى الإسلامى بمدخل عن علم الخرائط الجغرافية عند العرب ، تقديراً لفضلهم في علم الخرائط عامة ، واعترافاً منا بأننا بهذا الأطلس التاريخى إنما نجرى على أعراف من سبقنا من أهل العلم ، ومن المعروف أن علمى التاريخ والجغرافية كانا عند أسلافنا العرب صنوين لايفترقان ، وفرعين توءمين لشجرة واحدة في بستان العلم الرحيب ، ومازال الأمر كذلك إلى يومنا هذا ، فلا يتمكن المؤرخ من فنه إلا إذا كان له علم متين بالجغرافية ، ولايصلح الجغرافى إلا إذا كانت لديه قاعدة سليمة من العلم بالتاريخ ، لأن الجغرافية هى علم المكان و التاريخ هو علم الزمان ، والزمان والمكان هما بعدا الوجود البشرى كله ، والبعد الثالث هو الإنسان نفسه وهو موضوع التاريخ والجغرافية جميعاً .

الجغرافية بين العرب والإغريق

الشائع بين الناس أن العرب أخذوا فن الخرائط عن الإغريق ، وأن خرائطهم قامت على أساس خرائط بطليموس الإسكندرى الذى ولد في أسيوط من بلاد مصر وتوفى في القرن المسيحى الثانى ، وليس أبعد عن الحقيقة من هذا الزعم ، فإن الخرائط العربية الأصيلة هى خرائط البلدانيين والمسالكيين ممن قام علمهم الجغرافى على الرحلة والمشاهدة المباشرة ، وماأخذه العرب عن الإغريق من علم الخرائط هو الخرائط الفلكية التى هى فرع من علم الفلك القديم ، وهو علم وهمى كله ، يقوم على تقسيم الأرض – ونصف الكرة الشمالى بوجه خاص – إلى سبعة أقاليم أفقية وهمية وأخرى طولية وهمية أيضاً ، ثم الربط بين هذه الخطوط وأبراج قبة السماء ، ومحاولة توضيح الأعلام الجغرافية على ماتصوروا أنه يقابلها من الأبراج والأفلاك ، ولم يتبع هذا المذهب من الجغرافيين والخراطيين المسلمين إلا الخوارزمى والبتانى ثم الإدريسى ، فأما مارسم الأول والثانى منها فلا قيمة له من الناحية الخراطية ، وأما الإدريسى فقد لجأ إلى هذا التقسيم لمجرد تسهيل قراءة خرائطه ، والاستفادة من المربعات التى تنتج عن تقاطع خطوط الطول والعرض في كتابه المفصل للخريطة التى رسمها في الكتاب المطول الذى سماه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وهو كتاب جغرافية كتب على مذهب المسالكيين المسلمين ، وهذا هو السر في أهمية ذلك الكتاب ، فهو في تصورنا اليوم كتاب جغرافية طبيعية بشرية وليس لبطليموس فيه إلا الأثر القليل الذى تحدثنا عنه

خريطة الأرض ليست لبطليموس .

وقد أثبتنا في كتابنا عن الجغرافية والجغرافيين في الأندلس أن خريطة الأرض المنسوبة إلى بطليموس ليست له ، لأن نص جغرافية بطليموس الذى ترجمه من اليونانية إلى اللاتينية يعقوب إنجليوس دى سقارباريا Jacobus Angelus de Scarperia سنة ١٤٠٦ م لم يضم أى خرائط ، وقد نشر هذا النص اللاتينى المجهول الأصل في مدينة فيشنزا Vicenza في إيطاليا بعد الترجمة بخمسة وستين عاماً أى سنة ١٤٧٥ م دون خرائط ، لأن الخرائط فيما يقال كانت الجزء الثامن الذى لم يعثر عليه إلا سنة ١٥٣٣ م ، وقد عثر عليه في مدينة بازل بسويسرا ، وعرفنا منه أن العنوان الحقيقى لجغرافية بطليموس هو « المرشد إلى صورة الأرض » Geographike Huphegesis وقد قام على ترجمة هذا النص اليونانى إلى اللاتينية « أرازموس » الهولندى وأتم هذه الترجمة دون خرائط ولكنها لم تنشر إلا بعد ذلك بسنوات طويلة ، وهنا وفى تلك النسخة المنشورة لترجمة « أرازموس » نجد الخرائط ، مكأن الناشرين أرادوا أن ينشروا نص جغرافية « بطليموس » كاملاً فأضافوا من عندهم الخرائط ، معتمدين في رسمها على كلام بطليموس من ناحية وعلى الخرائط البورتلانية[1] من ناحية أخرى ، وهذا الطراز من الخرائط الذى ابتكره الملاحون الإيطاليون والقطلونيون يتميز بدقة لم يعرفها بطليموس ولاأحد غيره من القدماء ، ومن أدلة ذلك أن بيترو دل ماساجو Pietro del Massajo الفلورنسى الذى تنسب إليه معظم الخرائط البطلمية المتداولة قال : إنه أعاد تكوين جغرافية بطليموس ورسم خرائطها بيده سنة ١٤٥٨ م ، وهو في مقدمته يقول : إنه نشر في كتابه ٢٧ خريطة بطلمية ، وأضاف من عنده خرائط لأقاليم أخرى جديدة وغير ذلك،ونص كلامه : –

Cum Additione Provineciarum Noviter Repertarum et Aliis Nonulla .

وكذلك خريطة إيطاليا التى أضافها الراهب « باولينو » إلى خرائط بطليموس ونسبها إليه ، وقد اعتمد في رسمها على خريطة أخرى لإيطاليا رسمها بيترو فاسكونتى Pietro Vasconti ومثل ذلك يقال عن أحسن مخطوطات جغرافية بطليموس وخرائطها ، وهى التى صنعها دومينيكوس نيكولاوس جرمانوس Dominicus Nicolaus Germanus في النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد كتب هذا الرجل بيده ١٢ نسخة من جغرافية بطليموس ورسم خرائطها بيده ، وقال إنه أدخل تحسينات وتعديلات على النص ، وأعاد رسم خرائطه في حجم أصغر وأيسر تداولاً ، بل إنه يقرر أنه رسم تلك الخرائط التى نسبها إلى بطليموس على أساس مسقط ابتكره ، وصحح خطوط الرسم ، وأضاف خرائط جديدة ، وعلى أساس إحدى مخطوطات دومينيكوس نيكولاوس جرمانوس هذا طبعت تلك الجغرافية البطلمية الزائفة وخرائطها في بولونيا بإيطاليا سنة ١٤٧٧ م ، وأعيد طبعها في روما سنة ١٤٧٨ م ، وهاتان الطبعتان هما الأصل الذى ينقل عنه الناس الخرائط المنسوبة إلى بطليموس[2] .

أصالة خرائط المسلمين .

وإنما أطلنا الوقوف عند الخرائط البطلمية لنصحح خطأً شائعاً ، ولنقرر أن خريطة الشريف الإدريسى الذائعة بين أيدى الناس هى أول خريطة كاملة للأرض عملها إنسان ، وقد نشرناها ضمن خرائط هذا المدخل ونضيف إلى الرسم تعليقاً وافياً ، وسنتحدث عنها في موضعها .

وبعد أن وضحنا هذه الحقيقة القصيرة التى أثبتنا فيها أصالة علم الخرائط العربية نوجز الكلام في تاريخ هذا العلم العربى مستعينين في ذلك بالنماذج التى اخترناها لتصوير تطور علم الخرائط عند المسلمين

وكل كتب الجغرافية العربية اعتمدت أساساً على خرائط ، والكثيرون منهم كانوا يبدءون برسم الخريطة ثم يؤلفون كتاباً في شرحها وتوضيح المواضع عليها ، وهذا هو ماذكرته مجموعة البلدانيين في كتبهم الجغرافية ، بل إن واحداً منهم وهو أبو القاسم بن حوقل سمى كتابه « صورة الأرض » أى أن الخريطة هى الأساس ، والكتاب شرح وتعليق .

سهراب وعلم الجغرافية .

وقد وصف سهراب في كتاب « عجائب الأقاليم السبعة » طريقة رسم الخرائط ، وسهراب نفسه جغرافى مسلم فارسى لانعلم عن حياته إلا القليل ، وهو من أهل القرن

---

(١) الخرائط البورتلانية ــ معناها خرائط الموانى ــ وهى نوع من الخرائط ابتكره الملاحون الإيطاليون والقطلونيون الإسبان وهى خرائط اشتهرت بالدقة وستجدها كثيرة بين أيدينا

(٢) انظر كتابنا تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، الطبعة الأولى ، مدريد (١٩٦٧ م) ص (٢٣٣ – ٢٣٥) .

الرابع الهجرى ومعاصر للبلخى طليعة المسالكيين المسلمين ، وهو يسمى نفسه فى كتابه السابق بـ « أفقر الورى سهراب » ، وخلط الكثيرون بينه وبين ابن سرابيون الطبيب المعروف ، وسماه بعضهم أبا الحسن الحسن بن البهلول المعروف بسهراب ، وقد اعتنى بمخطوطة كتابه ودرسها فيليكس جونز Felix Johnes ولكن الذى نشر النص هو هانز فون مزيك Hans Von Mzic وقد طبعه فى فيينا سنة ١٩٢٩ م ، وفون مزيك هو الذى نشر كتاب « صورة الأرض » للخوارزمى ، وهذا الكتاب مختصر جاف لكتاب « المرشد إلى صورة الأرض » الذى ذكرناه لبطليموس ، والكتابان متطابقان إلى حد يسمح لنا بأن نقول : إن سهراب نقل كتاب الخوارزمى بعد إضافة بعض الزيادات الطفيفة مثل كلامه عن أنهار العراق .

وقد ترجم نص كتاب صورة الأرض لسهراب جى ليسترنج Guy Lestrange البحاثة الإنجليزى فى علم الجغرافية العربية،وهو مؤلف كتاب « فلسطين فى العصور الإسلامية » Palestine under the Moslims بالإضافة إلى كتابه الأشهر الذى يعتبر من أساسيات الكتب فى وصف الجناح الشرقى لدولة الإسلام Lands Of The Eastern Caliphate .

وقد شرح سهراب فى أول كتابه « صورة الأرض » كيفية رسم الخرائط ، بادئاً بشرح طريقة رسم خطوط الطول والعرض على طريقة بطليموس ، لأن سهراب نقل عن الخوارزمى – والخوارزمى يمثل مدرسة الجغرافيين المسلمين المتأثرين ببطليموس – وقد قرر جورج سارتون George Sarton العالم الأمريكى صاحب كتاب « المدخل إلى تاريخ العلم » أن الخوارزمى من أعاظم الجغرافيين فى التاريخ ، وقال : إنه أدق من بطليموس ، وفى ترجمته لكتاب بطليموس تصحيحات وتعديلات تدل على أنه يفوق بطليموس بكثير فى الملكة العلمية والوصف الجغرافى ، وبعد أن شرح الخوارزمى طريقة رسم خطوط الطول والعرض بين طريقة توقيع أسماء الأعلام الجغرافية على الرسم بحسب التقسيم إلى الأقاليم السبعة ، وختم كلامه قائلاً : « واعمل جميع ذلك على ماقد بينت لك ، واستخرج الطول والعرض من جدول الأرض ، وقد رسمت لك ذلك ، واحذر الزلل ، والله يوفقك إن شاء الله تعالى » .

الجغرافيون العرب والأرقام الهندسية .

وجدير بالذكر أن علماء مدرسة الجغرافيين المسلمين المتأثرة بالجغرافيين اليونان والرومان من أمثال « سترابو » يكتبون الأرقام فى خرائطهم ونصوصهم بالحروف ، لأن أشكال الأرقام العربية لم تكن قد تحددت بعد ، ومن المعروف أن أشكال الأرقام التى تطورت على أيدى العرب هى التى نقلها أهل الغرب وعرفت عندنا بالأرقام الإفرنجية ، أما أشكال الأرقام الشائعة الاستعمال اليوم فى العالم العربى كله – عدا المغرب – فهى صور الأرقام التى نقلها العرب عن الهندية وطوروها إلى أشكالها الحالية ؛ ولذلك تسمى بالأرقام الهندية .

أما القيم الرقمية للحروف كما نجدها عند الخوارزمى وسهراب فهى كما يلى ، نوردها كما استخرجها وبينها هانز فون مزيك :

أ = ١	ح = ٨	س = ٦٠	ت = ٤٠٠
ب = ٢	ط = ٩	ع = ٧٠	ث = ٥٠٠
ج = ٣	ى = ١٠	ف = ٨٠	خ = ٦٠٠
د = ٤	ك = ٢٠	ص = ٩٠	د = ٧٠٠
هـ = ٥	ل = ٣٠	ق = ١٠٠	ظ = ٨٠٠
و = ٦	م = ٤٠	ر = ٢٠٠	ص = ٩٠٠
ز = ٧	ن = ٥٠	ش = ٣٠٠	ع = ١٠٠٠

وهذه القيم الرقمية للحروف تختلف عن قيمها الرقمية فى الحساب المشهور بحساب الجُمّل المعروف فى الشعر وفى حساب التواريخ .

ومن حسن الحظ أن مكتبة المثنى فى بغداد عندما أعادت طبع كتاب الخوارزمى كما نشر نصه هانز فون مزيك أعادت طبع المقدمة الألمانية التى فك فيها فون مزيك أسرار هذه القيم الرقمية للحروف فى الخرائط الجغرافية ، ولولا ذلك لما عرفنا كيف نقرأ أرقام الخرائط الواردة فى خرائط الخوارزمى وسهراب والبتانى .

أنواع الخرائط عند الجغرافيين المسلمين .

وقد عرف العرب والمسلمون أربعة أنواع من الخرائط الجغرافية .

النوع الأول .

خرائط توضيحية لاعلاقة لها بالرسوم الجغرافية ، فهى مجرد رسوم توضيحية لجأ إليها بعض الجغرافيين فى تقريب تصوراتهم إلى أذهان القراء ، فإذا قال المؤلف إن هيئة الأرض تشبه هيئة طائر ذيله فى الشرق وصدره فى العراق والشام ورأسه فى المغرب والأندلس رسم هيئة طائر أو طيلسان ومالى ذلك .

النوع الثانى .

متأثر بمذاهب اليونان فى الربط بين الفلك والجغرافية ورسم خطوط الطول والعرض بحسب المعلومات الفلكية الوهمية ، ومن أمثال ذلك خرائط الخوارزمى وسهراب والبتانى والبيرونى .

النوع الثالث .

هو الخرائط المعروفة بصور الأرض ، وهى التى وجدنا الكثير منها فى كتب المسالكيين والبلدانيين وهم أصحاب مدرسة الجغرافية الوصفية التى تقوم على الرحلات والمشاهدة الشخصية ، وهذه هى أصح الخرائط العربية وأعظمها قيمة من الناحية العلمية والعملية .

النوع الرابع .

خريطة الإدريسى،وقد رسمها على الطريقة التى شرحها فى مقدمة نزهة المشتاق ، وسنتكلم عنها فيما بعد .

الموسوعيون المسلمون والمدارس الجغرافية الأصيلة .

ومدرسة البلدانيين والمسالكيين هى مدرسة الجغرافيين والخرائطيين المسلمين الأصيلة ، وهى ابتكار عربى خالص بدأ على أيدى أوائل الموسوعيين العرب ، وهنا على بيان بأهم أعلام هذه المدرسة :-

هشام بن السائب الكلبى المؤرخ النسابة المشهور المتوفى سنة ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م وهو ابن محمد بن السائب الكلبى وله كتاب البلدان الكبير وكتاب البلدان الصغير ، ولم نعثر على أى منهما إلى الآن ، وكتبه كثيرة جداً ، انظر بشأنها كتاب الفهرست لابن النديم ، طبعة بيروت ص ١٤١ ومايليها .

الأصمعى أبو سعيد عبد الملك بن قريب اللغوى الموسوعى البصرى « ١٢٢ – ٢١٣ هـ / ٧٤٠ – ٨٢٨ م » .

اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب بن وهب بن واضح الكاتب العباسى « ت ٢٦٦ هـ / ٨٧٩ م » صاحب كتاب البلدان .

البلاذرى أحمد بن يحى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) وهو مؤرخ مشهور بكتابه أنساب الأشراف وهو صاحب كتاب فتوح البلدان .

الإصطخرى ، أبو القاسم محمد بن إبراهيم الكرخى،ولانعرف من تفاصيل حياته إلا القليل ، وهو من أهل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وقد طاف ببلاد الإسلام وجمع معلومات جغرافية دقيقة ووافية ، وهو رأس مدرسة البلدانيين والمسالكيين المسلمين ، وقد ألف كتابه المسالك والممالك فيما بين سنتى ٣١٨ – ٣٢١ هـ / ٩٣٠ – ٩٣٣ م وهو أول من رسم خريطة لعالم الإسلام على مذهب أهل الرحلة والمشاهدة الشخصية ، وكل المسالكيين المسلمين الذين جاءوا بعده تأثروا به ونقلوا من خرائطه ، حتى الإدريسى ، الذى اعتمد عليه اعتماداً أساسياً ونقل عنه فى مقدمة « نزهة المشتاق » فقرات طويلة ، وهو أول خرائطى مسلم رسم خرائط الأقاليم التى تكلم عنها دون أن يتأثر باليونانيين فى مذاهبهم الفلكية ، والربط بين خطوط الطول والعرض والمواقع والمواضع . والإصطخرى يقول فى مقدمته :-

« فأفردت لجميع الأرض التى يشتمل عليها البحر المحيط – الذى لايسلك – صورة إذا نظر إليها ناظر علم مكان كل إقليم من الأرض ، حتى إذا رأى كل إقليم مفصلاً علم موقعه من هذه الصورة ، ولم تسع هذه الصورة التى جمعت سائر الأقاليم لما يستحقه كل إقليم فى صورته من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث ، فاكتفيت ببيان موقع كل إقليم ليعرَف مكَانه ، ثم أفردت لكل إقليم من أقاليم الإسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الإقليم ومايقع فيه من المدن وسائر مايحتاج إليه علمه » .

وهذا الكلام يوجز لنا الطريقة العلمية التى سارت عليها مدرسة المسالكيين فى رسم خرائطها ، وقد قسم أقاليم عالم الإسلام إلى ٢٠ إقليماً اختص كل واحدة منها بخريطة ،

وقد ابتدأ بجزيرة العرب وجعلها إقليماً قائماً بذاته ، لأن فيها الكعبة ومكة أم القرى ، وهي واسطة هذه الأقاليم ، ثم أتبع ديار العرب بحر فارس . والإصطخري هنا مجدد لأنه جعل جزيرة العرب أول أقاليم الأرض ، وواسطتها ، في حين أن المتأثرين باليونان جعلوا فارس أو بلاد إيرانشهر أول الأقاليم ، وقد تبع كل المسالكيين العرب الإصطخري في مذهبه هذا ، ولهذا فقد سميت خرائطهم وكتبهم بأطلس الإسلام ، وأول من أطلق عليها هذا الاسم هو « كونراد ميللر » في مجموعة الخرائط الإسلامية التي نشرها في كتاب « أطلس الإسلام » أو مجموعة الخرائط العربية ، الوارد ذكره في مراجع هذا الفصل .

البلخي ، أبو زيد بن سهل الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لمدرسة المسالكيين المسلمين ، وقد توفي سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م ، وهو معاصر للإصطخري واشتغل كل حياته بالرحلات الجغرافية ، ووضع كتاباً يسمى صور الأقاليم ، ويسمى أيضاً أشكال البلاد أو تقويم البلدان – ويظن أن هذا الكتاب أول ما ألف العرب في الجغرافية الوصفية المسالكية – ورسم خرائط الأقاليم الإسلامية بالألوان على قدر ماتيسر له ، وقد ضاع هذا الكتاب وخرائطه ، ولكننا وجدنا قطعاً كبيرة من نصوصه وخرائطه في مؤلفات الإصطخري وابن حوقل ، والترجمات الفارسية لنص البلخي ، وقد قيل إن كتاب الإصطخري وخرائطه نقل عن كتاب البلخي حتى نشأت مشكلة سماها « كونراد ميللر » وغيره من الباحثين في علم الجغرافية العربية (مشكلة البلخي والأصطخري Die Balkhi - Istakhri Frage .

الجيهاني الوزير الساماني ، أبو عبد الله بن أحمد بن نصر ، وقد عمل في خدمة الأمير إسماعيل الساماني ، وهو أحد العلماء اللامعين الذين ظهروا وعملوا في بلاد السامانيين مثله في ذلك مثل البيروني وابن سينا ، وعندما اغتيل هذا الأمير تولى الجيهاني مهمة الحكم وصياً على الأمير الصغير نصر بن أحمد الساماني « ٣٠١ – ٣٣١ هـ / ٩١٣ –٩٤٢ – ٩٤٣ م » وتولى الجيهاني الوزارة سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م » .

وقد ألف الجيهاني كتاب المسالك في معرفة الممالك أو المسالك والممالك واعتمد فيه على الإصطخري وخرائطه ، وأضاف إليه معلومات قيمة عن بلاد الهند والسند وبلاد إيران والصين وآسيا ، وقد ضاع هذا الكتاب ، ونقل الكثيرون من الجغرافيين عنه ، ومنهم الإدريسي ، وقد لقي الجيهاني كبار الرحالة المسلمين في آسيا من أمثال أبي دُلَف مُسْعِر بن مهلهل وابن فضلان ، وقد نقد المقدسي الجيهاني نقداً شديداً وقال : إنه منجم وفلكي مع يذكر الأقاليم ، أما المسعودي فيثني عليه ، وقد أيد المستشرق كراتشكوفسكي صاحب كتاب الأدب الجغرافي العربي رأي المقدسي ، وكان ابن حوقل يحمل معه كتاباً مع كتاب الإصطخري ويستشهد به في فقرات كثيرة من كتابه صورة الأرض .

وقد وصلت إلينا خريطة العالم كما تصورها ، وهي أول خريطة للأرض لم تتأثر بآراء اليونان ، وإنما قامت على أساس البلدان والمسالك ، وقد نسبت إلى الجيهاني خرائط وجدناها لبعض الأقاليم ، كمصر والمغرب والشام والعراق ، وقد نشرها كلها ميللر في كتاب الخرائط العربية .

مؤلف مجهول : ومن الكتب الجغرافية المسالكية العربية كتاب « حدود العالم » – مجهول المؤلف – ولم نجد نص الكتاب العربي وإنما وجدنا ترجمته الفارسية ، وهي شديدة التأثر بالجيهاني والبلخي ، ويظن أن مؤلفه عاش في بلاد طخارستان أي أفغانستان ، وقد ألف كتابه في سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م ، ونشر « بارتولد » نص مخطوطه الفارسية في لينجراد سنة ١٩٣٠ م مع مقدمة جغرافية متاحة ، وترجمه مينورسكي ونشره سنة ١٩٣٧ م ، وفي النص إشارات إلى خرائط كانت في الكتاب وضاعت كلها ، ويقول بروكلمان إن كتاب حدود العالم منقول عن كتاب الجيهاني .

ابن حوقل ، أبو القاسم محمد النصيبي ، وهو ثالث المسالكيين العرب الكبار بعد البلخي والإصطخري ، وهو رحالة جغرافي اعتمد في كتابة جغرافيته ورسم خرائطها على رحلاته ومشاهداته وكتابات ابن خرداذبة والإصطخري ، ويقال إنه ولد في بغداد أو الموصل ولهذا يلقب بالموصلي ولانعرف سنة ميلاده أو وفاته ، وإن كنا نعرف أنه بدأ رحلاته الطويلة في رمضان سنة ٣٣١ هـ / مايو ٩٤٣ م بادئاً بالمغرب ، وقد زعم المستشرق راينهارت دوزي Reinhdart Dozy أنه كان داعية فاطمياً ، ذهب إلى الأندلس ليتجسس على أحوال الأمويين ، ولكننا أثبتنا من مراجعة النص مراجعة دقيقة أن ذلك الزعم غير صحيح ، وقد وصل إلينا نص كتاب صورة الأرض لابن حوقل وخرائطه كلها ، ونشر نصه « دي غويه » في المجلد الثاني من المكتبة الجغرافية سنة ١٨٧٣ م ، ثم أعاد طبعه عن مخطوطة كاملة بكل خرائطه المستشرقان كريمر J.H Kraemer وجاستون فييت Gaston Viet سنة ١٩٦٤ م في باريس .

المسعودي ، أبو الحسن علي ، المتوفى في فسطاط مصر سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م بعد رحلة طويلة زار فيها كل بلاد الإسلام بدأها من بغداد سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ، وهو رجل موسوعي واسع العلم والاطلاع ، وهو معدود في أكابر المؤرخين ، كما أنه علم من أعلام الجغرافيين المسلمين ، وقد وصفه ابن خلدون بأنه إمام المؤرخين ، وقال بعض المستشرقين إنه هيرودوت العرب أو بطليموس المسلمين . وكتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » يعتبر من عجائب المكتبة العربية علماً وثقافة وإحاطة بكل معارف عصره ، وقد قرر في كتابه أنه رسم خرائط لبعض أقاليم الأرض ، ولكنها ضاعت ، وذكرها الجغرافيون الذين جاءوا بعده ونقلوا عنها ، ولهذا فهو يعد من أعلام مدرسة المسالكيين الخرائطيين العرب ، وقد نشر كتابه المستشرقان الفرنسيان كوف دي كورتل Couve de Courtel باربيه دي مينارد Barbier de Meynard مع ترجمة فرنسية في باريس في ثمانية مجلدات من سنة ١٨٦١ إلى ١٨٧١ م ثم أعيد نشر الكتاب مع ترجمة فرنسية جديدة في ستة مجلدات في باريس .

وقد وصلت إلينا خريطته للعالم وهي تعد من أدق الخرائط العربية ، فقد نشرها ميللر في كتابه الخرائط العربية ومنها نرى أن المسعودي من أعظم الخرائطيين العرب وأحسنهم تصوراً لصورة الأرض .

المقدسي ، أبو عبد الله محمد المعروف بابن البناء ألف كتابه فيما بين سنتي ٣٧٥ – ٣٩٠ هـ / ٩٨٥ – ١٠٠٠ م وكتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » يعتبر ذروة كتب المسالكيين المسلمين ، وهو رحالة طاف بلاد الدنيا وخالط كل أصناف الناس ، وفي كلامه طرافة ولكنّ فيه غروراً كبيراً وتطاولاً على الآخرين ، وقد ذكر في كتابه أنه رسم خرائط جغرافية لانجدها في كتبه ، ولكن المستشرق « كونراد ميللر » عثر في أصول أخرى على خرائط منسوبة إليه فنشرها في مجموعة كتابه القيم للخرائط العربية (وقد ذكرناه في قائمة مراجع هذا الفصل) ومن هذه الخرائط واحدة لابد أنها كانت في النسخ الأولى من كتاب التنبيه والإشراف للمسعودي ، وجدها ميللر في أصل آخر ، وقد نشرناها ضمن ماتقدم من صور نماذج الخرائط العربية ، وقد علق عليها المسعودي بعبارة في غاية من الأهمية العلمية ، فهي تتضمن الحقيقة الكبرى التي اطلع عليها كولومبوس ، وكانت أساساً للكشف الكولومبي الذي غير وجه التاريخ . وهي لهذا تعد ذروة علم الخرائط العربية قبل الإدريسي .

وهؤلاء هم أبرز أعلام الخرائطيين العرب على مذهب البلدانيين المسالكيين .

البيروني ، وهناك نوع من الخرائط العربية هو طراز جمع بين مذاهب اليونانيين الفلكيين النجوميين ومذاهب العرب المسالكيين البلدانيين ويمثلها أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ، وقد ولد في أسرة فارسية في بلدة صغيرة تسمى بيرون من بلاد خوارزم في ذي الحجة ٣٦٢ هـ / ٤ سبتمبر سنة ٩٧٣ م ، ولكنه استعرب وألف أحسن كتبه بالعربية وكتابه الذي اشتهر به بين الجغرافيين هو « الآثار الباقية عن القرون الخالية » وهو يكشف عن علم واسع جداً بكل علوم الأمم السابقة على الإسلام وكذلك بعلوم الإسلام ، وهو مفخرة من مفاخر الفكر الإسلامي على مر العصور ، وكان يجيد العربية والفارسية واليونانية والسريانية والعبرانية ، ولكنه كان يرى العربية أعظم اللغات وأقدرها على الوفاء بمطالب العلم . وخريطته للعالم تجمع بين خرائط اليونانيين الفلكية وخرائط المسلمين البلدانية ، والبيروني من العلماء الذين برزوا في بلاط السامانيين والغزنويين من بعدهم ، وقد صحب السلطان محمود الغزنوي في غزو الهند فتعلم الهندية ودرس أحوال الهند وثقافتها وأديانها وألف في ذلك كتابه المعروف « تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » .

وقد وصل إلينا من كتب البيروني عدد وفير من بينها كتاب كان مفقوداً عنوانه « تحديد نهاية الأماكن في تصحيح مسافات المساكن » ، وقد عثر عليه البحاثة المغربي محمد بن تاويت الطنجي ونشر نصه الكامل في أنقرة سنة ١٩٦٢ م ويظن أن هذا الكتاب كان مزيناً بالرسوم ولكننا لم نجدها في النص المنشور ، وقد توفي البيروني في غزنة سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م . وقد عني بنشر كتابه « الآثار الباقية » المستشرق سخاو Edward Sachau .

البتاني ، أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحراني ، وقد ولد في حران في شمال العراق سنة ٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م وكان صابئاً فأسلم ، والبتاني فلكي رياضي وهو صاحب الزيج الصابي ، والزيج هو حساب مسارات الأفلاك ومدارات النجوم ، وقد نشره المستشرق نلينو في ثلاثة مجلدات . وقد كان للبتاني بسبب معلوماته الفلكية صيت بعيد في العصور الوسطى وعرفوه الباتجينوس Al- Batagenius بعد أن ترجم زيجه أفلاطون التريفولي Plato de Trivoh سنة ١١٤٠ م إلى اللاتينية ، وخريطته للعالم التي نشرناها هنا تعد أول خريطة جامعة مفصلة للعالم بعد خريطة بطليموس ، وهي أصح من خريطة بطليموس ، لأنه اتبع

فى رسمها طريقة التسطيح البسيط Simple Projection وخطوط الطول والعرض فيها مستقيمة ، أما خريطة بطليموس فعملت على أساس التسطيح المخروطى Conic Projection وهى من أحسن نماذج الخرائط الجغرافية المتأثرة بالجغرافية اليونانية .

خريطة الإدريسى .

عاش الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس حياة قصيرة ، ولكنها كانت حافلة بالنشاط والعمل ، وهو ينتسب إلى الشجرة الإدريسية عن طريق بنى حمود الأندلسيين الحسنيين ، وتمتد حياته من ٤٩٣ إلى ٥٦٠ هـ / ١١٠٠ إلى ١١٦٥ م وكان بطبعه ذا عقلية علمية ممتازة ، والكرة التى صنعها للأرض بناء على طلب روجار الثانى Roger II النورمندى ملك صقلية تعتبر عملاً مبتكراً فى فن الخرائط من بدايته إلى يومنا هذا ، فهى خريطة للأرض مجسمة رسمها فى أول الأمر على الورق ، ثم جسمها فى صورة كرة من الفضة رسم عليها اليابس بالذهب ، وبعد ذلك سطحها تسطيحاً بسيطاً يشبه ماجرى عليه مركاتور فى عمل مسقط لخريطة الأرض المبسوطة ، وعمل كل الحسابات الرياضية التى يتطلبها التحويل من الاستدارة إلى التسطيح . ولم يقسم خريطته إلى خطوط عرض وطول إلا سعياً وراء التوضيح والتفسير المنطقى لأجزاء الخريطة ، لأن المربعات التى تحصلت له من تلاقى خطوط الطول والعرض أعطته مربعات ، استطاع أن يرسم لكل واحدة منها خريطة خاصة محددة المكان فى الخريطة الكبيرة ، وقد بدأ خطوط طوله من المحيط الأطلسى عند جزائر الخالدات « الكناريا » وعليها يمر خط الطول الأول ، وخريطته مقسمة على هذا من الغرب إلى الشرق بخطوط الطول ، ثم من الجنوب إلى الشمال بخطوط عرض موازية لخط الاستواء ، وقد بدأها من درجتين جنوب الاستواء وانتهى بها شمالاً إلى الإقليم السابع إلى شمال خط الاستواء .

وقد أبدى الإدريسى أن معلوماته عن بعض أجزاء الأرض أوسع وأدق من معلوماته عن أجزاء أخرى ، وهذا طبيعى ولكننا نستطيع أن نقول إن معلوماته أوفى وأحسن ماتكون عن بلاد الإسلام وأوروبا وشرق آسيا وبحر الهند ، ويكفيه فخراً أنه استطاع أن يجمع حشداً هائلاً من المعلومات الجغرافية عن الأرض ، وينظمه ويبوبه ويرسم على أساسه خريطته الفريدة ، ثم يسطر هذه المعلومات فى كتاب حافل وحيد من نوعه فى تاريخ الفكر العالمى هو كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، وقد نشر نشرة كاملة محققة أخيراً « انظر فهرس المراجع » وهو شرح للخريطة وماورد فيها من أعلام جغرافية ، وقد شرح الإدريسى طريقته فى رسم خريطته فى مقدمة كتابه ، وكان نصها ناقصاً حتى عثر عليها كاملة جيوفانى أومان Giovanni Oman ونشرها فى الطبعة الكاملة التى أصدرها معهد الدراسات الشرقية فى نابولى بعناية عدد من المتخصصين ، وقد نشر كل منهم الأجزاء الخاصة ببلد من البلاد ، وكان من حظ مؤلف هذا الكتاب أن قام على نشر الأجزاء الخاصة بمصر مع تعليقات موسعة إضافية .

وقبل أن نختم هذا المدخل إلى علم الخرائط عند المسلمين نضيف أن العرب لم يكونوا يقولون خريطة ، بل كانوا يقولون « الصورة » ، أو الرسم ، أو لوح الرسم . والإدريسى يقول لوحة الترسيم « أما لفظ خريطة فقد أخذه المصريون عن الفرنسيين عندما تعلموا الفرنسية على أيدى الفرنسيين ، وأخذوا منها لفظ Carte وعربوها على خريطة أو خرطة » كما نجد عند إبراهيم باشا رفعت فى مرآة الحرمين « وربما كان أول من استعمل لفظ الخريطة رفاعة رافع الطهطاوى عندما نشر هو وتلاميذه كتاب جغرافية العالم للعلامة مالطبرون Maltebrun

المراجع

د. محمد صبحي عبد الحكيم	علم الخرائط الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٦ م .
جورجي فضلو حوراني	العرب والملاحة في المحيط الهندي ، تعريب د./ يعقوب بكر ، القاهرة سنة ١٩٥٨ م .
د. أحمد سوسة	« الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية » . عبدان العراق ١٩٧٤ م .
ابن خلدون	المقدمة تحقيق وشرح وتعليق بقلم الدكتور / علي عبد الواحد وافي ، ثلاثة أجزاء ، الطبعة الثالثة ، القاهرة
ابن سعيد ، علي بن الحسن ابن سعيد	بسط الأرض في طولها والعرض ، بتحقيق جوان برنيت جينس Juan Barnet Jines تطوان ، معهد مولاي الحسن ١٩٥٨ م .
ابن يونس ، أبو الحسن علي ابن يونس المصري	الزيج الحاكمي الكبير ريجي بلاشير Regis Blachère منتخبات من آثار الجغرافيين العرب في العصور الوسطى – المطبعة الكاثوليكية في بيروت .
ديليسي أوليري	Delacy Oleary علوم العرب وسبل انتقالها إلى الغرب ترجمة د. وهيب كامل ، سلسلة الألف كتاب ، القاهرة ١٩٦٢ م .
كراتشكوفسكي ، اغناطيوس	« الأدب الجغرافي العربي » تعريب الدكتور / صلاح الدين هاشم ، القاهرة . جزءان سنة ١٩٦٣ م .
د. حسين مؤنس	تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد ، معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ١٩٦٧ م
الإدريسي	نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،الطبعة الكاملة ، روما ١٩٧٠ – ١٩٨٤ م

(1) Blochet . E . Contribution à l'Etude de la Cartographie Arabe , Bone (Algeire) Bulletin de l'Académie d'Hipone no 29 ; avec deux cartes en couleurs du Nord de l'Afrique par l'Idrisi

(2) Ferrand , Gabriel ; Relatione des Voyage et Texes Geograaphiques Arabes , perans et tirques relatifs à l'Extrême Orient du VII , XVIII siécles , traduits , revuess et annstés - 2 vols , 1911 - 1914 .

(3) Huzzayyin , Sulayman Ahmed , Some Arab Contribuations to Geography , 1932 .

(4) Jarvis , W H, The World in Maps - London 1936 .

Youssof Kamal , Manumenta Cartographica Africae et Aegypti London 1935 .

(5) Kramers , J.H, Article Geographie - in Encyc - de l'islam (I ére éd) .

(6) Reinauad , H.J.T, et N.N. De Slane , Geographie D'Aou - l'Fida . 2 volumes : le premier est une introduction à la Science geographique chez les Orientaux ; et le 2 éme est une traduction de lsa Geographie d'Abou - l'Fida .

(7) Konrad Mueller , Mappae Arabicae . Arabische Welt und Laender Karten des 9 - 13 Jahrhunderte 5 Baende I - V und Beihaefte -Stuttgart1926 - 1930

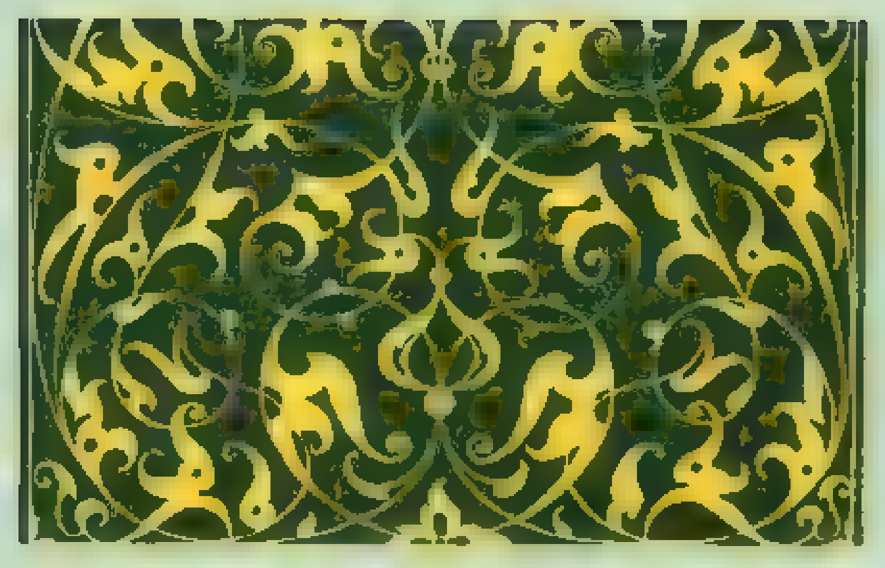

الفصل الثاني

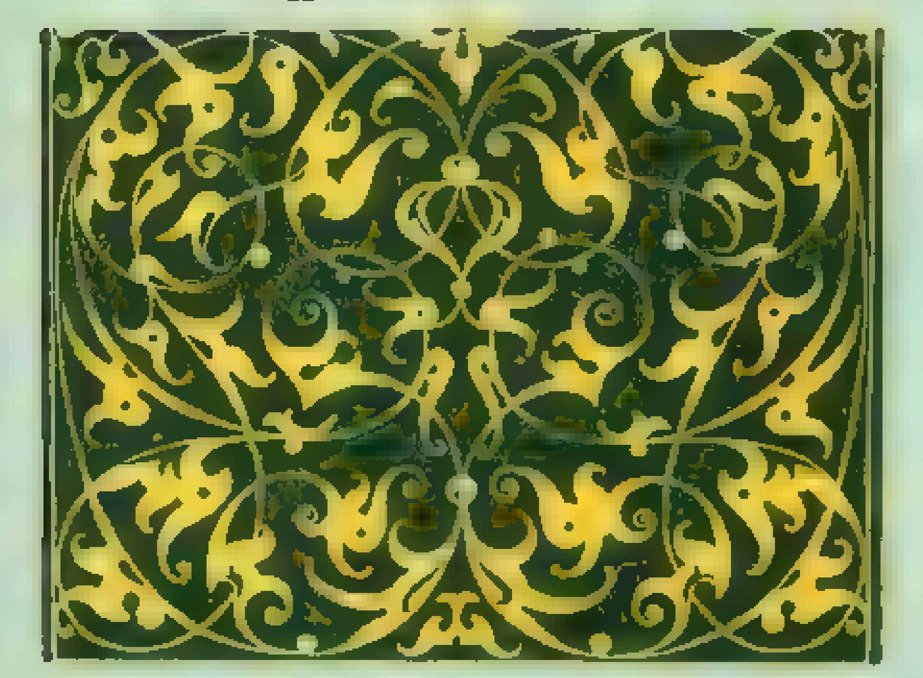

مراحل انتشار الإسلام في العالم حتى اليوم

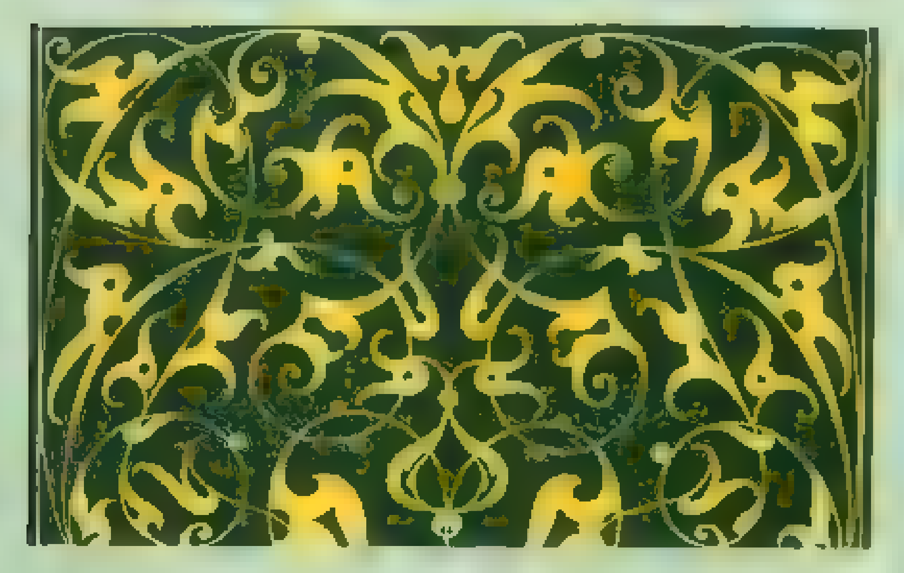

بيان الخرائط

منشوريا
منغوليا
غوبي
الصين
بحر اليابان
هضبة التبت
الهند
بنغلادش
خليج البنغال
تايلاند
بحر الصين الشرقي
جزر الفليبين
سيلانكا
جزر ملديف
المحيط الهندي
أندونيسيا
بورنيو
جاوة
غينيا
تيمور
أستراليا
مراحل انتشار الإسلام في العالم حتى اليوم
في بداية القرن الخامس عشر الهجري
في العصر النبوي ٥٢ ق. هـ - ١١هـ/٥٧٠ - ٦٣٢ م
في عصر الراشدين ١١ - ٤١ هـ/٦٣٢ - ٦٦١ م
في العصر الأموي ٤١ - ١٣٢هـ/٦٦١ - ٧٤٩ م
في العصر العباسي ١٣٢ - ٦٥٦هـ/٧٤٩ - ١٢٥٨ م
على أيدي غير العباسيين ٦٥٦ - ..هـ/١٢٥٨ - ..م
بلاد غير إسلامية.
إتجاهات التوسع.

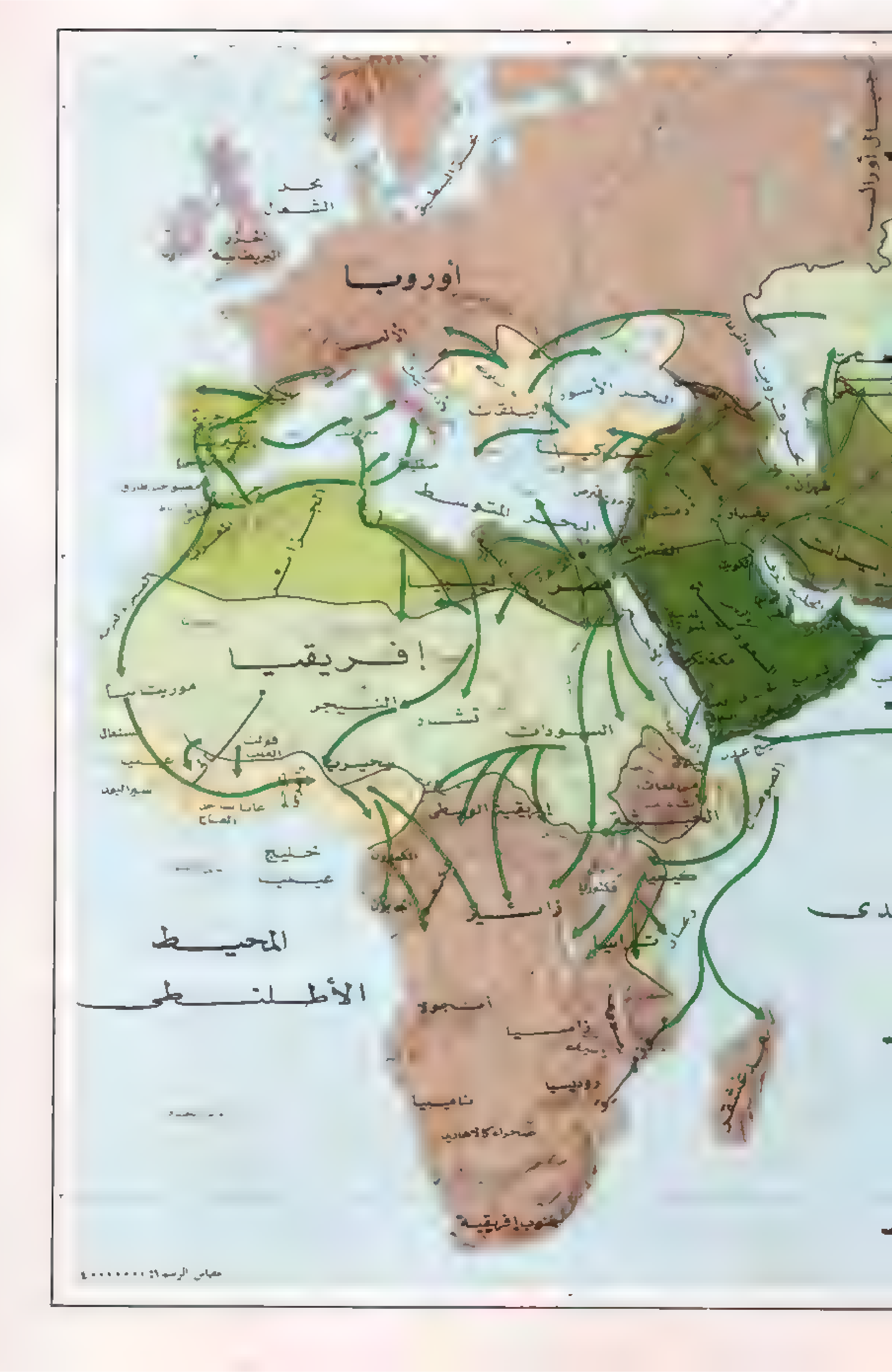

أوروبا
إفريقيا
المحيط
الأطلنطي
البحر المتوسط
البحر الأسود
مصر
ليبيا
تشاد
السودان
النيجر
موريتانيا
السنغال
غامبيا
سيراليون
خليج
غينيا
الكاميرون
زائير
تنزانيا
كينيا
أنجولا
زامبيا
ناميبيا
روديسيا
صحراء كالاهاري
جنوب إفريقية
مدغشقر
الحبشة
مكة المكرمة
طهران
دمشق

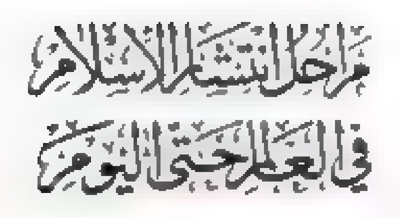

موجـــات التوســـع .

تظهر هذه الموجات في خريطة ملحقة بالأطلس ، أردنا أن نعطي القارىء بها فكرة إجمالية جامعة تصور له مراحل بناء العالم الإسلامي ، الذي تم في صورة موجات أو ضربات ، تكون خلال كل منها جزء منه ، وهذه الموجات تفصل بينها قرون كثيرة أو قليلة ، وقام بكل منها جنس من الأجناس التي دخلت الإسلام ، وكان لها دور في بناء عالمه ، ويبدو عند النظرة الشاملة لتطور حدود العالم الإسلامي أن ذلك العالم كان يميل إلى السكون بعض الوقت بعد كل موجة من موجات التوسع ، وفترات السكون هذه لها - بالنسبة لبناء عالم الإسلام - نفس أهمية فترات التحرك والتوسع ، لأن الإسلام - خلال فترات السكون - كان يملأ الفراغات التي خلفتها وراءه أثناء حركة المد .

حركة التوسع الإسلامية الأولى .

وقد قام بها الجنس العربي ، وتبدأ خلال العصر النبوي من بعد هجرة النبي إلى وفاته ﷺ وقيام أمة المدينة (١٢ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة إلى ربيع الأول سنة ١١ هـ / ٢٤ سبتمبر ٦٢٢ إلى ٨ يونيو ٦٣٢ م) . وفيها قامت أمة المدينة في حياة النبي ﷺ بتوحيد جزيرة العرب تحت راية الإسلام . ثم العصر الراشدي من ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ إلى ربيع الأول ٤١ هـ / ٨ يونيو ٦٣٢ م إلى يونيو ٦٦١ م .

فـــارس .

وقد كانت دولة الفرس الساسانيين دولة ذات سلطان وقوة ونظام ، لأن طول عهد الفرس بنظام الدولة أعطاهم خبرة وتقاليد إدارية ، ومعرفة بشئون الحرب والإدارة ، فقد كان على رأس الدولة ملك عظيم الشأن يسميه العرب « كسرى » وهو تعريب لفظ « خُسْرو » بالفارسية البهلوية ، ومعناه : الملك أو السلطان ، يعاونه وزير يسمى « الدُّسْتُ فار » أي : شيخ البلد[1] .

وكانت المملكة الساسانية مقسمة إلى أقسام إدارية كبيرة يسمى كل منها بالإستان أو « الرستاق »[2] . والرستاق كان مقسماً إلى وحدات إدارية تسمى الواحدة منها « ستْرِبيّة » يحكمها ستْرَب في مقام المحافظ اليوم .

والستربيات تقسم إلى كُور والمفرد كورة ، وفي الكور مدنٌ وقرى ، والمدينة بالفارسية تسمى جرْد . والقرية تسمى « ده » . وكانت رساتيق فارس لها أسماء يونانية قديمة ، أطلقها عليها اليونان ثم الإسكندر عندما فتح فارس ، مثل باكتريا وهي بلخ ، وأكباتانا وهي همذان ، وقد حلت الأسماء الفارسية محل اليونانية ، ولكل ناحية مدير مالي يسمى « الإصبهبذ » وقد جمعه العرب على « الإصبهبذين » . وكان إيراد الدولة الساسانية عظيماً ، بدليل ماوجد فيها العرب من الخيرات والكنوز عندما فتحوها ، وكان الجيش الفارسي أيام الساسانيين من أعظم جيوش الدنيا ، والجيش بالفارسية « سپاه » يقوده قائد رفيع القدر ، وكانت قوة فرسان الفرس عظيمة ، والفارس في الفارسية يسمى « الأسْوار » والجمع « أساوِرَه »[3] .

وكذلك كانت فرق مشاة الفرس مشهورة بقوة مراسها ، هذا بالإضافة إلى الأسلحة العظيمة ، والعدة الضخمة ، والفيلة .

وكانت ديانات الفرس وثنيات معروفة لنا ، وهي الزرادشتية أو المزدكية ، وهي ديانة تقوم على عبادة النار وقد سماها العرب المجوسية ، وكاهن بيت النار يسمى « الموبذ » وعلى رأس كهنة البلاد كان الكاهن الأكبر ويسمى « موبذان موبذ » .

وقد كانت دولة الفرس الساسانيين عندما هاجمها العرب متماسكة قوية غنية رغم تدهور الأسرة الحاكمة ، ولم يغلبها العرب لأنها كانت بالغة الضعف أو آيلةً للسقوط ، وإنما غلبوها لأنهم واجهوها بقوة أعظم من أي قوة على الأرض ، وهي قوة الإسلام . فالعرب على الحقيقة لم يغلبوا الفرس وحدهم ، وإنما غلبوهم بالإسلام ، وصدق الله تعالى في قوله : **﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾**

الـــروم .

ونفس سلاح الإسلام غلب العرب في نفس الوقت الروم البيزنطيين ، وماكانت دولة الروم على أيام هرقل بن هرقل بالدولة الضعيفة أو المتدهورة . وعندما تولى هرقل عرش الروم سنة ٦١٠ م (وهي سنة البعثة المحمدية) كان الفرس قد اجتاحوا بلاد الشام ومصر وهزموا البيزنطيين سنة ٦١٣ م عند أنطاكية ، واستولوا على فلسطين والقدس سنة ٦١٤ م ، وغزوْا مصر ودخلوا الإسكندرية سنة ٦١٨ م أو ٦١٩ م ، وبعد أن أقام هرقل دولته بدأ قتال الفرس سنة ٦٢٢ م وفي سنة ٦٢٧ م أنزل بهم هزيمة قاصمة قرب نينوى واسترد منهم أراضي الدولة البيزنطية في إرمينية والشام وفلسطين ومصر ، وفي سنة ٦٣٠ م استعاد بيت المقدس .

وعندما هاجم العرب الشام كانت دولة الروم في أوج قوتها ، ولكنهم انتصروا على الروم بقوة الإسلام أيضاً .

وإنما أوردت هذا التفصيل لكيلا يقع في ذهن القارىء أن فتح العرب لبلاد الروم وفارس كان فتحاً يسيراً ، لأنه يقرأ أخباره في الكتب فيجد الانتصارات تتوالى ، فيحسب أن ذلك كان أمراً لايتضمن كُلفةً كبيرةً ، ولاتضحيات بالغة ظناً منه أن الدولتين كانتا متدهورتين ، لايكلف فتحهما كبير جهد .

المشرق والمغرب .

بدأ العصر الأموي من ربيع الأول سنة ٤١ هـ واستمر إلى ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ - وهو تاريخ مقتل مَرْوان بن محمد على يد قواد العباسيين في مدينة بوصير من صعيد مصر - يونيو ٦٦١ م إلى يوليو ٧٥٠ م . ثم العصر العباسي الأول من بدء خلافة أبي العباس عبد الله بن محمد المعروف بالسفاح في ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ / سبتمبر ٧٤٩ م . إلى وفاة تاسع الخلفاء العباسيين أبي جعفر هارون الواثق بالله ابن المعتصم في ٢٣ ذي الحجة ٢٣٢ هـ / يوليو ٨٤٧ م . وخلال هذه الفترة أتم المسلمون فتح المشرق حتى حوض السند وبلاد فرغانة شرقاً ، وإلى ساحل المحيط الأطلسي وشمال بلاد الأندلس غرباً . وفي هذه الفترة أيضاً تم بناء قاعدة العالم الإسلامي ، وهي الجزء العربي منه ، وبلاد إيران وماوراء النهر ، وبلاد طخارستان (أفغانستان الحالية تقريباً) وحوض السند ، وتشمل كذلك جزءاً من بلاد الأتراك . هذه هي المرحلة الأولى .

---

(١) من هذا اللفظ الفارسي جاء لفظ « دستور » التركي الذي دخل العربية بمعنى القانون الأساسي أو النظام أو صاحب النظام ، وعندما كانت الدولة العثمانية تنتخب حاكماً من كبار حكام الولايات كانت تخاطبه بلفظ « الدستور المكرّم » وبه خاطبت الدولة العثمانية محمد علي مراراً

(٢) دخل هذا اللفظ اللغات الأوروبية بمعنى الريفي فقالوا في الفرنسية Rustique وفي الإيطالية والإسبانية Rustico وفي الإنجليزية Rustic

(٣) دخل هذا اللفظ في المصطلح العسكري المصري عن طريق التركية في صورة « سواري »

ثم سكن العالم الإسلامي بعد ذلك فترة طويلة أكمل المسلمون خلالها إسلام مافتحوه ، وملئوا الفراغات - كما قلنا - وقد نجح العرب خلال هذه الفترة فى إدخال كل شعوب الإسلام التى تم فتحها فى نطاق اللغة العربية ، فاستعربت إلا بلاد إيران التى انتعشت فيها اللغة الفارسية ، وتبع ذلك عجز العرب عن تعريب ألسنة الأتراك .

مرحلة التوسع الثانية .

وقد بدأت على طرفى عالم الإسلام ، الشرقى والغربى ، خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى على يد الغزنويين الذين بدءوا التوسع فى الهند على يد يمين الدولة محمود الغزنوى (٣٨٨ - ٤٢١ هـ / ٩٩٨ م - ١٠٣٠ م) وفى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى بدأ امتداد الإسلام على يد المرابطين فى إفريقية المدارية والاستوائية على الطرف الغربى الأقصى لعالم الإسلام على ساحل المحيط فيما يعرف الآن ببلاد السنغال ومايليها جنوباً وشرقاً .

مرحلة التوسع الثالثة .

(أ) فى الهند وفى إفريقية المدارية والاستوائية .

وقد ذكرنا فيما سلف كيف دخل المسلمون هذه البلاد فى المرحلة الثانية من مراحل التوسع ، ونذكر الآن أن هذه الحركة استمرت بعد ذلك على يد الغزنويين فى الشرق ومن جاء بعدهم من الدول الإسلامية الفاتحة ، وأولها بعد الغزنويين دولة الغوريين ، ثم دول الهند الإسلامية .

أما فى إفريقية المدارية والاستوائية فى الجناح الغربى فقد تولى نشر الإسلام خلال هذه المرحلة الثالثة بعد المرابطين دول إسلامية إفريقية أولها دولة مالى كما سنرى .

وأما داخل العالم الإسلامى فقد بدأت فترة سكون وتعميق للإسلام على أيدى دول عظيمة تولاها سلاطين ذوو همة وإيمان ، أكبرهم سلاطين السلاجقة الذين أنشئوا دولتهم العظيمة التى سنتحدث عنها فى هضبة إيران وبلاد ماوراء النهر ، ثم دخلوا بغداد وأمسكوا حمايتهم على الخلافة العباسية بعد أن أزالوا دولة البويهيين التى أساءت إلى دولة الخلافة ولم يكن لها - على كثرة فروعها - فضل فى تعميق الإسلام داخل العالم الإسلامى ، وإن كان لها دور كبير فى النهوض بالحضارة الإسلامية ، فقد دخل السلطان السلجوقى طغرل بك بغداد فى ١١ من ذى القعدة سنة ٤٥١ هـ / يناير ١٠٦٠ م وفوض إليه الخليفة العباسى القائم بأمر الله أمور خلافته ، ومن ذلك الحين اعتدل ميزان الدولة الإسلامية فى الداخل فى المشرق ، وإن كانت لم تلبث أن ابتليت بعد ذلك بالغارة الصليبية على بلاد الشام فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

أما فى الجناح الغربى فقد بدأ خلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى تدهور الإسلام الأندلسى والصقلى الذى انتهى بضياع الأندلس وصقلية بعد سنوات طويلة سنقص أخبارها بالتفصيل فى الفصول الخاصة بذلك . وفى نفس ذلك القرن (الحادى عشر الميلادى) بدأ التوسع الإسلامى فى إفريقية الغربية والوسطى المدارية والاستوائية مما عوّض على الإسلام خسائره فى أوروبا ، وفتح أمامه آفاقاً واسعة من الانتشار فى إفريقية .

(ب) آسيا الصغرى .

وفى نفس هذا الدور من أدوار توسع الإسلام كان دخول السلاجقة وهم من الأتراك الغزّية فى آسيا الصغرى وتخطيهم الحدود التقليدية بين دولة الإسلام ودولة الروم البيزنطيين ، وقد بدأ ذلك فى حكم سلطانهم طغرل بك (١٠٤٣ - ١٠٦٣ م) فخربوا معاقل الدولة البيزنطية فى شرق آسيا الصغرى وكذلك دمروا مدن أرضروم وأرزنجان وبكسار وقيسرية وعمورية وقونية ، وفى سنة ١٠٧١ م انتصر السلطان السلجوقى ألب أرسلان على الدولة البيزنطية فى معركة ملاذكرد وانفتح باب وسط آسيا الصغرى أمام العشائر التركية السلجوقية ومن كان يرافقها من العشائر التركمانية .

ومع أن أسرة كومنين (١٠٨١ - ١١٨٥ م) قد استطاعت فى بداية القرن الثانى عشر أن تزحزح - بمساعدة الصليبيين - بعض الجماعات التركية وتستعيد منهم مدن الثغور ، وبخاصة طرسوس والمصيصة وعين زربة وأذنة ومرعش وملطية وآمد وخلاط وملاذكرد وقاليقلا - فإن الترك السلاجقة تمكنوا بعد ذلك من العودة إلى التوغل فى آسيا الصغرى ، ثم دخلوا فى قلبها سنة ١٢٤٣ م وأنشئوا الدولة التركية السلجوقية التى أصبحت تسمى بدولة سلاجقة الروم نسبة إلى أنها كانت تسكن بلاد الروم . ويعتبر ذلك حادثاً فاصلاً فى توسع الإسلام ، فإنه كان البداية الحقيقية لاستيلاء الأتراك على آسيا الصغرى والقضاء على الدولة البيزنطية ، لأن الأتراك العثمانيين - وهم كذلك فرع من الأتراك الغزية - لم يلبثوا أن دخلوا آسيا الصغرى وبدءوا نشاطهم المعروف الذى سنفصله عند كلامنا عن الدولة العثمانية التى قضت على الدولة البيزنطية قضاءً مبرماً سنة ١٤٥٣ م ، عندما افتتح محمد الثانى القسطنطينية ، وحولها إلى مدينة إسلامية اسمها استانبول أو إسلامبول ، ومعناها مدينة الإسلام .

وقد جاءت بعد المرحلة الثالثة مرحلة انتشار الإسلام فى جنوب شرق آسيا ، ولكننا لن نفصل ذلك الآن لأن له موضعه من هذا الأطلس .

طبيعة التوسع الإسلامى .

ولكن ليس معنى ذلك أن التوسع الإسلامى توقف من نهاية القرن السابع الميلادى إلى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ، لأن دول الطاهريين ثم الصفاريين ثم السامانيين ثم الغزنويين قامت فى أثناء ذلك بنشر الإسلام فى البلاد الواسعة الممتدة من شرق دجلة إلى شمال ماوراء النهر ، والبلاد الواقعة شمال نهر سيحون ، وإلى كشمير والبنجاب ، وأقرته وزادته عمقاً ، وحولت هذه البلاد الواسعة إلى أوطان إسلامية أصيلة ، حافلة بمراكز العلوم العربية والإسلامية ، وهذه فتوح رأسية فى العمق لاتقل أهمية عن الفتوح الأفقية فى الاتساع ، ولكننا لانستطيع تصوير هذه الفتوح الرأسية الحضارية الهامة على الخرائط ، وكل مانستطيعه فى مثل هذا الأطلس هو بيانها فى النص ، وتنبيه القارىء إلى أنها هى أساس موجات الاتساع الأفقية . لأن الحقيقة أن عملية بناء عالم الإسلام العظيمة - رغم [illegible] وجغرافياً - كانت عملية تتابع ، وكل شعب دخل فى الإسلام خضع فى زمن طويل ، لكى يتحول بعملية تطور داخلى ، دينية وحضارية إلى وطن إسلامى ، ثم يتحرك بعد ذلك بنشر الإسلام فيما يليه من أرضين ، فليس فى تاريخ الإسلام عصور ركود حركى ، ونحن دائماً إما أمام توسع أفقى أو رأسى ، وهذه الحركة المتصلة ترجع أساساً إلى أن الإسلام بطبعه قوة حضارية مجاهدة

القوى الغربية وتقدم الإسلام .

وحتى فى عصرنا الحالى الذى يبدو فيه أن القوى الغربية أوقفت سير الإسلام الأفقى فإن عملية البناء الرأسى فى العمق تسير بقوة ونشاط فى داخل العالم الإسلامى وخارجه ، وتأخذ صوراً وأشكالاً ندركها ونفهمها أحياناً ، ولاندركها فى أحيان أخرى ، فى داخل العالم الإسلامى وخارجه ، ولكننا نحس بها فى كل حين ، وإذا كان المسلمون لايدركون حقائقها وأبعادها أحياناً فإن القوى غير الإسلامية التى تحرص على سيادة ماتستطيع سيادته

من هذا الكوكب تحس بقوة دفع الإسلام وحيويته إحساساً دائماً ، وأكبر دليل على ذلك هذا السيل المتدفق من الكتب والدراسات الإسلامية التي لاتتوقف صدورها في بلاد الغرب ، وحرص الروس الشديد على وقف التقدم الإسلامي بمحاربته في البلاد الإسلامية التي استولوا عليها وحكموها كمستعمرات قبل ثورة أكتوبر ١٩١٧ ثم حولوها جمهوريات سوفيتية اشتراكية بعد تلك الثورة ، ثم هجومهم العدواني على أفغانستان في سنة ١٩٧٦ م وهو هجوم لايزال مستمراً حتى ١٩٨٧ م ، وهو يمثل الناحية العسكرية من حرص الروس على التدخل في شئون الإسلام ، ووقف تحركه ، كما رأينا في تشجيعهم السريع لقيام دولة إسرائيل في قلب العالم الإسلامي ، ثم اجتهادهم الدائم بالتدخل السياسي في شئون الشرق الأوسط ، وهو قلب عالم الإسلام .

الحركة الدائمة في تاريخ الإسلام .

وإشارتنا إلى حركة التوسع الغزنوية في الهند ماهي إلا مثل اخترناه لتوضيح ظاهرة الحركة الدائمة في تاريخ الإسلام ، وفصول هذا الأطلس الخرائطية والنصوص الشارحة لها تتبع هذا التحرك الدائم بدقة ، ولكن هذه الخريطة الافتتاحية تضع القارىء أمام الخطوط الرئيسية العامة لحركة التوسع الإسلامي بصورة إجمالية ، وقد بينا عليها الموجات العامة للتوسع الأفقي الإسلامي بتواريخها ، وهي واضحة من مفتاح الخريطة . والأقاليم التي خرجت عن عالم الإسلام وهي نوعان نوع خرج عن عالم الإسلام سياسياً ودينياً وحضارياً مثل « شبه جزيرة أيبيريا وصقلية » ، ونوع خرج سياسياً وربما دينياً إلى حد محدود ، كما نرى في بعض أجزاء شمال الهند وبعض أقاليمها ، وشمالي جزيرة منداناو وجزائر سولو أو جولو في الفلبين ، أما خضوع بعض الأقاليم لسيطرة سياسية غير إسلامية فلا يخرج الإقليم عن عالم الإسلام مهما كان شكله أو مداه ، كما نرى في السيطرة الحبشية على إقليم أريتريا العربي المسلم ، وفرض السيطرة غير الإسلامية على بعض أجزاء فلسطين ، ومحاولات بعض الدول الإفريقية الحديثة انتزاع بعض الأراضي الإسلامية ، وإخراجها من عالم الإسلام ، لأن معرفتنا بحيوية الإسلام المتجددة لاتستبعد قط تخلص تلك البلاد من السيطرة الأجنبية وعودتها – سياسياً وحضارياً – إلى عالم الإسلام ، وقد رمزنا إلى تلك الحقيقة بإعطاء مدينة بيت المقدس على تلك الخريطة نفس حجم مكة والمدينة ، فهي المدينة الإسلامية المقدسة الثالثة ، ومسجدها الأقصى هو ثالث مساجد الإسلام من حيث القداسة والمكانة في قلوب المسلمين .

انتشار الإسلام في أوروبا والأمريكتين .

والإسلام في حركة توسع دائمة ، وهذا التوسع يأخذ شكلاً ظاهراً جداً في إفريقية وآسيا ، وقد بينا ذلك بأسهم توسُّع على الخريطة ، أما انتشار الإسلام في أوروبا والأمريكتين – وهي عملية حية لاتتوقف – فلم نر ضرورة لبيانها على الخريطة لأنها في الحقيقة ليست موجات توسع من الطراز التقليدي الذي نعرفه في تاريخ الإسلام ، ولكنها انتقالات لبذور الإسلام إلى أراضٍ غير إسلامية ، والإسلام ينشىء بها لنفسه جزائر صغيرة في بحار غير إسلامية ، وبعض المتفائلين من المسلمين يعتقدون أن هذه الجزائر الإسلامية ستتسع ويكون لها أثر ديني وحضاري بل سياسي بعيد المدى .

ولم نشر على الخريطة إلى البلاد الكثيرة الآسيوية والأوروبية التي فتحتها الدولة العثمانية ، وسادتها لفترات قصيرة أو طويلة ، لأن الفتوح العثمانية في شرق أوروبا حتى وسطها وفي شمال البحر الأسود كانت على الحقيقة فتوحاً سياسية عثمانية ، لم تخلف بعد انكماش الدولة العثمانية وضياع دولتها الواسعة إلا بقايا إسلامية محددة المساحة الجغرافية في ألبانيا وحداشيا ويوغسلافيا وبعض بلاد البلقان وجزيرة قبرص وبلاد القرم .

المراجع

ابن الأثير — علي بن أحمد بن أبي الكرم (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) الكامل في التاريخ – طبعة المطبعة المنيرية بالقاهرة ، ٩ أجزاء .

أوتيخا — سعيد بن البطريق (ت ٣١١ هـ / ٩٢٣ م) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٩ م بروكلمان ، كارل ، تاريخ الدول الإسلامية . ترجمة عربية في أربعة مجلدات . نشرت في بيروت ١٩٤٨ م

البلاذري — أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ) بتحقيق صلاح المنجد في ٣ مجلدات . القاهرة ١٩٦٠ م .

ابن حزم — أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م) جمهرة أنساب العرب ، بتحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الرابعة ١٩٦٤ م ، القاهرة .

حسن إبراهيم حسن — تاريخ الإسلام السياسي ٣ أجزاء – الطبعة ١١ القاهرة ١٩٨٤ م

حتى ، فيليب — تاريخ العرب مطول (بالإنجليزية)الطبعة السادسة . مكميلان ، لندن ١٩٧٢ م .

ابن خلدون — أبو زيد عبد الرحمن (ت ٨٠٨ هـ / ١٠٤٥ م) العبر وتاريخ المبتدأ والخبر ، وهو تاريخ ابن خلدون ، طبعة بولاق ٧ مجلدات بما في ذلك المقدمة .

زيدان ، جورجي — تاريخ التمدن الإسلامي – طبعة جديدة حققها د. حسين مؤنس ٤ أجزاء – القاهرة ١٩٥٨ م .

السلاوي — أحمد بن خالد الناصري الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى – الطبعة الثانية بتحقيق ولديه – ٩ أجزاء – الدار البيضاء ابتداء من ١٩٤٢ م .

الطبري — أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) تاريخ الرسل والملوك – بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم – دار المعارف ، القاهرة ١٠ أجزاء ابتداء من سنة ١٩٦٠ م .

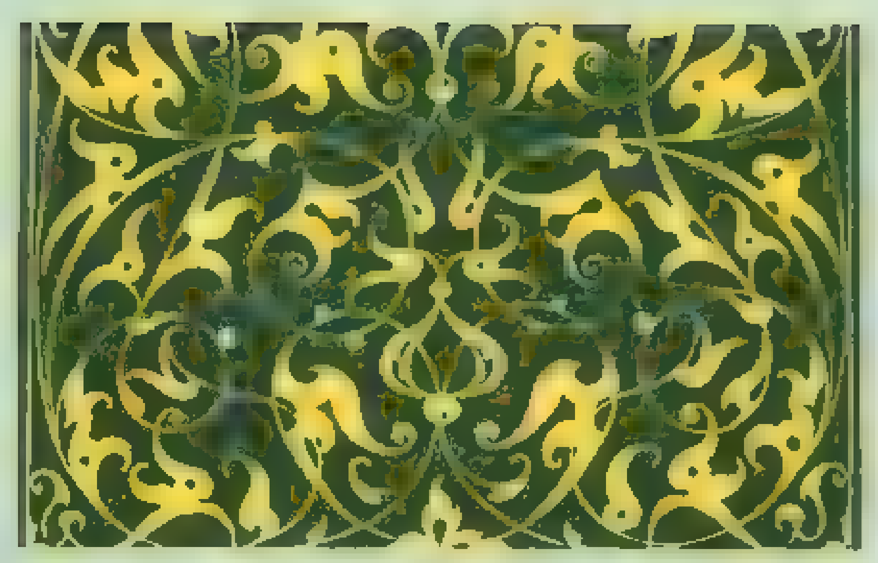

الفصل الثالث

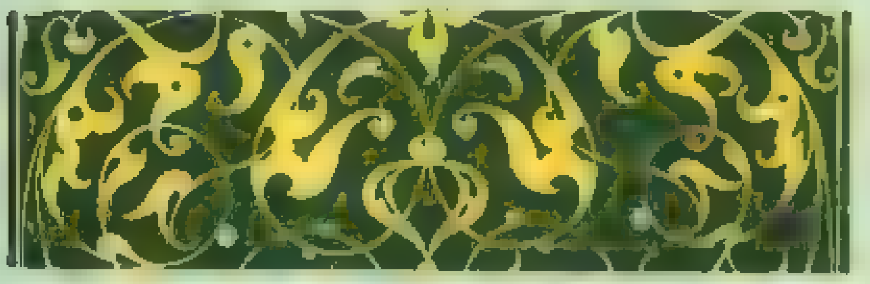

جداول تاريخية مقارنة لأهم أحداث التاريخ الإسلامي وتعاصر الدول الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى آخر القرن الرابع عشر الهجري

جداول تاريخية مقارنة

الجدول الأول	من سنة ١ هـ حتى سنة ٥٥٦ هـ
الجدول الثاني	من سنة ٥٢٥ هـ حتى سنة ١١١٢ هـ
الجدول الثالث	من سنة ١١١٢ هـ حتى سنة ١٤٠٥ هـ

الحمدانيون
الصليحيون
الزيديون
السلاجقة
البويهيون يحكمون باسم العباسيين
حكم محلي
البويهيون
السلاجقة
الشاهانيون
الغوريون
الترك القراخانية (أتباع السلاجقة)
الغوريون
الغزنويون
ممالك الهند قبل الإسلام
البيزنطيون
سلاجقة الروم
البيزنطيون
البيزنطيون
حكم محلي مقسم إلى ممالك وإمارات
الخون البيض
جنوب الجزيرة
العراق
القوقاز
غرب
وسط
شرق
إيران
خارستان (بلوخستان)
أفغانستان
ماوراء النهر وشماله
سنكيانج وفرغانة
الصين
الهند
تركيا
البلقان وشرق أوروبا

ميلادي
هجري
جزائر غرب المتوسط
إفريقية الداخلية والاستوائية
الأندلس
إسبانيا
البرتغال
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
إفريقية
بلاد المغرب
طرابلس
برقة
ليبيا
مصر والنوبة ودنقلة
السودان
الشام
جزائر شرق المتوسط
غرب الجزيرة
وسط الجزيرة
الروم البيزنطيون
الأغالبة
الفاطميون
بنو الحسن الكلبيون
النورمان
قبائل إفريقية وثنية
القوط الغربيون
عصر الولاة
الإمارة الأموية الأندلسية
الخلافة الأموية الأندلسية (خلافة قرطبة)
ملوك الطوائف
المرابطون
الموحدون
المرابطون
الموحدون
بنو حماد الصنهاجيون
بنو هلال
وبنو سليم
بنو رستم الخوارج
الأغالبة
الأدارسة
الدولة الفاطمية
الدولة الأموية
الدولة العباسية
الروم البيزنطيون
حكم اسمي للبيزنطيين
الدولة الأموية
الطولونيون
العباسيون
الإخشيديون
الفاطميون
الراشدون
ممالك مسيحية صغيرة في النوبة تمتد حتى دنقلة : نوباتا ومقرة وعلوة
الفاطميون
الطولونيون
العباسيون
الإخشيديون
الفاطميون
السلاجقة يحكمون باسم العباسيين
القرامطة

سيادة عثمانية
الصفويون
الأوزبك
القوزاق في سمرقند وبخارى
حكام محلي
المغول التيموريون المتأخرون
المغول التيموريون في عهد شاه رخ
آق قيونلو
قرة قيونلو
آل مظفر (شيراز)
تكرت في هارات
حكام محليون في مكران وسجستان وقندهار
الخانات الجغتائية
مغول آسيا الوسطى
الإيلخانية
شاهات خوارزم
الشاهانيون
الغوريون
قرة خيتاى
الدولة العباسية
الحشد شون في جورجيا
القوقاز
إيران
شرق
وسط
غرب
أفغانستان
ماوراء النهر وشماله
الصين
انتشار الإسلام في فرغانة وإقليم سنكيانغ في غرب الصين
دول وممالك مستقلة
سلطنة مغول دلهي
شيرشاه الأفغاني
دولة آل لودهي في دلهي
دولة السادات في دلهي
أسرة آل تغلق
الخلجيون
سلطنة دلهي
الغوريون
الغزنويون
ممالك هندية
الممالك الهندية
دول مستقلة
مغول دلهي
دول مستقلة
أسرة آل تغلق
سلطنة دلهي
الهند
تركيا
البلقان وشرق أوروبا
الأتراك العثمانيون
دول سلاجقة
سلاجقة الروم
البيزنطيون
خلال القرن الخامس عشر
دخلت كل الممالك والإمارات في ملقا وجزائر إندونيسيا
وجنوب الفلبين في الإسلام
دخول الإسلام وانتشاره في سومطرة وجاوة وبقية
جزر إندونيسيا وجنوب الفلبين على يد التجار والدعاة المسلمين
آسيا
شرق

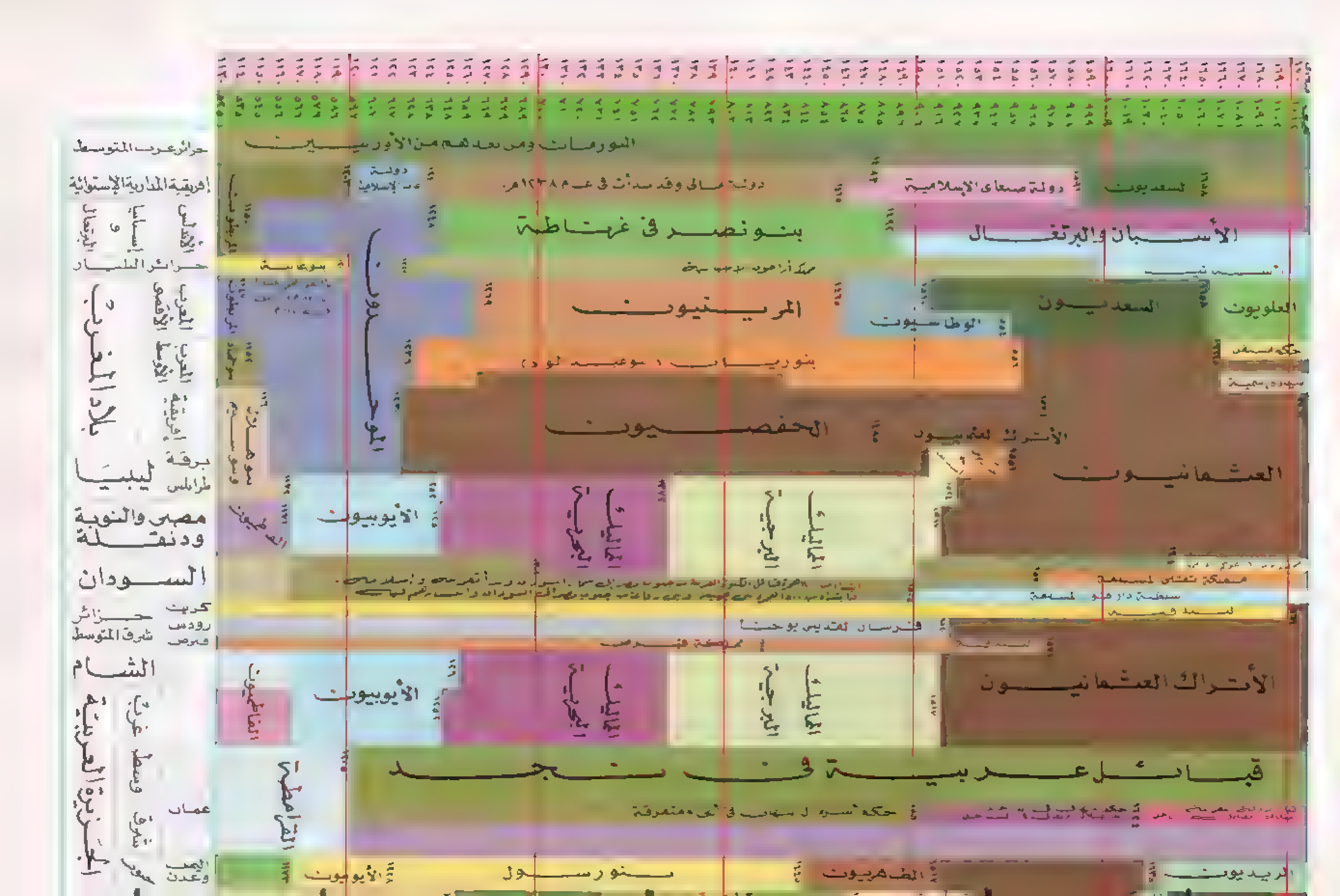

جزائر غرب المتوسط
إفريقية المدارية الإستوائية
الأندلس
إسبانيا و البرتغال
جزائر الشمال
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
إفريقية
بلاد المغرب
برقة طرابلس
ليبيا
مصر والنوبة ودنقلة
السودان
كريت رودس قبرص
جزائر شرق المتوسط
الشام
عمان
شرق وسط غرب
الجزيرة العربية
اليمن وعدن
النورمان ومن بعدهم من الأوربيين
دولة صنعاى الإسلامية
السعديون
بنو نصر في غرناطة
الأسبان والبرتغال
المرينيون
الوطاسيون
السعديون
العلويون
بنو زيان (بنو عبد الواد)
الحفصيون
الأتراك العثمانيون
العثمانيون
الموحدون
الأيوبيون
المماليك البحرية
المماليك البرجية
فرسان القديس يوحنا
الأتراك العثمانيون
الفاطميون
القرامطة
قبائل عربية في نجد
بنو رسول
الطاهريون
الزيديون

وصلنا بهذه الجداول التاريخية المقارنة إلى سنة ١٩٨٥ م . والحقيقة أن التطور التاريخى لبلاد الإسلام تم فى الستينات من القرن العشرين باستقلال بلاد الإسلام جميعاً ونشوء الدول العربية والإسلامية المعاصرة فى التواريخ التى بيناها فى هذا القسم الأخير من الجداول التاريخية المقارنة . وفيما عدا بلاد ماوراء النهر الإسلامية ومايقع إلى شرقها مما يدخل فى جمهورية الصين من بلاد المسلمين فإن العالم الإسلامى كله استقل وأنشأ

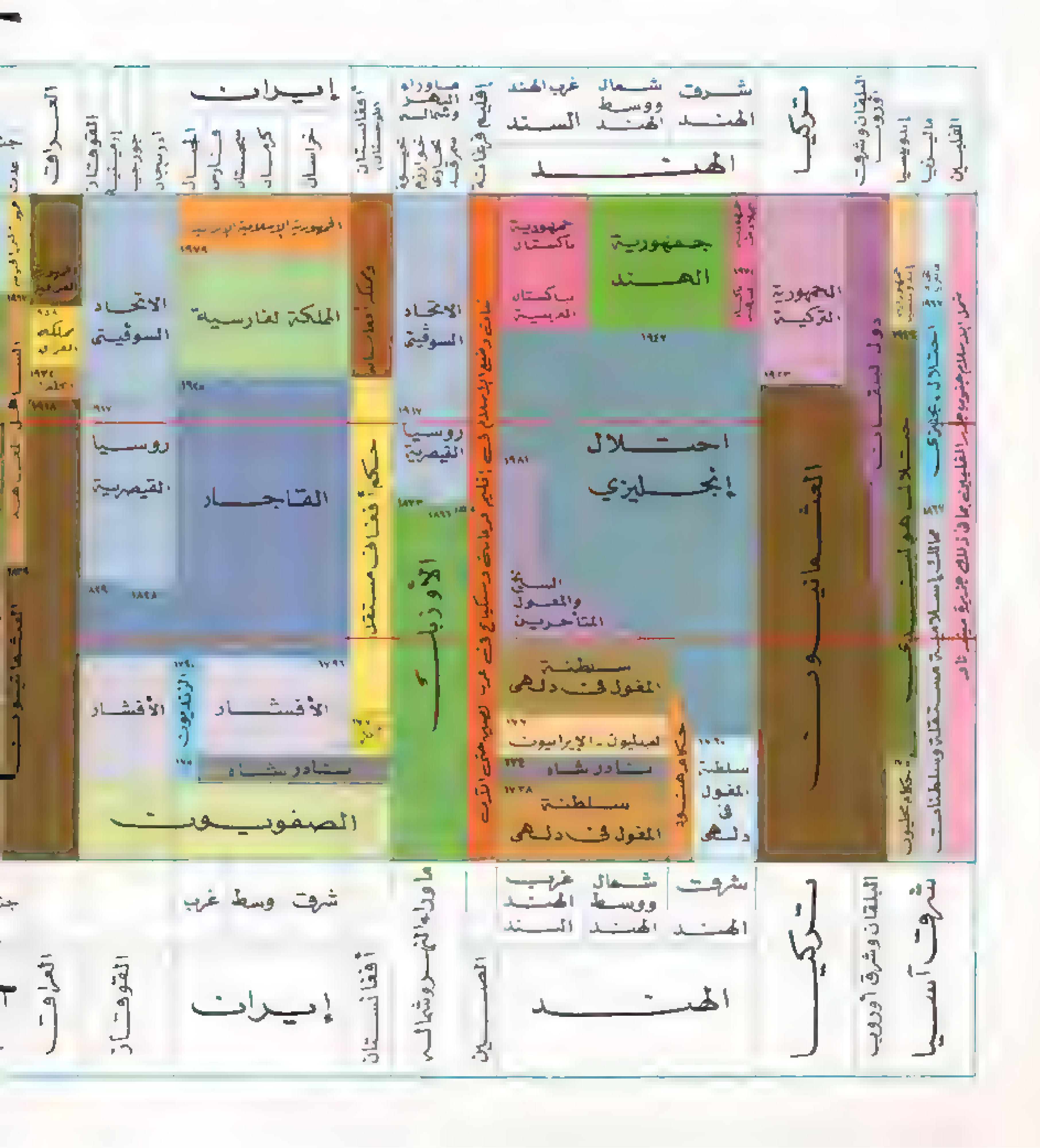

دوله المستقلة فى بلاده فى إفريقية وآسيا وشرقى أوروبا . ومازالت قضية فلسطين قائمة وشعب فلسطين يجاهد فى سبيل استعادة وطنه المسلوب ، والعالم الإسلامى كله معه فى هذا الصراع الذى سينتهى حتماً بانتصار الحق العربى . ولم نستطع أن نبين على الخريطة امتدادات الإسلام فى أوروبا وبلاد العالم الجديد . ولكن القارىء يجد بيان ذلك مفصلاً فى آخر خرائط هذا الأطلس والنص الخاص به .

جداول تاريخية مقارنة لأهم أحداث التاريخ الإسلامي وتعاقب الدول الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى أواخر القرن الرابع عشر الهجري

كان لابد – لمعاونة القارىء على الربط التاريخي بين مجموعات الخرائط التي يضمها هذا الأطلس – من إعداد جدول أو بيان تاريخي مقارن يعين القارىء على استحضار الخريطة التاريخية لعالم الإسلام في كل عصر من عصوره ؛ لأن تاريخ العالم الإسلامي مر بفترتين متباينتين :

الفتـرة الأولـى .

وتبدأ من ميلاد الأمة الإسلامية في المدينة في ١٢ من ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة ٢٤ من سبتمبر ٦٢٢ م ، إلى نهاية الدولة الأموية في سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م وقيام الدولة العباسية ، وتلك هي فترة الدولة الإسلامية العامة التي تحكم العالم الإسلامي كله من غرب الصين إلى المحيط الأطلسي وأقصى الأندلس شمالاً .

الفترة الثانيـة .

فترة التفرق أي قيام الدول المستقلة في شتى بقاع عالم الإسلام ، وهي ظاهرة سياسية عامة ، لايزال مداها يتسع حتى تقتصر الدولة العامة – وهي الخلافة العباسية التي يسميها الماوردي الدولة العامة ، ويسميها أرنولد توينبي بالدولة العالمية Universal State – فعلياً على بلاد العراق أو السواد وهو جنوب بلاد العراق ، أما بقية البلاد الإسلامية فيسير كل منها في طريق ، وتقوم فيها الدول المحلية على درجات مختلفة من الاستقلال ، وإن ظل معظمها داخلاً في طاعة الخليفة العباسي دخولاً اسمياً ظاهرياً .

وهنا تبدو الحاجة إلى الجداول التاريخية ، أو جداول الدول المتعاصرة التي تستعين بها على معرفة الوضع السياسي في كل قطر من أقطار الإسلام في كل وقت من الأوقات ، وهي جداول تكمل هذا الأطلس وتتم الفائدة منه .

وهذه الجداول أشكال وأنواع شتى ، أوفاها وأجملها فائدة هي التي اخترت أن أصنعها وأقدمها هنا ، وهي طريقة اللوحات التاريخية المقارنة Comparative Historical Charts وضعت جدول إطار زمني Chronological Table للتاريخ الإسلامي من بدء التاريخ الهجري إلى العصر الحديث أي من سنة ٦٢٢ إلى سنة ١٩٨٦ ميلادية

وفي الجدول قسمنا الزمن إلى قرون ، وحددنا ذلك بخطوط أفقية حمراء يراها القارىء واضحة في الجانب الأيمن من الجدول ، وفي أقصى اليسار جعلت التقسيم إلى عقود القرون ، ثم خصصت أعمدة طولية لكل بلد إسلامي ، ثم أثبت التطور السياسي في كل بلاد الإسلام في كل قرن ، وكل عقد ، صاعداً من أسفل إلى أعلى ، وقد تركت جانباً بعض الدول الصغيرة ؛ حتى لاتزدحم الصفحات بالألوان ، ويصعب تتبع الحوادث في كل بلاد الإسلام في كل قرن .

وقد جرت العادة – في مثل هذه الجداول – أن تخصص أعمدة متجاورة للبلاد التي يقع بعضها إلى شمال بعض أو جنوبها ، كما نرى في حالات إيران وماوراء النهر – ومايقع شماله من بلاد الإسلام – وكذلك حالات بلاد العراق والشام ومصر التي تقع بلاد الأتراك العثمانيين شمالها جميعاً ، وقد خصصنا أعمدة لبلاد شرق آسيا ، وإفريقية المدارية ، والاستوائية ، وجزائر البحر المتوسط ، سواء في شرقه أو وسطه أو غربه ، وذلك حتى تكون الجداول شاملة للتطور التاريخي لكل بلاد الإسلام .

وقد سبقني إلى عمل مثل هذه الجداول الدكتور إبراهيم جمعة الأستاذ المؤرخ المصري ، عمل الجدول التاريخي لعالم الإسلام : A Historical Chart of the Muslim World باللغة الإنجليزية ونشرته له دار E.J BRILL في لايدن بهولندا ، ذيلا على المجلد السابع من تاريخ الإسلام وحضارته ، الذي كتبه وأشرف عليه مع نفر من المستشرقين الأوروبيين وعلى رأسهم المستشرق الكبير برتولد شبولر Bertold Spuler الأستاذ السابق بجامعة هامبورج .

وعمل الدكتور إبراهيم جمعة عمل ممتاز ، وقد أخذت منه وأصلحت مابدا لي من وجوه الإصلاح فيه ، وأكملته بإضافة شرق آسيا من ناحية ، وإفريقية المدارية والاستوائية من ناحية أخرى .

ولم أر مايدعو إلى التفرقة في الألوان ودرجاتها بين البلاد الإسلامية وغير الإسلامية ، ولجأت أحياناً إلى التهشير ، أي الخطوط المائلة فوق الألوان ، في حالات تنازع الدول أو السلطات ، أو عدم وضوح الوضع السياسي في الأقاليم ، وبينت ذلك بالكتابة فوق الجداول نفسها .

المـراجـع

ابـــن الأثـــير : علي بن أحمد بن أبي الكرم (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) الكامل في التاريخ . ط. بولاق ١٢ جزءاً – ١٢٧٤هـ .

الأصفهـــاني : أبو الفرج ، ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م كتاب الأغاني ، طبعة دار الكتب بالقاهرة ٢٠ جزءاً ، ابتداء من ١٩٢١ م .

بارتولـــد ، ف : تاريخ الحضارة العربية ، نقله إلى العربية حمزة طاهر .

أوتيخـــا : سعيد بن البطريق (ت ٣١١ هـ / ٩٢٣ م) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٩ م .

بروكلمـــان ، كارل : تاريخ الدول الإسلامية ، ترجمة عربية في ٤ أجزاء ، بيروت ١٩٤٨ م .

البـــلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) فتوح البلدان ، بتحقيق صلاح المنجد ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٦٠ م .

الطـــبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) تاريخ الرسل والملوك –بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم– دار المعارف ، القاهرة ١٠ أجزاء ابتداء من سنة ١٩٦٠ م .

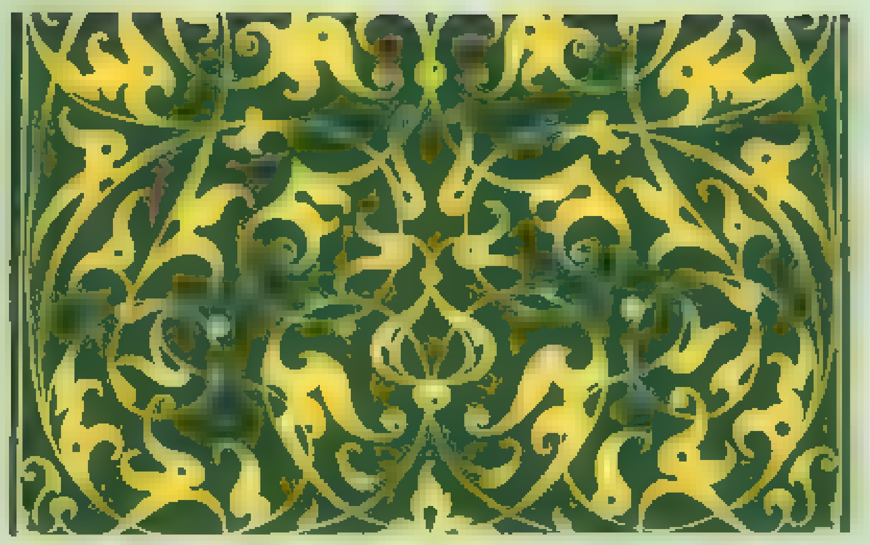

الفصل الرابع

العالم قبل الإسلام

بيان الخرائط

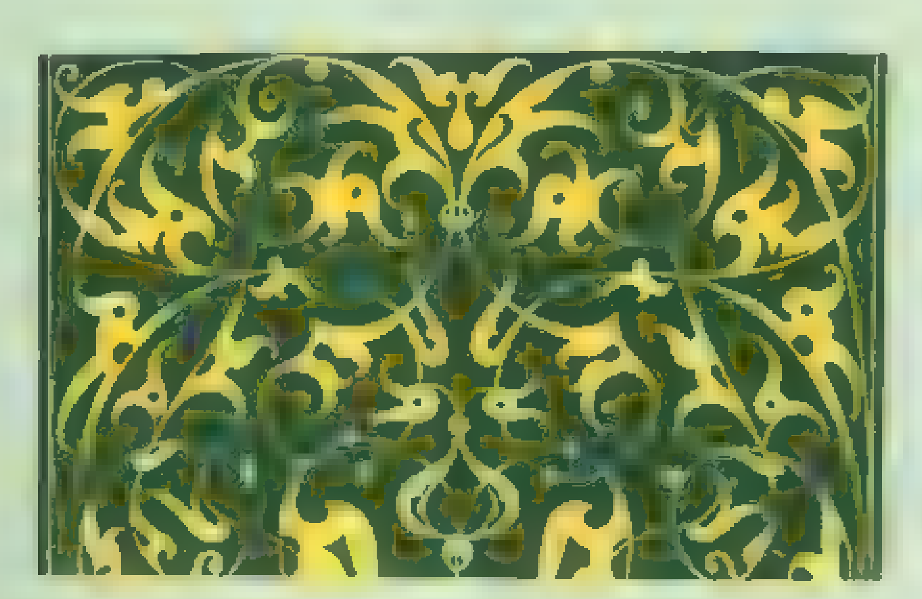

آسـيا
أجناس الترك الغربيين
أجناس الترك الشرقيين
بلاد المغول
إمبراطورية تتوبا
السيلا
بلاد الترك الهياطلة
بلاد التبت
الصين
أسرة تانج
المحيط
الهادى
بحر العرب
الهند
دولة هارشا
خليج بنغالة
سيام
المحيط الهندى
العالم
فى عصر البعثة النبوية
أوائل القرن السابع الميلادى

الكلت
بلاد السكسون
الصقالبة
أوروبا
دولة الفرنجة
الألمان
دولة الخزر
بلاد الآفار
دولة القوط الغربيين
البلغار
القسطنطينية
بحر بنطش
دولة الروم البيزنطيين
نوميديا
طرابلس
بحر الروم
بلاد الشام
الفرس الساسانيين
مصر
بلاد البربر
الصحراء الكبرى
المدينة المنورة
مكة المكرمة
بلاد العرب
اليمن
إفريقيا
الحبشة
بحر
الظلمات

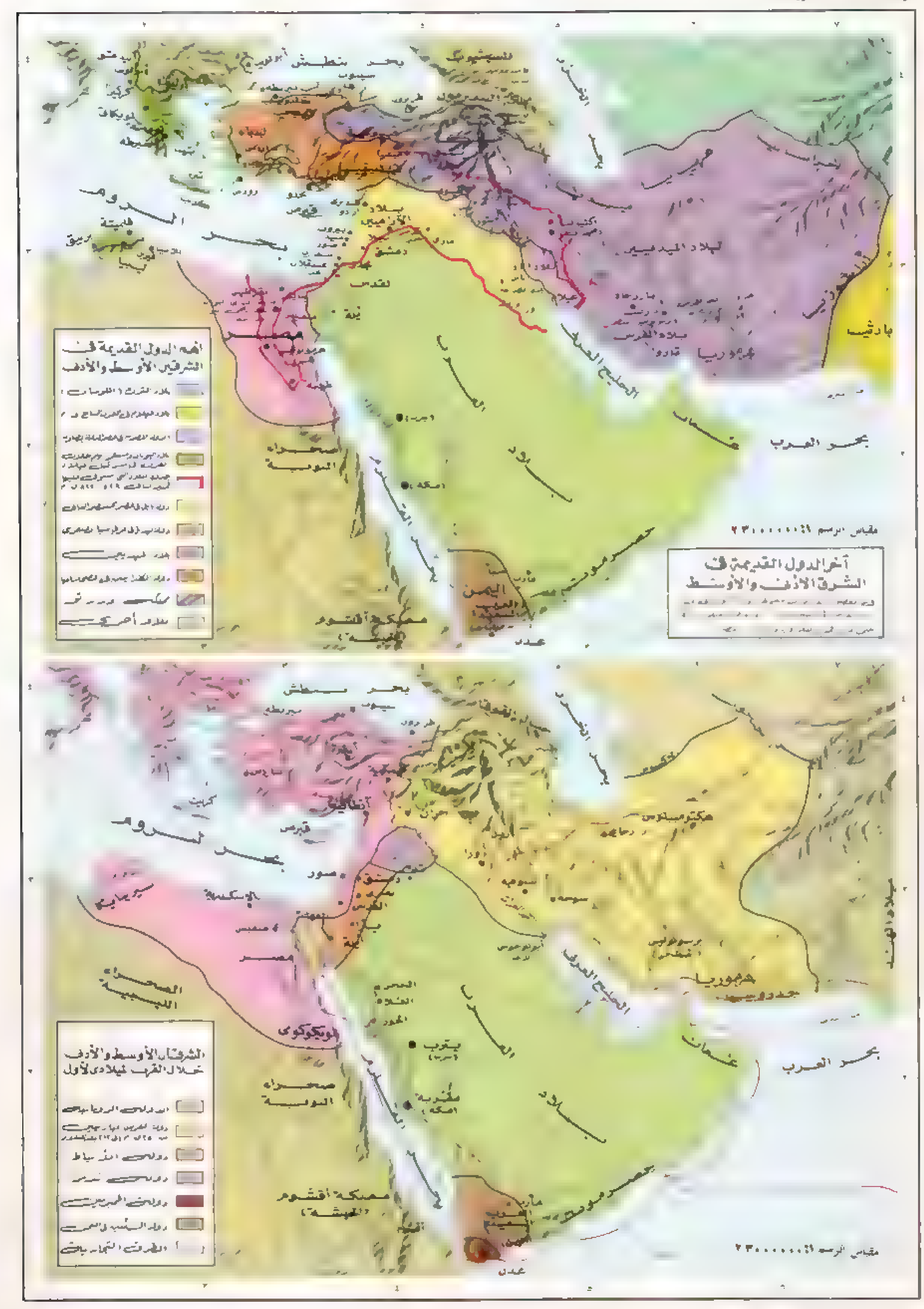
أهم الدول القديمة في الشرقين الأوسط والأدنى
آخر الدول القديمة في الشرق الأدنى والأوسط
الشرقان الأوسط والأدنى خلال القرن الميلادي الأول
بحر العرب
الخليج العربي
بلاد الميديين
بلاد الفرس
اليمن
عدن
مصر
القدس
دمشق
بحر الروم
قبرص
أنطاكية
صور
الإسكندرية
مملكة أكسوم (الحبشة)
صحراء النوبة
الصحراء الليبية
يثرب
عمان
مقياس الرسم ١ : ٢٣٠٠٠٠٠٠

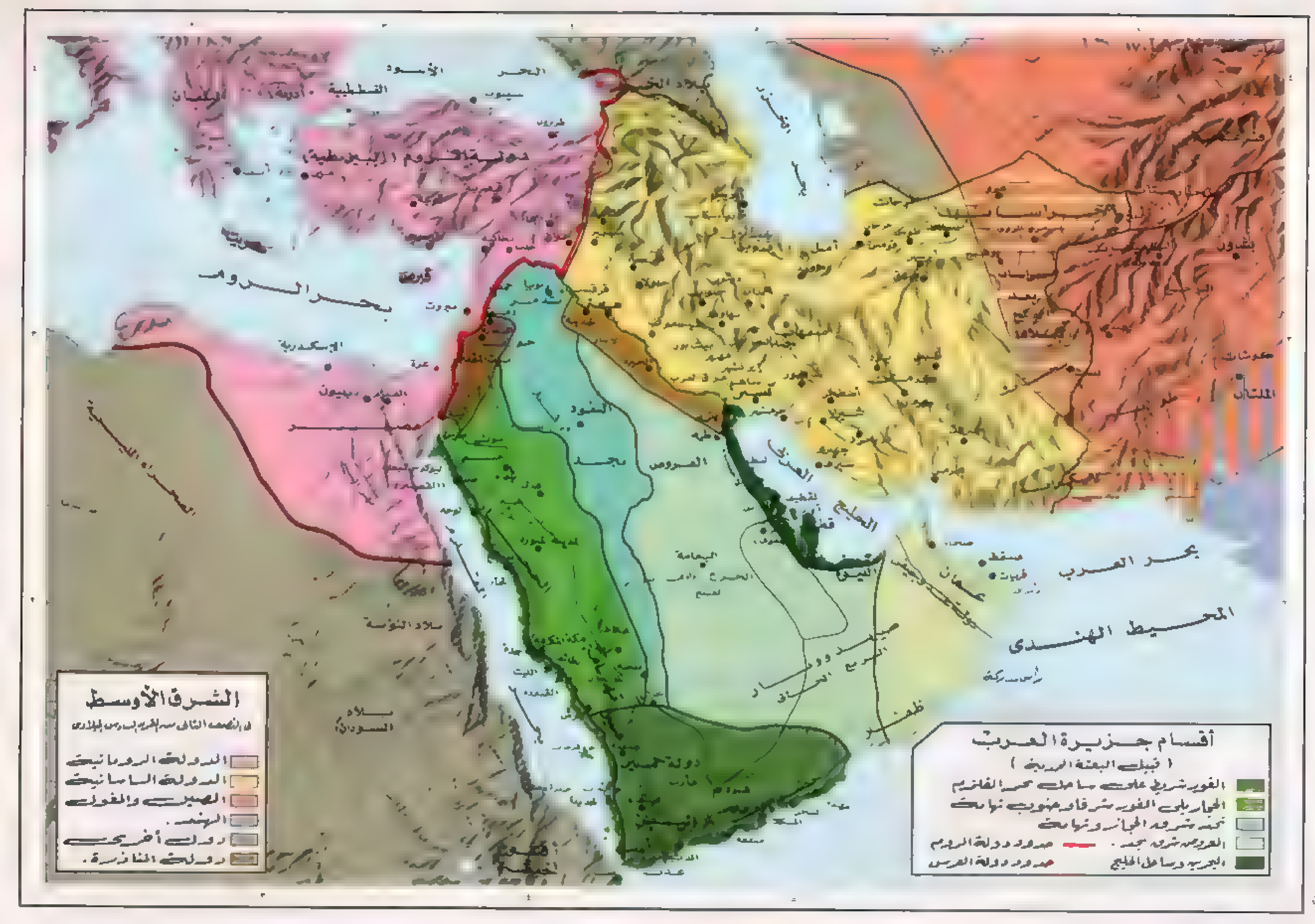
الشرق الأوسط
الدولة الرومانية
الدولة الساسانية
الهند
دول أخرى
أقسام جزيرة العرب
(قبيل البعثة النبوية)
نجد
دولة حمير
العروض
الخليج العربي
بحر العرب
المحيط الهندي
بحر الروم
دولة الروم (البيزنطية)
خراسان
مصر
بلاد النوبة
بلاد السودان
الإسكندرية
قبرص
مكة المكرمة
مدينة يثرب
اليمامة
ظفار
مسقط
عمان
الملتان

العالم قبل الإسلام

تقول الآية «٢٨» من سورة سبأ ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾ وهى تقرير صريح أن رسالة الإسلام للبشر أجمعين ، الأمر الذى ينفى تماماً مايذهب إليه بعض المؤرخين والمستشرقين من أن محمداً ﷺ قد أرسل للعرب وحدهم ، وأن فتوح الإسلام خارج الجزيرة العربية وقعت لأسباب اقتصادية وتوغرافية خارجة عن صلب الدعوة الإسلامية ، وهذا هو الذى يجعل أولئك المؤرخين والمستشرقين يبدءون دراسة مقدمات التاريخ الإسلامى بدراسة أحوال جزيرة العرب قبل الإسلام ، لأن رأيهم أن البداية فى الجزيرة والنهاية ينبغى أن تكون فيها ، مع أن فكرة عالمية الإسلام شائعة فى كثير من سور القرآن الكريم فى صور شتى من التعبير .

لهذا رأيت فى وضع خطة هذا الأطلس أن تكون البداية هى وضع تصور جغرافى تاريخى لأحوال العالم كله ، فى الوقت الذى بدأ فيه تاريخ الإسلام ، وهو أوائل القرن السابع الميلادى ، ثم انتقلت فى خرائط هذا الفصل إلى الشرق الأدنى والأوسط ثم جزيرة العرب ، وبعد ذلك تبدأ الفصل الخامس وهو الخاص بالعصر النبوى .

العالم القديم فى عصر البعثة النبوية « أوائل القرن السابع الميلادى » .

الغـرب الأوروبـــى .

فى أواخر القرن السادس وبداية السابع الميلادى بينا كانت كبريات جماعات الجرمان المهاجرة من شمال وشرق أوروبا قد استقرت فى مواطنها الجديدة على أراضى الدولة الرومانية فى الغرب ، كانت قبائل الأنجلو سكسون قد استقرت فى إنجلترا وهم الإنجليز ، وكانت قبائل الفرنجة قد غلبت الكلت واستقرت فى بلاد غالة ، فى حين انتقلت قبائل القوط الغربيين إلى شبه الجزيرة الأيبيرية واختلطت بمن سبقهم إليها من السويف والآلان والوندال ، وقامت هناك دولة القوط الغربيين ، وعاصمتهم « طليطلة » واستقرت قبائل البرجنديين فى حوض الرون ، وأقامت لنفسها مملكة هناك ، واستقرت قبائل القوط الشرقيين « الأوستروجوث » فى شبه الجزيرة الإيطالية واللومبارد فى شمالها ، وأقامت كل من هذه القبائل مملكة لها جرمانية الشكل لاتينية الحضارة .

ومعظم هذه الممالك – فيما عدا الفرنجة والكلت الإيرلنديين – كانت مسيحية على المذهب الأريوسى المخالف تماماً للمذهب الكاثوليكى ، الذى كانت تبشر به البابوية فى روما ، وفى سنة ٥٩٠ م أى بعد مولد محمد رسول الله ﷺ بعشرين سنة ، تولى البابوية القس هلدبراند ، الذى أخذ الاسم الكنسى جريجورى السابع ، وبدأ صراع البابوية الدينى الطويل مع كل المذاهب غير الكاثوليكية فى أوروبا ، وكذلك بدأ صراع الكنيسة الكاثوليكية مع الدول الجرمانية ، وقد نجحت البابوية بفضل نشاط جماعات الرهبان العاملين فى خدمتها فى إدخال معظم الممالك الجرمانية فى المذهب الكاثوليكى ، وبخاصة مملكة القوط الغربيين « الفيزيجوث » فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، حيث كان الصراع بعد ذلك مع العرب

شبه جزيرة أيبريا بين الكاثوليكية والإسلام .

وجدير بالملاحظة هنا أن القوط الغربيين دخلوا إسبانيا واجتاحوا من كان قد دخلها قبلهم من الجرمان ، وسادوا أهلها من الأيبيريين الرومان ابتداء من سنة ٤١٠ م أى أنهم سبقوا المسلمين إلى الدخول فيها بثلاثة قرون ، ولم يتحول ملوك القوط إلى الكاثوليكية إلا سنة ٥٨٧ ميلادية أى قبل دخول المسلمين شبه الجزيرة بقرن وربع « ١٢٤ سنة على وجه التحديد » وقبل ذلك كانوا فى نظر الكنيسة هراطقة أو كفاراً خارجين على الدين ، فالكاثوليكية ليست سابقة على الإسلام فى شبه الجزيرة بزمن طويل ، وطليطلة نفسها لم تصبح عاصمة شبه الجزيرة إلا سنة ٥٦٠ ميلادية ، فهى لم تسبق قرطبة عاصمة لشبه الجزيرة إلا بقرنين ونصف من الزمن ، وأول المجامع الدينية الكاثوليكية الكبيرة فى شبه الجزيرة كان مجمع طليطلة الثالث سنة ٥٨٩ م وإشبيلية لم تصبح مقر أسقفية كاثوليكية فى إسبانيا إلا سنة ٥٩٩ م ، وهذه كلها تواريخ تجعلنا نعيد النظر فى علاقة شبه الجزيرة بالمسيحية والإسلام ، فإن الانطباع السائد هو أن المسلمين اقتحموا شبه الجزيرة على بلد مسيحى كاثوليكى من زمن طويل ، بل الحقيقة أن القوط أنفسهم لم يختلطوا بأهل البلاد ولاانصهروا فى سكان الجزيرة انصهاراً تاماً حتى دخول المسلمين ، ومن هذه الناحية كان العرب المسلمون أنجح من القوط ، فبعد قرن ونصف من الزمان كان البلد عربى الطابع شرقى الحضارة ، فى حين أنه لم يكن قط قوطياً ، وهذه كلها حقائق تدعونا إلى إعادة النظر فى وضع الإسلام ، وعلاقة الحضارة العربية بتلك البلاد .

وســـط أوروبـــا .

أما وسط شبه الجزيرة ومايليه شرقاً من بلاد الجرمان فلم يكن محدد الملامح من الناحية السياسية أو الدينية ، وبعد قرنين من بدايات القرن السابع الذى تصوره هذه الخريطة سنجد شرلمان أكبر ملوك أوروبا الكاثوليكية يشن حرب إبادة على الجرمان ، فيما على نهر الراين شرقاً ، لكى يرغم الجرمان على دخول الكاثوليكية ، وبعد قرن واحد من وفاة شرلمان سنجد أباطرة الهوهنشتاوفن الجرمان يقومون بنفس الحرب العنيفة على الصقالبة أهل شرق أوروبا ، لينتزعوا منهم الأراضى حتى نهر الدنيبر .

شـــرق أوروبـــا .

أما فى شرق أوروبا سنة ٦١٠ ميلادية ، وهى سنة البعثة المحمدية ، فإننا نشهد ميلاد الدولة الهرقلية من دول الدولة البيزنطية ، فقد تولى هراكليوس ابن هراكليوس « الذى كان والياً على إفريقية البيزنطية » عرش بيزنطة ، و تولى بعث الدولة سياسياً وعسكرياً ، وأعلن الحرب على الفرس الساسانيين ، واستخلص منهم بلاد الشام ومصر ، وجزءاً كبيراً من أرض الجزيرة ، وهذه حوادث هامة تنبأ بها القرآن الكريم كما نرى فى أول سورة الروم وهى رقم (٣٠) من سور القرآن ﴿ **الۤمۤ . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم** ﴾ وهذه الآيات تدل على تعاطف الإسلام مع النصارى ، لأنهم أصحاب كتاب سماوى يؤمنون بالله سبحانه ، وقد كان جستنيان إمبراطور الدولة البيزنطية « ٥٢٧ – ٥٦٥ م » قد حاول إعادة الدولة الرومانية الغربية اللاتينية ، واجتهد فى ذلك ، واستعاد ولاية إفريقية من الوندال ، وكذلك استعاد صقلية وجزءاً كبيراً من إيطاليا ، ولكنه فشل فى النهاية ، وعندما قامت دولة هرقل انتهى هذا النزوع إلى إحياء الدولة الرومانية اللاتينية القديمة ، واتجه اهتمام أباطرة القسطنطينية إلى تأكيد حقيقة أن الدولة البيزنطية دولة شرقية هيلينية أو إغريقية الطابع أرثوذكسية المذهب ، وهذا هو المذهب الذى نسميه نحن بمذهب الروم الأرثوذكس ، الذى ترأسه كنيسة القسطنطينية ، ومن أيام هرقل هذا أى من نهاية العقد الأول من القرن السابع الميلادى تبدأ عملية صبغ الدولة البيزنطية وكل ماتسيطر عليه من بلاد وشعوب بالطابع الإغريقى أو مايسمى عادة باسم Hellenisation of the East ولم تعد تلك الدولة تسمى بالإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وهنا فتح المجال لقيام دولة رومانية فى غرب أوروبا تحت إشراف الكنيسة الكاثوليكية وهذا هى تسمى The Holy Roman Empire وقد ولدت فرنجية أولاً ، وكان أول أباطرتها شرلمان الذى توجه البابا بيده ، وبعد وفاة شرلمان وانقسام دولته بين أولاده الثلاثة بمقتضى معاهدة فردان سنة ٨٤٣ م كان تاج الإمبراطورية ولقبها من نصيب لوثير صاحب القسم الأوسط من أراضى الإمبراطورية الذى يشمل على وجه التقريب حوض الراين وشمال إيطاليا ، وخلفه ابنه لوثير الثانى سنة ٨٥٥ م ، وتوج إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة ،

وأشيعت إليه إيطاليا قبل موته ٨٦٩ م ، وتاج الإمبراطورية هذا هو الذى انتقل ومعه السلطان على إيطاليا إلى أوتو الأول ملك ألمانيا سنة ٩٦٢ م ، وقد توجه البابا فى روما ولقب بأوتو الكبير ، وبه بدأت الدولة الرومانية الجرمانية المقدسة ، ويبدأ الصراع بين تلك الدولة والبابوية على سيادة الدولة ، وهو الصراع الذى يعرف بصراع البابوية والإمبراطورية .

ومعنى ذلك أن النصف الأول من القرن السابع الميلادى الذى شهد مولد الإسلام ، شهد أيضاً بداية لتطورات سياسية ودينية واثنوجرافية واسعة المدى فى شرق أوروبا وغربها على السواء ، وسيكون على المسلمين – الذين ستتسع دولتهم خلال القرن السابع الميلادى كله ، ويدخلون غرب أوروبا فاتحين للأندلس فى أوائل القرن الثامن سنة ٧١١ م – أن يواجهوا الإمبراطورية البيزنطية الهيلينية فى الشرق ، ودولة الفرنجة تؤيدها البابوية فى الغرب ، ويكون ذلك الصراع على مصير الغرب الأوروبى الذى يتحسم لصالح المسيحية الكاثوليكية فى معركة بواتييه سنة ٧٣٢ م ، وتقتصر سيادة الإسلام فى الغرب على شبه الجزيرة الأيبيرية ، وكل ذلك ستسجله فصول هذا الأطلس وخرائطه

الفرس الساسانيون .

أما فى الشرق الأسيوى فإن الفرس الساسانيين كانوا عند ميلاد الإسلام سادة هضبة إيران حتى نهر المرغاب شرقاً ، وكان قلب إمبراطوريتهم فى بلاد العراق وعاصمتهم المدائن التى تسمى طيشفون Ctesiphon على نهر دجلة ، وكان الفرس وثنيين مجوساً يعبدون النار ، وكانت الحرب بينهم وبين الدولة الرومانية الشرقية ، ثم دولة الروم البيزنطيين طويلة وقد بيَّن فى الخريطة الأخيرة من خرائط هذا الفصل خط الحدود بينهما ، ومنها يتبين أن الروم الذين كانوا يسودون غربى بلاد الشام بما فى ذلك فلسطين كانوا يضعون تحت حمايتهم دولة عربية موالية لهم ، هى دولة الغساسنة التى كانت تسيطر على مايعرف الآن ببلاد الأردن وبعض الأراضى شماله ، وكانت هذه الدولة تصل جنوباً إلى العقبة وأيلة على خليج العقبة ، وكذلك كانت دولة الفرس تتخذ لها فى شرق جنوب العراق دولة عربية ، هى دولة المناذرة اللخميين وعاصمتها الحيرة ، وكان الحد الفاصل بين جزيرة العرب وبلاد الشام – وهو خط يمتد تقريباً من أيلة إلى الحيرة – مسكوناً بقبائل عربية تسمى فى الغرب بعرب الروم أو العرب المتنصرة ، أما فى الوسط فكانوا يسمون بعرب الضاحية أو ضاحية قضاعة

وكانت دولة الفرس الساسانيين التى كانت تحكم الهضبة الإيرانية فى عصر البعثة المحمدية ، قد شاخت وتفككت عرى وحدتها ، ودخلت فى دور التدهور ، وليس أدل على ذلك من أنه تعاقب على عرشها ، من أواخر القرن السادس الميلادى إلى تمام قضاء المسلمين عليها سنة ٣٢ هـ / ٦٥١ م،وهى سنة قتل يزدجرد آخر ملوكها – عدد من الأكاسرة هم

بسطام	٥٩١ – ٥٩٦ م وكان ثائراً على العرش ظهر فى ميديا وقضى على كسرى الثانى أبرويز
قباذ الثانى	(شيرويه) ٦٢٨ – ٦٣٣ م
أردشير الثانى	٦٣٣ م
شهر براز	٦٣٤ م
بوران دخت	٦٣٤ م
أزرميدخت	٦٣٤ م
يزد جرد الثالث	٦٣٤ م – ٦٥١ م (١٣ – ٣٢ هـ)

وهناك مبالغة فى نصوص تصوير اتساع دولة فارس فى العصر الإيرانى ، لأن فارس لم تكن قط فى أى عصر من عصور تاريخها قبل الإسلام دولة ثابتة الحدود ، إنما كانت حدودها تتسع أحياناً فى عصور الملوك الأقوياء ، وتنقبض فى عصور الضعفاء ، وهم الأكثرون ، وعماد القوة العسكرية الإيرانية كان جماعات مرتزقة من قبائل تركية إلى جانب قبائل الهضبة الإيرانية نفسها ، وكان الأكاسرة يسلطون هذه الجماعات المقاتلة على البلاد ، لإرهاب أهلها وإرغامهم على أداء الجزية والإتاوات كما نرى فى الولايات الشرقية ، وهى طوران ، وبدرتان ، وكوشان شهر ، وصغديانا ، وهى بلاد الصغد شرق ماوراء النهر ، ومعظم اعتماد المؤرخين فى ذلك يقوم على اللوحة التى كشفتها بعثة حفائر أمريكية ، يسجل فيها الملك سابور الأول (٢٤١ – ٢٧٢ م) امتداد ملكه وسلطانه ، وهذه اللوحة عثر عليها فى برسوبوليس وهى إصطخر ، وسابور الأول هذا – وهو ثانى ملوك الأسرة – هو ابن مؤسسها أردشير . وبين عصر سابور – وهو أقوى ملوك الدولة – والقرن الهجرى السابع أمد طويل مرت خلاله الدولة بتطورات وأحداث شتى ، ولوحة سابور تلك تقول :

إن شرق الشام كله كان داخلاً فى ملك الأكاسرة وكذلك ساحل الخليج وكل عمان ، وفى أوائل القرن السابع الميلادى لانجد أثراً لذلك ، وآخر ملوك الساسانيين العظام هو خسرو الأول المعروف بأنو شروان أى ذى العقل أو العاقل (٥٣١ – ٥٧٩ م) وهو معاصر جستنيان وله فى الكتب العربية صيت بعيد ، وربما بلغت الدولة هذا الاتساع فى عصره ، ولكنها لم تلبث أن انكمشت بعد وفاته .

ديانة الفرس

وكانت ديانة الفرس الغالبة هى الزرادشتية التى تقوم على وجود إلهين : إله النور أو « مازدا » وهو إله الخير ، وإله الظلمة أو « أهريمان » وهو إله الشر ، ورمز إله النور والخير هو النار التى انتشرت معابدها فى كل نواحى إيران ، وقد نافست الزرادشتية ديانة أخرى هى المانوية وقد بشر بها مانى ، وهى ديانة وثنية أيضاً ولكنها كانت متأثرة بالمسيحية ، أى تقول بالعدالة وتقسيم الثروات بين الناس ، ولهذا يصفها الكثيرون من مؤرخى العرب فى صورة مبادىء تقول بشيوعية ملك كل شىء حتى النساء ، ولم تكن المانوية كذلك ، وقد حاربها الأكاسرة حرباً عنيفة وضيقوا عليها الخناق

النواحى السياسية والاجتماعية فى دولة فارس

أما من الناحية السياسية والاجتماعية فقد كانت قواعد الحكم الساسانية الأصيلة قد تدهورت بعد كسرى أنو شروان ، [illegible] حكام الولايات وكلهم من أفراد البيت الساسانى ماعدا شهر براز ، وكانت عادة أولئك الأمراء حكام الولايات أن يختار كل منهم قائداً ، يحكم الولاية باسمه ويفعل بأهلها مايريد ، وهى ظاهرة إدارية سيرثها العباسيون من الفرس ، وكان يساعد القائد قواد أصغر منه يسمون الأساورة ، وواحدهم الأسوار ، وكان لكل ولاية عامل مالى يسمى الإصبهبد ، والإصبهبد يعتمد فى حكم القرى على طائفة ممن يسمى الدهقان يعسف بالناس ويشتط معهم فى الجبايات ، ويذهب كرستنسن فى كتابه عن تاريخ إيران فى عصر الساسانيين إلى أن منصبى الموبذ والموبذان كانت لهما خصائص دينية ، وربما كان الموبذان يقوم بوظيفة الكاهن الأكبر

تصور جغرافى لدولة فارس

وكان قلب الدولة الإيرانية الساسانية ومصدر ثرائها هو إقليم خراسان ، وقاعدته نيسابور ، وكان إقليم خراسان الساسانى أصغر حجماً من خراسان الإسلامية ، فقد كان يمتد من شرق لوكانيا التى كانت تعرف أيضاً باسم جرجان ، وسيحتفظ بهذا الاسم عند تحول بلاد فارس إلى بلاد إسلامية ، وكانت حدود خراسان الشرقية تقف عند نهر المرغاب

فإذا اتجهنا إلى الشرق فى طريقنا إلى الهند ، دخلنا فى مناطق تعتبر من الناحيتين الجغرافية والبشرية من أعسر مناطق الأرض ، فيها جبال غاية فى الصعوبة والخشونة ، فبعد أن نجتاز منطقة طخارستان – وهى شمال أفغانستان – نجد أنفسنا أمام مناطق باميان وزابلستان جبلية الوعرة ، وهى امتدادات إلى الغرب من جبال الهندكوش العالية ، وفروعها جبال البرز وسيستان التى تحمى سهول السند من الشمال والغرب ، فلا ينفذ الإنسان منها إلا عن طريق ممرات جبلية عالية ، أشهرها وأكبرها ممر خيبر المشهور الذى تقوم قرب مخرجه الجنوبى مدينة بشاور ، أول البلاد الهندية الكبرى ، وهذه المناطق الجبلية الواقعة بين هضبة إيران وسهول السند تنتهى فى الجنوب بعد غزنة وقندهار بأقاليم صحراوية فقيرة ، كان المسلمون يسمونها بلاد الميد أو المفازة ، وكانت تسكنها فى عصر الفتح الإسلامى الأول للهند – العقد الأخير من القرن الهجرى الأول / الثامن الميلادى – قبائل فقيرة هى خليط من الإيرانيين والترك والهنود ، وكان بعض رجالها يركبون السفن فى البحر العربى ، ويقطعون الطريق على السفن ، وكان إخضاع هذه القبائل وكف أذاها عن الناس بالبر والبحر من أسباب سير المسلمين إليها وفتحها ، وفى هذه النواحى ستنزل قبائل البلوش فيما بعد ، مما أعطى هذه الناحية اسم بلوشستان ، والإقليم اليوم مقسمه بين إيران والباكستان .

الهند فى عصر البعثة النبوية .

وكانت هذه المناطق كلها : من كابل وغزنة وقندهار وبلاد الهند وحوض السند وشمال غرب الهند حتى شبه جزيرة الكوجرات ومالوة وبلاد الراجبوتانيين – وحدة تاريخية فى فترات كثيرة من تاريخ الهند قبل الفتح الإسلامى وبعده ، وكان الأفغانيون كثيراً مايغيرون على بلاد السند وماعليها جنوباً ، ويضموها إلى بلادهم ، وابتداء من القرن الميلادى الرابع بدأت تحكم هذه المناطق من الهند أسرة كوبتا الثانية ، وكانت دولة زاهرة ذات حضارة

جميلة ، فقد عرفت البلاد في حكمها المدارس والمستشفيات ، ودولة كوبتا أسرة برهمية الدين والثقافة ، وفي أيامها بلغت اللغة السنسكريتية أوسع لغات الهند انتشاراً درجة رفيعة من التقدم ، وفي عصرها كتب اثنان من أعظم الآثار الأدبية الهندية وهما المهابهارتا والرامايانا وهما مجموعتان من القصص الشعبية والحكم والأشعار ، وقد قضى على هذه الدولة قبائل الهون ، وهم الذين غزوا أوروبا ووصلوا إلى غربها بقيادة زعيمهم المشهور أتيلا .

البوذيــة فــي الهنــد .

وفي القرن السابع الميلادى أقام زعيم هندوكي من أسرة كوبتا يسمى هارشا دولة جديدة شملت شمال الهند وحوض السند والكوجرات ومالوة وبقية شمال الهند حتى آسام ، وكان ملكا فاضلاً واسع الذهن والقلب ، وقد حد من سلطان البراهمة الذين كانوا يعتقدون أنهم جنس ممتاز من الهندوس أو الهندوكيين ، وكانوا يضطهدون البوذيين ، وكانت البوذية قد دخلت الهند من الصين ولقيت قبولاً من أهلها ، وأصبحت من الديانات الهندية فتحمل عليها الهندوس وبخاصة زعماؤهم وهم البراهمة . فأخذ هارشا بيد البوذيين ، فانتشرت معابدهم ، وكان هارشا كثير الخير ، وكان من عادته أن يتنازل لرعيته عن كل أملاكه كل أربع سنوات ، وراجت حول ذلك أساطير تقول إحداها : إنه تنازل مرة عن كل مايملك حتى اضطر إلى أن يسأل أختا له أن تعطيه ثوبا يتدثر به ، فما كاد يتناوله حتى سجد لبد شكراً،والبد هو كاهن البوذية الأكبر .

وكانت عاصمة دولة هارشا مدينة قنوج ، وقد زارها سائح صيني يسمى هيون تسانج وتحدث عن ازدهارها وغناها وقصورها وجمال مبانيها ، وقنوج من كبار مدن الهند الشمالية ، وقد ذكرها بطليموس الجغرافي باسم قنوجيا ، وقد ظلت زاهرة بعد الفتح الإسلامي بزمن طويل ، وعندما دخل السلطان محمود الغزنوى الهند أعجب بها إعجاباً شديداً،وهي تقع إلى الشرق من أجرا الحالية على بعد كيلو مترات قليلة من مجرى نهر الكنج أو الجانج[1] .

ولم يستطع خلفاء هارشا المحافظة على دولتهم ، فاجتاحت دولتهم – وهي دولة قنوج – قبائل الهون مرة أخرى فانفرط عقد الدولة ، ووقعت الحرب بين أمرائها ، واجتهد كهنة البراهمة في إذكاء نيران الفتنة ، طلبا لزيادة نفوذهم ، واجتهاداً في إضعاف البوذية ، ورغم ذلك فقد ظلت دولة قنوج أكبر دول شمال الهند ، وتمكنت من الثبات لغزوات أمراء كشمير والبنغال وماحولهما ، وعندما تولى عرشها مهير بوج في القرن التاسع الميلادى استرد الكثير من أملاك هارشا الماضية في البنجاب والدوءاب وعند كوالبار ، وملوك هذه الأسرة هم الذين سيواجههون الغزنويين الذين سيدخلون الهند في القرن الحادى عشر الميلادى ، وسيتمكنون من القضاء على دولة قنوج وغيرها من دول شمال الهند ويحولون شمال الهند كله بما في ذلك جمو وكشمير والبنجاب إلى بلاد إسلامية .

وفي دلهي وماحولها قامت دولة هندوكية هندية أخرى أشهر ملوكها بسال ديوا . وملوك دلهي هؤلاء هم الذين سيواجههون الغوريين ، وعلى أيدى هؤلاء سيبدأ تاريخ سلطنة دلهي الإسلامية في شمال الهند .

أما إقليم السند فقد كانت تسوده في القرن السابع الميلادى قبائل السكا أو الشك أو السيخ ، حتى تمكن الملك داهر البرهمي من انتزاع بلاد السند أو البنجاب منهم ، وداهر هذا هو الذى سيتلقى صدمات الفتح الإسلامي الأول في القرن السابع الميلادى .

ولا تكتمل صورة شمال الهند في القرن السابع الميلادى وهو عصر البعثة المحمدية إلا بالكلام عن أمراء الراجبوتانا ، الذين كانوا يسودون الأراضي الواسعة الواقعة بين بلاد السند وصحراء ثار في شمال الهند ، ولايعرف أصلهم على وجه التحقيق ، ولكنهم أمراء هنود هندوكيون ينحدرون من أصلاب أبطال الهند القدماء ، الذين تملأ أساطيرهم صفحات الأدب الهندى . وهؤلاء الأبطال آريُّون حكموا الهند قبل غزوات الهون لشمال الهند ، وكان الراجبوتانيون يمدون سلطانهم إلى بلاد الدكن ، وكانوا أمراء أقوياء ذوى مراس شديد وسيكون بينهم وبين الفاتحين المسلمين صراع طويل ، وقد استطاع المسلمون في أول دخولهم الهند إزاحتهم إلى صحراء الثار . ولكنهم استطاعوا الثبات للمسلمين ، وقد خضعوا لهم أيام الدول الإسلامية الكبرى ، ولكنهم احتفظوا بدياناتهم الهندوكية ، وسيظلون أعداء المسلمين حتى نهاية عصور السيادة الإسلامية ، وسينشئون في آخر عصور السيادة الإسلامية اتحادا يسمى اتحاد الراجبوتانا ، وسيكون هذا الاتحاد من حلفاء الإنجليز عند دخولهم ، وسيكون لهم دور كبير في القضاء على السيادة الإسلامية ، مثلهم في ذلك مثل اتحاد قبائل المهارشترا ، التي ظلت تحتفظ بالسيادة في الدكن جنوبي منطقة ساتبورا .

التبـت وبـلاد الصيـن .

وننتقل الآن شرقاً إلى التبت وبلاد الصين ، فنجد أن بلاد التبت الواسعة تعود فتتحد بعد تفرق سنة ٦٠٧ م ، أما الصين فتعود وحدتها تحت لواء أسرة سوى ، ولكن الوحدة لاتلبث أن تتفرق في سنة ٦١٧ م . وتظل الفوضى ضاربة أطنابها حتى تستطيع أسرة تانج أن تعيد توحيد الصين ، أما في اليابان فإن الإمبراطور فوجيور أتايكا يعيد بناء الدولة اليابانية على نظام الدولة الصينية ، وبعد قليل سنة ٦٦٥ م نجد التبتيين يدخلون بلاد ماوراء النهر ويتوسعون فيها ، وهذه الحقيقة تهمنا لأنها وقعت قبيل الفتح الإسلامي لهذه البلاد ، بدأ سنة ٧١٢ م عندما فتح قتيبة بن مسلم بخارى وسمرقند ، وفي كوريا نجد الأمير سيلا يوحد شبه الجزيرة سنة ٦٧٦ م . وجدير بالملاحظة أن هذا الأمير سيعطى بلاد كوريا اسمها الذى عرفت به عند العرب والمسلمين ، وهو بلاد السيلا . ومن أكثر مايستوقف الفكر أن بلاد اليابان لم تستلفت انتباه العرب والمسلمين على طول العصور الوسطى ، فلا ذكر لها في حولياتهم . حتى ابن بطوطة الذى قام برحلاته خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ووصل إلى خان بالق وهي بكين ، لا يشير إلى اليابان بحرف ، وقد ذهب بعض المحققين العرب المحدثين إلى أن بلاد طواليسى التي زارها ابن بطوطة في طريقه من جزائر المهراج « إندونيسيا » إلى جنوب الصين ، هي في الأغلب بعض جزر الفليبين ، وهذا ما انتهي إليه رأينا بعد قراءة دراسات محققين من أهل العلم والثقة والتدقيق من أمثال السير هنرى يول محقق رحلة ماركوبولو ، والسير هاملتون جيب المستشرق ، صاحب الدراسة القيمة عن رحلة ابن بطوطة في آسيا وإفريقية ، والمستشرق فون مزيك في بحث قيم نشره في مجلة دار إسلام الألمانية « مجلد ٤ ص ٤٣٤ »[2] .

البلاد الآسيوية في عصر التكوين السياسي والقومي .

ونخرج من هذه الملاحظات كلها عن البلاد الآسيوية في عصر البعثة المحمدية ، بأن تلك البلاد كلها كانت – فيما عدا إيران – في عصر التكوين السياسي والقومي ، وإذا كان الجنس العربي قد أعاد تكوين نفسه في ذلك العصر حول لواء الإسلام ، فإن بلاد الهضبة الإيرانية التي قضى الإسلام على دولتها الكبرى – وهي الساسانية – أعادت بناء شخصيتها على القاعدة الإسلامية كذلك ، وجدير بالذكر أن إيران كانت طوال العصور الوسطى بلاداً سنية ، وإن كان الميل العاطفي نحو على بن أبي طالب كرم الله وجهه وآله غالبا على أهلها بصورة أكثر مما نجده في غيرها من بلاد الإسلام ، أما غلبة مذهب التشيع فترجع إلى العصر الصفوى ، في القرن الخامس عشر الميلادى كما سنرى في الفصل الخاص بإيران ، ومهما كان من أمر الدول الإسلامية التي قامت في إيران بعد الإسلام ، فقد كانت كلها – باستثناءات قليلة – أفضل من الناحية الإنسانية والحضارية من دول الأكميديين والساسانيين وغيرها مما عرفت إيران قبل الإسلام ، أما دول الطغاة التي خربت الكثير من بلاد الشرق الإسلامي فهي دول مغولية تترية ، أكبرها دول جنكيزخان وخلفائه ، وهي دول وثنية مخربة ، وقد استطاع الإسلام أن يروض خلفاء من دخلوا بلاده من المغول ، فدخلوا الإسلام وصلح حالهم فيما عدا تيمورلنك ، وهو رجل شاذ ، كان مسلما بالاسم ، وقد أكمل هو ورجاله وخلفاؤه خراب بلاد ما وراء النهر ، وشرق إيران ، وكان مع قوته وقدرته الهائلة على التخريب مولعاً ببناء المساجد ، حتى لقد هدم أعاظم مساجد دلهي وحمل رخامها ليبني بها مسجده في سمرقند .

وكل هذا التخريب نشأ من توقف فتوح المسلمين وجهودهم الحضارية في بلاد المغول وهي منغوليا ، وهي بلاد شاسعة وأراض صحراوية وأراضي استبس « حشائش قصيرة » وسفانا « حشائش طويلة » ويتكاثر فيها البشر ثم يخرجون منها في موجات غزو وتخريب ، وأكثر ماساعدهم على ذلك كان الحصان ، فإن بلادهم مهد الخيل ، فيها – وفي الغالب في صحراء جوبي – نشأت وتكاثرت الخيول ، ومنها انتقلت إلى نواحي الدنيا ، إما عن طريق آسيا الوسطى أو شمال بحر قزوين والبحر الأسود ، ودخلت أوروبا فنشأ فيها نوع الخيل الأوروبية الثقيلة ، التي عرفها الإغريق والرومان ، أو عن طريق هضاب إيران والعراق ، ومن العراق انتقلت الخيل إلى الشام وبلاد العرب ، وعرفها المصريون القدماء ، وتلك هي الخيل الصغيرة الخفيفة الرشيقة ، التي أبدع المصريون القدماء رسمها على معابدهم

(١) د. أحمد محمود الساداتي . تاريخ المسلمين في شبه القارة – الهندوباكستانية وحضارتهم « الطبعة الثانية » من مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) أنظر كتابنا : ابن بطوطة ورحلاته « دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٧ م » ص ٢٠٢ وما بعدها .

وقد بلغت هذه الخيل الصغيرة أوج جمالها وقوتها وكفاءتها فى جزيرة العرب ، حيث نشأ الحصان العربى ، وهو أعظم سلاح عرفه العرب ، وعلى صهوته قامت فتوح الإسلام ، ويليه فى ذلك الحصان المغربى أو البربارى أو البارب ، وهو حصان قوى متين البنيان ينحدر عن خليط من الحصان العربى ، وحمار الوحش أو الزيبرا .

موقف العباسيين من الفتوح .

نقول فى ختام هذا التقديم لهذا الفصل : إن الدولة العباسية لو تنبهت إلى حقيقة وظيفتها كدولة إسلامية ، وهى نشر الإسلام لا مجرد المحافظة عليه كما وجدته ، لو أنها قامت برسالتها وأدخلت كل الأتراك والمغول فى الإسلام لأدت للإسلام والحضارة الإنسانية أجل الخدمات ، ولغيرت صفحات التاريخ ، وهكذا تكون الدولة العباسية قد خذلت الإسلام فى الشرق والغرب ، فهى فى الشرق لم تتقدم وتدخل كل الأتراك والمغول فى الإسلام ، كما تمكنت الدولة الأموية من إدخال الإيرانيين ومعظم الأتراك فى الإسلام وفتحت أبواب الهند لهذا الدين ، وفى الغرب قعدت الدولة العباسية عن فتح القسطنطينية ولو أنها فعلت ذلك لدخل أجناس الصقالبة والخزر والبلغار الأتراك فى الإسلام تبعا لذلك ، إذ لم تكن قد بقيت أمام هذه الأجناس العظيمة أية ديانة سماوية أخرى يدخلونها ، وهنا ندرك الفرق الجسيم بين الدولة الأموية والدولة العباسية ، فالأولى أوسعت للإسلام مكانا فى معظم أراضى الدولة البيزنطية ، وأدخلت أجناس البربر جميعا فى الإسلام ، ثم انتزعت شبه جزيرة أيبريا من القوط الغربيين ، ثم اقتحمت على الفرنجة والبرجنديين واللومبارد بلادهم بالإسلام ، وحاولت ثلاث مرات الاستيلاء على القسطنطينية ، أما العباسيون فلم يضيفوا - رغم طول عمر دولتهم - إلى عالم الإسلام إلا القليل ومعظمه فى شرق آسيا الصغرى .

الصين أيام البعثة .

وجدير بالذكر أن أسرة تانج - التى ذكرناها - حكمت الصين من ٦١٨ الى ٩٠٦ ميلادية وحمت البوذية والكونفوشيوسية والطاوية « مذهب من البوذية » إلى اليابان وكوريا ، وثانى أباطرة هذه الدولة وهو تيانج تسونج TOING TSUNG هو الذى استطاع أن يعيد شتات الصين ومجدها الذى كان لها فى عصر أسرة هان ، ووضعه أسس دولة صينية وبانية وحدة الشعب الصينى ، وقد بذلت هذه الدولة جهداً كبيراً فى إدخال شعوب المغول تحت سلطان الصين ، وضمت إليها أراضى واسعة فى وسط آسيا فى حوض التاريم وبحيرة بلكاش ، بل استطاع رجالها دخول بلاد ما وراء النهر ، وكان الأمويون هم الذين أخرجوهم منها ، واستولوا على جزء كبير من بلاد حوض التاريم ، وملكوا فرغانة ودخلوا كاشغر ، وهى فى ولاية سنكيانج غرب الصين وهى تشغل معظم أراضى حوض التاريم ومدينتها الكبرى فى تلك العصور ، كانت كاشغر التى أدخلها الأمويون وماحولها فى نطاق الإسلام

وإكمالاً لصورة الدنيا أيام البعثة المحمدية نضيف أن سنة ٦٠٠ ميلادية - أى قبل البعثة المحمدية بعشر سنوات - بلغت فيها دولة المايا فى أمريكا الوسطى أوج قوتها وحضارتها .

خريطة ٢٨

العالم فى عصر البعثة النبوية
أوائل القرن السابع الميلادى
« شرحناها بتفصيل فى مقدمة هذا الفصل »

خريطة ٢٩

أهم الدول القديمة فى الشرقين الأوسط والأدنى

هذه خريطة تركيبية جمعنا فيها أهم الدول ذات التراث الحضارى التى قامت فى مشرقين الأوسط والأدنى فى العصور القديمة ، أو التى امتد سلطانها إلى هاتين المنطقتين حتى القرن السادس قبل الميلاد ، لأن الإسلام سيرث هذه الحضارات كلها ويحل محلها فى هذه المناطق من الدنيا ، فنرى فيها دولة الشيثيين التى قامت جنوبى البحر الأسود وشرقه وامتد نفوذها حتى شمال الشام والعراق وإن لم يطل عمرها ، وربما كانت أقدم دول المنطقة ، وعاصرتها وعمرت بعدها الدول المصرية القديمة التى بلغت أوجها فى عصر رمسيس الثانى المتوفى سنة ١١٦٠ ق.م وفى أيامه بلغت الدولة المصرية أوجها ، وفى خريطتنا هذه التى تقدم لنا صورة المنطقة من ٦١٢ الى ٥٢٥ قبل الميلاد صورنا امتداد مصر فى عهد الأسرة الصاوية ، وهى الأسرة الثانية والعشرون ، التى أسسها أبسماتيك الأول فى مدينة (صا الحجر) فى شرق الدلتا ، ولهذا تسمى بالدولة الصاوية ، وهى آخر الدول المصرية القديمة الكبرى ذات الحضارة المتميزة ، ولم يتسع المجال لتصوير الدولة العبرانية التى بلغت أوجها سنة ١٠٠٠ ق . م عندما قام ملكها داود بتوحيد أرض يهوذا وإسرائيل ، ودخل أورشليم وجعلها عاصمة دولته ودخل فى حروب مع أهل مؤاب ، وغزا أرض كنعان وخلفه ابنه سليمان حوالى ٩٦٦ ق . م وامتد حكمه إلى حوالى ٩٢٦ ق . م .

وقد أوردنا فى الخريطة دول عيلام وآشور وبابل وأورارتو شمالى الرافدين وهى إلى الشرق من آسيا الصغرى ، وكذلك دولة السوميريين لأن هذه الدول كلها تعنى تجارب إنسانية وحضارية صبت فى نهر الحضارة الإسلامية ، وعندما نذكر أن الإسلام جاء ليضع نهاية لما سبقه من تجارب سياسية قائمة على الظلم والاستبداد وليبدأ عصوراً جديدة من العدل والحرية وكرامة البشر ندرك لماذا وضعت هذه الخريطة هنا .

وكنا نريد أن نبين على الخريطة حدود دولة الإسكندر الأكبر التى تعتبر حضارياً أكبر الدول الهامة التى قامت قبل الإسلام فى تلك المنطقة ولكن الخريطة ازدحمت فاكتفينا بالإشارة إليها فى النص .

خريطة ٣٠

الشرقان الأوسط والأدنى خلال القرن الميلادى الأول

كان لابد من وقفة عند ميلاد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، لأن عيسى هو آخر أنبياء الله قبل محمد ﷺ بحسب ماورد فى القرآن ، ومعه كان بشارة بمجىء محمد آخر أنبياء الله ، والإنجيل الذى أوحى به إلى عيسى هو إتمام وتوكيد لكل ما أوحى به إلى إبراهيم وموسى وكل ماقاله أنبياء بنى إسرائيل واحتفظ لنا به العهد القديم وبخاصة الكتب الخمسة المعروفة بالبنتاتوخ ، فالمسلمون مطالبون بالإيمان بكل ما أنزل الله ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾ « البقرة ٢ / ١٣٦ » .

والخريطة تبين الدول التى كانت سائدة فى منطقة الشرقين الأوسط والأدنى عند مجىء السيد المسيح وخلال القرن المسيحى الأول وهو قرن السيد المسيح ، ففى ذلك الحين كانت دولة اليهود قد زالت نهائيا منذ هدم الإمبراطور تيتس معبد سليمان ، واستولى على القدس سنة ٧٠ ق . م ، ثم أقام الرومان هيرودس الكبير ملكا على بلاد الشام ، فسيطر على البلاد فيما بين سنتى ٣٩ و ٤٠ ق . م وبسط سلطانه على القدس وقضى على سلطان المكابيين ، وبعد موته انقسمت مملكته بين أبنائه فكانت سماريا واليهودية « جوديا » وبلاد إيدوم « إيدوميا » من نصيب ابنه أرخلاوس ، ثم أقام الرومان بيلاطس البنطى Pontius Pilatus حاكما على فلسطين فأقام هيرودس أنتيباس على الجليل وسماريا ، وفى أيامه ظهر يوحنا المعمدان وهو يحيى بن زكريا النبى عندنا نحن المسلمين ، والمسيحيون تختلف مواقفهم منه بحسب مذاهبهم ، أما اليهود فيعتبرونه خارجا عن ملتهم ، وهم الذين حرضوا عليه هيرودس أنتيباس فقتله ، وفى حياة يحيى يظهر المسيح عيسى بن مريم ويدعو إلى الله ويبشر بالإنجيل .

خريطة ٣١

الشرق الأوسط فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى
وأقسام جزيرة العرب قبيل البعثة المحمدية

هذه الخريطة فى الحقيقة خريطتان كما هو مبين فى المفتاحين اللذين يراهما القارىء على الخريطة نفسها:الأولى خريطة الشرق الأوسط عند البعثة النبوية . وقد بينت فيها بكل وضوح الوضع السياسى فى المنطقة ورسمت الحدود الفاصلة بين دولتى الروم والفرس ؛ وكذلك حدود دولتى الغساسنة والمناذرة ، ودولة حمير فى اليمن ، ودولة عبد وجيفر ابنى الجلندى فى عمان ، أما فيما يتصل بنجد فقد كانت هناك دولة لقبيلة حنيفة على ساحل الخليج غير أنها ما تزال مجهولة ، واستقر رأيى على أن حنيفة - وهى فرع من تميم - لابد أن تكون جنوبى

اليمامة ، وهي مدينتهم ، وحولها من الجنوب كانت منازل قبيلة تميم ، التي كانت قد أخرجت من سواحل الخليج على يد بني عبد القيس وتغلب ، وهوذة بن علي الحنفي الذي عاصر رسول الله ﷺ كان سيداً على حنيفة في بلادها التي ذكرناها .

والخريطة الثانية تختص بجزيرة العرب وأقسامها الطبيعية والسياسية قبيل البعثة النبوية ، وقد اعتمدت في عملها على رأي البكري فإن كلامه في « معجم ما استعجم » فيه خلاصة كلام غيره من الجغرافيين .

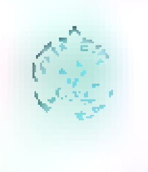

المراجع

- الطبـــــــــــري — تاريخ الرسل والملوك ، بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٠ م جـ ١
- اليعقوبي أحمد بن واضح — كتاب التاريخ طبعة بيروت ١٩٦٠ م جـ ١
- ابـــن الأثـــــير — الكامل في التاريخ ، طبعة المطبعة المنيرية بالقاهرة بإشراف الشيخ عبد الوهاب النجار جـ ١ .
- أبـــو الفـــــدا — المختصر في أخبار البشر ، طبعة القاهرة جـ ١ .
- المســـــعـــودي — مروج الذهب ، القاهرة سنة ١٩٦٤ م أربعة أجزاء . بتحقيق الشيخ محيي الدين عبد الحميد .
- ابـــن خــلـــدون — كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة بولاق ، جـ ١ وهو المقدمة وجـ ٢ .
- د بارتولـــــــد — تاريخ الترك في آسيا الوسطى ترجمة د. أحمد السعيد سليمان . القاهرة ١٩٥٨ م .

Atlas 2 VR Geschichte . 2 Vols . Lepzig 1967 .

Ecclestoesteque . 2 Vols Basileske . K.V. and Others Atlas Istorii SSE Moscow 1952

Beckingham , C.F, Atlas of the Arab World and the Middle East . London 1960 .

Bjarklund O., Holm H., A Historical Atlas of the World, Edimborough 1960

Nelson's Atlas of the Clasical World . London 1959 .

Roolvind , R., A Historical Atlas of the Muslim People's .

Basham A.L., the Wonder that was India . London 1976 .

Bury , J.B., Cook , S.A., the Cambridge Ancient History Cambridge 1923 .

Mac Neill , W H., A World History , New York , 1971 .

Tounbee , Arold , A Study of History , (Abridged by the outhor and Jane Caplan , Ney York , 1979) .

The Times Atlas of Work History , 3d ed . London 1979 .

Dussaud , R. Les Arabes en Syrie avant L'islam , 1907 .

Goubret , R. Byzance avant L'islam, Vol . I .

Byzance et L'orient sous les succeurs de Justinien Paris 1915 .

Hammand , P.C. the Nabateans , Their History , Culture and Archaeology . Gottenberg , 1937 .

Trimingham , A. Spencer , Christianity among the Arabs in Pre - Islamic Times . London 1979 .

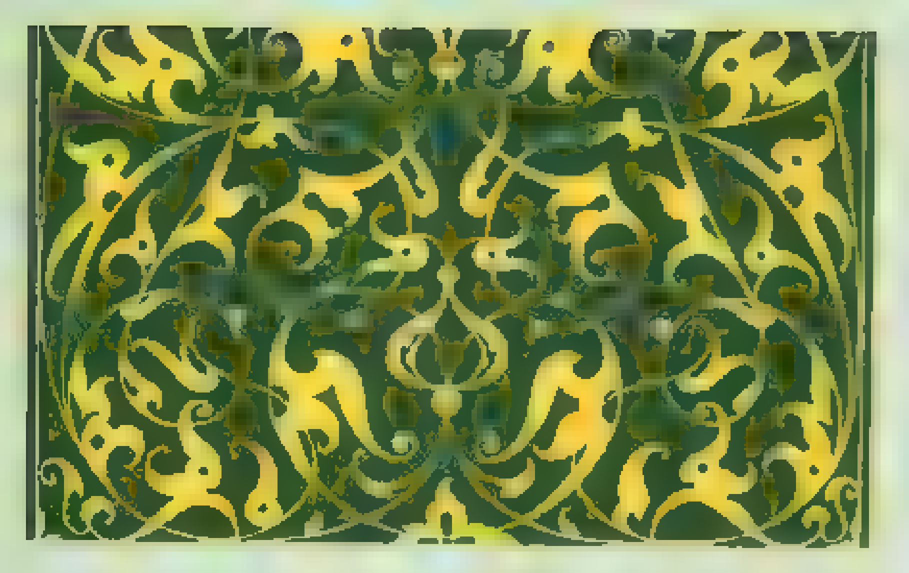

الفصل الخامس

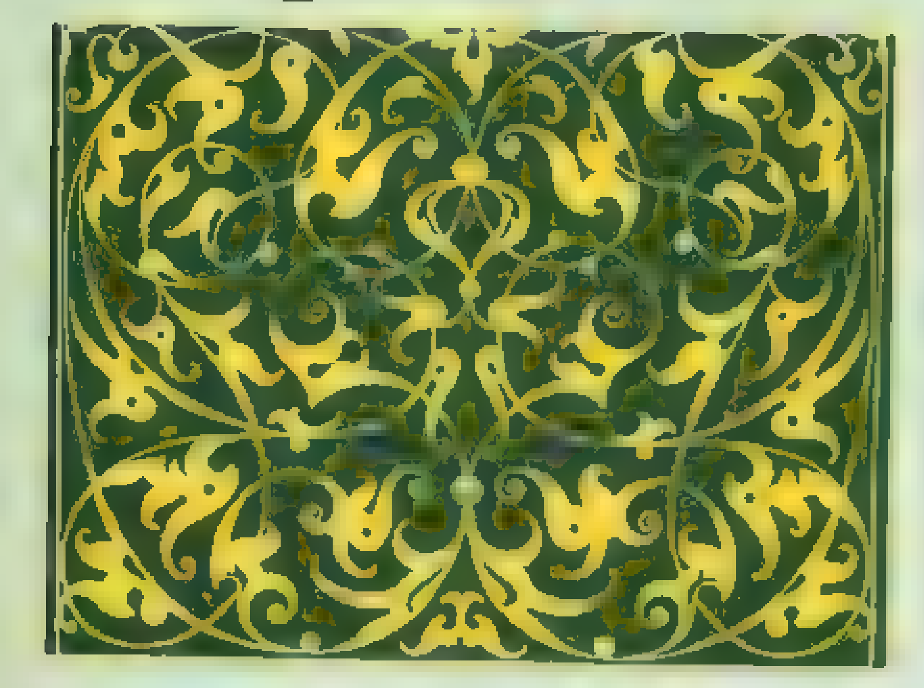

السيرة النبوية والعصر النبوي

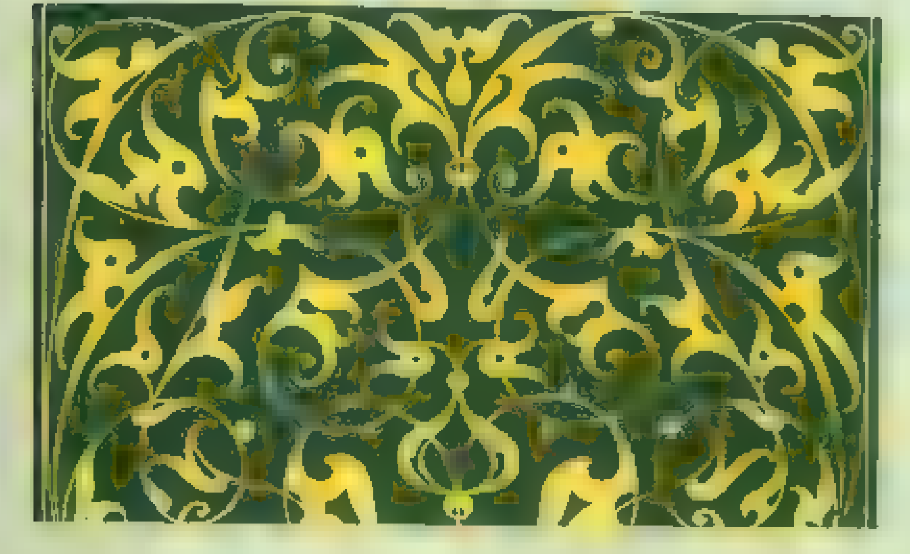

بيان الخرائط

العراق
بلاد الفرس
البصرة
الأبلة
ذات السلاسل
كاظمة
سيراف
هرمز
مضيق هرمز
رأس مسندم
جاسك
خليج عمان
القطيف
العقير
الهفوف
أوال
الصحار
الفجيرة
صحار
مسقط
نزوى
العراق
الحد
العبيلة
الربع الخالي
ظفار
خليج مصيرة
رأس مدركة
خليج صوقرة
صوقرة
ظفار
خليج القمر
مرباط
صلالة
حضرموت
تريم
سيئون
شبام
مأرب
الشحر
المكلا
سيحوت
رأس فرتك
البحر العربي
خليج عدن
عدن

الجزيرة العربية فى العصر النبوى
المدن ومنازل أهم القبائل والوديان
البحر المتوسط
بادية الشام
مصر
قنا
أسوان
السودان
الحبشة
تبوك
النفود
المدينة المنورة
مكة
جدة
رابغ
ينبع
الليث
القنفذة
العلا
خيبر
فدك
دومة الجندل
سكاكة
الجوف
مدائن صالح
حائل
بريدة
عنيزة
الطائف
أبها
صعدة
نجران
صنعاء
اليمن
الحديدة
زبيد
تعز
المخا
كمران
جيزان
عصب
مدين
أيلة
مقنا
الوجه
الموبلح
ضبا
العويند
العويبد
الأزرق
عمان
يافا
القدس
غزة
رفح
بالميون
القلزم
مستورة
وادي الرمة
وجرة
حباشة
اللدام
دهلك
فرسان
اللحية

بادية الشام
النفود
أقاليم الجزيرة عند البكري
الغور
العروض
الحجاز وتهامة
اليمن
نجد والبحرين
بلاد الفرس
الربع الخالي
حضرموت
المدينة
مكة
الطائف
جدة
أهم الأعلام الجغرافية ومنازل أهم القبائل
في الحجاز وشمال ووسط الجزيرة
خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى

جزيرة العرب
دولة المناذرة
دولة المناذرة (اللخميون)
الفرس الساسانيون
دولة الغساسنة
بلاد الشام
الخليج العربي
خليج عمان
بحر القلزم
بحر العرب
الربع الخالي
مسقط
صحار
الحيرة
شيبان
كاظمة
البحرين
كعب
تميم
اليمامة
وادي العرض
دومة الجندل
طيئ
تيماء
المدينة
مكة
الطائف
جدة
ينبع
يثرب
الحجر
غطفان
سليم
هوازن
هذيل
حضرموت
كندة
مهرة
ظفار
الشحر
المكلا
عدن
مأرب
صنعاء
نجران
جزيرة مصيرة
رأس الحد
مصر
الروم
بحر الروم
دمشق
بصرى
عمان

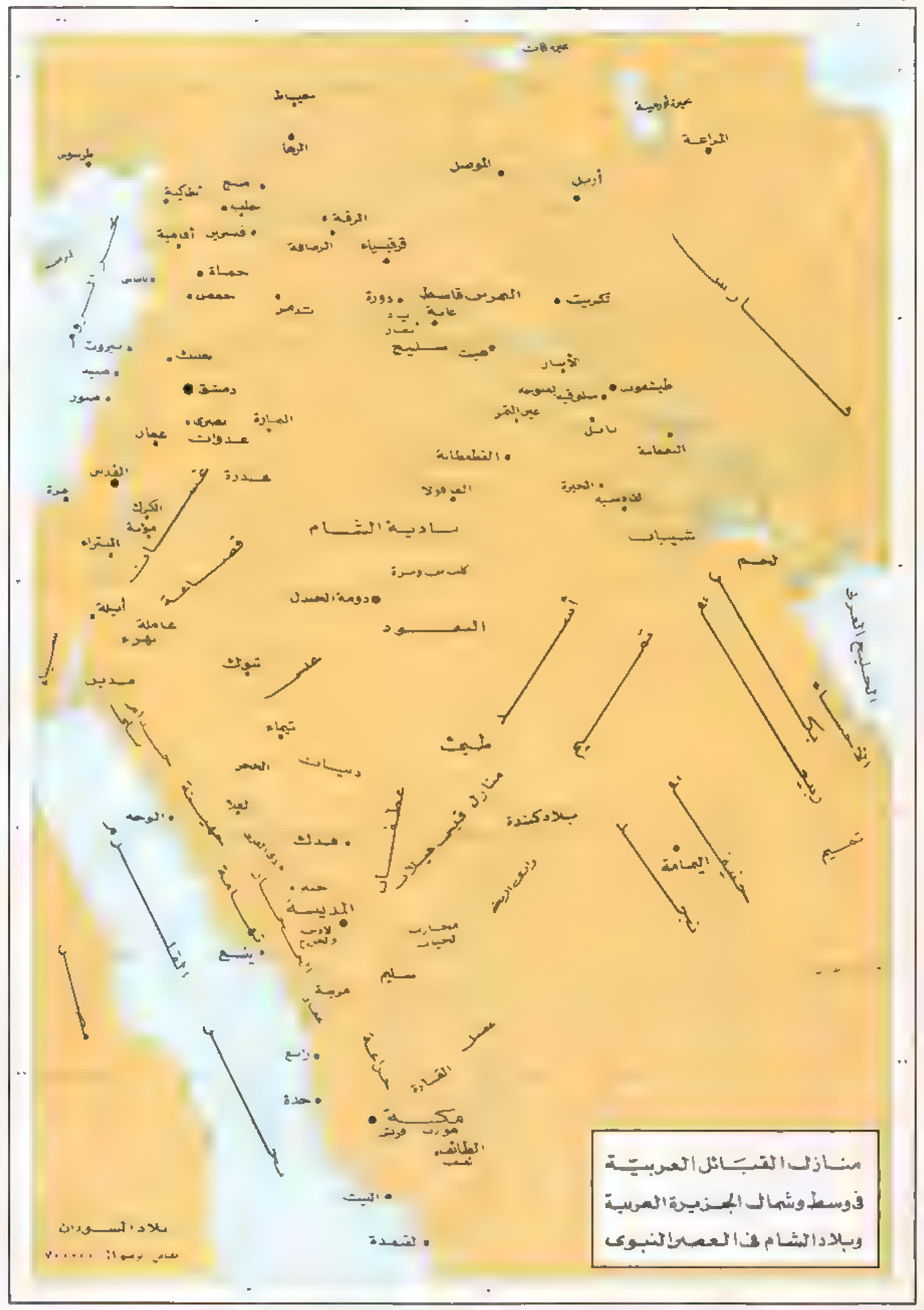
منازل القبائل العربية
في وسط وشمال الجزيرة العربية
وبلاد الشام في العصر النبوي
الرها
الموصل
أربل
حلب
الرقة
الرصافة
قرقيسياء
حماة
حمص
تدمر
تكريت
الأنبار
عين التمر
بيروت
دمشق
بصرى
عمان
القدس
غزة
الكرك
مؤتة
البتراء
الحيرة
القادسية
بادية الشام
شيبان
لخم
دومة الجندل
أيلة
تبوك
تيماء
الحجر
طيئ
العلا
فدك
بلاد كندة
اليمامة
تميم
الوجه
المدينة
ينبع
سليم
رابغ
جدة
مكة
الطائف
بلاد السودان

الطرق التجارية الرئيسية
في الجزيرة قبل الإسلام
الطريق من مكة إلى فلسطين وجنوب الشام.
طريق الجادة من مكة إلى المدينة.
الطريق الجانبية من مكة إلى المدينة.
طريق المدينة إلى العراق.
الطريق التي تمر بأهم أسواق الجزيرة.
طرق أخرى.
بلاد الشام
العراق
الخليج العربي
خليج عمان
بحر العرب
البحرين
اليمامة
مكة
المدينة
النفود
الربع الخالي
النوبة
مصر
عدن
ظفار
مقياس الرسم ١ : ١٠٠٠٠٠٠٠

الطريق بين مكة والمدينة
والطرق بين
الحجاز والشام والعراق واليمن
الطريق من مكة إلى الكوفة .
الطريق من مكة والمدينة إلى البصرة
المدينة
قباء
الروحاء
السقيا
الأبواء
ودان
رابغ
الجحفة
قديد
عسفان
جدة
مكة
الطائف
الشبيكة

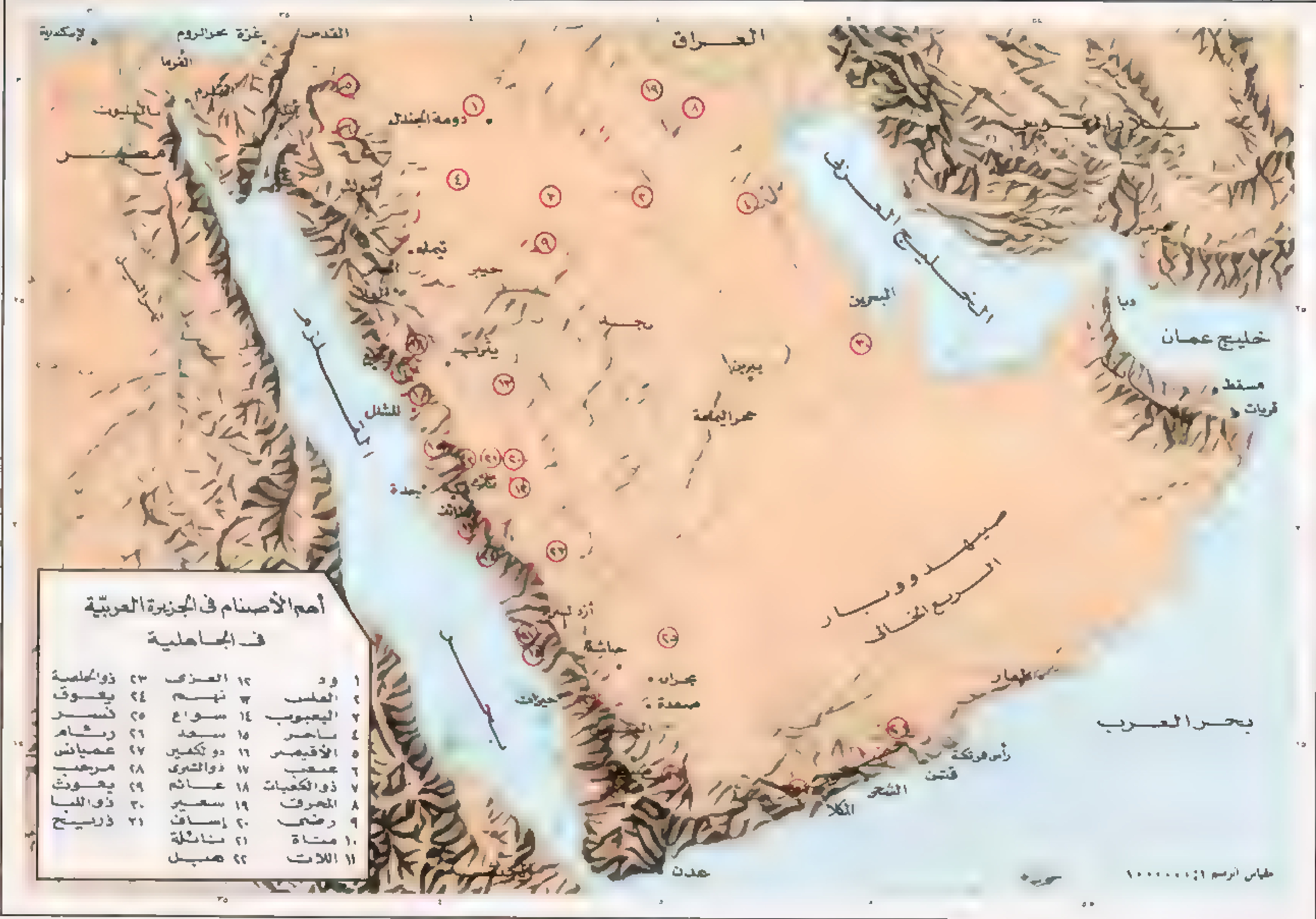
أهم الأصنام فى الجزيرة العربيّة فى الجاهلية
١ ود
٢ العلس
٣ اليعبوب
٤ باحر
٥ الأقيصر
٦ عمعب
٧ ذو الكعبات
٨ المحرق
٩ رضى
١٠ مناة
١١ اللات
١٢ العزى
١٣ نهم
١٤ سواع
١٥ سعد
١٦ دو لكفين
١٧ ذو الشرى
١٨ عائم
١٩ سعير
٢٠ إساف
٢١ نائلة
٢٢ هبل
٢٣ ذو الخلصة
٢٤ يعوق
٢٥ نسر
٢٦ رئام
٢٧ عميانس
٢٨ مرحب
٢٩ يغوث
٣٠ ذو اللبا
٣١ ذريح
العراق
الخليج العربى
خليج عمان
بحر العرب
مصر
دومة الجندل
تيماء
البحرين
عدن
مسقط
قريات
دبا
الإسكندرية
غزة
القدس
الفرما
نجران
صعدة
الشحر
المكلا
قشن
رأس فرتك
جدة
يبرين
مقياس الرسم ١ : ١٠٠٠٠٠٠٠

مكة المكرمة
أيام الرسول صلى الله عليه وسلم
المحصب
الخيف
العقلاة
آبار
ثور
الحجون
كدى
غار حراء
شعب أبي طالب
أجياد
مكان قلعة قديمة
الليط
جبل أبي قبيس
جبل خندمة
أضاة لبن
يلملم

المدينة
حمراء الأسد
مكة
جدة
طريق الهجرة
طريق الهجرة
طريق الجادة (المعتادة)
الوصول الى قباء يوم الإثنين
١٢ ربيع أول من السنة الهجرية
الأولى / ٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢م
وأول المحرم سنة ١ه يقابل ١٦ يوليو
سنة ٦٢٢ وهو بداية التاريخ الهجري

المدينة
العقيق (الأكبر)
جبل رضوى
ينبع النخل
ينبع البحر
المضيق
الأثيل
الريس
مقشوس
موقعة بدر
بدر
معدن بني سليم
صفينة
رابغ
المشلل
قديد
خليص
أمج
عسفان
جدة
مكة
الطائف
الجعرانة
الحديبية
البركة
بحر القلزم
الطرق الرئيسية
بين
مكة المكرمة والمدينة المنورة
والطرق الجانبية
التي كان الرسول يسلكها
طريق الجادة
الطريق إلى بدر
طريق من الصفراء إلى موضع الريس
طرق أخرى موازية لطريق الجادة
الطريق الجانبي

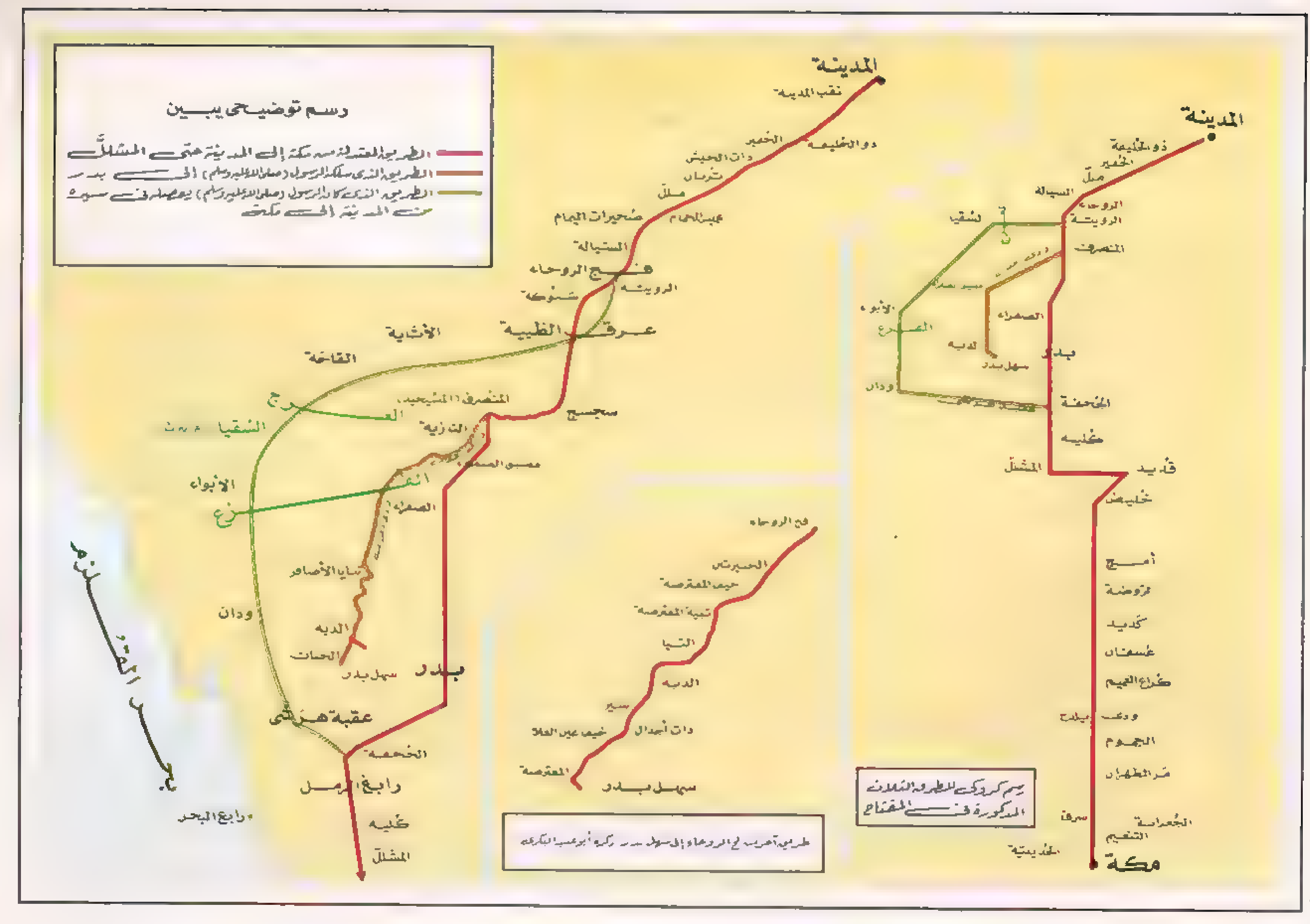

رسم توضيحي يبين
الطريق المعتاد من مكة إلى المدينة حتى المشلل
الطريق الذي سلكه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى بدر
المدينة
نقب المدينة
ذو الحليفة
الخمير
ذات الجيش
تربان
ملل
صخيرات اليمام
السيالة
فج الروحاء
الرويثة
عرق الظبية
الأثاية
القاحة
المنصرف (المسجد)
سجسج
العرج
السقيا
الأبواء
الصفراء
ودان
الدبة
سهل بدر
بدر
عقبة هرشى
الجحفة
رابغ الرمل
المشلل
رابغ البحر
بحر القلزم
فج الروحاء
ذات أجدال
المعترضة
سهل بدر
المدينة
ذو الحليفة
الخمير
ملل
السيالة
الروحاء
الرويثة
المنصرف
الأبواء
العرج
الصفراء
الدبة
سهل بدر
بدر
ودان
الجحفة
المشلل
قديد
خليص
أمج
روضة
كديد
عسفان
كراع الغميم
الجموم
مر الظهران
سرف
التنعيم
الحديبية
مكة
رسم كروكي للطرق الثلاث المذكورة في المفتاح

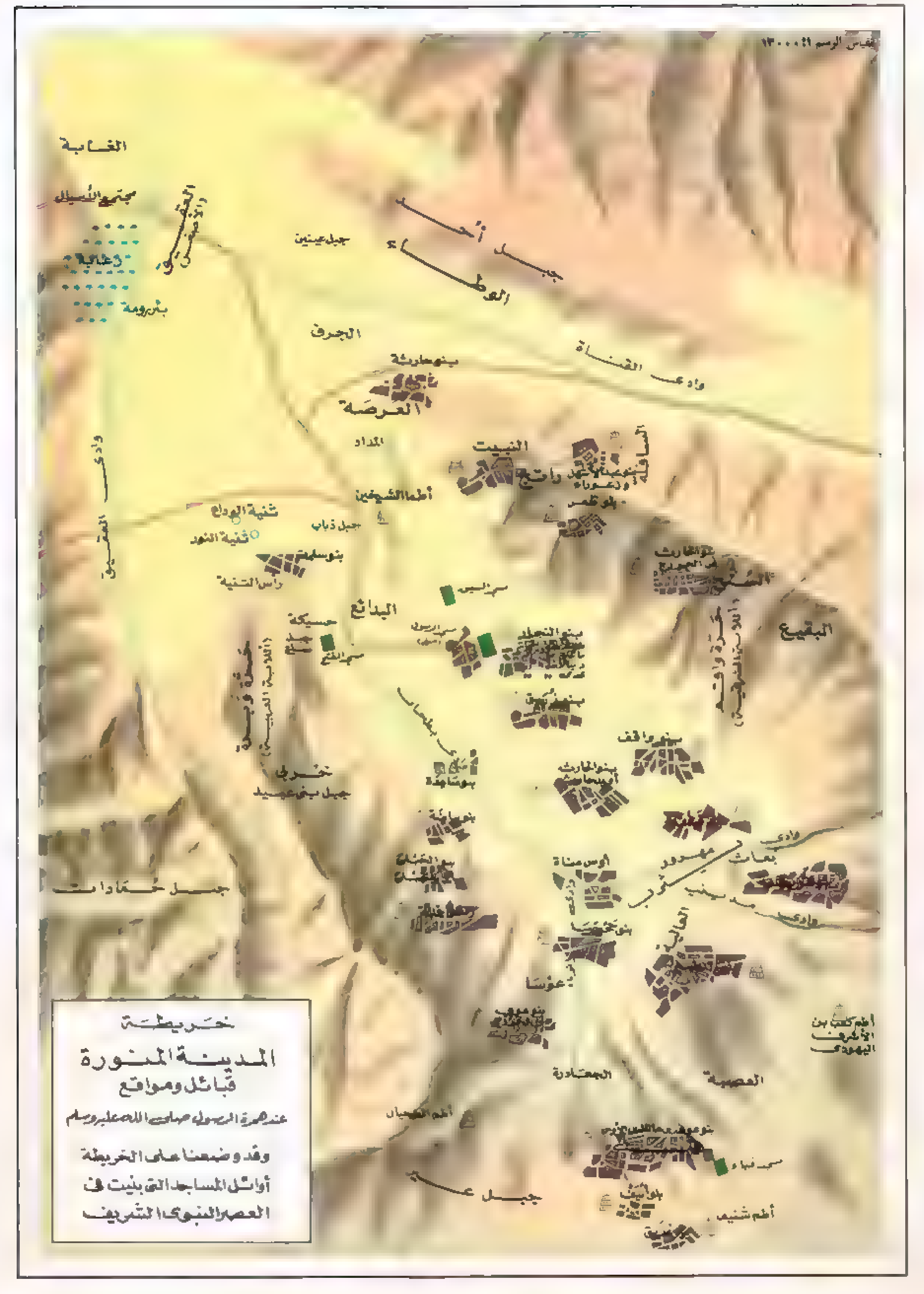

مقياس الرسم ١٣٠٠٠:١
الغابة
جبل عينين
جبل أحد
الجرف
وادي القناة
بنو حارثة
العرصة
المذاد
النبيت
أطم الشيخين
ثنية الوداع
جبل ذباب
بنو سلمة
راس الثنية
البدائع
حسيكة
البقيع
بنو واقف
بنو ساعدة
أوس مناة
العصبة
أطم الضحيان
جبل عير
أطم شنيف
خريطة
المدينة المنورة
قبائل ومواقع
عند هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم
وقد وضعنا على الخريطة
أوائل المساجد التي بنيت في
العصر النبوي الشريف

خريطة
تبين خط سير رسول الله
(صلى الله عليه وسلم)
عند انتقاله من قباء إلى منازل بني
مالك بن النجار حيث نزل في
دار أبي أيوب خالد الأنصاري حتى
بنى مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم)

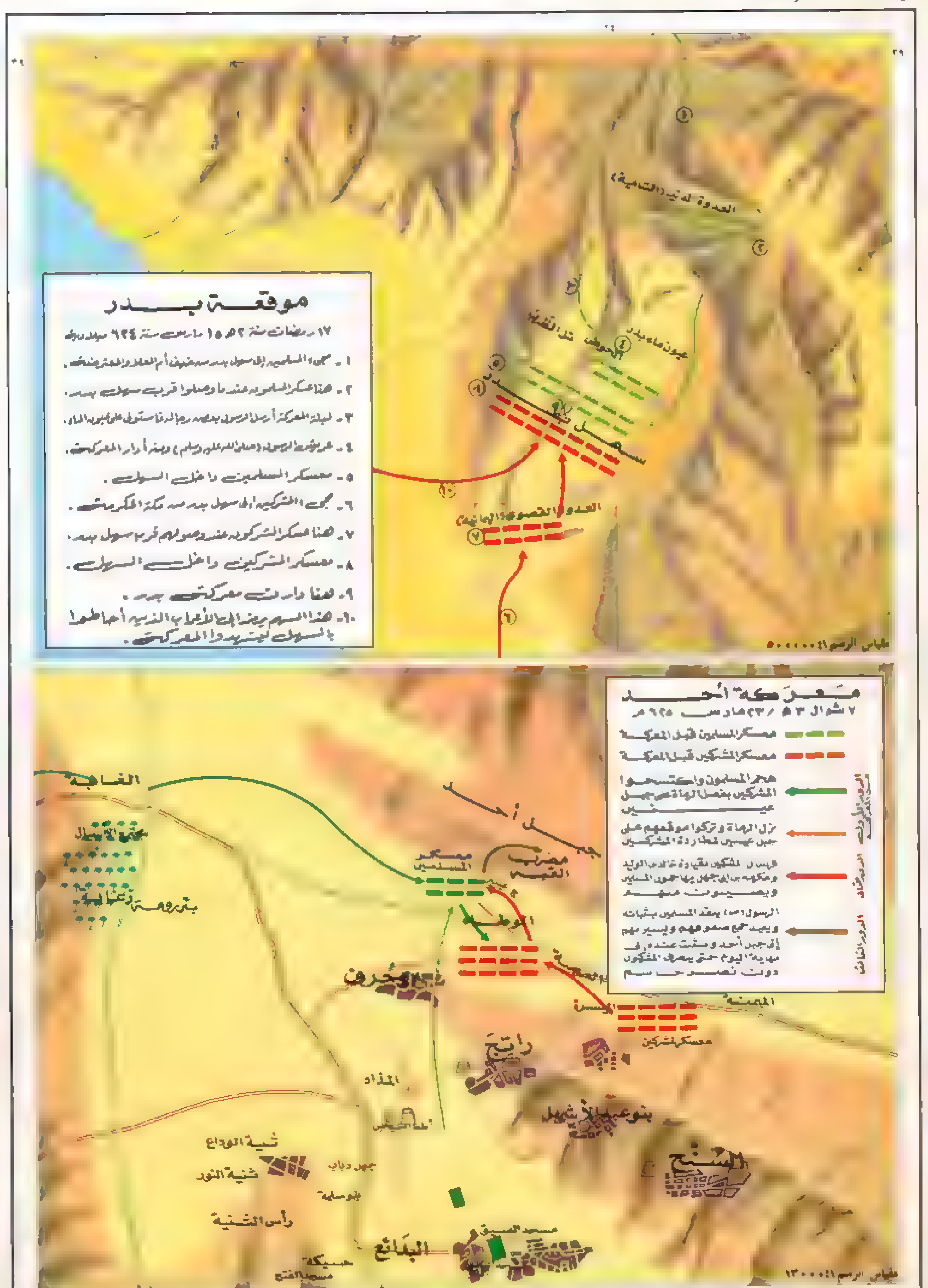

موقعة بدر
١٧ رمضان سنة ٢ هـ / ١٥ مارس سنة ٦٢٤ ميلادية
١ - مجيء المسلمين إلى سهل بدر من مضيق أم العلا والمعترضة .
٢ - هنا عسكر المسلمون عندما وصلوا قرب سهل بدر .
٣ - ليلة المعركة أرسل الرسول بعض رجاله فاستولوا على آبار الماء .
٤ - عريش الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومنه أدار المعركة .
٥ - معسكر المسلمين داخل السهل .
٦ - مجيء المشركين إلى سهل بدر من مكة المكرمة .
٧ - هنا عسكر المشركون عند وصولهم قرب سهل بدر .
٨ - معسكر المشركين داخل السهل .
٩ - هنا دارت معركة بدر .
١٠ - هذا السهم يشير إلى الأعراب الذين أحاطوا بالسهل ليشهدوا المعركة .
العدوة الدنيا (الشامية)
عيون ماء بدر
الحوض
العدوة القصوى (اليمانية)
معركة أحد
٧ شوال ٣ هـ / ٢٣ مارس ٦٢٥ م
معسكر المسلمين قبل المعركة
معسكر المشركين قبل المعركة
هجم المسلمون واكتسحوا المشركين بفضل الرماة على جبل عينين
نزل الرماة وتركوا مواقعهم على جبل عينين لمطاردة المشركين
فرسان المشركين بقيادة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل يهاجمون المسلمين ويصيبون منهم
الرسول (ص) يعقد المسلمين بثباته ويجمع شملهم ويسير بهم إلى جبل أحد وثبت عنده وفي نهاية اليوم حتى ينصرف المشركون دون نصر حاسم
الغابة
جبل أحد
معسكر المسلمين
مضرب القبة
الوطاء
معسكر المشركين
الميمنة
الميسرة
بئر رومة
جرف
راتج
المذاد
بنو عبد الأشهل
ثنية الوداع
ثنية الثور
رأس الثنية
البدائع
السنح
مسجد السبق
حسيكة
مسجد الفتح

قوات قريش
قوات غطفان
قوات
كنانة وسليم وبني أسد
وفزارة وأشجع وبني مرة
وبقية الأحزاب
جبل عينين
جبل أحد
الحرف
العرصة
وادي القناة
الخندق
ثنية الوداع
راتج
العوالي
السنح
البقيع
حسيكة
المذاد
قيادة المسلمين
جبل سلع
حرة واقم
حرة الوبرة
وادي بطحان
وادي العقيق
بنو واقف
وادي مهزور
أوس مناة
وادي مذينب
عوسا
العصبة
جبل عير
معركة
الخندق
ذو القعدة سنة خمس هـ
أبريل سنة ٦٢٧م

فتح خيبر
في المحرم سنة ٧ هـ - مايو / يونيو سنة ٦٢٨ م
① هنا أقام الرسول صلى الله عليه وسلم معسكرًا
② هذا الموضع يقع على ٦٠ كيلومترًا من خيبر
③ عند هذا الموضع ضرب الرسول قبة أول الأمر
④ هنا مدخل خيبر من الجنوب ولكن الرسول دخل من الشمال
⑤ وهو حصن بني أبي الحقيق . ح = حصن .
إتجاه دخول المسلمين إلى خيبر .
حرة خيبر
الصخرة
عين الحمة
الدومة
حرة الرجيع
حرة الشقرة
المدينة المنورة
نقمى
مقياس الرسم ١ : ٧٥٠٠٠٠

فتح مكة المكرمة
خرج الرسول (ص) من المدينة لفتح مكة لعشر خلون من رمضان سنة ٨ هـ بعد العصر / ١ يناير سنة ٦٣٠م
جيوش الرسول صلى الله عليه وسلم
جيوش خالد بن الوليد
جيوش الزبير بن العوام
فرقة قيس بن سعد بن عبادة
الطريق إلى مكة
إلى العراق
ثنية خل بالمقطع
مقبرة المعلاة
إلى منى والطائف ونجد
ذي طوى
أذاخر
كداء
جبل أبي قبيس
غار حراء
جبل خندمة
الحرم
أجياد
الليط
مكان قلعة قديمة
جبل ثور

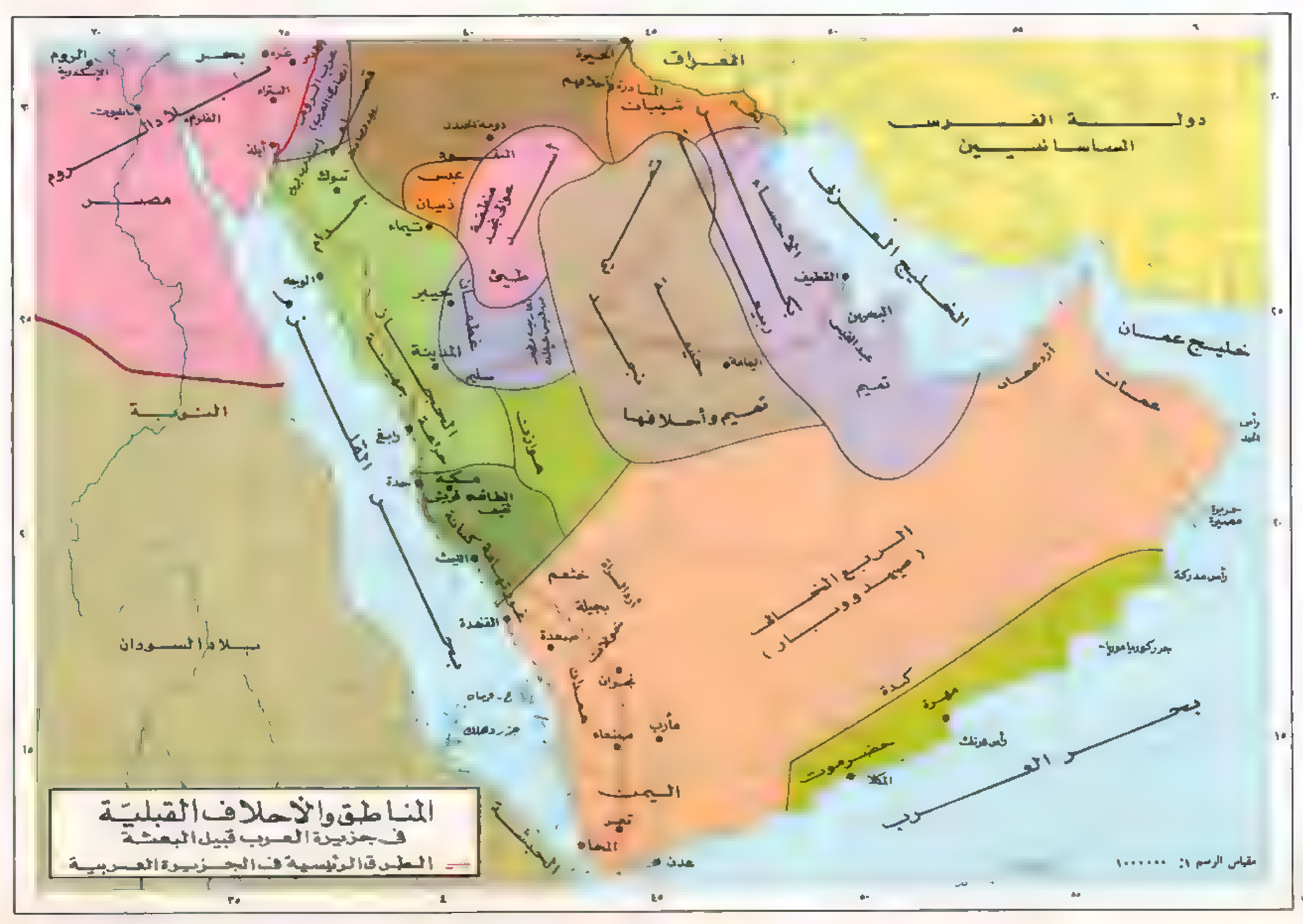
المناطق والأحلاف القبلية
في جزيرة العرب قبيل البعثة
الطرق الرئيسية في الجزيرة العربية
مقياس الرسم ١: ١٠٠٠٠٠٠٠
دولة الفرس
الساسانيين
العراق
الحيرة
المناذرة وأحلافهم
شيبان
الخليج العربي
الأحساء
القطيف
البحرين
عبد القيس
تميم
خليج عمان
عمان
أزد عمان
رأس الحد
دومة الجندل
عبس
ذبيان
طيء
تيماء
خيبر
غطفان
المدينة
سليم
هوازن
اليمامة
تميم وأحلافها
تبوك
الوجه
ينبع
جدة
مكة
الطائف
ثقيف
كنانة
الليث
القنفذة
خثعم
بجيلة
صعدة
نجران
مأرب
صنعاء
همدان
اليمن
تعز
المخا
عدن
الربع الخالي
(جيدود وبار)
كندة
مهرة
حضرموت
المكلا
بحر العرب
رأس مدركة
جزيرة مصيرة
البحر الأحمر
بلاد السودان
النوبة
مصر
بلاد الروم
الروم
الإسكندرية
الفرما
بحر
غزة
البتراء
أيلة
الحبشة
جزر دهلك

حجة الوداع
وبيان مناسك الحج كما قررها الرسول صلى الله عليه وسلم فيها
عرفات
مشعرة
المأزمات
الأحمر
القرن
الموقف
مزدلفة
منى
المنحر
الجمرات
الخيف
المحصب
الحجون
الكعبة المشرفة
جبل الرحمة

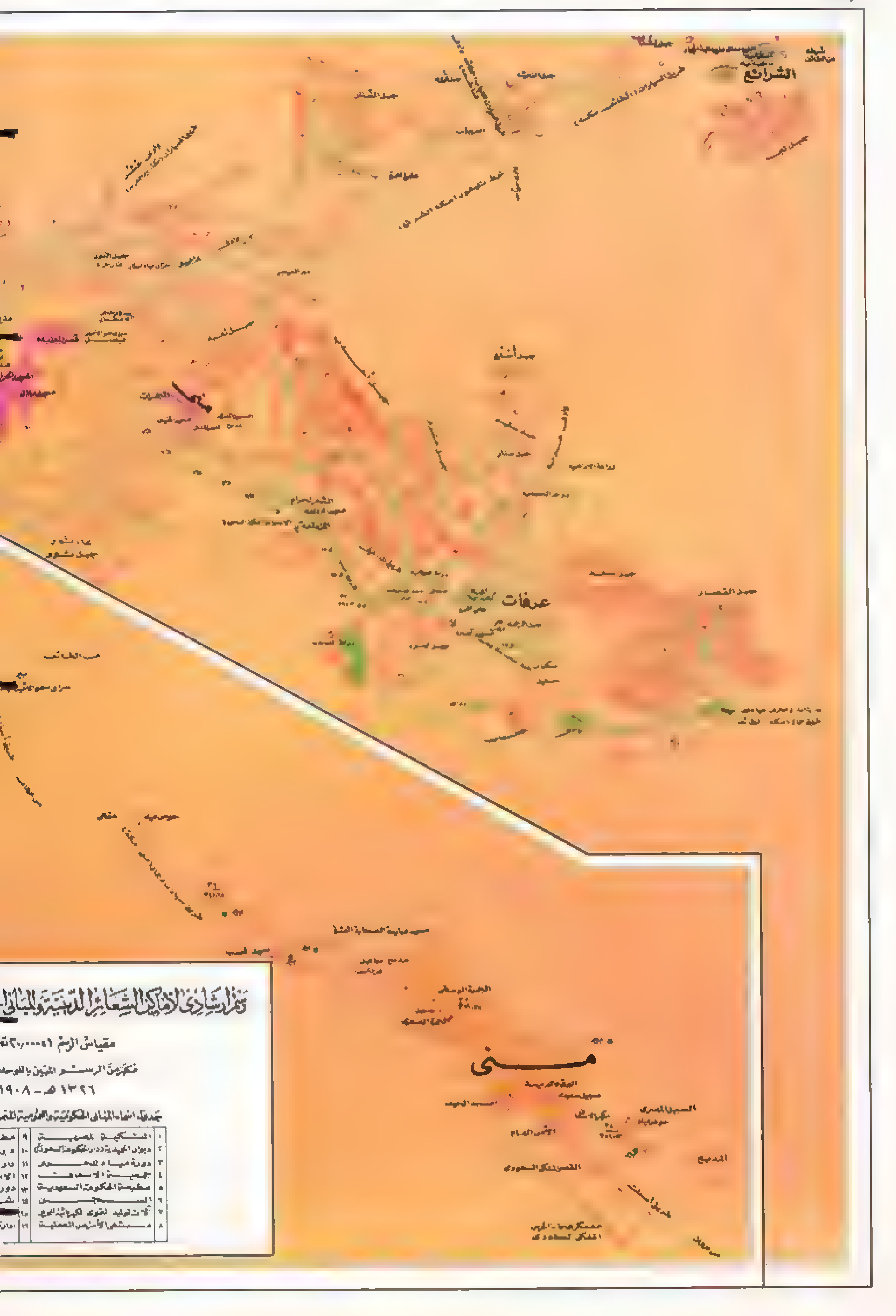
الشرائع
عرفات
منى
مقياس الرسم
١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨

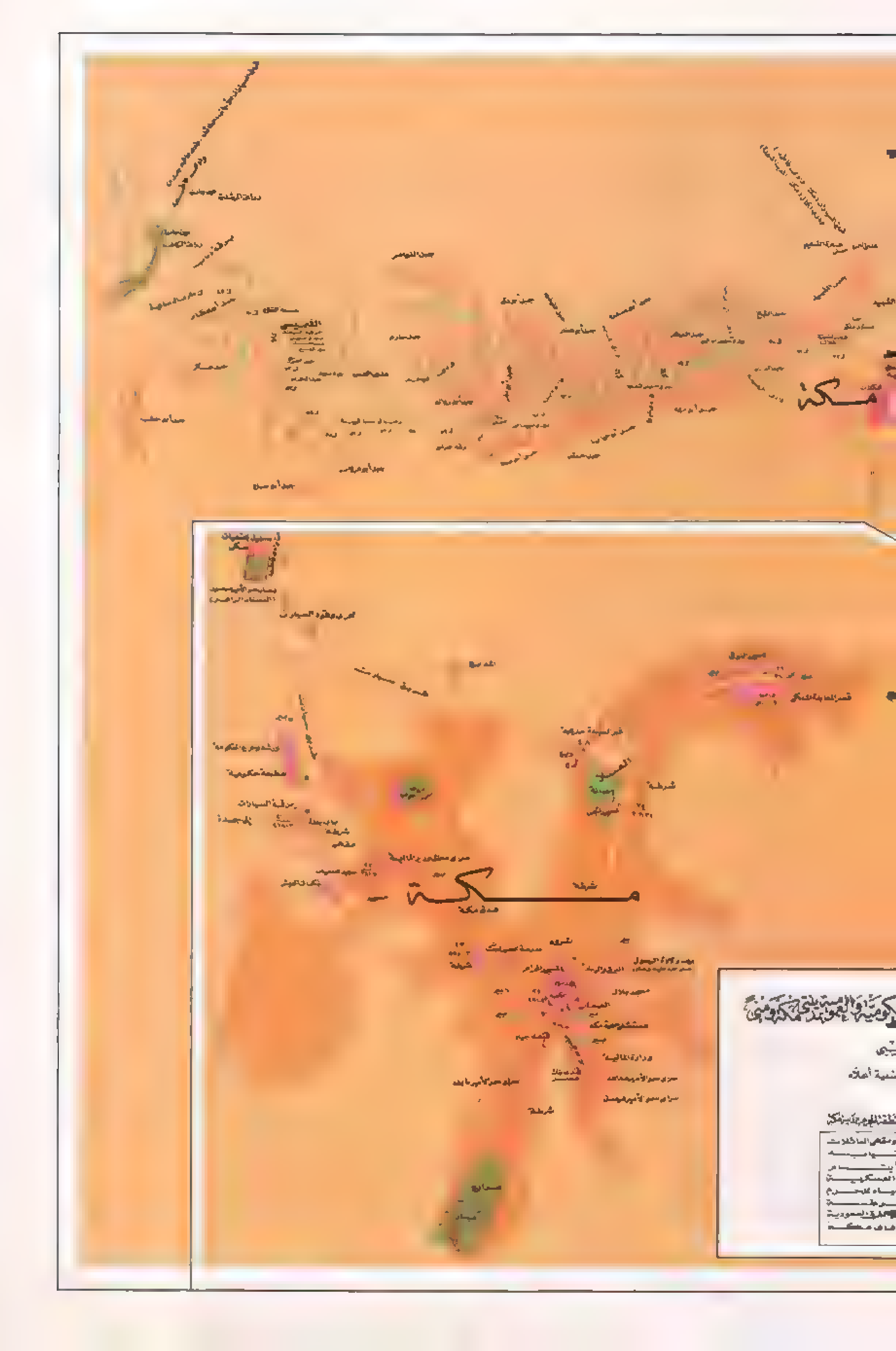
مكة
مكة

معلومات
١ المسافة بين مكة والمدينة مسيرة ١١٧ ساعة بسير الإبل وفي كتب السير القديمة عشر مراحل
٢ من المدينة إلى رابغ مسيرة ٦٦ ساعة ومن رابغ إلى مكة ٥١ ساعة محرم سنة ١٣٢٦هـ
٣ بين كل من ذات عرق وقرن المنازل ويلملم وبين مكة مرحلتان في الكتب القديمة
٤ بين مكة والجحفة أربع مراحل تقريباً
٥ من المسجد الحرام إلى علمي عرفة ١٨٣٣٣ متر
٦ " " " " " نخلة ١٣٢٥٣٠٥ متر
٧ " " " " " التنعيم ٨ ٦١٤ متر
٨ " " " " " اضاءة ٩٠٧٥–١٠٠٠٠ متر
والمسافات منقولة عن شفاء الغرام بعد تحويلها إلى أمتار
٩ من مكة إلى علمي عرفات مسير خمس ساعات
١٠ من مكة لعلمي الحديبية مسير أربع ساعات وربع
١١ راجعنا في عمل هذه الخريطة خريطة صادق باشا وخريطة المساحة وخريطة وزارة الحربية وخريطة الجيش الانجليزي في نوفمبر سنة ١٩١٦م ومعجم البلدان لياقوت وما دوناه في رحلتنا عن الطرق.
١٢ علامة الميقات
١٣ علامة أعلام الحرم
١٤ علامة الطرق
١٥ الرسم تقريبي بقدر الإمكان
رسم تقريبي للمواقيت وأعلام الحرم
شمال
شرق
غرب
جنوب
المدينة
ذو الحليفة أو آبار علي ميقات المدنيين
الطريق إلى المدينة
الأبواء
الساعة ٤ كيلو
رابغ
البحر الأحمر
ميقات الشاميين والمصريين ولكل من حازاها براً أو بحراً
الجحفة
عسفان
الطريق إلى المدينة
ذات عرق ميقات العراقيين
وادي نخلة
علمان
الطريق إلى العراق
قرن المنازل ميقات النجديين
الحديبية
علمان
التنعيم
علمان
بئر البارود
الطريق إلى جدة
مكة
منى
مزدلفة
علمان
عرفة
الطريق إلى الطائف
منبع عين زبيدة
اضاءة لبن
علمان
الطريق إلى اليمن
يلملم
خريطة المواقيت والأعلام
المدينة المنورة وأعلام الحرم ومناسك الحج
نقلاً عن كتاب مرآة الحرمين لإبراهيم باشا رفعت

خريطة الطرق الحجازية
رسم اللواء

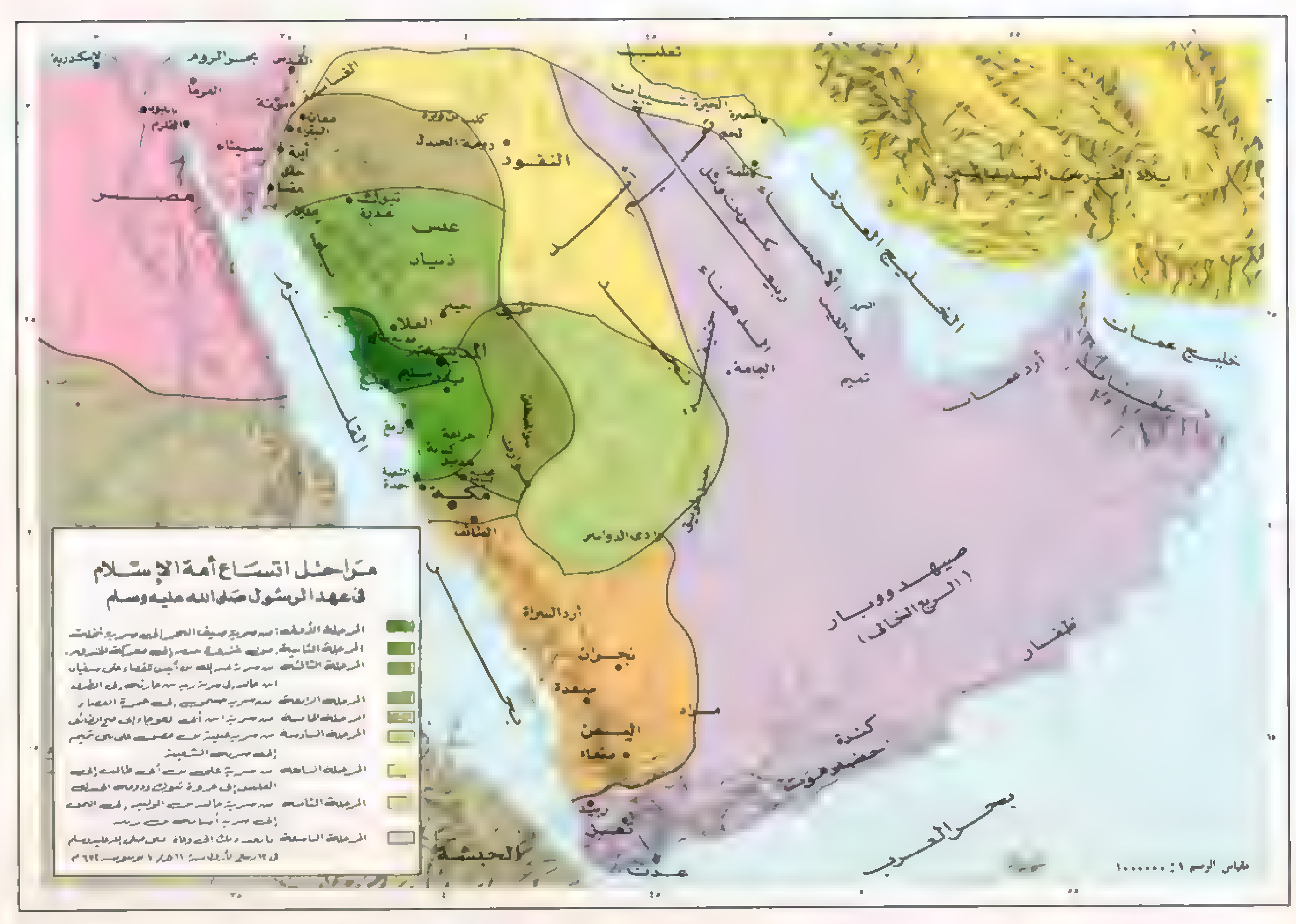

مراحل اتساع أمة الإسلام
في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم
مقياس الرسم ١ : ١٠٠٠٠٠٠٠
الخليج العربي
خليج عمان
بحر العرب
بحر الروم
الحبشة
مصر
سيناء
النفود
الدهناء
الأحساء
تغلب
تميم
خيبر
المدينة
مكة
الطائف
جدة
تبوك
عبس
ذبيان
نجران
صعدة
اليمن
صنعاء
عدن
كندة
حضرموت
ظفار
الإسكندرية
القدس

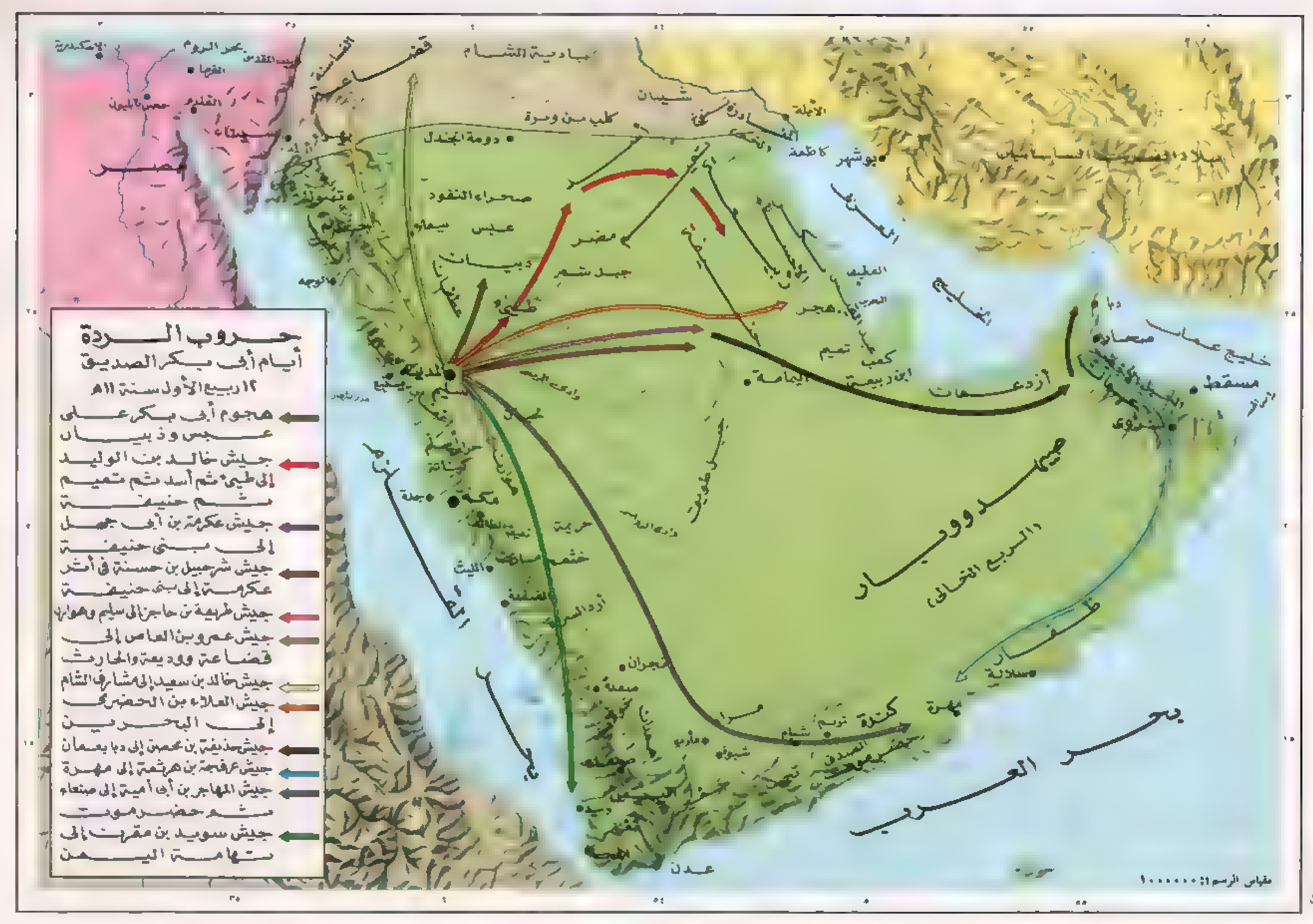
حروب الردة
أيام أبي بكر الصديق
١٢ ربيع الأول سنة ١١ﻫ
هجوم أبي بكر على عبس وذبيان
جيش خالد بن الوليد إلى طيء ثم أسد ثم تميم ثم حنيفة
جيش عكرمة بن أبي جهل إلى بني حنيفة
جيش شرحبيل بن حسنة في أثر عكرمة إلى بني حنيفة
جيش طريفة بن حاجز إلى سليم وهوازن
جيش عمرو بن العاص إلى قضاعة ووديعة والحارث
جيش خالد بن سعيد إلى مشارف الشام
جيش العلاء بن الحضرمي إلى البحرين
جيش حذيفة بن محصن إلى دبا بعمان
جيش عرفجة بن هرثمة إلى مهرة
جيش المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء ثم حضرموت
جيش سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن
بادية الشام
قضاعة
كلب بن وبرة
شيبان
دومة الجندل
صحراء النفود
عبس
ذبيان
مضر
جبل شمر
طيء
المدينة
مكة
جدة
الليث
حنيفة
اليمامة
هجر
تميم
ابن ربيعة
أزد عمان
صحار
دبا
مسقط
خليج عمان
الخليج
بوشهر
كاظمة
الأبلة
مصر
سيناء
القلزم
الإسكندرية
بحر الروم
الفرما
حصن بابليون
بيت المقدس
الوجه
البحر الأحمر
صيهد وويبار
الربع الخالي
ظفار
صلالة
مهرة
كندة
تريم
شبام
شبوة
مأرب
نجران
صعدة
زبيد
عدن
بحر العرب
حضرموت
مقياس الرسم ١ : ١٠٠٠٠٠٠٠

شجرات الأنساب

(١) شجرة أنساب عدنان

(٢) شجرة نسب قيس بن عيلان بن مضر بن نزار

(٣) أنساب كنانة وقريش

(٤) شجرة نسب عبد شمس بن عبد مناف

(٥) عبد المطلب وعبد العزى بن قصي

(٦) شجرة نسب أبي بكر الصديق

(٧) شجرة نسب بني سهم بن عمرو بن كعب بن هصيص

(٨) شجرة نسب مخزوم بن يقظة بن مرة

(٩) شجرة نسب قحطان

(١٠) شجرة نسب الأزد

(١١) أنساب الخزرج بن حارثة

(١٢) أنساب الأوس

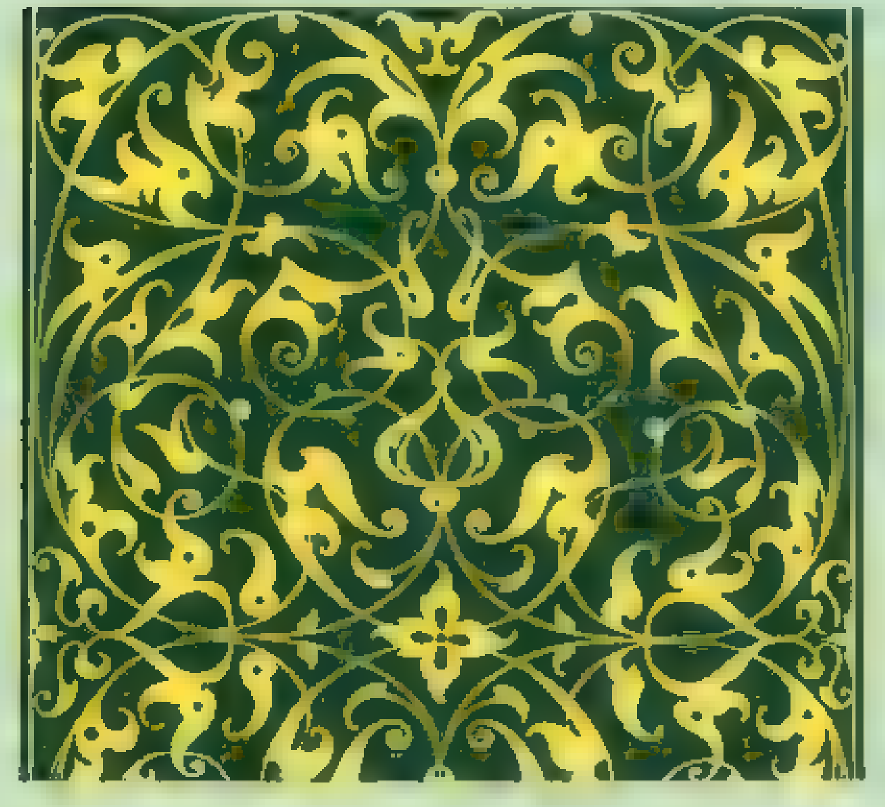

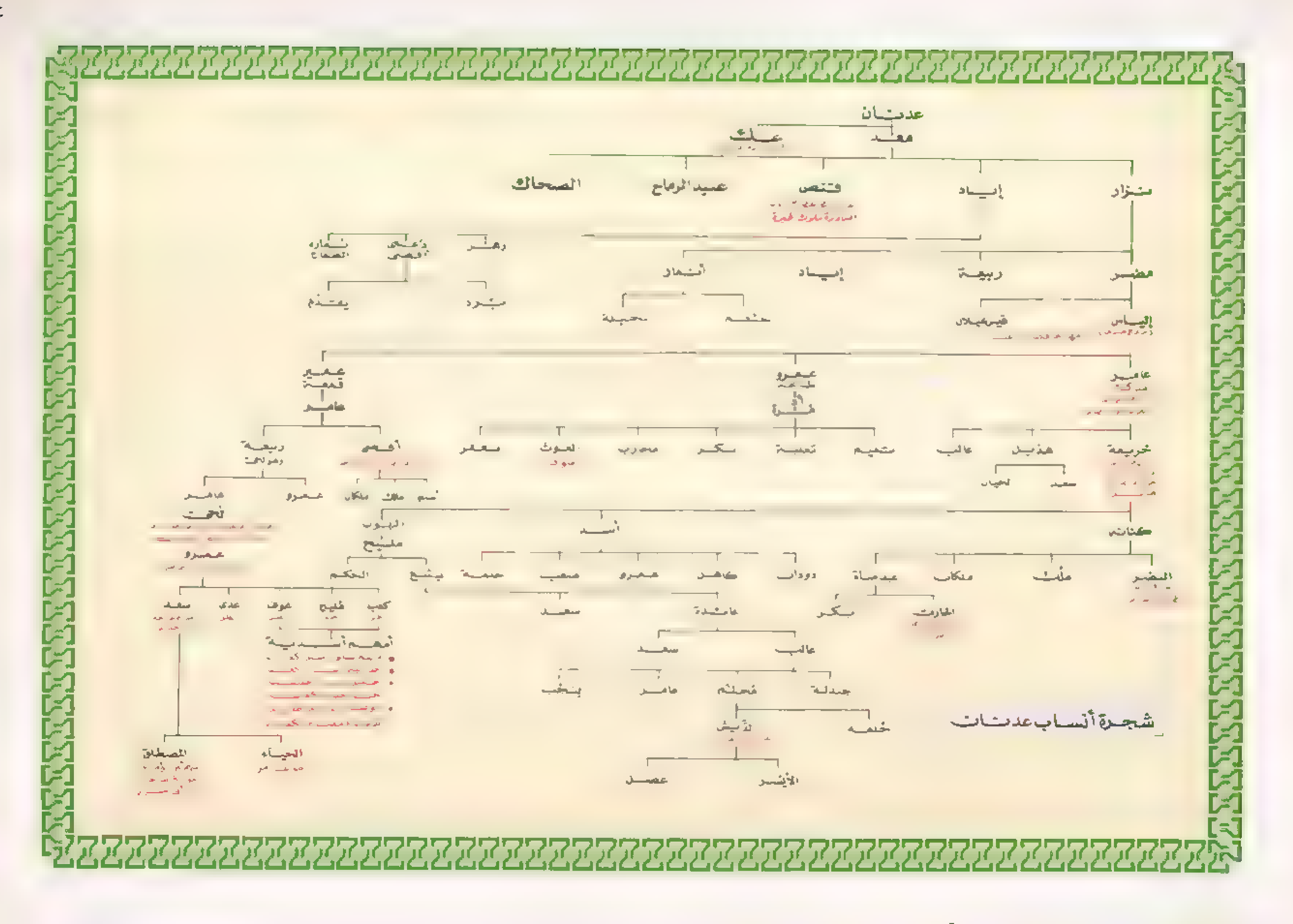

شجرة أنساب عدنان
عدنان
معد
عك
نزار
إياد
قنص
عبيد الرماح
الضحاك
مضر
ربيعة
إياد
أنمار
إلياس
قيس عيلان
خثعم
بجيلة
زهر
دعمي
أفصى
نماره
مبرد
يقدم
عامر
عمرو
عمير
قمعة
عامر
خزيمة
هذيل
غالب
تميم
ثعلبة
بكر
محرب
لعوث
سعد
لحيان
كنانة
أسد
الهون
مليح
النضر
ملك
ملكان
عبد مناة
دودان
كاهل
عمرو
صعب
جحوان
يشبح
الحكم
سعد
عامشدة
بكر
الحارث
عالب
سعد
جدلة
فصلئم
عامر
ينخب
خثعم
لأبيك
الأيسر
عصل
أفصى
ربيعة
عامر
عمرو
نحت
عمرو
سعد
عدي
عوف
فليح
كعب
أمهم أسدية
المصطلق
الحياء

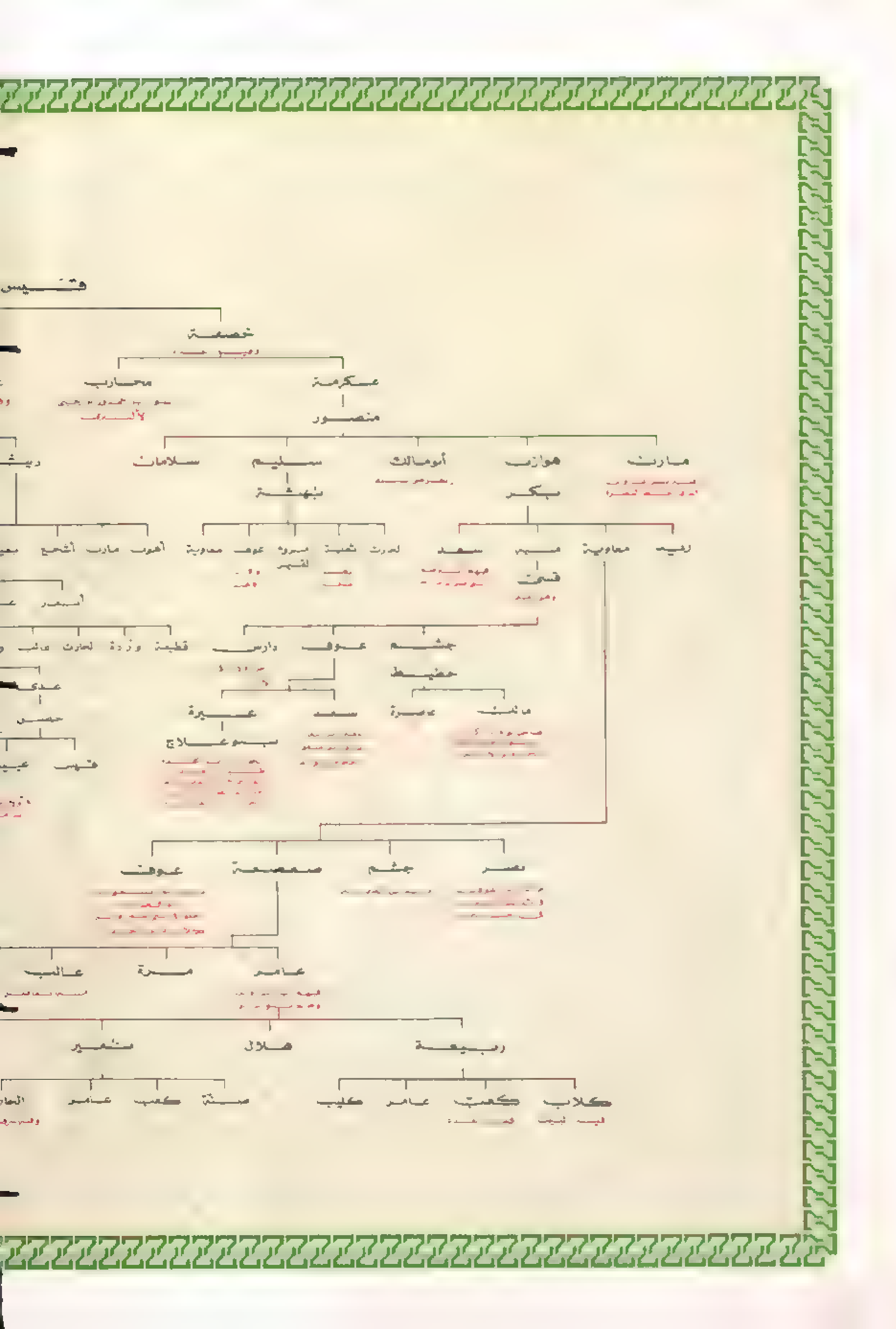

قيس
خصفة
عكرمة
محارب
منصور
حارث
هوازن
أومالك
سليم
سلامات
بكر
بلهثة
رفيعة
معاوية
منبه
سعد
قسي
جشم
عوف
دارس
عطيط
عميرة
سعد
بنو علاج
نصر
جشم
صعصعة
عوف
عامر
مرة
غالب
ربيعة
هلال
منمير
كلاب
كعب
عامر
كليب

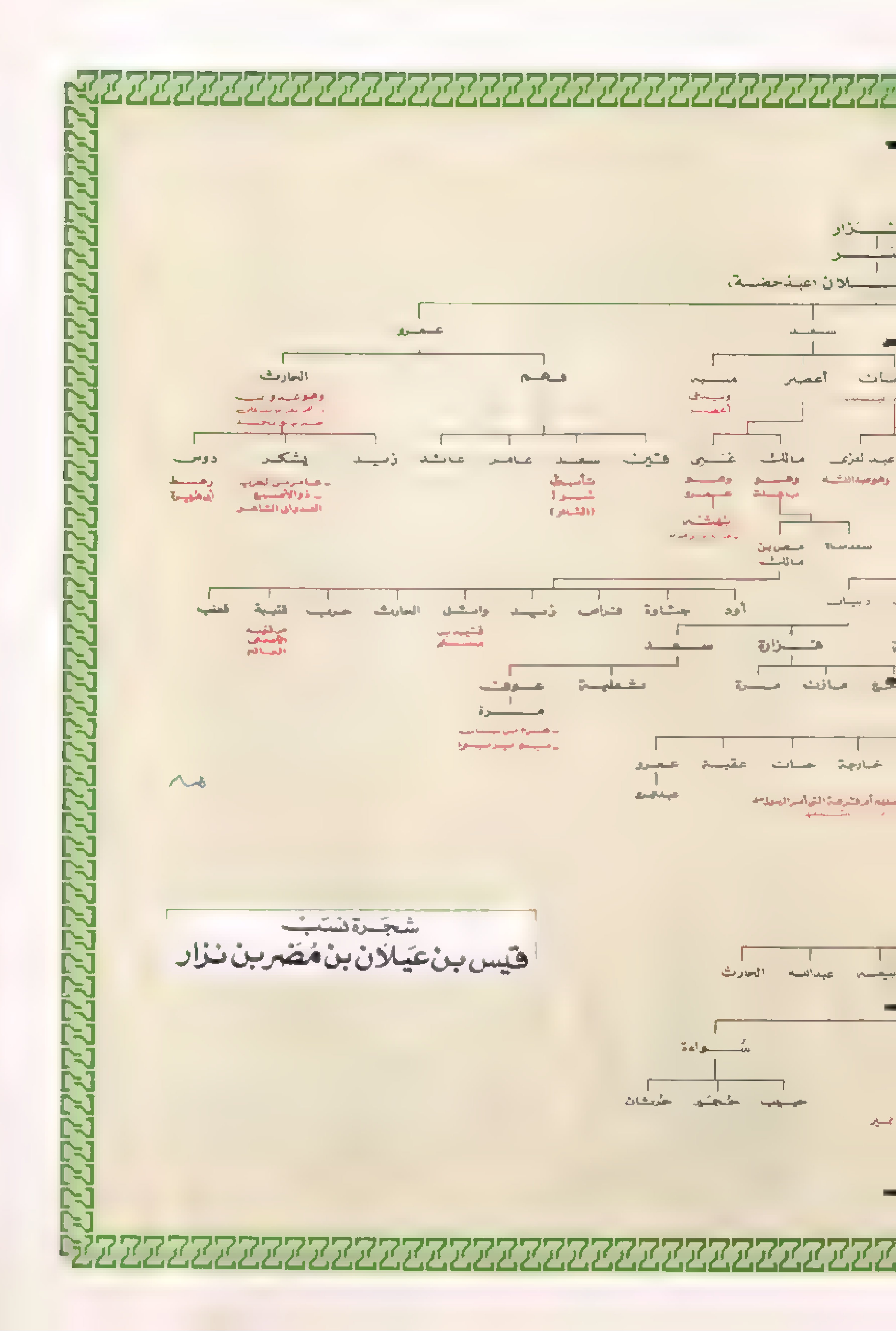

شجـرة نسـب
قيس بن عيلان بن مُضر بن نزار
عمرو
سعد
الحارث
فهم
أعصر
دوس
يشكر
زيد
عائذ
عامر
سعد
قين
غنى
مالك
عبد العزى
تأبط شرا (الشاعر)
أود
جشاوة
فراص
زيد
واشل
الحارث
حبيب
قتيبة
قعنب
سعد
فزارة
ثعلبة
عوف
مرة
مازن
مرة
خارجة
عقيبة
عمرو
الحارث
عبدالله
سُواءة
حبيب
حجير
حرشان

ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس
مالك
فهر
غالب
لؤي
كعب
مرة
كلاب
قصي
هاشم
عبد المطلب
محمد
عمرو
ملكان
مالك
الصلت
يخلد
الحارث
محارب
عمرو
عبدالله
مالك
هلال
تيم الأدرم
بكر
ليث
الديل
كعب
شجع
عامر
جسل
عدي
هصيص
عمرو
جمح
سهم
القلمس
زهرة
الحارث
عبد الدار
عبد العزى
عبد قصي
برة
تخمر
أسد
خويلد
المطلب
عبد شمس
نوفل
تماضر
الشفاء
نضلة
أسد
أبو صيفي
أم حكيم (البيضاء)
أبوطالب
الزبير
عاتكة
برة
أميمة
أروى
الحارث

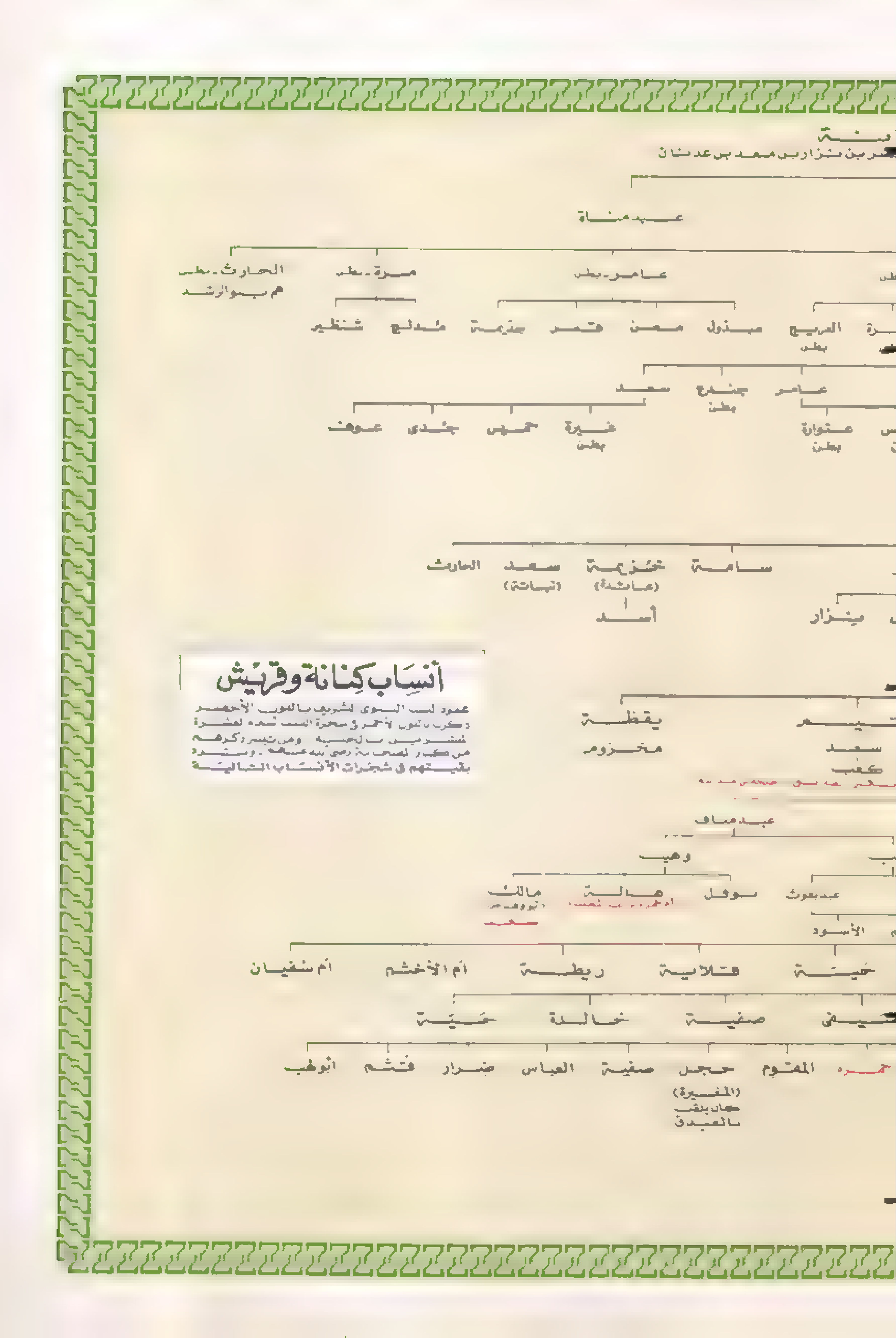

أنساب كنانة وقريش
عبد مناة
الحارث - بطن
هم بنو الرشد
مرة - بطن
عامر - بطن
شنظير
مدلج
جذيمة
معن
مبذول
الربيع
سعد
جندع
عامر
سامة
خزيمة
(عائذة)
سعد
(بنانة)
الحارث
أسد
يقظة
مخزوم
سعد
كعب
عبد مناف
وهيب
مالك
هالة
نوفل
عبد يغوث
الأسود
أم سفيان
أم الأخشم
ريطة
قلابة
صفية
خالدة
أبو لهب
قثم
ضرار
العباس
صفية
حجل
(المغيرة)
كان يلقب
بالغيداق
المقوم

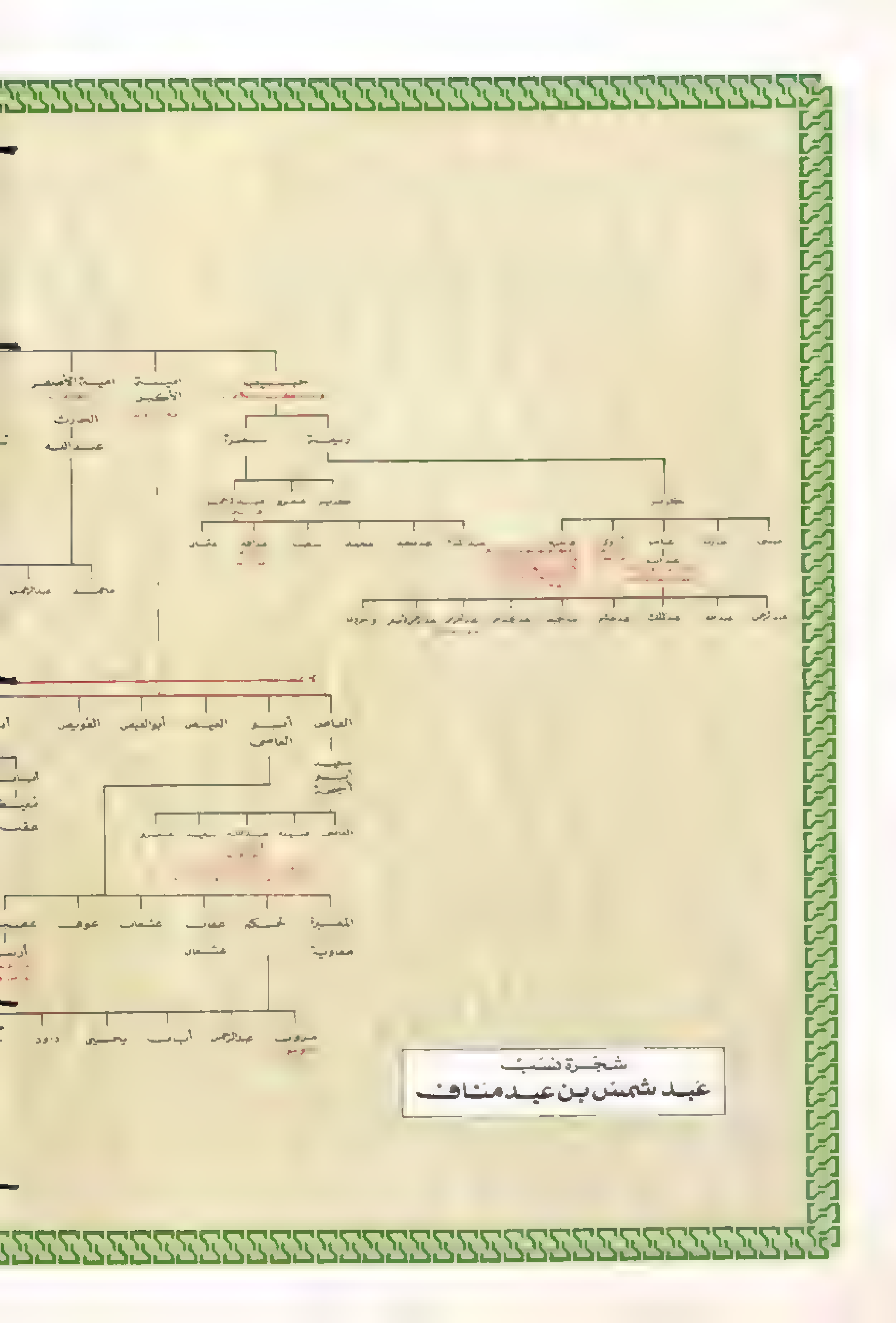

شجرة نسب
عبد شمس بن عبد مناف
أمية الأصغر
أمية الأكبر
الحرث
عبد الله
ربيعة
سمرة
محمد
عبد الرحمن
العاص
أبو العاص
العيص
أبو العيص
العويص
المغيرة
الحكم
عفان
عثمان
عوف
عثمان
معاوية
مروان
عبد الرحمن
أبان
يحيى
داود

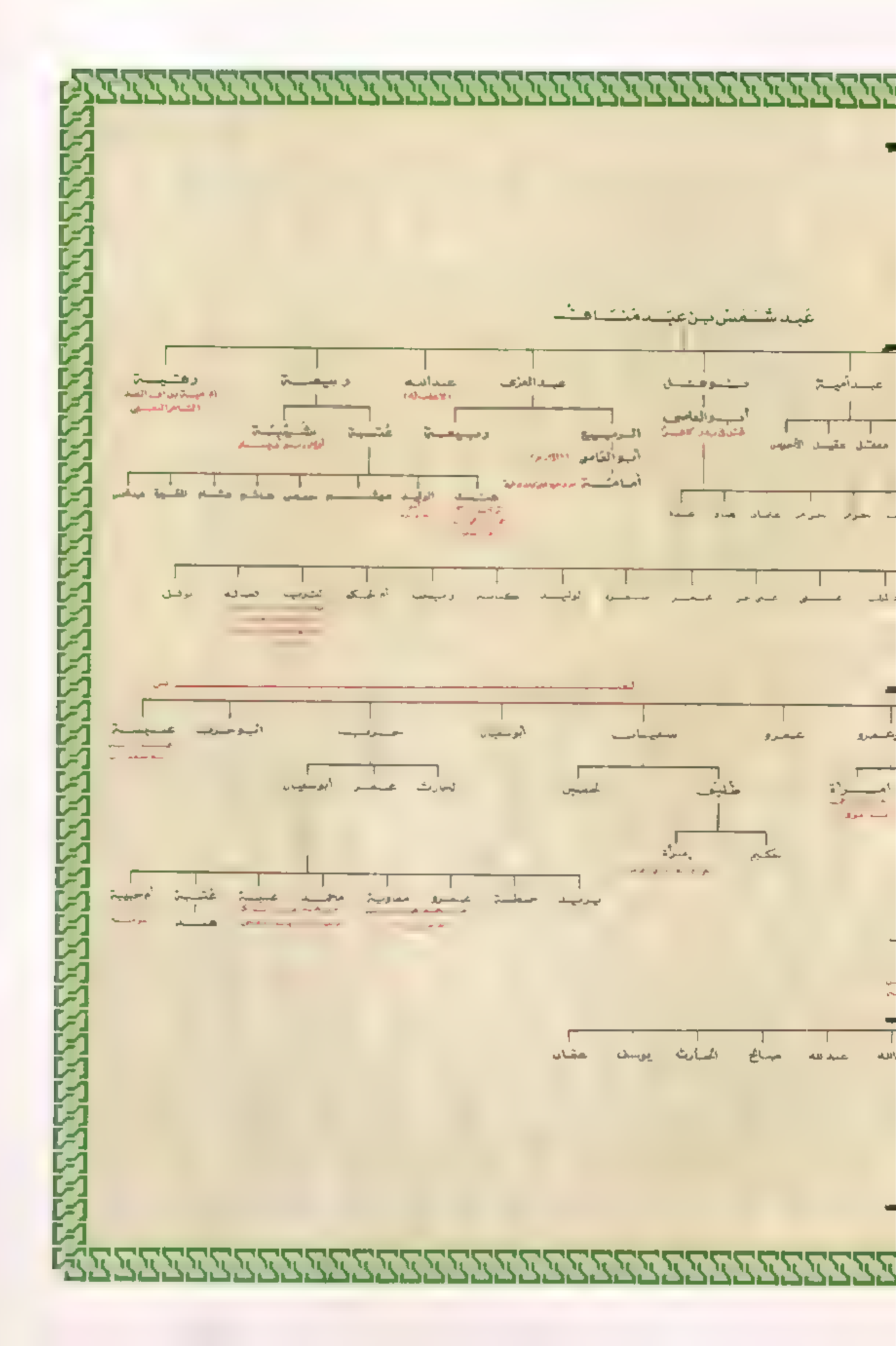

عبد شمس بن عبد مناف
رقية
ربيعة
عبد الله
عبد العزى
نوفل
عتبة
شيبة
الربيع
أبو العاص
أمامة
حرب
أبو حرب
أبو سفيان
سفيان
عمرو
طليق
حكيم
عثمان
يوسف
الحارث
صالح
عبد الله

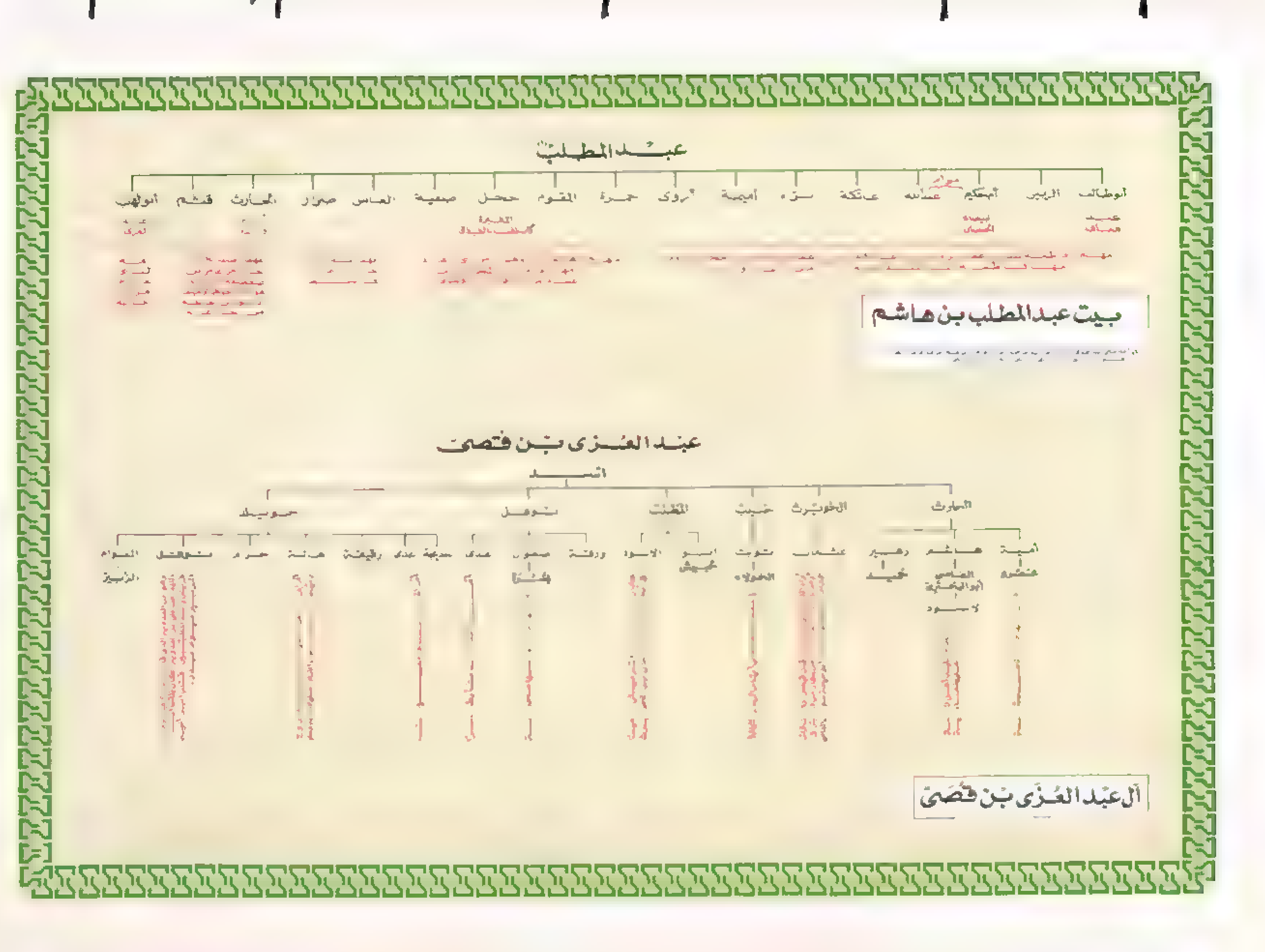

بيت عبد المطلب بن هاشم
عبد المطلب
أبو طالب
الزبير
الحكم
عبد الله
عاتكة
برة
أميمة
أروى
حمزة
المقوم
حجل
صفية
العباس
ضرار
الحارث
قثم
أبو لهب
عبد العزى بن قصي
أسد
الحارث
الحويرث
المطلب
نوفل
خويلد
آل عبد العزى بن قصي

عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة
عثمان أبو قحافة
أبو بكر الصديق
معتق
أم فروة
عبد الله
محمد
عبد الرحمن
عائشة
أسماء
أم كلثوم
شجرة نسب أبي بكر الصديق

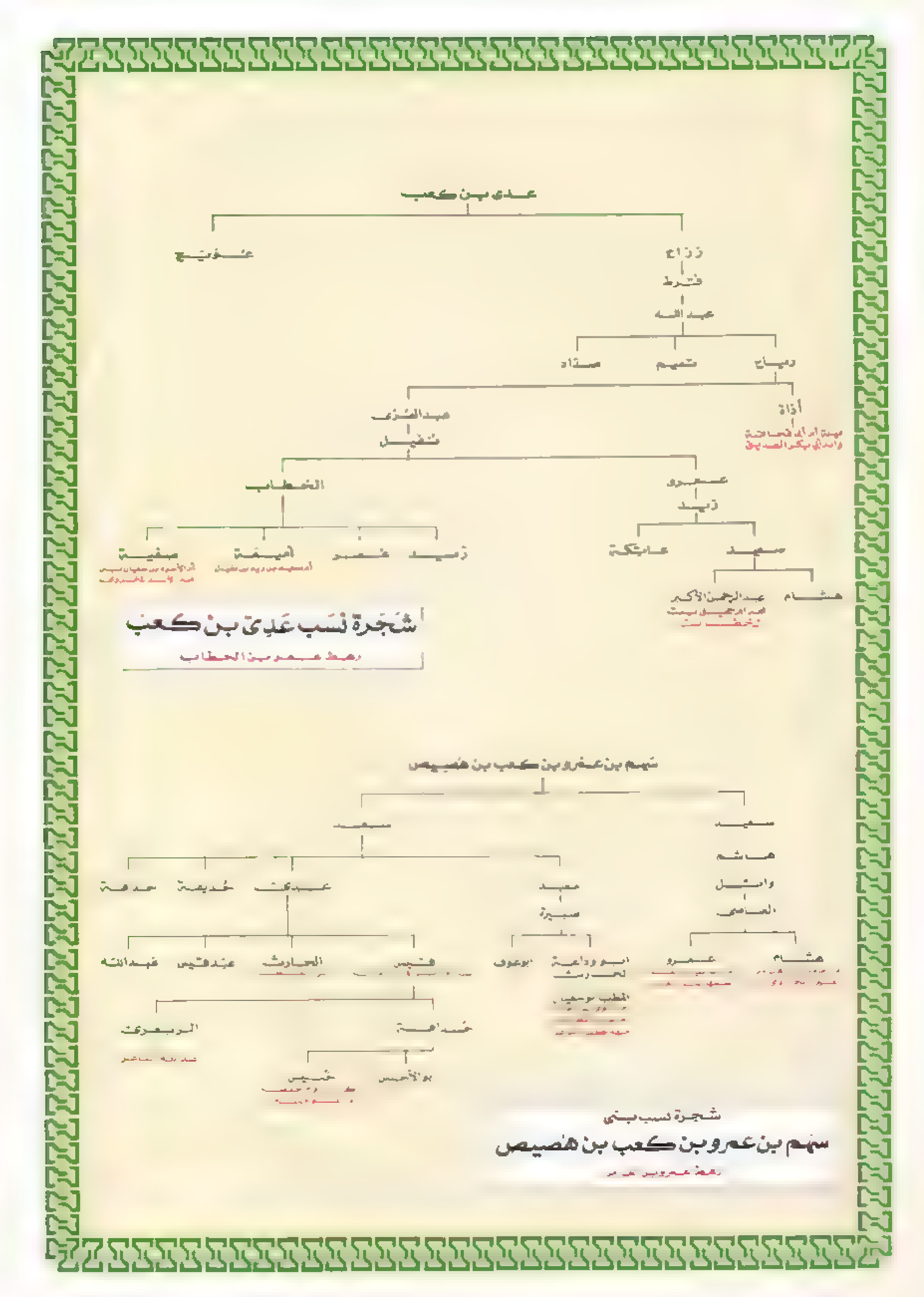
عدي بن كعب
عويج
رزاح
قرط
عبد الله
رياح
أذاة
عبد العزى
نفيل
الخطاب
عمرو
زيد
صفية
أميمة
عمر
زيد
عاتكة
سعيد
عبد الرحمن الأكبر
هشام
شجرة نسب عدي بن كعب
رهط عمر بن الخطاب
سهم بن عمرو بن كعب بن هصيص
سعيد
هاشم
وائل
العاصي
عمرو
هشام
حذيفة
سعيد
صبيرة
أبو وداعة الحارث
المطلب بن أبي وداعة
قيس
الحارث
عبد قيس
عبد الله
حذافة
الزبعرى
خنيس
أبو الأخنس
شجرة نسب بني
سهم بن عمرو بن كعب بن هصيص

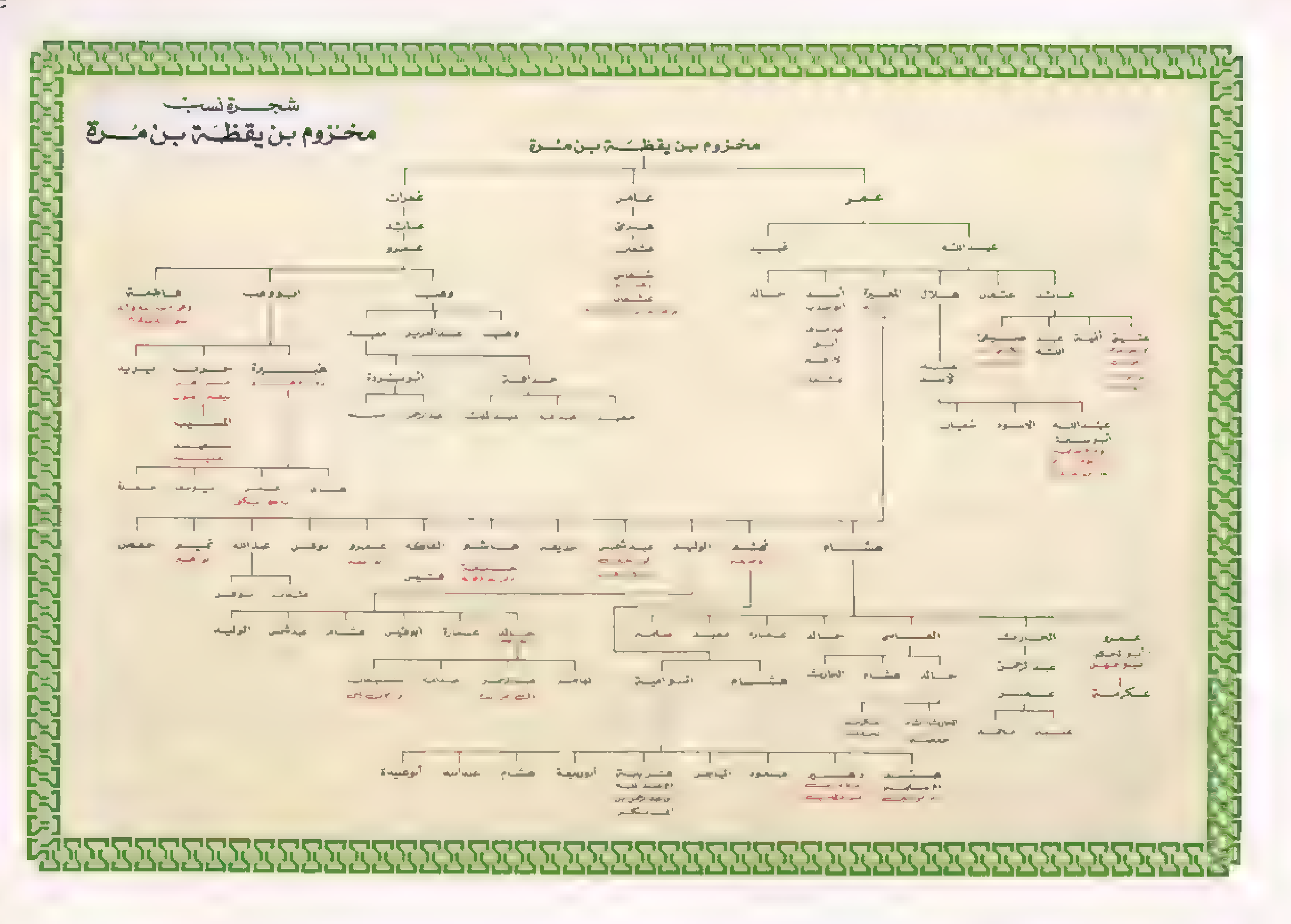
شجرة نسب
مخزوم بن يقظة بن مرة
مخزوم بن يقظة بن مرة
عمر
عامر
عمران
عبد الله
عائذ
عمرو
وهب
أبو وهب
فاطمة
عائذ
عثمان
هلال
المغيرة
أسد
خالد
عبد العزيز
عبد الله
الأسود
هشام
هاشم
الوليد
عبد شمس
حذيفة
الفاكه
عمرو
نوفل
عبد الله
تميم
حفص
قيس
الحارث
العاص
خالد
عمارة
معبد
أبو قيس
الوليد
عبد الرحمن
عكرمة
أبو أمية
أبو عبيدة
أبو ربيعة
المهاجر
مسعود
زهير

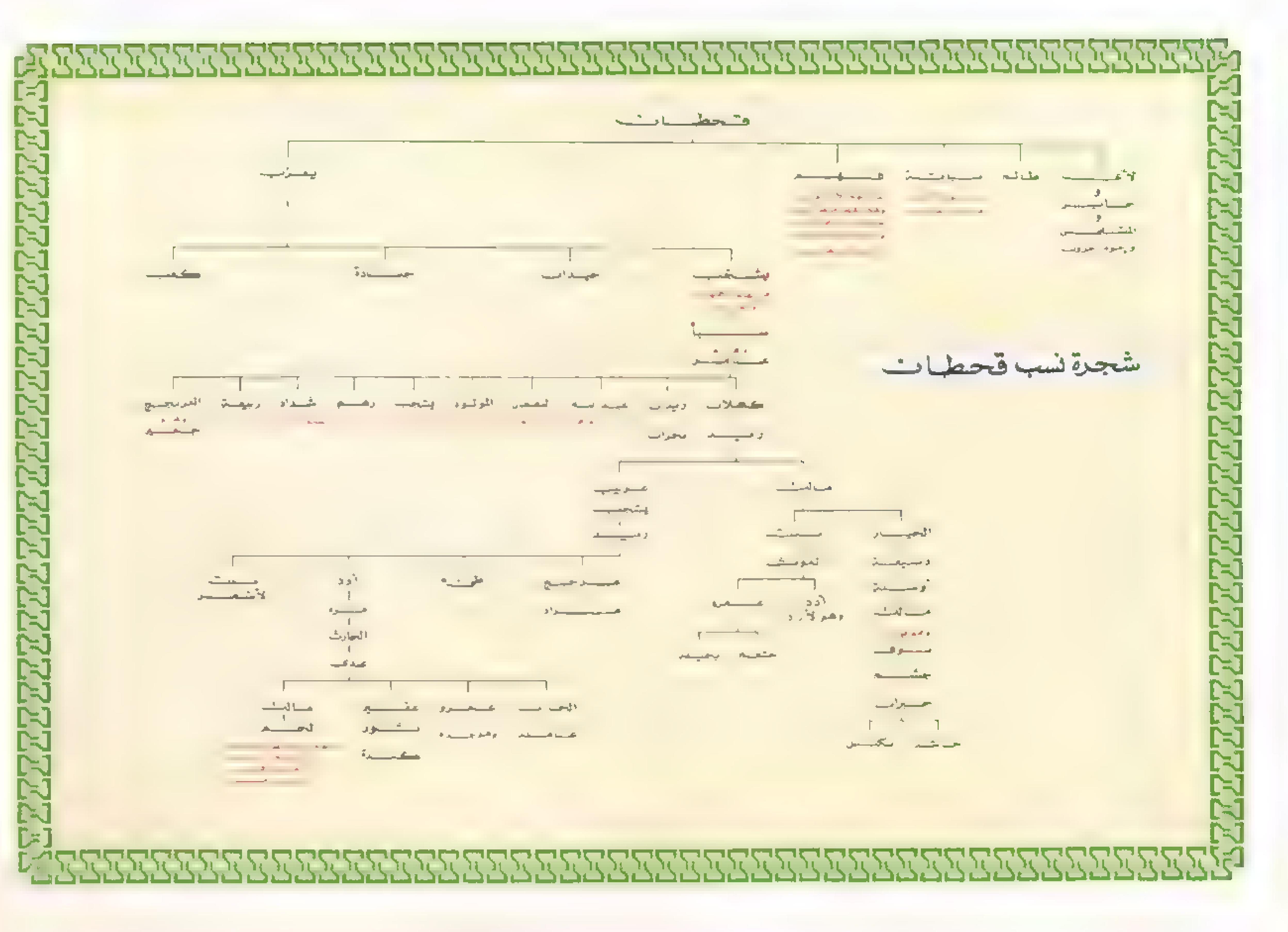
شجرة نسب قحطان
قحطان
يعرب
يشجب
سبأ
كهلان
الحارث
عدي

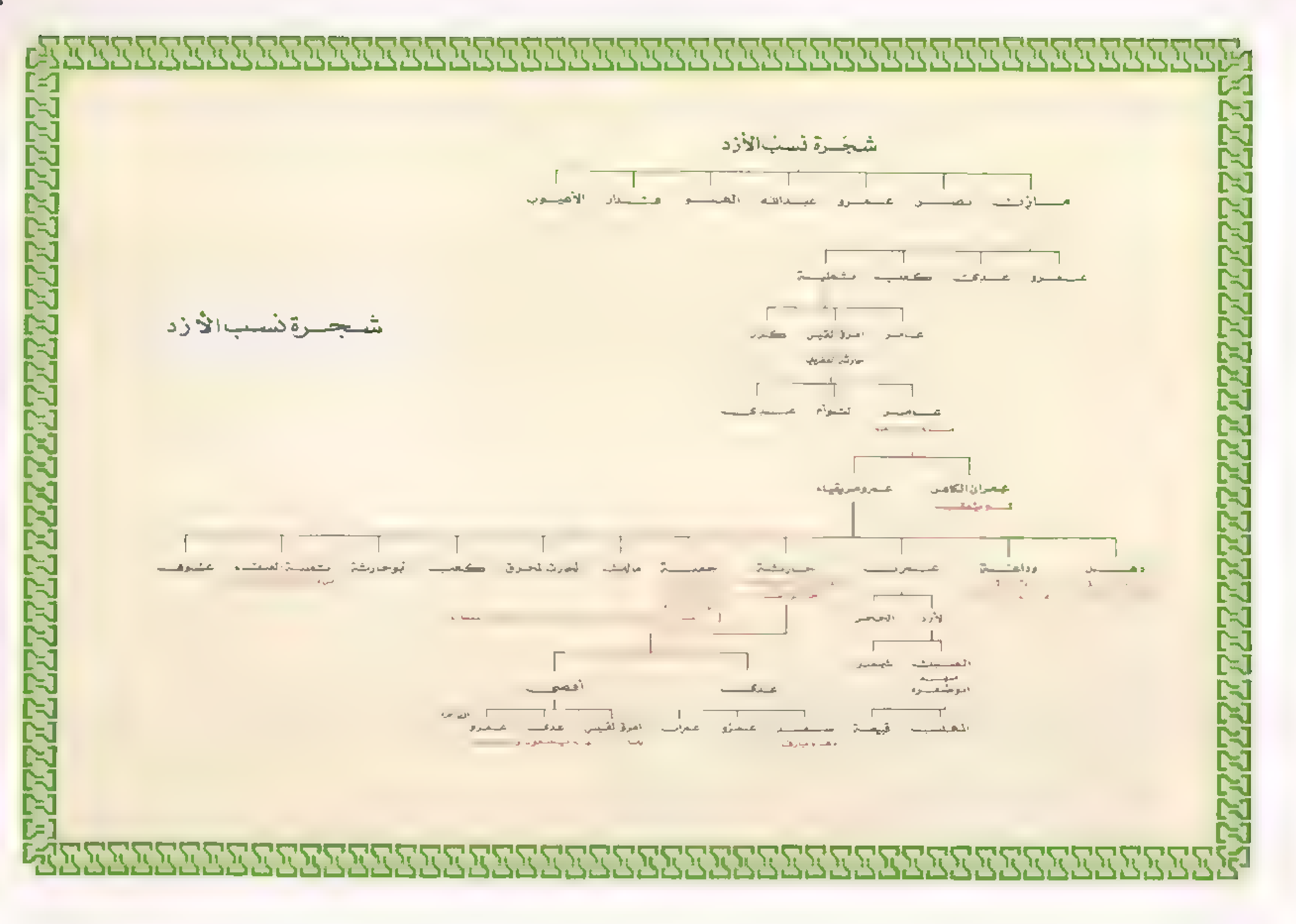

شجرة نسب الأزد
شجرة نسب الأزد
مازن
نصر
عمرو
عبدالله
الهنو
هندار
الأصبوب
عمرو
عدي
كعب
ثعلبة
عامر
امرؤ القيس
كعب
عامر
التوأم
عدي
عمران الكاهن
عمرو مزيقياء
وداعة
عمران
حارثة
جفنة
مالك
الحارث المحرق
كعب
أبو حارثة
ثعلبة العنقاء
عوف
الأزد
الحجر
عدي
أفصى
قبيصة
عمرو
عمران
امرؤ القيس
عدي
عمرو

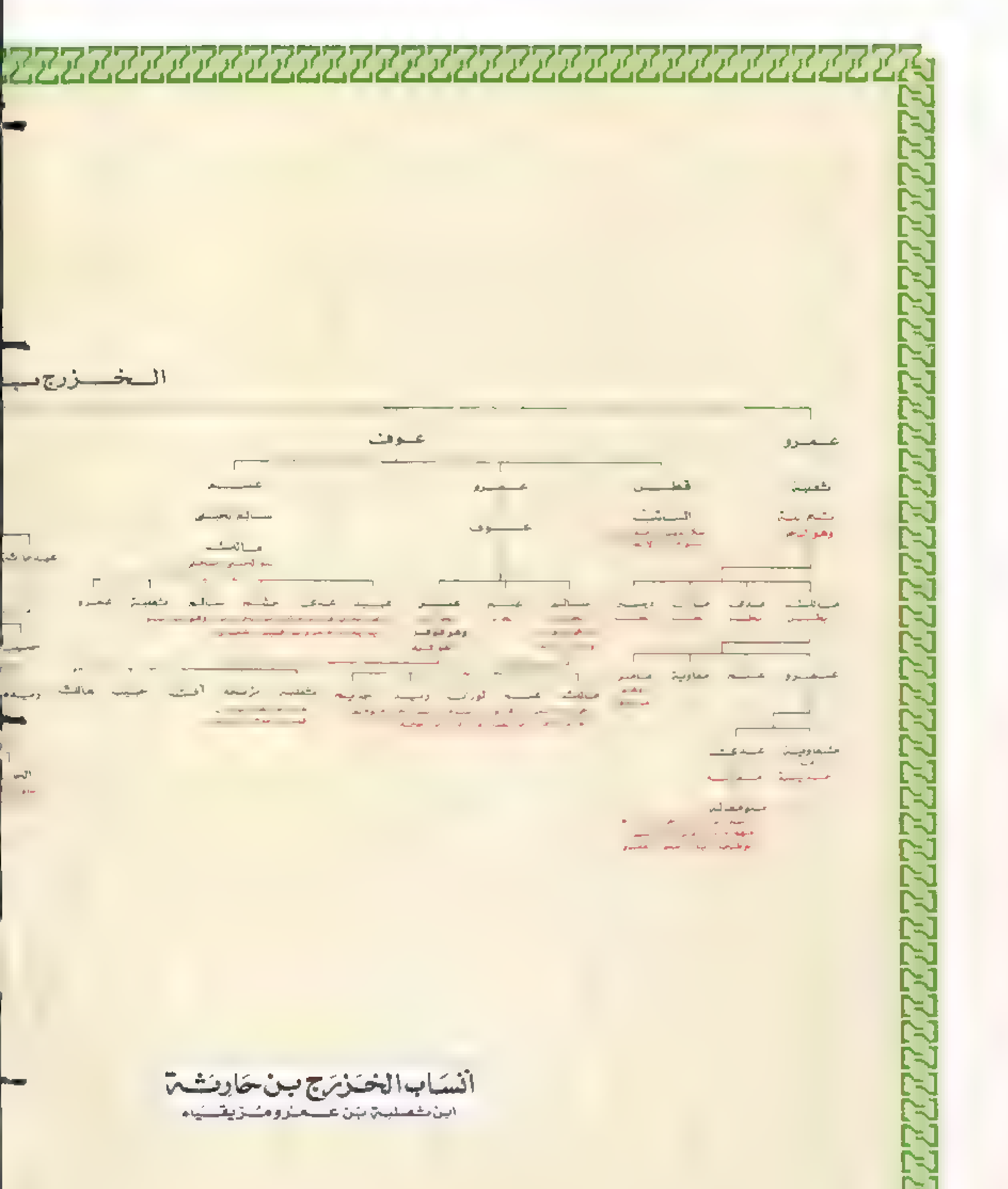

عوف
عمرو
أنساب الخزرج بن حارثة
ابن ثعلبة بن عمرو مزيقياء

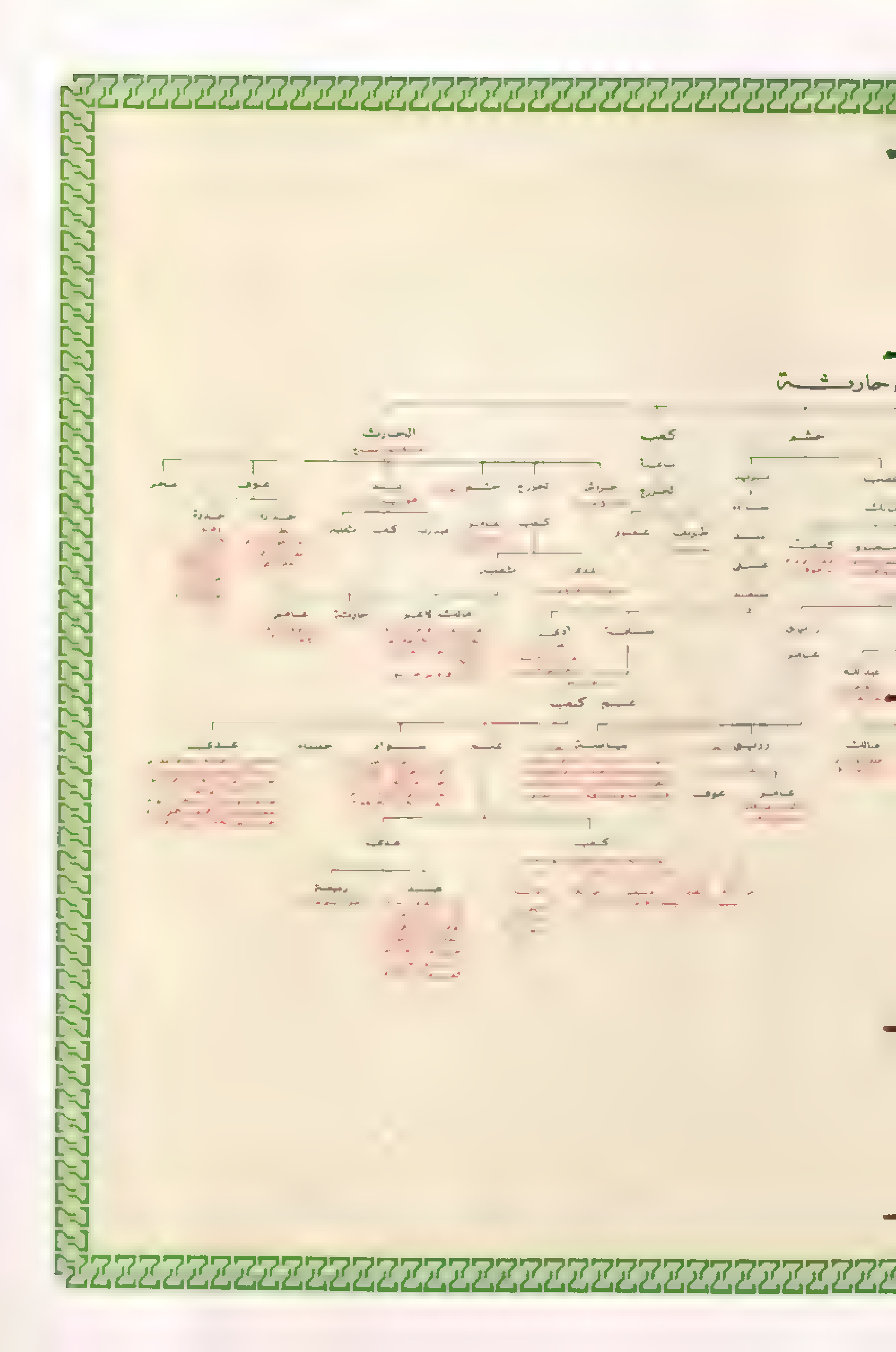
الحارث
كعب
جشم

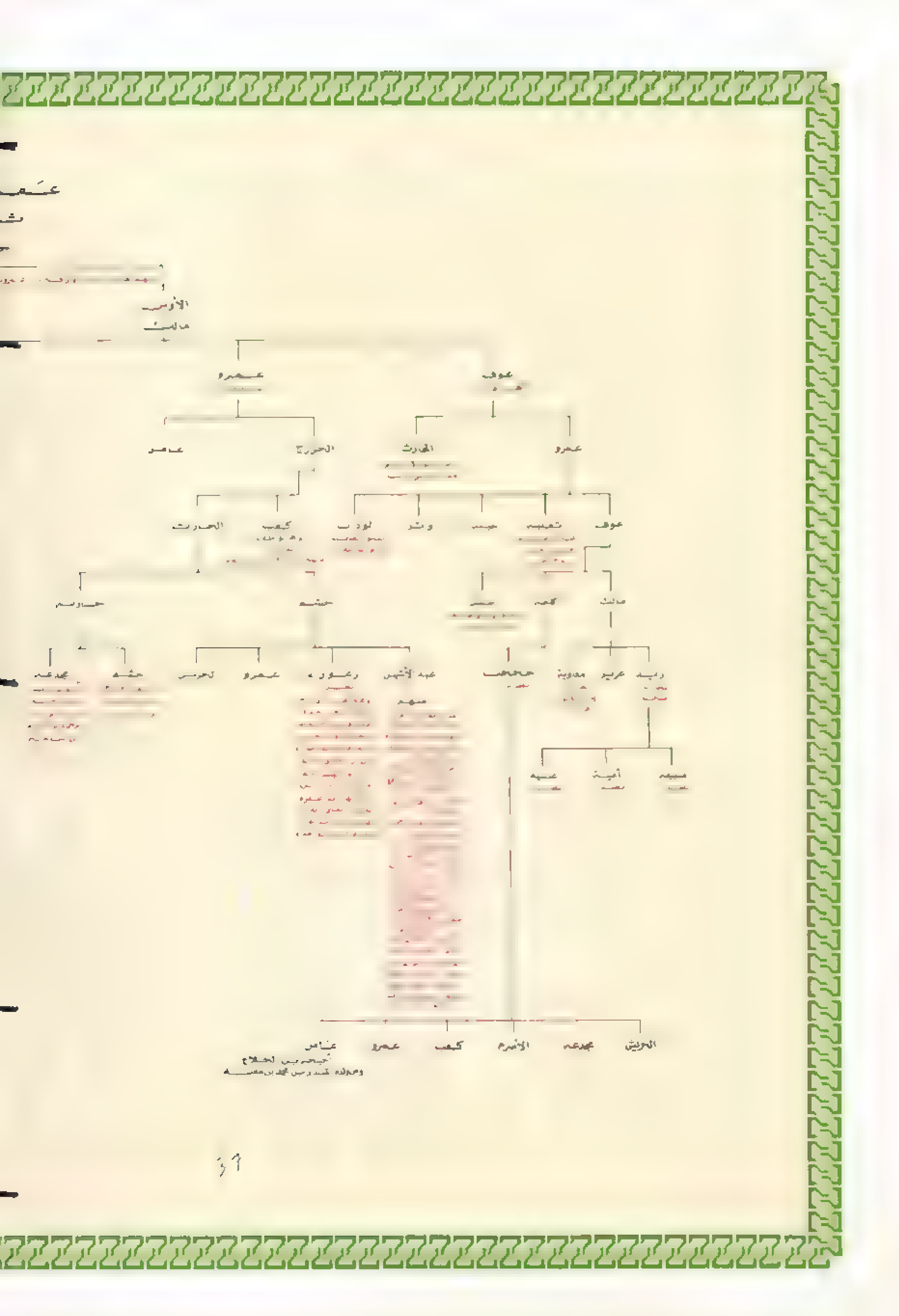

الأوس
مالك
عمرو
عوف
عامر
الخزرج
الحارث
عمرو
كعب
وائل
ثعلبة
عوف
مالك
عبد الأشهل
عمرو
معاوية
أمية
عامر
عمرو
كعب
الحريش

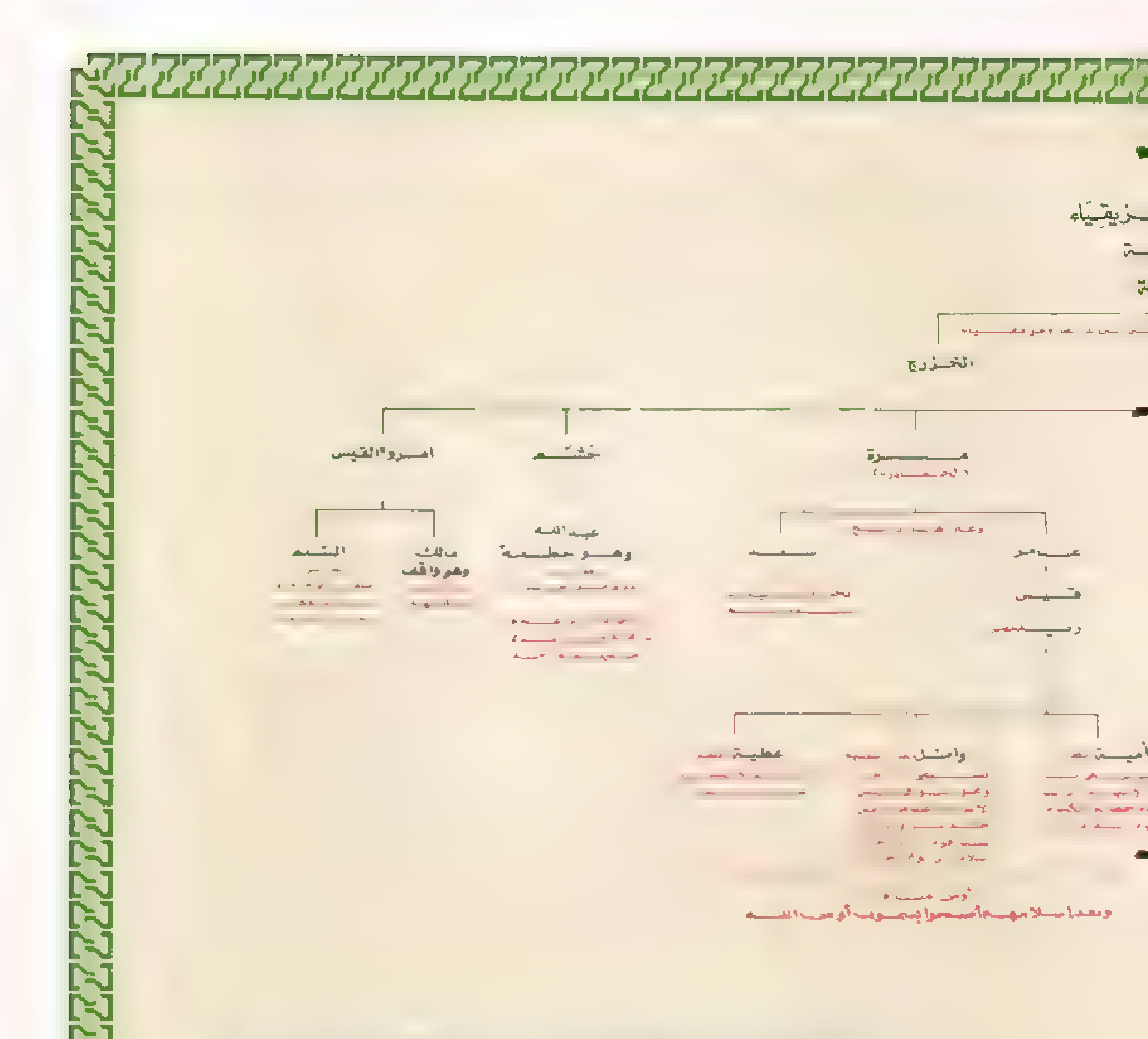

أنساب الأوس

عن جمهرة الأنساب لابن حزم
طبعة القاهرة ١٩٧٧، ص ٣٣٢ - ٣٤٦

أسماء القبائل والبطون مكتوبة باللون الأسود [illegible] لأحمر [illegible] وكبار شخصيات الأوس ومعلومات عن القبائل والأشخاص.. وقد ميزنا أسماء الأشخاص بشرطة قصيرة قبل كل اسم منها

١ـ ابن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد

٢ـ أوس مناة وهم أوس الله.

هم بنو مرة بن مالك بن الأوس بن حارثة وكان رئيسهم صيفي الشاعر وهو أبو قيس بن الأسلت (عامر) بن جشم بن وائل وكان سيد قومه، فتأخر إسلامه إلى أن مضى يوم الخندق وتأخر إسلام جمهور بني خطمة، وهم بنو جشم بن مالك بن الأوس وإسلام أوس الله. وهم هذه البطون، وهم من ولد مرة بن مالك بن الأوس إلا أن بني السلم بن امرئ القيس كانوا حلفاء بني عمرو ابن عوف بن مالك بن الأوس، فأسلموا كلهم بإسلام أخوتهم بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس بعد الخندق وتغير اسمهم من أوس مناة إلى أوس الله. ص ٣٤٥

السيرة النبوية والعصر النبوي

فهم جديد للسيرة النبوية

يعتبر هذا الفصل من الأطلس تجربة جديدة في فهم السيرة النبوية والتاريخ للعصر النبوي ، ذلك أننا نعرف أن التاريخ – أي الحوادث – يمضي ولكن الجغرافية – أي مسرح الحوادث – تبقى ، وعندما نستعين بالخرائط في دراسة التاريخ فإنه يكتسب حيوية وتزداد الحوادث واقعية وضبطاً .

وكان معظمنا في الماضي يدرس السيرة النبوية درساً عاطفياً لاتاريخياً ، أما اليوم فنحن نضيف المنهج التاريخي إلى منطق العاطفة ، فتزداد للسيرة فهما ولحقائقها إدراكاً ، ونكتشف من وجوه تفرد الشخصية المحمدية بخصال لاتتناهى من الحكمة وحسن التدبير وسلامة التصرف نواحي كانت العاطفة تخفيها عنا ؛ لأن المسلم التقي العاطفي لايناقش ولايسأل ولايحاول تفسير الحوادث ، إنما هو يأخذها كما هي عند ابن هشام مثلا ، ويصورها بقلمه إذا كان من طلاب التأليف فيها ، فيكون تأليفه نقلا من ورق قديم إلى ورق جديد ، أما إذا فكر وتدبر وأعمل المنهج التاريخي وقارن بين النصوص ودقق في البحث عن التفاصيل ورفع الأحجار وحفر تحتها تكشفت له النصوص عن حقائق ومعايير جديدة ، واستطاع أن يصوغ السيرة النبوية في نسق جديد هو أدق وأكثر واقعية وأكثر إقناعاً ، وأبلغ منطقا ، مما يصوغه العاطفي الذي يمنعه التقى أو الجهل بالمنهج التاريخي ووسائله من الاستنتاج والاستخراج ، وهو في هذه الحالة لايقف عند حد النقل من ورق قديم إلى ورق جديد ، بل يبعث الروح في الحوادث لتحدث بنفسها بمنطق صادق مقنع ، ولايقف عمله في السيرة عند التأليف أو التوليف بين نصوص متفرقة ، بل يصبح منشئا ومبدعا لتاريخ حي ، يخاطب العقل دون أن يقلل من فيض العاطفة .

السيرة النبوية بين الجغرافية والتاريخ .

وهذا هو ماحاولته هنا ، والمحاولة كانت عسيرة جداً أول الأمر ؛ لأن العرب ألفوا في جغرافية الجزيرة كتبا ورسائل كثيرة جدا ، بعضها يتميز بالدقة وسعة العلم ، مع الرحلة والمشاهدة المباشرة ، والاستئناس بأقوال رحالة وأصحاب أسفار من أهل الصدق والضبط ودقة الملاحظة ، وكلامهم مقبول ومعقول إذا أنت وقفت عند حد القراءة ، فإذا قرأت عند مؤلف أن (العيص) قرية عند شاطىء البحر في حوز المدينة المنورة فهذا الكلام مقبول ومفيد مادمت تقف عند حد القراءة ، ولكنك عندما تحاول توقيعه على الخريطة تحس بالصعوبة ، فهذه هي المدينة المنورة ، وهذا هو شاطىء البحر فأين تضع العيص ؟ شمال خط المدينة أم جنوبه أم غربه ؟ والخرائط التي بين يديك تضعها حيث لاتورد العيص أين درست ، ثم إنك لاتستطيع أن تهملها ؛ لأن واحدة من سرايا رسول الله ﷺ الأولى ذهبت إليها ، فلا بد من تحقيق موقعها ، وعندما تقرأ في كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة لأبي إسحاق إبراهيم الحربي ، وهو من أدق من ألفوا في جغرافية الجزيرة : « وقال بعضهم : حد العراق من بلاد العرب حجر أبي موسى بطواره إلى منقطع أداني تخوم الموصل إلى أداني تخوم البحرين »[1] – فأنت تقف أمام ألغاز ، حقا إن علامة الجزيرة العربية الشيخ حمد الجاسر قد حل – جزاه الله كل خير – بعض الإشكال عندما قال في تعليقه : إن حجر أبي موسى هو معروف الآن باسم حفر الباطن ، والباطن هو الوادي العظيم ، ويقصد به هنا مايسمى قديما « فلج » بتسكين اللام ، ولكن يبدو أنه من العسير أن تفسر عبارة « بطواره إلى منقطع أداني تخوم الموصل إلى أداني تخوم البحرين »

أضف إلى ذلك أن هناك تعارضا كبيرا بين المراجع في تحديد المواقع ، بل إن هذا التعارض موجود في الموضع الواحد ، وهو يشمل كل أنواع المعلومات عن الأعلام الجغرافية : الأبعاد ، والمسافات ، والاتجاهات ، ورسوم الأسماء ، وهذا كله تمكن مناقشته وتحديده في التعليقات عند نشر المخطوطات أو استخدامها ، أما في الخرائط فإن العلم الجغرافي لابد أن يوضع في موضع محدد ولو على وجه التقريب ، ومن هنا جاءت الصعوبة ، ولم يكن أمامنا مفر من هذا التدقيق في تحقيق مواضع الأعلام الجغرافية ؛ لأن هذا الجزء من الأطلس يتعلق بالسيرة النبوية ، ومن هنا فإن التحديد واجب ، وبعد القراءة الواسعة عن شبه الجزيرة وجدت أن أغنى النصوص وأكثرها نفعاً لنا في هذا المطلب هو كتاب مغازي الواقدي ؛ فهذا الرجل الذي نعتبره أحسن من ألف في المغازي كانت عنده معرفة دقيقة باتجاهات المغازي وأهدافها وطرقها ومواضعها ، وهو لايزال يضمن كلامه تحديدات جغرافية ذات قيمة عظيمة ، وإلى جانب المراجع الأخرى الجغرافية والتاريخية ، أفدت فائدة كبيرة من معلومات الوفيرة ، التي يقدمها المسعودي عن شبه الجزيرة العربية والمغازي في « التنبيه والإشراف » .

وعندما بدأت في رسم خرائط الجزيرة في الجاهلية والعصر النبوي ورسم أحداث السيرة على هذه الخرائط تبينت أنني أمام تصور وفهم جديدين لسيرة المصطفى ﷺ ، فإننا إذا رسمنا خريطة للمدينة المنورة معتمدين على المعلومات الوفيرة ، التي نجدها عند السمهودي ومانقله السمهودي عن المطري وابن زبالة ، وماتجده من المعلومات عند الرحالة والجغرافيين ، وبخاصة المسعودي ، والمقدسي وياقوت ، وصادق باشا التركي ، وإبراهيم باشا رفعت – نجد في النهاية أن شكل المدينة يبدو أمامنا في هيئة أخرى أوضح من صورها في المراجع التي اعتمدنا عليها ؛ لأن المواضع والتلال والوديان ومنازل القبائل والطرق والشعاب عندما تصورها مرسومة بأبعادها ومسافاتها تبعث في الحوادث حيوية لاتجدها قط في النصوص الجامدة ، وتأمل مثلاً : رسوم المدينة ومكة ، وطريق الهجرة في هذا الأطلس ، وانظر كيف أنها تعطيك تصوراً جديداً للتاريخ الذي تقرؤه مرة بعد مرة ، وأمثال هذه الخرائط والرسوم عملت عشرات المرات ، قبل أن تستقر على الصورة التي أقدمها في هذا الأطلس ، ومن الممكن جدا أن تعدل ويصلح ماعسى أن يكون فيها من عيوب ، بحسب مايصل إلينا من آراء العلماء .

عدم ثبوت المواقع في شبه الجزيرة .

وقد أوردت في الأطلس خرائط متعددة بينت فيها أعلام المواضع ، ومنازل القبائل وطرق التجارة ، ولكن لابد أن أقرر أن المواضع في شبه الجزيرة ليست ثابتة مطلقا على مر الزمن ، والقرى في الجزيرة تنشأ في العادة عند منابع الماء مثل الآبار ومجتمعات السيول ومجاري الوديان ، والآبار مهما كان غناها معرضة للجفاف إذا كثرت المساكن حولها وتوالى أخذ الماء منها ، والقرية كلها معرضة للاختفاء إذا لم يعد فيها من الماء مايكفي حاجات القبائل النازلة حولها ، وتنتقل الجماعة إلى مكان آخر تجد فيه آباراً أخرى ، وقد تطلق نفس اسم الموضع القديم على الموضع الجديد ، وقد تأخذ اسما جديدا ، وقد يحدث أن يغيض ماء الآبار زماناً ، وتتعطل البئر زمنا طويلا يتجمع فيه ماء جديد ، فيتجدد مرة أخرى ، وكذلك مجاري المياه الجوفية قد تغير مساراتها تحت الأرض ، وقد يغيض ماؤها في باطن الأرض ، وتعجز الجماعة عن استخراجه ، فيهجر المكان حتى تجيء جماعة تستطيع استخراج

---

[1] كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة لأبي إسحاق إبراهيم الحربي تحقيق الشيخ حمد الجاسر ، الطبعة الثانية ١٩٨١ م ص ٥٣٤ – ٥٣٥

الماء العائر . فمواضع الماء ومايقوم عليه من مراكز عمرانية إذن فى تغير دائم ، ومثل هذا يقال عن الطرق ، فهى تتبع الوديان الجافة ، لأنها مجارى مياه وسيول قديمة ، وقطع منها أو مايجاورها من الأرضين تحوى تجمعات مياه جوفية ، وقد تحفر فيها آبار ، أو تظهر عيون ماء ، فهى الأخرى فى تغير مستمر ، ومن ثم فإن القارىء لايدهش إذا رأى الموضع أو الطريق فى مكان آخر فى خريطة أخرى ، وبعد جهد بالغ استطعت أن أحصر الطرق الرئيسية الكبرى من مكة والمدينة إلى الشام والعراق فى خمس طرق هى : الجادة ، والتهامية ، والنجدية الذاهبة من مكة إلى الكوفة ، والمنكدر من مكة إلى البصرة ، والحوشية المتفرعة من النجدية إلى بلاد الشام ، أما الطرق إلى اليمن فأهمها اثنتان : هما استمرار النجدية ، والتهامية جنوبا ، وفيما يلى بيان خرائط هذا الفصل من الأطلس .

خريطة ٣٢

الجزيرة العربية فى العصر النبوى
المدن ومنازل أهم القبائل والوديان

خريطة ٣٢ مكرر

أهم الأعلام الجغرافية ومنازل أهم القبائل فى الحجاز وشمال ووسط الجزيرة خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى

وجدت هذه الخريطة فى مجموع من الخرائط مخطوط فى مكتبة مدرسة اللغات الشرقية الحية فى باريس ولم أجد على الخريطة ذكر من عملها ، ولكنى فهمت من الفهرس أنها عملت على يد أحد المستشرقين بناء على معلومات تجمعت له أثناء أبحاثه عن شبه الجزيرة ، وفى الخريطة كثيرٌ مما لايقره الجغرافيون اليوم ، ولكن فيها كذلك معلومات قيمة فرأيت أن أوردها كما هى مع هذا التنبيه الذى لابد منه ، وقد أضفت فى ركن الخريطة خريطة لأقاليم جزيرة العرب كما حددها البكرى فى مقدمته الجامعة لكتاب « معجم مااستعجم » عن الجغرافية العامة لجزيرة العرب .

خريطة ٣٣

جزيرة العرب قبيل البعثة المحمدية
« النصف الثانى من القرن السادس الميلادى »

اعتمدت فى تحديد أعلامها على مراجعنا القديمة ، وقد جعلت فيها خريطتين ركنيتين واحدة للدولة المناذرة ، والثانية لدولة الغساسنة ، وهذه الخريطة تعتبر من الخرائط الخامسة التى يرجع إليها الدارس العام لتاريخ العصرين : الجاهلى والنبوى ، وقد راجعت مواقع الأماكن والقبائل على كل مالدينا من المراجع أدق مراجعة .

خريطة ٣٤

منازل القبائل العربية فى وسط وشمال الجزيرة العربية
وبلاد الشام فى العصر النبوى

كان لابد من رسم هذه الخريطة لمنازل القبائل فى شمال شبه الجزيرة ووسطها وبلاد الشام ؛ لكى نصور حقائق هامة تغيب عن بالنا عندما ندرس تاريخ العرب قبل الإسلام ، منها أن بلاد الشام كانت منذ الزمن البعيد من منازل العرب الأصلية ، وأن العرب كانوا يمتدون إلى قرب حمص ، وقد اعتمدت فى عمل هذه الخريطة على المراجع العربية ومانيسر لى من المراجع غير العربية وبخاصة كتاب رينيه دوسو عن العرب فى بلاد الشام قبل الإسلام .

وهذه الخريطة ضرورية لكى نفهم الوضع الحقيقى للجنس العربى فى الشرق الأوسط قبل الإسلام ، وهى مفيدة أيضاً فى تفسير ظاهرة السهولة النسبية فى فتح الشام وتعريبها بعد ذلك ، وعندما ننظر إلى هذه الخريطة نفهم لماذا كان انتقال الخلافة الإسلامية إلى دمشق تطوراً طبيعياً ، فإن الخلافة انتقلت من الحجاز حيث كان السكان العرب قليلين إلى بلاد الشام حيث كانت أعداد العرب أكبر ، وموارد العيش والثروة أوسع ، فازدادت الخلافة قوة من الناحية السياسية والثروة ، ولكنها فقدت معظم قوتها الدينية والمعنوية ، فقد كان الحجاز بلد الأراضى المقدسة ، وموطن العرب الذين أنشئوا أمة الإسلام ، فى حين كان انتقال الخلافة بعد ذلك أى بعد قيام الدولة العباسية إلى العراق عملاً سياسياً لايتفق مع مستوى انتشار العربية فى ذلك العصر هناك ، والنتيجة الإيجابية الواضحة وراء ذلك النقل ، كان إكمال تعريب جنوب العراق ووسطه ، أما شماله فلم يتم تعريبه إلا فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، نتيجة قيام دول عربية مثل الحمدانيين والمرداسيين العقيليين .

خريطة ٣٥

الطرق التجارية الرئيسية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام

كانت فى الجزيرة العربية قبل الإسلام شبكة من الطرق ؛ لأن القبائل لم تكن تستطيع العيش داخل صحراء شاسعة مثل صحراء العرب دون أن يكون لكل منها طرق تصلها بغيرها من القبائل وبالعالم الخارجى ، وقد بينا فى كلامنا على خريطة الأحلاف القبلية الأهمية الحيوية التى كانت للطرق بالنسبة للقبائل .

وبعد دراسة طويلة لطرق الجزيرة الوارد ذكرها فى النصوص انتهينا إلى أن أهم هذه الطرق كانت تسعاً وقد بيناها على هذه الخريطة وهى :

(١) التهامية وهى الطريق الساحلية التى تسير موازية تقريباً لساحل البحر الأحمر من غزة إلى عدن

(٢) الطريق من مكة إلى فلسطين وتسمى بالتبوكية ، وهذه الطريق تمر قريباً من المدينة المنورة ولكن المسافرين كانوا يستعملونها فى الانتقال من مكة إلى المدينة فبلاد الشام أحياناً .

(٣) طريق الجادة من مكة إلى المدينة ، وهى فى الحقيقة طرق كثيرة تسير فى الوديان وكلها توازى طريق الجادة

(٤) الطريق الجانبية من المدينة إلى مكة ، وتسير إلى غرب طريق الجادة أى قريباً من ساحل البحر الأحمر ، وهى تسير مع الجادة من المدينة إلى الرويثة ثم تنفصل عنها وتسير فى إقليم العرج ثم فى إقليم الفُرُع حتى تصل إلى الجحفة وهناك تلتقى مع طريق الجادة إلى مكة .

(٥) الطريق من المدينة إلى العراق

(٦) الطريق الداخلى بين مكة وعدن ماراً بصعدة وصنعاء .

(٧) طريق النجدية وهو الطريق الرئيسى من مكة إلى الأبلة ، وهذه هى التى عرفت فيما بعد بطريق زبيدة نسبة إلى زوجة الخليفة هارون الرشيد التى عنيت بها وعمرتها بحفر الآبار وإنشاء المحطات لراحة المسافرين ، وكانت تتفرع منها إلى الشمال من فيد طريق إلى جنوب الشام وتسمى الحوشية .

(٨) طريق الأسواق وهو طريق طويل يبدأ من هجر ، ويسير بحذاء ساحل الخليج ماراً بالمشقر حتى يصل إلى مسقط وقريات فى عمان ثم يسير جنوب الجزيرة حتى يصل إلى عدن كما هو مبين فى الخريطة ، وهذه الخريطة تربط الأسواق الكبرى فى شبه الجزيرة بعضها ببعض

(٩) طرق أخرى كثيرة داخلية أو ساحلية لها أسماء متعددة

خريطة ٣٦

الطريق بين مكة والمدينة والطرق بين الحجاز والشام والعراق واليمن

هذه الخريطة تفصيل بدايات الطرق الرئيسية التى بيناها فى الخريطة السابقة وشرحناها فى النص الخاص بها ، وبيان الطرق المبينة عليها كما يلى :

(١) التهامية .

(٢) التبوكية .

(٣) طريق الجادة من مكة إلى المدينة ومعها الطريق الجانبية .

(٤) الطريق من مكة إلى الكوفة

(٥) الطريق من مكة إلى عدن وتمر بصنعاء .

(٦) الطريق من مكة والمدينة إلى العراق وهى النجدية .

خريطة ٣٧

أهم الأصنام فى الجزيرة العربية فى الجاهلية

كان معظم القبائل فى جزيرة العرب على الوثنية ، أى أنها كانت تعبد أصناماً تسميها

بنات الله وتتخذها زلفى إليه ، وقد بينا على هذه الخريطة أهم هذه الأصنام وسنورد هنا أسماء القبائل التي كانت تعبدها .

أما فيما يتعلق بالمسيحية فقد كانت منتشرة بين قبائل العرب التي سكنت بلاد الشام وشمال شبه الجزيرة ، ومن أكبرها كلب بن وبرة وبكر وتغلب والنمر بن قاسط وطيىء وبعض فروع قضاعة مثل جذام وبلي وبلقين ، وأكبر القبائل المسيحية قبل الإسلام كانت غسان ومن تبعها من القبائل العربية التي كانت تسمى نصارى العرب أو عرب الروم .

وكذلك كانت المسيحية منتشرة في نجران في شمال اليمن كما هو معروف .

ولكن مسيحية العرب كانت مسيحية سطحية ، فلا نعرف أن هذه القبائل التي كانت مسيحية كانت لها كنائس أو لها أحبار أو قساوسة ، وإن كان بعض تلك القبائل قد أنشأ كنائس صغيرة تسمى الواحدة منها بالقليس وهي الصورة العربية للفظ Ecclesia وقد حرف هذا اللفظ في النصوص أحياناً إلى الفلس كما نرى في الكنيسة الصغيرة التي كانت موجودة في بلاد طيىء وهي التي أرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب لهدمها . وقد وصلت إلينا أسماء أديرة أنشئت لنساء العرب النصرانيات كما نرى في دير هند بنت النعمان وهي من المناذرة ملوك الحيرة اللخميين وكانوا أتباعاً للفرس .

وقد بينا على الخريطة أسماء الأصنام ، وفيما يلي نورد أسماء القبائل التي كانت تعبد كلا منها :

(١) ود	كان هذا الصنم لبني كلب بن وبرة،وكان يقوم في دومة الجندل .
(٢) القليس	سبق أن قلنا إن هذا الاسم تحريف للفظ القليس (الإكليسيا) وإذاً فهو لم يكن صنماً وإنما كان كنيسة صغيرة في بلاد طيىء
(٣) اليعبوب	كانت تعبده غطفان وكان في بلاد هذه القبيلة .
(٤) باجر	كانت تعبد هذا الصنم قبيلة أسد وبعض عبس .
(٥) الأقيصر	الأغلب أن هذا لم يكن صنماً بالمعنى المعروف،وإنما كان تمثالاً لأحد قياصرة الرومان كانت تعظمه بعض قبائل عرب الروم أو نصارى العرب التي أقامت حوله .
(٦) نهم	كانت تعبده جذام من فروع قضاعة .
(٧) ذو الكعبات	كان يقوم في ديار بكر وتغلب وكانت هاتان القبيلتان وفروعهما تعبده .
(٨) المحرق	كان صنمه الكبير يقوم بموضع يسمى سلمان في بلاد بكر ابن وائل وسائر ربيعة .
(٩) رضى	كان يقوم في بلاد بني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة .
(١٠) مناة	كان يعبدها الكثيرون من الأوس والخزرج وسكان المدينة قبل الإسلام ، وكان صنمها يقوم في المدينة،وقد زال بمجرد قيام الإسلام في المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ . وكان بعض سكان مكة يعبدونها
(١١) اللات	كانت اللات إلهة تعبدها قبيلة ثقيف،وكان صنمها يقوم في مدينة الطائف .
(١٢) العزى	كانت العزى شجيرة قديمة قدسها العرب في بلدة نخلة الشامية إلى الشمال من مكة،وكانت قريش وبعض القبائل الحجازية مثل غني وباهلة تعظمها .
(١٣) نهم	كان هذا الصنم يقوم في بلاد خزيمة غير بعيد عن تربة،وكان أهلها يعظمونه .
(١٤) سواع	كان سواع تمثالاً لمعبود يقوم في موضع يسمى نعمان في واد قريب من مكة،وكانت تعبده كنانة وهذيل ومزينة.
(١٥) سعد	كانت تعبده قبيلة جهينة ، وهي فرع من قضاعة ، كان يقيم في الحجاز .
(١٦) ذو الكفين	كان هذا الوثن يقوم في بلاد خزاعة جنوبي المدينة وكان الخزاعيون وبعض الدوسيين يعبدونه .
(١٧) ذو الشرى	كان يقوم في شمال بلاد خولان،وكانت بعض قبائل شمال اليمن تعبده .
(١٨) عائم	كان عائم من معبودات شمال اليمن غير بعيد عن القنفدة قرب ساحل البحر .
(١٩) سعير	كان صنماً لبعض بطون قضاعة ولخم .
(٢٠) إساف	كان إساف صنماً في هيئة رجل قائم عند الكعبة .
(٢١) نائلة	وكانت نائلة صنماً لامرأة بالمروة،وكانت تعبدها قريش والأحابيش .
(٢٢) هبل	كان معبوداً لبني بكر بن عبد مناة ومالك وملكان وسائر بطون كنانة ، وكانت قريش تعبد هُبل مع كنانة،وكذلك كانت كنانة تعبد اللات والعزى وهما إلهان من آلهة قريش وكان العرب جميعاً يعظمون هذه المجموعة من الأصنام التي كانت قائمة في مكة،وكان هُبل يعتبر كبير آلهة قريش وبقية العرب في الجاهلية ، ويقال إن الذي جلبه إلى مكة ووضع صنمه حول الكعبة كان قصي بن كلاب عندما غزا مكة .
(٢٣) ذو الخلصة	كان ذو الخلصة صنماً تعبده قبائل بجيلة وخثعم وبني الحارث ابن كعب وبني جرم وبني زبيد وبني الغوث بن مر بن أد وبني هلال بن عامر ، وكانت أصنامه منتشرة من بلاد خثعم جنوبي مكة إلى شمال اليمن .
(٢٤) يعوق	كان صنم يعوق يقوم في مكان يسمى أرحب يقع في بلاد خولان ، وكانت هذه القبيلة تعبده ويشاركها في ذلك قبيلة همدان .
(٢٥) نسر	كان نسر من آلهة حمير،وكان صنمه يقوم في نجران،ويقول محمد بن حبيب النسابة في كتاب المحبر إن صنماً من أصنامه كان يقوم في قصر غمدان وهو قصر ملك اليمن .
(٢٦) رئام	يقول الكلبي في كتاب الأصنام (ص ٣٧) إن صنمه كان يقوم في صنعاء وإنه كان من آلهة حمير .
(٢٧) عميانس	كان من آلهة حمير وكان صنمه يقوم في صنعاء .
(٢٨) مرحب	كان صنم هذا المعبود يقوم في حضرموت وكان سادنه هو « ذو مرحب » .
(٢٩) يغوث	كان يغوث من أصنام أهل شمال اليمن .
(٣٠) ذو اللبا	كان من معبودات بني عبد القيس ببلاد البحرين .
(٣١) ذريح	كان صنماً تعبده قبيلة كندة في مواطنها الأولى في اليمن ، وكان صنمه يقوم في النجير وهو حصن باليمن قرب حضرموت .

خريطة ٣٨

مكة المكرمة أيام الرسول ﷺ

اعتمدت في وضع الهيكل الأول هذه الخريطة على رسم صغير عمله إبراهيم باشا رفعت رأيته في كتابه « مرآة الحرمين » ، وقد نقل هذا الرسم كما هو الدكتور محمد حسين هيكل وأثبته في كتابه « منزل الوحي » وعنه نقله مونتجمري واط في كتابه عن « محمد في مكة » واعتمدت في عمله كذلك على رسم لتطور مكة التاريخي عمله مكتب تخطيط المدن سنة ١٩٧٢ م ونشره الشيخ محمد سعيد فارس أمين جدة مع رسوم أخرى لتطور مكة والمدينة أوردها في كتابه عن التكوين المعماري والحضاري لمدن الحج (١٩٨٤ م) رسم أصلاً

عن مشاهدة ، وعمل بمعرفة مهندسين معماريين ، وعدلناها وأضفنا إليها بحسب ماقدت إليه القراءات، وخرجت هذه الصورة لمكة التي لاتوصف إلا بأنها توضيحية فحسب ، فهي تضم المعالم الرئيسية ، وقد قرأنا كتابي الأزرقي والفاسي في وصف مكة فلم نجد فيهما مايفيد صورة مكة أيام الرسول ﷺ وضوحاً ، فمعظم البيانات والمعلومات الواردة فيهما كانت في العصور الإسلامية بعد العصر النبوي ، ولهذا لم نر إثبات شيء هنا .

وقد ضم رسم إبراهيم رفعت أشكال مبان أو أسوار لانعرف متى وجدت في مكة فأبقيناها على حالها ، فربما تكون قد قامت على أطلال منشآت أخرى سابقة ترجع إلى عصور قديمة مما يبنى للتحصين أو لاحتواء السيول وهي قليلة لاتضر الصورة على أي حال ، ومن الأسف أن العرب لم يحافظوا على أي معلم من معالم العصر النبوي في مكة أو المدينة عدا الحرمين ، حتى الدار التي ولد فيها الرسول صلوات الله عليه لا أثر لها ، وقد قص قصتها إلى روادها بعض المؤرخين ، يذكر منهم الأزرقي ، وهو يحدد موضعها بالنسبة مباني أخرى زالت هي الأخرى فأصبح من العسير علينا تحديد مكانها ، وكذلك الحال بالنسبة لدار الندوة ودار الأرقم وكل معالم مكة في العصر النبوي ، وذلك يرجع إلى عوامل شتى : أولها قلة الأمان والاستقرار وماتعرضت له المدينتان المقدستان من الحروب والاقتحامات والحصار والرمي بالمجانيق والنبال الحارقة مرة بعد أخرى على طول تاريخهما ، وأكبر شاهد على ذلك أنه لم يبق لنا من بغداد العباسية أي أثر معماري ديني أو مدني أو عسكري يذكر ، ولولا أطلال مسجد سامرا لما عرفنا أين قامت ، والعامل الثاني فيما يتصل بمكة والمدينة قسوة المناخ الذي يأكل المباني ، والثالث أن مواد البناء نفسها لم تكن تحتمل مرور الزمن على المدى الطويل ، ولابد على أي حال من إجراء حفائر في مكة والمدينة إذا كنا نريد أن نعثر على آثار تعيننا على معرفة شيء من رسمهما في الزمن الماضي

خريطة ٣٩

طريـق الهجـرة

لم يتبع رسول الله ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة طريق الجادة أو الطريق الجانبي أو أي طريق أخرى معروفة لأنه كان يجتهد في ألا تدركه قريش أو أحد من رجالها ، وإنما هو سار في طريق وضعها له دليله عبد الله بن أريقط في الغالب . وقد بدأ رحلته مع أبي بكر من غار ثور جنوبي المدينة الذي لجأ إليه مع صاحبه أبي بكر الصديق وقضيا في ذلك الغار الذي يقع جنوبي مكة ثلاثة أيام ثم تبعهما بعد ذلك يرافقهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر ليخدمهما في الطريق ، واتجهوا أول الأمر في اتجاه شمال غربي ناحية البحر الأحمر ، ثم اتجهوا بعد ذلك يقودهم دليلهم عبد الله بن أرقط أو أريقط شرقاً فقطعوا طريق الجادة جنوبي عسفان ، ثم ساروا بعد ذلك في الطريق الذي رسمته باللون الأحمر على الخريطة حتى إذا بلغ ركب الرسول ومن معه الجحفة وأدركوا رابغ الرمل خرجوا من منطقة نفوذ قريش ولم يعودوا يخشون أن يلحق بهم أحد فساروا على مهل في الطرق المبينة على الخريطة مارين بإقليمي الفُرع والعَرْج ، ولما بلغوا عرق الظبية دخلوا منطقة المدينة وخرج الناس لاستقبالهم على ماهو معروف في كتب السيرة ، ودخلوا قباء يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول من السنة الهجرية الأولى / ٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢ م ولم يصف طريق الهجرة أحد من أهل السيرة بالتفصيل الذي رواها به ابن إسحاق وعنه نقله ابن هشام ، وقد اعتمدت على وصفه – واستعنت في إكمال الوصف وذكر المواضع – على التفاصيل التي أتى بها أبو عُبيد البكري في كتاب « معجم مااستعجم » .

خريطة ٤٠

الطرق الرئيسية بين مكة المكرمة والمدينة المنورة والطريق الجانبية التي كان الرسول يسلكها

بعد هذه السلسلة من الخرائط رسمنا خريطة الطرق بين مكة والمدينة ، فالقارىء الآن على علم طيب بالحجاز وتهامة وطبيعتهما ومعالمهما الجغرافية وطرقهما الرئيسية ، وهنا نقدم خريطة مفصلة للطرق الرئيسية بين مكة والمدينة ومراحلها ومحطاتها الرئيسية ، وقد اهتممنا بصورة خاصة بالطريقين الرئيسيين بين مكة والمدينة ، وهما طريق الجادة والطريق الجانبي التي كان رسول الله ﷺ يفضلها كثيراً لمرورها بالأبواء ، وفيها قبر أمه آمنة بنت وهب التي توفيت هناك وهي عائدة من المدينة وهو في الثامنة من عمره فدفنت فيها ، ويلاحظ أننا جعلنا طريق الجادة من عدد من الممرات بعضها إلى جانب بعض ، وهذه الطرق الكثيرة هي في الحقيقة وديان صغيرة قد يقتصر بعضها على مابين بلد وبلد ، وقد يؤدي بعضها إلى منازل بعض الوحدات القبلية الضاربة على الطريق . وجدير بالملاحظة أن المسافة بين البلدين كانت عامرة بالناس ، بل هي كانت من أكثر طرق الجزيرة عمراناً ، وقد راجعنا معالم الطريق التي اقتبسناها مابين قرى أو وديان أو ظواهر جغرافية على أدق المراجع التي بين أيدينا وبخاصة كتاب « مناسك وطرق الحج ومعالم الجزيرة » بتحقيق عالم الجزيرة الشيخ حمد الجاسر وتعليقاته الكثيرة عظيمة القيمة .

وقد بدأنا – بداهة – بتوقيع الأماكن والمعالم الجغرافية الباقية إلى الآن – وإن تغيرت أسماؤها – ثم رجعنا إلى الخرائط الجغرافية المكبرة لهذا الجزء من الجزيرة وبخاصة ما أخذ منها من الجو أو من الأقمار الصناعية ؛ لكي نعرف اتجاهات الطرق في مراحلها المختلفة ، وأثبتنا مواضع الوديان واتجاهاتها ، ثم الأقاليم الصغيرة التي تمر بها الطرق مثل العقيق الأكبر والعرج والفرع ، ثم اجتهدنا في توقيع أسماء الأعلام التي درست ، معتمدين على المعلومات التي لدينا عن المسافات ، ونرجو أن نكون قد وفقنا في ذلك كله واستفدنا من هذه الخرائط ؛ لكي نرسم الطريق الذي سلكه المسلمون إلى موقع سهل بدر إلى الغرب من بلدة بدر الواقعة على الجادة .

خريطة ٤١

رسوم كروكية توضيحية للطرق الرئيسية بين مكة والمدينة والطريق إلى بدر

هذه رسوم كروكية تبين الطرق المرسومة في الخريطة السابقة ، والرسم الأول في أقصى اليسار يمثل الاتجاهات الحقيقية للطرق ، والرسم الذي في أقصى اليمين يمثل تتابع الأماكن هندسياً ، وبينهما رسم كروكي للطريق إلى سهل بدر كما أثبته البكري ، وهو أكثر المراجع تفصيلاً ودقة في ذكر هذا الطريـــق .

خريطة ٤٢

المدينة المنورة قبائل ومواقع عند هجرة الرسول ﷺ

فيما يتصل بالمدينة نحن أحسن حظاً لسببين : **الأول** أن الثلاثة الذين تعاقبوا على كتابة تاريخها وهم ابن زبالة والمطري والسمهودي يحيرون في مجموعهم أدق من الأزرقي وأكثر تفصيلاً ، فقد عرضوا بدقة مشكورة بمعالم البلد الجغرافية ومنازل القبائل ، ثم إن وديان المدينة ومداخلها ومخارجها وحَرَّاتها ظلت كلها على حالها زماناً طويلاً ، فكثر ورود ذكرها في النصوص ، وجدير بالذكر أن المدينة المنورة لم تكن قبل هجرة الرسول ﷺ إليها وحدة مدنية مترابطة ، ولاهي كانت يثرب فحسب ، إنما كانت مجموعة من الواحات متباعدة بعضها عن بعض في سهل المدينة المحصور بين الحرتين وكانت بعض القبائل تنزل على مرتفعات الحرتين ، وكانت يثرب إحدى هذه الواحات كما يرى في الرسم ، ولما كان اليهود قد سكنوا سهل المدينة قبل الأوس والخزرج فإن منازلهم التي كانت في واحة يثرب وماحولها تعتبر أقدم وحاب السد ومركزه العامرة ، وإلى جانب يثرب هناك واحات تسمح وراتج وتُغرف وحسكة والبدائع وقباء ونحوها ، وعندما استقر الأوس والخزرج في السهل غلبوا اليهود على أكثر ماكان بأيديهم ، وعمروا واحات قديمة وأنشئوا أخرى جديدة ، وهناك مايدل على أن السهل كان مسكوناً قبلهم بجماعات أكثرها من قضاعة بعد تفككها وانتشارها من مواطنها على الحدود الجانبية لبلاد الشام في الحجاز ، ونزلت جماعات منهم سهل المدينة واشتغلت بالزراعة حتى نزل اليهود المدينة فاستقبلوهم واعتمدوا عليهم في فلاحة الأرض .

وعندما غلب الأوس والخزرج على السهل استمروا في استعمال من وجدوه هناك من قدماء العرب في فلاحة الأرض ، وظلت هذه الجماعات القبلية نسبياً من جهينة وبلى وعذرة وما إليها مستقلة في السهل حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأقام أمة الإسلام فأخذ بأيدي أولئك السكان القدامى الذين كانوا في مراتب الموالي أو رقيق الأرض ، وسواهم بغيرهم وأصبحوا معدودين في رهط رسول الله وبيته ، وكان لهم الأثر البعيد في قيادة الأمور في العصر النبوي ومابعده ، ومن أول الأمر نرى أن الجُهنيين وغيرهم من بقايا القضاعيين كان لهم دور كبير ، ومن هنا فمن الخطأ أن يقال : إن سكان المدينة قبل الهجرة كانوا الأوس والخزرج واليهود فحسب ، بل لابد من ذكر بقايا القضاعيين ، وقد ذكرنا ذلك وأيدناه بالشواهد في كتابنا « دراسات في السيرة النبوية » .

الأوس والخزرج واليهود فحسب ، بل لابد من ذكر بقايا القضاعيين ، وقد ذكرنا ذلك وأيدناه بالشواهد في كتابنا « دراسات في السيرة النبوية » .

خريطة ٤٣

خط سير رسول الله ﷺ داخل المدينة

بعد أن قضى ﷺ ثلاثة أيام في قباء اجتمع فيها بكبار أصحابه من المهاجرين الذين سبقوه بالهجرة إلى المدينة وكذلك بنقباء أهل المدينة وأحاط منهم جميعاً بأحوال البلد ورسم بنفسه خطة العمل فيها .

ونصوصنا تروى خبر انتقال رسول الله ﷺ من قباء بعد أن بنى مسجده فيها رواية قصصية . ومن الواضح أن الرسول ﷺ كان يعرف عندما ترك قباء إلى أين هو متجه ، واستقر في النهاية بالفعل في منازل بني مالك بن النجار في وسط المدينة،ومن هناك كان يستطيع بالفعل أن يسيطر على سير الأحداث داخل المدينة ويبني بداخلها الأمة الإسلامية بناءً سليماً وبخاصة بعد أن أنشأ مسجده في وسط البلد تماماً،وانتقل هو بعد ذلك فسكن الغرف التي بنيت له في جانب من صحن المسجد .

خريطة ٤٤

معركـــة بـــدر

معركة بدر هي أشهر معارك التاريخ الإسلامي ، ورغم صغر حجمها – إذ اشترك فيها نحو ١٣٠٠ مقاتل من الجانبين ، ولم تزد ساعات القتال فيها على أربع أو خمس ساعات على الأكثر – فإنها تعتبر بلا شك أعظم انتصارات الإسلام وتفاصيلها الأساسية معروفة للناس جميعاً ، ولكن رسمها على الورق يزيدها وضوحاً ويكشف عن حقائق كثيرة تكشف لنا عن جوانب من العبقرية المحمدية لاتتبين من مجرد القراءة .

ولم يكن عمل هذا الرسم باليسير ، فإن مراجعنا لاتتفق فيما بينها على المسافة بين المدينة وبدر ، فالمسعودي يقول أنها ٨ بُرُد ، والبكري يجعلها ٢٨ فرسخاً أي حوالي ١٤ بريداً ، على اعتبار أن البريد فرسخان والفرسخ ٣ أميال ، والمسعودي يذهب إلى إنها ٨ بُرُد وميلان ، وقد اعتمدنا في تحديد اتجاه السهل واتساعه على الخرائط المساحية والجوية . وتحديد اتجاه السهل من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي موجود أيضاً عند بوركهارت الذي زار الموضع حوالي سنة ١٨٢٠ م قبل أن يتغير الوضع الجغرافي تغيراً حاسماً .

ثم درسنا تفاصيل المعركة وميدانها ورسمنا الخريطة ومعالمها أكثر من مرة حتى انتهينا إلى الصورة التي تظهر بها هنا ، أما بقية تفاصيل المعركة فقد أثبتناها بوضوح في مفتاح الخريطة الذي يبين مراحلهـا .

خريطة ٤٥

معركـــة أحـــد

هنا تتجلى لنا أهمية الخرائط في دراسة السيرة والتاريخ بصورة عامة ، فقد كنا مثلاً نظن أن رسول الله ﷺ أوقف الرماة بقيادة عبد الله بن جبير على جبل أحد ، وتبينا الآن أن ذلك غير صحيح ، لأن ارتفاع تل أحد اليوم يصل إلى نحو ١٢٠ متراً ، فإذا قدرنا أنه فقد حوالي ١٠ أمتار بفعل الرياح وعوامل التعرية خلال القرون الماضية ، فهذه ١٣٠ متراً ، وليس من الممكن أن يرمى رامٍ نبالاً ويصيب من مثل هذه المسافة ، والمعقول أن يكون الرماة قد وقفوا على تل عينين قليل الارتفاع جنوبي أحد وعلى مسافة قليلة منه ، لكى يكون لنبالهم الأثر المطلوب ، فإن المشركين كان فيهم مائتا فارس ، في حين لم يزد فرسان المسلمين على العشرة ، ومثل هذه القوة من الخيالة كانت كفيلة باجتياح مشاة المسلمين ، ولم يكن هناك سبيل لحماية المسلمين منها إلا بالرماة يقفون على تل قليل الارتفاع ، فتخيفها خوفاً شديداً،ولايرهب الخيل ويقعد حركتها شيء مثل السهام التي تصيبها في الوجوه والصدور أو تمر سريعاً بوجوهها ، وهذا هو الذي حدث في الدور الأول من المعركة عندما ألغى الرماة عمل الفرسان ، وأصبحت المعركة معركة مشاة كما حدث في بدر حيث اجتاح المسلمون أعداءهم ، حتى إذا نزل الرماة عن تل عينين أتيحت الفرصة لخيل المشركين فاندفعوا يشتتون صفوف المسلمين ، ويقتلون منهم كيف يشاءون ، وهنا تدخل المعركة في دورها الثاني .

وهنا وبينما ساد الاضطراب صفوف المسلمين كان رسول الله ﷺ بين أمرين : إما الانسحاب إلى داخل المدينة ومقاتلة المشركين في أزقتها أو التحصن في موضع من خارج المدينة للإمساك بالمشركين خارجها والحيلولة بينهم وبين دخول البلد واجتياحه ، وهنا تتجلى لنا مرة أخرى مواهب الرسول ﷺ وحزمه وسرعة بديهته وثبات جأشه ، فقد ثبت مكانه وجعل ينادى المسلمين ، فثابوا إلى رشدهم وعادوا إليه ، وثبتوا حوله من جديد .

وهنا يبدأ رسول الله ﷺ الدور الثالث من المعركة فيأخذ في التحرك بمن معه نحو جبل أحد ، وكان في أسفل الجبل بروز نصف دائرى وراءه فراغ يشبه الذراع البارزة التي تنشأ في الموانى لحماية السفن ، فدخل رسول الله ﷺ في هذه الحجرة ، ووقف أصحابه يرمون بالنبال ويدافعون عنه يسيوفهم إلى آخر اليوم ، وبهذا نجح رسول الله ﷺ في الإمساك بالمشركين عند أحد وشغلهم عن فكرة اقتحام المدينة إلى أن مالت الشمس نحو المغيب ، وهنا فقط أدرك أبو سفيان قائد المشركين أن فرصة النصر الكبير قد ضاعت عليه ، فقد كان يستطيع أن يقتحم المدينة وينزل بها أذى بالغاً ، وعرف رسول الله كيف يضيع عليه الفرصة ، وقد قال أبو سفيان ذلك لأصحابه ، وكانوا بعد أن انصرفوا عائدين قد توقفوا قرب المدينة وتشاوروا في أمر العودة إلى المدينة واقتحامها على أهلها ، وهذا هو السبب في خروج رسول الله ﷺ في أثر المشركين في اليوم التالي ليوقع الرعب في قلوبهم وطاردهم إلى حمراء الأسد ، وعسكر هناك حيث أوقد فيها خمسمائة نار ألقت الرعب في قلوب المشركين وبدو الصحراء جميعاً ، وأسرع المشركون بالعودة إلى مكة ، وتلك هي غزوة حمراء الأسد .

خريطة ٤٦

غـــزوة الخنـــدق

هذه الخريطة كانت من المشاكل الحقيقية التي واجهتنا في هذا القسم من الأطلس ، والمشكلة كانت تحرى موضع الخندق ، فمن المعروف أن الخندق لم يحط بالمدينة من كل نواحيها . جاء في مغازى الواقدى : « وكان الخندق مابين جبل بنى عبيد بخربى إلى راتج فكان للمهاجرين من ذباب إلى راتج ، وكان للأنصار مابين ذباب إلى خربى ، فهذا هو الذى حفره رسول الله ﷺ والمسلمون وشبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية ، وهى كالحصن .

وخندقت بنو عبد الأشهل على نفسها مما يلى راتج إلى خلفها حتى جاء الخندق من وراء المسجد ، وخندقت بنو دينار من عند خربى إلى موضع دار ابن أُبَى – المنبوب اليوم – ورفع المسلمون النساء والصبيان إلى الآطام »[1] .

فهذا أصبح مالدينا عن الخندق ، وهذه المواضع معروفة كلها لنا ، فكيف كان امتداد الخندق بينها ؟ لقد عرفنا منذ البداية أن المسلمين جميعاً اشتركوا في حفر الخندق ، ولكن هذه التفاصيل تجعلنا نفترض أن تكون كل قبيلة قد قامت إلى جانب الاشتراك في العمل العام بحفر الجزء الذى يمر من خلفها من الخندق حتى تطمئن إلى أنها في داخل الخندق والأمان ، وبنو عبد الأشهل وهم أهل راتج عادوا فمدوا الخندق من ناحيتهم حتى أصبحوا في أمان ، ودار الخندق من وراء المسجد أي إلى شرقه ، وكذلك بنو دينار ابن النجار مدوا الخندق من عند خربى إلى دار قريبة من منازلهم ، أما بقية المدينة فقد حصنوها بسد الفرج بين البيوت حتى أصبحت كالحصن .

والقطع الأساسية من الخندق كانت في شمال مدخل البلاد بين طرفى الحرتين .. وفي هذا الجزء يقع جبل المداد الذى أصبح مركز الخندق كله .

وهذه المعلومات كلها جعلتنا نرسم الخندق كما تراه في الخريطة ، فهو لم يكن خطاً مستقيماً ، وإنما كان يدور حول منازل القبائل التي ذكرناها ، وحيث إن مواضع نزول الأحزاب كانت في الشمال الغربى عند منطقة الآبار والغابة فإن معظم القتال ومحاولات الاقتحام كانت في الشمال .

وقد بدأت هذه المعركة – معركة أحزاب المشركين الذين اتفقوا على مهاجمة المدينة – فجعلها رسول الله معركة الخندق الذى حجز الأحزاب خارج المدينة في العراء ، ثم جاءت العواصف والأنواء فأكملت بقية عمل المسلمين ، أما العمل الرئيسى للمسلمين فكان حراسة الخندق ورد كل محاولة للكفار للاقتحام ، فما كان على صورته هذه بالحاجز المانع ، بل كان طفره أى قفز المشركين فوقه ، فكان المسلمون يسرعون في جماعات صغيرة للقضاء على من يعبر منهم ، وبعضهم كان يقع في الخندق فيجهز المسلمون عليه في الحال .

(١) مغازى الواقدى ٢ / ٤٥٠ - ٤٥١

وكان رسول الله ﷺ قلب العمل والنشاط كله ، فكان يقظاً معظم الوقت لايكاد يسمع هيعة إلا نهض وندب من حضر من أصحابه وبخاصة عباد بن بشر وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة فيذهبون ويردون المعتدين ، ولايعود الرسول إلى قبته – أي خيمته – إلا إذا زال الخطر .

وقد أذهل الخندق وأسلوب المسلمين في حراسته والدفاع عنه أبا سفيان كما نرى مما جاء في مغازي الواقدي ، وكان أبو سفيان قد طمع أن يعبر على بيضة المدينة فكتب كتاباً فيه : « باسمك اللهم ، فإني أحلف باللات والعزى ، لقد سرت إليك في جمعنا وإنا نريد أن نعود إليك » كذا والأصح عنك « حتى نستأصلك ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعري ، من علمك هذا ؟ فإن نرجع عنك فلكم منا يوم كيوم أحد تبقر فيه النساء[1] .

خريطة ٤٧

فتح خيبر

سترى في خريطة مراحل توسع أمة المدينة أن رسول الله ﷺ قد قدر – في رسمه – الخطة العامة لتوحيد الجزيرة تحت راية الإسلام ، وتحويلها إلى قاعدة لنشر الإسلام في العالمين ، فلا يسير إلى مكة إلا بعد أن يكون قد مهد أمر شمال الحجاز إلى حدود الشام ، وأن تكون الخطوة الأخيرة هنا أي قبل فتح مكة هي الاستيلاء على خيبر وغيرها من المراكز اليهودية شمال الحجاز وبخاصة خيبر وفدك ووادي القرى ، وكذلك بقية مراكز العمران في شمال شبه الجزيرة ليحرم قبائل البدو وأعاريب نجد من كل المراكز المهمة التي كان يمكن أن تعتمد عليها ، وكان رسول الله ﷺ يعرف أن يهود خيبر أقوياء أغنياء ، وأنه لايسير إليهم إلا عن ثقة في النصر ، فلما كانت الحديبية رأى رسول الله ﷺ من رغبة المسلمين في الجهاد وصدق نيتهم ما سره ، ولما عاد إلى المدينة بعد أن اتفق مع قريش على عمرة القضاء قرر أن يكون فتح خيبر خلال مهلة العام ، وكأنه لم يكن يأمن قريشاً فقرر ألا يكون سيره للعمرة إلا وهو آمن الظهر مستجمع القوى لما عسى أن يكون .

وقد كانت الصعوبة في رسم هذه الخريطة هي التوفيق بين تفاصيل خيبر كما ترد في كتب الفتوح وهيئة موضعها الطبوغرافية ، ولم يكن ذلك بالأمر السهل ، لأن خريطة حرة خيبر كما هي اليوم لاتعين على تتبع خطوات الفتح خاصة كما ترد في الخرائط المفصلة ، وقد اختفت معظم الأعلام الواردة في تفاصيل الغزوة ، ولكننا استطعنا بعد جهد أن نرسم خطوات الفتح وهيئة حرة خيبر كما وردت في أوثق نصوصنا في هذا المجال ، وهي مغازي الواقدي .

أما الطريق إلى خيبر فلم نجد في رسمه صعوبة ، فمعالمها واضحة ومتفق عليها بين مؤلفينا ، ويلاحظ أن رسول الله ﷺ قرر منذ البداية أن يكون دخول المسلمين خيبر من الشمال ، لكي يحول بين غطفان وبين إمداد خيبر وأقامها معسكرها ورسمت الطريق على هذا الأساس .

خريطة ٤٨

فتح مكة المكرمة

في هذه الخريطة بينت وصول رسول الله ﷺ إلى شمال مكة عندما استقر رأيه على فتحها سلماً وإدخالها أمة الإسلام ، وقد بينت في الخريطة كل المواقع الوارد ذكرها في أخبار فتح مكة وكذلك اتجاهات الجيوش في دخولها إلى مكة .

خريطة ٤٩

المناطق والأحلاف القبلية في جزيرة العرب قبيل البعثة

يبدت في النص أنه كان لابد من رسم مثل تلك الخريطة لكي نعرف طبيعة الأوضاع السياسية والقبلية داخل شبه الجزيرة قبيل الإسلام ، ويبدت أننا لن نفهم كيف تمكن رسول الله ﷺ من إدخال كل قبائل شبه الجزيرة في الإسلام مع أنه في الحقيقة لم يفتح إلا جزءاً ضئيلاً منها ، ولكن السبب الأكبر في نجاح الرسول ﷺ في مهمته يرجع إلى أن القبائل في شبه الجزيرة لم تكن بدون تنظيمات قبلية يرأس كل تنظيم منها قبيلة كبرى مع أحلافها بحيث إنه لم يكن من الضروري أن تُغزى كل مواضع القبائل حتى تدخل في الإسلام .

وفي الكثير من مواضع القبائل وأحلافها على الخريطة هنا خلاف بيننا وبين الكثيرين من المتخصصين في أحوال شبه الجزيرة وسكانها قبيل الإسلام ، والسبب في ذلك الخلاف يرجع إلى أن بعض أهل العلم يعتقدون أن كل قبيلة من القبائل كانت تنزل ناحية وتقيم فيها كأنها وطن لها ، مع أن حركات الصراع بين القبائل كانت مستمرة بين القبائل بعضها وبعض ، ومعظم القبائل كانت تضطر إلى الانتقال من منازلها إلى منازل أخرى تحت ضغط قبائل أخرى . وهذه الأوضاع التي بيناها على الخريطة مأخوذة من الواقع التاريخي دون التقيد حرفياً بمنازل القبائل كما ترد في بعض النصوص .

خريطة ٥٠

حجـة الـوداع

يعتبر كل مؤرخي السيرة قيام الرسول ﷺ بحجة الوداع في ذي الحجة سنة ١٠ هـ من أكبر معالم حياة الرسول ﷺ ، فبالإضافة إلى أنها الحجة الوحيدة التي قام بها الرسول ﷺ في حياته فإنها حددت مناسك الحج كما قررها رسول الله ﷺ بنفسه وتابعه المسلمون في كل المناسك التي قام بها ، وأصبحت الحجة بتفاصيلها جزءاً من عبادات الإسلام ، وبلغ الأمر أن المؤرخين يروون أخبارها وتفاصيلها بين المغازي ، ويعتبرونها واحدة منها .

ونظراً لأهميتها بالنسبة لتاريخ الإسلام كله فقد رأيت أن أرسم للحجة ومناسكها وكل ما قام به الرسول ﷺ فيها خريطة قائمة على صورة من الجو أخذت لطريق الحج وبينت فيها خطوات الرسول ﷺ واحدة واحدة .

وقد بينت على الخريطة طريق الحج الذي سلكه الرسول والمؤمنون معه ، وبينت عليها كل معلم ومنسك ، وتعقبت حركة الرسول ﷺ من أول دخوله مكة قادماً مع أصحابه من المدينة للقيام بالحج أرقاماً مبينة بوضوح على الخريطة .

وهذا على بيان الأرقام الواردة على الخريطة :

(١) دخول رسول الله ﷺ والمسلمين معه مكة قادمين من المدينة المنورة في التاريخ المبين في مفتاح الخريطة ،وقد وصل الرسول محرماً إلى العرصة في مدخل مكة .

(٢) وضرب قبته في الحجون ، وهو مكان متسع في الطريق من مدخل مكة من ناحية الشمال إلى موضع الكعبة ، حيث طاف بالبيت الحرام واستلم الحجر الأسود وصلى في مقام إبراهيم عليه السلام ركعتين قرأ فيهما من سور القرآن الكريم ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ و ﴿ وقل هو الله أحد ﴾ .

(٣) ثم سعى بين الصفا والمروة وهو يكبر ويدعو أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . وقرر أن يجعلها حجة وعمرة لأنه أتى بالهدى معه .

(٤) في يوم ٨ من ذي الحجة اتجه الرسول نحو عرفات ، وفي طريقه إليها أراح بمنى ليلته ، وصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء وفجر اليوم التاسع من ذي الحجة .

(٥) وفي صباح اليوم التالي (٩ من ذي الحجة) أكمل السير إلى عرفات .

(٦) بعد وصوله عرفات أراح قليلاً في خيمة ضربت له في نمرة .

(٧) ثم وقف في موقف عرفات عند سفح جبل الرحمة الذي يطل على موقف عرفات وظل واقفاً حتى الزوال ، وفي أثناء وقوفه خطب خطبته الأولى أثناء الحجة .

(٨) وعند الزوال وبعد غروب الشمس دفع بالناس إلى المزدلفة وهي المشعر الأكبر أو المشعر الحرام ، وفي موقف المزدلفة صلى المغرب والعشاء وقضى الليل في مزدلفة .

(٩) وفي الصباح سار ﷺ إلى منى ، وهناك ضرب خيمته ليقضي أيام التروية ، وصلى صلاة العيد في الفجر .

(١٠) ثم اتجه إلى المنحر ونحر هديه ونحر المسلمون مثله ، واتجه إلى مكة حيث طاف طواف الإفاضة وشرب من ماء زمزم وصلى الظهر .

(١١) ثم عاد إلى منى وبدأ رمي الجمرات بادئاً بجمرة العقبة ناحية مكة ثم الجمرة الوسطى ثم الجمرة الدنيا

---

(١) مغازي الواقدي ٢ / ٤٩٣

(١٢) وظل مثل ذلك بقية أيام التروية وحلق شعره وأحل إحرامه وطاف بالبيت .

(١٣) وفى اليوم الرابع عشر لدخوله مكة اتجه ﷺ إلى وادى المحصب فصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء ثم استراح قليلاً ، ثم توجه إلى الحرم حيث طاف طواف الوداع فى السحر .

(١٤) وبعد ذلك مباشرة نادى بالرحيل إلى المدينة ورحل هو ومن معه بعد نهاية حجة الوداع .

وقد بينت على الخريطة المواضع التى خطب فيها رسول الله ﷺ أثناء الحجة بثلاثة حرم، وأهمها خطبته فى عرفات ثم خطبته فى المزدلفة . وقد ألقى رسول الله ﷺ خطباً أخرى كثيرة فى منى ولكنها ليست خطباً بالمعنى الصحيح وإنما هى توجيهات للمسلمين وتأكيد لما قاله فى الخطبتين الرئيسيتين ، وإجابات عن أسئلة بعض الصحابة ، وكلها سنن يعمل بها المسلمون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

خريطة ٥١

خريطة تاريخية لمكة ومناسك الحج عثرنا عليها فى مجموع قديم

هذه خريطة نادرة لمكة ومناسك الحج كما رسمتها فى الغالب مصلحة المساحة المصرية فى منتصف العشرينيات من هذا القرن ، وهى تصور بإحكام دقيق موقع مكة وامتداد مناسك الحج من شمالها الشرقى ثم شرقاً بجنوب إلى عرفات والطائف ، وتاريخ عمل الخريطة غير واضح على وجه الدقة ، ولكنها خريطة لايعملها إلا مهندس أو رجل مساحة ، فهى حسنة الرسم دقيقة المقاييس والاتجاهات ، والطريف أن فيها أسماء مواضع ومبان ترجع إلى عهد قريب أيام كان كل شىء فى العالم العربى يقتصر على قليل من سمات القرون وما أخذ من مظاهر المدنية الحديثة مانحتاج إليه ومانستطيع شراءه ، فهنا نرى شيئاً من بدايات الإدارة السعودية فى الحجاز ومناسك الحج ، مراكز الإدارة وبعض مرافق وقصور بعض الأمراء السعوديين وبعض الإداريين كل ذلك ظاهر فى الصورة على نحو من البساطة ، ويتجلى فيها ماأنشأه الإخوة المصريون وماأنشأه السعوديون قبل أن تأخذنا زحمة الحضارة والمال ، وتعصف بنا رياح التعمير بعنف لم نعرفه فى تلك الأيام البعيدة القريبة ، وقد رأيت أن أحافظ على الخريطة فى هذا الأطلس خوفاً من الضياع ، ولم أزد عليها إلا اللون الأصفر طلباً للمزيد من وضوح معالم الرسم .

خريطة ٥٢

المواقيت والأعلام ومناسك الحج فى مكة ومايتصل بها من الطرق وأعلام الحرم

وجدت هذه الخريطة فى كتاب « مرآة الحرمين » لإبراهيم باشا رفعت،فقد رسمها هو ومساعدوه فنقلتها كما هى فى الأصل ونقلت عليها كل التفاصيل التى كتبها المؤلف ، وكل ماأضفت إليها هو إعادة كتابة النصوص ورسم الطرق بطريقة تتفق مع طريقتنا فى رسم الخرائط فى هذا الأطلس ، حتى عنوان الخريطة نقلته كما كتبه المؤلف . وقد رأيت أن أضم هذه الخريطة وعدداً آخر من خرائط إبراهيم باشا رفعت إلى هذا الأطلس .

خريطة ٥٣

الطرق الحجازية كما رسمها اللواء إبراهيم باشا رفعت فى العشر الأوائل من القرن العشرين

كان اللواء إبراهيم باشا رفعت أميراً لركب الحاج المصرى وحارس المحمل إلى الحجاز مرتين (١٩٠٣ ، ١٩٠٨ م) وكان الرجل صابطاً ممتازاً وعالماً جليلاً ومسلماً تقياً متفتح الذهن ، كتب بعد عودته من الحجة الثانية كتاب : « مرآة الحرمين » « جزءان » الذى يعد من ذخائر المكتبة العربية ، وهو فيه يصف رحلة الحج بين مكة والمدينة ومناسك الحج كما رآها بكل تفصيل ، وأعطانا تفاصيل قيمة جداً عن أحوال الحجاز وأهله ودخول موكب الحج فيه قبل أن يغير الزمان ويبطل تقليد المحمل المصرى وماكان يصاحبه من تقاليد عريقة ترجع إلى العصر الفاطمى ، سواء فى القاهرة يوم قيام المحمل أو فى طريق وصوله إلى الحجاز ، ومايكون من استقباله فى الأراضى المقدسة العزيزة على كل عربى ومسلم ، ومايكون بين أميره والسلطات السعودية من لقاءات ورسميات .

والغالب أنه اعتمد فى بعض تفاصيل هذه الخريطة على خرائط من عمل جهات أوروبية أو تركية ، ومن أدلة ذلك فى هذه الخريطة أنه يكتب « حارات خيبر » بدلاً من حرة خيبر ، وهذا الخطأ الذى يبدو إملائياً يكشف لنا عن تلك الحقيقة التى لم يخفها إبراهيم باشا رفعت نفسه فى كتابه .

خريطة ٥٤

مراحل اتساع أمة الإسلام فى الجزيرة العربية فى عهد الرسول ﷺ

والآن ، وبعد هذا التمهيد الطويل بالخرائط والكلمات نرى كيف ترتبط المغازى جميعاً بعضها ببعض فتكون معركة واحدة طويلة من بدايتها إلى نهايتها أيام الرسول وهى غزوة تبوك أو العسرة ، التى انتهت بالنتيجة التى قدرها الله – سبحانه – ورسوله الأكرم قبل بدايتها ، وهى توحيد شبه الجزيرة تحت راية الإسلام .

طبيعة سكان الجزيرة .

إن الغالبية العظمى من سكان الجزيرة بدو أو أنصاف حضر ، وكلا الفريقين كان يعيش فى شبه الجزيرة على أسلوب بدوى ، فهم قبائل كبيرة أو صغيرة ، والقبائل تنقسم إلى أقسام كالبطون والأفخاذ ، ولكنها تدخل فى أحلاف قبلية ، وكل حلف يسكن إقليماً من أقاليم الجزيرة ، ولايمكن أن تستطيع قبيلة مواصلة الحياة إلا إذا دخلت فى حلف ، وهذا الحلف قد يأخذ اسماً عاماً مثل : تميم أو غطفان أو هوازن ، وقد يجمعه اسم عام واحد مثل قولنا أعاريب نجد وهم أهل العالية الذين يسكنون أراضى الهضاب بين جبال السراة ومرتفعات نجد ، وليس معنى ذلك أن قبائل الحلف تعيش فى سلام بعضها مع بعض ، إذ إن الحقيقة أنها كانت فى حروب متصلة بعضها مع بعض ، ولكن معناه أنها – رغم الحروب والعداوات – تتساند فيما بين بعضها وبعض وتشترك فى حماية إقليمها أو تأمينه ، فإن قبائل عبس وذبيان وأسد ومحارب والديش وعضل والقارة كانت تتعاون فيما بينها لحماية إقليمها من الدخلاء ، أو درء خطر تحس به ، وسترى أن موقفها من الإسلام سيكون موقف عداء واحد ، أو سيغزوها المسلمون مرة بعد أخرى ، ولكنها ستدخل الإسلام كلها فى وقت واحد فى السنة التاسعة للهجرة بعد استسلام غطفان وتميم وهوازن ، بمعنى أنه لم يكن من الضرورى أن تخضع كل قبيلة من هذه على حدة ، بل هى خضعت من تلقاء نفسها بعد استسلام الأحلاف القبلية الكبيرة التى كانت تحيط بموطنها ، وكذلك الحال مع قبائل إقليم البحرين فى شرق الجزيرة ، فإنها كلها استسلمت ودخلت أمة الإسلام بعد استسلام تميم ، وهى عظاؤها القبلى من ناحية الشرق

الرباط بين القبائل والأحلاف .

والحقيقة الثانية هى أن الرباط الحقيقى الذى يربط قبائل الأقاليم وأحلافها هو طرق التجارة التى تمر بأرضها ، فطرق التجارة هى بالفعل شرايين الحياة بالنسبة لهذه الأحلاف ، لأن طرق التجارة تجلب إلى القبائل أنواعاً معينة من البضائع لاتقوم حياتها إلا بها ، مثل الأوانى المعدنية والسيوف وقرابيس الخيل والسكاكين ومايلى ذلك ، فهذه كلها أدوات حيوية لاتصنع فى مواطن القبائل فى الصحراء ولابد من الحصول عليها من الخارج ، وكل حلف قبلى يعتمد فى الحصول عليها على مركز مدنى يمكن أن يوجد به الحدادون والنجارون وصناع السلاح والتجار الذين يأتون بهذه البضائع أو خاماتها التى تصنع منها من الخارج ، فإذا توقف سير القوافل زمناً طويلاً حرمت القبيلة من هذه الأدوات الضرورية وبخاصة الأسلحة ولحق بها الضعف ، وأكبر مثل لذلك مكة نفسها ، فإن وقف أمة المدينة لطريق التجارة مع الشام والعراق أضعف مكة إضعافاً تاماً أمام أمة المدينة التى كانت هى نفسها مركزاً مدنياً كبيراً لقبائل الحجاز الكبرى مثل : جهينة وغفار وعذرة وبلى وكلها فروع من قضاعة التى انتشرت وحدتها من زمن طويل .

والمثل الكبير الثانى لذلك هو خيبر التى توصف بأنها ريف الحجاز ، وعليها يعتمد حلف غطفان اعتماداً رئيسياً ، وعندما سار الرسول لفتح خيبر كانت غطفان وقبائل شمال الحجاز جميعاً مع خيبر حلفائها ، وكانت غالبية رجالها تشك فى أن المسلمين سيستطيعون التغلب عليها ، ووقف الكثيرون من رؤساء القبائل موقف المترقب ينتظرون نتيجة المعركة القادمة ، ورسول الله كان يعرف هذه الحقيقة،ولهذا فهو عندما سار لفتح خيبر لم يهاجمها من الجنوب بل من الشمال ، لكى يحول بين غطفان وعون خيبر كما قال ، ورئيس غطفان عيينة بن حصن خسر المعركة مع الإسلام عندما توقف عن عون حلفائه الخيبريين كما كان الاتفاق ،

وهذا الرجل كان يأخذ من خيبر نصف تمرها فى سبيل حمايته لها ، ورسول الله بعد أن فتح خيبر لم يأخذ من أهلها أكثر من ذلك ، فكأن أمة الإسلام حلت فى هذه الناحية محل غطفان ، لأنه كان يعرف أن أهل خيبر يستطيعون أداءه دون إضرار بحياتهم .

الطرق ودخلها فى التحضر والبداوة .

ولم تكن طرق التجارة ومراكز العمران أساسية للأحلاف القبلية لهذه الأسباب فحسب ، بل إن رؤساء القبائل كانوا يأخذون من القوافل التى تمر بأراضيها زائد منتجاتها لتسويقه مثل : التمر والصوف وبعض النباتات الطبية أو الملح أو خام المعادن فى بعض الأحيان ، فتحصل القبائل بذلك على شىء من المال تشترى به ماتريد .

ولايقل أهمية عن ذلك أن طرق التجارة كانت تصل القبائل بالعالم الخارجى وتربط بينها وبين بقية البشر ، ومن المعروف أن أى جماعة إنسانية تنقطع عن بقية البشر أو عن حولها من البشر على الأقل تتوحش وتتدهور وتتفكك ، كما نرى مثلاً فى القبائل الإفريقية الاستوائية وقبائل الطوارق وقبائل استراليا ، فهذه القبائل كلها كانت متدهورة وفى حالة تخلف وتوحش وركود حضارى نتيجة للانقطاع عن بقية البشر ، ولو أنها لم تنقطع لما وصلت إلى تلك الحال ، بدليل أنه عندما اتصلت بالعالم الخارجى على أيدى رجال الاستعمار تحسنت أحوالها ووقف تدهورها ، بل انتقلت إلى الصعود والتحضر رغم مظالم الاحتلال واستغلاله ونهبه الذريع لرجالها ببيعهم رقيقا .

وقد كان رسول الله ﷺ يعرف هذه الحقائق كلها ويتصرف فى توجيه المغازى ومع العرب جميعا على هدى هذه المعرفة ، وكان توطين الأعراب وإخراجهم من البداوة والتأبد فى القفر من غايات سياسة الهجرة أو التهجير عنده ، فالمهاجر عنده هو من ترك توحش البداوة ودخل فى استقرار الحاضرة ، ولم يكن من الضرورى عنده أن يهاجر الناس إلى المدينة بالذات ، بل كان يكفى أن يرتبطوا بالحاضرة وهى المدينة لكى يكونوا على صلة بالأمة أى جماعة المسلمين ، وكان هذا النوع من العرب الذين يتصلون بالحاضرة وتقوم بينهم وبينها علاقات منتظمة يسمون أهل بادتها ، ومن أقواله فى قبيلة أسلم ، بفتح اللام ، والمراد هنا أسلم خزاعة : « إن أسلم ليسوا بأعراب ، هم أهل باديتنا ونحن أهل حاضرتها » .

وإذن فلم يكن من الضرورى أن يفتح الرسول ﷺ شبه الجزيرة كله ، بل يكفى أن يضع يده على حواضر الجماعات القبلية ومراكز التجارة ، وكانت طرق التجارة فى الجزيرة تتصل فى شبه دائرة متصلة تدور بين الأسواق قرب السواحل أو بعيدا عنها ، والطرق الداخلية كلها تتصل بهذه ، فمن يسيطر على قطعة كبيرة من الطرق الرئيسية يوقف حياة معظم القبائل والأحلاف القبائلية التى تمر بأراضيها هذه الطرق ، فإذا أضفت إلى ذلك السيطرة على الحواضر الكبرى فى الجزيرة ، وبخاصة مكة والمدينة والطائف وخيبر وتيماء وأم القرى وتبوك وصعدة وصنعاء — فقد أمكن السيطرة على أهل الجزيرة جميعا .

التغير الاجتماعى والسياسى للقبائل .

ونضيف إلى ذلك أن فكرة رسول الله ﷺ عن وحدة الأمة لم تكن السيطرة السياسية المباشرة على الوحدات التى تدخل الأمة وتسلم ، بل الاكتفاء بالانضمام إلى الأمة والدخول فى الإسلام وأداء الزكاة ، وهى نسبة رمزية بالغة القلة تؤديها القبيلة أو الجماعة كدليل على الدخول فى الأمة ، مع احتفاظ كل جماعة بنظامها السياسى ، بل برياستها مادام أهلها راضين بذلك عن طواعية وطيب نفس مع دخولهم الإسلام ، وكل الجماعات القبلية أو الوحدات الإقليمية التى أتت وفودها إلى المدينة للدخول فى أمة الإسلام كانت تحصل على ذلك من رسول الله بنص مكتوب أو غير مكتوب ، بل كانت تحصل على إقرار منه بسيادتها على منطقتها وحقوقها عليها ، ورسول الله لم يكن يقطع أناساً أرض آخرين أو يقطع أناساً أرضا ليست لهم .

وهكذا ينبغى أن نفهم عبارة « أقطع بنى فلان أرض كذا » التى ترد فى كتبه ﷺ ، فإن أرض الجزيرة لم تكن ملك رسول الله ﷺ وإنما كان لكل قوم أرضهم ، وماكان يتصرف فى أرض ليست ملكه ، وقد نهى ﷺ عن ذلك فى البيوع وسماه الفقهاء بيع الغرر ، وإذن فالدخول فى الأمة لم يكن يُفقد أى جماعة أى حق هو لها ، بل يؤكد ملكيتها لمنازلها ويحميها من عدوان الآخرين ويعطى المواطن صبغة شرعية ، وهذا أمر يهم القبيلة أو الحلف القبلى الحصول عليه ، بل هى تسعى إليه ، وكل ذلك تغير بعد حروب الردة وقيام الدولة المركزية التى لابد أن تسيطر عسكريا على كل جزء من أراضى الأمة التى أصبحت دولة .

فتح الجزيرة بين الاستراتيجية والتكتيك .

وملاحظة أخيرة لابد من وضعها فى الاعتبار ، وهى أننا عندما نقرأ أن رسول الله ﷺ أرسل سرية إلى نخلة فإننا لابد أن نفهم أن نجاح هذه السرية فى مهمتها معناه أن كل المساحة الواقعة بين المدينة ونخلة الشامية شمال مكة قد دخلت بما فيها من قبائل فى حلف المدينة ، أو أصبحت بأرضها وقبائلها جزءا من وطن الأمة وأمنها فى حالة إسلام هذه القبائل ، ومعنى ذلك أن كل غزاة توسيع مساحة وطن الأمة شيئا ، وكل مجموعة من المغازى تؤدى معا إلى دخول إقليم كبير فى أمة الإسلام .

على هذا الأساس رسمت خريطة مراحل توسيع أمة الإسلام ، وقد جعلتها تسع مراحل تفصيلها كما يلى بعد قليل ، وقد اعتمدت فى إحصاء المغازى وترقيمها على مغازى الواقدى تحقيق « مارسدن جونز » وقد تبينت أن هناك سرية سابقة على سرية سيف البحر التى تعتبر بإجماع مؤرخى السيرة أول السرايا ، وهذه السرية قادها عبد الله بن جحش ، وكان غرضها مغازاة جماعة من الكنانيين كانوا حلفاء قريش ، وكانوا يسكنون شمال المدينة مجاورين لمواطن جهينة ، وكان الجهنيون قد سعوا إلى رسول الله بعد استقراره فى المدينة ، وكان من بين ماقالوه له : « فأوثق لنا حتى نأمنك وتأمننا » فأعطاهم الموثق الذى طلبوه ، ولكنهم لم يسلموا ، فلما وصلت السرية إلى منازل الكنانيين وجدوا أنهم يفوقونهم عددا ، وانصرفوا عنهم ولجئوا إلى أرض حلفائهم الجهنيين ، وهناك اختلف أمرهم ، فريق منهم كانوا يرون أنهم لم يحسنوا الصنع عندما انصرفوا عن الكنانيين ، وفريق رأى أنهم أحسنوا ، فأرسل أمير السرية إلى رسول الله ﷺ يسأله ماذا يعملون ؟ فلما بلغ أمر اختلاف المسلمين رسول الله لم يرض عنه ، وساءه أن يقع الخلاف بين المسلمين،وأرسل عبد الله بن جحش على رأس قوة من المسلمين ، فكان عبد الله بذلك أول أمير فى الإسلام ، وفى خبر آخر أن هذه أول مرة يلقب فيها مسلم بأمير ، وبعد خروج عبد الله بن جحش نقرأ أن الجهنيين أسلموا ، وهذا هو الذى جعلنى أرى أن هذه أول غازية فى الإسلام ، وإلا فإن حمزة بن عبد المطلب أولى بهذا اللقب من عبد الله بن جحش ، ولكيلا أخل بإحصاء المغازى وأرقامها عند مؤرخينا أعطيت هذه السرية رقم الصفر .

والآن نورد بيان مراحل توسيع أمة الإسلام فى حسابنا ، وهو الذى اعتمدنا عليه فى رسم هذه الخريطة .

المرحلة الأولى .

من سرية سيف البحر إلى سرية نخلة من رجب سنة ١ هـ إلى رجب ٢ هـ .

وفيها تمت سيطرة أمة الإسلام على المدينة ومنطقتها ، وجملة المغازى فيها عشر بالإضافة إلى سرية الصفر التى قادها أولاً سعد بن أبى وقاص وثانياً عبد الله بن جحش .

المرحلة الثانية .

موقعة بدر فى ١٧ رمضان سنة ٢ هـ / ١٣ مارس ٦٢٤ م وبها ثبت مركز أمة الإسلام فى الحجاز ، وتأكد مكانها كأكبر قوة عسكرية واجتماعية فى جزيرة العرب .

وتدخل فيها الغزوات والسرايا من سرية عصماء بنت زيد إلى غزوة الأحزاب التى حولها رسول الله إلى غزوة الخندق ٢٥ رمضان سنة ٢ هـ إلى ذى القعدة سنة ٥ هـ مارس ٦٢٤ م — أبريل ٦٢٧ م وغزوة بنى قريظة بعدها مباشرة بما فى ذلك غزوة أحد « شوال سنة ٣ هـ / مارس ٦٢٥ م » .

وفيها تأكد سلطان أمة المدينة على الحجاز ، وتم القضاء على المجموعات اليهودية الكبرى فى المدينة « بنى قينقاع ثم النضير ثم بنى قريظة » فلم يبق فيها إلا المحالفون لقبائل أنصارية ، وغزيت منازل المشاغبين من قبائل أعاريب نجد مثل أسد بن خزيمة ومحارب وبنى سليم وبنى لحيان ، وقضى كذلك على نفر من أشرار اليهود المعادين لأمة الإسلام ، وفى الخندق ثبت بصورة لاتقبل الجدل أن أمة المدينة أقوى قوة اجتماعية وعسكرية فى الحجاز وعوالى نجد ، وثبت امتياز الإسلام ورسوله ﷺ .

المرحلة الثالثة .

من سرية عبد الله بن أنيس للقضاء على سفيان بن خالد بن نبيح إلى سرية زيد بن حارثة إلى الطرف .

من المحرم سنة ٦ هـ إلى جمادى الآخرة سنة ٦ هـ . يونيو ٦٢٧ م إلى أكتوبر — نوفمبر ٦٢٧ م .

وفيها أخضعت كل عوالى نجد وقبائلها حتى ضرية ، وزادت فيها رقعة أمة الإسلام نحو ٤٠ ميلاً مربعاً (٧٠ ك م) مربعاً إلى الشرق وانفتح الطريق إلى قلب نجد ، وسيطر المسلمون على طريق النجدية إلى العراق ، فأحكم بذلك حصار قريش .

المرحلة الرابعة .

من سرية حسمى إلى عمرة القضاء .

من جمادى الآخرة سنة ٦ إلى ذى القعدة سنة ٧ هـ . نوفمبر سنة ٦٢٧ م إلى مارس ٦٢٩ م

وفيها تركز نشاط المسلمين العسكرى على شمال الحجاز ، فوصل المسلمون إلى حسمى ووادى القرى ودومة الجندل ، واستولى المسلمون على خيبر وفدك ووادى القرى ، ودخل المسلمون بلاد جذام وقضاعة وأراضى بعض نصارى العرب ، ووجهت ضربات حاسمة إلى أهل العُثْوان من قبائل قيس عيلان المعادين لجماعات إلياس بن مضر وفيهم كنانة وقريش وواضح أن الرسول وفق خلال هذه المرحلة للقضاء على أى خطر يمكن أن تتعرض له المدينة وحوز أمة الإسلام فى حالة مالوفا تمهد الطريق وحان وقت فتح مكة

المرحلة الخامسة .

من سرية ابن أبى العوجاء السلمى إلى فتح الطائف وإرسال المصدقين من ذى الحجة سنة ٧ إلى شوال - ذى القعدة سنة ٨ هـ . أبريل ٦٢٩ م إلى فبراير ٦٣٠ م .

وفى هذه المرحلة فتحت مكة وبدأ تحول الجزيرة كلها للإسلام .

ومن الواضح أن رسول الله ﷺ ركز همه فى هذه المرحلة إلى قبائل بلى وجذام وبهراء ولخم وقضاعة من نصارى الروم ، وغطفان وبنى سليم من أهل الشغب من بدو الحجاز وأعاريب نجد تمهيداً لفتح مكة

المرحلة السادسة .

من سرية عيينة بن حصن على بنى تميم إلى سرية الشعبية .

المحرم سنة ٩ هـ إلى ربيع الثانى سنة ٩ هـ / أبريل مايو سنة ٦٣٠ إلى يوليو أغسطس سنة ٦٣٠ م .

وأهم ماتم فى هذه المرحلة هو ضم مجموعة أحلاف تميم لفتح الطريق إلى شرق الجزيرة وجنوبها الشرقى ، وتنتهى المرحلة ببسط سلطان أمة الإسلام على الشعبية مياه الحجاز وتهامة فى العصر النبوى .

المرحلة السابعة .

من سرية على بن أبى طالب إلى الفلس إلى غزوة تبوك ودومة الجندل من شوال سنة ٩ هـ إلى رجب - رمضان سنة ٩ هـ / يوليو - أغسطس ٦٣٠ م إلى نوفمبر - ديسمبر ٦٣٠ م .

فى هذه المرحلة يتبين لنا أن رسول الله ﷺ بعد أن فتح مكة وفتح الطريق إلى شرق الجزيرة وجنوبها الشرقى اتجه إلى إخضاع شمال شبه الجزيرة والوصول بالفتوحات وتوسيع أمة المدينة إلى أقصى حدود القبائل العربية ، بمن فيهم نصارى العرب وضاحية قضاعة ، ليبين للمسلمين الاتجاه الذى ينبغى أن يسير عليه نشاط الفتوح بعد ذلك ، وتنتهى المرحلة بحجة أبى بكر وهى أول حجة فى الإسلام ، وفيها قرأ على بن أبى طالب سورة براءة عند الكعبة ، وفيها إعلان بنهاية وجود الوثنية فى جزيرة العرب بعد مهلة أربعة أشهر

المرحلة الثامنة .

من سرية خالد بن الوليد إلى اليمن إلى سرية أسامة بن زيد بما فى ذلك حجة الوداع ، وفيها تثبيت شعائر الحج ، وبها يتم تثبيت قواعد أداء عبادات الإسلام ، ويتم الله دينه ونعمته على البشر أجمعين .

من ربيع الأول سنة ١٠ إلى ربيع الأول سنة ١١ هـ / يوليو ٦٣٢ إلى يوليو ٦٣٣ م .

وهذه هى المرحلة الأخيرة من مراحل توسع أمة المدينة ، وقد استمرت إلى وفاة الرسول ﷺ ، فإن سرية أسامة بن زيد تم الإعداد لها قبيل مرض الرسول الأخير ، ولم تنفذ إلا بعد وفاته وولاية أبى بكر ، والعمل الحاسم فيها هو إتمام فتح اليمن على يد على بن أبى طالب ، وانفتاح جنوب الجزيرة وجنوبها الشرقى للإسلام مع إتمام شعائر الحج .

المرحلة التاسعة

استمرار التوسع حتى شمل الإسلام كل جزيرة العرب وبدأ يمتد خارجها .

وهى تبدأ فى محرم سنة ١١ هـ / يوليو ٦٣٢ م ، والمفروض أن تستمر بعد ذلك إلى أن يصير الدين كله لله .

وإذا تأملنا بعد هذا التفصيل مراحل التوسع نرى بوضوح أنها كانت عملية واحدة تمت على مراحل رسمها رسول الله ﷺ على ماقدره الله لرسول من العمر بعد الهجرة ، ومؤرخو السيرة غاب عنهم أن يلاحظوا هذه الحقيقة ربما لأنها لاتتضح إلا إذا رسمنا خريطة وتتبعناها عليها ، ورسم الخريطة نفسه كان مشكلة لضرورة تحديد اتجاهات المغازى وغاياتها ، ونتيجة ذلك أن أولئك المؤرخين جعلوا بعض المغازى ردود أفعال لا أفعالاً ، ومن غير الممكن أن يتصرف رسول الله ﷺ على أساس مايفعله الآخرون ، خاصة وهو يحمل رسالة كبرى وهى بناء أمة الإسلام ، وإعدادها قبل وفاته ؛ لكى تقوم بنشر الإسلام .

خريطة ٥٥

حروب الردة أيام أبى بكر الصديق

قامت حركة الردة عقب ولاية أبى بكر ، وهى لم تكن فى الحقيقة كلها ارتداداً عن الإسلام ، فلم يكن هناك مرتدون فعلاً إلا من اتبع المتنبئين فى بلاد طيىء وأسد وحنيفة وتميم واليمن ، أما البقية فقد كانوا أعراباً ظنوا أن الصدقة لا تؤدى إلا لرسول الله ﷺ لأن الله سبحانه وتعالى قال له فى القرآن الكريم ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم** ﴾ ولكن أبا بكر بصفته خليفة رسول الله ﷺ قال إنه لابد أن يأخذ نصيب الله ورسوله من الصدقات لأنها حق من حقوق الأمة ورمز لوحدتها . وفعلاً أرسل إليهم الجيوش كما هو مبين على الخريطة ، وتمكن من القضاء على حركة الردة .

ولم تعين لنا المراجع الطرق التى سارت فيها جيوش الردة فرسمنا حملات القضاء على الردة رسماً مباشراً توضيحياً كما نرى على الخريطة .

شجرات الأنساب .

لايمكن فهم حقائق تاريخ العرب إلا بتتبع شجرات الأنساب ، لأنها خرائط بشرية تصور لنا علاقات القبائل بعضها ببعض وكذلك الأشخاص ، ويسهل دائماً فهم الأنساب ومعرفة العلاقات البشرية ذات الأهمية الكبرى فى حياة العرب من قراءة كتب الأنساب ، إذ لابد من صياغتها فى صورة جداول ، فرأيت أن أستخرجها من أصولها وأضعها فى جداول متدرجة : الأحلاف والجماعات القبلية الكبرى ، فالتى تليها ، فالأصغر والأصغر ، حتى نصل إلى كبار الشخصيات المحركة للحوادث .

وليست هذه مجرد شجرات أنساب ، بل ضمنتها نوعين من المعلومات : علاقات الصلة والقرابة من ناحية النساء ، لأن الجداول فى ذاتها لاتمثل إلا علاقات الأصلاب ، أى تسلسل الرجال من الرجال ، ثم أهم ماظهر فى البيت أو الفرع من أعمال كبيرة تزيد قيمة الفرع كله وتنبه إلى أخبره

وخطوط الجداول الأساسية كلها باللون الأسود إلا خط النسب النبوى الشريف - عمود النسب - فهو باللون الأخضر من كنانة بن خزيمة إلى محمد صلوات الله عليه ، وعلاقات التصاهر والزواج والأمومة باللون الأحمر .

المراجع

(١) كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة — تأليف : أبى إسحاق إبراهيم الحربى — تحقيق : الشيخ : حمد الجاسر .

(٢) الواقدى - مغازى رسول الله ﷺ

(٣) مرآة الحرمين — إبراهيم رفعت

(٤) محمد فى مكة — تأليف مونتجمرى واط

(٥) التكوين العمرانى والحضرى لمدن الحج — تأليف الشيخ محمد سعيد فارسى

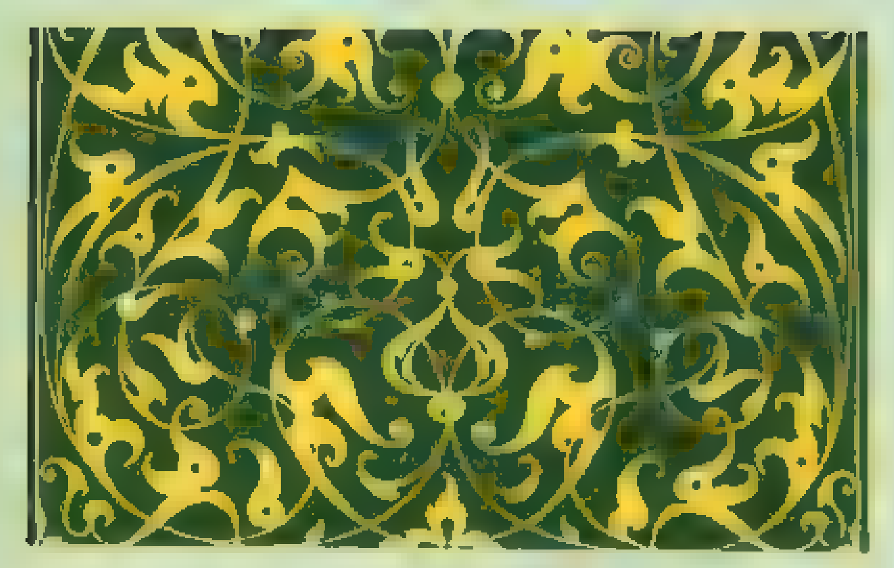

الفصل السادس

الفتوحات الإسلامية

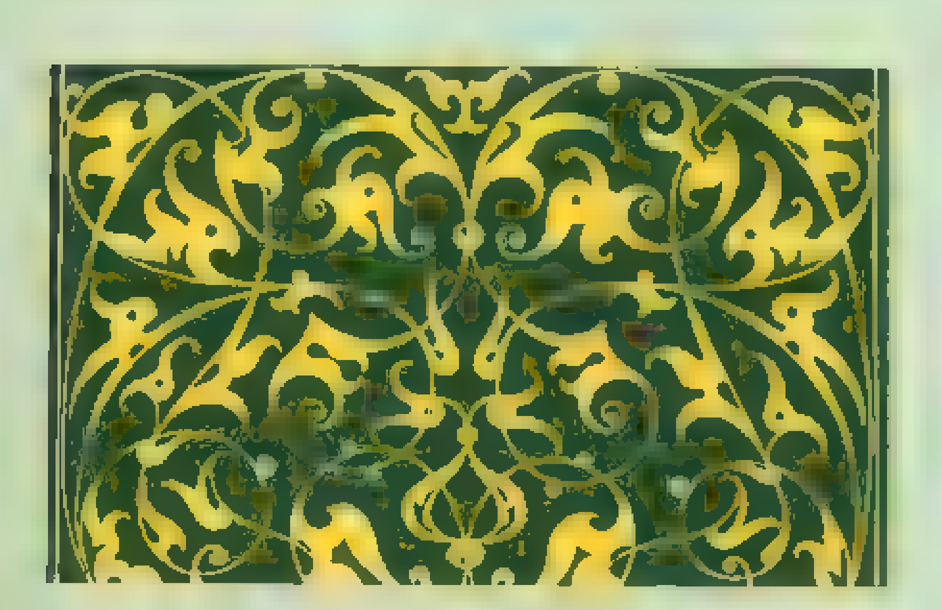

بيان الخرائط

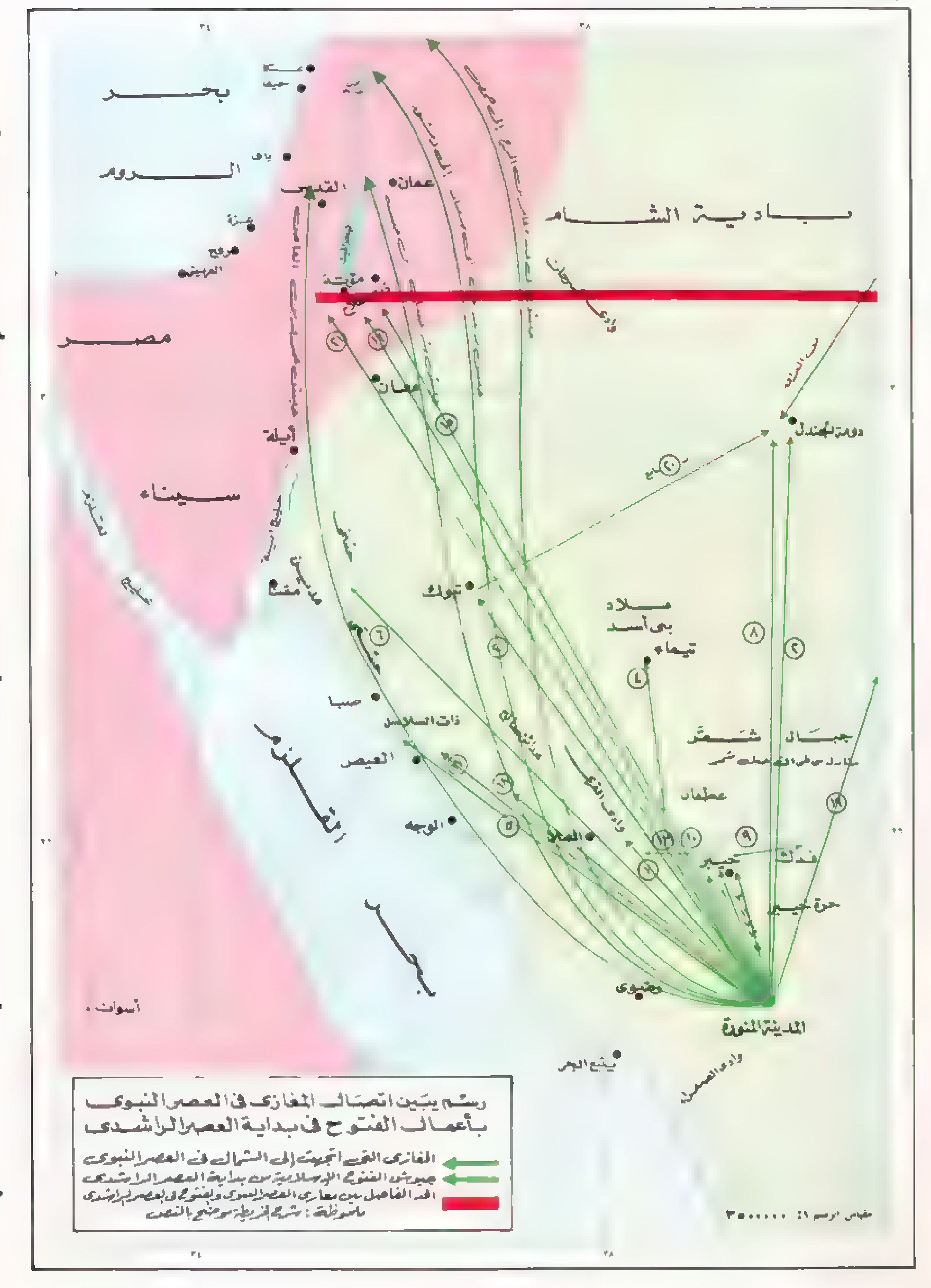

رسم يبين اتصال المغازي في العصر النبوي بأعمال الفتوح في بداية العصر الراشدي
المغازي التي اتجهت إلى الشمال في العصر النبوي
جيوش الفتوح الإسلامية من بداية العصر الراشدي
الحد الفاصل بين مغازي العصر النبوي والفتوح في العصر الراشدي
ملاحظة: شرح الخريطة موضح بالنص
مقياس الرسم ١: ٣٥٠٠٠٠٠
بحر الروم
بادية الشام
مصر
سيناء
البحر الأحمر
عكا
حيفا
يافا
القدس
عمان
غزة
رفح
مؤتة
معان
أيلة
تبوك
مقنا
تيماء
بلاد بني أسد
دومة الجندل
جبال شمر
عطفان
صبا
ذات السلاسل
العيص
الوجه
العلا
خيبر
فدك
وادي القرى
حرة خيبر
ينبوع
المدينة المنورة
ينبع البحر
أسوان

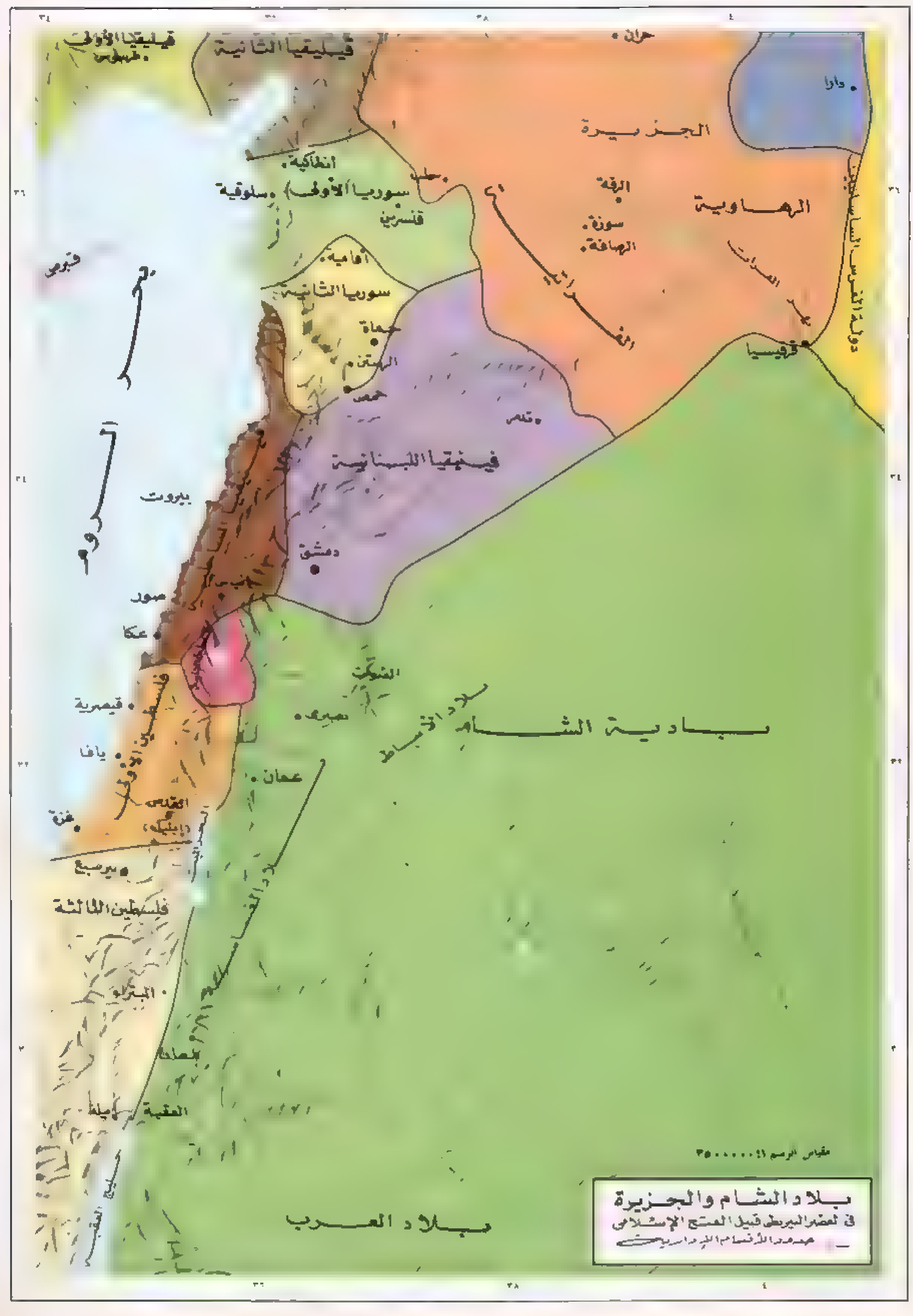

بلاد الشام والجزيرة
فى العصر البيزنطى قبيل الفتح الإسلامى
فيليقيا الثانية
الجزيرة
حران
دارا
الرهاوية
الرقة
سورة
الرصافة
أنطاكية
سوريا الأولى
سلوقية
قنسرين
قبرص
أفامية
سوريا الثانية
حماة
حمص
تدمر
فينيقيا اللبنانية
قرقيسيا
بيروت
دمشق
صور
عكا
قيصرية
يافا
عمان
غزة
بئر سبع
فلسطين الثالثة
العقبة
بادية الشام
بلاد العرب

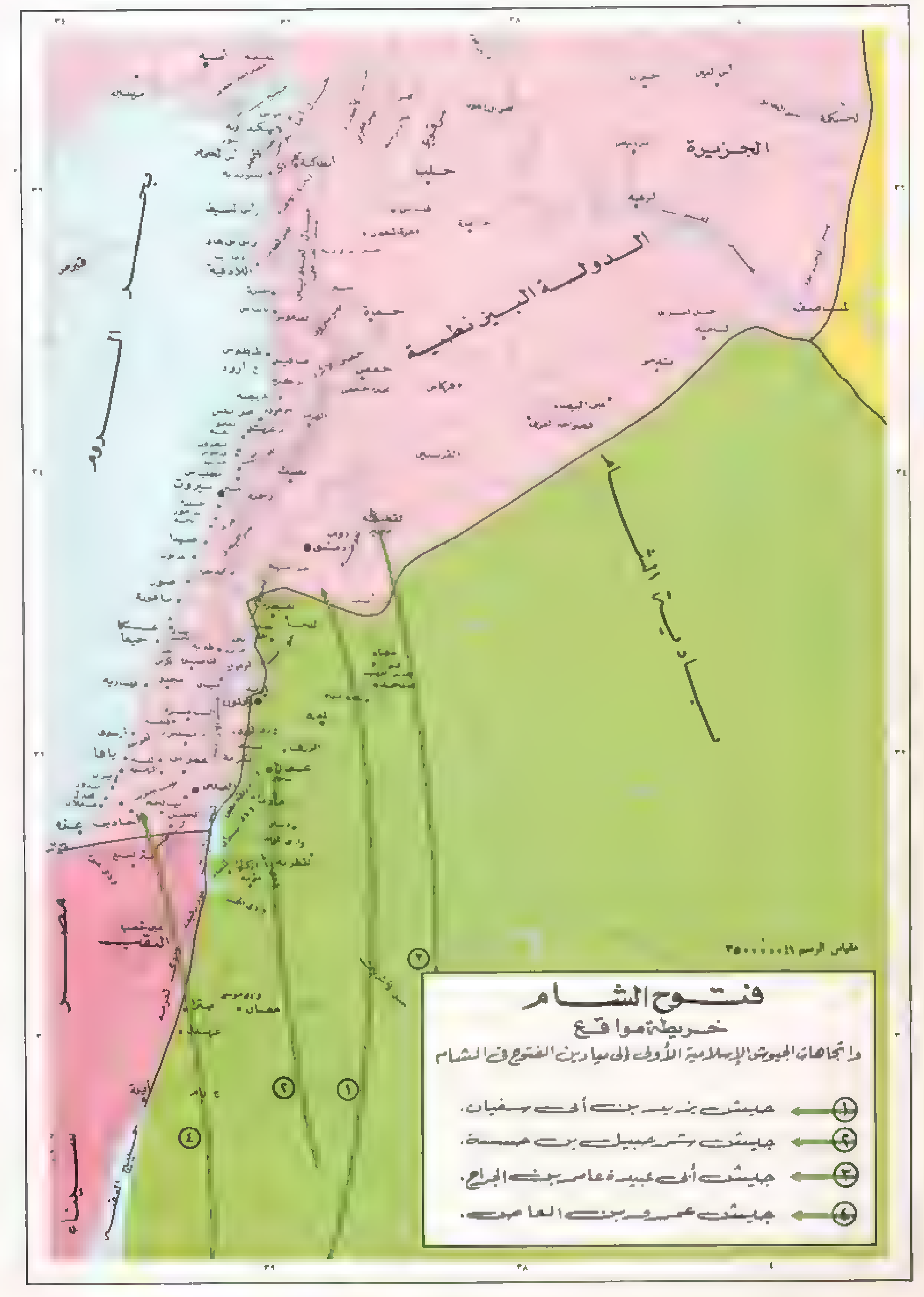
فتوح الشام
خريطة مواقع
واتجاهات الجيوش الإسلامية الأولى إلى ميادين الفتوح في الشام
١ جيش يزيد بن أبي سفيان.
٢ جيش شرحبيل بن حسنة.
٣ جيش أبي عبيدة عامر بن الجراح.
٤ جيش عمرو بن العاص.
الدولة البيزنطية
الجزيرة
بحر الروم
بادية الشام
حلب
حمص
دمشق
بيروت
صيدا
عكا
حيفا
يافا
غزة
أيلة
مصر
سيناء
النقب
قبرص

حران
الجزيرة
الرقة
قرقيسياء
الحديثة
طرسوس
الإسكندرونة
دابق
أنطاكية
حلب
سويدية
قنسرين
قبرص
اللاذقية
معرة النعمان
بانياس
طرطوس
حماة
سلمية
حمص
تدمر
جبيل
بيروت
بعلبك
دمشق
صيدا
صور
حيفا
قيسارية
بيسان
فحل
اليرموك
يافا
الرملة
عمواس
بيت المقدس
عسقلان
غزة
أجنادين
عمان
ذات أطلاح
البلقاء
الكرك
مؤتة
العقبة
تبوك
النفود
بحر الروم
بادية الشام
السماوة
قراقر
مقياس الرسم ١ : ٣٥٠٠٠٠٠
فتح الشام
٥ رجب ١٥ هـ / ١٢ أغسطس ٦٣٦ م
تحشدت جيوش المسلمين في أجنادين بقيادة خالد بن الوليد حيث هزمت جيوش الروم ٢٧ جمادى الأولى ١٣ هـ / ٣٠ يوليو ٦٣٤ م.
سار المسلمون إلى دمشق وحاصروها.
وجه الروم جيوشهم إلى بيسان فتوجه المسلمون إليهم من دمشق بقيادة أبي عبيدة بن الجراح حيث هزموهم ٢٨ ذو القعدة ١٣ هـ / ١٣ يناير ٦٣٥ م.
عاد المسلمون إلى حصار دمشق وتم فتحها ١٥ رجب ١٤ هـ / ٣ سبتمبر ٦٣٥ م.
سار المسلمون من دمشق إلى حمص ففتحوها - ٢١ ربيع الآخر ١٥ هـ / مايو ٦٣٦ م.
وجهت الروم جيشا ضخما إلى جنوبي دمشق فانسحب المسلمون جنوبا حيث التقوا في اليرموك وهزم الروم هزيمة ساحقة ٥ رجب ١٥ هـ / ١٢ أغسطس ٦٣٦ م.

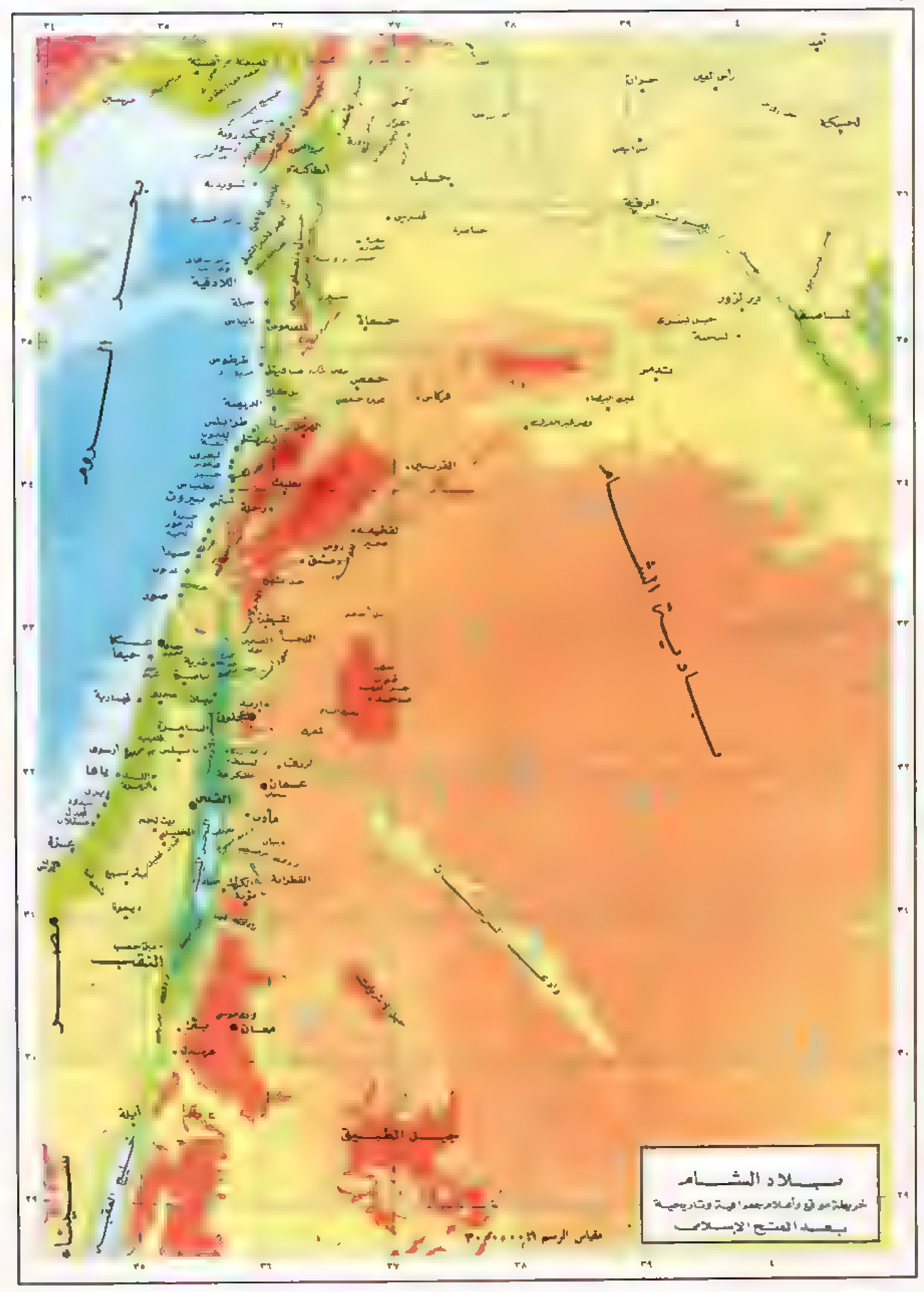

بلاد الشام
خريطة مواقع وأعلام جغرافية وتاريخية
بعد الفتح الإسلامي
بحر الروم
بادية الشام
جبل الطبيق
حلب
حماة
حمص
دمشق
بعلبك
بيروت
صيدا
صور
عكا
حيفا
يافا
غزة
الرملة
عمان
مآب
معان
أيلة
النقب
تدمر
الرقة
الرصافة
دير الزور
الحسكة
حران
رأس العين
أنطاكية
اللاذقية
جبلة
طرطوس
طرابلس
جبيل
بانياس
أريحا
القدس
بئر السبع

العـــراق

خريطة مواقع أعلام جغرافية وتاريخية
بعد الفتح الإسلامي

الجزيرة

العراق

بلاد فارس

بادية الشام

الجزيرة العربية

الخليج العربي

المصبات القديمة لأنهار العراق
الخليج العربي
الزاب الكبير
الزاب الصغير
دقوقا
خانقين
حلوان
قرميسين
نهاوند
تكريت
جلولاء
بعقوبة
الأنبار
مهرجان قذق
ماسبذان
المدائن
ساباط
كسكر
قس الناطف
الكوفة
الحيرة
النجف
تستر
المذار
الأهواز
جنديسابور
أمغيشيا
أليس
الخورنق
البارق
القادسية
الولجة
الأبلة
كاظمة
جزيرة العرب

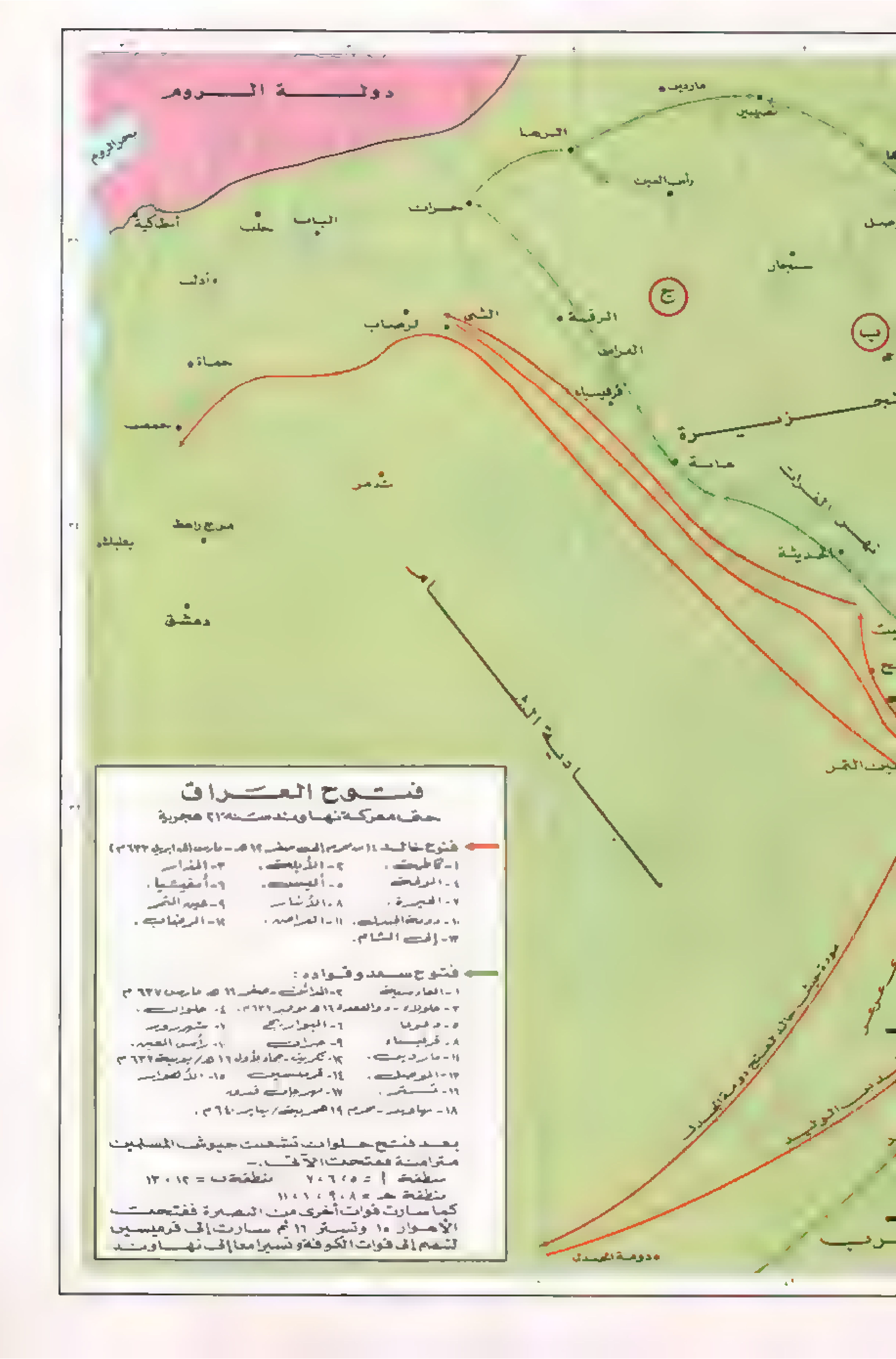
دولة الروم
بحر الروم
أنطاكية
حلب
الباب
حران
الرها
ماردين
نصيبين
رأس العين
سنجار
الرقة
الرصافة
حماة
حمص
تدمر
مرج راهط
بعلبك
دمشق
قرقيسيا
عانة
الحديثة
نهر الفرات
الجزيرة
عين التمر
بادية الشام
دومة الجندل
فتوح العراق
حتى معركة نهاوند سنة ٢١ هجرية
فتوح خالد
١- كاظمة . ٢- الأبلة . ٣- المذار
٥- أليس . ٦- أمغيشيا .
٧- الحيرة . ٨- الأنبار ٩- عين التمر
١٠- دومة الجندل . ١١- الفراض .
١٣- إلى الشام .
فتوح سعد وقواده :
بعد فتح حلوان تشعبت جيوش المسلمين متزامنة ففتحت الآفاق .
منطقة أ = ٥، ٦، ٧ منطقة ب = ١٢، ١٣
منطقة جـ = ٨، ٩، ١٠، ١١
كما سارت قوات أخرى من البصرة ففتحت الأهواز ١٠ وتستر ١١ ثم سارت إلى قرميسين لتنضم إلى قوات الكوفة وتسيرا معا إلى نهاوند

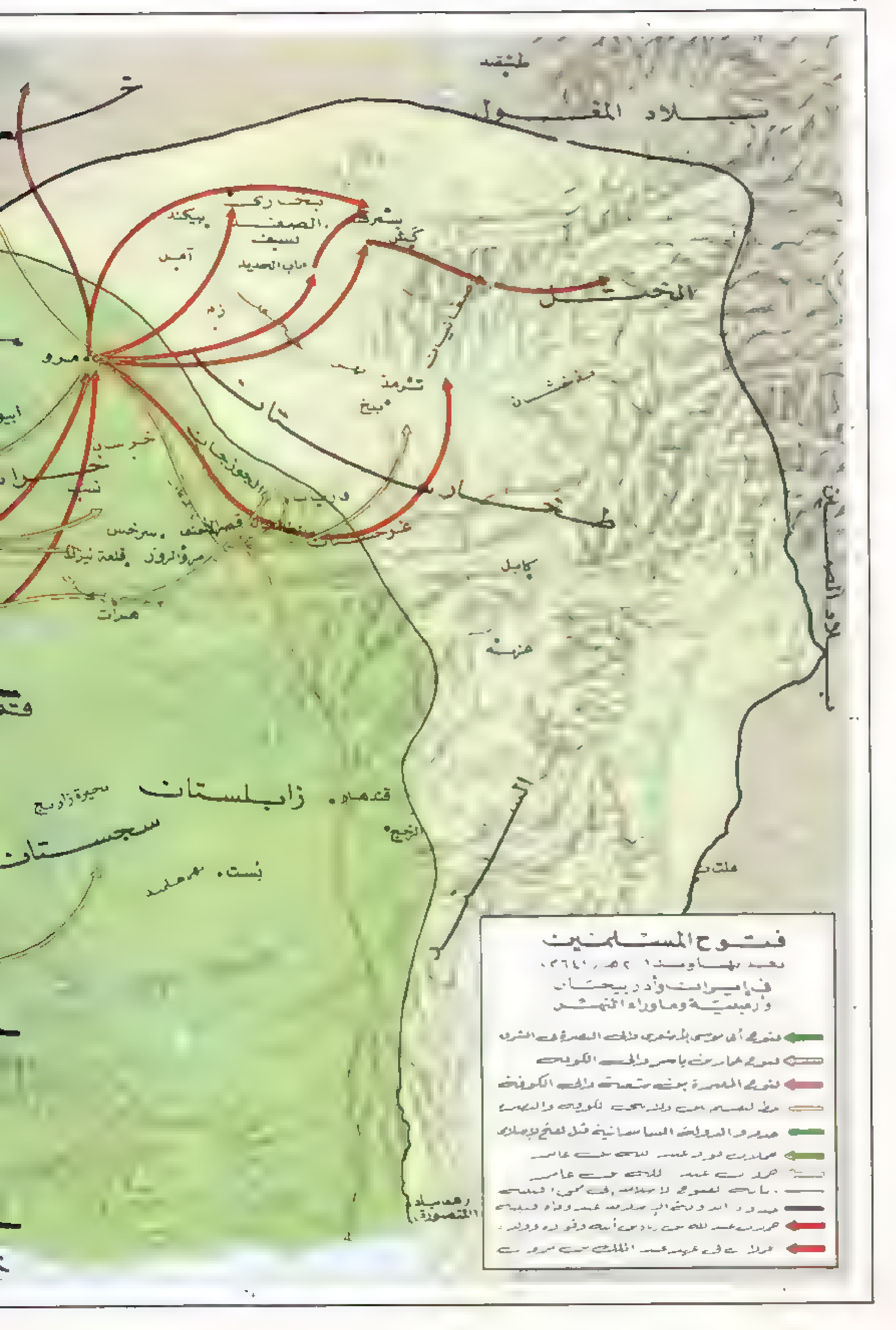

فتوح المسلمين
بعد نهاوند ٢١هـ/٦٤١م
في إيران وأذربيجان
وأرمينية وما وراء النهر
طشقند
بلاد المغول
بخارى
بيكند
الصغد
نسف
آمل
باب الحديد
سمرقند
كش
الختل
مرو
ترمذ
بلخ
طخارستان
الجوزجان
سرخس
مرو الروذ
قلعة نيزك
هراة
كابل
غزنة
زابلستان
سجستان
بست
الرخج
ملتان

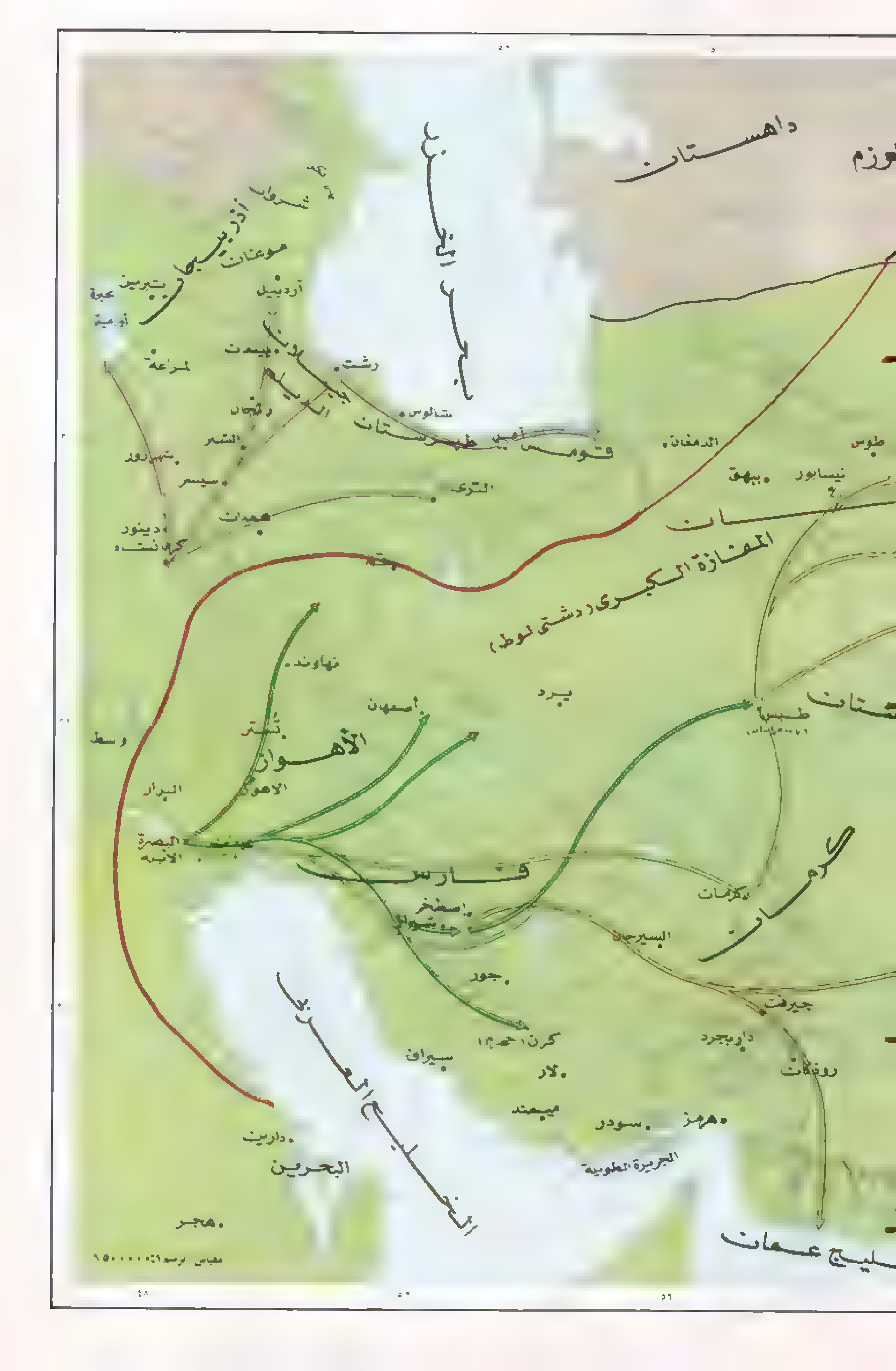

داهستان
أذربيجان
موقان
شروان
تبريز
أردبيل
أرمية
مراغة
رشت
طبرستان
قومس
الدمغان
طوس
نيسابور
بيهق
الري
همذان
الدينور
كرمانشاه
شهرزور
المفازة الكبرى (دشت لوط)
نهاوند
أصبهان
يزد
تستر
الأهواز
واسط
البصرة
الأبلة
فارس
إصطخر
كرمان
السيرجان
جيرفت
جور
سيراف
لار
هرمز
البحرين
هجر
الخليج العربي
خليج عمان
الجزيرة الطويلة

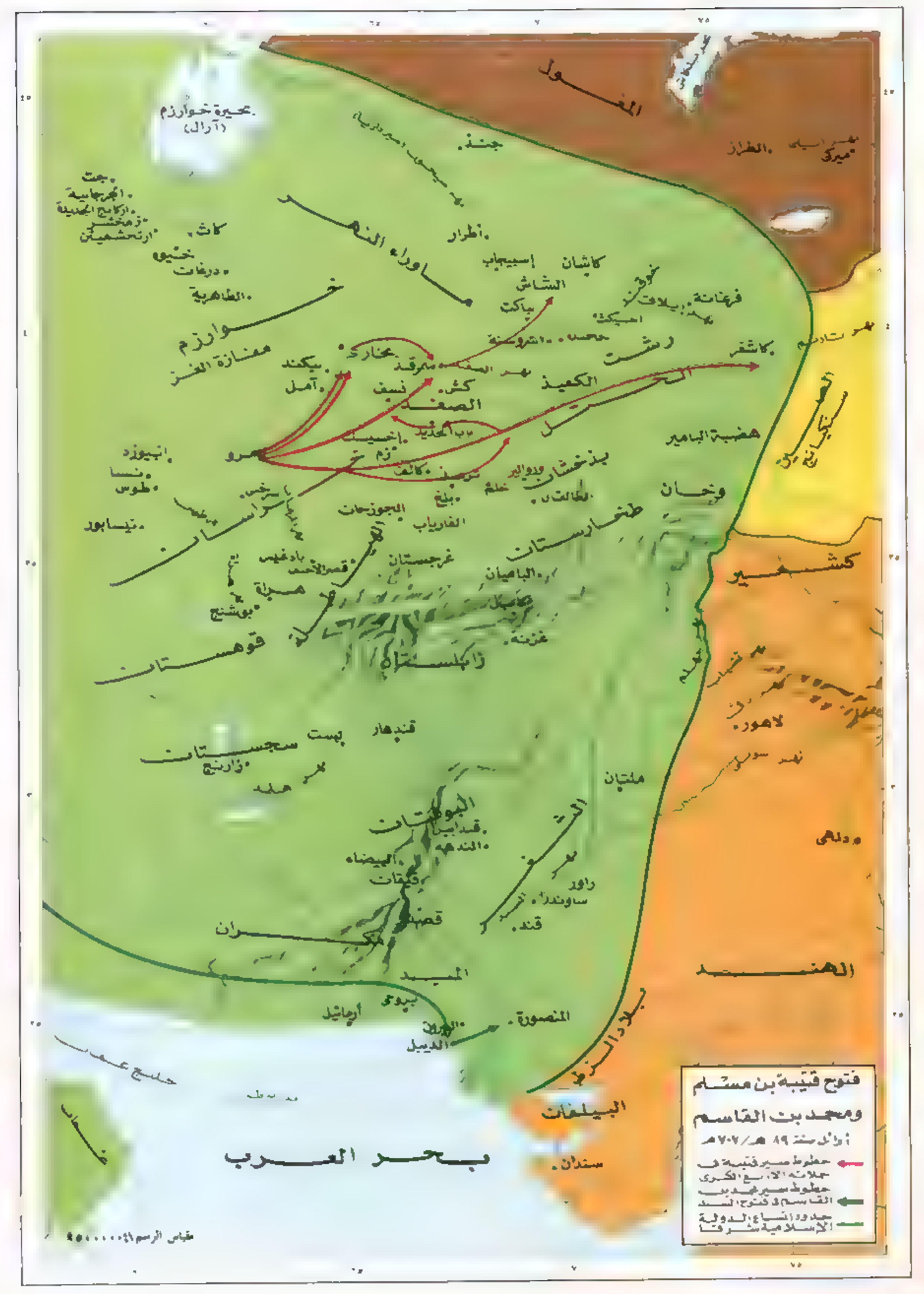

فتوح قتيبة بن مسلم
ومحمد بن القاسم
أوائل سنة ٨٩ هـ/٧٠٧م
خطوط سير قتيبة في حملاته الأربع الكبرى
خطوط سير محمد بن القاسم في فتوح السند
حدود انتهاء الدولة الإسلامية شرقاً
المغول
بحيرة خوارزم (آرال)
جند
الطراز
ما وراء النهر
أطرار
كاث
خيوه
الطاهرية
خوارزم
مفازة الغز
إسبيجاب
كاشان
الشاش
بناكت
فرغانة
كاشغر
بخارى
سمرقند
بيكند
آمل
نسف
كش
الصغد
الكميد
هضبة البامير
مرو
أبيورد
نسا
طوس
نيسابور
الجوزجان
الفارياب
بلخ
ترمذ
الطالقان
بدخشان
طخارستان
وخان
خراسان
بادغيس
غرجستان
الباميان
هراة
بوشنج
كابل
غزنة
قوهستان
زابلستان
كشمير
لاهور
قندهار
بست
سجستان
زرنج
ملتان
البوقان
قندابيل
البيضاء
قصدار
مكران
الديبل
المنصورة
السند
الهند
دلهي
بلاد الرط
البيلمان
سندان
بحر العرب
قياس الرسم ١ : ٥٠٠٠٠٠٠٠

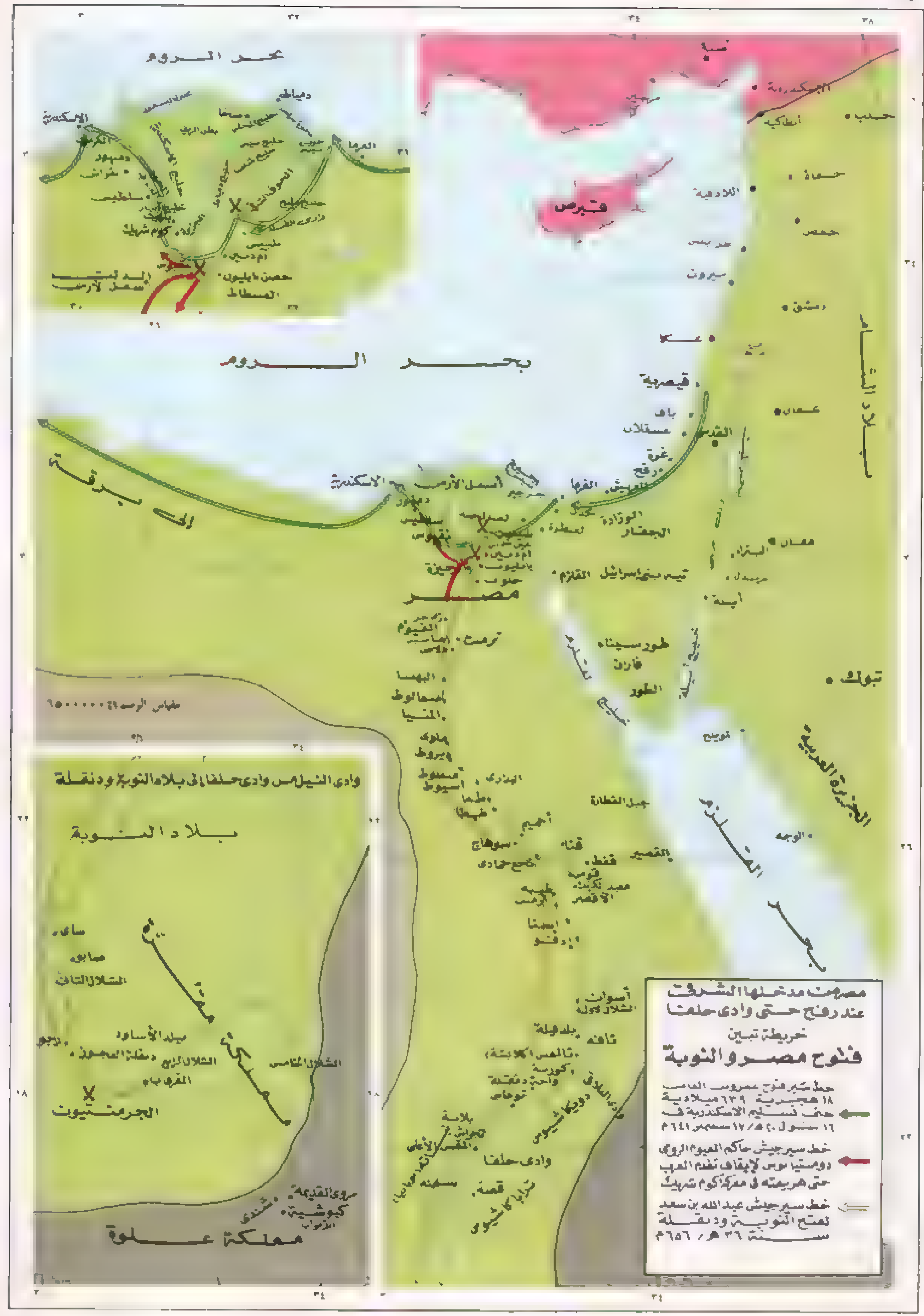

مصر من مدخلها الشرقي
عند رفح حتى وادي حلفا
خريطة تبين
فتوح مصر والنوبة
خط سير فتوح عمرو بن العاص ١٨ هجرية ٦٣٩ ميلادية حتى تسليم الاسكندرية في ١٦ شوال ٢٠هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤١م
خط سير جيش حاكم الفيوم الرومي دومنتيانوس لإيقاف تقدم العرب حتى هزيمته في معركة كوم شريك
خط سير جيش عبد الله بن سعد لفتح النوبة ودنقلة سنة ٣٦ هـ / ٦٥٦م
بحر الروم
قبرص
البلاد الشامية
الجزيرة العربية
بحر القلزم
بلاد برقة
بلاد النوبة
وادي النيل من وادي حلفا إلى بلاد النوبة ودنقلة
مملكة علوة
مصر
الإسكندرية
القدس
قيصرية
عسقلان
غزة
رفح
العريش
الفرما
دمشق
بيروت
عكا
عمان
حمص
حماة
حلب
أنطاكية
اللاذقية
تبوك
الطور
فاران
طور سيناء
أيلة
القلزم
تيه بني إسرائيل
الجفار
الفيوم
البهنسا
المنيا
أسيوط
سوهاج
أخميم
قنا
قفط
قوص
القصير
الأقصر
إسنا
إدفو
أسوان
الجرمنتيون

فتح العرب للمغرب (٢)

- حملتا عمرو بن العاص على برقة ثم طرابلس سنة ٢٢ - ٢٣هـ / ٦٤٣ - ٦٤٤م
- حملة نافع بن عبد القيس الفهري إلى زويلة سنة ٢٣هـ / ٦٤٤م
- حملة عبد الله بن سعد على إفريقية وانتصاره في سبيطلة ٢٧ - ٢٨هـ / ٦٤٨ - ٦٤٩م
- حملة معاوية بن حديج على إفريقية سنة ٤٥هـ / ٦٦٥م
- حملات عقبة بن نافع الأولى على ودان وفزان سنة ٥٠هـ / ٦٧٠ - ٦٧٥م
- حملة عقبة بن نافع الأولى وإنشاء القيروان سنة ٥٠ - ٥٥هـ / ٦٧٠ - ٦٧٥م
- حملة أبي المهاجر دينار حتى تلمسان سنة ٥٥ - ٦٢هـ / ٦٧٥ - ٦٨١م
- حملة عقبة بن نافع الكبرى سنة ٦٢ - ٦٤هـ / ٦٨١ - ٦٨٣م

مقياس الرسم ١ : ١٠٠٠٠٠٠٠

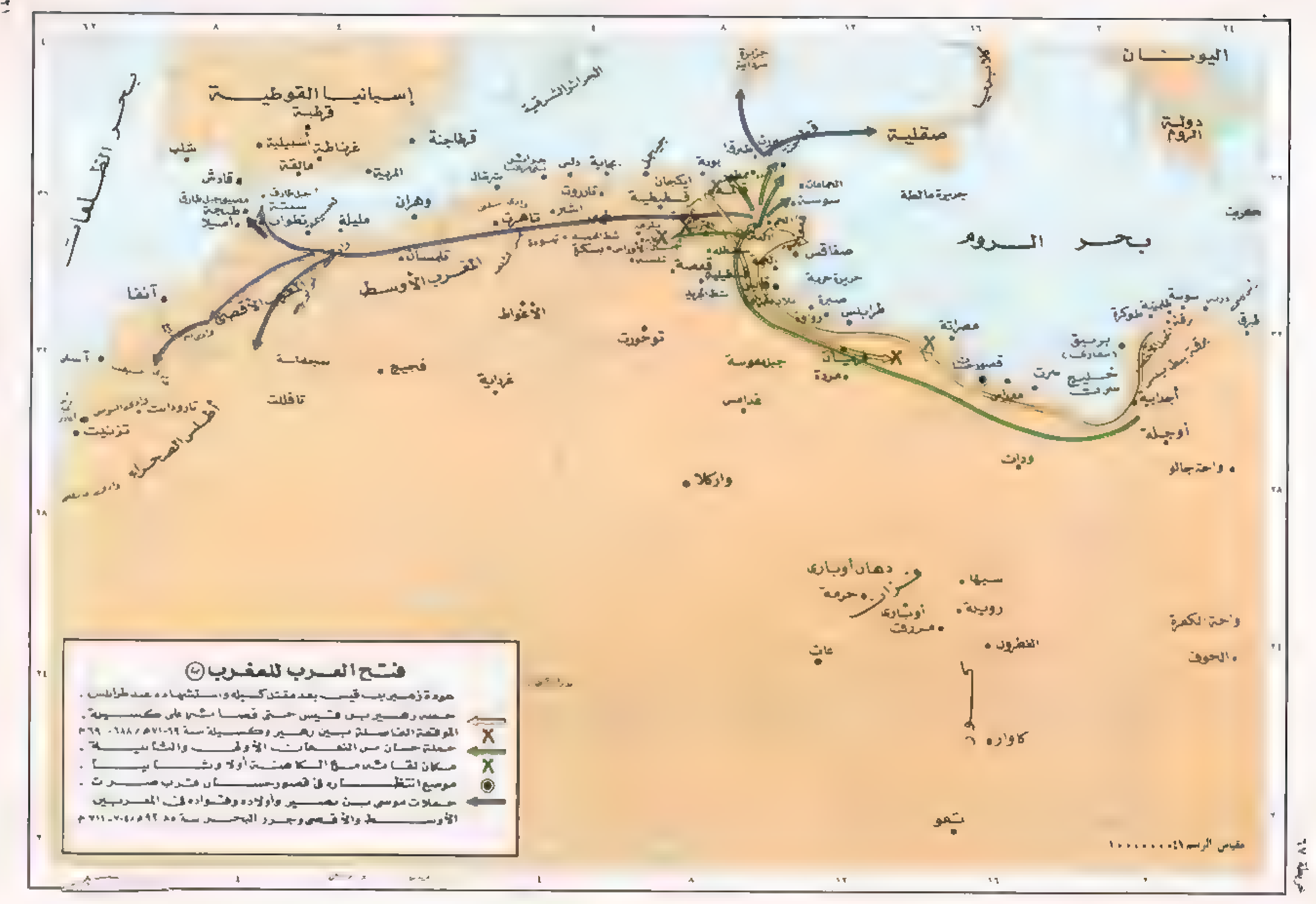

فتح العرب للمغرب
عودة زهير بن قيس بعد مقتل كسيلة واستشهاده عند طرابلس.
حملة زهير بن قيس حتى قضائه على كسيلة.
الموقعة الفاصلة بين زهير وكسيلة سنة ٦٩-٧١هـ / ٦٨٨-٦٩٠م
حملة حسان بن النعمان الأولى والثانية.
مكان لقائه مع الكاهنة أولاً وثانياً.
موضع انتظاره في قصور حسان قرب سرت.
حملات موسى بن نصير وأولاده وقواده في المغربين الأوسط والأقصى وعبور البحر سنة ٨٦-٩٢هـ / ٧٠٥-٧١١م
إسبانيا القوطية
قرطبة
غرناطة
أشبيلية
مالقة
قادش
شلب
قرطاجنة
المرية
وهران
مليلة
تطوان
طنجة
أصيلا
آنفا
آسفي
سجلماسة
تافللت
فجيج
غرداية
الأغواط
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
تلمسان
تاهرت
قسنطينة
بجاية
بونة
تيكجان
قفصة
صفاقس
سوسة
جزيرة مالطة
جزيرة جربة
صبرة
طرابلس
بحر الروم
صقلية
جزيرة سردانية
الجزائر الشرقية
دولة الروم
اليونان
مصراتة
قصور حسان
خليج سرت
برقة
أجدابية
أوجلة
واحة جالو
ودان
غدامس
جبل نفوسة
توقورت
وارقلا
دهان أوبارى
جرمة
أوباري
مرزوق
سبها
زويلة
القطرون
غات
كاوار
بلمو
واحة الكفرة
الحوف
أطلس الصحراء
تزنيت
تارودانت
مقياس الرسم ١ : ١٠٠٠٠٠٠٠

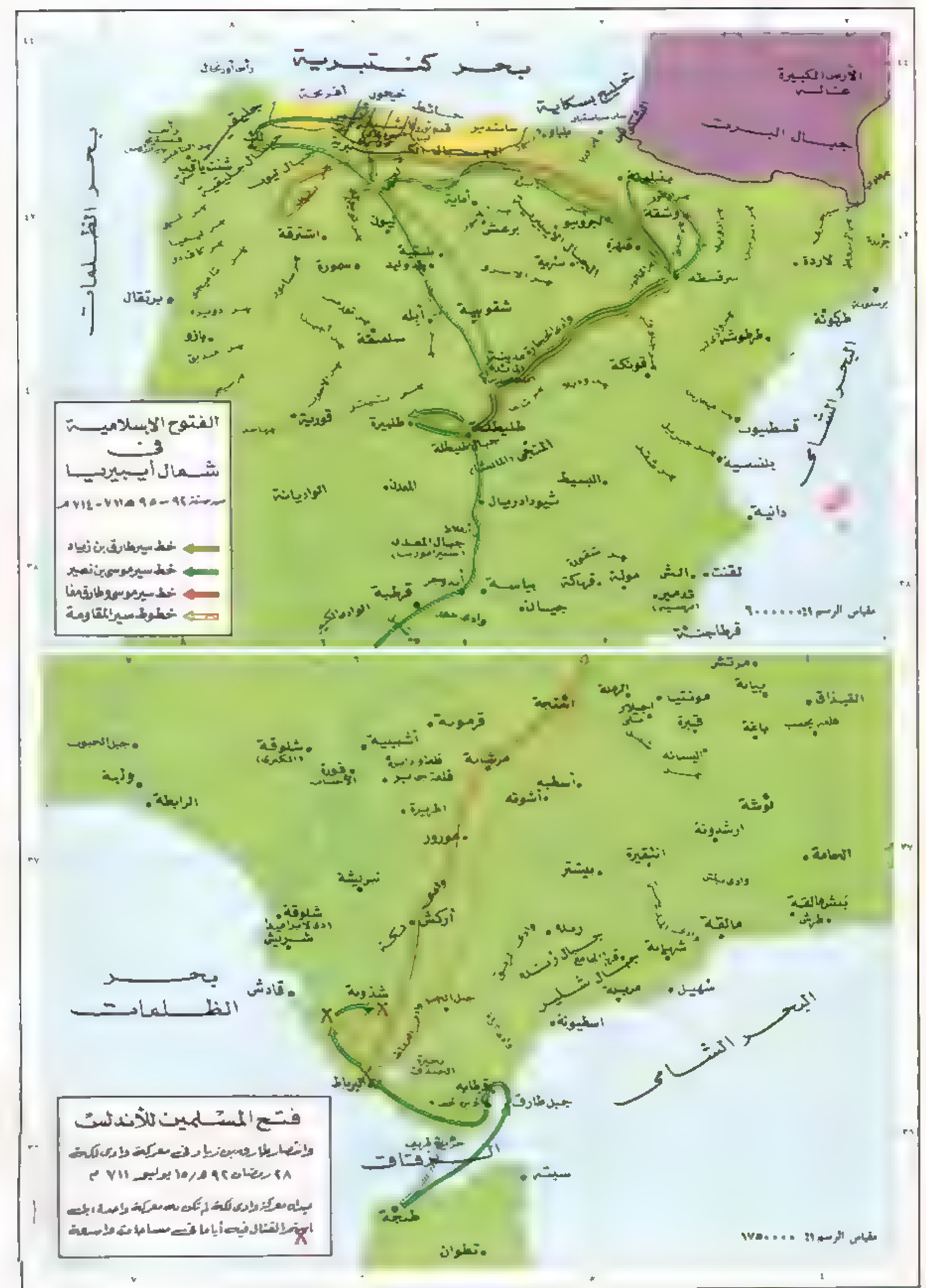
بحر كنتبرية
خليج بسكاية
الأرض الكبيرة
غالة
جبال البرت
بحر الظلمات
البحر الشامي
الفتوح الإسلامية
في
شمال أيبيريا
سنة ٩٢ - ٩٥ هـ ٧١١ - ٧١٤ م
خط سير طارق بن زياد
خط سير موسى بن نصير
خط سير موسى وطارق معا
خطوط سير المقاومة
برتقال
سرقسطة
لاردة
طركونة
طرطوشة
طليطلة
شقوبية
سلمنقة
سمورة
أسترقة
قورية
طلبيرة
البسيط
بلنسية
دانية
لقنت
قرطاجنة
قرطبة
جيان
استجة
قرمونة
أشبيلية
مرشانة
لوشة
أرشدونة
الحامة
مالقة
بيشتر
شذونة
قادش
شريش
أركش
جبل طارق
سبتة
طنجة
تطوان
بحر الظلمات
البحر الشامي
مقياس الرسم ١ : ١٧٥٠٠٠٠
فتح المسلمين للأندلس
وانتصار طارق بن زياد في معركة وادي لكة
٢٨ رمضان ٩٢ هـ / ١٥ يوليو ٧١١ م
ميدان معركة وادي لكة لم تكن معركة واحدة بل استمر القتال فيه أياما في مساحات واسعة

فتح الأندلس

٩٢ هـ – ٧١١ م

- خط سير طارق بن زياد
- خط سير موسى بن نصير
- خطوط سير عبد العزيز بن موسى
- المناطق التي فتحها المسلمون من الأندلس
- منطقة فتحها المسلمون ثم انحسروا عنها

مقياس الرسم ١ : ٥٥٠٠٠٠٠

مملكة الفرنجة
خليج بسكاي
البحر المحيط
بحر الروم
المغرب
غاليه
جبال البرت
الثغر الأوسط
الثغر الأعلى
أسبانيا القوطية
خيخون
استورياس
جليقية
شانت ياقب
أستركة
ليون
برتقال
سمورة
بلدوليد
شلمنقة
شقوبية
طليطلة
قلمرية
قورية
ماردة
بطليوس
باجة
شنترين
أشبونة
لبلة
إشبيلية
قرمونة
قرطبة
إستجة
الوادي الكبير
شذونة
قادش
معركة وادي لكه
الجزيرة
جبل طارق
سبتة
طنجة
تطوان
أصيلا
العرائش
القصر الكبير
مالقة
البيرة
غرناطة
المرية
مرسية
قرطاجنة
لقنت
شاطبة
دانية
بلنسية
مورقة
يابسة
طرطوشة
طركونة
برشلونة
جرندة
لاردة
سرقسطة
وشقة
ببلونة
ناربونة
قرقشونة
وهران
تلمسان
مليلة
جزائر بني مزغنا
وادي لكه

فتوح المسلمين في غالة (فرنسا)
سنة ١٠٠هـ - ١٤١هـ / ٧١٧م - ٧٥٨م
حملة عبد العزيز بن موسى
حملة الحر بن عبد الرحمن الثقفي
حملة السمح بن مالك الخولاني
حملة عنبسة بن سحيم
حملة عبد الرحمن الغافقي
حملة قارله (شارل مارتل)
بلاد الإنقليشيين (إنجلترا)
بحر الظلمات
برطانيا
باريس
ديجون
أوتان
شالون
تور
بلاط الشهداء
بواتييه
بوردو
أقطانية
طولوشة
تولوز
أربونة
بحر الروم
قرسقة
بلاد انكبردة
بافية
مقياس الرسم ١ : ٩٥٠٠٠٠٠

خريطة ٥٦

الاتصال بين مغازى الرسول ﷺ والفتوح الإسلامية فى عصر الراشدين

بدأنا هذا الفصل بخريطة تبين أن فتوح المسلمين فى العصر الراشدى كانت استمراراً لمغازى رسول الله ﷺ ، وتنفيذاً لتوجيه منه للخطوات الأولى لمسار حركة التوسع بعده . وقد بينا على هذه الخريطة كل مغازى الرسول وسراياه إلى شمال شبه الجزيرة . وكان اهتمام الرسول متجهاً إلى الشمال بصفة خاصة ، لأن مغازى الإسلام كان لابد أن تستمر من بعده حتى يشمل الإسلام الأرض ومن عليها . وعندما ندرس مغازى الرسول على أنها كل واحد مترابط من البداية إلى النهاية نلاحظ أن اتجاه اهتمام الرسول إلى الشمال بدأ من وقت مبكر ، ولكنه اتصل وتوالى بعد معركة الخندق التى أثبتت أن الإسلام أقوى قوة فى الجزيرة ، وأن أمة الإسلام أصبحت قوة عسكرية منظمة متماسكة تستطيع أن تجمع جزيرة العرب كلها حول راية الإسلام أولاً ، ثم تتجه بكل القوة العربية للفتوح خارجها

وإليك بيان هذه المغازى المتجهة إلى الشمال بأرقامها الواردة بها على الخريطة . وقد وضعنا هذه الأرقام لهذه الخريطة خاصة ، وهى تختلف عن الأرقام التاريخية التى وضعناها لغزوات الرسول كلها فى دراسة أخرى . وقد أطلقنا هنا اسم الغزوة على الأعمال العسكرية التى قادها الرسول بنفسه ، ومصطلح السرية على تلك التى قادها قادة اختارهم :

(١) **السرية «١»** : وهى رقم (٢٨) اتجهت إلى خيبر ، وقادها عبد الله بن عتيك للتخلص من أبى رافع بن أبى الحقيق عدو الإسلام فى المحرم ٥ هـ / يونيو ٦٢٦ م .

(٢) **غـزوة «٢»** : اتجهت إلى دومة الجندل ، وهى رقم (٢٩) لاستطلاع الأحوال هناك . والسبب المباشر للغزوة عدوان البدو فى منطقة دومة الجندل على التجار الذين يفدون إلى المدينة بالدقيق والزيت من سوق دومة الجندل . ربيع الأول – ربيع الثانى ٣ هـ / أغسطس – سبتمبر ٦٢٦ م .

(٣) **غـزوة «٣»** : رقم (٣٦) وتسمى غزوة الغابة ، ووصلت حتى المستناخ قرب خيبر ؛ لتتبع عيينة بن حصن وعدد من الأعراب أغاروا على سرح المدينة ، وسرقوا لقاحاً ، وقتلوا ابن أبى ذر ، واستنقذت بعض اللقاح ، وقتل حبيب بن عيينة بن حصن . ربيع الثانى ٦ هـ / أغسطس ٦٢٧ م .

(٤) **سـرية «٤»** : وتسمى سرية الغَمْر ، قرب بلاد أسد على ليلتين شرق فيد ، ربيع الثانى ٦ هـ / أغسطس – سبتمبر ٦٢٧ م .

(٥) **سـرية «٥»** : تسمى العيص على ليلتين شمال غرب المدينة وعلى ليلة من ذى خشب . وقد هاجمت قافلة لقريش سارت فى طريق التجارة ، وكان فيها فضة كثيرة لصفوان بن أمية ، وقادها زيد بن حارثة . جمادى الأولى ٦ هـ / سبتمبر – أكتوبر ٦٢٧ م

(٦) **سـرية «٦»** : سرية حِسْمَى إلى بلاد جذام وقضاعة وبعض غطفان ، يقودها زيد ابن حارثة تمهيداًالطريق إلى بلاد نصارى العرب فى جمادى الثانية ٦ هـ / أكتوبر – نوفمبر ٦٢٧ م .

(٧) **سـرية رقم «٤٤»** : وجهتها وادى القرى إلى بلاد فزارة من بنى بدر من غطفان ، لتأديبهم على الاعتداء على زيد بن حارثة عندما خرج فى تجارة فى رجب ٦ هـ / نوفمبر ديسمبر ٦٢٧ م .

(٨) **سـرية رقم «٤٥»** : قادها عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل ؛ لتأديب نفر من بنى كلب بن وبرة من قضاعة ويغلب أنهم من نصارى العرب فى شعبان ٦ هـ / ديسمبر ٦٢٧ – يناير ٦٢٨ م .

(٩) **سرية فدك رقم «٤٦»** : قادها على بن أبى طالب إلى منازل بنى سعد بن بكر ابن هوازن بن منصور عند فدك فى شعبان ٦ هـ / ديسمبر ٦٢٧ – يناير ٦٢٨ م .

(١٠) **سرية أم قرفة رقم «٤٧»** : قادها زيد بن حارثة لتأديب أم قرفة فى وادى القرى ، وكانت شديدة العدوان على الإسلام والمسلمين ، وقد قتلتها السرية فى رمضان ٦ هـ / يناير – فبراير ٦٢٨ م .

(١١) **سرية رقم «٤٩»** : قام بها عبد الله بن رواحة إلى خيبر لاستطلاع الأحوال فيها بعد أن تولى رياستها أُسير بن رازم بعد مقتل أبى رافع . أقام ثلاثة أيام مستخفياً ثم عاد بما جمع من المعلومات . شوال ٦ هـ / فبراير – مارس ٦٢٨ م .

(١٢) **سرية عبد الله بن رواحة و ٣٠ رجلاً فيهم عبد الله بن أنيس إلى خيبر للتخلص** من أُسير بن زارم ، وعبد الله بن أنيس هو الذى قتله .

(١٣) **غـزوة رقم «٥٥»** : وهى غزوة الاستيلاء على خيبر ووادى القرى واستسلام فدك ، وقد قادها الرسول ﷺ فى صفر أو ربيع الأول ٧ هـ / يونيو أو يوليو ٦٢٨ م ؛ وأرسل فى نفس الوقت مُحيِّصة بن مسعود إلى فدك فاستسلمت وفى طريق العودة من خيبر فتح وادى القرى عنوة ، واستسلمت تيماء ، وبذلك تمت السيطرة على شمال الحجاز وأخضع ساحقه .

(١٤) **سرية الجناب رقم «٦٤»** : قادها بشير بن سعد الأنصارى ضد بنى غطفان ، وقد حرضهم عيينة بن حصن ، وقد فر الغطفانيون فى شوال سنة ٧ هـ / فبراير ٦٢٩ م .

(١٥) **سرية رقم «٦٨»** : وقادها كعب بن عمير الغفارى إلى ذات أطلاح فى البلقاء بلاد الشام من أرض عرب الروم . وقد قتل معظم المسلمين (وكانوا ١٥ رجلاً) واستطاع واحد منهم العودة إلى المدينة ، وأبلغ الرسول ﷺ فى ربيع الأول ٨ هـ / يونيو ٦٢٩ م

(١٦) **سرية مؤتة رقم «٧٠»** : قادها زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله ابن رواحة ثم خالد بن الوليد إلى مؤتة فى قلب بلاد عرب الروم وجنوبى بلاد غسان . والسبب المباشر هو قتل شرحبيل بن عمرو الغسانى للحارث بن عمير الأسدى رسول رسول الله إلى حاكم بصرى . وانتهت بانسحاب المسلمين ومقتل القواد الثلاثة ، وعودة خالد بن الوليد بالجيش . جمادى الأولى ٨ هـ / سبتمبر ٦٢٩ م .

(١٧) **سرية ذات السلاسل رقم «٧١»** : وهدفها غزو بعض نصارى العرب من فروع قضاعة شمال وادى القرى وشمالها الغربى . وذات السلاسل على ساحل البحر جنوب ضبا ، وقد قادها عمرو بن العاص . ولم يحدث قتال يذكر وكانت فى جمادى الثانية ٨ هـ / شوال ٦٢٩ م .

(١٨) **سرية الخبط رقم «٧٢»** : إلى بلاد جهينة على ساحل البحر الأحمر جنوبى ذات السلاسل ، بقيادة أبى عبيدة عامر بن الجراح ؛ للتأكد من ولاء جهينة فى رجب ٨ هـ / نوفمبر ٦٢٩ م .

(١٩) **سرية الفلس رقم «٨٢»** : قادها على بن أبى طالب إلى بلاد طيىء فى جبال شمر ، وقد هرب عدى بن حاتم وأسر المسلمون أخته سفانة فأسلمت ، ثم عاد أخوها وأسلم - ربيع الثانى ٩ هـ / يوليو - أغسطس ٦٣٠ م .

(٢٠) **غزوة تبوك رقم (٨٩)** : قادها الرسول ، وهى غزوة العسرة إلى أرض غسان ولم تجد الروم . وفى أثنائها أرسل الرسول خالد بن الوليد ففتح دومة الجندل فى أرض كندة ، رجب - رمضان ٩ هـ / أكتوبر ٦٣٠ م .

(٢١) **سرية أسامة بن زيد رقم «٩٠»** : وقد أعدت بأمر الرسول قبل مرضه ، وحرص على تنفيذها وهو على سرير المرض ، وأنفذها أبو بكر بعد موت الرسول فى ربيع الأول سنة ١١ هـ / يونيو ٦٣٢ م ، ووصلت إلى أبنى داخل فلسطين .

وهكذا نرى أن عين الرسول لم تغفل قط عن شمال الجزيرة ، فقد كانت سريته الأولى إلى خيبر فى المحرم سنة ٥ هـ / يونيو ٦٢٦ م . ولكن مغازيه وسراياه إلى الشمال اتصلت وتتابعت بعد الحديبية ، لأن أوان إدخال شمال شبه الجزيرة فى الخطة الشاملة للمغازى قد جاء ، واستمر النشاط حتى تبوك ، ثم تأتى سرية زيد بن حارثة للدخول فى فلسطين ، وهى كانت أرض الروم وعرب الروم ، وتجىء فتوح أبى بكر والعصر الراشدى استمراراً للخطة المحمدية .

وهكذا نرى أن خطة نشر الإسلام فى جزيرة العرب أولاً ثم إلى بقية بلاد الدنيا قد نفذت تحقيقاً لما قرره القرآن من ضرورة استمرار الجهاد حتى يصبح الدين كله على وجه الأرض لله سبحانه .

خريطة ٥٧

بلاد الشام والجزيرة فى العصر البيزنطى قبل الفتح الإسلامى

خريطة ٥٨ ، خريطة ٥٩

فتوح الشام

يستوقف النظر أن أبا بكر عندما شرع فى فتح الشام أرسل أربعة جيوش ، مع أن المنطق يقول إنه كان يكفى أن يرسل جيشاً واحداً يجمع كل القوات التى أرسلها لتكون أقوى وأقدر على النصر . ولكن أبا بكر أرسل أربعة جيوش :

(١) **جيش يقوده يزيد بن أبى سفيان** ، ووجهته دمشق ، وأمره أن يسلك طريق تبوك .

(٢) **جيش يقوده شرحبيل بن حسنة** ، ووجهته الأردن ، وأمره أن يسلك طريق تبوك .

(٣) **جيش يقوده أبو عبيدة بن الجراح** ، ووجهته حمص ، ومركز القيادة الجابية .

(٤) **جيش يقوده عمرو بن العاص** ، ووجهته فلسطين ، وأمره أن يسلك طريق أيلة .

أما السبب فى إرسال أربعة جيوش فتوضحه هذه الخريطة

ذلك أن بلاد الشام البيزنطية كانت مقسمة إلى الأقسام الإدارية المبينة على الخريطة ، ولكنها عسكرياً كانت أربعة أقسام هى :

(١) **فلسطين كلها : وقاعدتها المدنية القدس ، والعسكرية عكا .**

(٢) **بلاد سورية أو دمشق وهى** : أربعة أقسام : سورية الأولى وسورية الثانية وفينيقيا الساحلية وفينيقيا اللبنانية وقاعدتها دمشق

(٣) **أنطاكية** : وتشمل سورية الثانية وولاية الفراتية .

(٤) أما ما سماه العرب «بالأردن» فيشمل بلاد غسان ومايليها شرقاً من البلاد التى تسكنها قبائل عربية من صدرى العرب وأهمها هنا بقايا قضاعة ، وأهمها كلب بن وبرة ، وبلى ، وعذرة ، وبنو القين ، وبعض بطون جهينة ممن يسكنون شمالى تيماء وبلاد هؤلاء هى التى تسمى ريف قضاعة

وهذا التصور هو الذى جعل أبا بكر يرسل أربعة جيوش ، لأن الحقيقة أنها كانت مستقلة بعضها عن بعض ، لايجمعها إلا نائب قيصر الروم المقيم فى أنطاكية ، ومعه أسقف أنطاكية

وقد تبين له بعد ذلك أن هذه الخطة لم تكن المثلى . لأن الجيوش كان ينبغى أن تتجمع ، وهذا هو الذى حدث قبيل اليرموك

وكانت عدة كل جيش أولاً ٣٥٠٠ رجل ، ولكن أبا بكر جعل يزيدها حتى أصبح كل جيش ٧٥٠٠ رجل ، ماعدا جيش عمرو بن العاص فقد ظل ٣٠٠٠ رجل ، ويقول الواقدى إن عددهم تام فى النهاية إلى ٢٤٠٠٠ رجل ، والحقيقة أن عدة المقاتلين بعد قدوم خالد ٣٣٠٠٠ رجل .

ترتيب حوادث فتح الشام

هناك خلط كثير عند مؤرخى العرب فى ترتيب حوادث فتح الشام (كما نرى عند البلاذرى) وقد رأيت أن أفضل طريقة لترتيب نسق الحوادث هو أن آتى أولاً بترتيب الحوادث معتمداً فى ذلك على مراجعنا العربية وتيوفانس المؤرخ البيزنطى فى كتابه Chronograjhia ومعناه التوقيت . وبناء على ترتيب التواريخ ترتيب الحوادث

الحادثة	التاريخ
(١) تعيين أمراء الجيوش الأربعة	٤ ربيع الثانى ١٢ هـ / ١٨ يونيو ٦٣٣ م
(٢) خروج يزيد بن أبى سفيان بجيشه إلى دمشق	٢٤ رجب ١٢ هـ / ٤ أكتوبر ٦٣٣ م
(٣) سقوط دومة الجندل فى يد خالد بن الوليد .	٢٤ رجب ١٢ هـ / ٤ أكتوبر ٦٣٣ م
(٤) خروج شرحبيل بن حسنة بجيشه إلى الأردن	٢٧ رجب ١٢ هـ / ٧ أكتوبر ٦٣٣ م
(٥) خروج أبى عبيدة بن الجراح بجيشه إلى حمص .	٧ شعبان ١٢ هـ / ١٧ أكتوبر ٦٣٣ م
(٦) استقرار خالد بن سعيد فى تيماء أو ارتداده إلى تيماء وإقامته فيها ردءاً للمسلمين .	١٤ شعبان ١٢ هـ / ٢٤ أكتوبر ٦٣٣ م
(٧) خروج عمرو بن العاص بجيشه إلى فلسطين	
معركة العربة فى فلسطين	٢٤ ذو الحجة ١٢ هـ / ١ مارس ٦٣٤ م
معركة داثن فى فلسطين	٣ محرم ١٣ هـ / ١٠ مارس ٦٣٤ م
(٨) خروج خالد بن الوليد من الحيرة إلى الشام .	٨ صفر ١٣ هـ / ١٤ أبريل ٦٣٤ م
(٩) خالد يفتح بصرى فى الشام	٢٥ ربيع أول ١٣ هـ / ٣٠ مايو ٦٣٤ م
(١٠) معركة أجنادين	٢٧ جمادى الأولى ١٣ هـ / ٣٠ يوليو ٦٣٤ م
(١١) معركة مرج الصفر	١٦ جمادى الآخرة ١٣ هـ/ ١٨ أغسطس ٦٣٤م
(١٢) معركة فحل - بيسان وجه الروم قواتهم إلى فحل وبيسان ، وتوجه إليهم المسلمون وهزموهم ، وعادوا إلى حصار دمشق	٢٨ ذو القعدة ١٣ هـ / ١٣ يناير ٦٣٥ م
(١٣) تسليم دمشق بعد الحصار كتاب الصلح	رجب ١٤ هـ / ٣ سبتمبر ٦٣٥ م ربيع الآخرة ١٥ هـ
(١٤) تسليم بعلبك صلحا حوالى	٢٥ ربيع الأول ١٥ هـ / ٦ مايو ٦٣٦ م
(١٥) فتح حمص	٢١ ربيع الآخر ١٥ هـ / أول يونيو ٦٣٦ م
(١٦) معركة اليرموك	٥ رجب ١٥ هـ / ١٢ أغسطس ٦٣٦ م
(١٧) تسليم القدس	ربيع الآخر ١٦ هـ / مايو ٦٣٧ م

المعارك وسير الجيوش والقتال

(١) فى أول الأمر اتجه كل قائد مسلم بمن معه من جنود لفتح الجهة التى وجهه الخليفة إليها .

ولكنهم تبينوا صعوبة فتح الشام بهذا الأسلوب ، ولابد من مدد ، ولابد من تجميع الجيوش فى موضع واحد .

(٢) بعد أن هزم يزيد الروم فى عربة ثم داثن وقف عمرو بن العاص بجنده جنوب أجنادين .

(٣) أبو بكر يسارع بأمر خالد بن الوليد بأن يسرع بنصف من معه (٩ آلاف) إلى الشام ، فيسير فى الطريق المبين على الخريطة ويقتحم بصرى ، ثم يتجه إلى دمشق لحصارها ومنها إلى أجنادين وينضم إلى عمرو بن العاص وأبى عبيدة ويزيد وشرحبيل ، وتدور المعركة وينتصر المسلمون نصراً مؤزراً ، ويقتل قائد الروم .

واتجه المسلمون بعد ذلك إلى دمشق ومروا بمرج الصفر ، وهناك انتصروا على الروم فى مرج الصفر بعد أجنادين بشهر .

فى نفس الوقت وجه الروم قواتهم إلى فحل وبيســـان ، فرجع إليهم المسلمون من حول دمشق وكانت معركة حامية انهزم الروم فيها انهزاماً تاماً وتفرقوا فى كل ناحية .

ثم اتجه المسلمون إلى دمشق وحاصروها حتى سقطت فى ١٥ رجب ١٤ هجرية / ٣ سبتمبر ٦٣٥ ميلادية .

وبعد ذلك اتجه المسلمون إلى بعلبك واستسلمت حوالى ٢٥ ربيع الأول سنة ١٥ هـ ، ثم ساروا إلى حمص وافتتحوها فى شهر ربيع الآخر ١٥ هجرية .

وبعد ذلك جمع الروم كل مااستطاعوا من جند وفرسان وعدة حربية للقاء المسلمين فى معركة حاسمة نهائية ، وأحس المسلمون بذلك فتجمعوا على نهر اليرموك فى موقع الواقوصة ، وهو منعرج فى النهر حاصروا الروم فيه . وتم نصر المسلمين فى معركة اليرموك بقيادة خالد بن الوليد ، وأبى عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان وجميع قوات المسلمين . وتم النصر الحاسم النهائى فى ٥ رجب ١٥ هـ ، وانسحبت بقايا الروم إلى أنطاكية وبارحها هرقل عائداً إلى بلاده ، ومضى المسلمون يستكملون فتوح الشام على مهل حتى وصلوا حلب .

وطلب أهل القدس أن يسلموا بلدهم للخليفة عمر بنفسه ، فذهب إليهم فتسلمها فى ربيع الآخر ١٦ هـ .

عقد عمر مؤتمر الجابية لقواده ؛ لتنظيم فتح بقية بلاد الشام ، ووضع نظام حكم البلاد . وفى هذا المؤتمر تقرر فتح مصـــــر .

فتـــح قبـــرص

رفض عمر بن الخطاب أن يأذن لمعاوية والى الشام فى فتح قبرص ، ولكن عثمان أذن له فى ذلك ، فغزاها معاوية سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م ورافقه عبادة بن الصامت مع امرأته أم حرام بنت ملحان . ودخلت الجزيرة فى طاعة المسلمين وأدى أهلها الجزية ، وفى نفس الوقت ظلوا يؤدون للروم مثل تلك الجزية . فكأن الجزيرة أصبحت تابعة للروم والمسلمين فى نفس الوقت . لكن غزو قبرص الحقيقى كان سنة ٣٤ أو ٣٥ هـ / ٦٥٤ — ٦٥٥ م عندما نقض أهل قبرص العهد وساعدوا الروم على المسلمين ، فغزاهم معاوية فى اثنى عشر ألفاً كلهم أهل ديوان ، ونقل إليها جماعة من أهل بعلبك فبنوا المساجد ، وكثر فيها المسلمون ، وبنوا مدينة . فلما جاء يزيد بن معاوية أقفل المسلمين وهدم المدينة فأنكر المسلمون ذلك ، فردهم إلى الجزيرة يزيد بن عبد الملك . ثم غزاهم حُميد بن معيوف الهمدانى أيام الرشيد وثبتت الجزيرة للمسلمين بعد ذلك .

خريطة ٦٠

بــلاد الشـــام

خريطة مواقع وأعلام جغرافية وتاريخية بعد الفتح الإسلامى

فتــح العـــراق

لم يستغرق فتح العراق إلا سبع سنوات .

فقد بدأ فى محرم ١٢ هـ / مارس - إبريل ٦٣٣ م .

وانتهى فعلاً فى سنة ١٩ هـ / ٦٤٠ م بموقعة نهاوند التى تسمى فتح الفتوح ، وقد كان فتح العراق من أعسر الفتوح الإسلامية نظراً لصعوبة الأرض ومجارى المياه .

وقد تحمل العرب فيه خسائر كبيرة . ونستطيع أن نقسمه إلى ثلاث مناطق تختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً وهى :

(١) **منطقة غربى نهر الفرات** ، وهى منطقة صحراوية فى الغالب ، ولكن فيها مراكز عمران كبيرة أهمها بلاد الحيرة ، وهى بلاد واسعة تمتد جنوب وغرب نهر الفرات ، وهى غنية بالماء فى بعض المساحات ، وسكان هذه المنطقة عرب من لخم ، والأزد ، وتغلب ، والنمر بن قاسط ، وغيرها . هنا كانت مملكة المناذرة اللخميين . وكانت تابعة لدولة الأكاسرة الفرس ، تؤمنها من ناحية بدو العرب الضاربين شمالى غرب الجزيرة العربية ، وفى بادية الشام . ويقدم لها الفرس المعونات العسكرية والمالية . والحال هنا يشبه ماكان بين الغساسنة والروم . وقد تحدثنا عن ذلك فى فتوح الشام . وكانت بعض قبائل العرب هناك مسيحية ، ولكن كانت هناك ديانة محلية أخرى يسمى أتباعها بالعباد ، يغلب أنها مذهب من المسيحية متأثر بعقائد الفرس

(٢) **منطقة العراق** وهى الجزء الجنوبى من بلاد مابين النهرين ، ويصل شمالاً إلى شمال **منطقة طيشفون** حتى مدينة الموصل ، وهى بلاد كثيرة المياه والأنهار والمدن ، وكانت جزءاً من دولة الفرس ، بل كانت هناك عاصمتها ، وهى طيشفون التى سماها العرب المدائن إلى الجنوب . وسكان هذه المنطقة من أهل العراق القدامى من بابليين وأشوريين وكلدان ، وغالبيتهم العظمى زراع ، وكانوا خاضعين لسلطان فارسى ثقيل الوطأة ، وهؤلاء كانوا فى الحقيقة من أكبر أهداف الفتح الإسلامى ، فقد كان المسلمون يريدون تخليصهم من نير الفرس وعرض الإسلام عليهم ، وهذا هو الذى حدث بعد أن قضى المسلمون على سلطان الفرس ، وأزالوا دولة آل ساسان ، فقد عرف أهل العراق الإسلام وتركوا ماكانوا عليه من زردشتية ومانوية ودخلوا فيه ، وهاجر إلى بلادهم كثير من العرب ، واستقروا فى الأرض إلى جانب أهل العراق ، وبدأ الامتزاج الذى نشأ عنه فى النهاية أهل العراق المستعربون ، ثم العرب المسلمون .

(٣) **منطقة الموصل والجزيرة** وهى الجزء الشمالى من بلاد مابين النهرين . وهى بلاد واسعة جداً يسكنها عراقيون قدماء وفرس وأكراد وأرمن وأجناس أخرى . وهذه المنطقة كانت فارسية حتى مجرى نهر الخابور ، وتقع على التقائه بنهر الفرات مدينة قرقيسياء Circesium . والقسم الفارسى الشرقى من بلاد الجزيرة كان يسكنه عراقيون وأكراد وفرس وأرمن ، ولكنه كان فى جملته بلاداً قليلة السكان ، وإن كان غنياً بأراضيه الخصبة ومياهه الوفيرة ومرتفعاته التى تخرج أجمل الفواكه ، ولهذا كثر نزوح القبائل العربية واستقرارها فيه بعد الفتح ، وهنا نجد ديار بكر وديار ربيعة وديار مضر . وهذه الهجرات العربية هى التى عربت هذا الإقليم وجعلته من أغنى بلاد العروبة . أما مايلى نهر الخابور غرباً فكان ولايات بيزنطية رومية يسكنها كثير من الأرمن والمسيحيين ، ولكن الإسلام انتشر فيها انتشاراً واسعاً بعد الفتح وهاجر الكثير من أرمنها إلى إرمينية ، وفى أثناء الحروب الصليبية نقل الصليبيون — الذين أقاموا هناك إمارة الرها — الكثير من أرمنها إلى منطقة الجبل فى آسيا الصغرى فنشأ مايسمى بإرمينية الصغرى ، وقد أزالتها إحدى الغزوات الأتراك فيما بعد ، ثم انتقل معظم سكانها إلى شرق آسيا الصغرى وبلاد إرمينية .

وقد فتح العرب بلاد العراق من الجنوب والجنوب الشرقى .

أما بلاد الموصل فقد بدأ فتحها من الجنوب ، ولكن فتحها الحقيقى كان من شمال الشام .

وبعد هذه النظرة العجلة إلى العراق ومافيه ومن فيه ندخل فى الكلام عن فتوح الإسلام له .

والتفاصيل كثيرة جداً لدينا عن فتوح العراق ، سواء فى مراجعنا القديمة التقليدية أو الحديثة ، وبخاصة الدراستان القيمتان اللتان كتبهما الأستاذ أحمد عادل كمال عن « الطريق إلى المدائن » ثم « القادسية » .

وتنقسم فتوح العراق إلى خمس مراحل بيناها على الخرائط :

خريطة ٦١

العراق « خريطة مواقع وأعلام جغرافية »

كما هو تقليدنا فى فصول هذا الأطلس نبدأ بخريطة عامة لأهم المواقع التاريخية والجغرافية . وفى مثل هذه الخرائط نجمع كل ماتمس إليه الحاجة من المواقع التاريخية والجغرافية دون تقيد بعصر معين . فأمثال هذه الخريطة تعين على فهم تاريخ الإقليم فى كل عصور تاريخه التى سيتناولها هذا الأطلس .

خريطة ٦٢

فتوح العراق حتى معركة نهاوند

المرحلة الأولى :

هي مرحلة بداية هذا الفتح .

بعد أن انتصر المسلمون في حرب الردة وعادت وحدة الأمة وثبتت ثقة العرب في دولتهم الناشئة تقدم شيخ قبيلة شيبان ، وهي من أقوى القبائل الضاربة قرب الحيرة – واسمه المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم الشيباني – وأخذ يناوش جماعات الفرس القريبة من منازل قبيلته شيبان ، وكانت مسالح الفرس هنا تقع في بلاد المناذرة اللخميين عملاء الفرس ، فبلغ ذلك أبا بكر الصديق ، فسأل عن المثنى ، فقال له قيس بن عاصم بن سنان المنقرى : هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد . هذا المثنى بن حارثة الشيباني . والمثنى جدير بهذا الثناء فقد دل أثناء الفتوح على أنه كان من أصدق المسلمين ، وأكثرهم إخلاصاً ، وأبعدهم عن الأنانية ، وأنبههم نقيبة ، وأكثرهم شهامة ، وأعزهم مكاناً ، فقد قدم الكثير جداً ، وأبلى أحسن البلاء دون أن يطلب لنفسه شيئاً ، ودون أن يتلقى من الإدارة الإسلامية مايستحق من الثناء والتقدير . ولما سمع ذلك أبو بكر اطمأن ، ثم وفد المثنى بن حارثة على أبي بكر واستأذنه في غزو الفرس فأذن له ، فكتب له أبو بكر عهداً ، فسار حتى نزل خفّان ، ودعا قومه إلى الجهاد فاستجابوا ، وساروا معه . وتقدم المثنى إلى خفّان ، ثم وقف في انتظار تعليمات أبي بكر .

المرحلة الثانية .

خالد بن الوليد وقواده يبدءون فتح العراق .

فتح الحيرة في ذى القعدة ١٢ هـ / يناير ٦٣٤ م .

واختار أبو بكر خالد بن الوليد لقيادة هذا الفتح ، فتقدم خالد إلى اليمامة ، وخرج منها مع قواده الذين سيرد ذكرهم في سياق هذا الكلام ومعه نفر من جنوده ، وتوجه إلى الحيرة . وكان أبو بكر قد أمر خالداً بأن يتجه إلى الحيرة في حين يتجه عياض بن غنم بقوة من جند إلى دومة الجندل ليفتحها ، ثم ليستعمل بعد ذلك مع خالد بعرق وقد وجد عياض صعوبة في فتح دومة الجندل ، واضطر خالد إلى العودة إليه لفتحها ، واستخلاص عياض بن غنم . وقد انضم عياض بجيشه إلى قواد خالد . وسنرى فيما بعد أنه سيكون صاحب فضل كبير في فتح الموصل من ناحية الشام .

وبدأ خالد في أول محرم ١٢ هـ / مارس ٦٣٣ م ففتح مع قواده ذات السلاسل والأبلة . وانضم إلى خالد قطبة بن قتادة الذهلي ومعه قومه من ذهل بن شيبان ، وكانوا يعدون فتح الأبلة فتحهم مع خالد ، ثم تقدم عقب خالد شريح بن عامر بن عوف من بني سعد بن بكر بن هوازن وكانت الأبلة تسمى فرج العراق أي مدخله ، وكانت مسلحة للفرس . ولحق بخالد جرير بن عبد الله البجلي ، وكان من كبار الفرسان الذين يجيدون الحرب والكتابة .

ثم تقدم خالد إلى أُلّيس على نهر الفرات . ومعه المثنى بن حارثة الشيباني . ففتحها ثم فتح الحيرة ، وصالحه أهلها على الجزية والمنعة .

المسلمون يعبرون الفرات ويدخلون أرض السواد .

وسار خالد إلى الأنبار على شاطىء الفرات الشرقي فتحصن منه أهلها . فعسكر المسلمون حولها ثم فتحوها . وكانت الأنبار موضع أهراء الفرس (مخازن الغلال) ومنها كانوا يعطون أتباعهم من العرب من المناذرة وغيرهم .

وبلغ من اطمئنان خالد إلى قوة مركزه ومركز رجاله في هذه النواحي أنه ترك جنوده وذهب إلى الحج ، فقطع حوالي ١٤٠٠ كيلو متراً ثم عاد إلى جيشه ، وكان هذا خطأ جسيماً منه ، ولكن أبا بكر لم يلمه عليه عندما بلغه الخبر ، أما عمر فقد آخذه عليه . وكان ذلك من أسباب عزله إياه .

مسير خالد إلى الشام .

وكتب أبو بكر إلى خالد بعد ذلك يأمره بالمسير إلى الشام بنصف من معه ، فبدأ رحلته إلى الشام من الحيرة ومر بقراقر في ٨ صفر ١٣ هـ / ١٣ إبريل ٦٣٤ م . ومنها إلى سوى ثم كواسل ثم تدمر فالقريتين إلى دمشق ثم بصرى .

المرحلة الثالثة

قيادة المثنى بن حارثة وأعماله ، وقيادة أبي عبيد بن مسعود الثقفى وأعماله .

بعد رحيل خالد بن الوليد إلى الشام تولى المثنى بن حارثة قيادة فتوح العراق بأمر أبي بكر في ١٣ إبريل ٦٣٤ م .

تولى عرش فارس شهربراز بن أردشير بن شهريار ، فأرسل إلى المسلمين جيشاً كبيراً بقيادة هرمز جاذويه

وعندما تولى عمر بن الخطاب الخلافة أرسل أبا عبيد بن مسعود الثقفى فعمل المثنى تحت قيادته. وتقدم أبو عبيد بالمسلمين ليلقى قائداً يسمى بهمن عند بلدة تسمى قس الناطف . وعبر المسلمون مجارى الماء ، وعسكروا بموضع يسمى المروحة ، وأقاموا جسراً يعبروا عليه إذا دعت الضرورة . والتقى المسلمون بالفرس بقيادة « بهمن جاذويه » ، وكان في جيشه فيلة من بينها فيل أنزل بالمسلمين أذى كبيراً . وهجم عليه أبو عبيد بن مسعود وبرك عليه الفيل فقتله ، وكثر القتل في المسلمين فأرادوا التراجع عبر الجسر فإذا به مقطوع ، قطعه واحد من المسلمين ليحول بين المسلمين والفرار ، فغرق من المسلمين كثيرون ، وكانت هزيمة . ولهذا تسمى هذه الواقعة بقس الناطف أو الجسر . وبلغ الأمر عمر فحزن حزناً شديداً على أبي عبيد بن مسعود ، وواسى المسلمين الذين انهزموا ودعاهم إلى العودة ، فعاد الكثيرون منهم إلى القتال ، وسكت عمر عن بلاد الفرس فترة طويلة ، ثم جعل يدعو المسلمين ويرغبهم في حرب الفرس ، فعادت الجموع إلى ميدان الفتح في فارس .

وكانت وقعة الجسر في ٢٣ شعبان ١٣ هـ / أكتوبر ٦٣٤ م ، ومات شيرويه ملك الفرس وخلفته بوران بنت كسرى . وأرسل الفرس جيشاً بقيادة مهران بن باذان . وعبر مهران الجسر إلى موضع يسمى البويب . وعسكر المسلمون بموضع يسمى النخيلة وعليهم المثنى بن حارثة ومعه جرير بن عبد الله البجلي . والتقى المسلمون مع الفرس في قتال عنيف قتل فيه من المسلمين خلق كثير فيهم مسعود بن حارثة أخو المثنى . وانتصر المسلمون وقتل مهران . وقد أعاد انتصار البويب إلى المسلمين ثقتهم في أنفسهم بعد هزيمة الجسر . وكان ذلك في شهر رمضان ١٣ هـ / نوفمبر ٦٣٤ م .

وشغل المثنى بن حارثة نفسه بالغارات والضربات السريعة فيما بين أُلّيس وكسكر جنوباً إلى الخنافس وبغداد شمالاً ، ومقتب وعين التمر والفلاليج والعال ثم أوغل حتى صفين .

سعد بن أبي وقاص يتولى فتح العراق – نصر القادسية .

وبدأ الفرس يحشدون حشودهم لهجوم مضاد كبير ، فارتد المسلمون إلى الضفة الغربية ، وفكر عمر في أن يتولى فتح فارس بنفسه ، ثم انتهى أمره إلى اختيار سعد بن أبي وقاص ابن مالك بن أهيب بن عبدمناف من بني زهرة . وهو من الذين تربوا في مدرسة الرسول العسكرية .

وتنتهى قيادة المثنى ، لأن سعد بن أبي وقاص سار إلى العراق واستقر في الثعلبية ثلاثة أشهر حتى تلاحق به الناس ، ثم تقدم العُذيب في سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م

وفي ذلك الحين مرض المثنى بن حارثة ومات .

وأقبل رستم بقوات الفرس فنزل بُرس ، ثم سار فأقام بين الحيرة والسيلحين أربعة أشهر ، وكتب سعد إلى عمر يستمده فأمده برجال من الشام . وكان اللقاء في القادسية في شهر شعبان سنة ١٥ هـ / سبتمبر ٦٣٦ م ، ودام أربعة أيام ، وانتهى بنصر حاسم للمسلمين وقتل رستم ، وكان قد رفض دخول الإسلام واستكبر ، وقتل من المسلمين نفر منهم سعد ابن عبيد الأنصارى فحزن عليه عمر حزناً شديداً .

المسلمون يدخلون المدائن

وتراجعت فلول الفرس إلى المدائن ، وهي مجموعة مدائن صغيرة كانت تسمى طيشفون Etesiphon أولاها من الجنوب بهرسير ففتحها المسلمون في صفر ١٦ هـ ، ثم عبروا دجلة على ظهور الخيل ففتحوا المدائن ، ودخلوا إيوان كسرى في صفر ١٦ هـ / مارس ٦٣٧ م . وهرب مع كبار رجاله ، وحمل معه بيت ماله وخزائنه ونساءه وذراريه .

ثم كانت المعركة التالية في جلولاء ، وكان يقود الفرس مهران الرازى ، وكان يقود المسلمين من قبل سعد هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فهزم الفرس ، فاتصلوا إلى حلوان ، وتبعهم المسلمون ففتحوها ، وفتحوا بقية بلاد السواد أي العراق . وأسلم الكثير من

الدهاقين فتركهم عمر على ماهم عليه . وأرسل عمر عثمان بن حنيف الأنصاري يمسح السواد فوجده ٣٦ ألف ألف جريب ، فوضع عمر على كل جريب درهماً وقفيزاً ، ثم عدل الأمر بعد ذلك . وبلغ خراج السواد أيام عمر مائة ألف ألف درهم ، وفي أيام الحجاج هبط إلى أربعين ألف ألف .

اختطاط البصرة والكوفة ونشوء ولايتيهما .

وكانت البصرة قد اختطها عتبة بن غزوان سنة ١٦ هـ / ٦٣٧ م . أما الكوفة فقد اختطت سنة ١٧ هـ / ٦٣٨ م . وخرج المسلمون من المدائن إلى الكوفة . وأصبح العراق ولايتين هما البصرة والكوفة . وقد بينا على الخريطة الحد الفاصل بينهما ، ومنه ترى أن البصرة كانت الولاية الكبيرة ومنها فتحت فارس ، أما الكوفة فكانت ولاية أصغر بكثير وليس لها من بلاد فارس إلا طبرستان والرى وقومس . وقسمت ولاية الكوفة إلى أربع ولايات :

حلوان وقد تولاها القعقاع بن عمرو .

وماسبذان وعليها ضرار بن الخطاب الفهرى .

وقرقيساء وعليها عمرو بن مالك أو عمرو بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف .

والموصل وعليها عبد الله بن المعتم .

ويضاف إلى ولاية الكوفة الفروج وهى الأُبُلة .

فتح بلاد الجزيرة ، وهى القسم الشمالى من بلاد ماوراء النهر شمالى الموصل .

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص يأمره بفتح بلاد الجزيرة شمال الموصل ، فندب لذلك عياض بن غنم ، فأتم فتح الجزيرة مع رجاله فيما بين سنتى ١٦ و ١٧ هـ / ٦٣٧ – ٦٣٨ م . وقد دخل معظم الجند الفاتح للجزيرة من بلاد الشام . وسنتمم الحديث عن ذلك بعد كلامنا عن نهاوند .

فتح نهاوند ، وتمام فتح العراق والجبال .

عندما هرب يزدجرد من حلوان سنة ١٦ هـ تجمعت حوله الفرس ، وحول مردانشاه ذا الحاجب ، وجاء ناس من الرى وقومس وأصبهان وقرروا الحرب ، وأخرجوا رايتهم الدِّرَفْشِكَابِيان . وكتب عمار بن ياسر والى البصرة إلى عمر بذلك فأقام على حرب الفرس النعمان بن عمرو بن مقرّن المزنى ، وسار معه ثلثا جند البصرة ، وسار معه رجال من خيرة المسلمين ، فيهم حذيفة بن اليمان ، وجرير بن عبد الله البجلى ، والمغيرة بن شعبة ، والأشعث بن قيس . والتقى المسلمون مع الفرس فى نهاوند ، ووقع قتال من أعنف ماعانى المسلمون ، وكان النعمان بن مقرن من أوائل الشهداء ، وبعده حذيفة بن اليمان وغنم المسلمون مغانم عظيمة . وكان فتح نهاوند سنة ١٩ أو ٢٠ هـ / ٦٤٠ أو ٦٤١ م . والثانى أصح . وسميت نهاوند فتح الفتوح . وقد ضمت نهاوند إلى ولاية الكوفة ، ثم نقلت إلى البصرة لأنها من أصبهان . وأعطيت الدينور للبصرة . وسميت نهاوند ماه البصرة والدينور ماه الكوفة . وقد قتل يزدجرد الثالث ، وانتهت أسرة آل ساسان سنة ٣٤ هـ / ٦٥٤ م فى خلافة عثمان .

بقيـة فتـح الموصـــل .

فتح الموصل وبلاد الجزيرة .

يقول البلاذرى إن الجزيرة كلها (شمال العراق) فتوح عياض بن غنم بعد وفاة أبى عبيدة وكان أبو عبيدة قد استخلف معاذ بن جبل ، فلما مات معاذ فى الطاعون أيضاً ولى عمر يزيد بن أبى سفيان ، ولكنه توفى فى آخر ١٨ هـ فولى عمر أخاه معاوية ابن أبى سفيان . وأمر عياض بن غنم بغزو الجزيرة وجعل عياضاً على حمص وقنسرين والجزيرة . ويقال إن الذى ولى عياضاً فتوح الجزيرة أبو عبيدة ، فلما جاء عمر ولاه إياها فدخل الجزيرة من ناحية الرقة فى منتصف شعبان ١٨ هـ / يوليو ٦٣٩ م ، ثم فتح الرها (وهى عند الروم Edessa) وهى كانت عاصمة مملكة من بلاد الجزيرة . فدخل أهل الجزيرة فيما دخل فيه أهل الرها . وكان هو الذى صالح المسلمين بطريق الرها ، ثم فتح هو وقواده حران ونصيبين وميافارقين وقرقيساء وسميساط وقرى الفرات ومدائنها صلحاً وأرضها عنوة .

(قواد عياض : ميسرة بن مسروق العَبْسى ، وسعيد بن عامر بن جِذْيَم الجُمَحِى ، وصفوان بن المعطل السلمى ، وحبيب بن مسلمة) .

ثم فتح سَرُوج ورأسكيفا والأرض البيضاء .

ثم أتى قُرَيّات الفرات وهى جسر منبج وذواتها ، ثم عين الوردة ، وهى رأس العين وتل مَوْزِن ، وآمِد وطور عبدين وحصن ماردين ودارا وماجاورها . وكل ذلك فى أواخر ١٩ وأوائل ٢٠ هـ / نوفمبر – ديسمبر ٦٤٠ م ، ثم أرزروم ثم دخل عياض الدرب فبلغ بدليس وجازها ، ثم فتح خِلاط ، ثم انتهى إلى العين الحامضة من إرمينية ، ثم عاد إلى الرقة ثم حمص ، وهى كانت مركز ولايته وبها مات سنة ٢٠ هـ / ٦٤١ م .

خريطة ٦٣

فتوح المسلمين بعد نهاوند فى إيران وأذربيجان وأرمينية وماوراء النهر

المرحلة الأولـى :

(١) يسمى المسلمون معركة نهاوند ١٩ هـ / ٦٤٠ م بفتح الفتوح ؛ لأنهم قضوا فيها على آخر الجيوش الفارسية الساسانية وانتهت بذلك الدولة الساسانية ، وإن كان يزدجرد الثالث آخر ملوك ساسان لم يقتل فى هذه المعركة ، وظل بعدها يتنقل من بلد إلى بلد ، محاولاً تنظيم المقاومة ضد المسلمين فلم يستطع حتى قتل ، وانتهت بذلك أسرة آل ساسان ، وبعد نهاوند كان على نواحى إيران أن تقوم بالتعامل مع المسلمين ، كل على حدة ، فكان ذلك مشجعاً للمسلمين على التقدم لفتح إيران .

وقد تقدم المسلمون لفتح إيران فى اتجاهين

الأول : اتجاه جيوش ولاية البصرة ، ووجهتها وسط إيران وجانبها الشرقى ، وبخاصة إقليم خراسان وهو قلب إيران ، **والثانى** : هو اتجاه قوات ولاية الكوفة ، وقد اقتصرت على جنوب بحر قزوين وإقليم جرجان ، ولم تتخطَّ فتوح الكوفة ذلك ناحية الشرق ، لأن ولاة البصرة اجتهدوا فى أن يكون فتح إيران من أعمالهم ، واتجهت جهود قوات الكوفة بعد ذلك إلى التوسع غرب بحر الخزر (قزوين) أى أقاليم أذربيجان وماتيسر لها فتحه من إرمينية وبلاد الكرج ، ولم تخف حدة التنافس بين البصريين والكوفيين إلا خلال الفترات التى تولى فيها الولايتين رجل واحد وتسمى هاتان الولايتان بالعراقين .

(٢) ومن البصرة والكوفة ثم من واسط بعد أن اختطها الحجاج بن يوسف بن الحكم ابن أبى عقيل بن مسعود الثقفى واتخذها قاعدة له بعد أن صار والى العراقين سنة ٧٥ هـ / ٦٩٤ م ، وقد ظل يشغل هذا المنصب الكبير الذى جعله بالفعل حاكم الجناح الشرقى لدولة الإسلام حتى توفى سنة ٩٥ هـ / ٧١٣ م .

وقد قام بالعمل تحت إمارة الحجاج نوابه وهم :

فى ولاية البصرة	فى ولاية الكوفة
إيـاس بـن الحكـم	عـروة بـن المغيرة بـن شعبـة
الجراح بن عبد الله الحكمى	المغيرة بن عبد الله بن أبى عقيل
	حوشب بن يزيد

والمرحلة الأولى من فتوح المشرق التى نتحدث عنها الآن تبدأ بعد معركة نهاوند سنة ١٩ هـ / ٦٤٠ م ، وتنتهى بولاية عبد الله بن عامر بن كريز على البصرة والكوفة سنة ٣٠ هـ / ٦٥١ م

وخلال هذه الفترة قام عرب البصرة بقيادة أبى موسى الأشعرى باجتياح معظم أقاليم الأهواز والجبال وفارس ، ووصلت هذه القوات إلى الطبسين (باب خراسان) فى إقليم قوهستان .

كما أرسل عمار بن ياسر والى الكوفة حملة لفتح الرى شمالاً ، وولى عمر بعده على حمص والجزيرة عمير بن سعد الأنصارى ، وكانت رأس العين – وهى عين الوردة – قد امتنعت على عياض بن غنم ، فافتتحها عمير بعد قتال ، وسعد بن عامر بن خزيم هو الذى بنى مسجد الرقة ثم مسجد الرها ، ثم جاء عمير بن سعد فبنى المساجد ببقية بلاد الجزيرة .

ولما جاء معاوية بن أبى سفيان أسكن العرب نواحى الجزيرة فنشأت ديار مضر وديار ربيعة وديار بكر .

وكان المفروض أن تكون بلاد الجزيرة من توابع ولاية حمص نتيجة لذلك، ولكن عمار ابن ياسر أمير الكوفة ضم بلاد الجزيرة إلى ولاية الكوفة ، وانصرف عمير بن سعد إلى الرقة التي أصبحت تابعة لجند حمص .

وبنى مدينة الحديثة التي على الفرات رجل من رجال عمار بن ياسر يسمى مدلاج ابن عمرو السلمي ، وهو الذي تولى ضم بلاد الجزيرة إلى ولاية الكوفة ، وبنى مدينة الرافقة أبو جعفر المنصور سنة ١٥٥ هـ / ٧٧٢ م .

وأنشأ الرصافة هشام بن عبد الملك ، وبنى الرحبة جنوبي قرقيسياء الخليفة المأمون

إقليم الجبال :

وأرسل المغيرة بن شعبة والى الكوفة سنة ٢٢ هـ / ٦٤٢ م قوات من عرب الكوفة لغزو أذربيجان . وتوغلت هذه القوات في أقاليم طبرستان وجيلان وقومس ، وعقدت قوادها اتفاقيات سلام مع حكامها أو أصحاب الأمر فيها ، ولم ينتج عن هذه الحملات استقرار ستتبع الإسلامي في هذه النواحي ، فقد كانت كلها غارات خاطفة ، ولم يلق المسلمون مقاومة كبيرة من أهلها . وقد أعيد فتح مدن هذه النواحي مرة بعد أخرى ، بل إن مدينة إصطخر – قاعدة إقليم فارس – لم يتم فتحها رغم أن المسلمين اجتاحوا الإقليم كله .

المرحلة الثانية :

وقد امتد سلطان الدولة الإسلامية حتى شمل خراسان في عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ، والفضل في ذلك يرجع إلى القائد عبد الله بن عامر بن كريز ، وهو من عبد شمس وابن عم للخليفة عثمان بن عفان . وعبد الله بن عامر هو الذي أدخل التغيير الحاسم على طبيعة الفتح الإسلامي في إيران ، فحول الغارات والضربات الخاطفة إلى فتح دائم مستقر . وقد بدأ ذلك منذ ولايته على البصرة أواخر ٢٩ هـ / منتصف ٦٥٠ م مستعيناً بقائديه عثمان بن حنيف ، وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وقد تمكن عبد الله بن عامر – بعد جهود شاقة – من إتمام فتح إقليم فارس وتحويل قاعدته إصطخر إلى قاعدة إسلامية .

ومن فارس أخذ عبد الله بن عامر يرسل جيوشه لفتح إقليم كرمان ، ولكنه لم يوفق إلى فتحه ، فعاد إلى البصرة ، وجهز جيشاً كبيراً لفتح خراسان سنة ٣١ هـ / ٦٥١ م ، عبر الطريق الجنوبي المار بكرمان .

وفي نفس الوقت أرسل والى الكوفة سعيد بن العاص جيشاً آخر لفتح خراسان أيضاً عبر الطريق الشمالي المار بقومس ، ولم تتخط هذه الحملة مدينة قومس بعد أن علم قائدها أن قوات عبد الله بن عامر والى البصرة قد سبقته إلى دخول خراسان .

تقدمت قوات البصرة بقيادة عبد الله بن عامر نحو خراسان ، فمر في طريقه بكرمان ثم الطبسين ، وعقد مع أهلهما صلحاً ، ثم تقدم فحاصر نيسابور وفتحها بعد حصار عدة شهور ، وسار أحد قواد عبد الله بن عامر وهو الأحنف بن قيس من الطبسين إلى مهاجمة هراة وهزمهم ، ثم ارتد إلى نيسابور قبيل استسلامها .

بعد فتح نيسابور أدرك أهل مدن خراسان الأخرى أنهم لن يستطيعوا الصمود أمام العرب ، فأرسلوا وفوداً تطلب الصلح وأداء الجزية ، ومن هذه المدن نسا وأبيورد .

وتقدم أحد قواد عبد الله بن عامر وهو عبد الله بن خازم ففتح سرخس ، وكذلك استسلمت طوس ، وعقد أهل هراة صلحاً مع المسلمين ، وكذلك استسلمت مرو مقابل أداء جزية كبيرة .

وهذه المعاهدات كلها تركت للدهاقين أمر جمع الأموال التي قررتها معاهدات الصلح تسليمها للمسلمين ، أي أن أصحاب السلطان في المدن والقرى في العصر الساساني ظلوا في مراكزهم واستمروا في ظلم الناس . وكان لهذا أثره في مستقبل الإسلام في إيران ، وفي العلاقات بين العرب والإيرانيين .

وقد تمكن عبد الله بن عامر وقواده من إدخال كل خراسان في نطاق دولة الإسلام ، وفي سنة ٣٢ هـ / ٦٥٢ م أرسل عبد الله بن عامر قائده الأحنف بن قيس ففتح مرو الروذ معقل الساسانيين المحصين في جنوب خراسان ، وفتح في طريقه حصن الرستاق الذي عرف بعد ذلك بقصر الأحنف .

إلى هنا يكون المسلمون قد وصلوا إلى حدود بلاد الجنس الإيراني ، لأن مرو ومرو الروذ تقعان على نهر المرغاب ، وهو الحد الفاصل بين الإيرانيين والترك ، وعندما عبر المسلمون نهر المرغاب دخلوا بلاد الترك الهياطلة ، وهم أول من كان يواجه الإيرانيين من أجناس الترك . ومراكز الترك الهياطلة كانت الجوزجان والفارياب والطالقان والصغانيان ، ولم يتمكن المسلمون في حملتهم الأولى على بلاد الترك من كسر شوكتهم ، لأنهم تجمعوا لقتال العرب وساعدهم في ذلك بعض الفرس .

وصمم المسلمون على كسر شوكة الترك ، كما صمموا على المقاومة الإيرانية للإسلام ، فسار الأحنف بن قيس في جيش إلى الجوزجان والفارياب والصغانيان ، لأن أتراكها الهياطلة ساعدوا الفرس على المسلمين ، ويبدو أن هذه الحملة لم توفق لأن الأحنف تراجع إلى مرو الروذ أمام حشود الترك ، ثم أرسل الأحنف جيشاً إلى الجوزجان يقوده الأقرع بن حابس فافتتحها

وفي نفس الوقت تقدم الأحنف بن قيس بقوة أخرى من مرو الروذ إلى بلخ فاستسلمت له ، وفي طريقه عقد اتفاق صلح مع الفارياب والطالقان ، ثم واصل سيره إلى خوارزم ، غير أن حلول فصل الشتاء أجبره على العودة إلى بلخ .

أما كرمان فقد فتحها مجاشع بن مسعود السلمي أحد قادة عبد الله بن عامر ، وأمّن بذلك الطريق من البصرة إلى خراسان .

وأرسل عبد الله بن عامر قوة إلى سجستان بقيادة الربيع بن زياد الحارثي ، ففتح زرنج قاعدة الإقليم ، وعدداً آخر من مدنه ، وأقر أهل سجستان بالجزية ، وبقى على المسلمين بعد ذلك أن يفتحوا الجزء الشرقي من سجستان .

وإلى ذلك الحين كانت فتوح العرب في إيران تتلخص في حملات تبدأ كلها من البصرة ثم تعود إليها عند حلول الشتاء .

وجرت العادة بأن يخلفوا حامية قدرها أربعة آلاف رجل في مرو حتى يعودوا إلى مواصلة جهودهم العسكرية عند حلول الربيع التالي ؛ لأنهم لم يكونوا إلى ذلك الحين قد قرروا تحويل ما فتحوه من إيران ، وخراسان خاصة ، إلى ولايات إسلامية ، والهجرة إليها في أعداد كبيرة ، وجعل هذه البلاد مهجراً من مهاجر العرب .

المرحلة الثالثة :

كانت في بداية العصر الأموي عندما عهد معاوية بن أبي سفيان في ولاية البصرة وخراسان وسجستان سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م إلى عبد الله بن عامر ، وقد استقر رأي عبد الله بن عامر على فتح خراسان وبقية بلاد إيران وما يليها شرقاً فتحاً نهائياً ، فأقام ابن عامر قائده قيس بن الهيثم على حامية سجستان ، وفي نفس الوقت جهز جيشاً ضخماً جعل قيادته لعبد الرحمن بن سمرة ، وجعل معه عدداً من كبار القادة من أمثال عمر بن عبيد الله بن معمر ، وعبد الله بن خازم ، وقطرى بن الفجاءة ، والمهلب بن أبي صفرة .

وقد أعادت هذه القوة فتح زرنج عاصمة سجستان ، وفتحت خواش وبست من بلاد سجستان الشرقية ، وأصبحت في مواجهة رتبيل ملك زابلستان . وواصلت الحملة سيرها ففتحت كابل بعد حصار بضعة أشهر .

ونلاحظ هنا أن المسلمين قد أتموا إلى الآن فتح كل أقاليم دولة إيران الساسانية ، وهي الجبال والري وطبرستان وفارس وكرمان وسجستان وقوهستان وخراسان . وبذلك يبدأ صراع المسلمين مع أجناس الترك التي كانت تعمر الأراضي الواقعة بين بلاد إيران وبلاد المغول ومن ورائهم الصينيون .

والترك أجناس شتى ، وسيواجههم العرب جنساً بعد جنس ، وكان أول جنس منهم قابلوه هو جنس الهياطلة الذين يسمون في النصوص غير العربية باسم Hephtalites وكان الهياطلة قسمين كبيرين : **قبائل الشمال** وهي التي تسمى في الغالب باسم الهياطلة ، وملكهم يلقب بالزونبيل الذي يقرأ أحياناً الرتبيل خطأ .

وقبائل الجنوب ويسمون بالزابليين ، وقد استقروا في إقليم زابلستان وأعطوه اسمهم . وأصل الهياطلة من وسط آسيا ثم هاجروا إلى شمال الهند ، ومن هناك امتدوا غرباً وهاجموا إيران وهزموا جيوشها ، وقتلوا ملكها فيروز في معركة كبيرة سنة ٤٨٤ ميلادية ، وأصبحوا سادة شرق إيران ، وأخذوا الجزية من أهلها نحو نصف قرن .

وخلال النصف الأول من القرن السادس الميلادي شملت دولة الهياطلة بلاد الصغد ، وحوض نهر جيحون الأعلى المسمى بالأوكسوس Oxus ، ثم صالحوا الفرس على أن يعودوا إلى بلادهم شرق سجستان .

ومعنى ذلك أن العرب كانوا قد تغلبوا إلى ذلك الحين على شعوب إيران ، وأدخلوهم وبلادهم فى دولة الإسلام ، وبدءوا بعد ذلك معركتهم مع الأتراك . ولم يكن الهياطلة هم الجنس التركى الوحيد الذى دخل العرب فى صراع معه فى هذه المرحلة من مراحل بنائهم لدولة الإسلام ، بل كان هناك الترك (البختيون) ويسمون فى غير العربية باسم البكتريين نسبة إلى إقليم باكتريا الذى سكنوه ، وهذا هو الإقليم الواقع حول بلخ ، وإلى شرقهم كانت منازل الترك الكوشان . وكان البختيون والكوشان معادين للهياطلة ، وقد عرف هذان الفريقان من الأتراك باسم الأتراك الغربيين . وعندما دخل العرب فى الصراع مع الترك قاتلوا البختيين فى نفس الوقت الذى قاتلوا فيه الهياطلة ، وكلا الفريقين ينتمى إلى الأتراك الغربية .

ونعود إلى تتبع تقدم العرب شرقاً فنقول :

أعاد الربيع بن زياد فتح بلخ ، وهزم الترك فى بادغيس وهراة وبوشنج ، وخلفه ابنه عبد الله بن الربيع بن زياد الذى وسع الفتوح حتى ضفاف نهر جيحون ، وعقد معاهدات صلح مع أهل زم .

وعندما عين عبيد الله بن زياد بن أبيه والياً على الكوفة والبصرة سنة ٥٣ – ٥٩ هـ / ٦٧٣ – ٦٧٩ م عبر عام ٥٤ هـ / ٦٧٤ م نهر جيحون ، وغزا بيكند وبخارى من بلاد الصغد فيما وراء النهر ، واضطرها إلى دفع الجزية وعاد فى العام التالى إلى البصرة .

وخلفه على ولاية خراسان سعيد بن عثمان بن عفان سنة ٥٥ هـ / ٦٧٥ م ، وصحبه عدد من كبار القادة من أمثال المهلب بن أبى صفرة وأوس بن ثعلبة ، وقد قاد سعيد بن عثمان بن عفان حملة كبيرة توغل بها فى بلاد الصغد واجتاز باب الحديد ، وفتح مدينة ترمذ الحصينة على نهر جيحون ، فسيطر بذلك على الطريق الرئيسى من خراسان إلى ماوراء النهر .

فتوح المشرق فى عهد يزيد بن معاوية :

أقام يزيد سالم بن زياد والياً على خراسان وسجستان سنة ٦١ هـ / ٦٨١ م ، وعهد إليه فى القيام بفتوح أخرى فيما وراء النهر .

سار سالم من البصرة إلى خراسان على رأس جيش ضم خيرة القواد أمثال المهلب بن أبى صفرة ، وعبد الله بن خازم السلمى ، وطلحة بن عبد الله الخزاعى ، وعمر بن عبد الله بن معمر التيمى ، وتمكن سالم بن زياد من فتح بخارى وسمرقند بعد مقاومة عنيفة .

وانتدب سالم بن زياد أخاه يزيد بن زياد على الإقليم ، وجرد جيشاً لحرب زوبيل صاحب زابلستان ، غير أن الحملة فشلت ، وقتل قائدها وقتل أخوه أبو عبيدة بن زياد . كما جرد حملة أخرى على خراسان بقيادة طلحة بن عبد الله الخزاعى الذى افتدى أسرى العرب بألف ألف درهم ، وأعاد الاستقرار إلى سجستان سالكاً فى ذلك سبيل السياسة والتفاهم مع الأعداء قبل أن يلجأ إلى مهاجمتهم .

وبعد موت يزيد بن معاوية وقيام الفتنة بين عبد الله بن الزبير والأمويين ، توقفت الفتوح فى المشرق ، وانشغل عرب إيران بالفتنة حتى دارت بينهم حروب .

خريطة ٦٤

المرحلة الرابعة والأخيرة فى حركة الفتوح الإسلامية فى المشرق

تمت هذه المرحلة فى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد تحت قيادة الحجاج بن يوسف والى العراق والمشرق .

وقد اضطلع بعبء هذه الفتوح ثلاثة من قادة الحجاج المشهورين ، وهم المهلب ابن أبى صفرة الأزدى ، وقتيبة بن مسلم الباهلى ، ومحمد بن القاسم الثقفى .

أما المهلب فقد عينه الحجاج عاملاً من قبله على خراسان عام ٧٨ هـ / ٦٩٧ م ، وقام هو وأولاده بفتوح واسعة فيما وراء النهر ، فقد قاد المهلب حملة احتل بها مدينة كش فى إقليم الصغد ، ووجه منها حملة أخرى بقيادة ابنه يزيد ضد ملك الختل واضطره إلى دفع الجزية . كما فتح يزيد قلعة نيزك بإقليم بادغيس بين مرو وهراة . وغزا خوارزم ، وافتتح فى عهد سليمان بن عبد الملك جرجان وطبرستان ، وغزا أخوه المفضل بن المهلب بادغيس وشومان .

فتوح قتيبة بن مسلم :

وفى سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م ولى الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلى خراسان وبلاد المشرق ، فظل والياً عليها حتى سنة ٩٩ هـ / ٧١٧ م ، وهو صاحب الفضل الأكبر فى فتوح ماوراء النهر .

سار قتيبة على نفس الخطة التى سار عليها آل المهلب ، وهى خطة الضربات السريعة المتلاحقة على الأعداء ، فلا يُترك لهم وقت للتجمع ووضع الخطط لمواجهة العرب ، وقد امتاز قتيبة على المهالبة بأنه كان يضع لكل حملة خطة ثابتة ، ويحدد لها وجهة معينة ، ويجتهد فى الوصول إلى مايقصده ، غير عابىء بالمصاعب معتمداً على بسالته النادرة وروح القيادة التى امتاز بها وإيمانه العميق بالإسلام .

وتنقسم أعمال قتيبة إلى أربع مراحل ، حقق فى كل منها فتح ناحية واسعة فتحاً نهائياً ، وثبت أقدام العرب والإسلام فيها ، وقد هابه الأتراك مهابة عظيمة ، وفى أواخر أيامه كان مجرد ذكر اسمه يوقع الهلع فى نفوس خصومه .

المرحلة الأولى :

قام فيها بحملته على طخارستان السفلى فاستعادها ، وثبت أقدام المسلمين فيها سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م

المرحلة الثانية :

قاد فيها حملته الكبيرة على بخارى فيما بين سنتى ٨٧ – ٩٠ هـ / ٧٠٦ – ٧٠٨ م ، حيث أتم فتح بيكند (٨٧ هـ / ٧٠٦ م) ثم تومشكت ورامیثه وهى الرامثنى من قرى بخارى ، وقد تم له فتح بخارى وإقليمها نهائياً سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م .

المرحلة الثالثة :

وقد استمرت من سنة ٩١ هـ إلى ٩٣ هـ / ٧٠٩ م – ٧١١ م ، وقد تمكن فيها من تثبيت قواعد الإسلام فى وادى نهر جيحون كله ، وأتم فتح سجستان ٩٢ هـ / ٧١٠ م ، وفى العام التالى ٩٣ هـ / ٧١١ م فتح إقليم خوارزم ، ووصلت فتوحه إلى سمرقند وضمها إلى دولة الإسلام نهائياً .

المرحلة الرابعة :

امتدت من سنة ٩٤ هـ – ٩٦ هـ / ٧١٢ م – ٧١٤ م ، وقد أتم فيها قتيبة فتح حوض نهر سيحون بما فيه من مدن ، ووصل فى نهايتها إلى فرغانة ، ثم دخل أرض الصين سنة ٩٦ هـ / ٧١٤ – ٧١٥ م ، وأوغل فى مقاطعة سنكيانج ووصل كاشغر وجعلها قاعدة إسلامية ، وكان هذا آخر ماوصلت إليه جيوش الإسلام فى آسيا شرقاً .

فتح السند (أعمال محمد بن القاسم) :

بدأت فتوح السند فى أيام عمر بن الخطاب ، فقد ولى عمر على البحرين وعمان عثمان ابن أبى العاص الثقفى سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م ، فوجه أخاه الحكم بن أبى العاص ، ومن هناك أرسل الحكم جيشاً إلى تانة من ساحل الهند ، فلما رجع الجيش أبلغ عمر بذلك ، فنهاه عن أن يعود إلى مثلها خوفاً على المسلمين .

ولكن عثمان بن أبى العاص بعث أخاه إلى بروص بساحل الهند ، وأرسل أخاه المغيرة ابن أبى العاص إلى خور الديبل ، فلقى العدو وانتصر عليه .

وفى خلافة عثمان تولى عبد الله بن عامر بن كريز العراق فأمره عثمان أن يرسل بعثاً يستطلع أمر ثغر الهند ويأتيه بخبره ، فأرسل حكيم بن جبلة العبدى فى بعث استكشافى ، فقام بمهمته خير قيام . وعاد فأبلغ عثمان بما علم من أمر الهند ، فتوقف عثمان عن أن يرسل إليها جيشاً ، وكأنه استبعدها واستصعب فتحها .

وفى خلافة على بن أبى طالب خرج إلى السند غازياً الحارث بن مرة العبدى فأغار على أطرافها وغنم سبيا ، ثم عاد مرة أخرى ، ولكنه قتل بأرض القيقان سنة ٤٢ هـ / ٦٦٢ م ، والقيقان على حدود السند مما يلى خراسان .

ثم غزا المهلب ثغر الهند فى أيام معاوية بن أبى سفيان فوصل إلى بنة والأهور (الأهور هى لاهور) وقد عاد بنتيجة قليلة رغم أنه تمكن من دخول بنة .

وفي أيام معاوية أيضاً سار عبد الله بن سوار العبدي فغزا القيقان وغنم غنماً أهدى منها معاوية ، ثم رجع إلى القيقان ، فاستغاث أهلها بالترك ، ولقوا عبد الله بن سوار في معركة قتل فيها ، وكان عبد الله هذا من رجال عبد الله بن عامر .

وفي أيام معاوية كذلك أرسل زياد بن أبيه قائداً يسمى سنان بن سلمة الهذلي ، ففتح مكران ومصرها وأسكنها العرب وهذا أول جزء من غربي البنجاب يدخل في دولة الإسلام .

وكانت الهند تسمى الثغر ، وكان الثغر يشمل المساحة التي تلي سجستان وزابلستان وطخارستان ووخان شرقاً .

وزياد بن أبيه هو الذي جعل ولاية الثغر قائمة بنفسها وولى عليها والياً ، وكان أول من ولاه عليها راشد بن عمرو الجديدي من الأزد ففتح القيقان وظفر ، ثم استطرد فغزا الميد إلى شرق قيقان فقتل ، فولى زياد بن أبيه مكانه سنان بن سلمة الهذلي فظل والياً عليها سنتين .

وغزا عباد بن زياد ثغر الهند من سجستان ، فأتى سناروذ ثم سار نحو « حوى كهز » والروذبار من أرض سجستان إلى الهند ، فنزل كش ثم قطع المسافة إلى قندهار وفتحها ، وبذلك امتدت حدود الإسلام الشرقية حتى قندهار ، ثم تولى ثغر الهند المنذر بن الجارود العبدي ويكنى أبا الأشعث فغزا البوقان ثم القيقان ، وفتح قصدار ووصل بحدود الإسلام إلى قصدار والبوقان وأسلم أهلهما .

وولى الحجاج سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي مكران وثغر الهند فقتل في حربه مع ثائرين عربيين أرادا الاستيلاء على الثغر وهما محمد ومعاوية ابنا الحارث العلافي .

ثم ولى الحجاج مجّاعة بن سِعْر التميمي الثغر ففتح جزءاً من ناحية قندابيل ومات بعد سنة ، وقد أتم فتحه محمد بن القاسم .

ثم استعمل الحجاج بعد ذلك على الثغر محمد بن هارون بن ذراع النمرى وكان ملك السند إذ ذاك هو داهر ، وقد وقعت في أيام محمد بن هارون مناوشات بين المسلمين ورجال داهر قتل فيها محمد بن هارون ، فاستقر رأى الحجاج على تعيين قائد كبير على رأس جيش مجهز تجهيزاً كاملاً لفتح السند ، واختار لذلك محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن عقيل .

فتوح محمد بن القاسم .

كان محمد بن القاسم والياً على فارس ، فأمره الحجاج بالمسير إلى شيراز والانتظار بها حتى يوافيه جنده . فاجتمع له ٦٠٠٠ مجهزون بكل شيء ، وجعل على مقدمته أبا الأسود جهم بن زحر الجُعفي .

سار محمد بن القاسم إلى مكران وأقام بها أياماً ، ثم فتح قنزابور ثم أرمائيل ، ثم تقدم لفتح الديبل وجعل عتاده وأزوادة في سفن أرسلها بالبحر من أرمائيل ، وحاصر الديبل ونصب عليها منجنيقاً يعرف بالعروس ، وفتحها محمد بن القاسم بعد قتال عنيف ، وهدم البد الكبير بها وكل بد آخر ، والبد كل تمثال أو معبد لبوذا ، ثم حولها إلى مدينة إسلامية ، وأزال كل آثار البوذية بها ، وبنى بها المساجد ، وأسكنها ٤٠٠٠ مسلم .

ثم فتح البيرون فصالحه أهلها ، ثم فتح سربيدس وقرر عليها الخراج ، ثم فتح سهبان ، وبعث محمد بن مصعب بن عبد الرحمن الثقفي إلى سدوسان ففتحها ، وبعد فتح سهبان انضم عدد كبير من الزُّط إلى المسلمين فجند منهم ٤٠٠٠ يحاربون معه ، والزُّط كانوا في السند قوماً من البدو الرحل ، ويقال إنهم أصل الغجر المعروفين .

ثم عبر محمد بن القاسم نهر مهران ، وفاجأ داهر ملك السند ، والتقى معه في معركة حامية قتل فيها داهر عند بلد صغير يسمى قند قرب الديبل .

وبمقتل داهر استسلمت بقية بلاد السند وأصبحت جزءاً من دولة الإسلام .

واستولى محمد بن القاسم بعد ذلك على راور ، ثم برهماناباذ ، وهي على فرسخين شمال مدينة المنصورة التي استحدثها المسلمون ، ثم استسلم له أهل إقليم ساوندرى وأسلموا . وفعل أهل بسمد مثل ذلك ، وكان فتح راور بعد معركة حامية ، وقد استسلم له أهلها على ألا يهدم تماثيل بوذا ومعابده التي تسمى البد ، وقالوا إنها مثل الكنائس ، فأجابهم إلى ماطلبوا .

ثم عبر نهر بياس واقتحم مدينة الملتان بعد قتال عنيف ، وقضى على كل التماثيل والمعابد البوذية هناك ، وغنم ذهباً وفضة كثيرة ، ولهذا سميت الملتان بفرج بيت الذهب ، والفرج هو الثغر .

وقد أنفق الحجاج على جيش محمد بن القاسم « ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ » درهم ، وأتاه محمد ابن القاسم بضعف ذلك « ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ » درهم ، فقال الحجاج: « شفينا غيظنا وأدركنا ثأرنا وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر » .

وبعد موت الحجاج فتح محمد بن القاسم أرض البيلمان وأسلم أهلها . وسالمه أهل سربيدس وهي في بلاد الميد وهم جماعة من أهل السند كانوا مهرة في الملاحة ، وكانوا يتلصصون في البحر ، فدخلوا في طاعة المسلمين .

وتقدم محمد بن القاسم في بلاد السند فوصل إلى إقليم الكيرج ، وكان ملكه يسمى دوهر ، فهزمه محمد بن القاسم وقتله ، ودخلت بلاد الكيرج في طاعة المسلمين .

وهنا تنتهى أعمال محمد بن القاسم ، ثم ولى سليمان بن عبد الملك صالح بن عبد الرحمن على خراج العراق ، فعزل محمد بن القاسم لأنه من رجال الحجاج ، وولى مكانه يزيد ابن أبي كبشة السكسكى ، فقبض على محمد بن القاسم وقيده فقال محمد :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر ؟

وقد حزن أهل السند على مصير محمد بن القاسم ، لأن صالح بن عبد الرحمن حبسه في واسط حتى مات .

وبعد ذلك انتقض ملوك الهند ، وعادوا إلى عروشهم .

ولما جاء عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة ، على أن يظل كل منهم في مكانه ، وله ماللمسلمين وعليه ماعليهم ، فأجابوه ، ودخلت بلاد السند كلها في طاعة المسلمين ، وأسلم أهلها وملوكها وتسموا بأسماء العرب .

وبهذا أصبحت بلاد السند بلاد إسلام .

وقد اضطرب أمر السند في أواخر أيام بني أمية ، ولكنها عادت إلى الطاعة والانتظام في أيام أبي جعفر المنصور . وفي أيامه فتحت كشمير ، ودخلت في دولة الإسلام .

فتح أذربيجان وإرمينية وغيرهما من الأقاليم الشمالية

بعد موقعة نهاوند أرسل المغيرة بن شعبة والى الكوفة قوات كافية من هناك إلى أذربيجان بقيادة حذيفة بن اليمان ، فسار إلى العاصمة أردبيل ، وقاتل جموع صاحبها وحلفائه ، وصالحهم على جزية وشروط .

ثم غزا حذيفة بن اليمان أيضاً موقان وجيلان وأوقع بهم وصالحوه على إتاوة .

وولى أذربيجان بعد ذلك عتبة بن فرقد السلمي فأتاها من شهرزور ، وغزا نواحى كانت قد انتقضت على المسلمين .

ثم قام الوليد بن عقبة بغزو أذربيجان سنة ٢٥ هـ / ٦٤٦ م ، وكان على مقدمة جيشه عبد الله بن شبل الأحمسى ومعه الأشعث بن قيس ، فأغار على أهل موقان والببر والطيلسان .

وفي ولاية سعيد بن العاص على الكوفة غزا أذربيجان ، وأوقع بأهل موقان وجيلان ، وهزم أحد قواده وهو جرير بن عبد الله البجلى أهل أذربيجان عند أرم .

ثم ولى على بن أبي طالب الأشعث بن قيس أذربيجان فوجد أكثر أهلها قد أسلموا ، فأنزل أردبيل جماعة من أهل العطاء من العرب ، ووحدها وبنى مسجدها .

وأما الموصل فقد فتحها عتبة بن فرقد السلمي سنة ٢٠ هـ / ٦٤١ م ، ثم مصرت وسكنها العرب في عهد هرثمة بن عرفجة البارقى الذى خلف عتبة على الموصل التى اعتبرت أحد المنافذ التى فتحت منها إرمينية .

وأما فتوح إرمينية فقد بدأت في عهد عثمان بن عفان ، وتعاقب على فتحها عدة ولاة وقادة أهمهم :

حبيب بن مسلمة الفهرى الذى قاد جيشاً من أهل الشام والجزيرة ، ففتح قاليقلا ودبيل والشنوى والسيسجان ، ثم سار إلى جرزان (كرجستان) ومنها إلى عاصمة الإقليم تفليس ، كما شملت فتوحه عدة مواقع أخرى منها بردعة وجرزان .

وقد أرسل عثمان بن عفان جيشاً من أهل الكوفة مدداً لجيش حبيب بن مسلمة ، وقاد جيش الكوفة سلمان بن ربيعة الباهلى ، غير أن هذا الجيش وصل متأخراً ، فأمره عثمان

أن يتوجه لفتح أران ، ففتح البيلقان وبردعة وشمكور وغيرها من نواحي أران ، واجتاز نهر الكرج وفتح شروان ، ووصل في فتوحه إلى مدينة الباب فاجتازها ، ولكن العدو لقيه بعدها فاستشهد وجميع من معه تقريباً .

وأعاد محمد بن مروان بن الحكم فتح إرمينية في عهد عبد الملك بن مروان ، وأوقع بالمنتقضين على المسلمين في خلاط .

وتولى الجراح بن عبد الله الحكمي إرمينية ليزيد بن عبد الملك ، وتوجه من بردعة شمالاً عبر نهر الكرج ونهر السَّمور وهزم الخزر ، وعاد إلى بردعة والبيلقان ، إلا أن الخزر عادوا إلى الهجوم على شمال إرمينية ، وهزموا جيش الجراح ، واستشهد ومن معه في أردبيل .

وتولى مسلمة بن عبد الملك إرمينية لأخيه هشام ، وقاد حملة كبيرة ضد الخزر وهزمهم في ورثان واحتل مدينة باب الأبواب ، وأنزل بها أربعة وعشرين ألفاً من عرب الشام .

وغزا مروان بن محمد الصقالبة بأرض الخزر ، ودخل ملك الخزر في الإسلام ، وفتح مروان أرض السرير وزريكران وخزين وسندان واللكز وخرس في شروان .

خريطة ٦٥

فتوح مصر والنوبة

بعد تمام فتح فلسطين وتسلم عمر للقدس وعقد مؤتمر الجابية لقادة فتح الشام استأذنه عمرو بن العاص سنة ١٨ هـ / ٦٣٩ م في فتح مصر ، فأذن له بعد تردد منه وإلحاح من عمرو .

وسار عمرو لفتح مصر سنة ١٨ هـ / ٦٣٩ م من قيسارية إلى عسقلان فغزة ففتح ، وسار في الطريق الشمالي القريب من البحر ، فدخل رفح ثم مر بالعريش ، ومر بعد بالمساعيد ، وبعوس الأدراب وبئر العبد ، وقطيا ، ثم انتهى إلى الفرما ، وهي ميناء صغير على البحر يسمى عند الروم Pelusium وكان يصب بقربها فرع من فروع دلتا النيل يسمى الفرع البلوزي .

ومن الفرما اتجه جنوباً بغرب حتى مر بقرية مجدَل Migdol قرب الفرما ، ثم مر بمكان قرية القنطرة ، ثم إلى مكان الصالحية ووادي الطميلات . وعندما وصل عمرو بلبيس وجد بها جمعاً من الروم يقودهم قائد يسمى Arteon ، وقد سماه العرب الأرطبون ، فاستولى عليها العرب بعد قتال نحو شهر .

والمقوقس في الغالب مصري ، وليس هو قورس Cyrus كما زعم بطلر في كتابه عن فتح مصر . لأن قورس كان رجل دين من أهل فلسطين ، ندبه هرقل لتحويل إدخال المصريين في مذهب الروم الذي كان يسمى بالإكتازيس ، فكان بذلك مندوب الروم في مصر ، وكان المصريون يكرهونه لأنه اضطهدهم ، وكان المقوقس – وأصله في الغالب من قرب دمياط – يتزعم المصريين القبط لأنه من أهل بيوتهم الكبيرة ، وأخوه بنيامين الذي يسميه العرب أبامياميني كان أسقف كنيسة الإسكندرية فعزله قورس عندما اضطهد القبط ، فاختفى ثم ظهر وعاد إلى أسقفيته بعد فتح العرب لمصر . والظاهر أن المقوقس كان اسماً أطلقه عليه العرب الذين كانوا يفدون إلى مصر للتجارة في الجاهلية . وبهذا الاسم خاطبه رسول الله ﷺ عندما كتب إليه يدعوه إلى الإسلام ، ووصفه في كتابه بأنه « عظيم القبط » مما يدل على أن رسول الله كان يعرف حقائق الواقع المصري ، ولولا ذلك لوجه كتابه إلى قورس .

ومن بلبيس اتجه عمرو إلى رأس الدلتا ، فوصل إلى قرية تسمى تندونياس ، ويسميها العرب أم دنين ، واستولى عليها . وكانت العاصمة السياسية لمصر الإسكندرية ، وكانت جالية الروم في الإسكندرية والقرى المجاورة لها كبيرة ، وأهم هذه القرى والمدن سلطيس ودمنهور والكريون وسنديون وبلهيب ونقراش وهي Naucratis ولهذا كانت المقاومة الحقيقية للفتح العربي في هذه المناطق .

أما رأس الدلتا فكان في جنوبها حصن للروم يسمى بابليون أو باب اليون ، جعل الروم فيه حامية كبيرة لحكم البلاد وضمان طاعة أهلها ، وصد أي عادية تكون على مصر من الشرق . وكان الروم قد حصنوا هذا الموقع بعد أن أخرجوا الفرس من مصر والشام قبل الفتح العربي بقليل . وكانت المنطقة المحيطة بالحصن ومنه إلى رأس الدلتا تسمى كلها مدينة مصر ، وهي منطقة مزارع من قرى وحدائق تصل جنوباً إلى ما يقابل منف أو ممفيس على الضفة الغربية من النيل عند الجيزة .

وحاصر العرب حصن بابليون ، وأحس عمرو أنه في حاجة إلى مدد فأرسل إلى عمر يطلبه . وكان جند عمرو الأولون ثلاثة آلاف وخمسمائة ، فأرسل إليه عمر مدداً من أربعة آلاف يقودهم أربعة من كبار القادة ، هم الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت ، ومسلمة ابن مخلد الأنصاري ، والمقداد بن الأسود . واشتد ساعد عمرو بهذا المدد . فشدد الحصار وخرج الروم للقائه . وكان اللقاء عند هليوبوليس ، وانتصر فيه العرب ، ولجأ الروم إلى بابليون فتحصنوا به . وعاد المسلمون يحاصرونه .

وعندما تأكد المقوقس زعيم المصريين القبط من تفوق العرب وصدق إيمانهم وحسن نواياهم اتصل بعمرو بن العاص وعرض عليه الدخول في عهد المسلمين باسم أهل مصر . فقبل عمرو ذلك . وكتب المقوقس إلى هرقل يعلمه بما حدث وينصح بالتسليم ، فرفض هرقل ذلك ، وأرسل يوبخ المقوقس ، فعقد المقوقس الصلح باسم الأقباط ، وهم شعب مصر . وتقدم الأقباط يساعدون العرب وأصبحوا أعواناً لهم .

واطمأن عمرو إلى عون المصريين فقرر المسير إلى الإسكندرية قاعدة مصر البيزنطية فأقام معسكراً جنوبي بابليون سمي الفسطاط ، وهو الخيمة الكبيرة ، وترك هناك حامية ، وسار إلى الإسكندرية محاذياً فرع رشيد الذي كان يسمى الفرع البولبتيني نسبة إلى رشيد وكان اسمها Paulatina . وفتح عمرو في طريقه طرنوط ، ثم نقيوس ، ثم سلطيس ثم الكريون ، وكلها كانت مراكز لجاليات رومية حاولت مقاومة العرب . وكان تيودور قائد الحامية الرومية قد تحصن في الكريون ، ثم انهزم إلى الإسكندرية وتحصن بأسوارها ، وكتب إلى هرقل . واستمر حصار الإسكندرية أربعة أشهر حتى قلق عمر فكتب إلى عمرو . فقرر عمرو اقتحام أسوار البلد ، وعهد إلى عبادة بن الصامت في ذلك ، فنجح فيه واقتحم الإسكندرية بجنده . وتم الصلح أخيراً على أن يجلو عن الإسكندرية من يريد الجلاء من الروم وغيرهم ، واستسلمت مصر كلها ، وأصبح أهلها معاهدين أهل ذمة بما فيهم اليهود ، وأعطى الروم مهلة أحد عشر شهراً للتسليم النهائي

وفي هذه الأثناء حاول قسطنطين بن هرقل قيصر الروم استعادة الإسكندرية ، فأرسل قوة بحرية بقيادة رجل يسمى منويل ، فدخل الإسكندرية وتقدم حتى نقيوس ، ولكن العرب صدقوا القتال فهزموا الروم وقتلوا منويل ، وانتهى الأمر بتسليم الإسكندرية ، وإقرار الصلح الذي أبرمه المقوقس ، وبذلك تم فتح مصر سنة ٢٠ هـ / ٦٤١ م . وعاد عمرو إلى بابليون فدخل الحصن بعد جلاء الروم عنه ، ونقل عاصمة البلاد من الإسكندرية إلى موقع الفسطاط عند رأس الدلتا حسب تعليمات عمر بن الخطاب

وفي سنة ٢٣ أو ٢٥ هـ / ٦٤٣ أو ٦٤٥ م حاول الروم استعادة الإسكندرية أيام قسطنطين بن هرقل ، ولكنهم فشلوا واستقر أمر المسلمين في مصر .

وفي أثناء حصار الإسكندرية كانت بعض نواحي مصر قد حاولت الوقوف في وجه المسلمين في الفيوم وأهل الأرض وشمال غرب الدلتا ، فوجه عمرو خارجة بن حذافة السهمي في قوة إلى شمال غرب الدلتا ، فحارب البشرودات أي أهل البشرود وهم أهل منطقة المنزلة . ووجه عمير بن وهب الجمحي إلى نواحي تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وبنا بوصير ، فقضى على مقاومتها . وكانت في الفيوم قوة رومية يقودها رجل يسمى دومنتيانوس ، فحاول التقدم نحو الفسطاط ، ولكن القائد العربي عقبة بن عامر تصدى له وهزمه . وتولى عقبة بن عامر القضاء على كل مقاومة في الصعيد فتمكن من ذلك بمساعدة مولاه وردان .

وأرسل عمرو بن العاص عقبة بن عامر إلى أرض النوبة ، فقاتل أهلها دون فتح ، لأنهم قاوموا العرب مقاومة شديدة وكانوا مهرة في رمي النبال ، وكانوا يوجهون نبلهم إلى العيون فسموا رماة الحدق .

وعندما تولى أمر مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح أيام عثمان بن عفان قرر فتح النوبة ، فأرسل قوة يقودها عقبة بن عامر ، ففتحت أرض النوبة ، ثم تقدمت حتى بلغت دنقلة من أرض السودان – والعرب يسمون أهلها الأساود – وبعد قتال شديد انتصر العرب على أهل دنقلة ، وعقدوا معهم صلحاً يسمى البقط Pacton - Pactum يؤدي أهل دنقلة بمقتضاه جزية من السود عددها ٣٦٠ رجلاً ، وتعهد أهل دنقلة بفتح بلادهم للمسلمين ، وبنى هناك المسلمون مسجداً ، تعهد الأساود برعايته وكنسه وإيقاد القناديل فيه بالليل ، وقد رعى الأساود ذلك . وفي أيام الخليفة المهدي تم الاتفاق على أن يدفع البقط مرة كل ثلاث سنوات .

وأمر الخليفة المتوكل بن الواثق بن المعتصم العباسي (٢٣٢ – ٢٤٧ هـ / ٨٤٦ – ٨٦١ م) بضم أرض المعدن إلى ولاية مصر . وأرض المعدن هي وادي العلاقي المؤدي

من قوص » على شاطىء البحر الأحمر قبالة جدة » إلى عيذاب ، وعيذاب فى أرض قوم من أهل السودان والنوبة ومصر يسمون البجاة أو البجة (ومنهم البشاريون المعروفون إلى الآن فى مصر) فعهد والى مصر إلى رجل يسمى محمد بن عبد الله ويلقب بالقُمى ، فدخل وادى العلاقى حتى وصل عيذاب ، وحملت إليه الميرة فى المراكب من القُلزم إلى عيذاب ، وحاول ملك البجة اعتراض القمى ، ولكنه تغلب عليه ، فطلب ملك البجة الهدنة ، فاشترط المتوكل أن يفد ملك البجة إلى بغداد ، فتم ذلك وصولح سنة ٢٤١ هـ / ٨٨٥ م على أداء الإتاوة . قال البلاذرى « ٢ / ٢٨٢ » : فأهل البجة على الهدنة يؤدون ولايمنعون المسلمين من العمل فى معدن الذهب ، وكان ذلك فى الشرط على صاحبهم .

خريطة ٦٦

خريطة ٦٧

فتح العرب للمغرب

بعد أن وقع عمرو بن العاص معاهدة الإسكندرية التى اكتمل بها فتح مصر فى ١٦ شوال سنة ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ م ودخولها دولة الإسلام » ورغم محاولات الروم استعادة الإسكندرية بعد ذلك كما بيّنا ، سار عمرو لفتح برقة ، لأن برقة كانت معتبرة جزءاً من مصر بحسب التقسيم الإدارى البيزنطى ، فدخل برقة بعد قتال يسير مع سكانها من اللواتيين والهواريين من البربر الزناتية ، واتفق معهم على جزية قدرها ثلاثة عشر ألف دينار . وهذا المبلغ أصبح جزءاً من جزية مصر التى يُسأل عنها الولاة أمام الدولة الإسلامية « أواخر ٢٢ هـ / أوائل ٦٤٣ م » .

وتأميناً لحدود مصر سار عمرو بن العاص على رأس حملة من الفرسان سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م ففتح طرابلس ودخل قاعدتها المسماة بنفس الاسم ، بعد قتال عنيف مع الحامية البيزنطية ومن انضم إليها من رجال قبيلة نفوسة البربرية ، وكانت أكبر قبائل البربر فى إقليم طرابلس . وبذلك امتدت حدود الدولة الإسلامية غرباً حتى حدود ولاية إفريقية البيزنطية عند بلدة قابس ، وضم إقليم طرابلس إلى ولاية مصر .

وتوقفت الفتوح فى المغرب بعض الوقت . ولم تبدأ مرة أخرى إلا بعد أن استقرت الأمور لمعاوية بن أبى سفيان وقيام الخلافة الأموية فى دمشق .

وبعد أن تولى عبد الله بن سعد بن أبى السرح ولاية مصر فى أوائل خلافة عثمان أخيه من الرضاع استأذن أخاه فى المسير لفتح إفريقية . وكانت إفريقية ولاية من أهم ولايات الدولة البيزنطية ، نظراً لموقعها الجغرافى الفريد فى وسط البحر المتوسط ، وغناها بمحاصيل القمح والزيتون والزيت ، ومنها بطرق بن هرقل المعروف للعرب » فى أخبار فتوح الشام القسطنطينية ، لإقامة الدولة الهرقلية فى القسطنطينية سنة ٦١٠ ميلادية . وكان يتولاها أيام سار عبد الله بن سعد للفتح قائدٌ يلقبُ بالبطريق Patricius واسمه جريجوريوس ويسميه العرب جُرجير . وكان جُرجير هذا قد اختلف مع الدولة البيزنطية واستقل بولايته عنها ، وولايته تلك كانت تشمل مايعرف اليوم بالجمهورية التونسية على وجه التقريب ، وعاصمتها الرسمية قرطاجنة ، وكانت من أكبر موانىء البحر المتوسط إذ ذاك . وخاف جرجير من أساطيل الدولة البيزنطية فانسحب بقواته إلى الداخل ، وجعل قاعدته حصناً إلى جنوب غرب موقع القيروان بقليل يسمى Suffetula ويعرفه العرب على شبيطلة وكانت لديه قوة عسكرية قوية من معاتبة الروم ومن محضن إليهم من البربر ، ويقدرها المؤرخون العرب بمائة ألف مقاتل ، وتلك مبالغة . ولم يكن جرجير يتوقع قط أن يجىء الهجوم عليه من البر أو المشرق ، ومن هنا فقد كان دخول العرب ولاية إفريقية من ناحية قابس مفاجأة له .

وكان دخول العرب بقيادة عبد الله بن سعد فى سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م . وكانت القوة العربية صغيرة ولكنها تميزت بما عرفت به جيوش الفتح الإسلامى الكبير خلال القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى بالكفاءة والنظام وإيمان المقاتلين ، وكانت غالبيتهم العظمى هنا من خيرة الفرسان . وكان هناك تنافس شديد مشكور بين قادة الفتح فى المشرق وقادته فى المغرب ، وكلما فتح فريق منهم فتحاً اجتهد الآخرون فى القيام بفتح أعظم منه . وكان كبار الصحابة يسيرون فى جيوش الفتح بأنفسهم دون نظر إلى قيادة » كما فعل الزبير ابن العوام عندما اشترك فى فتح مصر تحت قيادة عمرو بن العاص » أو يرسلون أولادهم ليشتركوا فى الفتوح ليفوزوا بالثواب ويكسبوا الخبرة العسكرية والإدارية . وهنا فى جيش عبد الله بن سعد اشترك نفر من أبناء الصحابة فيهم سبعة يسمون عبد الله منهم عبد الله ابن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن مروان ابن الحكم ، بل كان فى الجيش عبد الملك بن مروان ، ولهذا سمى الجيش بجيش العبادلة . وكان التقاء بين المسلمين وجرجير فى أواخر ٢٨ هـ / ٦٤٩ م ، وانتصر المسلمون انتصاراً حاسماً عند سُبيطلة ، وانتهى بذلك السلطان الرسمى للروم فى إفريقية ، وإن كانت الدولة البيزنطية لم تكف عن محاولة استعادة إفريقية زمناً طويلاً ، ومن ذلك الحين أصبح العرب يواجهون البربر فى المغرب . والبربر شعب عظيم من القبائل الكبيرة والصغيرة التى تعمر المغرب كله من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسى . وهم ينقسمون إلى قسمين كبيرين من حيث أسلوبُ الحياة ، وهما : البربر البرانس ، وهم الزراع وسكان المدن والسهول ، والبربر البتر ، وهم الرعاة الرحّل الذين يعمرون السفوح الجنوبية لجبال الأطلس ، وهى العمود الفقرى الجغرافى الطويل الذى يمتد من جبال نفوسة جنوبى إقليم طرابلس حتى ساحل المحيط الأطلسى . وإذا كان البرانس هم عماد الاستقرار والزراعة فى المغرب فإن البتر كانوا رعاة ومقاتلين محاربين . وكل من القسمين كان يتكون من مجموعات قبلية ضخمة أكبرها صنهاجة ومصمودة من البرانس ، وزناتة من البتر . ومراكز القوة الكبرى لزناتة كانت الصحارى وأقاليم الرعى الشاسعة .

أما البرانس فكانت صنهاجة تعمر المغرب الأوسط من جبال أوراس إلى جبال الريف فى شمال المغرب الأقصى ، وبعد ذلك وإلى الجنوب وبحذاء ساحل الأطلسى كانت بلاد مصمودة ، وفى جنوبى المغرب الأقصى من وادى درعة نازلاً إلى بلاد السنغال كانت هناك منازل مجموعة صنهاجية ثانية كبرى ، سيكون لها دور كبير فى تاريخ المغرب بفضل الإسلام .

وحتى موقعة سبيطلة كان البتر الرعاة هم معظم من لقيه العرب من البربر البدو الرُّحّل من زناتة ، وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء على الوثنية ، وقد اجتذبهم الإسلام من أول الأمر بسبب ماوجدوا فيه من سماحة وعدالة . وكان مَنْ يسلم منهم يصبح مباشرة مواطناً فى دولة الإسلام الكبرى ، له كل حقوق المسلمين وعليه كل واجباتهم ، فدخلوا فيه جماعات . وبدخولهم الإسلام دخلوا ميدان التاريخ والحضارة ، لأن كل من غزا المغرب وحكمه قبل ذلك كانوا يعتبرون البربر همجاً خارج نطاق الحضارة . وتأكد ذلك عندما استعرب البربر وتكلموا اللغة العربية وكتبوا بها ، فأصبحت لهم لغة عامة واحدة هى العربية ، وأصبحوا من شعوب الحضارة القارئة الكاتبة . وعلى أساس وحدة الدين واللغة والكتابة قامت وحدة المغرب العربى الإسلامى .

وتوقفت الفتوح بعد موقعة سبيطلة بسبب فتنة عثمان ومأأعقبها من حرب أهلية . فلما انتهت الفتنة وخلصت الخلافة لمعاوية فى عام ٤٠ هـ / ٦٦١ م الذى سمى لذلك بعام الجماعة تولى أمر مصر عقبة بن عامر بن قيس الجهنى سنة ٤٤ هـ / ٦٦٤ م ، فأرسل رجلاً من كبار العثمانيين وهو معاوية ابن حديج السكونى فى جيش إلى المغرب ، وكان دافعه إلى ذلك أنه كان من قواد عمرو بن العاص ، وعندما فتح عمرو برقة أرسل قائده عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهرى فى حملة على زويلة وودان من بلاد برقة وطرابلس فدخلها ودعا للإسلام بها . وبعد أن فُتحت طرابلس استقرت فى زويلة حامية عربية يقودها نافع بن عبد القيس ومعه ابنه عقبة الذى اشتهر أمره بعد ذلك . فلما سار معاوية بن حديج السكونى إلى إفريقية كان عقبة بن نافع قد أصبح قائد حامية زويلة وودان ، وطال وجوده فى هذه النواحى وتطلعت نفسه لتولى أمر الفتوح فى المغرب . وعندما دخل معاوية ابن حديج إفريقية وجد الروم قد أرسلوا حملة استقرت فيها ، ثم غادرتها عندما دخلها العرب . وقد أكدت حملة معاوية بن حديج الوجود العربى الإسلامى فى المغرب . وقد عاد معاوية بن حديج إلى مصر ليتولى ولايتها سنة ٤٧ هـ / ٦٦٧ م .

وإذا كانت موقعة سبيطلة تعين الخطوة العربية الأولى لفتح إفريقية فإن ولاية عقبة ابن نافع الفهرى لقيادة الفتح فى المغرب سنة ٥٠ – ٥٥ هـ / ٦٧٠ – ٦٧٥ م تعين الخطوة الثانية الحاسمة . وكان الذى ولاه هو معاوية بن أبى سفيان ، وكان طول مكث عقبة ابن نافع فى المغرب قد جعله مغربياً عربياً . وكان قائداً موهوباً ذا نزعة إسلامية بالغة العمق . وعندما ولاه معاوية سار إلى إفريقية من زويلة وودان وفزان إلى غدامس ، ودخل إفريقية من الجنوب ، واتجه من أول الأمر إلى إنشاء مصر للمسلمين فى تلك الولاية حتى تستقل بأمرها عن مصر . واختار للمصر الجديد موقعاً فى وسط البلاد إلى شمال سبيطلة ، واختط به قاعدة سُميت القيروان – أى المعسكر – وبنى فيها مسجداً جامعاً ، واتخذ دار إمارة ، وأذن للعرب باتخاذ الخطط . وبذلك تكون إفريقية قد أصبحت مصراً إسلامياً فيه جماعة عربية وجماعات بربرية إسلامية مستعربة . ولم يعد من الممكن لدولة الخلافة أن تتخلى عن هذه الولاية الجديدة . وقد أنفق عقبة خمس سنوات من ولايته الأولى فى بناء القيروان ومسجدها الجامع ، فلما فرغ من أمر القيروان – وهى رابع الأمصار الإسلامية بعد الكوفة والبصرة والفسطاط – واستعد لمواصلة الفتح جاءه أمر العزل فساءه ذلك ، ولكنه عندما

ترك إفريقية عائداً إلى دمشق ليشكو مما عمل به الوالي الجديد أبو المهاجر دينار كان قد قام بالخطوة الحاسمة في إنشاء المغرب العربي .

ولايتسع المجال هنا لتفصيل أعمال من تولوا فتح المغرب بعد عقبة بن نافع في ولايته الأولى . لأن ذلك الفتح استغرق – من بدايته – أيام عمرو بن العاص سنة ٢٢ هـ إلى نهايته حوالي ٩٢ هـ / ٦٤٢ – ٧١٠ م – حوالي سبعين سنة ، وكل فاتح أضاف شيئاً من المغرب إلى دولة الإسلام . وعدد هؤلاء الفاتحين ثمانية مبينون على خريطتي فتح المغرب ، وخطوط فتوحهم مميزة بألوانها وتواريخها ، وإنما جعلنا الفتح في خريطتين لأن مسارات خطوطه متقاربة مما يخشى معه التباسها على القارىء .

وإذا كنا قد بيّنا خطوط الفتوح على الخريطتين وذكرنا ، إلى الآن ، الخطوتين الحاسمتين الأوليين في الفتح فلنورد الآن بياناً ببقية ولاة الفتح وأهمية العمل الذى قاموا به .

جاء بعد عقبة بن نافع وهو رابع فاتحي المغرب وأول ولاة إفريقية والمغرب – لأن ولاية إفريقية لم تنشأ إلا بعد اختطاط القيروان – أبو المهاجر دينار ٥٥– ٦٢ هـ / ٦٧٥ – ٦٨١ م وقضى على الكثير من مواقع الروم الباقية في إفريقية ، ووصل بفتوحه إلى تلمسان في طرف المغرب الأوسط ، وهناك كانت منازل قبيلة أَوْرَبَة البرنسية الكبيرة وقائدها كسيلة ابن حرم الأوربي فصالحه أبو المهاجر وأدخله في الإسلام مع قومه .

ولاية عقبة بن نافع الفهرى الثانية وحملته الكبرى على المغرب .

« ٦٢ – ٦٤ هـ / ٦٨١ – ٦٨٣ م » .

خلال سنتين ونصف قام عقبة بأكبر وأجرأ حملة قام بها قائد عربى على المغرب ، فقد اقتحم منازل البربر في جبال الأوراس ، واستولى على المراكز البربرية حتى وصل إلى طنجة ، وهناك لقى بليان أو يليان حاكم الإقليم وصالحه . ونصحه بليان بالاتجاه جنوباً خلال جبال الأطلس الكبرى حيث منازل قبائل مصمودة الكبرى ، التى لم يجرؤ أجنبى على دخولها ، وقد شقها عقبة مع رجاله في بسالة نادرة ، وجال في نواحيها يهزم كل من لقيه حتى عبر إقليم السوس ودخل مدينة تارودانت وعبر نهر السوس ، وعلى مصبه مدينة أغادير التى كانت تسمى رأس غير ، وبلغ شاطىء الأطلسى ، ودخل بحصانه في مياهه ، وأشهد الله على أنه بلغ نهاية الغرب ، ولم تبق أمامه بلاد يفتحها ، وعاد مخترقاً بلاد المغرب متبعاً نهج العنف والضربات القوية مع كل من نازله ، وسبيل الدعوة الحسنة لكل من دخل الإسلام وبنى المساجد . وفى عودته أنشأ رباطاً إسلامياً على نهر تانسيفت في المغرب ، وترك عليه قائداً وداعية إسلامياً يسمى « شاكر » ومازال رباط شاكر قائماً إلى اليوم . ولم يدر عقبة وهو مستغرق في الفتوح أن أعداءه يتكاثرون من حوله ويدبرون هزيمته بزعيمهم كسيلة الأوربى الذى أساء عقبة معاملته . وفى النهاية تجمعوا عليه وانحصروا معه في معركة حاسمة عند تهودة على وادى الأبيض جنوب بسكرة . وقتلوه مع بقية جيشه سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م . وهكذا لقى عقبة الشهادة كما كان يتمنى . وكان لاستشهاده ومأبدى من بسالة صدى عظيم في المغرب ، فعز الإسلام في نظر من لم يكن قد أسلم من البربر ، وأصبح عقبة « سيدى عقبة » في تاريخ الإسلام المغربى ، ونشر عقبة الإسلام بموته أكثر من نشره إياه في حياته .

زهير بن قيس البلوى قائد عقبة الذى تولى بعده

« ٦٩ – ٧١ هـ / ٦٨٨ – ٦٩٠ م »

وكانت مهمته القضاء على كسيلة والانتقام لعقبة ورجاله . وقد تمكن من ذلك ، وهزم كسيلة وقتله في معركة في موضع غير محدد من جبال الأوراس ، وعاد إلى القيروان حيث عمل قليلاً في تنظيم أمور ولاية إفريقية ، وعاد إلى المشرق حيث استشهد ونفر ممن معه قرب طرابلس ، على يد جماعة من الروم نزلت هناك لتغير على البلد سنة ٦٨٨ م .

حسان بن النعمان الغسانى « ٧١ – ٨٥ هـ / ٦٩٠ – ٧٠٤ م » :

وهو من أقدر فاتحي المغرب وولاته من الأمويين . جعل همه القضاء على بقايا الروم في إفريقية وسواحل المغرب . ولهذا الغرض خرب قرطاجنة ، وأنشأ ميناء تونس عند حلق الوادى حوالى ٨٤ هـ / ٧٠٣ م .

وكانت تلك ثانى مدينة كبرى ينشئها العرب في المغرب ، وسيقدر لها من الازدهار والاتساع والأهمية مافاقت به القيروان . وقد قامت في أيامه ثورة الكاهنة زعيمة قبيلة جراوة الصنهاجية في المغرب الأوسط ، وكانت امرأة قوية وزعيمة مغربية أرادت التخلص من العرب ، واستطاعت بالفعل هزيمة حسان وإرغامه على التراجع إلى برقة حيث انتظر المدد من دمشق عند موضع سمى قصور حسان . ثم عاد إلى المغرب مع المدد ، وهزم الكاهنة وقتلها في موضع يسمى وادى تيني في جبال الأوراس في الغالب . وعاد إلى القيروان حيث وضع أسس النظام الإدارى لولاية المغرب الكبيرة التى كانت تبدأ من برقة وتستمر حتى تصل إلى طنجة وساحل الأطلسى .

موسى بن نصير

« ٨٥ – ٩٢ هـ / ٧٠٤ – ٧١١ م »

يعتبر موسى بن نصير اللخمى – الحقيقة أنه عربى انتساباً ، أما أصله فإن أباه نصيرا كان من سبى خالد بن الوليد في عين التمر – الفاتح الأكبر لإفريقية ، وقد أراد أن يعوق في الفتوح ومنافسها على الحجاج بن يوسف الثقفى ورجاله ، ووجه جهوده إلى فتح بلاد المغرب ونواحيه التى لم تكن قد فتحت ، مستعيناً في ذلك بأولاده وقواده وأكبرهم عياش ابن أخيل . وقد أتم موسى ورجاله فتح المغرب وبخاصة بلاد السوس ، حيث أنشأ ولاية السوس التى سميت أيضاً ولاية سجلماسة . وسجلماسة عند منابع وادى الملوية ، وهى قاعدة إقليم تافللت الخصيب الذى يسمى الآن بالريصانى . وعاد إلى القيروان ليرسل حملات بحرية ، منها واحدة إلى صقلية ، وأخرى إلى سردانية . وأقام قائده طارق بن زياد البربرى الورفجومى الأصل قائداً على حامية طنجة ، ومن هناك بدأ فتح الأندلس .

وعلى يد موسى بن نصير تم فتح المغرب وتقسيمه إلى أربع ولايات كبرى تعرف بإفريقية وتضم طرابلس والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى وسجلماسة و « السوس » . وقد كان فتح المغرب من أعظم أعمال الفتوح التى قام بها عرب الأجيال الأولى وأكثرها بركة ، وأدلها على ماتميزت به تلك الأجيال من عزيمة وقوة بأس وإيمان وشدة مراس وقوة شكيمة . فكلما انهزم لهم جيش جاء جيش ، ودامت تلك الفتوح – كما قلنا – حوالى ٧٠ سنة بذل العرب خلالها من الجهود مايعادل مابذل في المشرق .

خريطة ٦٨

خريطة ٦٩

خريطة ٧٠

فتح الأندلــــس

يعتبر فتح الأندلس تاجاً لفتوح المسلمين في المغرب ، فبالإضافة إلى أنه كان فتحاً رائعاً من الناحية العسكرية فإنه أضاف إلى دولة الإسلام قطراً ضخماً من أقطار أوروبا . فامتد الإسلام به على ثلاث قارات ، وبهذا الفتح نجح العرب في دخول أوروبا من الغرب في حين فشلوا في دخولها « بمحاولة فتح القسطنطينية » من الشرق ، ثم أتيحت لهم الفرصة بعد ذلك للتوغل في غرب أوروبا وقلبها المسيحى حتى قرب نهر السين . ومن ذلك الحين أصبح الإسلام عاملاً رئيسياً من العوامل الموجهة لتاريخ الغرب الأوروبى .

والشائع أن فاتحي الأندلس اثنان : طارق بن زياد ، ثم موسى بن نصير ، ولكن الحقيقة أن الفاتحين ثلاثة ، فلا بد أن نضيف إلى طارق وموسى عبد العزيز بن موسى ، فإليه يرجع الفضل في فتح شرق الأندلس وغربه . ويطلق العرب لفظ الأندلس **Al - Andalus** على مادان لهم من بلاد شبه الجزيرة الأيبيرية كبيراً كان أم صغيراً . ومازال اسم الأندلس باقياً على مجموعة من ثمانى ولايات في جنوب شبه الجزيرة هى ، قرطبة وإشبيلية وقادش ومالقة وغرناطة وألمرية وجيان وولبه **Tuelva** . وهذه الولايات تكون اليوم وحدة إقليمية سياسية مستقلة إدارية **La Autonomia de Andalucia** .

وقد جعلنا لفتح الأندلس في هذا الأطلس خريطة عامة للفتح تليها خريطتان مكبرتان لفتح جنوب الأندلس وشماله (على صفحة واحدة) : الأولى تمثل خطوط سير طارق وموسى وعبد العزيز بن موسى في فتوحهم . والثانية لجنوب شبه الجزيرة الأيبيرية وشمالها ، لأن معارك الفتح الكبرى دارت في الجنوب والشمال . وكان لابد من تكبير مناطق الفتح كي تبين اتجاهات الفتوح ومواضع الوقائع العسكرية . وهذه الخرائط المكبرة عظيمة الفائدة فيما بعد لمن يريد أن يتتبع مواقع الصراع الطويل العنيف الذى دار بين الدولة الإسلامية الأندلسية في عصرى الإمارة والخلافة من ناحية ، وبلاد الدول النصرانية التى ولدت في الشمال وزحفت جنوباً لتستولى على ماتستطيع الاستيلاء عليه من بلاد الأندلس الإسلامى من ناحية أخرى ، كما سنرى بالتفصيل فيما يلى من خرائط تاريخ الأندلس في هذا الأطلس .

وترينا خريطة فتح الأندلس خطوط سَيْر جيوش الفتح الإسلامى ، بما في ذلك البعث الاستطلاعى الذى أرسله طارق بأمر موسى ليختبر المقاومة التى يمكن أن يلقاها الفتح .

وهى العدوة التى قادها طريف بن زرعة بن أبى مدرك . حيث نزل بقوة صغيرة عند الرأس الصغير الداخل فى البحر جنوب الأندلس الذى عرف بعد ذلك باسم طريف ، وبالإسبانية Tarifa وهو اليوم موضع بلد جميل يحمل نفس الاسم فى محافظة قادش .

وقد عينا مكان معركة شريش أو وادى لكة ، وهو سهل واسع دارت فيه سلسلة من المعارك بين جيش طارق « وعدته حوالى ١٢٠٠٠ مقاتل معظمهم من البربر » وبين رودريجو ملك القوط الغاصب للعرش من الملك واميا . وكان رودريجو فى شمال شبه الجزيرة فأسرع لقتال العرب ، وأراح فى مدينة شذونة ومنها اتجه إلى مواقع المسلمين ، ودارت المعركة فى رمضان ٩٢ هـ / يونيو ٧١١ م ، ودامت مابين أسبوع وأسبوعين حتى تحطمت قوى القوط ، وهربت فلولهم إلى الشمال ، وانفتح الطريق أمام طارق ليسير إلى طليطلة . أما رودريجو أو لذريق فلم يقتل فى المعركة ، وإنما فر فى اتجاه الإقليم الذى سماه العرب باسم تُدمير أو مرسية . وظفروا به فى مكان قريب من مدينة لورقة الحالية على مجرى وادى العلى Guadalentin .

وكان طارق قائداً عظيماً ، فلم يُضيع وقتا ، واتجه بجيشه رأساً نحو طليطلة عاصمة القوط ودخلها ، وفى الطريق أرسل فرقة يقودها مغيث الرومى فاحتلت قرطبة التى كانت – إذ ذاك – معسكراً رومانيا نشأت حوله مدينة عند القنطرة الحجرية الوحيدة على نهر الوادى الكبير ، ودخل طارق طليطلة عاصمة القوط ، ثم خرج يتتبع رجال القوط مابين عسكريين ورجال دين ، وكانوا قد فروا أمام المسلمين فى اتجاه سرقسطة يتقدمهم الأسقف سِنْدِرِد Sindredo ومعه ذخائر الكنيسة ، ومن بينها مذبح الكنيسة المُحلى بالجواهر ، وقد سماه العرب بمائدة سليمان . وأدركهم المسلمون ، وأخذوا الذخائر عند بليدة تسمى الآن Alcalá de Henares فسماها العرب مدينة المائدة ، وسميت فيما بعد قلعة عبد السلام ، وعاد طارق ومن معه بذخائر ضخمة ذكَّرت المسلمين بذخائر فتح العراق .

وكان طبيعياً أن يسرع موسى للحاق بقائده . فأخذ معه قوة قدرها ١٨٠٠٠ مقاتل معظمهم من العرب هذه المرة ، وفيهم الكثير من زعماء العرب الشامية القيسية واليمنية الكلبية ، وعبر إلى الأندلس ، وسار نحو طليطلة فى طريق غير طريق طارق ليفتح هو الآخر فتوحا . فمر بإشبيلية ودخلها ، ثم نهض نحو طليطلة . وعندما عبر نهر الواديانة عند ماردة وجد جماعة من فلول القوط فى انتظاره ، فدار قتال عنيف ، ثم تحصن منه القوم خلف أسوار ماردة ، فحاصرها حتى استولى عليها بعد خسائر كبيرة فى رجاله ، وليس بصحيح أن لذريق لقى العرب إلا ذلك فى موقعة ثانية قرب تماسي Tamames على نهر التورمس Tormes أحد نهيرات الدويرة لأن لذريق قتل فى مكان آخر كما قلنا . ووصل موسى إلى طلبيرة Talavera على نهر تاجه ، وكان طارق قد خرج للقائه هناك ، وتسلم موسى قيادة الفتح ، وعاد الاثنان إلى طليطلة ، ثم نهضا لاستكمال فتح شمال الأندلس ، فاتجه طارق بقواته إلى الشمال الشرقى واحتل سرقسطة ، وصعد إلى قرب جبال ألبرت وهى البرانس ، ثم عاد واتجه غرباً محاذياً نهر الأبرو . وعند مدينة استرقة Astorga التقى بموسى وجيشه ، وسار الاثنان لفتح شمال غرب الأندلس ، فأما موسى فقد دخل أبيط Oviedo بعد أن عبر الجبال الكنتبرية ووصل ساحل بسكاية عند خيخون ، وأما طارق فقد بلغ مداخل جليقية . وهنا أحس موسى أنه أتم فتح الأندلس فعاد إلى طليطلة ليواصل عمله كأول والٍ من ولاة الأندلس ، ولكن الخليفة الوليد بن عبد الملك كان قد استدعاه مع طارق إلى دمشق ، فترك ابنه عبد العزيز بن موسى والياً على الأندلس فى محرم ٩٥ هـ / سبتمبر ٧١٣ م وهذه هى بداية عصر الــولاة .

أتم عبد العزيز بن موسى أثناء ولايته – التى امتدت إلى آخر ٩٧ هـ / سبتمبر ٧١٦ م فتح غرب الأندلس حتى المحيط الأطلسى وشرقه ، وبخاصة إقليم تدمير « مرسية » ، وعندما قتل كان فتح الأندلس قد تم . واتجهت جهود ولاة الأندلس خلال عصر الولاة الذى امتد حتى قيام الدولة الأموية الأندلسية على يد عبد الرحمن الداخل فى ذى الحجة ١٣٨ هـ / ١٧ مايو ٧٥٦ م – إلى مواصلة الفتوح فيما يلى جبال ألبرت « البرانس شمالاً » .

خريطة ٧١

فتوح المسلمين فى غالة

Les Galles

فرنســا

لم يكن فتح الأندلس آخر أعمال المسلمين العسكرية فى الجناح الغربى لدولة الإسلام . فقد بلغ من نشاط الجيش العربى وحماسه للفتح أن تخطى بقواته جبال الأبواب أو البِرْتات أو ألبرت المسماة بالبرانس وأراد فتح بلاد غالة أو الغالات Les Galles ويراد بها فرنسا .

فقد تولى الأندلس خلال عصر الولاة واحد وعشرون والياً أولهم عبد العزيز بن موسى ، قام منهم ثلاثة عشر بأعمال الفتوح فى غالة . ولم تتوقف حركة الدفع الإسلامى إلا بعد انسحاب المسلمين فى موقعة بلاط الشهداء التى تسمى عند أهل الغرب بموقعة بواتييه فى رمضان ١١٤ هـ / سبتمبر ٧٣٢ م . ورغم ذلك فقد ظلت حامية عربية فى أربونة Narbonne جنوب غربى فرنسا نحو عشرين سنة ، محتفظة بتلك البلد وبجانب كبير من سبتمانية ولم ينسحب المسلمون من غالة تماماً إلا بعد قيام الدولة الأموية الأندلسية سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م وقرار عبد الرحمن الداخل سحب بقية قوات المسلمين من غالة ، والاكتفاء بشبه الجزيرة .

وكان دافع العرب الأول إلى عبور جبال ألبرت هو أن ولاية سبتمانية Septemania – وهى شريط من الأرض يمتد بمحاذاة ساحل البحر المتوسط جنوبى فرنسا ويمتد حتى مصب نهر الرون ، ويضم مايعرف اليوم بالريفيرا الفرنسية وجزءاً من الريفيرا الإيطالية حتى حدود مايعرف بولاية الألب البحرية Les Alcs Maritimes وهذه الولاية كانت تتكون من سبع وحدات إدارية ومن هنا جاء اسم Septemania – كانت من أملاك القوط الغربيين سادة شبه الجزيرة الأيبيرية ، فكان لابد للعرب من الاسترسال ، ووضع يدهم على سبتمانية وعاصمتها مدينة Narbonne التى يسميها المسلمون أربونة . وبالفعل قام بذلك الوالى الحر بن عبد الرحمن الثقفى ٩٨ – رمضان ١٠٠ هـ / ٧١٧ – مارس ٧١٩ م ، ودخل مدينة أربونة وجعلها قاعدة الفتوح فى غالة .

وكانت بلاد غالة مقسمة بين أربع وحدات سياسية : مملكة الفرنجة الميرو فنجيين وتشمل معظم الغالات وعاصمتها باريس ، ودوقية أقطانية Aquitania وقاعدتها بردال Bardeau وتشمل حوض الجارون ومايليه جنوبا من بلاد غشقونية Gascogne وكانت دوقية مستقلة عن سلطان الميروفنجيين ومملكة برغندية La Burgogne (Borgogna) وتشمل حوض الرون ، ثم سبتمانية هذه .

وجاء السمح بن مالك الخولانى والى الأندلس الذى خلف الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، وكان الذى اختاره لولاية الأندلس هو الخليفة عمر بن عبد العزيز « رمضان ١٠٠ – ذو الحجة ١٠٢ هـ / مارس ٧١٩ – يونيو ٧٢١ م » فنهض للفتح من أربونة ، وأوغل فى دوقية أقطانية ، وحاصر طولوشة Toulouse فخف للقائه أودون Odon دوق أقطانية وتلاقى الجيشان قرب طولوشة وقاتل المسلمون ببسالة ، ولكن السمح قتل فانهزمت بقية الجيش . وتمكن مساعده عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من جمع بقية الجيش والعودة إلى أربونة . وتولى عبد الرحمن الغافقى أمر الأندلس حتى سنة ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م .

ثم جاء عنبسة بن سحيم الكلبى والياً على الأندلس سنة ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م ، ونهض للفتح سنة ١٠٦ هـ / ٧٢٤ م . فدخل برشلونة ثم طرسونة Tarasona فى إسبانيا ، وعبر ألبرت من الممر الساحلى ، ثم دخل أربونة ، ومنها سار إلى قرقشونة Carcassonne ثم نيمة Nime ثم سار مع حوض الرون شمالاً حتى وصل أوتان Autun وكانت إذ ذاك أعظم بلاد مملكة برغندية ، واحتلها وعقد مع أهلها حلفا .

وعندما بلغ مدينة ليون ملتقى الرون بالساءون احتلها ، ثم احتل ماكون ثم شالون ، وهناك تفرع جيشه فرقتين : واحدة دخلت ديجون ، والثانية وصلت إلى صانص Sens على أحد فروع السين على بعد ٧٠ كيلو متراً جنوب باريس ، وهذا أقصى حد بلغته قوات الإسلام الفاتحة فى الغرب ، ومع أن عنبسة كر راجعاً بعد ذلك محملاً بالغنائم فإن وصوله إلى هذا الحد أوقع الرعب فى قلب قارله وهو شارل مارتل Charles Martel حاجب القصر لملوك الميروفنجيين . وكان يريد أن يقوم بعمل يثبت به أنه هو وأسرته أقدر من الميروفنجيين ، فجعل يحشد ويجمع الأنصار للقاء المسلمين فى حالة ماإذا عادوا . وعاد عنبسة إلى الأندلس ، ولكنه وجد – قرب مداخل الأندلس – أن الظروف تغيرت ، فإن قائداً بربرياً انشق على المسلمين ، وحالف الدوق أودون وتزوج ابنته . ووقع خلاف بين المسلمين والقطلونيين ، وقتل عنبسة فى الصراع فى شعبان ١٠٧ هـ / ديسمبر ٧٢٥ م .

وتولى بعده عذرة بن عبد الله الفهرى الذى حكم حتى شوال ١٠٧ هـ / فبراير ٧٢٦ م وقد قام بنشاط واسع فى بلاد غالة ، ولكن نشاطه لم يكن نشاط فتح منظم . بل اكتفى بعمليات الغزو والإغارة فى بلاد حوض الرون وغشقونية .

ولم يقم الولاة الخمسة الذين جاءوا بعد عذرة بشىء من الفتوح حتى تولى أمر الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى للمرة الثانية « ١١٢ – ١١٤ هـ / ٧٣٠ – ٧٣٢ م »

وكان رجلاً من طراز كبار الفاتحين . ولكن كانت تنقصه الحكمة السياسية . فقد دخل بلاد غالة من ممر يؤدى إلى دوقية أقطانية فى صيف ١١٤ هـ / ٧٣٢ م فخافه الدوق أودون ، ثم إن عبد الرحمن دخل أرض أقطانية دخول الغازى فاستغاث أودون بقارلة . ودخل عبد الرحمن بردال قاعدة أودون فأثار ذلك الخوف فى كل الدوقية ، وأسرع أودون بنفسه للقاء شارل مارتل ، وقامت حركة ضد المسلمين فى بلاد الرون . فاتجه عبد الرحمن إليها ودخل آرل ، ثم ارتد إلى دوقية أقطانية ودخل بوردو . ثم اتجه نحو تولوز واحتلها ، وبدلاً من أن يتخير موقعاً للمعركة يستطيع فيه الاستفادة من جيشه على أحسن صورة ، كما فعل طارق بن زياد ، اندفع عبد الرحمن شمالاً ، وقد تضخم جيشه بحشود من البربر تسارعت للانضمام إلى الجيش الفاتح دون أن تكون لعبد الرحمن سيطرة حقيقية عليها . وعندما أخذ عبد الرحمن فى السير شمالاً كان قارلة قد استنفر الناس وجمع جنداً كثيراً ، بل إن جيشاً من اللومبارديين خف لعونه بإيعاز من البابوية . وعندما أوغلت قوات المسلمين فى أرض الغابات بعد مدينة بواتييه صدتها قوات الفرنجة فى أرض غابات وأحراش ، واشتد هطول الأمطار (أكتوبر ٧٣٢ م) فعجزت خيل المسلمين عن الثبات ، ودارت رحى معركة طاحنة استمرت أياماً بدأت فى ١٢ أو ١٣ أكتوبر ٧٣٢ م ودامت طوال اليوم ، وهلكت فيها صفوة الجيش الإسلامى ، وفى مقدمتها عبد الرحمن الغافقى . وفى الليل انسحب المسلمون من ميدان المعركة جنوباً عائدين إلى أربونة . وكان اللقاء فى موضع يقع شمال بواتييه فى الطريق إلى تور عند قرية تسمى اليوم **Moussais la Bataille** على الطريق الرومانى المبلط الذى يسميه المسلمون بالبلاط ، ولهذا تعرف المعركة عند المسلمين ببلاط الشهداء .

وبعد الهزيمة حاول قائد يسمى عبيدة بن عبد الرحمن السُّلمى تنظيم أمور المسلمين فى غالة . وعندما تولى الأندلس عبد الملك بن قطن بن عبد الله بن نعيل الفهرى (١١٤ - ١١٦ هـ / ٧٣٢ - ٧٣٤ م) اجتهد فى تحصين أربونة ولَمِّ شعث المسلمين ، وقادهم فى حملات على بلاد الرون مثل آرل ومالاسى وليون ، وثبت أقدام المسلمين فى إقليم الدوفينية **Dauphinée** وهى الريفييرا الآن .

وعندما تولى عقبة بن الحجاج السلولى (١١٦ - ١٢٢ هـ / ٧٣٤ - ٧٤٠ م) اتسع أمامه الوقت لتنظيم أمور المسلمين فى غالة . ودخل آرل ثم أبنيون **Avignon** التى يسميها العرب صخرة أبنيون ، وبذل أقصى جهده فى تثبيت سلطان المسلمين فى حوض الرون . ووجد شارل مارتل أنه لابد له من المسير نحو المسلمين مرة أخرى . فتحصن المسلمون فى أربونة ، وبخاصة وأن اللومبارديين انضموا إلى قارلة مرة أخرى . فلم تسقط إلا سنة ١٤١ هـ / ٧٥٨ م . أى بعد قيام الإمارة الأموية القرطبية ، وعبد الرحمن الداخل هو الذى سحب المسلمين من غالة ، لأنه وجد أنه يكفيه أن يقوى مركزه فى الأندلس .

وقد بيَّنا على الخريطة أهم خطوط الفتح الإسلامى ، و لم نجد مايدعو إلى تعيين منطقة محددة لمجال سلطان المسلمين فى غالة ، لأن الواقع أنه لم تكن هناك منطقة يمكن تحديدها على خريطة ، وإنما كانت هناك قاعدة إسلامية عسكرية أساسية فى أربونة ، وأخرى تالية لها جنوباً فى طرسونة فى جنوبى جبال ألبرت ، ومن هذين الموقعين أدار المسلمون حركة الفتوح وحكموا نواحى واسعة من حوض الرون وبلاد سبتمانية

المراجع

ابن الأثير عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم . ت سنة ٦٣٠ هـ .
– الكامل في التاريخ . طبعة المطبعة المنيرية في القاهرة . بدون تاريخ ٨ أجزاء .
– أسد الغابة في معرفة الصحابة طبعة دار الشعب القاهرة ١٩٧٠ م سبعة أجزاء .
– اللباب في تهذيب الأنساب . ثلاثة أجزاء . نشرته مكتبة القدسي في القاهرة سنة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .

الأزرقي أبو الوليد محمد عبد الله :
– أخبار مكة وماجاء فيها من الأخبار . تحقيق رشدي الصالح ملحس جزءان . الطبعة الثانية مكة ١٩٦٥ م

الأصفهاني أبو الفرج : الأغاني . طبعة دار الكتب المصرية . مجلد ٧ ص ٧٧ – ٧٨

البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر . ت ٢٧٩ هـ
– أنساب الأشراف . الجزء الأول (خاص بالسيرة) بتحقيق الدكتور محمد حميد الله الحيدر أبادي . الطبعة الثانية دار المعارف – القاهرة .
– فتوح البلدان بتحقيق د. صلاح الدين المنجد . ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٥٦ – ١٩٦٠ م .

البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين
– دلائل النبوة . مخطوط دار الكتب بالقاهرة رقم ٣١٢ حديث . ثم تحقيق الدكتور عبد الرحمن عثمان . ونشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة جزءان ١٩٦٩ م

الجزيري عبد القادر بن محمد بن عبد القادر
– دُرَر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة . المطبعة السلفية القاهرة .

حاجي خليفة كاتب جلبي . مصطفى بن عبد الله . ت ١٠٦٧ هـ
– كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . طبعة استانبول سنة ١٣٦٠ – ١٣٦٢ هـ .

ابن حبيب أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية النسابة . ت ٢٤٥ هـ .
– كتاب المُحبّر . بتحقيق الدكتورة إيلزه ليختن شتيتر ومحمد حميد الله . مطبعة دائرة المعارف العثمانية – حيدر أباد الدكن سنة ١٩٤٢ م
– المُنمّق في أخبار قريش . حيدر أباد الدكن ١٩٦٤ م .

الحربي إبراهيم بن إسحاق . ت ٢٨٥ هـ
– المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة . تحقيق الأستاذ حمد الجاسر . الرياض ١٩٦٩ م .

ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن محمد . ت ٨٥٢ هـ
– الإصابة في تمييز الصحابة ٤ أجزاء نشرته الجمعية الأسيوية الملكية ، كلكتا الهند ، ١٨٧٧ م . وتحقيق علي محمد البجاوي .
– فتح الباري في شرح صحيح البخاري . القاهرة ١٣٨٠ هـ ، القاهرة ١٩٧٠ م في ٤ أجزاء (ترجمة عبد الله بن أنيس) .
– لسان الميزان ، ٦ أجزاء . حيدر أباد الدكن الهند . ١٣٢٩ – ١٣٣١ هـ
– تهذيب التهذيب . ١٢ جزءاً . طبعة حيدر أباد الدكن ، الهند ١٣٢٥ – ١٣٢٧ هـ .

ابن أبي الحديد عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد . ت ٦٥٥ هـ .
– شرح نهج البلاغة ٢٠ جزءاً مطبعة دار إحياء الكتب العربية . عيسى الحلبي القاهرة ١٣٢٩ هـ .

ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ت ٤٥٦ هـ .
– جمهرة أنساب العرب ، بتحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون . الطبعة الرابعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٧ م
– جوامع السيرة ، بتحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد والشيخ أحمد محمد شاكر . دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٢ م .

أبو حنيفة الدينوري أحمد بن داود ، ت ٢٨٢ هـ .
– الأخبار الطوال . تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٠ م

الخشني مصعب بن محمد بن مسعود ، ت ٦٠٤ هـ .
– شرح غريب سيرة ابن إسحاق . جزءان بتحقيق يوسف برونله ، مطبعة هندية القاهرة ١٩١١ م .

حمزة الأصفهاني تاريخ ملوك الأرض والأنبياء . بتحقيق جوتفالد ، برلين ، الطبعة الثانية ١٩٢١ م .

ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد . ت ٨٠٨ هـ
– كتاب العبر (تاريخ ابن خلدون) ٧ أجزاء – بما في ذلك المقدمة – طبعة بولاق القاهرة .

ابن خلكان أحمد بن محمد بن إبراهيم ، ت ٦٨١ هـ .
– وفيات الأعيان ، بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد
مكتبة النهضة المصرية ٤ أجزاء القاهرة ٩٤٠ هـ .

ابن سعد محمد بن سعد كاتب الواقدي ت ٢٣٠ هـ .
– كتاب الطبقات الكبير . بتحقيق الدكتور إحسان عباس . ٨ أجزاء بيروت ١٩٥٢ م .

السمهودي علي بن أحمد نور الدين ت ٩١١ هـ .
– وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى . بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٥٥ م .

السهيلي عبد الرحمن بن عبد الله ت ٥٨١ هـ .
– الروض الأُنُف . شرح سيرة ابن هشام ، جزءان ، على نفقة السلطان مولاي عبد الحفيظ ، المطبعة الجمالية القاهرة ١٣٣٢ هـ .

ابن سيد الناس اليعمري أبو الفتح محمد بن محمود. ت ٧٣٤ هـ .
– عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير . نشرته مكتبة القدسي في جزءين . القاهرة ١٣٥٦ هـ .

الطبري أبو جعفر محمد بن جرير . ت ٣١٠ هـ .

- تفسير القرآن الكريم المسمى جامع البيان . بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر صدر منه ١٥ جزءاً ، دار المعارف بالقاهرة ١٣٧٤ – ١٣٧٩ هـ وطبعته المطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٤٠ هـ على أساس طبعة بولاق .
- تاريخ الأمم والملوك . بتحقيق الأستاذ أبى الفضل إبراهيم فى ١١ جزءاً . القاهرة (دار المعارف) سنة ١٩٦٠ م ومابعدها

البكــــــــرى
ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ت ٤٨٧ هـ
- معجم مااستعجم . أربعة أجزاء بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . ١٩٤٦ م .

أبــــو المحاسن
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . طبعة دار الكتب المصرية .

المسعــــــودى
مروج الذهب . القاهرة بدون تاريخ ٤ أجزاء
- التنبيه والإشراف . طبعة دار الهلال . بيروت .

ابـــن العبـــرى
غريغوريوس الملطى
- مختصر تاريخ الدول . ط ٢ بيروت ١٩٥٨ م

عمــر رضا كحالــة
معجم القبائل العربية دمشق ١٩٤٩ م .

الفاســــــى
محمد بن أحمد بن على (٧٧٥ – ٨٣٢ هـ)
- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام . القاهرة ١٣٦٥ هـ

ابـــن قتيبـــة
عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ هـ
- كتاب المعارف بتحقيق د. ثروت عكاشة . دار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٦٠ م .
- عيون الأخبار القاهرة ١٩٦٢ م
- الإمامة والسياسة (منسوب إليه) تحقيق الزينى القاهرة .

ابن قدامة المقــدسى
الاستبصار فى نسب الصحابة من الأنصار . بتحقيق على نويهض . بيروت ١٩٧٢ م .

القلقشــنــدى
أحمد بن على بن أحمد الفزارى أبو العباس . ت ٨٢١ هـ
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا . طبعة دار الكتب وفهرسه الذى عمله محمد البقلى القاهرة ١٩٧٢ م .
- نهاية الأدب فى معرفة قبائل العرب بتحقيق إبراهيم الإبيارى القاهرة ١٩٥٩ م .

ابـن كـثير القــرشى
إسماعيل بن عمر . ت ٧٧٤ هـ .
- البداية والنهاية . ١٤ جزءاً ، الأجزاء الخمسة الأولى . نشرتها مكتبة الخانجى ومطبعة السعادة . القاهرة ١٣٥١ – ١٣٥٨ هـ .

ابـــن الكلبـــى
هشام بن السائب بن بشر أبو المنذر . ت ٢٠٤ هـ .
- كتاب الأصنام بتحقيق أحمد زكى باشا دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٤ م .
- جمهرة النسب رواية محمد بن حبيب النسابة . مصور مخطوط المتحف البريطانى، الجزء الأول رقم ١٢٠٢ والإضافات رقم ٢٣٢٩٧ ، وحقق الجزء الأول منه عبد الستار أحمد فراج . الكويت ١٩٨٣ م .

المقريــــــزى
تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ .
- إمتاع الأسماع جـ ١ بتحقيق الشيخ محمود محمد شاكر . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥ م .
- التاريخ الكبير المسمى «المقفى» مخطوطة دار الكتب بالقاهرة .
- تهذيب اللباب فى معرفة الأنساب . بيروت دار صادر بدون تاريخ

ابــن النــديم
محمد بن إسحاق بن محمد . ت ٤٣٨ هـ .
- الفهرست . المكتبة التجارية . القاهرة ١٣٤٨ هـ .

نــور الديــن الحلبــى
على بن إبراهيم بن أحمد ، ت ١٠٤٤ هـ .
- السيرة الحلبية ، جزءان ، مطبعة مصطفى الحلبى ، القاهرة ١٣٤٩ هـ .

النويــــــرى
أحمد بن عبد الوهاب بن محمد . شهاب الدين . ت ٧٣٣ هـ
- نهاية الأرب ، المجلدات ١٦ – ١٧ – ١٨ ، تتناول السيرة النبوية . القاهرة ١٩٥٥ – ١٩٥٧ م .

الواقــــــدى
محمد بن عمر بن واقد ، ت ٢٠٧ هـ .
- كتاب المغازى ، ثلاثة أجزاء بتحقيق د. مارسدن جونس ، مطبوعات جامعة أوكسفورد ، طبع دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦ م .

ابــن هشــــام
أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب ، ت ٢١٣ هـ .
- سيرة النبى ﷺ ، أربعة أجزاء بتحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى ، مطبعة مصطفى الحلبى القاهرة ١٩٣٦ م .

الهمــــــدانى
الحسن بن أحمد بن يعقوب (ابن الحائك ت ٣٣٤ هـ) .
- الإكليل فى أنساب حِمْيَر وأيام ملوكها . تحقيق محب الدين الخطيب . القاهرة ١٣٦٨ هـ .
- صفة جزيرة العرب ، بتحقيق محمد بن على الأكوع ، الرياض ١٩٧٤ م .

ياقــوت الحمــوى
ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى ت ٦٢٦ هـ .
- معجم البلدان ١٠ أجزاء مطبعة الخانجى ، القاهرة ١٩٠٦ .
- معجم الأدباء ٢٠ جزءاً بتحقيق د. أحمد فريد رفاعى ، مطبعة عيسى الحلبى القاهرة ١٩٣٥ – ١٩٣٨ م .

اليعقوبــــــى
أحمد بن يعقوب بن جعفر بن واضح ، ت ٢٨٤ هـ .
- تاريخ اليعقوبى جزءان بيروت ١٩٦٠ م .
- كتاب البلدان ، مصور طبعة ليدن سنة ١٨٩١ م . عملته مكتبة المثنى فى بغداد سنة ١٩٦٢ م .

جـــواد على
تاريخ العرب قبل الإسلام منشورات المجمع العلمى العراقى . ثمانية مجلدات بغداد ١٩٥٥ م . ومابعدها .

جورجــى زيــدان
تاريخ العرب قبل الإسلام الطبعة الرابعة ، راجعه وعلق حواشيها د. حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ م .
- تاريخ التمدن الإسلامى ، بتحقيق د. حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ م ، أربعة أجزاء .

حـــمـد الجاســر
أبو على الهجرى وأبحاثه فى تحديد المواضع . دار اليمامة الرياض ١٩٦٨ م .
- فى سراة غامد وزهران ، دار اليمامة الرياض

١٩٧١ م .

- في شمال غرب الجزيرة ، دار اليمامة الرياض ١٩٧٠ م .

- المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية . قسم شمال المملكة .

- المنطقة الشرقية .

- المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية . معجم مختصر

- بلاد ينبع .

- في شمال غرب الجزيرة .

- بلاد جهينة ومنارها

وكلها من منشورات دار اليمامة بالرياض

خليل يحيى نامي : أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة مايو ١٩٣٥ م

فيليب حتي : تاريخ العرب مطول ٤ أجزاء ، بيروت ١٩٥٧ م

عبد الله بن محمد بن خميس : المجاز بين اليمامة والحجاز ، دار اليمامة الرياض ١٩٧٠ م

د. عبد الله يوسف الغنيم : جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك لأبي عبيد البكري ، دار ذات السلاسل بالكويت ، الطبعة الأولى ١٩٧٧ م .

- المخطوطات الجغرافية في المتحف البريطاني القاهرة ١٩٧٢ م .

لسترنج ، كي : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ١٩٤٥ م .

Joldjieher . Ifnaz ., Vorlesungen uber den Islam 2d ed . Heidelberg 1910

Conssin A de Perceval, Essai Sur L 'histoire des arabes avant L'Islamisme 3 vols . Pari 1847 . Refrint 1952 .

Trimingham, Christianity among the Arabs in Pre - Islamic Arabia Longman . London 1949 .

Leon Caetani , Annali Dell Islam . Millano , 1905 .

Alfred Guillaume . Ibn Ishak's Life of Mohammed . Oxford 1955

وهي الترجمة الإنجليزية لسيرة ابن هشام .

J. Horowitz , the Early Works of the Campaigns , of Mohammad and its Authors . 1914 .

وقد ترجم هذا الكتاب د. حسين نصار بعنوان : كتب المغازي الأولى ومؤلفوها :

Alfred Von Kremer , Wokidi's History of Muhammad's - Campaigns , Calcutta , 1855 .

J . Wellhausen Mohammad in Madina Berlin 1882 .

Montgomery Watt , Mohammad in Mekka , Cambridge 1960

J . Pfannmuller , Handwoertenbuch des Islams 1925 .

M . Offen heimer , Die Bedarnen . Leipzig 1943 .

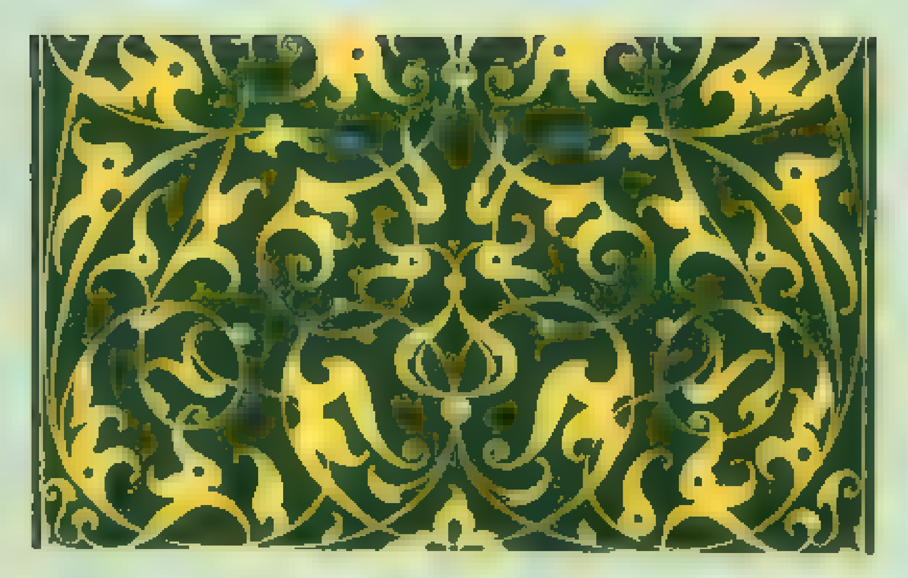

الفصل السابع

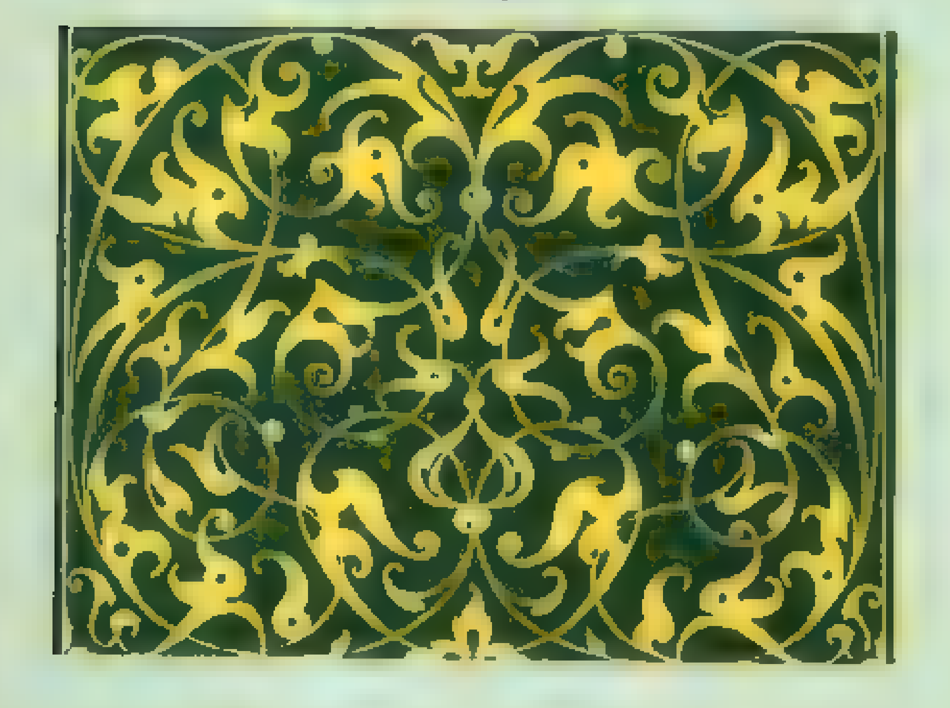

الدولتان الأموية والعباسية

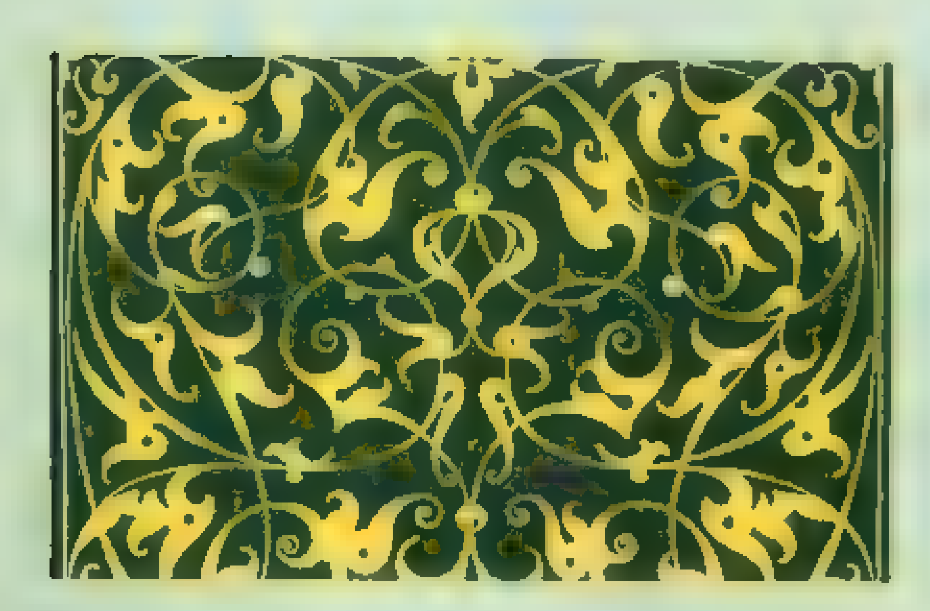

بيان الخرائط

أجناد الشام
في العصر الأموي
مقياس الرسم ١ : ٣٠٠٠٠٠٠
بحر الروم
حلب
حمص
اللاذقية
طرطوس
بيروت
صيدا
صور
عكا
حيفا
يافا
غزة
النقب
عمان
جبل الطبيق

بلاد الشام
في العصر الأموي
قواعد الأجناد قنسرين - حمص - دمشق - الرملة - طبرية
المدن
القصور والبوادي
أراضي الصفايا وضياع الخلفاء
١- ضياع الوليد ابن عبد الملك
٢- ضياع سليمان بن عبد الملك
٣- 〃 〃 يزيد بن الوليد
٤- 〃 〃 هشام بن عبد الملك
٥- 〃 〃 الوليد بن يزيد
٦- 〃 〃 مروان بن محمد
مقياس الرسم ١: ٣٠٠٠٠٠٠
جند الثغور
جند قنسرين
جند حمص
جند دمشق
الإسكندرونة
السويدية
قبرص
بحر الروم
اللاذقية
جبلة
طرطوس
عرقة
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
عكا
قيسارية
يافا
أسدود
عسقلان
غزة
رفح
قنسرين
حماة
حمص
تدمر
الرقة
بعلبك
دمشق
طبرية
بيسان
نابلس
الرملة
القدس
الخليل
بصرى
أيلة
خليج أيلة

طرق المواصلات ومراكز التجارة في بلاد الشام في العصر العباسي
كما ورد عند المقدسي

⊙ قصبات الكور
• المدن والقرى الكبرى
— الطرق

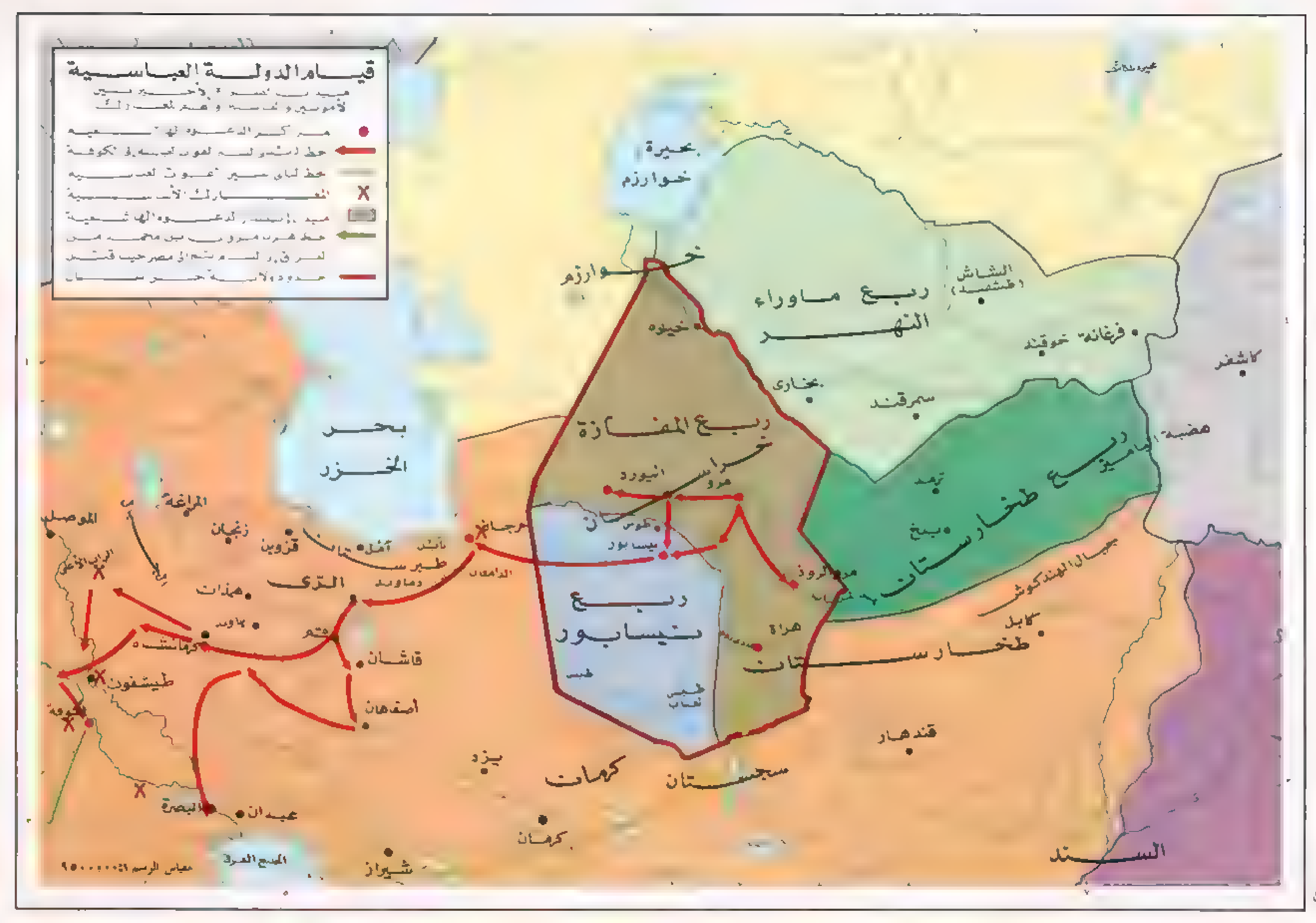
قيام الدولة العباسية
خوارزم
بحيرة خوارزم
خيوه
ربع ماوراء النهر
الشاش (طشقند)
فرغانة خوقند
كاشغر
بخارى
سمرقند
ربع المفازة
خراسان
ابيورد
مرو
طوس
نيسابور
ربع نيسابور
ربع طخارستان
ترمذ
بلخ
جبال الهندكوش
كابل
طخارستان
هراة
قندهار
سجستان
كرمان
يزد
بحر الخزر
جرجان
آمل
طبرستان
دماوند
الدامغان
قزوين
زنجان
المراغة
الموصل
همذان
نهاوند
كرمانشاه
قم
قاشان
اصفهان
طيسفون
الكوفة
البصرة
عبادان
شيراز
الخليج العربي
السند

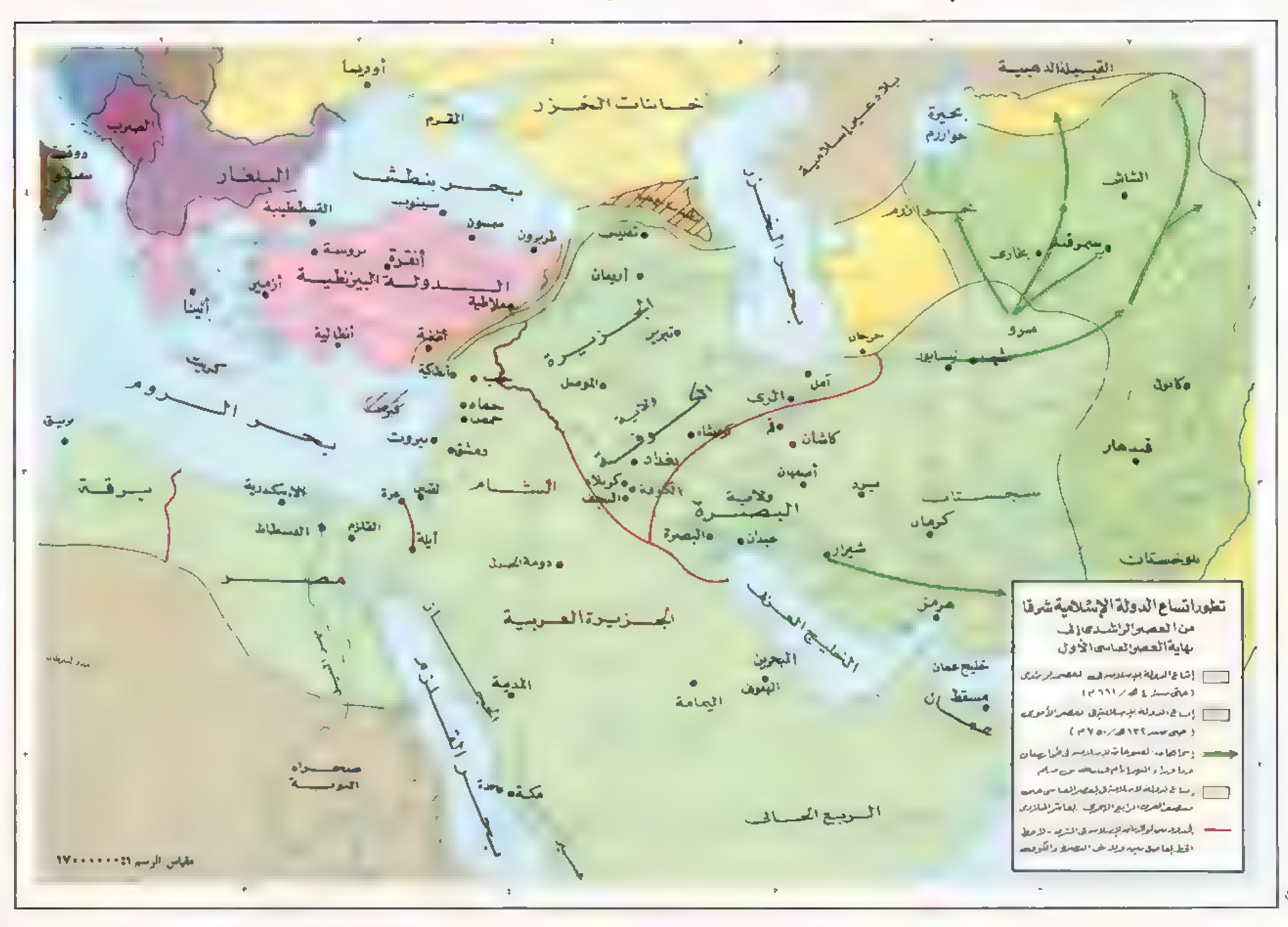
تطور اتساع الدولة الإسلامية شرقاً
من العصر الراشدي إلى
نهاية العصر العباسي الأول
(حتى سنة ٤٠ هـ / ٦٦١ م)
(حتى سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م)
مقياس الرسم ١ : ١٧٠٠٠٠٠٠
أوربا
خانات الخزر
القبيلة الذهبية
بحيرة خوارزم
بلاد غير إسلامية
الصرب
البلغار
القرم
بحر بنطش
سينوب
القسطنطينية
سمسون
طربزون
بروسة
أنقرة
الدولة البيزنطية
أزمير
أثينا
ملاطية
أنطاكية
أنطالية
كريت
بحر الروم
برقة
الإسكندرية
الفسطاط
القلزم
أيلة
غزة
القدس
بيروت
دمشق
حماه
حمص
الشام
دومة الجندل
مصر
صحراء النوبة
الجزيرة العربية
المدينة
مكة
جدة
اليمامة
الهفوف
البحرين
الربع الخالي
الخليج العربي
خليج عمان
مسقط
عمان
هرمز
الجزيرة
الموصل
تبريز
أرمان
تفليس
الكوفة
كربلاء
النجف
بغداد
كرمنشاه
ولاية البصرة
البصرة
عبادان
أصبهان
كاشان
قم
الري
آمل
جرجان
يزد
شيراز
كرمان
سجستان
بلوخستان
قندهار
كابول
نيسابور
مرو
بخارى
سمرقند
الشاش
خوارزم

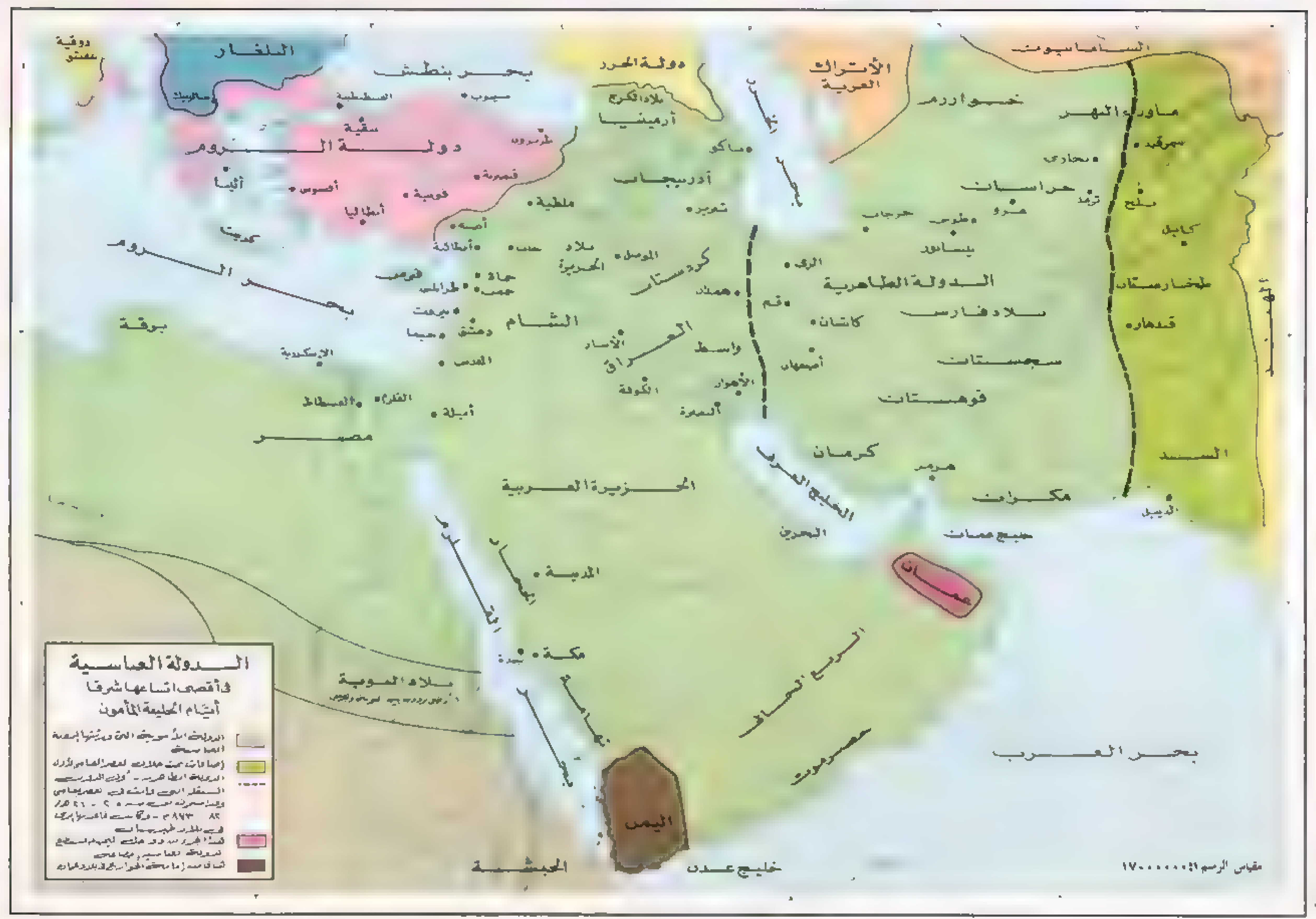
الـدولة العباسية
في أقصى اتساعها شرقا
أيام الخليفة المأمون
مقياس الرسم ١٧٠٠٠٠٠٠:١
البلغار
دوقية نفتنو
بحر بنطش
سيوب
القسطنطينية
سقية
دولـة الـروم
طرسوس
قيصرية
عمورية
أثينا
أفسوس
أنطاليا
أضنه
كريت
بحر الروم
أنطاكية
حلب
قبرص
حماة
طرابلس
حمص
بيروت
دمشق
صيدا
الشام
القدس
برقة
الإسكندرية
الفرما
الفسطاط
أيلة
مصر
دولة الخزر
بلاد الكرج
أرمينيا
باكو
أذربيجان
ملطية
تبريز
بلاد الجزيرة
الموصل
كردستان
همذان
العراق
الأنبار
واسط
الكوفة
الأهواز
البصرة
الأتراك الغزية
خوارزم
ما وراء النهر
السامانيون
سمرقند
بخارى
ترمذ
بلخ
خراسان
مرو
طوس
جرجان
نيسابور
الري
قم
الدولة الطاهرية
كاشان
أصفهان
بلاد فارس
سجستان
قوهستان
كرمان
هرمز
مكران
الخليج العربي
البحرين
خليج عمان
عمان
طخارستان
كابل
قندهار
السند
الديبل
الجزيرة العربية
المدينة
مكة
جدة
بلاد النوبة
البحر الأحمر
تهامة
الربع الخالي
حضرموت
اليمن
بحر العرب
خليج عدن
الحبشة

أقصى اتساع للدولة العباسيَّة
حتى نهاية حكم الخليفة (المستكفي بالله)
٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢ م
بلاد الخزر
بلاد الترك
خوارزم
بحيرة خوارزم
فرغانة
سمرقند
بخارى
بلاد ما وراء النهر
مرو
خراسان
نيسابور
الدولة الطاهرية
كابول
الري
أصبهان
يزد
كرمان
شيراز
هرمز
مكران
السند
عبادان
البصرة
بغداد
العراق
الموصل
تبريز
أذربيجان
باكو
حلب
أنطاكية
دمشق
بيروت
الشام
حيفا
القدس
غزة
القلزم
أيلة
أرمينية
طرابزون
بحر بنطش
سينوب
دولة
الخليج العربي
خليج عمان
مسقط
عمان
بحر العرب
بلاد العرب
المدينة
مكة
أسوان
النوبة
حضرموت
اليمن
صنعاء
عدن
خليج عدن
الحبشة
السودان
مقديشيو
مراوة

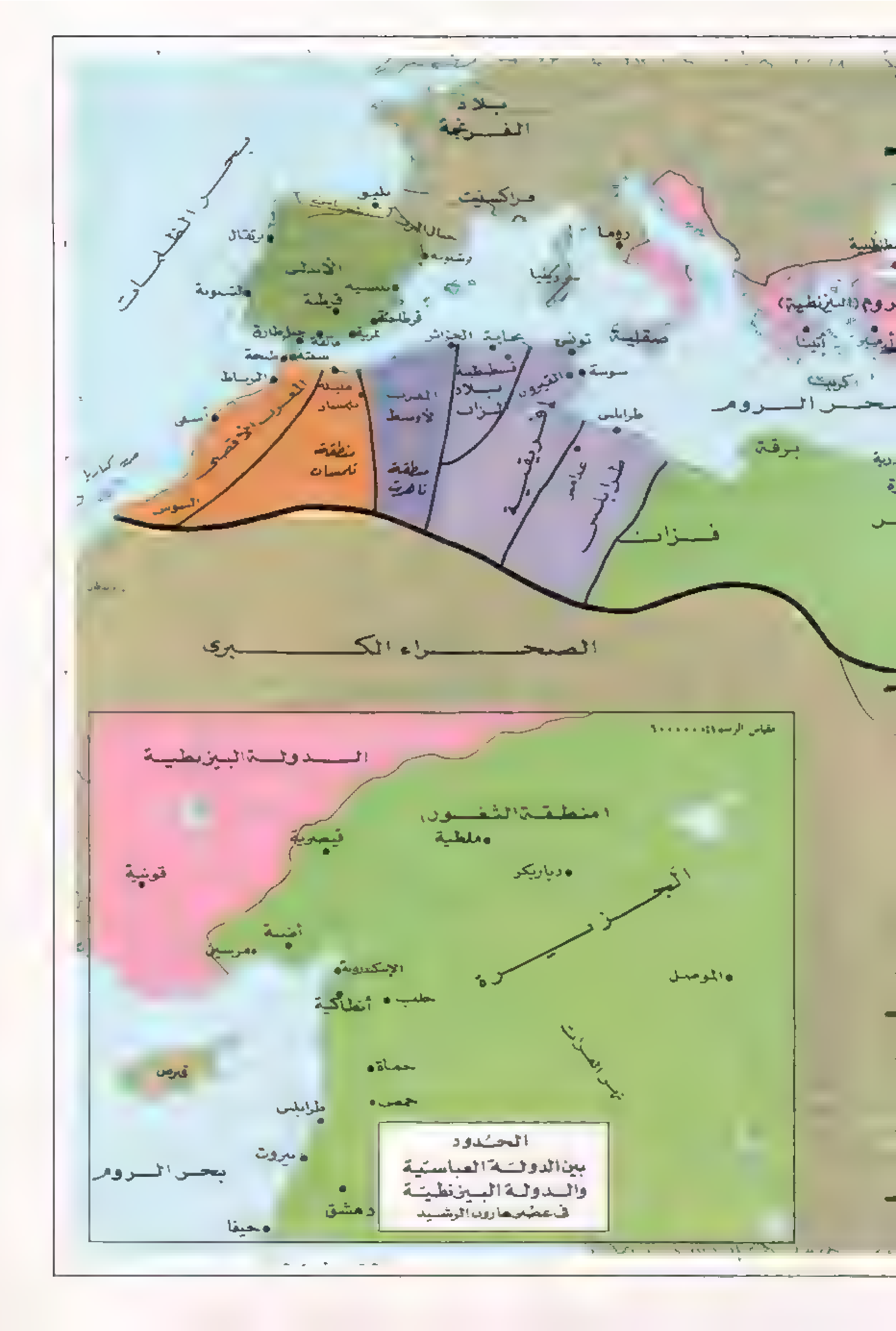

بلاد الفرنجة
بحر الظلمات
الأندلس
قرطبة
الأشبونة
روما
صقلية
تونس
سوسة
طرابلس
برقة
فزان
المغرب الأقصى
منطقة تلمسان
المغرب الأوسط
منطقة تاهرت
بلاد الزاب
إفريقية
القيروان
الرباط
أثينا
كريت
بحر الروم
الصحراء الكبرى
الدولة البيزنطية
منطقة الثغور
ملطية
قيصرية
قونية
ديار بكر
الجزيرة
أذنة
طرسوس
الإسكندرونة
حلب
أنطاكية
الموصل
حماة
حمص
قبرص
طرابلس
بيروت
دمشق
حيفا
بحر الروم
الحدود
بين الدولة العباسية
والدولة البيزنطية
في عصر هارون الرشيد

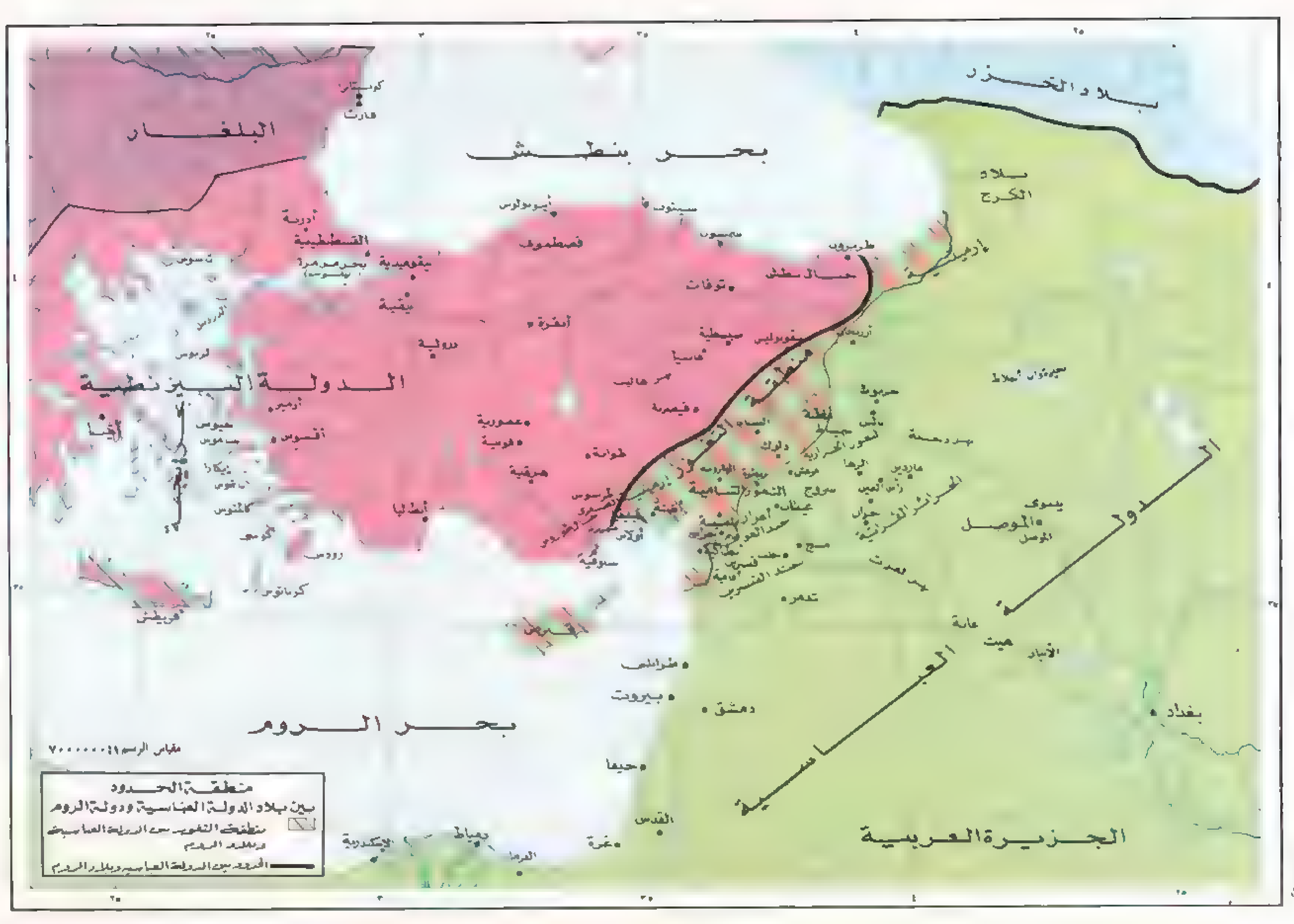
بلاد الخزر
البلغار
بحر بنطش
بلاد الكرج
الدولة البيزنطية
بحر الروم
الجزيرة العربية
الدولة العباسية
القسطنطينية
أدرنة
نيقوميدية
نيقية
عمورية
قيصرية
طرابزون
أنقرة
توقات
ملطية
أنطاكية
حلب
الموصل
بغداد
دمشق
بيروت
طرابلس
حيفا
القدس
غزة
الإسكندرية
دمياط
الفرما
تدمر
عانة
هيت
الأنبار
الثغور الشامية
الثغور الجزرية
منطقة الثغور
طرسوس
أذنة
المصيصة
قبرص
كريت
رودس
أثينا
أفسوس
أنطاليا
قونية
سيواس
سينوب
مقياس الرسم ١ : ٧٠٠٠٠٠٠٠
منطقة الحدود
بين بلاد الدولة العباسية ودولة الروم
منطقة الثغور بين الدولة العباسية وبلاد الروم
الحدود بين الدولة العباسية وبلاد الروم

الدولتان الأموية والعباسية

تعتبر عصور الراشدين والأمويين والعباسيين الأول ، حتى نهاية خلافة أبي جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم بالله ، ذو الحجة ٢٣٢ هـ / يولية ٨٤٧ م عصر الدولة الإسلامية العامة ، أي التي كان فيها العالم الإسلامي كله دولة عامة واحدة ، يحكمها خليفة واحد مقره المدينة في العصر الراشدي ودمشق في العصر الأموي ، عدا آخرهم مروان بن محمد ، الذي جعل مقره في بلاد الجزيرة ، وبغداد في العصر العباسي ، ولاينقل من سلامة هذه الوحدة الثورات وانفراد بعض الخارجين على الدولة بناحية من النواحي ، فإن القائمين بهذه الثورات - خارجية كانت أم شيعة أم أهل عصبيات قبلية أو محلية - كانوا يعتبرون ثواراً عن الدولة العامة عاصين لما غلبوا عليه من أرضها ، ثم إنها كانت كلها قصيرة العمر والمدى ولم تؤثر في وحدة الدولة العامة .

وينقسم عصر الدولة العامة إلى ثلاث دول : -

دولة الراشدين .

١٢ ربيع الأول ١١ هـ - ربيع الأول ٤١ هـ / يونيو ٦٣٢ م - يونيو ٦٦١ م ، وهي دولة وحدة الأمة ، بعد حروب الردة واستقرار الأمور ، وبناء الدولة وبداية الفتوح ، الشام والعراق وشرق إيران ، إلى منطقة الجبال في المشرق ومصر حتى دنقلة وإفريقية ، وتدوين القرآن وتثبيت النص الكريم في صورة المصحف العثماني ، وبداية جمع الأحاديث والآثار والسنن وبناء السنة النبوية لتكون العماد الثاني للتشريع الإسلامي ، وتنظيم المجتمع الإسلامي واختطاط الأمصار الأربعة الأولى : الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان ، وقيام الولايات الإسلامية الكبرى الأولى : الشام والكوفة والبصرة ومصر وإفريقية ، وقد شهد هذا العصر أيضاً قيام الفتنة الكبرى الأولى .

وقد بدأت هذه الفتنة من بدايات خلافة عثمان بن عفان في ذي الحجة سنة ٢٣ هـ / أكتوبر ٦٤٤ م ، واستمرت حتى موته شهيداً مقتولاً على أيدي نفر من الناقمين على سياسته في إدارة الدولة في ذي الحجة سنة ٣٥ هـ واستمرت بعد موته وأصبحت حرباً أهلية بعد تولي علي بن أبي طالب الخلافة بعد مقتل عثمان بأيام ، فقد رفض أكبر ولاة الدولة - وهو معاوية بن أبي سفيان - الإذعان لما قرره الخليفة من عزله ، مع عدد من الولاة معظمهم من بني أمية ومعهم حلفاؤهم في عداء بني هاشم وأحلافهم قبل الإسلام .

وعندما ترك علي بن أبي طالب مقر خلافته ، وانتقل إلى الكوفة آملاً في أن يجد من عرب العراق جنداً ينقض به على تمرد معاوية بدأت الحرب الأهلية فعلاً ، ومنذ البداية تكشفت الحقائق التي أدت إلى ضعف المركز السياسي والعسكري لعلي بن أبي طالب ، فقد سارع معاوية بن أبي سفيان إلى كسب عمرو بن العاص والي مصر إلى جانبه ، وبذلك أصبح أغنى وأقوى رجل في الدولة لأن مصر والشام معاً كانتا إذ ذاك أغنى ولايات الدولة الإسلامية وأحفلها بالجند العربي القادر على المشاركة في الحرب ، هذا إلى أن معاوية بن أبي سفيان وآله كسبوا لأنفسهم « عزوة » قبلية وبنوا قوة عسكرية كبيرة في بلاد الشام .

الدولة الأموية .

فأما الدولة الأموية فكانت بالفعل دولة عامة أكملت بناء العالم الإسلامي في دور توسعه الأول ، ووصلت بحدوده من فرغانة والسند في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب ، تخطت جبال البرت « المعروفة خطأً بالبرانس » ، وواصلت ففتحت بلاد غالة « فرنسا » ، حتى أوقف تقدمها الفرنجة بانتصارهم على المسلمين في واقعة بلاط الشهداء في رمضان ١١٤ هـ / أكتوبر ٧٣٢ م ، وقد كثرت الثورات على الأمويين ، ففي المشرق توالت ثورات الخوارج عليهم ، وفي المغرب قامت الفتنة المغربية الكبرى التي بدأت سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م في أيام هشام بن عبد الملك ، وانتهت بانفصال المغربين الأوسط والأقصى عن الدولة الأموية مع بقائهما داخل نطاق دولة الإسلام . وبعد قيام الدولة العباسية بعدة سنوات انفصل الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل الأموي عندما أقام دولة أموية أندلسية في شبه الجزيرة الأيبيرية شقت طريقها مستقلة بنفسها من سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م .

وقد بدأت الدولة الأموية حكمها سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م وعلى رأسها معاوية بن أبي سفيان في نهاية الفتنة التي بدأت في منتصف خلافة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - حوالي ٣٠ هـ / ٦٥١ م ، وبولايته عاد نشاط التوسع والفتوح كما رأينا في الفصل السابق ، واستمرت خلافته من ربيع الأول سنة ٤١ هـ / يونيو ٦٦١ م ، إلى رجب سنة ٦٠ هـ / أبريل ٦٧٩ م وخلفه ابنه يزيد ، رجب ٦٠ هـ - ربيع الأول ٦٤ هـ / ٦٨٠ - ٦٨٣ م ، وفي خلافته وقعت مأساة استشهاد الحسين بن علي في ١٠ محرم ٦١ هـ / ١١ أكتوبر ٦٨٠ م التي حولت التشيع لعلي بن أبي طالب وآل البيت إلى حركة سياسية خطيرة استمر خطرها يتسع حتى قسمت العالم الإسلامي إلى سنة من ناحية وشيعة من ناحية أخرى .

الدولة العباسية

ربيع الأول ١٣٢ هـ - ٢٣ ذو الحجة ٢٣٢ هـ / أكتوبر ٧٤٩ م - يوليو ٨٤٧ م :

عندما العصر العباسي الأول الذي رسمنا خرائطه في هذا الفصل بهذه الفترة التي تبدأ بخلافة أبي العباس عبد الله السفاح وتنتهي بموت الخليفة أبي جعفر الواثق هارون بن أبي إسحاق محمد المعتصم ، لأنها آخر عصور الدولة الإسلامية العامة التي تجمع كل بلاد المسلمين وجماعتهم تحت لواء واحد ، وبعد ذلك تبدأ أجزاء من الدولة في الانفصال عنها ، وإن احتفظت بالطاعة الاسمية والدعاء والخطبة في معظم الأحيان لخليفة بني العباس ، وتنتهي بذلك الدولة الإسلامية العامة ويبدأ عصر الأقاليم الذي سنبدؤه في الفصل التالي بالمغرب والأندلس ، وإلى دول هذه الأقاليم ينتقل واجب الدفاع عن دار الإسلام وتوسيع رقعتها .

والحقيقة أن الدولة العباسية لاتعد في مجموعها من الدول الفاتحة . فهي لم تقم بفتوح ، ولم توسع رقعة الإسلام في أي جهة من الجهات ، ولكنها - إلى آخر أيام الواثق - بذلت جهداً صخماً في المحافظة على ما ورثته عن الدولة الأموية فيما عدا الأندلس والمغرب لأن الأندلس انفصل بنفسه وقامت فيه الدولة الأموية الأندلسية من ذي الحجة ١٣٨ هـ / مايو ٧٥٦ م ، أما في المغرب فقد ثبتت الدولة العباسية أقصى حد لها في الغرب بنهر صغير يسمى نهر شلف ينبع من جبال الأوراس ويتجه شمالاً حتى جنوبي موقع مدينة الجزائر اليوم قرب ساحل البحر المتوسط ثم يتجه غرباً بمحاذاة الساحل تقريباً حتى يصب قرب وهران في المجرى الأدنى لهذا النهر وهو الحد الغربي لولاية إفريقية . وقد ذكر اليعقوبي في كتاب البلدان أن آخر المعاقل العباسية غرباً هو مدينة صغيرة قرب مجرى شلف تسمى أربة .

وفي ناحية الشرق وقف العباسيون عندما ورثوه عن الأمويين فحفظوا بحوض السند الأدنى وقواعده مثل المنصورة وداور . وفيما يتصل بمصر اجتهد العباسيون في المحافظة على الوضع القائم فعلاً في النوبة ودنقلة التي اعتبرت فعلاً من البلاد العباسية ، أما بقية النوبة جنوباً فقد كانت بلاداً عاهدة تؤدي جزية اسمية في الواقع ولاتقوم بأي عمل معاد للإسلام والمسلمين ، وبالفعل ظل الإسلام ينتشر جنوباً مجتذباً الناس بفضائله وقوة الدفع الكامنة

فيه . وقد ذكرنا فى الفصل السابق ، وهو فصل الفتوح ، كيف أن خلفاء بنى العباس فى أواخر عصرهم الأول الذى نتحدث عنه حرصوا على أن يستكملوا سلطانهم على البحر الأحمر حتى منطقة العلاق ومدينة عيذاب ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن جزائر دهلك كانت دائماً داخلة فى نطاق الخلافة وأن بقية الجزائر مثل فرسان وموانىء البحر الأحمر من القنفذة وحلية وغلا وعدن كانت كلها خاضعة لدول اليمن الإسلامية – تبين لنا أن البحر الأحمر « وهو بحر القلزم إذ ذاك » كان بحيرة إسلامية فى قبضة المسلمين ، بالضبط كما كان انتقال العباسيين إلى بغداد والعراق تقوية للبصرة وعبادان وسواحل الخليج من الناحيتين حتى خليج عمان ، وتبع ذلك بلاد جنوبى الجزيرة المطلة على البحر العربى بما فى ذلك عمان وظفار وحضرموت إلى عدن بما فى ذلك جزيرة سقطرى والقرن الإفريقى كله ، ولم يفرط العباسيون أو الدول المحلية فى اليمن فى المحافظة على سلطان المسلمين على بحار جنوبى شرق آسيا وأهمها بحر العرب والمحيط الهندى ، وعندما أنشأ أبو جعفر هارون الرشيد جند العواصم والثغور بين الدولة العباسية ودولة الروم فى آسيا الصغرى ، ثم امتد هذا الخط شيئاً فشيئاً إلى شمال العراق ونشأ ماعرف بجند الجزيرة ، كان معنى ذلك أن الدولة العباسية قد سلمت بوقف التقدم والتوسع فى هذه الجبهة الهامة من جبهات التوسع الإسلامى ، وأمنت فى نفس الوقت دولة الروم من ناحيتها ، واقتصر الجهاد هنا على ضربات تخريبية سريعة وهى المعروفة بالشواتى والصوائف ، وبدلاً من أن تملك منطقة الدروب لتدع الباب أمامها مفتوحاً للجهاد أسكنت فى المنطقة جماعات من المجاهدين مابين جند رسمى ومتطوعة . وكان هذا فى ذاته دليل الضعف العسكرى لدولة الإسلام العامة ، وأبسط مثل على هذا الضعف هو أن الخليفة المعتصم عندما أغار على بلاد الروم وخرب عمورية انتقاما لعدوان الروم على زبطرة من بلاد الثغور سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م اعتبرت الدولة هذه الغارة نصراً عظيماً مؤزراً ، وقال أبو تمام فيها قصيدته المشهورة التى مطلعها :

السيف أصدق إنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

• • •

يايوم وقعة عمورية انصرفت   عنك المنى حفلاً معسولة الحلب

مع أن هذه الغارة فى ذاتها لا تقاس إلى انتصارات المسلمين الكبرى فى عصر الفتوح ، وقد بالغ المؤرخون فى الكلام عنها مما يدل على هبوط العزائم ، وبعد عمورية انقلبت الأوضاع وجرؤ الروم فى عصر الدولة المقدونية على اجتياح منطقة العواصم وجند الثغور ، واستولوا على إنطاكية وعبروا الفرات ، واستولوا على حلب بعض الوقت واستولوا على حران وسروج ولولا السلاجقة لما انحسم هذا الخطر .

ولكن السمة الكبرى للدولة العباسية فى عصرها الأول هذا – وهو عصرها الذهبى – هو دفاعها الفعال عن مذهب السنة ، وباستثناء الفترة البويهية التى غلبت فيها الميول الشيعية فإن الدولة العباسية حافظت على سيادة مذهب السنة فى الشرق وعليه قامت دول السامانيين والغزنويين والغوريين وغيرها من دول الفرس والأتراك القوية التى فتحت أبواب الهند للإسلام ، وفى المغرب كان دفاع العباسيين عن السنة والجماعة حتى أقصى إفريقية عرباً صخرة النجاة التى صححت مسار الإسلام فى الجناح الغربى بدولة الإسلام ، لأن القيروان استطاعت بعد صراع طويل القضاء على مطامع الخوارج ، فأنشأ بنو رستم دولتهم فى المغرب الأوسط سنة ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م وعندما قامت الدولة الإدريسية العلوية فى المغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ، قامت دولة سنية قوية فى المغرب الأقصى ، وتولى فقهاء السنة المالكيون تأييد مركز السنة والجماعة فى هذا البلد القصى من عالم الإسلام ، وأصبحت فاس مركزاً جليلاً من مراكز السنة ، وأطبقت السنة من إفريقية والمغرب الأقصى على المغرب الأوسط فى الجناح الغربى لدولة الإسلام رغم قيام الدولة الفاطمية فيه ابتداء من سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م ، وانتقالها إلى مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م ، واستيلائها على القاهرة .

خريطة ٧٢

أجناد الشام فى العصر الأموى

نبدأ خرائط هذا الفصل عن الدولتين الأموية والعباسية بخريطة لبلاد الشام وهى قلب الدولة الأموية وأجنادها الخمسة ، وهذه أول مرة – فيما نظن – تصور فيها أجناد الشام بأقصى الدقة فى مصور جغرافى ، وقد اعتمدنا فى تحديد الأجناد بخرائط الشام فى العصر البيزنطى قبل دخول المسلمين ثم على المعلومات الكثيرة جداً – والمتعارضة – الموجودة فى كتب الجغرافيين العرب وخاصة اليعقوبى فى كتاب البلدان ، وهو من أدق الجغرافيين عندنا فى موضوعات التقسيمات الإدارية ، وقد انتفعنا بالمعلومات الواردة عند اليعقوبى فى تحديد هذه الأجناد .

ويلاحظ من الخريطة أن أوسع أجناد الشام – وهى الأقسام الإدارية العسكرية – كان جند دمشق ، فهو يشمل منطقة دمشق ثم يمتد فيصل إلى حدود جزيرة العرب ، وهو يشمل فى امتداده هذا إقليم البلقاء ، ومن المقارنة بين هذه الخريطة وخرائط الشام أيام الروم يتبين أن إقليم البلقاء يمثل على وجه التقريب أراضى دولة الغساسنة .

أجناد الشام : جمع جند وهى خمسة وتنقسم إلى جند فلسطين ، وجند الأردن ، وجند دمشق ، وجند حمص ، وجند قنسرين .

قال أحمد بن يحيى بن جابر : « اختلفوا فى الأجناد . فقيل سمى المسلمون فلسطين جنداً لأنه جمع كورا .. وكذلك بقية الأجناد » .

وقيل سميت كل ناحية جندا لأنهم كانوا يقبضون أعطياتهم فيها ، وذكروا أن الجزيرة كانت مع قنسرين جنداً واحداً فأفردها عبد الملك بن مروان وجعلها جنداً برأسه .

ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص حتى كان يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج جنداً برأسه .

فلما استخلف الرشيد أفرد قنسرين بكورها فجعلها جنداً ، وأفرد العواصم كما سنذكره فى العواصم إن شاء الله .

ياقوت ١ / ١٣٦

الأردن : وهى أحد أجناد الشام الخمسة ، وهى كورة واسعة ومن مدنها الغور ، وطبرية ، وصور ، وعكا ، ومابين ذلك .

ومنها بيسان ، وصفورية، وأريحا، والموجاء ، وغير ذلك .

وللأردن عدة كور منها : كورة طبرية ، وكورة بيسان ، وكورة بيت رأس ، وكورة جدر ، وكورة صفورية ، وكورة صور ، وكورة عكا ، وغير ذلك .

ياقوت ١ / ٢٧ – ٢٨

الثغر : هو ماوراء كل موضع من أرض العدو ، وجمعه ثغور ، وهذا الاسم يشمل بلاداً كثيرة وهى البلاد المعروفة اليوم ببلاد ابن لاون .

فمن مدنها بياس ومنها إلى الإسكندرية (الإسكندرونة) مرحلة .

ومن بياس إلى المصيصة مرحلتان .

ومن المصيصة إلى عين زربة مرحلة .

ومن المصيصة إلى أذنة مرحلة .

ومن أذنة إلى طرسوس يوم .

ومن طرسوس إلى الجوزات يومان

ومن طرسوس إلى أولاس على بحر الروم يومان .

ومن بياس إلى الكنيسة السوداء (وهى مدينة) أقل من يوم .

ومن بياس إلى الهارونية مثله .

ومن الهارونية إلى مرعش وهى من ثغور الجزيرة – أقل من يوم

ومن مشهور مدن هذا الثغر أنطاكية وبغراس وغير ذلك إلا أن الذى ذكرناه أشهر مدنها .

قال أحمد بن يحيى بن جابر : كانت الثغور الشامية أيام عمر وعثمان . وبعد ذلك أنطاكية وغيرها المدعوة بالعواصم درب بغراس .

ياقوت ١ / ٩٣٧ - ٩٣٨

العواصم : تولاها لاون الأرمنى ملك الأرمن يومئذ ، فهى فى عقبه إلى الآن ٣٥٤ سنة

وأما ثغر اسفيجاب فلم يزل ثغراً فى جهته .

وثغر قزاوة قرب بلاد الديلم .

خريطة ٧٣

بلاد الشام فى العصر الأموى

أراضى الضياع وقصور الخلفاء أو البوادى ، يدخل نظام الضياع والبوادى فى صميم التنظيم المالى والزراعى والعسكرى لبلاد الشام فى العصر الأموى ، ويفهم من النصوص أن خلفاء بنى أمية وكبار أمرائهم كانوا يأخذون تحت رعايتهم مساحات واسعة من الأراضى الزراعية ، تخفف عنها الضرائب ، ويعنى بزراعتها فتستفيد الزراعة ويفيد الناس . وقد كان لهذا النظام أثره فى الرخاء الزراعى الذى تمتعت به بلاد الشام فى العصر الأموى . وفى أراضى الضياع كان الخلفاء والأمراء ينشئون قصورهم الصحراوية التى تعرف بالبوادى ؛ ليفرغوا فيها للهوهم وشئونهم بعيداً عن صخب العواصم وعيون أهلها . وكان فى النظام نفسه تمييز لأهل الشام ، وتعبير عن تقريب الخلفاء لهم واعتبارهم أهل بيتهم .

وقد اجتهدنا فى جمع مالدينا من معلومات عن أراضى الضياع ومواقع القصور فى هذه الخريطة ، وهذا النظام داخل فى نظام تقسيم الشام إلى أجناد ، لأن الضياع اتخذت فى الأجناد ، وكان نفر من أهل الشام من العصبيات العربية جنداً فى نفس الوقت .

خريطة ٧٤

طرق المواصلات ومراكز التجارة فى بلاد الشام فى العصر العباسى كما وردت عند المقدسى

كان الشام فى العصر الأموى من أزهى أقطار الدولة الإسلامية وأكثرها ازدهاراً وعمراناً . وكانت طرقه عامرة بالتجارة والمتاجر والزراعات . ومن أكثر المؤرخين الجغرافيين حديثاً فى ذلك صاحب كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » . وقد استخرجنا المعلومات عن طرق التجارة فى الشام منه ، وفيها تبين الطرق ومراكز التجارة والموانىء .

خريطة ٧٥

قيام الدولة العباسـيـة

قصة قيام الدولة العباسية طويلة ترجع إلى اشتراك آل البيت جميعاً عباسيين وعلويين فى الدعوة لآل البيت ، وانتقال الدعوة فيها من الحسن إلى الحسين وقيام محمد بن الحنفية « الولد الثالث لعلى بن أبى طالب » بها بعد ذلك ، ثم ابنه أبى هاشم ، ومايقال من تنازل أبى هاشم عن حقه فى الخلافة إلى إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس وهو إبراهيم المعروف بالإمام الذى قتل فى سجن هشام بن عبد الملك وانتقال الإمامة إلى أبى العباس عبد الله السفاح أخيه . وانتشار الدعوة إلى الرضا من آل البيت فى خراسان ، وقيام أبى مسلم الخراسانى بالدعوة إلى خلافة إبراهيم الإمام ممثل البيت العباسى وتوجيه الدعوة بعد ذلك لأخيه أبى العباس عبد الله الذى عرف بالسفاح . هذا إلى تنظيم الدعوة فى مرو ونحوها من بلاد خراسان ، ثم قيام نقباء الهاشميين وأكبرهم أبو حفص بن كثير وهو أبو سلمة الخلال . بتنظيم الدعوة فى أرباع خراسان الأربعة ومدنها مثل : هراة وبوشنج ومرو الروذ والطالقان ومرو ونسا وأبيورد وطوس وسرخس وبلخ ، ثم انضمام اليمانية إلى الدعوة بسبب سياسة نصر بن سيار . ومع اليمانية انضم إلى أتباع الدعوة الهاشمية الأنصار ومواليهم وخزاعة ومواليهم ، وتجمع الدعاة والأتباع فى مراكز بيناها على الخريطة .

ومن مرو سار الجيش العباسى الرئيسى نحو الكوفة وهزم يزيد بن هبيرة قائد الأمويين بظاهر الكوفة ، وأسرع أبو سلمة الخلال فاحتل الكوفة ١٣٢ هـ وسار جيش عباسى ثان إلى واسط ودخل الكوفة من شمالها بعد أن هزم مروان بن محمد فى موقعة الزاب الأعلى ، وفر مروان بن محمد إلى نهر أبى فطرس فى فلسطين ، حيث وقعت مذبحة بالأمويين ، وواصل الفرار إلى مصر حيث قتل فى أبى صير بالفيوم ، وانتهت بذلك الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية وقاعدتها الأولى هى الكوفة .

وقد اجتهدنا فى تصوير هذه الحركة السياسية العسكرية الواسعة النطاق فى هذه الخريطة .

خريطة ٧٦

تطور اتساع الدولة الإسلامية شرقاً من العصر الراشدى إلى نهاية العصر العباسى الأول

« ٢٢٧ - ٢٣٢ هـ / ٨٤١ - ٨٤٦ م »

خريطة ٧٧

الدولة العباسية فى أقصى اتساعها شرقاً أيام الخليفة المأمون

خريطة الدولة العباسية وأقسامها وقواعدها وكبار المدن بحسب ماورد فى كتاب « أحسن التقاسيم » لأحمد بن محمد ابن المقدسى من أعظم الجغرافيين المسلمين فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . وهو يسمى عالم الإسلام مملكة الإسلام ، ويستعمل مصطلحاً خاصاً بيناه على الخريطة .

خريطة ٧٨

أقصى اتساع للدولة العباسية حتى نهاية حكم الخليفة المستكفى بالله

خريطة ٧٩

منطقة الحدود بين بلاد الدولة العباسية ودولة الروم

منطقة الحدود بين الدولة الإسلامية ودولة الروم فى عصرى هارون الرشيد « ١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨ م » وأبى إسحاق المعتصم « ٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢ م » .

وفى عصريهما تم إنشاء جند العواصم الشامية والجزرية وأنشىء نظام الثغور وكان ذلك فى عصر الأسرة الأيسورية البيزنطية The isoraic dynasty وأول أباطرها ليو الثالث LEO III ، وآخرهم ليو الخامس الأرمنى « ٨١٣ - ٨٢٠ م » وكانت الثغور والعواصم فى صالح الروم أكثر مما كانت فى صالح الدولة الإسلامية التى انثنى عصر توسعها فى هذه الناحية . وعندما تقوم الدولة المقدونية على يد باسيل الأول « ٨٦٧ - ٨٨٦ م » وتستعيد قوتها منتهزة فرصة ضعف الدولة الإسلامية ستغير على أراضيها وتكتسح العواصم والثغور وتستولى على أنطاكية وحلب فى عصور قسطنطين لابس الأرجوان Costantin ورومانوس الأول ليكابينوس Romanus I Lecapes ورومانوس الثانى Romanus II ويوحنا الشمشق Johnes وفى أيامه بلغت الغارات على بلاد الإسلام ذروتها وأنزلت بالمسلمين وأراضيهم أذى شديداً حتى سميت الغارات كلها مقدمات الحروب الصليبية . وأقصى مابلغته هذه الحملة فى عهد هذا الأخير « ٩٧٦ - ١٠٣٢ م » ولم ينحسر هذا الخطر الجسيم على بلاد الإسلام من هذه الناحية إلا على يد الأتراك السلاجقة . وقد تمكن سلطانهم ألب أرسلان من وقف المد البيزنطى بانتصاره فى معركة ملاذكرد Malzikart شمال بحيرة وان سنة ١٠٧١ م وبها بدأ الصعود الإسلامى فى جهة آسيا الصغرى من جديد . واقتحم فريق من السلاجقة - وهم سلاجقة الروم - بلاد الروم وقاموا باحتلال قونية وبدأ استيلاء المسلمين على أراضى الدولة وأقام الدانشمنديون دولتهم حول ملاطية التى أصبحت قاعدتهم .

المراجع

ابن الأثير الجزري علي بن أحمد بن أبي الكرم : الكامل في التاريخ . طبعة المطبعة المنيرية / القاهرة بدون تاريخ . الأجزاء الخمسة الأولى

البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر : أنساب الأشراف جزء بتحقيق محمد حميد الله . القاهرة . و فتوح البلدان . بتحقيق د. صلاح المنجد ثلاثة أجزاء / القاهرة .

الطبري أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم . دار المعارف . القاهرة ١٩٦٠ م ومابعدها . الأجزاء السبعة الأولى .

ابن أعثم الكوفي أحمد بن عثمان (ت ٣١٤ هـ / ٩٢٩ م) كتاب الفتوح . طبعة حيدر آباد بالهند . عشرة أجزاء . سنة ١٩٦٥ م وماتلاها .

ابن عبد ربه أحمد بن محمد : العقد الفريد . بتحقيق أحمد أمين وآخرين . القاهرة ١٩٤٠ م .

الأزدي أبو زكريا يزيد بن محمد : تاريخ الموصل . القاهرة ١٩٦٧ م

الجهشياري محمد بن عبدوس : الوزراء والكتاب . بتحقيق مصطفى السقا وآخرين . القاهرة ١٩٣٩ م

المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين : مروج الذهب ومعادن الجوهر . أربعة أجزاء بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٦٤ م

التنوخي المحسن بن علي (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) . نشوار المحاضرة . دمشق ١٩٣٠ م .

البغدادي عبد القاهر بن طاهر (٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م) . كتاب الفرق بين الفرق . القاهرة ١٩١٠ م .

الصابي هلال بن المحسن (ت ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م - ١٠٥٧ م) رسوم دار الخلافة . بغداد ١٩٦٤ م .

الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٥٣ هـ / ١٠٧١ م) تاريخ بغداد . القاهرة ١٩٣١ م .

ابن عساكر علي بن الحسن (ت ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م) . تاريخ دمشق . دمشق ١٣٣٣ هـ .

ابن اسفنديار محمد بن الحسن (القرن السادس هـ / الثاني عشر م) . تاريخ طبرستان . طهران ١٩٤٢ م .

ابن العبري جريجوريوس أبو الفرج (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٦ م) مختصر تاريخ الدول . بيروت ١٨٩٠ م .

ابن الطقطقي محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية . القاهرة سنة ١٩٢٥م . وطبعات أخرى بعد ذلك .

الذهبي محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) . دول الإسلام . حيدر آباد ١٣٢٧ م .

ابن كثير إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) . البداية والنهاية ، ٩ أجزاء . القاهرة ١٩٣٠ م .

ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٤ هـ / ١٤٠٦ م) المقدمة . بتحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي . ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٨٠ م .

حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي . الجزء الأول . القاهرة ١٩٣٢ م ، الجزء الثاني القاهرة ١٩٣٤ م .

الدوري عبد العزيز . العصر العباسي الأول . بغداد ١٩٤٥ م

و : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام . بغداد ١٩٤٨ .

و : الجذور التاريخية للشعوبية . بيروت ١٩٦٠ م .

و : ضوء جديد على الدعوة العباسية . مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد ١٩٦١ م

و : نظام الضرائب في خراسان في صدر الإسلام . نفس المجلة السابقة ١٩٦٤ م .

محمد أبو زهرة المذاهب الإسلامية . القاهرة ١٩٥٠ م .

جرجي زيدان تاريخ التمدن الإسلامي . طبعة جديدة بتحقيق د. حسين مؤنس . ٤ أجزاء القاهرة ١٩٥٠ م .

العلي الدكتور أحمد صالح : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الهجري الأول . بغداد ١٩٥٣ م .

و : استيطان العرب في خراسان . مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد ١٩٥٩ م .

فاروق عمر طبيعة الدعوة العباسية . بيروت ١٩٧٠ م

M. Abd Al Hayy Shaban , The Abbasid Revolution Cambridge University Press 1971

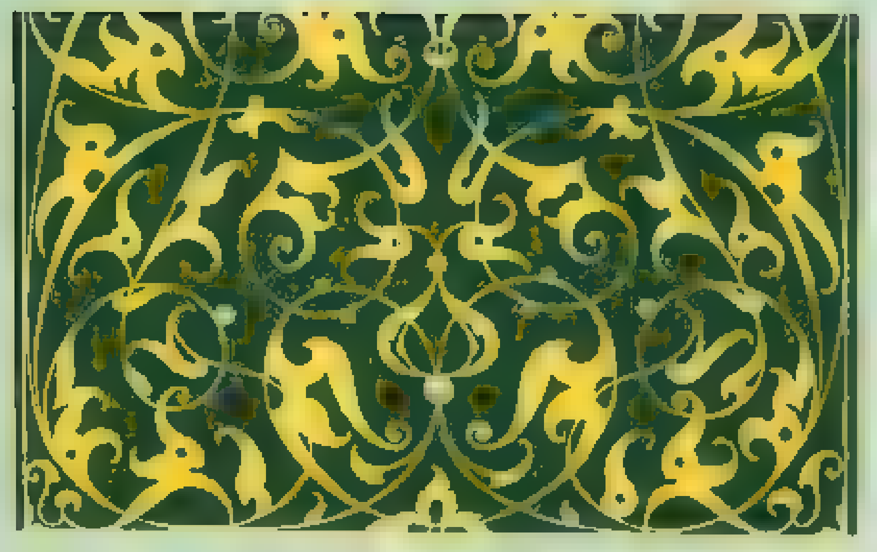

الفصل الثامن

المغرب والأندلس

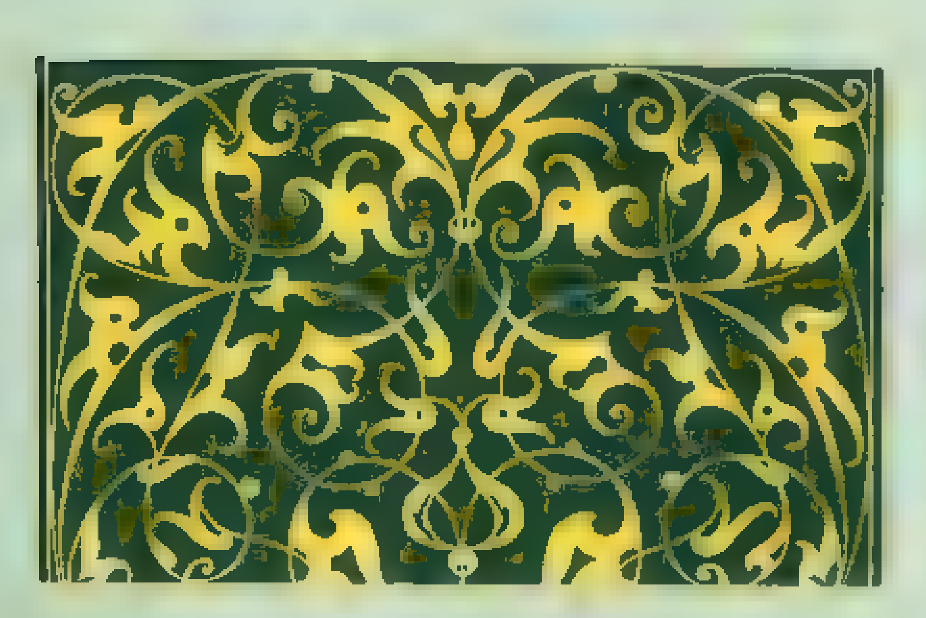

بيان الخرائط

ملحوظة : وردت الخريطة رقم ٨٣ بعد الخريطة رقم ٨٤ لاعتبارات فنية

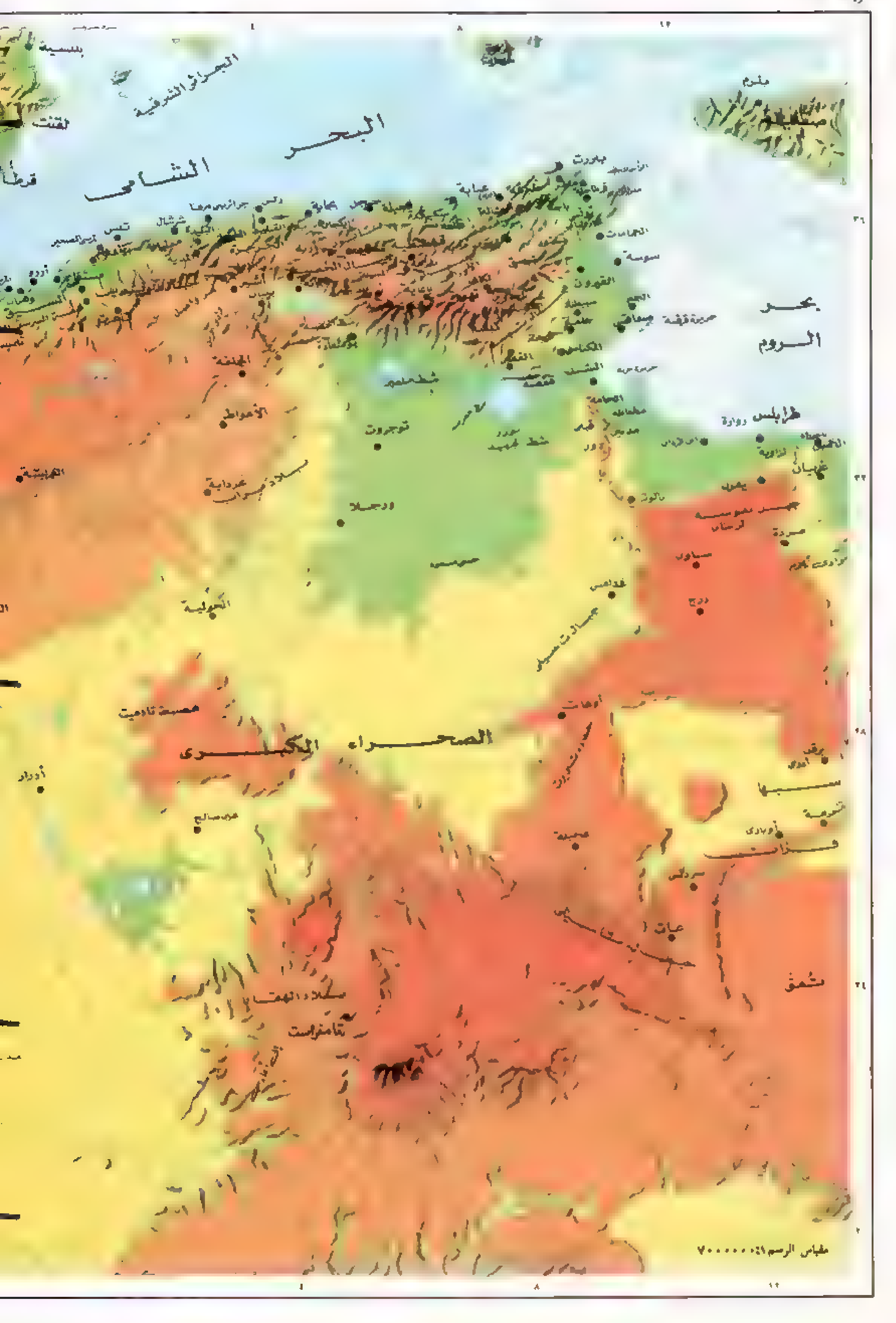
البحر
الشامى
بحر
الروم
الصحراء الكبرى
طرابلس
غدامس
ورجلا
توجورت
الأغواط
الجلفة
سوسة
فزان
سبها
غات
تامنراست
مقياس الرسم ١ : ٧٠٠٠٠٠٠

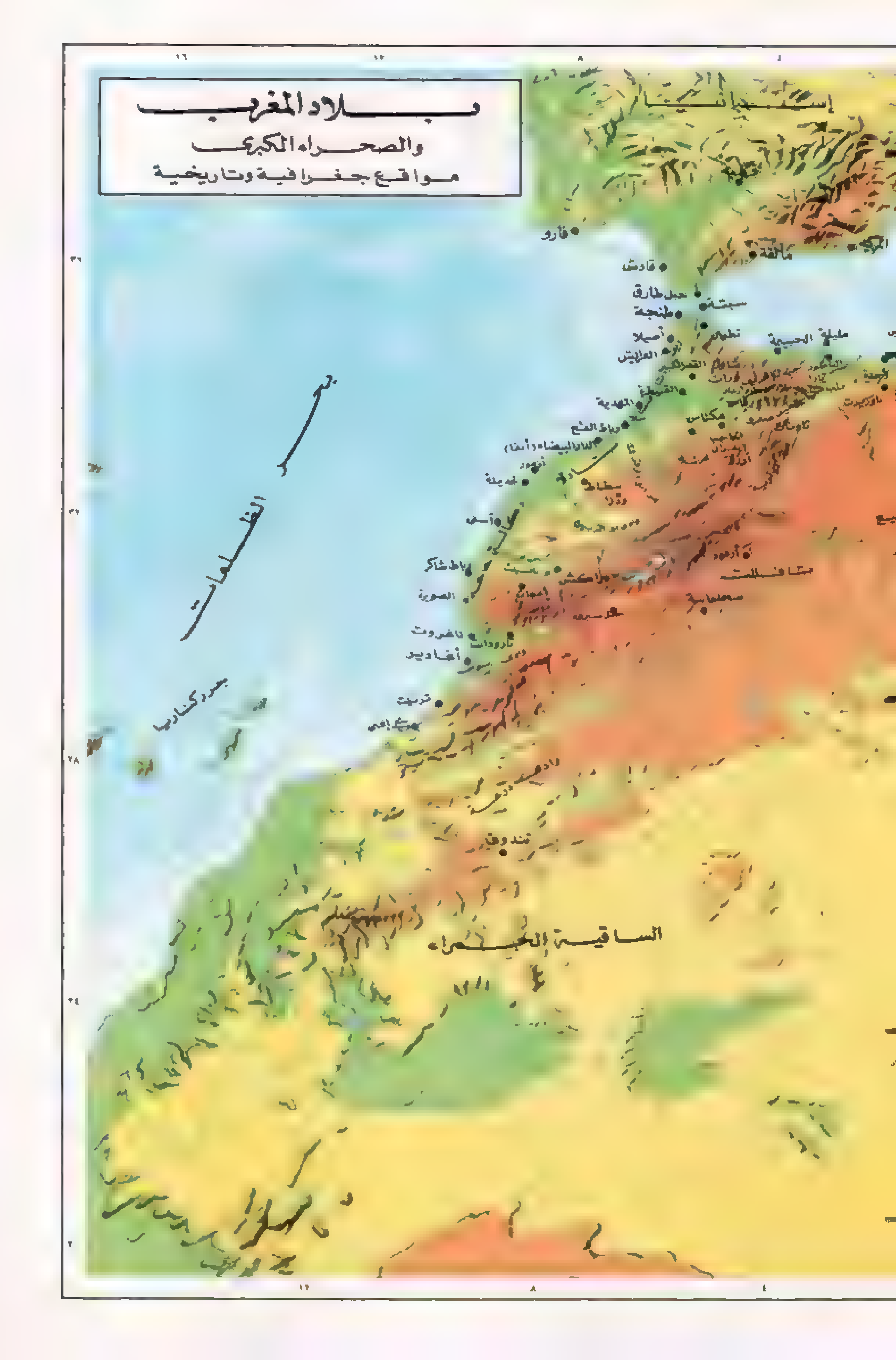

بـــلاد المغــرب
والصحـــراء الكبرى
مـــواقـــع جـغـــرافـيـة وتـاريخيـة
إسـبـانـيـا
فارو
مالقة
قادش
جبل طارق
سبتة
طنجة
أصيلا
تطوان
العرايش
مليلية
القصر الكبير
مكناس
المهدية
رباط الفتح
الدار البيضاء (أنفا)
آزمور
الجديدة
آسفي
رباط شاكر
مراكش
أغمات
الصويرة
تارودانت
أغادير
سجلماسة
تافيلالت
تندوف
الساقية الحمراء
بحر الظلمات
جزر كناريا

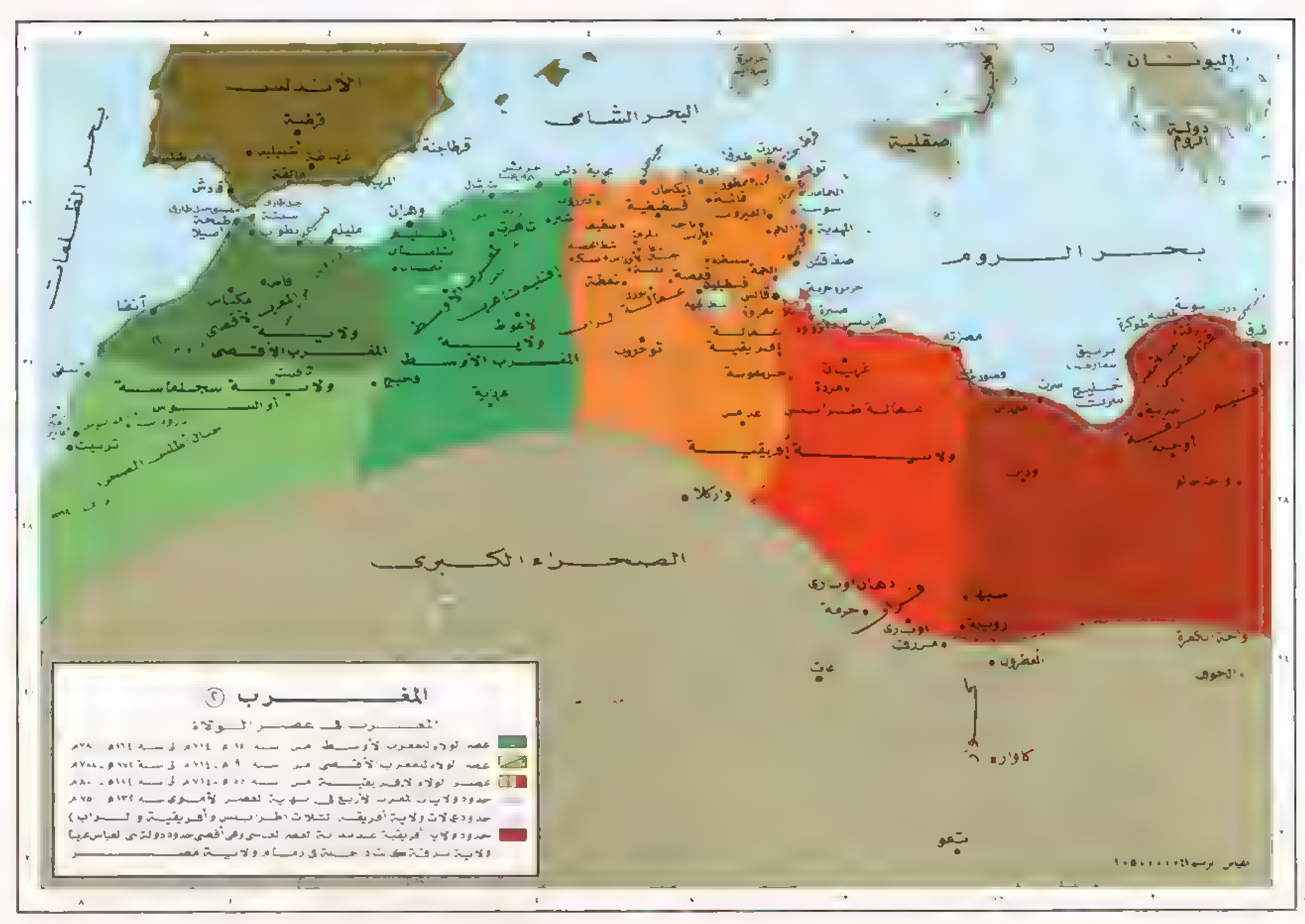
الأندلس
قرطبة
البحر الشامي
صقلية
اليونان
دولة الروم
بحر الروم
بحر الظلمات
وهران
تلمسان
فاس
مكناس
ولاية المغرب الأقصى
ولاية سجلماسة
ولاية المغرب الأوسط
القيروان
قابس
ولاية إفريقية
ورقلا
الصحراء الكبرى
سبها
زويلة
مرزق
غات
كاوار
بتعو
برقة
أوجلة
المغرب ②
المغرب في عصر الولاة

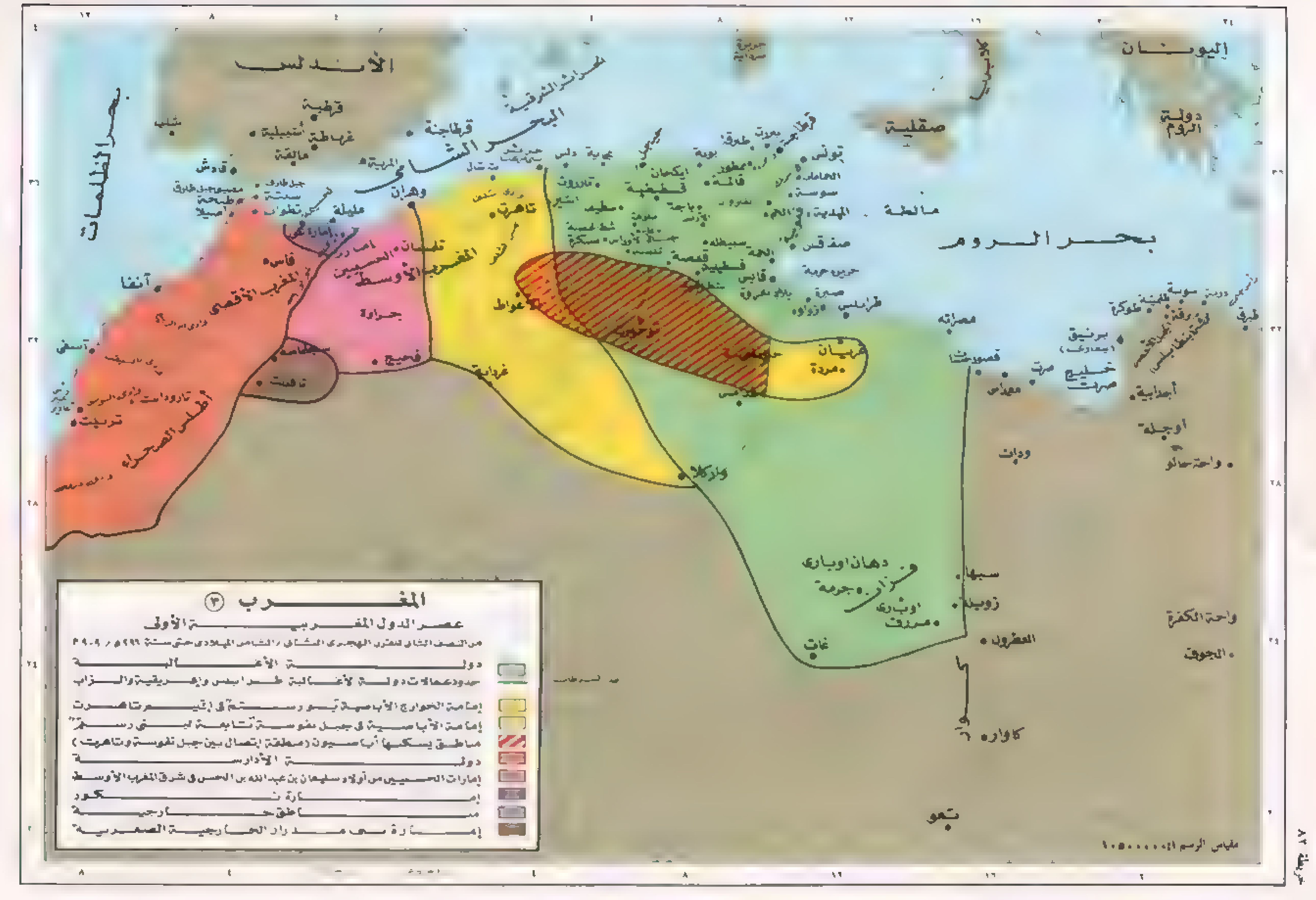
المغرب (٣)
عصر الدول المغربية الأولى
من النصف الثاني للقرن الهجري الثاني / الثامن الميلادي حتى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م
دولة الأغالبة
حدود عمالات دولة الأغالبة: طرابلس وإفريقية والزاب
إمامة الخوارج الأباضية بني رستم في إقليم تاهرت
إمامة الأباضية في جبل نفوسة تابعة لبني رستم
مناطق يسكنها أباضيون (منطقة اتصال بين جبل نفوسة وتاهرت)
دولة الأدارسة
إمارات الحسنيين من أولاد سليمان بن عبد الله بن الحسن في شرق المغرب الأوسط
إمارة نكور
مناطق خارجية
إمارة بني مدرار الخارجية الصفرية
الأندلس
قرطبة
قرطاجنة
غرناطة
مالقة
إشبيلية
شلب
قادش
بحر الظلمات
البحر الشامي
بحر الروم
صقلية
مالطة
اليونان
دولة الروم
وهران
تلمسان
تاهرت
فاس
أنفا
آسفي
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
سجلماسة
تافيلالت
فجيج
جراوة
الأغواط
ورجلان
تونس
القيروان
المهدية
سوسة
قسطنطينية
بجاية
قابس
طرابلس
زواوة
صفاقس
مسراتة
سرت
برقة
أجدابية
أوجلة
ودان
فزان
زويلة
سبها
مرزق
غات
كاوار
تبعو
الكفرة
الجوف
خليج سرت
ريغة
فزان
جرمة
قصبات
مقياس الرسم ١:١٠٥٠٠٠٠٠

صقلية

اليونان

بحر الروم

قرطاجنة

بجاية

قسنطينة

تونس

سوسة

المهدية

قابس

طرابلس

مصراتة

سرت

برقة

ودان

واحة الكفرة

الجوف

مقياس الرسم ١ : ٩٥٠٠٠٠٠

تيزي أوزو

قبائل الكبرى

القبائل الصغرى

جبال جرجرة

جبال الحضنة

قلعة بني حماد

شط الحضنة

أشير

وهران

تلمسان

تاهرت

المغرب الأوسط

الأغواط

توقرت

فجيج

زويلة

أوجلة

هجرة بني هلال وبني سليم إلى المغرب وهجرات القبائل الزناتية المغربية

إبتداءً من سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م

غارة بني هلال وبني سليم على برقة وطرابلس والمغربين الأوسط والأدنى

هجرة بني عبد الواد

هجرة بني وطاس

هجرة بني مرين

مقياس الرسم ١ : ١٠٠٠٠٠٠٠

المغـــــرب ٦
الخريطة الأولى
غزوات النورمانديين من صقلية على بلاد المغرب .
بحر الظلمات
جزر كناريا
قرطبة
أشبيلية
غرناطة
مالقة
قادس
المرية
شلب
طنجة
أصيلا
سبتة
تطوان
مليلة
وهران
وجدة
الرباط
أنفا
أسفي
أغادير
بحر الروم
شرشال
جبال زكار
مليانة
جبال الونشريس
دولتا بني زيري وبني حماد الصنهاجيين
المغرب الأوسط
قاش
آنفا
المغرب الأقصى
تافيلت

المغـــــــرب ④

الدولة الفاطمية في المغرب (٢٩٧هـ - رمضان ٣٦٢هـ / ٩٠٩م - إبريل ٩٧٣م)

- بلاد ظلت على ولائها للأدارسة
- بلاد الخلافة الأموية الأندلسية وما استولت عليه من مواقع في المغرب الأقصى
- بلاد دخلت في ولاء الخلافة الأموية الأندلسية
- بلاد الخلافة الفاطمية
- حدود البلاد التي امتدت إليها التبعية الفاطمية
- بلاد دخلت في ولاء الفاطميين
- بلاد متنازع عليها بين الفاطميين (وأوليائهم) والأمويين (وأوليائهم)
- بلاد دولة الروم (البيزنطية)
- بلاد غير محددة التبعية
- إتجاهات النشاط البحري الفاطمي في البحر المتوسط
- إتجاهات النشاط البحري للأمويين الأندلسيين

مقياس الرسم ١ : ١٠٥٠٠٠٠٠

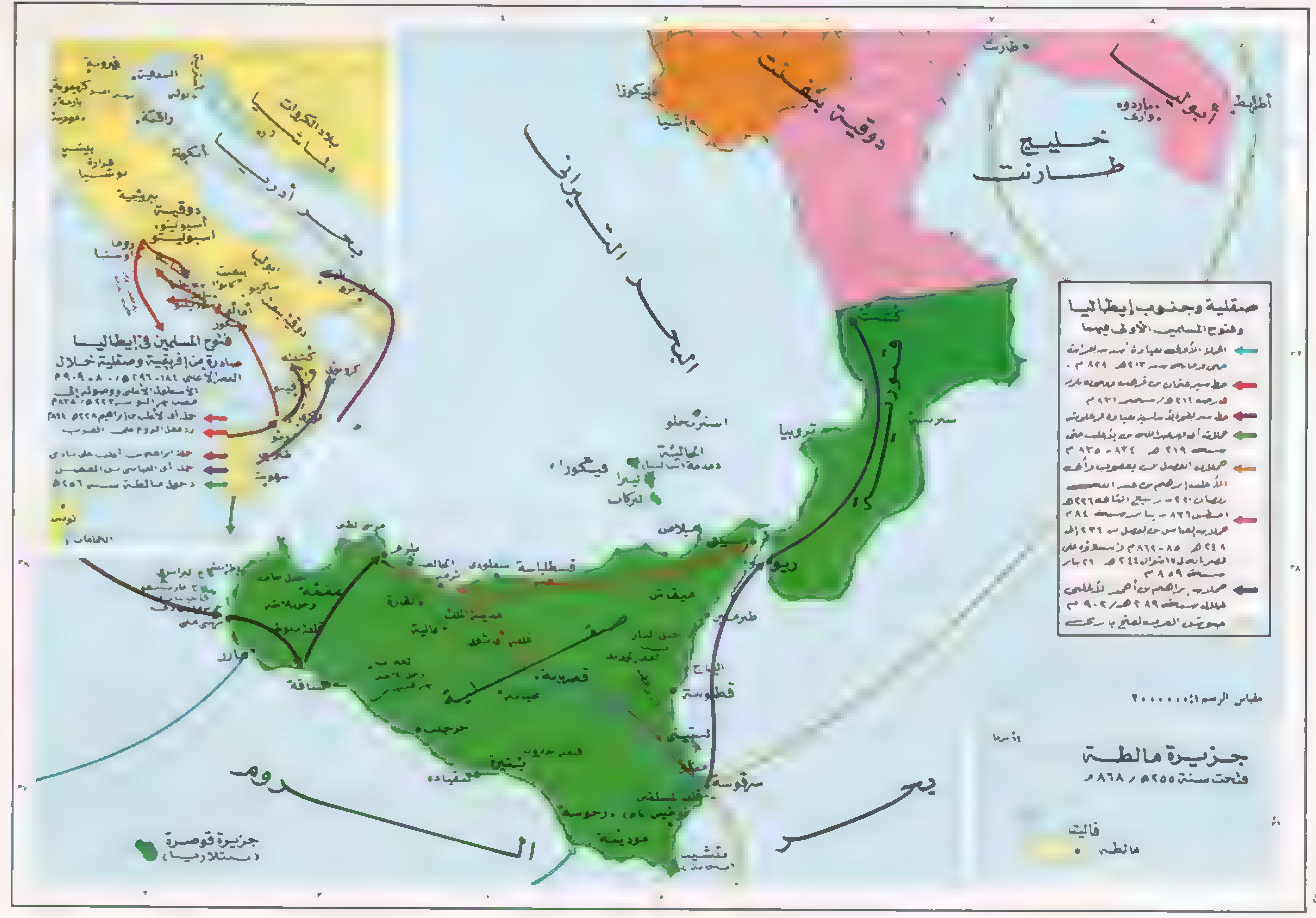
صقلية وجنوب إيطاليا
وفتوح المسلمين الأولى فيهما
فتوح المسلمين في إيطاليا
صادرة من إفريقية وصقلية خلال
جزيرة مالطة
فتحت سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م
مالطة
جزيرة قوصرة
البحر التيراني
بحر أدريا
بحر الروم
خليج طارنت
دوقية بنفنت
أبوليا
بلاد الكوات ودلماشيا
دوقية اسبوليتو
صقلية
قلورية
روما
نابولي
ريو
بلرم
مسينة
سرقوسة
قطانية
طبرمين
قصريانة
مازر
طرابنش
جرجنت
لنتيني
ميلاص
كنتنه
تروبيا
ليبرا
اسنبلي
فيكوزا
موديقة
شقة
لمبذوشة
ليقاطة
كيموثة
بادوا
مودينا
البندقية
رافنة
أنكونة
برويجية
بيشيا
فرارة
بوشنيا
تارنت
أطرنط
أترانت
كالطاجيرونة
قلعة البلوط
مازرة
مرسى علي

نشاط المسلمين في صقلية وإيطاليا
من سنة ٢١٢ – ٤٠٠ هـ / ٨٢٧ – ١٠٠٩ م
أراضي تعرضت لحملات المسلمين
بلاد الفرنجة
شارد
جنيف
سهل لومباردية
ميلانو
تورينو
جنوة
فلورنسا
مارسيليا
البندقية
الامبراطورية البيزنطية
دوبروفنيك
كورسيكا
روما
الادرياتيك
باري
سردينيا
كلياري
منورقة
نابولي
سالرنو
أمالفي
طارنت
ماري
كوسنتيا
بحر الروم
بليرم
مسينا
ريجو
تراباني
مرسالا
قصريانة
جرجنت
كاتانيا
سرقوسة
رجوسة
قوصرة
بجاية
بنزرت
طبرقة
قرطاجنة
تونس
قسنطينة
الحمامات
سوسة
القيروان
المنستير
المهدية
قفصة
صفاقس
جرجرقنة
خليج قابس
قابس
جزيرة جربة
زوارة
توجوروت
جزيرة مالطة
فاليتا
صحراء شمال إفريقيا
غدامس
مدينة بالرم القديمة
الميناء
بحر الروم
قلعة القصر

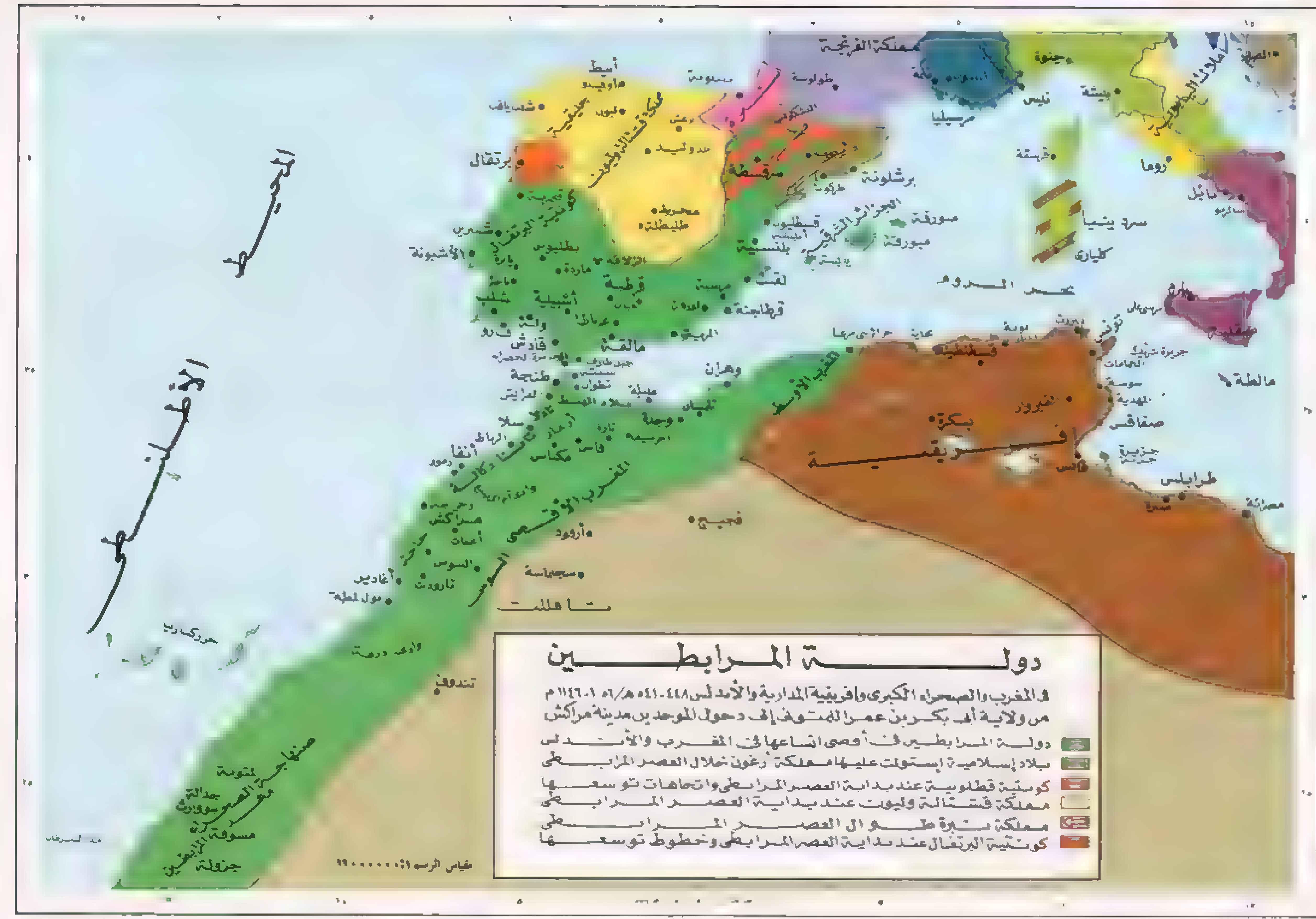

دولة المرابطين
في المغرب والصحراء الكبرى وافريقية المدارية والأندلس ٤٤٨-٥٤١هـ/١٠٥٦-١١٤٦م
من ولاية أبي بكر بن عمر اللمتوني إلى دخول الموحدين مدينة مراكش
دولة المرابطين في أقصى اتساعها في المغرب والأندلس
بلاد إسلامية إستولت عليها مملكة أرغون خلال العصر المرابطي
كونتية قطلونية عند بداية العصر المرابطي واتجاهات توسعها
مملكة قشتالة وليون عند بداية العصر المرابطي
مملكة نبرة طوال العصر المرابطي
كونتية البرتغال عند بداية العصر المرابطي وخطوط توسعها
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
افريقية
مملكة الفرنجة
البرتغال
طليطلة
سرقسطة
برشلونة
بلنسية
قرطبة
أشبيلية
مالقة
طنجة
فاس
مكناس
مراكش
أغمات
سجلماسة
تلمسان
وهران
بجاية
تونس
القيروان
بسكرة
صفاقس
طرابلس
سردينيا
روما
مالطة

المغرب والأندلس
خلال العصر الموحدي
من وفاة محمد بن تومرت سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م
إلى استيلاء بني مرين على مدينة مراكش سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م
دولة الموحدين في أقصى اتساعها
بحر الروم
مراكش
تاهرت
القيروان
طرابلس

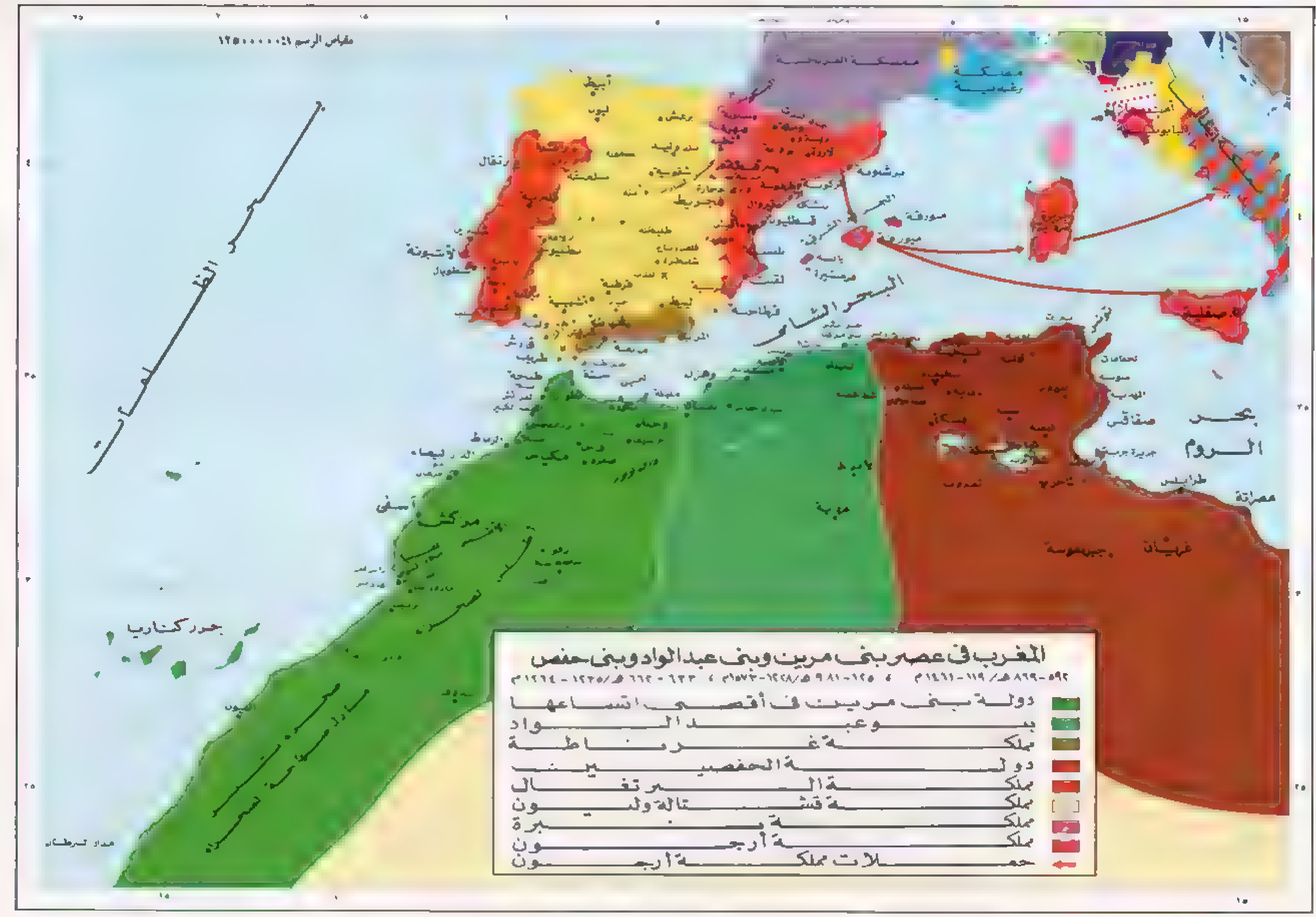
المغرب في عصر بني مرين وبني عبد الواد وبني حفص
دولة بني مرين في أقصى اتساعها
بنو عبد الواد
مملكة غرناطة
دولة الحفصيين
مملكة البرتغال
مملكة قشتالة وليون
مملكة نبرة
مملكة أرجون
حملات مملكة أرجون
بحر الظلمات
البحر الشامي
بحر الروم
جزر كناريا
مملكة فرنسا
مملكة رغوسية
مراكش
آسفي
مكناس
صفاقس
طرابلس
مصراتة
غدامس
جبال أطلس
صقلية
ميورقة
منورقة
برشلونة
لشبونة
البرتغال

المغرب الأقصى في عصر بني وطاس

(٨٣١ - ٩٥٧ هجرية / ١٤٢٨ - ١٥٥٠ ميلادية)

- امتداد دولة بني وطاس
- مملكة غرناطة حتى سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م.
- دولة بني عبد الواد حتى سنة ٩٢٤ هـ / ١٥١٨ م ثم الأتراك العثمانيين.
- حملات الإسبان على السواحل المغربية.
- حملات البرتغاليين بالمواريخ على السواحل المغربية.

بحر الروم
بحر الظلمات
وهران
بني صاف
تلمسان
مليلة
الحسيمة
الناضور
وجدة
تاوريرت
جبل طارق
سبتة
القصر الصغير
طنجة
تطوان
أصيلا
العرائش
القصر الكبير
الريف
الهبط
تازا
فاس
مكناس
صفرو
أجرسيف
القنيطرة
سلا
الرباط
أنفا
تامسنا
أزمور
البريجة
خنيفرة
وادي زم
أبو الجعد
الحوز
فجيج
دكالة
آسفي
الحوز
مراكش
شيشاوة
بلاد السوس
مهد السعديين
تارودانت
وادي السوس
أكادير
فاسة
تيزنيت
الأطلس الكبير
مهد العلويين الفلاليين
أرفود
سجلماسة
تافيلالت
جبل سيروة
أطلس الصحراء
وادي درعة
مقياس الرسم ١ : ١٠٠٠٠٠٠٠

المغرب الأقصى

من منتصف القرن التاسع إلى منتصف العاشر للهجرة
" " " الخامس عشر إلى منتصف السادس عشر الميلادي

عصر انتشار نفوذ الزوايا (الطرق الصوفية) والتمهيد لقيام دولة الشرفاء السعديين

- مناطق انتشار [illegible]
- " " زوايا الشرفاء الفلاليين (العلويين).
- " " " بني حسون السملاليين.
- بقايا دولة بني زيان (بني عبد الواد) (محمد بن أحمد الزياني).
- مناطق نفوذ [illegible]

بحر الروم
بحر الظلمات
الريف
النجود العليا
السوس
جبل طارق
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
تطوان
أصيلا
العرائش
القصر الكبير
سوق أربعاء الغرب
شفشاون
وزان
الهبط
تاونات
سيدي قاسم
فاس
سلا
الرباط
المحمدية
أنفا (الدار البيضاء)
تامسنا
أزمور
مزغان
تادلا
سطاط
آسفي
العجوز
قلعة السراغنة
مراكش
شيشاوة
أيت ورير
أمزميز
إمنتانوت
الصويرة
شعاد
رأس غير
أغادير
ماسة
تيزنيت
تارودانت
آيت ملول
بوركاد
طاطا
زكورة
أچدر
فم زجيد
ورزازات
بومالن
سجلماسة
تافيلالت
مكناس
صفرو
أزرو
خنيفرة
ميدلت
ميسور
تازا
أكنول
تاركيست
الحسيمة
الناضور
مليلة
بني صاف
عين تموشنت
وهران
تلمسان
العريشة
تاوريرت
وجدة
جرسيف
بوعرفة
فجيج
جرامة
بوذنيب
قنادسة
بشار
عبادلة
طاوتت

مقياس الرسم ١ : ٤٠٠٠٠٠٠

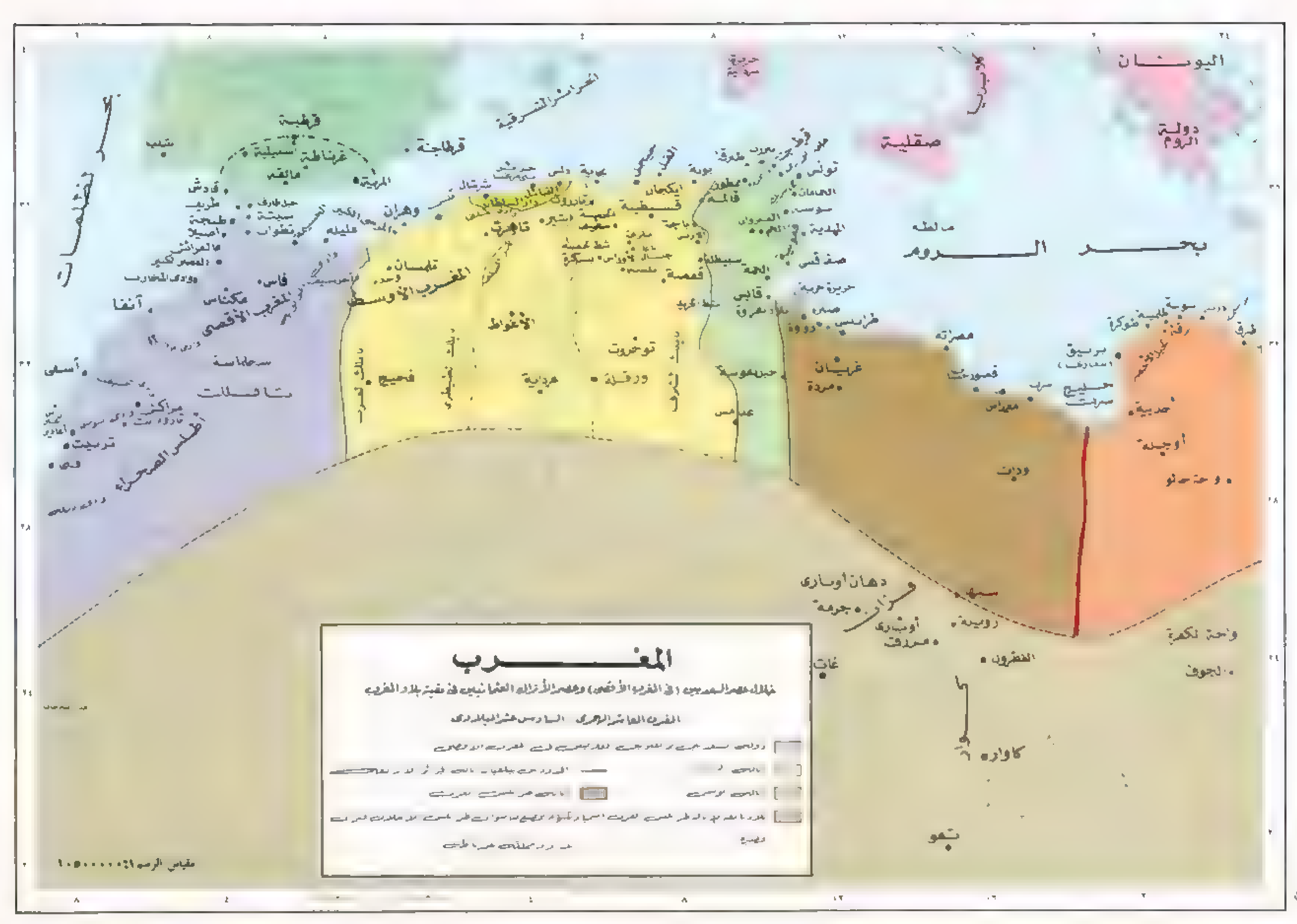

المغرب
بحر الروم
صقلية
اليونان
دولة الروم
قرطبة
غرناطة
قرطاجنة
وهران
قسنطينة
تونس
صفاقس
قابس
تلمسان
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
فاس
مكناس
سجلماسة
الأغواط
توقرت
ورقلة
غدامس
غريان
مصراتة
برقة
سرت
اوجلة
ودان
جرمة
مرزوق
سبها
غات
كاوار
بلمو
الجوف

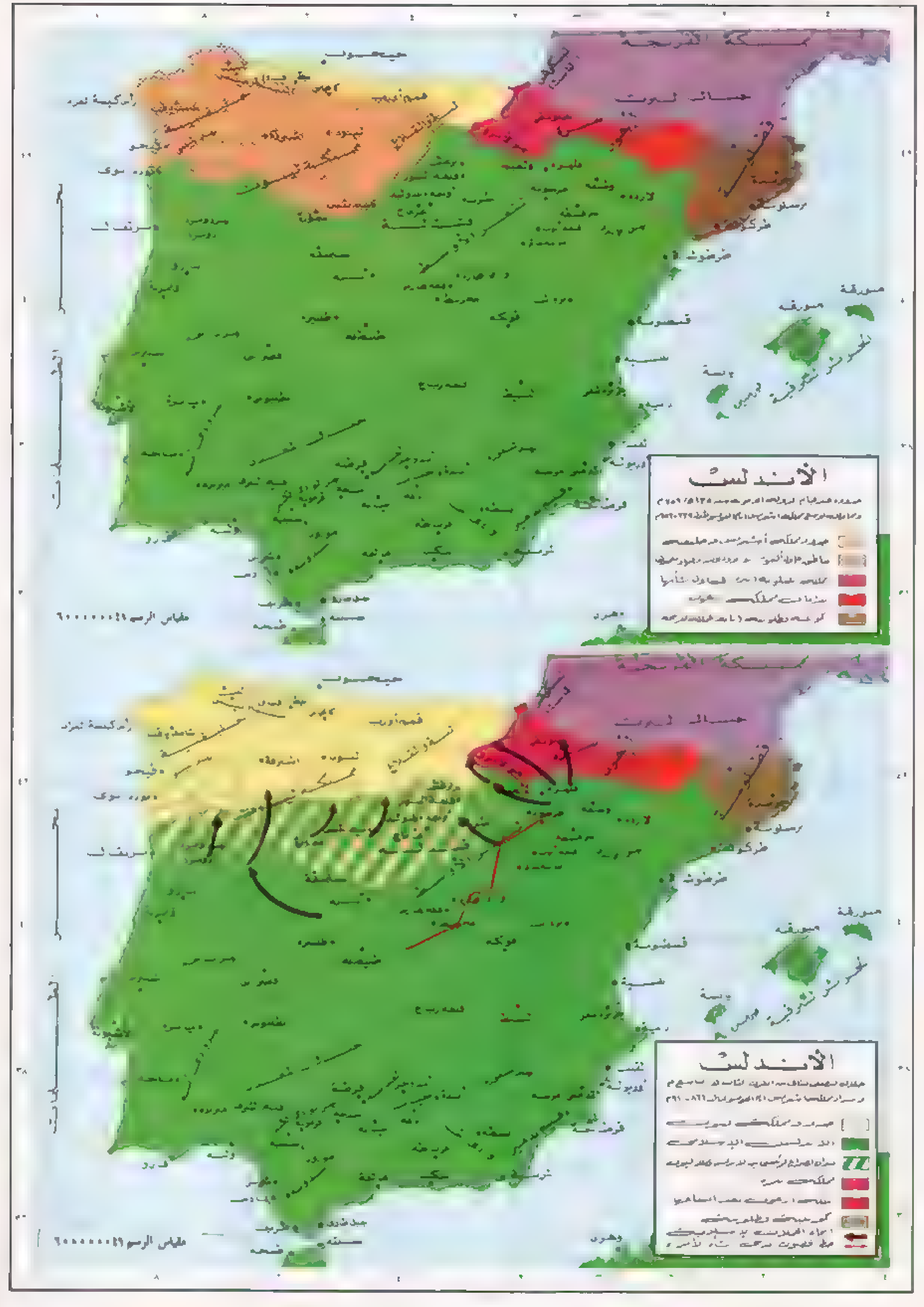
الأندلس
الأندلس

الأندلس
في عصره الذهبي
عصر عبد الرحمن الناصر
والحكم المستنصر
والمنصور محمد بن أبي عامر
القرن الرابع الهجري
العاشر الميلادي
الأندلس الإسلامي
مملكة ليون
كونتية قشتالة
〃 البرتغال
مملكة نبرة في عصر شانشو الكبير
إمارة أرجون
〃 ريباجورثا
〃 سبرب
كونتية قطالونيا
بلاد الفرنجة
أهم حملات عبد الرحمن الناصر
〃 〃 المنصور
خليج بسكاية
مملكة الفرنجة
مملكة ليون
جليقية
نبرة
قطلونية
برشلونة
طركونة
لاردة
وشقة
سرقسطة
بنبلونة
طرطوشة
بلنسية
دانية
مرسية
قرطاجنة
طليطلة
قونكة
قلعة أيوب
مدينة سالم
وادي الحجارة
سمورة
برتغال
شنترين
الأشبونة
باجة
ماردة
بطليوس
قرطبة
إشبيلية
قرمونة
إستجة
جيان
غرناطة
مالقة
المرية
الجزيرة الخضراء
جبل طارق
قادس
شذونة
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
وهران
مليلة
إمارة الأدارسة
المغرب الأوسط
البحر الرومي
المحيط الأطلسي
ع ميورقة
ع منورقة
ع يابسة
مقياس الرسم ١ : ٦٠٠٠٠٠٠

الأندلس

خلال عصر الطوائف

من قيام الفتنة عقب سقوط العامريين في جمادى الآخرة ٣٩٩هـ (فبراير ١٠٠٩م) إلى سقوط طليطلة في يد ألفونس السادس ملك قشتالة وليون في صفر ٤٧٨هـ (مايو ١٠٨٥ ميلادية)

- مملكة ليون وقشتالة
- 〃 نبرة
- 〃 أرجون
- كونتية قطلونية
- 〃 البرتغال
- حدود الأندلس الإسلامي بعد سقوط طليطلة

ملاحظة: لم توضع حدود لدويلات الطوائف لعدم وضوحها أوثباتها.

خليج بسكاية
نطيلة
مملكة الفرنجة
برغندية
مملكة نبرة
بنبلونة
أرجون
قطلونية
برشلونة
وشقة
لاردة
سرقسطة
الثغر الأعلى
طليطلة
مجريط
شنتمرية
كونتية البرتغال
ليون
المحيط الأطلنطي
قشتالة وليون
الجزائر الشرقية
ميورقة
منورقة
يابسة
بحر الروم
بلنسية
دانية
لقنت
مرسية
قرطاجنة
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
المرية
مالقة
طريف
الجزيرة الخضراء
طنجة
سبتة
شلب
شنترين
بطليوس
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
وهران
مليلة
تلمسان
مقياس الرسم ١ : ٠٠٠ ٠٠٠ ٦

الأندلس
في عصر المرابطين
مملكة نبرة
مملكة أرجون
قطلونية
مملكة قشتالة وليون
مملكة البرتغال
الثغر الأعلى الأندلسي
دولة المرابطين
والأندلس
مملكة الفرنجة
أرجون
قطلونية
نبرة
ليون
قشتالة
البرتغال
بحر الروم
الجزائر الشرقية
المغرب الأقصى
جبال الشارات
جبال المعدن
برشلونة
سرقسطة
لاردة
طرطوشة
طركونة
قلعة أيوب
مدينة سالم
تطيلة
وشقة
بربشترو
طليطلة
وقش
طلبيرة
شقوبية
سلمنقة
بلد وليد
أشترقة
سمورة
قورية
شنترين
قلمرية
قنيطرة
بلنسية
دانية
قسطليون
لقنت
أوريولة
مرسية
قرطاجنة
شاطبة
أقليش
قونكة
الزلاقة
قرطبة
جيان
إشبيلية
بطليوس
المرية
غرناطة
مالقة
شلب
العرب
منورقة
ميورقة
يابسة
تطوان
سبتة
مليلة
وهران
مقياس الرسم

تطور حدود الأندلس
من قيام دولة الموحدين سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م إلى
قيام مملكة غرناطة سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م
خليج بسكاى
جليقية
جبال البرت
قسطلونية
ميورقة
يابسة
البحر الشامي
جبل المعدن
إقليم الشرف
مالقة
قرطبة
طليطلة
سرقسطة
بلنسية
طنجة
سبتة
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط

خلال القرون
الثامن والتاسع والعاشر م
خلال القرنين
الحادي عشر والثاني عشر م
خلال القرون
الثالث عشر إلى الخامس عشر م
خلافة قرطبة
مملكة قشتالة وليون
مملكة ليون
طليطلة
قرطبة
إشبيلية
ولبة
قادش
مالقة
غرناطة
المرية
جبل طارق
مرسية
لقنت
بلنسية
طرطوشة
قسطليون
طركونة
برشلونة
سرقسطة
بنبلونة
ليون
الأشبونة
قلمرية
الجزائر الشرقية
لورقة
ورقل
برشانة
المنصورة
بيرة
بلميق
دلاية
المرية
أس غاطة
البحر
الأرش

مملكة غرناطة
سنة ٦٣٠ - ٨٩٧هـ/١٢٣٢ - ١٤٩٢م
حدودها ومواقع أعلامها الجغرافية والتاريخية
مملكة قشتالة
العقاب
جبال المعدن
بياسة
أندوجر
قيجاطة
قرطبة
جيان
نهر الوادي الكبير
أشكر
بيانة
بسطة
اسنجة
إشبيلية
قرمونة
طالقة
حصن اللوز
مرشانة
أشونة
إسطبة
لوشة
غرناطة
البيرة
أرشدونة
الحامة
جبل الشلير
انطكيرة
شلوقة
الورة
مطريل
شلوبينية
برجة
المنكب
رندة
مالقة
ذكوان
طشانة
قادش
مربلة
شذونة
اسطبونة
الجزيرة الخضراء
جبل طارق
طريف
مضيق جبل طارق
بحر الزقاق
سبتة
طنجة
تطوان
أصيلا
العرائش
القصر الكبير
جبال الريف
نهر ملوية

المغرب والأندلس

يتميز تاريخ المغرب الإسلامي بعدد من الظواهر التي تميزه عن غيره من تواريخ بقية بلاد الإسلام ، أولها طول مدة الفتح ، فقد استغرق إتمام فتح المغرب ، فتحا عاما شاملا ، نحو سبعين سنة ، كلها حروب عنيفة أبدى العرب والبربر خلالها من ضروب البسالة ماجعل هذا الفتح في ذاته ملحمة شعبين : العرب المناضل المصر على إدخال الشعب البربري كله في الإسلام ، والبربر الذين أبوا الخضوع للفاتحين العرب ، وطال الصراع بين العرب والبربر حتى أخذ العرب والإسلام معا بنواصي البربر وأدخلوهم في الدين . والظاهرة الثانية هي أن طول الصراع عند كلا من الشعبين أن يحترم الآخر ، ثم إن طول أمد الحرب كان كفيلاً بأن يُعرّف البربر فضائل الإسلام ، فأخذوا يُسلمون رويداً رويداً على طول مراحل الفتح ، وقرب النهاية كانت أعداد كبيرة جدا من البربر قد أسلمت وأخذت مكانها في جيوش الفتح ، واشترك الاثنان معا في فتح الأندلس ، وهذه الحقيقة تقودنا إلى واحدة من أظهر خصائص تاريخ المغرب الإسلامي ، وهي أن فتحه وإسلامه كانا كاملين ، فلم تبق في بلاده بعد تمام الفتح أي أقلية غير إسلامية . وفي خلال تاريخ المغرب الإسلامي الذي سنصوره في الصفحات التالية سنرى أنه انتهى إلى وحدة دينية مذهبية بلا نظير ، فالمغرب العربي كله من حدود مصر إلى المحيط ومن البحر المتوسط إلى مشارف إفريقية المدارية والاستوائية على مذهب السنة والجماعة .

وفي الفصل قبل السابق الخاص بالفتوح أتينا بخريطتين لفتوح المغرب ، وفيما يلي تصوير تاريخ المغرب في خرائط :

خريطة ٨٠

بلاد المغرب والصحراء الكبرى

مواقع جغرافية وتاريخية

خريطة ٨١

المغرب في عصر الولاة

انقسم المغرب في عصر الولاة بعد تمام الفتح إلى أربعة أقسام كبرى :

« إفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى والسوس أو سجلماسة » .

فإفريقية كانت تشمل ثلاثة أقاليم : طرابلس ، وتبدأ من تاورغا شرقا وتمتد حتى قابس غربا . وأما ماكان يعرف بأقليم سيرينايكا Syrenaica أو بنطابلس Pentapolis عند الاغريق والرومان والروم فقد سماه العرب لأول دخولهم باسم برقة ، وهي بلدة صغيرة قرب ساحل البحر المتوسط تحمل نفس الاسم تراها على الخريطة . ولم يكن هذا الإقليم محدد التبعية خلال العصور الإسلامية ، وإن كان تابعاً لمصر من الناحية النظرية ، ولم تظهر هذه التبعية إلا في بعض العصور مثل العصرين الفاطمي والأيوبي .

ويبدأ عصر الولاة في إفريقية من إنشاء القيروان ، وبه قامت الولاية سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م إلى قيام دولة الأغالبة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م

أما بالنسبة للمغرب الأوسط فيبدأ من حوالى سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤ م ، ويستمر حتى ١٦٤ هـ / ٧٨١ م . وهي السنة التي قامت فيها دولة بني رستم الخارجية في النصف الشرقي من المغرب الأوسط وقاعدتها تاهرت . وأما بالنسبة للمغرب الأقصى فيبدأ عصر الولاة حوالى سنة ٩٠ هـ / ٧٠٩ م وهي السنة التي أنشأ فيها موسى بن نصير ولايتي المغرب الأقصى والسوس أو سجلماسة وينتهي سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ، وهي السنة التي قامت فيها دولة الأدارسة في فاس . وفي سنة ١٥٥ هـ / ٧٧٢ م أقام أبو القاسم سَمْغُو أو سَمْكُو دولة بني مدرار في سجلماسة .

ويعتبر عصر الولاة من أهم عصور تاريخ المغرب الإسلامي ، ففي خلاله ولد المغرب الإسلامي بعد صراعات متعددة بين العرب البلديين ، وهم عرب الفتح ممن استقروا في البلاد ولحق بهم إخوانهم من أبناء قبائلهم ، وأنشئوا جاليات عربية مغربية تتطلع إلى الحكم ، وتنازع ولاة بني أمية وجندهم الشامي في حكمه ، وبين العرب والبربر مابين مستعربة وغير مستعربة ، أو بين أهل السنة والخوارج ، مما بلغ ذروته في الفتنة المغربية الكبرى ، التي بدأت سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م . في خلافة هشام بن عبد الملك ، وانتهت قبل نهاية العصر الأموي سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م . بفضل الجهود التي قام بها نفر من ولاة بني أمية وبخاصة حنظلة بن صفوان الكلبي (١٢٤ – ١٢٧ هـ / ٧٤٢ – ٧٤٥ م) وبعض ولاة بني العباس مثل محمد بن الأشعث الخزاعي (١٤٣ – ١٤٨ هـ / ٧٦٠ – ٧٦٥ م) والأغلب بن سالم بن عقال التميمي « جد الأغالبة » (١٤٨ – ١٤٩ هـ / ٧٦٥ – ٧٦٦ م) والمهالبة « وأولهم أبو جعفر عمر بن حفص هزار مرد وأهل بيته » (١٥١ – ١٨٤ هـ / ٧٦٨ – ٨٠٠ م) ولم تنته الفتنة تماما إلا بقيام الدول المغربية الأولى التي سنتحدث عنها في الفصل التالي .

وقد كانت هذه الفتنة بكل شرورها بعيدة الأثر في تكوين المغرب العربي الإسلامي ، فقد اختلطت عناصر السكان بعضها ببعض أثناء معارك الفتنة وصراعاتها . وقد بذلت الدولة العباسية أقصى ما استطاعت للمحافظة على ولاية إفريقية داخل نطاق السنة . مما أدى في النهاية إلى نصر حاسم وشامل للسنة والجماعة في بلاد المغرب كلها . وهذه السنية الغالبة كانت الأساس المتين الذي قامت عليه عروبة المغرب فيما بعد . وفي أثناء هذا عصر الولاة ظهرت معالم انقسام المغرب إلى وحدات سياسية متميزة داخل النطاق العام لبلاد المغربية ، وظهرت كذلك أهم ملامح الشخصية المغربية العربية الإسلامية .

خريطة ٨٢

عصر الدول المغربية الأولى

دولة الرستميين في تاهرت في المغرب الأوسط (١٦٤ – ٢٩٦ هـ / ٧٨١ – ٩٠٩ م) ، وكانت من الخوارج الإباضية ، قاعدتها تاهرت في المغرب الأوسط .

دولة بني مدرار ، أو بني سمو أو سمكو في سجلماسة ، وقد قامت في إقليم تافللت ، وقاعدتها سجلماسة ، واستمرت تحكم من (١٥٥ إلى ٣٦٠ هـ / ٧٧٢ – ٩٧١ م) . وكانت في بداية أمرها خارجية صُفْرية ، ثم تحولت إلى السنية في أيام أميرها الشاكر لله سنة (٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م) وثبتت على السنة رغم احتلال الفاطميين لها في نفس السنة .

في المغرب الأقصى .

دولة الأدارسة :

قامت في شمال المغرب الأقصى على يد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب (١٧٢ هـ / ٧٨٨ م) وظلت تحكم في دورها الأول حتى سنة (٣٠٥ هـ / ٩١٧ م) وهي نهاية الدور الأول من تاريخها ، إذ تغلب عليها في تلك السنة مصالة ابن حبوس تابع الفاطميين ، وحكمها واحتل فاس من (٣٠٥ إلى ٣٠٩ هـ / ٩١٧ إلى ٩٢١ م) وقد تمكن الحسن بن محمد بن القاسم الحجام من إعادة الدولة الإدريسية على مساحة صغيرة من أرضها حول فاس سنة (٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) وقد استمرت الدولة قائمة حتى قضى عليها أثناء النزاع بين أنصار الفاطميين في المغرب الأوسط والأمويين

الأندلسيين ، وقتل المنصور محمد بن أبى عامر آخر أمرائها وهو الحسن بن كنون سنة (٣٤٣ هـ / ٩٥٤ م) .

وقد بنيت فاس عاصمة الدولة ومفخرتها الكبرى سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٧ م ، على يد أميرها إدريس (الثانى) بن إدريس . وبنى جامع القرويين سنة ٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م ، فى عصر خامس أمرائها يحيى الأول بن محمد بن إدريس بن إدريس .

دولـة الأغالبـــة .

أنشأها فى ولاية إفريقية إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمى سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م . وظلت الدولة قائمة حتى قضى عليها الفاطميون سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م وحلوا محلها وامتدوا فى المغرب الأوسط . وهذه الدولة هى التى فتحت صقلية ابتداء من سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م أيام زيادة الله بن الأغلب ثالث أمراء الأغالبة ، ولم يتم فتح صقلية إلا فى أيام إبراهيم بن أحمد (الثانى) تاسع أمراء الأغالبة (٢٦١ — ٢٨٩ هـ / ٨٧٥ — ٩٠٢ م) . وهو الذى عبر إلى قلورية (كلابرية) وغزا جنوب إيطاليا حتى كُنْسِنْه Cosenza ، وطوال العصر الأغلبى استمر نشاط المسلمين العسكرى على سواحل إيطاليا وجزائر وسط البحر المتوسط على النحو المبين على الخريطة الخاصة بصقلية .

وأول مرة فتح المسلمون جزر مالطة كانت سنة ٢٢١هـ / ٨٣٦ م على قول ابن الأثير ، أيام إبراهيم بن أحمد ، ولكن الفتح الحقيقى الذى ترك أثرا كان سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م . ولم يكن وجود المسلمين فى الجزيرة ثابتا أو مستقراً ، ولكنها على أى حال كانت خاضعة لهم فترات طويلة . وقد انتهى السلطان السياسى للمسلمين عليها ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م على يد النورمان ، ولكن المسلمين ظلوا يعيشون فيها دون قيود حتى ضعفت دولة النورمان ، واستولى عليها فرسان القديس يوحنا ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م . بعد أن طردهم الأتراك العثمانيون من رودس وظلت فى أيديهم إلى أن انتزعها منهم نابليون بونابرت ١٧٩٨ م . وهو فى طريقه إلى مصر ، ثم تحولت إلى مستعمرة بريطانية فى القرن التاسع عشر .

دولة الرستميين فى تاهرت

أنشئت الدولة الرستمية فى المغرب الأوسط خارج حدود الدولة العباسية ، غرب نهر شِلِف سنة ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م . واختط منشئها عبد الرحمن بن رستم قاعدتها تاهرت على سفح جبل شمالى مدينة بربرية كانت تعرف بنفس الاسم . وكانت الدولة الرستمية دولة خارجيّة على المذهب الإباضى .

وقد حكم الرستميون شرق المغرب الأوسط بسلطان كامل ، ولكن غرب المغرب الأوسط (إقليم وهران وتلمسان) كان خارجا عن سلطانهم ، وكان بربر نفوسة وحلفاؤهم من القبائل الضاربة فى جبل نفوسة جنوبى طرابلس على نفس المذهب . بل إن أوائل دعاة الخارجية الإباضية فى المغرب وأئمتها من أمثال حكم بن سعيد ، وأبى الخطاب السمح بن عبد الأعلى المعافرى ، وأبى حاتم الملزوزى كانوا أولاً فى جبل نفوسة ، ولم يغادروه إلا بعد هزيمتهم أمام القائد العباسى محمد بن الأشعث قرب القيروان ، ففر رئيسهم عبد الرحمن ابن رستم مع نفر كبير منهم إلى المغرب الأوسط وأنشأ إمامة تاهرت . ومع ذلك فقد ظل الإباضيون فى جبل نفوسة محتفظين بقوتهم ومشيختهم . وكان سلطان الخارجية الإباضية يمتد على الطريق الصحراوى الذى يصل بين جبل نفوسة جنوبى طرابلس من ناحية والمغرب الأوسط من ناحية أخرى . وكان جميع أولئك الإباضية يؤلفون دولة واحدة ، وإن كانوا قد اختلفوا ، وانفرد بحكم إباضية جبل نفوسة شيوخ جبل نفوسة . وكانوا يرجعون أحيانا على أئمة الإباضية فى تاهرت . وقد استمرت مشيخة الإباضية فى جبل نفوسة قائمة ، حتى استولى عليها على بن سليمان الداعية الفاطمى سنة ٣١١ هـ / ٩٢٣ م مع أن الدولة الإباضية فى تاهرت زالت سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م على يدى أبى عبد الله الداعية الشيعى الذى أقام الدولة الفاطمية فى إفريقية .

وقد قضت الدولة الفاطمية على أربع من هذه الدول المغربية الأولى سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩ م وهذه الدول هى دولة الأغالبة ، ودولة الرستميين ، ودولة بنى مدرار ، ودولة الأدارسة . وقد عادت كل من دولة بنى مدرار ودولة الأدارسة إلى الوجود مرة أخرى ، ولكن فى حدود أصغر فيما بعد كما قلنا .

إمارات الحسنيين فى المغرب الأوسط الغربى .

فى نفس الوقت الذى هاجر فيه إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب إلى المغرب الأقصى هاجر أخ آخر له هو سليمان بن عبد الله بن الحسن ، وربما كان معه إخوة آخرون إلى المغرب الأوسط الشرقى (إقليم تلمسان) ، ونزلوا بعض نواحيه ، وتلقاهم الناس هناك بالترحاب تبركا بنسبهم الشريف . فأنشئوا هناك دويلات صغيرة فى تلمسان وجراوة وغيرهما ، وكانت هذه الإمارات الحسنية فى مجموعها مخالفة لبنى عمومتها الأدارسة . ولم يكتب لإمارة من إماراتهم فى هذه الناحية أن تصل إلى ما وصلت إليه الدولة الإدريسية ، ولكنها كانت كلها إمارات سنية ذات أثر بعيد فى نشر الإسلام ، وتعريب ألسنة الناس ، ونشر الحضارة العربية الإسلامية فى تلك النواحى

إمارةُ نكُور فى جزء من شمال المغرب الأقصى :

نكور دويلة سنية صغيرة أنشأها واحد من الفاتحين المسلمين العرب فى شمال المغرب الأقصى سنة ٩٦ هـ / ٧١٤ م . وهو يسمى صالح بن منصور الحميرى . وقد استمرت هذه الإمارة فى قيد الوجود حتى قضى عليها المرابطون فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وكانت فى معظم فترات تاريخها حليفة لدولة بنى أمية فى الأندلس ومعتمدة عليها .

خريطة ٨٣

الدولة الفاطمية فى إفريقية والمغرب

(ربيع الثانى ٢٩٧ — رمضان ٣٦٢ هـ / ديسمبر ٩٠٩ — يونيو ٩٧٣ م)

ولدت الدولة الفاطمية فى المغرب فى جمادى الآخرة ٢٩٦ هـ / فبراير ٩٠٩ م عندما دخل أبو عبد الله الشيعى داعية الفاطميين القيروان قادما من تازرُوت قرب بجاية فى المغرب الأوسط فى إقليم القبائل الحالى ، وكان أبو عبد الله الشيعى قد اتخذها حصنا ومعسكرا يعد فيها القوة العسكرية اللازمة للقضاء على الدولة الأغلبية فى إفريقية ، وإقامة الدولة الفاطمية مكانها ، ولكن هذا الميلاد لم يتأكد ويصبح واقعا تاريخيا إلا فى الرابع من ربيع الثانى ٢٩٧ هـ / ٢٢ ديسمبر ٩٠٩ م عندما دخل عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين القيروان على رأس قوات الكتاميين المغاربة الذين جندهم أبو عبد الله الشيعى لإقامة الدولة الجديدة .

والدولة الفاطمية دولة شيعية إسماعيلية ينتسب خلفاؤها إلى الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهم من أبناء إسماعيل بن جعفر الصادق ، ويُعرفون بالإسماعيلية الاثنى عشرية ، على خلاف بين المؤرخين فى صحة النسب ، وقد أقامت الدولة الجديدة تنظيما واسعا للدعوة الشيعية الإسماعيلية ، فنفر منهم أهل إفريقية نفوراً شديداً بسبب تمسكهم البالغ بالمذهب السنى المالكى بتزعمهم فى ذلك فقهاؤهم ، ومن بداية الأمر تبين عبيد الله المهدى أن إفريقية لن تكون أبداً مهداً وثيراً لدولته الفاطمية الإسماعيلية ، وبدأت فى أيامه المعركة الطويلة بين السنة المالكية والشيعة الإسماعيلية على أرض إفريقية ، وهى معركة طويلة وعنيفة وحاسمة ؛ انتهت بنزوح الخلافة الفاطمية من المغرب ، وانتقالها إلى مصر وقيامها فى القاهرة فى رمضان ٣٦٢ هـ / يونيو ٩٧٣ م فى السنة السابعة عشرة من خلافة المعز لدين الله ، أبى تميم معدّ رابع خلفاء الفاطميين . وقد عمر المعز فى مصر أقل من ثلاث سنوات ثم خلفه ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار فى ٥ ربيع الثانى ٣٦٥ هـ / ديسمبر ٩٧٥ م ، ولكن الدولة الفاطمية بدأت فى مصر عصراً جديداً يختلف عن عصرها الإفريقى من كل وجه ، وقد عمرت الدولة الفاطمية فى إفريقية قرابة ٦٥ سنة هجرية كانت كلها متاعب وقلاقل وأزمات

وخلال تلك الفترة حاول الفاطميون أن يوسعوا منطقة نفوذهم فى المغرب ، على أمل الخروج من المجال الضيق الذى وجدوا أنفسهم فيه فى إفريقية ، خاصة وأنهم بطبعهم كانوا ذوى نَهَم غير عادى إلى الأموال ، وإفريقية بلد صغير محدود الثروات ، ووجد الفاطميون تحت أيديهم قبائل بربرية ضخمة متطلعة إلى الغارات والمغانم وفرض السلطان ، وإلى شرق منازل كتامة — وكانت حلفاً ضخماً يضم عدداً كبيراً من القبائل — كانت هناك قبائل صنهاجة المغرب الأوسط ، وكانت أعدادهم أكبر من أعداد كتامة ، فاصطنع عبيد الله المهدى واحداً من أكبر زعمائهم وهو مصالة بن حبوس ، وسَلّطه على بقية المغرب الأوسط ، وكانت تسكنه قبائل زناتية أكبرها مغراوة وبنو يفرن ، فحمل الصنهاجيون عليها ودفعوها إلى المغرب ، واستمدت القبائل الزناتية فى محنتها بنى أمية الأندلسيين . ووصل مصالة بن حبوس تابع الفاطميين بمن معه من الصنهاجيين إلى المغرب الأوسط ، وغلبوا الأدارسة ودخلوا فاس ، وولى مصالة عليها رجلاً من أنصاره وهو موسى بن أبى العافية . وتقدمت أمداد الأمويين الأندلسيين لعون الأدارسة وبنى خزر الزناتيين ، واشتعل المغرب كله ناراً نتيجة لتلك المطامع الفاطمية .

واستمر المغرب يعانى هذا القلق والفوضى طوال الفترة الفاطمية فيه . وبعد أن تغلب الفاطميون على ثورة الخارجى أبى يزيد مخلد بن كيداد التى كادت تودى بدولتهم فى أواخر خلافة ثالثهم أبى طاهر اسماعيل المنصور (١٣ شوال ٣٣٤ - أول ذى القعدة ٣٤١ هـ / مايو ٩٤٦ - مارس ٩٥٣ م) اتجهوا بمطامعهم نحو مصر ، وقد شجعهم على ذلك ضعف الدولة الإخشيدية ، وإلى هذه الوجهة اتجه الخليفة الفاطمى الرابع المعز لدين الله (حكم فى المغرب من مستهل ذى القعدة ٣٤١ إلى شعبان ٣٦٢ هـ / مارس ٩٥٣ - مايو ٩٧٣ م) وركز جهده خلال هذه الفترة على الاستيلاء على مصر حتى تم له ذلك على يد قائده جوهر الصقلى . وقبل أن يغادر المعز القيروان فى طريقه إلى مصر استخلف مكانه على المغرب بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى أكبر زعماء صنهاجة المغرب الأوسط ، وسماه يوسف وكناه أبا الفتوح ، فقامت دولة بنى زيرى بن مناد فى إفريقية والمغرب الأوسط خاضعة للفاطميين أولاً ، ثم مستقلة عنهم ثانياً . وهكذا تنتهى الفترة الفاطمية فى إفريقية والمغرب ، وكانت فى مجموعها فترة قلق واضطراب وحروب وفوضى .

خريطة ٨٤

المغرب من انتقال الفاطميين إلى مصر
حتى قيام دولة المرابطين
(٣٦٢ - ٤٥٠ هـ / ٩٧٣ - ١٠٥٨ م)

تعتبر هذه الفترة التى تبلغ حوالى ٨٥ سنة هجرية من أعقد فترات تاريخ المغرب وأكثرها اضطراباً وأحفلها بالحوادث . فقد شهدت قيام دولة بُلُكين بن زيرى بن مناد الصنهاجية ، وهى أول دولة إسلامية ينشئها البربر بعد أن استعربوا وأسلموا ، وهذه الدولة كانت دولة محلية ، صرفت كل همها إلى غزو الزناتية والحروب مع قوات بنى أمية الأندلسيين فى المغرب الأقصى ، وقد استمرت تحكم المغرب الأوسط أو أجزاء منه من ٣٦٢ إلى ٥٤٢ هـ / ٩٧٣ - ١١٤٧ م . وابتداء من سنة ٤٤٢ هـ - ١٠٥٠ م بدأ تدفق عرب بنى هلال بن عامر بن صعصعة ومعهم بنو سليم بن منصور على المغرب قادمين من مصر ، واجتاحوا دولتى بنى زيرى ، وحصروا أمراءها فى مدينة المهدية على شاطىء البحر ، ثم فى العاصمة الداخلية التى اتخذوها فى جبال أوراس ، عندما اشتد بهم الخطر الهلالى ، وهى آشير . وكان بنو عمومتهم بنو حماد بن يوسف (بلكين) بن زيرى قد استقلوا بأنفسهم داخل جبال الأوراس ، وتحصنوا بقلعتهم المنيعة وهى قلعة بنى حماد ، ابتداء من ٤١٩ هـ/ ١٠٢٨ م . وقد بلغت هذه الدولة أوجها أيام سادس أمرائها الناصر بن علناس (٤٨١ - ٤٩٨ هـ / ١٠٨٨ - ١١٠٤ م) وقد تمكن هذا الرجل بعد صراع مرير مع الهلاليين من ناحية والنورمان من ناحية أخرى من الاحتفاظ بركن صغير من إفريقية ، هو كل مابقى لفرعى دولة بنى حماد فى المغرب الأوسط ، حتى قضى الفاطميون على بقايا هذه الدولة أيام حفيده العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م . أما المهدية فقد ظلت فى أيدى النورمان حتى استرجعها الموحدون سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م على يد قوات عبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين .

وقد صورنا فى هذه الخريطة تلك الأحداث فى ثلاث خرائط .

(أ) وهى الخريطة الرئيسية ، وتمثل الوضع العام فى المغرب كله خلال هذه الفترة كما هو مبين فى مفتاحها .

(ب) والخريطة « ب » تمثل قلب دولتى بنى زيرى الصنهاجيتين فى جبال الأوراس مع بيان أقاليمهما وقاعدتيهما : آشير وقلعة بنى حماد .

(جـ) اتجاهات هجرة بنى هلال المعروفة بالتغريبة من مصر إلى برقة ثم إلى طرابلس وبلاد إفريقية . وكانت معهم جماعات من بنى سليم بن منصور . وصورنا بالأسهم اتجاه الهلالية إلى دواخل دولتى بنى زيرى وسواحلهما وحصر أمرائهما فى النهاية فى جزء صغير من ساحل المغرب . ثم اتجاههم بعد ذلك إلى المغرب الأقصى عندما فتح لهم الموحدون أبواب الهجرة إلى المغرب الأقصى ، حيث كان لهم دور كبير فى تاريخه من أواخر الدولة الموحدية إلى قيام دولة السعديين . وهؤلاء العرب الهلالية دعموا الزناتية عرباً حيث استقروا وتركزوا هناك . وقد صورنا هجراتهم بلون خاص .

خريطة ٨٥

فتح المسلمين لصقلية وغزواتهم فى جنوب إيطاليا

هذه إحدى خريطتى لصقلية الإسلامية ، ونشاط المسلمين العسكرى فى الحوض الأوسط للبحر المتوسط .

وهى تبين بالتفصيل مراحل فتح المسلمين لصقلية ، ابتداء من سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م على يد أسد بن الفرات أيام زيادة الله بن الأغلب ثالث أمراء بنى الأغلب حتى تمام ذلك الفتح على يد إبراهيم بن أحمد تاسع أمراء الأغالبة (٢٦١ - ٢٨٩ هـ / ٨٧٥ - ٩٠٢ م) مع غزوات هذا الأخير فى جنوب إيطاليا وحصاره كشنته وموته وهو على حصارها

وفى الركن الأيسر من الخريطة رسمنا أهم غزوات المسلمين على إيطاليا صادرين من صقلية بما فى ذلك الحملة على روما ودخولها فى صفر ٢٣٢ هـ / ٢٢ أغسطس ٨٤٦ م . أيام الأمير أبى العباس محمد بن أبى عقال الأغلب السعدى رابع أمراء الأسرة الأغلبية (ربيع الآخر ٢٢٦ هـ - المحرم ٢٤٢ هـ / يناير ٨٤١ - مايو ٨٥٦ م) وفتح مالطة

خريطة ٨٦

بلاد إفريقية وجزيرة صقلية وإيطاليا
مواقع جغرافية وتاريخية فى العصور الوسطى

اقتبسناها عن الأطالس التاريخية لإيطاليا . وقد رسمنا فيها الأسماء العربية لما عربه العرب من أسماء الأماكن . وهذه خريطة يحتاج إليها غير العرب من المؤرخين . وقد وجدنا كذلك خريطة مفصلة لمدينة بَلَرم أيام المسلمين ، فنقلناها وكتبنا أعلامها العربية .

خريطة ٨٧

المغرب والأندلس فى عصر المرابطين
(٤٤٨ - ٥٤١ هـ / ١٠٥٦ - ١١٤٦ م)

ولدت دولة المرابطين خارج نطاق المغرب الإسلامى فى القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) جنوبى وادى درعة فى الصحراء الفاصلة بين المغرب الأقصى وحوض السنغال وهو بداية إفريقية المدارية ، ولكن القبائل التى أنشأتها كانت قبائل مغربية ، فهى قبائل صنهاجة الصحراء أو صنهاجة الجيل الثانى ، وأهمها جُدالة ولَمْتُونة ومسوفة ولمطة وتارجا وجزولة وبنو وارث . وكانت هذه القبائل تمتد أول الأمر إلى الشمال وتحتل اقليم تافيلالت وقاعدته سجلماسة ، فلما بسط الزناتيون سلطانهم على المغرب الأوسط طردوا الصنهاجيين إلى الجنوب ، فأصبحوا محصورين فى الصحراء بين زناتة من الشمال وقبائل السود فى حوض السنغال من الجنوب ، وأصبحوا مهددين بالفناء .

تلك هى الظروف التى دفعت قبائل صنهاجة الصحراء إلى التحرك للتخلص من ذلك الوضع . وكانت قبيلة جُدالة تتزعم هذه القبائل فى أوائل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، ورئيسها يحيى بن عمر بن إبراهيم بن ترغوت الجدالى ، وقد خرج هذا الرجل للحج سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م ومر فى طريق عودته بمدينة فاس ولقى الفقيه أبا عمران الفاسى الورفجومى وسأله أن يرسل معه واحداً من تلاميذه ليكون فقيه القوم ويتولى تفقيه أهل القبائل فى الإسلام ، راجيا أن يكون ذلك سبيلاً لإخراج قبائل صنهاجة من الموقف الصعب الذى كانت تجد نفسها فيه ، فترتفع عن الخلافات القبلية التى كانت تزيدها ضعفا . ووقع الاختيار على عبد الله بن ياسين الجزولى .

وعندما وصل عبد الله بن ياسين إلى مواطن الصنهاجيين تكشف عن داعية نشيط ومفكر سياسى ، إذ كان قد زار الأندلس ورأى مأساة عصر الطوائف فيه ، ومر بالمغرب الأقصى من شماله لجنوبه ، ورأى استبداد الزناتيين بالصنهاجيين ، فتطلعت نفسه للنهوض بصنهاجة ، وجمع صفوفها ، وتهيئتها للتغلب على زناتة ، وعندما استقر فى ديار جدالة بدأ يعلمهم أصول الإسلام ، ولم يوفق مع الجداليين ، فانتقل إلى لمتونة . وكان نسب يحيى بن عمر يرجع إلى ترغوت جد اللمتونيين ، وقد أعجب يحيى بن عمر بعبد الله بن ياسين وأيده فى إنشاء حركة تحمس دينى بينهم ، وكون من بينهم جماعة سميت المرابطين ونظمهم للجهاد فى سبيل الله ، وعندما مات يحيى بن عمر سنة ٤٤٧ هـ خلفه أخوه أبو بكر بن عمر فأيده عبد الله بن ياسين ، ودخل مع ألف من شباب الصنهاجيين فى جزيرة فى المحيط قرب الساحل ، حيث أكمل تكوينهم دينياً وأخلاقياً وجعل منهم نواة قوة ضاربة . وبعد ذلك خرج بقوته تلك ، وانضمت إليها جموع كثيرة من المرابطين اللمتونيين ، فخرج بهم للجهاد تحت إمرة أبى بكر بن عمر فانتصر على الزناتيين ، وكسر الحصار الذى كان مضروبا على صنهاجة فى الشمال ثم على السود فى الجنوب ، وفتح بذلك الطرق أمام صنهاجة للتوسع شمالاً وجنوباً ، وسار مع عبد الله بن ياسين على نفس المنهج ، ثم قتل عبد الله بن ياسين فى إحدى وقائعه فانفرد أبو بكر بن عمر مع لمتونة بقيادة الحركة يعاونه فى ذلك ابن عمه يوسف بن تاشفين .

وفي سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٦٩ م كان المرابطون قد انتصروا على زناتة ، وانتزعوا منها السيادة على إقليم تافيلالت وعاصمته سجلماسة ، ثم سيطروا على وادي نهر تانسيفت والسهل الواسع الذي يجري فيه . وعلى هذا الفرع شرع أبو بكر بن عمر في إنشاء قاعدة سياسية وعسكرية للدولة الجديدة . وهكذا نشأت مدينة مراكش سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م . وبينما كان أبو بكر بن عمر يشهد بناء مدينة مراكش بلغته أنباء حرب قامت بين لمتونة وجُدالة في الصحراء ، فترك الرياسة لابن عمه يوسف بن تاشفين ومضى إلى الصحراء . وعندما عاد لم يستطع استعادة رياسته ، وتمكن يوسف بن تاشفين بنصيحة زوجته زينب بنت إسحاق النفزاوية من إرضائه فانصرف عائدا إلى الصحراء ليواصل الجهاد هناك ، وهكذا أصبحت الرياسة في بيت يوسف بن تاشفين اللمتوني ، وكان زعيماً نشيطاً قادراً ذكياً عميق الإيمان ، وهو الذي قاد الحركة المرابطية من ذلك الحين ، ومكن لها من إنشاء الدولة الكبرى في المغرب أولاً ، ثم إنقاذ مابقي للإسلام في الأندلس بعد ذلك .

وهذه الخريطة تبين مراحل بناء الدولة المرابطية في المغرب والأندلس ، وتعين أهم المواقع التي خاضها المرابطون في الأندلس حتى وفاة علي بن يوسف بن تاشفين الذي بلغت الدولة أوجها في عصره .

هذا وقد كان عبور المرابطين إلى الأندلس لنجدته للمرة الأولى سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٦ م وفيها كسبوا أول نصر لهم على ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وهو نصر الزلاقة قرب بطليوس في ١٢ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م . وعندما عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عبوره الثالث سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م عزل ملوك الطوائف فيما عدا أمراء سرقُسْطة ، وبذلك انتهى عصر الطوائف وأصبح مابقي للمسلمين في الأندلس جزءا من الدولة المرابطية ، وقد تمكن المرابطون من المحافظة على ما ورثوه من الأندلس الإسلامي بفضل مابذلوه من جهود جليلة في الجهاد ، وماكسبوه من انتصارات كبرى ، وماتكبدوه كذلك من خسائر . وقد كانت تضحيات المرابطين في الأندلس من أكبر الأسباب التي مكنت الموحدين المصامدة من الغلب والنصر

خريطة ٨٨

المغرب والأندلس خلال العصر الموحدى
(٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م : ٦٦٨هـ / ١٢٦٩ م)

هذا التاريخ الذي حددناه لبداية تاريخ الموحدين هو تاريخ وفاة محمد بن تومرت ، وإعلان عبد المؤمن بن علي خليفته ووريثه ، أما ميلاد الحركة الموحدية نفسها على يد محمد ابن تومرت فقد كان قبل ذلك بسنوات طويلة ، ويمكن القول إن الحركة ولدت بعد عودة محمد بن تومرت من رحلته الدراسية في المشرق ودخوله بجاية وخروجه منها ، وقد كون نواة جماعة أتباعه ، ثم لقي بعد ذلك عبد المؤمن بن علي الكومي قرب تلمسان حوالي ٥١٠ هـ / ١١١٦ م . وبعد ذلك نجد محمد بن تومرت يخترق المغرب الأقصى من شماله لجنوبه يحيط به اتباعه ، وعلى رأسهم عبد المؤمن بن علي زاعماً أنه آمر بالمعروف وناه عن المنكر ، مهاجما ما ادعى أنه مخالفات المرابطين للدين ، رغم مانعرف من أن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ثاني أمراء المرابطين - وفي أيامه بدأ ابن تومرت دعوته - كان من أصلح الحكام وأشدهم تمسكاً بالدين ، ولكن محمد بن تومرت كان في الحقيقة داعية سياسياً مصموديا يسعى إلى توحيد صفوف قبائل مصمودة وحفزها على التخلص من سلطان صنهاجة والتغلب عليها وإقامة دولة مصمودية مكانها . وأخيراً لجأ ابن تومرت مع أنصاره من المصامدة إلى قرية تينملل وسط منازل قبيلته هرغة في أغمات « إيجليز » عند منابع وادي نفيس الذي ينحدر من جبال السوس . وهناك تسارعت إليه جموع المصامدة فرتبهم في تنظيم ديني عسكري وجعلهم طبقات : أهل الدار ثم إيت عشرة (أهل عشرة) ثم إيت خمسين ، وكانت أقوى قبائل المصامدة التي انضمت إليه هنتاتة (إنتي) وهيلانة (إيت إيلان) ، وهسكورة وهزرجة وهرغة . وتحول معتكف ابن تومرت في تينملل إلى مركز كبير للدعوة الدينية ، فلما انتهى من تنظيم رجاله بدأ بغزو المرابطين الذين كانوا قد دخلوا في دور الضعف والانحلال في الأندلس . وكان ابن تومرت رأس الجماعة ، يليه عبد المؤمن بن علي ، ثم الشيخ أبو حفص عمر إينتي الهنتاتي . وكان أفراد بيت عبد المؤمن يسمون السادة ، في حين أن آل بيت أبي حفص الهنتاتي يلقبون بالأشياخ ، ومن هذين البيتين كانت تتكون رئاسة الجماعة . أما أهل بيت ابن تومرت - الذي لم يتزوج أو ينجب - فكانوا يسمون أهل الدار ، ويدخل فيهم أهل خدمته ، ومنهم خادمه وكاتب تاريخه أبو بكر الصنهاجي الملقب بالبيذق .

وقبل أن يموت محمد بن تومرت سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م كان قد أخذ البيعة لعبد المؤمن . وفي هذه السنة بايع الموحدون عبد المؤمن خليفة وبدأ حركة التوسع . وقد حكم من ٥٢٤ إلى ٥٥٨ هـ / ١١٣٠ - ١١٦٣ م . ومرت عملية بناء الدولة الموحدية بأربع مراحل بيانها على الخريطة وهي :

المرحلة الأولى : الاستيلاء على مراكش وسهلها الفسيح وقد تمت سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م .

المرحلة الثانية : الاستيلاء على شمال المغرب : حوض وادي أم الربيع ، ثم حوض وادي الرقراق (بُورِيجْرِيج) ووادي سَبُو ، بما في ذلك فاس وبقية المغرب إلى الزقاق وهو مضيق جبل طارق ، وقد تمت سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م .

المرحلة الثالثة : فتح المغرب الأوسط وقد تمت بدخول المرابطين مدينتي تلمسان ثم الجزائر سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م .

المرحلة الرابعة : بسط فيها الموحدون سلطانهم على إفريقية بما في ذلك شرقي إقليم طرابلس واستعادة المهدية وجزيرة جربة وبقية سواحل إفريقية من النورمان ، وقد تمت سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م التي تسمى سنة الأخماس ، وبذلك يكون الموحدون أول من وحد المغرب العربي كله عدا برقة ومايليها شرقاً إلى حدود مصر .

وفي أثناء ذلك تدخل الموحدون في الأندلس . وكان أول دخول لعبد المؤمن بن علي في الأندلس سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م . وكان دافعه إلى الإسراع بذلك استيلاء ألفونسو السابع ملك قشتالة وليون المسمى بالسليطين على ألمرية ، فاسترجعها منه المسلمون . ووضعوا أيديهم على ماكان قد بقي للمسلمين في الأندلس ، وهو القسم الجنوبي الذي يحده من الشمال مجرى الوادي آنه ، ثم مجرى نهر التوريا وهو نهر بلنسية .

خريطة ٨٩

المغرب في عصر بني مرين وبني حفص وبني عبد الواد
٥٩٢ - ٩٥٧ هـ / ١١٩٦ - ١٥٥٠ م
٦٢٥ ٩٨١ هـ / ١٢٢٨ ١٥٧٣ م
٦٣٣ - ٩٦٢ هـ / ١٢٣٦ - ١٥٥٤ م

بعد انتصار الموحدين على قشتالة وليون في معركة الأرك Alarcos (٩ شعبان ٥٩١ هـ / ١٨ يوليو ١١٩٥ م) انكسرت حدة الضغط النصراني على الأندلس الإسلامي ، وأتيحت الفرصة للموحدين للنظر في أمر إفريقية التي اشتد عبث العرب الهلالية فيها ، وزاد الأمر هناك سوءاً بنو غانية المسُّوفيون ، وهم ثوار على الموحدين من بقايا المرابطين الذين استقلوا بالجزائر الشرقية (جزر البليار) عن دولة الموحدين ثم عبروا إلى إفريقية ، ونزلوا بجاية وحالفوا العرب الهلاليـة .

وقد توفي أبو يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين وبطل معركة الأرك بعد ذلك النصر بقليل ، وخلفه ابنه محمد الناصر ، فوجه همه إلى إفريقية والمغرب . فبدأ بتوجيه ضربة حاسمة لبني غانية المسوفيين في جزائر البليار ، فأرسل حملة بحرية تمكنت من القضاء على سلطانهم هناك في ربيع الأول ٦٠٠ هـ / ديسمبر ١٢٠٣ م .

وبعد ذلك بسنتين في ٢ ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ / أكتوبر ١٢٠٥ م استعاد الموحدون مدينتي تونس والمهدية من بني غانية وأحلافهم من بني هلال ، ثم أنزلوا هزيمة حاسمة بآخر رجال بني غانية وهو يحيى ابن إسحاق الميورقي قرب تاجرا عند قابس ، فانتهت بذلك في الواقع ثورة بني غانية ، وعادت إفريقية والمغرب الأوسط إلى طاعة الموحدين ، واختار محمد الناصر أكبر رجال الدولة الموحدية وهو أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص شيخ قبيلة هنتاتة لولاية إفريقية ، وأطلق يده في تلك الولاية فجعله بذلك واليا مستقلا في ذلك الجزء الكبير من دولة الموحدين ، وبدأ أبو محمد عبد الواحد عمله في إفريقية بنصر كبير أحرزه على يحيى بن إسحاق بن غانية الميورقي عند تبسَّة في إقليم الزاب في ٢٠ ربيع الأول سنة ٦٠٤ هـ / ١٥ أكتوبر سنة ١٢٠٧ م وكان هذا النصر نهاية لفتنة بني غانية وعرب بني هلال في إفريقية والمغرب الأوسط وتثبيتاً لأقدام أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص في إفريقية .

وبالفعل بدأت الدولة الموحدية تنقسم إلى دولتين موحدتين :

الحفصية فى إفريقية ، والموحدية فى المغرب الأقصى وبقية بلاد المغرب ومابقى للمسلمين فى الأندلس من أملاك . وبعد ذلك بقليل حاولت بقايا بنى غانية الهجوم على تلمسان ودخلوها فعلاً ، ولكن أبا محمد عبد الواحد الحفصى تمكن من هزيمتهم والاستيلاء على معسكرهم وأموالهم وذخائرهم ، ثم أعقب ذلك بنصر آخر على هذا الخلف الذى طالما عانى منه المغرب عند جبل نفوسة .

وتوفى أبو محمد عبد الواحد سنة (٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م) فخلفه ابنه أبو عبد الله ابن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص . وفى ربيع الثانى سنة (٦٢٣ هـ / أبريل ١٢٢٦ م) أصدر أبو العلا إدريس المأمون تاسع خلفاء الموحدين (٦٢٦ - ٦٢٩ هـ / ١٢٢٩ - ١٢٣٢ م) أمرا بإقامة أبى عبد الله محمد بن عبد الواحد واليا على إفريقية ، وجعلها دائمة فى أهل بيته ، فسار إليها مع أخويه أبى زكريا يحيى وأبى عبد الله اللحيانى ، ويمكن اعتبار هذا التاريخ ميلاداً لدولة بنى حفص فى إفريقية ، وبنو حفص هم الذين اتخذوا تونس عاصمة لإفريقية ، ولكن أول خلفاء الحفصيين الذين استقلوا بإفريقية فعلاً هو أبو زكريا يحيى أخو أبى عبد الله محمد بن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص ، فهو الذى استقل فعلا بإفريقية سنة (٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م) وظل يحكم إفريقية حتى (٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م) . وتمكن من إرساء قواعد الدولة الحفصية الجديدة سنة (٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م)

والدولة الحفصية كانت من الدول طويلة العمر قليلة المجد ربما لأنها لم تعتمد على قوة عسكرية ذاتية ، ولم يكن لها عماد معنوى ، فقد اعتمدت أساساً على قوة مصمودية قليلة ، واعتمدت على جند من العرب الهلالية والبربر المرتزقة مابين صنهاجة وزناتة . وربما كان أقدر أمرائهم هو أبو زكريا الذى أعلن استقلاله عن الموحدين سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م وحكم حتى سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م . وبسط سلطانه على كل إفريقية وطرابلس ، وخطب له على منابر الجزائر وتلمسان وطنجة ومكناسة ، وخطب له كذلك بنو مرين الذين استولوا على فاس بعض الوقت ، وكانت له عناية بالمنشآت والعلوم والثقافة ، ويمكن أن يقال إن سلطانه الفعلى كان على إفريقية ، أما فى المغرب الأوسط وطرابلس فكان سلطانه اسمياً وقصير العمر . وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد بن أبى زكريا الملقب بالمستنصر (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ / ١٢٤٩ - ١٢٧٦ م) وهو الذى تصدت قواته لقتال الحملة الصليبية الثامنة التى قادها لويس التاسع إلى تونس ولقى حتفه فى العاشر من المحرم ٦٦٩ هـ / ١١ أغسطس ١٢٧٠ م . فذاع صيته واشتهر أمره حتى خطب له على منابر الحجاز ، ولكن قوى المستنصر كانت قليلة وخاصة فى البحر ، مما اضطره إلى دفع إتاوة لشارل أنجو أمير صقلية ، وهو أخو لويس التاسع ، ولكن علاقاته كانت طيبة بالجمهوريات الإيطالية ومملكة أرغون ، وبعد وفاته انقسمت الدولة وكثرت الحروب بين المتنازعين على العرش فيها ، واستعان بعضهم بملوك أرغون وخاصة بدرو الثالث (١٢٧٦ هـ - ١٢٨٥م) .

وفى معظم بقية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى كانت الدولة الحفصية مقسمة إلى ثلاث قطع : تونس وبجاية وقسنطينة . ولكن الأمير الحفصى السادس عشر وهو أبو العباس أحمد الثانى الملقب بالمستنصر استطاع التغلب على منافسيه ، وأعاد وحدة الدولة ، وحكم من ٧٧٢ إلى ٧٩٦ هـ / ١٣٧٠ - ١٣٩٤ م وتغلب على عرب العرب ، وأعاد للدولة وحدتها ورونقها ، وخلفه واستمر بالدولة على نفس القوة ابنه أبو فارس عبد العزيز المتوكل بن أحمد الثانى (٧٩٦ - ٨٣٧ هـ / ١٣٩٤ - ١٤٣٣ م) ولكن الدولة عادت إلى الانقسام بعد ذلك واتسع فيها نفوذ الأوروبيين ، واستعان بهم المتنافسون على العرش بعضهم على بعض . ونشطت أعمال غزاة البحر ، وأصبحت مغانم الغزاة مورداً هاماً من موارد الدولة ، وحفلت موانى إفريقية مثل الجزائر وبجاية وتونس بالأسرى والسبايا ، ومن حوالى ١٥٤٠ م أخذ شارل الخامس يعد العدة للاستيلاء على موانى المغرب بمعاونة طلاب العرش المتنازعين ، ولم تحل سنة ١٥٥٨ م حتى كانت تلك الموانى قد احتلت . وتصدى الأتراك العثمانيون للإسبان ، وابتداء من ١٥٦٠ م كانت تونس قسمة بين الإسبان والأتراك العثمانيين ، وكل جانب منهما يؤيده أمير حفصى . وكان هذا هو التمهيد الذى أدى فى النهاية إلى احتلال الأتراك العثمانيين للجزائر وتونس وطرابلس وتحويلها إلى إيالات سنة ١٥٨٧ م . ولم يعد أمراء الحفصيين مستقلين بل ممثلين للسلطان العثمانى يحملون لقب الداى .

المرينيون يحلون محل الموحدين فى المغرب الأقصى :

بنو مرين قبيل بربرى زناتى ، موطنه الأول فى المغرب الأوسط ، ثم دفعهم بنو هلال غرباً ، ولم يرضوا - على عكس بنى عمومتهم بنى وطاس - أن يدخلوا فى طاعة الموحدين ، فانحدروا مع نهر ملوية إلى الجنوب حتى منابعه عند وادى ريز أحد منابع الملوية شمالى تافيلت وسجلماسة . وهناك عاشوا مستقلين وإن كانوا محالفين للموحدين . وقد اشتركت منهم قوة كبيرة فى معركة الأرك التى انتصر فيها الموحدون على ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وفى تلك المعركة أصيب شيخهم محيو بن حمامة بجراح خطيرة مات منها وخلفه فى رياسة القبيل ابنه عبد الحق ، وكان رئيساً موهوبا استطاع بالاتفاق مع الموحدين أن يدخل برجال قبيلته بلاد المغرب الأوسط ويمتد حتى آخر سيف على نهر الملوية .

وكانت قوة الموحدين قد أصابها صدع عميق بسبب هزيمة الخليفة الموحدى الرابع محمد الناصر فى موقعة العقاب التى تسمى فى النصوص الأوروبية **Las Navas de Tolosa** بين جيان وقلعة رباح فى ١٥ صفر ٦٠٩ هـ / ١٧ يوليو ١٢١٢ م وفيها حصدت زهرة مقاتل مصمودة وأحلافهم من العرب الهلالية وبنى مرين ، وأراد الخليفة الموحدى الرشيد أن يدفع بنى مرين خارج الأقاليم التى أوغلوا فيها فى ممر تازا وشرق وادى سبو ، وأرسل إليهم جيشا من الموحدين وبنى رياح من العرب الهلالية ، ودارت معركة دامية فى ممر تازا شرق وادى سبو وانتصر فيها المرينيون نصراً كبيراً مع أن شيخهم عبد الحق قتل ، وخلفه ابنه أبو سعيد عثمان بن عبد الحق ، وهذا النصر مكن لبنى مرين من دخول سهل شمال مراكش ووادى سبو ، وبعد موت عثمان تمكن أخوه محمد الأول بن عبد الحق من استعادة مركز بنى مرين فى شمال المغرب ، وتغلب على بنى زيان وأخرجهم إلى إقليم تلمسان حيث قامت دولتهم التى تعرف بدولة بنى عبد الواد ، وبعد صراع طويل تمكن خليفته وأخوه ٦٤٢ - ٦٥٦ هـ / ١٢٤٤ - ١٢٥٨ م أبو يحيى أبو بكر بن عبد الحق من التغلب على مقاومة الموحدين ودخل فاس ومكناس ووصل بسلطانه إلى شاطىء البحر واحتل سلا والرباط ، وعلى يديه قامت دولة بنى مرين وعاصمتها فاس ، وفى نفس الوقت ظل خلفاء الموحدين فى النصف الجنوبى من المغرب الأقصى وعاصمتهم مراكش ، وكان ذلك سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م ويعتبر أبو يحيى أبو بكر بن عبد الحق أول الكبار من أمراء بنى مرين .

وهو أول سلاطين بنى مرين وإن كان فى الحقيقة رابع شيوخهم الذين أسسوا دولتهم ، وخلفه ابنه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦ - ٦٨٥ هـ / ١٢٥٨ - ١٢٨٦ م)

وقد استقرت قواعد الدولة المرينية ، وبسطت سلطانها على كل شمال المغرب حتى سبتة وطنجة ، وبذلك أصبح لدينا فى شرق المغرب الأوسط وبلاد المغرب الأقصى ثلاث دول : الموحدون فى جنوب المغرب وقاعدتهم مراكش ، وبنو مرين فى شمال المغرب الأقصى وقاعدتهم فاس ، ثم بنو عبد الواد الذين يسمون أيضا بنو زيان فى شرق المغرب الأوسط وقاعدتهم تلمسان . وقد بدأت إمارتهم فيها فى سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م . على يد أميرهم أبى يحيى يغمراسن بن زيان وإن كان المؤسس الحقيقى لدولة بنى زيان هو ابنه أبو سعيد عثمان (الأول) ابن يغمراسن بن زيان (ذو الحجة ٦٨١ - ذو القعدة ٧٠٣ هـ / مارس ١٢٨٣ - يونيو ١٣٠٤ م) .

وقد طالت أيام بنى مرين فلم تنته دولتهم إلا سنة ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م ومرت بأطوار ، واتسعت دولتهم أحيانا فشملت المغرب الجنوبى ودخلوا مراكش وحكموا إقليم تافللت ، ولكن دولتهم تدهورت بعد حكم سلطانهم العاشر أبى الحسن على بن عثمان (المحرم ٧٣٢ جمادى الآخرة سنة ٧٤٩ هـ / أكتوبر ١٣٣١ - يوليو ١٣٤٨ م) ثم ابنه أبى عنان فارس المتوكل بن على (جمادى الآخرة ٧٤٩ - ذو الحجة ٧٥٩ هـ / يوليو ١٣٤٨ - نوفمبر ١٣٥٨ م) . وحياة أبى الحسن خاصة حافلة بالحوادث والمآسى والتقلبات ، وكانت نهاية حكمه على يد ابنه أبى عنان فارس المتوكل بن على ، وحكمهما معا أشبه بالرمز على طبيعة الدولة المرينية . فهى رغم بهاء عاصمتها فاس ومنشآتهم العظيمة فى مكناس دولة زناتية بدوية الطابع غير محكمة النظام ، ويذكر لهم التاريخ تدخلهم المجيد فى الأندلس وجهادهم فى سبيلها أيام بنى الأحمر . وسلطانهم أبو الحسن هو الذى كسب نصراً مجيداً على قوات قشتالة يقودها القائد نونيو جونسالث دى لارا **Nuno Ganzsalez de Lara** جنوبى قرطبة فى ربيع الثانى ٦٨٥ هـ / ٨ سبتمبر ١٢٨٦ م على يد سادس سلاطينهم أبى يعقوب يوسف بن يعقوب الناصر لدين الله .

وإذا كان أبو يحيى أبو بكر بن عبد الحق هو مؤسس الدولة فإن أبا يعقوب يوسف هذا هو صاحب مجدها بسبب أعماله العظيمة فى الجهاد فى الأندلس ، وقد استمر بنو مرين فى جهادهم فى الأندلس ، ولكن جهودهم انتهت بهزيمة موقعة طريف الحاسمة التى أنزلها ألفونسو الحادى عشر وحلفاؤه من الأرغونيين بجيش إسلامى ضخم اشتركت فيه قوات بنى الأحمر وقوات من بنى وطاس . وهذه الهزيمة التى تسمى فى نصوصنا موقعة طريف وفى النصوص الإسبانية **Batalla del Rio Salado** فى ٢٤ ربيع الثانى ٧٤٠ هـ / ٣٠ سبتمبر ١٣٣٩ م تعتبر آخر الوقائع الإسلامية الكبرى فى الأندلس ، فعلى أثرها استولى الإسبان على مدينة طريف ، وأعقبوا ذلك بالاستيلاء على جبل طارق ، فقطعوا على بنى

مرين وبقية أهل المغرب الطريق لعون غرناطة ، وأصبح مصيرها مسألة وقت ، وأبو الحسن نفسه لم يعد إلى الأندلس ، ومابقي من حياته كان صراعاً حزيناً مع ابنه أبي عنان فارس المتوكل الذي انتهى بأن قضى أبو عنان على أبيه .

بنو زيان أو بنو عبد الواد في تلمسان والمغرب الأوسط .
٦٣٣ - ٩٦٢ هـ / ١٢٣٦ - ١٥٥٤ م .

تلك هي الدولة الزناتية الثانية التي ورثت الموحدين في شرق المغرب الأوسط ، وبنو عبد الواد الذين أنشأوا هذه الدولة كانوا حلفاء بني مرين . وقد توغلوا في المغرب الأوسط وأزعجوا بني هلال الذين كانوا مسيطرين هناك ، وكان العرب الهلالية قد دفعوهم أمامهم من مواطنهم الأولى في بلاد الزاب جنوبي قسنطينة . فهاجروا غرباً واستقروا حول تلمسان بموافقة الموحدين .

ومنشيء هذه الدولة أبو يحيى يغمراسن بن زيان شيخ فريق كبير من الزناتية يسمى بني عبد الواد ، وقد استطاع أبو يحيى يغمراسن دخول تلمسان واتخاذها قاعدة له . وتلمسان مدينة قديمة إلى شرق وادى الملوية ، وكانت تعرف أيام الرومان باسم بوماريا Pomaria واسمها بلغة البربر تاجرارت ، ولكنها عرفت من أيام يوسف بن تاشفين باسم تلمسان . وقد عمرها يوسف وأنشأ مسجدها الجامع وأحاطها بسور وجعلها من مراكز العلم والحضارة في المغرب الأوسط ، وقد درس موقعها الجغرافي الفريد المؤرخ الجغرافي الفرنسي E.F.Gautier وقال إنها حلقة من حلقات طريق رئيسي قديم يمتد من أشير إلى المدية إلى مليانة إلى الجزائر ، ثم يسير إلى مرسى هنين ، ومن هناك ينحدر إلى الجنوب فتكون تلمسان من أكبر محطاته ، ويؤيد الجغرافي أبو عبيد البكري هذه الحقيقة ويقول إن تلمسان كانت دائماً مركز تجارة نافقة وعلم وعلماء .

ودولة بني عبد الواد تدين بكل شيء لشيخها ومؤسسها أبي يحيى يغمراسن بن زيان الذي عرف كيف يثبت أقدام بيته وقبيلته في تلمسان وماحولها ، وتمكن كذلك من كسب ود الموحدين ، لقد حكم هذا الرجل قرابة خمسين سنة هجرية (٦٣٣ - ٦٨١ هـ / ١٢٣٦ - ١٢٨٢ م) . وأبدى خلال هذه الفترة الطويلة من الذكاء والمهارة والجرأة ماجعل دولته من أقوى دول المغرب ولكنها كانت - بداية ونهاية - دولة قبلية غير مستقرة الأسس ، وفي سنوات حكمه الطويل تحولت تلمسان إلى سوق من أكبر أسواق المغرب ، لأن مركزها الجغرافي وسياسة أميرها يغمراسن جعلا منها السوق الكبرى لتجارة إفريقية المدارية والاستوائية مع المغرب ، وإليها كان يفد تجار العاج والأبنوس والجلود والرقيق والتوابل وما إلى ذلك . وهذا الثراء الذي وصلت إليه تلمسان أتاح لأمرها إنشاء المؤسسات المعمارية السامقة كالمساجد والقصور . وأعظم ما أنشأه يغمراسن سور تلمسان الذي كان يعد أشد أسوار المدن في المغرب تحصيناً .

وبقية تاريخ بني عبد الواد بعد وفاة يغمراسن كانت صراعاً متصلاً مع بني مرين خاصة ، وفي أيام خليفته أبي سعيد عثمان (الأول) ابن يغمراسن بن زيان (ذو الحجة ٦٨١ - ذو القعدة ٧٠٣ هـ / مارس ١٢٨٣ - يونيو ١٣٠٤ م) حاصر بنو مرين تلمسان وهاجمها أبو يعقوب يوسف بن يعقوب الناصر المريني تلمسان ثلاث مرات وعجز عن الاستيلاء عليها ، ثم أقبل يحاصرها بكل قواه ، وبلغ من تصميمه على الاستيلاء عليها أن ابتنى إلى جوارها مدينة سميت « المحلة المنصورة » كاملة بمبانيها وأسواقها ومساجدها وحماماتها ، تعبيراً عن تصميمه على الاستيلاء عليها واستمر الحصار حتى مات أبو يعقوب .

ولم تتوقف الحروب بين دول المغرب الأربع (الموحدية والمرينية والزيانية والحفصية) طوال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وهي حروب عقيمة انتهت بضعف هذه الدول جميعاً وخصوصاً بني زيان أو بني عبد الواد الذين توقفت تجارة بلدهم وأنهكتها الحروب وانتهت بأن احتلها بنو مرين سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م فخربوها أولاً ثم عادوا يعمرونها ، ومسجد تلمسان الجامع بلغ أوج جماله في عهد بني مرين الذين حكموا البلد وتملكوها ربع قرن . ثم تخلصت منهم وعادت إلى سابق عهدها ومدت سلطانها حتى بجاية من بلاد الحفصيين بمساعدة الهلالية من الدواودة وبني معقل بن عبد الله من بني رياح .

وفي النهاية وأثناء الصراع بين الإسبان والأتراك العثمانيين على مصير المغرب دخل الوالي التركي صلاح رئيس باشا مدينة تلمسان وجعلها جزءاً من إيالة الجزائر سنة ٩٦٢ هـ / ١٥٥٥ م وأصبحت تلمسان وإقليمها جزءاً من المغرب الأوسط العثماني . ثم جزءاً من مستعمرة الجزائر الفرنسية ، وهي اليوم وإقليمها بما في ذلك وهران ومرسى هنين درة من درر المدائن الجزائرية ، زاهية بمساجدها ومدارسها المرابطية والمرينية والزيانية .

خريطة ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢

المغرب الأقصى في عصر بني وطاس
٨٣١ - ٩٥٧ هـ / ١٤٢٨ - ١٥٥٠ م

هؤلاء فرع من بني مرين كانوا أول الأمر يحكمون شمال المغرب الأقصى في خدمة بني مرين ، وعندما ضعف أمر بني مرين بسط أبو زكريا يحيى بن زيان الوطاسي وصايته على الأمير المريني الصغير عبد الحق بن أبي سعيد عثمان الثاني ، وخلفه في هذه الوصاية أبناؤه وعندما انتهى أمر بني مرين سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م وصار السلطان الفعلي في شمال المغرب الأقصى بيد جماعات الصوفية - أقاموا أميراً من أبناء الأدارسة هو عبد الله محمد بن عمران الجوطي إماماً ، وأصبح الوطاسيون أصحاب السلطان الاسمي في فاس ، وإن لم يكن بيدهم في الحقيقة شيء من السلطان حتى اختفوا من الميدان حوالي ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م . وتولى أمر المغرب الأقصى كله الشرفاء السعديون . فالوطاسيون لم يكونوا في الحقيقة أسرة حاكمة بالمعنى الصحيح ، لأن فترة وصايتهم شهدت أكبر تطور في الأوضاع السياسية في المغرب الأقصى ، وهو انتقال السلطان الفعلي إلى أيدي الجماعات الدينية الصوفية التي أنشأها شيوخ أئمة الصوفية المجاهدة من أمثال الشيخ الجزولي والجبلاني وابن عروس مدفوعين في ذلك بالحماس الديني الذي شمل المغرب كله نتيجة لاشتداد الخطر النصراني (البرتغالي والإسباني) على سواحل المغرب . وتلك هي المقدمات التي مهدت لقيام دولة الشرفاء السعديين الذين استطاعوا تزعم الجهاد الديني ضد العدو النصراني ، والوقوف في وجهه ووقف تقدمه وإنقاذ المغرب الأقصى كله من ذلك الخطر الماحق . ولكن الوطاسيين صاروا فعلاً أسرة اضطلعت بالسلطان السياسي في شمال المغرب الأقصى أثناء الفترة بين تدهور سلطان بقايا الموحدين والمرينيين إلى قيام أول دول الشرفاء وهي دولة السعديين .

المغرب خلال عصر السعديين ثم العلويين « في المغرب الأقصى » وعصر الأتراك العثمانيين في بقية بلاد المغرب

الأشراف السعديون .

حدث تطور شامل وعميق في بلاد المغرب في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجريين / أوائل السادس عشر الميلادي ، فإن الصراعات القبلية بين زناتة وصنهاجة انتهت بإضعاف الفريقين جميعاً ، فأما زناتة فقد رأينا أواخر وجودها السياسي أيام الوطاسيين الذين كانوا أعجز من أن يحكموا البلاد أو يدافعوا عنها ضد البرتغاليين ، وكان هؤلاء قد نشطوا على سواحل المغرب واحتلوا معظم المراكز التجارية على ساحل الأطلسي / طنجة وأصيلا والعرائش سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م وقبل ذلك احتلوا ميناء آنفا وهي الدار البيضاء سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م ، ثم ماسة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م ، ثم أغادير Santo Cruz De Cap Guir ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م ، ثم آسفي ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م ، ثم مازغان ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ، وأزمور ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م ، ثم المعمور ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م وكانوا ينشئون في هذه المواقع حصوناً منيعة يسمونها نقط الحدود Feitor ، يحكم كلاً منها حاكم عسكري يسمى بقائد الحدود Feiter ، ويغيرون على الدواخل فيأسرون الناس وينهبون القرى ويسبون النساء ، ثم يبيعون ذلك كله للناس فيكسبون مالاً كثيراً ،وبعد قليل عندما استقرت أقدامهم أنشئوا إلى جوار القلاع أسواقاً يبيعون للناس فيها مامعهم من بضائع ويشترون خيرات البلاد . ويستألفون بعض أشرار الناس من أهل البلد ليخدموهم .

وهذا العدوان البرتغالي أخاف الناس وخاصة عندما أغاروا على تارودانت على نهر السوس ، وتوغلوا داخل البلاد حتى أحواز مراكش ، فجعل أهل المغرب يبحثون عن زعيم يقودهم في حرب الغزاة ، وكان عصب الدين قد استيقظ في قلوب أولئك الناس وكثر تجمعهم حول شيوخ الصوفية وبخاصة الشيخ أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي المتوفى سنة ٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ م . وأصله من الشاذلية أصحاب أبي الحسن الشاذلي من تلاميذ أبي مدين قطب صوفية المغرب . وكان الجزولي أول من تصدى للبرتغاليين ، وحول الصوفية من حركة صوفية جامدة إلى صوفية مجاهدة ، فجاهد النصارى وانتصر عليهم ، وكثر جمعه من الأتباع الذين يسمون بالمريدين ، فخافه الوطاسيون وقتلوه ، ودفنه أتباعه في موضع من السوس يسمى أفغول ، بعد أن أصبحت الجزولية أكبر طرق المغرب الصوفية إلى جانب القادرية والتيجانية .

وعندما اشتد خطر البرتغاليين واقتربت غاراتهم من حوز مراكش تلفت أهل السوس يبحثون عن زعيم يتولى دفاع المجاهدين ، فاستشاروا أحد شيوخهم ، فدلهم على رجل من أصل شريف كان يقيم مع قومه من زمن طويل عند تارودانت فى وادى السوس يسمى أبا عبد الله محمدا القائم بأمر الله ، فذهبوا إليه وبايعوه رئيسا عليهم تبركاً بنسبه الشريف ، وأصل هذا الرجل وأسرته من ينبع النخل فى الحجاز ، وهم يرفعون نسبهم إلى محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . يقول السلاوى فى الاستقصا (جـ ٣ صـ ٢) طبعة بولاق : « فهم بنو عم السادة العلويين أشراف سجلماسة الفلاليين الذين سنتحدث عنهم ، يجتمعون معهم فى محمد بن القاسم المذكور فى النسب ، وقد وفدوا إلى حوض السوس حين وفد إلى المغرب من مهاجرة العرب فى وقت يصعب تحديده ، ولكنهم اشتهروا بالدين والصلاح ، أما تلقبهم بالسعديين فبعض المؤرخين ينكرون عليهم النسب الشريف ويقولون إنهم منسوبون إلى بنى سعد بن بكر من قيس عيلان من مضر ، وهم رهط حليمة السعدية مرضعة رسول الله ﷺ ، أما رجال دولتهم فيؤيدون النسب ويقولون إن تسميتهم بالسعديين جاءت من أن الناس سعدوا بهم ، وهذا هو قول مؤرخهم الفشتالى فى كتاب « مناهل الصفا » وهذا هو المقبول فى رأينا .

المهم أن الناس بايعوا أبا عبد الله محمدا القائم بأمر الله السعدى على أن يقودهم فى حرب البرتغاليين ، وكانت المبايعة فى موضع يسمى تيدسى قرب تارودانت ، وتحمس معه الناس فتمكن من طرد البرتغاليين من أغادير سنة ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م ثم من آسفى وأزمور ، فعظم أمره ، ثم انتقل بجنده إلى مراكش وبايعه مستبعدون عنها من قبيلة هنتانة المصمودية ، ولم يلبث أبو عبد الله القائم بأمر الله السعدى ، ويلقب أيضا بالزيدانى ، أن توفى فى بلدة أفغون من بلاد السوس ، وبها كان ضريح الشيخ الجزولى أبى عبد الله محمد بن سليمان ، وخلفه ابنه أبو العباس المعروف بالأعرج سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م ، ثم جعل مراكش عاصمة لدولته الجديدة وجعل أخاه الأصغر أبا عبد الله الشيخ نائباً عنه وعاملا بأمر دولته فى إقليم السوس يعاونه أخوه محمد الأصغر الملقب بأمغار ، ومعناه الرئيس أو قائد الحرب .

وكان لابد أن تنشب الحرب بين السعديين أصحاب مراكش والوطاسيين أصحاب فاس ، وتمكن السعديون من كسب صداقة أبى حسون السملالى ومريديه الكثيرين ، وكاتبه رجال السلطان العثمانى أصحاب الجزائر « ليقيم الخطبة باسم السلطان فرفض ، وحاصر أحمد الأعرج فاس سنة ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م واستولى عليها سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م ، ووحد المغرب كله تحت سلطانه .

وفى سنة ٩٨١ هـ / ١٥٧٣ م تولى أبو عبد الله محمد المتوكل ، وكان عمه عبد الملك وأخ آخر له قد ذهبا إلى الأتراك العثمانيين ، وعاوناهم فى الاستيلاء على تونس ، فجهزوا عبد الملك بقوة لكى يستعيد لنفسه عرش مراكش ، وكان عبد الملك بن أحمد الأعرج شخصية متميزة ، شديد الطموح ، وكان يحسن الإسبانية والإيطالية ، وتمكن عبد الملك من التغلب على ابن أخيه محمد المتوكل وأصبح سلطاناً على فاس .

وفى أيامه فكر سباستيان ملك البرتغال فى غزو المغرب فسار إليه فى قوة لاتزيد على عشرين ألفا ، ودعا الإسبان إلى الاشتراك معه فرفضوا ، ونصحوه بالإقلاع عن هذه المحاولة ، وكان محمد المتوكل ابن أخى عبد الملك منضماً إلى الملك سباستيان ، ونزلت القوة البرتغالية فى منطقة أصيلا ، ودارت المعركة عند وادى المخازن قرب القصر الكبير . ودارت المعركة على مدى البرتغال وحليفه محمد المتوكل ، وانتصر عبد الملك ، ولكنه كان مريضا ، ومات فى نفس اليوم ، فصار النصر كله لأخيه أحمد الذى أعلن سلطانا على المغرب فى نفس اليوم ، وهو الملقب بالذهبى ، وفى عهده بلغت الدولة السعدية أوجها (٩٨٦ - ١٠١٢ هـ / ١٥٧٨ - ١٦٠٣ م) وهذا الرجل هو الذى قضى على دولة صنغاى الإسلامية ، فقد أرسل عليها حملة مغربية من المرتزقة فدخلوا تمبكتو وخربوها ، وكسب أحمد الذهبى ذهبا كثيراً أخذ يتدفق منه بسخاء بالغ فاشتهر لقبه بالذهبى ، وبعد نهب تمبكتو انسحب أسكيا سلطان صنغاى إلى جاو ، وكانت بداية هذه الحملة سنة ٩٩٩هـ / ١٥٩٠ م .

وبعد موت المنصور سنة ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م تحارب أبناؤه وانقسمت السلطنة إلى قسمين : السلطان السعدى فى فاس ، ومنافس له فى مراكش وتدهورت الدولة ، وكان آخر من حكم من سلاطينها أحمد (الثانى) العباس بن أبى مروان عبد الملك ١٠٤٦ - ١٠٦٤ هـ / ١٦٣٦ - ١٦٥٤ م ، وأسوأ ماحدث فى عصر التدهور والحرب الأهلية هذا نزول الإسبان شاطىء العرائش بحجة محاربة القرصنة سنة ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ م . وإنشاؤهم قاعدة عسكرية سموها San Miguel de Ultramar وسماها أهل المغرب بالمعمورة وهى اليوم تسمى المهدية

عصر سيادة الطرق الصوفية .

نتيجة للحروب الأهلية بين خلفاء أحمد المنصور الذهبى أصبح جنوب المغرب (أقاليم مراكش والسوس وتافيلالت) خارجا عن سلطان صاحب مراكش الخارج على سلطان فاس ، وكانت الجماعات الصوفية قد قويت وتحولت إلى قوات عسكرية سياسية ، ففى إقليم تافيلالت قام شيخ صوفى يسمى أبو المحلّى ونشر سلطانه من ناحية سجلماسة إلى تافيلالت ، وزعم أنه المهدى إبتداء من سنة ١٠٠٢ هـ / ١٥٩٣ م وزاد حماس رجاله بعد إنشاء الإسبان قاعدتهم عند العرائش ، فتقدم نحو مراكش ، وأرسل السلطان مولاى زيدان (١٠١٦ - ١٠٣٩ هـ / ١٦٠٧ - ١٦٢٩م) حملة ضده ، فانتصر عليها ، فدفع السلطان شيخاً صوفياً آخر يسمى يحى بن عبد الله الحاحى فقتله قرب مراكش سنة ١٠٢٦هـ / ١٦١٧ م . وهنا نهض شيخ صوفى بسيط أصله من ماسة وجمع جموعاً كبيرة واستولى بها على سجلماسة ، وهو ابو الحسن السملالى المشهور باسم أبى حسون، (أبو الحسن على محمد بن محمد بن الولى الصالح أبى العباس أحمد بن موسى السملالى) وأنشأ شبه إمارة صوفية ظلت حتى أزالها العلويون الفلاليون .

أما فى شمال البلاد فقد ظهرت ثلاث قوى تقاسمت السلطان : جماعة موريسكية هاجرت من الأندلس واستقرت على الساحل فى منطقة رباط أبى حسون السملالى الذى جمع إلى نفسه صوفية البربر من بسائط جزولة وجبالها فى منطقة السوس ، فتقدم واستولى على تارودانت وأعمالها ، ثم سيطر على تافيلالت ، ومد سلطانه إلى وادى درعة ، ووقعت حروب طويلة بينه وبين أمير من الشرفاء يسمى المولى محمد بن الشريف ، وقد ظل رجال زاوية بوحسون مسيطرين على هذه النواحى حتى أزالهم الشرفاء العلويون .

زاوية عبد الله العياشى :

ظهر فى إقليم تامسنا وتصدى برجاله للإسبان ، وقد تمكن هذا الرجل من حصر الإسبان فى منطقة العرائش ، وكان الأسبان قد أنشئوا قاعدة أخرى فى مدينة « الجديدة » فى بلاد السوس ، وضايقوا المسلمين فى أزمور واعتدوا عليهم ، فقدر العياشى القضاء عليهم ، وتمكن من الاستيلاء على قاعدة العرائش ثم الجديدة سنة ١٠٤٩هـ / ١٦٣٩ م وقد قتل أبو عبد الله محمد العياشى على يد رجال زاوية الدلاء سنة ١٠٥١ هـ / ١٦٤١ م .

أهل زاوية الدلاء بإقليم تادلا :

هم جماعة صوفية من بربر صنهاجة يسمون مجاط ، كان جدهم وليا يسمى أبا بكر محمد المعروف بحمى بن سعيد أحمد بن عمر بن نُشَرى المجاطى ، وبسطوا سلطانهم على وادى ملوية ، وتمكنوا من دخول فاس وحاربهم السلطان محمد الشيخ بن زيدان وعجز عن التغلب عليهم فاضطر إلى مسالمتهم .

أهل الأندلس فى وادى أبى الرجراج

فى سنة ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م قامت جماعة من الموريسكيين بثورة فى غرناطة ، وحاول الملك فيليب الثانى كسبهم إلى جانبه دون جدوى ، فأصدر فيليب الثالث سنة ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩ م قراراً بطرد بقايا الموريسكيين المسلمين ، وأعقبه بقرار ١٠٢٣ هـ / ١٦١٤ م الذى يقول إن كل مسلم لايتنصر لابد أن يغادر إسبانيا ، فتفرقوا فى بلاد المغرب ، ونزلت جماعة منهم عند مصب نهر أبى الرقراق واستولوا على قلعة رباط الفتح ، وقد سماهم الإسبان Los Hornacheros نسبة إلى مصب النهر Hornacho . أما أهل المغرب فسموهم أهل الأندلس ، ورحب بهم السلطان مولاى زيدان ، راجيا أن يجد فيهم جندا ومجاهدين ضد النصارى ، وبالفعل أنشأ أهل الأندلس هؤلاء قوة بحرية قوامها سفن حسنة التجهيز لقطع البحر على الإسبان ، فكثر مالهم وازدادت قوتهم واستقلوا عن السلطان فعلاً سنة ١٠٣٦هـ / ١٦٢٧ م واتحدوا مع قوات العياشى ، ثم اختصموا معه وحاربوه من ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٧ م إلى ١٠٥١ هـ / ١٦٤١ م ، حتى موته ، ثم خضعوا لسلطان رجال زاوية الدلاء .

وهكذا نرى أن وحدة القطر المغربى ضاعت فى أواخر سلطنة السعديين ، وتمهدت الظروف لقيام دولة جديدة وكانت هذه الدولة هى دولة الأشراف العلويين الفلاليين .

دولة الأشراف العلويين السجلماسيين من آل على الشريف :

هؤلاء أيضاً علويون من نسل على بن أبى طالب عن طريق محمد النفس الزكية ، وهم

أبناء عمومة السعديين ، يلتقي نسبهم عند قاسم بن محمد بن أبي القاسم بن محمد الذى ينتهي نسبه إلى محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب . وأصلهم كذلك من ينبع النخل ، وقد هاجروا إلى المغرب الأقصى ربما في نفس الوقت الذى وفد عليه فيه الأشراف السعديون ، ولكنهم استقروا في إقليم تافيلالت وقاعدته سجلماسة . وقد رحب بهم أهل البلاد وصاهروهم ، وعلا مكانهم بسبب اتصال النسب الشريف .

وقد كثر نسلهم في جنوبي المغرب . وعندما عظم أمر أبي حسون السملالي وبسط سلطانه على سجلماسة والسوس ووادى درعة استدعاه الشريف بن علي سنة ١٠٤٣ هـ / ١٦٣٣ م واعترف برياسته على الإقليم فازداد جاه أبي حسون ثم ساءت العلاقات بينهما ، وقام محمد بن الشريف بن علي بالهجوم على تابجو عاصمة مركز بوحسون وقتل كثيرين من رجاله ، فقبض رجال بوحسون على الشريف بن علي واحتجزوه حتى افتكه ابنه محمد بمال جزيل ، وفي سنة ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ م قام الشريف محمد بن الشريف بن علي ضد بوحسون ورجاله في سجلماسة وقاتلوهم وأخرجوهم ، وأيدهم الناس في ذلك لأن رجال بوحسون كانوا قد أساءوا السيرة واستبدوا بالناس ، ثم تتبعوهم في إقليم السوس ووادى درعة ، وقضوا على سلطانهم بعد حروب طويلة ، ثم تطلع المولى محمد بن الشريف ابن علي إلى منازلة أبي عبد الله محمد الحاج الدلائي رئيس زاوية الدلاء ومن معه ، وكانوا مسيطرين على فاس ومكناس ووادى سبو ، ونازلهم ، ولكنه انهزم أمامهم سنة ١٠٥٦هـ / ١٦٤٦ م ثم تصالحوا على أن يكون إقليم سجلماسة والجنوب ، وهو مايعرف بالصحراء ، للمولى محمد بن الشريف بن علي حتى جبل عياش ، أي دون مستوى نهر تانسيفت أو مايقع شمال ذلك إلى حوض نهر وادى أم الربيع ومايليه شمالاً يكون لرجال زاوية الدلاء ، ورئيسه أبو عبد الله محمد الحاج الدلائي ، ويسمى هذا الجزء بالغرب ، أما بلاد السوس فقد اختص بها رجال زاوية بوحسون السملالي .

ثم حاول المولى محمد بن الشريف بن علي الاستيلاء على فاس والمغرب بتأييد من أهل فاس ودخلها فعلاً سنة ١٠٦٠ هـ / ١٦٥٠ م ولكن الرئيس أبا محمد الحاج الدلائي وحلفاءه تمكنوا من إخراجه فعاد إلى سجلماسة سنة ١٠٦١ هـ / ١٦٥١ م .

ثم عاد المولى محمد بن الشريف يحاول الاستيلاء على إقليم تلمسان ، وكان تابعاً لإيالة الجزائر اسميا . وقبل أن يسير إليها حالف العرب الهلالية الضاربين في الطريق إلى وجدة وتلمسان ومعظمهم من عرب المعقل ، ثم انضم إليه بربر بزناسن ، وكذلك انضم إليه عرب زغبة وشيخهم محمود بمبان ، فسار إلى الأغواط من واحات الصحراء واستولى عليها ، ولكن الأتراك تحركوا من الجزائر وتقدموا فاستعادوا تلمسان ووجدة ، فكرّ المولى محمد راجعاً إلى سجلماسة ، ثم صالحه عثمان باشا والى الجزائر على أن يكف عن غزو تلمسان ووجدة وغرب المغرب الأوسط ، ويعترف له عثمان باشا في مقابل ذلك بسجلماسة ودرعة . وتوفى المولى محمد بن علي في رمضان ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩م تاركاً الملك لابنه محمد بن المولى محمد ، فخرج على محمد هذا أخوه الرشيد بن محمد بن علي بن يوسف ابن علي بن حسن ، وخرج إلى الجبال ثائراً .

والتفت المولى محمد بن محمد بن الشريف لحرب أخيه الرشيد الذى نازعه الملك ، ووقعت الحرب بينهما فقتل محمد وصار الملك إلى المولى الرشيد بن المولى محمد الشريف ابن علي في المحرم ١٠٧٥ هـ / ١٦٦٤ م وبايعه رجال أخيه وأحلافه من العرب . وفي جمادى الثانية سنة ١٠٧٥ هـ / ١٦٦٤ م تمكن المولى الرشيد من الاستيلاء على فاس وقضى على سلطان أهل زاوية الدلاء وأحلافهم من عرب الأثبج ، ثم فتح بلاد الهبط جنوبي بلاد الريف ، وتمت له البيعة على المغرب كله يوم السبت ١٨ ربيع الأول سنة ١٠٧٧ هـ / ١٨ سبتمبر ١٦٦٦ م وبذلك عادت وحدة المغرب على يد المولى الرشيد بن المولى محمد الشريف بن الشريف علي العلوى الفلالي ، ثم دخل جنوده زاوية الدلاء في بلاد فازاز شرقي تازا ، واستسلم الرئيس أبو عبد الله محمد بن الحاج الدلائي سنة ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٧ م وانتهت فتنتهم ، ثم سار إلى مراكش وانتزعها من أيدى المستولين عليها من عرب الشبانات سنة ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ م وبذلك عادت وحدة المغرب الأقصى تحت راية الشرفاء العلويين ، وأعقب ذلك فتح تارودانت وبقية بلاد السوس ، ودخل في طاعته كل عرب المغرب الأقصى وبخاصة عرب الشراقة وهم عرب شرق المغرب من الهلالية ، وكذلك دان له عرب حسان والمعقل من عرب وادى درعة ، وكذلك دخل في طاعته الخارجون عن الطاعة من البربر ومنطقة الريف ومايقع شمالها إلى طنجة وسبتة ، وكان يسيطر عليها زعيم ديني قبلي يسمى الشيخ أعراس

محاولات استخلاص السواحل من الإنجليز والفرنسيين .

في أثناء فترة التفرق والضعف التي شملت المغرب الأقصى كان الأوروبيون قد ثبتوا أقدامهم على مراكز الساحل الشمالي للمغرب ، فمدينة طنجة كانت أولاً بيد البرتغاليين ، وفي سنة ١٠٧٢ هـ / ١٦٦١ م تزوج شارل الثاني ملك انجلترا من كاترين وارثة عرش البرتغال ، فانتقلت طنجة إلى يد الإنجليز ، أما سبتة فكانت في يد الإسبان وكذلك مليلة ، والبلاد الواقعة شرقي وغربي مليلة كانت تحت سيطرة التجار الفرنسيين تؤيدهم الحكومة الفرنسية ، وكانت سفن الأسطول الفرنسي تحوم هناك لأن الحرب كانت مستمرة بين الفرنسيين والإنجليز .

وكان تجار الفرنسيين قد نشطوا من جنوب فرنسا وأنشئوا شركة سميت شركة الحسيمة La Campagne de Al - Hucemas ، ثم أصبح اسمها شركة تجارة الشرق La compagne de le vant يمثلها تاجران ماهران هما ميشيل ورولان فريجو Michel et roland fregus سنة ١٠٨١ هـ / ١٦٧٠ م وحاول هذان التاجران الحصول على حق إنشاء مركز تجاري في الحسيمة لينافس مركز الإنجليز في طنجة ، واتصل رولان فريجو بمولاى الشريف ليحصل منه على امتياز إنشاء هذا المركز ، ولكن المولى الرشيد شك في نواياه ورفض ، وقام بإنشاء قاعدة بحرية عسكرية في الحسيمة وسارع الإسبان فاستولوا على هذه القاعدة قبل اكتمال إنشائها وحولوها إلى قاعدة عسكرية تجارية Presidio .

وكان مولاى الرشيد بحاجة إلى حلفاء من أهل الغرب ليحصل منهم على الأسلحة النارية التي لاتستغنى عنها قواته ، ثم إن مصالح دولته كانت تتطلب منه أن يكون له حلفاء تجاريون من أهل الغرب ، لأن التجارة مع الغرب كانت موردا هاما من الموارد المالية للمملكة الشريفية العلوية .

وقد لقى مولاى الرشيد متاعب كثيرة في إتمام توحيد بلاده ، وكانت هناك جماعة من غزاة البحر اتخذت لنفسها مركزا في ميناء سلا لقطع الطريق على تجارة الأوروبيين ، وكانوا قد أخذوا أعداداً كبيرة من الأوروبيين أسرى ، وحاولت فرنسا الاستيلاء على سلا بالقوة فأرسلت حملتين بحريتين ضربتا سلا بالمدافع دون جدوى ؛ لأن مولاى الرشيد رأى أن يستفيد من أولئك الغزاة في الضغط على الدول الغربية ، وقد قضى السلطان المولى الرشيد أيام حكمه القصير في محاولة توحيد بلاده وحمايتها من المطامع الغربية ، وكان مقامه في مدينة فاس ، وكانت عنايته بها عظيمة وابتنى قنطرة وادى سبو خارج فاس على أربع أرجل ، وأنشأ مدرسة الشراطين وعمر قصور فاس وجامع القرويين ، وتوفى في ٢ ذى الحجة ١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢ م إثر حادث مفاجىء ، فقد جمح به حصانه وارتطم دماغه بفرع شجرة فمات لتوه ، وكانت سنه اثنتين وأربعين سنة . ثم بويع أخوه المولى إسماعيل ابن الشريف محمد بن علي (١٠ ذى الحجة ١٠٨٢ هـ – ٢٧ رجب ١١٣٩ هـ / مارس ١٦٧٢ م – فبراير ١٧٢٧ م) واجتمعت عليه الكلمة وكان يلي بلاد الغرب لأخيه .

وكان السلطان المولى إسماعيل من أعاظم سلاطين العلويين ، فقد طال حكمه واتصل نشاطه وبذل جهوداً عظيمة في المحافظة على وحدة بلاده ومقاومة التدخل الأوروبي الذى زاد ، وقد تكونت قواته العسكرية من قوة من البربر والعرب ، ولكن نواة الجيش كانت قوة ضخمة من السود ، كان يأتي بها من حوض النيجر ويدربها تدريبا دقيقاً ، وينزلها في معسكر قرب فاس يسمى مشرع الرمل ، وكان شديد الحرص على جمع المال حتى عظم ثراؤه وتلقب بالمنصور واشتهر أمره في الغرب ، وإليه يرجع الفضل في ثبات قواعد الدولة العلوية الشريفة المغربية ، والمحافظة على وحدتها ضد عوامل التفرق الداخلية والأخطار الخارجية ، وقد عرف كيف يحافظ على سلطته من الأتراك الذين حكموا المغرب إلى تلمسان . ولكن السلطان إسماعيل احتفظ بحدود بلاده شرقي نهر الملوية وجعل حده الشرق بلدة وَجْدَة وآجر سيف ، واستعاد سواحل بلاده كلها فيما عدا سبتة ومليلة وطنجة التي كانت تخرج عن سلطانه أحياناً لأن ملك انجلترا حصنها وجعلها من أملاكه سنة ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ م وفي الخامس من فبراير سنة ١٦٨٤ م اضطر الملك شارل الثاني – أثناء صراعه مع البرلمان – إلى التخلي عن طنجة فخرج منها جنوده بعد أن خربوا كل ماأنشئوه فيها حتى الرصيف الكبير فدخلتها قوات السلطان إسماعيل . وفي سنة ١١٠١ هـ / ١٦٨٩ م استولى المجاهدون على العرائش وأصيلا سنة ١١٠٤هـ / ١٦٩٢ م وبهذا عادت وحدة الوطن المغربي كاملة ماعدا مركزا برتغاليا صغيرا عند مازغان لم يلبث هو الآخر أن استسلم .

تونس والجزائر . الأتراك يدخلون المغرب الأوسط في دولتهم . بداية بلاد الجزائر الحالية .

تركنا إفريقية ، وهي تونس ، سلطنة حفصية . ولكن هذه السلطنة لم يلبث أمرها أن تدهور نظرا لعجز سلاطين الحفصيين ، ونتيجة لسيطرة جماعات العرب الهلالية على البلاد . وكان ضعف الحفصيين هذا خطرا شديدا هدد مصير الإسلام في المغرب والبحر المتوسط كله ، فإن إسبانيا قد أصبحت قائدة الصراع ضد المسلمين في البحر المتوسط ، ولولا الدولة العثمانية لتغير مجرى التاريخ .

ففي أيام أبي عبد الله محمد (الخامس) الحفصي الملقب بالمتوكل « ٨٩٩ هـ - ٩٣٢ هـ / ١٤٩٣ م - ١٥٢٦ م » وابنه الحسن « ٩٣٢ هـ - ٩٤٢ هـ / ١٥٢٦ م - ١٥٣٥ م » ضعفت السلطة المركزية الحفصية عن السيطرة على البلاد ، فقسمت إلى ولايات متفرقة تولت الحكم فيها أسر محلية . واستقل شيوخ عرب المعقل - وهم فرع من الهلاليين - بمساحات واسعة من الأراضي في الداخل . وفي هذه الأثناء أقبل الإسبان يستولون على موانئ المغرب وإفريقية واحدا بعد آخر . فأخذوا المرسى الكبير « ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م » ، ووهران « ٩١٥هـ / ١٥٠٩ م » ، والجزائر « ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م » ، وأنشئوا في الجزيرة المقابلة لمدينة الجزائر حصنا ضخما سموه البنون El Penon أي الصخرة ، ثم استولوا على بجاية وطرابلس وحاصروا جزيرة جربة .

في ذلك الحين كان أمر الأخوين الملاحين المسلمين عَرُوج وأخيه خير الدين ، الملقب بربروسه -أي ذي اللحية الحمراء- في صعود ، وكان هذان الأخوان ربانين من ربابنة البحار ، أصلهما من ألبانيا ، وهالهما مارأياه من سيطرة الإسبان على البحار ، وجشعهم في بلاد المسلمين ، فأنشأ عروج أسطولاً شحنه بالمجاهدين ، ومضى مع أخيه يهاجم السفن الإسبانية ، واتخذ من موانئ المغرب الصغيرة مراكز لأعماله ، ورحب المسلمون بسفنه في كل مكان ، وتطوع للعمل مع الأخوين - عروج وخير الدين - الكثيرون من الشبان ذوي الحمية ، فلم يلبث أسطول الأخوين أن أصبح قوة يحسب لها كل حساب في مياه البحر المتوسط . وفي سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦ م استطاع عروج أن يطرد الإسبان من مياه الجزائر ، وإن بقوا في الصخرة . ثم توغل في داخل البلاد وهاجم بقواته تلمسان في البر والبحر . وقد لقي هذا المقاتل الباسل الشهادة قرب تلمسان فنهض بالأمر أخوه خير الدين .

وتنبهت الدولة العثمانية لهذا البطل ، فأخذته تحت جناحها ، وخلع عليه السلطان لقب باشا ، وأرسلت له القوات والمؤن ووضعت تحت تصرفه السفن ، وهكذا تطورت الحروب بين الأخوين والإسبان إلى حرب تركية إسبانية لسيادة البحر المتوسط .

وقد طال مدى هذه الحرب ، ولكن الأتراك لم يدخروا وسعا في موالاتها بما يلزم لها من رجال ومال ، واستطاعوا آخر الأمر إنقاذ المغرب الأوسط وإفريقية من براثن الإسبان ، وهذه من أجل الخدمات التي قدمها الأتراك للجماعة الإسلامية ، إذ حفظوا لها المغرب الأوسط وإفريقية . وقد نشبت حرب بينهم وبين الإسبان في الجزائر الحالية أولاً ، وفي تونس ثانياً ، وفي أثناء هذه الحروب سقط أمراء الحفصيين إلى الحضيض ، وظهر فيهم من رضي بأن ينصبه الإسبان سلطانا فيحكم باسمهم وبتأييد رجالهم ، وقد انتهى الأمر بزوال أمر الحفصيين في تونس سنة ٩٨٢ هـ عندما فتح الأتراك العثمانيون تونس نهائياً .

ففي سنة ٩٣٥ هـ / ١٥٢٩ م استطاع خير الدين أن يستولي على عنابة « بونه » وقسنطينة وصخرة الجزائر ، ثم استولى على تونس وبنزرت وتوغل في الداخل ، وتمكن من القضاء على حامية إسبانية كانت تؤيد السلطان الحفصي الحسن في القيروان ، وعهد خير الدين في حكومة القيروان إلى رجال الطريقة الصوفية الشابية . وفي سنة ١٥٣٥ م أقبل الإمبراطور شارل الخامس - المعروف بشرلكان - بنفسه فنزل صقلية وغزا تونس وحلق الوادي La Goulette « والمراد به مصب وادي مجردة وهو نهر تونس » واستدعى السلطان الحفصي المعزول أبا الحسن من الصحراء ونصبه سلطاناً ، وفي مقابل هذه المعاونة تنازل هذا السلطان لشرلكان عن حلق الوادي وصفاقس والمنستير ، وعن سوسة للملاح الجنوي أندريا دوريا Andrea Doria أمير البحر ورئيس أسطول شرلكان .

وبعد موت خير الدين قام رجله وخليفته طرغود أو « صرغوت » بمواصلة عمله ، فاستولى على طرابلس « ٩٥٨هـ / ١٥٥١ م » ثم قفصة « ٩٦٤هـ / ١٥٥٦ م » ثم القيروان « ٩٦٥هـ / ١٥٥٧ م» وأنزل بالإسبان هزيمة كبرى قرب جزيرة جربة « ٩٦٩هـ - ١٥٦١ م» .

وكان أمر الأتراك قد استقر في الجزائر ، فجعلوا منها إيالة - أي ولاية - عثمانية يحكمها قائد تركي يلقب بأمير الأمراء بايلربك ، فتقدم أمير الأمراء بولوج - أو علي باشا - واحتل تونس ، ولكن هزيمة الأسطول التركي في ليبانتو سنة ١٥٧١ م قلبت الميزان فعاد الإسبان إلى تونس . واستولى خوان دواوستريا Juan de Austria قائد الأسطول الإسباني المنتصر في ليبانتو - على تونس « ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م » . وأقاموا السلطان محمد السادس الحفصي . ولكن الأمر لم يطل ، إذ عاد الأتراك فاستردوا هذه البلاد كلها سنة ٩٨٢هـ / ١٥٧٤ م وأزالوا ملك الحفصيين وجعلوا تونس كلها ولاية عثمانية .

وكانت طرابلس وإفريقية والمغرب الأوسط كلها ولاية عثمانية واحدة ، كان يحكمها أول الأمر أمير أمراء واحد يقيم في الجزائر حتى سنة ٩٩٥ هـ / ١٥٨٧ م ، ثم قسمت سنة ١٠٦٩هـ / ١٦٥٩ م إلى ثلاث إيالات يحكم كلا منها والي يلقب باشا ، وفي سنة ١٦٧١ م تحولت هذه الإيالات إلى ولايات عسكرية ، يحكم كلا منها قائد برتبة أغا ومعه وجاق - أي فرقة من الإنكشارية - ثم انتقل الأمر في ولايات إفريقية إلى رئيس عسكري منتخب ذي لقب ينتخبه الأغوات - أي القواد العسكريون - وظل ذلك إلى الغزو الفرنسي للجزائر سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م . أما طرابلس فقد انفردت بإيالة تركية خاصة بها مركزها وقاعدتها مدينة طرابلس ، وسميت الإيالة بطرابلس الغرب .

وكان خير الدين - بعد أن دخل في خدمة السلطان العثماني - قد تحول إلى قوة عسكرية سياسية حاسمة ، وهبَّ لتأييده ونصرته كل مسلمي المغرب الأوسط . خاصة وقد أقامه السلطان سليم الثاني قبطانا وجعله باشا وأميرا أي بايلربك بالتركية وأعطاه السلطان سفنا و ٢٠٠٠ مقاتل وزوده كذلك بمدافع ، ثم أمده بأربعة آلاف جندي من مراتب الإنكشارية .

وقد أحسن خير الدين استخدام هذا العون العثماني ، فترك الجزائر وقضى على فتن العرب المتنازعين هناك ، ثم تصدى لحملة إسبانية يقودها قائد يسمى أوجو دي مونكادا Hugo de Moncada وقضى عليها سنة ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م ولكن جماعة من العرب الهلالية تآمرت عليه ، واضطرته إلى الخروج إلى جيجل سنة ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م وهناك أعاد ترتيب جنده وعاد يهاجم الإسبان فاحتل ميناء القل La Colle سنة ٩٢٩ هـ / ١٥٢٣ م ، وبونة أو عنابة سنة ٩٢٩ هـ / ١٥٢٣ م ثم قسنطينة ، ثم تمكن من إخراج جماعات الكوكو من بربر إقليم القبائل من مدينة الجزائر ، ثم احتل إقليم المتيجة سنة ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م ، ثم أخضع بعض الثائرين في أقاليم القبائل والحضنة وشرشال وتنس .

ثم قرر خير الدين استعادة صخرة الجزائر التي كان الإسبان متحصنين بها ، فنصب مدافعه قبالتها وظل يقصفها ثلاثة أسابيع حتى عرض قائدها الإسباني Martin de Vargas التسليم ، إذ لم يبق له من قوته البالغة ١٥٠٠ جندي إلا خمسة وعشرين في أسوأ حال ، وسقطت الصخرة في رمضان ٩٣٦ هـ / ٢٧ مايو ١٥٢٩ م ودخلها خير الدين وأزال تحصيناتها ، وهنا شرع خير الدين في إنشاء ميناء الجزائر ، فردم مجاري الماء بين الجزر المواجهة الساحلية وجعلها أرضا صلبة ، ثم أنشأ رصيفا حاميا للسفن ، وقد تبينت أهمية ميناء الجزائر الجديدة في الحال ، لأنها كانت في منتصف المسافة بين جبل طارق وزقاق صقلية ، وهي أحسن ميناء في الطريق من إسبانيا إلى صقلية وجنوب إيطاليا .

الفتح التركي لتونس .

وكان أهل الإقليم التونسي قد ضجروا من السلطان الحفصي ، وكان يحكمه إذ ذاك مولاي أحمد بن الحسن وهو الثالث والعشرون من سلاطين الحفصيين ، وأعانه السلطان العثماني بمدد ، فتقدم واستولى على بنزرت ثم على حلق الوادي LA Goulette ثم دخل مدينة تونس على رأس قوة من الأتراك في ١٨ أغسطس سنة ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م . وكان الفتح التركي الثاني لتونس في رجب ٩٧٧ هـ ، ثم فتحها العثمانيون فتحاً نهائياً سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م على يد سنان باشا الذي أرسل آخر الحفصيين أبا عبد الله محمد بن الحسن إلى الآستانة حيث مات هناك ، وتولى سنان باشا حكم إيالة تونس .

وقد انزعج أهل الجمهوريات الإيطالية والبابوية لذلك ، خاصة وأن الأتراك لم يوقفوا أعمال غزاة البحر ، ومضوا ينظمون إيالة تونس على طريق الوجاقات التركية إلى الولايات التي تحملها الأجاقات (الفرق) الإنكشارية ، وعقد فرانسوا الأول ملك فرنسا وخصمه شارل الخامس هدنة للتفرغ للقيام بحرب صليبية ضد المسلمين ، وبالفعل سار أسطول

تصراف من ٤٠٠ سفينة ونزل قرطاجنة ، وأطلق سراح أسرى الأوروبيين الذين استولوا على القصبة ، واكتفى شارل الخامس بإقامة قاعدة عسكرية إسبانية في حلق الوادي ، ولم يشأ التوغل في الداخل ، وكان خير الدين قد انسحب إلى بونه فتقدم واستعاد تونس ووقع في يده ستة آلاف أسير ، وتولى حكم تونس حتى استدعاه السلطان سليمان إلى القسطنطينية وأقام مكانه قائداً لإيالة تونس ، وظل خير الدين في القسطنطينية حتى وفاته في ٤ يوليو ١٥٤٦ م من أعاظم رجال الدولة . وجعل الأتراك بلاد الجزائر إيالة مقسمة إلى أربع بيلقيات ، وتونس كلها إيالة ، وطرابلس إيالة ، أي ولاية ، على النحو المبين على الخريطة .

وعلى هذا الوضع سوف تظل الحدود السياسية لبلاد المغرب حتى القرن التاسع عشر وبدايات الاستعمار الأوروبي لبلاد المغرب الإسلامي ابتداء من ١٨٣٠ ميلادية .

الأندلـــس

كان ينبغي أن ينفرد الأندلس بفصل قائم بذاته ، ولكن الأوضاع التاريخية للمغرب والأندلس تصبح واحدة ابتداء من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، فقد أصبح الجناح الغربي لعالم الإسلام كله في معركة مصير واحدة أمام الغرب الأوروبي الصاعد ، وحتى في أيام المرينيين عندما توقف المغرب عن التدخل في شئون شبه الجزيرة الأندلسية بعد معركة « طريف » أو ريو سالادو استمر التحام المغرب والأندلس في مصير واحد ، لأن إسبانيا والبرتغال أتبعا هاجمان سواحل المغرب ، وفي عصر الهابسبورج – الذي يسمى في التاريخ الإسباني بعصر الأسرة النمساوية La Casa de Austria والذي بلغ ذروته في عصر شارل الخامس إمبراطور الهابسبورج وهو شارل الأول ملك إسبانيا وابنه فيليب الثاني – اتسع نطاق الصراع بين الإسلام والنصرانية فشمل سواحل المغرب جميعا ، ووصل حتى جزيرة جربة وطرابلس ، وشاركت فيه الدولة العثمانية في عصرها الذهبي خلال القرن السادس عشر كله ، وهو عصر سليم الأول وسليمان القانوني ثم سليم الثاني ، وزاد التحام المغرب وشبه جزيرة إيبريا خاصة وقد اتسع نطاق نشاط مجاهدي البحر المسلمين دفاعاً عن حدود بلادهم ، وهو نشاط يسمى في تاريخ الغرب الأوروبي باسم القرصنة La course وهو صراع يجري له منطقه ودواعيه ، بل مبرراته التاريخية . وهذا كله جعلنا نضع خرائط كل الغرب الإسلامي في باب واحد بما في ذلك نشاط المسلمين في غالة ، وهي فرنسا ، في أوائل القرن الهجري الثاني / الثامن الميلادي ، وفتح المسلمين لصقلية وماكان لهم فيها من تاريخ حتى نهاية تاريخها الإسلامي .

وقد اجتهدت في أن تكون مجموعة خرائط الأندلس الإسلامي وافية قدر المستطاع ، واعتمدت في ذلك الأصول الإسبانية والإسلامية معا ، لأن هذا الأطلس ينبغي أن يفي بالمطالب العلمية للباحثين من الشرق والغرب على السواء . وفيما يلي بيان خرائط الأندلس

خريطة ٩٣

الأندلس عند قيام الدولة الأموية سنة ١٣٨هـ / ٧٥٦ م
مع بيان توسع مملكة اشتريس حتى أيام ألفونسو الأول ٧٣٩ – ٧٥٧ م

يطلق لفظ الأندلس على مادخل في عالم الإسلام من شبه الجزيرة الإيبيرية مهما كانت مساحته ، فالمسلمون يطلقون لفظ الأندلس على شبه الجزيرة كله ، الذي عرفناه عند الفتح ، عندما دخل شبه الجزيرة كله في الإسلام . وعندما انحصر الأندلس الإسلامي على مملكة غرناطة ظل المسلمون يطلقون على مملكة غرناطة اسم الأندلس . والأندلس يطلق على إسبانيا الإسلامية والبرتغال الإسلامية وهو مشتق من واندالوسيا Vandalucia وهو الاسم الذي أطلق على الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة جنوبي حوض نهر بيطى Betis (الوادي الكبير) Guadalquivir .

ولما كان التاريخ السياسي العام للأندلس هو قصة الصراع بين إسبانيا النصرانية بشتى وحداتها السياسية وإسبانيا الإسلامية فقد عُنيت هنا ببيان تطور إسبانيا الإسلامية قدر ماغيب بتتبع تطور إسبانيا النصرانية . وهذا فقد بينت هنا اتساع إسبانيا النصرانية وتطور الجماعة القوطية التي هربت إلى شمال الجبال الكنتبرية La Cordillera Contabirca وإنشائها إمارة برياسة بلاي Pelayo سنة ١٠٤ هـ / ٧٢٢ م ، وهذه الإمارة هي التي يقال إنها انتصرت على قوة إسلامية أرسلها عليها والي الأندلس الهيثم بن عبيد الكناني سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م . عند موضع يسمى صخرة كافادونجا Cavadonga وتلك هي المعركة التي يقال إنها تعين ميلاد إسبانيا النصرانية قرب بلدة Cangas de Onis الحالية ، إلى الشرق من أبيط Oviedo في أشتريس Asturas ، وإلى شرق كانجاس قامت إمارة نصرانية قديمة عليها رئيس يلقب دوق يسمى بطرس Petrus أنجب ولدا يسمى ألفونسو تزوج ابنة بلاي ، ومن هذا الزواج نشأت مملكة أشتريس شمالي الجبال الكنتبرية ، التي ضمت بعضاً بلاد جليقية Galicia في أواخر عصر الولاة ، وانسحب المسلمون من شمال غرب شبه الجزيرة فيما يعرف اليوم بأرض ليون ، فأخذت مملكة أشتريس تمتد إلى الجنوب في اتجاه نهر دويرو Duero .

وفي عهد أول كبار ملوكها وهو ألفونسو الأول ١٣٩ هـ – ٧٥٧ م عمرت مدينة ليون واتخذتها عاصمة ، وأصبحت تسمى مملكة ليون ، وعمرت بلاداً كثيرة من جليقية . وقد توفي ألفونسو الأول بعد قيام الإمارة الأندلسية على يد عبد الرحمن الداخل بسنة واحدة . وكان عبد الرحمن الداخل قد ثبت حدود إمارته القرطبية عند نهر المنيو EL Minio

أما في الشرق فقد سحب عبد الرحمن القوة الإسلامية من بنبلونة ، وجعل قاعدته الشمالية طرسونة Tarazona ، وفي أيامه دخل شرلمان إسبانيا وحاول الاستيلاء على حوض نهر الإبرو الذي يعرف عند المسلمين باسم الثغر الأعلى La Frontera Superior ولكنه فشل واضطر إلى التراجع سنة ١٦٣ هـ / ٧٧٩ م . وفي أثناء عبوره جبال البرت Los pireneos عن طريق باب الشزرى الذي يسمى عند الإسبان Roncesvalles وعند الفرنسيين Roncevaux هجم بعض المسلمين والبشكونس على مؤخرة جيش شرلمان وأوقعوا بها وقتلوا قائدها Herdoland أو رولاند Roland وقد خلدت في الأدب الفرنسي باسم أنشودة رولان ، ولكن شرلمان ثبت قواعد الثغر الإسباني La Marca Hispanica التي عرفت فيما بعد باسم قطلونية Cataluna وقاعدتها برشلونة وتمتد مع الساحل الغربي حتى بلاد غالة .

وفيما بين الثغر الأسباني (قطلونية) وساحل بسكاية ، في حوانق جبال البرت قامت إمارات نصرانية صغيرة وكبيرة ، امتدت على سفوح الجبال من الشمال والجنوب ، ثم انحصر أمرها على الجبال ومايقع جنوبها بعد ذلك وأصبحت أجزاء من إسبانيا النصرانية . وسنتحدث عنها عندما يصير لها كيان سياسي ظاهر . ولكن لابد أن نشير هنا إلى حادث له أهمية في ذلك الركن الشمالي الغربي في شبه الجزيرة ، وهو أنه في سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م أي قبل وفاة عبد الرحمن الداخل بثلاث سنوات احتل الفرنجة جرندة Gerona وقام لويس التقي Louis le Pieux باحتلال برشلونة وأصبح الثغر الإسباني جزءاً من مملكة الفرنجة داخلاً في شمال غربي الأندلس الإسلامي ، وفي سنة ٢٠١ هـ / ٨١٦ م ، قام أنيجو أريستا Inego Arista صاحب بنبلونة بالاستقلال عن الفرنجة ، وقامت مملكة نبرة Navarra وعاصمتها بنبلونة ، وتشمل بلاد البشكونس .

خريطة ٩٤

الأندلس خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي
وامتداد مملكة أشتريس أيام ألفونسو الثالث ٨٦٦ هـ – ٩١٠ م

وهنا نحن نمر بتطور الإسبانيتين الإسلامية والنصرانية حتى عصر ألفونسو الثالث ملك ليون الذي توفي قبل ولاية عبد الرحمن الناصر بسنتين (٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) فقد كانت إسبانيا الإسلامية تتطور وتقوى خلال عصر الإمارة ، منذ قيام الإمارة القرطبية على يد عبد الرحمن الداخل حتى إعلان عبد الرحمن الثالث خلافته وتلقبه بالناصر (١٣٨ – ٣٠٠ هـ / ٧٥٦ – ٩١٢ م) ، وفي نفس الوقت كانت مملكة ليون تنمو أيضا وتعمر المنطقة الخالية بين بلاد الإسلام والنصرانية من هذه الناحية وتمتد جنوباً .

أما ناحية الشمال الغربي وفي منطقة الثغر الأعلى الإسلامي ، فقد ازدهرت مدن سرقسطة Zaragoza وتطيلة Tudela ووشقه Huesca ولاردة Lerida وهي أكبر بلاد ذلك الثغر . وامتدت بلاد الإسلام حتى شملت قلهرة Calagorris - Calahorra وأصبحت الحرب سجالاً بين الجانبين كما بينا على الخريطة بالأسهم . وفي ناحية الغرب قام أردون الأول Ordono I ملك ليون بتعمير ليون وتحويلها إلى مدينة عامرة ، ثم جاء ألفونسو الثالث Alfonso III (٨٦٦ – ٩١٠ م) وهو أقوى وأجرأ ملك إسباني إلى ذلك الحين ، فانتهز فرصة الفتنة الأندلسية – التي بدأت في أواخر أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن (٤ ربيع

الأول ٢٣٨ – ٢٩ صفر ٢٧٣ هـ / ٢٤ سبتمبر ٨٥٢ م أوائل أغسطس ٨٨٦ م) واستمرت إلى أوائل حكم عبد الرحمن الثالث ، وبلغت أوجها في أيام الأمويين المنذر ثم عبد الله – وهاجم الأندلس من حدوده الشمالية الغربية ، فعبر نهر الدويرو وهاجم بطليوس Badagoz وماردة Mérida وأنزل ببطليوس مذبحة بشعة . وتصدى له قواد الإمارة وعلى رأسهم أبو العباس أحمد بن أبي عبده ، وأوقفوه عند حده حتى تمكن عبد الرحمن الثالث بن محمد بن عبد الله من القضاء على ثورة عمر بن حفصون والقضاء على بقية الثوار وإعادة وحدة الأندلس الإسلامي ، ثم تصدى بحزم لمملكة ليون فوقف تقدمها وحصن المنطقة الواقعة بين شمالي حوض الدويرو ، وأعاد إنشاء الحصون الممتدة شمالي طليطلة وقاعدتها مجريط ، ومن أهم حصونه غرماج San Esteban de Gormaz وَوَخْشَمة Osma .

وفي أيام عبد الرحمن الناصر ثبتت أقدام كونتية قشتالة وقاعدتها بُرغش . وأخذت تمتد وتقوى وتبعتها مدن آبلة Avila وشقوبية ، وعرفت المنطقة النصرانية الجديدة باسم قشتالة القديمة Castilla la Vieja وفي سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م استقل فرناند جندالث Fernan Gonzalez منشئ هذه الكونتية وأصبحت وحدة سياسية قائمة بذاتها

خريطة ٩٥

الأندلس في عصره الذهبي

وهي تمثل الأندلس في عصره الذهبي أيام عبد الرحمن الناصر لدين الله (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ / ٩١٢ – ٩٦١ م) ، والحكم المستنصر (٣ رمضان ٣٥٠ – ٢ صفر ٣٦٦ هـ / ١٦ أكتوبر ٩٦١ – ٣٠ سبتمبر ٩٧٦ م) ، والمنصور محمد بن أبي عامر .

خريطة ٩٦

الأندلس في عصر الطوائف

بينا في الخريطة السابقة أهم غزوات عبد الرحمن الناصر وقواد الحكم المستنصر ثم المنصور محمد بن أبي عامر المستبد بالسلطان . وعصر هذا الرجل بالفعل ذروة القوة العسكرية والسياسية للأندلس الإسلامي ، وكان يحكم باسم هشام المؤيد الصبي الصغير فقد كان حاجبه ومن ثم فقد اتجهت همته إلى تأكيد سلطانه بالمبالغة في غزو بلاد إسبانيا النصرانية مما أجج العداوة في قلوب أهل الممالك والوحدات السياسية الإسبانية ، ومن تلك حملته المشهورة على جليقية واحتلاله لمدينة شنت ياقب Santiago de compostila صاحبة المكانة الجليلة في قلوب كل نصارى إسبانيا ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، واحتلاله برشلونة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م ، وليون وسهاجون Sahagun ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، وعندما توفي سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م ترك الأندلس وقلوب نصارى إسبانيا متأججة للانتقام ولم يخلفه أحد من طرازه ، وعندما توفي ابنه المظفر سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م انفجرت نيران الثورة ، وبدأ عصر الطوائف .

وينقسم عصر الطوائف وهو عصر تمزق وحدة الأندلس إلى ثلاث فترات : الأولى من قيام الفتنة سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م وقيام الصراع على الخلافة بين مرشحين من رجال البيت الأموي لم يكتب الانتصار لأحد منهم ، والفترة الثانية تبدأ سنة ٤٢٣هـ / ١٠٣١ م وهي السنة التي ألغيت فيها الخلافة الأندلسية على يد أعيان قرطبة وعلى رأسهم أبو الوليد ابن جهْوَر .

وهنا يبدأ فعلا عصر الطوائف أي عصر انقسام الأندلس إلى وحدات سياسية مستقلة بعضها عن بعض ، يتحارب بعضها مع بعض . وهنا أتيحت الفرصة لبلاد إسبانيا النصرانية لتتخلص من الضغط الإسلامي وتتقدم إلى الجنوب دون مقاومة إسلامية تذكر ، وتلك هي الفترة التي انتهت بأكبر نصر حاسم حققته إسبانيا النصرانية ، وهو استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون على طليطلة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، وضياع ربع مساحة الأندلس بلا رجعة ، والفترة الثالثة فترة فوضى قصيرة زاد فيها شعور أهل الأندلس بالضياع واستغاثوا بالمرابطين أصحاب المغرب ، فعبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عبوره الأول سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وكسب نصر الزلاقة Sacrajas قرب بطليوس سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وهنا ينتهي عصر الطوائف ويبدأ عصر المرابطين الذي أصبحت بقية الأندلس الإسلامي فيه جزءا من دولة المرابطين المغربية .

وقد كتبنا أسماء إمارات الطوائف على الخريطة ، ولم نضع لها حدودا ، لأن تلك الحدود لم تكن ثابتة نظرا لحالة الحرب التي كانت دائرة بين ممالك الطوائف بعضها مع بعض من ناحية ، وبينها وبين إسبانيا النصرانية من ناحية أخرى ، ولم تثبت الحدود إلا فيما يتعلق بإمارة سرقسطة فقد ظلت حدودها ثابتة مع قطلونية وأرغون ونبرة حتى بداية العصر المرابطي في الأندلس سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م .

تطور إسبانيا النصرانية

نتيجة لضياع وحدة الأندلس الإسلامي نهضت إسبانيا النصرانية لترث الصدارة في شبه الجزيرة ، وكان أول الطامحين إلى ذلك ملوك نبرّة الذين طالما غزا عبد الرحمن الناصر بلادهم واحتل عاصمتهم بنبلونه ، فنهض الملك شانجه الثالث الكبير Sancho III Mayor (1004 - 1035) وتصدى لتوحيد إسبانيا النصرانية منادياً بأن الملوك لايتولون بالانتخاب بل بإرادة الله وأيدته البابوية في ذلك مشجعة إياه على غزو بلاد المسلمين ، مما أعطى الصراع بين المسلمين والنصارى في شبه الجزيرة طابع الحروب الصليبية ، فاحتل ريباجورثا (١٠١٨ – ١٠٢٥ م) ، ثم طالب كونت قشتالة بأن يدخل في طاعته ، وبالفعل أصبح غرسية كونت قشتالة من أتباعه سنة ١٠٢٧ م . وكذلك فعل مع ملك ليون برمودو الثالث Vermudo III وعندما مات برمودو سنة ١٠٣٠ م أصبحت قشتالة تابعة لنبرة ، وبعد ذلك بقليل دخل الكونت رامون بريجير الأول Ramon Berenguer I el Conde de Barcelona في طاعته .

وعندما توفي شانجه الكبير سنة ١٠٣٥ م كانت فكرة توحيد إسبانيا النصرانية قد استقرت في أذهان أمرائها ورؤسائها ، وتلك نتيجة طبيعية لضياع الزعامة الإسلامية لشبه الجزيرة ، ولم يخلف شانجه ملك نبرة وربما عاد التمزق إلى بلاد إسبانيا النصرانية وانتقلت زعامتها إلى فرناندو الأول Ferando I ملك ليون ، وراميرو الأول Ramiro I كونت قشتالة ، وكذلك تطلعت أرجون Arogon للزعامة وأصبحنا أمام ملوك طوائف Reyes de Taifas في الجانبين : الإسلامي والنصراني ، ولكن الجانب الإسلامي كان في ضعف بينا كان الجانب النصراني في صعود . وبينا وقفت حدود نبرة كما كانت عند موت شانجه الكبير – أعظم ملوكها طرا – أخذت بقية الوحدات النصرانية في شبه الجزيرة تتقدم ، وكان شانجه الكبير قد ربط بلاده بالبابوية ، وأخضع كنائس بلاده وجماعات رهبانها للنظام البندكتي ، ثم استبدلت الطقوس المستعربة في الكنائس بالطقوس الكاثوليكية ، وأرسلت البابوية مئات القساوسة الكلونيين لإدخال النظام الجديد في إسبانيا النصرانية وماتستولي عليه من بلاد المسلمين ، وأظهر البابا اسكندر الثالث همة كبيرة في هذه السبيل ، وهذا التوحيد الديني أعطى التحرك النصراني نحو بلاد المسلمين طابعاً دينياً ، وأصبح مايستولي عليه الإسبان النصارى من أراضي المسلمين يحتل باسم الصليب ، واندفعت جماعات كبيرة من فرسان النصارى من شتى نواحي أوروبا للاشتراك في حرب المسلمين في شبه الجزيرة ، وهكذا نستطيع القول بأن الحركة الصليبية كلها ولدت في شبه الجزيرة الإيبرية واجتهدت البابوية في تأكيد هذا المعنى .

وعندما تحرك غرسية د ناجرة Garcia de Nájera ملك نبرة (١٠٣٥ – ١٠٥٤ م) نحو أراضي المسلمين التي ضعف الدفاع عنها فعل ذلك بتأييد البابوية وباسم الصليب ، وافتتح هذه الحركة بالاستيلاء على قلهُرّة Calahorra بالعنف البالغ سنة ١٠٤٥ م دون أن يلقى مقاومة من بني هود أصحاب إمارة سرقسطة . ثم تقدم فرناندو الأول Fernando I ملك ليون وقشتالة (١٠٣٧ – ١٠٦٥ م) فاستولى باسم الصليب على لاميجو Lamego وبازو Viseu في البرتغال سنة ١٠٥٧ م . ثم احتل جواردا Guarda وقلُمْرية Coimbra سنة ١٠٦٤ م . ولما كانت الإمارات النصرانية الشرقية أقرب إلى الاتصال بالبابوية فقد أخذ التقدم النصراني هنا صورة العنف كما حدث في استيلاء الأرغونيين على منتشون Monzon (١٠٨٠ م) وتقدمت حدود قطلونية إلى طرّكونة Tarragona (١٠٩٠ م) واستولت أرجون على وشقة (١٠٩٤ م) ، وفي سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م وقع الهجوم على بربشتر Barbostro وقد قامت به قوة نصرانية أرغونية أوروبية تؤيدها البابوية ، وقد اقترف فرسان النصارى من الشناعات في الهجوم على هذا البلد ما أثار الفزع في قلوب المسلمين . وفي النصوص الأوروبية تسمى هذه الحادثة بصليبية بربشترو La Cruzada de Barbostro .

ولم تلبث زعامة الحركة الصليبية أن انتقلت إلى مملكة ليون التي اتحدت مع كونتية قشتالة أيام الملك شانجة الثاني Sancho II ، وأخذت الحركة كلها صورة خطيرة بسبب ضعف المسلمين ، وقصر نظرهم ، وغياب الفكرة الإسلامية من تصرفاتهم . وتجلى ذلك

فى رئيس من رؤساء الأندلس الإسلامى وهو المأمون بن ذى النون الذى ملك إمارة طليطلة أكبر إمارات إسبانيا الإسلامية مساحة ، فقد كانت تمتد من شمالى طليطلة عند قلعة أيوب ومدينة سالم إلى حدود إمارة قرطبة دون أن تملك قوة عسكرية قادرة على حماية هذه المساحة الشاسعة التى كانت تمثل قلب الأندلس الإسلامى ، ولم يخطر بباله أن يتحالف مع أحد من جيرانه المسلمين لدرء الخطر ، بل العكس تماما هو الذى حدث ، فالمأمون بن ذى النون ألقى بثقته كلها إلى جيرانه أصحاب قشتالة وليون ، واستضاف ألفونسو أخا ملك قشتالة سانشو عندما اختلف مع أخيه ، وعندما قتل الملك سانشو الثانى وتولى مكانه ألفونسو باسم ألفونسو السادس كان هذا الرجل هو الذى استولى على طليطلة سنة ١٠٨٥ م وحول مملكته بذلك إلى أقوى الوحدات السياسية فى شبه الجزيرة ، لأن مملكة « قشتالة و ليون » زادت ثلث مساحتها وتضاعف غناها ، وانتقلت إليها فعلا الزعامة السياسية لشبه الجزيرة . ويبدو بوضوح أن الأندلس الإسلامى إذا لم يتداركه مدد عظيم فهو ضائع لامحالة .

وهنا تتجلى لنا الأهمية التاريخية لدخول المرابطين مغيثين لأهلها ، ففى يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م كسب المرابطون ومن معهم من أهل الأندلس (وفيهم المعتمد بن عباد) نصر الزلاقة Sacrajas الحاسم قرب بطليوس على نهر الواديانة وأوقفوا تقدم قشتالة وليون ، وعندما عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عبوره الثانى تبين أن ملوك الأندلس غير مخلصين لقضية الإسلام ، وهذا هو السبب فى عجز المرابطين عن الاستيلاء على قلعة تسمى لييط Aledo فى شرق الأندلس ، وكانت تحكم الطريق إلى بلنسية ، وكان المرابطون يريدون الاستيلاء عليها لفتح الطريق إلى بلنسية لإنقاذها من عبث مغامر قشتالى يسمى Rodrigo Diaz de Vivar ويلقب بالسيد القمبيطور El Cid camboador استولى عليها لمدة خمس سنوات (١٠٩٤ - ١٠٩٩ م) وعندما عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عبوره الثالث فى رجب ٤٨٣ هـ / سبتمبر ١٠٩٠ م عزل ملوك الطوائف ، وجمع مابقى للمسلمين من أراضيه تحت لواء المرابطين ، وهنا ينتهى عصر ملوك الطوائف ويبدأ العصر المرابطى فى تاريخ مابقى من الأندلس الإسلامى كما هو مبين على الخريطة .

خريطة ٩٧

الأندلس الإسلامى أيام المرابطين

وكما تطورت مملكة قشتالة وليون من واحدة من الوحدات السياسية المتنافسة على السلطان فى شبه الجزيرة إلى أكبر دولة فى شبه الجزيرة نتيجة لاستيلائها على إمارة طليطلة فتضاعف ثراؤها وقوتها ، فكذلك حدث لأرغون التى لم تكن أول الأمر إلا دويلة صغيرة من الدويلات النصرانية فى الركن الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة ، فأصبحت مملكة كبيرة غنية ذات مستقبل باهر بعد استيلائها على إمارة سرقسطة وضمها بلاد الثغر الأعلى الأندلسى إلى أراضيها . وقد تم ذلك سنة « ٥١٢ هـ / ١١١٨م » أى أيام المرابطين ، وكان الذى قام بذلك هو ألفونسو المحارب Alfonso I el Batallador وقد سقطت بلاد الثغر الأعلى بعد صراع طويل ، ولكن سرقسطة نفسها سقطت تقريبا دون حرب نتيجة للنزاعات المستمرة داخل بيت بنى هود ، وقد بذل المرابطون أقصى جهدهم لإنقاذها ، ومات فى سبيل الدفاع عنها نفر من خيرة قادتهم ، ولكن ذلك الجهد انحسر تماما أيام الموحدين .

وقد دخل الموحدون الأندلس أواخر ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م بعد فتح المغرب كله وتوحيده تحت رايتهم . وكان نفر من أهل الأندلس قد ثاروا على المرابطين فأطفأ عبد المؤمن بن على تلك الفتن ، ووحد مابقى للمسلمين فى الأندلس تحت لوائه ، وولى على نواحيه أمراء من آل بيته ومن كبار الموحدين . وجعل عاصمة الأندلس قرطبة أولاً ، ثم عادت العاصمة إلى إشبيلية كما كانت الحال أيام المرابطين . ولم يخرج عن سلطان الموحدين إلا ناحية دانية التى استبد بها بنو غانية وهم مسوفيون من رجال المرابطين ، وكذلك عارضهم رؤساء من أهل الأندلس مثل محمد بن سعد بن مردنيش وصهره إبراهيم بن هَمُشْك الذى استبد ببعض نواحى الشرق .

وقد استطاع عبد المؤمن بن على « ٥٢٤ - ٥٥٨ هـ / ١١٣٠ - ١١٦٣ م » أن يثبت حدود الأندلس عند الخط المبين على الخريطة ، وهو خط نهر الوادى الكبير ونهر بلنسية ، وخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ / ١١٦٣ - ١١٨٤ م) وكانت مملكة البرتغال قد استقلت عن إسبانيا ومضت تبنى نفسها بما تكسب من أراضى المسلمين فى غرب الأندلس ، وقد تولى ذلك ألفونسو إنريكى Affonso Enrique الذى يسميه المسلمون ابن الريق ، وفى سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م حاول الاستيلاء على الأشبونة فشل ولم يستطع ، ولكنه استعان بنفر من الصليبيين الذين كانوا فى طريقهم إلى البلاد المقدسة للاستيلاء على شلب . وكانت شنترين قد سقطت فى يده ، وهنا نجد أن ثانى خلفاء الموحدين الذى ذكرناه يركز جهوده فى الدفاع عن غرب الأندلس ويموت وهو يحاول استعادة شنترين .

غير أن بطل الإسلام فى الأندلس فى العصر الموحدى كان ثالث خلفاء الموحدين ، وهو أبو يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩ م) وتحت قيادته كسب المسلمون انتصار الأرك المشهور ، ويسمى عند الإسبان Alorcos إلى غرب مدينة ثيوداد ريال الحالية فى شرق الأندلس فى ٩ شعبان ٥٩١ هـ / ١٨ يوليو ١١٩٥ م . وبعدها فر ألفونسو الثامن ملك قشتالة إلى طليطلة بفلول جيشه . وهذه المعركة تعدل الزلاقة فى أهميتها بالنسبة لمصير الأندلس الإسلامى ، فقد انكسرت حدة الزحف النصرانى على بلاد المسلمين إلى حين .

ولكن الحال تغيرت بعد وفاة أبى يوسف يعقوب المنصور ، لأن خليفته وابنه محمد الناصر (٥٩٥ - ٦١٠ هـ / ١١٩٩ - ١٢١٣ م) لم يكن من طراز أبيه . ثم إن العبء على خلفاء الدولة الموحدية كان ثقيلاً جداً ، فقد امتدت من طرابلس فى أقصى شرق المغرب إلى ساحل المحيط ، ومن شمال نهر الوادى الكبير فى الأندلس حتى وادى درعة فى إفريقية ، ثم إن الخلافات اشتدت بين المتنافسين على السلطان فى الدولة . وكذلك كان لثورة بنى غانية المسُّوفيين - وهم بقايا المرابطين فى دانية والجزائر الشرقية وبلاد إفريقية - أثر كبير فى إضعاف جبهة الموحدين فى الأندلس ، وكان ألفونسو الثامن ملك قشتالة منذ هزيمته فى موقعة الأرك قد ملكه الخوف فاستعان بالبابوية وأخذ يتأهب للأخذ بثأره . وتمكن من ذلك فجمع حشوداً عظيمةً وسار للقاء الموحدين ، وجمع محمد الناصر الموحدى أقصى مااستطاع جمعه وسار للقاء القوات القشتالية ، ولكن النزاع كان قد دب بين الأندلسيين من ناحية ، والموحدين من ناحية أخرى ، وكان فى جيش الموحدين عدد كبير من العرب الهلالية ، وهؤلاء لم يتعودوا على نوع الحرب البالغة العنف والضراوة بين المسلمين والنصارى فى الأندلس ، وكان اللقاء فى موضع يسمى العقاب Las Navas de Tolosa شمال أبذه Ubeda وجيّان فى شرق الأندلس فى ١٥ صفر ٦٠٩ هـ / ١٧ يوليو ١٢١٢ م ولقى الموحدون هزيمة كبرى إذ حُصِدَت قوات المطوعة وفر العرب ثم بقية الأندلسيين . وتعتبر هذه المعركة من أكبر المعارك الفاصلة فى تاريخ الأندلس ، فقد انحسرت حدوده ، وهبطت إلى حوض الوادى الكبير ، بل إن القوة العسكرية الموحدية لم تعد قط إلى سابق عهدها بعد هذه الهزيمة لكثرة من قتل فيها من جنود الموحدين ومن انضم إليهم من المسلمين .

خريطة ٩٨

تطور حدود الأندلس
من قيام دولة الموحدين إلى قيام مملكة غرناطة
من ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م إلى ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م

وبعد وفاة الخليفة الموحدى الرابع محمد الناصر تصدعت قوى الموحدين ، وكثر النزاع على السلطان ، وكان الخليفة الموحدى الخامس المستنصر قد أقام أخاه أبا العلا إدريس المأمون على الأندلس ، ولكن هذا الرجل كان قصير النظر شديد التطلع إلى السلطان ، وعندما وجد أن أخاه أبا عبد الله محمد والى مرسية يعبر إلى المغرب يطالب بالخلافة ويعلن نفسه خليفة ويتلقب بالعادل سارع هو الآخر - دون نظر إلى العواقب - فجمع كل ماكان تحت يده من قوات وأعلن نفسه خليفة ، وتلقب بالمأمون حوالى سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م وعبر إلى المغرب تاركاً الأندلس دون غطاء عسكرى ، فلا غرابة أن خط الوادى الكبير بقواعده العظيمة مثل إشبيلية وقرطبة قد تصدع ، خاصة وأن انهيار المقاومة الإسلامية فتح باب التوسع والتقدم أمام ممالك إسبانيا النصرانية على مصراعيه ، فقد زادت قوة وانتظاما ، وإحساسا بكيانها ، ووعيا إلى أن ماتقوم به إنما هو حركة استرداد Reconquista لأرض هى من حقهم . لأن تصرف المسلمين فى الأندلس بعد ذلك كان تصرفا غير جدى ينقصه الوعى والحزم والإيمان ، فبينا كانت فوضى الخلاف والتمزق على أشدها فى الجانب الإسلامى نجد أن قشتالة وأرغون تتوحدان فى شكل دولة واحدة تملك السيادة الكاملة على شرق الأندلس وتتقدم بعزم للاستيلاء على مابقى بأيدى المسلمين من بلاد الشرق سنة ١٢٣٧ م . وقد كانت لدى المسلمين قوى كافية للثبات ، فقد كانت بأيديهم مناطق واسعة غنية مثل : بلنسية ومرسية والمرية ومالقة ، ولكنها كلها وقفت متفرقة وقد شل الخوف قواها وجعلها عاجزة عن القيام بأى تصرف سليم .

ونتيجة لهذا يتقدم رامون بيرنجير الرابع Ramon Berenguer IV ملك أرغون ويعلن على المسلمين حرباً صليبية يباركها البابا ، ويستولى فيما بين سنتي ١٢٤٨ – ١٢٤٩ م على لارده Lerida وطرطوشة Tortosa ، وكان قد وقع في سنة ١١٢٩ م حلف تعاون بين مملكتي قشتالة وأرغون وهو حلف Cazola ، وقد وقع قبل وقعة الأرك ولكنه مؤشر على الاتجاه العام لإسبانيا النصرانية ، ودليل على وعيها لذاتها ولرسالتها ، وفي سنة ١٢٢٩ م . يستولى جاقمة Jaume I Reuyde Aragon Y Barcelona (١٢١٣ – ١٢٧٦ م) وهو من أطول ملوك العصر عمراً – على الجزائر الشرقية « البليار » وفي سنة ١٢٣٠ م يتم الاتحاد بين قشتالة وليون نهائيا على يد فرناندو الثالث Fernando III (١٢١٧ – ١٢٥٢ م) وكانت النتيجة المباشرة لذلك سقوط قرطبة في يد مملكة قشتالة وليون دون مقاومة في ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م ، وفي سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م تقع بلنسية وإقليمها الواسع في يد الملك جاقمة الأول ملك أرجون . ونظراً إلى أن البلاد الإسلامية لم تعد مناطق حروب بل مساحات اقتسام فقد وُقّعت بين مملكتي قشتالة وليون من ناحية ، ومملكة أرجون من ناحية أخرى معاهدة المرسى Almirza سنة ١٢٤٤ م التي تؤكد معاهدة كارولا ، وتحدد مناطق توسع كل من الدولتين الإسبانيتين ، فوقف توسع أرجون عند بلنسية ، وتركت بقية بلاد الإسلام لتوسع فيها مملكة قشتالة وليون ، وفي نفس الوقت كانت مملكة البرتغال قد استصفت بلاد الغرب الأندلسي فاستولت على شلب وفارو وشنتمرية الغرب ، ولم يبق للمسلمين في الغرب شيء ، وفي سنة ١٢٤٨ م استولت قشتالة وليون على بلنسية ، وهبطت حدود الأندلس إلى جنوب الوادي الكبير .

خريطة ٩٩

مملكة غرناطة ومراحل توسع إسبانيا النصرانية

وعندما أخذت قواعد الأندلس الكبرى تتهاوى حاول زعيم عسكري أندلسي يسمى محمد بن يوسف بن هود الجذامي أن يجمع بقايا الأندلس ويقيم لنفسه دولة ، فأدرك بعض التوفيق ولكنه قتل ، فنهض زعيم آخر يسمى محمد بن يوسف بن أحمد بن نصر للقيام بهذه المهمة ، وأصله من بلدة صغيرة تسمى أرجونة Argona ، على ثلاثين كيلو متراً جنوب جيان ، وقد نجح في ذلك وتجمعت حوله جماعة من المقاتلين المسلمين فتقدم بهم ومنها إلى غرناطة ، وكانت حصناً منيعاً على الطرف الغربي لجبال الثلج أو Sierra - Navada وتحصن به آخر رمضان سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م . وتلاحقت به الحشود ، وتجمع حوله من أراد الهروب من أيدي النصارى من الأندلسيين ، وأيده بعض رؤساء الجنوب ومنهم بنو أشقيلوله أصحاب جيان . وهكذا قامت دولة بني نصر ، أو بني الأحمر ، وهي دولة غرناطة آخر معاقل الإسلام في الأندلس .

وكان محمد بن نصر ابن الأحمر رجلاً ذكياً نشيطاً عرف كيف يؤسس دولة ، وشملت شيئاً فشيئاً كل كورة غرناطة وتسمى أيضا إلبيرة Elvira باسم بلدة صغيرة مجاورة لها ، ثم ضم إليه بسطة Baza ووادي آش Guadix ومالقة Malaga والمرية Almeria وجيان ، ثم اضطر إلى التخلي عن هذه الأخيرة ، ووجد هذا الرجل أنه من الحكمة أن يدخل في ولاء فرناندو الثالث Fernando III ملك قشتالة وظل على هذا الوضع خلال السنوات الأولى من حكمه ليضمن سلامة دولته . وكانت مملكته التي أنشأها لا تمثل إلا جزءاً صغيراً من شبه الجزيرة ، ولكن نجدات المقاتلين خفت إليها ، وهاجر إليها عدد كبير من الصناع والمعلمين فازدحمت بالسكان وعمرت ، وتجمع لدى محمد بن نصر ابن الأحمر مال كثير حصن به بلاده وسلح جيشاً كبيراً ، وإن كان قد اضطر إلى معاونة ملك قشتالة بقوة من جيشه عندما استولى على إشبيلية سنة ١٢٤٨ م . وفي سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م كانت قواعد دولته قد استقرت وضم إليها الجزيرة الخضراء Algeziras وجبل طارق فحصنهما ليضمن لدولته طريقاً إلى المغرب . وقد حكم محمد بن نصر الذي تلقب بالغالب بالله من ٦٢٩ إلى ٦٧١ هـ / ١٢٣٢ – ١٢٧٢ م وقد عرف خلال هذه السنوات كيف يضع أساساً متيناً للدولة وأضاف إليها لورقة . وعندما توفي فرناندو الثالث عقد نفس الاتفاق مع خليفته ألفونسو العاشر الملقب بالعالم Alfonso El Sabio وأصبحت دولة غرناطة وحدة سياسية يحسب لها حساب في سياسة مملكة قشتالة ، فهي تخضع لها إذا عاملت على نفسها وتخرج عن طاعتها وتحاربها إذا آنست منها ضعفاً . وألفونسو العاشر ملك قشتالة وليون هذا سيهرب لاجئاً إلى ابن الأحمر ويطلب عونه ويقبل يده عندما يختلف مع ابنه شانجه الرابع سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م ويهدد بالعزل عن العرش .

وقد عمرت مملكة غرناطة ٢٦٨ سنة هجرية ، فلم تسقط في أيدي مملكة قشتالة وليون إلا في ٢ ربيع الأول ٨٩٧ هـ / ٢ يناير ١٤٩٢ م . وكانت خلال هذه الفترة الطويلة في صراع دائم للمحافظة على مصيرها ، وقد ابتليت بمتاعب كبيرة أهمها الخلافات المتصلة على العرش والسلطان بين أفراد الأسرة أو منافسيهم . وقد انتفعت كثيراً بمعاونة بني مرين العسكرية ، وكان بنو مرين على اهتمام عظيم بأمر الجهاد في غرناطة . وكانت لهم قوة دائمة تسمى مشيخة الغزاة . وقد حكينا كيف تعاون الجانبان على المحافظة على غرناطة ، وكيف انهزم المسلمون آخر الأمر في موقعة طريف ، وخسرت غرناطة ثغر طريف ، ثم ثغر جبل طارق فانقطعت صلاتها تماماً بإفريقية .

وقد حكم من ملوك غرناطة ٢١ ملكاً لم تطل مدة الحكم إلا لثلاثة منهم ، وأقدرهم محمد بن يوسف بن نصر الغالب بالله مؤسس الدولة ، وأبو عبد الله محمد الفقيه ابنه ، وأكبر ما خلفه لنا بنو نصر هو قصور الحمراء التي تعتبر من أعاظم معالم الفن في إسبانيا بل في أوروبا .

وبعد سقوط غرناطة وعقد معاهدة مع فرناندو وإيزابيلا تضمن حرية بقايا المسلمين سحقت تلك العهود واجتهد الأساقفة في تنصير المسلمين الذين عرفوا بعد ذلك بالموريسكيين Los Moriscos أي المسلمين الصغار . وثار المسلمون مراراً ، وصدرت قرارات بتخييرهم بين التنصير أو مغادرة البلاد في سنة ١٦٠٣ ثم ١٦٠٩ م ، وبذلك ينتهي التاريخ السياسي للإسلام في شبه الجزيرة . أما الأثر الحضاري فقد ظل قروناً بعد ذلك ، بل مازالت آثار منه باقية إلى اليوم .

وقد حددنا على الخريطة المزدوجة (٩٩) مملكة غرناطة بكل بلادها . وهي خريطة واضحة . ولم نتتبع عليها مراحل انحسار مملكة غرناطة حتى نضع أكبر عدد من الأعلام التاريخية عليها ، ونرجو أن تكون أوفى مايكون من ناحية الأعلام العربية .

وفي الجانب الأيمن من تلك الخريطة رسمنا ثلاث خرائط لتصور توسع الممالك الإسبانية النصرانية مع اتجاهات التوسع ، وذلك حتى يستطيع القارىء تتبع مراحل الصراع على مصير شبه الجزيرة من الناحيتين الإسلامية والنصرانية .

المراجع

ابن الأبار أبو عبد الله القضاعي ، المعجم فى أصحاب القاضى أبى على الصدفى ، القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م

الحلة السيراء جزءان بتحقيق د. حسين مؤنس . القاهرة ١٩٦٣ م .

ابن الأثير الجزرى جامع الأصول فى أحاديث الرسول . بتحقيق عبد القادر الأرناءوط . طبعة دمشق ١٩٦٩ – ١٩٧٢ م .

الحميدى الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبى نصر فتوح . جذوة المقتبس . القاهرة ١٩٦٦ م .

ابن سعيد الأندلسى المغرب فى حلى المغرب . بتحقيق د. شوقى ضيف . القاهرة ١٩٦٤ م .

الأوسى المراكشى أبو عبد الله محمد بن عبد الملك . الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة. ٦ أجزاء بتحقيق محمد ابن شريفة وإحسان عباس ١٩٦٤ – ١٩٧٣ م .

الباجى أبو مروان عبد الملك بن محمد . الحلى بالإقامة على المستصفى . بتحقيق د. عبد الهادى التازى ، بيروت ١٩٦٤ م .

بالنثيا آنخل جنثالث . تاريخ الفكر الأندلسى . ترجمة د. حسين مؤنس . القاهرة ١٩٥٥ م .

ليفى بروفنسال الإسلام فى المغرب والأندلس . ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى ، القاهرة ١٩٥٦ م .

ابن دحية الكلبى الأندلسى المطرب من أشعار أهل المغرب .

نقط العروس بتحقيق د. شوقى ضيف ، القاهرة ١٩٥١ م .

ابن حزم الأندلسى أبو محمد على بن أحمد بن سعيد . التلخيص لوجوه التخليص . بتحقيق إحسان عباس . القاهرة ١٩٦٠ م

د. حسين مؤنس السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين . القاهرة ١٩٥٠ م .

المسلمون فى البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية . القاهرة ١٩٥١ م .

ابن حيان أبو مروان خلف بن حيان. المقتبس فى أخبار ملوك الأندلس . بتحقيق د. محمود على مكى . بيروت ١٩٧٣ م

ابن الخطيب لسان الدين . الإحاطة فى أخبار غرناطة . ستة أجزاء . القاهرة ١٩٧٤ – ١٩٨٤ م .

أعمال الأعلام جـ ٢ . نشره ليفى بروفنسال بعنوان تاريخ إسبانيا الإسلامية . بيروت ١٩٦٢ م .

أعمال الأعلام جـ٣ حققه ونشره أحمد مختار العبادى ومحمد إبراهيم الكتانى.

ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر . ط بولاق . ٧ أجزاء بما فى ذلك المقدمة

الدباغ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصارى ، معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان . بتحقيق إبراهيم شبوح . القاهرة ١٩٦٨ م .

ابن أنس العذرى الدلائى نصوص عن الأندلس ، بتحقيق د. عبد العزيز الأهوانى ، مدريد ١٩٦٥ م .

ابن أبى دينار القيروانى المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس . تحقيق محمد شمام . تونس ١٩٦٧ م .

ابن الزبير أبو جعفر أحمد بن إبراهيم . صلة الصلة . بتحقيق ليفى بروفنسال . الرباط ١٩٣٧ م .

عبد الله بن بُلُقين بن باديس بن زيرى التبيان . بتحقيق ليفى بروفنسال . القاهرة ١٩٥٥

ابن صاعد أبو القاسم أحمد الأندلسى الطليطلى . طبقات الأمم ، بتحقيق لويس شيخو ، بيروت ١٩٣٥ م .

الضبى أحمد بن يحيى بن عميرة . بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس . القاهرة ١٩٦٧ م .

عنان محمد عبد الله . تاريخ الأندلس . ٦ أجزاء . القاهرة ١٩٣٥ م ١٩٦٠ م

ابن عياض القاضى عياض بن موسى . ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك . طبعة أحمد بكير محمود . بيروت ١٩٦٥ م

الغبرينى أبو العباس أحمد بن أحمد . « عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » . تحقيق عادل نويهض . بيروت ١٩٦٩ م .

الفاسى على بن أبى زرع . « الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية » الرباط ١٩٧٢ م .

ابن الفرضى الحافظ أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى : « تاريخ علماء الأندلس » . القاهرة ١٩٦٦ م .

ابن القاضى أبو العباس أحمد بن محمد المكناسى . « دُرّةُ الحجال فى أسماء الرجال » بتحقيق محمد الأحمدى أبو النور . القاهرة . تونس ١٩٧٠ م .

ابن القطان أبو على حسن ، نظم الجمان ، بتحقيق د. محمود على مكى . الرباطى . بدون تاريخ .

ابن القوطية: أبو بكر محمد . تاريخ افتتاح الأندلس . بتحقيق خوليان ريبيرا . مدريد ١٩١٠ م .

القيرواني: أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم . « طبقات علماء إفريقية » . بتحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي . تونس . ١٩٦٨ م .

الخشني: أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد . « قضاة قرطبة » القاهرة ١٩٦٦ م

المالكي: أبو بكر عبد الله « رياض النفوس » . جـ ١ بتحقيق د. حسين مؤنس . القاهرة ١٩٥٤ م .

المراكشي: ابن عذارى . « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » . حقق بعض أجزائه ليفي بروفنسال وكولان . ونشرها في لايدن بهولاندا ، ثم طبع الأجزاء الخمسة الموجودة إحسان عباس في بيروت ١٩٧٥ ١٩٧٨ م

المراكشي: محي الدين عبد الواحد بن علي . « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » بتحقيق : محمد سعيد العريان . القاهرة ١٩٦٧ م .

المقري: شهاب الدين . أحمد بن محمد . « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » طبعة د. إحسان عباس في ٨ أجزاء . بيروت ١٩٦٨ م .

الناصري السلاوي: أبو العباس أحمد بن خالد ، « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » ، ٩ أجزاء بتحقيق ولدي المؤلف ، ١٩٥٤ — ١٩٦٠ م .

- Caudel , M ., L'Afrique du Nord , les Byjantins et les Berbéres avant les invasions musulmans Paris , 1910 .

- Fagnan , E., Extraits inédite Relatifs au Maghreb . Alger 1924 .

- Brett , Michael , Problems in the interpretation of the History of the Maghreb in the light of some recent Publications Journal of African History . Vol . XIII , 3 (1972) .

- Cande , Antonio José , Historia de la Espàna Musulmana . Madrid , 1848 .

- Dozy , Reinhardt Peter - Ann , Histoire des Musulmans d'Espagne . Nouvelle edition par levi - Pron Cal , 3 Vols - Leyde 1931 .

- Faurnel , Henri : les Bérberes 2 Vols . Paris 1875 - 1880 .

- E.F. Gautier , les siecles obscurs de l'histoire du Maghreb . 2 éme éd . 1938 .

- Hady Roger Idris , Initiation à la Tunisie . Paris 1950 .

- Huici Miranda , Ambrosio , Las grandes Batallas de la Reconquista 1956 .

- Histaria Polotice del Imperis Almohade . 3 Vols . Valencia , 1956 .

- José , Antonis Maravall , EL Concept de Espàna en la Edad Media , Medrid , 1954

- Julien , Charles - André , Historie de l' Afrique du Nord de la conquète Arabes à 1830 . 2 ème edition par Roger le Tourneau - Paris 1966 .

- Lacarra , José Marià .

- Lèvi - Porvencal , E., L'Espagne Musulmane au X Siecle . Paris 1932 , Historie de l'Espagne Musulmane - 3 Vols , 2 éd - Paris 1948 .

- Luis Gonzalez de Azevado , Historia de portugal , Lisboa 1944 ,

Mercier , Emest , Histoire de l'Afrique septentrionale . paris 1931 .

- Simonet , Francisco , Historia de los Mozarabes de Espàna . Madrid , 1904 .

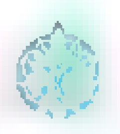

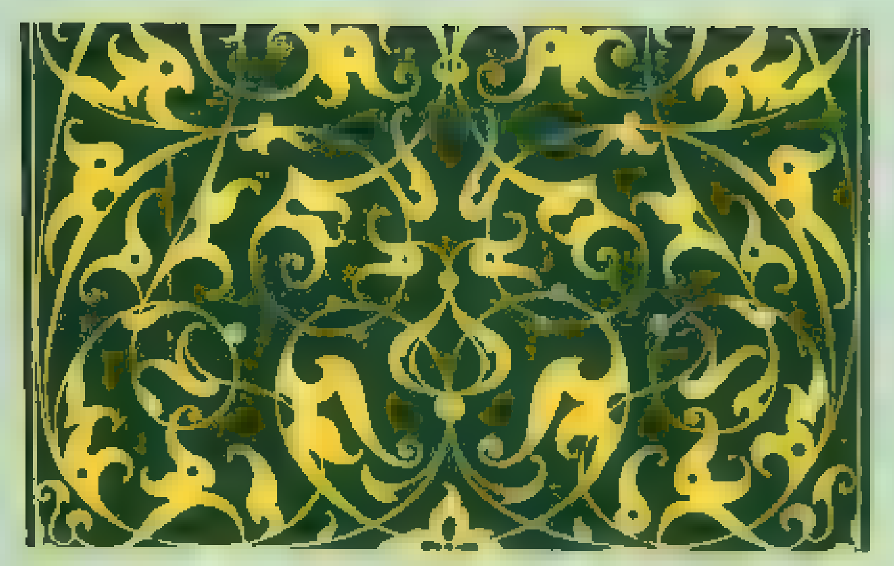

الفصل التاسع

شبه الجزيرة العربية

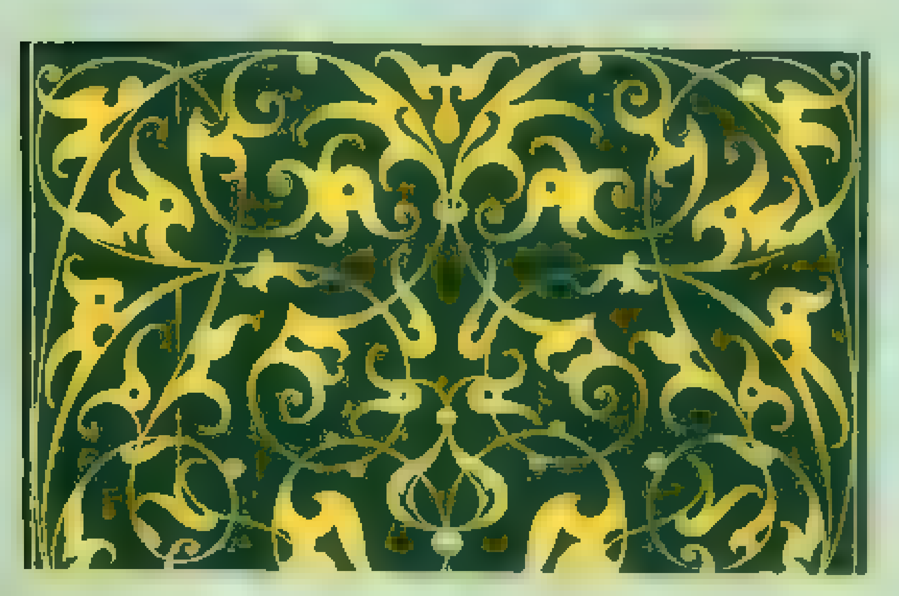

بيان الخرائط

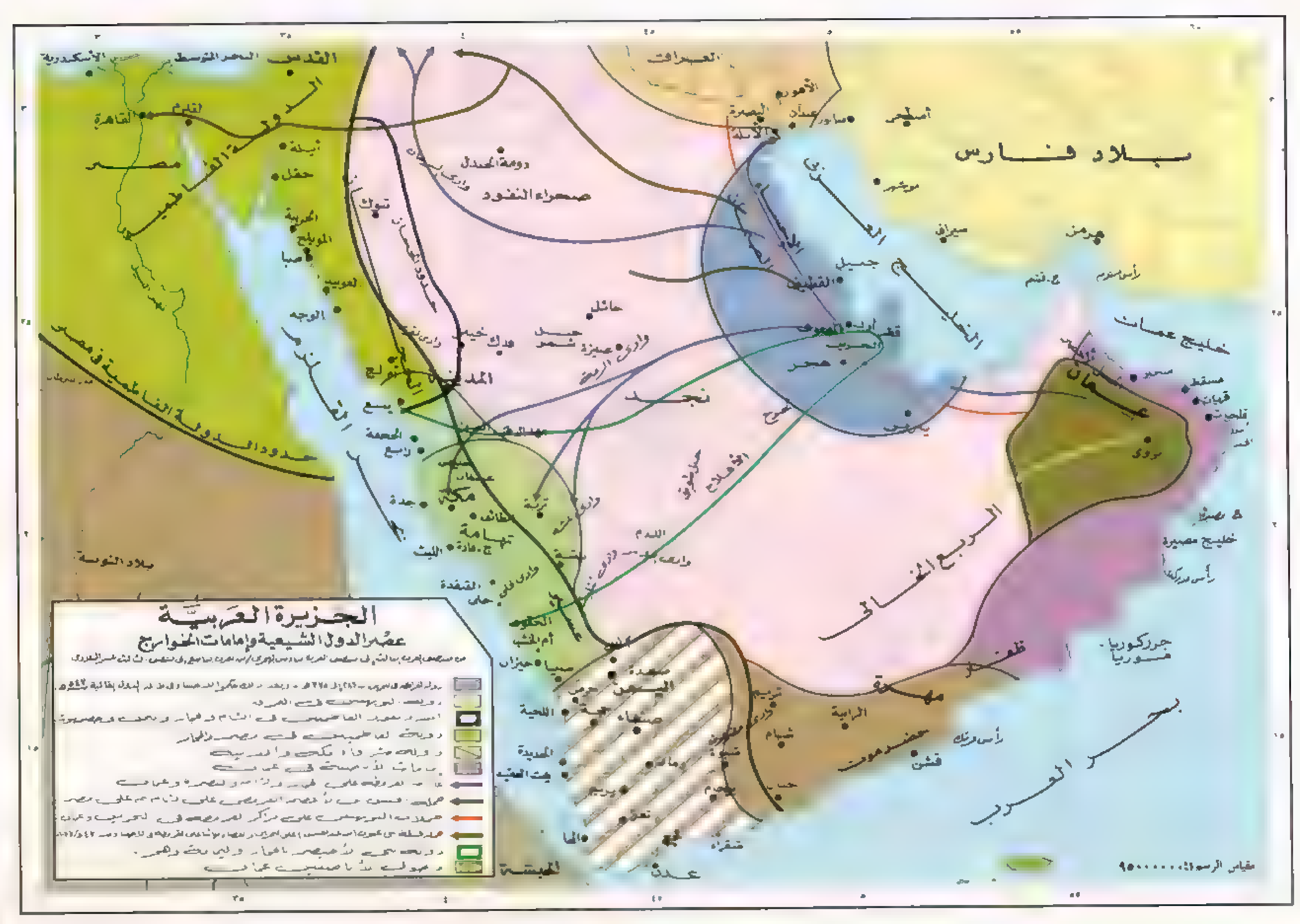
الجزيرة العربية
عصر الدول الشيعية وإمامات الخوارج
بلاد فارس
الخليج العربي
بحر العرب
بحر القلزم
الربع الخالي
صحراء النفود
نجد
عمان
اليمن
حضرموت
مهرة
مصر
العراق
الدولة الفاطمية
حدود الدولة الفاطمية في مصر
حدود الحجاز
بلاد النوبة
الحبشة
البحر المتوسط
الإسكندرية
القدس
القاهرة
القلزم
أيلة
حقل
الحوراء
المويلح
شغبا
العويند
الوجه
تبوك
دومة الجندل
حائل
فيد
خيبر
المدينة
ينبع
الجحفة
رابغ
جدة
مكة
الطائف
تهامة
الليث
حلي
القنفذة
تربة
وادي تثليث
وادي الدواسر
عثر
أم الجثب
جيزان
صعدة
صنعاء
اللحية
المهجم
زبيد
تعز
المخا
عدن
شقراء
شبام
تريم
الرابية
قشن
رأس فرتك
ظفار
جزر كوريا موريا
خليج مصيرة
صحار
مسقط
قلهات
نزوى
خليج عمان
هرمز
سيراف
جزيرة قيس
جبيل
القطيف
الأحساء
هجر
يبرين
البصرة
عبادان
الأبلة
الأهواز
سابور
العراق
مقياس الرسم ١ : ٩٥٠٠٠٠٠

الجزيرة العربية

عصر الدول السنية من حوالى ٥٩١هـ إلى ١٢٩٠هـ / حوالى ١١٦٥ - ١٨٠٠م

أعمال التحرير
التي قام بها أئمة العمانيين
لإخراج البرتغاليين من بلادهم
وتحرير بحار العرب منهم
خليج عمان
مسقط
صور
بحر العرب
الهند
ديو
شيول
بومباي
جوا
مانجالور
قاليقوط
كنانور
كوشن
المحيط الهندي

الدولة العثمانية
بحر الخزر
البحر المتوسط
قبرص
الجزيرة
دمشق
الإسكندرية
بلاد الشام
القدس
طهران
قم
بغداد
العراق
القاهرة
القلزم
مصر
العقبة
إيران
البصرة
شيراز
كاظمة
مدائن صالح
الوجه
القطيف
بندرعباس
المدينة المنورة
ينبع
النوبة
الجزيرة العربية
رابغ
جدة
مكة
الطائف
السودان
سواكن
القنفذة
الربع الخالي
أبها
ظفار
جيزان
صعدة
مصوع
كمران
صنعاء
حوف
مهرة
الحديدة
زبيد
الشحر
تعز
المكلا
عدن
الحبشة
عصب
خليج عدن
سقطرى
زيلع
الصومال
عدوان البرتغاليين على البحار والبلاد الإسلامية
في القرن ١٠هـ/١٦م وتحريرها منهم على أيدي أئمة عمان
خطوط سير الحملات البرتغالية.
خط سير الحملة المصرية.
خطوط سير الحملات العثمانية.
إتجاهات أعمال التحرير العمانية.

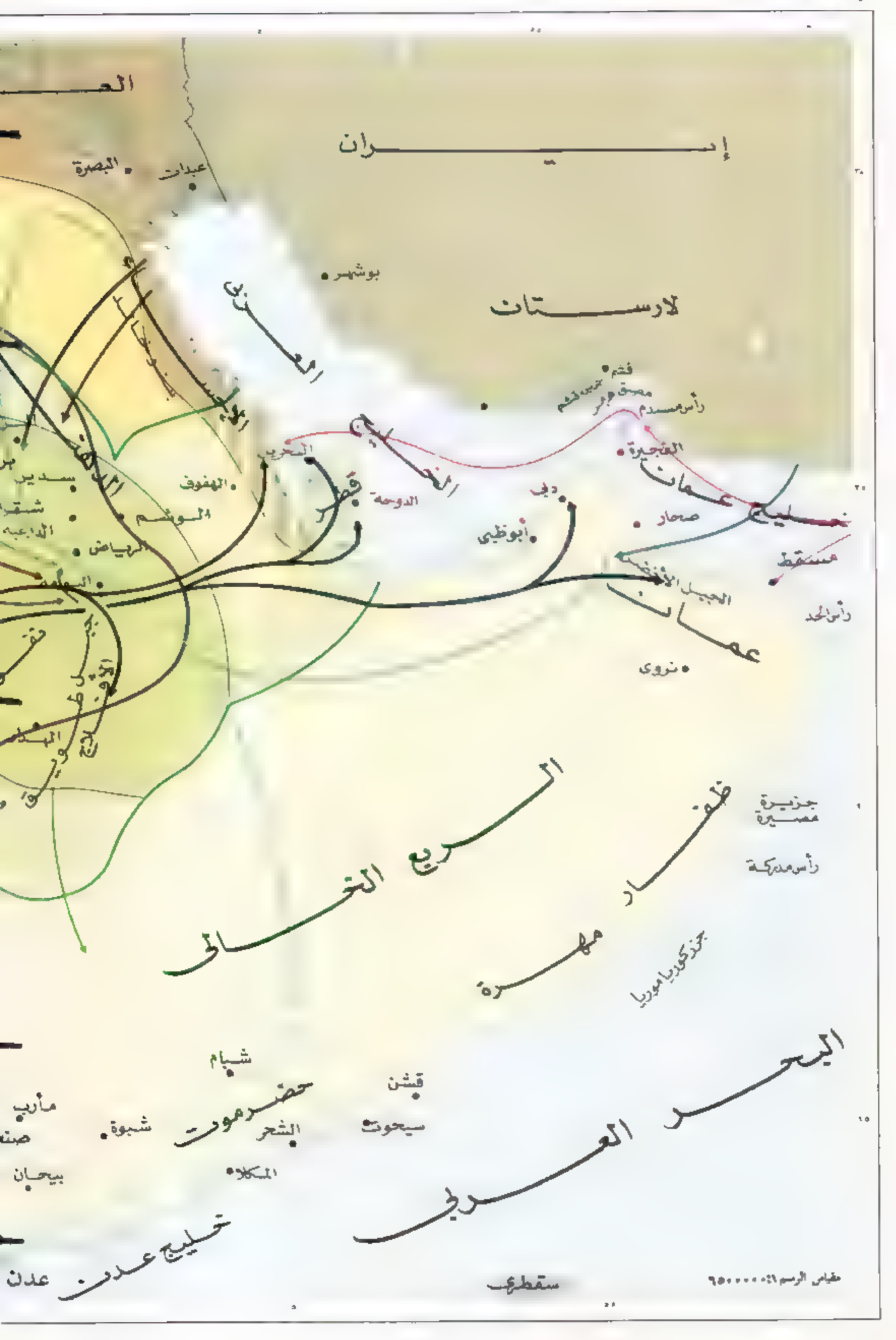
إيران
لارستان
البصرة
عبادان
بوشهر
قشم
رأس مسندم
الفجيرة
خليج عمان
صحار
مسقط
دبي
أبوظبي
الدوحة
قطر
البحرين
الهفوف
الرياض
عمان
الجبل الأخضر
رأس الحد
نزوى
جزيرة مصيرة
رأس مدركة
الربع الخالي
ظفار
مهرة
جزر كوريا موريا
البحر العربي
شبام
حضرموت
قشن
سيحوت
الشحر
المكلا
شبوة
مأرب
بيحان
خليج عدن
عدن
سقطرى
مقياس الرسم ١: ٩٥٠٠٠٠٠٠

البحر المتوسط
الاسكندرية
القدس
غزة
القاهرة
القلزم
البطراء
معان
تبوك
مصر
سكاكة
الجوف
النفود
العراق
ضبا
تيماء
حائل
جبل شمر
قنا
الوجه
مدائن صالح
العلا
القصير
خيبر
الرس
أسوان
ينبع
المدينة
تهامة
رابغ
عسفان
جدة
مكة
تربة
الطائف
الروضة
بلاد النوبة
الليث
بيشة
القنفذة
عسير
جيزان
صعدة
حرض
اليمن
الحديدة
زبيد
تعز
الحبشة
الدولة السعودية
الدور الأول والدور الثاني
وصول السعوديين إلى الحجاز وفتح مكة للمرة الأولى
إمارة بني رشيد في حائل والقصيم.
ترحل بني خالد في بلاد السعوديين.
ترحل الإنجليز في الخليج.
ترحل العربي في الساحل العربي للخليج.

إيـران
البصرة
الكويت
بوشهر
الخليج العربي
هرمز
مضيق هرمز
رأس مسندم
رأس الخيمة
أم القيوين
الشارقة
دبي
أبوظبي
خليج عمان
مسقط
عمان
قطر
المحرق
القطيف
العقير
الهفوف
الدلم
الحوطة
الربع الخالي
رأس مدركة
ظفار
جزر كوريا موريا
خليج القمر
البحر العربي
حضرموت
الشحر
المكلا
خليج عدن
مقياس الرسم ١: ٦٥٠٠٠٠٠

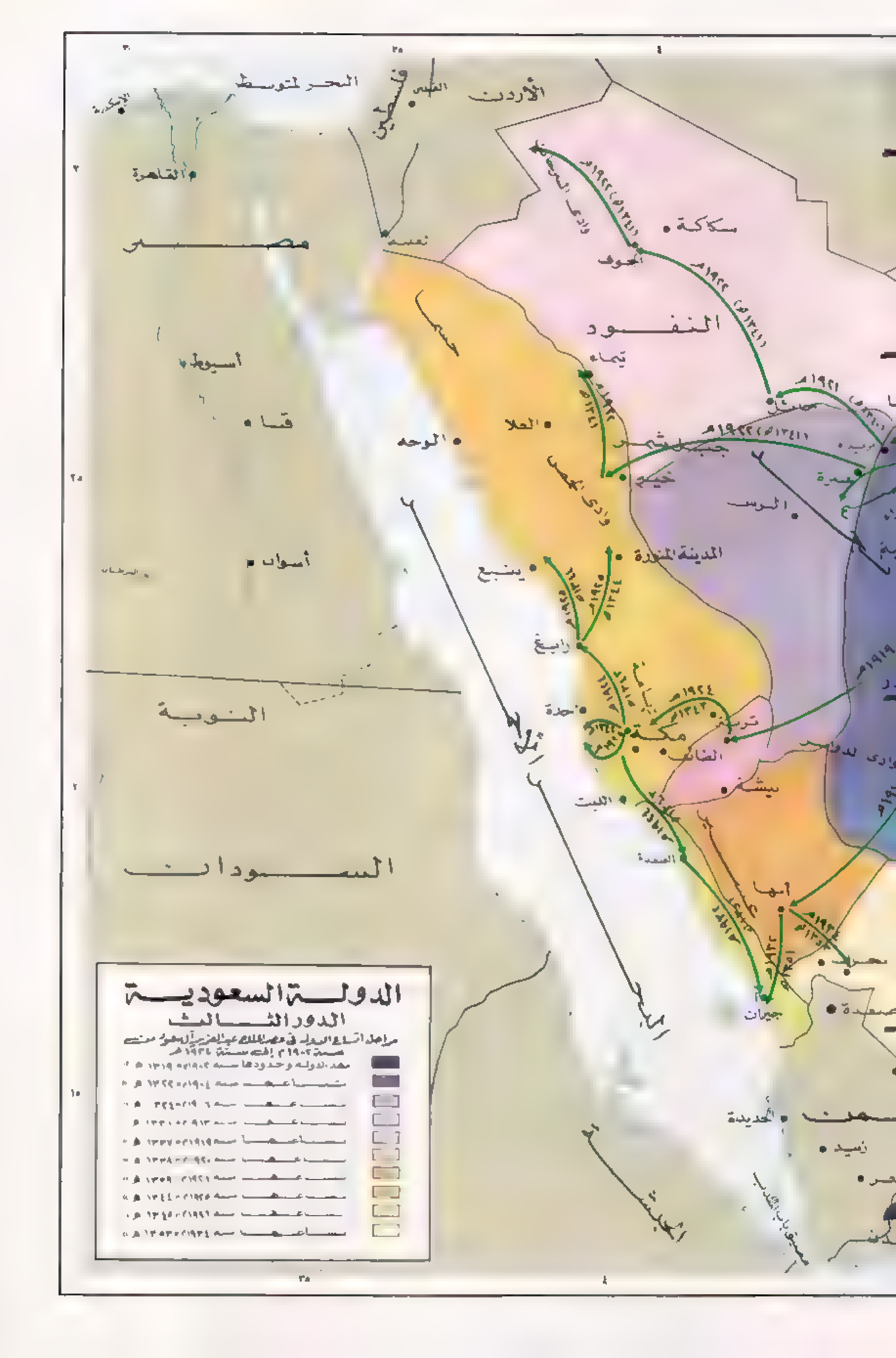

الدولة السعودية
الدور الثالث
مصر
السودان
النوبة
القاهرة
أسيوط
قنا
أسوان
الأردن
النفود
سكاكة
الجوف
تيماء
العلا
الوجه
خيبر
وادي الحمض
المدينة المنورة
ينبع
رابغ
جدة
مكة
الطائف
تربة
الليث
بيشة
أبها
جيزان
الحديدة
زبيد

عسير والمخلاف السليماني
خريطة مواقع جغرافية
مكة
جدة
الطائف
تربة
الليث
بيشة
القنفذة
حلي
خميس مشيط
أبها
البرك
القحمة
الشقيق
الدرب
المخلاف السليماني
الحسينية
أبو السعود
نجران
السبخة
جيزان
جزر فرسان
أبو عريش
الموسم
صعدة
سوق عيسى
عمران
اللحية
الزبيدية
صنعاء
اليمن
سليف
الحديدة
جزر دهلك
مصوع
مرسى فاطمة
مقياس الرسم ١ : ٢٥٠٠٠٠٠

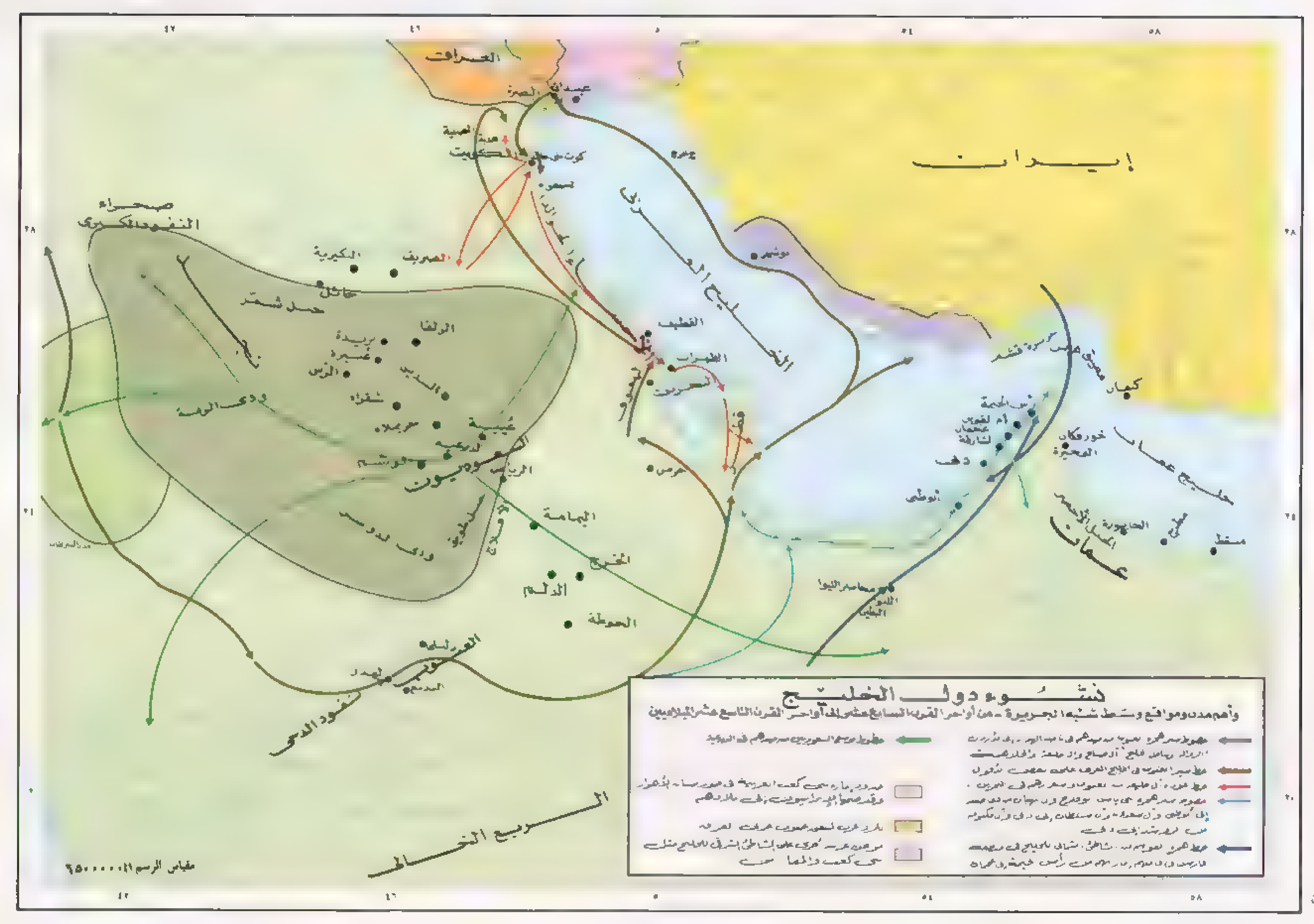
نشوء دول الخليج
وأهم مدن ومواقع وسط شبه الجزيرة من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلاديين
إيران
العراق
الخليج العربي
خليج عمان
عمان
الكويت
عبدان
الصرة
الجبيل
القطيف
الظهران
البحرين
الدوحة
بوشهر
كيان
جزيرة قشم
خوركفان
رأس الخيمة
أم القيوين
عجمان
الشارقة
دبي
أبوظبي
مسقط
صحار
الجابوية
الجبل الأخضر
صحراء النفود الكبرى
الكبرية
الجوف
حائل
جبل شمر
بريدة
عنيزة
الرس
الزلفا
السدير
شقراء
حريملاء
عيينة
الدرعية
الوشم
السعوديون
الرياض
اليمامة
الخرج
الدلم
الحوطة
وادي الدواسر
وادي الرمة
الربع الخالي
مقياس الرسم ١: ٩٥٠٠٠٠٠

شبه الجزيرة العربية

انقسمت شبه الجزيرة بطبيعتها جغرافياً إلى أقسام كبرى اتفق عليها كل الجغرافيين العرب وهى : الحجاز وتهامة ونجد والعروض والبحرين واليمن وعمان ، وقد قام الإسلام فى المدينة قاعدة الحجاز ، وتمكنت أمة المدينة تحت لواء الرسول ﷺ من توحيد شبه الجزيرة كله ، ولكن الرسول لم يقسم الجزيرة إلى أقسام إدارية لأنه لم ينظر إلى مسائل إدارية ، فإنه كان يريد أولاً وقبل كل شىء أن يعمق شعور العرب بالإسلام ، وينشئهم نشأة أخرى على الإسلام ووحدانيته وإنسانيته وأخوته التى تجعل المسلمين يعيشون ويتصرفون ويسوسون أنفسهم بروح الأمة الواحدة ، ولهذا فقد اتجه من أول الأمر إلى إقرار كل جماعة من العرب الذين دخلوا الإسلام فى موطنها الذى استقرت وعاشت فيه منذ الزمن البعيد ، وأن يعلمهم كيف يعيشون جنباً إلى جنب فى سلام أمة مؤمنة مسلمة ، وعلى هذه الحالة من الوحدة تركهم ولحق بالرفيق الأعلى تاركاً إياهم على هذه الحال من الأمن والسلام ، لولا نزعات المتنبئين التى شابت هذه الوحدة فى بعض بلاد تميم وجبل طىء واليمن

وعندما تولى أبو بكر الصديق تجرد للقضاء على حركات أولئك المتنبئين وماأعقبها من ارتداد العرب عن الوحدة الإسلامية وقد حسب بعضهم أن رابطة الإسلام كانت تربطهم إلى محمد ﷺ وحده ، فإذا مات فلا وحدة ، إذ إنهم كانوا فى هذا الوقت المبكر من تاريخهم بعيدين عن فهم معنى الوحدة السياسية إلى جانب الوحدة الدينية ، وتمكن أبو بكر على ماانحرف من التصدى مع جماعة المسلمين الصادقين للردة والقضاء عليها وإعادة العرب إلى الوحدة ، ثم آنس من بعض قبائلهم رغبة فى الجهاد ، واجتمع رأيه مع أصحابه من كبار الصحابة على توجيه العرب نحو الجهاد بعد عودة حملة أسامة بن زيد ، وبالفعل وجه الجيوش لفتح الشام والعراق .

وفيما كانت الجيوش تتجمع وجد أبو بكر ومن معه من الصحابة ضرورة تقسيم الجزيرة العربية إلى أقسام إدارية يمثل الدولة فيها عمال أو حكام سياسيون يستطيعون ضبط الأمور ، وإشعار العرب بالدولة وسلطانها بدلاً من المصدقين أى عمال الصدقات الذين كانوا يرسلون فى العصر النبوى لتعليم الناس قواعد الدين وتفقيههم فيه وإشعارهم بواجبهم حيال أمتهم الإسلامية والإشراف على اخراج الزكاة ، وأخذ نصيب الله والرسول وإرساله إلى المدينة ، ولهذا قسم أبو بكر شبه الجزيرة العربية إلى أقسام سياسية إدارية على أساس الأقسام الجغرافية المعروفة وجعل لكل قسم إدارى قاعدة سياسية يقيم فيها العامل ، وفى نفس الوقت اعتبر منازل القبائل الكبرى وكأنها أقسام إدارية يرسل إليها العمال والقضاة .

وفيما يلى بيان الأقسام الإدارية التى انقسم إليها شبه الجزيرة :

- الحجاز وقاعدته المدينة ، ويشمل شمال الحجاز إلى تبوك وأيلة ومشارف الشام .
- تهامة وقاعدتها مكة ، وتشمل تهامة الحجاز ، وتهامة عسير حتى مخلاف صعدة ، أما مخلاف نجران فهناك خلاف بين الجغرافيين فيما إذا كان داخلاً فى اليمن أو الحجاز .
- ويلى الحجاز وتهامة شرقاً بلاد نجد ثم بلاد العروض ثم البحرين .
- اليمن من صعدة إلى البحر وقاعدته صنعاء ، ويدخل فيه حضرموت .
- عمان وقاعدته نزوى ، ويدخل فيه إقليم ظفار ومايعرف اليوم بدولة الإمارات العربية .
- البحرين ويشمل الأحساء وساحل البحر إلى العراق وقاعدته القطيف .

ونلاحظ أن سلطان عامل الحجاز كان يمتد إلى منطقة عوالى نجد شرق السراة ، وكان عاملا مكة والمدينة مسئولين عن أعراب العوالى وجزء كبير من شرق نجد . وكذلك والى البحرين يمتد سلطانه داخل نجد ، ويحرص على مراقبة حركات الأعراب . ولم تكن تلك المهمة الصيفة التى وجهت إلى قبائل طىء وعبس وذبيان وهوازن وتميم قد قضت على الكثير من نزعات التمرد لدى تلك القبائل ، ثم إن الجانب الأكبر من شباب القبائل ورجالها تركوا مواطنهم ودخلوا فى جيوش الفتح واستقروا فى المهاجر ، ولحقت بهم الألوف من أهل قبائلهم ، فخلت نواحى العوالى ونجد ومنازل تميم والأزد من معظم سكانها ، ولم تعد بقادرة على القيام بحركات تمرد جادة يحسب لها حساب . أما حراسة طرق الحجاج فكان ولاة مكة والمدينة يحرسونها حراسة شديدة ، وإنما بدأت هذه الصحارى تتحرك من جديد فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى عندما تكاثر السكان من جديد ، وقلت الهجرة إلى الخارج مع قلة الخيرات فى الصحارى ، وإلى هذه الظروف ترجع قوة حركات القرامطة ومن إليهم .

وكان رسول الله ﷺ قد أقر جيفر وعبد ابنى الجلندى من الأزد على عمان بعد أن دخلا الإسلام ، فظل آل الجلندى فى ناحيتهم على الطاعة والسكون طوال العصرين الراشدى والأموى ، حتى إذا كانت سنة ١٣٤ هـ / ٧٥١ م خرج جلندى بن مسعود الأزدى على طاعة أبى العباس السفاح ، فأرسل إليه جيشاً يقوده خازم بن خزيمة فدخل نزوى عاصمة آل الجلندى ، وقتل الجلندى بن مسعود ، ولكن الجيش العباسى لم يكد ينصرف حتى أعلن خوارج عمان إمامتهم بزعامة محمد بن عبد الله بن أبى عفان الأزدى حوالى سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م وفى هذه الناحية « عمان » استمرت الإمامة الإباضية أربعة قرون .

ولم يصرف بنو العباس جهداً كبيراً للقضاء على هذه الإمامة ، وقد انقسمت تلك الإمامة إلى نزوانية ورستاقية ، ثم اختلف العمانيون وانقسموا إلى نزارية ويمانية ، وقد أيد العباسيون بنى سامة بن لؤى ، وظل الأمر على ذلك حتى أرسل القرامطة جيشاً اقتحم عمان فى ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م ولكن الإمامة الخارجية الإباضية عادت إلى القيام فى عمان مرة أخرى حوالى ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م واستمرت بعد ذلك رغم تدخل البويهيين بقيادة الحسن بن بويه حوالى ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ، لأن القرامطة عجزوا عن السيطرة على أهل عمان ، فاستمروا ملتفين حول أئمتهم ، وأول من قام منهم بعد الغزوة البويهية أبو محمد رضوان بن جعفر من ٣٤٠ إلى ٣٦٢ هـ واستمر يحكم حتى جاء بعده الخليل بن شاذان بن الصلت ابن مالك الخروصى ، وتعاقب بعد ذلك الأئمة .

الحجاز وتهامة .

على الرغم من عناية الأمويين والعباسيين الأول بالحجاز وتهامة فإن أهلهما لم ينسوا قط مافعله بهم الأمويون أيام عبد الملك بن مروان من حصار وقتل وهوان فلم تصف قلوبهم للخلفاء أبداً ، وأصبحوا أنصاراً لآل البيت ، يتحمسون لهم ويتوجعون معهم ، فكان الحجاز عاصمة مركز قلق مستمر للخلفاء الأمويين ثم العباسيين بعدهم ، لأن موقف هؤلاء الأمويين من آل البيت لم يكن أحسن من موقف الأمويين ، وأهم ثورات العلويين على بنى العباس فى العصر العباسى :

- ثورة محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م فى المدينة وقد قتل ، أما إبراهيم بن عبد الله أخو محمد النفس الزكية فقد قتل عند باخمرى على مقربة من الكوفة فى نفس العام .

- ثورة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وقد قتل الحسين فى معركة فخ قرب مكة سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م أيام الهادى . وفى نهاية القرن الثانى الهجرى قام فى الحجاز الحسين الأفطس (من العلويين) بتأييد دعوة محمد الديباج من

أولاد جعفر الصادق ، فى حين اتخذ محمد بن سليمان بن الحسن المدينة مركزاً له ودعا لنفسه ، وظلت المدينة ومكة بعد ذلك فى حالة ثورة صامتة على بنى العباس حتى قام بأمرها الأشراف : « الحسنيون فى مكة والحسينيون فى المدينة » .

ولكن هذه الحركات العلوية لم تسبب للعباسيين مخاوف تذكر على المدى الطويل ، لأنها لم تكن حركات تعتمد على قوة عسكرية يحسب لها حساب ، فسهل على قادة العباسيين وجنلهم المرتزقة القضاء عليها ، ولكنها فى مجموعها أساءت إلى سمعة العباسيين ، وبينت أنهم طلاب ملك وسلطان ولارياسة ، وأنهم فى هذا المجال ليسوا أفضل من الأمويين ، وعندما قام فى اليمن رجل علوى يسمى إبراهيم الجزار من سلالة جعفر الصادق فكر الخليفة المأمون فى أن يسترضى العلويين ، فتظاهر بتقريب الإمام على الرضا ، وزعم أنه يجعله ولى عهده لتنتقل الخلافة بذلك من بنى العباس إلى بنى على . ولم تجز هذه الحيلة على العلويين . وعلى أية حال فإن « على الرضا » لم يلبث أن توفى سنة ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م .

الدولة الزيادية فى اليمن .

ولكى يطمئن الخليفة المأمون من ناحية اليمن البعيد الذى يتخذه العلويون مجالاً لدعواتهم وهم مطمئنون من أن تنالهم يد الدولة اختار رجلاً من خيرة رجاله وأقدر ولاته هو محمد ابن زياد من نسل زياد بن أبيه سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م . وأقامه والياً على اليمن ، وجعل معه رجلاً من بقايا بنى أمية هو سليمان من أولاد هشام بن عبد الملك الأموى الشهير بالقدرة والدهاء حتى ضرب به المثل ، وقد اتخذ محمد بن زياد مدينة زبيد قاعدة له ، وتمكن هو وصاحبه بعد ذلك فعلاً من إقامة دولة سنية عباسية الولاء فى اليمن . وقد طال عمر هذه الدولة وتوارث رجالها الإمارة على مثال ماحصل بنو طاهر بن الحسين فى طبرستان ، ولكن الدولة الزيادية – بيناها على الخريطة الخاصة بدول اليمن – أخذت تتفكك بعد سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م وكانت هذه آخر الدول السنية التى قامت فى اليمن قبل سيادة دول الشيعة عليها . ولم تعد الدول السنية إلى اليمن إلا على أيدى الأيوبيين كما سترى . وقد أطلعت هذه الدولة الزيادية رجلاً من خيرة رجال الدول الذين عرفتهم اليمن فى تلك العصور ، وهو أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم ابتداء من سنة ٢٩١ – ٣٠٣ هـ / ٩٠٣ – ٩١٥ م وقد طال عمره حتى زاد على الثمانين ، وفى أيامه استطاع القرامطة بقيادة على بن الفضل القرمطى الاستيلاء على زبيد ، ولكن أبا الجيش عاد إلى ملكه واستمر بتشييد الطرق والمبانى التى اشتهر بها . وقد ضعفت الدولة الزيادية بعد وفاة أبى الجيش ، إذ تولى أمرها ابن مولى من موالى الأحباش يسمى الحسين بن سلامة ، وقد قضى على هذه الدولة الزيادية سعيد الأحول بن نجاح منشىء الدولة النجاحية فى زبيد أيضاً ، التى استمرت تحكم حتى سنة ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م عندما تمكن على بن محمد الصليحى الشيعى المعروف بالداعى من القضاء عليها وإقامة الدولة الصُّلَيْحية التى دخلت فى حلف وتبعية الفاطميين فى مصر . ولكن القضاء التام على دولة آل نجاح لم يتم إلا سنة ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م.وقد اتبع الخليفة الواثق سياسة حزم وعنف حيال القبائل العربية التى خلعت طاعة العباسيين فى وسط الجزيرة ، فأرسل قائده بغا الكبير سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م فأنزل ضربة أليمة بقبائل بنى سُلَيْم بن منصور التى عاثت فساداً فى الحجاز عند موضع يسمى بطن السر فى قلب الجزيرة ، ثم أقيم رجل من أهل عكاظ عاملاً على اليمامة وقلب الجزيرة وطريق الحج .

ومن أكبر الأعمال العمرانية فى شبه الجزيرة خلال العصر العباسى الأول إعادة بناء الحرم المكى ، وتوسيعه أيام الخليفة المهدى ، وأعيد كذلك بناء الحرم النبوى ، وفى أيام هارون الرشيد قامت زوجته السيدة زبيدة بإنشاء طريق الحج من العراق إلى مكة والمدينة إنشاءً جديداً . فعمرت الآبار وابتنت البرد ومنازل الحجيج ، وهذا هو العمل الجليل الذى يسمى طريق زبيدة .

وبعد وفاة الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م أخذ أمر الدولة العباسية ينحدر من سيىء إلى أسوأ ، وكثر الخارجون على الدولة فى نواحى الجزيرة العربية ، وندكر هنا أكبر أولئك الثوار الذين أثبتناهم على الخريطة .

(أ) قام اليَعْفُرِيون الذين ينسبون أنفسهم إلى التبابعة من ملوك حمير بإنشاء دولة فى هضاب اليمن واتخذوا صنعاء مقراً لهم ، وترى حدود دولتهم وتواريخها فى الخريطة الخاصة بدول اليمن .

(ب) استقلت حضرموت بنفسها وانسلخت عن دولة الخلافة وعن اليمن وعمان ، وقام بأمرها أهلها .

(جـ) وقام ثائر يسمى محمد الحسينى ينسب نفسه إلى الحسين بن على – رضى الله عنه – بحركة تمرد واسعة النطاق بين بنى عبد القيس فى البحرين والأحساء على شاطىء الخليج العربى .

(د) قامت ثورة حسنية فى مكة قادها إسماعيل بن يوسف الأخيضر مع أخيه محمد ابن يوسف الأخيضر ، وأنشأ دولة فى مكة لم تلبث أن نقلت قاعدتها إلى اليمامة ، ومدت حكمها إلى البحرين ، واستمرت تحكم فى ذلك النطاق الواسع حتى قضى عليها القرامطة .

خريطة ١٠٠

دول الشيعة وإمامات الخوارج فى جزيرة العرب
٢٦٦ – ٥٦٧ هـ / ٨٧٩ – ١١٧١ م

وخلال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى زادت حركات العلويين والإسماعيليين نشاطاً فى كل نواحى الدولة وجزيرة العرب خاصة ، واتخذوا فى اليمن وعلى ساحل الخليج العربى مراكز لنشاطهم .

ففى اليمن :

نشط دعاة الإسماعيلية وركزوا اهتمامهم فى اليمن فى صنعاء وزبيد سنة ٢٦٦ هـ / ٨٧٩ – ٨٨٠ م لفترة قصيرة .

وقامت الحرب بين الزيديين واليَعْفُريين من ناحية والإسماعيليين من ناحية أخرى . وظهر للإسماعيليين منافس جديد قوى عندما وصل إلى اليمن سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م أول كبار أئمة الزيدية وهو الهادى يحيى حفيد القاسم الرسى الحسنى المتوفى سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م وهو المشهور باسم الهادى إلى الحق .

وقد وضع هذا الإمام أسس دولة شيعية زيدية قريبة المذهب من السنة . ولم يلبث أمر الثائرين الإسماعيليين أن هوى أمامه ، وقام أمر الدولة الزيدية سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م وتفرق بقية الإسماعيلية طوائف مبعثرة فى نواحى اليمن ، واستمرت دولة الزيدية فى اليمن ، وعندما تضعف الدولة الزيدية سيعود الإسماعيليون إلى النشاط ، ولكن شهر بن حوشب كان قد وضع أسس الدعوة السرية الإسماعيلية ، واتخذ من قرية عدن لاعة مركزاً لأعماله .

القرامطـة :

حوالى سنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م دعا سعيد بن الحسن الجنّابى وابنه أبو طاهر سليمان بدعوة إسماعيلية قريبة من مذهب الفاطميين سميت بحركة القرامطة ، نسبة إلى رجل من أنشط دعاة الحركة يسمى حمدان قرمط ، وهناك شك كبير فى أصل تلك النسبة .

اتخذ القرامطة البحرين والأحساء مركزاً لأعمالهم ، فمن هذا المركز اجتاحوا البصرة حيث عجز العباسيون عن حمايتها وكذلك فعلوا بالكوفة . وفى سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م دخلوا مكة وأخذوا الحجر الأسود وفروا به إلى مركزهم فى الأحساء ، ثم استولوا على عمان بعد ذلك ، وسيطروا بذلك على معظم شرق الجزيرة العربية .

وهذا التوسع القرمطى فى الجزيرة هو الذى حفز الشريف أحمد بن عيسى الحسينى – من سلالة الحسين رضى الله عنه ، وهو أشهر آل البيت فى جنوب جزيرة العرب – إلى مبارحة البصرة خوفاً على نفسه إلى حضرموت ، حيث كانت السيادة لإباضية عمان .

وعندما استولى البويهيون على السلطة فى بغداد سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م أصبحت لهم السلطة العليا فى الدولة ومدوا سلطانهم إلى عمان ، ولكنهم لم يستطيعوا شيئاً حيال القرامطة .

وتوفى أبو طاهر القرمطى سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٤ م وأخذت موجة القرامطة تنحسر ، وتوسط الفاطميون لديهم فردوا الحجر الأسود إلى مكة سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م .

وبعد وفاة أبى طاهر القرمطى قام زعيمهم الجديد وهو الحسن بن الأعصم ابن أخى أبى طاهر بمهاجمة الشام بالاشتراك مع الفاطميين ، ولكن بعد استيلاء الفاطميين على بلاد الشام سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م انفصل عنهم القرامطة وأصبحوا أعداء لهم بعد أن كان القرامطة والفاطميون حلفاء ، وكلاهما شيعى إسماعيلى المذهب ويقال إن دعاتهم نشأوا أول الأمر معا وعملوا معاً ، ثم انفصلوا بعد ذلك وهاجم الحسن الأعصم دمشق واستولى عليها سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م وهاجم مصر واقترب من القاهرة مرتين ، ولكن الفاطميين ردوهم عنها فى المرتين .

وبعد وفاة الحسن الأعصم أصبحت رياسة القرامطة بيد مجلس من السادة ، ومع أن

الفاطميين تغلبوا عليهم عسكرياً ، إلا أنهم اضطروا إلى دفع إتاوة مالية لهم ، لكي يرتدوا إلى مراكزهم في الأحساء ويتوقفوا عن مهاجمة الشام .

كذلك فقد القرامطة عمان سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ - ٩٨٦ م وهاجمهم البويهيون في عقر دارهم في الأحساء بمعاونة زعيم من بني المنتفق الذين كانوا ينزلون جنوبي العراق ، ونهبوا القطيف ، وقبل نهاية القرن الرابع الهجري كانت حركة القرامطة قد انتهت عملياً .

شرفاء مكة والمدينة .

في منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي بدأت دولة الشرفاء الحسنيين في مكة . وهي دولة طال عمرها في حكم مكة - والحجاز كله أحياناً - عشرة قرون ، وقد مر هذا البيت الحسني بفترات من الصعود والهبوط ثم النهوض تحت أسماء الرجال الذين أنشئوا البيوت المتوالية التي توالت على الحكم من نفس تلك الشجرة الحسنية : « بنو فليتة - بنو قتادة - بنو أبي نمي محمد بن أبي سعد بن علي - بنو عجلان بن رميثة - بنو الحسن ابن عجلان - بنو محمد بن بركات ، عدة مرات ، بنو الحسن بن محمد - بنو محسن ابن الحسين بن الحسن - بنو بركات بن محمد - بنو سعيد بن زيد - بنو عبد الكريم ابن محمد - بنو مساعد بن سعيد - بنو عبد المطلب بن غالب - بنو محمد بن عبد المعين - بنو عبد الله بن محمد - بنو عون بن الرفيق بن محمد » ، انتهت أسرة شرفاء مكة من الحجاز سنة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م على يد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، وقد حاول أحد هؤلاء الشرفاء أن يعلن نفسه خليفة سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ولكن الفاطميين أصحاب السلطة الرسمية في الحجاز إذ ذاك حالوا بينه وبين ذلك ، وهذا الشريف هو محمد شكر بن أبي الفتوح الحسن صاحب الجازية المشهور في قصة تغريبة بني هلال .

وفي نفس الوقت - أي في القرن الرابع الهجري - قام نفر من الشرفاء الحسينيين ينحدرون من الحسين بن علي بإنشاء أسرة مالكة في المدينة عرفت باسم بني مهنا ظلت تحكم المدينة حتى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، عندما ضم أشراف مكة المدينة وبقية الحجاز إلى دولتهم .

اليمن .

في أوائل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي تمكن المعنيون من السيطرة على عدن وحضرموت ، وحل بنو نجاح من حضرموت محل بني زياد أصحاب تعز ، وكان أصل بني نجاح عبدا لبني زياد ، ثم حكم الصليحيون الذين أنشأ دولتهم أبو كامل علي ابن محمد الداعي الذي انحدر منه علي الصليحي الذي تنسب إليه الدولة ، وقامت هذه الدولة في صنعاء سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ - ١٠٣٨ م وامتدت إلى زبيد من ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م إلى ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م ومن ٤٧٥هـ / ١٠٨٢ م إلى ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م ، وانتهت سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م على أيدي الهمدانيين ، وتعتبر الدولة الصليحية أقوى الدول التي قامت في بلاد اليمن . وكانوا شيعة إسماعيلية وكانوا من أكبر أنصار الفاطميين في مصر .

وتمكن الصليحيون من إعادة المذهب الشيعي إلى اليمن ، وكانوا من قبيلة يام المسيطرة على صنعاء ، ثم دخلوا في طاعة الفاطميين وتحمسوا لهم . أما الزيديون فقد انحصر سلطانهم على صعدة ، وكانت دائماً قاعدة سلطانهم .

وفي سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م كان مجلس السادة القرامطة يسيطر على الأحساء ، وقد زارها الرحالة ناصري خسرو من ذلك العام وقرر ذلك

خريطة ١٠١

اليمن خريطة مواقع وأعلام جغرافية وتاريخية

خريطة ١٠٢

اليمن والدول التي قامت فيه خلال العصور الوسطى

انفردت اليمن من نهاية العصر الأموي بتاريخ خاص بها ، فقد قامت في نواحيه أو فيه كله دول كثيرة متوالية وبعض هذه الدول كان شيعياً وبعضها الآخر كان سنياً أو خارجياً . وقد تتسع أي دولة من هذه فتشمل اليمن كله أو معظمه ولكن المهم في هذا التقسيم هي القاعدة أي مهد الدولة . ونظراً لكثرة هذه الدول وتعاصرها في أحيان أخرى فقد قسمناها جملة إلى أقسام ثلاثة هي :

(أ) الدول التي تعاقبت في المنطقة الشمالية باليمن وتشمل نواحي صعدة ونجران :

(١) بنو زياد (شيعة) من (٢٠٣ هـ - ٣٩١ هـ / ٨١٨ م - ١٠٠٠ م) في صنعاء وصعدة ونجران وبيحان وحلي وتهامة .

(٢) بنو الرسّي الزيديون (شيعة) في صعدة وصنعاء للمرة الأولى من (٢٨٠ هـ - ٢٨٤ هـ / ٨٩٣ م - ٨٩٧ م) ثم طغت على هذه الدولة دول أخرى وظلت هي في مكانها حتى ظهرت مرة أخرى من (٥٩٣ هـ - ٦٩٧ هـ / ١١٩٦ م - ١٢٩٧ م) ومن هذا التاريخ الأخير أصبح اسمها الدولة القاسمية وهي دولة أئمة صنعاء وبخاصة ابتداء من (٩٧٣ هـ - ١٥٦٥ م / حتى سنة ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م)

(٣) بنو يعفر (شيعة) من (٢٢٥ هـ - ٣٩٣ هـ / ٨٣٩ م - ١٠٠٢ م) في صنعاء وجند .

(٤) الصليحيون الهمدانيون (شيعة) من (٤٣٩ هـ - ٥٣٢ هـ / ١٠٤٧ م - ١١٣٧ م) في صنعاء .

(٥-٦) دولة بني حاتم الهمدانيين (ومعهم بنو سليمان) من (٤٩٢ هـ - ٥٦٩ هـ / ١٠٩٨ م - ١١٧٣ م) في صنعاء وبلاد همدان .

(ب) دول قامت في الوسط وتشمل مناطق زبيد وتعز وماحولها .

(٧) دولة بني مهدي (خوارج) من (٥٥٣ هـ - ٥٥٨ هـ / ١١٥٨ م - ١١٦٢ م)

(٨) الزيديون (شيعة) من (٩١٢ هـ - ٩٦٥ هـ / ١٥٠٦ م - ١٥٥٨ م) .

(٩) دولة بني نجاح الأحباش (شيعة) من (٤٠٣ هـ - ٥٥٥ هـ / ١٠١٢ م - ١١٦٠ م) في زبيد والساحل .

(١٠) بنو طاهر (الدولة الطاهرية) (شيعة) من (٨٥٨ هـ / ٩٢٣ هـ / ١٤٥٤ م - ١٥٢٦ م) في تعز وزبيد .

(١١) بنو زريع الهمدانيون وهم آل بني المكرم في عدن (شيعة) من (٤٦٧ هـ - ٥٦٩ هـ / ١٠٧٤ م - ١١٧٣ م) في عدن .

(جـ) دول شملت كل اليمن .

(١٢) دولة بني أيوب في اليمن (٥٦٩ هـ - ٦٢٦ هـ / ١١٧٣ م - ١٢٢٨ م) .

(١٣) دولة بني رسول (سنيون) من (٦٢٦ هـ - ٨٥٨ هـ / ١٢٢٨ م - ١٤٥٤ م)

(١٤) دولة أئمة صنعاء (شيعة زيدية) وآخرهم الإمام البدر (١٠٠٠ هـ - ١٣٨٢ هـ / ١٥٩١ م ١٩٦٢ م)

خريطة ١٠٣

الجزيرة العربية

عصر الدول السنية

بعد أن استولى السلاجقة الأتراك على السلطان في بغداد بقيادة طغرل بك سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م وقضوا على بقايا البويهيين وخلصوا خلفاء بني العباس من سيطرة البويهيين الشيعيين تصدوا للقضاء على دويلات الشيعة في الجزيرة ، فأرسل طغرل بك قائدا من قوات السلاجقة يسمى قاورد كرة أرسلان ، وأصله من كرمان فأخضع عمان ، وفي ذلك الوقت كان أمر سيراف كأكبر ميناء على الساحل الشرقي للخليج قد مضى ، وحلت محلها جزيرة قيس أو جيش في مدخل الخليج ، وتمكن رجالها من السيطرة على عمان ، وتلاشى تقريباً أمر إمامة الإباضيين هناك . ففي أثناء القرون الثلاثة والنصف التي تلت ذلك ليس لدينا إلا اسم إمام أباضي واحد .

وتمكن الصليحيون أصحاب اليمن من انتزاع السيطرة على عدد من بني معن ، ومدوا سلطانهم إلى شماله نحو الحجاز حيث كان سلطان الشرفاء الموسويين في مكة قد ضعف ، وفي سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م تمكن علي بن محمد الصليحي من أن يتغلب على مكة .

رد الفعل السني ونهاية عصر سلطان الشيعة في الحجاز .

ولم يترك السلاجقة أمر الأراضي المقدسة تحت رحمة البيوت الشيعية الضعيفة ، فما زالوا حتى تمكنوا في عصر ملكهم طغرل بك ووزيره نظام الملك من السيطرة على الحجاز :

والعناية بالحرم الشريف فى مكة ، وكذلك أشرفوا على المسجد النبوى فى المدينة وتمت لهم السيطرة على الحجاز . واختار السلاجقة رجلاً سنياً من الشرفاء الموسويين هو أبو فليتة القاسم بن محمد بن جعفر وأقاموه على مكة والحجاز سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ومن ذلك الحين انتهى أمر الشيعة من الحجاز ، وأصبح بيت الشرفاء الموسويين هناك سنياً ، وتمكن السلاجقة كذلك من تأمين طريق الحج .

أما فى اليمن فقد ظل الصليحيون أتباع الفاطميين يحكمون حتى سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م ولكن نهايتهم الحقيقية كانت على أيدى الأيوبيين المصريين .

وحوالى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م كانت نهاية قرامطة الأحساء على يد قبيلة عربية من عبد القيس هى قبيلة بنى عيون .

ولم يعد للقرامطة أثر بعد ذلك فى الأحساء . أما الشيعة الذين بقوا فى الأحساء بعد ذلك فهم فرع من الشيعة الجعفريين من الاثنى عشرية يسمون الشيحيين

وكان المكرم أحمد بن على الصليحى ثانى أمراء الصليحيين على اليمن (٤٧٣ – ٤٨٤ هـ / ١٠٨٠ – ١٠٩١ م) قد قدم عدن وأحوازها صداقاً لسيدة جليلة من البيت الصليحى هى السيدة أروى بنت أحمد التى تعرف باسم السيدة الحرة ، وكانت من أشد النساء حماسة للفاطميين وبدلاً فى سبيل نصرتهم ، وبعد ذلك بقليل انتقلت عدن من أيدى بنى معن إلى بنى زريع الذين أرسلوا إلى عدن أكبر دعاتهم وهو شهر بن حوشب المعروف بمنصور اليمن وصاحبه على بن الفضل ، وقد تمكن على بن الفضل من احتلال صنعاء ، أما عدن فقد ظلت فى يد بنى زريع وهم بنو الكرم اليامى الإسماعيليون ، وكانوا كالصليحيين شيعة إسماعيلية من قبيلة يام ، وقد حكم الزريعيون عدن نحو قرن من الزمان ٤٧٦ – ٥٦٩ هـ / ١٠٨٣ – ١١٧٣ م وبعد أن صارت عدن للسيدة الحرة زاد سلطان هذه السيدة حتى سماها الخليفة الفاطمى سيدة ملوك اليمن ، وكان المكرم زوجها قد ترك كل السلطان فى يدها ، فأكثرت من أعمال الخير وأنفقت فى ذلك أموالاً طائلة ، وعندما توفيت سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م كان ذلك بمثابة النهاية لسلطان الصليحيين فى اليمن .

وبعد موت الخليفة الفاطمى المستنصر سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م انقسم الفاطميون إلى فرقتين : النزارية وهم أنصار نزار الابن الأكبر للمستنصر ، وهؤلاء هم أجداد الإسماعيلية الحشاشين أصحاب قلعة ألَمُوت ، وهم كذلك أجداد الإسماعيلية المعروفين ، وتعتبر إسماعيلية أغاخان فرعا منهم . والفرقة الثانية من الفاطميين هى المستعلية التى ناصرت المستعلى أحمد بن المستنصر ، وقد أيدت السيدة الحرة المستعلى أحمد وفرقته من الإسماعيلية .

وفى نجران والجوف من اليمن كان يحكم أحمد بن سليمان وهو من أقوى الأئمة الزيديين ، وقد تمكن من احتلال صنعاء ومد نفوذه شمالاً حتى ينبع

جزيرة العرب فى العصر الأيوبى .

فى سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م وضع صلاح الدين نهاية الدولة الفاطمية ، وعاد بمصر إلى السنة والخلافة العباسية ، ثم قضى على مؤامرة قصدت إعادة الدولة الفاطمية كان من بين زعمائها الشاعر عمارة بن على الحكمى اليمنى وقد أعدم سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م وعقب ذلك انتقل مركز الفرقة المستعلية من الشيعة الإسماعيلية الفاطميين إلى اليمن حيث ظلت قائمة حتى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، ثم انتقلت إلى الهند وانقسمت بعد ذلك إلى فرقتين هى الداودية فى الهند والسليمانية فى جنوب اليمن .

جزيرة العرب فى نهاية العصور الوسطى ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م من نهاية القرن الثانى عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

العودة إلى السنة .

كان انتقال السلطان من الفاطميين إلى الأيوبيين فى مصر معناه عودة مصر إلى السنة وزوال سلطان الجماعات الإسماعيلية فى اليمن ، ونتيجة لذلك فقد اهتم صلاح الدين بالاستيلاء على اليمن وتثبيت أقدام السلطان الأيوبى فيه ، ولهذا أرسل أخاه توران شاه ليحتل هذه البلاد سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م فقضى على آخر الحكام من آل مهدى فى زبيد ، وأقام مكانه سلطاناً أيوبياً ، وخلال نصف القرن التالى تعاقب على حكومة اليمن رجال من البيت الأيوبى ، ومد الأيوبيون سلطانهم على حضرموت ولكنهم لم يحرصوا على أن تكون هذه الناحية جزءاً أصيلاً من دولتهم فى اليمن بل اكتفوا بالطاعة من حكامها .

وحوالى سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٧ م تحرك الشريف حسن– هو أبو عزيز قتادة بن إدريس المطاعن وكان سنياً – من ينبع إلى مكة وأنشأ فيها دولة من دول شرفاء الحجاز ، ولكنه توفى سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م وخلفه ابنه الحسن بن قتادة ، وكان بنو قتادة أسرة قوية من أسر شرفاء الحجاز ، وبهم تبدأ بيوت الشرفاء الحسنيين السنيين ، وكان عزمه أن يقيم فى الحجاز دولة قوية ذات سلطان فعلى .

وفى سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م أناب الملك المسعود يوسف بن الكامل ابن الملك الكامل الأيوبى آخر حكام اليمن من الأيوبيين صاحب السكة نور الدين عمر بن على بن رسول المحسنى عنه فى حكم اليمن تحت السيادة الأيوبية . وهذا هو مؤسس أسرة بنى رسول أو الرسوليين الذين طال حكمهم فى اليمن « ٦٢٦ – ٨٥٨ هـ / ١٢٢٩ – ١٤٥٤ م » .

فى شرق الجزيرة .

وفى شرق الجزيرة قام الصلغورى أتابك إقليم فارس – وهو صديق الشاعر الفارسى المشهور سعدى الشيرازى – بضم عدد من جزر الخليج إلى ولايته ، وعبر إلى الضفة العربية « الغربية » من الخليج ، وضم كل إقليم البحرين والأحساء إلى سلطانه . ونتيجة لهذا تلاشى سلطان بنى عيون من البحرين والأحساء خاصة وقد نهضت لمنافستهم قبيلة عامر بن عقيل التى أنشأت أسرة حاكمة عربية جديدة فى المنطقة هى أسرة بنى عصفور بتأييد من ذلك الأتابك .

بنو رسول فى اليمن .

وعندما ضعف السلطان الأيوبى فى اليمن أعلن نور الدين بن على بن رسول نفسه حاكماً مستقلاً على اليمن ، وهكذا حل بنو رسول محل الأيوبيين فى حكم اليمن ، ومدوا سلطانهم على تعز وزبيد من سنة ٦٢٦ إلى ٨٥٨ هـ / ١٢٢٨ – ١٤٥٤ م وأثبتوا أنهم من أعظم الأسر التى توالت على حكم اليمن فى العصور الوسطى ، وقد اشتهر أمر بنى رسول بالمهارة السياسية والاهتمام بشئون الحضارة كالمنشآت المعمارية وشق الطرق ، وتوافد عليهم الشعراء بل كان بعضهم شعراء . وتوافدت عليهم رسل الملوك من بلاد بعيدة مثل الصين ، ومدوا سلطانهم على الحجاز فى أيام أميرهم الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول الذى امتدت دولته من ٦٢٦ إلى ٦٤٧ هـ / ١٢٢٩ – ١٢٤٩ م من مكة إلى حضرموت .

وبعد أن استقر السلطان فى مصر للسلطان الظاهر بيبرس المملوكي مد سلطانه إلى الحجاز وأقام عليه أحد الشرفاء الحسنيين ليحكم باسم السلطنة المملوكية وهو الشريف أبو نمى محمد الأول « ٦٥٢ – ٧٠١ هـ / ١٢٥٤ – ١٣٠١ م » وكان بنو نمى من سلائل أسرة بنى قتادة الحسنى .

وفى ذلك الوقت نقلت مدينة هرمز إلى جزيرة مقابلة لها فى الخليج ، وكان هذا النقل سبباً فى ظهور أهمية هرمز الجديدة التى حلت محل جزيرة قيس ، وأصبحت أكبر المراكز التجارية البحرية فى الخليج .

فى الحجاز .

ولم يستطع بنو نمى المحافظة على الأمن فى الحجاز ، وعجزوا عن تأمين طرق الحج ، فتدخل المماليك فى أمور الحجاز فى أيام الشريف عجلان بن رميثة « ٧٤٦ – ٧٧٧ هـ / ١٣٤٦ – ١٣٧٥ م » وتمكنوا من هزيمة بنى رسول اليمنيين الذين طمعوا فى الحجاز ، وأخذوا أميرهم أسيراً إلى القاهرة فى معركة قرب عرفة سنة ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م ولكن بنى رسول استمروا يسيطرون على اليمن وطرق التجارة البحرية فى البحر الأحمر .

فى عمان وحضرموت .

وفى أوائل القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى عاد الإباضيون فى عمان إلى تنظيم أنفسهم وانتخاب أئمتهم ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى أبى الحسن عبد الله بن خاصى ابن عامر الأزدى المتوفى سنة ٨٤٦ هـ / ١٤٤٢ م فهو الذى استطاع أن يعيد الإمامة الإباضية من نزوى إلى نصابها سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥ م ، وكانت لإمامته عاصمة ثانية هى بهلاء وخلفه عمر بن خطاب بن شاذان بن صلت اليحمدى سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م ، واستمر الأئمة يتوالون من دواخل عمان مائة وخمسين سنة ، وكان آخر أئمة هذا الدور من أدوار الإمامة الإباضية فى عمان عبد الله بن محمد القتانى وبعده حاول بركات ابن محمد بن إسماعيل أن يقيم الدولة ، ولكنه لم يستطع إذ إنه توفى سنة ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م .

وفى نفس الوقت قام شيوخ بنى كثير بزعامة على بن عمر الكثير ببسط سلطانهم على حضرموت وظفار . واهتم بنو كثير بإرسال الدعاة إلى الصومال للدعوة إلى الإسلام .

خريطة ١٠٤

عدوان البرتغاليين على البحار والبلاد الإسلامية
فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى
وتحريرها منهم على أيدى أئمة عمان

فى سنة ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤ – ١٦٢٥ م تولت إمامة عمان أسرة بنى يعرب الأئمة وقاعدتهم الرستاق وأولهم ناصر بن مرشد بن سلطان بن مالك بن أبى العرب ، ويلقب الواحد من أئمة هذه الأسرة يلقب باليعربى ، وأحياناً كانت قاعدتهم تنتقل إلى جبرين والحزم ، وكانت هذه الأسرة مفككة ، والتنافس بين رجالها على الإمامة شديداً ، وفى أيام ثانيهم يعرب بن باليعرب بن سلطان (١١٣٤ – ١١٥٠ هـ / ١٧٢١ – ١٧٣٧ م) وقع نزاع شديد بينه وبين رجل من أبناء عمومته يسمى سيف بن سلطان ، ومال الناس إلى هذا الأخير وأقاموه إماماً فى رمضان ١١٤٠ هـ / ١٧٢٧ م واشتدت الحرب بين الجانبين .

وفى تلك الظروف وصل البرتغاليون إلى ماليندى على شاطىء إفريقية الشرقية – وكانت مركزاً كبيراً من مراكز التجارة العربية البحرية – بعد أن طافوا برأس الرجاء الصالح ، وذلك فى عصر نهضتهم الملاحية التجارية الكبيرة فى أيام أسرة آل أفيس ، وكان الذى وصل من ملاحى البرتغال إلى ماليندى فاسكو داجاما ، ومن هناك وصل إلى قاليقوط على ساحل الهند الغربى ، وليس من المؤكد أن الذى دلهم على الطريق البحرى أحمد بن ماجد الملاح العربى الكبير لأن هذا الخبر ورد فى كتاب واحد هو « البرق اليمانى فى الفتح العثمانى » للنهروالى ، وكلامه بهذا الخصوص غير موثوق به ، ولم يرد لأحمد بن ماجد ذكر فى الحوليات أو الوثائق البحرية البرتغالية .

وقد بهرت التجارة العربية أنظار البرتغاليين فأرسلوا أساطيل بحرية قوية يقودها ربابنة ذوو خبرة ومعرفة بشئون القتال البحرى ، وكانت سفنهم كبيرة قوية مسلحة بالمدافع تسهل عليهم تحطيم السفن العربية التجارية الصغيرة ، فتشجعوا فاحتلوا ماليندى وسقطرى وكوتشين وجعلوها قلاعاً حصينة ، ومن هذه المراكز اجتاحوا الأساطيل العربية البحرية ، وضربوا السواحل بالمدافع وأنشئوا إمبراطورية تجارية بحرية برتغالية ، ونشروا الرعب فى كل البحار العربية ، واهتم ملوك البرتغال بالتجارة فى بحار آسيا ، وكان الذى أنشأ تلك الإمبراطورية التجارية البرتغالية فى بحار العرب فى غرب آسيا هو بدرو الفاريس دا كابرال Pedro Alvarez da Cobral ، ولكن أول نائب للملك كان فرانسيسكودا الميدا Francisco da Almeida ، واحتل البرتغاليون مسقط ومطرح وصحار وصور ، ودخلوا الخليج واحتلوا هرمز وجزيرة قيس ووصلوا إلى سيراف وذلك بفضل البارود الذى كانوا يضربون به سفن العرب ، واشتد جشعهم وتعصبهم الدينى فاجتاحوا كل سواحل المسلمين ، ولم يكن سيف بن سلطان إمام عمان يعرف حقيقة الشر الذى ينطوى عليه البرتغاليون فاستعان بهم على منافسه يعرب بن باليعرب بن سلطان ، وبذلك سهل لهم أمر دخول عمان ، ولم يتبين سوء ما فعل إلا بعد فوات الأوان ، واستمر سلطان البرتغاليين دون منافس حتى تولى أمر عمان الإمام سلطان بن مرشد سنة ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م وكان الفرس الصفويون قد دخلوا المعركة وحالفوا العمانيين لكى يطردوا البرتغاليين من المواقع الإيرانية التى استولوا عليها مثل جاسك وهرمز .

وطال الصراع بين الجانبين ، فلما تولى الإمامة سلطان بن مرشد اليعربى جمع أهل قومه وهاجم البرتغاليين فى معاقلهم واستطاع استردادها واحدة واحدة ، وواصل الصراع رجل من رجاله هو أحمد بن سعيد ، وتمكن اليعاربة فى النهاية من إخراج البرتغاليين من حصون مسقط ومطرح وصور والروستاق وصحار وغيرها من بلاد عمان ، وعقب ذلك انتقلت الإمامة إلى بيت أحمد بن سعيد مؤسس إمامة البو سعيديين سنة ١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م وبهم يبدأ عصر جديد من عصور تاريخ عمان .

وقبل ذلك بما يزيد على قرنين كان البرتغاليون قد احتلوا عدن بعد أن ضربوها بالمدافع ، ثم دخلوا البحر الأحمر واحتلوا جزر كمران ، وهددوا بالتوغل فى البحر الأحمر للعدوان على الأماكن المقدسة الإسلامية ، وحاولوا محالفة ملوك الحبشة النصارى ، فتحرك السلطان الغورى المملوكى ، وكانت له السيادة على الحجاز ، فأرسل أسطولاً يقوده قائد من قواده يسمى الأمير حسين الكردى فاحتل جزيرة كمران ونزل بقواته فى الحديدة ، ومن هناك اتجه بأسطوله إلى الهند لكى ينازل البرتغاليين فى البحر ، ووصل إلى مياه ديو جنوب شبه جزيرة الكجرات ، وهناك التقى بالأسطول البرتغالى ولكنه منى بالهزيمة وتحطم أسطوله فى معركة بحرية سنة ١٥٠٩ م .

وفى سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م غزا الأتراك العثمانيون سلطنة مصر والشام بعد أن هزموا السلطان قنصوه الغورى فى معركة مارج دابق شمال حلب ، ثم تقدموا ودخلوا مصر وهزموا السلطان طومان باى آخر سلاطين المماليك فى معركة الريدانية وهى العباسية شمال شرق القاهرة ، وقبضوا على السلطان طومان باى وأعدموه وأصبحت مصر ولاية عثمانية .

وورث العثمانيون المسئولية عن الحجاز والبحر الأحمر ، وضموا الحجاز إلى دولتهم وتجردوا لحرب البرتغاليين ، وبدأ تدخلهم الأول فى اليمن وكان ذلك سنة ٩٤٣ هـ / ١٥٣٦ م ونزل الأتراك عدن وتقدموا فاستولوا على زبيد التى كانت داخلة فى سلطان الدولة المملوكية ، وجعلوا اليمن ولاية عثمانية ، وأول حكامهم هناك هو بيرام بك الذى أرسل أحد قواده وهو سليمان باشا فدخل تعز والحديدة وعدن وبقية الساحل اليمنى وبدأ تاريخ الأتراك العثمانيين فى اليمن ، وأراد السلطان العثمانى القيام بما عجز عنه المماليك فأرسل أسطولاً من عدن إلى ساحل الهند ، ولكنه هزم فى معركة بحرية ، ونزل القبطان التركى بساحل الهند ووصل إلى الآستانة بطريق البر حيث أعدمه السلطان .

الدولة الزيدية فى اليمن .

(انظر الخريطة ١٠٢) .

وحوالى سنة ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ – ١٥٠٧ م قامت أسرة زيدية جديدة بالحكم فى اليمن على رأسها الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين وتلك هى أسرة الزيديين الطويلة العمر التى ظلت تحكم اليمن من عاصمتها صنعاء حتى سنة ١٩٦٢ م وخلال ذلك العصر الطويل حرص الزيديون على أن يجعلوا عاصمتهم فى صنعاء ما أمكن ، وفى ذلك الوقت انتقلت زراعة البن من الحبشة إلى اليمن ، ونجحت هناك نجاحاً عظيماً .

ولم يتردد بدر أبو الطويرق من آل كثير أصحاب حضرموت (٩٢٢ – ٩٧٦ هـ / ١٥١٦ – ١٥٦٨ م) فى الدخول فى طاعة السلطان العثمانى بعد استيلاء العثمانيين على الحجاز ، وكان سلطان ذلك الرجل يمتد من أرض العوالق فى حضرموت إلى سيحوت ، ولكنه لقى شقاء كثيراً قبل موته وسجن ومات فى سجنه ولم ينفعه الأتراك العثمانيون فى شىء .

وكان السلطان سليم الأول ياووظ فاتح مصر قد أخذ لقب خادم الحرمين سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م ومد سلطانه على كل الحجاز ، واتسع سلطان الأتراك فى جزيرة العرب أيام السلطان سليمان القانونى (٩٢٦ – ٩٧٤ هـ / ١٥٢٠ – ١٥٦٦ م) وقامت بقايا البرتغاليين – بالاتفاق مع صاحب هرمز الإيرانى – بمهاجمة البحرين ، وفى الصراع لقى حاكم مسقط مصرعه ، ونتيجة لذلك اجتهد الأتراك فى تقوية مركزهم فى البحر الأحمر ثم فى خليج البصرة ، وفى العراق تلقى الوالى التركى المملوك سليمان باشا طاعة أميرى القطيف والبحرين ، وأقيم حاكم عثمانى فى الأحساء تابعاً لوالى بغداد والبصرة بعد أن انتزع الأتراك العثمانيون العراق من أيدى الفرس وأعادوه إلى المجموعة العربية كما سبق أن ذكرنا .

وخلال ستين سنة تقريباً بعد سنة ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م لم يكن فى عمان أئمة إباضية ، بل إن السلطة كانت بيد النبهانيين سادة الجبال الأقوياء فى عمان ، وكانت قاعدتهم فى مقنيات أو بهلاء ، وقد حكموا عمان من سنة ٥٤٩ – ٨٠٩ هـ / ١١٥٤ – ١٤٠٦ م وكانت السلطة العثمانية قد أخذت فى الضعف بعد سليمان القانونى وتحالف عليها أعداؤها فى أوروبا ، وانتهز الشاه عباس الصفوى الفرصة فاحتل البحرين سنة ١٠١٦ هـ / ١٦٠٧ م .

وفى اليمن قاوم الزيدية سلطان العثمانيين ، بل تمكن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد مؤسس الدولة القاسمية – وهى استمرار لدولة الأئمة الزيدية الذين ينتسبون إلى الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن زيد – من التصدى للأتراك العثمانيين ووقع الصراع بينه وبينهم .

وفى سنة ١٠١٣ هـ / ١٦٠٤ م ترك الوزير حسن التركى اليمن وعاد إلى الآستانة ، وخلفه الأمير سنان والياً تركيا على اليمن ، وسار الأتراك من صعدة إلى جبل برط لمحاربة الإمام القاسم ، ولكنه لم يستطع التغلب عليه ، ثم وقع صلح بين الأتراك والزيديين

وفى سنة ١٠٢٢ هـ / ١٦١٣ م عُزل جعفر باشا والى اليمن وعين مكانه إبراهيم باشا ، وعادت الحرب بين الأتراك والأئمة الزيدية .

وفى سنة ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦ م عرض الوالى التركى جعفر باشا فى ولايته الثانية الصلح على الإمام القاسم ، وتم ذلك ، ولم يدم هذا الصلح إلا سنة ، ولكن الإمام القاسم تمكن من استعادة كثير من البلاد من أيدى الأتراك .

وفى سنة ١٠٢٩ هـ / ١٦١٩ م تولى الحكم فى اليمن الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم الذى استطاع استعادة لحج وعدن من الأتراك ، وواصل الأئمة الزيدية الصراع مع الأتراك العثمانيين حتى أخرجوهم من اليمن ، وفتحوا حضرموت واستولوا على ظفار ، وجمعوا كل بلاد اليمن تحت سلطانهم .

وفى سنة ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م تمكن الإمام الزيدى المهدى محمد بن أحمد بن الحسن ابن القاسم من الاستيلاء على زيلع قرب الشاطىء الغربى للبحر الأحمر .

خريطة ١٠٥

الدولـة الســعودية

الدور الأول والدور الثانى

خلال القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى انتقل مانع بن ربيعة المريدى – جد آل سعود – بقبيلته من مواطنه قرب القطيف واستقر بهم فى وادى حنيفة وآل سعود من قبيلة عنزة إحدى قبائل ربيعة ، وعنزة من أكثر القبائل العربية عدداً . وقد شهد هذا العصر بالذات حركة تنقل وهجرة واسعة النطاق داخل شبه الجزيرة ، وقد امتدت هذه الحركات القبلية إلى آخر القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى ، وقد تكلم عنها الرحالة الإنجليزى تشارلز داوتى فى وصف رحلته داخل الجزيرة العربية المسمى Charles Doughty , Travels in Arabia Deserta وقد قام بها خلال القرن التاسع عشر الميلادى .

فقد شهدت هذه الحقبة استقرار بنى خالد فى الاحساء ، وهجرة العتوب إلى الأردن وساحل الخليج ، وهجرة بنى ياس والقواسم من داخل عمان إلى ساحل مايعرف اليوم بالإمارات العربية – كما سنرى فى الفقرة والخريطة الخاصتين بقيام دول الخليج – وفى ذلك العصر تحرك اليعاربة من مواطنهم حول الرستاق فى عمان وأنشئوا دولتهم العاربة التى ذكرناها ، وبعد ذلك بقليل قام أحمد بن سعيد بن أحمد بن محمد البوسعيدى دولة البوسعيديين ، وفى سنة ١١٤٠ هـ / ١٧٢٧ م انفصل فضل بن العفيل السلامى بلحج وأنشأ فيها سلطنة مستقلة عن الزيديين ، وغير هؤلاء كثيرون ، هذا إلى جانب دول الخليج التى سنرى فيما بعد أنها قامت فى ذلك الحين ، وقد ذهب داوتى إلى أن سبب هذا التحرك البشرى الواسع المدى موجة طويلة من الجفاف انتابت شبه الجزيرة من منتصف القرن العاشر الهجرى ثم توقفت بعد ذلك وعادت ، وهطلت أمطار وفيرة فى معظم نواحى شبه الجزيرة من بدايات القرن الثالث عشر الهجرى . ومن كبريات القبائل التى ظهرت فى منتصف القرن الثالث عشر بنو رشيد ، وأصلهم من جبل شمر الذى كان يسمى طيىء من جبلين معروفين هما جبلا أجأ وسلمى ، ويقال إنهم من نواحى تيماء تحركوا إلى جبل طيىء ثم تقدموا نحو القصيم وشجعهم العثمانيون من البصرة على الاستقرار فى القصيم واتخاذ حائل عاصمة لهم ، وأولهم عبد الله بن على بن رشيد الذى انتهز فرصة استقلال باشا البصرة العثمانى بولاية بغداد وثبت أقدام قبيلته فى تلك الناحية ، ولما انتهى استقلال ولاية البصرة استقل بنو رشيد بأنفسهم فى القصيم .

ونتيجة للرخاء النسبى الذى ساد بلاد نجد فى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى وقع نزاع شديد بين القبائل التى استقرت فى مراكز العمران هناك ، الرياض واليمامة ومنفوحة والدرعية التى استقر فيها آل سعود ونهضوا بها نهضة واسعة ، والعيينة وماجاورها ، وقد استقر فيها آل معمر ، وكانوا أول الأمر تابعين لأمراء الأحساء وظلوا فيها حتى حل محلهم آل سعود . وكان فى نجد شيوخ آخرون ستشير إليهم فيما بعد ، وكانوا فى حرب دائمة بعضهم مع بعض مثل آل عجلان وآل مهنا وآل على .

وكانت الحجاز وتهامة دولة مستقلة تحت السلطان العثمانى يحكمها الشرفاء الموسويون ، وفى منطقة عسير قامت دولة آل عايض ودولة الأشراف الأدارسة الذين ستتكلم عنهم وكانت الحروب مستمرة بينهم وبين الزيدية أئمة صنعاء وآل عزال أصحاب نجران والأتراك العثمانيين الذين كانوا يحكمون غربى اليمن

وفى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى تولى إمارة الدرعية الأمير سعود بن محمد بن مقرن الذى يعتبر مؤسس الدولة السعودية وإليه تنسب وبقيام هذه الدولة بدأ فى تاريخ الجزيرة كله عصر جديد ، فللمرة الأولى من قرون يقوم فى الجزيرة بيت عربى أصيل من أهل الحكم القادرين وأهل الإيمان الصادق ، يتطلع أفراده إلى توحيد الجزيرة حول لواء الإسلام الصافى البعيد عن الجهل والبدع والممارسات التى تنشأ عن الجهل والفقر والظلم .

وفى سنة ١١١٥ هـ / ١٧٠٣ م ولد فى العيينة إلى الشمال الغربى من الرياض محمد ابن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على بن راشد التميمى النجدى ، وكان أبوه قاضى هذا البلد ، فنشأ فى كنفه وتعلم على يديه ، وكان بطبعه ذكياً طموحاً متطلعاً إلى العمل العظيم ، وقد ذهب بعد أن درس على أبيه إلى المدينة المنورة حيث درس على شيوخها ثم مضى إلى الأحساء ودرس على فقهائها ، وتنبه أثناء رحلاته إلى ماوصل إليه المسلمون فى الجزيرة وخارجها من تأخر وفقر بسبب ابتعادهم عن العالم وتمسكهم بخرافات وعادات بعيدة عن الإسلام ، ومال منذ البداية إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل كما دعا إليه الإمام محمد بن عبد الحليم بن تيمية . واتجه إلى العيينة على أمل أن يجد من أميرها تأييداً لدعوته السلفية التى تتمسك بالقرآن الكريم والسنة المطهرة وماكان عليه السلف الصالح من إيمان صادق وطهارة عقيدة ، ولهذا عرفت دعوته بالدعوة السلفية ، ولكنه لم يجد التأييد الذى رجاه فى العيينة فانتقل إلى الدرعية مقر آل سعود ، وهناك وجدت دعوته قبولاً وتأييداً من الإمام محمد بن سعود بن محمد ، وكان أميراً شهماً واسع الذهن متطلعاً إلى النهوض بالإسلام فبايع الإمام محمد بن عبد الوهاب على العون والنصرة . ويعتبر هذا الاتفاق بين الرجلين أساس النهضة الشاملة التى تحققت فى نجد ثم فى جزيرة العرب كلها ، وكان محمد ابن سعود يعرف مدى مايعترض هذه الدعوة من عقبات ، وبخاصة وأن بعض حكام نواحى الجزيرة أظهروا العداء للدعوة وتجرد بعضهم لحربها مثل دهام بن دواس أمير الرياض وعريعر ابن دجين شيخ بنى خالد أمراء الأحساء ، ولكن محمد بن عبد الوهاب لم يحفل بالعقبات ، ومضى ينشر دعوته فلقيت قبولاً عظيماً فى نجد ، وانتشر صداها فى أنحاء الجزيرة وبخاصة الحجاز وخارجها ، وفى شتى نواحى عالم الإسلام ، وتبين من القبول الواسع الذى لقيته الدعوة السلفية أن عالم الإسلام كله كان ينتظر حركة إسلامية تقوم على القرآن والسنة ومذهب أحمد بن حنبل فى التوسل إلى الله وحده والتمسك بالإسلام القويم ، وقد زاد فى حماسة الناس لتلك الدعوة السلفية خوف جماعات المسلمين على الدين وأهله .

ومن ذلك الحين تصبح الدولة السعودية مركز الأحداث فى شبه الجزيرة . وينقسم تاريخها بعد ذلك إلى ثلاثة أدوار :

الـدور الأول .

ويبدأ من سنة ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤ م وهى السنة التى هاجر فيها محمد بن عبد الوهاب إلى بلدة الدرعية وتم الاتفاق بينه وبين أميرها الإمام محمد بن سعود على النصرة والتعاون على نشر الدعوة ، وينتهى سنة ١٢٣٣ هـ / ١٨١٧ م عندما استسلم الإمام عبد الله ابن سعود لإبراهيم باشا قائد الحملة المصرية الثالثة على الجزيرة العربية .

الـدور الثانى .

ويبدأ من سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ م وهى السنة التى استولى فيها الإمام تركى ابن عبد الله على الرياض ، وخلص كل بلاد نجد من السيطرة المصرية ، ويسمى هذا الدور بالدولة السعودية الثانية ، وينتهى باستيلاء محمد بن عبد الله بن رشيد أمير حائل على الرياض وضمها إلى إمارته .

الـدور الثالث .

ويبدأ من سنة ١٣١٩ هـ / ١٩٠٢ م وهى السنة التى استولى فيها الإمام عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل سعود على الرياض ثم على بلاد نجد والأحساء والحجاز وأتم فيها بناء المملكة العربية السعودية كما تراها اليوم .

وسنخصص فى الأطلس خريطتين لهذه الأدوار .

الخريطة (١٠٥) نصور فيها الوضع فى الجزيرة قبل قيام الحركة السلفية السعودية ، وتطور تاريخ الدولة السعودية خلال دوريها الأول والثانى وتشمل أيضاً التدخل المصرى فى جزيرة العرب .

والخريطة (١٠٦) نصور فيها تطور الجزيرة العربية ، وبناء الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود للمملكة العربية السعودية ، وماعاصر ذلك من الأحداث فى شبه الجزيرة فيما عدا نشوء دول الخليج الذى سنخصص له خريطة ضمن خرائط هذا الفصل

الـدور الأول .

بدأ فى أيام الإمام محمد بن سعود الذى استمر حكمه من ١١٣٩ – ١١٧٩ هـ/ ١٧٢٦ –

١٧٦٥ م » وخلالها حاول دهام بن دواس صاحب الرياض القضاء على الحركة السلفية ولكنه لم يستطع ، وبعد وفاة الإمام محمد بن سعود تملك خليفته الإمام عبد العزيز بن محمد « ١١٧٩ – ١٢١٨ هـ / ١٧٦٥ – ١٨٠٣ م » وهو من أنشط الأئمة السعوديين ، وقد تمكن في بداية حكمه من الاستيلاء على الرياض وضم إمارتها إلى الدولة السعودية ، واستولى كذلك على العيينة وحريملاء وثادق ، وكذلك استولى على ناحيتى سدير والوشم ، ثم أتم فتح القصيم سنة ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م وفي سنة ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م تمكن ابنه وولى عهده سعود بن عبد العزيز من الانتصار على زيد بن عريعر بن دجين شيخ قبائل بنى خالد أصحاب الأحساء وأرسل حملة إلى عمان ، ثم أرسل ابنه سعود فانتصر على الشريف غالب ، ودخل مكة ، ثم أرسل الإمام عبد العزيز ابنه (سعود) كذلك إلى العراق فاستولى على كربلاء وهدم ضريح الحسين رضى الله عنه ، وقد أثار هذا ثائرة الشيعة فاعتدى أحد رجالهم عليه وقتله سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م وخلفه ابنه سعود بن عبد العزيز الكبير سنة ١٢١٥ – ١٢٢٩ هـ / ١٨٠٠ – ١٨١٤ م فأتم فتح الحجاز وفتح مسقط وعمان ونجران وعسير وأجزاء من اليمن .

التدخل المصرى في الجزيرة العربية .

لم ترض الدولة العثمانية عن ضياع سلطانها على الحجاز ، ثم إن النشاط العسكرى المتزايد للحركة السلفية في نواحى العراق زاد من مخاوف العثمانيين ، وكلف السلطان العثمانى محمود الثانى واليه على مصر محمد على باشا باستعادة الحجاز وحرب السعوديين وأمده بالأموال والعتاد .

الحملة المصرية الأولى سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م .
بقيادة طوسون بن محمد على باشا .

خرجت من السويس ونزلت ينبع واستولت على المدينة المنورة وزحفت إلى الجنوب للاستيلاء على مكة ، ولكن الأمير عبد الله بن الإمام عبد العزيز تصدى لها وأنزل بها هزيمة عند وادى الصفراء جنوبى المدينة ، وطلب طوسون الإمداد من أبيه ، ثم نهض واستولى على مكة والطائف .

الحملة المصرية الثانية .

رأى محمد على أن ابنه طوسون لايستطيع إنجاز مهمته في الحجاز بالسرعة التى كان يريدها منه ، فخرج بنفسه إلى الحجاز من السويس ومعه جيش قوى وعتاد كبير سنة ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣ م واستطاع تمكين سلطانه في مكة والمدينة والطائف ، ثم سار إلى تُربة وأرسل حملة بحرية إلى القُنفذة فدخلت تهامة وعسير . ولم تستطع حملته على تربة التغلب على السعوديين ، وارتد محمد على إلى جدة وطلب الإمدادات من مصر ، وفي تلك الأثناء توفى الإمام سعود بن عبد العزيز وخلفه ابنه عبد الله سنة ١٢٢٩ هـ / ١٨١٤ م وكانت الإمدادات قد وصلت لمحمد على فتقدمت قواته وتغلبت على مقاومة الأمير فيصل ابن عبد الله عند بُسَل بين تربة والطائف ، وتقدمت فاحتلت تربة ثم بيشة ، وعاد محمد على إلى مكة ومنها إلى مصر . أما ابنه طوسون فقد تقدم نحو الحجاز وحاصر الرس في نجد وثبت له الأمير عبد الله . ثم دخل الجانبان في مفاوضات سنة ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م وكان الفريقان مستعدين للاتفاق على أن ينسحب السعوديون من الحجاز وينسحب المصريون من نجد ، ولكن محمد على رفض تلك الشروط وأصر على الاستسلام الكامل .

ثم تجدد القتال بين الجانبين عندما أعد محمد على حملة قوية جديدة جعل عليها ابنه إبراهيم باشا ، وكان قائداً ماهراً مجرباً ، وهذه الحملة سارت إلى الحجاز عن طريق النيل حتى قنا ثم عبرت الصحراء إلى القصير وعبرت البحر الأحمر إلى جدة . وتقدم إبراهيم سنة ١٢٣١ هـ / ١٨١٦ م نحو نجد واستولى على الرس ثم دخل عنيزة وبُرَيْدَة واستولى على منطقة الوشم . وفي سنة ١٢٣٣ هـ / ١٨١٨ م استولى على الدرعية قاعدة السعوديين بعد حصار طويل وقتال مرير ، ووقع الصلح بين الجانبين ، وذهب الإمام عبد الله إلى مصر مع نفر من أنصاره – آل الشيخ – لتوقيع الصلح مع محمد على ، وحاول بنو خالد العودة إلى الاستقلال بالقطيف ، ولكن القوات المصرية سارت إلى القطيف وبددت شملهم .

وهنا يبدأ الدور الثانى من تاريخ الدولة السعودية .

وكان رجل يسمى محمد بن مشارى بن معمر قد انتهز فرصة ضعف الدولة السعودية ووجود عدد من أمرائها في مصر وبسط سلطانه على نجد ودخل الدرعية ، وكان الجنود المصريون لايزالون في نجد ، ولكن الأمير مشارى بن سعود الكبير تمكن من الهرب من مصر وأعلن نفسه إماماً ، ثم بويع مشارى بن سعود إماماً سنة ١٢٣٥ هـ – ١٢٣٦ هـ / ١٨١٩ – ١٨٢٠ م وأقام ابنه « تركى » أميراً على الرياض ، وخلف الأمير « تركى » الأمير فيصل بن تركى سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م وكان أميراً هاماً ، واستمر في كفاحه مع منافسى بيته من ناحية ومع المصريين من ناحية أخرى .

ثم أرسل محمد على والياً جديداً على الحجاز ونجد وهو خورشيد باشا وهو أقدر القواد المصريين الذين عملوا في الجزيرة العربية بعد إبراهيم باشا ، فتمكن من السيطرة على الحجاز ونجد ، ووافق على أن يتولى الحكم فيهما الإمام خالد بن سعود الكبير حليفاً للمصريين ، ولم يرض نفر كبير من أمراء البيت السعودى عن ذلك ، ولكن خورشيد ظل محافظاً على مركزه في نجد ، وتغير الوضع عندما تولى قيادة المقاومة السعودية الإمام فيصل بن تركى « ١٢٥٠ – ١٢٥٤ هـ / ١٨٣٤ – ١٨٣٨ م » الذى تمكن من الهروب من مصر والعودة إلى نجد بمعاونة صديقه عبد الله بن رشيد أمير حائل في القصيم ، وتغيرت ظروف محمد على عقب هزيمته أمام القوات البريطانية في الشام سنة ١٨٤٠ م واضطر إلى الانسحاب إلى مصر بموجب معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م ، ولكن المصريين وسعوا دائرة نفوذهم في الجزيرة ، واستطاع خورشيد باشا أن يسيطر على الأحساء ودخل في طاعته أمير البحرين ، وأرسل خورشيد حملات حتى عمان ، وهنا تدخل الإنجليز في شئون الخليج ، واستعاد آل رشيد أصحاب حائل قوتهم ، وكانوا من رجال الدولة العثمانية . واستطاعوا السيطرة على نجد والحلول محل آل سعود الذين لجئوا إلى الكويت ، وهناك ظلوا مقيمين حتى نهض البيت السعودى مرة أخرى على يد أعظم رجاله الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذى تمكن في سنة ١٣١٩ هـ / ١٩٠٢ م من العودة إلى نجد والاستيلاء على الرياض وإعلان نفسه أميراً . وعلى يديه يبدأ **الدور الثالث** من التاريخ السعودى ، وكله نصر وصعود بفضل المواهب العظيمة التى تحلى بها الإمام عبد العزيز .

خريطة ١٠٦

الدولة السعودية

الدور الثالث .

وقد رسم عبد العزيز خطة واسعة المدى لتثبيت سلطان البيت السعودى في نجد ، وإقامة دولة منظمة حديثة وقوة عسكرية قادرة ، وكان رجل دولة وسياسة من الطراز الأول ، فتمكن من تحقيق كل أهدافه ، وأقام المملكة العربية السعودية بناء على خطة محكمة بينا مراحل تنفيذها على الخريطة وبدأ بإزالة كل أثر لسلطان بنى رشيد أصحاب حائل في نجد خارج منطقة القصيم ، فانتصر على عبد العزيز بن متعب بن رشيد في موقعة الدلم ، واستعاد الخرج والأفلاج والحوطة ووادى الدواسر . ثم استولى على نواحى الوشم وسدير ثم فتح القصيم وأزال آل رشيد سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م بعد انتصارين حاسمين في البكيرية والشنانة ، وتم الانتصار النهائى على آل رشيد في موقعة روضة مهنا بالقرب من بريدة في ١٨ صفر ١٣٣٤ هـ / ١٩١٥ م وتوقيع الصلح الذى تنازل به آل رشيد عن كل نجد ، واعترف لهم بمدينة حائل وحدها ، كما تم انسحاب الحامية التركية من القصيم ، وفتح الأحساء والقضاء على بنى خالد ١٣٣١ هـ / ١٩١٣ م .

وقد ظل الأتراك يقاومون في بعض حصون القطيف حتى أرسل الإمام عبد العزيز آل سعود سرية أتمت فتح الأحساء وانتهى حكم الأتراك في الأحساء بعد ٤٢ سنة ، وانسحب الأتراك بسلام من الهفوف إلى البحرين إلى العراق ، ثم اعترفت تركيا رسميا بالإمام عبد العزيز حاكماً على نجد والأحساء . وفي سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ – ١٩١٥ م انهزم آخر رجل من آل خالد حاول أن ينكث عهده مع عبد العزيز آل سعود ، وبعد الحرب العالمية الأولى عقد مؤتمر قومى عربى في الرياض تقرر فيه أن يكون لقب الإمام عبد العزيز هو سلطان نجد وملحقاتها ، وبعد ذلك تم فتح حائل بعد مقاومة طويلة من عبد الله بن متعب ابن رشيد ثم محمد بن طلال بن رشيد أخيراً ، وبعد ذلك أرسل السلطان عبد العزيز آل سعود حملتين إلى الحجاز ، وفي أوائل جمادى الآخرة ١٣٤٤ هـ / يناير ١٩٢٦ م استسلم الشريف حسين آخر شرفاء الحجاز ، ووافق على مغادرة الحجاز بآله وأمتعته الخاصة ، وفي ٢٥ جمادى الآخرة تم استيلاء السلطان عبد العزيز على الحجاز وأصبح لقبه ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها ، وذهب الشريف حسين بأهله منفياً إلى قبرص ، وتولى الأمير فيصل بن عبد العزيز حاكماً على الحجاز .

توحيد البلاد وقيام المملكة العربية السعودية .

كان عزم الملك عبد العزيز منعقداً على توحيد بلاد الجزيرة ، ولهذا فقد اتجه ببصره نحو عسير والمخلاف السليمانى واليمن قبل أن ينتهى من أمر الحجاز .

خريطة ١٠٧

عسير والخلاف السليماني

ولإقليم عسير تاريخ طويل ولكن كله نزاعات بين الرؤساء القبليين المحليين ، تتخلل ذلك فترات تدخل إما من تهامة والحجاز أو من أصحاب السلطان في شمال اليمن مثل صعدة أو نجران ، والحقيقة أن إقليم عسير لم تستقر أحواله ويعرف الهدوء والرخاء والتقدم إلا بعد دخوله المملكة العربية السعودية على يد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود .

وعسير اسم يطلق على جزء كبير من تهامة ، فإن تهامة تنقسم إلى ثلاثة أقسام **تهامة الحجاز وقاعدتها مكة وتهامة عسير وقاعدتها أبها وتهامة اليمن وتمتد من صعدة إلى عدن ،** ومازال إقليم عسير محتفظاً بحدوده الإقليمية داخل المملكة العربية السعودية .

وفي القرن الرابع الهجري أنشأ سليمان بن طرف الحكمي من آل عبد الجد الحكميين وحدة سياسية في عسير مستقلة عن الدولة الزيدية عرفت باسم المخلاف السليماني نسبة إليه ، وتمتد من ناحية الشرجة إلى حلي بن يعقوب ، وجعل قاعدته عثر ، وضرب اسمه على السكة ، وخطب له على منابر المخلاف عشرين عاماً من ٣٧٣ إلى ٣٩٣ هـ / ٩٨٣ - ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ م لكن سليمان بن طرف بن حكم لم يدخل في نزاعات مع الأئمة الزيدية ، وعندما ضعف سلطان الإمام الزيدي على الجيش الزيدي انفصل سليمان بمخلافه وجعله إمارة مستقلة . وعندما قامت الدولة الزيدية في صنعاء ، ومدت سلطانها على اليمن كله بقيادة الأمير أبي الحسين بن سلامة حاربه أصحاب المخلاف ثم دخلوا في طاعته .

ويختفي اسم عسير من كبار الأحداث حتى كانت العصور الحديثة وظهور الخطر البرتغالي والأوروبي بصفة عامة . وكان أول من تدخل في شئون المخلاف في العصور الحديثة محمد علي باشا عندما تدخل في الحجاز ، فقد رأينا أنه أرسل حملة إلى القنفذة واستولى عليها .

وبعد انسحاب المصريين من الجزيرة وازدياد التنافس على شواطىء البحر الأحمر عاد الأتراك إلى اليمن ، وكانوا قد فتحوا سواحله سنة ٩٤٣ هـ / ١٥٣٦ م واحتلوا الحديدة والإقليم الشاطىء اليمني إلى عدن وتوغلوا في الداخل إلى تعز ، وتوالى حكامهم عليه حتى أخرجهم منه الأئمة الزيديون سنة ١٠٤٥ هـ / ١٦٣٥ م .

وعاد الأتراك ففتحوا سواحل اليمن فتحاً ثانياً سنة ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م وذلك بعد أن احتل الإيطاليون إريتريا وطمعوا في اليمن ، ولكن سلطانهم ظل مقتصراً على الشواطىء فلم يتعد مدينة تعز في الداخل ، ودخلت في طاعتهم أيضاً عدن .

وفي سنة ١٨٧١ م أنشأ الأتراك سنجق عسير تابعاً لليمن ، وقسموه إلى عدة أقسام إدارية هي : أبها وبنو شهر وغامد والقنفذة وجدار والمع وصبيا وعايل . وقد ذكر الهمداني أن اسم عسير جاء من اسم قبيلة يمنية تسمى « عسير » ترجع في أصلها إلى بني عنز ابن وائل ، ومنازلها قريبة من منازل بجيلة وخثعم والأزد .

وعند قيام الحركة السلفية في نجد دخل فيها رجل يسمى « محمد أبو نقطة » ، ودخلت الحركة عسير كلها ، ولكن إبراهيم باشا بن محمد علي أرسل رجلاً يسمى أحمد باشا للاستيلاء على عسير من أيدي دعاة الحركة السلفية سنة ١٨٢٤ م فلم يستطع ، وحاول المصريون التدخل في عسير مرة أخرى سنة ١٨٣٤ م دون نجاح ، واتسع نطاق الدعوة السلفية في عسير بزعامة رئيسهم الشيخ ابن مجثل سنة ١٢٤٥ هـ / ١٨٢٩ م أيام الإمام تركي بن عبد الله . وخلف ابن مجثل شيخ من كبار مشايخ عسير هو عائض بن مرعي المريدي شيخ قبيلة بني عائض ، وتمكن من بسط سلطانه على سائر عسير وغامد وزهران واتجه إلى الاستقلال بها .

وفي سنة ١٢٤٥ هـ / ١٨٢٩ م وصل إلى عسير شريف علوي من أبناء أدارسة المغرب هو أحمد بن إدريس أصله من العرائش في المغرب الأقصى ، ثم رحل للحج ثم نزل مصر وسكن الصعيد وتزوج فيه وأنجب ، ثم حفزته الهمة إلى النهوض إلى الجزيرة لإقامة دعوة صوفية بها ، فسار إلى ميناء الليث ثم انتقل إلى بندر جيزان ، ثم الحديدة ، ووصل إلى زبيد حيث استقبله شيخها عبد الرحمن الأحول ، ثم انتقل إلى صبيا وجعل مركزه في قلب المخلاف السليماني . وكان رجلاً تقياً صالحاً ، وقد أسس الطريقة الأحمدية الشاذلية في المخلاف السليماني وتوفي في ٢٣ رجب سنة ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٨ م . وخلفه حفيده محمد بن أحمد بن إدريس الذي قام بأمر الجماعة والمخلاف حتى ١٧ ذي الحجة ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م وخلفه ابنه الإمام محمد بن علي الإدريسي فلم يلبث أن توفي ، وكان قد درس في الأزهر في مصر وأحاط بالكثير من أحوال الدنيا في ذلك الحين ، وفي عودته إلى بلاده من مصر مر بمصوع ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ م وكانت إريتريا مستعمرة إيطالية إذ ذاك ، وتعرف محمد بن علي الإدريسي على مترجم السفارة الإيطالية في مصوع ، وكانت تلك بداية علاقة بينه وبين الإيطاليين ، لأن إيطاليا كانت تستعد لغزو ليبيا وانتزاعها من الدولة العثمانية ، ففكرت في أن تثير في ناحية عسير حركة معادية للأتراك تشغل بها بال الدولة العثمانية عن ليبيا . وعندما استقر الأمير محمد الإدريسي في قاعدة أسرته في صبيا أرسل الإيطاليون له أسلحة ومدفعاً صغيراً . وكان محمد بن علي الإدريسي طموحاً يتطلع إلى إعادة سلطان أسرته . وكأنما تشجع بالنجاح الأول الذي أدركته الحركة المهدية في السودان . وهي حركة صوفية أيضاً ، وعندما اطمأن في موضعه ظهر للناس بمظهر الأمراء بالإضافة إلى ماعرفه الناس فيه من التقى والورع وظهرت هيبته ، وأقبل عليه الناس . وكانت أحوال المخلاف وماحوله من بلاد عسير قد اضطربت وسادتها الفوضى وحروب القبائل . وكان الأتراك قد فصلوا المخلاف عن الحديدة وسموه متصرفية عسير ، ونشبت الفتن بين القبائل وبخاصة بين أهل بيش والمسادحة وبين الجعافرة وأهل صبيا ، هذا إلى جانب متاعب الأتراك الذين كانوا يحتلون ساحل اليمن ويتخذون الحديدة قاعدة لهم . وتمكن الإدريسي من بسط سلطانه على إقليم صبيا ، ثم حارب الجعافرة وضم قاعدتهم ضمد . ثم أقام إدارة منظمة ذات حكومة في صبيا وتغلب على الخواجيين أصحاب مدينة صبيا القديمة . ومنافس آخر من أهل صبيا هو محمد بن يحيى ، ومنافس آخر يسمى أحمد بن شريف ، ثم مد سلطانه على الجنوب الشرقي من بني مالك إلا بلدة العاهر ذات الخصب الوافر وتمكن من ذلك في سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م وعقد في نفس السنة معاهدة صلح وحماية مع إنجلترا ، وبذلك استولى على أراض كان الإمام يحيى إمام اليمن يرى أنها جزء من دولته . فأرسل قوة لاستعادة الأراضي من الإدريسي فانهزم في موقعة الحفائر ، وعقب ذلك توفي الإمام محمد بن علي الإدريسي في أول ١٣٤١ هـ / ١٩٢٢ م .

وأوجس والي الدولة العثمانية على الحديدة خيفة من الإدريسي ، وأرسلت له الدولة وفداً برياسة سعيد باشا . وتم الاتفاق بين الطرفين على أن يدخل الإمام الإدريسي في طاعة العثمانيين « دخولاً اسمياً » ومنحته الدولة لقب قائمقام ، وتعهد هو بمد سلوك التلغراف عبر المخلاف إلى مكة ، ولكن الحرب عادت فنشبت بين الجانبين دون نتيجة حاسمة . وتحرج مركز المخلاف وأصحابه .

وقد أنقذ ذلك الموقف الملك عبد العزيز آل سعود عند قيامه ببناء الدولة السعودية في دورها الثالث الأخير بعد حرب قصيرة مع الإمام يحيى ، وكان الأدارسة قد انضموا في هذا الصراع إلى جانب اليمن ، فلما تم الانتصار لعبد العزيز على الإمام يحيى وأرسل هذا الأخير وفداً للمفاوضة برياسة وزيره عبد الله بن الوزير كان أول ماوضعه الملك من شروط للصلح بين الجانبين تسليم عسير والأدارسة أصحاب المخلاف وانسحاب القوات اليمنية إلى جنوبي نجران بحيث تصبح نجران جزءاً من المملكة السعودية ، واعتراف إمام اليمن بالمملكة السعودية بحدودها الكاملة ومعاهدة صداقة لمدة عشرين سنة .

وقد تم الاتفاق بين دولة اليمن والمملكة العربية السعودية على تثبيت الحدود بينهما فأصبحت نجران وبلاد عسير جزءاً من المملكة العربية السعودية وذلك في معاهدة الطائف في شهر صفر سنة ١٣٥٣ هـ .

وانتهى سلطان الأدارسة من عسير كما انتهى قبلهم سلطان غيرهم من أمراء النواحي ورؤسائها بدخول الملك عبد العزيز آل سعود جيزان في ١٦ صفر ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م وانتهى عصر التفرق والإمارات والمشيخات المتحاربة ، وبدأ عهد الوحدة والوطن الواحد والتقدم والرخاء في الجزيرة العربية .

خريطة ١٠٨

نشوء دول الخليج

كانت عنزة قبيلة عربية كبيرة تسكن وسط وشمال شبه الجزيرة العربية ونواحي شرق نجد . وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر تفرعت عنزة إلى فرعين أحدهما ويسمى الرولة هاجر إلى الشمال واستقر في الأردن ، والثاني ويسمى العتوب اتجه إلى الجنوب نحو إقليم الأفلاج وقاعدته الهدار في نجد ، ثم سار نحو وادي الدواسر ، ومنه اتجه شمالاً نحو قطر واستقر هناك .

ثم وقع خلاف بينهم وبين آل مسلم أصحاب قطر فذهب فرع من العتوب شمالاً نحو جزيرة عبدان ، وذهب فريق آخر منهم نحو صبيا على حدود البصرة ولكن الأتراك منعوهم من الاستقرار هناك ، فاتجهوا إلى الكويت حيث أقاموا حول كوت بنى خالد قرب المستشفى الأمريكى القديم ، وهناك استقروا بصفة نهائية ، وتوزعت السلطات بين فروع العتوب الثلاثة فأصبح الحكم لآل الصباح والتجارة لآل خليفة والعمل فى البحر للجلاهمة .

وفى سنة ١٧٦٦ م وقع خلاف بين آل صباح وآل خليفة فانتقل هؤلاء إلى البحرين وحاولوا الاستقرار فيها فلم يسمح لهم آل مذكور أصحاب بوشهر بالاستقرار فيها ، فاتجهوا نحو الزبارة فى قطر وأقاموا فيها ، ثم لحق بهم بنو عمومتهم الجلاهمة ، غير أن الخلافات دبت بينهما لمدة نحو ربع قرن ، وواجه العتوب هناك مصاعب من ناحية سلطان مسقط ورجال فارس والإنجليز ولكن أمرهم ثبت هناك .

وقد بدأ حكم آل صباح فى الكويت سنة ١٧١٦ م . وكان أول ظهور لاسم الكويت فى المكاتبات الرسمية فى أوائل القرن السابع عشر عند توغل البرتغاليين فى الخليج واستقرارهم فى بعض مواقع ساحلية ومنها الكويت . وفى سنة ١٧١٦ م وصل آل الصباح من العتوب إلى الكويت ، وبدءوا حكمهم هناك على ماروينا .

وكان آل الصباح يعترفون أول الأمر اعترافاً رسمياً بسلطان الخليفة العثمانى ، ولكنهم فى الحقيقة كانوا مستقلين تماماً . وعندما قامت الحركة السلفية السعودية وتعرضت الكويت لخطرها لوصولها إليها استعان آل الصباح بالعثمانيين ، وبعد زوال خطر السعوديين على الكويت حصل الشيخ عبد الله المبارك من الأتراك على لقب قائمقام سنة ١٨٧٦ م .

وعندما ثارت ثائرة الدول الأوروبية بسبب ماعزمته ألمانيا من إنشاء سكة حديد إستامبول البصرة اتجه الاهتمام الدولى نحو الكويت ، ورأى آل الصباح أنفسهم فى وسط عاصفة دولية هوجاء اشتركت فيها تركيا وألمانيا وروسيا . ووجدوا أن خير مايفعلونه هو الدخول فى محالفة مع بريطانيا سنة ١٨٩٩ م على مثال مافعلت البحرين وساحل عمان . وعقدت معاهدات أخرى سنوات ١٩٠٤ و ١٩١١ و ١٩١٣ م ، وقبيل الحرب العالمية الأولى ودون أن تقطع الكويت علاقاتها بتركيا تم الاتفاق على أن يقيم معتمد بريطانى فى الكويت .

وتعرضت الكويت للخطر نتيجة للمنافسة الشديدة التى ثارت بين آل الرشيد من قبائل بنى شمر ومركزهم مدينة حائل وآل سعود ، وقد وقف الشيخ مبارك الكبير أمير الكويت إلى جانب آل سعود ، وعندما انهزم آل سعود أول مرة وخرجوا واضطروا إلى مغادرة الرياض سنة ١٩٠١ م لجأ الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود إلى الشيخ مبارك الكبير الصباح وعاش فى ضيافته فى الكويت . وحاولت تركيا غزو الكويت ولكنها ارتدت عنها أمام تحذير بريطانى مدعم بقوة بحرية وانسحب عرب قبائل شمر وآل رشيد إلى مواطنهم فى القصيم .

ومن الكويت نهض الإمام عبد العزيز آل سعود لاسترجاع بلاده فى نجد . وبعد وفاة الشيخ مبارك الكبير فى ١٩١٧ م تعرضت حدود الكويت لعدوان القبائل السلفية ، ولكن إنجلترا تدخلت ، وأخيراً عقدت معاهدة سنة ١٩٤٠ م بين بريطانيا والمملكة السعودية اعترف فيها بسلامة الكويت وحدودها ، وكان ذلك فى حكم الشيخ أحمد الجابر الصباح حفيد مبارك الكبير « ١٩٢١ - ١٩٥٠ م » وفى سنة ١٩٦١ م نالت الكويت استقلالها الكامل فى حدودها الحالية فى عهد أميرها الشيخ عبد الله السالم الصباح . وكان أول اتفاق للتنقيب عن النفط فى الكويت قد عقد مع شركة الجلف سنة ١٩٣٤ م ولكن الاستغلال التجارى بدأ سنة ١٩٤٦ م وبذلك دخلت الكويت عصر نهضتها الكبيرة ونشاطها العظيم الذى جعل منها قاعدة من أهم قواعد العروبة .

أما آل خليفة أمراء البحرين فيرجع حكمهم إلى سنة ١٧٨٣ م وقد سبق أن ذكرنا ذلك عند كلامنا عن العتوب .

وأما الشارقة ورأس الخيمة وأم القوين فحكمها فروع من قبيلة القواسم ، وأما أبو ظبى ودبى فحكامهما من قبائل بنى ياس .

الساحل المعاهد أو المصالح Trucial Coast .

كان الساحل المعاهد أو المصالح يمتد من حدود سلطنة عمان إلى حدود قطر باستثناء رأس مسندم الذى يعتبر جزءاً من سلطنة عمان ، وكان هذا الساحل فى القرن الماضى قاحلاً وغير مسكون تقريباً إذ إنه ساحل الربع الخالى فيما عدا مواقع متناثرة فيها موارد مائية كافية للعمران ، قامت فيها الإمارات التى تتكون منها دولة الإمارات العربية وهى رأس الخيمة والفجيرة وأم القوين وعجمان والشارقة ودبى وأبو ظبى ، وقد عقدت هذه الإمارات صلحاً مع بريطانيا سنة ١٨٢٠ م وأقامت بريطانيا حامية لها فى رأس الخيمة ، وقد سمى هذا الساحل نتيجة لذلك الصلح بالساحل المعاهد أو المصالح Trucial Coast وفى سنة ١٨٩٢ م تأيدت هذه المعاهدة بين بريطانيا وإمارات الساحل المصالح ، وكذلك معاهدة ساحل عمان المعاهد بمعاهدة ثانية مع بريطانيا ، أقام بموجبها ممثل بريطانى فى دبى مهمته المحافظة على سلامة الملاحة فى الخليج .

ثم انسحبت بريطانيا من الخليج سنة ١٩٧١ م واستقلت الإمارات بنفسها وقام بينها فى سنة ١٩٧١ م اتحاد الإمارات العربية ويضم رأس الخيمة وأم القوين والشارقة وعجمان والفجيرة وأبو ظبى ودبى . وأصبحت أبو ظبى عاصمة دولة الإمارات العربية .

أما قطر والبحرين فقد آثرتا أن تظلا دولتين مستقلتين مرتبطتين بمعاهدة صداقة مع بريطانيا . وقد ألغيت هذه المعاهدة وأصبحت كل من البحرين وقطر دولة مستقلة ذات سيادة وعضوا فى الأمم المتحدة « البحرين فى ١٩ يناير ١٩٧٠ م وقطر أول سبتمبر ١٩٧١ م » .

المراجع

ابن الأثير — على بن أحمد بن أبى الكرم الجزرى ، الكامل فى التاريخ ، طبعة المطبعة المنيرية فى القاهرة ، عشرة أجزاء .

أبو إسحاق — إبراهيم الحربى . كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة . بتحقيق الشيخ حمد الجاسر . الطبعة الثانية . دار اليمامة . الرياض . ١٩٨١ م .

اليعقوبى — أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح .
- كتاب البلدان . بغداد ١٩٦٤ م .
- التاريخ . جزءان . بيروت بدون تاريخ .

ابن حزم — أبو محمد على بن أحمد . جمهرة أنساب العرب . بتحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ١٩٧٧ م .

الهمدانى — الحسن بن أحمد بن يعقوب « صفة جزيرة العرب » بتحقيق محمد بن على الأكوع الحوالى وإشراف حمد الجاسر . الرياض ١٩٧٤ م .

البلاذرى — أحمد بن يحيى بن جابر . فتوح البلدان . بتحقيق صلاح المنجد . ثلاثة أجزاء . القاهرة .

أمين الريحانى — تاريخ نجد وملحقاتها (وفيه تاريخ موجز للحركة السلفية السعودية وسيرة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود) الطبعة الرابعة ١٩٧٠ م .

محمد بن أحمد — « تاريخ المخلاف السليمانى » أشرف على طبعه حمد الجاسر . الطبعة الثانية ١٩٨٢ م .

حمد الجاسر — المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية .
صدر منه إلى الآن ١٦ مجلداً . دار اليمامة . الرياض .
- المعجم المختصر . يحتوى على أسماء المدن والقرى والأودية المأهولة من جميع أنحاء المملكة السعودية - الرياض ١٩٧٥ م .
فى شمال غرب الجزيرة (نصوص جغرافية ومشاهدات وانطباعات) دار اليمامة الطبعة الثانية الرياض ١٩٨١ م .

Doughty , Charles , Travels in Arabian Desert London 1930 .

Caetani , Leone , Annali Dell'islam 5 Vols Milano 1950 - 1913 .

Nicholson , Reynols , Literary History of the Arabs . London 1914 .

Hitti , Philip , A History of the Arabs . London Macmillan 1974 .

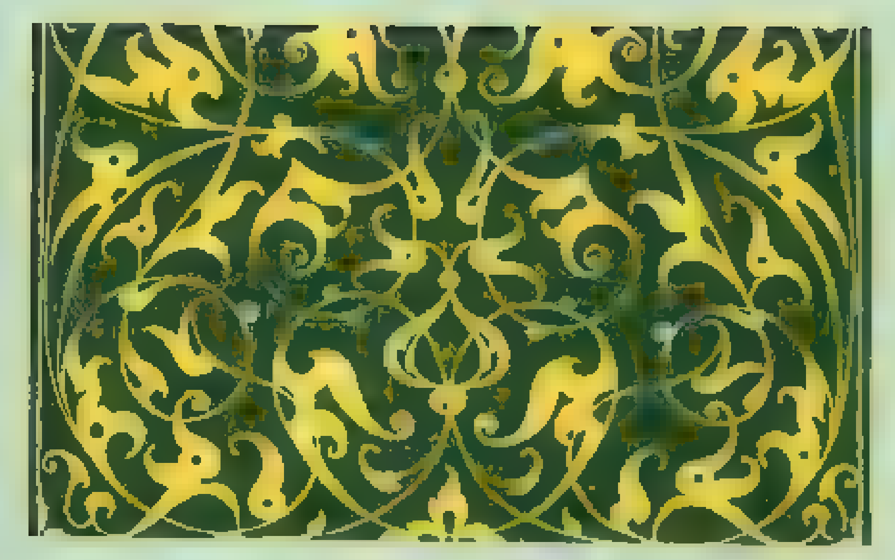

الفصل العاشر

الجناح الشرقي لدولة الإسلام (إيران)

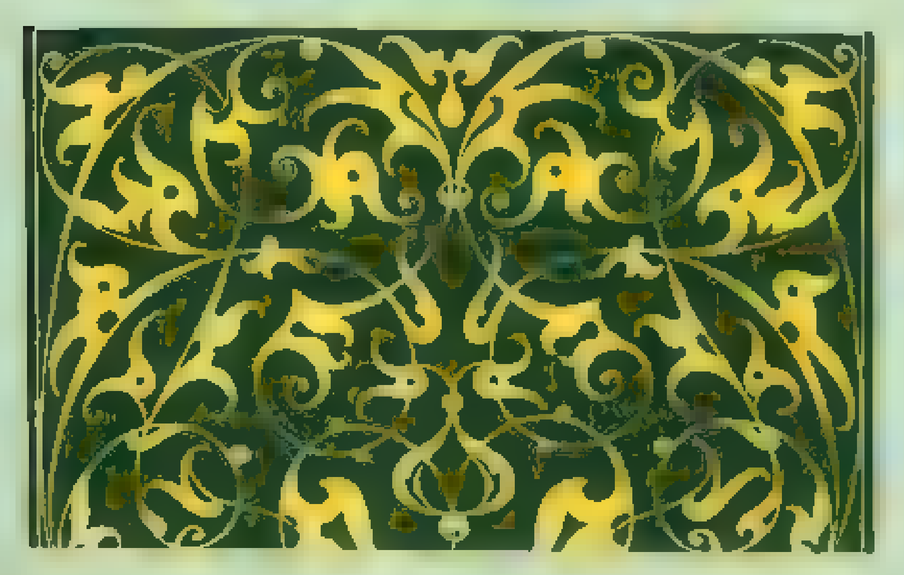

بيان الخرائط

ملحوظة
وردت الخريطة رقم ١١٦ بعد الخريطة رقم ١١٨ لاعتبارات فنية

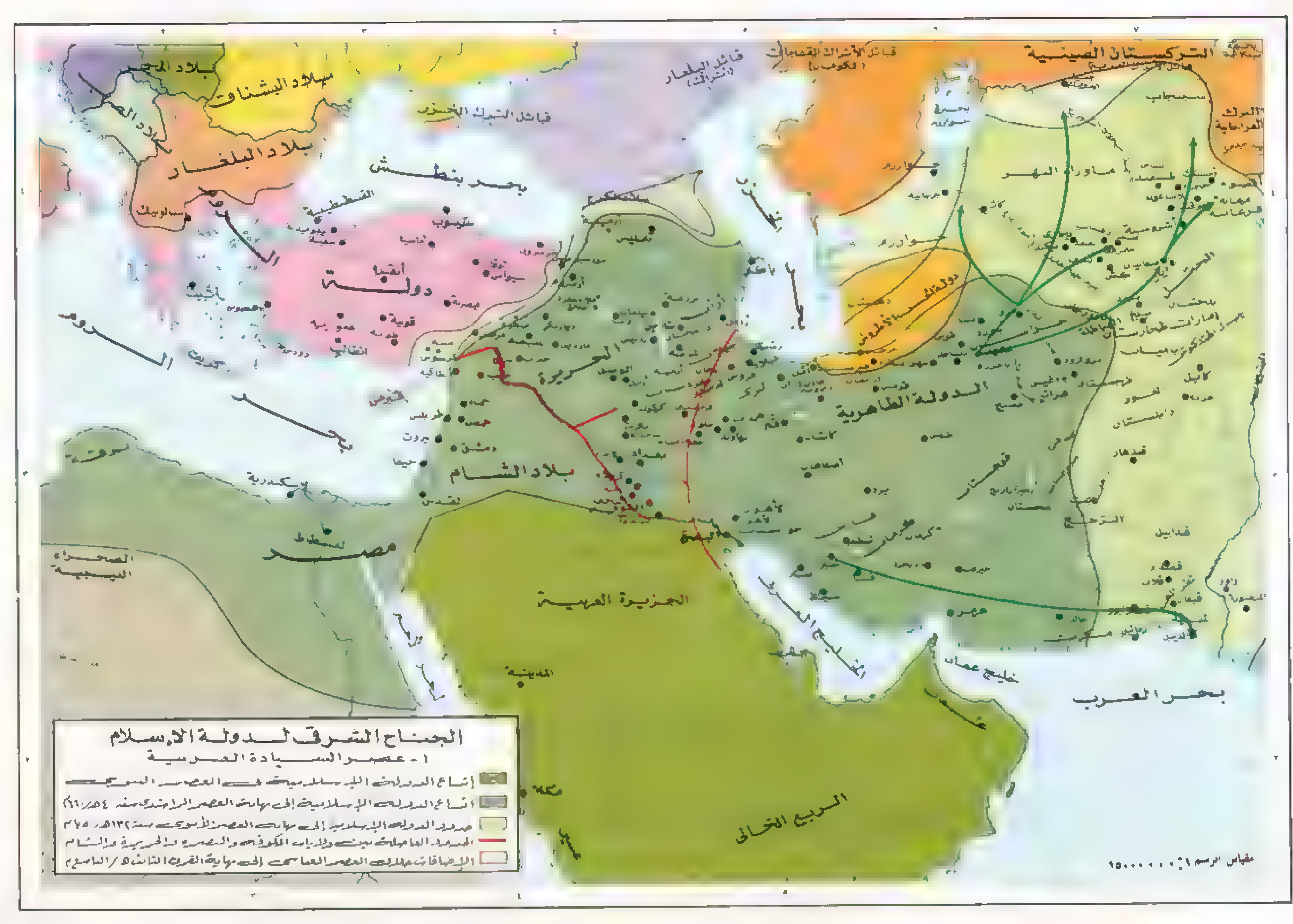
الجناح الشرقي للدولة الإسلام
١- عصر السيادة العربية
مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠
التركستان الصينية
ما وراء النهر
بلاد المجر
بلاد البشناق
بلاد البلغار
بحر بنطش
قبائل الترك الخزر
دولة
الروم
بلاد الشام
الجزيرة
الدولة الطاهرية
الجزيرة العربية
الربع الخالي
مصر
بحر العرب
خليج عمان
الخليج العربي
سجستان
خوارزم
الإسكندرية
دمشق
بغداد
المدينة
مكة
قندهار
كابل

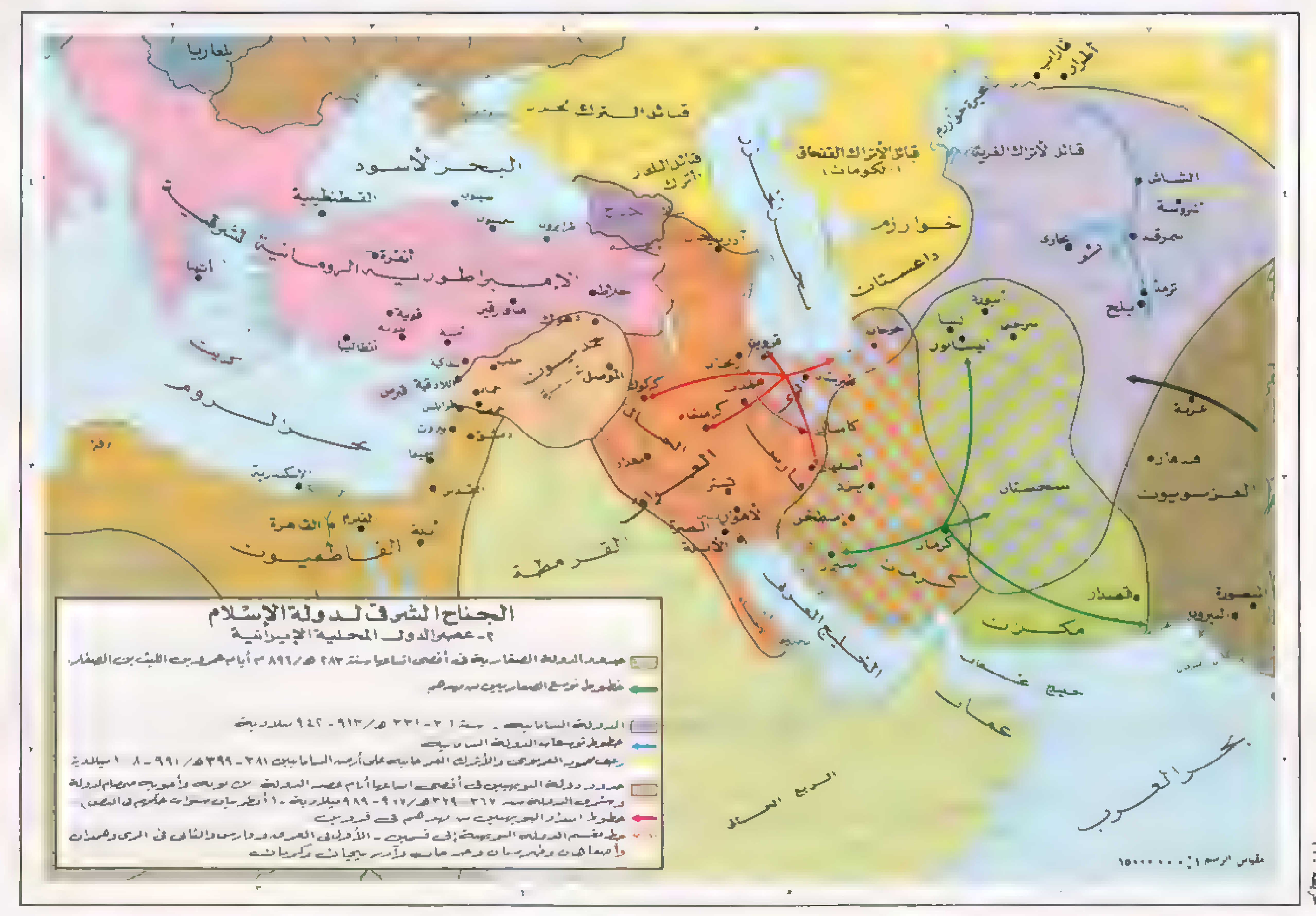

الجناح الشرقي لدولة الإسلام
٢- عصر الدول المحلية الإيرانية
حدود الدولة الصفارية في أقصى اتساعها سنة ٢٨٣ هـ/٨٩٦ م أيام عمرو بن الليث بن الصفار
خطوط توسع الصفاريين من موطنهم
الدولة السامانية سنة ٣٠١ - ٣٣١ هـ/٩١٣ - ٩٤٢ ميلادية
خطوط توسعات الدولة السامانية
مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠
البحر الأسود
القسطنطينية
الإمبراطورية الرومانية الشرقية
أنقرة
أثينا
قونية
حلب
الموصل
كركوك
بغداد
قزوين
همذان
أصفهان
كرمان
شيراز
البصرة
الأبلة
الكوفة
دمشق
القدس
الإسكندرية
الفسطاط
القاهرة
الفاطميون
القرامطة
العراق
فارس
كرمان
مكران
سجستان
نيسابور
بخارى
سمرقند
ترمذ
بلخ
غزنة
الغزنويون
خوارزم
داغستان
طبرستان
الخليج العربي
خليج عمان
عمان
بحر العرب
الربع الخالي
بحر الروم
بلغاريا

دولتا الغزنويين والغوريين
(٣٤١ - ٣٥٣ هـ ٩٥١ - ٩٦٤ م)
دولة الغزنويين
بلاد دخلت في طاعة السلطان محمود
دولة الغوريين ١١٩١/٦٠٢م
دولة البويهيين
خطوط فتوح الغزنويين
خطوط فتوح الغوريين
سلطنة مصر والشام
مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠
بلاد الصين
ماوراء النهر
فرغانة
بلاد فارس
بادية الشام
جزيرة العرب
بحر العرب
خليج عمان
الخليج العربي
بحر القلزم
بحر الروم
دولة الروم
الأسود
بلاد الكرج
الري
كرمان
بغداد
دمشق
القدس
مدينة
مكة
كشمير
الدكن

الدول المحلية التركية في إيران

(٤٦٥ - ٤٨٥هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢م)

وما يعاصرها في ماوراء النهر وآسيا الصغرى وشرق أوروبا

مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠

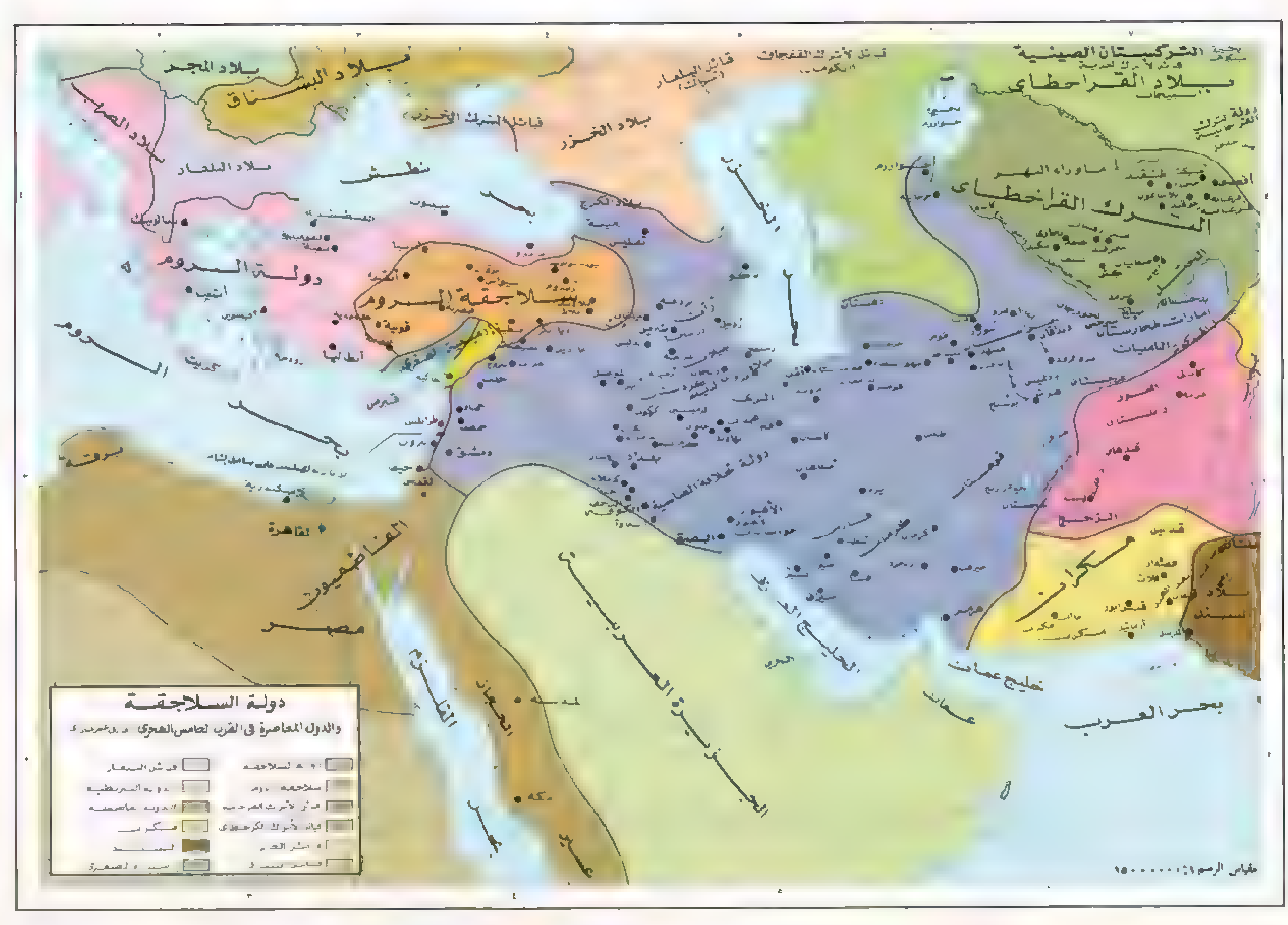
دولة السلاجقة
والدول المعاصرة في القرن الخامس الهجري
مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠
التركستان الصينية
بلاد القراخطاي
الترك القراخطاي
ما وراء النهر
بلاد البشناق
بلاد المجر
بلاد الصرب
بلاد البلغار
بلاد الخزر
دولة الروم
سلاجقة الروم
دولة خلافة العباسية
إمارات طبرستان
الطامليات
مكران
بلاد السند
بحر العرب
خليج عمان
عمان
الخليج العربي
الجزيرة العربية
الحجاز
مكة
القاهرة
الفاطميون
مصر
القدس
دمشق
طرابلس
قبرص
برقة
قونية
بغداد
البصرة
غزنة

الدولة الإيرانية
في عهد خوارزم شاه - ٦١٠هـ/١٢١٣م
الدولة الخوارزمية في إيران
بقايا دولة السلاجقة
الخزر
بحر الخزر
بحر بنطس
بحيرة خوارزم
بلاد ما وراء النهر
خوارزم
فرغانة
خراسان
الصين
السند
الهند
توران
مكران
خليج عمان
عمان
بحر العرب
الخليج العربي
البحرين
أذربيجان
كرجستان
العراق
الشام
الخلافة العباسية
الجزيرة العربية
الحجاز
بحر القلزم
مكة
جدة
المدينة
بغداد
دمشق
حلب
أصفهان
شيراز
همدان
قزوين
الري
كاشان
قم
كرمان
قندهار
هراة
كابل
بشاور
لاهور
ملتان
دلهي
سمرقند
الشاش
مرو
نسا
طبس
يزد
الأهواز
البصرة
هرمز
قلات
الموصل
تكريت
ديبل
سومنات

مغول القبيلة الذهبية
المملكة التركية الشمالية
بحيرة خوارزم
خوارزم
ماوراء النهر
الشاش
خوقند
بخارى
سمرقند
بيكند
مرو
الطالقان
كاشغر
جبال قون لون
قوهستان
سجستان
كرمان
مكران
ممالك الغوريين
(في الهند)
خليج عمان
بحر العرب
الدولة الخوارزمية وغارات المغول
(٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م)
حملات ملوك الدولة الخوارزمية في توسعها
سير حملات المغول
خطوط دخول الغوريين في الهند

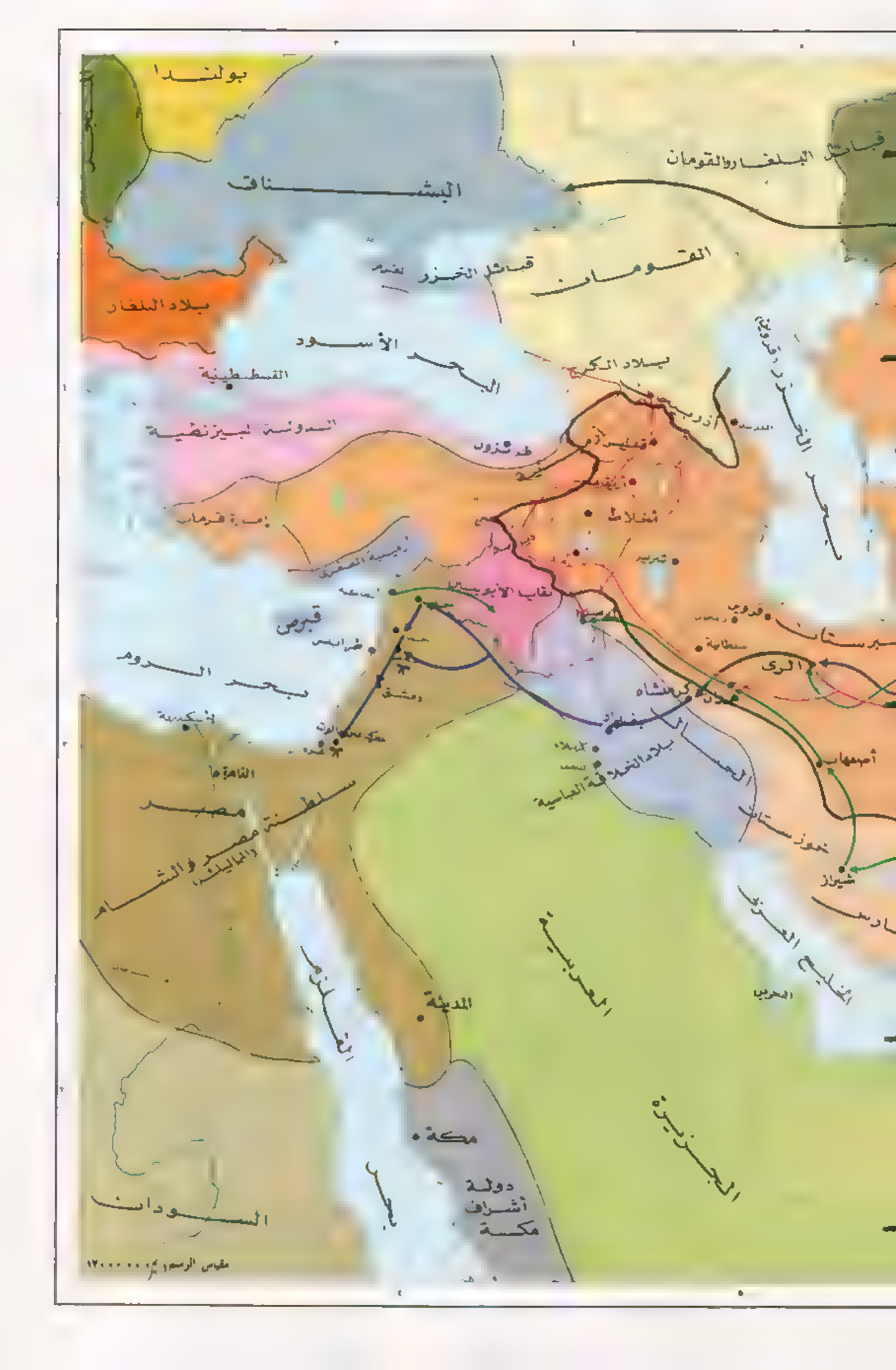

بولندا
البشناق
قبائل البلغار والقومان
قبائل الخزر
القومان
بلاد البلغار
البحر الأسود
القسطنطينية
بلاد الكرج
الدولة البيزنطية
طرابزون
تفليس
خلاط
تبريز
إمارة قرمان
قبرص
بحر الروم
دمشق
الري
أصفهان
كرمنشاه
بغداد
بلاد الخلافة العباسية
سلطنة مصر والشام (المماليك)
مصر
القاهرة
شيراز
خوزستان
الخليج العربي
المدينة
مكة
دولة أشراف مكة
الجزيرة العربية
السودان

قبائل القراخطاى
خوارزم
دولة القراخطاى
إيلخانية التركستان
طشقند
التتار
ترمذ
مرو
بلخ
خراسان
نيسابور
كشمير
البنجاب
دولة آل كرت
هراة
كابل
غزنة
الغور
سجستان
كرمان
دهلى
أجرا
الهند
السند
الديبل
حيدر آباد
خليج عمان
بحر العرب
أتابكية فارس
إيلخانية إيران والدويلات
بلاد المغول القراخطاى
التتار
بلاد الكرج
سلاجقة الروم
أرمينية الصغرى
بلاد البلغار

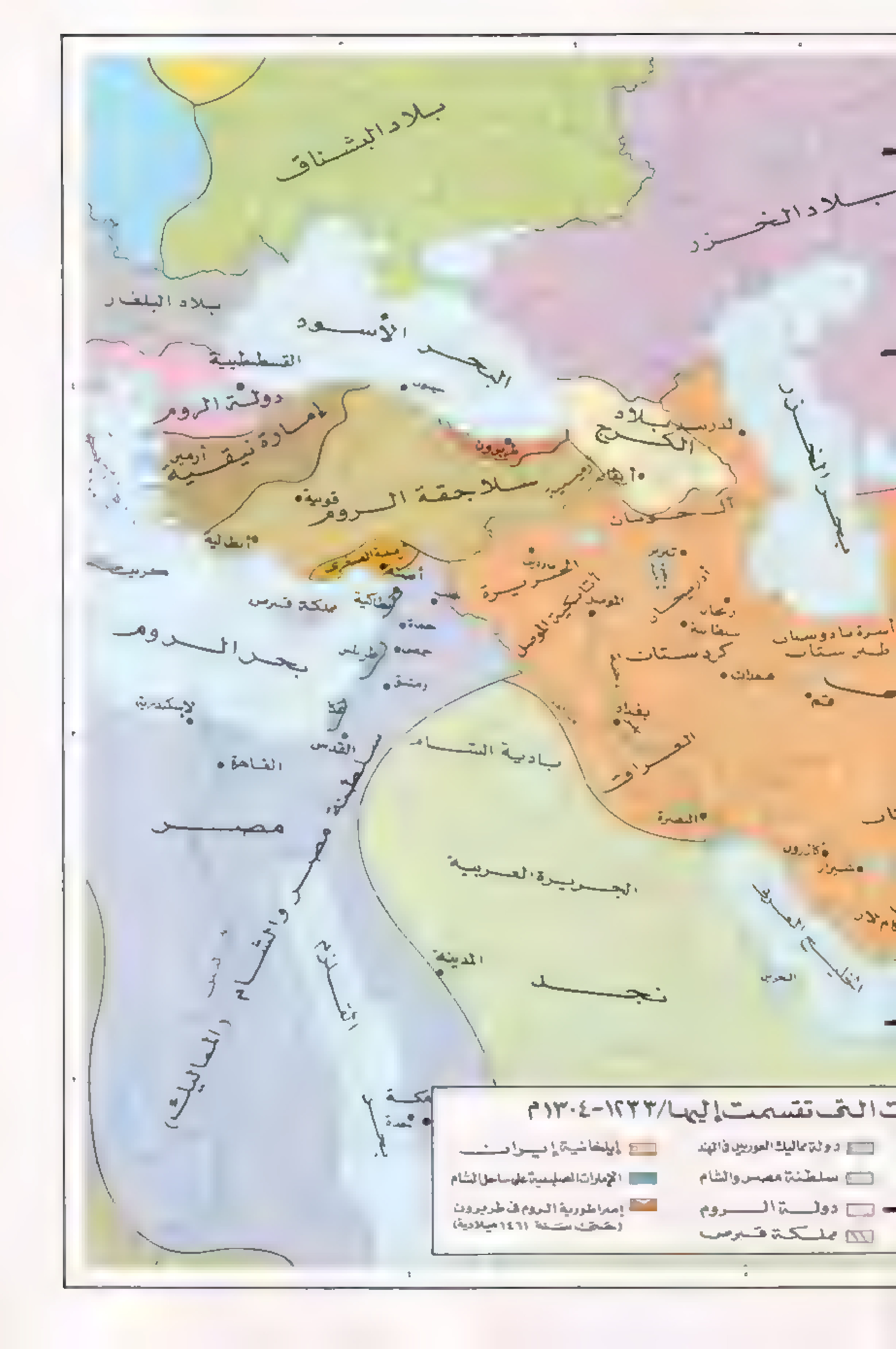
بلاد الشناق
بلاد الخزر
بلاد البلغار
البحر الأسود
القسطنطينية
دولة الروم
إمارة نيقية
سلاجقة الروم
قونية
أنطالية
بلاد الكرج
الكرج
تبريز
أذربيجان
زنجان
سلطانية
كردستان
همذان
قم
بغداد
العراق
البصرة
الموصل
الجزيرة
أنطاكية
مملكة قبرص
حماة
حمص
طرابلس
دمشق
بحر الروم
الإسكندرية
القدس
القاهرة
مصر
بادية الشام
الجزيرة العربية
سلطنة مصر والشام (المماليك)
المدينة
نجد
مكة
جدة
كازرون
شيراز
ت التي تقسمت إليها/١٢٣٣-١٣٠٤م
إيلخانية إيران
دولة مماليك الغوريين في الهند
الإمارات الصليبية على ساحل الشام
سلطنة مصر والشام
إمبراطورية الروم في طربزون (سقطت سنة ١٤٦١ ميلادية)
دولة الروم
مملكة قبرص

المغـــول
بلاد الصين
بلحاية قوبلاي خان
خانية بركة
بحيرة خوارزم
ما وراء النهر
الشاش
كاشغر
بخارى
سمرقند
كش
آل أرغون شاه
مشهد
مرو
خراسان
هراة
دولة آل كرت
ملوك سجستان
قندهار
كرمان
دولة آل مظفر
لاهور
ملتان
دهلي
الهند
أحمد أباد
حيدر أباد
خليج عمان
بحر العرب
تفكك إيلخانية إيران إلى دويلات
(٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م)
وغزوات تيمورلنك ودولته في أقصى اتساعها
وصراعه مع العثمانيين
غزوات تيمورلنك الخمس الكبرى بأرقامها
من ٧٨٥/ ٨٠٨ هـ - ١٣٨٣/ ١٤٠٥ م
مقياس الرسم ١ : ١٢٠٠٠٠٠٠

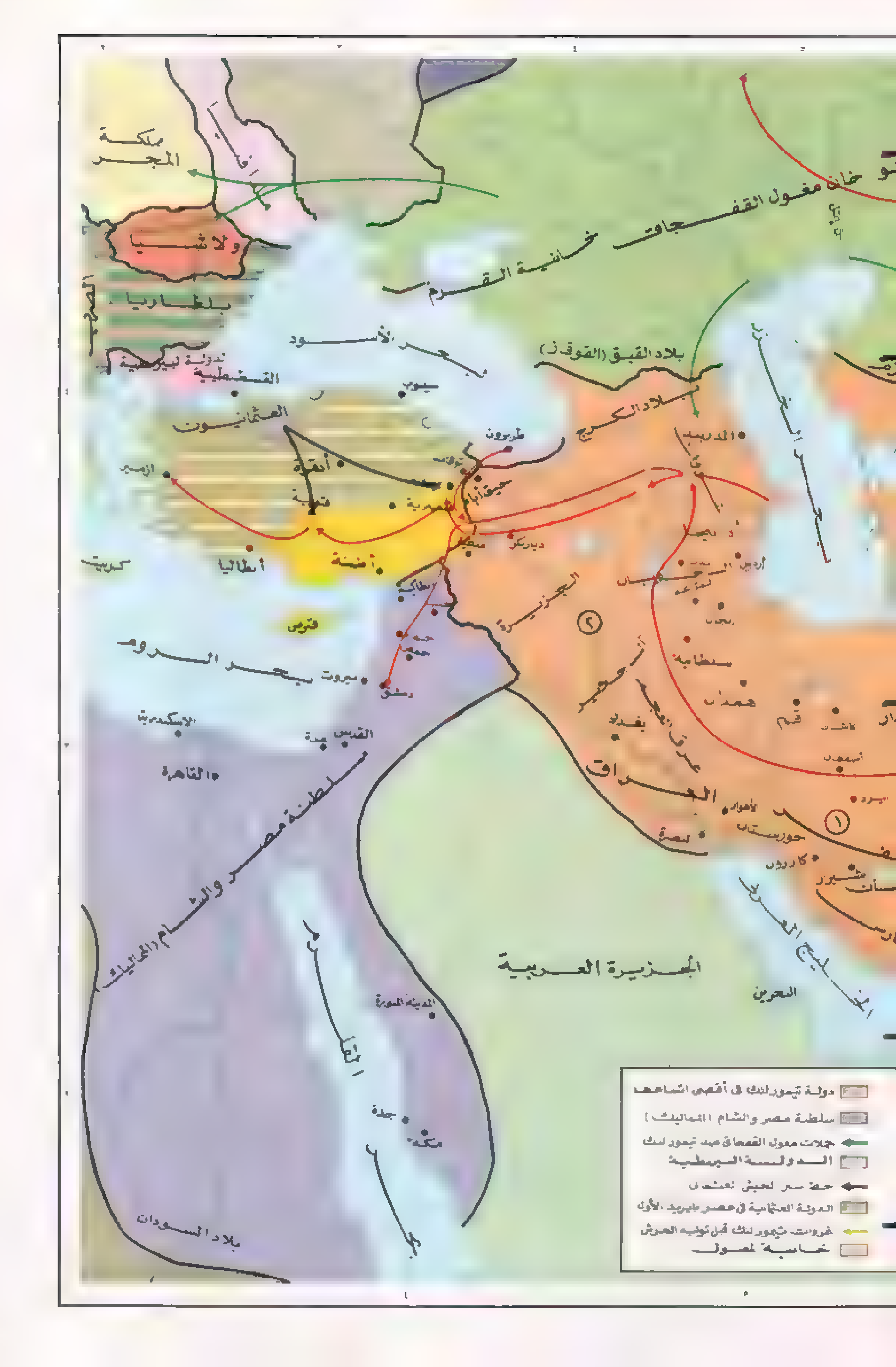

مملكة المجر
ولاشيا
بلغاريا
دولة البيزنطية
القسطنطينية
بحر الأسود
سينوب
العثمانيون
أنقرة
قونية
الزمير
أنطاليا
أضنة
كريت
قبرص
بحر الروم
بيروت
دمشق
حلب
الإسكندرية
القاهرة
القدس
سلطنة مصر والشام (المماليك)
الجزيرة العربية
المدينة المنورة
جدة
مكة
بلاد السودان
البحرين
طربزون
سيواس
ملطية
ديار بكر
الجزيرة
بلاد الكرج
بلاد القبق (القوقاز)
الدربند
خانية القرم
مغول القفجاق
العراق
بغداد
البصرة
الأهواز
خوزستان
كازرون
شيراز
همذان
قم
كاشان
أصفهان
سلطانية
زنجان
أردبيل
دولة تيمورلنك في أقصى اتساعها
سلطنة مصر والشام (المماليك)
الدولة البيزنطية
الدولة العثمانية في عصر بايزيد الأول

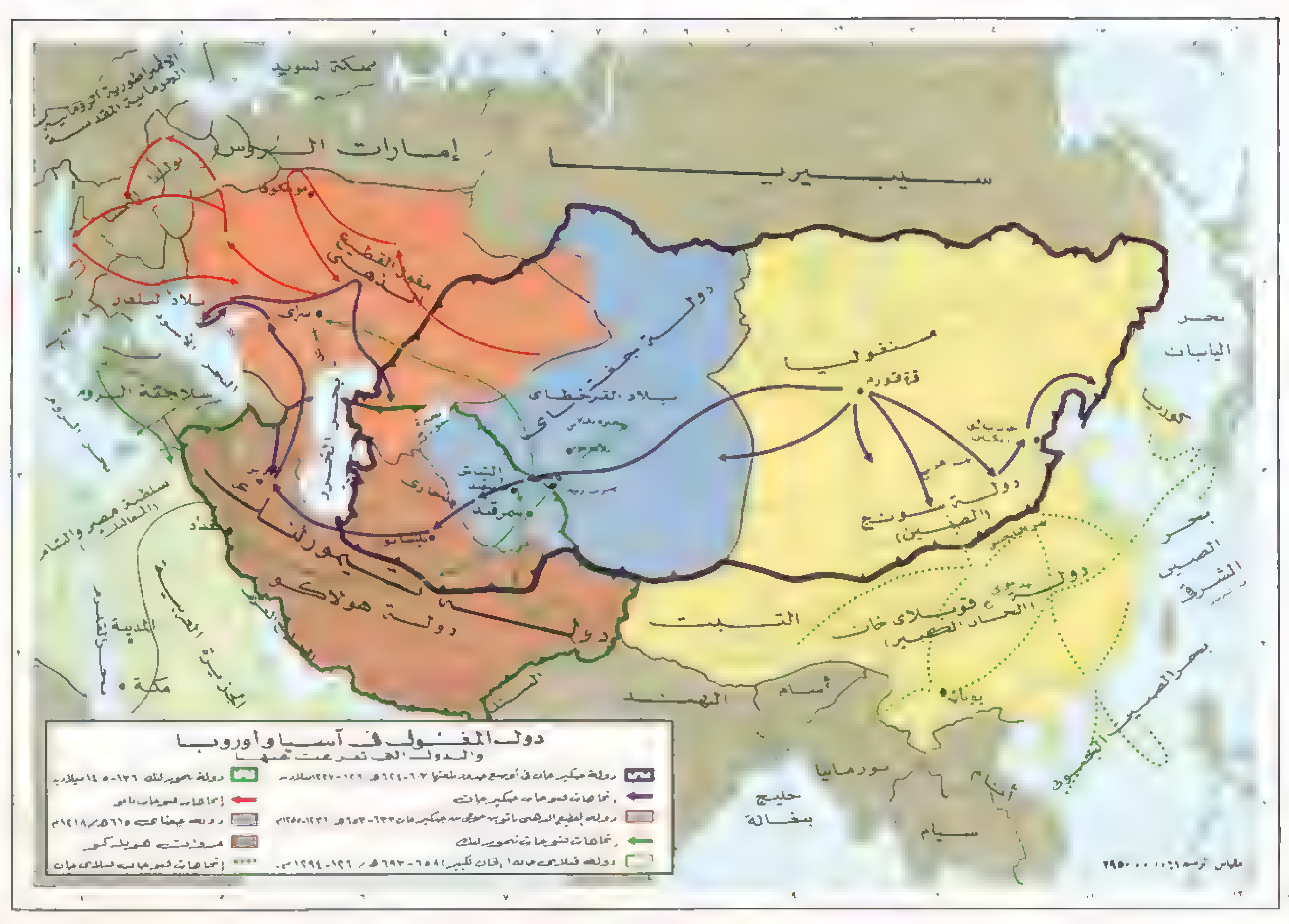
دول المغول في آسيا وأوروبا
والدول التي تفرعت عنها
مملكة السويد
إمارات الروس
سيبيريا
منغوليا
قراقورم
بلاد القرخطاى
دولة جغتاى
دولة سونج (الصين)
دولة قوبيلاى خان
التبت
الهند
أسام
يونان
بورما
سيام
خليج بنغالة
بحر اليابان
كوريا
بحر الصين الشرقي
بحر الصين الجنوبي
دولة هولاكو
دولة تيمورلنك
مغول القطيع الذهبي
سراى
بلاد البلغار
البحر الأسود
سلاجقة الروم
بحر الروم
سلطنة مصر والشام
بغداد
سمرقند
بخارى
المدينة
مكة
الجزيرة العربية
بحر القلزم

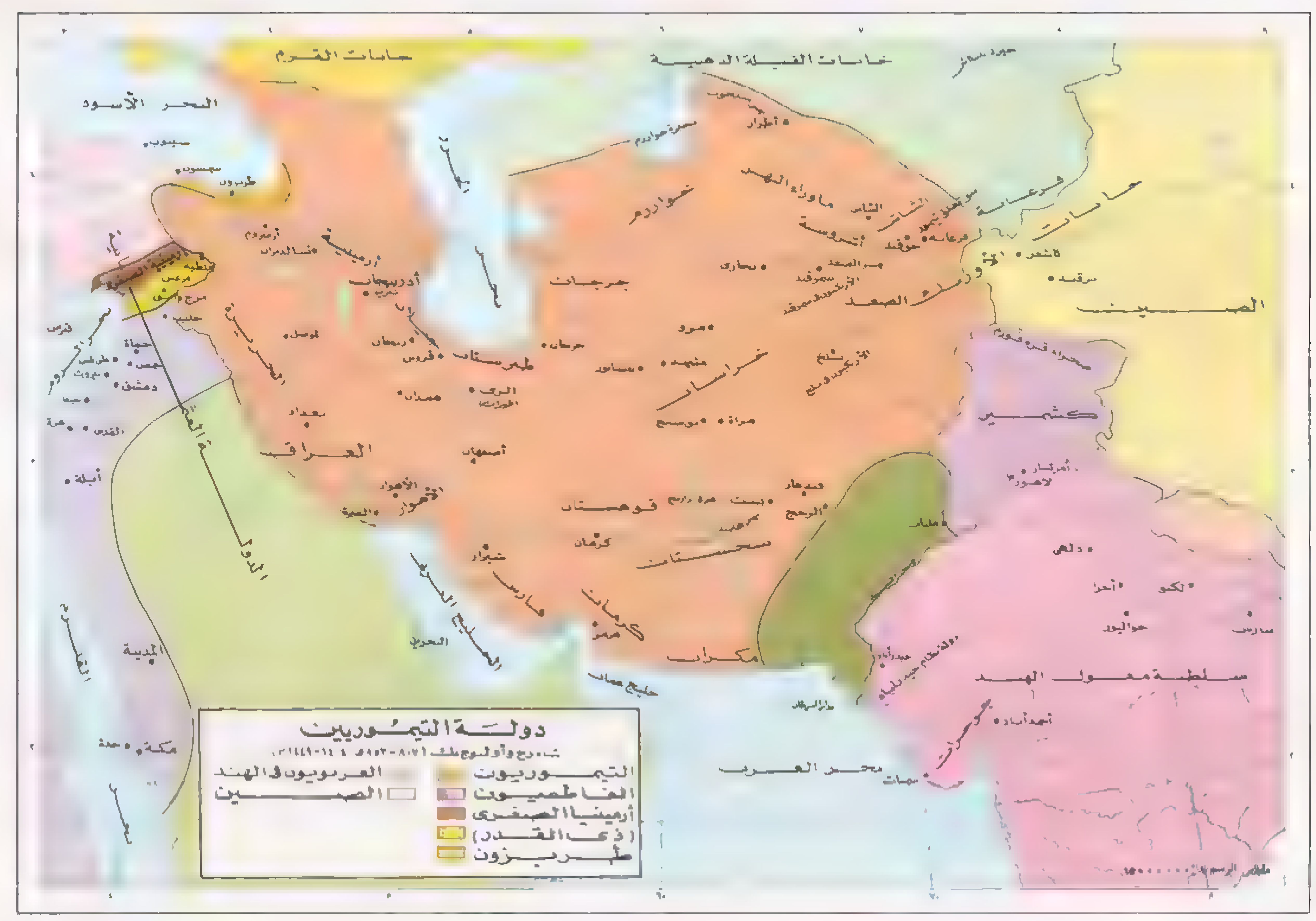
دولة التيموريين
التيموريون
أرمينيا الصغرى
(ذى القدر)
طرابزون
العربويون في الهند
الصين
خانات القرم
خانات القبيلة الذهبية
البحر الأسود
الصين
خوارزم
ماوراء النهر
جرجان
طبرستان
خراسان
أذربيجان
العراق
فارس
كرمان
مكران
سجستان
قوهستان
كشمير
سلطنة مغول الهند
بحر العرب
الخليج العربي
بغداد
دمشق
المدينة
مكة
شيراز
كرمان
سمرقند
بخارى
مرو
أصفهان
همدان
دلهى
طربزون
خليج عمان

دولـــــــــة الصفويين
(٨٩٨ - ١١٤٨هـ/١٤٩٢ - ١٧٣٥م)
خانات الأوزبك فيما وراء النهر
الدولة العثمانية
غزوات الشاه عباس الصفوي
دولة سلاطين مغول الهند
الصين
مقياس الرسم
خانات القرم
البحر الأسود
خانات القبيلة الذهبية
خوارزم
خانات الأوزبك
الصين
طبرستان
خراسان
قوهستان
سجستان
كرمان
فارس
مكران
كشمير
سلطنة مغول الهند
البحر العرب
خليج عمان
الخليج العربي
الجزيرة العربية
المدينة
القدس
بحر القلزم
أرمينية
أذربيجان
تبريز
أصفهان
شيراز
هراة
مرو
مشهد
بخارى
سمرقند
قندهار
الرخج
دلهي
لاهور
أحمد آباد
ديو
كجرات

خريطة ١٠٩

الجناح الشرقي لدولة الإسلام
عصر السيادة العربية

بعد فتوح قتيبة بن مسلم الباهلي استقر سلطان العرب في كل بلاد إيران من حدود العراق الشرقية إلى حوض السند وفرغانة شرقاً ، وامتد إلى بلاد ماوراء النهر ومايليه شمالاً إلى بلاد الأتراك القرغانية في التركستان الصينية في حوض التاريم وبحيرة بلكاش ، حيث كانت المواطن الأولى للأتراك الغزية وتليهم إلى الغرب « شمال التركستان » منازل الأتراك القفجاق ثم الترك الخزر ، ومنازلهم شمال البحر الأسود وجزيرة القرم ، ثم الأتراك البلغار جنوبي حوض نهر الطونة ، وإلى شمالهم الشاق ، ثم الأتراك الأيغور الذين يسمون في بعض النصوص العربية « الأويرانية » . وكان الغز والأيغور يتوالون على نسق حتى يتصلوا بالمغول الذين كانت منازلهم تبدأ في حوض التاريم وبحيرة بلكاش ، وتمتد بلاد المغول إلى صحراء جوبي وصحراء منغوليا وتنتهي شرقاً عند سور الصين حتى تمكن جنكيزخان من تخطي سور الصين وغزوها . وبلي ذلك شرقاً شعوب الصين وهي تنتمي إلى جنس آخر يمتد إلى المحيط الهادي .

وكانت الشعوب الإيرانية ذات التاريخ الطويل منذ العصور القديمة والتي عرفت عندما باسم الفرس تنتهي على وجه التقريب عند نهر المرغاب الذي يجري منحنياً من الشمال إلى الشرق جنوبي نهر جيحون ، وهو نهر مرو ومرو الروذ ، وبعد ذلك شرقاً تبدأ شعوب برك وأوطهم لترك العربية ، وهم أكثر لأتراك أثراً وأكبرهم دوراً في تاريخ الإسلام ومنهم السلاجقة والعثمانيون والأوزبك ومعظم المماليك ، ومنهم الهياطلة **Hephtalites** أهل طخارستان الذين حاربهم وهزمهم قتيبة بن مسلم وأدخلهم في الإسلام ، ولما كانت هضبة إيران قبل الإسلام قسمة بين هؤلاء الأتراك والإيرانيين فقد سميت هضبة إيران كلها باسم بلاد توران وإيران ، وكان الجنسان متحاجزين حتى أيام الساسانيين .

وإلى العرب يرجع الفضل في إزالة الحواجز العنصرية والحضارية بين الطورانيين والإيرانيين ، فقد ذاب الجانب الأكبر من تلك الفوارق في بوتقة الإسلام وحضارته ، وإلى الإسلام يرجع الفضل في إدخالهم عالم الحضارة والتاريخ ، وأول دولة كبيرة منهم هي دولة الغزنويين صاحبة الدور العظيم في تاريخ الإسلام ، ويليهم في الأهمية الأوزبك الذين دخلوا بلاد ماوراء النهر واستقروا فيها ، ثم الغوريون في جنوب شرق الهضبة الإيرانية وفي أفغانستان الحالية .

وهذه الشعوب التركية كانت تزحف شيئاً فشيئاً وتدخل بلاد الإسلام وتتحضر ، تدفعها إلى الشرق جماعات المغول ، وكان الجنسان يعيشان في سلام نسبي حتى قامت دولة الخوارزمشاهية التي سنتحدث عنها ، وتحرشت بالمغول واستثارت جنكيزخان المغولي الكبير ، ودفعته إلى السير بقواته غرباً وغزو بلاد الأتراك والإيرانيين والعرب ، والقضاء على خلافة بغداد ، وقد أسلم من المغول جانب كبير بعد أن خربوا بلاد الإسلام في هضبة إيران وبلاد ماوراء النهر ، وجاءت دولة تيمورلنك الذي يقال إنه حفيد جنكيزخان ، وهو سلطان مسلم ولكنه قام بدور رهيب في تخريب بلاد الإسلام ، ولم يهدأ أمر المغول إلا في عهد سلطانهم العظيم أولوغ بك وكانت قاعدته سمرقند ، وكانت هي أيضاً عاصمة تيمور .

وكان الترك الطورانيون يعيشون قبائل كبيرة أو صغيرة ، أما المغول فكانوا يعيشون قطعاناً ضخمة تسكن بيوتاً من شعر الماعز ، وأهم أقسامهم مغول القطيع الذهبي يليهم شرقاً مغول القطيع الأسود .

أما التتار فهم قبيل قائم بذاته كان يسكن شرق بلاد المغول ، وكانوا بدوا واستمروا بدوا في حين أن الأتراك والمغول تحضروا واستقروا بفضل الإسلام . ولم يتحضر من التتار إلا الذين هاجروا إلى الغرب ودخلوا الإسلام ، أما بقيتهم التي ظلت في مساكنها في بلاد الإستب شمال شرق بلاد المغول فقد ظلوا بدواً ، وديانتهم الشامانية . وكانوا ينقسمون إلى التتار البيض وإلى جنوبهم التتار السود ، وإلى التتار جميعاً تمتد بلاد سيبريا ، وفيها عاش التتار الموغلون في البداوة ، وكان المغول يسمونهم تتار الغابة ، وكان توحش التتار السبب في تجمع المغول (وكانوا يسكنون غرب سور الصين) وإنشائهم دولة واحدة هي التي بلغت ذروة قوتها ونشاطها أيام جنكيزخان .

تلك هي الصورة البشرية للبلاد التي كانت تلي العراق ، وهذه الشعوب — بمن فيهم الإيرانيون — هي التي ستدخل الإسلام وتتولى نشره في شرق الصين وبلاد الهند ، وكان انتشار الإسلام شرقاً عملية تتابع بدأها العرب بإدخال الإيرانيين ثم جانب عظيم من الطورانيين في الإسلام ، وهؤلاء أخذوا الراية من الإيرانيين ، ونشروا الإسلام في غرب الصين وشبه القارة الهندية . وفي الشمال نشروه في بلاد ماوراء النهر ، وآسيا الوسطى إلى الروسيا وسيبريا .

هذا مدخل موجز لابد منه لفهم اتساع الإسلام شرقاً والرسالة الحضارية الكبرى التي قام بها لأجناس عظيمة من البشر .

ونقول بعد ذلك إن قتيبة بن مسلم الباهلي هو صاحب الفضل الأعظم في إدخال الأتراك شرقي نهر المرغاب وفي بلاد ماوراء النهر في الإسلام ، وكان هذا الرجل من الجلالة بحيث سحرت شخصيته الأتراك فدخلت جماعاتهم الإسلام إعجاباً بشخصه الذي بدا لهم رمزاً للعصبية والشهامة والرجولة ، وقد وصل هذا الرجل بحملته وبسالة رجاله إلى كاشغر قاعدة بلاد فرغانة التي كانت المنطقة الفاصلة بين الأتراك والمغول ، وبلغ من تأثير شخصية قتيبة أن امتد الإسلام في بلاد المغول في قلب آسيا حتى بحيرة لوب نور وبوابة زنجاريا ، وهذا الرجل هو الذي ألغى نهر المرغاب كحد فاصل بين الإيرانيين والطورانيين وجعل بلادهم كلها بلاد إسلام .

ومن حسن الحظ أن المسلمين حينما دخلوا بلاد إيران وطوران تركوا الناس على حالهم ، فمن أسلم أصبح أخا مسلماً ، وأما من أراد التمسك بعقيدته فقد تركوه وقبلوا منه الجزية ، حتى الرؤساء تركوهم على حالهم مادامو لم يعتدوا على الإسلام ، وكان لابد أن يسلم أولئك الناس فإن الإسلام غلاب ، وحكام المسلمين في الشرق حتى أيام هشام بن عبد الملك على الأقل كانوا ممتازين في جملتهم ، وصاحبت حركة الإسلام حركة استعراب ، وكانت تسير سيراً طيباً حتى نهاية الدولة الأموية ، وعندما قامت الثورة العباسية في خراسان سار الألوف من عرب إيران في الجيوش العباسية غرباً للقضاء على الدولة الأموية ولم يعودوا إلى خراسان أو إيران مرة أخرى ، فإذا أضفنا إلى ذلك من هلك من العرب في حروب

العصبيات تبينا لماذا ضعف العنصر العربي في إيران ومايليها شرقاً ، ولما كان العرب هم محورة التعريب فقد تراخت حركة التعريب ، بل توقفت وحدث العكس ، بدأت الأقلية العربية هناك تتكلم الإيرانية ، أما أولادهم فقد نشئوا لايعرفون العربية لأن أمهاتهم كن إيرانيات ، وكذلك كانت البيئة التي نشئوا فيها كلها إيرانية ، وهنا أخذت الروح الإيرانية تنتعش ودبت الروح في اللغة والحضارة الإيرانية ، وأخذت الحركة صورة رد فعل إيراني معاد للعرب وأيد ذلك كله أن الدولة العباسية وهي دولة عربية أصيلة قامت في محيط إيراني خارج النطاق العربي ، فبدأت الإيرانية تحل محل العربية ، وبدأت سيطرة العنصر الإيراني على الوزارة ودواوين الدولة ، وتراخت الدولة العباسية مع حكام النواحي في إيران ومايليها شرقاً ماداموا يظهرون الولاء للبيت العباسي ويؤدون الأموال ، فظهرت دول إيرانية في بعض الولايات وإن ظل الطابع العربي السياسي غالباً على إيران ، ويتجلى هذا في الدولة الطاهرية التي أقامها رجل من أصل إيراني هو طاهر بن الحسين ، فقد كانت دولة عربية اللغة والطابع الظاهري ، وحذا حذوها في ذلك أصحاب الدويلات الإيرانية التي قامت حتى نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي . ولهذا فقد خصصنا هذه الخريطة الأولى من خرائط الجناح الشرقي لدولة الإسلام من العراق إلى حوض السند لعصر السيادة العربية ؛ لأنه حتى إذا كانت الدول التي قامت في بعض النواحي ذات أسماء إيرانية فإنها كانت ذات طابع عربي ، وكانت اللغة العربية لغتها .

وأكبر هذه الدول كما ترى في الخريطة الدولة الطاهرية ، ثم دولة الحسن الأطروش في مازندران ، وهي دولة عربية قامت على يد رجل من أعاظم أهل البيت وهو الحسن ابن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وكان لهذه الدولة دور عظيم جداً في إدخال ولاية مازندران وهي طبرستان وماحولها من بلاد جيلان وأذربيجان وقوهستان وجرجان في الإسلام ، ومن المعروف أن المسلمين في توسعهم السريع تركوا خلفهم مساحات واسعة دون إسلام ، وبعض هذه المساحات نشر الإسلام فيها رجال الحسن الأطروش ، وبعضها الآخر أدخله الدعاة والصوفية في الإسلام ، وبعضها نشر الإسلام فيها رجال لم يعرفوا الإسلام معرفة صحيحة فأصبح الإسلام فيها محرفاً ، وظل أهلها مسلمين في الظاهر ، وتلك هي الثغرات التي نفذ إلى السلطان منها دعاة غير مسلمين في الباطن أساءوا إلى الإسلام وإلى أهل إيران أشد إساءة ، وقد عانت إيران من ذلك زماناً طويلاً وآلاماً بعيدة المدى .

وقد رسمت في هذه الخريطة حدود أهم الولايات والأقسام الإدارية الإيرانية . واعتمدت في ذلك على كتب جغرافية وغيرها من مؤلفات العرب ، وأفدت كذلك في وضع خطوط الحدود من كتاب جي لسترينج المذكور في المراجع وخرائطه ، وكلها تقريبية لأننا لانعرف على وجه الدقة أين وكيف كانت تسير خطوط الحدود .

وقد بينا على الخريطة الدولة الطاهرية التي حكمت بعض أجزاء إيران من ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م إلى سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م ، وكان طاهر بن الحسين بن مصعب إيراني الأصل ولكنه كان مستعربا ، وقد دخل بين حكام الدولة العباسية من العرب ، وقد حاول طاهر ابن الحسين أن يخلع طاعة العباسيين فأسقط اسم المأمون من الخطبة سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م ولكنه مات في نفس الليلة التي قطع فيها الخطبة ، وولى المأمون ابنه عبد الله بن طاهر مكانه ، وكان والي الرقة في بلاد الجزيرة فأرسل المأمون أخاه طلحة مكانه ، والطاهريون كانوا أول دولة نصف مستقلة في تاريخ إيران الإسلامي ، ولكن إيران طوال حكمها الذي دام خمسين سنة كانت تحت السيادة العربية ، وقد امتد سلطان بني طاهر إلى خراسان وكرمان إلى جانب ولايتهم الأولى في طبرستان ، وكانت عاصمتهم الري ثم نقلوا العاصمة إلى نيسابور قاعدة خراسان ، وقد قضى على دولتهم يعقوب بن الليث الصفار وهو إيراني .

وكذلك كان كل ولاة ولايات إيران في ذلك العصر يعملون في خدمة الدولة العباسية وإن كانت أسماء بعضهم إيرانية وأهم هؤلاء :

بنو دلف العجلي .

وهم عرب أولهم أبو دلف القاسم بن عيسى بن إدريس العجلي في بلاد الأكراد وقاعدتهم الكرج ، وقد دامت دولة بني دلف من ٢١٠ إلى ٢٨٥ هـ / ٨٢٥ – ٨٩٨ م .

دولة بانيجور : ومؤسسها أبو داود محمد بن أحمد بن بانيجور .

منطقة نفوذهم بلخ وترمذ وأندرابة وبنجهير وإقليم الباميان من ٢٦٠ هـ إلى ٣٧٢ هـ / ٨٧٣ – ٨٧٤ – ٩٨٢ م .

دولة آل محتاج في الصغانيان .

وقد دامت الدولة من ٣٢٠ هـ إلى ٣٤٠ هـ / ٩٣٢ – ٩٥١ م .

بنو سيمجور بخراسان .

وهم تابعون لقوهستان من ٣٠٠ هـ إلى ٣٨٧ هـ / ٩١٢ – ٩٩٧ م .

بنو أحمد بن فريغون في الجوزجان وبلخ .

من حوالي ٢٧٩ هـ إلى ٤٠١ هـ / ٨٩٢ – ١٠١٠ م .

بنو مكرم بن حرب حكام أندرابة .

من حوالي ٣٥٩ هـ إلى ٣٧٤ هـ / ٩٧٠ – ٩٨٤ م .

آل أفراسيات المعروفون بالإيلك خانات في بلاد ماوراء النهر .

من ٣١٥ هـ إلى ٤٤٩ هـ / ٩٢٧ م – ١٠٥٧ م وقاعدتهم سمرقند ، وفي غرب بلاد ماوراء النهر آل بغراتكين أبو علي الحسن بن بغراخان وقاعدتهم بخارى من ٤٠٦ هـ إلى ٥٧٩ هـ / ١٠١٥ – ١١٨٣ م . وقد قضى عليهم وحل محلهم الخوارزمشاهية .

آل طغرل خان بن يوسف قدرخان في كاشغر والخوكان وبلاساغون .

من ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م إلى ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م . ويلاحظ أن بعض تلك الأسر حكمت مستقلة في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ومايليه ، ولكنها كانت تحكم باسم الخلافة العباسية ، وحكمها على هذا امتداد لعصر السيادة العربية .

خريطة ١١٠

الجناح الشرقي لدولة الإسلام
عصر الدول المحلية الإيرانية
الدولة الصفارية ٢٦١ هـ – ٣٧٩ هـ / ٨٧٥ – ٩٨٩ م

مؤسسها يعقوب بن الليث الصفار ، وكان أصله مع أخيه عمرو من مطوعة المجاهدين المسلمين في سجستان ، يعملون على حماية سجستان وفارس وكرمان من حالة الفوضى التي تعرضت لها من ثورات الخوارج ، وكانوا قوة كبيرة من الجند الإيرانيين الذين بدءوا عملهم مع صالح بن نصر الكناني فاتح سجستان . وقد ظهر أمر يعقوب بن الليث الصفار وصار من كبار قادة المطوعة ، وظهر أمره سنة ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م واستولى على سجستان ولكن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين صاحب خراسان استردها منه ، وولي قيادة المطوعة في سجستان لدرهم بن الحسين ، وكان يعقوب بن الليث الصفار يعمل تحت إمرته ، ثم تغلب يعقوب على درهم وسار رئيس المطوعة وحارب الخوارج والشراة ، وكان لهم سلطان كبير في سجستان فغلب عليهم يعقوب بن الليث الصفار وتولى أمر سجستان وانفرد بها ، ثم مد نفوذه على هراة وبوشنج ، ثم دخلت جيوشه نيسابور قاعدة الدولة الطاهرية وأزالتها .

وقد حكم من آل الصفار يعقوب بن الليث الصفار ، وأخوه عمرو وحفيد عمرو هذا واسمه طاهر بن محمد بن عمرو ، وغلام من غلمانهم يسمى سبك السبكرى ، وقد امتد سلطان الصفاريين على سجستان وكل ماكان بيد طاهر بن الحسين من خراسان وطبرستان وجرجان وجزء من بلاد ماوراء النهر وكرمان والسند والأهواز ، وأرغم الخليفة المعتمد وأخوه الموفق على توليته شرق بغداد ، واستولى على جنديسابور من بلاد الجبال .

وكان يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو وبقية آل الصفار طواغيت عسكريين حاربوا دولة الخلافة ، وإن كانوا في طاعتها الاسمية ، وعجز الخليفة المعتمد وأخوه طلحة الموفق عن الثبات لهم . وقد نزعت الدولة العباسية تأييدها لهم في أيام عمرو بن الليث ، وكان لذلك أثر في زوال دولتهم بخاصة عندما نهض السامانيون للقضاء عليهم .

الدولة السامانية (٢٨٦ هـ – ٣٠٨ هـ / ٨٩٩ م – ٩٢٠ م) .

وهذه دولة إيرانية أخرى قامت في نفس العصر ، وهي تختلف في الطبيعة والتكوين عن دولة الصفاريين .

فإذا كانت دولة الصفاريين دولة أسرة عسكرية طامعة في الرياسة والأموال فحسب فإن دولة إسماعيل بن أحمد الساماني ٢٧٩ – ٢٩٥ هـ / ٨٩٢ – ٩٠٧ – ٩٠٨ م كانت دولة إيرانية الروح والاتجاه ، فإن أصحابها كانوا يزعمون – مثل البرامكة – أنهم من أصل

إيرانى عريق ، وينسبون أنفسهم إلى بهرام جور ملك فارس من آل ساسان ، وسامان منشىء الأسرة كان من عمال المسلمين المعجبين بالعرب ، فقد أسلم وسمى ابنه الأكبر أسداً باسم أسد بن عبد الله القسرى عامل خراسان فى العصر الأموى ، وعندما جاء المأمون ولى أبناء أسد بن سامان ولايات كبيرة فى الشرق : فولى نوح بن أسد سمرقند سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م وأحمد بن أسد فرغانة ويحيى بن أسد الشاش وأشروسنة وإلياس بن أسد خراسان ، وعندما تولى طاهر بن الحسين خراسان أقر هؤلاء السامانيين على ولاياتهم ووافق المأمون على ذلك ، فدخل تاريخ الهضبة الإيرانية بذلك فى العصر الذى يمكن أن نسميه بعصر الدول الإيرانية ، ونتيجة قيام الدولة الطاهرية والسامانيين بالحكم فى قسم واسع من هضبة إيران وبلاد ماوراء النهر أن تطلعت أسر إيرانية أخرى إلى الحكم فى نواحيها ، وبذلك صار معظم الشرق بأيديهم ، وطمع أكبر أمراء البيت السامانى فى الاستيلاء على بقية الشرق ، فضم الرى وقزوين إلى دولته سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م ، وتمكن أحمد بن إسماعيل وابنه نصر من إزالة الدولة الصفارية ، وفى المحرم ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ – ٩٠٨ م استولى السامانيون على سجستان ، ودخلوا فى صراع مع آل حمدان أصحاب الموصل وحلب وهددوا الخليفة العباسى وأخافوه ولكنهم لم يخرجوا عنه . ولم يكن للسامانيين سياسة رشيدة ولا اتجاه واضح ، وعصرهم كله عصر حروب بعضهم مع بعض ، ومع نفر من المستبدين بالولايات ، ومعظمهم كانوا إما من رجال الصفاريين أو البويهيين أو السامانيين مثل أبى الحسن بن سيمجور وفائق الخاصة غلام نوح بن نصر السامانى ، وهارون بن سليمان إيلك المعروف ببغراخان التركى وسبكتكين صاحب غزنة ، وقد ذكرنا بعض هؤلاء بين أصحاب الدول ، وكان زوال السامانيين على يد الغزنويين .

وكان للسامانيين إحساس إيرانى واضح . فقد جعلوا الفارسية لغة لهم وناصروا الأدب الإيرانى ، ولكن اللغة العربية كانت لغة الفكر فى عصرهم ، وبها كتب المفكرون الذين ظهروا فى عصرهم وعاشوا فى ظلهم وعاشوا على أموالهم وأكبرهم أبو بكر الرازى الطبيب مؤلف الكتاب المنصورى (وهو منسوب إلى أبى صالح منصور بن إسحاق السامانى) وابن سينا . ولكن الأدب الفارسى ظهر فى أيامهم ، فقد عاش فى ظلهم الفردوسى وهو ألف الشاهنامة ، وبالفارسية أيضاً كتب البلعمى صاحب مختصر تاريخ الطبرى .

دولة بنى بويـــه (٣٣٤ – ٤٤٧ هـ) .

بنو بويه دولة فارسية ثالثة تختلف عن دولتى الصفاريين والسامانيين ، فهى دولة من الجند الديلمى ، أى فرق الجنود التى كانت تجند من جبال الديلم جنوبى بحر قزوين ، وهى ولايات طبرستان وجرجان وجيلان ، ونشئوا فى خدمة ماكان بن كالى التركى قائد مرداويج ابن زيار القائد الفارسى الذى ولته دولة الخلافة جرجان وطبرستان وقزوين وزنجان وقم وبلاد الكرج فاستبد بها . وبويه نفسه من أصل خامل ، ويقال إنه كان فى الأصل صياداً ثم دخل فى خدمة مرداويج مع أولاده الثلاثة على والحسن وأحمد ، ثم ارتقوا عنده فولاهم القيادات ، وكان هذا البيت نزوع فارسى ظاهر أخذه رجاله عن مرداويج بن زيار الذى قيل إنه كان يريد أن يستولى على بغداد ، وينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب كما يقول الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٥١ .

وكان مرداويج بن زيار قد شك فى نوايا البويهيين إلا على بن بويه (وكان هذا قد لقب نفسه أبا شجاع بويه) ، فقلده أرجان ، وعندما قتل مرداويج سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٥ م صارت قيادة الجند الديلمى كله إلى على بن بويه الذى اتخذ لقب عماد الدولة وجعل مركزه ولاية فارس ، ثم استدعى أخويه الحسن (لقبه ركن الدولة) وجعله على أصبهان ، والرى وهمذان وبقية بلاد العراق العجمى (الجبال) ، وأحمد الذى تلقب (معز الدولة) وتولى أمر ولاية كرمان ، وتآمر عماد الدولة على بنى بويه مع وزراء الخليفة المستكفى باستدعاء ركن الدولة حمص وإقامته أميراً للأمراء وخلع عليه الخليفة وفوضه فى إدارة دولته فتم ذلك سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م وصار بنو بويه وجندهم أصحاب الأمر فى دولة الخلافة . وقد تقاسم بنو بويه الجناح الشرقى من الدولة ، وانقسم مابيد بنى بويه إلى خمس دول :

(١) بنو مشرف الدولة بن بويه فى العراق ٤١١ – ٤٤٧ هـ / ١٠٢٠ – ١٠٥٥ م

(٢) بنو أبى الفوارس قوام الدولة فى كرمان ٤٠٣ – ٤٤٨ هـ / ١٠١٢ – ١٠٥٦ م .

(٣) بنو ركن الدولة أبى على حسن فى ٣٢٠ – ٤١٤ هـ / ٩٣٢ – ١٠٢٣ م
الـــــــــرى وهمذان وأصبهان

(٤) بنو أبى الحسن على عماد الدولة ٣٢٠ – ٤٤٧ هـ / ٩٣٢ – ١٠٥٥ م .
فى فارس

(٥) بنو معز الدولة أبى الحسين أحمد ٣٢٠ – ٤٠٣ هـ / ٩٣٢ – ١٠١٢ م
فى العراق والأهواز وكرمان

وكان فرع معز الدولة هذا أقوى فروع البويهيين نظراً لسيطرتهم على العراق وشئون الخلافة ، ومنهم عضد الدولة أشهر بنى بويه وأعظمهم سلطاناً ٣٦٧ هـ – ٣٧٢ هـ / ٩٧٧ م – ٩٨٢ م .

أما مايلى فارس والأهواز وكرمان شرقاً فكان فى يد السامانيين ، فى حين أن بلاد الجزيرة وحلب والموصل كانت فى يد الحمدانيين ، وهم أسرة عربية من تغلب ، وبلاد الشام ومصر كانت فى يد الإخشيديين والفاطميين .

وكان بنو بويه أقل أصحاب الدولة الإيرانية قدراً نظراً لسوء سياستهم وأطماعهم وسيطرتهم المطلقة على الخلفاء العباسيين فى بغداد ، وكان فيهم ميل شديد إلى العلوية وإلى ... بظهور التشيع ، ومن هذا ميل العلوى الشديد يرجع حرصهم على الهبوط بقدر خلفاء بنى العباس وإهانتهم مع أنهم كانوا يحكمون باسمهم . ولم تسترد الخلافة العباسية جاهها إلا على أيدى السلاجقة السنيين أصحاب الدولة السنية المشهورة .

الحمدانيـــــون .

ينتسب الحمدانيون إلى زعيم عربى من بنى تغلب يسمى حمدون بن حمدان ، وكانت بلاد الموصل ومايليها شمالاً من بلاد الجزيرة منطقة كثر استقرار القبائل العربية فيها ، فهذه بلاد ديار بكر وديار مضر وديار ربيعة ، ولهذا كانت السيادة فى بلاد الجزيرة ومايليها غرباً من شمال الشام وخاصة حلب لزعماء العرب وأكبرهم آل حمدان هؤلاء ، وكان آل حمدان بعيدين عن السياسة لأول الأمر ، وفى فترة الفوضى التى شملت بلاد الخلافة العباسية انتهز آل حمدان الفرصة ووثبوا على السلطان فى الجزيرة والموصل ، وكان أول من تولاها منهم أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان ٢٩٣ – ٣٠١ هـ / ٩٠٥ – ٩٠٦ – ٩١٣ م . وقد تولى مرة أخرى ولكنه ظل مقيماً فى بغداد حتى توفى سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م وخلفه على الموصل رجال من بيته آخرهم ناصر الدولة بن حمدان الذى طرده من الموصل توزون بن شادان التركى أمير الأمراء فى بغداد سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ – ٩٤٢ م . ولم تكن دولة بنى حمدان فى الموصل دولة بالمعنى الصحيح ، وإنما هم شيوخ قبليون يغلبون على الجزيرة حيناً ، ثم يغلب عليهم غيرهم من قواد الخلافة فى بغداد حيناً آخر ثم يعودون مرة أخرى حتى انتهى أمرهم فى التاريخ الذى ذكرناه .

الحمدانيون فى حـلب .

هذا هو فرع الحمدانيين الأشهر والأقوى ، ومنشىء هذا البيت على بن حمدان وهو أخو ناصر الدولة الحسن بن حمدان الذى ذكرنا أنه كان صاحب الموصل . وكان على ابن حمدان الساعد الأيمن لأخيه ناصر الدولة الحسن . وقد حكم حلب من ٣٣٣ هـ إلى ٣٥٦ هـ / ٩٤٤ – ٩٦٦ م وتمكن من طرد يانس مولى الفاطميين من حلب ، وكان كافور الإخشيدى قد حاول أن يستعيد حلب فانهزمت قواته عند الرستن على نهر العاصى قرب حماه ، وتقدم سيف الدولة طامعاً فى انتزاع دمشق من أيدى الإخشيديين فانهزم ، وكان محمد بن طغج الإخشيد عاقلاً فأراد أن يطمئن إلى أن الحمدانيين لن يهاجموا مايملكه من أراضى الشام ، فترك لهم حلب واتفق مع على على أن يؤدى لهم جزية سنوية حتى لايطمعوا فيما سواها ، ومن ذلك الحين وقفت أملاك الحمدانيين عند حلب ، أما سواها من بلاد الشام فقد ترك للإخشيديين ثم الفاطميين .

وقد نال سيف الدولة على الحمدانى شهرة واسعة بسبب تصديه للبيزنطيين الذين جاوروا بلاده من الشمال . وقد عاصر سيف الدولة رومانوس الأول ليكابينوس سنة ٣٠٨ – ٣٣٠ هـ / ٩٢٠ – ٩٤١ م . ورومانوس الثانى سنة ٣٤٨ – ٣٥٢ هـ / ٩٥٩ – ٩٦٣ م وثلاث سنوات من حكم نقفور فوكاس الثانى أول العظماء من أباطرة الأسرة المقدونية ، وبه يبدأ تفوق البيزنطيين على الحمدانيين ، وقد صمد سيف الدولة للبيزنطيين وكسب بعض الانتصارات عليهم ، ولكن بعد وفاته تدهورت دولته تحت ضربات نقفور فوكاس ، فاحتلت قواته قبرص سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ – ٩٧٦ م وسقطت أنطاكية فى يديه سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م ، بل سقطت حلب نفسها فى يديه فى نفس السنة لأن بقية الحمدانيين الذين خلفوا سيف الدولة كانوا أعجز عن أن يواجهوا قوات نقفور فوكاس . وقد استمر ضعف الجبهة الإسلامية حتى نهاية دولة الحمدانيين فى حلب سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م

وقد اعتدلت الجبهة بعض الشيء على أيدي الفاطميين الذين استولوا على حلب وحكموها من ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م إلى ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م ثم حل محلهم المرداسيون ، وأولهم صالح بن مرداس ٤١٥ هـ - ٤٧٢ هـ / ١٠٢٤ - ١٠٩٧ م ، ثم عاد الفاطميون إلى سيادة حلب وشمال الشام من ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م إلى ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م عندما حكمها مع إقليمها العقيليون لفترة قصيرة . ولم يقف تدهور الجبهة الإسلامية في بلاد الجزيرة وشمال الشام إلا عندما استولى السلطان ملكشاه السلجوقي سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م ، وبه عاد انتصار الإسلام على الروم . ولكن الروم في فترة ضعف الجبهة الإسلامية سيطروا بالفعل على بلاد الجزيرة وشمال الشام حتى أحواز حماة ، ووصلت غاراتهم إلى الناصرة وهددوا بيت المقدس . واستولوا على معظم مدن جند الثغور مثل دهوك وملطية . بل أنشئوا بدءاً ولاية عسكرية ، سموه ، بشمدين الفرات . وجعلوا قاعدته في الرها التي تسمى عند الروم أديسا بالإضافة إلى بلد فاسبوركان Vaspuiakan واستولوا على ثيودوسيوليس وايبريا ، بل أعادوا تنظيم مملكة الأرمن وجددوا بناء عاصمتها عانة Ani وجعلوها ولاية تابعة لبيزنطة بعد موت ملكها يوحنا سنبات Jovhannes Sibet ، وكل ذلك التقدم البيزنطي سيقف عند حده وتعود جبهة الإسلام إلى النصر على يد السلاجقة العظام .

ولكن سيف الدولة كان موفقاً بعض الأحيان في تصديه للبيزنطيين فأغار على زبطرة وطوانة وملطية وانتصر على القائد الرومي قسطنطين قردس الدمستق مرتين : أولهما عند درب موازار ، والثانية عند مرعش وأسره . وهذه هي المناسبة التي أكثر شعراء سيف الدولة فيها ، فقال أبو فراس قصيدته التي مطلعها :

وآب بقسطنطين وهو مكبل ... تحف بطارقة به وزرازر

وعندما انتصر سيف الدولة على قردس نفسه والد قسطنطين قال أبو الطيب المتنبي قصيدته التي مطلعها :

بناها وأعلى والقنا تقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ... ومن جثث القتلى عليها تمائم

خريطة ١١١

خريطة ١١٢

دولتا الغزنويين والغوريين في هضبة
إيران ودخولهم الهند
والدول المحلية التركية

فتوح الغزنويين ثم الغوريين .

كانت الدولتان الغزنوية والغورية تركيتين ، ولكن قيامهما في محيط إيراني جعلهما تأخذان - ثقافياً - طابعاً إيرانياً ، فاللغة الفارسية كانت لغة الدولة والإدارة ومعظم النشاط الفكري ، حقاً لقد كتبت بعض المؤلفات في عصريهما بالعربية ولكن ذلك كان قليلاً . واللغة الفارسية التي ازدهرت في عصريهما لم تكن هي الفارسية التي سادت أيام الساسانيين ولكنها كانت الفهلوية ، وهي الفارسية الجديدة المستعربة ، ومعظم ألفاظ الحضارة فيها عربية . ثم إنها كتبت بالحروف العربية ، وأحسن ماكتب في تاريخ هاتين الدولتين ألف بالفارسية ، لأن الفارسية التي استطالت كانت لغة شعر وملاحم ، ولابد أن يمضي وقت حتى تصبح الفارسية لغة تأليف علمي ، وهذا هو مثاله أبو الريحان البيروني الذي عاش في ظل الغزنويين وألف لهم ولكنه كتب بالعربية ، وقرر أن العربية لا الفارسية هي لغة العلم والفكر والتأليف .

وكان سبكتكين مؤسس الدولة الغزنوية مملوكاً تركيا لألب تكين المولى التركي لعبد الملك بن نوح الساماني سنة ٣٤٠ - ٣٥٣ هـ / ٩٥١ - ٩٦٤ م وكان مع مولاه عندما تولى حكم هراة ، وبعد وفاته ، وكان قد تزوج ابنته ، وعندما توفي ألب تكين تغالب الأمراء على حكم غزنة حتى ولي سبكتكين ليخلفه في حكم غزنة ونواحيها حتى بشاور على نهر السند ، وكانت بشاور عاصمة الإقليم الهندي من دولته التي سميت باسم الدولة الغزنوية ، واتسعت دولته حتى شملت خراسان التي كان نوح بن نصر الساماني قد ولاه سيده ألب تكين والياً عليها . وقد استقل سبكتكين بدولته عن السامانيين ، واتجه نشاطه في التوسع نحو الشرق فاستولى على مدينة قصدار ثم بست وكلتاهما على نهر الهلمند في الطرف الشرقي من إقليم سجستان فيما بين سنتي ٣٣٦ و ٣٦٩ هـ / ٩٤٧ - ٩٧٩ م ومد سلطانه حتى كابل ، ثم استولى على بلاد الهند ، وهي المساحة الواقعة بين مكران آخر ولايات إيران شرقاً وحدود بلاد السند ، ثم أخذ يستعد لدخول بلاد السند ، وهنا تحرك

ملوك نواحي شمال الهند لحربه ، يقودهم الملك جيبال ، والتقى المسلمون في موقعة كبيرة مع جيبال سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩م وكان جيبال أكبر ملوك الهند فانتصروا عليه ، ثم ساروا إلى لمغان وكانت من أكبر بلاد جيبال فاستولى عليها سبكتكين وكسر أصنام البوذية فيها ، وأقام شعائر الإسلام ، ثم انتصر على جيبال مرة أخرى ، ودخلت في طاعته نهائياً بلاد الأفغان والخلج .

عمل سبكتكين على مد حدوده ناحية الشرق ، فوصل بشاور وأسس هناك ولاية جعلها عاصمتها ، وقام بحملات على الثائرين على السامانيين فيما وراء النهر ، ثم قضى على الثوار في خراسان ، فولاه نوح بن منصور الساماني على خراسان سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م .

واجتهد سبكتكين في توسيع ولايته فاستولى على قصدار ثم بست ، وبهذا وضع سبكتكين قدمه في الهند ، واجتهد في مد سلطانه حتى كابل ، وهناك تحرك ملوك نواحي شمال الهند لحربه يقودهم الملك جيبال .

كل هذا قام به سبكتكين باسم السامانيين ، وكان وفياً لهم ، فولوه خراسان أيضاً ، وهنا ثار الخلاف بين نوح بن منصور الساماني وبني البويهيين ، فتقدم سبكتكين وابنه محمود وأوقعا بالبويهيين هزيمة كبيرة واستوليا على نيسابور ، فولى نوح بن نصر الساماني محمود ابن سبكتكين عليها ، وبهذا أصبحت دولة سبكتكين وابنه محمود الغزنويين أوسع من دولة السامانيين أنفسهم . وتوفي سبكتكين سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م وخلفه ابنه محمود ابن سبكتكين الملقب يمين الدولة .

يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوي وفتوحه
(٣٨٩ - ٤٢١ هـ / ٩٩٨ - ١٠٣٠ م) .

لم يكد الأمر يستقر لمحمود حتى بدأ نشاطاً واسعاً في الفتوح وأثبت أنه من أعاظم الفاتحين في تاريخ الإسلام ، حتى قيل إن فتوحه تعدل في المساحة فتوح عمر بن الخطاب ، فقد واصل حملاته على شمال الهند حتى دخلت بلاد البنجاب كلها في طاعته ، واستولى على بلاد الغور وهي الجزء الجنوبي من بلاد الأفغان الحالية ، ثم فتح بلاد ماوراء النهر وثبت أقدام الإسلام فيها ، وتصدى لفروع البويهيين الذين كانوا يسيطرون على وسط وشرق إيران ، وكانت عاصمتهم أصفهان فقضى عليهم نهائياً ، وكانوا من عوامل التفرق والانحلال في الكيان الإسلامي العام ، حتى بلغ ببعضهم أن فكروا في الارتداد إلى العصر الساساني واتخاذ لقب الشاهنشاه ، فكان عمل محمود بن سبكتكين هذا خدمة قدمها للإسلام .

وكانت الدولة السامانية قد شاع فيها الضعف والفساد ، فرأى محمود الغزنوي أنه قد آن الأوان للقضاء عليها ، وتم له ذلك بعد انتصاره على عبد الملك بن نوح الساماني في موقعة حاسمة عند مرو في جمادى الأولى سنة ٣٨٩ هـ / أبريل ٩٩٩ م واحتل نيسابور ، وبهذا انتهت الدولة السامانية في خراسان بينما قضى بغراخان على بقيتها فيما وراء النهر ، وعقب ذلك خطب محمود بن سبكتكين للخليفة العباسي القادر .

واستمرت فتوح محمود غرباً فاستولى على سجستان سنة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ - ١٠٠٣ م .

وفي سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م اتجه محمود شرقاً ففتح بلاد الغور ، وكانوا يسيطرون على المنطقة الوعرة الواقعة بين هراة وغزنة ، ولم يكن الغور على الإسلام فأدخلهم فيه وبعث إليهم الدعاة والمعلمين ، وقضى محمود على بقايا البويهيين في الري وبلاد الجبل ، وهي المناطق الواقعة جنوب بحر قزوين ، ولهذا تسمى قزوين أو الخزر أو طبرستان . وفي كل ناحية كان محمود يفتحها كان يزيل كل المذاهب الخارجة على مذهب السنة والجماعة ، ومن هنا فقد قضى على كل أثر للتشيع أو الاعتزال وغيره في كل البلاد التي دخلها ، وكذلك أزال مذاهب الرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية ومن إليهم ، وهو أول من تلقب بالسلطان من أمراء الغزنويين .

واتجه محمود إلى الشرق فحارب الأتراك الغزية في منطقة بخارى ، فأخضعهم لسلطانه سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م فهربت بقاياهم إلى أصفهان وخراسان ، وظل محمود يحاربهم إلى آخر أيامه ، واستمر ابنه مسعود في حربهم لأنهم كانوا يفرون من موضع لموضع في بلاد جبلية متراميه .

فتوح محمود الغزنوي في الهند .

بعد ذلك وجه محمود كل جهوده للفتح في الهند ، وهنا ندخل في الدور الإيجابي من فتوحه التي مدت حدود الإسلام في الشرق حتى شملت شمال الهند كلها .

واستمرت حروب محمود الغزنوى فى الهند من ٣٩٢هـ – إلى ٤١٥ هـ / ١٠٠١ – ١٠٢٤ م وأخذت طابع الجهاد الإسلامى الأصيل ، وبهذا يكون محمود قد أعاد نشاط أعمال الفتح المجيدة من أوائل القرن الحادى عشر للميلاد، وكانت حدود الإسلام فى أقصى الطرف الغربى أى فى الأندلس تتراجع أمام الضغط النصرانى من الشمال ، وهكذا نرى كيف أن الإسلام كان يكسب فى الشرق ويتراجع فى الغرب .

وقد بدأ محمود فتوحه فى الهند من مركز قوة ، فقد كان يسيطر على إقليم غزنة أى الإقليم الجبلى الذى يشرف على سهول البنجاب ، فكانت مداخل الجبال وممر خيبر فى يده ، كذلك كان محمود الغزنوى قد مد سلطانه على كل بلاد إيران وماوراء النهر . فلم يعد له عدو يدوّنه فى شمال بلاده أو غربها وبهذا تمكن من أن يوجه كل قواه نحو الشرق .

بدأ محمود أعماله فى الهند بأن قاد حملة كبيرة على شمال الهند سنة ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م وانتصر على الملك جيبال راجا بها تنده انتصاراً حاسماً وأخذه أسيراً ثم أطلقه . وقد أحرق جيبال نفسه بعد ذلك وخلفه ابنه أنانندا بال ، وبعد ذلك غزا محمود إقليم ويهندة أو بيرة على رافد للسند يسمى جهلم ، وانتصر على أهله ، وانحدر محمود الغزنوى إلى إقليم الملتان وكان فيها مركز للشوكية فى شمال الهند الغربى ، فاستولى على مدينة بهاتندة ، وكان فيها كذلك جماعات من القرامطة عليهم أمير يسمى « أبو الفتوح داود » فقضى محمود على هذه الجماعة . ثم حارب أنانداپال بن جيبال سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ – ١٠٠٥ م وقضى على كل سلطان له فى البنجاب ، وبعد ذلك مباشرة عمل على نشر الإسلام الصحيح فى كل نواحى السند إلى حوض البنجاب .

وفى سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٧ م أتم محمود الغزنوى القضاء على بقية مملكة جيبال وابنه أنانداپال وحفيده الذى تسميه المراجع العربية باسم نواسة شاه حفيد السنسكريتى الذى ادعى الدخول فى الإسلام ثم ارتد عنه ، وقد قضى عليه محمود وضم بلاده إلى دولته .

ثم اتجه إلى ماوراء النهر وأخرج منها قوات إيلك خان ملك كشغر التركى وأعاد هذه البلاد إلى سلطانه .

وانتهز أمراء شمال الهند فرصة غياب محمود الغزنوى وخلعوا طاعته فسار إليهم فى جيش كثيف وعبر السند سنة ٣٩٨ هـ / ١١٠٤ م وهاجم جيش الهند المتحد وأوقع به هزيمة ساحقة ، ثم تقدم إلى قلعة ضخمة تسمى بيهيمكر على سفح الهملايا واستولى عليها ، وحصل على غنيمة من الذهب والفضة لم يسمع بمثلها من قبل . ونتيجة لهذا دخل راجات شمال الهند فى طاعة محمود الغزنوى وتطوعوا بدفع إتاوة ، وأطاعه كذلك صاحب الملتان ويسمى داود وكان قد اتحد مع الأمراء الراجبوتيين ، وهم مجموعة من الراجات كانوا يحكمون أقاليم من شمال الهند ومنهم راجات أوجين وكواليار وكلنجر وقنوج ودهلى وأجمير .

ثم تقدم مغزا الملتان مرة أخرى فى سنة ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م وقضى على آخر مقاومة لسلطة داود القرمطى ، وأسره وحبسه فى قلعة جورالله ، ثم استولى على تاردين آخر حصون الملتان سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م وهدم الصنم المسمى بسمنات ، وبدأ الإسلام الصحيح يستقر فى هذه الناحية

وفى سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م بدأ محمود الغزنوى فى فتح كشمير ، وقد دخلها من شمالها الغربى ، فعبر نهر جهلم ودخل كشمير فخضع له رؤساؤها ، ومن ذلك الحين بدأت كشمير تتحول إلى بلاد إسلامية ، وكان لانتصاره صدى بعيد ، فما إن عبرت جيوش المسلمين نهر جمنة حتى بادر هارونا راجا باران أمير شمال البنجاب إلى الدخول فى الإسلام ، ثم تقدم محمود إلى قلعة جولكاندا Kulcanda وهزم راجا ماهابان ، ثم اتجه إلى مركزين دينيين كبيرين فى مدينة تماثورا Tathura أو بندرابان Bandrapan فاستولى على البلد وهدم الأصنام ثم تقدم نحو قنوج Kanauj واستولى عليها سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م ثم عبر نهر الكينك « الجانج » وهدم نحو ١٠,٠٠٠ معبد هندوكى ، ثم هاجم أكبر مراكز البراهمة فى موجهاوان Mughawan ، ثم تقدم إلى قلعة أسنى أو أسى، Asni على نهر الجانج واستولى عليها ، ثم استولى على قلعة شروة Sharwa ، ونتيجة لانتصارات محمود دخل فى طاعته راجات كالنجار Kalinjar وجواليار Gwaliyar ومقاطعات أخرى ، ثم نهض الأمراء الراجبوتيون وتزعمهم ناندا راجا كالنجار . وقد تمكن محمود من كسب انتصار حاسم عليهم فى قلب بلاد البنجاب واتخذ لاهور عاصمة له هناك سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م

وتوج محمود فتوحه فى الهند بفتح بلاد الكوجارات ، وسار جنوباً حتى بلغ الطرف الجنوبى لشبه جزيرة كيثياوارا وبلغ سمنات ، وكان أكبر قدس عند الهندوكيين ، واقتحمه وهزم الجموع الغفيرة التى حاولت إنقاذ المعبد وعليها بيم ديو صاحب الكوجارات ومعه

راجا نبرواله وأمراء بهاتى ، والتحم الفريقان فى قتال عنيف انتهى إلى مذبحة دامية سقط فيها ٥٠,٠٠٠ من الهندوك واقتحم المسلمون معبد سمنات ودمروه تدميراً تاماً .

وكان ذلك فى ذى القعدة ٤١٦ هـ / يناير ١٠٢٦ م . وبذلك تم القضاء على كل مقاومة ضد الإسلام فى شمال الهند ، وقد عاد محمود إلى الهند مرة أخرى سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م وأكمل إخضاع السند والبنجاب وحوض الجانج إلى حدود البنغال . وقد توفى محمود الغزنوى سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م بعد أن أنشأ دولة شاسعة تضم معظم إيران وماوراء النهر وشمال الهند كله ، وكان يريد نقل عاصمته إلى الكوجرات ، وترك ابنه نائباً عنه فى غزنة ، ولكن رجاله عزّ عليهم مفارقة مواطنهم فصرفوه عن هذه الفكرة .

والحق أن السلطان محمود الغزنوى كان غازياً مجاهداً ، أخذ على عاتقه نشر الإسلام فى بلاد الهند ، والقضاء على الوثنية فيها ، وبلغ فى فتوحه « إلى حيث لم تبلغه فى الإسلام راية ، ولم تتل به قط سورة ولا آية ، فدحض عنها أدناس الشرك وبنى بها مساجد وجوامع وأقام بدلاً من بيوت الأصنام مساجد الإسلام » .

ثم خلفه ابنه محمد الذى لم يملك إلا فترة صغيرة ، ثم تغلب عليه أخوه مسعود ابن محمود بن سبكتكين وحل محله سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م وتلقب بناصر دين الله واستمر فى سياسة أبيه ، وجعل له نائباً فى الهند يقيم فى لاهور ، أما هو فظل فى عاصمته غزنة ، وقد ظل حياته يتردد بين الهند وغزنة وخراسان لإخضاع الثائرين عليه ، وعلى الرغم من هزيمته أمام أخيه محمد فإن سلطان المسلمين فى الهند لم يتزعزع ، وبقى الحال فيها على ذلك حتى انتهى أمر الدولة الغزنوية على يد شهاب الدين الغورى سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م

وقد سقطت الدولة الغزنوية تحت ضربات السلاجقة الأتراك الذين كانوا إذ ذاك يتوسعون فى هضبة إيران ، وقد انهزم السلطان مسعود الغزنوى أمامهم فى موقعة دندانقان بالقرب من مرو فى رجب سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م وعقبها قرر السلطان مسعود الهجرة بدولته إلى الهند ، ولكن جنده انقلبوا عليه وخانوه بعد أن دخل الهند ونادوا بأخيه محمد سلطاناً .

وتعتبر الدولة الغزنوية من أكبر الدول فى تاريخ الإسلام ، نظراً لما وفقت إليه من توسيع رقعة الإسلام فى شمال الهند وكشمير .

فتوح الغوريين فى الهند .

سقطت الدولة الغزنوية نتيجة لوقوع الخلاف بين أمرائها و اشتداد ضغط الأتراك السلاجقة عليها ، واجتهاد آخر سلاطين الغزنويين عليهم فى الدفاع عن أملاكه الواسعة فى إيران ، وكان الغوريون من أتباع الغزنويين ، وكانوا يحكمون الأقاليم الجبلية الواسعة الممتدة فيما بين غزنة وهراة فى أفغانستان الحالية ، فلما ضعف أمر الغزنويين وانتزعت منهم أملاكهم فى إيران نهض زعيم الغور معز الدولة بن سام المعروف باسم محمد الغورى واحتل غزنة واستولى على السلطان وإن لم يقض على البيت الغزنوى .

وكان راجات الهند وحلفاؤهم قد رفعوا رءوسهم من جديد ، فسار إليهم محمد الغورى واستخلص الملتان من أيدى القرامطة سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م وأعقب ذلك استعادة بشاور ، وأخضع حوض السند جميعه رغم الخسائر الفادحة التى تحملها جيشه على يد بيم ديوا راجا نهرو .

وفى سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م قضى شهاب الدين محمد الغورى على بقية الغزنويين وأعلن نفسه سلطاناً ، وبقى فى الهند بعض أمراء الغزنويين فقضى عليهم سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠٠ م وبسط سلطان الغوريين على البنجاب والسند وشمال الهند إلى خليج البنغالة .

وكان أكبر الأمراء الراجبوتيين هم راجات قنوج ودهلى ثم أجمير وبهار والبنغال والكوجرات وبندلخاند ، وهؤلاء هم أمراء منطقة الأنهار الكبرى فى شمال شبه الجزيرة الهندية . وهذه المنطقة هى التى تسمى بالهندستان وفيها أخصب بلاد الهند وأكثفها سكاناً .

وفى سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م بلغ السلطان الغورى نبأ تجمع أمراء الهندستان لمناهضة المسلمين ، فسارع بالمسير إليهم ، ووصل إلى سوهند على حدود البنجاب الشرقية ، والتقى الجمعان عند ترين ، ودارت رحى معركة من أكبر ماخاض المسلمون فى الهند ، وانهزم المسلمون رغم مابذلوا من جهد ، وارتد السلطان محمد الغورى إلى الوراء أربعين ميلاً حيث أعاد تنظيم رجاله .

وعاد محمد الغورى فى العام التالى بجيش عدته ١٢٠,٠٠٠ من المقاتلين فسار لحرب برتى راجا صاحب دهلى وقنوج وكان فى جيش عدته ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل ، ودارت رحى معركة أقسى من الأولى قتل فيها من الهنود الألوف بعد الألوف ، ثم انهزموا وهرب برتى راجا فأدركه المسلمون عند سرسرتى بإقليم ستيل وقتلوه .

وتعتبر هذه الواقعة إيذاناً بانهيار سلطان الأمراء الراجبوتيين فى الهند ، وهى بداية السلطان الحقيقى للإسلام فى الهندستان ، فقد استولى محمد الغورى بعدها على سرسرتى وسمته وكهرام وهنسى ثم أجمير ، وحطمت أصنام الهندوكية والبوذية فى الهندستان واستعملت أحجارها فى بناء المساجد .

وعهد محمد الغورى فى حكم أملاكه الهندية إلى قطب الدين أيبك قائده ومملوكه ، وكان قائداً ماهراً ثبت أقدام السلطان الغورى فى الهند ، واتخذ دهلى عاصمة له وشرع فى بناء جامعها المشهور المنسوب إليه « قطب منار » .

وعندما وصل قطب الدين أيبك بجيوشه إلى بنارس قام جايشان جندرا أمير قنوج ، وكانت أغنى إمارات الراجبوتيين وجعل يجمع بقايا الراجبوتيين ويتصدى للمسلمين ، فخرج إليهم فى جيش كثيف والتقى معهم فى معركة حامية الوطيس فى السهل المنبسط بين جندوار وأتاوة سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م وانتصر عليهم ، وانسحب الناجون من أمراء الراجبوتيين إلى الجنوب وتحصنوا فى صحراء الراجبوتانا التى سميت باسمهم بعد ذلك .

وبعد هذا النصر واحتلال قنوج بصورة نهائية تقدم محمد الغورى واحتل بنارس وبنى بها مسجداً .

وعقب ذلك فتح قطب الدين أيبك إمارات أجمير من جديد ثم نهروالة وبيانة وجواليور .

وفى نفس الوقت تقدم قائد غورى آخر هو محمد بن بختيار الخلجى شرقاً وفتح إقليم بهار ودخل البنغال وكانت أكبر أقاليم البوذية فى الهند فخرب معابدها وأحلها بلاد إسلام ، ثم احتل نادية عاصمة البنغال سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م وهرب أميرها إلى دكا ، وكان هذا الأمير شيخاً مسناً يسمى لكشمن من أسرة سنا ، ثم احتل محمد بن بختيار الخلجى مدينة لكهناوتى وجعلها قاعدته وخطب بها للسلطان الغورى وسك العملة باسمه .

وفى سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م قام قطب الدين أيبك بحرب برمردى أمير بندخند ، وأعقب ذلك الاستيلاء على حصن كلنجر أمنع حصون الهند إذ ذاك ، واستولى على آخر حصنين من حصون الهندستان وهما بدئون وكالبى . وبهذا يكون سلطان الإسلام قد امتد حتى شمل كل الهندستان بالإضافة إلى إقليم كواليار أو جواليار .

وفى نفس الوقت حاول محمد الغورى بسط سلطانه على خوارزم وإيران ليكمل له ملك كل ماكان للغزنويين ولكنه لم يستطع .

وفى شعبان سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٦ م قتل السلطان محمد الغورى فى موضع على نهر جهلم وهو فى الطريق من لاهور إلى غزنة ، وكان الذى اغتاله أحد الهندوكيين

وإذا كان الغزنويون هم أصحاب الفضل فى تحطيم قوى أمراء الهند وفتح معظم الهندستان لأنهم كانوا يعتبرون بلاد الهند امتداداً لأملاكهم ، وكانوا دائماً يعودون إلى غزنة — فإن الغوريين هم أصحاب الفضل فى تثبيت أقدام الإسلام فى الهندستان ، وكان سلاطينهم وقادتهم يقيمون فى الهند بصفة دائمة متخذين دلهى « دهلى » عاصمة لهم ، ولهذا فهم يعتبرون أول الدول الإسلامية فى الهند وبهم يبدأ تاريخ الهند الإسلامية .

وعقب وفاة السلطان محمد الغورى سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٦ م نصب مملوكه ونائبه قطب الدين أيبك نفسه سلطاناً على الهندستان فبدأت بذلك دولة مماليك الهند سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ — ١٢٠٦ م ، ولم تكن تلك الدولة من الدول الفاتحة برغم مابذله سلاطينها من جهد فى تثبيت سلطانهم ، ولهذا فلن نقف عندها طويلاً .

الهند الإسلامية فى عصور الخلجيين وآل تغلق حتى غزو تيمورلنك للهند .

وقد اكتفى قطب الدين أيبك بأملاكه فى الهند ولم يفكر فى ضم أملاك مواليه الغوريين فى غزنة وإيران وخوارزم .

وتوفى قطب الدين أيبك سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م ، وبعد وفاته خلفه مملوكه شمس الدين التمش فى دهلى « دلهى » واستبدت أسرة الخلجيين وهم من رجال محمد الغورى ببلاد بهار والبنغال .

وفى سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م تعرضت دولة الإسلام فى الهند لخطر جسيم . إذ إن جيوش جنكيز خان المغول وصلت إلى حدود الهند فى تلك السنة بعد أن غزا بلاد ماوراء النهر وشرق إيران وسلطنة خوارزم وهرب سلطانها جلال الدين منكبرتى لاجئاً إلى السلطان التمش فى دهلى ، ولكنه انصرف عن الهند خوفاً من المغول ، ومن حسن طالع الهند أن جنكيز خان نفر من حر الهند فلم يتجه نحوها بل استمر نحو الغرب ، وبهذا سلمت دولة مماليك الهند من شر المغول .

والآن نعـود إلـى إيـران .

خريطة ١١٣
دولة السـلاجقـة
والدول المعاصرة فى القرن الخامس الهجرى

تحدثنا عن الأتراك ومواطنهم الأولى ، وقلنا إن نهر المرغاب يعتبر الحد الفاصل بين الشعوب الإيرانية والشعوب التركية فى هضبة إيران ، فلما جاء الإسلام وفتح المسلمون إيران واقتحم قتيبة بن مسلم الباهلى ورجاله الخط الفاصل بين الشعوب الإيرانية والتركية وأدخلوهم جميعاً تحت راية الإسلام بدأ الترك يتحركون إلى الغرب ، وكانت أعدادهم كثيرة وقواهم العسكرية عظيمة فبدءوا يسيطرون على هضبة إيران كلها ابتداء من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، ولم يحل القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى حتى كانوا قد سيطروا تماماً على كل الهضبة الإيرانية والعراق وانفتحت أمامهم بلاد آسيا الصغرى ، والغزنويون والغوريون الذين شهدنا سيطرتهم على الهضبة الإيرانية ودخولهم الهند هم فروع من الأتراك الغزية .

وفى أعقاب الترك زحف المغول فى بطء أولاً ، ثم فى صورة تيار جارف على يد جنكيزخان وخلفائه ، واجتاحوا شرق الدولة العباسية وأزالوا الخلافة العباسية واندفعوا غرباً ، وعندما تمكن مماليك سلاطين مصر والشام من كسر موجة اندفاعهم استقرت جماعات كبيرة منهم فى إيران بعد أن خربوا شرق العالم الإسلامى وأنشئوا مايسمى باسم إيلخانية إيران ، أما فى الهند فقد تمكن المغول بعد أن قضوا على سلطان الغزنويين والغوريين (وهم أتراك غُزّية) من إقامة دولة مغول الهند العظيمة .

وبعد أن استقر المغول المسلمون فى هضبة إيران وبلاد التركستان بدأت جماعات مغولية جديدة — اختلطت بها قبائل تترية قوية — واندفعت غرباً من وسط آسيا نواحى بحيرة بلكاش ونهر التاريم ، وقامت بهجوم شامل جديد على التركستان وهضبة إيران بقيادة تيمورلنك ، فأثارت عاصفة كبرى كان لها أبعد الأثر على مصائر الشرق الإسلامى كله ، وهذه الغارة المغولية التترية صدمت دولة الأتراك العثمانيين التى كانت قد استقرت فى آسيا الصغرى ، وفتحت جزءاً كبيراً من بلاد البلقان ، وكادت توقف نموها لولا أن دولة الأتراك العثمانيين استطاعت استعادة حيويتها ومواصلة جهودها بعد هدوء العاصفة المغولية التترية ، وفى نفس الوقت تحركت مجموعات تركية غير غزية أهمها الكومان والقراليق والبلغار فى اتجاه الغرب شمالى بلاد التركستان وبحر الخزر والبحر الأسود واستقرت فى مواطن جديدة تمتد حتى نهر الفولجا ، ثم تحركت قبائل البلغار نحو البلقان وكان لها صراع مرير مع الدولة البيزنطية ، وكان البلغار قد أسلموا فى طريقهم إلى البلقان ولكنهم تحولوا إلى المسيحية عندما استقروا فى البلقان .

وكانت جماعات صينية قد استقرت من زمن طويل فيما يسمى بالتركستان الصينية من قرون طويلة . وكانوا بدواً لهم أسواق واسعة أشبه بالمدن مثل أترار وجند (بتروفسك الآن) وهناك نشأت الكتابة المعروفة بالأورخون ، وبها كتب المغول والترك الأول ثم تركوها وكتبوا بالحروف العربية .

ويرجع إسلام الأتراك الغزية والقرلوق والكومان إلى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وكان إسلامهم على أيدى التجار والصوفية الدعاة من العرب والإيرانيين وكل شعوب الهضبة الإيرانية ، ولكن أصحاب الفضل الأكبر فى ذلك هم المرابطون المعروفون بالغزاة ، وهم فرسان مسلمون عاشوا على الغزو ونشر الإسلام ، ومنهم الأخية الذين يذكرهم ابن بطوطة ويمتدح شهامتهم وواحدهم يسمى الأخى .

وفى نواحى قرقورم وغربى بلاد التركستان كانت دولتان تركيتان ، الأولى هى دولة الترك القراخانية ومواطنهم الأولى حوض نهر التاريم وبحيرة بلكاش . ثم تحركوا غرباً ودخلوا بلاد ماوراء النهر واستقروا هناك فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وعاونهم الغزنويون على ذلك ، وقد استعان بهم محمود الغزنوى فى التغلب على

السامانيين ، وكان القراخانية مسلمين متحمسين عمروا بخارى وسمرقند وبلاد الصغد والصغانيان وغيرها من بلاد التركستان أو ماوراء النهر وأنشئوا فيها المساجد الجميلة ، وكانوا يعيشون قبائل رغم استقرارهم ، وكانت القوة العسكرية تتمثل في فريق منهم يسمون القرلوق ، وكان استقرار الترك القراخانية في بلاد ماوراء النهر سابقاً على قيام الدولة الغزنوية ، ولهذا فهم يعتبرون أول الدولة التركية الإسلامية ظهوراً ، ومع الزمن تحول الكثيرون منهم إلى زراع ، ونظموا أنفسهم سياسياً إلى خانيات مثل خانية بخارى وخانية سمرقند وخانية خيوة في بلاد خوارزم ، وكانت أقوى قبائلهم من فرع منهم يسمى الأوزبك ، وإن كان هناك من يقولون إن الأوزبك فريق من الأتراك خرجوا من الأستب في وسط آسيا ودخلوا في خدمة الترك القراخانية ثم تغلبوا عليهم وأصبحت كل خانيات ماوراء النهر أوزبكية ، وأكبر هذه الخانيات الأوزبكية خانية خيوة في غربي بلاد ماوراء النهر وبلاد خوارزم ، وكان ملك كل خانية يسمى الخان ، وكان الخانات يدافعون عن بلادهم من غزو التركمان الذين كانوا يعمرون مساحات شاسعة من الأراضي شمالي ماوراء النهر . والتركمان من الترك الغزية كانوا مشهورين بالشجاعة والمهارة في الحرب على الخيل والرمي بالنبال ، ولهم دور عظيم في الحروب الصليبية ، لأنهم كانوا يعملون محاربين مرتزقة خارج بلادهم ، ولكن جماعاتهم الكبيرة في مواطنهم الأولى شمالي التركستان لم تلبث أن شمرت بكيانها ومكانتها بين شعوب آسيا الوسطى ، ومن بين جماعاتهم ظهر السلاجقة والأتراك العثمانيون . وبينما كان الترك القراخانية والأوزبك يعتبرون أنفسهم مغولاً متتركين يعتزون بذكرى تيمورلنك ويعتبرونه بطلهم القومي - كان التركمان ومن تفرع عنهم يعتبرون أنفسهم أتراكاً ويعتزون بهذه النسبة .

السلاجقة العظام .

تحرك هذا الفريق من الترك الغزية من مواطنهم إلى نواحي خوارزم يقودهم زعيم يسمى سلجوق ، وذهب فريق منهم إلى شمال العراق حيث قضت عليهم جماعات الأكراد الرحالة ، ومالبث طغرل بك أن ساد بقواته خانيات القراخانية الأوزبكية .

وخلف سلجوق ابنه ميكائيل ، ثم ابن هذا واسمه داود ، وانتهت رياسة هذا الفريق من الترك الذين أصبحوا يسمون بالسلاجقة ، وجدهم سلجوق ، إلى طغرل بك بن داود ابن ميكائيل بن داود الذي بسط سلطانه على كل بلاد ماوراء النهر وشرق إيران حتى غزنة ، وساعده في ذلك الغزنويون الذين كانوا يحسدون على السلاجقة . وتنبه السلطان مسعود الغزنوي إلى خطر السلاجقة على سلطانه فأراد إخراجهم من شرق إيران ، ولكنه انهزم أمامهم في معركة فاصلة عند دندانقان سنة ٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م وهذه المعركة هي التي جعلت الغزنويين يتجهون بكل قوتهم إلى الهند تاركين إيران كلها للسلاجقة الذين ساحوا كل بلاد إيران حتى بلاد الجبال ، وفي سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م استدعى الخليفة العباسي القائم بأمر الله طغرل بك وفوضه في أمور دولته ولقبه بالسلطان ، فأصبح طغرل بك سيد الجناح الشرقي من دولة الإسلام وحامي الخلافة العباسية بعد أن قضى على بقايا البويهيين وأوقف محاولات الفاطميين - الذين كانوا يسيطرون على بلاد الشام حتى دمشق - للتدخل في شئون الخلافة العباسية وتهديدها .

وخلف طغرل بك ابنه ألب أرسلان سنة ١٠٦٣ - ١٠٧٢ م من ٨ رمضان ٤٥٥ هـ إلى ١٠ ربيع الأول ٤٦٥ هـ وملك شاه (١٠ ربيع الأول سنة ٤٦٥ - ١٥ شوال ٤٨٥ هـ / نوفمبر ١٠٧٢ - نوفمبر ١٠٩٢ م) ، وهؤلاء هم السلاجقة العظام الذين ملكوا كل بلاد إيران وماوراء النهر وبسطوا حمايتهم على الدولة العباسية ، وتصدوا للروم من الشمال والفاطميين في الغرب ، وبعدهم بدأت دولة السلاجقة تتفكك إلى دويلات مع بقاء السلاطين السلاجقة العظام ، فقامت دولة سلاجقة كرمان وسلاجقة الشام .

وإليك بيان السلاجقة العظام :

ركن الدين أبو طالب طغرل بك محمد بن ميكائيل بن سلجوق .

شوال ٤٢٩ هـ / ٨ رمضان ٤٥٥ هـ / يوليو ١٠٣٨ م - أغسطس ١٠٦٣ م .

عضد الدولة أبو شجاع محمد ألب أرسلان بن داود .

رمضان ٤٥٥ - ربيع أول ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ - نوفمبر ١٠٧٢ م .

جلال الدولة معز الدين أبو الفتح ملكشاه .

ربيع الأول ٤٦٥ - شوال ٤٨٥ هـ / نوفمبر ١٠٧٢ - سبتمبر ١٠٩٢ م .

ناصر الدين محمود بن ملكشاه .

٤٨٥ - ٤٨٧ هـ / ١٠٩٢ - ١٠٩٤ م .

ركن الدين أبو المظفر بركيا روق بن ملكشاه .

٤٨٧ - ٤٩٨ هـ ١٠٩٤ - ١١٠٤ ١١٠٥ م

غياث الدين محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان .

٤٩٨ - ٥١١ هـ / ١١٠٤ - ١١٠٥ - ١١١٧ م .

سنجر ، ناصر الدين أبو الحارث بن ملكشاه .

٥١١ ٥٥٢ هـ ١١١٧ - ١١٥٧ م

فروع سلجوقية .

أما الفرع الثاني من السلاجقة ، وهم أيضاً ترك أصلهم تركمان قادهم جعفري بن داود ابن ميكائيل بن سلجوق فقد سار مع قبيل كبير من السلاجقة إلى أذربيجان وشرق آسيا الصغرى ، وكانت الدولة البيزنطية قد مدت سلطانها قبل ذلك بقليل على إرمينية ونقلت أصنافاً كبيرة من الأرمن إلى آسيا الصغرى وأسكنتهم فيما عرف بعد ذلك بإرمينية الصغرى .

وحاول الإمبراطور رومانوس ديوجين وقف تقدمهم ، ولكن السلطان ألب أرسلان سلطان السلاجقة قاد جيوشه وسار بهم لملاقاة البيزنطيين وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً في موقعة ملاذكرد سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م وهي من أعظم معارك التاريخ الإسلامي ، لأنها قضت على كل آمال البيزنطيين في الامتداد في الأراضي الإسلامية ، بل تراجع البيزنطيون بعد ذلك إلى داخل آسيا الصغرى ، وتقدم السلاجقة واستقروا في شرق آسيا الصغرى وأنشئوا مايعرف بدولة سلاجقة الروم ، وأول سلاطينها سليمان بن قتلمش سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م .

وإذا كان طغرل بك وألب أرسلان فاتحين فإن ملكشاه كان منظماً ، وقد استعان في تنظيم دولته بوزيره نظام الملك وهو من أصل إيراني ، وقد عرف كيف يقيم في دولة السلاجقة تنظيماً إدارياً معقولاً ، ولكنه لم يستطع إلغاء القاعدة التي سار عليها السلاجقة من انتقال الملك إلى الأمير الأكبر ، مما كان سبباً من أكبر أسباب ضعف الدولة السلجوقية بعد ملكشاه ، وكان انتقال السلطنة يتم عن طريق الأتابكة ، والأتابك هو مربي الأمير الصغير والمشرف عليه ، وكان يختار من كبار أمراء الدولة السلجوقية وكان له الحق في الزواج من أرملة السلطان إذا مات ، ومن هنا جاءت ظاهرة انتقال السلطان في دولة السلاجقة من السلاطين إلى الأتابكة .

وقد اعتمدوا على جندهم من الترك الغزية وضموا إليهم قوات مرتزقة من الأتراك ، وكانت عادتهم أن يجعلوا في كل مدينة وقاعدة حامية تركية تسمى الشحنة أو الشحنكية ، وكانوا يوقعون كتبهم بشارة القوس والسهم التي تسمى الطغرى ومنها جاءت الطغرى التركية المعروفة ، وكان رئيس الشحنة يعطى جانباً من إيراد ناحيته ليستعين به على دفع رواتب الجند .

وعندما ضعف سلطان السلاجقة بعد أيام ملك شاه كان يتولى حكم أملاكهم في إيران أمير من أمرائهم يقيم في نيسابور عاصمة خراسان ، وهناك أقام السلطان سنجر آخر السلاجقة العظام ، وانقسمت الدولة إلى دول سلجوقية ، واحدة منها في العراق والأخرى في الشام والثالثة في كرمان .

ودب الخلاف بين سلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين ، وبدأ صراع طويل مات فيه طغرلبك ، وأخيراً أصبح الخليفة حاكماً مستقلاً في العراق شبيها بمن حوله من الأمراء المحليين ، ولكن الخليفة العباسي ظل يتمتع بسلطان روحي على كل الأمراء الصغار من حوله ، فكلهم كانوا يحرصون على الحصول على اعتراف منه بسلطانهم على نواحيهم ، وكان الخليفة يرسل لهم كتاباً بالملك مع ثوب يسمى الخلعة ولواء أسود ، وفي مقابل ذلك كان الأمير أو الحاكم يرسل قدراً من المال إما مرة واحدة أو في كل عام مرة .

وقد طال العمر بالسلطان سنجر حتى أصبح أشبه بسلطان لكل شرق إيران ، وكان من الممكن أن ينشيء دولة سلجوقية جديدة لولا أن فاجأته غارات المغول .

خريطة ١١٤
الدولة الإيرانية فى عهد
خـــوارزم شـــاه

عندما توفى ملكشاه آخر السلاجقة العظام خلفه ابنه محمود فلم يحكم إلا سنتين ، ثم تولى أخوه برك يارق بن ملكشاه سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ووقع النزاع بينه وبين إخوته الثلاثة محمود ومحمد وسنجر : فأما محمود فقد طالب بالعرش ولكنه انهزم أمام أخويه واختفى من الميدان ، وأما محمد فقد أقامه أخوه برك يارق والياً على أذربيجان حتى إذا توفى برك يارق سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ - ١١٠٥ م تولى أخوه محمد بن ملكشاه عرش السلاجقة سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ - ١١٠٥ م وانتهى أمر السلاجقة إلى سنجر ناصر الدين أبى الحارث أحمد بن ملكشاه الذى ذكرناه ، وقد تولى فى ذى الحجة ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، وقد قلنا إن عمره قد طال حتى أصبح الوارث الوحيد لدولة السلاجقة الواسعة وتوفى سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م وخلفه ابن أخيه محمود ولكنه لم يكن من طراز عمه .

ظهــور الخوارزم شاهيـــة .

وكان سنجر قد ولى على خوارزم قطب الدين محمد بن أنوشتكين ، وكان رجلاً طموحاً اتخذ لقب خوارزم شاه ، وكان تركياً من الغزية .

وقد تمكن محمد خوارزم شاه من بسط سلطانه على سجستان ودخل فى طاعته الغزنويون ، وكانوا لايزالون يسيطرون على ماوراء النهر ، وتوفى محمد خوارزم شاه الأول سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٨ م وخلفه ابنه أتسز ٥٢٢ - ٥٥١ هـ / ١١٢٨ - ١١٥٦ م ولكن أتسز فكر فى الاستقلال بما فى يده وهو إقليم خوارزم ومايليه جنوباً حتى سجستان ، وكانت بلاد ماوراء النهر تابعة له اسماً ، ووقع نزاع طويل بين أتسز والسلطان سنجر السلجوقى ، واستعان أتسز بن محمد خوارزم شاه الأول بقبائل القراخطاى المغولية التى كانت منازلها الأولى إلى الشرق من بحيرة بيكال ، وفتح لها أبواب بلاد ماوراء النهر فدخلتها ، وكان القراخطاى مغولاً ، ولكنهم كانوا أشباه للأتراك الغزية الذين كانوا يسيطرون على الجناح الشرقى لدولة الإسلام ومنهم السلاجقة ، وكان القراخطاى قد حكموا الصين من سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م فساروا نحو الغرب وهاجموا الأتراك الضاربين فى صحراء الكرغيز على ضفاف نهر اليتسى ، ثم استولوا على كاشغر وبلاد الختل فى الجنوب وكانوا وثنيين .

وقد أسرع السلطان سنجر السلجوقى ليتصدى لهم ولكنهم هزموه بعد أن عبروا نهر جيحون (أموداريا) فى صفر ٥٣٦ هـ / ٩ سبتمبر ١١٤١ م .

وهكذا امتدت سلطة القراخطاى المغول على المنطقة الواسعة الممتدة من نهر اليتسى (اليج - سى) حتى بلخ ودخل أتسز فى طاعتهم عوضاً منهم ، وحلت دولتهم كذلك بلاد الترك الأيغورية واتخذوا مقرهم فى بلاساغون على ضفاف نهر تشاى وهو النهر الرئيسى فى تركستان الصينية اليوم .

وهكذا وجد أتسز بن محمد خوارزم شاه أنه أساء إلى نفسه باستعانته بالقراخطاى المغول وإدخالهم بلاد ماوراء النهر ، وقد توفى أتسز سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م وخلفه ابنه إيل أرسلان واتخذ لقب خوارزم شاه ، ثم لم يلبث السلطان سنجر أن توفى سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م فأصبحت يد إيل أرسلان خوارزم شاه مطلقة فى بلاد إيران فأخذ يتوسع شرقاً وغرباً حتى أصبح ملكه يشمل كل بلاد الهضبة الإيرانية ، وخلف سنجر ابن أخيه محمود ولم يستطع السيطرة على الدولة السلجوقية ونازعه إيل أرسلان بن أتسز خوارزم شاه وتمكن من التغلب عليه ، وانتهت الدولة السلجوقية فى إيران تماماً إذ إنها انقسمت إلى أتابكيات أى إمارات صغيرة يسيطر عليها ولاة الأقاليم .

ووقع النزاع بين إيل أرسلان خوارزم شاه وأخيه تكش ، وانتصر تكش على أخيه إيل أرسلان سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م وبسط سلطانه من خوارزم على كل إيران .

وفى سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م توفى تكش وخلفه ابنه علاء الدين محمد خوارزم شاه الثانى واستعان بالمغول القراخطاى على الغوريين أصحاب إقليم الغور ، وأنزل بهم هزيمة ساحقة كادت تزلزل سلطانهم فى الهند لولا أن قام مملوكهم قطب الدين أيبك بإعادة بناء الدولة الغورية فى الهند .

علاء الدين محمد خوارزم شاه الثانى .

وهكذا أصبح علاء الدين محمد خوارزم شاه بن تكش ، رمضان ٥٩٦ - ٦١٧ هـ / يونيو ١٢٠٠ - ١٢٢٠ م ، سلطاناً على كل إيران مستعيناً فى أعماله بجماعات من المقاتلين الناس من الأتراك والإيرانيين والغوث كل همهم السلب والنهب ، ولكن هذا لم يكن يهم علاء الدين محمد خوارزم شاه ، لأن الذى كان يهمه هو الغزو وإرهاب الآخرين ، وكان رجلاً نشطاً سريع الحركة ولكنه كان طائشاً قليل التدبير ، فأثار فى إيران كلها وبلاد الخلافة العباسية عاصفة هوجاء ، ورغم شجاعته ونشاطه وإيمانه بالإسلام فقد أنزل بعالم الإسلام كارثة كبرى عندما دخل فى نزاع وحرب مع المغول ، مما أدى إلى اجتياحهم لبلاد الإسلام بقيادة جنكيز خان .

ومن سوء حظ شرق الدولة الإسلامية أن يتولى مواجهة الغزو المغولى رجل لايملك أيا من الصفات اللازمة لمن يتولى مواجهة مثل هذا الغزو ، وهو أكبر خطر تعرض له شرق العالم الإسلامى فى تاريخه .

ولم يكن الشرق الإسلامى فى ذلك الحين فى حالة انهيار أو فقر أو تفكك ، فقد توالت عليه منذ أيام الغزنويين الدول العظيمة التى أقامت حكومات قوية أقرت النظام (بحسب مفهوم النظام فى تلك العصور) ورعت الحضارة والعمران وساد الرخاء رغم ماذكرنا من الحروب ، فقد كانت الحروب فى تلك العصور أمراً داخلياً بين الملوك والسلاطين وجنودهم وخصومهم ، وفيما عدا ذلك كان الزراع يعملون فى مزارعهم وأهل المدن آمنين إلى حد كبير فى مدنهم وطرق التجارة عامرة بالقوافل والتجار ، وفى أيام السلاجقة التى طالت تمتعت البلاد بفترات طويلة من الازدهار والرخاء والاستقرار ، بل إن السلاجقة رفعوا المعنويات بتأييدهم للخلافة ودول السنة والجماعة بعد القضاء على البويهيين ، ثم إنهم كسبوا انتصار ملاذكرد الذى ذكرناه ، ولاغرابة والحالة هذه أن نجد هذا العصر الذى يمتد من القرن الخامس إلى السابع الهجرى حافلاً بالعلم والعلماء والمبانى العظيمة وبخاصة المساجد ومنشآت العمران ، هذا بالإضافة إلى توغل فرع من السلاجقة وهم سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، وكذلك توسع الإسلام فى الهند على أيدى الغزنويين والغوريين وغيرهم مما فتح للإسلام أبواباً عظيمة من المجد والتوسع والازدهار .

وكل ذلك قدر له أن ينتهى على يد هذا السلطان الطائش محمد خوارزم شاه بن تكش ، وكانت قواه العسكرية تفوق فى العدد والعدة ماكان لدى صلاح الدين عندما واجه الصليبيين ، إذ إن بعض جيوش خوارزم شاه كانت تصل إلى مابين مائة ألف ومائة وخمسين ألف فارس غير المشاة والخدم و الأتباع . ومن هذا يتضح أن العيب الأكبر فى الدول الخوارزمية أو الخوارزم شاهية كان فى علاء الدين محمد خوارزم شاه الثانى نفسه ، فإن هذا الرجل لم يرزق شيئاً من مواهب رجل السياسة المنظم المدبر ، وإنما كان مجرد كتلة من النشاط والاندفاع والتهور يقود جماعات من القادة النهابين غير المنظمين ، وكان باستطاعته أن يكون قائداً من أعظم قواد التاريخ الإسلامى وكانت أول أخطائه الكبيرة معاداته للخليفة الناصر ومحاولته القضاء على الخلافة العباسية .

محمد خوارزم شاه الثانى والخليفة الناصر العباسى .

وكان يتولى الخلافة العباسية فى ذلك الحين رجل يعتبر من أذكى وأقدر من عرفتهم الدولة العباسية من الخلفاء ، وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضىء ، وهو الرابع والثلاثون من خلفاء بنى العباس وأطولهم حكماً ، إذ إنه تولى فى الثانى من ذى القعدة ٥٧٥ هـ وتوفى فى ٣٠ رمضان ٦٢٢ هـ / مارس ١١٨٠ - ١٢٢٥ م وكان رجلاً واسع الذكاء ومنظماً وإدارياً موهوباً ، ولكنه من الناحية الأخلاقية لم يكن على المستوى الإسلامى المطلوب ، وقد جاء هذا الرجل فى غير أوانه ، وتولى والزمان مدبر ، وحكم فى عصر انهارت فيه القيم الأخلاقية فى عالم السياسة ولم ينج هو من تلك الآفة فكان متآمراً وغداراً وجريئاً وقاسياً ، ومع أن الكثير من هذه الصفات وجدت فى الكثيرين من خلفاء بنى العباس قبله فإنها ظهرت فى الناصر لدين الله بشكل أوضح ، نظراً لهبوط مركز الخلافة العباسية كلها وضيق مساحتها وجرأة خصومه عليه وحرصهم على كشف عيوبه ومعاداته ، وبخاصة علاء الدين محمد خوارزم شاه الثانى الذى وقع الخلاف الشديد بينه وبين الخليفة الناصر ، ويبدو أنه تصور أن الخليفة كان يسعى إلى السيطرة على بلاده - وربما كان هذا صحيحاً - ولكن الخليفة العباسى فى ذلك العصر مهما كان طموحه فإنه كان بعيداً جداً عن أن يهدد دولة سلطان قوى مثل محمد خوارزم شاه الثانى ، ولكن هذا الأخير كان كما قلنا قليل التدبير ، فجر بذلك على نفسه وعلى بلاد الإسلام كارثة كبرى هى كارثة الغزو المغولى .

وكل الذى عمله الخليفة الناصر العباسى كان محاولة التوسع واستعادة ماكان للخليفة العباسى من جاه وقوة فى العصور الماضية ، وتمكن بالفعل من إعادة السلطان الفعلى للخليفة العباسى فى بلاد العراق وبعض بلاد الجزيرة ، وكان السلاجقة والأتابكة من بعدهم قد

أزالوا الدول الصغيرة التى قامت فى بلاد الجزيرة والموصل وحلب أيام ضعف الخلافة العباسية من أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى مثل دولة بنى مرداس وبنى عقيل وبنى مزيد العربية فى الموصل ، ودولة بنى مروان الكردية فى الموصل ، ولكن سلطان الناصر لم يتعد حدود الموصل شمالاً .

وقد استعان الخليفة الناصر فى تحقيق طموحاته بجماعات من الصوفية المجاهدين وعرف الفتوة التى كانت قد نشأت فى مناطق العواصم والثغور ثم أصبحت نظاماً فروسياً انتسب إليه الكثيرون ، واتخذوا على بن أبى طالب رضى الله عنه مثلهم الأعلى فى البسالة والإيمان والأخلاق العالية ، واهتمت جماعات الفتوة برياضات الفروسية وأخلاق الشهامة والشرف فظهر من بينهم رجال شجعان ، ومازال الخليفة الناصر يسعى حتى جعل نفسه رئيس هذا النظام ، وجعل لأقرانه ملابس خاصة تسمى سراويل الفتوة ، وإكراماً لهم فتح ذراعيه للعلويين والشيعة ، وحالف جماعة الحشاشين[1] ، وبفضل هذا النظام تمكن من بسط سلطانه على خوزستان شرق العراق سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م واتجهت أطماعه إلى إقليم الجبال أى مايعرف بعراق العجم .

وهنا وقع النزاع بين الخليفة الناصر وعلاء الدين محمد خوارزم شاه الثانى ، فبدأ صراع طويل على السلطان بين الجانبين ، وبدلاً من أن يلجأ خوارزم شاه إلى السياسة فيظهر لهذا الخليفة الطموح طاعة اسمية تعطيه تأييداً شرعياً من الخلافة العباسية – نجده يفكر فى إزالة الخلافة العباسية ، فبدأ أولاً باختيار علوى ليرشحه للخلافة ، واختار بالفعل رجلاً علوياً من أهل ترمذ يسمى علاء الملك وقدمه للخلافة ، وأخذ يعد جيشاً يفتح به بغداد ويقيم صنيعه علاء الملك خليفة وجعل ينتظر الفرص لتنفيذ مااستقر عليه رأيه ، ولكن الظروف لم تمهله إذ فاجأته كارثة الغزو المغول لبلاده ابتداء من ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م .

خريطة ١١٥

الدولة الخوارزمية وغارات المغول

كان المغول كما قلنا يسكنون حتى منتصف القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى فى الفيافى وأراضى الإستبس الواسعة الواقعة شمالى منشوريا ومنغوليا والتركستان ، وكانت تجاورهم فى مراعيهم القبائل التركية والقبائل التنغورية .

وقد زحفت قبائل الأتراك غرباً كما رأينا واستقرت فى المساحات الشاسعة الممتدة من بحيرة بلكاش إلى مصب نهر الفولجا ، ودخلت جماعاتهم على مارأينا بلاد الإسلام ، وكان لهم فيها الدور العظيم الذى رأيناه .

ولكن هجرة الأتراك فى اتجاه الغرب أفسحت المجال للمغول للتقدم غرباً ، وفى أعقابهم أقبل التتار بمراعيهم البيض والسود ، وكان المغول والتتار جميعاً على الديانة الشامانية التى تقول بأن العالم تسكنه أرواح خيرة وأخرى شريرة توجه حياة البشر ، وكانوا يقولون إن الكهنة وحدهم هم الذين يستطيعون الاتصال بهذه الأرواح وتوجيهها لخير البشر ، ولهذا كان سلطان الكهنة فى عالم المغول والتتار عظيماً .

وكان هناك مغول وتتار آخرون يسكنون أقاليم الغابات شمالى منازل المغول الرحالة ، وكان هؤلاء صيادين ، ومن هؤلاء نجم جنكيزخان واسمه تيموجين بن يسوكاى من بيت قيات من بيوت المغول الصيادين التايجيوت ، وقد ولد سنة ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م ثم اتخذ فيما بعد لقب جنكيزخان الذى اشتهر به

وشب تيموجين فارساً محارباً ، وكان بطبعه جريئاً مغامراً فجعل همه توحيد المغول جميعاً تحت قيادته ، وتمكن من توحيد قبائل المغول فى صحراء منغوليا ، وانضم إليه الكثير من التتار الذين كانوا يعيشون إلى شرق المغول ، وكون لنفسه فرقة من الفرسان الشجعان من ألف فارس هم حرسه الخاص يحيط بهم عشرة آلاف فارس كلهم من طراز تيموجين بسالة وشجاعة ، وبهذه القوة تمكن من توحيد المغول وتنظيم مجلسهم العشائرى المسمى بالقوريلتاى ، وتمكن من فتح الجزء الغربى من منغوليا ، فلما تم له ذلك اجتمع مجلس القوريلتاى عند منابع نهر أونون واختاروه خاناً للمغول أى سلطاناً لهم واتخذ لقب جنكيز خان ، أى ملك العالم سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م وتولت كتيبة الفرسان المكلفة بحراسته تنفيذ أوامره ، وكان كل واحد منهم يلقب بلقب بهادر أى الشجاع .

وكان قائد كل ألف من الآلاف العشرة الذين جعلهم نواة جيشه يلقب بطرخان ، وجعل لهم امتيازات كثيرة منها الإعفاء من الضرائب .

ولم يستخدم المغول الأبجدية الصينية فى كتابة لغتهم ومراسلاتهم إلا بعد سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م ، وقبل ذلك كانوا يستعملون الحروف الأويغورية ، وجنكيز خان نفسه لم يعرف إلا المغولية .

ولم يدخل فى خدمة جنكيز خان من أهل العلم من الصينيين إلا رجل واحد نعرفه هو ليو – جيو – تساى ، وكان عالماً بأمور الحكمة والفلك والجغرافيا ، وقد وقع فى أسر جنكيز خان عندما غزا بكين سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م ثم أطلق سراحه واستخدمه ورفع مكانته . ولم يدخل الترك أو الفرس فى خدمة جنكيز خان إلا بعد غزوه لبلاد ماوراء النهر ومنهم رجل فارسى يسمى محمود اتخذه سفيراً وأرسله إلى محمد خوارزم شاه ، ثم ولاه فيما بعد والياً على بلاد ماوراء النهر فقام بتعمير ماخربه المغول وأصلح أحوال الناس .

وعندما تم انتخاب جنكيز « خاناً أعظم » للمغول سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م أصدر قانون الياسة ، وهو قانون يسمح لرئيس الدولة باستعمال كل أساليب العنف والقسوة لتطوير سلطانه (انظر كتاب الدكتور السيد الباز العرينى : المغول – دار النهضة العربية للنشر – بيروت ١٩٦٧ م ٦٠ – ٦٢) .

أما نشاط جنكيزخان العسكرى قبل هجومه على بلاد المسلمين فيتلخص فيما يلى :

(١) إخضاع كل قبائل صحراء منغوليا وتوحيدها فى دولة واحدة .

(٢) إرغام الترك الأويغور الضاربين فى صحراء جوبى فى الجنوب الغربى من منغوليا على قطع صلاتهم بالترك القراخطاى والدخول فى طاعته سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م واتبعهم فى ذلك أرسلان ملك الترك القرلوق (حوالى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م) ثم خضعت له قبائل الترك القرغيز النازلة على ضفاف نهر الينيسى (١٢٠٧ – ١٢١٨ م) .

(٣) هزيمة إمبراطور الصين الشمالية وهى دولة كين سنة ١٢١١ م ثم الاستيلاء على جنوب هذه المملكة (حوض النهر الأصفر) وإرغام إمبراطور كين وهو وان – ين – سيون ٦١١ – ٦٣١ هـ / ١٢١٤ – ١٢٣٣ م على قبول ذلك ، ولكن الحرب وقعت واستولى جنكيز خان على بكين سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م . أما وان – ين – سيون فكان قد نقل عاصمته إلى كايفونغ فى إقليم هونان .

(٤) وفى سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م اعترف ملك كوريا بالتبعية لجنكيز خان .

(٥) اتجه جنكيز خان غرباً ، وكان أول مايواجهه مملكة القراخطاى الضخمة وكانت تمتد من بلاد الأويغور إلى بحيرة آرال ، وقد ذكرنا أن ملك الأويغور خضع لجنكيز خان سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م ثم تبعه أرسلان ملك الترك القورلوق .

وكان محمد خوارزم شاه الثانى قد عمل على تدمير مملكة القراخطاى مستعيناً فى ذلك بكوجلك ملك الترك النايمان وانحصرت مملكة القراخطاى بعد ذلك على حوض نهر التاريم ، وأشهر مدنها كاشغر وياركن وختن ، وامتدت أملاك خوارزم شاه إلى بلاد ماوراء النهر واتخذ عاصمته فى سمرقند .

وكان القراخطاى (وأصلهم من الصينيين ولكنهم طردوا من بلادهم) قد هاجموا دولة الترك القراخانيين واستولوا منهم على منطقة واسعة جنوبى بحيرة بلكاش وفيه تقع بلاساغون وكاشغر وسمرقند وبخارى .

واستنجد الترك القراخانية بالسلطان أحمد سنجر السلجوقى ، ولكن القراخطاى هزموه شمال سمرقند سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م وبذلك امتدت مملكة القراخطاى من بلاد القرغيز على نهر ينيسى حتى بلخ جنوباً ومن خوارزم إلى بلاد الأويغور ، واتخذ ملكهم لقب كورخان وأقام عاصمته فى بلاساغون على نهر جو ، وهنا نفهم لماذا ندم سنجر على الإذن لهم بدخول بلاد ماوراء النهر .

وكان القراخطاى بوذيين ، وكان دعاة المسيحية النسطورية منتشرين بينهم ، ولكنهم لم يوفقوا فى كسبهم إلى النصرانية ، وعندما انتصر القراخطاى على السلطان سنجر أكبر ملوك المسلمين فى عصره تسامع الناس فى الغرب المسيحى بذلك ، وصور لهم الرهبان والمبشرون أن ملك القراخطاى ملك نصرانى فى آسيا سيقضى على الإسلام من الشرق ، وهنا ذاعت أسطورة يوحنا الملقب بالبرسترجون الذى قيل إن القراخطاى تنصروا على يديه ، وقد أشار ماركوبولو الرحالة الإيطالى إلى ذلك ، وقال إن مملكة برسترجون تقع وراء بلاد المغول إلى الشرق ، ثم قيل بعد ذلك إن بلاد برسترجون هى الحبشة .

---

(١) الحشاشون جماعة من المتطرفين الشيعة الإسماعيلية المختصين للحرب ، ويقال : إن الذى أنشأ حركتهم هو الحسن الصباح ، وقد اتخذوا مركزاً لهم قلعة تسمى (ألموت) فى شرقى فارس وكانوا إرهابيين يقتلون خصومهم غدرا

ورغم سيادة القرخطاى الصينيين السود على بلاد ماوراء النهر الإسلامية فإن البلاد ظلت إسلامية ، وترك القراخطاى أحراراً فى عقيدتهم ، وأصبحت ناحية بلاساغون هى الحد الفاصل بين بلاد الإسلام وبلاد البوذية فى الشرق .

وأمام زحف القراخطاى غرباً زحفت جماعات من الغز التركمان نحو الجنوب ، وحالفوا السلطان سنجر أولاً ، ثم انقلبوا عليه بعد ذلك وأسروه سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م وعندما خرج من أسرهم سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م لم يعش إلا سنة واحدة ومات سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م وعجز خليفته وابن أخيه محمود خان عن السيطرة عليهم فانتشروا من ضفاف نهر جيحون وعبر أموداريا إلى كرمان .

الخوارزم شاهية والمغـول .

خلال ذلك كله ظلت منطقة خوارزم آمنة بفضل ملوكها وقواتهم العسكرية التى تكون معظمها من الترك القفجاق ، وفى سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م احتل تكش خوارزم شاه ابن محمدخوارزم شاه الأول خراسان ، ثم استعان به الخليفة الناصر على طغرل بك السلطان السلجوقى فامتد سلطان خوارزم شاه تكش إلى الرى وهمدان ، ثم طالب الخليفة الناصر بأن يعترف به سلطاناً على بغداد كما كان الحال مع سلاطين السلاجقة العظام (وقد اعتبر نفسه وارثاً لهم) فتردد الخليفة فى ذلك ، ومن ذلك الحين أصبح الخوارزم شاهية أعداء الخليفة الناصر .

وعندما تولى الحكم ابنه علاء الدين محمد خوارزم شاه الثانى سنة ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م شرع فى توسيع ملكه فقضى على قوة القراخطاى فى بلاد ماوراء النهر واحتل سمرقند ، وبذلك أصبحت بلاده مواجهة لمغول جنكيز خان ، ثم طارد بقية الغوريين فى إيران ووضع يده على بلادهم ودخلت الترك القفجاق فى طاعته ، وقد تم ذلك سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م وبذلك شملت دولة خوارزم شاه كل هضبة إيران بالإضافة إلى أذربيجان .

ولكن خوارزم شاه لم يحسن حكم هذه البلاد الشاسعة ، فوقع الخلاف بينه وبين أهلها وأخضعهم بالقوة ومد حدوده حتى شملت بلاد فرغانة فى الشرق ، وكان يخالفه ويعينه على ذلك كجلك أمير طائفة من الصينيين تسمى النايمان ، وكان هذا الملك يسيطر على بعض البلاد شمال ماوراء النهر ، وكان كجلك يزعم أنه حليف المسلمين مع أنه كان بوذياً يضطهد المسلمين .

وابتداءً من سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م أخذت قوة المغول تزحف غرباً فاستولوا على بلاد الأويغور وكانوا قبل ذلك خاضعين للقراخطاى .

وفى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م سيطر المغول على تركستان الروسية وتقع شمال غرب بلاد ماوراء النهر فدخل أرسلان خان حاكم قبائل الترك القرلوق المسلمين فى طاعة المغول .

وكان على علاء الدين محمد خوارزم شاه أن ينصرف بكل قواه للقضاء على المغول ولكنه انصرف بدلاً من ذلك لمطالبة الخليفة الناصر ليعينه سلطاناً على البلاد الشرقية وعلى بغداد كما كان الحال مع السلاجقة العظام ، وهنا أيضاً أخطأ الخليفة الناصر فرفض ذلك الطلب ودخل فى نزاع مع خوارزم شاه ، وكان يستطيع أن يستجيب لهذا الطلب ليخلص نفسه من متاعب جسيمة .

ووقف خوارزم شاه بين المغول من ناحية والخلافة العباسية من ناحية أخرى ، وكان عليه أن يتلقى صدمة المغول ، ووقف فى وجه العاصفة وحاول وقف الضغط المغولى .

ويتابع نفر من مؤرخى العرب المحدثين تطور الأحداث برواية رشيد الدين فضل الله فى كتابه جامع التواريخ عن الحوادث التى وقعت بين المسلمين والمغول ، ويغيب عنهم أن هذا الرجل كان يعمل فى خدمة المغول ، ولهذا فلا بد من الحذر الشديد فى قبول رواياته ، وعلينا أولاً أن نعتمد على مؤرخينا التقليديين من أمثال ابن الأثير وأبى الفدا ، وابن تغرى بردى والمقريزى .

وإليك موجزاً لسير أحداث الصدام بين المغول والمسلمين .

كان من الواضح أن جنكيزخان قد قرر غزو البلاد الإسلامية بعد أن تمكن من غزو الصين .

بدأ جنكيزخان بتصفية أملاك كجلك ملك النايمان فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة جيبيون فاستولى على بلاد النايمان وقضى على ملكهم كجلك دون مقاومة ، واستولى على بلاساغون وماليك وكاشغر وأطلق الحرية الدينية للمسلمين الساكنين فى تركستان الشرقية .

وفى سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م أرسل جنكيز خان وفداً من ثلاثة تجار مسلمين بهدية كبيرة إلى علاء الدين خوارزم شاه ومعهم رسالة من جنكيز خان يخاطبه فيها بقوله « ولدنا الحبيب إلى قلوبنا » وهى عبارة يريد بها جنكيزخان أن خوارزم شاه أصبح من أتباعه فاستاء من ذلك خوارزم شاه ، وحدث بعد ذلك أن قُتل سفراء جنكيز خان فى طريق عودتهم وربما لم تكن لخوارزم شاه يد فى ذلك ، ولكن جنكيزخان اعتبر هذا الحادث إعلان حرب عليه

سار جنكيزخان بكل قواته لحرب خوارزم شاه ، وكانت قوات خوارزم شاه ضخمة تصل فيما يقولون إلى ٤٥٠ ألف مقاتل ، وهذه مبالغة بلا شك ، ولكن المؤكد أن جيشه كان كبيراً جداً ، ولكن العداء بينه وبين رؤساء جنده كان شديداً ، ثم إن قواته كانت فى غالبيتها جماعات من المرتزقة الذين يحاربون للمغانم ولايعرفون النظام ، ولم يضع خوارزم شاه خطة محكمة للمعركة فى حين أن جنكيز خان قسم قواته إلى ثلاثة جيوش كل منها يتكون من عدة طومانات « عشرات الألوف » .

فسار ابنه شغتاى فى جيش كبير يضم الترك الأيغوريين نحو بلدة أطرار فحاصرها ، وسار ابنه جوجى فى جيش آخر نحو نهر سيحون ، وسار جيش أصغر نحو خوقند .

وسار جنكيز خان نفسه ومعه ابنه الأصغر تولى بمعظم الجيش نحو سمرقند وبخارى .

وبدلاً من أن يتقدم علاء الدين محمد خوارزم شاه لملاقاة أعدائه وقف مكانه عند سمرقند ينتظر قدوم المغول ، وكما خانته شجاعته خانه ذكاؤه فلم يقف بكل جنده بل وقف فى جيش صغير لايزيد على ١٠,٠٠٠ مقاتل .

وكانت النتيجة واضحة قبل اللقاء ، فقد انهزم خوارزم شاه هزيمة ساحقة ، واستولى جنكيز خان على بخارى فى ذى القعدة سنة ٦١٦ هـ / فبراير ١٢١٩ م وخربها تماماً وسار إلى سمرقند فرحل عنها خوارزم شاه وانسحب إلى خوارزم وتولى أهلها الدفاع عنها دفاع الأبطال ، ولكنها سقطت فى المحرم ٦١٧ هـ / مارس ١٢٢٠ م واستشهد من أهلها عشرات الألوف ، وهرب الباقون ودمرت المدينة تدميراً تاماً ، حتى إن جنكيز خان أحرق مسجدها الجامع على من لجأ إليه من المسلمين

واستولى جيش جوجى بن جنكيز خان على أطرار فى ربيع أول ٦١٨ هـ / أبريل ١٢٢١ م ثم استولى على مدينة جَنْد .

وهكر خوارزم شاه فى الهرب إلى بلخ ، ثم إلى غزنة ، ثم عدل عن ذلك وسار نحو نيسابور فى ربيع أول ٦١٨ هـ / أبريل ١٢٢١ م .

ثم استولت جيوش جنكيز خان على الطالقان .

وانسحب خوارزم شاه إلى قزوين وحاول أن يقف هناك للقاء المغول فى ٣٠,٠٠٠ مقاتل ، ولكنه اختلف مع قواده فتفرقوا عنه ، وفقد المغول أثره فأغاروا على أذربيجان ونهبوا أردبيل وقاتلوا الكرج « أهل جورجيا » .

وفى ذى القعدة ٦١٨ هـ / ٢٠ ديسمبر ١٢٢١ م مات محمد خوارزم شاه الثانى فى جزيرة صغيرة فى جنوب بحر الخزر ، وعهد بالملك من بعده لابنه جلال الدين منكبرتى الذى بدأ حكمه فى ذى القعدة ٦١٧ هـ / ديسمبر ١٢٢٠ م .

وأنشأ شغتاى بن جنكيزخان مدينة سالى سراى لتكون عاصمة له فيما بعد .

وفى ربيع أول ٦١٨ هـ / أبريل ١٢٢١ م سقطت جرجانية عاصمة خوارزم بعد قتال طويل عنيف مات فيه الألوف من الشهداء ، وأصبحت جرجانية من ممتلكات جوجى .

واستولت قوات جنكيز خان على ترمذ ثم بلخ فى ربيع سنة ١٢٢١ م وتولى ابنه تولى فتح بقية خراسان .

ثم استولوا على مرو وقتلوا فيها عشرات الألوف ، وكان فيها قبيل ذلك ياقوت الحموى الجغرافى ، وفر هارباً أمام المغول بكتبه ، وقد وصف الأهوال التى تعرض لها أهل مرو .

وفى ربيع أول ٦١٨ هـ / أبريل ١٢٢١ م سقطت نيسابور ودمر المغول مشهد على الرضا فى طوس .

وكان جلال الدين منكبرتى قد اتخذ غزنة مركزاً له ، وأعد جيشاً من ٣٠,٠٠٠ مقاتل واتجه شمالاً نحو باميان لحرب المغول ، وتمكن من الانتصار عليهم عند بروان شمال كابول ، وكان جيشه يتكون من الغوريين والأتراك ، وبعد المعركة تخلى عنه الغوريون .

وبعد استيلاء جنكيز خان على الطالقان دخل فى صراع مرير مع جلال الدين منكبرتى فى جبال الهندكوش ، وتجمع المغول فتراجع أمامهم من غزنة ، ودارت بين جلال الدين منكبرتى والمغول معركة عنيفة فى ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م على ضفة السند ، وعندما تبين أن الهزيمة لاحقة به عبر النهر سباحة ولحق به ٤٫٠٠٠ من جنده ولجأ إلى التوتميش سلطان دلهى فأجاره ، ثم أمر جنكيزخان بتدمير غزنة ثم عاد إلى إيران وظهر فى كرمان .

وفى سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م خرب المغول هراة ، وقتل جلال الدين منكبرتى فى سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٢٨ م

وبعد موته لم يبق فى إيران من يواجه قوات المغول ، وكان كثير من التركمان والأكراد قد انضموا إلى المغول ، فدخل المغول بلاد الكرج وبلغوا تفليس .

وكان الأشرف بن العادل أيوب الأيوبى يحكم خلاط وديار الجزيرة ، فحاول الكرج أن يتفقوا معه ومع أتابك أذربيجان للوقوف فى وجه المغول ، ولكن هذا الأمير الأيوبى انسحب بحجة التوجه إلى مصر لقتال الصليبيين الذين نزلوا إذ ذاك فى دمياط .

وبدأ جنكيزخان ينسحب إلى منغوليا عن طريق بلاد أفغانستان ، وكان بعد أن استولى على خوارزم قد أقام ابنه جوجى أميراً عليها ، وشملت ولايته خراسان ومازندران ، وحاول جوجى الاستقلال بهذا الجزء من الدولة فقتله أبوه بالسم .

ومات جنكيزخان فى رمضان ٦٢٥ هـ / ١٨ أغسطس ١٢٢٧ م فى موضع قرب بلدة بنج ليان الحالية فى سنكيانك .

وتنازع أبناء جنكيزخان بعد وفاته وبخاصة شغتاى وأقطاى ، وكان أقطاى قد وضع يده على أملاك أخيه جوجى ، ولم يلبث شغتاى وأقطاى ابنا جنكيز أن ماتا ، واجتمع مجلس القوريلتاى واختار باتو ثانى أولاد جوجى بن جنكيز خان خاناً أعظم للمغول .

فنهض باتو فى جيش كبير لغزو شرق أوروبا ، فدخل عاصمة البلغار ثم اجتاح مصب نهر الفولجا واخترق روسيا سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م وغزا بولندا سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م وفى جمادى الثانية ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م عبر نهر الطونا .

وفى ربيع ١٢٤٢ م عاد إلى بلغاريا ، ثم رجع إلى منطقة الفولجا عن طريق الأفلاق « ولاشيا » والبغدان « مولدافيا » .

وفى سنة ١٢٤٨ م انتخب مونكو أكبر أولاد تولوى خانا أعظم للمغول وهو خامس خاناتهم العظام .

وانقسمت دولة المغول إلى قسمين تفصل بينهما الصحراء الواقعة بين نهر تراز ونهر تشوى ، وأخذ ابن أخيه باتو بلاد أوروبا .

وعهد هولاكو أخو مونكو فى الانفراد بالشرق الإسلامى ، وفى ذى الحجة ٦٥٤ هـ / ديسمبر ١٢٥٦ م بدأ هولاكو حملته الحربية على العالم الإسلامى ، وقد انضم إليه فى حملته على بلاد الإسلام بعض الرؤساء من بلاد إيران والتتق ، القوقاز ، وانضم إليه أيضاً ركن الدين خورشاه زعيم الحشاشين ، ولكن هولاكو رفض طاعته ثم قتله وعفا عن الفلكى نور الدين الطوسى وأدخله فى خدمته ، وكان هذا الرجل يحرض هولاكو على غزو العراق ، فاتجه بكل قواته نحو بغداد ، وفى ٩ صفر سنة ٦٥٦ هـ / ١٥ فبراير ١٢٥٨ م سقطت بغداد فى يده ، وأنزل المغول بها مذبحة رهيبة ، وقتل هولاكو الخليفة المستعصم آخر خلفاء بنى العباس فى بغداد .

واستسلم أمراء الشام فتقدم هولاكو واحتل حلب ودمشق ، ولكن مماليك مصر هزموا جيش المغول بقيادة كتبغا الذى خلف هولاكو عند عين جالوت ، وتجمعت معهم عشرات الألوف المتطوعة أى المجاهدين الأحرار .

خريطة ١١٦

دول المغول فى آسيا وأوروبا والدول التى تفرعت عنها

عرف تاريخ آسيا أربع إمبراطوريات مغولية كبرى هى المعروفة بإمبراطوريات الأعشب أى بلاد الأعشاب . وفيما يلى موجز عن هذه الإمبراطوريات الأربع .

(١) الإمبراطورية المغولية الأولى : جنكيزخان .

تمكن تيموجين المسمى بجنكيزخان (١١٨٧ - ١٢٢٧ م) من جمع شمل جميع القبائل المغولية فى صحراء جوبى والأراضى الممتدة منها إلى صحراء منغوليا ، وانتخبه مجلس المغول الأعلى المسمى بالقوريلتاى خاناً أكبر على كل المغول ، فتلقب بجنكيزخان أى ملك العالم ، وأصدر قانون الياسة الذى يبيح للخان الأكبر أن يقوم بكل مايؤدى إلى سلامة عرشه .

وفيما بين ١٢٠٦ و ١٢٠٩ م استولى على بلاد هسى هسيا فى شمال الصين وأخذ يستعد فيها لفتح العالم . ثم غزا بلاد الصين فيما بين سنتى ١٢١١ و ١٢١٥ م وزادت قوته وتضخمت جيوشه . ثم أشرف على بلاد الإسلام وكان أول ماتجه إليه بصره منطقة خوارزم وكانت من بلاد خوارزم شاه . ثم وقعت الحرب بينه وبين خوارزم شاه وانتصر وخرب سمرقند وبخارى ووصلت جيوشه إلى بحر الخزر كما ذكرنا آنفاً .

وفى سنة ١٢٢٧ م توفى جنكيزخان وانقسمت مملكته الشاسعة بين أبنائه شغتاى وتولوى وأقطاى وانتخب أقطاى خاناً أعظم ، فاتخذ قاعدته فى قره قورم ، وأتم غزو دولة شين فى الصين فى أواخر ١٢٣٤ م وكذلك أتم إخضاع كل هضبة إيران .

وخلفه بوتو ابن أخى جنكيزخان وانتخب خاناً أعظم ، فغزا بلاد البلقان سنة ١٢٣٦ م ثم غزا كييف سنة ١٢٤٠ م . وكذلك غزا ولاشيا ثم بولندا وتصدى للمغول بيلا الرابع ملك بولندا فانهزم أمام المغول فى معركة ليجنتز Liegnitz ومات فيها سنة ١٢٤١ م .

(٢) إمبراطورية مغول القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق .

وفى سنة ١٢٥١ م قامت دولة مغول القفجاق وهم مغول القبيلة الذهبية ، وكانت قاعدتها فى نوفجورود بعد تخريب كييف على أيدى المغول .

(٣) إمبراطورية قوبلاى خان فى بلاد الصين .

وكان الخان الأعظم فيما بين ١٢٥١ و ١٢٥٩ م هو مونكو فأقام قوبلاى خان ملكاً على بلاد الصين فهاجم جنوب مملكة الصين وأعلن نفسه خاناً أعظم عليها ، وظلت مملكته هناك من سنة ١٢٦٠ م إلى سنة ١٢٩٤ م .

وفيما بين سنتى ١٢٥١ و ١٢٦٥ م غزا هولاكو بغداد وأزال الخلافة العباسية وأنشأ إيلخانية فارس وتقدم شرقاً فغزا حلب وشمال الشام وخرب دمشق ، ولكن قائده كتبغا انهزم أمام قوات المماليك فى معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠ م ووقفت حدود الإيلخانية عند نهر الفرات ، واستمرت الإيلخانية حتى سنة ١٣٠٠ م عندما أسلم خان المغول بركة خان ، ثم أصبحت الإيلخانية دولة إسلامية .

(٤) إمبراطورية تيمورلنك .

وقامت الإمبراطورية المغولية الرابعة على يد تيمورلنك حوالى سنة ١٣٦٠ م ، وهو يزعم أنه حفيد جنكيزخان ، وكان مسلماً لكن إسلامه كان ظاهريا . وقد سار على طريقة جنكيزخان فى الإرهاب والتدمير ، وقد غزا كل بلاد إيران واستولى على كل أملاك أولاد شغتاى ، وغزا الهند ، ثم دخل آسيا الصغرى ، وكان بينه وبين السلطان العثمانى بايزيد الصراع الذى فصلناه فى مكانه . وكان انتصار تيمورلنك على الأتراك سبباً فى إيقاف تقدم الأتراك العثمانيين مائة سنة .

دولة مغول القطيع الذهبى .

خانات مغول القفجاق فى بلاد الروس وشرق أوروبا ، وأكبر خاناتها توجاى خان وقد امتد ملكه حتى بلاد البلغار . وتسمى هذه الدولة أيضاً بخانية بلاد القرم ودامت من ١٤٣٠ إلى ١٧٨٣ م . وكان سلطانها يشمل بلاد إيران حتى تمكن الصفويون من تحرير بلادهم منها ، وقد تصدى للمغول فى روسيا إيفان الثالث سنة ١٤٨٠ م وخلص معظم بلاد الروسيا من التتار فلم تبق لهم إلا بلاد القرم .

وكان أمراء مماليك سيف الدين قطز سلطان مصر وعلى رأسهم بيبرس البندقدارى لايريدون دخول المعركة ، ولكنهم اضطروا إلى دخولها فى ٣ سبتمبر ١٢٦٠ م ، وانجلت المعركة عن هزيمة المغول ووقف تقدمهم إلى الغرب ، وانسحب المغول شرقاً فاسترجع المماليك الشام ، وهذه المعركة ثبتت أقدام دولة المماليك الناشئة ، وعاد المغول مرة أخرى إلى الشام بقيادة كتبغا واستولوا على حلب فى ذى الحجة ٦٥٨ هـ / نوفمبر ١٢٦٠ م

ثم دمشق فى ربيع الثانى ٦٥٩ هـ / مارس ١٢٦١ م ووصلوا إلى غزة وبيت جبرين والخليل والصلت وبعلبك وبانياس ، وكان بصحبة كتبغا ملك أنطاكيا وأمير طرابلس من الصليبيين ، واجتمع الأمراء الأيوبيان المنصور صاحب حماه ، والأشرف صاحب حمص وجمعا قواتهما وانضم إليهما الألوف من المتطوعين وصدوا المغول خارج حمص فى صفر ٦٦٠ هـ / ديسمبر ١٢٦١ م وأنزلوا بهم هزيمة ثانية ، وطاردوهم إلى ماوراء النهر .

خريطة ١١٧

إيلخانية إيران والدويلات التى تقسمت إليها

فى صفر ٦٥٨ هـ / يناير ١٢٦٠ م وبعد أن استقرت قدم المغول فى إيران والعراق مات الخان الكبير مونكو ، وبدأ النزاع على العرش ، واختلف المغول فيمن يختارونه ، أريق بوقا أو قوبلیخان الذى كان قد استقر خاناً على بلاد الصين ، ورأى هولاكو الذى كان فى بلاد ماوراء النهر أن يوجه اهتمامه ناحية الشرق بعد أن هزم المماليك ثم الأيوبيون قوات المغول .

وكان هولاكو يميل إلى قوبليخان ، وعندما استقر الأمر لهذا الأخير خاناً أعظم للمغول أقر هولاكو على القسم الغربى من إمبراطورية المغول ، ويشمل خانية التركستان وإيران ، فأناب عنه كتبغا لقيادة الحرب فى الشام ، واستمر كتبغا فى هذا المنصب حتى قتل فى معركة عين جالوت فى ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ / سبتمبر ١٢٦٠ م .

وفى أيام الخان الأعظم مونكو الذى ذكرناه كانت العلاقات سيئة بين خان مغول القبيلة الذهبية فى التركستان ، والبلاد الغربية وهو بركة خان وهولاكو خان فارس ، وكان الحد الفاصل بين بلاد كل منهما جبال القوقاز ، وفى عهد السلطنة المملوكية وقع التقارب بين السلطان بيبرس البوندقدارى وبركة خان القبيلة الذهبية وبلاد التركستان ، وكان بيبرس نفسه من أتراك القفجاق من الأتراك الغزية ، فى حين كان قطز من فرسان الخوارزم شاهية ، وكانت عاصمة هولاكو أذربيجان .

وفى المحرم ٦٦١ هـ / نوفمبر ١٢٦٢ م عبرت جيوش هولاكو باب الأبواب المسمى بالدربند فى القوقاز ، ولكن جيوش بركة خان بقيادة نوجاى انقضت على جيش هولاكو ومزقته إرباً ، وخرج مركز هولاكو وأعلن مغول القفجاق الحرب عليه .

وكانت أملاك هولاكو تمتد إلى الموصل حيث دخل أتابك الموصل بدر الدين لؤلؤ سنة ٦٢٧ - ٦٥٧ هـ / ١٢٢٩ - ١٢٥٩ م ودخلت دولة هولاكو أيضاً أتابكية فارس ، وكان يحكمها أمير من السلغوريين فقتله المغول واستولوا على عاصمة فارس وهى كازارون ، وخضعت للمغول هولاكو أيضاً كرمان ، ومات هولاكو فى ٨ فبراير ١٢٦٥ م فى المراغة عاصمته ولحقت به زوجته طقزخان المسيحية وخلفه ابنه أبغا بن هولاكو .

حكم أبغا من ١٢٦٥ م إلى ١٢٨٢ م واتخذ عاصمته فى المراغة ثم نقلها إلى تبريز ، وظلت تبريز عاصمة مغول إيران حتى نهاية أسرة هولاكو فيما عدا الفترة من ٧٠٤ إلى ٧١٤ هـ / ١٣٠٤ - ١٣١٤ م حيث انتقلت العاصمة إلى سلطانية .

كان أبغا تابعاً لقوبلاى خان ، وكان بوذياً ، ولكنه مثل أبيه كان يعطف على النصارى كالأرمن والنساطرة واليعاقبة ، ثم تزوج من ماريا ابنة الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجوس ، وكان يحالف الأرمن والكرج والفرنج .

وحاول أبغا بن هولاكو الانتقام من بركة خان والقفجاق من القبيلة الذهبية ولكنه انهزم سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م . ومات بركة بعد ذلك بقليل فى نفس السنة .

واستمرت الحرب بعد ذلك فانتصر أبغا بن هولاكو على خانية تركستان فى هراة فى المحرم ٦٦٩ هـ / يوليو ١٢٧٠ م .

وتعاقب خانات المغول على خانية فارس وعاصمتها تبريز حتى تولاها غازان بن أرغون ابن أبغا بن هولاكو سنة ٦٩٠ - ٧٠٣ هـ / ١٢٩١ - ١٣٠٣ م فاعتنق الإسلام ، وأصبحت الإيلخانية دولة إسلامية سنية فى عصره ، ثم شيعية فى أيام أخيه أولجايتو خدا بندا سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م ، وغازان شجع الإسلام والمسلمين ، وعمل على تعويض مأأصابهم على أيدى المغول . وأعاد سلطان الشرع فى البلاد ، وابتنى المساجد فى عواصم بلاده ، وكان طبيبه ووزيره هو رشيد الدين فضل الله المؤرخ .

وفى عهد أولجايتو خدا بندا أصبحت عاصمة الدولة فى سلطانية الواقعة شمال شرق العراق فى البلاد الواقعة بين نهرى زنجان وأبهر ، وكانت لغتها هى الفارسية ، وقد كتبت بحروف عربية ، والسبب فى استعمال الفارسية فى الخانية هو أن كل رجال الحل والعقد فى الدولة كانوا فرساً أو تركاً .

وكانت حدود إيلخانية فارس كما يلى :

فى الشمال الشرقى كانت تحدها أراضى إيلخانية تركستان ، وكان يحكمها أبناء شغتاى ابن جنكيز خان ، وكان نهر جيحون هو الحد الفاصل بين الإيلخانيين .

وفى الجنوب الشرقى كان يحدها نهر السند والبنجاب فى الشرق ، وكانت حدود الإيلخانية تصل إلى حدود الشام ، وكان الفرات حدها الغربى .

وبعد أن ضعفت دولة سلاجقة الروم أثناء الحروب الصليبية ووقع الخلاف بين أمرائها انتهى أمرها على يد أبغاخان مغول القبيلة الذهبية سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م . وبذلك أصبحت حدود الإيلخانية تتاخم حدود الدولة البيزنطية .

والحد الشمالى كان يصل إلى الدربند وإقليم الكرج ، وفى شمال ذلك كانت تقع بلاد أحفاد جوجى بن جنكيز خان .

دويلات صغيرة داخل الإيلخانية تحكمها أسر محلية .

دولة آل كرت تابعة للإيلخانية فى هراة والغور وغرجستان ، وقد استمرت هذه الدولة حتى وفاة أبى سعيد بهادر آخر الإيلخانات .

دولة القراخطاى فى كرمان وقد استمر حكمها حتى سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م.

دولة فارس التى استمرت حتى سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م .

دولة بختيارى ولورستان فى جنوب إيران .

كذلك قامت دويلة محلية مستقلة فى هرمز والجزر ، ودولة أخرى فى لار على الخليج العربى .

وفى سجستان حكمت أسرة من أحفاد الصفاريين ، وفى سجستان أيضاً حكمت أسرة من أحفاد البويهيين .

وفى مازندران حكمت أسرة باوندزبان .

وفيما يلى جدول يبين شجرة بيت جنكيزخان :

جنكيز خان

أول الخانات العظام

ولد سنة ١١٥٥ م - أصبح خاناً أعظم سنة ١٢٠٦ م - توفى فى أغسطس سنة ١٢٢٧ م

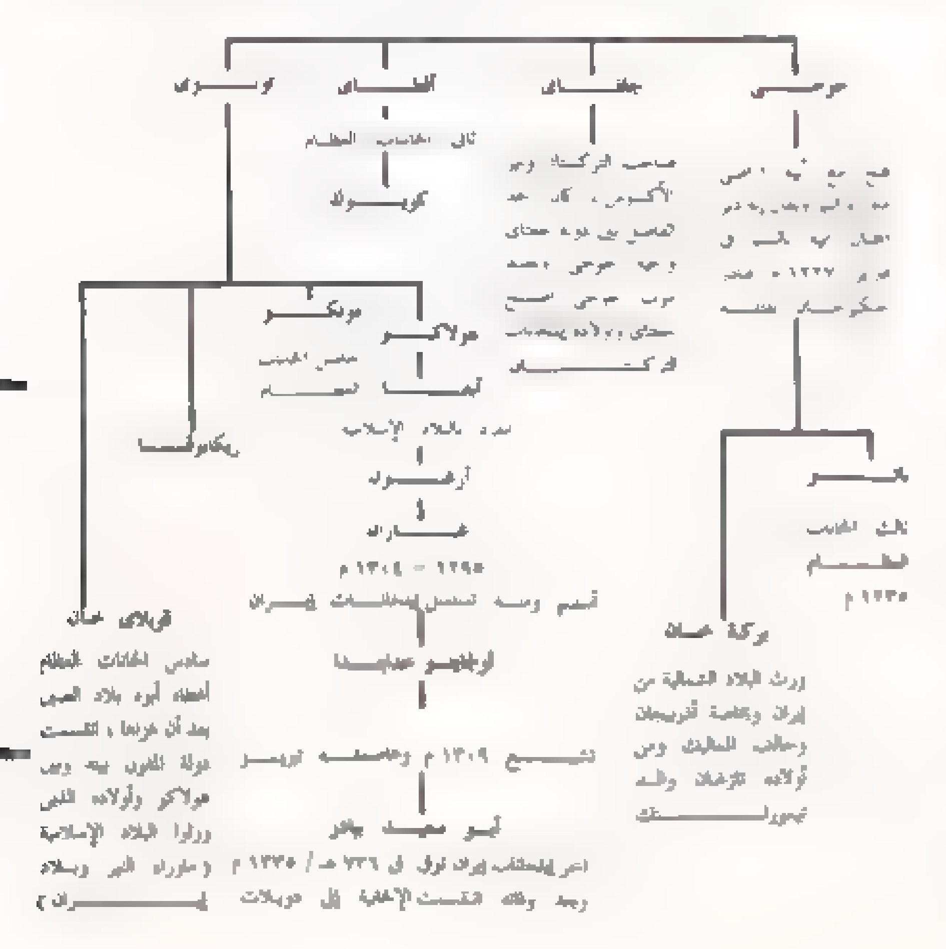

خريطة ١١٨

تفكك إيلخانية إيران إلى دويلات

وغزوات تيمورلنك ودولته في أقصى اتساعها وصراعــه مع العثمانيــن

استمرت إيلخانية إيران متماسكة حتى وفاة أبي سعيد بهادر آخر الإيلخانات في سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م .

ثم انقســمت الإيلخانية إلى دويلات أو ممالك طوائف هي :

(١) دولة آل جوبان في أذربيجان وأران وعراق العجم من ٧١٨ إلى ٧٤٠ هـ / ١٣١٨ – ١٣٤٤ م وعاصمتها تبريز ،

(٢) دولة الجلايريين أو إيلخانية العراق . في العراق وعراق العجم وأذربيجان وشروان وكانت عاصمتها بغداد ثم تبريز من ٧٤٠ – ٨١٣ هـ / ١٣٣٩ – ١٤١٠ م.

(٣) دولة المظفريين . في فارس وكرمان وأصفهان وخوزستان من ٧١٨ – ٧٩٥ هـ / ١٣١٨ – ١٣٩٣ م وكانت عاصمتها في شيراز .

(٤) دولة آل كورت في شرق خراسان ، وقد بدأت سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ – ١٢٤٦ م ودامت بعض الوقت .

(٥) دولة آل سربدار في غرب خراسان ، وقد حكمت من ٧٣٧ – ٧٨٣ هـ / ١٣٣٦ ١٣٨١ م

(٦) دولة آل طوغا التيموريين في جورجان وجزء من شمال خراسان ، وامتدت إلى الدامغان بعض الوقت ٧٣٧ – ٨١٧ هـ / ١٣٣٦ – ١٤١٤ م .

(٧) دولة أمير أرغون ، وقد حكمت طوس ونسا وأبيورد بعض الوقت ، وقامت كذلك دويلات صغيرة في مازندران .

غزوات تيمورلنك ودولته

٧٣٧ – ٨٠٨ هـ / ١٣٣٦ – ١٤٠٥ م

ولد تيمور في مدينة كش وهي اليوم شهرسبابزا Shakhrisia Bz أي المدينة الخضراء جنوب سمرقند في أوزبكستان من بلاد ماوراء النهر سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م وكان يحكم بلاد ماوراء النهر إيلخان التركستان ، وكانت دولته قد ضعفت قبضتها على البلاد ، وأصبح الأمر بيد القواد ، ويقال إن أباه طرغاى كان رئيس قبيلة البارلسيين وأنه ينتسب إلى قراشاى نويان الذى كان قيما يزعمون وزيراً وصهراً لشغتاى بن جنكيز خان .

وعندما توفى كازغان آخر إيلخانات تركستان سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م قام طغلق تيمور ، صاحب كاشغر أوخان كاشغر كما يسمونه بغزو ماوراء النهر على يد ابنه وقائده إلياس خوجة ، وأرسل معه تيمور وزيراً ، ووقع الخلاف بين تيمور وإلياس خوجة ، ففر تيمور وانضم إلى الأمير حسين حفيد كازغان آخر إيلخانات الترك وكان صهراً لتيمور .

وجمع الاثنان جيشاً تمكن من هزيمة إلياس خان وطرده من التركستان سنة ٧٦٥ هـ / ١٣٦٤ م ثم انقلب تيمور على الأمير حسين وحاصره في بلخ ، وفي أثناء الصراع قتل حسين فأعلن تيمور نفسه حاكماً لسمرقند ، وزعم أنه من سلالة شغتاى بن جنكيزخان ، وأنه يريد إعادة مجد دولة المغول .

وقام تيمور بتنظيم جيش ضخم معظمه من الأتراك ، وبسط سلطانه على شرق ماوراء النهر واحتل كاشغر سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م ثم قدم تيمور العون العسكرى لطقتميش خان القرم ، وكان من مغول القبيلة الذهبية المسماة مامل ، وكان الروس قد طردوه من بلاده بعد أن استطاع أن يحتل موسكو ويهزم آل نويان قرب بلطاوة .

وفى سنة ٧٨٥ هـ / ١٣٨٣ م شرع تيمور فى غزو إيران فاحتل هراة ، وكانت الفوضى قد عمت إيلخانية إيران بعد موت أبى سعيد بهادر سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م كما قلنا ، فاستولى تيمورلنك « أى تيمور الأعرج » على خراسان وكل شرق إيران فيما بين سنتى ٧٨٥ و ٧٨٧ هـ / ١٣٨٣ – ١٣٨٥ م ثم استولى على فارس والعراق بكل عنف وقسوة ، وغزا أذربيجان وأرمينية وبلاد الكرج فيما بين سنتى ٧٨٨ و ٧٩٧ هـ / ١٣٨٦ و ١٣٩٤ م

وهب للوقوف فى وجه تيمور طقتميش خان القبيلة الذهبية للدفاع عن بلاده ، وغزا أذربيجان سنة ٧٨٧ هـ / ١٣٨٥ م وماوراء النهر سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ، وهزم قوات تيمور فسار إليه تيمور وتبعه فى سهول الروسيا وهزمه وعزله ولكن طقتميش نهض من جديد واحتل القوقاز سنة ٧٩٨ هـ / ١٣٩٥ م ، ولكنه انهزم أخيراً ، وسار تيمور إلى روسيا واحتل موسكو . وانتهز أمراء نواحى إيران الفرصة للثورة على تيمور فعاد إلى إيران وأنزل بأهلها مذابح بشعة أعادت إلى الأذهان ذكرى مظالم جنكيزخان حتى أقام الصوامع « أى المآذن » من رءوس القتلى .

ثم سار إلى الهند زاعماً أن أمراء آل طغلق يتساهلون فى أمر الإسلام مع الهندوس الكفرة فعبر نهر السند وكان سنه فوق الستين ، واحتل دهلى بعد أن هزم قوات محمود طغلق فى بانيبات فى ١٧ ديسمبر سنة ١٣٩٧ م وخرب دهلى تخريباً تاماً لم تفق منه إلا بعد قرن من الزمان ، وفى أبريل ١٣٩٩ م عاد تيمور إلى عاصمته فى سمرقند محملاً بغنائم وفيرة ، ومعه سبعون فيلاً تحمل الأحجار والرخام التى نهبها من دهلى ليبنى مسجداً فى سمرقند .

وبعد أن وضع حجر الأساس لهذا المسجد خرج تيمور للغزو مرة أخرى فى أواخر سنة ١٣٩٩ م وكان هدفه هذه المرة معاقبة السلطان فرج المملوكى لأنه ساعد أحمد جلاير خان بغداد على استعادة أذربيجان وحكمها بعض الوقت ، وكذلك ليعاقب السلطان العثمانى بايزيد الأول الذى كان يحكم شرق آسيا الصغرى .

وكان بايزيد سلطان الدولة العثمانية الناهضة سلطاناً شديد الحماس للإسلام ، وكان يوجه بكل قواه نحو البيزنطيين وشعر بخوف من ذلك القائد الذى اكتسح البلاد من حدود العراق إلى السند ، وقد أخذ يستعد للقائه ، ففى سنة ١٣٩١ م ضم قونية إلى سلطانه ثم استولى على قيصرية وسيواس وتوقات ، وفى سنة ١٣٩٣ م استولى على قسطمونى « وكل هذه من إمارات الغزاة فى آسيا الصغرى » فأسرع هؤلاء الأمراء إلى تيمور مستجيرين به ، وتقدم تيمور سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م إلى آسيا الصغرى وأنزل بالأتراك العثمانيين هزيمة كبيرة قرب أنقرة فى ٢٠ يوليو ١٤٠٢ م قضى فيها على جيش كامل من الأتراك العثمانيين ، ومن بين قواده كان أرطغرل بن بايزيد .

ثم استدار تيمور لغزو الشام واستولى على حلب ثم دمشق سنة ١٤٠٣ م وخربها وحمل معه ٤٠٠ من أحسن صناعها ، ثم استولى على بغداد وقتل ٢٠,٠٠٠ من سكانها ، ثم رجع إلى بلاده وقضى الشتاء مستجماً فى قره باغ فى بلاد القوقاز أى بلاد القبق بين نهرى كور وأراس وأخذ يستعد لمواجهة العثمانيين .

وفى ربيع سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ م تقدم تيمور غرباً ماراً بأذربيجان وتوقات وسيواس ، وهناك دارت المعركة الفاصلة بين بايزيد الأول وتيمورلنك عند جبق أباد فى ٢٠ يوليو ١٤٠٢ م وانهزم بايزيد ووقع فى الأسر هو وأحد أبنائه ، وهرب ابناه محمد وموسى ، وقد توفى بايزيد فى ٨ مارس ١٤٠٣ م ، والغالب أنه لاصحة لما يقال من أن تيمور أسره ووضعه فى قفص وطاف به البلاد . وأعاد تيمور أمراء سلاجقة الروم من الغزاة إلى إماراتهم مكافأة لهم على تخليهم عن بايزيد فى المعركة ، واستولى على أزمير من فرسان القديس يوحنا أصحاب رودس ، وأبقى بلاد الروملى لسليمان بن بايزيد فاعترف بطاعة تيمور .

وكر تيمور عائداً إلى بلاده وتوفى فى ١٩ يناير ١٤٠٥ م بينما كان يستعد للقيام بحملة على الصين .

خريطة ١١٩

دولـة التيموريـــن

(٨٠٧ – ٨٥٣ هـ / ١٤٠٤ ١٤٤٩ م)

خلف تيمور ابناه شاه رخ وميران شاه فقسمت الإمبراطورية بينهما بخط يمتد على حدود إيران ، فأخذ ميران شاه الغرب : العراق وأذربيجان وأجزاء من بلاد القبق أى القوقاز ثم قتل سنة ١٤٠٨ م وهو يحارب جماعة من التركمان يسمون القراقيون لو « القطيع الأسود » فوحد شاه رخ إمبراطورية أبيه تحت سلطانه .

وتنازع القراقيون لو مع إخوانهم الأقيون لو « القطيع الأبيض » على ملك الولايات الشمالية الغربية التابعة لشاه رخ .

وخلف شاه رخ ابنه أولوج بك سنة ١٤٤٧ – ١٤٥٢ م ، ثم قامت بينه وبين أوزون حسن سلطان الأوربك معارك طويلة

وخلفه ابنه حسين بايقرا واتخذ هراة عاصمة له من ١٤٦٩ إلى ١٥٠٦ م .

وفى ذلك الوقت ظهرت قوة قبائل الأوزبك التركمان بقيادة زعيمها شيبانى خان فبسطت

سلطانها على بلاد ماوراء النهر ، ثم خلع بابور حفيد أبي سعيد عن عرش سمرقند فهاجر إلى الهند وأنشأ هناك دولة سلاطين مغول الهند .

وبين ضغط الأوزبك من الشمال ، والشاه إسماعيل من قلب إيران انتهت دولة خلفاء تيمور .

خريطة ١٢٠

دولة الصفويين

« ٨٩٨ – ١١٤٨ هـ / ١٤٩٢ – ١٧٣٥ م »

بعد تدهور دولة خلفاء تيمور تعاقبت على بلاد إيران دويلات صغيرة حتى ظهرت إلى الوجود دولة الصفويين ، ومنشئها الشاه إسماعيل من أتباع الشيخ صفي الدين الأردبيلي ، وهو كما يقول مؤرخوه من أحفاد موسى الكاظم سابع الأئمة من نظام الشيعة السبعية ، وكان صفي الدين وابنه صدر الدين من بعده سنيين ، وكذلك كانت الجماعة التي أنشأها في أردبيل ، ولكن حفيده الخواجة علي الذي تولى رياسة الجماعة في سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م كان شيعياً معتدلاً ، وجاء بعده ابنه الشيخ إبراهيم شيعياً متعصباً للاثني عشرية ، فقاد جماعته في الصراع مع السنيين في الداغستان ، وخلفه في نفس الطريق ابنه الشيخ جنيد الذي تولى رياسة الجماعة سنة ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م ولم يكن أتباعه إيرانيين ، بل من التركمان وأتباعه سموا بالقزلباشية أي ذوي الرءوس الحمراء ، وقد تزوج الشيخ حيدر من مارتة ابنة أوزون حسن رئيس طائفة الشياه البيضاء التي كانت تحكم شمال غرب إيران ، وكانت أمها مسيحية اسمها دسبينا كاترينا **Despina Katrina** ابنة كارلويوحنا **Karlo Johannis** ملك مملكة طرابزون المسيحية على ساحل البحر الأسود ، وكان أميراً متعصباً لشيعته ، مقاتلاً في سبيلها ، وقد لقي الموت في صراعه مع أهل السنة ، وخلفه ثلاثة أولاد أصغرهم إسماعيل ، وكانت سنه عاماً واحداً عندما توفي أبوه .

في ذلك الوقت كان الأتراك العثمانيون يمدون سلطانهم على آسيا الصغرى وشمال شرق إيران فتصدى لهم إسماعيل عندما كبرت سنه ، وتزعم التركمان الشيعيين في الحرب ، وقد تمكن بفضل شجاعتهم من الاستيلاء على تبريز وهناك أعلن نفسه شاهاً لإيران في المحرم ٨٩٨ هـ / أكتوبر ١٤٩٢ م ، والشاه إسماعيل هو الذي صبغ الحركة الصفوية كلها بصبغة شيعية ، وكان الكثيرون جداً من أتباعه سنيين أول الأمر ، ولكنه اجتهد في تحويلهم إلى الشيعة الاثني عشرية ، وتصدى معهم لحرب السلطان سليم الأول العثماني الذي كان سنياً شديد الحماس لمذهبه ، وقد وقع اللقاء الدموي في شمال غرب إيران في رجب ٩١٠ هـ / ديسمبر ١٥١٤ م في سهل تشالديران في شمال غرب إيران ، وانتهى بنصر حاسم للأتراك العثمانيين الذين احتلوا تبريز عقب ذلك ، ولكن سليم الأول اضطر إلى إخلائها والعودة إلى تركيا بسبب فتنة وقعت بين صفوف جنده ، وهذه الفتنة هي التي أنقذت الصفويين من الأزمة الخطيرة التي أحاطت بدولتهم وهي بعد في طور النشأة .

وفكرت أوروبا في الاستعانة بالصفويين الشيعيين على الأتراك العثمانيين السنيين الذين كانوا إذ ذاك يتقدمون في قلب أوروبا ، فأرسلت انجلترا سفيراً لمقابلة الشاه طهماسب خليفة إسماعيل في عاصمته وهي بلدة قزوين ، ولكنه طرد السفير عندما علم أنه نصراني يريد أن يزيد الفتنة بين المسلمين ، ولكن دولة الصفويين ضعفت ضعفاً شديداً في أيام طهماسب لأن رؤساء الجند من التركمان تقاسموا السلطان في إماراتهم وتركوا الشاه لمصيره في أثناء الصراع الحاسم مع الأتراك .

وعادت دولة الصفويين فانتعشت من جديد في عصر الشاه عباس سنة ٩٩٦ – ١٠٣٨ هـ / ١٥٨٧ – ١٦٢٩ م وهو الذي جدد قوة الدولة العسكرية ، وسمح لمدربين من الإنجليز بإنشاء فرق عاربة على النظام الحديث تتكون من الطوفانجية أي الفرسان الذين يستعملون السلاح الحديث ، والطوبجية أي المدفعية والقلار أي الفرق الخاصة التي تضاهي الإنكشارية قوة ونظاماً ، وبفضل هذه القوات الجديدة استطاع الشاه عباس الثبات أمام الأتراك العثمانيين ، وقد استعان بالمتخصصين من الإنجليز في شئون الحرب ، وتمكن من تحويل إيران إلى قوة عسكرية يحسب لها حساب .

وفي سنة ١٠١١ هـ / ١٦٠٢ م وبمعاونة الإنجليز استطاع الشاه عباس الأول أن يطرد البرتغاليين من جزيرة هرمز ، وعندما توفي الشاه عباس في جمادى الآخرة ١٠٣٨ هـ / يناير ١٦٢٩ م بعد أن حكم ٤٢ سنة كانت إيران قد أصبحت قوة ضخمة في الشرق الأوسط ، وقد وصل الشاه عباس إلى ذلك بملكاته ومواهبه وبالقسوة أيضاً التي اشتهر بها ، وعندما توفي لم يرث خلفاؤه منه إلا القسوة .

وأسرع التدهور إلى البيت الصفوي فاسترد مراد الرابع من آل عثمان العراق وبغداد . وجدير بالذكر هنا أن الأتراك العثمانيين عندما انتصروا على الإيرانيين في معركة تشالديران أخرجوا العراق من سلطان الفرس والتركمان . ووصل تدهور إيران أقصاه سنة ١١٣٦ هـ / ١٧٢٤ م عندما اتفق الأتراك العثمانيون على اقتسام أحسن الولايات الإيرانية في الشمال .

وانتهت دولة الصفويين في سنة ١١٤٨ هـ / ١٧٣٥ م عندما اعتلى نادر طهماسب قولي خان الأفشاري الأفاق الأصل عرش إيران ، وأنشأ الدولة الأفشارية التي حكمت البلاد إلى سنة ١٧٤٩ م . وقد أعاد إيران إلى حدودها أيام الصفويين ، وهي على وجه التقريب حدودها الحالية ، ثم قام بحملات تخريبية على أفغانستان وشمال الهند .

وكان الخطر الحقيقي على إيران يكمن من ناحية الروس ، لامن ناحية الأفغان أو مغول الهند وهم مسلمون أيضاً ، وقد هيمن الإنجليز على تجارة إيران في ذلك العصر ، وفي نهاية المطاف اقتسمت انجلترا وروسيا إيران بمقتضى معاهدة فرضت عليها في ٣١ أغسطس ١٩٠٧ م ولكنها تخلصت من ذلك وعادت دولة مستقلة ، إذ اتفق الإنجليز والروس على الانسحاب من إيران .

وبعد دولة الأفشار حكم إيران القاجاريون سنة ١١٦٢ هـ – ١٧٤٩ م وأولهم أغا محمد شاه وآخرهم السلطان أحمد ميرزا، وبعد ذلك جاءت دولة البهلويين وهي آخر دول الشاهات الإيرانية وقد استمرت في الحكم حتى سنة ١٩٧٩ م عندما قامت الثورة الإيرانية .

ولم تتغير حدود إيران خلال هذه الدول الأخيرة رغم كثرة الحروب ومامر على إيران خلالها من حوادث جسيمة .

المراجع

البلاذري : فتوح البلدان . بتحقيق صلاح الدين المنجد . ٣ أجزاء . القاهرة ١٩٥٨ م .

الطبري : تاريخ الأمم والملوك . بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم . القاهرة ١٩٦٢ م ومابعدها .

ابن مسكويه : تجارب الأمم . خمسة أجزاء طبعة أوروبا ١٨٩٤ م

أبو سعيد عبد الحي الكرديزي : تاريخ خراسان . كتب سنة ١٠٤٠ هـ . نشر الجزء الخاص بخراسان في طهران سنة ١٩٣٧ م .

أبو الفضل محمد بن الحسين البيهقي : تاريخ بيهق (فارس) تاريخ السلطان مسعود بن محمود الغزنوي . نشره Morely في كلكتا ١٨٦٢ م . ترجمه إلى العربية د. يحيى الخشاب ود. صادق نشأت ونشراه في القاهرة .

أبو جعفر محمد بن جعفر النرشخي : تاريخ بخارى . وقد نشره Ch. Schefer في باريس سنة ١٨٦٢ م بعنوان :

Description Géographique et Historique de Bukhara .

أبو الحسن علي بن زيد البيهقي : تاريخ بيهق . نشره أحمد بهمنيار في طهران سنة ١٩٣٨ م .

D'Ohsson , Histoire des Mongols . Paris 1925 .

Grousset , L'Empire des Steppes . Paris 1967 .

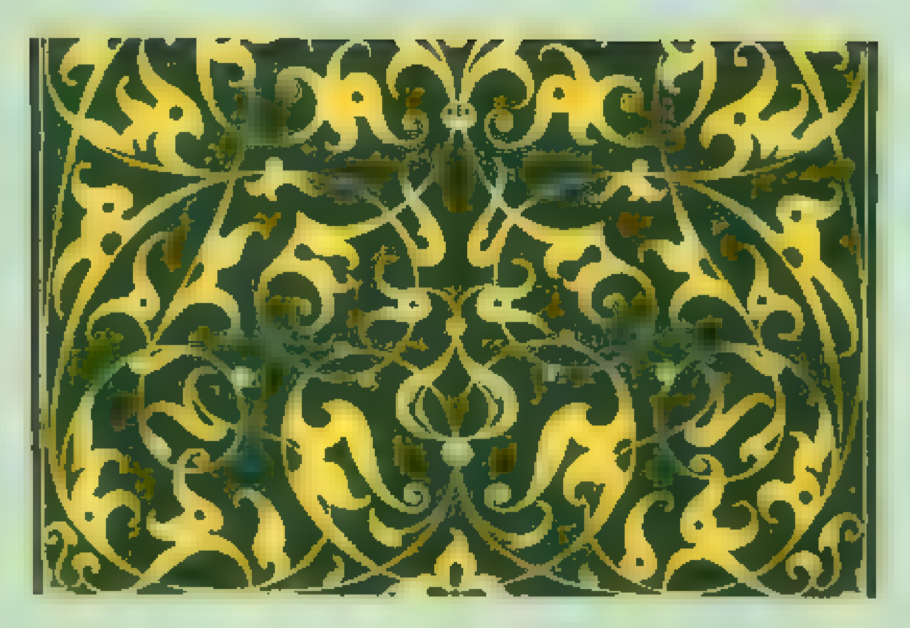

الفصل الحادي عشر

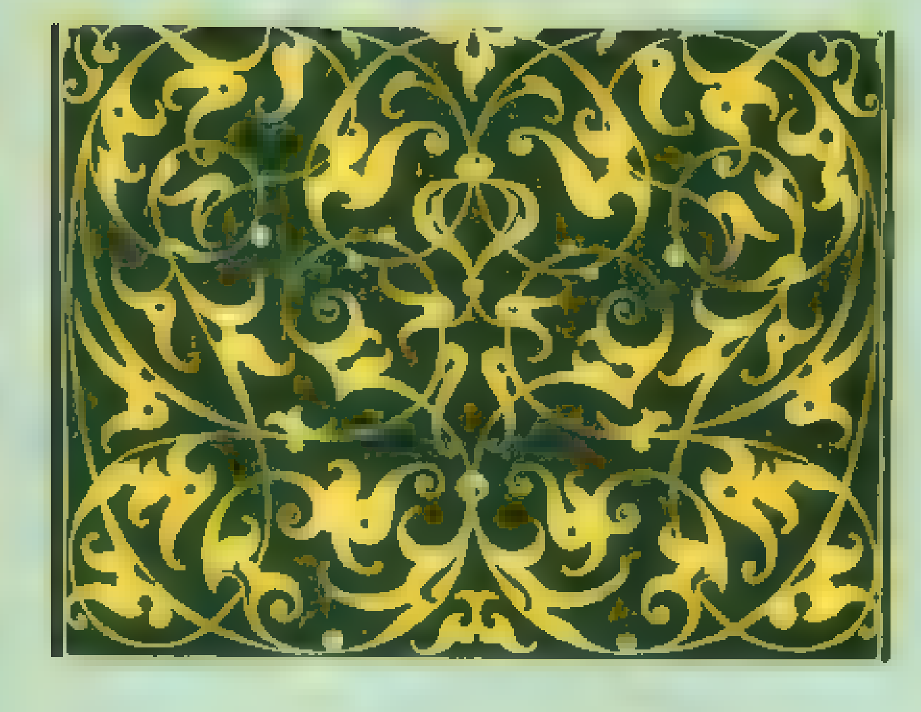

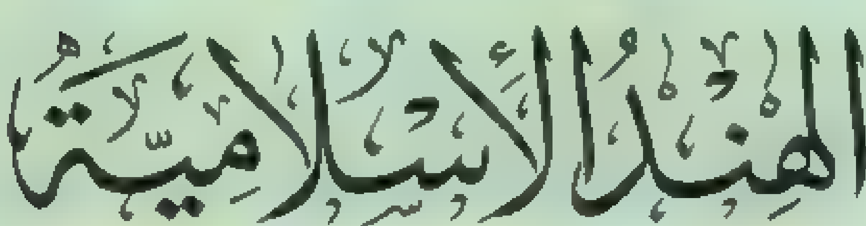

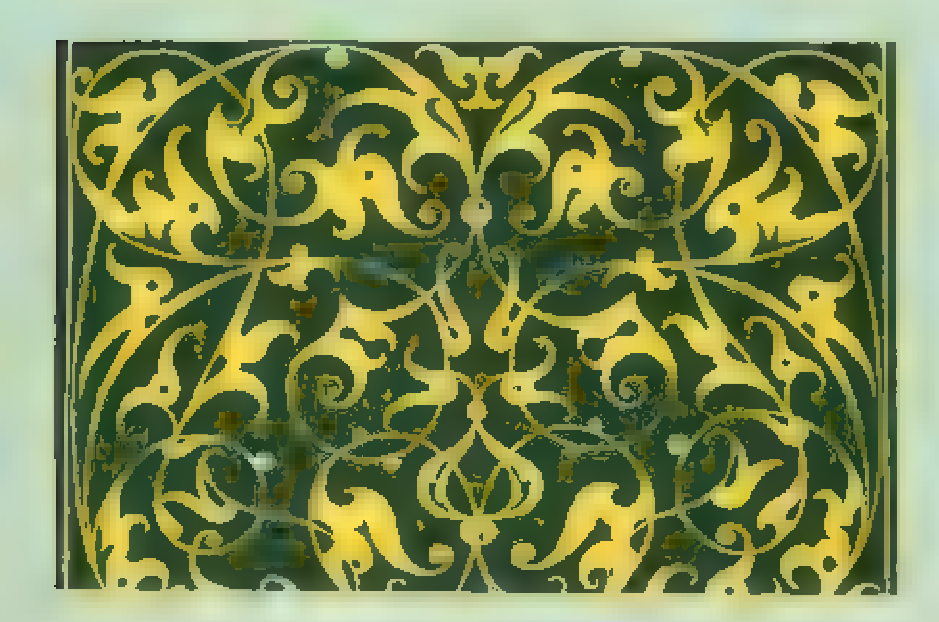

بيان الخرائط

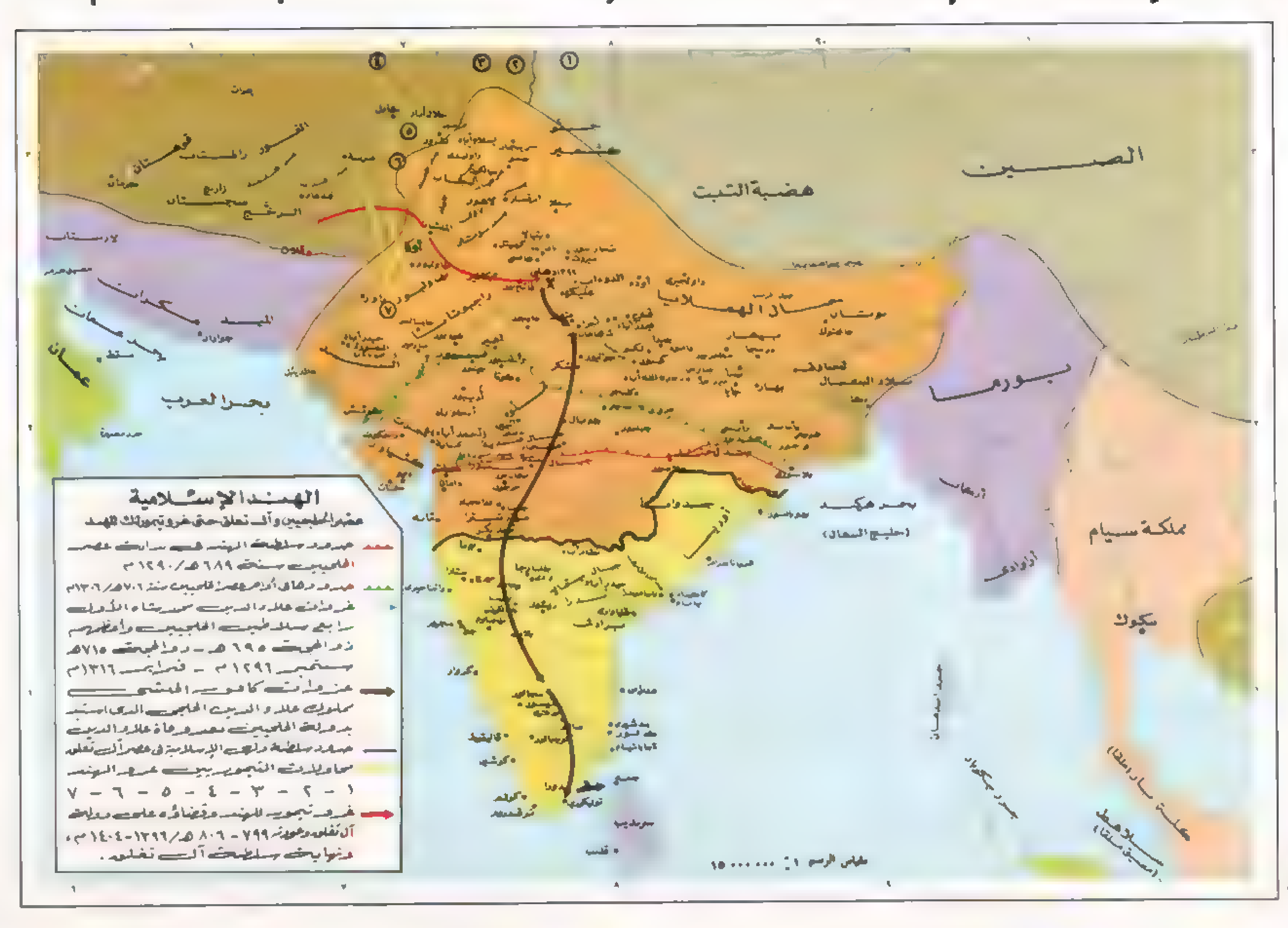
الهند الإسلامية
عصر الخلجيين وآل تغلق حتى غزو تيمورلنك الهند
حدود سلطنة الهند في بداية عصر الخلجيين سنة ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م
حدود دهلي أواخر عصر الخلجيين منذ ٧٠٦ هـ/ ١٣٠٦ م
غزوات علاء الدين محمد شاه الأول رابع سلاطين الخلجيين وأعظمهم (ذو الحجة ٦٩٥ هـ - ذو الحجة ٧١٥ هـ / سبتمبر ١٢٩٦ م - فبراير ١٣١٦ م)
غزوات كافور
مملوك علاء الدين الخلجي الذي استبد بدولة الخلجيين بعد وفاة علاء الدين
حدود سلطنة دلهي الإسلامية في عصر آل تغلق
١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٧
غزو تيمور للهند وقضاؤه على دولة آل تغلق وعودته ٧٩٩ - ٨٠٦ هـ/ ١٣٩٦ - ١٤٠٤ م، ونهاية سلطنة آل تغلق.
الصين
هضبة التبت
بورما
مملكة سيام
بكوك
بحر العرب
بحر هركند
(خليج البنغال)
عمان
سجستان
مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠

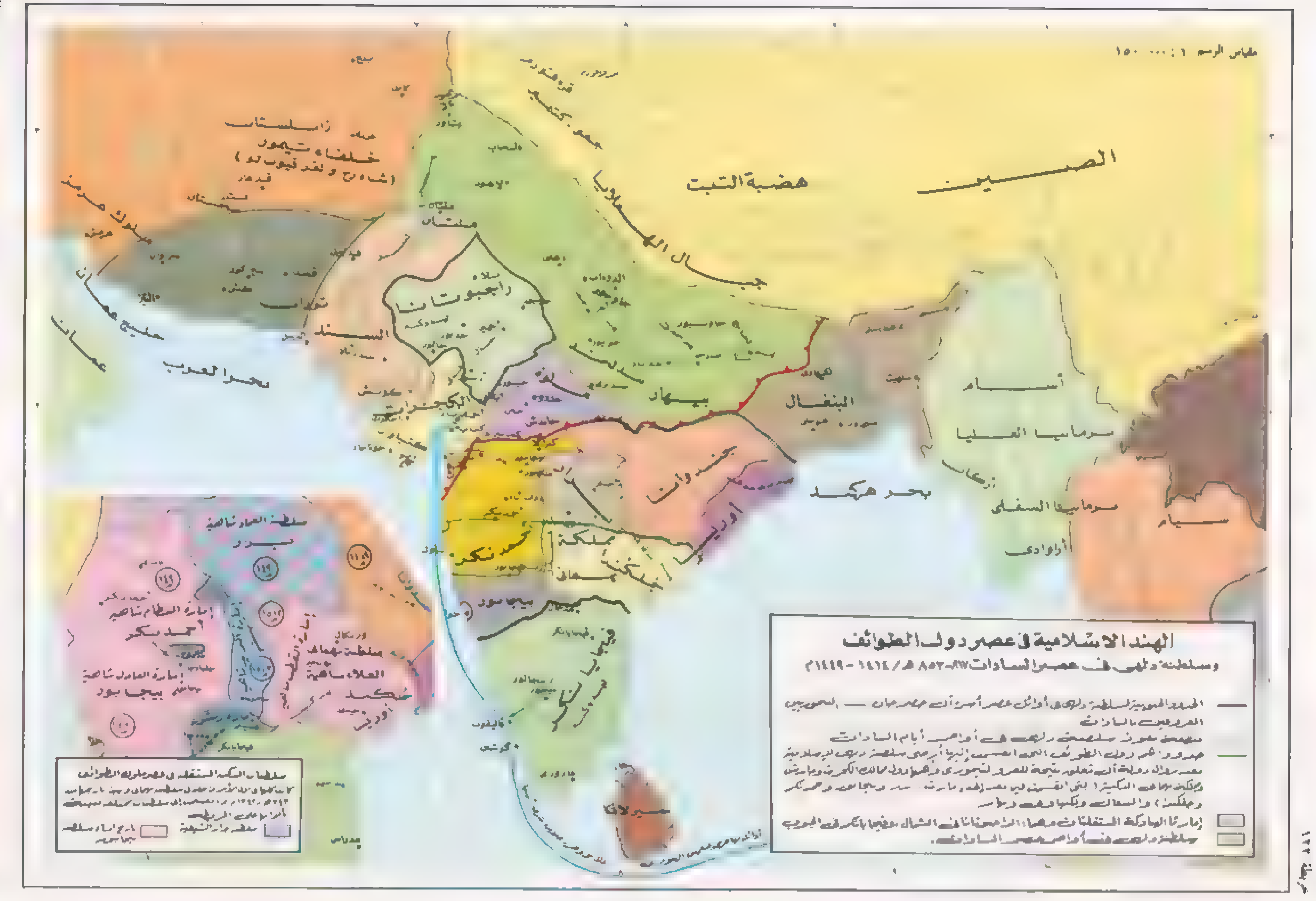

الهند الإسلامية في عصر دول الطوائف
وسلطنة دلهي في عصر السادات ٨١٧-٨٥٢ هـ / ١٤١٤ - ١٤٤٩م
مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠
الصين
هضبة التبت
جبال الهملايا
زابلستان
خلفاء تيمور
قندهار
سجستان
ملتان
راجبوتانا
السند
الكجرات
بهار
البنغال
آسام
بورما العليا
بورما السفلى
سيام
بحر هركند
بحر العرب
خليج عمان
عمان
جندوانا
أوريسا
مملكة تلنكانا
أحمد نكر
بيجابور
بيجانكر
سيرلانكا
أراوادي
إمارة النظام شاهية
إمارة العادل شاهية
سلطنة العماد شاهية
سلطنة بهمنية

سلطنة دلهي الإسلامية
في عصر سلاطين أسرة لودهي ومملكة بهمان الدكنية
مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠
هضبة التبت
الصين
جبال الهملايا
بورما
مملكة سيام
بنكوك
بحر العرب
بحر هركند (خليج البنغال)
عمان
راجبوتانا
سجستان

سلطنة مغول الهند

في عصر السلطان محمد بابر ١٥٢٥ - ١٥٣٠م

- حدود سلطنة مغول الهند.
- فتوح السلطان ظهير الدين محمد بابر.
- سلطنات الدكن.
- إتجاه غزوات محمد بابر
- دولة فيجايانكر الهندية في الجنوب.
- مراكز المستعمرات الأوروبية

مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠

الهند الإسلامية في أقصى اتساعها

في عصر السلطان جلال الدين محمد أكبر

٩٦٣ - ١٠١٤ هـ / ١٥٥٦ - ١٦٠٥ م

- سلطنة مغول الهند حوالي سنة ١٦٣٥ م
- فتوح السلطان أكبر بعد سنة ١٦٣٥ م
- خانات خارجية
- بلاد المرهتا حوالي سنة ١٦٨٠ م
- محاولة أكبر القضاء على قوة الأفغانيين وخانات بلوخستان
- مراكز الاستعمار الأوروبي

تفكك سلطنة مغول الهند بعد وفاة أورانجزيب في ذي الحجة سنة ١١١٨ هـ / أبريل سنة ١٧٠٧ م

الصين
التبت
جبال الهملايا
خانات بخارى
أفغانستان
الصفويون
بلوخستان
خليج عمان
عمان
بحر العرب
مكران
كشمير
البنغال
آسام
كماروبا (آسام)
ملابار
جزيرة سرنديب
اتحاد المرهتا
أوريسا
خليج البنغال
جبال الهملايا
لاهور
ملتان
دلهي
أودة
بتنا
كلكتا
مدراس
أركوت
ميسور

مراحل
استيلاء الإنجليز على الهند ومحاولتها القضاء على السيادة الإسلامية فيها

الهند مستعمرة بريطانية

المحطات البريطانية

مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠

الصين
التبت
لهاسا
بوتان
نيبال
كاتماندو
آسام
كشمير
البنجاب
بلاد السيخ
لاهور
بشاور
كابل
قندهار
بلوخستان
السند
بلاد راجبوتانا
بلاد المرهتة
بهار
البنغال
كلكتا
بكسر
بلاسي
أوده
لكنو
دهلي
أجرا
بنارس
جوالير
حيدرآباد
ميسور
جوا
بومباي
مدراس
بوندشيري
سرنديب
كولم
كوشين
قنب
بحر العرب
خليج بنغالة
برمانيا العليا
برمانيا السفلى
جزر لكديف
جزر جزيرة المالديف

الهند حوالي سنة ١٧٩٥م

الهند حوالي سنة ١٨١٨م

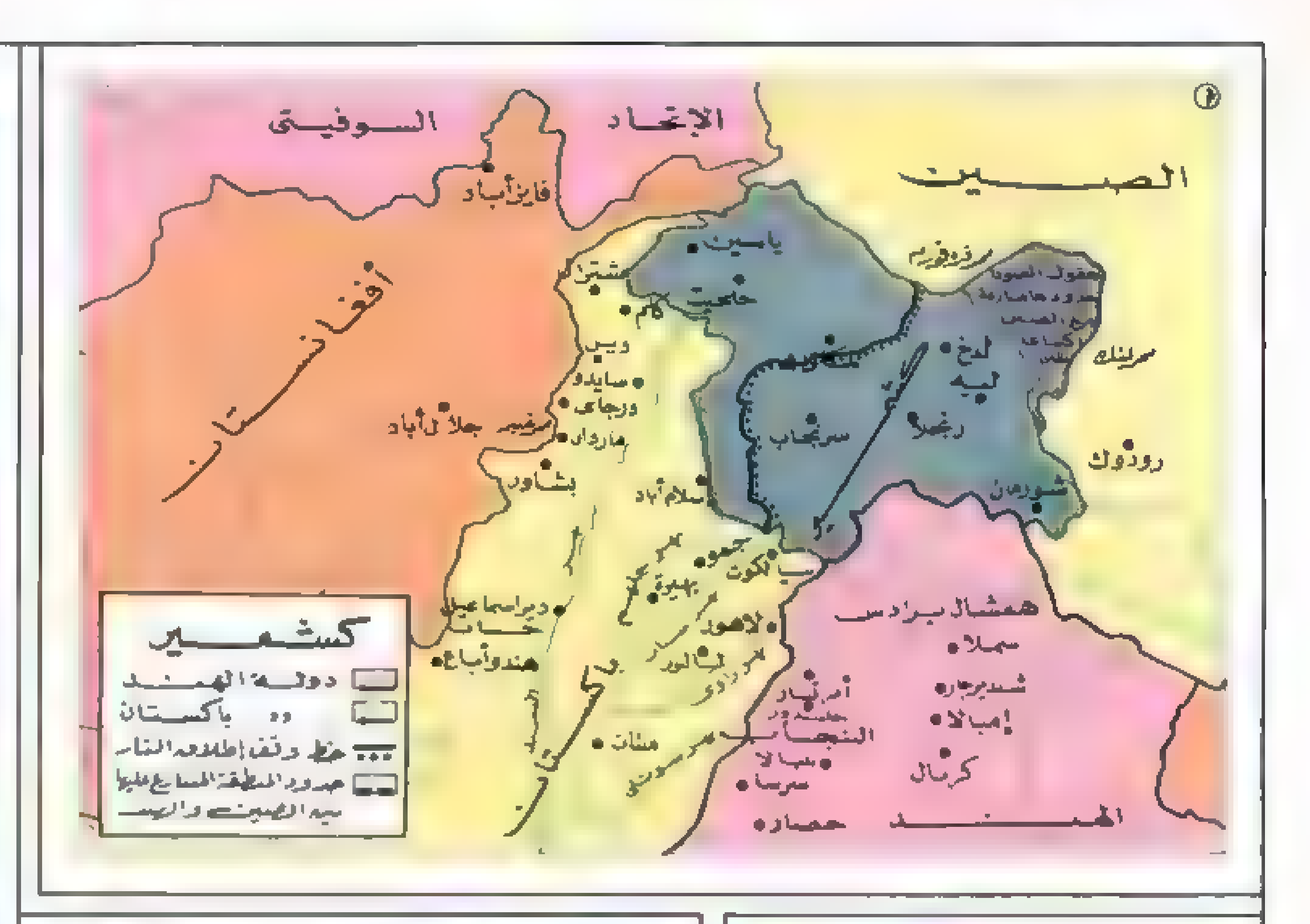

كشمير
دولة الهند
باكستان
خط وقف إطلاق النار
حدود المنطقة المتنازع عليها بين الصين والهند
الصين
الاتحاد السوفيتي
أفغانستان
الهند
فايزآباد
ياسين
جلال آباد
بشاور
إسلام آباد
لاهور
سيالكوت
جمو
سرينجار
لدخ
ليه
كارجيل
روذوك
سملا
أمبالا
كرنال
أمرتسار
ملتان
حصار
هندوآباد
ديرا إسماعيل خان

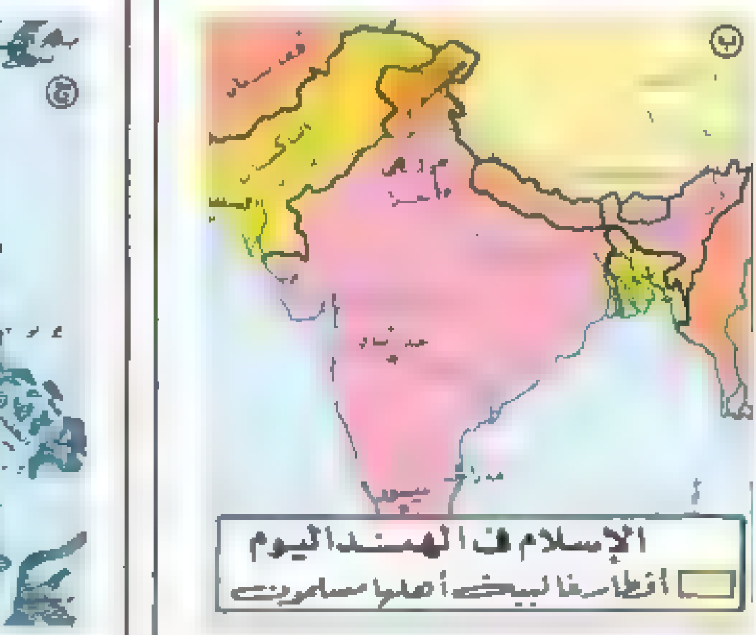

الإسلام في الهند اليوم
أقطار غالبية أهلها مسلمون

انتشار الإسلام في الهند
الصين

القوى التي قضت على سلطان المسلمين في الهند

يبدأ تاريخ المسلمين فى الهند من أيام الغزنويين ، ثم الغوريين ، وقد ذكرنا أعمال هاتين الدولتين فى الهند عند كلامنا عليهم فى الفصل الخاص بإيران .

والآن نبدأ تاريخ المسلمين فى الهند بمماليك الغوريين ثم الخلجيين ، لأنهم أول من استقر نهائياً فى الهند وأقام فيها دولاً إسلامية هندية .

خريطة ١٢١

الهند الإسلامية ، عصر الخلجيين وآل تغلق حتى غزو تيمورلنك للهند ،

اكتفى قطب الدين أيبك بأملاكه فى الهند ولم يفكر فى ضم أملاك مواليه الغوريين فى غزنة وإيران وخوارزم

وتولى قطب الدين أيبك سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م ، وبعد وفاته خلفه مملوكه شمس الدين ألتمش فى دهلى ، دلهى ، واستبدت أسرة الخلجيين وهم من رجال محمد الغورى ببلاد بهار والبنغال .

وفى سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م تعرضت دولة الإسلام فى الهند لخطر جسيم ، إذ إن جيوش جنكيزخان المغول وصلت إلى حدود الهند فى تلك السنة بعد أن غزا بلاد ماوراء النهر وشرق إيران وسلطنة خوارزم وهرب سلطانها جلال الدين منكبرتى لاجئاً إلى السلطان ألتمش فى دهلى ، ولكنه انصرف عن الهند لاسترداد ملك أبيه ، ومن حسن طالع الهند أن جنكيزخان لم يتجه نحو الهند بل استمر نحو الغرب ، وبهذا سلمت دولة مماليك الهند من شر المغول .

وفى عهد حفيده علاء الدين مسعود شاه دخل المغول الهند سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م بقيادة مانكوخان وتوغلوا فى إقليم السند حتى هزمهم قائده بلبن فردهم عن سلطنة دهلى .

وفى سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م تمكن القائد غياث الدين بلبن من تولى عرش مماليك الهند حالاً محل بيت ألتمش .

وفى سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م حاول المغول اقتحام الهند مرة ثالثة بقيادة نويين سارى فردهم غياث الدين بلبن عن بلاده .

وكان غياث الدين بلبن طوال حكمه فى خوف من المغول ، وليطمئن على ملكه بعد أن ثبت أركانه أخرج الهندوكيين من كبار مناصب الدولة ولم يأمن إلا للمسلمين .

وخلف السلطان غياث الدين بلبن الأمير كيقباد ، معز الدين ، بن بغراخان وكان أيضاً من مماليك الغوريين .

وفى سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م تمكن جلال الدين فيروز شاه الخلجى من القضاء على من قتل كيقباد بن بغراخان وإعلان نفسه سلطاناً على الهندستان فانتهى بذلك عصر مماليك الغوريين .

وبدأت دولة الخلجيين فى ٣ جمادى الآخر ٦٨٩ هـ / يونيو ١٢٩٠ م وأصلهم من الترك الأفغانيين ، وكانوا أسرة محاربة ظهر أمرها من أيام السلطان سبكتكين الغزنوى وابنه محمود الغازى الكبير ، ويقال إنهم أسرة تركية .

وهناك من ينسبهم إلى قليج خان أحد أصهار جنكيزخان ، نزل بلاد الغور بعد هزيمة خوارزم شاه ، ويستدلون على ذلك بكراهية الخلجيين للترك ، وكان الخلجيون يعدون أنفسهم أفغانيين .

وظهر أمرهم أيام دولة الغوريين ومملوكهم قطب الدين أيبك ثم شمس الدين ألتمش ، فتولوا حكم إقليم البنغال وتولوا الوظائف الكبرى فى الدولة .

وعندما قتل كيقباد آخر سلاطين مماليك الغوريين تولى جلال الدين فيروز شاه الثانى وهو أول الخلجيين الأفغانيين عرش دهلى عام ٦٨٩ هـ ١٢٩٠ م وكان فى السبعين من عمره وسلك مسلكاً جديداً أنسى الناس مافعله مماليك الغوريين بهم وقتلهم البشع للسلطان كيقباد وهو مفلوج .

وقد رد جلال الدين فيروز شاه الخلجى المغول عندما عادوا إلى الهندستان وقتل منهم ألوفاً وأسر ألوفاً وأنزلهم بضواحى دهلى وعرفوا باسم المسلمين الجدد ، وكان لهم بعد ذلك أثر سيء فى البلاد .

وخرج جلال الدين فيروز شاه لغزو الدكن سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م وتمكن من التغلب على إمارة ديوكر الهندوكية الواسعة وهزم صاحبها رام جاندرا وستكر ديوا وعاد جلال الدين بالغنائم . وبهذا يكون جلال الدين الخلجى أول من دخل بلاد الدكن من سلاطين المسلمين ، وخرج علاء الدين محمد ليتلقى عمه جلال الدين بنصره الكبير ولكنه غدر به وقتله على أشنع صورة فى ٤ رمضان ٦٩٤ هـ وأعلن نفسه سلطاناً

وأنكرت الملكة جهان زوجة جلال الدين ذلك ، وجمعت أنصارها وأغدقت عليهم الأموال ونادت بابنها ركن الدين إبراهيم سلطاناً على عرش دهلى ، ولكن علاء الدين هاجم دهلى وأجبر ركن الدين على الفرار إلى الملتان ، ونصب نفسه على عرش الهند فى دهلى سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م واعترف الناس به وجرت الخطبة وسك العملة باسمه .

وعاد المغول يهاجمون الهند فردهم علاء الدين الخلجى مستعيناً بقواد عظام مثل غازى تغلق وظفرخان وألغ خان ، وأقام سلسلة متصلة من الحصون على حدوده الغربية وزودها بالجند والسلاح والأقوات .

وعندما سار نحو الهند الأمير داود المغولى من بلاد ماوراء النهر سار إليه ألغ خان قائد دهلى وهزمه وبدد جيشه الذى بلغ عشرة آلاف رجل .

وعاد المغول إلى غزو الهند مرة أخرى فتصدى لهم القائد ظفرخان وهزمهم وأسر منهم ألفين

ولم ييأس المغول من غزو الهند فسار سلطانهم قتلق خواجه على رأس قوات كثيفة سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م فتصدى له علاء الدين وقائداه ظفرخان وألغ خان وأنزلوا به هزيمة قاصمة ، وسقط فى الميدان القائد الخلجى الكبير ظفرخان .

ولم تنكسر حدة المغول نتيجة هذه الهزائم بل ظلوا يوالون الهجوم على الهند حتى تمكن القائد غازى ملك تغلق قائد علاء الدين الخلجى من القضاء على خطرهم لأمد طويل .

وقد اغتر علاء الدين بهذه الانتصارات حتى فكر فى فتح العالم كله كما فعل الإسكندر ، ولكن القاضى علاء الدين عم السلطان أعاده إلى رشده ، ونصحه بأن يركز كل جهاده على الهندستان ويتم فتحها ، واستمع علاء الدين لنصح عمه وأخذ يوجه قواته لاستكمال فتح الهند ، ففى سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م أرسل قائديه ألغخان ونصرت خان سنة ١٢٩٩ م لفتح حصن رنتنبور أعظم حصون إقليم الراجيوتانا ، ودارت حروب عنيفة تمكن علاء الدين فى نهايتها من القضاء على قوة أمراء الراجيوتانا .

واستولى على حصن رنتنبور الذى يقع غربى صحراء الراجيوتانا وهدمه ، ودخلت بلاد

الراجبوتانا كلها في دولة علاء الدين الخلجي ٧٠٠ هـ / ١٣٠١ م ثم تصدى للاستيلاء على موار وهي أمنع إمارات الراجبوتانا ، وكانت قلعتها قائمة على قمة جبل منحوتة في الصخر . فتم له ذلك بعد أهوال شديدة ، ثم استولى على ملوة وأوجين ودهرا بخرى وجندرى .

وفي سنة ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م كان علاء الدين الخلجي قد استولى على الهندستان كلها من البنغال إلى البنجاب ومن جبال الهملايا إلى تلال الويندهايا ، ثم شرع في مواصلة فتح الدكن .

أرسل علاء الدين قائده الحبشي كافور في جيش ضخم فاخترق أقاليم ملوة والكجرات ، ثم أردف ذلك بجيش آخر يقوده أدلوغ خان فاستولى الجيشان على ديوكر .

وبعثت غارات كافور الخلجي الرعب في قلوب بقية أمراء الدكن فاستسلمت تلنجانا عاصمة بإقليم ورانكل ، وافتدى أميرها براتاب هومه بكرور طائلة حملت إلى دهلي على ١٠٠٠ بعير ومئات من الفيلة وألوف من الخيل .

وتشجع كافور بهذا النصر فسار في جمادى الآخرة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م وغزا إقليم مور في الجنوب الشرقي من الدكن وحصل على كنوز وجواهر لم يسمع بمثلها من قبل ، ولم يرجع كافور حتى أتم فتح الجنوب الهندي كله .

وفي سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م كان سلطان الخلجيين يشمل كل شبه الجزيرة الهندية .

وكان علاء الدين الخلجي ورجاله يستعملون العنف في إخضاع البلاد ، ووضعوا أيديهم على الأراضي الزراعية ، وأثقلوا الهندوكيين بالضرائب . واعتبر كل المتحصل من المال ملكاً خاصاً له رغم أن رجال الدين نبهوه عن ذلك وقالوا له إنه يخالف الشرع الحنيف

ولكنه على أية حال استطاع إقرار السلام في الهند كلها ، واشتد في إلزام الناس باتباع الشرع الإسلامي ، وعني بالمساجد والعلماء ، وظهر في عصره الشاعر نظام الدين أولياء ، والشاعر خسرو الدهلوي ، والعالم الفقيه ركن الدين .

ولكن سياسة علاء الدين الخلجي أغضبت الأمراء القدامى والتجار والهندوك الذين درجوا على استغلال الشعب .

وعندما كبرت سنه زاد اعتماده على مملوكه كافور وعلى نفر من أهل السوء الذين استعان بهم هذا المملوك للسيطرة على الناس .

فلما مات قام بالأمر كافور وجعل نفسه وصياً على غلام من أبناء علاء الدين يسمى شهاب الدين عمر خان ، وعمل كافور على أن يقضي على الحكم كل رجل له منصب أو مكانة وخصوصاً الأمراء القدامى ، حتى الملكة جيهان زوجة علاء الدين أبعدها وجردها من أملاكها ثم حبسها ، وأخيراً تمكن أحد أمراء علاء الدين من قتل كافور وهو الملك شير بالتعاون مع نفر من الأمراء ، ثم أقاموا على العرش الأمير الخلجي مبارك خان

تولى قطب الدين مبارك خان سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م فعمل على تلافي مظالم كافور ، ورد الأراضي والأملاك المغتصبة إلى أصحابها وخفف الضرائب على التجارة .

ثم بدأ يقضي على الثورات التي قامت في النواحي ، فقضى على ثورات الكجرات وبعض نواحي الدكن وديوكر ، ثم استولى على أورانكل وأنزل بأهلها مذبحة اضطرت أميرها إلى الاستسلام ، ثم أساء السيرة بعد ذلك فقتل سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢١ م على يد قائده خسرو ، وبموته انتهت دولة الخلجيين .

وكان خسرو هندوكياً فأراد إعادة الهندوكية إلى سابق سلطانها واعتدى على حرمات الإسلام ، فاستغاث بقية أمراء الخلجيين بالقائد الماهر غازي ملك تغلق حاكم منطقة دهلي . وتمكن تغلق من القضاء على خسرو وإعادة الإسلام إلى مكانه الرفيع في الهند ابتداء من سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م

وبهذا بدأ في تاريخ الهند الإسلامية عصر جديد هو عصر آل تغلق .

عصر دولة آل تغلـــق .

تولى غازي ملك تغلق عرش دهلي في شعبان ٧٢٠ هـ / ١٣٢١ م وتسمى غياث الدين تغلق وتلقب بالسلطان ، وهو تركي الأب من فرع جغتاي هندي زُطّي من ناحية الأم وهو من البنجاب .

وقد بدأ عمله بإعادة الإسلام إلى مكانه والاهتمام بأهل العلم والفقه وإعادة عمارة المساجد . ورد للأعيان والأمراء ما اغتصب منهم وأعاد الاحترام والهيبة للأمراء الخلجيين .

ثم شرع في استعادة أملاك سلطنة دهلي ، وبدأ بإعادة إخضاع الدكن فأرسل ابنه أولوغ خان في حملة انتزعت تلنجانا من أيدي براتاب ديو الثاني راجا أورنكل واستعادها ، ثم سار هو شرقاً وأخضع البنغال إذ دخل في طاعته ناصر الدين حفيد بغراخان بن بلبن ، وأنشأ جيشاً قوياً ونظم الإدارة وأصلحها من الفساد الذي لحق بها من أيام مبارك شاه الخلجي وقائده خسرو .

وأنشأ نظاماً جديداً للبريد حتى تمكن البريديون على أيامه من إيصال خبر وصول الرحالة ابن بطوطة إلى مصب السند في خمسة أيام قاطعين مسافة تقدر بنحو ١٦٠٠ كيلو متر ، وقد امتدح ابن بطوطة هذا السلطان ، وعني بالزراعة وتحسين أحوال الفلاحين .

وتوفي سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م إذ انهدم عليه أحد قصوره ، وخلفه ابنه فخر الدين وتسمى بمحمد تغلق ، وقد اشتهر بالكرم البالغ ، وكان مشغوفاً بالعلوم والفنون ، وفي عهده تولى ابن بطوطة قضاء دهلي ٨ سنوات ، وسفر للسلطان محمد تغلق إلى الصين ، وقد غادر الهند سنة ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م .

وفي سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م هاجم الهند الأمير المغولي تريشرين خان بن داود خان زعيم قبائل الأولاس الجغتائيين . وقد عاث المغول في الهند فساداً وبخاصة في نواحي السند والكجرات ، ولكن محمد تغلق رد المغول بأن دفع لهم مبالغ طائلة من المال والذخائر والجواهر ، وأراد أن يسترد ذلك فعسف بالتجار والزراع حتى هجر الزراع أراضيهم ولجأوا إلى الغابات .

وكانت دولته تمتد من الهملايا إلى جنوب الدكن ومن الشمال إلى كابل ، وأراد أن ينقل عاصمته من دهلي إلى ديوكر وسماها دولت أباد لأنه كان يرى أنها تتوسط سلطنته ، وحاول أن ينقل سكان دهلي إليها مسافة ٧٠٠ ميل فآذاهم بذلك أذى شديداً ، ثم عاد عن رأيه ، ولما كانت دهلي قد تخربت فقد بدأ ينشيء للناس عاصمة إلى جوارها هي دهلي الجديدة ، وقد أخطأ في محاولة فرض عملة نحاسية يتعامل بها الناس بضمان الدولة ، وكان لذلك التصرف أثر سيء جداً على الأحوال الاقتصادية في الدولة .

وكان محمد تغلق سيء الحظ كذلك في الكثير من مشروعاته العسكرية ، لأنه لم يكن يدبر أعماله قبل أن يقوم بها ، ومثال ذلك حملته التي أرسلها إلى ولايات الهملايا ، إذ لم يحسن توقيتها فداهمتها الثلوج وقضت على معظم رجالها .

ونتيجة لهذا الفشل المتلاحق بدأ الأمراء يثورون عليه وأولهم الأمير جلال الدين إحسان شاه الذي ثار في إمارته وضرب السكة باسمه سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م فأرسل إليه محمد تغلق جيشاً ولكن الكوليرا تفشت في رجاله فعاد بالفشل .

وكذلك استقل أمير آخر يسمى فخر الدين بإقليم البنغال ، وانتشرت الثورة في إقليمي دهلي والدكن حيث تحالف أمراء الهندوك على الوقوف صفاً واحداً أمام المسلمين .

وتوفي « محمد تغلق » سنة ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م بعد أن تفككت دولته فلم يبق في طاعته منها من الولايات الكبيرة إلا الكجرات .

ومع هذا الفشل الذي لاحق « محمد تغلق » إلا أنه كان أميراً رحيماً متديناً أثنى عليه ابن بطوطة ومعاصره المؤرخ ضياء الدين بارانى ، وخلفه ابن عمه فيروز تغلق وكانت أمه هندوكية ، وكان أميراً مسالماً شديد الشغف بمخالطة رجال الدين والفقهاء والصوفية ، وكان فيروز تغلق أحسن حظاً من سابقه ، فقد دخل في طاعة الخليفة العباسي وخطب باسمه .

وتمكن فيروز شاه من تثبيت أقدام سلطنة دهلي في الهندستان ، ولكنه عجز عن أن يخضع الأمراء الهندوكيين في الدكن ، ولهذا وقفت حدود دولته عند وديان الويندهيا

وقد انصرف فيروز تغلق إلى التنظيم والإصلاح والإنشاء والتعمير ، ولهذا فهو يعتبر نموذجاً للسلاطين المصلحين في الهند ، وسيكون نموذجاً يحتذيه السلطان أكبر المغولي فيما بعد ، ومن محاسنه إلغاء عادة الساتي ، وهي أن تحرق الأرملة حية مع جسد زوجها ، وإنشاء ديوان الخيرات لتزويج الفتيات الفقيرات . وأنشأ كذلك دور الشفاء حتى بلغ عددها المائة ، وأنفق على رباطات المجاهدين الذين يقومون على حدود بلاد الإسلام ، واستقدم العلماء والشعراء ومنهم جلال الدين الرومي الذي ألف في فضائل فيروز كتاب « فتوحات فيروز شاهي » .

وبلغت منشآته حوالي المائة مابين مساجد ودور شفاء ورباطات وقصور وحمامات ،

وأنشأ ثلاث مدن غربي دهلي هي فيروز أباد وفتح أباد وجوانبور .

وقبل وفاته عهد في الأمر إلى حفيده غياث الدين بن فتح خان ، وتوفي بعد ذلك بقليل في رمضان ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م وقد جاوز التسعين من العمر .

ولم يكن غياث الدين بالسلطان القادر على مسئوليات الحكم ، فكان عصره عصر اضطراب وثورات ، وخلفه أخوه ناصر الدين محمود ، وفي أيامه زاد الضعف حتى إن الوزير خواجه جهان أعلن استقلاله في جوانبور وأنشأ أسرة عرفت باسم أسرة شاه شرق أي ملك الشرق ، وقد وصل سلطانها أحياناً إلى البنغال .

وكان آخر سلاطين آل تغلق هو إقبال خان ، وفي أيامه هجم تيمورلنك على الهند وقضى على سلطنة آل تغلق وتربع على عرش دهلي .

تيمورلنك يغزو الهند .

ومنذ قرون والمغول يحاولون مرة بعد مرة غزو الهند ، ولكن سلاطين الهند من المسلمين تمكنوا دائماً من إنقاذها من ذلك الغزو .

وعندما تولى تيمورلنك زعامة المغول أصبح هذا الأمر ممكن التحقيق نظراً لما امتاز به من مهارة عسكرية وذكاء وطموح ونشاط ، وكذلك بسبب ضعف سلاطين آل تغلق وتفرق أمر دولتهم ، وكان تيمور يحجم عن ذلك ويفضل غزو الصين ، ولكن ابنه شاه رخ أخذ يحرضه على غزو الهند ويهون عليه أمرها .

وشجعه على ذلك أيضاً حفيده الأمير محمد جهانكير ، وكان قد ولاه بلاد كابل وغزنة ، مكتب إليه يخبره بتفكك أمر سلطنة الهند بعد موت فيروز شاه .

وكان أمر سلطنة آل تغلق قد انقسم إلى إمارتين : واحدة في دهلي وسلطانها محمود ، وواحدة في الملتان وعليها سارنك خان .

ونلاحظ أن تيمور وآله كانوا من الترك لا من المغول ، ولكن معظم جنودهم كانوا من المغول ، وكانوا مسلمين في الظاهر على الأقل ، وفي عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م بدأت قوات تيمور تنحدر من جبال غزنة عبر بلاد السند يقودها محمد جهانكير حفيد تيمور فاستولى على الملتان .

وفي سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م أقبل تيمور بنفسه فعبر جيناب رافد السند الكبير ، واستولى على حصن تولمبة ، ثم وصل تيمور إلى ديبالبور فاستولى على حصن بتنير بعد أن دافع عنه أصحابه دفاع الأبطال ، ثم استولى على سرسوتي وأعمل السيف في أهلها من الهندوس إلا من أسلم منهم تحت حد السيف . ونزل بلدة فتح أباد .

ثم التقى تيمور عند كهيتل بجيشه الثاني الذي فتح الملتان . وأخذ بعد العدة لاقتحام دهلي ، واقترب من دهلي وبلغ باني بت ثم عبر جمنة إلى الدوآب ونزل قلعة لوني بعد أن أباد من فيها .

وفي أول جمادى ٨٠١ هـ بدأ تيمور في مهاجمة دهلي ، ودافع عنها محمود تغلق ورجاله دفاع المستميت ، ولكن الشجاعة لم تفد أمام ضخامة الأعداد ، فدخل تيمور دهلي في ٨ جمادى الآخرة ٨٠١ هـ ونهب البلد وماحولها نهباً ذريعاً . وجرت في المدينة مذبحة شنيعة ، وبلغ القتلى في المدينة وحدها ١٠٠,٠٠٠ قتيل

وعاد تيمور بعد أن ولى نائبه خضر خان على الملتان ولاهور وديبالبور ، وسار إلى العاصمة عن طريق كابل ونهبها تماماً .

وانتهز إقبال خان تغلق الفرصة واستعاد دهلي ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م ومد نفوذه إلى منطقة الدوآب حتى خنلوق ، ثم مد نفوذه إلى قنوج ثم كواليار وأتاوة ، وأراد استرداد الملتان ولكن خضر خان نائب تيمور رده خائباً في جمادى الأولى ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م وسقط إقبال خان في المعركة ، فاستدعى حاكم دهلي السلطان محمود تغلق وأجلسه على العرش .

وتوفي محمود تغلق سنة ٨١٤ هـ / ١٤١٢ م وخلفه دولت خان لودهي ، ولكن خضر خان سار إلى دهلي ودخلها في ٦٠ ألف فارس في ذي الحجة سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٤ م وبذلك انتهى أمر دولة آل تغلق .

وكان الضعف قد أخذ يتسرب إلى كيان دولة الإسلام في الهند من أواخر أيام محمد تغلق وخليفته فيروز شاه ، ولكن الغزو التيموري هو الذي فكك عرى هذه الدولة فاستقلت الإمارات الكبرى مثل ملوة والكجرات وجوانبور والبنغال والدكن ، وبدأ عصر الطوائف الذي استمر حتى القرن العاشر الهجري عندما أنشأ أحفاد تيمور دولة المغول الكبيرة في الهند ، وهي التي بلغت بقوة الإسلام في الهند إلى ذروتها .

خريطة ١٢٢

الهند الإسلامية
في عصر أمراء الطوائف
وسلطنة دهلي في عصر السادات ٨١٧ - ٨٥٣ هـ / ١٤١٤ - ١٤٤٩ م

عندما انفرط عقد سلطنة آل تغلق استخلص خضر خان نائب تيمورلنك عرش دهلي سنة ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م وسميت هذه الأسرة بأسرة السادات لأنه كان ينسب نفسه إلى النبي ﷺ ، ولم يكن خضرخان غريباً عن الهند فقد نشأ عند ناصر الملك مردان دولت أمير الملتان ، ثم أقامه عليها فيروز تغلق أميراً ، ثم انضم إلى تيمورلنك فأقامه أميراً على دهلي ، وكان أمرها قد ضعف بانفصال أملاكها عنها . وقد بقي خضرخان على ولائه لتيمور وأولاده ، وتمكن من استعادة سلطانه على الدوآب وكواليار وجندوار وأتاوة وبدن وجالبسر وكهور وتنبل ، وكذلك الملتان والسند . وتوفي سنة ٨٢٦ هـ / ١٤٢٣ م بعد أن أعاد سلطنة دهلي إلى سابق قوتها . وكان أميراً رحيماً عادلاً ، وكانت الإمارات التي ذكرناها تتبع لها على طريقة الإقطاع أي أنه كان يربطها بدهلي ولاء اسمي فقط ، وعلى هذه الخطة سار ابنه السلطان معز الدين أبو الفتح مبارك شاه الذي بذل نشاطاً عظيماً في الدفاع عن وحدة السلطنة ضد أعدائها الكثيرين ، وقد مات قتيلاً على أيدي رجاله .

وبعد ذلك بقليل تمكن بهلول بن داود خان لودهي أمير غزنة من الاستيلاء على دهلي ووضع حد لسلطنة السادات عام ٨٨٣ هـ / ١٤٧٨ م .

وبعد أن استولى تيمور وقواده على دهلي سنة ٨٠١ هـ وقضوا بذلك على سلطنة آل تغلق تفككت أراضيها واستقلت معظم نواحيها عنها حتى نهض بعض أمراء آل تغلق يحاولون استعادة العاصمة دهلي ، فتقدم نصرت خان عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م بالاستقلال بمنطقة الدوآب فيما بين خنلوق وبيانه ، وكذلك نهض أمراء آخرون من أسرة تغلق وغيرها بالاستقلال ببلادهم أو التوسع في أراضي الدولة التي تفككت ، ولكن السلطان محمود وهو آخر ملوك تغلق كان قد لجأ إلى الكجرات عقب سقوط دهلي في يد تيمورلنك ثم سافر إلى ملوة ، ومد سلطانه إلى قنوج ووقعت الحرب بين محمود تغلق وإقبال خان ولكن خضرخان نائب تيمور على ولاية الملتان سار بقواته وهزم كل الثائرين على سلطان تيمور في موقعة كبيرة سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، وفي نفس الوقت كان دولت خان لودهي الذي كان قد دخل في طاعة تيمور واستقر حاكماً لدهلي قد استدعى السلطان محمود تغلق وأجلسه على العرش ، وأقبل خضرخان نائب تيمور فحاصر دهلي عامين متواليين وتوفي محمود تغلق في عام ٨١٤ هـ / ١٤١١ م فحل محله دولت خان لودهي ، ولكنه لم يستطع الوقوف في وجه خضرخان الذي تقدم ودخل دهلي في ذي الحجة سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٤ م ثم أعلن نفسه سلطاناً على دهلي وبدأ عصر الأسرة التي سميت باسم أسرة السادات .

وفي نفس الوقت استقلت نواحي سلطنة دهلي التي كانت داخلة في سلطنة آل تغلق ، كل منها بنفسها ، وبذلك بدأ عصر الطوائف الذي كان سلاطين دهلي من آل السادات أتعسهم من ملوكه الذين عاصروه .

وأكبر هذه الممالك:

ملــوة .

استقل بها دولار خان الغوري سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م واتخذ مدينة دهر عاصمة له ، وخلفه ابنه ألب خان الملقب بهوشنك شاه سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م فنقل عاصمته إلى ماندو ، وتمكن أميرها محمود الخلجي من مد حدودها شمالاً إلى ميور ، وجنوباً إلى ساتبورا ، وشرقاً إلى بندلخند ، وغرباً إلى الكجرات ، ولكن الإمارة سقطت في يد أمير الكجرات سنة ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م ، ثم استولى عليها همايون ثاني سلاطين المغول سنة ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م

البنغـــال .

بعد الغزو المغولى استعاد هذا الإقليم الغنى استقلاله ، وكان أول من استقل به حسين شاه الذى أراد أن يوفق بين العقيدة الهندوكية والإسلام ، وهى المحاولة التى سيكررها السلطان أكبر ، وأعظم أمرائها نصرت شاه بن حسين شاه سنة ٩٢١ – ٩٣٩ هـ / ١٥١٥ – ١٥٣٢ م الذى وصفه ظهير الدين بابر مؤسس الدولة المغولية بأنه أحد الأمراء الخمسة العظام فى الهندستان ، وقد ظل البنغال فى يد هذه الأسرة الحسينية حتى انتزعها من أيديهم السلطان أكبر .

إمـارة جوانبـــور .

وهى إقليم واسع يقع إلى الجنوب الشرقى من دهلى ويجرى من أراضيها جمنة وكوكرا أكبر روافد الكنج وعاصمتها مدينة جوانبور التى تقع على شاطىء نهر جمنة قرب مدينة ظفر أباد ، وقد استقل بهذه الدولة خواجة جهان شاه شرقى وأسرته واستطاعوا أن يضموا إلى إمارتهم إقليم قنوج .

إمـارة الكجـرات .

وكانت ثانية إمارات الهند الإسلامية بعد سلطنة دهلى وكانت تضاهيها فى الغنى ، فقد كانت تضم شبه جزيرة كثياوارا بما فى ذلك بلاد هامة مثل سومنات وسورات وكومباى وكلها بلاد ذات صناعات وثروات ، وقد استقل بها حاكمها مظفرخان الذى استقل بها سنة ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م على إثر دخول تيمور دهلى ، وخلف هذا الأمير حفيده أحمد شاه الذى نهض بالكجرات وجعل منها دولة عظيمة دامت حتى استولى عليها السلطان أكبر ثالث سلاطين الهند المغول العظام سنة ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م ، وهذا الرجل هو الذى أنشأ بلدة أحمد أباد الموجودة إلى اليوم ، وخلف أحمد شاه حفيده محمود بيكر وهو أعظم ملوك الكجرات فقد عزم على التخلص من المستعمرات البرتغالية من جوا وديو وشاول ، وتعاون فى ذلك المماليك المصريون والأتراك العثمانيون ولكنهم لم يستطيعوا التغلب على البرتغاليين نظراً لتفوق هؤلاء فى القوات البحرية ، وآخر ملوك الكجرات بهادرخان الذى تمكن من ضم ملوة إلى بلاده وغزا بلدة جنوبية من بلاد الراجبوتانا .

إمـارة خانــدش .

وهى تمتد جنوب ملوة بين تلال الوندهايا والدكن ، ويحدها إقليم برار من الشرق والكجرات من الغرب وقد استقل بها آل فاروق وعاشت هذه الدولة حتى استولى عليها السلطان أكبر المغولى عام ١٠١٠ هـ / ١٦٠١ م .

الدكـــن .

كانت تحت إقليمى بمباى وحيدر أباد . استقل بها علاء الدين كنكوى ظفر خان عقب الغزو المغولى ، وسمى سلطنته سلطنة بهمنى ، نسبة إلى جد له كان يدعيه يسمى بهمن بن إسفنديار أحد ملوك الفرس الأقدمين .

تمكن هذا الأمير ورجاله من التغلب على راجا تلنجانا وضموا إلى ملكهم إقليم جولكوندة وأورانكل وأجزاء من أوريسا ، جمكر ، ساغر ، وبعث الدكن أوج نموه بفضل وزيره محمود جوان الذى كان أول من هزم راجا فيجايانكر الهندية ، وبفضل هذا الوزير أيضاً ازدهرت العلوم والآداب ، هذا إلى زهده البالغ ، ولكن جلاده وشى به فقتل بأمر السلطان محمد الثالث . وولاية الدكن هى التى تسمى بهمنى . وفى سنة ٩٣٢ هـ / ١٥٢٥ م انفرط عقد هذه الإمارة إلى خمس إمارات هى : برار ، وبيجابور ، وأحمد نكر ، أحمد ناجار ، وجولكوندة وبدر . وبيجابور هى التى حاربت البرتغاليين فاستولوا منها على جوا وتمكن سلطانها يوسف عادل من استردادها سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م ولكنهم استولوا عليها بعد موته

وقد ضم هذه الإمارات كلها إلى دولة المغول السلطان أورانجزيب .

خريطة ١٢٣

سـلطنة دهلـى الإسـلامية
فى عصـر سـلاطين أسرة لودهى ومملكة بهمانى الدكنية

أسرة لودهى أسرة أفغانية أى تركية جدها الأعلى هو بيرم لودهى من قواد فيروز تغلق ثم خدم مروان دولت فأقامه حاكماً على الملتان ، ولما جاء خضرخان قائد تيمورلنك عهد بقيادة جنده لأخيه إلى ملك سلطان بن بيرم لودهى ، فتمكن من القضاء على إقبال خان حاكم دهلى ، فأقامه السلطان خضرخان والياً على سرهند وأنعم عليه بلقب إسلام خان ، وخلفه فى ذلك كله ابن أخيه وزوج ابنته بهلول لودهى فتمكن من الحفاظ على وحدة الدولة ، ثم تقدم إلى الجنوب من غزنة وضم البنجاب ثم استولى على دهلى كما ذكرنا ، وشرع فى الحال فى العمل على إعادة سلطنة دهلى إلى سابق مجدها ، وبعد أن خاض أهوالاً كثيرة ضم إلى ملكه جوانبور وأقام ابنه باربك والياً عليها واستولى كذلك على كالبى ودهلبور وبارى وموار وبيان .

ومات بهلول لودهى بالحمى سنة ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م بعد أن أعاد هيبة الحكم الإسلامى فى الهندستان ، وكان رحيماً بالفقراء مقدراً للعلماء والزهاد وأهل التقوى .

وخلفه ابنه الأمير نظام خان الذى تسمى باسم سكندر شاه وتمكن من إعادة وحدة الدولة بعد أن كادت تنفرط بعد موت أبيه ، وتم له ذلك سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م . ثم سقطت إمارة جهار فى أيدى سلطان دهلى سنة ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م وأنشأ مدينة أجرا ليتمكن منها من السيطرة على أملاكه فى بلاد الأفغان والهند معا ، وكان ذلك سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م .

وتوفى سكندر شاه عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م وهو أعظم سلاطين الدولة اللودهية ، وكان له اهتمام شديد بنشر الإسلام ، ولهذا قضى على الكثير من معابد الهندوس فى الهند .

وخلفه ابنه إبراهيم على عرش الهند ، ولكن ثورات أمراء الأفغان ثم الهند توالت عليه ،

وأدى النزاع الطويل بينه وبين إخوته والثائرين عليه إلى استدعاء بعضهم لظهير الدين محمد بابر سلطان كابل آملين أن يعينهم على السلطان إبراهيم اللودهى ، فأقبل بابر وانتصر على قوات الأفغانيين فى معركة بانى بت الكبيرة سنة ٩٣٢ هـ – ١٥٢٦ م وبهذا انتهى أمر دولة الأفغانيين وانتقل السلطان فى الهند إلى أيدى أمراء الأتراك الجغتائيين .

خريطة ١٢٤

سـلطنة مغـول الهنـد
فى عصـر السـلطان محمد بابـر

مؤسس هذه الأسرة هو ظهير الدين محمد بابر ١٥ شعبان ٩٣٢ هـ / ٩ جمادى الأولى ٩٣٧ هـ وهو تركى مغولى لأن أباه عمر شيخ ميرزا صاحب فرغانة كان حفيد تيمورلنك التركى ، أما أمه فهى ابنة يونس خان مغولستان وحفيدة جغتاى ثانى أبناء جنكيزخان المغولى ، وقد كان بابر نفسه عندما ظهر أمره يكره أن ينسب إلى المغول ، ويعتز بنسبه التركى ، ومع ذلك فقد سميت الدولة الكبيرة التى أنشأها فى الهند باسم دولة المغول ، وأصحاب هذه التسمية هم الهنود الذين تعودوا منذ أن غزا جنكيز خان بلادهم على أن يطلقوا صفة المغول على كل غزاة بلادهم القادمين من الشمال .

وتربى بابر فى كنف جده عمر شيخ ميرزا فى فرغانة . وقد مات عمر شيخ ميرزا وهو طفل ، فتعهده السلطان أحمد ميرزا ثم أخوه محمود ميرزا ، وكانت مملكة فرغانة قد اتسعت حدودها حتى بلغت جبال الهندكوش وضمت الصاغانيان وبلاد الختل وبدخشان وكانت عاصمتها سمرقند ، فلما شب بابر ملك فرغانة ضم إليها سمرقند عاصمة جده تيمورلنك إذ انتزعها من يد ابن عمه محمود ميرزا فى أوائل عام ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م .

ولقى بابر متاعب جمة من منافسيه على ملكه ، فاستقر رأيه على الهجرة إلى ناحية إقليم خطاى المتاخم للحدود الغربية الشمالية للصين فيما يعرف الآن بمنغوليا ، وظل أعداؤه مع ذلك يطاردونه ، فهام على وجهه فى الأرض حتى فكر فى اللجوء إلى ابن عمه السلطان

حسين بيقرا صاحب خراسان فسار نحو خراسان سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م وكانت سنه إذ ذاك ثلاثاً وعشرين سنة وكان معه من رجاله أقل من ٣٠٠ رجل .

وكان إقليم كابل وغزنة في حالة فوضى واضطراب بعد وفاة الأمير العظيم ألغ بك ابن السلطان أبي سعيد ميرزا بسبب النزاع الطويل عليه بين الأوزبك والخراسانيين ، فوجد بابر في هذا النزاع فرصة سانحة فاستولى على ذلك الإقليم سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م دون سفك دماء ، وقد تعاون في ذلك مع آل أرغون أصحاب قندهار .

وفي إقليم كابل وغزنة الفسيح المنيع بجباله ، الغني بأرضه وثماره وأمطاره اطمأن بابر فأخذ يرتب أمور دولته ، ثم تمكن من الاستيلاء على قندهار . وفي تلك الأثناء تمكن إسماعيل الصفوى من الاستيلاء على خراسان ، ووصلت حدوده نهر جيحون ، وحالفه بابر ، وانتهز الفرصة وسار إلى سمرقند فملكها في رجب سنة ٩١٧هـ / ١٥١١ م بفضل تحالفه مع الشاه إسماعيل الصفوى ، واستولى كذلك على كل بلاد ماوراء النهر بما في ذلك بخارى . وعاد أهل ماوراء النهر فهزموا بابر وكذلك هزموا جيوش إسماعيل الصفوى في رمضان ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م

ووجد بابر أن صلته بإسماعيل الصفوى المعروف بتعصبه الشديد للتشيع هى السبب في كراهة أهل ماوراء النهر والأفغان له ، وهم أهل سنة متشددون فارتد إلى كابل ورأى أن ينصرف عما وراء النهر ويتجه إلى الهند ، وكان هذا من سوء الحظ إلى حد ما ، لأن بابر ترك ماوراء النهر فتقدم فيها الروس دون صعوبة ، وكانت نتيجة ذلك سقوط هذه البلاد العظيمة كلها في أيدى الروس ، ومن سوء الحظ أيضاً أن إسماعيل الصفوى وسلاطين آل عثمان انصرف بعضهم إلى حرب بعض تاركين الروس يفعلون مايريدون .

بابر يغزو الهنـد .

بدأ بابر بغزوات قصيرة على بلاد البنجاب الشمالية ، وفي المحرم سنة ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م خرج قاصداً بيرة عن طريق بشاور ، فلما عبر جيهاب وجهلم أقبل عليه زعماء القبائل يعرضون ولاءهم وبذلك خضع له شمال السند ، ولاحظ أن رجاله لايطيقون حر الهند فارتد إلى كابل .

وفي صيف ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م عاد بابر إلى الهند فاحتل لاهور بعد قتال عنيف ، ثم استولى على ديبالبور ، ثم سار إلى دهلى ولكنه ارتد عنها عندما سمع أن الأوزبك اقتربوا من بلخ .

ويرجع معظم السبب في انصراف بابر عما وراء النهر إلى أن إسماعيل الصفوى اشتد شدة بالغة بأهل السنة وأنزل بهم المذابح حتى إنه بعد دخوله ماوراء النهر أنزل مذبحة مروعة ببلدة قرش ، فهبت قبائل الأوزبك واتحدت على ألا تسمح للفرس وجنودهم المسمون بالقزلباشية بدخول البلاد ، ولما كان بابر حليف اسماعيل الصفوى فقد وقفوا منه موقف العداء ، فتبين له أنه لا سبيل له إلى قهرهم ، وقد اشتد ساعد الأوزبك فيما وراء النهر وسيطروا عليها كلها ولكنهم وقفوا وحدهم أمام الزحف الروسى الذى مازال يتوالى عليهم حتى أخضعهم ، وبطبيعة الحال ماكان الأوزبك وحدهم ليستطيعوا الثبات أمداً طويلاً أمام جيوش قياصرة موسكو مما أدى إلى ضياع بلاد ماوراء النهر وانفصالها عن عالم الإسلام ووقوعها تحت سلطان الروس ، وكانوا أيام القيصرية شديدى التعصب والقسوة على الناس .

وتحالف بابر مع بقايا اللودهيين وكان يتقدمهم علاء الدين علم خان عم سلطان لودهى مولاه ديبالبور ، وتصدى لحرب دولت خان أمير البنجاب .

ثم خرج من كابل في صفر ٩٣٢ هـ / ١٥٢٥ م في جيش ضخم قد أحكم نظامه وترتيبه وتسليحه وعبر نهر جهلم ، ثم عبر نهر جمنة واستقر في سرساوة يدرس المعركة القادمة ، ورتب جيشه ترتيبا عثمانيا ، وقد كان اللقاء مع إبراهيم اللودهى وأتباعه في بانى بت في جمادى الثانية ٩٣٢ هـ / ١٥٢٦ م حيث انتصر بابر باثنى عشر ألفاً على مائة ألف من أعدائه ، وفي منتصف رجب ٩٣٢ هـ / ١٥٢٦ م خطب له على منبر دهلى ثم دخل أجرا بعد ذلك ، ثم دخلت في طاعته إمارات الهند الإسلامية الأربع وهى الكجرات والبنغال (وكان يحكمها إذ ذاك بيت مظفر شاه) ، وإمارة بهمنى الدكنية (وكان يحكمها أمراء بيت حسنى كنوكوى بهمن شاه) ، ثم إمارة ملوة أو مندو (وعلى رأسها أمراء من بيت الخلجيين) والبنغال (وكان يحكمها آل نصرت شاه) وعقب ذلك أغدق بابر الذى تلقب بالباد شاه الأموال والهبات على رجاله وعلى أهل كابل ، كذلك أحسن إلى أسرة إبراهيم اللودهى فأجرى على أمه وزوجاته وأولاده الأرزاق . وفي هذه المناسبة حصل بابر على ماسة الكوهى نور ، ثم صارت إلى ابنه همايون ومازالت بأيدى السلاطين حتى صارت إلى التاج البريطانى .

ثم أرسل ابنه همايون مع جيش إلى الشرق فوصل إلى البنغال واستعد هو للقاء الأمراء الراجبوتيين في لقاء حاسم ، وحشد كل منهم مااستطاع ، ولم يتردد بابر في السير إليهم ، وكان اللقاء عند قوة على مشارف الراجبوتانا في ١٣ جمادى الآخرة ٩٣٣ هـ / ١٦ مارس ١٥٢٧ م حيث انتصر بابر انتصاراً حاسماً على الراجبوتيين وزعيمهم راجارانا سنكا ، وقد قضى في هذه المعركة على قوة الراجبوتانا نهائياً ، وبذلك امتد ملك الباد شاه بابر حتى شمل كل الهندستان حتى حدود الدكن ، وتوفى بابر في ٩ جمادى الأولى ٩٣٧ هـ / ديسمبر ١٥٣٠ م بعد أن سجل اسمه في سجل أعاظم الفاتحين المسلمين ، وكان بابر عظيم الإيمان بالإسلام يصدر في أعماله عن الحماس لدين الله ، وهو ثالث العظماء من فاتحى الهند المسلمين وأولهم محمود بن سبكتكين (الغزنوى) وثانيهم محمد الغورى .

همايــــون .

خلف أباه في ٩ جمادى الأولى ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م ، وكما يحدث عادة انقلب عليه كل أتباع أبيه وأعدائه من بقايا الأمراء الأفغانيين اللودهيين وأمراء البيت البابرى نفسه ومن بينهم أخوات همايون ثم حكام الكجرات الذين كانوا يستعينون بالبرتغاليين ورجال البنغال ، ومن سوء الحظ أن همايون كان رجلاً متردداً رغم بسالته ، لايتم عملاً يقوم به ، وقد قضى الفترة الأولى من حكمه في حروب متصلة لانتيجة لها حتى استطاع الأمير الأفغانى شيرشاه التغلب عليه وإخراجه من الهندستان سنة ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م فلجأ إلى شاه إيران طهماسب حتى توفى شير شاه في معركة الأمراء المندوكيين في الراجبوتانا سنة ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م فعمل همايون على العودة إلى بلاده ولكنه لم يستطع العودة إلا في سنة ٩٦٢ هـ / ١٥٥٥ م بمعاونة قائده بيرم خان التركمانى . وتوفى سنة ٩٦٣ هـ / ١٥٦٦ م بعد ستة شهور من عودته .

خريطة ١٢٥

الهند الإسلامية في أقصى اتساعها
في عهد السلطان جلال الدين محمد أكبر

(٢ ربيع الثانى ٩٦٣ - ٢٠ جمادى الآخرة ١٠١٤ هـ / فبراير١٥٥٦ - أكتوبر ١٩٠٥ م)

وكان في الفترة الأولى من حكمه خاضعاً لتأثير وزيره الشيعى بيرم خان ثم بعض نساء البلاط ، وابتداء من سنة ٩٦٩ هـ / ١٥٦١ م استقل بالأمر وأثبت أنه أعظم سلاطين المغول جميعاً ، وقد تمكن من سيادة الهند كلها خلال حكمه على ثلاث مراحل .

المرحلة الأولى : ٩٦٥ - ٩٨٣ هـ / ١٥٥٨ - ١٥٧٥ م تمكن فيها من إعادة السلطان المغولى الإسلامى على الهندستان التى كانت تكون سلطنة جده بابر .

المرحلة الثانية : ٩٨٨ - ١٠٠٤ هـ / ١٥٨٠ - ١٥٩٦ م أعاد سلطان أسرته على كابل وغزنة وبلاد الأفغان وأمّن بلاده من غزو الفرس .

المرحلة الثالثة : ١٠٠٦ - ١٠٠٩هـ / ١٥٩٧ - ١٦٠٠ م غزا كل منطقة الدكن ومد سلطانه عليها فعلاً .

من أكبر فتوحه جوندوانا ، جتور ، رنتنبور ، وغزنة والكجرات والبنغال وكابل وأوريسا ، وانتقل إلى فتح بور سكرى سنة ٩٧٧ هـ / ١٥٦٩ م عند حدود الراجبوتانا حتى انهيار السد الذى يؤمن لها الماء سنة ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م فعاد إلى أجرا ، وكان الذى حببه في فتح بور سكرى ، وجود الزاهد سليم جشتى بها

وقد أراد أكبر أن يقرب إليه الهنود فعهد إليهم بالوظائف الكبرى واعتمد على الكثيرين منهم ، وحاول إنشاء الدين الإلهي فلم يوفق ، وتوفى سنة ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م بعد أن وصل بدولة الإسلام فى الهند إلى ذروتها من حيث الاتساع والقوة والنظام والحضارة والرخاء .

نور الدين محمد جهانكير ٢ جمادى الآخرة ١٠١٤ – ١٨ جمادى الآخرة ١٠٣٧ هـ/ أكتوبر ١٦٠٥ – يناير ١٦٢٨ م .

لم يزد من مساحة الهند الإسلامية كثيراً ولكنه تمكن من الاحتفاظ بأملاك أبيه وأضاف إليها حصن كنجرا الهندوكى الشهير سنة ١٠٣٠ هـ / ١٦٢١ م وكان قد استعصى حتى على أبيه ، ولكن واليه على قندهار وهو ابنه شاه جهان فقدها إذ استولى عليها الشاه عباس الصفوى .

خريطة ١٢٦

خريطة ١٢٧

مراحل استيلاء الإنجليز على الهند والقوى التى قضت على سلطان المسلمين فيها

الإنجليز يفدون على الهند بعد البرتغاليين .

كان البرتغاليون قد ثبتوا أقدامهم فى جوا وديو وأنشئوا مصانع لهم فى سورات بالكجرات وعند شواطىء فيجايانكر وجوكوندة الشرقية ، وذاعت شهرة الهند بالغنى فى أوروبا ، واشتهر سلاطينها بالتسامح فحضر الإنجليز إلى الهند فى أعقاب البرتغاليين .

وقد وصل من الإنجليز إلى الهند وليم هوكنز سنة ١٦٠٨ م حاملاً رسالة من ملك انجلترا جيمس الأول يرجو تيسير التجارة البريطانية ، ولكن البرتغاليين وشوا به فعاد إلى بلاده .

وعندما أقبل توماس رو الإنجليزى إلى الكجرات سنة ١٦١٥ م رحب به أهل البلاد لكراهيتهم للبرتغاليين ومبشريهم . فتمكن من تثبيت أقدام شركة الهند الشرقية البريطانية فى بعض الأماكن فى سورات وعلى ساحل كرومانديل وجوكوندة وجنوب مدراس . وكانت موانىء التبادل التجارى بين الهنود والأوروبيين فى موانىء بروج وسورات وكمباى وقاليقوط وكلكتا .

وقد أغرى جهانكير الإنجليز بالبرتغاليين فدخلوا حربهم معهم فى بحار الهند وأنزلوا بهم هزائم كبيرة ، وكسب البريطانيون فى مقابل ذلك حقوقاً على سواحل الهند مهدت لهم سبل السيطرة عليها فيما بعد .

شاه جهان من ١٠٣٧ – ١٠٦٨ هـ / ١٦٢٧ – ١٦٥٧ م .

كان يتولى الدكن لأبيه . وقد تمكن من الجلوس على العرش بعد أن تغلب على صعوبات كثيرة ، ولم يضف إلى الهند الإسلامية جديداً ، ولكنه اشتهر بحبه لزوجته ممتاز محل وهى أرجمند بانوبيكم وتسمى أيضاً سيدة التاج ، وقد ثارت نواحى الدكن عليه أكثر من مرة ، ولكنه استطاع إخماد الثورات والمحافظة على وحدة بلاده ، ونتيجة للحروب وقعت مجاعة خطيرة فى الكجرات والدكن .

وكان البرتغاليون قد أسرفوا فى ظلم الهنود ، وكانوا يخطفون الناس ويبيعونهم ، وفى عام ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠ م أرسل شاه جهان جيشاً طرد البرتغاليين من شواطىء الهند وأنقذ ١٠,٠٠٠ هندى كانوا قد أسروا وأعدهم البرتغاليون للبيع ، وسقط مركز البرتغاليين فى هوجلى ، وأقام ابنه أورنجزيب نائباً له فى الدكن سنة ١٠٤٥ هـ / ١٦٣٦ م .

أبو المظفر محى الدين أورنجزيب عالم كير ، ذو القعدة ١٠٦٨ – المحرم ١١١٩ هـ / يوليو ١٦٥٨ – إبريل ١٧٠٧ م .

تولى عرش الهندستان بعد حروب طويلة مع إخوته . وأخذ فى إصلاح آثار الحروب وتعويض الأهلين عما أصابهم من شر ، وكان سنياً متشدداً حتى لقد حرم على الشيعة من الأفغان الانضمام إلى الجيش ، وأخذ يخرج الهندوس من وظائف الدولة حتى لم يبق إلا نصفهم . وهدم معابد الهندوكيين فى بنارس وحنات وأقام على أنقاض معبد متهورة مسجداً وسمى البلد إسلام بور ، وأعاد فرض الجزية على رءوس الهندوس ، وقد قضى معظم سنوات حكمه التى بلغت سبعاً وأربعين فى إقرار السلام فى سلطنته الواسعة وفى محاربة الهندوس لنشر الإسلام بينهم ، وتمكن من استعادة إقليمى آسام والبنغال ، واستعان أعداؤه بالبرتغاليين حتى عادت أقدامهم فثبتت فى خليج البنغال . وتحالف قائده شايسته مع الهولنديين والإنجليز على البرتغاليين ، ثم اهتم بالقضاء على ثورات قبائل البتهان والأفغان فسير جيوشه إلى قندهار وبدخشان .

وثار عليه الهندوس فى الجات وانضم إليهم الستناميون وهم متصوفة الهندوس « أهل : ستنام » والراجبوتانيون ولم يتغلب على هذه الثورات إلا بعد حروب طويلة وخسائر بالغة ، وطالت الحروب بينه وبين شيواجى بن شاهجى زعيم جماعة المراتها الدكنية . وكانوا يسعون إلى إنشاء ما سموه باسم مهاراشترا ، أى المملكة الهندية الكبرى ، وكان مقامهم فى الدكن ، وظل أورنجزيب يحاربهم عشرين سنة ، ولكنه تغلب عليهم فى النهاية عندما مات زعيمهم شيواجى سنة ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م ، ثم استولى السلطان على مركز مهم فى بيجابور وجوكوندة .

وتم له النصر عليهم تماماً حوالى ١١١٠ هـ ١٦٩٨ م وأصبح شبه الجزيرة الهندية فى أيدى أورنجزيب ، وكان يحكم الهند على طريقة جعل أقاليمها إمارات تابعة له ، وقد توفى فى التسعين من عمره فى المحرم ١١١٩ هـ / إبريل ١٧٠٧ م .

علاقاته مع البريطانيين .

كان الإنجليز فى عداء مع المراتها ولهذا استعان بهم فى حروبه معهم ، وعندما ساعدوه فى الاستيلاء على مركز البرتغاليين فى هوجلى فى البنغال سمح للإنجليز بإقامة وكالة مركزية لهم فى سورات لتشرف على كل مراكز الإنجليز التجارية فى الهند ، ومد الإنجليز نفوذهم إلى بومباى بالساحل الغربى ، ولكنهم عارضوا حاكم أورنجزيب على البنغال وعمدوا إلى مناهضة الدولة فاستولى على كل مراكزهم فضاعت مصانعهم عند هوجلى وسوليانام .

ولكنه عاد فسمح لهم بالعودة بسبب ما كانت الدولة تجبيه منهم من رسوم فأنشئوا لهم مركزاً صغيراً عند قرية تسمى كلكتا ، وأخذت هذه القرية تتسع حتى أصبحت عاصمة الإمبراطورية الهندية البريطانية قبل انتقال العاصمة إلى دهلى الجديدة ، ووحد الإنجليز جهودهم التجارية على ساحل الهند فى شركة واحدة هى شركة الهند الشرقية ، وخلال نصف قرن حرصوا على البعد عن التدخل فى أمور الدولة الداخلية حتى ثبتت أقدامهم فى البلاد .

وبهذا يكون أورنجزيب بتسامحه مع الإنجليز قد فتح لهم الطريق ليستولوا على الهند جملة .

خلفاء أورنجزيب .

كان من العسير المحافظة على وحدة هذه الدولة الواسعة ، وقد تحارب أبناؤه على العرش حتى تمكن أحدهم وهو بهادر شاه من الوصول إلى الملك ، ولكن هيبة الدولة كانت قد زالت وثار عليها الراجبوتانيون والسيك « السيخ » والمراتها والجات قرب أجرا ، وكان الأمر يحتاج إلى رجل فى قدرة أورنجزيب ولكن الزمان كان قد ولى وبدأت شمس الدولة تميل إلى المغيب ، ورغم عودة بهادر شاه إلى سياسة المسالمة مع الهندوس فإن الثورات عليه لم تتوقف واستمر يحارب خصومه إلى آخر أيامه .

وخلفه بعد حروب طويلة ابن أخيه محمد فرخ سير وكان يتولى بتنا سنة ١١٢٤ هـ / ١٧١٢ م .

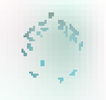

واستمرت ثورة السيك « السيخ » والمراتها بقيادة الزعيم بنفا الذى خلف شيواجى ، وولى السلطان محمد فرخ سير أمر الدكن لقائد يسمى قلج خان نظام الملك بهادر وهو مؤسس بيت النظام فى حيدر أباد ، وعندما ولاه السلطان شئون الدكن اشتد فى حرب المراتها الذين كانت عصاباتهم تفرض على التجار والسكان ربع الضرائب المقررة عليهم فى نظير عدم تعرض عصاباتهم لهم ، وقد اجتهد نظام الملك فى استعلاف الناس فعزله السلطان فرخ سير وعين مكانه الوزير حسين على خان ، وبعد وفاة السلطان فرخ سير تولى سلاطين فى غاية الضعف ولم يجد السلطان محمد شاه أمامه إلا الاستعانة بآصف شاه من أسرة نظام حيدر أباد ، وقد تمكن آصف شاه نظام الملك من الاستقلال بأغنى ولايات الهند وهى البنغال وأوريسة وبهار ، ولكن سلطان هذه الأسرة اقتصر فى النهاية على الأراضى التى تقع إلى الجنوب من نهر نربادا ، وهناك أسسوا إمارة حيدر أباد الدكنية وتحيط بها الأراضى التى استقل بها المراتها ، وكانت عصابات هؤلاء تعيث فى البلاد فساداً دون أن يستطيع السلاطين الضعاف أو رجال إمارة حيدر أباد الدكنية التغلب عليها ، والحقيقة هى أن دولة سلاطين المغول انتهى كل سلطان لها على البلاد فى عهد السلطان عالم كير الثانى الذى قتل فى ١١ شعبان ١١٦٧ هـ / يونيو ١٧٥٤ م وكان آخر سلاطين المغول هو بهادر شاه الثانى الذى عزل فى ١٢٥٣ هـ / ١٨٣٧ م .

أما إمارة النظام فى حيدر أباد فقد دخلت فى حروب طويلة مع الروهيلة وتمكنى من الانتصار عليهم ودخل برجاله مدينة دلهى عام ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م ، وقد حاول الأفغان التصدى لقوات المراتها ولكنهم لم ينجحوا ، وفى أثناء ذلك كان الإنجليز يتقدمون داخل البلاد من ناحية البنغال وتمكنوا فى سنة ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م من الانتصار على قوات نظام الملك ، وفى سنة ١١٧٨ هـ / ١٧٦٤ م تمكن الإنجليز من كسب نصر ثالث حاسم عند بكسر ، وبعد قليل دخلوا دلهى ، واضطر نظام الملك إلى الدخول فى طاعتهم خاصة وأن الإنجليز شجعوا المراتها والسيك على المسلمين ، وانتهى الأمر بأن تمكن القائد البريطانى من القضاء على كل سلطان للمسلمين فى الهند ودخل دلهى عام ١٨٠٣ م ، وفى نفس الوقت استولى المراتها على الدكن وجنوب الهند وانتهى أمر نظام حيدر أباد إلى الدخول فى طاعة الإنجليز كما فعل غيره من أمراء الهند ، وبذلك ينتهى تاريخ سيادة الإسلام على شبه القارة الهندية ، حقاً بقيت فى الهند جماعات كبيرة جداً من المسلمين ، ولكن الإنجليز سادوا الجميع ، وعندما قضى الإنجليز على كل الثائرين عليهم من المسلمين وغيرهم فى الهند فيما يسمى بالاعتصام الكبير سنة ١٨٥٨ م أصبحت الهند كلها مستعمرة بريطانية .

خطوات استيلاء الإنجليز على الهند .

عندما دخل الإنجليز الهند ، كان همهم الأول إبعاد البرتغاليين والفرنسيين عنها ، وقد عرفوا أن أكبر سلطة ذات أهمية رسمية فى البلاد هى دولة سلاطين المغول فى دلهى ، وهم يسمون المغول لأنهم من أحفاد تيمورلنك ، والسلطان بابر مؤسس هذه الدولة كان حفيداً لتيمور ، ولهذا يسمون بالتيموريين أيضاً ، وهم من الأفغان . وقد رأينا أن السلطان بابر قضى معظم عمره يحاول إنشاء ملك مستقل له فلم يستطع ، فاتجه نظره إلى الهند ، وهناك استطاع أن يكون سلطان دلهى .

وبدأ الإنجليز فى التقرب من سلاطين دلهى . وكانت قوى هؤلاء قد ضعفت وضاقت مساحةالبلاد التابعة لهم حتى اقتصرت آخر الأمر على ولاية دلهى ، أما بقية الهند فقد تقاسمها ملوك الطوائف من المستبدين بالأمر فى الإمارات شمال شبه الجزيرة وبلاد الدكن . وقد حصل الإنجليز على مراكز تجارية لهم عند سورات فى الغرب وهوجلى فى الشرق ، وساعدوا السلاطين على إبعاد جماعات المراتها عن بلادهم ، ونالوا من السلاطين فى مقابل ذلك امتيازات مابين تصريحات بإقامة أسواق تجارية تحولت إلى مستعمرات ، وتصريحات وتسهيلات تجارية ، وقد نجحوا فى ذلك نجاحا عظيما وكسبوا أموالاً عظيمة ، واشتروا أراضى واسعة ، وبعد أن طردوا البرتغاليين من كل مستعمراتهم فى الهند - إلا جوا - اشتروا ميناء بومباى فأصبحت من ممتلكات شركة الهند الشرقية ، وأخذوا يتوسعون من بومباى إلى داخل البلاد فى مناطق البنغال وبهار .

ثم دخلوا فى صراع مع الفرنسيين ، وكانت لهم على الساحل الشرقى لشبه الجزيرة مستعمرات مثل كاريكال وبوند شيرى ، واجتهد القائد دوبلكس مدير الشركة الفرنسية الهندية فى مناهضة التقدم الإنجليزى ، وكان هذا الرجل سياسياً ماهراً وقائداً عسكرياً قادراً ، فتمكن من كسب صداقة أمراء ولاية حيدر أباد الدكنية ، وأعد يدرب بعض جنودها على أساليب القتال الحديثة ، وكذلك درب جماعات من قوات المراتها الهنود ، وأصبح بمهارته أكبر قوة فى الهند جنوبى نهر كرشنا . وعندما نشبت حرب الوراثة النمساوية فى أوروبا سنة ١٧٤٠ م ووقع القتال هناك بين الفرنسيين والإنجليز بادر دوبلكس باجتياح ولاية مدراس ، واستولى على كثير من مراكز الإنجليز على الشواطىء الشرقية للهند ، واستخدم الإنجليز ذكاءهم السياسى حتى جعلوا لويس الخامس عشر يستدعى دوبلكس ، وبهذا خلا لهم الجو واستعادوا كل أراضيهم فى شرق الهند ، ولم يتركوا للفرنسيين إلا ميناء بوند شيرى ، وبعض أماكن أخرى صغيرة .

وتمكن الإنجليز من تثبيت أقدامهم فى البنغال وأودة ، وكانت دولة سلاطين دلهى قد اقتصرت على منطقة صغيرة تمتد من لاهور إلى أجرا ، ولم تعد لهم قوة عسكرية تذكر .

وتقدم الإنجليز من البنغال حيث انتصروا على القوات المعادية لهم فى معركة هوجلى ، وبعد ذلك انتصروا فى معركتى بلاسى وباكسر ، وعقدوا سنة ١٧٦٦ م معاهدة مع نظام حيدر أباد التى نصت على تبادل المعونة بين الجانبين فى كل ميدان ، وكان نظام حيدر أباد يخشى من أطماع أمير ميسور المسلم فى الجنوب الشرقى من الهند ، فمازال الإنجليز حتى اضطروا أمير ميسور إلى قبول مهادنة الشركة البريطانية سنة ١٧٦٨ م وحاول تيبو صاحب آخر أمراء ميسور الاستعانة بالفرنسيين فى تدريب قواته فسارع اللورد كورنواليس قائد شركة الهند البريطانية وجمع كل أعداء تيبو صاحب ، وساروا نحوه بقوات كبيرة وانتصروا عليه وحاصروه فى عاصمته ميسور ، فأرغموه سنة ١٧٩٢ م على التنازل عن نصف أراضيه لإنجلترا ، وبذلك أصبح الإنجليز قوة حقيقية سياسية وعسكرية فى الهند ، واتسعت أملاكهم حتى صارت أوسع من أملاك سلطان دلهى ، وبخاصة بعد أن قضوا نهائياً على تيبو صاحب سلطان ميسور وكان آخر مسلم قوى يقف فى وجه الإنجليز .

وبعد انتصار الإنجليز فى معركة باكسر الحاسمة دخلوا دلهى ، واضطر سلطانها الضعيف إلى الانتقال إلى الله أباد ، وكانت منطقة دلهى منطقة إسلامية معظم سكانها من المسلمين ، وكانت أجرا أكبر مدينة إسلامية فى الهند بعد دلهى فاحتلها الإنجليز ، وأخذوا يهجرون الهنود إلى منطقة دلهى لكى يمحوا الطابع الإسلامى فيها ، وكانوا يعرفون أنه إذا تم لهم تصفية آثار السلطان الإسلامى العظيم فى ولاية دلهى وماجاورها مثل الله أباد وأجرا وأجمير وملوة وأودة فقد أصبحوا سادة الهند دون منازع ، وأفصحوا عن سياستهم المعادية عداءً صريحاً لكل ماهو إسلامى فى الهند ، واقتضى ذلك تشجيع كل الأجناس الأخرى واحتضانها ، مثل الهندوس وهم معظم أهل الهند ، والسيخ أو السيك (فى البنجاب) والروهيلة فى الشمال وغيرهم .

ثم صرفوا اهتمامهم إلى حرب المراتها الهندوسيين ، وتمكنوا فى النهاية من القضاء على سلطان المراتها فى إقليم بهار سنة ١٨١٧ م وضموا جنودهم إليهم ودربوهم على القتال واستعمال الأسلحة ، وبذلك أصبح للإنجليز فى الهند قوة قوامها مائة ألف جندى منهم عشرون ألفاً فحسب من الإنجليز .

وكان الإنجليز يعرفون أن قوة المسلمين فى الهند ترتكز على قواعدهم فى بلاد الأفغان فمن هناك كانوا يأتون بخيرة جنودهم ، ثم إن معظم دول الهند الإسلامية الكبرى هم من الغزنويين والغوريين والخلجيين وآل تغلق وآل السادات وآل لودهى ، بل إن سلاطين مغول الهند أصلهم من الأفغان ، فجمعوا قواتهم وأرسلوها إلى بلاد الأفغان ، ولكنهم وجدوا هناك مقاومة عنيفة من قبائل الأفريدى والمسعودى والوزيرى الذين اشتهروا بضراوتهم وتمسكهم بالإسلام ، ولم يستطع الإنجليز التغلب على الأفغانيين وانهزموا هناك فعقدوا هدنة وعادوا إلى الهند .

واتجه الإنجليز بعد ذلك إلى القضاء على سلطة السيخ والبلوخ (سكان بلوخستان) وتمكنوا عام ١٨٤٩ م من احتلال الكجرات والبنجاب وكشمير وجردوا قوات رجالها من الأسلحة .

وبهذا يكون البريطانيون قد وضعوا أيديهم على معظم شمال الهند ، وتنازلت شركة الهند الشرقية عن ممتلكاتها للحكومة الإنجليزية ، وأصبحت أملاك إنجلترا هناك مستعمرة بريطانية .

ولكن سلطان دلهى المغولى ظل قائماً وإن كان ضعيفاً مجرداً من السلطان ، ولاموارد له إلا راتب يقرره الإنجليز له ، وفى تلك الأثناء قام نادر شاه قولى شاه إيران القاجارى بلع بغزواته على الهند حتى اضطر آخر سلاطين مغول الهند وهو سراج الدين أبو المظفر بهادر شاه الثانى إلى التنازل عن عرشه بعد أن عزل فى ١٣ شعبان سنة ١٢٧٤ هـ / ٣٠ مارس ١٨٥٨ م ، وتلك كانت نهاية واحدة من أعظم الدول التى عرفها تاريخ الإسلام وهى سلطنة مغول الهند العظام .

التمرد الهندى الكبير سنة ١٨٥٨ م The Great Mutiny .

قامت هذه الثورة الهندية العامة فى وقت واحد فى ولايات البنغال ودهلى وجوانبور والبنجاب ، وقد نشأت نتيجة للاستغلال الاستعمارى الجشع من الإنجليز ، فكانوا حيثما دخلوا بلاد الهند يبدءون بالقضاء على الصناعات الأهلية وبخاصة النسيج وأدوات الحرف التقليدية حتى يضطروا الناس إلى بيع المحاصيل الزراعية وبخاصة القمح والقطن بأرخص الأسعار لترسل إلى انجلترا وتحول إلى قماش يباع بعد ذلك للهنود وغيرهم من الأسيويين بخمسة أضعاف أسعارها أو تزيد ، ويصبح الهندى فى كافة مجالات حياته عالة على الإنجليز معتمداً عليهم ، وفى نفس الوقت يزعم الإنجليز أنهم يعملون على تحضير الناس وإدخال مظاهر الحضارة الحديثة فى بلادهم مثل السكك الحديدية وإنشاء الموانىء وما إلى ذلك ، وكل ذلك فى الحقيقة كان يخدم المصالح البريطانية ، وقد جنى الإنجليز من ذلك أرباحاً طائلة لم يسمع بمثلها فى التاريخ خاصة وقد طبق الإنجليز هذه السياسات الاستغلالية فى كل مستعمراتهم فى آسيا وإفريقيا .

بدأت الثورة فى البنغال ، وكان أكثر من ثلث الجيش الإنجليزى من البنغاليين وأغلب هؤلاء من الراجبوتيين والبراهمة ، ولكن قيادة الثورة كانت بأيدى المسلمين ، وبعضهم من أبناء السلاطين أو من الزعماء الأفغان المخلصين ، ثم انضم إليها رجال المراثا فى جوانبور ، ولكن الإنجليز بقيادة الجنرال لورنس تمكنوا بفضل أسلحتهم المتفوقة من المدافع والبنادق من التغلب على الثورة فى البنغال ومنطقة دهلى ، واستعانوا بحلفاء من السيخ والغور وقوات نظام حيدر أباد التى اضطر إلى الانضمام إليهم ، واستعمل الإنجليز أشد أساليب العنف والقسوة ، وخربوا بمدافعهم دهلى ، ثم اقتادوا آخر سلاطين المغول وكان فى الثانية والثمانين من عمره ، وحاكموه محاكمة صورية أدانوه فيها بدعوى وقوفه إلى جانب ولده محمد بخت خان وميرزا مغول زعيم الثورة ، وألقوا على عاتقه مسئولية تسعة وأربعين جندياً بريطانياً ماتوا اختناقاً فى غرفة صغيرة فى دهلى ، واتهموه بالخروج على الحكومة البريطانية ، وزعموا أنه أحد رعاياها ، وقالوا إنه أعلن الحرب على بريطانيا ونادى بنفسه سلطاناً على الهند ، وجدير بالذكر أن سلاطين المغول رغم ضعفهم وخضوعهم لأوامر عسكرية بريطانية لم يقبلوا الاعتراف بالحماية البريطانية على الهند أبداً .

وبهذه المحاكمة قضى الإنجليز على أسرة سلاطين دهلى ، ونفوا السلطان بهادر شاه مع أسرته إلى رانجون ، وأعلنوا بعد ذلك اعتبار شبه القارة الهندية مستعمرة بريطانية يحكمها نائب للملك يقيم فى مدينة جديدة شرعوا فى إنشائها إلى جانب دهلى القديمة وهى نيودهلى عاصمة الهند اليوم ، وحرصوا على إبعاد المسلمين عن كل الوظائف ذات المسئولية ووضعوا مكانهم هندوسيين وسيخاً ومن إليهم ، واتخذوا سياسة معادية للإسلام حتى أعلن اللورد ألن بورو Lord Allenborough أن العنصر الإسلامى فى الهند هو عدو بريطانيا الأكبر ، وأن السياسة البريطانية فى الهند ينبغى أن تقوم على تقريب العناصر الهندوكية للتغلب نهائياً على سلطان المسلمين ، وأصدروا قوانين تملك الأراضى الزراعية . جعلوا فيها حق التملك شائعاً بين الهنود وغير الهنود ، ووضعوا أيديهم بذلك على أراض شاسعة كان المسلمون يملكونها ، وطُرد المسلمون من أراضيهم وأعطى جباة الضرائب من الهنود حق تملك الأراضى التى يستطيعون انتزاعها من أيدى المسلمين ، وتلك هى الأسباب الحقيقية التى دفعت المسلمين إلى التجمع فى بلاد السند والبنجاب وكشمير والبنغال ، وإعلان عزمهم على إنشاء دولة خاصة بالمسلمين فى الهند ؛ لأن العداوة التى أثارها البريطانيون فى قلوب الهندوك والسيخ نحو المسلمين جعلت من المستحيل على المسلمين الخضوع لدولة يرأسها الإنجليز والهندوك وغيرهم من الأجناس ، والضحية الواحدة فيها هم المسلمون . وقد قاد المسلمين فى تلك الحركة أولاً السيد أحمد خان الذى دعا المسلمين إلى النهوض وحالف الإنجليز لكى يخدم أبناء دينه ويستطيع النهوض بمسلمى الهند ، فأنشأ جامعة عليكرة ، ولكن الحركة أحدثت اتجاهاً جاداً وأكثر إخلاصاً عندما ظهر المفكر الملهم محمد إقبال الشاعر العظيم الذى أعطى فكرة الدولة الإسلامية المستقلة فى الهند شخصية واضحة وقام بتجسيدها الزعيم المسلم محمد على جناح ومن ورائه الرابطة الإسلامية التى وقفت فى وجه دعوة الزعيم الهندوكى المهاتما غاندى الذى كان الإنجليز يؤيدونه ، وأخيراً وفى سنة ١٩٤٧ م أعلن مولد دولة المسلمين فى الهند وهى الباكستان فى حوض السند وكشمير والبنغال ، وقد رفض الهندوك فيما بعد عندما قامت الدولة الهندوكية تسليم كشمير لباكستان ، وقامت الحرب بينهما وانتهت بالهدنة كما سنرى ، ومازالت مشكلة كشمير معلقة إلى اليوم ، وإن ضمها الهنود إلى دولتهم بالقوة فيما بعد ، وانقسمت الباكستان إلى دولتين مستقلتين باكستان الغربية وباكستان الشرقية بنجلاديش أى وطن البنغال .

نسبة المسلمين فى الولايات الهندية اليوم

اسم الولايـــة	المسلمون	النسبة المئوية
اندهرابـــرادیش	٣٥٢٠١٦٦	٨,٠٩
آســــــام	٣٥٩٤٠٠٦	٢٤,٠٣
بيــــــار	٧٥٩٤١٧٣	١٣,٤٨
كجــــــرات	٢٢٤٩٠٥٥	٨,٤٢
هريانــــــا	٤٠٥٧٢٣	٤,٠٤
هماشــــــل	٥٠٣٢٧	١,٤٥
جمون وكشمير	٣٠٤٠١٢٩	٦٥,٨٥
كيــــــرالا	٤١٦٢٧١٨	١٩,٥٠
مدهية برديش	١٨١٥٦٨٥	٤,٣٦
مهاراشـــترا	٤٢٣٣٠٢٣	٨,٤٠
منى بور	٧٠٩٦٩	٦,٦١
ميغالــــــا	٢٦٣٤٧	٢,٦٠
ناغالنــــــد	٢٩٦٦	,٥٨
ميــــــور	٣١١٣٢٩٨	١٠,٦٣
أريســــــه	٣٢٦٥٠٧	١,٤٩
بنجاب الشرقية	١١٤٤٤٧	٠,٨٤
راجســـتهان	١٧٧٨٢٢٥	٦,٩٠
تاميل نــادو	٢١٠٣٨٩٩	٥,٤١
تری بـــوره	١٠٣٩٦٢	٠,٦٨
أترابــــرديش	١٣٦٧٦٥٣٣	١٥,٤٨
البنغال الغربية	٩٠٦٤٣٣٨	٢٠,٤٦
أروناشــــــل	٨٤٢	٠,١٨
أندمان نكوبار	١١٦٥٥	١٠,١٢
شـندى كـره	٣٧٢٠	١,٤٥
رادرونكر حويل	٧٤٠	١,٠٠
دهــــــل	٢٦٣٠١٩	٦,٤٧
كوادمن ودميو	٣٢٢٥٠	٣,٧٦
لكادبــــــب	٣٠٠١٩	٩٤,٣٧
باندیشــــــری	٢٩١٤٣	٦,١٨
المجمــــــوع	٦١٤١٧٩٣٤	

المـراجـع

مرجعنا العربى الرئيسى عن تاريخ الهند الإسلامية هو كتاب : د. أحمد محمود الساداتى – تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندوباكستانية . الطبعة الثانية – القاهرة ١٩٧٠ م . وقد استوفى فيه مؤلفه ذكر الأصول الفارسية والتركية .

وبقية مراجعنا هنا غير عربية .

Barthold , Turkistan down to the Mongol Invasion . London 1908 .

ترجمه إلى العربية بعنوان : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى مع إضافات وتعليقات قيمة د. صلاح الدين عثمان هاشم ونشره مجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت سنة ١٩٨١ م .

Cambridge History of India , 5 Vols - London 1922 - 1927 .

Dunbar O.A.A History of India From the Earlist Times to the Present Day - London 1936 .

Ishwari . Prasad , A Short History of Moslim Rule in India . London 1925 .

William C. Price (ed) An Historical Atlas of Islam . Brill , Leiden 1918 .

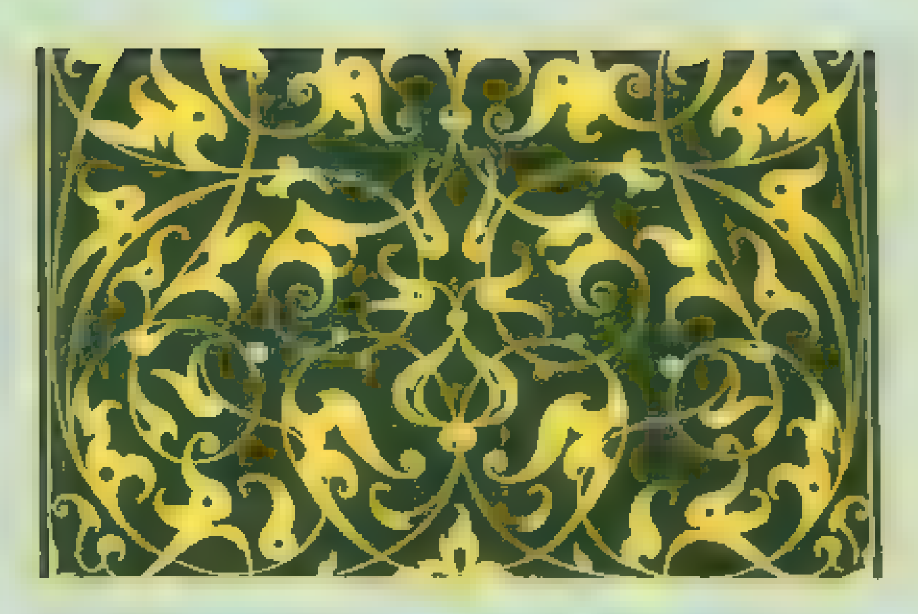

الفصل الثاني عشر

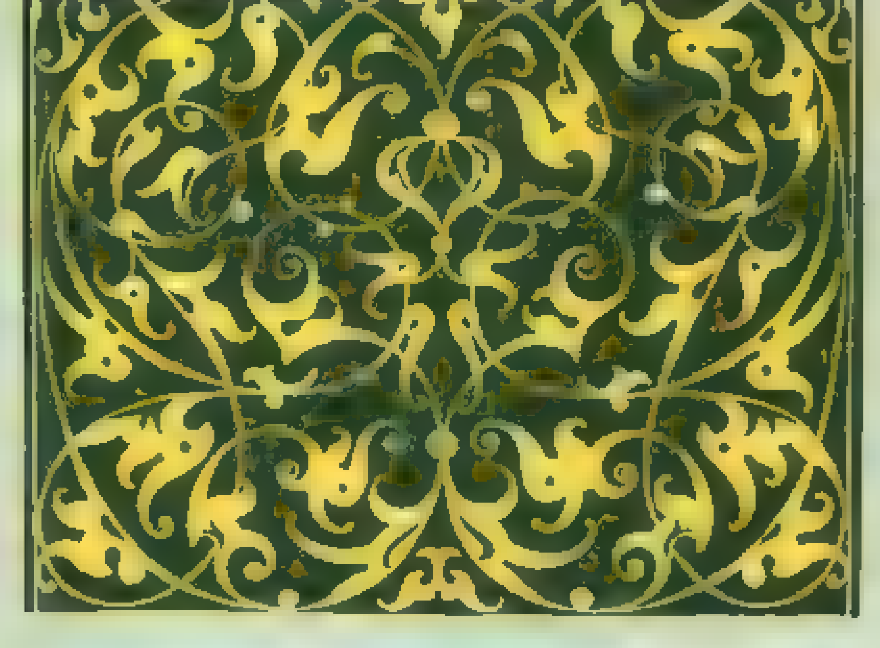

الحروب الصليبية

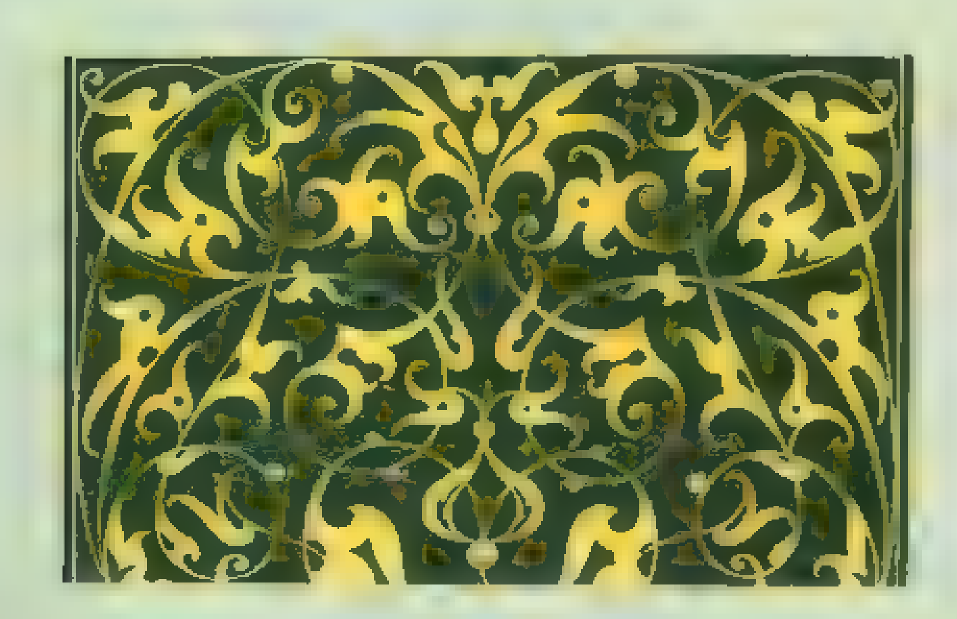

الحروب الصليبية (١)

الحرب الصليبية الأولى ٤٩١-٤٩٢هـ، ١٠٩٧-١٠٩٩م

والحرب الصليبية الثانية ٥٤٢-٥٤٣هـ، ١١٤٧-١١٤٩م

مقياس الرسم ١: ٦٠٠٠٠٠٠

البحر الأسود

البحر المتوسط

الإمبراطورية الرومانية الشرقية

سلطنة سلاجقة الروم

قبدوكيا

مملكة البلغار

الجزيرة العربية

الخلافة الفاطمية

القسطنطينية

نيقية

دوريلة

قونية

أنطاكية

الرها

حلب

دمشق

بيت المقدس

طرابلس

بيروت

صيدا

صور

عكا

حيفا

قيسارية

يافا

عسقلان

غزة

الإسكندرية

قبرص

كريت

رودس

أثينا

ليديا

تساليا

لاريسا

طرابزون

سينوب

أماسيا

توقات

سيواس

ملطية

ماردين

الرقة

حماة

حمص

تدمر

الإمارات الصليبية والقلاع
مملكة بيت المقدس
إمارة طرابلس
إمارة أنطاكية
إمارة الرها
مملكة الأرمن
أراضي الدولة البيزنطية
قلعة إسلامية
كانت قلعة مسيحية
قلاع كانت مسيحية
أتابكية الموصل
أتابكية حلب
أتابكية دمشق
حلب
حران
الرقة
اللاذقية
حمص
بيروت
دمشق
عكا
حيفا
يافا
عسقلان
غزة
العقبة
أيلة
جبل الطبيق
مقياس الرسم ١ : ٣٥٠٠٠٠٠

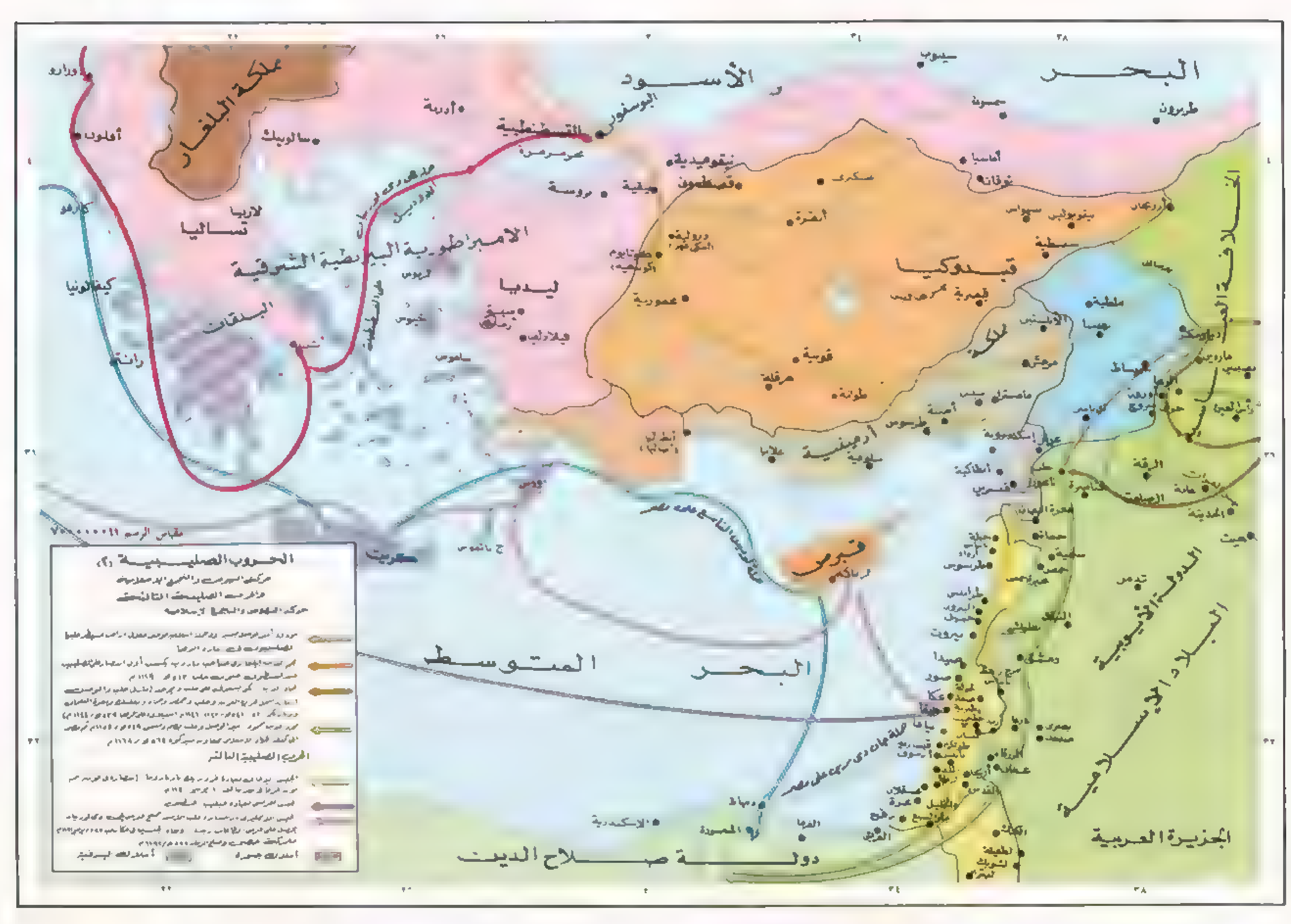
البحر الأسود
مملكة البلغار
القسطنطينية
البوسفور
الامبراطورية البيزنطية الشرقية
تساليا
البلقان
ليديا
قبدوكيا
قونية
أرمينية
نيقوميدية
أدرنة
طربزون
قبرص
البحر المتوسط
الاسكندرية
دمياط
دولة صلاح الدين
الجزيرة العربية
البلاد الإسلامية
الدولة الأيوبية
الرها
حلب
أنطاكية
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
عكا
يافا
عسقلان
غزة
القدس
دمشق
حمص
حماة
الرقة
الحروب الصليبية (٢)

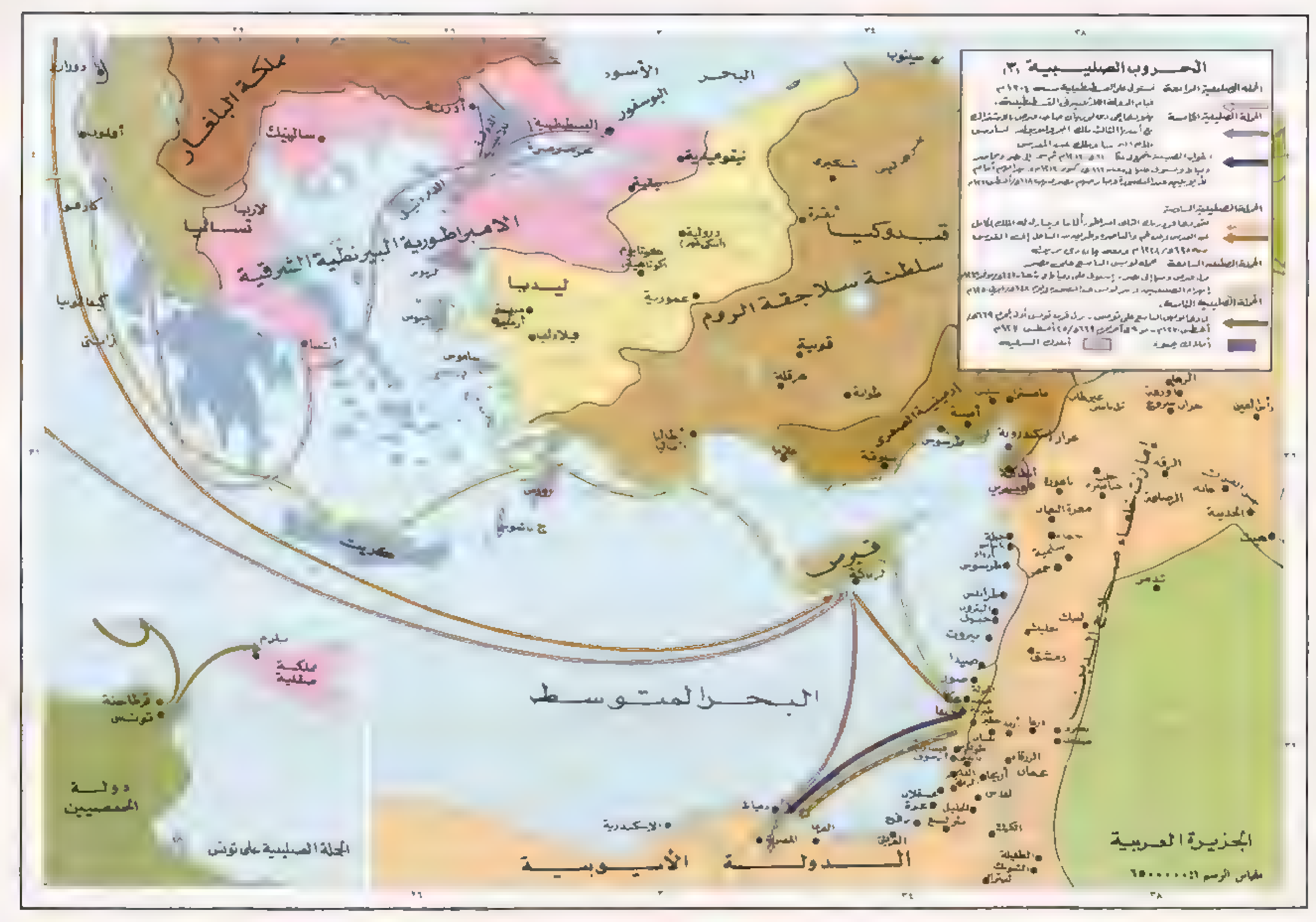
الحروب الصليبية (٣)
الحملة الصليبية الرابعة
الحملة الصليبية الخامسة
الحملة الصليبية السادسة
الحملة الصليبية السابعة
الحملة الصليبية الثامنة
مملكة البلغار
البحر الأسود
البوسفور
القسطنطينية
سينوب
نيقوميدية
سالونيك
أدرنة
تساليا
الإمبراطورية البيزنطية الشرقية
ليديا
عمورية
قبدوكيا
سلطنة سلاجقة الروم
قونية
طرسوس
الرها
حران
أنطاكية
قبرص
رودس
كريت
صقلية
مملكة صقلية
قرطاجنة
تونس
دولة الحفصيين
الحملة الصليبية على تونس
البحر المتوسط
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
عكا
دمشق
حمص
حماة
حلب
عمان
عسقلان
غزة
دمياط
الإسكندرية
الدولة الأيوبية
الجزيرة العربية
مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠

تصفية الوجود الصليبي
في الشام بعد صلح الرملة
المغازي الإسلامية
إمارة إرمينيا
أتابكية الموصل
أتابكية حلب
أتابكية دمشق
الدولة البيزنطية
حلب
الرقة
اللاذقية
حماة
حمص
بيروت
صيدا
عكا
حيفا
القدس
عسقلان
غزة
دمشق
عمان
جبل الطبيق
قبرص
مقياس الرسم ٤٠٠٠٠٠٠:١

الحروب الصليبية

تعتبر الحروب الصليبية من أعاظم الحوادث في التاريخ الإسلامي العام ، وهي كذلك من أكبر حوادث التاريخ العالمي ، لأن الذي فكر في الحروب الصليبية وقام بها هو الغرب المسيحي بتوجيه أوّل من البابوية ، بغرض الاستيلاء على المقدسات المسيحية في فلسطين وبخاصة مدينة القدس وقبر المسيح عيسى بن مريم في بيت لحم القريبة من القدس . والحركة بدأت في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، واستمرت في عنف إلى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي .

أصل الحروب الصليبية .

وليس هنا مكان دراسة أسباب هذه الحروب وتطور هذه الأسباب ، ولكننا نكتفي بأن نقول إن أصل الحركة كلها عند البابوية ، وكان من أول أهدافها تقوية مركز البابوية في العالم المسيحي ، وتوحيد العالم المسيحي كله تحت سلطانها ، وأول من فكر في ذلك كان البابا جريجوري السابع ، وهو ألماني اسمه الأول هلدبراند Hildebrand وكان رجلاً واسع الطموح والنشاط ، وكان قد شجع رهبان دير كلوني ، وهو دير كاثوليكي في فرنسا ، نشأت فيه حركة حماس ديني وتجرد رجاله لنشر المسيحية بين قبائل وسط أوروبا من المجر وأمثالها من الشعوب النورماندية ، وأحس البابا جريجوري أن تحت يده قوة يمكن أن يستخدمها لفرض إرادته على بلاد الغرب الأوروبية وتوحيدها تحت لوائه ، وفي ذلك الوقت تلقى البابا استغاثة من الإمبراطور ألكسيوس كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية يطلب فيها أن يمده الغرب الأوروبي بجنود يعاونونه على دفع الخطر السلجوقي .

وقد ذكرنا في فصل سابق كيف أن السلطان السلجوقي ألب أرسلان انتصر على الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع في موقعة ملاذكرد سنة ١٠٧١ م في أقصى شمالي أذربيجان ، وفتح الطريق أمام قبائل الأتراك لتدخل آسيا الصغرى التي كانت معتبرة إذ ذاك من أراضي الدولة البيزنطية ، بما في ذلك جزء كبير من بلاد الأرمن ، وكان الأرمن إذ ذاك منتشرين على مساحات واسعة تمتد من شرق البحر الأسود جنوباً إلى شمالي بلاد الجزيرة والموصل ، وعقب انتصار ملاذكرد تدفقت جموع من الأتراك السلاجقة فدخلت آسيا الصغرى ، واستقرت في شرقها ، وأنشأت فيها سلطنة سلجوقية عرفت باسم سلطنة سلاجقة الروم ، وأولهم قلج أرسلان ، وأخذت هذه السلطنة تمتد شرقاً حتى استحوذت على النصف الشرقي من آسيا الصغرى ، وجعلت عاصمتها في مدينة قونية ، وأخذت تزحف إلى الغرب ، وهذا هو الخطر الذي جعل ألكسيوس كومنين يستنجد بالبابوية ، على الرغم من أنه كان هناك انشقاق ديني وسياسي بين الدولة البيزنطية والكنيسة الكاثوليكية في روما منذ سنة ١٠٥٤ م . وهذا هو الانشقاق الديني الواسع الذي يوصف بالكبير The great schism وبدلاً من أن يبادر البابا جريجوري بالاستجابة لما طلبه الإمبراطور البيزنطي فكر في استنهاض همم الرهبان الكلونيين وبقية رجال الكنيسة في الغرب للدعوة إلى توحيد الغرب الأوروبي تحت لواء البابوية وإنشاء مملكة مسيحية دينية واحدة يسيطر عليها البابوات .

ولم تسنح الفرصة للبابا جريجوري السابع بالسير في مشروعه إلى أكثر من ذلك فقد توفي سنة ١٠٨٥ م وخلفه البابا أوربان الثاني ، وكان تلميذاً للبابا جريجوري ومتحمساً لآرائه .

حرب الاسترداد في الأندلس .

وفي ذلك الوقت كانت الحرب بين الإسلام والنصرانية في الأندلس – وهي شبه الجزيرة الأيبيرية – قد تطورت إلى مايعرف بحرب الاسترداد « الريكونكيستا » (La Reconquista) ، أي استرداد بقية أرض شبه الجزيرة من المسلمين وذلك عقب سقوط الخلافة الأموية الأندلسية سنة ١٠٣١ م وانقسام الأندلس الإسلامي إلى دويلات متنازعة عرفت باسم دول الطوائف ، أو ممالك الطوائف ، وقد بدأ حرب الاسترداد هذه فرناندو الأول ملك ليون وقشتالة سنة ١٠٥٧ م وصارت السياسة الرئيسية للممالك النصرانية المتاخمة للأندلس . ثم صارت حقيقة واضحة المعالم في الاستراتيجية والتاكتيك عندما استولى ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون على مملكة طليطلة في ٦ مايو سنة ١٠٨٥ م واستعاد عاصمة القوط القديمة ونقل عاصمة مملكته إليها ، وتطورت الحرب بين المسلمين والنصارى تطوراً حاسماً أشرنا إليه في كلامنا عن الأندلس ، واتجهت همة المسيحيين في الغرب بقيادة الممالك المسيحية في إسبانيا إلى القيام بحرب عامة على الأندلس الإسلامي أخذت طابعاً دينياً ، ووضع المقاتلون فيها شارة الصليب على صدورهم وظهورهم ودروعهم ، وأصبحت كل قوة عسكرية من أولئك الذين يحملون شارة الصليب تسمى حملة صليبية « بالإسبانية Cruzada » ومن هنا جاء اسمها في اللغات الأوروبية (Kreuzzug - Crusade - Groisade - Cruciatae) وفي نفس الوقت تمكن النورمان من استعادة صقلية من أيدي المسلمين « ١٠٦١ – ١٠٩١ م » وعمت الغرب الأوروبي روح من الحماس الديني زادها قوة أن سكان الغرب الأوروبي زادوا خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين زيادة تقدر بضعف عدد السكان واحتاجوا إلى أراضٍ جديدة يتوسعون فيها ويزرعونها ، وتلك هي الظروف التي انتهزها البابا أوربان الثاني للدعوة إلى القيام بحرب مسيحية شاملة على بلاد الإسلام ، وبخاصة بلاد الشام وفلسطين لاستعادة المقدسات المسيحية والأراضي التي عاش ودعا فيها المسيح ابن مريم .

وشجع على نشاط هذه الحملة زيادة عدد الحجاج النصارى إلى الأراضي المقدسة المسيحية زيادة كبيرة ، وماشاع في ذلك الحين من أن الأتراك السلاجقة – وبخاصة سلاجقة الروم – يترصدون قوافل الحجاج المسيحيين القادمين من الغرب ويعتدون عليها ، وقيل كذلك – وهو غير صحيح قطعا – إن المسلمين يعتدون على المقدسات المسيحية ، وقد بدأت الحركة الصليبية في سنة ١٠٨٨ م عندما دعا البابا أوربان الثاني إلى توثيق الروابط بين الغرب المسيحي والدولة البيزنطية وشد أزرها بمعاونتها بالجنود لمحاربة المسلمين .

بدء الحملات الصليبية .

وفي سنة ١٠٩٥ م دعا البابا أوربان الثاني في مجمع ديني عقد في مدينة كليرمونت إلى تجنيد جيش مسيحي وتسييره إلى بلاد المسلمين لتحقيق ذلك الغرض ، ومن ذلك الحين بدأ مايسمى بالحروب الصليبية أو الحركة الصليبية ، لأنها في الحقيقة حركة طويلة المدى استمرت من أواخر القرن الحادي عشر إلى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، بل لدينا أخبار عن حملات مسيحية بعد ذلك ، وخلال الفترة التي ذكرناها قام الغرب الأوروبي بإرسال أكثر من خمس عشرة حملة صليبية كبيرة على بلاد المسلمين اشتركت فيها كل بلاد أوروبا المسيحية ، من إنجلترا وإسكتلندا إلى بلاد المجر ، وعمت كل بلاد الأناضول والشام ومصر ، ولم تخمد الحركة إلا بعد أن تأكد الغرب الأوروبي من عجزه عن الاستيلاء على بلاد المسلمين في الشرق .

وفي أثناء الفترة الطويلة التي استمرت فيها الحركة الصليبية دخلت عوامل وأهداف أخرى لاعلاقة لها بالأراضي المقدسة ، منها طمع الكثيرين من نبلاء الغرب في إنشاء ممالك لهم في بلاد المسلمين ، وتطلع الفرسان والمقاتلين الأوروبيين إلى الغارات على بلاد المسلمين ونهبها ، وسلب ماتيسر لهم سلبه من خيراتها .

حملتان صليبيتان وصحوة إسلامية .

وفي العادة يكتفي المؤرخون للحروب الصليبية في الغرب بتفصيل الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية لأنهما كانتا بالفعل حملتين عسكريتين كبيرتين استنفدتا كل جهود

أوروبا خلال قرنين كاملين من الزمان . وكان العالم الإسلامى ضعيفاً مفككاً عند وصول الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام سنة ١٠٩٩ م بسبب انهيار سلطنة السلاجقة وخلو بلاد الإسلام من دولة موحدة تجمع المسلمين لمواجهة الخطر الصليبى ، مما شجع الغرب على بذل أقصى جهده فى الحروب الصليبية فى الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية بعد أن تمكن المسيحيون من الاستيلاء على بيت المقدس وإنشاء مملكة صليبية مسيحية فى فلسطين عاصمتها القدس ، وثلاث إمارات مسيحية ، اثنتان منها فى الشام ، هما أنطاكية وطرابلس ، والثالثة فى بلاد الجزيرة من شمال العراق ، وهى إمارة الرها ، ثم استيقظ العالم الإسلامى من سباته ، ودخل فى حركة نهوض وتجمع واسعة المدى ، بدأت فى بلاد الجزيرة والموصل ثم اتسع نطاقها فشملت بلاد الشام ، بفضل أتابكة الموصل وحلب ، ثم بلغت النهضة الإسلامية أوجها فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى بعد انضمام مصر إلى الحركة على يد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، ثم انتقال قيادة الحركة إلى مصر عند قيام الدولة الأيوبية على يد السلطان صلاح الدين الأيوبى وانتصاره الحاسم على الصليبيين فى بلاد الشام فى معركة حطين ، فى صيف سنة ١١٨٧ م ، واستعادته القدس ، وبذلك انكسرت حدة الموجة الصليبية ابتداء من الحملة الصليبية الثالثة كما سترى .

وفى خرائط هذا الفصل الخاص بالحروب الصليبية اجتهدنا فى تصوير الحملتين الصليبيتين : الأولى والثانية ، وكذلك حركة النهوض والتجمع الإسلامى .

خريطة ١٢٨

الحروب الصليبية (١)

الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية

صورنا فى هذه الخريطة الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية ، وكذلك الحملة الصليبية التى قادها بطرس الناسك الفرنسى ، وتكونت من جمهور غير منظم من المسيحيين ، خدعهم بطرس بخطبه الحماسية ، وصور لهم بلاد المسلمين على أنها أرض مفتوحة لايحميها أحد ، وغنية بالخيرات التى تنتظر من يغتنمها ، إلى جانب سهولة الوصول إلى بيت المقدس ، واستعادة كنيسة القيامة وقبر السيد المسيح ابن مريم من أيدى المسلمين ، وهذه الحملة وصلت فعلاً إلى آسيا الصغرى وتوغلت فيها ، حتى لاقتها جيوش سلاجقة الروم وأبادتها سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م .

الحملة الأولى .

ونبدأ بالكلام – باختصار – عن الحملة الصليبية الأولى فنقول : إن الاستجابة الرسمية من ملوك الغرب الأوروبى وأمرائه فاقت كل ماكان البابا أوربان الثانى يتوقع ، فقد أثارت الدعوة حماساً شديداً فى فرنسا وإيطاليا ، ونهض عدد من أشراف نواحى فرنسا بفرسانهم لقيادة الحركة ، لهذا كانت الحملة الصليبية الأولى فى جملتها حملة فرنجية على بلاد المسلمين ، ولذا فإن المؤرخين المسلمين يسمون كل المشاركين من الأوربيين فى الحملات الصليبية كلها بالفرنجة .

ويطلق على الصليبيين عموماً اسم الفرنجة عندنا ، وهو يقابل مصطلح Les Francs الذى تستعمله النصوص الغربية ، لأن الفرنسيين كانوا من أكثر الناس حماسة للحملات الصليبية ، والبك بياناً بأهم قادة الحرب الصليبية الأولى ، وهم الذين سيدخلون بيت المقدس ، وينشئون مملكة بيت المقدس ، والإمارات الصليبية الثلاث التى سنذكرها . ولولا نجاح هذه الحملة الأولى لما استمرت الحركة الصليبية ، ولتوقفت مسيرتها بعدها :

ريمون الرابع كونت تولوز Raymond IV Conte de Toloune وكان أكبر فرسان الصليبيين وأعتاهم ، وكان أول الأمر شبه قائد عام لجيوش الحملة الصليبية الأولى لأن لقبه كان : ادفو كاتور Advocator أى المدافع والحامى عن بيت المقدس .

وقد رافقه الأسقف أدهماردى مونتيل أسقف لى بويه .

وكذلك أخوه بولدوين البولونى دوق اللورين السفلى .

وذهبت من شمال فرنسا جماعة أخرى يقودها روبرت الثانى كورتوز دوق نورماندى Robert II Eurthose de de Normandie .

وروبرت الثانى كونت فلاندر Robert II Conte des Flandres .

واستيفان هنرى كونت بلوا Stephane Henri Conte de Blois .

وهيو كونت فيرمندو Hugue conte de Vermandois .

ومن إيطاليا الكونت بوهيموند بن روبرت جيسكارد دوق أبوليا Bohemond fils de Apulia .

وقد وصلت الحملة الأولى إلى القسطنطينية ، واخترقت بلاد سلاجقة الروم وهزمتهم عند دوروبليوم Doryloum فى يوليو ١٠٩٧ م ووصلت إلى أنطاكية وحاصرتها .

وقبل الوصول إليها انفصل عن كتلة الحملة الصليبية بولدوين أخو جودفروا عند مرعش ، واتجه شرقاً فى الجزيرة الفراتية واستولى على الرُّها ، وأنشأ فيها أول إمارة صليبية فى بلاد المسلمين فى مارس ١٠٩٨ م وكانت منطقة تسكنها غالبية من الأرمن المسيحيين ، وذلك هو الذى سهل له الاستيلاء على البلد وإنشاء الإمارة .

خريطة ١٢٩

الإمارات الصليبية والقلاع المسيحية والإسلامية قبل تحرير المسلمين لها

سقوط القـــدس .

وسارت كتلة الجيش الصليبى حتى أنطاكية وحاصرتها فى أكتوبر ١٠٩٧ م واستمر الحصار إلى يونيو ١٠٩٨ م وسقطت أنطاكية فى أيدى الصليبيين فى ٣ يونيو ١٠٩٨ م وعندما حاول الأمير كربوغا أتابك الموصل إغاثة أنطاكية انهزم أمام الصليبيين فى ٢٨ يونيو ١٠٩٨ م ، وتقدم الصليبيون نحو الجنوب دون أن يجدوا مقاومة تذكر ، نحو بيت المقدس ، واقتحموا أسوارها فى ١٥ يوليو ١٠٩٩ م وأنزلوا بأهلها مذبحة قتل فيها سبعون ألفاً من سكانها ، وبعد ذلك بقليل توفى جودفروا صاحب بولونيا ، فاستُدعى أخوه بولدوين صاحب الرُّها وتُوج ملكاً على بيت المقدس ، وبذلك قامت مملكة بيت المقدس ، وبعد ذلك أنشئت إمارتان صليبيتان أخريان ، الأولى فى أنطاكية والثانية فى طرابلس فيما بين سنتى ١١٠٢ و ١١٠٩ م ، وبذلك أصبح فى بلاد الشام والجزيرة الفراتية مملكة صليبية وثلاث إمارات صليبية أيضاً .

وبعد ذلك وصلت إلى بلاد الشام الحملة الصليبية الثانية بقيادة لويس السابع ملك فرنسا وكوراد الثالث ملك ألمانيا ، وتجمعت الجيوش عند بيت المقدس ، ثم ساروا للاستيلاء على دمشق ، ولكنهم فشلوا فى ذلك ، وبذلك تنتهى الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية .

خريطة ١٣٠

الحروب الصليبية (٢)

حركة النهوض والتجمع الإسلامية والحرب الصليبية الثالثة

أثار سقوط القدس واحتلال الصليبيين لسواحل الشام وإنشاء الإمارات الصليبية مخاوف المسلمين جميعاً ، وإذا كان الملوك والأمراء قد تقاعسوا فى الدخول فى حرب مع المحتلين والمعتدين فإن جماهير المسلمين أخذت تتحرك مطالبة أولياء الأمور بالقيام لحرب المعتدين وتخليص القدس الشريف ثالث الحرمين ، وهو من مقدسات المسلمين ، وتجمهر الناس فى بغداد ، وهاجموا قصر الخليفة العباسى يطالبونه بإعلان الجهاد ، وتحريض الأمراء على التجمع لحرب الفرنجة المعتدين ، وخطب الخطباء فى المساجد منادين بالجهاد إلى أن تحرك الأمراء . هذا إلى أن الصليبيين لم يكتفوا باحتلال ماذكرناه من الأراضى الإسلامية وحكم من فيها من المسلمين والاعتداء على المقدسات الإسلامية وجباية الأموال من المسلمين ، بل زادوا على ذلك بالتعرض لتجار المسلمين وقوافلهم ونهبها ، مما أثار عواطف المسلمين وحفزهم على التجمع تحت راية الجهاد ، وأخيراً تحرك أمراء المسلمين ، وكان أول من تحركوا هو مودود أتابك الموصل ، وهو تركى ، فجمع جنوده واقتحم أراضى إمارة الرُّها فى بلاد الجزيرة ، وخرب الكثير من بلاد الأرمن الساكنين هناك ، وأسر عدداً من جنود الصليبيين ، فكان هذا فاتحة لحركة النهوض الإسلامية والتجمع لحرب الفرنجة .

التحرك المضاد ضد الصليبيين .

وكان أول من تشجع على مهاجمة أراضى الصليبيين ومواجهة قواتهم فى ميدان القتال هو نجم الدين إيلغازى صاحب ماردين – من بلاد الجزيرة – ودخل الأراضى التى كانت تسيطر عليها إمارة الرها ، والتقى بقوة صليبية عند بلدة قسطون جنوبى حلب سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩ م وانتصر عليها ، وكان هذا أشبه ببداية لحركة الجهاد الإسلامى التى أخذت تشتد قوة من ذلك الحين ، فقد كان لانتصار نجم الدين إيلغازى على الصليبيين صدى بعيد فى بلاد الإسلام وإن كان الانتصار فى ذاته صغيراً ، ولكنه دل على أن مواجهة

الفرنجة والانتصار عليهم أمر ممكن . بعبارة أخرى انكسرت الأسطورة الفرنجية ، وتطلع المسلمون لكسب المزيد من النصر ، وعقب ذلك تشجع عماد الدين زنكي أمير الموصل فاستولى على حلب ووحد إمارتي الموصل وحلب ، ودعا للجهاد فحف المجاهدون المسلمون من كل مكان إليه ، حتى تجمعت تحت لوائه قوات إسلامية كبيرة من المجاهدين ، مابين فرسان ومشاة ، وكانت إمارته واسعة تشمل الجزيرة الفراتية - عدا ماحوته إمارة الرها من أراضى - حلب وحمص وحماة وبعلبك ومعرة النعمان وديار بكر ، فسار على رأس جيش قوى واستولى على إمارة الرها وماتبعها من بلاد سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م وكان هذا نصراً عظيماً ارتجت له جوانب العالم الإسلامى ، وتطلعت نفوس المسلمين للمزيد من النصر . وفى نفس الوقت أثار ذلك الحادث مخاوف المسيحيين فى بلاد الغرب ، فبدأت الدعوة هناك إلى حملة صليبية جديدة ، وشيئاً فشيئاً تجمعت القوات التى تكونت منها الحملة الصليبية الثانية .

نور الدين وصلاح الدين .

فى أثناء ذلك استطاع نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي أمير الموصل أن يضم إمارة حلب إلى بلاده بعد أن كانت قد انفرطت بعد موت أبيه ، ومضى هذا الرجل يعمل أكثر من عشر سنوات مناضلاً الصليبيين فى كل ناحية من نواحى الشام ، حتى تمكن فى سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م من ضم إمارة دمشق إلى بلاده ، وكانت تلك الإمارة وصاحبها معين الدين أنور معادية لجبهة الجهاد ومحالفة فى أحيان كثيرة للفرنجة المعتدين ، وكانت تقف عقبة أمام توحيد الجبهة الإسلامية ، وبضم دمشق أصبحت جبهة الجهاد عريضة واسعة تشمل بلاد العراق والجزيرة الفراتية بما فى ذلك الموصل وبلاد الشام ، واستمر نور الدين فى جهاده يستكمل توحيد بلاد المسلمين ، وقد بينا على الخريطة حدود الجبهة الإسلامية حتى وفاة عماد الدين زنكي ، وحدودها عند وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م ، وأكبر ماعمله نور الدين بعد ضم دمشق إلى جبهة الجهاد هو اجتهاده فى القضاء على دولة الفاطميين التى كانت حليفة أو مهادنة للصليبيين ، وقد تمكن نور الدين من الانتصار على الصليبيين ومن كان يؤيدهم من الفاطميين ورجالهم ، والفوز بمصر بمعاونة قائده أسد الدين شيركوه ، وابن أخيه صلاح الدين بن نجم الدين أيوب الذى تمكن من أن يفرض نفسه وزيراً للخليفة الفاطمى الشيعى العاضد ، وبعد وفاة نور الدين محمود اختلف خلفاؤه وأمراؤه على الوصاية على ابنه إسماعيل للفوز بالولاية من بعده ، ولكن صلاح الدين الأيوبى تمكن من التغلب على كل المنافسين ، واستطاع أن يعلن نفسه سلطاناً على بلاد المسلمين الموحدة التى وقفت متأهبة لإكمال العمل العظيم ، وهو الاستيلاء على القدس ، واستعادتها من أيدى الفرنجة ، أى القضاء على مملكة بيت المقدس الصليبية ، وبقية الإمارات الصليبية فى الشام .

وواصل صلاح الدين الجهاد وتجمعت حوله القوات الإسلامية من كل ناحية ، وكذلك انضمت إلى قواته ألوف بعد ألوف من المتطوعة ، وهم المسلمون المجاهدون فى سبيل الله دون أجر ودون أن يكونوا جنداً سلطانياً ، وفى ربيع الآخر ٥٨٣ هـ / يونيو ١١٨٧ م كسب صلاح الدين نصر حطين على القوات الصليبية التى تجمعت لحربه ، وبعد ذلك النصر الكبير دخلت قوات الإسلام بيت المقدس فى رجب ٥٨٣ هـ / سبتمبر ١١٨٧ م . وقد بينا على الخريطة السابقة مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية .

الإمارات الصليبية ومملكة بيت المقدس قبل معركة حطين واستعادة القدس على يد صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٨٧ م .

وقد بينا فى الخريطة معظم مواقع بلاد الشام المهمة التى يرد ذكرها فى تاريخ الحروب الصليبية ، كما بينا حدود مملكة بيت المقدس ، وإمارات أنطاكية وطرابلس والرها قبل أن يبدأ المسلمون فى القضاء عليها .

لم يكن ماقام به صلاح الدين من جهود لكسب نصر حطين بالشىء اليسير ، فإن قوات الصليبيين كانت قبل حطين فى مركز عسكرى ممتاز ، فهى تملك مملكة بيت المقدس التى تصل شمالاً إلى جنوبى دمشق وجنوباً إلى قلعة الكرك ، وتصل إلى البحر الأحمر وتحتل ميناء العقبة ، وتصل كذلك أراضيها إلى البحر المتوسط جنوبى غزة عند الداروم ، وتصل فى الشمال حتى شمالى بيروت ، وكل هذه الأراضى كانت محمية بالقلاع الحصينة التى يسكن فيها الألوف من الفرسان المسلحين بأحسن سلاح ، وإلى شمال أراضى مملكة بيت المقدس وإمارة طرابلس الصليبية على ساحل البحر كانت تمتد أراضى إمارة أنطاكية التى كانت تصل شمالاً إلى جبل أمانوس على حدود مملكة الأرمن فى آسيا الصغرى وجنوباً إلى اللاذقية على البحر ، وتليها إلى الجنوب إمارة طرابلس التى كانت تصل إلى جبالة ، ويلى إمارة أنطاكية شمالاً فى مداخل آسيا الصغرى وجزء كبير من سواحلها الجنوبية الشرقية مملكة إرمينية الصغرى التى توسعت أراضيها بمساعدة الصليبيين حتى أصبحت مملكة كبيرة ذات قوة يحسب لها كل حساب ، أما بقية آسيا الصغرى فقد كانت بيد الإمبراطورية البيزنطية التى انتعشت بفضل الصليبيين ، وإن كانت على علاقات سيئة معهم لأنها كانت تخشاهم على أراضيها ، إلى جانب ذلك كانت إمارة أنطاكية تضع يدها على جزيرة قبرص .

الحملة الصليبية الثالثة .

ومن هنا يتبين أن ماكان الصليبيون يملكونه من أراضى الشام قبل حطين يفوق من الناحيتين الاقتصادية والاستراتيجية ماكان المسلمون يملكونه من أراضى الشام ، ومن المعروف أن أراضى المنطقة الساحلية من بلاد الشام أغنى بكثير من الأراضى الداخلية ، وبخاصة فى الجنوب ، أى فى أرض فلسطين فيما بين البحر الميت والبحر المتوسط ، فهناك كانت توجد أخصب بلاد الشام التى استولت عليها مملكة بيت المقدس ، لذلك لاندهش من أن سقوط مملكة بيت المقدس ، واستعادة المسلمين لبيت المقدس - بما له من الأهمية الكبرى الدينية والمعنوية عند المسلمين خاصة - كان لهما وقع شديد جداً فى بلاد الغرب المسيحى ، فلم تكد الأخبار تصل إلى الغرب حتى أسرع البابا سلستين جريجورى الثالث الذى خلف البابا كليمنت الثالث يدعو إلى إرسال حملة صليبية قوية إلى بلاد الشام لاستعادة بيت المقدس ، واستجاب للدعوة نفر من ملوك أوروبا فى مقدمتهم ريتشارد الأول ملك إنجلترا الملقب بقلب الأسد لشجاعته ، فترك مملكته لأخيه يوحنا وجمع جيشاً قوياً واتجه إلى الشرق ، وكذلك فعل فيليب الثانى أغسطس ملك فرنسا ، وفردريك الأول بربروسا إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة الألمانية ، ومعنى ذلك أن أوروبا كلها تجمعت فى هذه الحملة الصليبية الثالثة وسارت لحرب المسلمين واستعادة بيت المقدس .

وكان من أول من سار من أولئك الملوك بجيشه فردريك بربروسا الذى بدأ رحلته على رأس جيش قوى فى مايو ١١٨٩ م واخترق أوروبا ووصل إلى آسيا الصغرى ودخل القسطنطينية حيث استقبله الإمبراطور البيزنطى ، ومن هناك اتجه بطريق البر عبر آسيا الصغرى قاصداً بلاد الشام ، وفى طريقه انتصر على بقايا السلاجقة عند قونية سنة ١١٩٠ م ولكنه غرق فى نهر يسمى بنهر سالف ، الذى يسمى كاليكادنوس Calycadnus ، حالياً جوك صو Goksu ، قرب سلوقية فى ولاية قيليقيا بآسيا الصغرى فى ١٠ يونيو ١١٩٠ م ، وعقب ذلك تفرق معظم جيشه وعاد إلى ألمانيا ، ولم يكمل الرحلة إلى بلاد الشام إلا عدد قليل من الألمان ، على رأسهم ابنه فردريك أمير سوابيا الذى اشترك فى الاستيلاء على عكا سنة ١١٩١ م وتوفى بعد ذلك .

سقوط عكا وصلح الرملة .

أما ريتشارد قلب الأسد فقد كان يملك إلى جانب انجلترا مقاطعات كثيرة فى نورمانديا بشمال فرنسا ، وأملاكه هذه كانت سبباً فى نزاعات طويلة بينه وبين فيليب أغسطس ملك فرنسا الذى اشترك فى هذه الحملة بجيش كبير ، ولم يكن بين ريتشارد والملك الفرنسى ثقة كبيرة ، ولهذا فقد سار كل منهما فى طريق مع أنهما بارحا القسطنطينية بطريق البحر فى شهر واحد هو يوليو ١١٩٠ م ، ومر ريتشارد قلب الأسد فى طريقه بجزيرة قبرص ومنها أبحر إلى عكا واشترك فى الاستيلاء عليها مع الملك الفرنسى ، وكان صلاح الدين قد استعادها بعد حطين ، وكانت عودة عكا إلى سلطان الصليبيين فى عام ١١٩١ م ، وبدأ الملكان الصليبيان فى حصارها مع ملك بيت المقدس Guy Rayde Jerusalem الذى كان قد انتقل إلى إمارة طرابلس بعد سقوط بيت المقدس ونقل إليها مقر تلك المملكة ، مع أن هذا الرجل كان قد عاهد صلاح الدين على ألا يعتدى على بلاد المسلمين ، ولكنه ماكاد يسمع بتجدد نشاط الغرب لحرب المسلمين فى الشام حتى نقض عهده وتقدم يحاصر عكا فى أغسطس ١١٨٩ م . وسقطت عكا فى أيدى جيوش الصليبيين المتحدة فى ١٢ يوليو ١١٩١ م بعد دفاع مستميت من جانب أهلها الذين أقسموا على الحرب حتى الموت ، وبالفعل لم تسقط البلدة حتى هلك معظم رجالها ، ويعتبر سقوط عكا على هذه الصورة من أكبر أحداث الحروب الصليبية ، وعقب استيلاء الصليبيين على عكا استولوا على ماجاورها من موانى المسلمين ومدنهم مثل : حيفا وقيصرية وأرسوف والخضيرة وغيرها ، ثم دخلوا فى مفاوضات مع صلاح الدين انتهت بعقد صلح الرملة الذى نص على أن يترك للصليبيين شريط من الساحل يمتد من صور إلى يافا مع السماح لهم بالحج إلى بيت المقدس . وبهذا الصلح عادت مملكة بيت المقدس - التى انتقلت إلى إمارة طرابلس - إلى القوة بعد أن كانت قد انتهت ، وتمكن ملوكها من استعادة الساحل حتى بيروت ، وهذا الجزء الذى أضافته الحملة الصليبية الثالثة على الساحل من البترون حتى حيفا إلى الجنوب هو الذى

عرف فيما بعد بمملكة بيروت ، وبعد أن استولى المسلمون على طرابلس وأنهوا مملكة بيت المقدس فى عصرها الثانى كان عليهم أن يستولوا على مملكة بيروت كما سنرى .

وهنا وبعد عقد صلح الرملة اعتبر فيليب أغسطس أن مهمته قد انتهت ، وأنه بر بقسمه « أن يفتح الطريق إلى بيت المقدس » وأقلع إلى بلاده من ميناء عكا فى ٨ يونيو ١١٩٢ م .

أما ريتشارد فقد بقى فى بلاد الشام وأتم الاستيلاء على المواني الواقعة جنوب عكا حتى عسقلان ، ثم عقد صداقة مع صلاح الدين الذى اعتبره من أعاظم ملوك المسلمين ، وأتم حجه إلى بيت المقدس ووضع يده على قبرص ، وأعطاها إقطاعا للفارس جى دى لوزنيان Guy de Lusignen ثم عاد إلى بلاده فى أكتوبر ١١٩٢ م .

وبذلك تكون معظم المكاسب التى حققها صلاح الدين فيما عدا استعادته لبيت المقدس قد ضاعت بسبب تنافس الأمراء الأيوبيين واختلاف كلمتهم .

خريطة ١٣١

الحروب الصليبية (٣)

الحملات الصليبية من الرابعة إلى الثامنة

الحملة الصليبية الرابعة .

لم يكف البابوات عن تحريض الغربيين على القيام بحملة صليبية جديدة تستعيد بيت المقدس وتعيد إنشاء مملكة مسيحية فيه ، وأخيراً تمكن تيبو الثالث Thibaut III كونت شامبانيا ونفر آخر من نبلاء الغرب المسيحى أكبرهم بونيفاس دى مونتسرات Boniface de Montarat وبلدوين صاحب فلاندر Boudoin de Flandres من تكوين حملة صليبية جديدة باركها البابا إنوسنت الثالث ١١٩٨ – ١٢١٦ م واشترك فى تجهيزها دوج[1] البندقية إنريكو داندولو Henrico Dandolo ، وعندما تجمعت الجيوش الصليبية فى البندقية وجد قادة الحملة أنهم لايملكون المال الكافى للإبحار ، وبعد مجادلات طويلة تم الاتفاق بينهم على أن تتوجه هذه الحملة أولاً نحو مدينة زارا لانتزاعها من ملك المجر على ساحل دلماشيا ، ورغم اعتراض البابا فقد توجهت الحملة إلى زارا واستولت عليها سنة ١٢٠٢ م ، واحتج الإمبراطور أنجيلوس الثالث ، ووقع النزاع بينه وبين الصليبيين ، وانتهى الأمر باقتحامهم نحو القسطنطينية والاستيلاء عليها فى ١٢ أبريل ١٢٠٤ م وإقامة دولة لاتينية فيها ، وبذلك تكون الحملة قد خرجت عن هدفها تماماً ولم تصبح حملة صليبية ، ولهذا فإن مؤرخى الحروب الصليبية من أهل الغرب لايعدون هذه الحملة صليبية ، أما نحن – العرب والمسلمين – فنعدها حملة صليبية ، ونسميها الحملة الصليبية الرابعة .

وعقب احتلال الصليبيين الذين يسمون باللاتين للقسطنطينية أقاموا فارساً من فرسانهم إمبراطوراً على القسطنطينية ، وأنشأ أمير بيزنطى – طامع فى العرش – إمارة بيزنطية شمال شبه جزيرة البلقان ، تسمى بلاد الأبيروس .

أما الإمبراطور البيزنطى فقد اتجه إلى قلب آسيا الصغرى وأقام لنفسه إمبراطورية بيزنطية عرفت باسم دولة نيقية ، وكذلك أقام بعض أمراء أسرة كومنين دولة بيزنطية حول مدينة طرابزون على البحر الأسود .

الحملة الصليبية الخامسة .

يعتبر المؤرخون الأوروبيون هذه الحملة الرابعة لا الخامسة ، وقد دعا إلى هذه الحملة البابا إنوسنت الثالث ، وتم تنفيذها فى عهد خليفته هونوريوس الثالث ، ونجح فى جمع عدد من الفرسان تكون منهم جيش أقيم على رأسه الفارس جان دى برين Jean de Brienne الذى كان مرشحاً من البابوية ليكون ملكاً على بيت المقدس إذا استعادها الصليبيون ، وقد رأى هذا الرجل أن خير وسيلة للقضاء على قوة المسلمين هى غزو مصر ، لأنها قلب القوة الإسلامية ، ولذلك فقد نزل جان دى برين برجاله فى قبرص ، ومنها اتجهت الحملة إلى مصر ونزلت عند دمياط سنة ١٢١٨ م وكان المفروض إذا استولوا عليها أن يحصلوا من المصريين على التنازل لهم عن بيت المقدس لإقامة مملكتهم فيها فى مقابل الجلاء عن دمياط . وقد طال حصار دمياط وعانى الصليبيون فيه شقاء ومتاعب جمة لمدة سبعة عشر شهراً ، وفى نفس الوقت اشتدت مخاوف السلطان الأيوبى الكامل فوافق على التنازل عن بيت المقدس بحدودها القديمة غربى نهر الأردن فى مقابل جلاء الصليبيين عن دمياط ، لكن الكاردينال بيلاجوس دى ألبانو Pelagus de Albano الرئيس المعين للحملة من قبل البابا رفض ذلك ، لأنه كان يأمل فى الوصول إلى القاهرة واحتلالها ، وقد استولت الحملة على دمياط فى نوفمبر ١٢١٩ م ، وبدأ الاستعداد للسير نحو القاهرة ، وضاع فى ذلك وقت طويل زاد على واحد وعشرين شهراً ، وعندما وصل الجيش إلى قرب المنصورة فتح المصريون سدود القنوات فاندفعت مياه الفيضانات وغطت الأرض ، ولم يستطع الصليبيون التقدم فعادوا إلى دمياط بعد أن تحملوا خسائر جسيمة ، ومن دمياط عادوا إلى عكا فى أغسطس ١٢٢١ م ، وبهذا انتهت هذه الحملة بكارثة للصليبيين

الحملة الصليبية السادسة .

توقف نشاط الحملات الصليبية بعض الوقت حتى حركها الإمبراطور فردريك الثانى Frederick II إمبراطور الدولة الجرمانية المقدسة فى سنة ١٢١٥ م بأن لبس شارة الصليب وأعلن أنه خارج فى حملة صليبية ، وكان الخلاف بينه وبين البابا هونوريوس الثالث شديداً ، لأن البابا عندما توجه إمبراطوراً سنة ١٢٢٠ م حصل منه على وعد بالقيام بحملة صليبية ، ولكن فردريك تراخى فى الوفاء بوعده ، وبدلاً من ذلك توجه إلى صقلية وإلى لومبارديا فى إيطاليا لتأكيد سلطانه وسلطان أسرته – وهى أسرة الهوهنشتاوفن – على إيطاليا ، ولم يطمئن البابا لذلك لأن البابوية فى ذلك العصر كانت ترى أن إيطاليا وصقلية داخلتان فى الأملاك البابوية ، ولهذا فقد اجتهد البابا هونوريوس وخليفته البابا جريجورى التاسع فى إخراجه من إيطاليا وتوجيهه نحو الأراضى المقدسة وبلاد المسلمين . وأخيراً عندما تزوج الإمبراطور فردريك من يولندا بزوجته التى تسمى إيزابيلا ابنة جان دى برين قائد الحملة الصليبية الخامسة – الذى كان مرشحاً لأن يكون إمبراطوراً على بيت المقدس – زعم فردريك أنه نتيجة هذا الزواج يصبح مرشحاً لأن يكون إمبراطوراً على بيت المقدس ، ولهذا قرر الخروج فى حملة صليبية لكى يستعيد مملكته . وفى سبتمبر ١٢٢٧ م أبحر نحو سواحل الشام ، ولكنه لم يلبث أن عاد مسرعاً بحجة أنه لم يحتمل دوار البحر ، فى حين أن أسطوله بما فيه من جنود وصل إلى سواحل الشام . وقد أغضب البابا هذا التصرف فأصدر قراراً بحرمان فردريك وطرده من الكنيسة ، ورغم ذلك فقد رحل فردريك إلى سواحل الشام فى صيف ١٢٢٨ م للقيام بحملة ثانية رغم أنه كان طريد الكنيسة ، ووصل إلى عكا واستعد للسير إلى بيت المقدس ، وبدلاً من الدخول فى صراع مع المسلمين دخل فى مفاوضات مع الملك الكامل سلطان مصر والشام ، وكان الكامل فى ذلك الحين فى نزاع شديد مع ابن أخيه الناصر صاحب دمشق ، وفى هذه الظروف سارع الملك الكامل بعقد معاهدة مع الإمبراطور فردريك تنازل فيها عن بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وصيدا واللود ، ولكن البابوية رفضت قبول هذه الشروط ، وقالت : إن الفرسان الصليبيين يذهبون إلى بلاد الشام لحرب المسلمين لا للتفاوض معهم ، وأعلن البابا عن عزمه على إرسال حملة صليبية ضد أملاك فردريك فى إيطاليا ، وعندما سمع فردريك بذلك أسرع بالحج إلى بيت المقدس لكى يزعم أنه دخلها وأصبح ملكها ، وعاد مسرعاً إلى أوروبا ، وهذه الحوادث أضرت بسمعة الحروب الصليبية فى الغرب ، ودلت على أنها فى حقيقتها لم تعد صليبية ولادينية ، وكانت البابوية تؤكد أن فردريك الثانى زنديق ملحد ، وقد اشتهر فى أوروبا كلها بلقب الزنديق الأعظم ، بسبب التفاهم الذى كان بينه وبين المسلمين سواء فى صقلية أو فى بلاد الشرق .

وبعد ذلك بقليل تمكن الأيوبيون من تجنيد جيش من الأتراك الخوارزميين واستعادوا بيت المقدس وكل ماكان السلطان الكامل قد تنازل عنه للصليبيين .

الحملة الصليبية السابعة .

كان المحرك الأكبر لهذه الحملة الصليبية هو ملك فرنسا لويس التاسع الذى يلقب بلويس التقى ، فقد تحمس وجمع جيشاً صليبياً ، وأعلن فى ديسمبر ١٢٤٤ م أنه خارج فى حملة صليبية وحمل شارة الصليب .

وقد أعد حملته بعناية كبيرة وزودها بخيرة الفرسان الفرنسيين والخيول والسلاح ، ورحل إلى الشام فى ١٢٤٨ م وقد اختار لويس التاسع أن يذهب بحملته إلى دمياط ليقضى على القوة العسكرية المصرية ، وهناك من يقول : إنه كان ينوى الاستيلاء على دمياط فيستبدلها ببيت المقدس ، وبالفعل تمكن من الاستيلاء على دمياط بعد قتال شديد فى يونيو ١٢٤٩ م وقد بذل السلطان الصالح أيوب جهداً كبيراً فى الاستعداد لمواجهة الصليبيين ، ولكنه فى نفس الوقت كان مستعداً لمبادلة دمياط ببيت المقدس ، وتقدم الملك الصليبى نحو المنصورة حاذراً الاقتراب من ضفة فرع دمياط حتى لايجرى له ماجرى لجان دى برين قائد الحملة الصليبية الخامسة ، ولكن جماهير المصريين هرعت لمهاجمة الجيش الصليبى ، والقيام بما يشبه

---

(١) هذه هى صورة لقب الدوق فى جمهورية البندقية ويراد به رئيس مجلس العشرة الذى يحكمها

حرب العصابات ، حتى أنهكت القوات الصليبية ، وعندما اقترب الجيش الصليبي من المنصورة وعند بلدة شارمساح لقيته القوات الأيوبية ، وفي تلك الأثناء مات الملك الصالح أيوب ، واستدعت زوجته السيدة شجرة الدر ابنه توران شاه من العراق فأقبل ، وقبل أن يصل إلى جبهة القتال كان المصريون وفرسان الأيوبيين قد هزموا الجيش الصليبي وحاصروه وأرغموا الملك لويس التاسع على الاستسلام وأخذوه أسيراً ، حيث سجن في دار ابن لقمان بالمنصورة ، واضطر لويس التاسع إلى افتداء نفسه بفدية كبيرة ، ورحل عن دمياط بما تبقى له من جيشه في مايو ١٢٥٠ م بعد أن تعهد وأقسم على ألا يعود لحرب المسلمين.

نهاية الحملة السابعة .

ورحل لويس التاسع إلى فلسطين حيث نزل عكا وبقى فيها أربع سنوات يحاول أن يجمع جيشاً صليبياً جديداً يستعيد به القدس ، ودخل في مفاوضات مع السلطان عز الدين أيبك المملوكي ، وكان الخلاف شديداً بينه وبين الملك الناصر الأيوبي صاحب حلب ودمشق ، وحاول الملك لويس التقي الذي حنث بقسمه الاتصال بالحشاشين الشيعيين أعداء الخلافة العباسية ، وكذلك مع مونكوخان المغولي ، ولكنه لم يفلح في شيء من ذلك رغم أن النساطرة من المسيحيين في بلاد الشام والعراق بذلوا أقصى مااستطاعوا لمعاونته ، وأخيراً اتجه لويس التاسع نحو فرنسا يرجو أن تبعث له قوة صليبية ، ولكن جهوده لم تفلح ، لأن البابا إينوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤ م) كان مشغولاً بإعداد حملة عسكرية ضد الملك كوبراد الرابع ملك الدولة الرومانية المقدسة وهو ابن فردريك الثاني ، وأخيراً عاد لويس التاسع إلى فرنسا سنة ١٢٥٤ م وتلك كانت آخر حملة صليبية كبيرة اتجهت إلى مصر والشرق ، ولما كان العصر في أوروبا عصر تدين شديد فقد انصرف الناس عن فكرة الحروب الصليبية ، وشاع بينهم أن الله لايرضى عن هذه الحروب ولايؤيدها .

وبعد ذلك بقليل تغيرت الأحوال في بلاد المسلمين لأن دولة المماليك الأولى « البحرية » قامت في مصر والشام سنة ١٢٥٠ م وأنشأت قوة عسكرية عظيمة ظلت تحمي مصر والشام حتى قيام الدولة العثمانية ، وهذه القوة المملوكية هي التي استعادت ماكان بيد الصليبيين من بلاد الشام ، وتمكنت من تصفية الوجود الصليبي في الشام ، هذا بالإضافة إلى ماقام به المماليك من جهود ذكرناها في إنقاذ بلاد مصر والشام والمشرق العربي من إغارات المغول .

الحملة الصليبية الثامنة .

رغم ماصر به لويس التاسع من هزائم وخيبة أمل في محاولاته للتغلب على المسلمين ظل يأمل في قيام حرب صليبية جديدة ضدهم ، وفي هذه المرة شعر أنه لايستطيع مواجهة المماليك فوجه حملته نحو بلاد تونس ، حاسباً أنه يستولى عليها دون مشقة ، وبالفعل أعد حملة صليبية جديدة اتجهت نحو تونس سنة ١٢٧٠ م وأيده في ذلك أخوه شارل أنجو Charles Anjou ملك صقلية ، ولكن الجيش الصليبي عندما وصل إلى تونس وجد أنه يواجه هناك قوات تخشى بأسها من الأعراب المقاتلين ، بالإضافة إلى قوة جيش السلطان المستنصر سلطان الحفصيين ، وبعد قليل من وصوله أصابته الحمى ومات ، وعاد جيشه ورفاقه إلى فرنسا .

وكان وصول لويس التاسع إلى قرطاجنة إلى جوار تونس في آخر ذي القعدة سنة ٦٦٨ هـ / ٢١ يوليو ١٢٧٠ م وكانت وفاة لويس التاسع في ١٠ محرم ٦٦٩ هـ / ٣٠ أغسطس ١٢٧٠ م .

خريطة ١٣٢
تصفية الوجود الصليبي في الشام
بعد صلح الرملة

انتهت بالفعل الموجات الكبيرة للحروب الصليبية بوفاة لويس التاسع وقيام دولة المماليك القوية في مصر والشام ، ثم قامت بعد ذلك الدولة العثمانية واستولت بقواتها الكبيرة على بلاد مصر والشام وقضت على الدولة البيزنطية ، بل قامت بمحاربة البلاد المسيحية نفسها في شرق أوروبا ووسطها ، وغربها ، ومدت سلطانها حتى فيينا في قلب أوروبا ، وفي مثل هذه الظروف انقمعت آمال المسيحيين في الغرب في العدوان على بلاد الشرق الإسلامي ، ولكن البابوات لم ينصرفوا قط عن فكرة العدوان المسلح على بلاد المسلمين ، فمازالوا يحرضون أهل الغرب على القيام بغارات على بلاد المسلمين تحت شعار الصليب ، ففي سنة ١٣٦٥ ميلادية وقعت غارة شديدة على الإسكندرية خربت البلد تخريباً بالغاً نجد تفاصيله في كتب الحوليات المصرية .

احتضار الوجود الصليبي .

وعندما عظم خطر الدولة العثمانية واشتد تهديدها للدولة البيزنطية نجح البابوات في تكوين حملة صليبية اتجهت إلى بلاد العثمانيين ، ولكنها لقيت هزيمة شديدة عند نيقوبوليس في آسيا الصغرى سنة ١٣٩٦ م ولكن القوة الصليبية تراجعت بعد ذلك التقدم في بلاد العثمانيين حيث انهزمت مرة أخرى عند فارنا على سواحل البحر الأسود سنة ١٤٤٤ م . ونشط فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يحتلون جزيرة رودس ، وأقاموا فيها دولة فرنجية ثم مدوا سلطانهم على قبرص سنة ١٤٨٩ م وأيدهم بعد ذلك البندقيون وشدوا أزرهم وظلوا يقومون بغارات على سواحل بلاد المسلمين ، وظلت الفكرة الصليبية في أذهان المسيحيين وظهرت فيما قام به ملوك النصرانية من أعمال العدوان على شواطيء بلاد المسلمين كما نرى ذلك فيما قام به الأمير هنري الملاح البرتغالي من العدوان على بلاد المغرب ، وكذلك حملة ألفونس دي البوكرك على بحار العرب ، وفي المجمع الديني الذي عقد في أوجزبورج سنة ١٥٣٠ م .

وقد انضم اللوثريون البروتستانت إلى البابوية في فكرة حرب الأتراك العثمانيين ، ولكننا نستطيع القول بأن فكرة الحروب الصليبية نفسها انتهت بموت لويس التاسع .

وبعد قيام دولة المماليك اتجهت جهود سلاطينهم نحو القضاء على بقايا الإمارات الصليبية على سواحل الشام ، وكان لويس التاسع أثناء مقامه في بلاد الشام قد استولى على بعض الحصون الداخلية فيها ، أهمها صافيتا وقلعة صلاح الدين التي تسمى حصن الأكراد ، كما أنشأ الصليبيون قلعة صليبية كبيرة تهدد المسلمين تسمى مونتفورت Montfort .

وعندما ثبت السلطان الظاهر بيبرس ملكه في مصر والشام « ١٧ من ذي القعدة ٦٥٨ - المحرم ٦٧٦ هـ / أكتوبر ١٢٦٠ - يونيو ١٢٧٧ م » اجتهد في إنشاء قوة بحرية كبيرة جعل مراكزها في دمياط والإسكندرية ، وعندما اتجه السلطان بيبرس إلى بلاد الشام سنة ١٢٦٣ م أخذ يستعد للاستيلاء على مايمكن الاستيلاء عليه من حصون ومراكز الصليبيين الباقية في بلاد الشام .

وتمكن من الاستيلاء على قيصرية ثم أرسوف في جنوبها في سنتي ١٢٦٥ و ١٢٦٦ م ، ثم استولى على صفد وكانت مركز أعمال العدوان التي كان يقوم بها فرسان الداوية على بلاد المسلمين .

وأخافت أعمال بيبرس هذه الصليبيين حتى سارعت الملكة إيزابيلا ملكة بيروت إلى عقد هدنة مع بيبرس سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م مدتها عشر سنوات .

وفي سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م استولى السلطان بيبرس على مدينة يافا ، وفي نفس السنة استولى على أنطاكية وكل البلاد الداخلة في إمارتها .

وفي سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م هاجم بيبرس طرابلس ، فبدأ بالاستيلاء على بعض حصونها مثل حصن الأكراد Krak des Chavalies وحصن عكا .

وعندما تولى السلطان المنصور قلاوون « ٦٧٨ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م » استعاد مدينة اللاذقية سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م . وكانت آخر المعاقل التابعة لإمارة أنطاكية . وبعد ذلك بقليل « سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م » استولى المنصور قلاوون على طرابلس ، وهي قاعدة ثالثة الإمارات الصليبية في الشام .

وبعد موت المنصور قلاوون تولى عرش السلطنة المملوكية ابنه الأشرف خليل « ٦٨٩ - ٦٩٣ هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٤ م » ووجه همه إلى القضاء على آخر قواعد الصليبيين في الشام ، وهي عكا التي كانت الميناء الرئيسي للصليبيين في الشام ، وقد سقطت في يده في ٦٩٠ هـ / ١٨ مايو ١٢٩١ م ، وبسقوط عكا تمت تصفية بقية القواعد الصليبية القريبة منها مثل صور وصيدا وحيفا وبيروت وطرسوس ، وهذه المجموعة من المدن هي التي سميت قبل ذلك بمملكة بيروت .

تصفية الوجود الصليبي في جزائر شرق البحر المتوسط
قبرص ورودس .

ظلت جزيرة قبرص قاعدة صليبية تهدد أمن المسلمين ، وقد سبق أن ذكرنا أن الملك ريتشارد قلب الأسد استولى على هذه الجزيرة التي كان البيزنطيون يزعمون أنها من أملاكهم ، وأقطعها لجي دي لوزينان Guy de Lusignan فأنشأ فيها مملكة صليبية كرست كل جهودها لحرب المسلمين ومعاونة الصليبيين ، وكان الكثيرون من مقاتل الصليبيين

يلجئون إليها بعد سقوط قواعدهم في الشام . ومن هؤلاء فرسان الداوية وهم المسمون في النصوص الغربية باسم The Templars أى فرسان المعبد ، وكانوا من ألد أعداء المسلمين . وشيئاً فشيئاً تحولت هذه الجزيرة إلى قاعدة صليبية خطرة ، واشتهر من ملوكها الثلاث بالجرأة على المسلمين والغارة على شواطئهم وقطع البحر على سفنهم ، وخاصة في أيام أخطر هؤلاء المسمى بطرس الأول لوزينيان « ١٣٥٠ - ١٣٦٩ م » وهذا الرجل هو الذى نظم وقاد الحملة الحربية التي نزلت مدينة الإسكندرية وأنزلت بها وبأهلها تدميراً وخراباً بعيدى المدى في أكتوبر ١٣٦٥ م وقد اقتحمت هذه الحملة الإسكندرية وخربت الكثير من أسواقها ، وقتلت الألوف من أهلها بينا هرب ألوف آخرون ، وقد ألف فيها كاتب مصرى هو محمد بن قاسم النويرى المالكى السكندرى كتاباً سماه « الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية »[1] .

إغارة القبارصة على الإسكندرية .

ويستوقف النظر في مجال إهمال المسلمين لسواحلهم - بصفة عامة - أن ملك قبرص نفسه ظل في الإسكندرية أسبوعاً كاملاً ، أما رجاله فمكثوا فيها نحو الأيام العشرة يدمرون ويقتلون ويحرقون وينهبون قبل أن تصل النجدة المملوكية إلى الإسكندرية . وقد كان لهذه الغارة صدى بعيد في عالم الإسلام حتى بلغت الأندلس فتحرك أهل مملكة غرناطة وهاجموا مدينة جيان Jaen التي كانت قد وقعت في أيدى الإسبان .

ورداً على هذه الغارة قام الأمير يلبغا الخاصكي والى الإسكندرية بإعداد أسطول ضخم وجيش قوى من البحارة والمقاتلة والنفاطين ، وقد زاد عدد السفن على مائتين ، ولكن هذا الرجل مات مقتولاً على أيدى مماليكه قبل أن ينفذ حملته سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م ولكنها نبهت سلاطين المماليك إلى الخطر الصليبي ، وضرورة تحصين الموانىء الإسلامية والمزيد من العناية بالأساطيل ، وقد بدأ ذلك بالفعل من أيام الأشرف شعبان . فشرع في تحصين كل موانىء مصر والشام وتقويتها بالجنود والسفن ، وجمع السلطان الأشرف شعبان في فك أسر المسلمين الذين أسرهم القبرصيون في تلك الغارة ، في مقابل وعد من السلطان المملوكي بعقد معاهدة صلح مع قبرص ، ولكن السلطان سوّف في عقد تلك المعاهدة لأنه كان قد قرر الانتقام من ملك قبرص . وأراد بطرس دى لوزينيان أن يخيف السلطان المملوكي فقاد غارة على ميناء طرابلس في أول ٧٦٩ هـ / سبتمبر ١٣٦٧ م ، ولكنه وجد الميناء محصنا والمسلمين متأهبين له ، فارتد دون نجاح ، بل حاول مجاهد مسلم قتله فرمى نفسه عليه وأخذ يضربه بالسيف فلم يصب منه مقتلاً ولكنه أصابه بجراح كثيرة قبل أن يقتله حرس الملك ، وحاول بطرس بعد ذلك الإغارة على اللاذقية ، ولكن المسلمين أسروا إحدى سفنه وقتلوا كل من فيها وغرقت الاثنتان الباقيتان ، ثم أرسل حملة على بانياس باغتت البلد ودخلته وأشعلت فيه النار ، لكن المسلمين تمكنوا من اللحاق بالقوة المهاجمة وقتل معظم رجالها

إغارة المماليك على قبرص والاستيلاء عليها .

وقد رد الأشرف شعبان على ذلك بحملة أرسلها إلى قبرص يقودها قائد بحر يسمى إبراهيم الغازى في رجب ٧٦٩ هـ / فبراير ١٣٦٨ م ، فأغارت على ساحل الجزيرة وقتلت ونهبت وعادت بأسرى من بينهم راهب كهل ، ثم لم يلبث الملك بطرس أن مات قتيلاً على أيدى بعض رجاله سنة ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م ، وفى نفس السنة حاول الأسطول القبرصى الإغارة على الإسكندرية فصدت له سفن الريس إبراهيم الغازى وأغرقت معظم سفنه فولت البقية هاربة .

وكان من الضرورى القضاء على ذلك الوكر الصليبي . فلما تولى الملك الأشرف بارسباى ، وهو آخر العظماء من سلاطين المماليك في دولتهم الثانية وهى البرجية « ٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٢٢ - ١٤٣٧ م » قرر تنفيذ ذلك فاحتفل احتفالاً كبيراً بإعداد السفن بشتى أنواعها وإعداد المقاتلة والبحارة والمجاهدين والخيل والمؤن . وقد تم لبارسباى ما أراد بعد ثلاث حملات : الأولى تمهيدية ٨٢٧ هـ / ١٤٢٤ م أبحرت من دمياط وأغارت على الجزيرة واقتحمت ميناء لماسول « الليسون » وخربته ونهبت وأسرت واستكشفت أوكار القراصنة على ساحل الجزيرة . وكانت الثانية سنة ٨٢٨ هـ / ١٤٢٥ م ، وكانت أكبر من الأولى ، وقد اتجهت إلى طرابلس حيث انضمت لها سفن أخرى صنعت في طرابلس وبيروت ، ومقاتلون آخرون كثيرون . وقد تمكنت الحملة من النزول عند ميناء كورباس Corbass على الساحل الشمالى الشرقى للجزيرة واستولت عليها ، ثم سارت قوات المسلمين على ثلاثين ميلاً من فاماجوستا « الماغوصية » فاستولت عليها ، ورفع حاكمها علم السلطان بارسباى على قلعة البلد ، ثم اتجه الأسطول نحو ناحية الملاحة جنوبى الجزيرة واستولى عليها وقضى على أسطول قبرص قرب ساحلها . ثم واصل الأسطول سيره ووقف قبالة مدينة لارناكا Larnaka جنوبى الجزيرة واستولى عليها ، ثم أخذ المجاهدون لماسول « الليسون » ورفعوا العلم السلطانى عليها . ثم اتجه المسلمون نحو العاصمة نيقوسيا ، ولكن قائد الحملة وهو الأمير سيف الدين جرباش الظاهرى علم أن جانوس لوزينيان ملك الجزيرة استنجد بالبندقية ، وأنها أرسلت قوة بحرية كبيرة لمعاونة القبرصيين فقرر العودة إلى مصر ، وعاد الأسطول محملاً بالغنائم والأســـــرى .

وكانت الحملة الثالثة والأخيرة التى استولت على قبرص سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م ، وقد هيأ لها الأشرف شعبان كل وسائل النصر ، وقد أبحرت سفن الأسطول من الإسكندرية واتجهت منها إلى قبرص رأساً ، وتمكن المسلمون من دخول نيقوسيا التى تسمى في النصوص العربية بالأفقسية ، وحاول الملك جانوس التعرض للمسلمين في موضع يسمى خيروكيتا Kherokita فهزم وأسر . ودخل قائد الحملة الأمير تغرى بردى المحمودى نيقوسيا ، وأعلن أن الجزيرة أصبحت من أراضى السلطان الأشرف سيف الدين بارسباى ، ورفع العلم السلطانى عليها واقتيد الملك جانوس لوزينيان إلى الإسكندرية حيث افتدى نفسه بمائتى ألف دينار ، وهكذا تم القضاء على تلك القاعدة الصليبية .

وقد ظلت قبرص تابعة لسلطنة المماليك حتى استولى العثمانيون على مصر في ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ / ديسمبر ١٥١٧ م ، فانتقلت ملكيتها إليهم ، وظلت تابعة لهم حتى تنازل العثمانيون عنها للإنجليز بمقتضى اتفاق تم في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ م ، وظل الإنجليز يحتلونها حتى أسلموها لليونان بعد الحرب العالمية الأولى . وبذلك بدأت مشكلة قبرص لأن الأتراك القبارصة المسلمين ثاروا على الحكم اليونانى بقيادة الزعيم التركى المجاهد رءوف دنكتاش الذى نجح بمعاونة تركيا في الاستقلال بالجزء الشمالى الإسلامى ، ومازالت المشكلة قائمة .

الاستيلاء علـــى رودس :

كان الصليبيون قد انتزعوا جزيرة رودس من البيزنطيين عقب استيلائهم على عكا بمساعدة آل لوزينيان ملوك قبرص ، فمنحها ملك قبرص لفرسان الاسبتارية Les Haspitaliers . وكان الاسبتارية من ألد أعداء المسلمين ، وقد قاموا بغارات كثيرة على بلاد المسلمين ، ولهذا أعلن السلطان بارسباى عن عزمه على الاستيلاء على رودس بعد حصوله على قبرص ، فشرع فرسان الاسبتارية في تحصين جزيرتهم ، ولكن الأشرف بارسباى لم يعش حتى يحقق حلمه .

وكان بارسباى مجاهداً عظيماً ، وإلى جانب ماذكرناه من أعماله قام بجهد كبير لإبعاد شاه رُخ ملك فارس عن العراق . وقد قام بفتح رودس خليفته السلطان سيف الدين جقمق ٨٤٢ - ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م ولم يتم لجقمق الاستيلاء على رودس إلا بعد ثلاث حملات . الأولى سنة ١٤٤٠ م ، والثانية سنة ١٤٤٣ م ، والثالثة سنة ١٤٤٤ م ، وفى هذه الحملة الثالثة تم فتح رودس وضمها إلى أملاك سلطنة المماليك . وقد قادها اثنان من كبار أمراء المماليك : إينال العلائىْ للقوات البرية ، وتَمُرْبَاى للأسطول والقوات البحرية . وقد خرجت هذه الحملة البحرية الكبيرة من دمياط وانضمت لها سفن أخرى من الشام في قبرص . ولم تستطع هذه الحملة الاستيلاء على رودس بسبب شراسة فرسان الاسبتارية في الدفاع عن جزيرتهم ، وعلى الرغم من معاونة البندقية للمماليك في محاولتهم الاستيلاء على رودس فإن الأوضاع البحرية كانت قد تغيرت بسبب دخول الإسبان والبرتغاليين والأتراك العثمانيين ميدان الصراع في البحر المتوسط . وأخيراً تمكن تاجر فرنسى كبير كانت له مصالح تجارية ضخمة مع مصر من عقد صلح بين أهل رودس وسلطنة المماليك . وهذا التاجر يسمى جاك كور Jacques Coeur ثم إن الأتراك العثمانيين غزوا مصر سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م ، ودخلت مصر بكل أملاكها في الدولة العثمانية ، وانتقلت مسئولية فتح رودس إلى الأتراك العثمانيين ، وقد حاول السلطان محمد الثانى الاستيلاء على الجزيرة سنة ١٤٨٠ م فلم يوفق ، ولكن سليمان القانونى تمكن من ذلك سنة ١٥٢٢ م ، بعد أن تكبد خسائر فادحة . وقد ظلت الجزيرة تابعة لتركيا حتى غزاها الإيطاليون سنة ١٩١٢ م أثناء الحرب التى شنوها على الدولة العثمانية ابتزازاً لضمها ، وفى نفس الوقت استولى الإيطاليون على جزر الدوديكانيز المجاورة ' Dodecaneses ' وكانت تابعة لتركيا أيضاً ، وفى معاهدة الصلح التى أعقبت الحرب العالمية الثانية أعطيت رودس وجزر الدوديكانيز لليونان سنة ١٩٤٧ م وظلت تحكم حكماً عسكرياً حتى سنة ١٩٥٥ م ، ثم أصبحت مقاطعة يونانية عادية عاصمتها مدينة رودس .

---

(١) يوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة في لندن وصورت منها صورة توجد في مكتبة جامعة الإسكندرية وألف فيها الشاعر الفرنسي جيوم دى ماشو Guillaume de Macho قصيدة أشبه بالملحمة في تسعة آلاف بيت .

المراجع

ابن الأثير: عز الدين علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) .

الكامل في التاريخ (طبعة المطبعة المنيرية بالقاهرة بدون تاريخ جـ ٦ ، ٧) .

ابن إياس: أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) .

بدائع الزهور . بتحقيق محمد مصطفى . القاهرة ١٩٤٦ م ومابعدها .

ابن بطوطة: محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧١هـ ١٣٦٩ م) .

رحلة ابن بطوطة . بتحقيق Defremery et Sanguinetti باريس ١٩٢٢ م .

ابن جبير الأندلسي: محمد بن أحمد . (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) .

(رحلة ابن جبير) بتحقيق د. حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٧ م .

ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) .

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . حيدر آباد ١٣٥٠ هـ / ٤ أجزاء .

ابن دقماق: إبراهيم بن محمد بن أيْدَمُرْ العلائي (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) .

الانتصار لواسطة عقد الأمصار . بولاق ١٨٩٣ م .

ابن شداد: بهاء الدين بن يوسف (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) .

كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية . بتحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة ١٩٦٤ م .

ابن شداد: محمد (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) .

الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، بتحقيق سامي الدهان جزءان . دمشق ١٩٥٦ م .

ابن شاهين الظاهري: غرس الدين خليل (ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م) .

زُبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . بتحقيق بول رافيس Paul Ravaisse باريس ١٨٩٥ م .

ابن الفرات المصري: ناصر الدين محمد عبد الرحيم (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) .

تاريخ ابن الفرات . تسعة أجزاء تضم أخبار السنوات حتى سنة ٨٩٩ هـ / ١٤٩٣ م .

تحقيق قسطنطين زريق الأجزاء : ٧ – ٨ ، ٩ .

أخبار سنوات ٦٧٢ – ٧٩٩ بيروت ١٩٣٩ م – الجزء السادس .

أخبار سنوات ٦٢٥ إلى ٦٥٩ . مخطوط بمكتبة الفاتيكان .

ابن فضل الله العمري: شهاب الدين أحمد (ت ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م)

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار . الجزء الأول بتحقيق أحمد زكي باشا . دار الكتب بالقاهرة ١٩٠١ م = (ممالك عُبّاد الصليب) .

ابن كثير: عماد الدين إسماعيل (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٠ م) .

ابن واصل: جمال الدين علي بن محمد (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م)

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . تحقيق د. جمال الدين الشيال منه ثلاثة أجزاء . القاهرة – ١٩٦٢ – ١٩٦٥ م .

ابن منقذ: أسامة « ت ١١٨٨ م » .

كتاب الاعتبار . حققه فيليب حِتّى ونشره سنة ١٩٣٨ م . وقد اعتمدنا على طبعة مسروقة من هذه . بيروت . بدون تاريخ .

أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل « ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م » .

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية . القاهرة ١٢٨٧ هـ .

الباز العرينى: د. السيد .

– الحروب الصليبية ، وهو ترجمة كاملة لكتاب ستيفن رونسيمان عن الحروب الصليبية . بيروت ١٩٧٠ م .

– مصر فى عصر الأيوبيين . القاهرة ١٩٦٠ م .

– المغول . بيروت سنة ١٩٦١ .

القلقشندى: أبو العباس أحمد « ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م » .

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا . نشر دار الكتب المصرية – ٢٤ جزءاً القاهرة ١٩١٣ – ١٩١٩ م .

المقريزى: تقى الدين أحمد « ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م » .

النويرى « محمد بن القاسم السكندرى المالكى « عاش فى القرن الثامن الهجرى » .

الإلمام بالإعلام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الإسكندرية ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية . جزءان . القاهرة ١٩٦٣ م .

العصر المماليكى فى مصر والشام . القاهرة ١٩٦٥ م

قبرص والحروب الصليبية . جزءان . القاهرة ١٩٧٦ م .

د. حسنين ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية . القاهرة ١٩٨٣ م

أحمد مختار العبادى: قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام . بيروت ١٩٦٩ م .

د. السيد عبد العزيز سالم: بالاشتراك مع د. أحمد مختار العبادى .

تاريخ البحرية الإسلامية ، جزءان . بيروت ١٩٧١ م

د. حسين مؤنس: نور الدين محمود ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٣ م .

المسلمون فى حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية . المجلة التاريخية المصرية جـ٤ عدد (١) مايو ١٩٥١ م .

جوزيف نسيم .

لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، القاهرة ١٩٧٢ م .

Aziz Surial Atiya , The Crusade in the Later Middle AGES . London 1938 .

Grousset ,Histoire des Crusades et du Rouaume Franc de Jerusalem - 3 Volumes . Paris 1936 .

Runciman , Stephen , A History of the Crusades 3 Vols . Cambridge 1950 .

ترجمه إلى العربية ونشره فى بيروت

د. السيد الباز العرينى .

Stevenson , Crusaders in the East Cambridge 1919 .

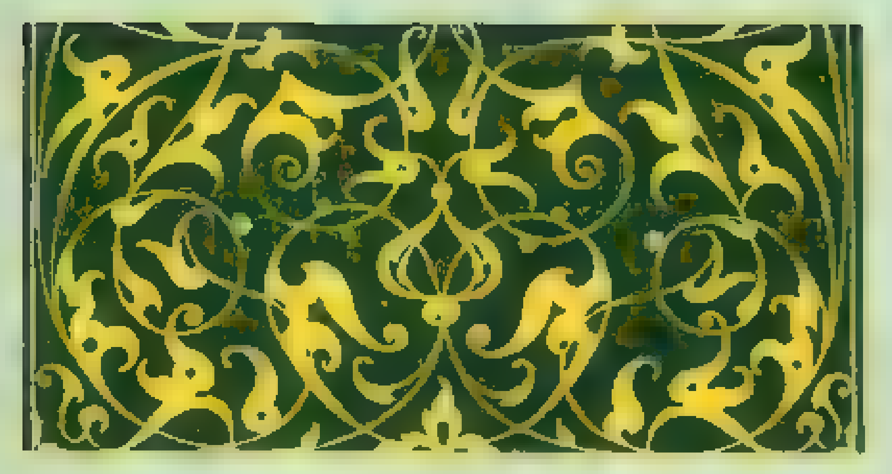

الفصل الثالث عشر

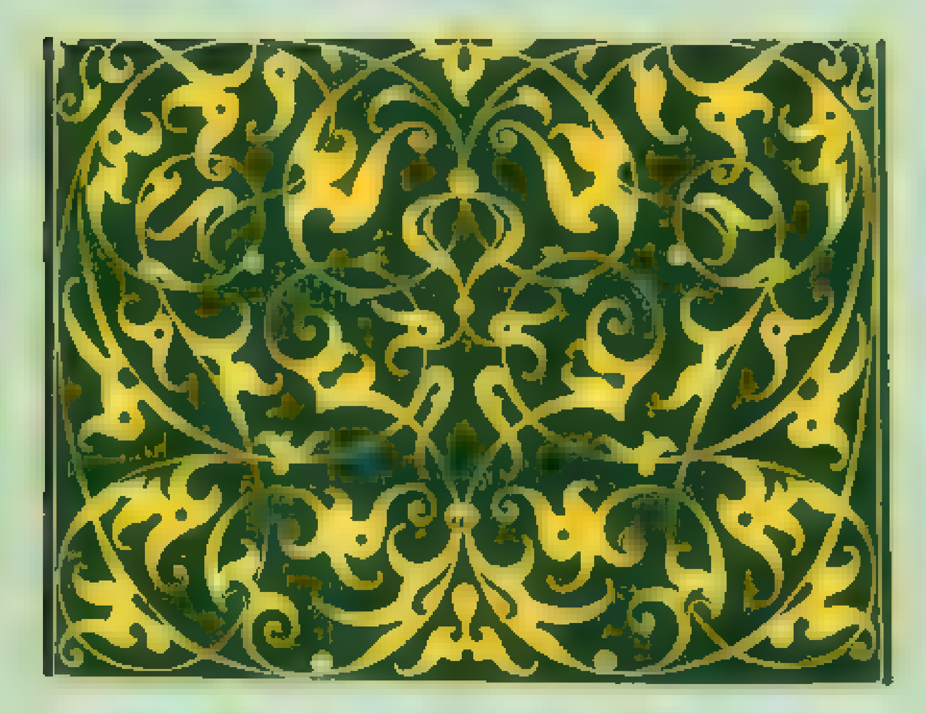

المسلمون في البحر المتوسط

بيان الخرائط

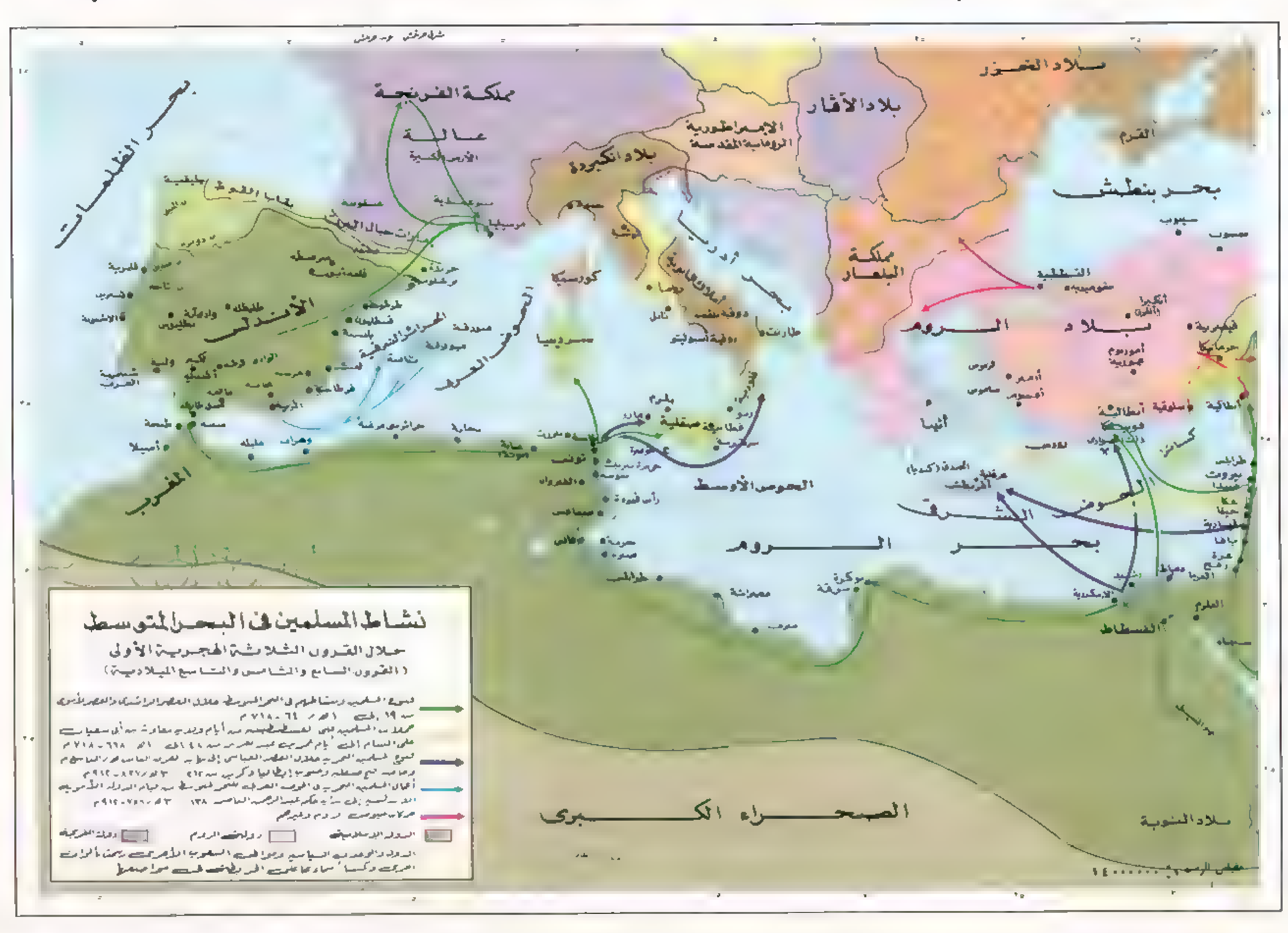

نشاط المسلمين في البحر المتوسط
خلال القرون الثلاثة الهجرية الأولى
(القرون السابع والثامن والتاسع الميلادية)
مملكة الفرنجة
بلاد الخزر
بلاد الأفار
الإمبراطورية الرومانية المقدسة
بلاد لنكبردة
مملكة البلغار
بحر بنطش
القرم
بلاد الروم
بحر الظلمات
الأندلس
المغرب
كورسيكا
سردينيا
صقلية
بحر أدرياس
الحوض الأوسط
بحر الروم
بحر الشرق
الصحراء الكبرى
بلاد النوبة
الإسكندرية
الفسطاط
القسطنطينية
أثينا

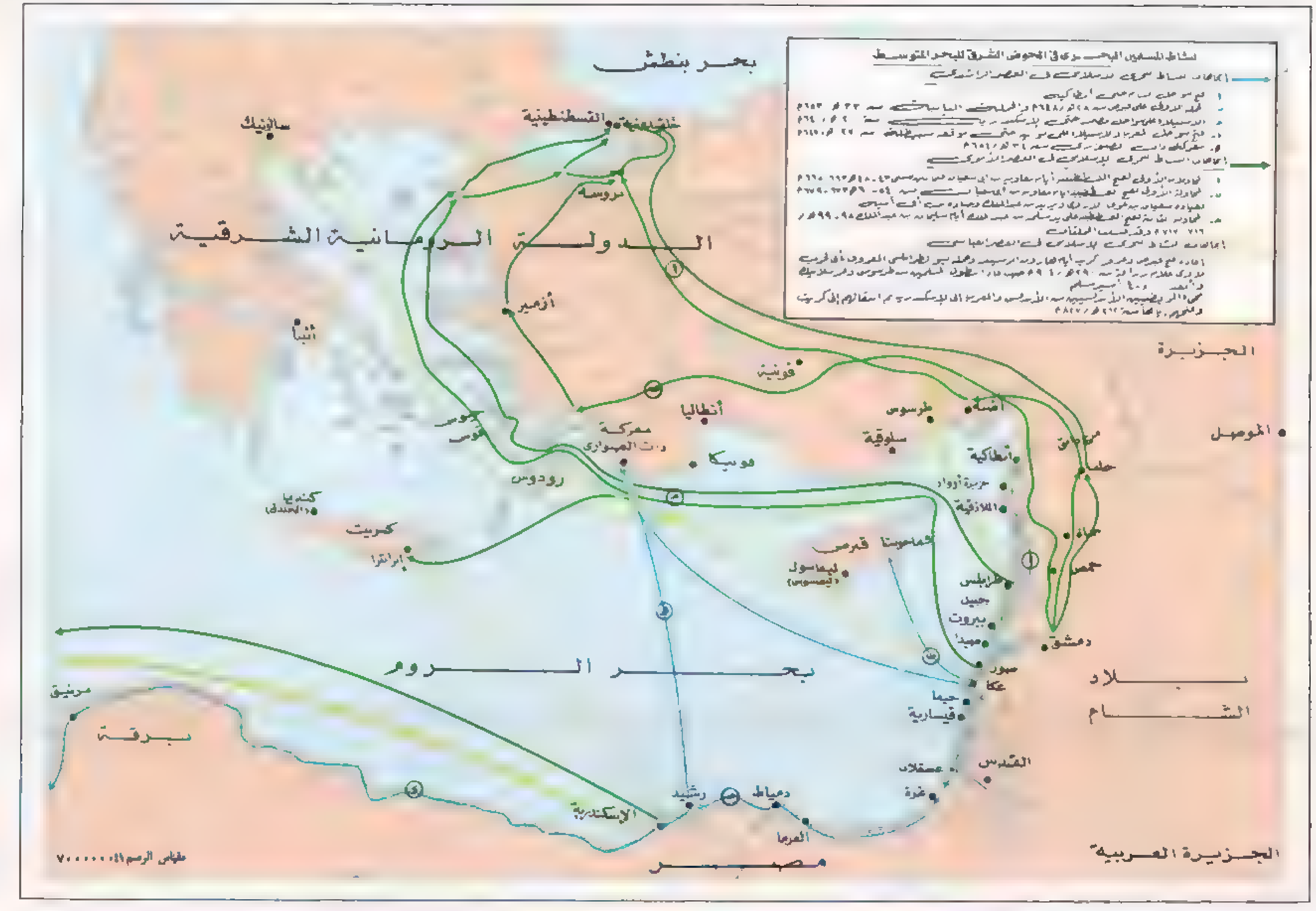
نشاط المسلمين البحري في الحوض الشرقي للبحر المتوسط
بحر بنطش
القسطنطينية
خلقدونية
سالونيك
بروسة
الدولة الرومانية الشرقية
أزمير
أثينا
قونية
أنطاليا
معركة ذات الصواري
رودوس
كنديا (الخندق)
كريت
فوسيكا
طرسوس
سلوقية
أضنة
أنطاكية
جزيرة أرواد
اللاذقية
الجزيرة
الموصل
حلب
حماة
حمص
ماغوستا
قبرص
ليماسول (ليمسوس)
طرابلس
جبيل
بيروت
صيدا
صور
عكا
دمشق
حيفا
قيسارية
بلاد الشام
بحر الروم
عسقلان
القدس
غزة
دمياط
رشيد
الإسكندرية
الفرما
مصر
برقة
مرنيق
الجزيرة العربية
مقياس الرسم ١: ٧٠٠٠٠٠٠

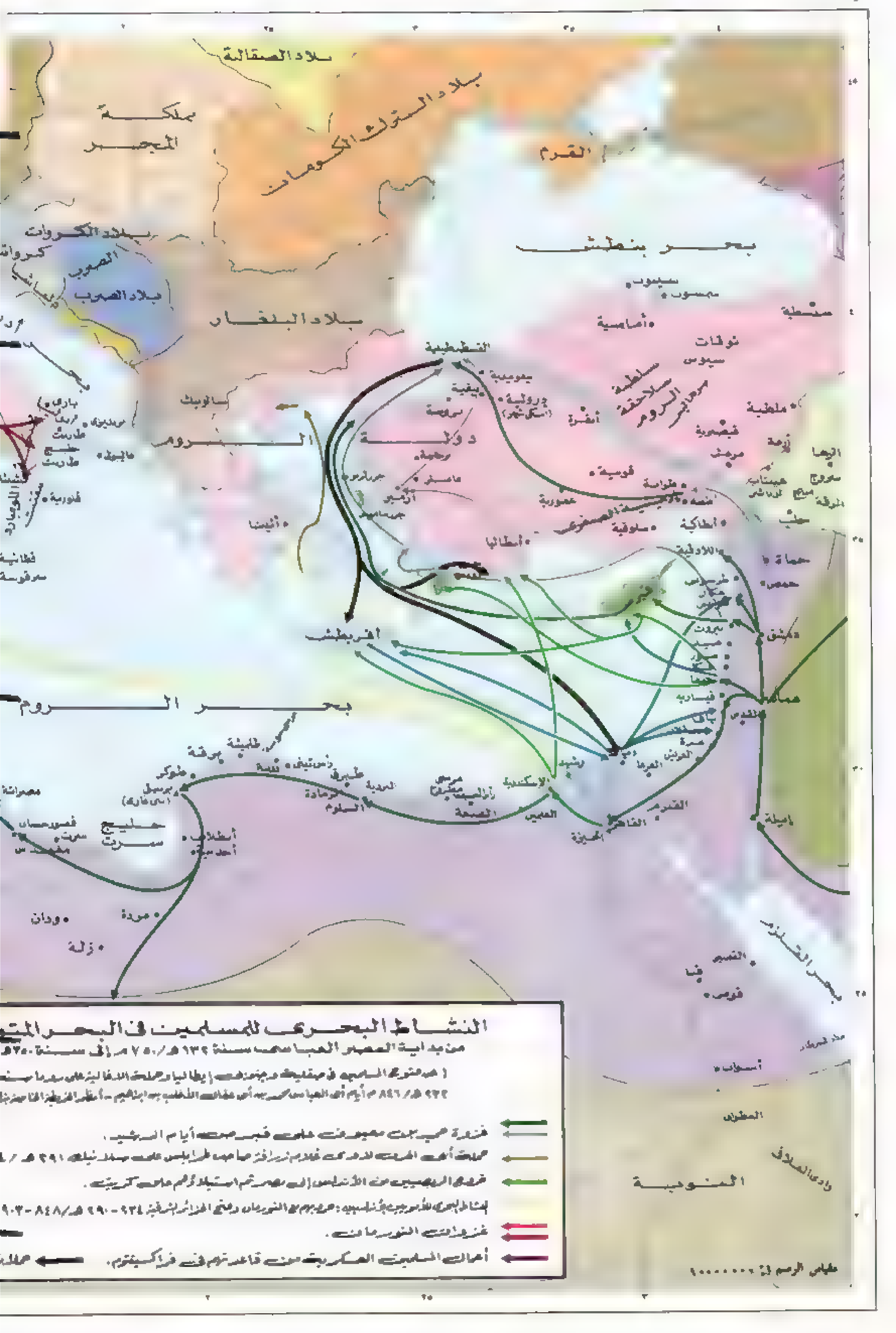
بلاد الصقالبة
مملكة المجر
بلاد السوك التركمان
القرم
بلاد الكروات
بلاد الصرب
بلاد البلغار
بحر بنطش
سينوب
أماسية
قسطنطينة
توقات
سيواس
القسطنطينية
ملطية
الروم
أنقرة
عمورية
أنطاكية
قونية
حلب
أنطاليا
اللاذقية
حماة
حمص
دمشق
طرسوس
إقريطش
بحر الروم
صقلية
عسقلان
القدس
برقة
طلميثة
الإسكندرية
رشيد
الفرما
العريش
القلزم
القاهرة
الجيزة
أيلة
خليج سرت
أجدابية
زويلة
ودان
زلة
أسوان
النوبة
وادي العلاقي
بحر القلزم
النشاط البحري للمسلمين في البحر المتوسط
من بداية العصر العباسي سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م
غزوات النورمان
أعمال المسلمين العسكرية من قاعدتهم في فراكسينتوم
مقياس الرسم ١ : ١٠٠٠٠٠٠٠

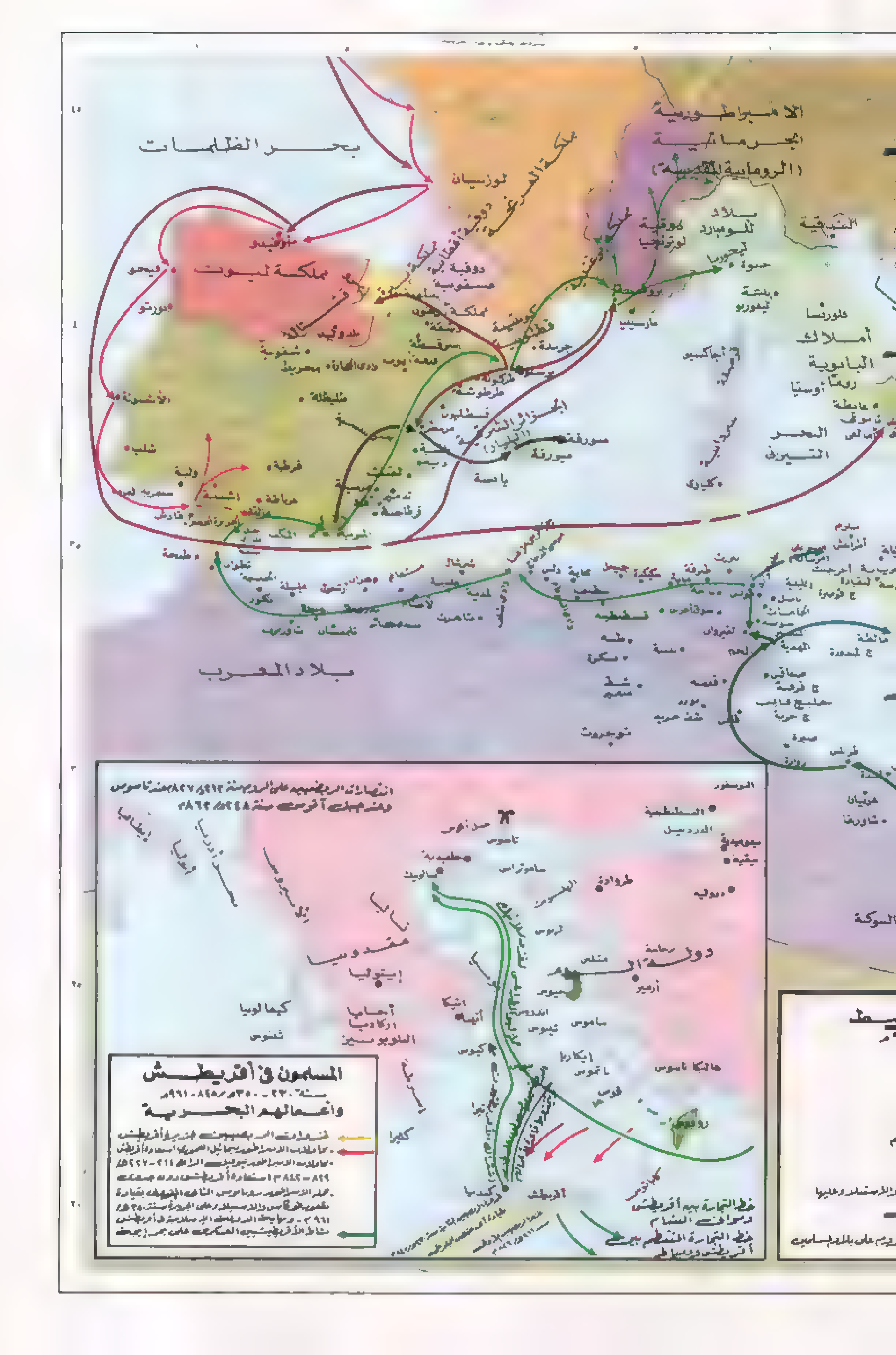
المسلمون في أقريطش
سنة ٢٣٠ - ٣٥٠هـ / ٨٤٥ - ٩٦١م
وأعمالهم البحرية
بحر الظلمات
ملكة ليون
الامبراطورية
الجرمانية
(الرومانية المقدسة)
بلاد اللومبارد
أملاك البابوية
البحر التيري
بلاد المغرب
لوزيان
قرطبة
طليطلة
شلب
أشبيلية
قرطاجنة
مرسية
ميورقة
منورقة
سرقسطة
بلنسية
دانية
المرية
طنجة
مليلة
نكور
تيهرت
تلمسان
القيروان
تونس
سوسة
صفاقس
قابس
قسنطينة
بجاية
تاهرت
بونة
روما
فلورنسا
جنوة
نابولي
أثينا
كريت
رودس
القسطنطينية
إيتوليا
كيفالونيا
أخايا
أركاديا
البلوبونيز
مقدونيا
الشام
ليبيا
خط التجارة بين أقريطش وسواحل الشام
خط التجارة المنتظم بين أقريطش ومصر

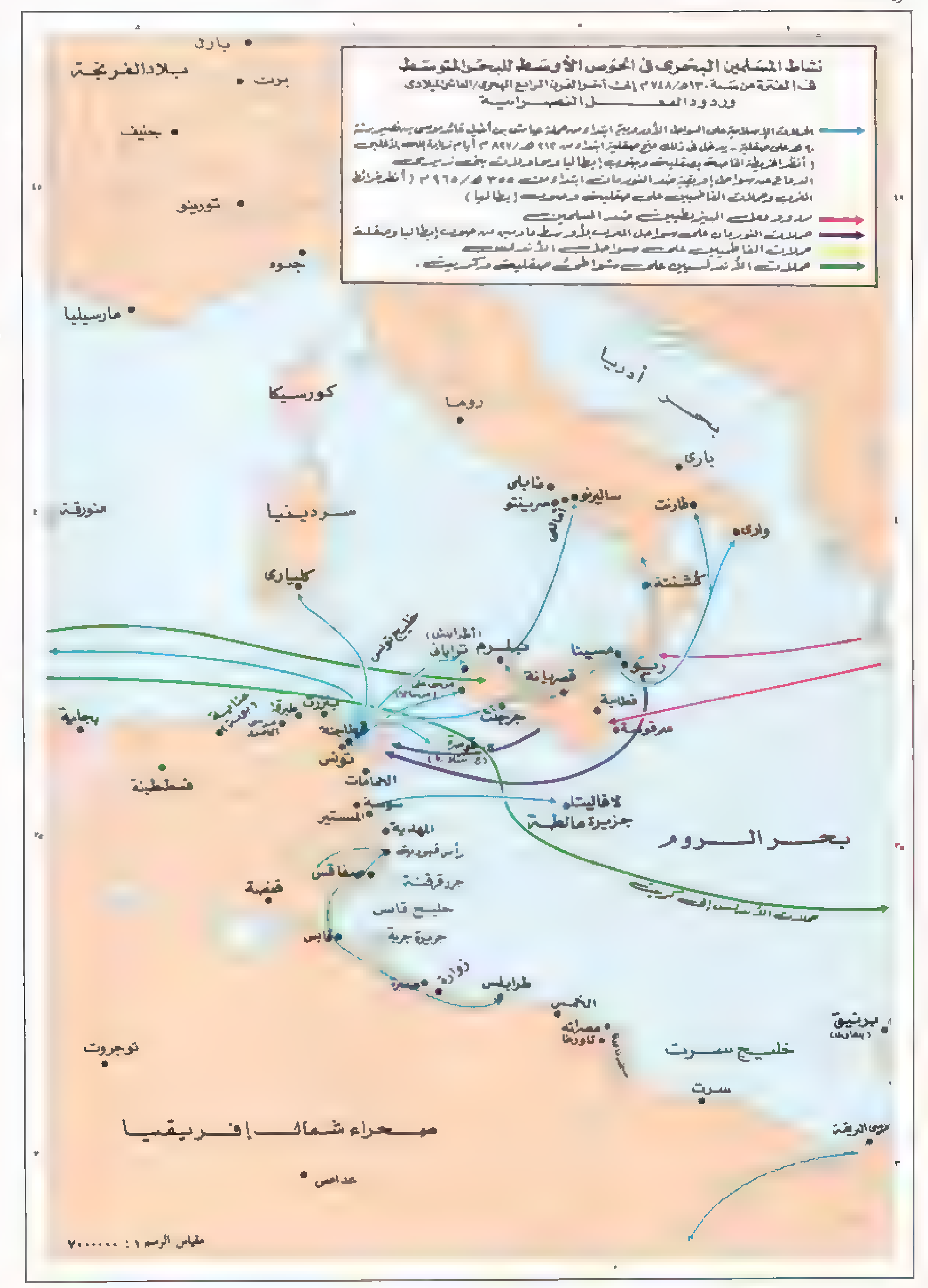

نشاط المسلمين البحري في الحوض الأوسط للبحر المتوسط
في الفترة من سنة ١٣٠هـ/٧٤٨م إلى أخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي
وردود الفعل النصرانية
ردود فعل البيزنطيين ضد المسلمين
حملات الفاطميين على سواحل الأندلس
حملات الأندلسيين على شواطئ صقلية وكريت.
بلاد الفرنجة
باريز
بورت
جنيف
تورينو
جنوه
مارسيليا
كورسيكا
روما
أدريا
باري
نابلي
ساليرنو
سرينتو
طارنت
وارى
قلورية
سردينيا
منورقة
كلياري
خليج تونس
بلرم
ترابانى
(المرامش)
مسينا
ريو
قصريانة
قطانية
سرقوسة
جرجنت
بجاية
قسنطينة
تونس
الحمامات
سوسة
المستير
المهدية
رأس قبوديه
صفاقس
قفصة
جرقنة
خليج قابس
جزيرة جربة
قابس
زوارة
صبرة
طرابلس
الخمس
مصراته
لامبدوسا
جزيرة مالطة
بحر الروم
خليج سرت
سرت
برنيق
توجروت
صحراء شمال إفريقيا
غدامس
مقياس الرسم ١ : ٧٠٠٠٠٠٠

نشاط المسلمين البحري في الحوض الغربي للبحر المتوسط وسواحل الأندلس منذ فتحها إلى عصر الطوائف (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر م)

- اتجاهات حملات النورمانيين (المجوس من بلاد الشمال) على الأندلس والمغرب الأقصى أيام الأمير محمد والأمير عبد الرحمن الأوسط.
- اتجاهات غزوات الجماعات الإسلامية من مركزهم في فراكسينتوم عند مصاب الرون على بلاد فرنسا وسويسرا
- اتجاهات حملات مجاهد العامري على سردينيا وسواحل إيطاليا خارجين من دانية في غرب الأندلس
- حملات أساطيل الجمهوريات التجارية الإيطالية على بلاد المسلمين في غرب البحر المتوسط.

البشناق
بلاد الخزر
الترك الكومان
مملكة المجر
بحر بنطش
الصرب
بلاد البلغار
سينوب
سمسون
طربزون
دولة سلاجقة الروم
القسطنطينية
أرزنجان
أنقرة
بروسة
سالونيك
ملطية
أرمينية الصغرى
دولة الروم البيزنطيين
أزمير
الرها
حلب
أنطاكية
أنطاليا
أثينا
اللاذقية
حماه
حمص
رودس
ج. قبرص
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
دمشق
ج. إقريطش
حيفا
البحر
المتوسط
عسقلان
غزة
دمياط
طبرق
برقة
الجبل الأخضر
برنيق
(بنغازي)
الإسكندرية
السلوم
سرت
خليج سرت
برقة
الفسطاط
القلزم
أيلة
مصر
الجزيرة
العربية
الدولة الأيوبية
الدولة
بحر القلزم
قنا
أسوان
الصحراء
النوبة

نشاط المسلمين في البحر المتوسط
من سنة ٣٥٠هـ إلى ٦٠٠هـ/٩٦١ - ١٢٠٣م
النورمان يستولون على جنوب إيطاليا وصقلية
أعمال مجاهد العامري
بحر الظلمات
الفرنجة
الإمبراطورية الرومانية المقدسة
مملكة برغندية
قشتالة
البرتغال
وليون
الأندلس
دولة المرابطين ثم الموحدين
أرض متنازعة بين الجانبين
بلاد المغرب
دولة بني زيري وبني حماد الصنهاجيين
الفاطمية
ماء الكبرى
مارسيليا
جنوة
بيشة
ليفورنو
كورسيكا
سردانية
روما
جزيرة
برشلونة
طركونة
سرقسطة
قلمرية
طليطلة
بلنسية
دانية
لقنت
مرسية
لورقة
المرية
قرطبة
إشبيلية
قادش
الجزيرة
طنجة
سبتة
الرباط
مليلة
وهران
تلمسان
الجزائر
بجاية
عنابة
طبرقة
بنزرت
تونس
القيروان
المهدية
جربة
طرابلس
بلرم

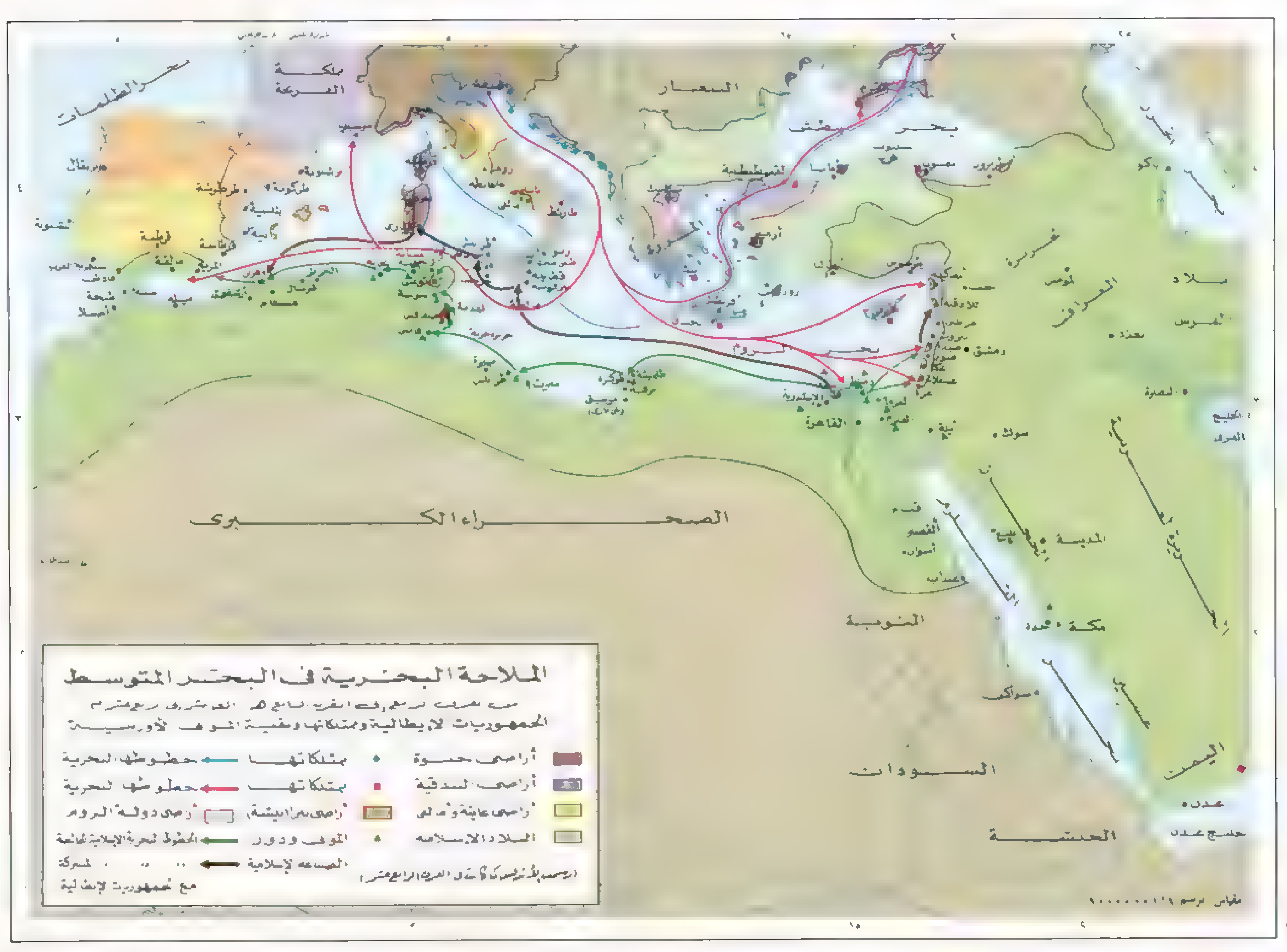
الملاحة البحرية في البحر المتوسط
أراضي جنوة
أراضي البندقية
البلاد الإسلامية
أراضي دولة الروم
بحر الظلمات
مملكة الفرنجة
الصحراء الكبرى
السودان
النوبة
الحبشة
اليمن
عدن
خليج عدن
مكة
المدينة
القاهرة
الإسكندرية
دمشق
بغداد
البصرة
القسطنطينية
فارس
العراق

المسلمون في البحر المتوسط

سنعرض في هذا الفصل نشاط المسلمين في البحر المتوسط وهو ينقسم إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولـــى :

النشاط البحرى خلال العصر الراشدى والعصر الأموى

خريطة ١٣٣

خريطة ١٣٤

نشاط المسلمين البحرى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط

أولاً : فى العصر الراشدى :

يبدأ تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط من العصر الراشدى ، فقد استولى عمرو بن العاص فى بداية فتوح الشام على موانىء غزة وعسقلان وعكا سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م

ثم استولى يزيد بن أبى سفيان والى الشام لعمر بن الخطاب على صيدا وصور وبيروت وجبيل وعرقة سنة ١٧ هـ / ٦٣٨ م .

واستولى عبادة بن الصامت بأمر يزيد بن أبى سفيان على موانىء الشمال شمالى ماسبق مثل اللاذقية وجبالة .

وعندما خلف معاوية بن أبى سفيان أخاه يزيد على الشام بدأ النشاط الكبير للمسلمين فى شرق البحر المتوسط فاستولى معاوية على قيسارية وطرابلس .

واستولى عمرو بن العاص على الإسكندرية سنة ٢٠ هـ / ٦٤٠ - ٦٤١ م . وفى سنة ٢٢ هـ / ٦٤٣ م استولى على برقة

أى أن المسلمين استولوا على شواطىء الشام ومصر وبلاد المغرب حتى طرابلس فى العصر الراشدى

النشاط البحرى للمسلمين حتى نهاية العصر الراشدى :

قام بمعظم هذا النشاط معاوية بن أبى سفيان وعبد الله بن سعد بن أبى السرح .

أما معاوية فقد اهتم بجزر البحر ، فاستولى على أرواد ورودس ، وفى سنة ٢٨ هـ / ٦٤٨ م ، قاد أول حملة إسلامية على قبرص ، ودخل أهلها فى طاعة المسلمين ثم غزاهم معاوية سنة ٣٣ هـ / ٦٥٣ م وأسكنها المسلمين .

وأما عبد الله بن سعد بن أبى السرح فكان أول من قاد حملة بحرية إسلامية ، إذ إنه خرج بأسطوله من رشيد قاصداً ملاقاة أسطول الروم ، وفى نفس الوقت خرج بسر بن أبى أرطاة بأسطوله من صور ، وبلاقى الاثنان فى البحر قرب فينكس « فونيكة » فى جنوب أنطاكية ، وهناك دارت معركة ذات الصوارى سنة ٣٤ هـ / ٦٥٤ م التى قضى فيها على القوة البحرية البيزنطية فى شرق البحر المتوسط لزمن طويل .

أى أن المسلمين خلال العصر الراشدى سادوا سواحل ذلك البحر من طرابلس الشام إلى قرطاجنة وأخذوا جزر أرواد وقبرص ورودس ، وانتزعوا السيادة البحرية على الحوض الشرقى لذلك البحر قبل نهاية العصر الراشدى .

ثانياً : العصر الأموى « تحول البحر المتوسط إلى بحيرة إسلامية » :

ابتداءً من العصر الأموى فى سنة ٤٠ هـ / ٦٦١ م أخذ البحر المتوسط يتحول إلى بحيرة إسلامية عن طريق سلسلة من العمليات العسكرية البحرية وأوجه من النشاط السياسى والتجارى . ففى خلال العصر الأموى أنشأ المسلمون - إلى جانب ماذكرناه من الأعمال - الأساطيل ودور الصناعة لبناء السفن التجارية والحربية بشتى أصنافها وأحجامها ، وخلال العصر الأموى أصبحت تونس والإسكندرية ورشيد ودمياط وصور وعكا وطرابلس واللاذقية قواعد بحرية للأساطيل الإسلامية البحرية والتجارية ، ونضيف إلى ماذكرناه من الموانىء التى استولى عليها المسلمون كل الشاطىء الجنوبى للبحر المتوسط بما فى ذلك سبتة وطنجة ، وكان من نتائج فتح المسلمين للأندلس - فيما بين سنتى ٩٢ و ٩٧ هـ / ٧١١ و ٧١٥ م - أن دخل تحت سلطان المسلمين كل الشاطىء المتوسط لشبه الجزيرة الأيبيرية ، ويضاف إليه شاطىء سبتمانية « الريفيرا الفرنسية ومعظم الريفيرا الإيطالية » هذا بالإضافة إلى سيطرة المسلمين على جزء ضخم من الشواطىء الشرقية للمحيط الأطلسى ، يمتد من مصب نهر المنيو فى إسبانيا شمالاً حتى مصب وادى درعة جنوب المغرب الأقصى

وقد ذكرنا أن معاوية بن أبى سفيان فتح قبرص سنة ٢٨ هـ ، ثم ارتد أهلها وكاتبوا الروم ، فعاد معاوية إلى غزو قبرص سنة ٣٣ هـ / ٦٥٣ م وأسكنها المسلمين وترك فيها حامية إسلامية عسكرية ، وفيما بين سنتى ٥٤ و ٦١ هـ / ٦٧٤ و ٦٨١ م أتم معاوية إخضاع بقية جزيرتى أرواد ورودس ، وبهذا تمت سيادة المسلمين على مياه الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، وذلك بفضل قائد أساطيله جنادة بن أبى أمية الأزدى ، وقد اتخذ أرواد قاعدة لأعماله البحرية وأنشأ فيها دار صناعة بحرية .

ثالثاً : محاولات المسلمين لغزو القسطنطينية :

بعد تمهيد طويل بواسطة حملات برية على آسيا الصغرى وصل بعضها إلى قرب القسطنطينية ، ومحاولات أخرى بحرية من القواعد الإسلامية البحرية على سواحل الشام ومصر - أحس العرب أنهم وصلوا إلى درجة من الخبرة بالطريق إلى القسطنطينية براً وبحراً ، وأنهم يستطيعون غزو القسطنطينية والاستيلاء عليها والقضاء على دولة الروم ، ولو أن المسلمين قضوا على دولة الروم فى العصر الأموى لتغير وجه التاريخ تماماً ، ولكن فشل محاولاتهم الأولى فى العصر الأموى أتاح للدولة البيزنطية حياة امتدت قرابة تسعة قرون أتمت فيها عملها التاريخى الأكبر الذى يتمثل فى حقيقتين :

الأولى : هى صبغ البلقان بالصبغة الصقلبية ، وهو مايسمى بصقلبة البلقان .

الثانية : هى إدخال الصقالبة جميعاً بما فيهم الروس فى المسيحية ، ولهذا فعندما دخل الأتراك العثمانيون القسطنطينية كانت دولة الروم قد أتمت رسالتها التاريخية التى كان لها أبعد الأثر على مسيرة الإسلام فى شرق أوروبا ، بل فى تاريخ أوروبا كلها .

وسنوجز فيما يلى الكلام على أكبر محاولات المسلمين لفتح القسطنطينية وهى :

(أ) حملة سفيان بن عوف سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ م .

أرسلها معاوية بن أبى سفيان براً فاخترقت آسيا الصغرى حتى وصلت سواحل بحر مرمرة . ثم بعث معاوية مدداً لسفيان بن عوف بقيادة ابنه يزيد ومعه نفر من أبناء الصحابة ، وكان فى هذه الحملة أبو أيوب خالد الأنصارى . وقد اشتبك المسلمون مع الروم فى القتال تحت أسوار القسطنطينية واستبسلوا فى القتال ، واستشهد الكثير من الصحابة ، منهم أبو أيوب خالد الأنصارى الذى دفن قرب بروسة ، وأقيم على ضريحه فيما بعد مسجد أبى أيوب المشهور الذى أصبح أيام العثمانيين أكبر المزارات الإسلامية فى تركيا ، بل كان السلاطين العثمانيون يتوجون فيه تبركاً بأبى أيوب .

ولم توفق هذه الحملة رغم مابذل المسلمون من جهد فيها ، ولكنهم على أى حال أضعفوا مقاومة الروم ، واستولوا على بعض جزر بحر إيجة مثل قوس وخيوس .

(ب) حصار القسطنطينية الثانـــى .

استمر معاوية يرسل الصوائف على أرض الروم بالبر والبحر ، واستخدم قواته جزيرة أرواد قاعدة بحرية للقوات الغازية ، وفى جمادى الأولى سنة ٥٤ هـ / إبريل ٦٧٤ م بدأ المسلمون حصارهم الثانى للقسطنطينية ، وفى الطريق إلى هذا الحصار استولى المسلمون على أزمير واحتلوا ساحل ليكيا ، وخرج الأسطول الإسلامى من جزيرة أرواد بقيادة جنادة ابن أبى أمية الأزدى ، وأحكم المسلمون حصار القسطنطينية براً وبحراً ، واجتهدوا فى القتال ، ولكن البيزنطيين استعملوا النار الإغريقية ، وهى خليط من النار والكبريت وسائل ربتى سريع الاشتعال يغلب أنه الكيروسين أو البترول الخام ينفثونه من أنابيب طوال فيشتعل فى الهواء ويشعل أشرعة السفن ، وقد كان أثر هذه النار حاسماً ، إذ إنها اشتعلت فى مراكب المسلمين فاضطروا إلى رفع الحصار ، وانتهى الأمر بأن عقد معاوية بن أبى سفيان مع قسطنطين الرابع معاهدة صلح سنة ٥٩ هـ / ٦٧٩ م .

(ج) حملة مسلمة بن عبد الملك .

وفى خلافة سليمان بن عبد الملك حاول المسلمون للمرة الثالثة فى العصر الأموى الاستيلاء على القسطنطينية ، وقاموا بأعظم جهد قدر لهم أن يقوموا به فى هذا السبيل خلال سنتى ٩٨ و ٩٩ هـ / ٧١٦ و ٧١٧ م ، فأرسل سليمان أخاه مسلمة بن عبد الملك فى حملة كبرى قوامها نحو ٨٠٠٠٠ رجل فى أسطول كبير يقدر عدده بألف وثمانمائة سفينة يقوده أمير بحر يسمى سليمان ، وربما كان المقصود به سليمان بن معاذ الأنطاكى ، وقد عزم مسلمة عزماً أكيداً على افتتاح القسطنطينية تلك المرة ، ولكنه تعرض لخدعة أدارها عليه رجل يسمى ليو الأرمنى كان طامعاً فى العرش فاتفق مع مسلمة على أنه يعاونه فيما يريد إذا أمده بقوة ومال وسلاح ليدخل القسطنطينية ويعزل الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث ثم يفتح للمسلمين البلد . وعاونه مسلمة حتى إذا دخل القسطنطينية وتولى العرش ليو الثالث الأيسورى انقلب على المسلمين وانضم إلى إخوانه البيزنطيين فى حرب المسلمين ، واجتهد فى تحصين البلد ، وحاصرها المسلمون بالبر والبحر ولكن وسائلهم فى الحرب لم تكن قد وصلت إلى درجة تمكنهم من اقتحام أسوار تلك المدينة ، وبخاصة ما أطل منها على البحر ، وأقبل الشتاء واستمر مسلمة ملازماً للحصار فى إصرار ، وهبت عواصف حطمت جانباً كبيراً من الأسطول ثم مات القائد سليمان ، وعاد الروم إلى استعمال النار اليونانية ، ودخل صيف ٩٩ هـ واستمر الحصار ومات الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وتولى عمر ابن عبد العزيز الخلافة ، فكتب إلى مسلمة بن عبد الملك بالعودة ، وبذلك فشلت أكبر محاولة قام بها المسلمون للقضاء على الدولة البيزنطية ، ولم يعودوا إلى المحاولة إلا أيام الأتراك العثمانيين .

بقية الأعمال البحرية فى العصر الأموى .

خلال خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م) وابنه الوليد (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م) أتم المسلمون فتح المغرب إلى طنجة والأندلس كله وجزءاً من جنوب فرنسا حتى منابع نهر الرون ، فأصبحت هذه المساحات الواسعة فى ساحل البحر المتوسط بأيدى المسلمين ، وأنشئوا ميناء جديداً على الساحل هو تونس ليحل محل قرطاجنة ، واعتنوا بالسواحل والموانىء والأساطيل ، وأنشئوا الرباطات على السواحل من أنطاكية إلى بونة ، وحصّنوا سبتة وطنجة .

وقد تجلت أهمية دخول الساحل الشرقى للأندلس فى دولة الإسلام بعد قيام الدولة الأموية الأندلسية حتى ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م ، واهتمام أمرائها بالجيش والبحرية والسواحل والأساطيل . ونشط أهل الأندلس فى ظل الأمن والاستقرار فى القيام بالأعمال التجارية والبحرية ، فعمرت السواحل والموانىء ، ودبت الحياة من جديد فى حوض البحر المتوسط بعد أن كانت قد ركدت تقريباً ، كما بيّن ذلك هنرى بيرين فى كتابه المشهور المسمى محمد وشرلمان Henri Pirenne : Mohammed et Charlemgne وانتظمت المواصلات البحرية فى البحر كله بين الموانىء الإسلامية من سواحل الشام إلى سواحل الأندلس ، وفى نفس الوقت رصدت جماعات من المسلمين نفسها للغزو فى البحر ، وأخذت تغير على سواحل إيطاليا وصقلية وسواحل بحر إيجة ، وهكذا أخذ البحر المتوسط كله يتحول إلى بحيرة إسلامية .

وكان العصر الأموى بصورة عامة عصر اهتمام بالبحر المتوسط وشئونه البحرية ، لأن الدولة الأموية كانت دولة بحرية تولى وجهها نحو البحر الأبيض ، ويرجع إلى خلفائها الفضل فى وضع أساس القوة الإسلامية فى البحر المتوسط .

خريطة ١٣٥

خريطة ١٣٦

النشاط البحرى للمسلمين فى البحر المتوسط من بداية العصر العباسى ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م إلى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م والمسلمون فى أقريطش وأعمالهم البحرية ٢٣٠ - ٣٥٠ هـ / ٨٤٥ - ٩٦١ م

نشاط المسلمين البحرى فى الحوض الأوسط للبحر المتوسط فى الفترة من ١٣٠ هـ ٧٤٨ م إلى آخر القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى وردود الفعل النصرانية

المرحلة الثانيـــة .

البحر المتوسط فى العصر العباسى .

بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م وانتقال عاصمة الدولة الإسلامية من دمشق إلى بغداد تغيرت وجهة الدولة الإسلامية ، فقد كانت وجهتها إلى البحر المتوسط عندما كانت فى دمشق ، أما وقد أصبحت عاصمتها فى بغداد غير بعيدة من طيشفون عاصمة الأكاسرة فقد اتجهت آسيا وتغيرت طبيعتها بتغير البيئة ، وأصبحت اهتماماتها آسيوية ، وأصبح وجه الدولة آسيوياً شيئاً فشيئاً . وقد رأينا اهتمام بنى أمية بالبحر المتوسط وحرص خلفائهم على القضاء على الدولة البيزنطية ، ومن ثم تنطلق فى شرق أوروبا وغربها الشرق ، وبينا وصلت الدولة الإسلامية فى فتوحاتها الغربية إلى وسط فرنسا أصبح آخر حد ثابت للدولة العباسية فى المغرب عند نهر شلف الذى ينبع من جبال الأوراس ويجرى شمالاً نحو البحر المتوسط حتى يصل إلى قرب موقع مدينة الجزائر الحالية ، ثم يتجه غرباً فيصب فى البحر المتوسط غربى مدينة وهران . وهو نهر صغير فعلاً ، ولكن بجراه الأعلى أصبح الحد الغربى للدولة العباسية ، وهو فى نفس الوقت الحد الغربى لولاية إفريقية ، ولقد بذل العباسيون بالفعل أقصى مااستطاعوا من جهد فى المحافظة على ولاية إفريقية داخل دولة السنة والجماعة ، وقضوا على كل مطامع الخوارج فيها ، وفيما يليها شرقاً وبخاصة مصر ، واضطر الخوارج لإنشاء دولتهم فى إفريقية فى المغرب الأوسط ، وإلى غربها حتى المحيط قامت فى بقية المغرب الأوسط دول العلويين من أبناء سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب ، وهم أبناء عمومة الأدارسة أصحاب المغرب الأقصى ، أما الأندلس فقد خرج من دولة السنة والجماعة وقامت فيه الدولة الأموية الأندلسية من سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م وهى دولة سنية ، ومعنى ذلك أن الدولة العباسية تنازلت عن معظم بلاد المغرب وخرج من يدها الأندلس ، وكل ذلك من نتائج انتقال قاعدة الدولة الإسلامية إلى بغداد فى وسط آسيوى إيرانى صرف ، وتلك الحقيقة تصور لنا التغير الحاسم فى طبيعة الدولة الإسلامية العامة ، ومن أكبر نتائج هذا التحول ثبات الحدود بين الدولة الإسلامية ودولة الروم النصرانية عند خط يبدأ من أدنة حتى شرق طرابزون على البحر الأسود ، وعندما أنشأ هارون الرشيد جند الثغور الشامية والجزرية وأنشأ منطقة العواصم تقوية لجند الثغور ، كان معنى ذلك وقوف الحدود الغربية للدولة الإسلامية فى آسيا الصغرى عند ذلك الحد ، وأمنت دولة الروم النصرانية على مصيرها ، وأتيحت لها الفرصة لحرب البلغار الذين كانوا أتراكاً بل مسلمين فأدخلوهم المسيحية ، وكذلك أدخلوا الروس فيها ، وكل هذه حقائق لها أبعد الأثر فى التاريخ الإسلامى بل العالمى .

ثم إن قيام الدولة العباسية فى وسط فارسى أدى - من تلقاء نفسه - إلى أن أخذت الدولة طابعاً فارسياً آسيوياً ، وأصبحت اهتماماتها آسيوية ، وأهملت بلاد الشام بعض الشيء ، وتركت مصر للولاة الذين كانت تبعثهم إليها ، ومصر أصبحت بعيدة عن مركز الدولة ، وتحولت شيئاً فشيئاً إلى قاعدة جديدة للدولة الإسلامية ، وهذا يفسر لنا قيام الدولة الطولونية ثم الإخشيدية ثم الفاطمية ، وهذه الدول كلها حاولت بسط نفوذها على مااستطاعت السيطرة عليه من بلاد الشام ، وتحولت إلى ماعرف فى المصطلح التاريخى بدولة ثم سلطنة مصر والشام ، وهى وحدة سياسية كبيرة أصبحت منافسة للدولة العباسية مثل انتقال الدولة الفاطمية الشيعية إليها سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م ، وهكذا قلت اهتمامات الدولة العباسية بالبحر المتوسط ، وانتقلت معظم المسئولية عن مركز الدولة الإسلامية فى البحر المتوسط من الدولة العباسية إلى سلطنة مصر والشام ومايليها غرباً من بلاد الإسلام حتى المغرب الأقصى والأندلس ، وأصبح مركز الإسلام فى الحوض الغربى للبحر المتوسط داخلاً فى مسئولياتها ، أما الحوض الأوسط فأصبح من مسئوليات دول المغرب التى قامت فى إفريقية والمغرب الأوسط ، ومن حسن الحظ أن الدولة الأموية الأندلسية وكل بلاد المغرب من برقة إلى طنجة كانت تسكنها شعوب بحرية ذات تقاليد ملاحية ومعرفة بشئون البحر والتجارة البحرية ، وهذا كله مكن للمسلمين من زيادة سيطرتهم على الحوضين الأوسط

والغربي للبحر المتوسط ، في حين أن العناية بالحوض الشرقي للبحر المتوسط تُركَتْ لدولة مصر والشام والدولة العباسية .

وفيما يلي أهم الحقائق المتصلة بنشاط المسلمين في البحر المتوسط خلال العصر العباسي وماعاصره من دول مصر والشام ودول المغرب والأندلس وصقلية :

هـارون الرشـيد .

تراخى اهتمام خلفاء بني العباس بالبحر المتوسط حتى جاء هارون الرشيد (١٦ ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ / ٣ جمادى الآخرة ١٩٣ هـ / سبتمبر ٧٨٦ م – مارس ٨٠٩ م) فاهتم بشئون البحر وأقام قائداً كبيراً خاصاً بسواحل مصر والشام وهو حميد بن معيوف سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م ، وقد أشار البلاذري « فتوح البلدان ١ / ١٩٣ » إلى اهتمام الرشيد بالموانئ ودور الصناعة والأساطيل « وأقام من الصناعة ما لم يقم قبله ، وقسم الأموال في الثغور والسواحل وأشجى الروم وقمعهم » .

قام حميد بن معيوف بغزو قبرص عندما نقض أهلها العهد مع المسلمين ، وأرغمهم على العودة إلى الطاعة ، وكذلك غزا أقريطش « كريت » .

فتح أقريطش على أيدي الرَّبَضيين الأندلسيين .

في سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م نزل الربضيون الأندلسيون بجزيرة أقريطش ، وهؤلاء الربضيون كانوا فريقاً ممن ثاروا على الأمير الحكم بن هشام الأموي الأندلسي المعروف بالربضي في رمضان سنة ٢٠٢ هـ / مارس ٨١٨ م ، وكان معظمهم من أهل ربض قرطبة الجنوبي المعروف بربض شَقُنْدة ، فلما انتصر عليهم أخرجهم من الربض ، وكانوا بضعة آلاف غير نسائهم وأولادهم ، فذهب بعضهم إلى وسط الأندلس واستقروا في ناحية طليطلة ، وذهب بعضهم الآخر إلى المغرب حيث رحب بهم إدريس الثاني ، فأنشئوا عدوة الأندلسيين في مقابل عدوة القرويين من مدينة فاس ، فاكتملت بهؤلاء مدينة فاس . أما بقيتهم فخرجوا في سفن في البحر فنزلوا في الإسكندرية واستولوا عليها وطردوا عاملها وظلوا يحكمونها حتى سار إليهم عبد الله بن طاهر عامل المأمون وحاصرهم واضطرهم إلى الاستسلام في صفر ٢١٢ هـ / مايو ٨٢٧ م ، واتفق معهم على أن يعطيهم سفناً ليخرجوا بها من مصر ، فخرجوا وتوجهوا نحو أقريطش يقودهم قائدهم أبو حفص عمر بن شعيب البلوطي . وكان أولئك الربضيون قد قاموا – وهم في الطريق إلى مصر – بأعمال عسكرية بحرية على شواطئ سردانية وصقلية . وفي أثناء مقامهم بالإسكندرية قاموا كذلك بغزوات في البحر ، فأغاروا على أقريطش سنة ٢١١ هـ / ٨٢٦ م ، ولهذا فقد نجحوا في هذه المرة في الاستيلاء على حصونها حصناً حصناً حتى تم لهم فتحها كلها سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م ، ثم دخل أبو حفص البلوطي في طاعة الخلافة العباسية ، وأصبحت أقريطش ولاية عباسية تابعة لوالي مصر . ونشطت العلاقات من كل نوع بين أقريطش ومصر والشام ، وكانت مصر بالذات تتلقى من أقريطش الأخشاب والجبن والعسل ، الذى عرف بالقند نسبة إلى مدينة كانديا عاصمة الجزيرة إذ ذاك . وهذه العاصمة من إنشاء المسلمين ، فإن أصل اسمها الخندق . ولم تلبث أقريطش أن تحولت إلى أكبر قاعدة إسلامية لغزو بلاد الروم وجزرها . وقد حاولت الدولة البيزنطية – في أيام الإمبراطور ميخائيل العموري – استرداد أقريطش فلم تستطع . وفي سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م انتصر الأقريطيشيون على الروم انتصاراً بحرياً كبيراً قرب جزيرة تاسوس . وحاول الإمبراطور تيوفيل الرابع إخراجهم من الجزيرة فلم يستطع ، وظل طول حكمه « ٢١٤ – ٢٢٧ هـ / ٨٢٩ – ٨٤٢ م » يحاول ذلك دون جدوى . بل قام المسلمون بحملات جريئة على سواحل جزر ميتيلين وأتوس سنة ٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م . وفي سنة ٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م أثناء حكم الإمبراطور ميخائيل العموري (٨٤٢ – ٨٦٧ م) نزلوا جزيرة بيرو واتخذوها قاعدة لغزواتهم .

واتحد أهل أقريطش مع غزاة المسلمين من طرسوس بقيادة أمير البحر ليو الطرابلسي ، وقاموا بأعمال عسكرية خطيرة على سواحل بلاد الروم ، وقد بلغت أعمالهم العسكرية ذروتها في غارتهم الكبرى على سالونيك على سواحل تساليا حيث دمروا جزءاً كبيراً من البلد وأسروا اثنين وعشرين ألفاً من أهلها .

وعندما قامت الدولة المقدونية في بيزنطة تجدد رجاؤها للنهوض بالدولة البيزنطية ، واجتهد مؤسس الدولة الإمبراطور باسيل الأول ، الذى بدأ حكمه سنة ٢٥٣ هـ / ٨٦٧ م في تنظيم القوات البرية والبحرية للدولة ، وحاول التصدي للأقريطيشيين ولكنه لم يستطع التغلب عليهم ، إلا أن الإمبراطور رومانوس ليكابينوس تمكن من الانتصار على أسطول ليو الطرابلسي سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م ، ومن ذلك الحين أخذت القوة البحرية الإسلامية للأقريطيشيين في التناقص ، فلما جاء الإمبراطور رومانوس الثاني سنة ٣٤٨ هـ / ٩٥٩ م جعل الاستيلاء على أقريطش اهتمامه الأكبر ، ومازال يوالي الغزوات حتى تمكن قائده الكبير نكفور فوكاس من غزو الجزيرة والقضاء على الحكم الإسلامي فيها سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، وإعادتها إلى الحكم البيزنطي ، وكانت تلك خسارة كبرى للإسلام والمسلمين ، لأنها كانت بداية لتغلب الروم على الحوض الشرقي للبحر المتوسط واستعادة سلطانهم عليه .

دولة مصر والشام ودورها في تدعيم مركز المسلمين في الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

بعد وفاة هارون الرشيد نجد أن مسئولية الدفاع عن الشواطئ الإسلامية ومركز المسلمين في شرق البحر المتوسط قد انتقلت إلى أهل هذه الشواطئ ، لأن اهتمام الدولة العباسية بشئون البحر المتوسط قل ، بل تلاشى ، وأخذ الروم – كما رأينا – يستعيدون مركزهم فيه وبخاصة بعد قيام الدولة المقدونية .

أحمـد بـن طـولـون .

ومنذ قيام الدولة الطولونية سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م اجتهد أحمد بن طولون في بسط سلطانه على بلاد الشام بعد أن دخلت في تبعيته بلاد الحجاز ، وبذلك بدأ ما يمكن أن نسميه دولة مصر والشام التي تحولت إلى خلافة في العصر الفاطمي ، ثم إلى سلطنة في العصرين الأيوبي والمملوكي ، وسنخصص فصلاً من هذا الأطلس لتتبع تاريخ هذه الدولة التي قامت بدور عظيم في تاريخ الإسلام .

وقد دخلت في هذه الدولة سلسلة الموانئ وقواعد البحر التي تمتد من طرابلس الشام إلى الإسكندرية ، وكانت دور الصناعة فيها تتكامل في تهيئة الجهاد البحري والمهارات الملاحية اللازمة للقيام بتلك المسئولية ، فأشجار جبال الشام تقدم الخشب اللازم لبناء السفن كالشلنديات الكبيرة والأغربة ، وجذوع أشجار الشام الصلبة الفارعة تقدم صواري السفن بينما كان قماشها يصنع في مصر ، وفي مصر أيضاً كانت تصنع حبال الليف ، ومنها كان يؤتى بزيت الخروع والقار والمسامير وما إلى ذلك مما كان لازماً لصناعة السفن ، وإذا كانت سواحل الشام تخرج كبار الربابنة القادرين على تسيير السفن وركوب البحار العالية فإن ملاحي مصر كانوا من أمهر الناس في تسيير المراكب الصغيرة ذات المجاديف والشراع الواحد أو الشراعين ، وكانت هذه السفن الصغيرة لها أهمية كبيرة في تكوين الأساطيل البحرية ، وبخاصة عندما يحتاج الأمر إلى سفن صغيرة تسير بالمجاديف وتقترب من السفن الكبيرة تشعل فيها النيران وتولى مسرعة .

وقد تكاملت كذلك موانئ البلدين من اللاذقية وجبالة وطرسوس حتى دمياط ورشيد والإسكندرية ، وفي كل من هذه الموانئ كانت تقوم دور الصناعة – أي مصانع بناء السفن – ولكن دار الصناعة الرئيسية في الشام كانت في جزيرة أرواد ، أما في مصر فكانت دار الصناعة الرئيسية في جزيرة الروضة ، ومنها تصعد السفن في فرعي رشيد ودمياط إلى البحر . وكانت هناك دور صناعة أصغر في دمياط ورشيد والإسكندرية ، ولكن الاعتماد الأكبر كان على دار الصناعة في الروضة .

وقد تجلت أهمية الوحدة البحرية لدولة مصر والشام منذ ولاية أحمد بن طولون ، فلم تنقض سنتان على ولايته حتى زار الإسكندرية سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م ، وأمر بالعناية الشديدة بدار صناعتها حتى تخرج من السفن ما يكفي لحماية شواطئ مصر

وفي سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٣ م نجده يجدد حفر خليج الإسكندرية – أي القناة التي تخرج من النيل عند العطف وتمد الإسكندرية بالماء – ومن ذلك الحين عاد البلد إلى ازدهاره القديم وتكاثر سكانه

وكما اهتم أحمد بن طولون بالإسكندرية اهتم بطرسوس في شمال الشام ، وقد دخلت في طاعته سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م ، وولى عليها مولى من مواليه هو سيما الطويل ، وعهد إليه بالعناية بأمرها وتحصينها والنهوض بدار صناعتها ، وكان أحمد بن طولون ينوي اتخاذها مقاماً له ليقوم بالغزوات البحرية منها ، ولكن مولى من الموالي يسمى يازمان انقلب عليه ودخل في ولاء الروم ، فسار ابن طولون إلى طرسوس لاستنزاله منها سنة ٢٦٩ هـ / ٨٨٢ م وبذل في ذلك جهداً عظيماً حتى أصابته هناك العلة التي كانت سبباً في موته ، وقد حمل من طرسوس مريضاً .

ثغـر رشـيد .

وقد استمر يازمان في خروجه على دولة مصر والشام وخطب للدولة العباسية ،

وأصبحت طرسوس ميناءً عباسياً فى مواجهة الروم . وعندما قامت الدولة الفاطمية فى المغرب وقام الصراع بينها وبين الدولة العباسية استخدم العباسيون طرسوس قاعدة بحرية لهم ، ومصنعاً للسفن اللازمة لمواجهة الفاطميين فى البحر . وفى شوال سنة ٣٠٧ هـ / فبراير ٩٢٠ م دارت معركة بحرية كبيرة عند رشيد بين أسطول فاطمى أقبل من تونس مؤيداً لحملة برية وجهها الفاطميون نحو الإسكندرية ، وأسطول عباسى أرسل من طرسوس ، ودارت المعركة عند رشيد ، وقد انتصر الأسطول العباسى وتحطمت سفن الأسطول الفاطمى ، وقتل معظم رجاله أو أسروا ، ومن ذلك الحين بدأ الاهتمام بالنهوض بثغر رشيد وتحويله إلى قاعدة بحرية .

ثغـــــر دميــــاط .

أما دمياط فلم تتبين أهميتها كميناء بحرى قادر على القيام بدور فعال فى النشاط البحرى الإسلامى تجارياً كان أم حربياً إلا بعد استيلاء الربضيين على أقريطش وإقامتهم دولة فيها . وقد كانت دمياط ميناءً عامراً بالحركة ، ولكن فى حدود ضيقة معظمها تجارى مع موانى الشام القريبة منها مثل غزة وعسقلان وصور وصيدا . وقد ظلت هذه التجارة البحرية الساحلية من دمياط وإليها نشيطة ، وقامت فيها دار صناعة كبيرة لبناء السفن الشراعية الصخمة القادرة على حمل التجارة بين سواحل مصر وسواحل الشام ، ومازال الحى الذى قامت فيه دار الصناعة هذه موجوداً إلى اليوم يقوم بنشاط كبير فى بناء السفن الشراعية وهو حى الحسن .

وبعد قيام دولة الإسلام فى أقريطش أصبحت دمياط الميناء الرئيسى للاتصال بأقريطش ، وجرى بين الاثنين خط ملاحى منتظم ، فكانت دمياط تمد أقريطش بالأسلحة وقلوع السفن والسفن والنسيج ، فى حين أن أقريطش كانت تبعث إلى دمياط الأخشاب والزيتون وزيت الزيتون والقند والفواكه الجافة ، فانتعش ثغر دمياط ، وتنبه البيزنطيون إلى أهميته لأقريطش فقرروا غزوه ، ووجهوا إليه سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م حملة بحرية كبيرة من ثلاثمائة سفينة يقودها ثلاثة من أمراء البحر هم عرفا وابن قطونة وأمردناف ، وقد فسر الدكتور السيد عبد العزيز سالم هذا الاسم الأخير تفسيراً ذكياً فقال إنه Amir de Nave أى أمير المركب أو المراكب – فاللفظ على ذلك مزيج من العربية والإيطالية .

وكانت غارة الروم على دمياط سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ضربة أليمة ، إذ صادفت غياب حامية البلد فأحرقت ونهبت وأسرت وأثارت الفزع فى البلد كله ، ومن غريب مايحكى فى تلك المناسبة أن رجلاً من رجال البحر الدمياطيين كان إذ ذاك فى سجن الوالى ، فطلب إخراجه من السجن ليقوم بمواجهة الروم ، فأخرجوه وتمكن من هزيمة الروم وإخراجهم من دمياط .

وعلى أثر ذلك أمر الخليفة المقتدر ببناء حصن دمياط سنة ٢٣٩ هـ / ٨٥٣ م وكذلك حصن الفرما ، ومن ذلك الحين أصبحت دمياط ميناء مصر الثانى ، وعندما غزاها الروم مرة أخرى سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م لم يستطيعوا تعدى الساحل ، ومن ذلك الحين أمر الخليفة بترتيب المراكب على جميع سواحل مصر والشام للدفاع والإنذار .

وقد أشار محمد عبد الله عنان « مواقف حاسمة ص٧٨ » إلى رجل من رجال البحر المسلمين هو ليو الطرابلسى ، الذى يسميه المسعودى باسم لاوى المكنى بأبى الحرب غلام زرافة صاحب طرابلس الشام ويسميه الطبرى وابن الأثير غلام زرافة فقط ، أما الكندى فيسميه رشيق الوردامى المعروف بغلام زرافة ، وكان من ربابنة البحر المعظم وأصله من أبوين نصرانيين من أهل أنطالية أو أطالية ، واشتغل بالبحر إلى أن أصبح من كبار الملاحين ، ثم أسلم واستقر فى طرسوس وأنشأ أسطولاً يغير به على سواحل الروم ، حتى عظمت نكايته فيهم ، وهابوه مهابة شديدة ، وأكبر غاراته تلك التى قام بها على سلانيك سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٤ م بمعاونة أهل أقريطش ، ويقال إنها قتلت خمسة آلاف من أهل البلد وأنقذت أربعة آلاف أسير مسلم .

ويشبه ليو هذا رجلاً آخر من أهل جبلة بالشام يسمى عبد الله بن وزير صاحب جبلة ، وكان نشيطاً وكان واسع العلم بشئون البحر ، يقود الغزوات البحرية بنفسه على شواطىء الروم ، وكان مجاهداً بحرياً عظيماً .

وقد استمرت بحرية دولة مصر والشام على ذلك الحال حتى مجىء الفاطميين .

خريطة ١٣٧

خريطة ١٣٨

نشاط المسلمين البحرى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط وسواحل الأندلس منذ فتحها إلى عصر الطوائف
(القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى)

نشاط المسلمين فى البحر المتوسط من سنة ٣٥٠ إلى ٦٠٠ هـ / ٩٦١ - ١٢٠٣ م

يرجع قيام البحرية الأندلسية إلى غارات النورمان على شواطىء الأندلس ابتداء من سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٤ م ، أيام عبد الرحمن الأوسط .

النورمـــان والفايكنجـــز .

والنورمان – وتسميهم المراجع العربية الأردمانيين أو المجوس – هم سكان اسكنديناوة وبلاد الدانيمرك وبعض شواطىء أيرلاندا ، وكانوا قد بدءوا من مطالع القرن التاسع الميلادى يقومون بغارات على سواحل أوروبا الغربية . وكانت أساطيلهم تتكون من سفن صغيرة ولكنها متينة البناء ذات أشرعة سوداء . وكانت تسير بالمجاديف أيضاً . وهم المسمون بالفايكنجز Vikings ، وكانت أساطيلهم ترسو على الشواطىء عند مصبات الأنهار ، فينزل فريق منهم على الشاطىء ويتوغل بقية السفن فى مياه الأنهار والقرى التى تمر بها فتنهب وتسرق وتسبى ، وكانوا يستعينون بالنار لإرهاب الناس ، فيوقدونها حيثما نزلوا ، ولهذا سماهم العرب المجوس .

وفى أوائل القرن التاسع نزلوا ساحل فرنسا الشمالى الغربى واحتلوا جزءاً منه واتخذوه قاعدة يشنون منها الغارات على انجلترا وأيرلندا ، وكان هذا الساحل يسمى فريزيا أو فريزلاند Friesland فأطلق على جزئه الجنوبى اسم نورمانديا Normandia نسبة إلى النورمان ، ومازال يسمى بهذا الاسم إلى اليوم Normandie . ومنه شن فريق منهم بقيادة وليام النورماندى – أو الفاتح – الغارة المشهورة على انجلترا ، وهى غارة بدأت فى تاريخ انجلترا عصراً جديداً بعد انتصار النورمان فى معركة هستنجز سنة ١٠٦٦ م .

ومن نورمانديا أخذت غارات النورمان تمتد إلى الجنوب ، فكانت فى سواحل فرنسا الغربية ، ثم ظهرت على سواحل اشتريس وجليقية ، وتصدى لها ملوك اشتريس وليون .

إغـــارة على الأندلـــس .

وفى أول ذى الحجة ٢٢٩ هـ / ٢٠ أغسطس ٨٤٤ م ظهروا عند ساحل الأشبونة قاعدة الثغر الأول للأندلس وأغاروا عليها فتجمع الناس عليهم وأخرجوهم بعد ١٣ يوماً ، فساروا فى سفنهم ، وكان عددها نحو الخمسين سفينة معها قوارب كثيرة فأغاروا على قادش ومنها توغلوا فى الداخل حتى بلغوا شذونة ، ثم تجمعت سفنهم عند مدخل الوادى الكبير ودخلت سفنهم (أوائل سنة ٢٣٠ هـ / سبتمبر ٨٤٤ م) وبلغت إشبيلية فعاثت فيها فساداً ، وقتل النورمان كثيراً من أهلها ونهبوها ، وأشعلوا النار فى بعض نواحيها كما أشعلوا النار فى مسجدها الجامع القديم . وبعد أن أنزلوا بنواحى إشبيلية ضرراً جسيماً – حتى وصلت غاراتهم إلى مورور – تمكن المسلمون من الإيقاع بهم عند طلياطة شمال إشبيلية – وموقعها يسمى اليوم Tablada وعليه يقوم مطار إشبيلية – وذلك فى ٢٥ صفر ٢٣٠ هـ / ١١ نوفمبر ٨٤٤ م .

تحصين الســواحل الغربية للأندلس .

وعلى إثر ذلك اهتم عبد الرحمن الأوسط بتحصين سواحله الغربية ، فأنشأ الحصون والأسوار فى الأشبونة وقادش ، وأخذ الناس يتشوفون الرباطات على السواحل ويقيمون فيها .

وكذلك بدأ عبد الرحمن الأوسط فى إنشاء البحرية الأندلسية ، فأنشئت فى نفس السنة دار الصناعة فى إشبيلية ، واستدعى أهل البحر للعمل وأوسع لهم عبد الرحمن فى الأرزاق والأعطيات ، فتكاثر عددهم ، وظهر الأسطول الأندلسى . ثم أنشئت دار صناعة ثانية فى إشبيلية وثالثة فى قرمونة .

وعندما عاد النورمان إلى الأندلس بعد ذلك بأربع عشرة سنة (٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م) وجدوا سواحل الأندلس الغربى محروسة فلم يجرءوا على النزول عليها . بل بلغ من استعداد الأندلسيين فى البحر وكان ذلك عصر الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط أنه عندما ظهر أول مركبين من مراكبهم تجاه ساحل الأندلس الغربى شمال الأشبونة خرجت سفن المسلمين وطاردتهم ، ودخلت بعض سفن النورمان فى مصب الواديانة ، فلحقها المسلمون واستولوا عليها ، وحاولت بقية سفنهم دخول الوادى الكبير والصعود إلى إشبيلية فتصدى لها المسلمون ففرت ومرت من مضيق جبل طارق ، وهاجمت ميناء الجزيرة الخضراء وأغارت عليها وأحرقت جامعها ، ثم انصرفت إلى ساحل إفريقية المقابل فأغارت على ساحل إمارة النكور ، ونهبت ماوصلت إليه أيدى رجالها ، وصلت جماعة من النورمان فأغارت على أصيلا ، ثم عادت إلى البحر المتوسط وسارت بحذاء ساحل الأندلس فطرقت بلدة تُدْمِير ونهبت ماحولها وأغارت على أوريولة ، ثم عادوا إلى البحر فوجدوا سفن المسلمين فى انتظارهم ففروا أمامها إلى ساحل فرنسا الجنوبى ، ونزلوا فى دلتا الرون وهى المنطقة التى كانت تسمى إذ ذاك كاريا Camaria وهى اليوم كامارج Camargue وظلوا حتى انقضى الشتاء ، ثم عادوا إلى ساحل إسبانيا فنزلوا على ساحل قطلونية وأوغلوا فى أراضى الإمارات النصرانية حتى وصلوا بنبلونة حيث أسروا أميرها غرسية انيجو García Inego وافتداه أهله منهم بتسعين ألف دينار ، ثم ساروا مع ساحل الأندلس نحو الجنوب دون أن يستطيعوا النزول على السواحل ، ومروا من مضيق جبل طارق ثم اختفوا .

أسطولان للأندلس .

والمهم هنا هو أن الأندلس أصبح له أسطولان : واحد فى البحر المتوسط وقاعدته المرية ، وواحد فى المحيط الأطلسى وقاعدته الأشبونة ، وستزداد القوة البحرية الأندلسية بعد ذلك شيئاً فشيئاً حتى تصبح أكبر قوة فى الحوض الغربى للبحر المتوسط أيام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م) وابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٧٦ م) وهذه البحرية الأندلسية أكملت سيادة المسلمين على البحر المتوسط كله ، ففى الشرق قامت أساطيل مصر والشام ، وفى الوسط قام أسطول الأغالبة ، وفى الغرب قام أسطول بنى أمية الأندلسيين . وفى حماية هذه الأساطيل مضت سفن المسلمين آمنة من شواطىء الأندلس إلى شواطىء الشام ، ونشطت شعوب الإسلام البحرية فعمّرت الموانى وأنشأت دور الصناعة ، وظهرت على سواحل المغرب والأندلس سلسلة من الموانى التجارية والحربية التى أكدت سيادة المسلمين على البحر المتوسط حتى نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .

وقد ظهر النورمان بعد ذلك على سواحل الأندلس مرتين ، الأولى أيام الحكم المستنصر فى رجب ٣٥٥ هـ / يونيو ٩٦٦ م ، والثانية أيام المنصور بن أبى عامر سنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م ، ولكنهم لم يستطيعوا فى كلتا المرتين أكثر من القيام بغارات وضربات سريعة على السواحل ثم الهرب مسرعين .

افتتاح الجزائر الشرقية (البليار) وتحولها إلى كورة أندلسية .

ومن نتائج غارات النورمان وقيام الأسطول الأندلسى إكمال فتح الجزائر الشرقية المعروفة بجزر البليار وهى أربع : ميورقة Mallorca ومنورقة Menorca ويابسة Ibiza وفرمنتيرة Formentera ويُظن أن عبد العزيز بن موسى افتتح هذه الجزر عندما استكمل فتح شرق الأندلس بعد عودة أبيه إلى المشرق ، ولكن قدم الإسلام لم تثبت فيها أول الأمر وترددت على سواحلها غارات غزاة البحر المسلمين ، وإلى أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط لم تكن الجزر واضحة التبعية وإن كان أصحاب حوليات مملكة الفرنجة Annales Regni Francorum يحاولون أن يثبتوا أنها كانت تابعة لمملكة الفرنجة ، ولدينا مايثبت أن جاليات من مسلمى الأندلس والمغرب نزلتها وعاشت فيها

فلما كانت أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢١ - ٨٥٢ م) وقام الأسطول أصبح الاستيلاء الكامل على الجزر الشرقية أمراً لامفر منه ، وقد تم ذلك فى أيام الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م) ، ففى سنة ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م توجه أسطول أندلسى بقيادة عصام الخولانى ففتح الجزائر دون صعوبة ، وولاه الأمير عبد الله أمرها فظل يحكمها ١٠ سنوات ، وابتنى فيها المساجد والفنادق والحمامات فتكاثر فيها المسلمون وأخذ أهلها يسلمون ، ثم خلفه عليها ابنه عبد الله بن عصام الخولانى ، فظل عليها حتى استعفى أول أيام عبد الرحمن الناصر سنة ٩١٢ / ٩٦١ م وذهب للحج وهناك جاور ومات ، وتعاقب على الجزر الشرقية ولاة المسلمين بعد ذلك ، وقامت فيها قاعدة بحرية إسلامية ، وكانت الجزر الشرقية كورة قائمة بذاتها ، ومن هذه الجزر كانت تخرج سفن المسلمين الغازية على شواطىء فرنسا وإيطاليا .

جماعة البحريين من أهل بجانة وإنشاؤهم جمهورية تجارية بحرية ، ميلاد ثغر المرية .

ومن دلائل النهضة البحرية الأندلسية وازدياد النشاط البحرى على السواحل الشرقية للأندلس قيام جماعة من البحريين الأندلسيين بإنشاء مركز تجارى كبير فى بَجّانة ، وتكوينهم مايمكن أن يسمى بجمهورية تجارية شبيهة بالجمهوريات التجارية الإيطالية التى بدأت تظهر فى القرن الحادى عشر الميلادى .

بجانــــة

كانت بجانة قرية صغيرة على نهر أندرش Anderax إلى الشمال من مدينة المرية الحالية . وكان عبد الرحمن الأوسط قد أقطعها لجماعة من العرب اليمنيين فى مقابل حراستهم لساحل البحر المتوسط فى ناحيتهم ، ولهذا سميت الناحية أرش اليمن ، أى إقطاع اليمن ، وكان عليهم أن يقيموا الرباطات على ساحل البحر فى منطقتهم . وكان أهل بجانة معروفين بالنشاط التجارى البحرى حتى سماهم الناس بالبحريين ، وكانوا ينشئون السفن فى خليج قريب من قريتهم ، ويخرجون بها للمتاجرة مع المغرب ، ويبدو أن نزول العرب فى ناحيتهم أشعرهم بشىء من الخوف ، فاتفقوا على أن يحصنوا بجانة ، واتفقوا مع العرب على ذلك ، وأنشأ رئيسهم عمر بن أسود مسجداً للبلد ، وكان ذلك سنة ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م وأقاموا للبلد سوراً جعلوا فيه أبواباً ، واحد منها مزين بتمثال للعذراء ، على مثال باب الصورة المعروف فى قرطبة الإسلامية ، وكان باب الصورة فى بجانة مواجهاً للبحر ، ويبدو أن الصورة أو التمثال كانت تميمة يتبرك بها الملاحون على عادتهم فى التمسك بالتمائم والتعوذ ببركتها بسبب تعرضهم الدائم للمهالك فى البحار . وازدهر البلد وتكاثر سكانه ووفد عليه التجار من كل صوب ، واشتغل أهله بصناعات أهمها نسيج الحرير ، واختاروا من بينهم مشيخة من رؤسائهم تحكمهم كما كان الحال مع الكثير من بلاد الأندلس ، وجرى الحال على ذلك طوال عصرى الأميرين محمد وأخيه المنذر ، فلما جاء الأمير عبد الله وخرجت عن سلطانه جماعات العرب فى شرق الأندلس - فيمن خرج عليه - كتب البحريون البَجّانيّون إلى الأمير عبد الله يؤكدون طاعتهم له ويستأذنون فى توسيع منطقتهم فأذن لهم ، ولم يمس استقلالهم الذى جروا عليه تقديراً منه لطاعتهم وماكانوا يؤدونه من الأموال ، وهكذا أقاموا حول بلدهم سلسلة من الحصون مثل الحامة والحانية وابن طارق ونجار التى اشتهرت بمقاطع الرخام إلى حوارها ، وسيطروا على الطرق المؤدية من بجانة إلى وادى مرسية ومن الواضح أنهم أقاموا هذه التحصينات حذراً من العرب اليمنيين الذين كانوا يقيمون فى ناحيتهم .

ولم يكذب ظنهم ففى سنة ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م أراد سَوّار بن حمدون القيسى شيخ العرب فى كورة تدمير وهى مُرسية - وكان خارجاً على سلطان الأمير عبد الله - أن يغير على بجانة حاسباً أنها فريسة سهلة نظراً لما اشتهر به البلد من موفور الخيرات وشمول الأمن نواحيه ، حتى كان التجار يدعون متاجرهم فى السوق أو فى الطرقات دون أن يعدو عليها أحد . فلما استشعر عبد الرزاق بن عيسى رئيس مشيخة بجانة الخطر اتفق مع شيخ من شيوخ العرب فى ناحيته وهو سعيد بن أسود وابنه خشخاش على مخاطبة سوار بن حمدون وردّه عن البلد ، فرضى بالرجوع عن بجانة لقاء هدية ذات شأن .

المريــــة .

وكان البحريون قد أنشئوا فى الخليج القريب من بلدهم عند مصب نهر أندرش برجاً للحراسة ، أعلاه ناظور يجلس فيه حارس يسمى بالناظور أيضاً ، مهمته الإنذار بأى خطر من ناحية البحر . وسمى هذا الناظور باسم مرية بجانة والمرية فى لغة أولئك القوم هى المرئية ، أى المنظورة من بعيد ، ثم اختصر الاسم إلى المرية ، وكان أكثر مايهدد المرية أهل الإمارات النصرانية فى قطلونية وأمبورياش وماإليهما ، فكانوا من الحين إلى الحين يخرجون فى سفنهم للإغارة على سواحل المسلمين المجاورة لهم .

فلما توفى سوار بن حمدون القيسى وخلفه فى رياسة عرب تدمير سعيد بن جودى الزعيم العربى والشاعر المعروف وعدو ابن حفصون أراد أن ينال هو أيضاً شيئاً من خيرات بجانة فسار إليها طامعاً فى هدية جليلة ، ولكنه كان عمره كله سيىء الحظ ، فلما اقترب من بجانة وأشرف عليها من تل قريب منها بصر بسفن إفرنجية كثيرة مقبلة نحو مرية بجانة - وكانت هذه السفن أسطول سونيير Suner أمير أمبورياش قدم بها ليغير على الساحل

– خرج البحريون لقتاله فحسب سعيد بن جودى أن البحريين سيصيبهم عدوان عظيم من جيرانهم النصارى ، فلوى عنانه وانصرف قانعاً من الغنيمة بالإياب .

ومضت بجانة فى طريقها تزداد ازدهاراً كل يوم ، وعندما ازداد حال إمارة قرطبة سوءاً فى أواخر أيام عبد الله قطع البحريون ماكانوا يرسلونه من المال إلى قرطبة ، وتوسعوا فى الأرض حتى دخلت بلادهم كل خليج المرية وتمدنت المرية أيضاً وأصبحت ميناءً عامراً . فلما جاء عبد الرحمن الناصر واجتهد فى إعادة وحدة الإمارة القرطبية وجعلها خلافة فى سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م عادت بجانة إلى الطاعة ، وبدأت سلطة قرطبة تزداد فى منطقتها ، وفى سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م نقل عبد الرحمن الناصر قاعدة الكورة إلى المرية ، وأقام بها العامل وحكومة الكورة ، وأنشئت بها دار الصناعة ، وشيئاً فشيئاً تحولت المرية إلى أكبر ميناء فى شرق الأندلس ، فخمل أمر بجانة شيئاً فشيئاً وعادت قرية كما كانت

ولكن أثر بجانة فى تاريخ البحرية الأندلسية عظيم ، فقد كان أهلها من أنشط البحريين المسلمين ، وكانت سفنهم الكثيرة تردد على موانى المغرب والأندلس بصورة مستمرة ، وكانت لهم الجاليات فى كل موانى المغرب ، وكانت سفنهم تصل إلى موانى جنوبى فرنسا .

أوديسية غزاة البحر المسلمين فى فراكسينتوم عند مصب الرون .

النصف الأول من القرن الهجرى الثالث / النصف الأول من القرن التاسع الميلادى .

ومن مظاهر سيادة المسلمين فى الحوض الغربى للبحر المتوسط خلال القرن الثالث الهجرى قيام جماعة من غزاة البحر المسلمين بالنزول فى دلتا نهر الرون المعروفة باسم كمارج Camargue وانشاؤهم قاعدة عسكرية وقيامهم بشن الغارات منها فى فرنسا وشمال إيطاليا وسويسرا .

ومن مواضع الضعف فى النشاط البحرى الإسلامى أنه لم يكن منظماً ولامنسقاً ، وأن الدول لم تهم الاهتمام الكافى بالاستفادة من الملكات البحرية عند أهل سواحلها ، ولم تعرف كيف ترعى التجارة والتجار أو تشجعهم أو تؤيدهم ليتوسعوا فى نشاطهم التجارى عبر البحار ، كما كانت البلاد الأوروبية قد بدأت تفعل فى ذلك الحين ، ولهذه الحقائق نتيجتان واضحتان فيما يتصل بالنشاط البحرى الإسلامى بصفة عامة :

الأولى : أن ذلك النشاط لم يكن مستمراً ولاسائراً على سياسة مرسومة ، وإنما سار حسب الظروف وحسب المقادير ، فلم يؤتِ – رغم ضخامته – نتيجة إيجابية ثابتة ، وإلى هذا يرجع السبب فى فقدان المسلمين سيادتهم على البحر المتوسط ابتداء من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى رغم توفر أسباب هذه السيادة لهم .

الثانية : أن هذا النشاط لم يؤد إلى نمو مطرد فى فنون البحر عند المسلمين كما حدث عند الغربيين ، فعلى الرغم من أن المسلمين ملكوا كل وسائل التقدم البحرى من فنون إنشاء السفن وتقدمهم فى علوم البحار فإنهم لم يستطيعوا السير إلى الأمام بنشاطهم البحرى ، فظلت سفنهم ومعلوماتهم البحرية دائماً فى نفس المستوى رغم نبوغ الكثيرين من ملاحيهم .

ومن الأمثلة البارزة على انعدام التنسيق والتوجيه فى النشاط البحرى الإسلامى فى البحر المتوسط مغامرة الغزاة البحريين الذين أنشئوا لأنفسهم قاعدة للغزو عند منابع الروم .

غزو إسلامى لجنوب فرنسا حتى جبال الألب .

وفيما بين سنتى ٢٧٨ و ٢٨١ هـ / ٨٩١ و ٨٩٤ م تمكنت جماعة من غزاة البحر المسلمين من الأندلسيين وربما بعض المغاربة – فى ظروف غير معروفة لنا – من النزول فى خليج سان تروبيز Saint Tropez على شاطىء بروفانس فى جنوبى فرنسا وتحصنوا فى جبل فراكسينتوم Fraxintum المطل على الخليج ، وهذا هو الموضع المعروف اليوم باسم جارد فرينيه Garde Freinet ثم لحقت بهم جماعة أخرى وتضخم العدد ، ومضت هذه الجماعة تغير على نواحى كونتية فريجوس Conté de Fejus ، وكما أحرق النورمان مساجد إشبيلية والجزيرة الخضراء نجد أن غزاة البحر المسلمين هؤلاء صعدوا مع نهر الرون وأغاروا على ماوصلوا إليه ونشروا الخوف فى مقاطعتى فالنتان Valentinوفيين Vienne لم امتد مجال نشاطهم فى السنوات الأولى من القرن العاشر فوصلوا إلى سفوح جبال الألب ، وملكوا نواحى ممرات الجبال إلى روما ، وثقلت وطأتهم على ناحيتى إمبوردان Embrurdanوجريزفان Graisivan ثم تشجعوا فدخلوا الوديان الإيطالية وتوغلوا فى بيدمونت حتى أكوى ACquiوأستى Aste .

وبينما كانت قاعدتهم الرئيسية فى فراكسينتوم كانت فرق طايرة منهم تخرج وتغير على ماتستطيع ثم تعود . ثم نشأت لهم قواعد فرعية فى مخارم جبال الألب . وحاول أهل هذه النواحى بتأييد للدولة القرعية التصدى لهم فلم يستطيعوا وفى سنة ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م أوغلت فرق الغزاة حتى بلغت سان جالن Sanct Gallen فى قلب سويسرا الحالية وفى سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م توجهت ضدهم حملة جردها هوجو ملك إيطاليا ورومانوس ليكابينوس إمبراطور بيزنطة فلم توفق ، وظلوا فى قاعدتهم فى فراكسينتوم حتى أخرجهم منها أوتو الأول إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة الألمانية سنة ٣٦١ هـ / ٩٧٢ م . ومع ذلك فلم تكن تلك نهايتهم ، بل نجدهم يتعرفون بعد ذلك ، ويعتصم كل فريق منهم فى ناحية من جبال الألب ليواصل نشاطه حتى انحضوا وذابوا فى السكان مع الزمن ، وإلى يومنا هذا مازالت وديان كثيرة فى جبال الألب الجنوبية وفى نواحى الجريزون (جراوبندن) Graubuenden فى سويسرا تحمل أسماء مثل سرازينى Sarraseni وموری Mauri نسبة إلى أولئك الغزاة المغامرين .

وكل أخبار هذه الجماعة – وغيرها أقل منها أهمية – وصلتنا تفاريق فى المدونات النصرانية دون أن يعلم بأمرها مؤرخ عربى أو مسلم ، بل لم تكن الدول الإسلامية القائمة تعرف عن أمرها شيئاً ، وإنما هى أقباس من النشاط الإسلامى الغزير الذى عجزت حكومات هذه الأعصر عن احتوائها والإفادة منها فى عمل إيجابى منظم .

ولكن أخبار هذه الجماعة ومارأينا وسنرى من نشاط الغزو الإسلامى الذى عم البحر المتوسط كله فى تلك العصور يؤكد الحقيقة التى ذكرناها من أن سلطان المسلمين ساد أمواه البحر المتوسط وسواحله كلها فى خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين .

المرحلة الثالثة .

النشاط البحرى الإسلامى فى العصر الفاطمى

قامت الدولة الفاطمية فى المغرب سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م على أنقاض دولة الأغالبة التى بدا بوضوح بعد أيام إبراهيم بن أحمد ثانى أمرائها أنها قد استنفدت قواها ولم تعد قادرة على النهوض بمسئولياتها ، وانتقلت إلى مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م حيث قامت على أنقاض دولة أخرى كانت قد مالت نحو الزوال هى دولة محمد بن طغج الإخشيد ، وفى نفس الوقت كانت الدولة العباسية قد فقدت حيويتها وكفاءتها ، وعجزت تماماً عن حماية حدودها فى وقت كانت فيه الدولة البيزنطية – خصم الإسلام العنيد فى شرق البحر المتوسط – قد نهضت من العثار نهضة غير منتظرة على يد أباطرة الدولة المقدونية (٢٥٣ – ٤١٦ هـ / ٨٦٧ – ١٠٢٥ م) وأولهم باسيل الأول الذى دل على مواهب نادرة فى البناء والتنظيم والحرب والسياسة ، فبعث من العدم دولة رهيبة كان الرجاء فيها قد انقطع ، وخلفه أباطرة موهوبون من أمثال رومانوس ليكابينوس وقسطنطين السابع ونقفور فوكاس ويوحنا تزيمسكيس المعروف بالشميشق ، وأغراهم ضعف الدولة العباسية فأقبلوا يجتاحون أراضيها حتى قال أبو المحاسن : « وكان الروم قد استولوا على الشام والثغور وطرسوس وأنطاكية وأذنة وعين زربة والمصيصة وغيرها » (النجوم الزاهرة ٤ / ٧٢) وهذه الظروف أوجدت للفاطميين دوراً كبيراً يقومون به بعد استقرارهم فى مصر ، وإذا كانت الفترة التى قضتها هذه الدولة فى المغرب فترة عقيمة مليئة بالمتاعب والأزمات والبأس لأن الدولة لم يكن لها هناك دور تؤديه – فقد وجدت نفسها فى مصر أمام فرصة واسعة للعمل لتثبت ماكان دعاتها يقولونه من أنها قامت لتعيد شباب دولة الإسلام وتفتح باب الجهاد من جديد .

والحقيقة أن انتقال الفاطميين إلى مصر وقيام دولتهم بها كان فاتحة لعصر جديد من النشاط العسكرى الإسلامى فى شرق البحر المتوسط فى البر والبحر ، فقد تمكن الفاطميون أيام المعز والعزيز من بسط سلطانهم على الشام والتصدى للروم ، وإخراجهم من بلاد الشام جميعاً وإعادة الجبهة الإسلامية إلى ماكانت عليه قبل إقدام أباطرة الأسرة المقدونية على العدوان على شمال الشام والفرات الأعلى .

إنشـــاء المواني .

ولكن هذه النهضة الفاطمية تتجلى بصورة أوضح فى عنايتهم بالبحرية وكل ماتصل بها .

وقد بدءوا في ذلك منذ أيام دولتهم في المغرب ، فقد عرفوا كيف يستفيدون من الإمكانات البحرية الكبيرة التي تتيحها بلاد المغرب لصاحب السلطان فيها ، من السواحل الممتدة ذات المواقع الكثيرة الصالحة لإنشاء الموانى وتوفر أخشاب السفن والحديد اللازم لصنعها ، ثم وجود جماعات من أهل المهارة البحرية والقدرة على ركوب البحار على سواحل المغرب كلها من برقة إلى طنجة .

فمن الموانى التي أنشئوها أو جددوا بناءها وأنشئوا دور الصناعة فيها المهدية التي أنشئوها على رأس خارج في البحر « كصورة كف اتصل بزند » كما يقول البكرى سنة « ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م » وأصبحت من ذلك الحين حصن الفاطميين الأكبر ، وتونس وسوسة وسفاقس عنابة « بونة » وجيجل وبجاية ومرسى الدجاج ميناء وهران المعروف بمرسى أرزو وميناء تلمسان المعروف باسم مرسى هنين .

تحصين الجزر .

كذلك حرص الفاطميون على تحصين كل الجزر الصغيرة القريبة من سواحل إفريقية التي تكون ستاراً يحمي هذه السواحل مثل قوصرة Pantelleria ومليطمة Marettiano وقورية بإزاء المنستير وقرقنا بإزاء سفاقس وجربة بإزاء قابس وبنتلارية « قوصرة » وجزائر الكراث بإزاء مرسى بنزرت وجزيرتي الجامور بإزاء عنابة « بونة » وجزيرتي الزرقاء بإزاء رأس قمودة وجزيرة الأحاسي بإزاء المهدية وجزيرة ريزو إلى شرقها وجزيرة راتزو إزاء قابس .

واهتم الفاطميون بجزيرة صقلية ومواتيها ، وكذلك جزر مالطة ، واتخذوا لهم قواعد على سواحل سردانية وقرصقة .

وحرصوا كذلك على تقوية القواعد الإسلامية على سواحل قلورية Calabria وخاصة ريو « ريجيو » وموانىء سواحل أبوليا مثل طارنت وبرنديزى .

وحصن الفاطميون ميناء طرابلس واتخذوها فيما بعد قاعدة قواتهم البحرية المخصصة للدفاع عن صقلية ، وذلك لأنهم عندما انتقلوا إلى مصر فصلوا صقلية عن إفريقية وجعلوها ولاية تابعة لهم مباشرة ، وزودوا قاعدة طرابلس البحرية بما يضمن سلامة صقلية . وكان هذا إجراءً خطأً على أى حال ، لأن الوضع الطبيعي الذى يضمن سلامة صقلية هو إبقاؤها تابعة لنوابهم على إفريقية بنى زيرى بن مناد . أما هذا الوضع فقد جعل صقلية معلقة في الهواء ، فلا بنو زيرى قادرون على معاونتها ، ولا الفاطميون قادرون على حمايتها ، وكان هذا من أسباب سقوطها في يد النورمان بل استولى النورمان على طرابلس نفسها .

وعمّر الفاطميون موانىء صقلية الكثيرة وخاصة مسيني وطبرمين وقطانية وسرقوسة والبوالص Porte di Valisse قريباً من مرسى على Marsala وتُوطِس Naupactis ورغوص Ragusa ولنباذة Lympiada وتسمى اليوم Licata وجرجنت والشاقة Sciacca وطرابُنش Trapani والحمة Bagni Segestani .

وكان جزء كبير من السواحل الجنوبية والغربية لجزيرة قرسقة Corsica تحت سلطان المسلمين ، ويذهب الحميرى في « الروض المعطار » إلى أن إمارة قرطبة حازت قرسقة أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم (وهو عبد الرحمن الأوسط) وقد انفرد بهذا الخبر . وذكر أن المسلمين كان لهم فيها ميناءان : مرسى البوالص ومرسى الزيتونة .

وكان أكبر معين للفاطميين على هذا النشاط البحرى أن سكان سواحل المغرب كانوا من المشتغلين بالبحر من قديم الزمان ، ولهم دربة على ركوب البحر وجرأة عليه ، وكانوا كذلك حوال تاريخهم ، فأفاد الفاطميون منهم ، وتنبهوا لأهمية السيطرة البحرية كوسيلة لحماية أرض الإسلام ، وأساس للتجارة ومورد للمال ، فإن نشاط الفاطميين في الغارة على سواحل النصرانية كان مورداً من أكبر موارد المال عندهم ، وقد اشتهرت أيام عبيد الله المهدى غارة قام بها أسطول فاطمى على وادى وارى Orta في كلابريه في إيطاليا عادت بغنائم وفيرة جداً .

وكانت السفن الإسلامية كثيرة متنوعة الأشكال والأحجام ، وتدل كثرة أنواعها على اتساع صناعة السفن البحرية في البلاد الإسلامية في البحر المتوسط ، وقد مهر المسلمون في بنائها في كل دور صناعتهم ، ومهروا كذلك في قيادتها واستخدامها في الحروب .

وكانت دور الصناعة تقوم في كل الموانىء التي ذكرناها ، ولكن دار صناعة الروضة قرب الفسطاط امتازت بإنشاء أكبر السفن وأمتنها ، وفي العصر الفاطمى أنشئت دار صناعة جديدة في المقس ميناء القاهرة على النيل ، ومع الزمن أصبحت المقس دار الصناعة الرئيسية للأسطول الفاطمى .

تقسيم سواحل الدولة الفاطمية .

وبعد انتقال الدولة الفاطمية إلى مصر وتمكنها من ضم الشام حتى حلب وأنطاكية في الشمال سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م أصبحت الدولة الفاطمية تمتد من حدود آسيا الصغرى إلى حدود إقليم تلمسان ، لأن بلاد إفريقية والمغرب الأوسط كانت معدودة في دولتهم ، وإن حكمها نائب عن الخليفة الفاطمى مستقل عنه إلى حد كبير . وقد قسمت الدولة إدارياً إلى الأقسام التالية :

(١) مصر وحدودها تمتد من رفح إلى عقبة السلوم ، وتتبعها خمس كور صغار تمتد على الشاطىء الشرقي لخليج العقبة وتصل إلى مدين .

(٢) الشام وتمتد سواحلها من رفح إلى أنطاكية .

(٣) ليبيا ومراقية وهي البلاد الممتدة من السلوم إلى برقة وتحتو برقة إلى خليج سرت جزءاً منها ، وكانت ليبيا ومراقية جزءاً إدارياً من مصر وإن حكمها والٍ خاص . وبعد أن نشبت ثورة الثائر الأموى الوليد بن هشام الأموى المعروف بأبي ركوة سنة ٣٩٦ هـ / ١٠٠٥ م ضمت ليبيا ومراقية نهائياً إلى مصر .

(٤) طرابلس وتمتد من سرت إلى قابس وتدخل فيها أجدابية . وقد ولى المعز الفاطمى عليها عند انتقاله إلى مصر عبد الله بن يخلفتن الكتامى ، ثم أضافها سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م إلى ولاية إفريقية والمغرب التي كان يتولاها يوسف بلقين بن زيرى الصنهاجى . ثم ثار فيها واستقل بها زعيم زناتى يسمى فلفول بن سعيد حفيد خزرون الزناتى منذ سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م ، وكان سعيد بن خزرون وبنوه خارجين على الفاطميين وعلى نوابهم في إفريقية وهم بنو زيرى لأن بنى خزرون كانوا زناتية . ثم امتد سلطان فلفول بن سعيد على طرابلس . وقد ظل بنو خزرون يسودون طرابلس حتى جاء العرب الهلاليون فتصاهروا معهم وأقاموا يحكمون طرابلس حتى سقطت في أيدى النورمان سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م فولى عليهم رجار والياً نصرانياً فثار به جماعة بنوها يتزعمهم أبو يحيى بن مطروح وأخرجوهم منها ، فلما جاء الموحدون سنة ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م أقر عبد المؤمن بن على يحيى بن مطروح على طرابلس ، فلما كبرت سنه تخلى عن الأمر وذهب إلى الإسكندرية حيث مات ، ودخلت طرابلس في ولاية السيد أبى زيد بن عمر بن عبد المؤمن بن على والى إفريقية الموحدى ، فلما تولى أمر إفريقية أبو زكريا بن أبى عمر بن أبى حفص الهنتاتى دخلت طرابلس في طاعته وأصبحت من ذلك الحين جزءاً من دولة الحفصيين أصحاب إفريقية ، وإن كانت قد تعاقبت عليها ثورات كثيرة .

(٥) إفريقية والمغرب الأوسط .

وقد تحدثنا عن حدودها بمناسبة الكلام عن المغرب في العصر الفاطمى وما بعده ، وكان يتولاها بنو زيرى بن مناد الصنهاجيون ، نواب الفاطميين ، ثم انقسمت الدولة قسمين عندما استقل بنو حماد أصحاب القلعة بالمغرب الأوسط على ماذكرناه .

(٦) صقلية وكانت تابعة لمصر بعد سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ - ٩٧٢ م ، وكانت طرابلس هي مركز اتصالها بالفاطميين في مصر ، وكان الأسطول الفاطمى المكلف بحماية وسط البحر المتوسط مركزه طرابلس .

وكان لكل من هذه البلاد أسطولها وبحريتها ودور صناعتها .

وقد رأينا كيف تغلب النورمان على بنى زيرى وبنى حماد في البحر حتى احتلوا الشواطىء من طرابلس إلى بنزرت .

وبقى أن نتكلم عن الدور الذى قام به الأسطول الفاطمى الرئيسى من موانى مصر والشام في الصراع مع البيزنطيين .

الأسطول الفاطمى في الصراع مع البيزنطيين ثم الصليبيين .

كان اهتمام الفاطميين بالأساطيل والقوة البحرية عظيماً كما رأينا، وقد أخذ الفاطميون على عاتقهم - منذ استقرارهم في مصر وامتداد سلطانهم على الشام - مواجهة البيزنطيين وردهم عن البلاد الشامية والجزرية التي اعتدوا عليها . وقد فعل الفاطميون ذلك ليظهروا أنهم حماة ثغور الإسلام دون العباسيين ، ومعنى ذلك أنهم أحق منهم بالخلافة .

لهذا اهتم المعز لدين الله بالأسطول والبحرية اهتماماً عظيماً ، فأنشأ ديوان الجهاد والعمائر ليضاهى بذلك خطة أشغال البحر أو خطة الأشغال التي أنشأها الأمويون في الأندلس للعناية بشئون البحر ، وأقاموا عليها قائداً كبيراً يسمى صاحب أشغال البحر أو صاحب الأشغال .

وبلغ سلطان الفاطميين على الشام ذروته أيام الحاكم بأمر الله ، فقد دان لهم الشام كله حتى حلب وأنطاكية .

وفى أيام الخليفة الظاهر أبى الحسن على (٤١١ هـ - ٤٢٧ هـ / ١٠٢٠ - ١٠٣٦ م) بدأ سلطان الفاطميين على الشام يتقلص ، فاستقل بنو مرداس الكلابيون بحلب ، وعندما ظهر الأتراك السلاجقة فى الميدان تمكنوا سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م من اقتطاع الكثير من بلاد الشام من الفاطميين .

وفى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م استقل بطرابلس القاضى أبو طالب الحسين بن عمار ثم استقلت دمشق وصور وسائر بلاد الشام .

ولم يبق للفاطميين من بلاد الساحل إلا عكا وصيدا وعسقلان ومايليها جنوباً

وفى سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م استقل أتسز بدمشق ، وبعد سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م لم يبق للفاطميين إلا فلسطين ووقف سلطانهم على السواحل عند عسقلان .

وفى شعبان ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م استعاد الفاطميون إمارة بيت المقدس ، وظلت خاضعة لهم حتى دخلها الصليبيون فى شعبان ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م واستولى الصليبيون على موانىء الشام .

٤٩٤ هـ / ١١٠١ م	سقطت حيفا وأرسوف وقيسارية .
٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م	سقطت أنطرسوس .
٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م	سقطت عكا .
٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م	استولوا على طرابلس وجبلة .
٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م	استولوا على بيروت وجبيل وبانياس .
٥٠٤ هـ / ١١١٠ م	استولوا على صيدا .
٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م	استولوا على عسقلان .

وبهذا لم يعد فى يد الفاطميين من موانىء الشام شىء .

واقتصرت جهود الفاطميين البحرية بعد ذلك على محاولات غير موفقة لاستعادة بعض موانىء الشام أو لمواجهة الصليبيين والروم وحلفائهم الجنويين والبيشيين أهل بيشة (بيزا) والبنادقين .

ولكن الأسطول الفاطمى تمكن من حماية سواحل مصر من عدوان الروم حتى زوال الدولة الفاطمية .

وفى نفس الوقت كانت صقلية وجزائر وسط البحر المتوسط قد سقطت فى يد النورمان كما ذكرنا .

الحوضان الأوسط والغربى للبحر المتوسط من منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى إلى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى .

خلال هذه الفترة بلغت البحرية الأندلسية أوجها ، سواء من الناحية الحربية أو التجارية أيام كانت خلافة قرطبة فى أوج قوتها ، وقد استمرت سيادة الأندلس على الحوض الغربى للبحر المتوسط حتى منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى أثناء عصر الطوائف .

وفى ذلك العصر أيضاً كانت الدولة الفاطمية قد انتقلت إلى مصر وخلفها بنو زيرى فى إفريقية وبنو الحسن الكلبيون فى صقلية ، ولم يكن كلاهما كفؤاً للنورمان الذين قامت دولتهم فى جنوب إيطاليا وتطلعوا لغزو صقلية والعدوان على سواحل المغرب .

وفى نهاية القرن الحادى عشر نجد أن البحر المتوسط كله قد ضاع من أيدى المسلمين ، ففى الشرق تسلطت أساطيل الروم والبنادقة ، وكانت هذه السيادة النصرانية من أكبر ماشجع أوروبا على القيام بالعدوان الصليبى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

تطور البحرية الأندلسية .

رأينا كيف نشأت البحرية الأندلسية فى أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وليس معنى ذلك أن سواحل الأندلس كانت بغير حماية قبل ذلك ، فقد كان هناك دائماً أسطول صغير يحمى السواحل ، ولكن الذى عنيناه هو قيام الأسطول الضخم القادر على الحماية الفعلية لسواحل الأندلس الطويلة من مصب الإبرو على البحر المتوسط إلى مصب الدويرو على ساحل الأطلسى .

وفى أيام عبد الرحمن الثالث نمت البحرية الأندلسية إلى درجة استطاعت معها أن تمنع وصول أية سفينة إلى السواحل الممتدة من المرية إلى إشبيلية حتى لايحصل الثائر ابن حفصون على أى معونة من الفاطميين فى المغرب ، وقد ذكرنا كيف تمكن الأسطول الأندلسى من الاستيلاء على سبتة سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٧ م ، ومليلة سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م وبذلك أصبح على الأسطول الأندلسى أن يحمى أيضاً مساحة كبيرة من سواحل المغرب الأقصى . وعندما غزا أسطول فاطمى ميناء المرية سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م قام أسطول أموى يرفع راية الأمويين البيضاء بغزو ميناء مرسى الخزر (لاكال La Calle اليوم) فى تونس ونزل جند البحرية الأندلسية إلى الشاطىء ونهبوا الساحل حتى طبرقة من ناحية ، وسوسة من ناحية أخرى . وقد أراد عبد الرحمن الناصر بذلك أن يُرى الفاطميين أن رجاله قادرون على الوصول إلى قلب بلاد الفاطميين .

وقد استخدم المنصور محمد بن أبى عامر أساطيله لمعاونة جيوشه فى القيام بغزواته الواسعة فى بلاد النصارى فى الشمال ، ففى سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م قامت البحرية الأندلسية بنقل قوة من الجيش من الأشبونة إلى ساحل جليقية ، حيث التقت بالجيش البرى الذى قام بغزوة شنت ياقب المشهورة . وفى سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م غزت بحرية المنصور قطلونية من البحر ووصلت إلى برشلونة

وقد ذكرنا كيف أنشأ البحريون البجانيون ميناء المرية ، ونقول الآن إن المرية أصبحت أكبر الموانىء الأندلسية فى أيام الناصر ، وكانت مركزاً لقائد البحر الأندلسى ، وبها أقام وعمل كبار رؤساء الأساطيل الأندلسية من أمثال عبد الله بن رماحس الذى كان فى نفس الوقت عاملاً على كورتى بجانة والبيرة أى غرناطة وقد خاف قوته المنصور محمد بن أبى عامر فمازال يسعى حتى قتله بالسم سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م . وكان صاحب الأشغال البحرية فى الأندلس واحداً من أربعة رجال يعتبرون أكبر رجال الدولة وهم : الخليفة وقائد جيش الثغر الأعلى ، وقاضى قرطبة ، وصاحب الأشغال .

وليس لدينا معلومات مفصلة عن البحرية الأندلسية تشبه تلك التى يقدمها لنا القلقشندى والمقريزى عن البحرية المصرية ، ولكن بعض النصوص المتفرقة تجعل عدد سفن الأسطول مابين ٢٠٠ و ٣٠٠ ، وهو عدد قليل . وكان لكل سفينة ضابط يدير عمليات الحرب يسمى القائد ، وآخر مسئول عن تسيير السفينة وتوجيهها ويسمى الرئيس .

وكان فى الأندلس دور صناعة فى المرية ومالقة وإشبيلية وقادش والجزيرة الخضراء وشنترين ولقنت ودانية وقصر أبى دانس Alcocer do sal وكانت كل منها تسمى دار الصناعة أو الصناعة أو دار الإنشاء أو دار صناعة المراكب . ثم أنشئت بعد ذلك دار صناعة فى طرطوشة لحماية سواحل الأندلس من غارات ألفاد أو أكناد قطلونية (جمع لفد وهو الكوند) .

قراصنة البحر المتوسط .

وكانت القرصنة أو التلصص فى البحر أمراً شائعاً فى تلك العصور . وكان الحوض الغربى للبحر المتوسط حافلاً بجماعات من أولئك القراصنة بعضها نصرانى وبعضها إسلامى وبعضها مختلط من هؤلاء وأولئك تعمل لحساب أنفسها وتتخذ لأنفسها مراكز وقواعد على شواطىء سردانية وقرسقة بصورة خاصة .

ولحماية شاطىء الأندلس من ضربات أولئك الغزاة أقيمت عليها وعلى مسافات متقاربة منائر عالية تسمى الطلائع - وواحدتها طليعة - يقيم فيها حراس ، وفى أعلاها موضع لإيقاد النار للإنذار بالخطر ليلاً ، أما بالنهار فكانوا يوقدون بها حطباً يرسل دخاناً أبيض كثيفاً يُرى من بعيد . وإلى جانب الطلائع كانت سواحل الأندلس والمغرب عامرة دائماً بالأربطة أو الرُبُط - جمع رباط - يقيم فيها رجال يرابطون على أبواب دار الإسلام حِسْبَة لله . وكانت هذه الأربطة كثيرة جداً حتى أحصى أوليفر آسين أكثر من ثمانين موضعاً فى الأندلس تحمل إلى اليوم اسم La Rábida ، ومن أشهرها رباط النوبة الذى أقيم أمام ولبه غير بعيد عن مصب النهر الأحمر Rio Tinto وهذا الموضع مازال إلى اليوم ميناءً عامراً يسمى La Rábida ومن عجائب المقادير أن كريستوفر كولومبوس ترك ابنه ديجو فى لارابيدا فى دير للرهبان عندما ذهب لمقابلة فرناندو وإيزابيلا فى إشبيلية . وقرب لارابيدا يقوم ميناء شلوقة الغربى San lucar de Barrameda الذى خرجت منه سفن كولومبوس لاستكشاف العالم الجديد .

الملاحة التجارية للأندلس .

وفيما يتصل بالملاحة التجارية كان الأندلسيون من أنشط بلاد الإسلام في هذا المجال ، فلا يضاهيهم في وفرة النشاط البحري والتنظيم التجاري والجرأة على ركوب البحر إلا أهل الجنوب العربي والخليج العربي . فقد قامت على الشاطىء الشرقي للأندلس من الجزيرة الخضراء إلى طرطوشة عشرات المراكز البحرية ومراكز الأسواق ودور صناعة السفن خاصة . وعلى الرغم من العداء السياسي بين الفاطميين والأمويين فإن التجارة بين شواطىء مصر والمغرب والأندلس ظلت سائرة بانتظام دون أن يعترض لها الحكام ، لأن التجار كانوا يأتون إلى الأندلس ببضائع المشرق التي يحتاج إليها خلفاء قرطبة أنفسهم والعكس صحيح ، ثم إن السفن كانت طول الوقت جارية [illegible] بل كانت السفن الأندلسية تذهب وتجيء آمنة إلى مينائي قطلونية وهما برشلونة وأمورياش وإلى المواني الإيطالية البعيدة .

ولكن تجارة الأندلس الكبرى كانت مع شواطىء إفريقية ، وهنا نجد أنه كانت هناك خطوط ملاحية منتظمة بين موانىء القطرين ، وقد نظمت هذه الخطوط إلى درجة أن كل ميناء أندلسي تخصص في التجارة مع ميناء مغربي مقابل . وقد بيّن لنا البكري هذه الخطوط بتفصيل ودقة وأثبتناها على الخريطة بأسهم . وقد عرف الأندلسيون كل أنواع السفن التي ذكرناها كالشيني والحراقة والبطسة والزورق ، وعرفوا كذلك أنواعاً أخرى من السفن اختصوا بها مثل الدحية .

وكان تجار البحر الأندلسيون يعملون في العادة جماعات تشترك في بناء المراكب وتسييرها والاشتراك في التجارة وماإلى ذلك ، ولدينا في وثائق البيوع الأندلسية صور عقود بين تجار يعملون على أساس المشاركة أو المناصفة ، وكان أولئك التجار إذا نزلوا ميناء بحثاً تصرفوا جماعة واتخذوا من بينهم رئيساً يتفاوض باسمهم مع السلطات المحلية . وقد أنشأ أولئك التجار الأندلسيون جاليات لهم في معظم موانىء المغرب وكانوا يشتركون معا في إقامة المخازن والمراسي ، وإليهم يرجع الفضل في تعمير الكثير من موانىء المغرب . وكان لهم نشاط واسع في العمل التجاري ، وشجعهم على ذلك أن إنتاج بلادهم من مصنوعات ومواد خام كان وفيراً ، فكانوا يحملون إلى بلاد المغرب ومصر زيت الزيتون والتين المالقي المشهور والأخشاب والزعفران وأصنافاً من النسيج كالوشي والسقلاطون وهو نسيج حريري مشغول بالذهب ، وكانت مناسج الأندلس تنافس مناسج بغداد في عمله ، وقد اشتهرت الأندلس بالفلين الذي كان يسمى القُرْق ومن هنا جاء اسمه بالإنجليزية Cork ، وكان الأندلسيون يصنعون منه نعال أحذية خفيفة تسمى القرقة ، ولازالت تصنع في إسبانيا إلى اليوم وتسمى Alpargates .

وإسبانيا غنية بالمعادن ، فكان التجار يحملونها إلى كل مكان ، ولهذا فقد كانت بضائع الأندلس مطلوبة في الشرق والغرب ، وكان هذا من أكبر ماشجع تجار الأندلس على الخروج في رحلات البحر إلى كل موانىء البحر المتوسط حتى موانىء الشام . وبفضل هذا النشاط ساد الأندلسيون الحوض الغربي للبحر المتوسط ، بل أنشئوا لأنفسهم قواعد تجارية في نواح غير إسلامية مثل سردانية وقرسقة .

ولم يتوقف هذا النشاط بعد سقوط الخلافة وافتراق أمر الأندلس وتقاسم ملوك الطوائف لها كما سنرى .

ضياع سيادة المسلمين على الحوض الأوسط للبحر المتوسط . وتطور أحوال المسلمين في صقلية .

بعد وفاة إبراهيم بن أحمد الأغلبي سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م انتقضت سرقوسة وطبرمين وبقية شرق الجزيرة على المسلمين ، وحاول حكام صقلية إعادة هذه الأجزاء إلى الطاعة دون جدوى ، لأن الدولة البيزنطية وإمدادات من أوروبا النصرانية أمدت تمد الثائرين بالمال والجند والعتاد .

من ذلك الحين أصبحت السيادة على الجزيرة سجالاً بين المسلمين سادة الشمال والوسط والجنوب ومركزهم بلرم وقصريانة من ناحية ، والنصارى في الشرق من ناحية أخرى وقاعدتهم سرقوسة .

وبعد زوال الدولة الأغلبية وقيام الدولة الفاطمية محلها سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م دخلت صقلية في فترة طويلة من الفوضى والاضطراب ، واستقل كثيرون من قادة مسلمي صقلية في حصونهم ، واستمرت هذه الحال من ٣٠٠ هـ إلى ٣٢٧ هـ / ٩١٢ م إلى ٩٣٨ م .

ثم رفض أهل صقلية الطاعة للعبيديين الشيعيين ، وولوا على أنفسهم أحمد بن قرهب وكان صقلياً من البيت الأغلبي . وكان يعرف الجزيرة وأهلها معرفة جيدة ، فرفض الولاية أول الأمر ثم قبلها بعد إلحاح . وكانت فكرته أن يتم إخضاع شرق الجزيرة ويتخذ طبرمين عاصمة له بدلاً من بلرم التي كانت الخلافات تمزق أهلها . فلما شرع في تنفيذ خطته لم يثبت معه الصقليون ، وفشل في الاستيلاء على طبرمين ، ولكن رؤساء مسلمي صقلية أيدوه فظل على ولايته ، وبعث إلى عبيد الله الشيعي يعلن طاعته ويطلب العون ، ولكن عبيد الله لم يستجب له فكتب إلى الخليفة العباسي ودخل في طاعته ، وبذلك انفصلت صقلية عن إفريقية ، واشتدت العداوة بين أحمد بن قرهب وعبيد الله المهدي ، وفكر أحمد ابن قرهب في غزو إفريقية ولكنه لم يوفق ، وفي أعقاب ذلك تخلى عنه الصقليون وأسلموه وابنه ونفرا من أهل بيته إلى رجال الفاطميين فقتلوهم .

وأراد الصقليون أن يظل كل زعيم منهم سيداً على ناحيته ، وأن تكون السيادة الفاطمية اسمية فقط ، فرفض عبيد الله المهدي ذلك ، وأرسل إليهم قوات تغلبت عليهم ، وولى على الجزيرة حاكماً يسمى سالم بن أبي راشد تؤيده قوة عسكرية من الكتاميين .

وكان سالم بن أبي راشد ظالما فضج الصقليون بالشكوى منه ، فعزله عبيد الله وعين مكانه خليل بن إسحق ، فلم يكن خيراً من سابقه ، بل بلغ من شدته أن هدم أسوار بلرم لكيلا يحتمى أهلها بها منه . فما كان من أهل بلرم إلا أن استعان الكثيرون منهم بالروم ، وارتد عن الإسلام وانضم إلى النصارى نفر من ضعاف الإيمان (٣٢٧ هـ - ٣٢٩ هـ / ٩٣٨ م - ٩٤٠ م) .

صقلية في حكم بني أبي الحسين الكلبيين (٣٣٦ - ٤٣١ هـ / ٩٤٧ - ١٠٣٩ م)

عندما يئس الفاطميون من أمر صقلية ولى الخليفة الفاطمي الثاني - وهو القائم بأمر الله - عليها الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي ، وكان أولئك الكلبيون من أخلص رجال الفاطميين في إفريقية ، وأثبت الحسن الكلبي أنه والٍ قدير فهدأ البلاد وجمع كلمة أهلها ، وظل أولاده وأحفادهم يحكمون الجزيرة ٩٥ سنة هجرية هي العصر الذهبي للحكم الإسلامي في الجزيرة فساد الأمان واستتب النظام وأزهرت الحضارة ، وأصبحت بلرم قاعدة إسلامية كبرى وخاصة بعد أن بني مسجدها الجامع العظيم . وبلغت أسرة الكلبيين ذروة قوتها أيام أبي الفتح يوسف الكلبي الملقب بثقة الدولة (٣٧٩ - ٣٨٨ هـ / ٩٨٩ - ٩٩٨ م) . وقد شغل الصقليين عن الخلاف عليه بتوجيههم إلى الغزو في جنوب إيطاليا .

الفترة الأخيرة من تاريخ صقلية الإسلامية : انقسام صقلية بين ملوك الطوائف .

كان آخر الكلبيين هو الحسن الصمصام بن يوسف الكلبي (٤١٦ - ٤٦١ هـ / ١٠٢٥ - ١٠٦٨ م) . وقد ثار عليه الصقليون وأخرجوه من الجزيرة واستقل كل منهم بناحيته وأهمهم :

القائد ابن منكود استقل بغرب الجزيرة : مازر وأطرابنش والشاقة ومرسى علي . وكذلك استقل ابن الحواس علي بن نعمة بوسط الجزيرة : قصريانة وجرجنت ، وأما محمد بن إبراهيم ابن الثُّمنة (القادر بالله) فاستقل بشرق الجزيرة وجعل سرقوسة عاصمة له .

الغزو النورماندي : ضياع الجزيرة .

اشتدت العداوة بين محمد بن إبراهيم بن الثمنة وابن الحواس علي بن نعمة ، وفي أثناء الحروب انهزم ابن الثمنة فاستنجد برجار النورماندي صاحب جنوبي إيطاليا سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، فأقبل بقواته إلى الجزيرة وبدأ يستولي على معاقلها .

وكان النورمان يتطلعون إلى صقلية منذ قيام دولتهم في جنوبي إيطاليا ، ولكنهم كانوا في حاجة إلى عون معنوي من البابوية حتى تصبح حكومتهم شرعية ، فانضموا إلى البابوية فأجازت لهم انتزاع جنوبي إيطاليا من البيزنطيين ، وأصبح النورمان حلفاءها ضد الإمبراطورية الألمانية من ناحية ، والبيزنطيين من ناحية أخرى (٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م) .

وموجز الحوادث كما يلي :

٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م	كان البابا نيقولا الثاني لاجئاً في أمالفي هرباً من الإمبراطور فاتفق مع روبرت جسكارد رئيس النورمان على أن يؤيده في صراعه مع

أعدائه فى مقابل منح البابا له الحق فى حكم أبوليا وكلابريا اللتين انتزعهما من البيزنطيين ، كذلك منحه البابا الحق فى صقلية إذا استولى عليها من أيدى المسلمين .

٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م فرغ روبرت جسكارد من بسط سلطانه على كل جنوبى إيطاليا : أبوليا وكلابريا (قلورية) وبازيليكاتا والقبانية (وقاعدتها سالرنو وفيها تقع أمالفى) .

٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م أرسل روبرت جسكارد أخاه روجر الأول (رجار) لغزو صقلية عندما استغاث به ابن الثمنة . سقطت مسينا سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م بمساعدة ابن الثمنة .

٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م أتم الاستيلاء على شمال الجزيرة بما فى ذلك بلرم عاصمة صقلية الإسلامية .

٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م أتم رجار الاستيلاء على الجزيرة كلها ، وأبقى الحكام المسلمين على ولاياتهم أول الأمر ثم أخذ يعزلهم واحداً بعد الآخر ويولى عليهم حكاماً من النورمان أو الصقليين . ولم يبق إلا على عدد قليل من العرب ممن توسم فيهم الإخلاص له .

٥٠٦ هـ / ١١١٢ م بلغ ابنه روجر الثانى سن الرشد وتولى العرش ، وأعلن نفسه ملكاً على صقلية وجعل عاصمته بلرم واستمر على سياسة التسامح مع المسلمين .

٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م وفاة روجر الثانى ونهاية عصر التسامح الدينى فى صقلية ، وبداية اضطهاد المسلمين .

٥٤٩ - ٥٦٢ هـ ١١٥٤ - ١١٦٦ م

غليالم الأول يخلف روجر الثانى أباه على العرش ، وينتهج سياسة القضاء على الإسلام فى صقلية

٥٦٢ - ٥٨٥ هـ / ١١٦٦ - ١١٨٩ م

غليالم الثانى خليفة غليالم الأول يقضى على بقية المسلمين فى صقلية ، وبضياع صقلية والقضاء على المسلمين فيها تلاشى أيضاً كل وجود سياسى للمسلمين فى جنوب إيطاليا ، وانتقلت سيادة الحوض الأوسط للبحر المتوسط إلى أيدى النورمان وأهل الجمهوريات الإيطالية التجارية .

عدوان النورمان على شواطىء إفريقية والمغرب واستعادتها .

٥١٢ - ٥١٧ هـ / ١١١٨ - ١١٢٣ م

روجر الثانى ملك النورمان يحاول الاستيلاء على المهدية من أيدى بنى زيرى بدون نجاح .

٥٢٩ - ٥٣٠ هـ ١١٣٤ - ١١٣٥ م

استيلاء روجر على جزيرة جربة

٥٤١ هـ / ١١٤٦ م روجر الثانى يستولى على طرابلس .

٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م سقوط المهدية فى يد روجر الثانى . سيطرة النورمان على شواطىء طرابلس وإفريقية من طرابلس إلى تونس وبعض مواقع برقة وتهديد القيروان

٥٤٦ أو ٥٤٧ هـ / ١١٥١ أو ١١٥٢ م

وفاة قائد الأسطول النورمانى ، جورج الأنطاكى الذى كان يتولى حرب المسلمين والعدوان على شواطئهم . وكان الذراع اليمنى لروجر الثانى .

١١ ذى الحجة ٥٤٨ هـ / ٢٧ فبراير ١١٥٤ م

وفاة روجر الثانى . توقف نشاط العدوان النورمانى على شواطىء المسلمين .

٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م عبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين يطرد النورمان من المهدية ، ويستعيد كل شواطىء المغرب ومراسيه التى كانت بأيدى النورمان .

٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م غليالم الثانى النورمانى يرسل حملة تغير على الإسكندرية .

آخـر مظهـر للنشـاط البحـرى الأندلسـى

مجاهد العامرى الدانى وأولاده يسيطرون على الحوض الغربى للبحر المتوسط ،

وتاريخ الجزائر الشرقية حتى عصر المرابطين .

كان أبو الجيش مجاهد العامرى من الموالى الصقالبة الذين نشئوا حول المنصور محمد ابن أبى عامر وتربوا فى مدرسته وعندما قامت الفتنة الأندلسية كان والياً على الجزائر الشرقية فانضم إلى محمد بن عبد الجبار المهدى أحد المطالبين بعرش الخلافة ، فلما انهزم هذا أمام قوات البربر المؤيدين لمنافسه سليمان المستعين فى موقعة قنتيش (٥ نوفمبر ١٠٠٩ م) هرب مجاهد مع نفر من الصقالبة واستقر فى دانية ، وهناك بايع لمطالب أموى آخر بالعرش يسمى المعيطى ، فلما انهزم سليمان المستعين فى موقعة عقبة البقر أمام قوات محمد بن عبد الجبار المهدى حاول مجاهد العودة إلى قرطبة والمناداة بالمعيطى خليفة ، ولكن الحزب الأندلسى الذى كان يؤيد محمد بن عبد الجبار المهدى انهزم نهائياً أمام قوات البربر فى ٢٣ يوليو ١٠١٠ ميلادية ، وقتل محمد بن عبد الجبار ، وعلى إثر ذلك عاد مجاهد إلى دانية وجعلها إمارة طوائف واستقر فيها نهائياً ، ووجه كل همه إلى التوسع فى البحر بالاستيلاء على الجزائر الشرقية (البليار) وماتيسر له من سردانية والقيام بغارات بحرية واسعة على كل شواطىء إيطاليا وفرنسا . ونجح فى ذلك نجاحاً كبيراً حتى أصبح اسمه رعباً لكل بلاد سواحل أوروبا ، وقد أصبحت ولايته أو إمارته تضم دانية والجزائر الشرقية .

ودانية ميناء هام فى شرق الأندلس يقوم فى رأس مثلث بارز فى البحر وركناه الآخران هما لقنت ومرسية .

وفيما يلى أهم أعماله :

فتـح سـردانيـة .

وعندما بدأ مجاهد نشاطه البحرى انضم إليه الألوف من غزاة البحر المسلمين ، فأنشأ أسطولاً ضخماً شحنه بالرجال ومضى يقوم بأعماله البحرية .

٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م استقر مجاهد نهائياً فى دانية والجزائر الشرقية . وهناك من يقولون إنه كان أول الأمر والياً على دانية ثم ضم إليه الجزائر الشرقية ، وبدأ فى الاستعداد لغزو سردانية .

وقد غزا سردانية قبله عياش بن أخيل قائد موسى بن نصير سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م ، وتوالت عليها غزوات المسلمين بعد ذلك فى سنوات ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م و ١٩٨ هـ / ٨١٣ م و ٢٠١ هـ / ٨١٦ م و ٢٠٢ هـ / ٨١٧ م و ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م ، وكانت كلها غزوات سريعة لاتقصد إلى الاستقرار ، بل هدفها السلب والنهب ، وفى أكثر من مرة نهبوا كنيسة كبارى عاصمة سردانية التى

يغلب أنها مرسى البوالص التى يذكرها مؤرخونا العرب . أما مجاهد فقد رمى إلى فتحها تماماً وجعلها بلداً إسلامياً ، وكانت سردانية تابعة اسماً للدولة البيزنطية ، ولكنها كانت فى الحقيقة مستقلة ، وإن زعم مؤرخو الفرنجة أنها تابعة لهم .

ربيع أول ٤٠٦ هـ / أغسطس ١٠١٥ م

أعد مجاهد أسطولاً كبيراً وأرسله فى ذلك التاريخ إلى سردانية تحت قيادة أمير البحر أبى حروب . كانت المسافة من ميورقة إلى دانية بالبحر ٨ أيام .

رست الحملة فى كليارى فى جنوب سردانية . ونهض لردها أهل الجزيرة برئاسة قائدهم مالوتو Maluto ولكنه انهزم وقتل .

بدأ فتح الجزيرة فى ربيع الثانى ٤٠٦ هـ / سبتمبر ١٠١٥ م ، وفى نهاية العام المسيحى كان فتح الجزيرة كلها قد تم .

اســترداد ســردانية .

أفزع هذا الخبر كل الجمهوريات الإيطالية وبخاصة جنوا وبيزا وأمالفى ودعا البابا بندكت الثامن إلى القيام بحملة صليبية لإخراج المسلمين من الجزيرة .

فى ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م سار أسطول نصرانى مكون من رجال بيزا وجنوا وأمالفى ومتطوعين نصارى كثيرين ، ونزلت الحملة الشاطىء واستولت على كلبارى . وكان معظم جنود مجاهد متفرقين بداخل الجزيرة ، وكانت سفن الأسطول الإسلامى راسية خالية من الرجال ، فأنزل النصارى به هزيمة كبرى ، وأحرقوا الكثير من سفنه . وعندما علم رجال مجاهد بالخبر خافوا على مصيرهم فى الجزيرة فقرروا إخلاءها والعودة إلى الأندلس . وأثناء العودة هاجمهم أسطول النصارى وأسر الكثيرين منهم وفيهم ابنه على وأمه النصرانية الأصل

أثناء مقام مجاهد هذه الفترة القصيرة فى سردانية قام بغارات كثيرة على سواحل إيطاليا وفرنسا ، فذاع صيته وخافته كل بلاد البحر المتوسط وورد اسمه محرفا فى النصوص النصرانية إلى Mogetus و Moseto .

بعد هذه الهزيمة والتجربة القاسية عاد مجاهد إلى دانية وقرر الاقتصار عليها وعلى الجزائر الشرقية . ويقال إنه عاد إلى غزو سردانية سنتى ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م و ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م ولكن ذلك غير ثابت .

ولى مجاهد على الجزائر الشرقية ابن أخيه عبد الله ثم عزله سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م وولى عليها مولاه الأغلب .

توفى مجاهد العامرى سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م بعد أن قام بأكبر عمل قام به المسلمون إلى ذلك الحين فى غرب البحر المتوسط ، ولايجاريه فى ذلك إلا عروج وخير الدين برباروسا وطرغود ، وكلهم عثمانيون .

وكان مجاهد إلى جانب نشاطه البحرى رجلاً محباً بالعلم وكان شغوفاً بالقراءات ، وبفضله أصبحت دانية أكبر مركز لعلم القراءات ، وفى أيامه ظهر أبو عمرو سعيد الدانى عالم القراءات المشهور .

وخلفه على دانية والجزائر الشرقية ابنه حسن سعد الدولة ولكن أخاه علياً إقبال الدولة عاد من الأسر بعد ١٠ سنوات واستطاع أن يتولى الملك .

ســياســة المســالمة

سلك على إقبال الدولة سياسة مسالمة مع النصارى وبخاصة جنوا وبيشة وقطلونية وولاة جنوب فرنسا وكان يجيد الكلام بالإيطالية بسبب أسره الطويل .

ظل الأغلب والياً على الجزائر الشرقية حتى استأذن للحج ومضى إلى المشرق ولم يعد .

تولاها بعده سليمان بن مشكيان من قبل على بن مجاهد حتى توفى سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م

ومن مظاهر سياسة المسالمة مع النصارى أن على بن مجاهد وافق على وضع كنائس الجزائر الشرقية تحت رعاية أسقف قطلونية .

انتهت دولة على إقبال الدولة سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م عندما استولى على دانية منه المقتدر بن هود صاحب سرقسطة . وقد توفى على إقبال الدولة سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م .

استمر عبد الله المرتضى يحكم الجزائر الشرقية حتى وفاته سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م ، خلفه عليها أبو الربيع سليمان .

حاصر النصارى ميورقة سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م . وقد توفى أبو الربيع سليمان أثناء الحصار . فى هذه السنة استولى النصارى على ميورقة والجزائر الشرقية .

استعادها المرابطون فى أواخر ٥٠٩ هـ / ١١١٦ م على يد أمير البحر عبد الله ابن ميمون .

أقام المرابطون عليها وانود بن أبى بكر اللمتونى .

الخطوط الملاحية بين الأندلس والمغرب بحسب رواية أبى عبيد البكرى .

أورد أبو عبيد البكرى فى صفة إفريقية والمغرب « من كتابه المعروف بالمسالك والممالك ، نشر دى سلان فى مدينة الجزائر سنة ١٨٥٧ م ، ص ٨١ » بياناً بمراسى المغرب ومايقابل كلاً منها من موانىء الأندلس . ويفهم من كلامه أن كل مرسيين متقابلين كان بينهما خط ملاحى منتظم ، بمعنى أن الإنسان إذا قصد الميناء الأندلسى الفلانى فلا بد أن يركب السفينة من الميناء المغربى المقابل له .

وإليك بيان هذه المراسى ومقابلاتها :

موانى المغرب	مايقابلها من موانى الأندلس
مرسى إسلن إلى الشرق وأدنى المراسى المغربية إليه مرسى الماء المدفون ، والسكنى منه على مقربة ، وبينهما ١٣ ميلاً .	مرسى الراهب (بينهما مجريان وثلث)
مرسى جبل وهران	مرسى أشكوبرش Ascobares قرب المرية ، وهو المرسى القديم الذى نزله البحريون وأهل بجانة قبل نزولهم بجانة ، وبينهما مجريان ونصــف .
مرسى حجر عروج ، وهو مرسى شتوى مأمون وله آبار ماء ، والسكنى منه على مقربة ، وبينه وبين وهران فى البر ٤٠ ميلاً	مرسى آقلة Aguilas وهى مرسى مدينة لورقة Lorca وبينهما ثلاثة مجار .
مرسى قصر الفلوس ، وهى مدينة على البحر غير مسكونة وفيها ماء مجلوب وأحساء ماء ومرساها غير مأمون .	مرسى قرطاجنة .
مرسى مدينة بنى هاشم ، وهو مرسى صيفى لايكنّ من ريح ، وله رباط على ضفة البحر مسكون وماؤه كثير وبينه وبين قصر الفلوس ٣٥ ميلاً .	قصيل تدمير مرسية Cajtel de murcia والغالب أنه اليوم Las Alcaceres .
مرسى مدينة تنس ، وهو صيفى يُكن بشرقيه وغربيه ، وله ماء معين بينهما مراس لطاف (صغار) .	شنت بول Santa Pola .
مرسى جزيرة وقور ، بينهما أكثر من ٢٠ ميلاً وله نهر لطيف يصب فى البحر ، والجزيرة قريبة من البر .	مرسى لقنت Alicante بينهما فى البحر خمسة مجار .
مرسى شرشال ، وعليه مدينة عظيمة للأول غير مسكونة وله أحساء ماء يكن	مرسى مديرة بينهما خمسة مجار ونصف

بشرقيه وغربيه وفيها رباطات يجتمع إليها في كل عـام خلـق كـثير .

قد يكون المراد بني عمر الحالية Benidorm

جبل شنوة وله مرسى يسمى البطال وهو غير مسكون يكن غربيه وله ماء يسير .

جبل قرون
بينهما خمسة مجار ونصف
قد يكون المراد جبل Ifach وهو صخرة ضخمة في الماء كأنها جبل ، وإلى شمالها فرضة صغيرة تسمى Calpe وهذا اللفظ يطلق كثيراً على الجبال .

ثم يذكر البكري ثلاثة مراس مغربية لامقابل لها في الأندلس ، وهي مرسى هور وأنف القناطر ومرسى الدبان .

مرسى جانية وله جزيرة وهناك مدينة للأول غير مسكونة ، لها نهر يرتق في البحر .

مرسى دانية Denia
وبينهما ستة مجار .

مرسى الجزائر وتعرف بجزاير بني مرغني ، وهو مرسى مأمون مشتى به جزيرة سطحلة ، الغالب أن المراد بهذه الصخرة المسماة بالإسبانية El - Pinar من الشرق إلى الغرب وبين البر وبـالمرسى عين عذبة .

مرسى بنشكلة Peniscola
بينهما ستة مجار .

مرسى الدجاج وهو صيفي غير مأمون

جزيرة ميورقة

مرسى مدينة بجاية أزلية آهلة عامرة بأهل الأندلس بشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة وهو مرسى مأمون مشتى ، قد خرج عن محاذاة جزيرة الأندلس وهو ساحل قلعة أبي طويل .

ثم مرسى بونة مأمون وعلى هذا المرسى في تلك الجبال قبائل كتامة وهم شيعة .

ثم يلي ذلك مراس لايذكر البكري مقابلاً لها في الأندلس وهي :

- جزيرة جوبة قبل مرسى بجاية .
- مرسى سيبه
- مرسى جيجل
- مرسى الزيتونة :

يقابل : جزيرة سردانية

هذا المرسى حد جبال الرحمن وهو جبل عظيم خارج في البحر ، وفي ذلك الجبل مراسي الخراطين والشجرة والقل .

- مرسى أستورة وهو مرسى مدينة تسمدة .
- مرسى الروم إلى جزيرة غمر مرسى تكوش .
- رأس الحمراء – مرسى ابن الإلبيرى .
- مرسى الخروبة – مرسى منيع وهو مرسى بونة منه تخرج الشواني غازية إلى بلاد الروم وجزيرة سردانية وقرسقة وماوليا .
- مرسى الخزر وطبرقة ومرسى ابن أبي خيفة قباله جزيرة الأخوين ، مرسى الروم مرسى القبة وهو مرسى بنزرت .

قربه جزيرة قملارية منها تقلع قواطع الطير من الأندلس وغيرها إلى بلاد الروم .

- مرسى رأس الجبل – مرسى الثنية ثم رباط قصر أبي الصقر وقبالته جزائر الكراث (التي قتل فيها زيادة الله عمومته وإخوته) .
- مرسى رباط قصر الحجامين – مرسى قرطاجنة .
- مرسى قصر الأمير (بينه وبين تونس ٨ أميال في البحر) ومرسى رادس – مرسى تونس .

ثم يلي ذلك مراسي شرق تونس (ص ٨٤) .

وهنا يقول البكرى (ص ٨٤) : ثم مرسى كبير يسمى رادس وقد تقدم ذكره ومايورد فيه عند ذكر مدينة تونس ، ويلي مرسى تونس إلى القبلة من المراسي الكبار مرسى سوسة ، وبينهما من المراسي الصغار رباط الحمة ثم جون النخلة ، ثم مرسى بونة في قبالته جزيرتان إحداهما تعرف بالجامور الكبير ، والأخرى بالجامور الصغير ، وهي أصغر . ثم جبل أدار يظهر منه جبل صقلية . وفي هذا الجبل قوم متعبدون تخلوا عن الدنيا وسكنوا في هذا الجبل مع الوحش ، لباسهم البردى وعيشهم من نبات الأرض ومن صيد البحر . يتناولون من ذلك مايكون بُلغة لهم إذا جاعوا . والدعوة من أكثرهم مستجابة . وهذا الجبل معروف بالتزام هؤلاء فيه منذ فتحت إفريقية . ثم جون الملاّحة ، ويستمر البكري بعد ذلك في ذكر موانئه ومراسي إفريقية من المغرب إلى الإسكندرية (ص ٨٥ – ٨٦)

وهذا العرض يبين لنا – إلى جانب الخطوط البحرية – كثرة الموانيء والمراسي على شاطيء المغرب كله .

والمرسى الصيفي هو المرسى الذى لايستعمل إلا في الصيف لانكشافه وقلة أمانه . والشتوى مايستعمل صيفاً وشتاءً لأنه مرسى آمن . والمرسى الذى يكن هو الذى يحمى السفن .

ولم نذكر في هذا العرض النشاط البحري الإسلامي أثناء الحروب الصليبية ، لأننا ذكرناه في الفصل الخاص بها .

أما النشاط البحري الإسلامي في العصر التركي وحتى الحرب العالمية الأولى فسيرد ذكره في سياق الفصل الخاص بالدولة العثمانية .

خريطة ١٣٩

الملاحة البحرية في البحر المتوسط من القرن الرابع إلى القرن السابع الهجرى

كانت هناك خطوط ملاحية منتظمة إلى حد ما بين مصر والشام وبلاد الروم وقبرص وأقريطش والحجاز واليمن وصقلية .

وفيما يلي بيان موجز عن النشاط مع كل ناحية من هذه :

(أ) مع بلاد الشام : الثغور الرئيسية التى كانت السفن تقلع منها هى دمياط وتنيس والإسكندرية .

(ب) مع المغرب والأندلس : الإسكندرية :

وكان هناك خط ملاحي منتظم بين المرية ومرسى هنين (إلى غرب وهران) وبجاية وبونة وبنزرت ثم تونس – سوسة – المهدية – صفاقس – قابس – طرابلس – برقة الإسكندرية – دمياط – غزة – عسقلان – قيسارية – يافا – حيفا – عكا – صور – صيدا – بيروت – طرابلس – اللاذقية .

(جـ) وكانت التجارة المصرية تصل إلى الإسكندرية ثم تنقل إلى خليج الإسكندرية المتفرع من فرع رشيد ، ثم من فرع رشيد إلى الفسطاط ثم إلى الصعيد .

(د) وكانت التجارة الذاهبة إلى الشرق تنقل بالبر من الفسطاط إلى القلزم ، ومنها إلى عيذاب ، ومن عيذاب إلى جدة أو إلى موانىء اليمن .

(هـ) وكانت أيلة تنافس القلزم كميناء بحرى يوصل البضائع الآتية من البحر الأحمر إلى الشام .

(و) أما ميناء مصر الرئيسى فى البحر الأحمر فكان عيذاب المقابل لقوص حتى سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م عندما عمر ميناء الطور على يد بيبرس البندقدارى وأصبح ميناء مصر الرئيسى على البحر الأحمر ، ولم يعد الناس يسلكون طريق الفسطاط إلى قوص ثم من قوص إلى عيذاب ، ومن ذلك الحين أخذت عيذاب تتلاشى .

ميناء عيذاب

ويلاحظ أن أهمية عيذاب بدأت تظهر عندما اشتد الخطر الصليبى بعد استقرار الصليبيين فى بلاد فلسطين وسواحل الشام ، وسيطرتهم على طرق التجارة المؤدية من مصر إلى الشام عن طريق سيناء ، ولم تكن الدول المصرية تهتم اهتماماً ظاهراً بالبحر الأحمر ، لأنه كان بحراً عربياً آمناً لايهدد الملاحة فيه أخطار لصوص البحر أو الأعداء .

الملاحة فى البحر الأحمر

ولكن بعد أن احتل الصليبيون الكرك والشوبك وأيلة على خليج العقبة وبدأت سفنهم تجرى فى ذلك الخليج تجلى الخطر على البحر الأحمر وسواحل الحجاز والأراضى المقدسة ، وخاصة عندما طمحت نفس أرناط الصليبى Arnaud de Chatillon صاحب قلعة الكرك إلى العدوان على الأراضى الإسلامية المقدسة ، وبدأ بالفعل يستعد لذلك سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م فأنزل سفناً فى البحر قطعت طريق الحج ونهبت السفن وشاع أنهم ماضون إلى الحجاز .

وقد أثار هذا الحادث روعاً شديداً فى عالم الإسلام ، وكان صلاح الدين فى الشام ونائبه فى مصر أخوه العادل ، فسارع بإرسال أسطول يقوده الحاجب لؤلؤ فاستعاد أيلة ، ثم مضى إلى عيذاب فهرب الأسطول الفرنجى واضطر إلى اللجوء إلى البر ، ونزل رجاله وهربوا فى الصحراء فتبعهم المسلمون حتى قتلوا معظمهم وأسروا الباقى ، وعاد الحاجب لؤلؤ بالأسرى إلى مصر فى ذى الحجة ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م .

ومن ذلك الحين اهتم حكام مصر بالبحر الأحمر اهتماماً شديداً فصاروا يعدون ويجهزون فى البحر الأحمر أسطولاً يحمى السفن والموانىء ، وتحولت تجارة البحر الأحمر إلى عيذاب والقصير كما ذكرنا ، ثم مد الأيوبيون سلطانهم على الحجاز واليمن فضموهما إلى دولتهم ، وفى سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م استولى المماليك على سواكن وهى الثغر البحرى لممالك النوبة ، وبهذا عاد النشاط الإسلامى إلى البحر الأحمر .

وبعد إخراج الصليبيين من فلسطين وسواحل الشام والقضاء على آخر معاقلهم فى الشام وهى عكا سنة ١٢٩١ م عادت التجارة إلى طريقها الطبيعى القديم ، وبدأ طريق قوص من عيذاب والقصير يفقد أهميته .

وخلال العصر المملوكى ازدهرت تجارة المرور بمصر عن طريق القلزم ازدهاراً عظيماً ، مما جعل المماليك ينتزعون جدة من أيدى أصحابها ، ويجعلونها ميناءً مصرياً خالصاً يعين ناظرها من القاهرة .

وأقام المماليك لها حامية خاصة لتحميها من أى محاولة يقوم بها أشراف مكة . وبلغ من أهمية جدة التجارية للمماليك أن ناظرها كان يرسل للخزانة المملوكية فى القاهرة ٧٠,٠٠٠ دينار فى العام . وكانت مصر تحصل ضريبة قدرها ١٠٪ من كل البضائع المارة بأرضها .

الخطر البرتغالى يأتى من الشرق

وعندما وصل البرتغاليون إلى الهند فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى بدأت الأخطار تهدد تجارة مصر عن طريق البحر الأحمر ، لأن البرتغاليين حولوا معظم التجارة عن الطريق المصرى ، ثم بدءوا يطاردون السفن العربية فى المحيط الهندى للقضاء على التجارة العربية ، واستولوا على جزيرة سُقُطْرى وأوقفوا سير التجارة إلى موانىء اليمن وجدة ومصر ، بل هددوا بالاستيلاء على جدة . وفى عهد السلطان الغورى (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠٠ - ١٥١٧ م) ظهر أثر ذلك بوضوح ، إذ توقفت إيرادات مصر تماماً من هذه الناحية .

وفى سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م خرجت من السويس حملة بحرية بقيادة أمير البحر حسين الكردى ، وكان هدفها الأول تحصين جدة ، ولهذا كان فى الحملة عدد كبير من البنائين والنجارين وعمال البناء .

وفى نفس الوقت كان القبطان البرتغالى أفونسو ألبوكرك Affonso da Albuquerque يحاول الاتفاق مع الحبشة بقصد تحويل مياه النيل القادمة من الحبشة عن الوصول إلى مصر ، ودخل البوكرك البحر الأحمر ، ولكنه انسحب عندما علم بوجود الأسطول المصرى ، وتقدم هذا الأسطول يتتبع الأسطول البرتغالى فوصل إلى سواكن ثم عدن وأنزل بالبرتغاليين هزيمة كبيرة فى صيف ١٥٠٨ م قرب جاول Gaul على شاطىء الهند الغربى ، ولكنه انهزم فى موقعة ديو سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م قرب ساحل الكُجَرات .

وبعد ذلك استولى البرتغاليون على جُوا سنة ١٥١٠ م ثم على بلدة ملقا فى شبه جزيرة ملقا سنة ١٥١١ م وسيطروا تماماً على تجارة آسيا . ولكنهم لم يستطيعوا دخول البحر الأحمر بسبب يقظة الأسطول المصرى .

ولكن سيادة مصر على مياه البحر الأحمر لم تؤد إلى عودة التجارة البحرية التى انتقلت عن مصر نهائياً .

القلزم ميناء حر

وكانت القلزم فُرْضَة مصر والشام الرئيسية على البحر الأحمر . وكانت أشبه بسوق دولية يتكلم الناس فيها العربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية . وكان التجار يجلبون إليها من المغرب الزيتون وزيت الزيتون والديباج والخز والجلود والفراء ويبحرون فى الفرما ثم يحملون البضائع على الظهر إلى القلزم ، ثم يركبون البحر من القلزم إلى الجار وجدة على شاطىء الحجاز ، ومن هناك تمضى التجارة إلى السند والهند والصين ، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك (ابن خرداذبة ، لايدن سنة ١٨٨٩ م ، ص ١٥٣ - ١٥٤) ، وقد أخذ أمر الفرما يضعف شيئاً فشيئاً بسبب انطمار الفرع البلوزى من النيل ثم بسبب هبوط قاع البحر شيئاً فشيئاً ، وأصبح من العسير استعمال الفرما ، فتحول الناس إلى طريق الإسكندرية فالفسطاط فقوص (على النيل) ثم إلى عيذاب بالبر (وقد حدث هذا التغيير فى عهد الحاكم بأمر الله) . وفى أيامه أعفى أهل القلزم من الضرائب والمكوس تشجيعاً للتجار لقصدها

ميناء فوة

ومن المواني النيلية المشهورة - إلى جانب القاهرة والفسطاط - فوة على فرع رشيد (وعندها كان يخرج خليج الإسكندرية) والقيس وإخميم ومنفلوط (وكلها كانت مراكز صناعية للنسيج خاصة) ثم قوص (وعندها يتفرع الطريق إلى عيذاب) ثم إسنا ومنها يتفرع الطريق التجارى الذاهب إلى واداى والبورنو « تشاد » ثم بلاد غانة . ثم أسوان وكانت سوقاً عظيمة للتبادل التجارى بين مصر وإفريقية المدارية الشرقية . وفى العصر الفاطمى ظهرت أهمية أسيوط كمركز صناعى تجارى

حلب مركز تجارى

ومن المراكز التجارية الكبرى فى الشام (غير الموانىء وقد ذكرناها) دمشق وبصرى والقدس والخليل وتدمر ، ولكن أعظم مركز تجارى فى الشام كان حلب ، فهذه المدينة ذات مركز ممتاز بين الشام وشمال العراق (بلاد الجزيرة) وآسيا الصغرى (بلاد الروم إذ ذاك) وبلاد الأرمن والكرج والأكراد والفرس والأتراك . ولهذا كانت أسواقها عظيمة ومتاجرها نافقة ، حتى لقد حكى ابن الشحنة - فى « الدر المنتخب فى تاريخ حلب » ، بيروت ١٩٠٦ أو ١٩٠٩ م ، ص ٢٥٠ ومايليها - أن مايباع فيها فى يوم يباع فى القاهرة - التى هى أم البلاد كما يقول - فى شهر . ولم تكن فى الدنيا إذ ذاك بضاعة لاتوجد فى حلب بأى كمية ، وبأنواع لاتوجد فى مكان آخر . وساعد على ذلك إقليمها الخصب بشتى المزروعات والخيرات وأشجار الفاكهة والمشمش والفستق واللوز والتين والحبة الخضراء ، وهى ثمرة البطم وهو شجر يشبه شجر الفستق ذو ورق صغير شديد الخضرة ، ويستخرج من الحبة الخضراء زيت شبيه بالتربنتين ، عوائده طيبة جليلة . وكانت حلب مقياس أحوال العالم العربى ، أو هى أشبه بترمومتر لمعرفة الحالة الاقتصادية للعالم الإسلامى فإذا زَهَتْ وأزهرت حلب كان ذلك دليلاً على تحسن أحوال العالم العربى والعكس صحيح .

العلاقات التجارية مع الجمهوريات الإيطالية

خلال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى تطورت بعض المدن الساحلية الإيطالية وتحولت إلى جمهوريات تجارية مستقلة . وقد حصلت هذه المدن على استقلالها فى إطار التطور الاجتماعى والسياسى العام لأوروبا خلال ذلك القرن . فقد قامت الدول الكبرى فى إسبانيا وانجلترا وفرنسا وألمانيا ، وساد النظام إيطاليا فى ظل أباطرة الأوتونيين ، وهم

أباطرة الدولة الرومانية المقدسة الألمانية ، ودار في إيطاليا الصراع الطويل على السيادة بين الأباطرة والبابوات .

وقد حصل الكثير من مدن أوروبا على حقوق وامتيازات من الملوك ، ووقفت المدن دائماً إلى جانب الملوك في صراعهم مع الأمراء الإقطاعيين . هكذا قويت المدن وتقدمت كثيراً في كل بلاد أوروبا . أما في إيطاليا فقد كان الصراع بين البابا والإمبراطور من أكبر عوامل تقدم المدن التجارية الساحلية ، يضاف إلى ذلك أن الدولة البيزنطية كانت تحاول التمسك بسلطانها على بحر أدريا والساحل الشرقي لإيطاليا ، ولم تكن البابوية أو الإمبراطورية راضيتين عن ذلك .

البندقية وتجارتها مع مصر

ونتيجة لصراع بين الجانبين حصلت البندقية على استقلالها ، وكانت أول المدن التجارية الإيطالية ظهوراً ، وكانت في أول الأمر تابعة للدولة البيزنطية ثم استقلت عنها .

أما بيشة (بيزا) وجنوا وأمالفي فقد قامت على أراضٍ كانت تابعة للبابوية نظرياً ، ولهذا فقد كانت مدناً تجارية صليبية ، أي محاربة للمسلمين ، وكانت متنافسة فيما بينها ، ولكنها كانت متحدة دائماً ضد المسلمين . وقد انتقلت هذه المدن التجارية الإيطالية من طَوْر القرصنة إلى دور التجارة المنتظمة من أوائل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وتمكنت من إنشاء دور صناعة ضخمة لم يشهد البحر المتوسط لها مثيلاً قبل ذلك ، وكانت مخازن البضائع الخاصة بالبندقية تمتد بضعة كيلو مترات على الشاطئ المقابل لجزر البندقية وهو المعروف باسم ريفو آلتو Rivo Alto – أي الشاطئ العالي – ويطلق عادة رياالتو Rialto وقد وفقت البندقية في تسيير أمورها بفضل مجلس العشرة الذي كان يحكمها وعلى رأسه الدوج ، وهو رئيس الدولة ، وقد نجحت خلال القرن الحادي عشر الميلادي في السيطرة تماماً على تجارة الدولة البيزنطية ، ولم يكن لها مفر من الدخول في علاقات تعاون تجاري مع الدولة الفاطمية لأن بلادها (مصر والشام) كانت مصدر البضائع التي تتاجر فيها ، وقد ظل التعاون معقوداً بين مصر والبندقية إلى أواخر العصر المملوكي ، وكانت البندقية السوق الكبرى لمنسوجات مصر العالية ، وبخاصة الحرير والقطن والكتان ، التي كانت تصنع في مدن بحيرة تنيس (المنزلة) وهي تنيس ودميق وشطا ثم دمياط ، وكذلك صوف أسيوط الذي اشتهر في العالم كله ، وبلغ من أهمية منسوجات مصر هذه أن إمبراطور الروم – فيما يحكي ناصري خسرو – عرض على الخليفة الفاطمي أن يعطيه مائة مدينة في مقابل تنيس . وكانت بيزنطة تشتري كل إنتاج تنيس من المقصب ، أي القماش المشغول بخيوط الذهب ، وقماشاً آخر رفيعاً يسمى البوقلمون . وكانت مدن النسيج في بحيرة تنيس تقوم على جزر وسط البحيرة ، وكانت السفن تدخل إليها من البحر في قنوات شقت في قاع البحيرة الضحل ، وكانت تسير في هذه القنوات بالمداري والقلوع ، وكانت سفن الروم وغيرها تنتظر دورها للدخول عند مدخل صخور عند البحر يسمى أشتوم ، ويقال إنه كانت هناك دائماً ١٠٠٠ سفينة تنتظر . وكان الخط الملاحي من أشتوم إلى القسطنطينية منتظماً جداً ، وكانت الرحلة تستغرق عشرين يوماً ، وكانت للروم في القاهرة جالية كبيرة تقيم في حارتين : حارة الروم السفلى وحارة الروم العليا التي سميت بالجوانية ، وكان للروم فندقان ، واحد لتجار الحرير ، والثاني لتجار التوابل والعطور

الطريق البحري بين غرب البحر المتوسط وشرقه

ومع العداء الشديد الذي كانت بيزا وجنوا وأمالفي تظهره نحو المسلمين فإن حرصها على الحصول على المتاجر من مصر كان يغلب عداوتها ، ولهذا فقد كانت سفنها تتردد على الإسكندرية بانتظام ، وكانت تحرص على ألا تقوم بينها وبين حكومة مصر مشاكل ، ولا تمس أي سفينة قاصدة الإسكندرية بأذى . وكان المسلمون يركبون السفن الإيطالية دون خوف في رحلاتهم من غرب البحر المتوسط إلى شرقه ، وقد رسم لنا ابن جبير في رحلته طريق السفن من المرية إلى الإسكندرية ، وهي تخرج من ذلك الثغر إلى مرسى أرشقول أو هنين ، ثم تقلع شمالاً بشرق حتى ساحل سردانيه وتحط في أحد موانئ صقليه ، ثم تقطع البحر دفعة واحدة إلى الإسكندرية . وفي الغالب كانت السفن تخرج من صقلية إلى المهدية لكي تتزود بمنتجات المغرب وإفريقية كزيت الزيتون والفستق والثياب والعمائم السوسية والبسط المغربية المعروفة بالزرابي ، والثياب الحريرية من قابس وجلود الثور والبقر وسن الفيل التي كانت تأتي من إفريقية المدارية عن طريق كَوّار وَوَدّان فأوجلة فبرقة وطرابلس ، أما في موانئ المغرب فكانت السفن الأوروبية تحمل جلود اللمط (وهو جلد حيوان صحراوي لاتعمل فيه السيوف فكانت تصنع منه الدروع) وقرون اللمط والوعول والصوف والتبر من بلاد التكرور وغانة عن طريق أودغشت وسجلماسة ، وقد اشتهرت برقة بالقطران ومواد الدباغة وكانت تصدر من برقة وطلميثة .

المراجع

ابن واصل ، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم (ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣ م) .
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، حقق الدكتور جمال الشيال الأجزاء الثلاثة الأولى الخاصة بالدولة الأيوبية ونشرها في القاهرة ابتداءً من سنة ١٩٥٥ م ، وواصل نشر الأجزاء التالية دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

سعيد عبد الفتاح عاشور
- الحركة الصليبية . جزءان .
- مصر في عصر دولة المماليك البحرية .
- العصر المماليكي في مصر والشام .
- قبرص والحروب الصليبية .
- مدينة السويس منذ الفتح العربي وحتى بداية العصر الحديث .

السلاوي الناصري
أبو العباس شهاب الدين أحمد . الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . الطبعة الثانية في تسعة أجزاء صغيرة . نشرت في الدار البيضاء ابتداء من سنة ١٩٥٤ م

درويش النخيلي
السفن الإسلامية على حروف المعجم . (الإسكندرية ١٩٧٤ م)

تاريخ البحرية المصرية
تأليف نخبة من الأساتذة المتخصصين بجامعة الإسكندرية بالتعاون مع القوات البحرية بمصر ١٩٧٣ .

ابن خلكان
شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم (ت ٦٨١ هـ ١٢٨٢ م)
وفيات الأعيان بتحقيق محي الدين عبد الحميد – ٦ أجزاء (القاهرة ١٩٥٠ م) .

ابن شداد
بهاء الدين يوسف (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م)
كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية بتحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٦٤ م) .

ابن شداد
محمد (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) .
- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ٤ جزءان بتحقيق سامي الدهان (دمشق ١٩٥٦ م) .

المقريزي
تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م)
السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر وتحقيق دكتور محمد مصطفى زيادة ثم دكتور جمال الدين الشيال . (القاهرة ١٩٣٦ م ومابعدها) .

- Heyd , W., Histoire du Commerce du Leuant au Moyen Age . Leipzig 1889 .

- Lévi - Provencal . Histoire de l'Espagne Musulmane 2 ed - 3 Vols . Paris 1953 .

- Moreland , W. H., The Ships of the Arabian Sea till 1500 (Tras) January 1939 .

- Runciman , S., A History of the Crusades . 3 Vols . Cambridge 1967 .

ترجمه إلى العربية ونشره في ثلاثة أجزاء د. السيد الباز العريني بيروت سنة ١٩٦٨ م .

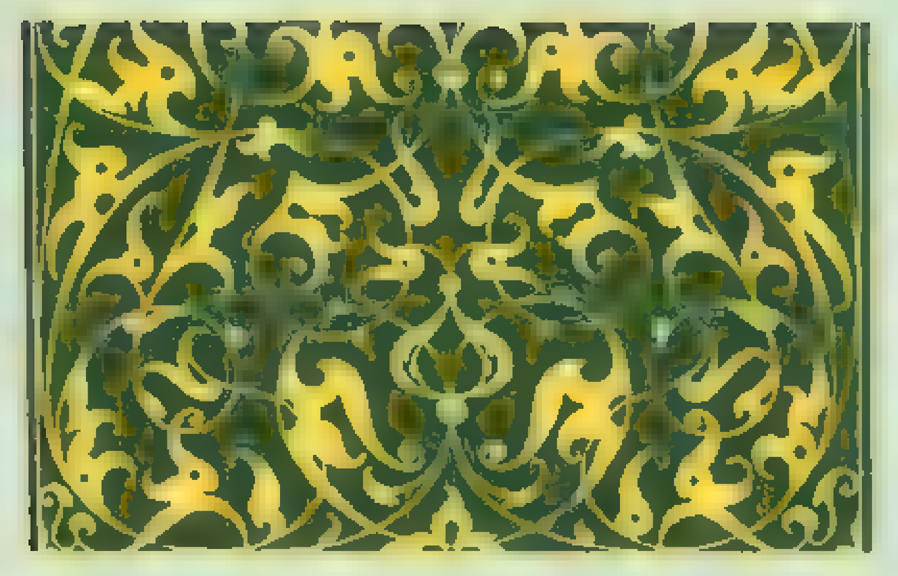

الفصل الرابع عشر

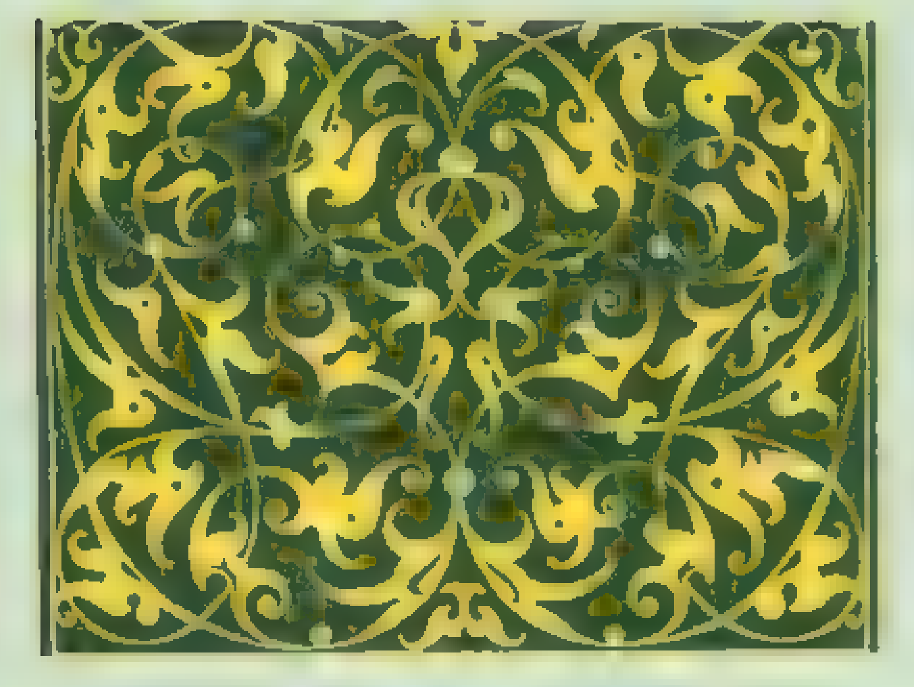

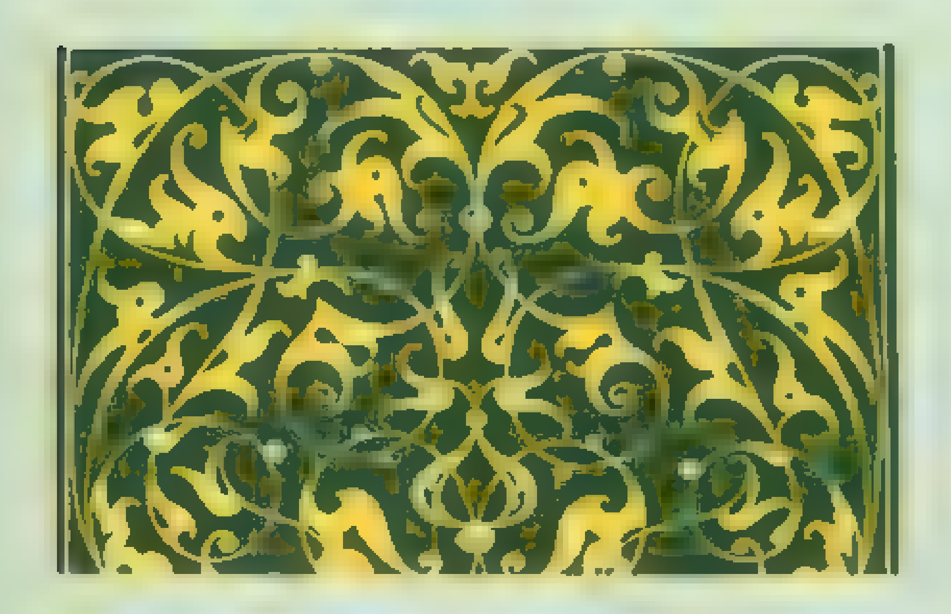

بيان الخرائط

مصر والشام في العصر الأموي
ولاية مصر وولاية الشام
الروم البيزنطيون .
بلاد غير إسلامية .
حملات الأمويين لفتح القسطنطينية التي لم تنجح .
حملات الأمويين لفتح برقة وطرابلس وما بعد ذلك
البلقان
القسطنطينية
سموت
طرسوس
الإمبراطورية الرومانية الشرقية
أزمير
قونية
أثينا
منطقة العواصم (الثغور)
الجزيرة
الموصل
أنطاليا
الإسكندرونة
حلب
أنطاكية
رودس
كريت
قبرص
حماة
حمص
طرابلس
بيروت
دمشق
بحر الروم
عكا
حيفا
الشام
دمياط
القدس
غزة
الإسكندرية
الفرما
القلزم
الفسطاط
أيلة
سيناء
مصر
الجزيرة العربية
تبوك
قنا
أسوان
ينبع
المدينة
النوبة
مكة
جدة

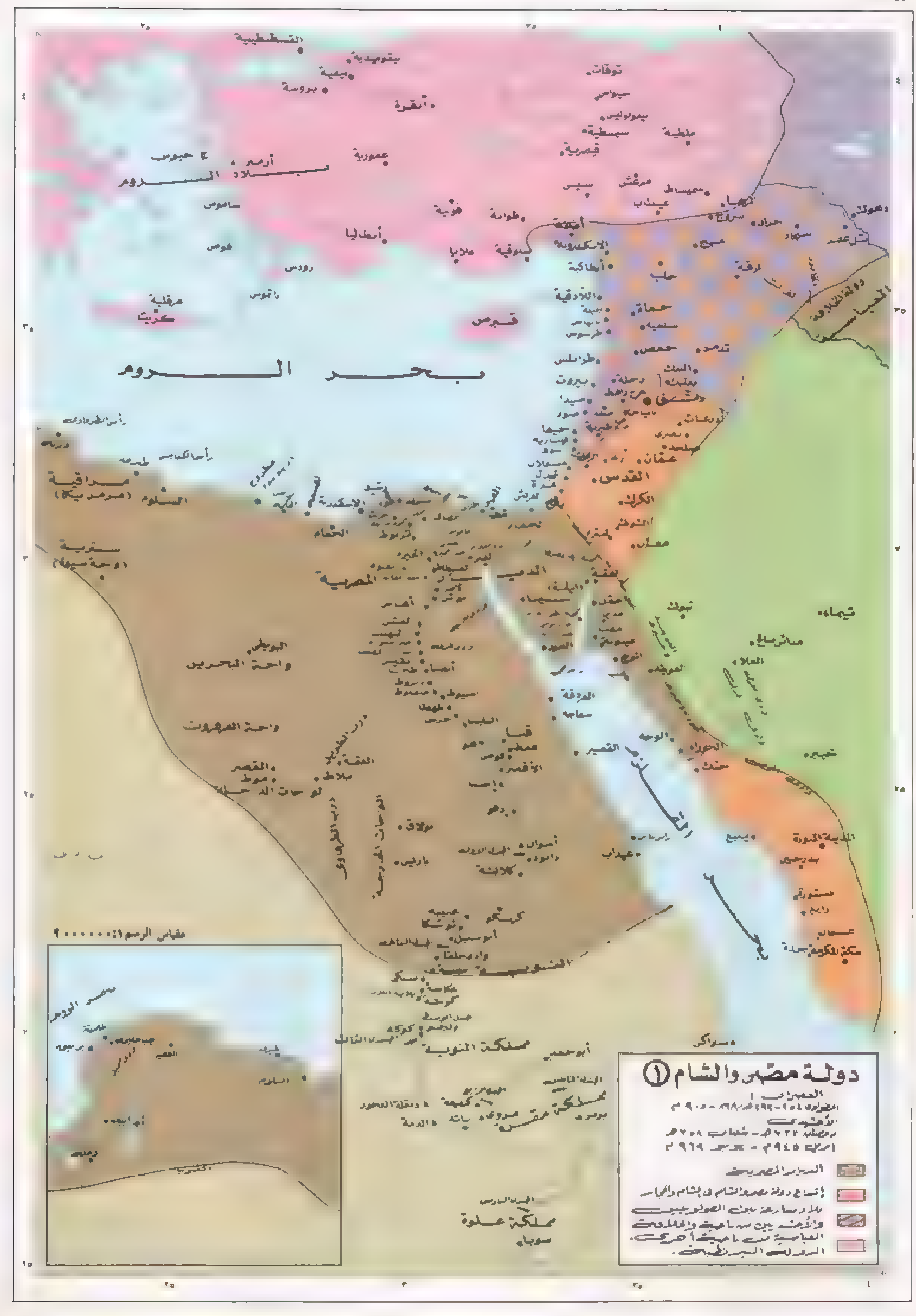

دولة مصر والشام ①
بحر الروم
القسطنطينية
أنقرة
توقات
قبرص
أنطاكية
حلب
حماة
حمص
طرابلس
بيروت
دمشق
القدس
عمان
الكرك
تيماء
تبوك
خيبر
المدينة المنورة
مكة المكرمة
سواكن
عيذاب
أسوان
قنا
واحة البحرين
مملكة النوبة
مملكة علوة

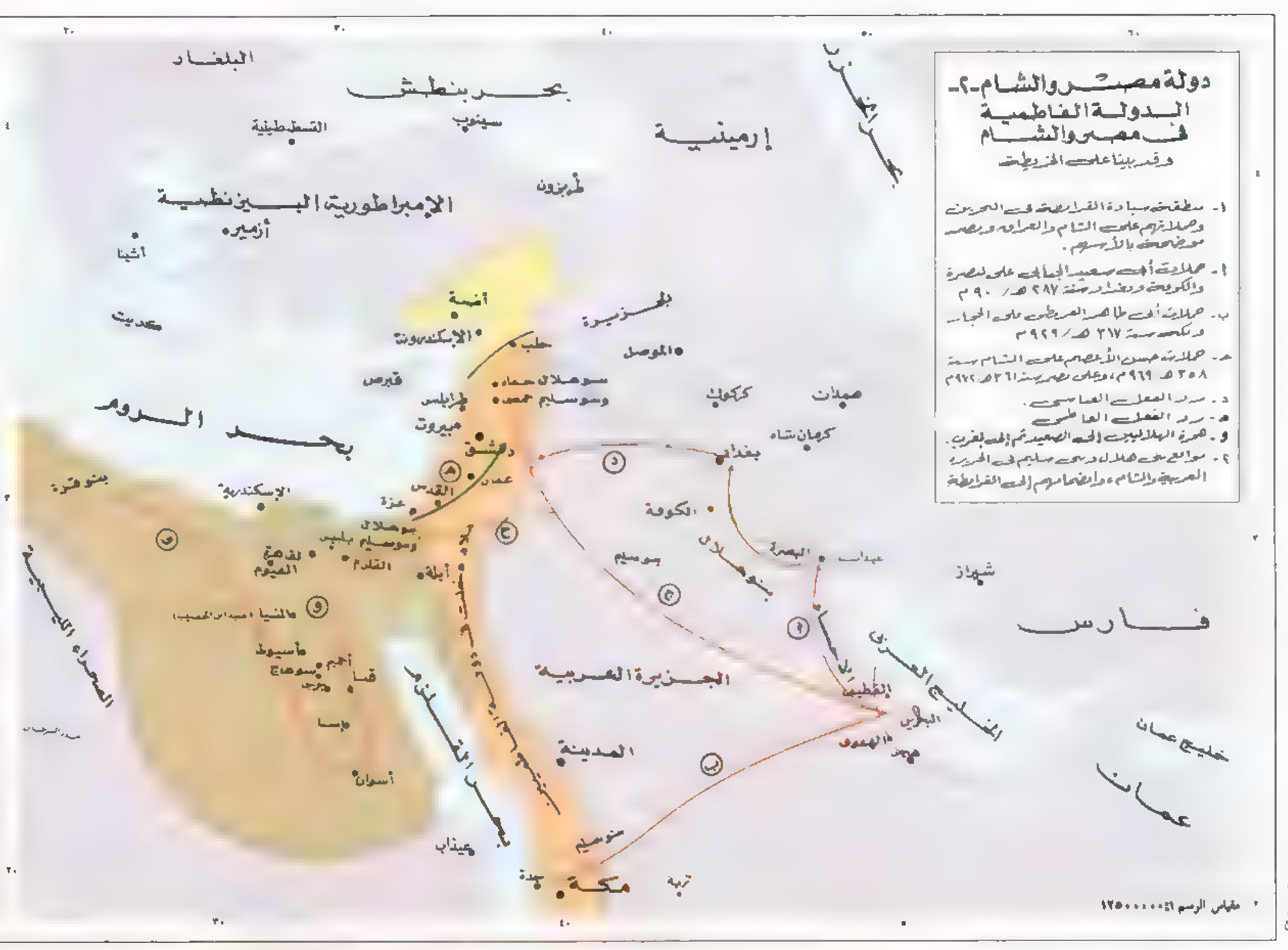
دولة مصر والشام-٢-
الدولة الفاطمية في مصر والشام
وقد بيناها على الخريطة
١- منطقة سيادة القرامطة في البحرين وحملاتهم على الشام والعراق ومصر موضحة بالأسهم.
أ- حملات أبي سعيد الجنابي على البصرة والكوفة وبغداد سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م
ب- حملات أبي طاهر القرمطي على الحجاج وتكسير سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م
جـ- حملات حسن الأعصم على الشام سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م، وعلى مصر سنة ٣٦١ هـ / ٩٧٢ م
د- مدد الخليفة العباسي.
هـ- مدد الخليفة الفاطمي
و- هجرة الهلاليين إلى الصعيد ثم إلى المغرب.
٢- مواطن بني هلال وبني سليم في الجزيرة العربية والشام، وانضمامهم إلى القرامطة
مقياس الرسم ١: ١٢٥٠٠٠٠٠
البلقان
بحر بنطش
القسطنطينية
سينوب
إرمينية
طرابزون
الإمبراطورية البيزنطية
أزمير
أثينا
أنطاكية
الإسكندرونة
الجزيرة
الموصل
حلب
بنو هلال حماه
وبنو سليم حمص
قبرص
طرابلس
بيروت
دمشق
كركوك
همذان
كرمانشاه
بغداد
بحر الروم
برقة
الإسكندرية
القدس
عمان
غزة
الكوفة
بنو هلال
وبنو سليم بلبيس
الفيوم
القلزم
أيلة
البصرة
عبادان
بنو سليم
بنو هلال
شيراز
فارس
المنيا
أسيوط
أخميم
سوهاج
قنا
جرجا
إسنا
أسوان
الجزيرة العربية
القطيف
البحرين
هجر
الأحساء
الخليج العربي
خليج عمان
عمان
المدينة
بنو سليم
مكة
جدة
تربة
عيذاب
بحر القلزم
الصحراء الليبية

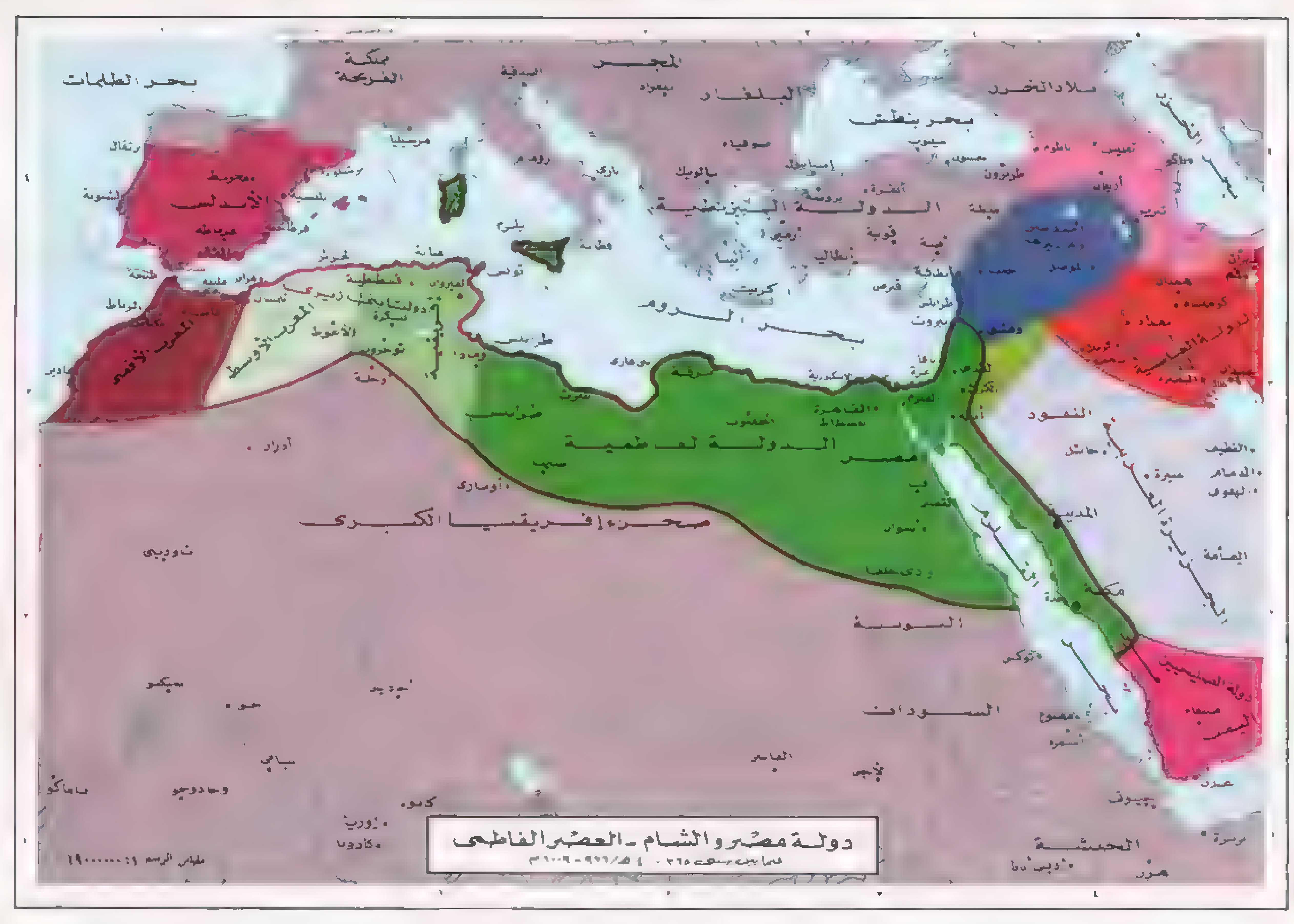
دولة مصر والشام - العصر الفاطمي
بحر الظلمات
الأندلس
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
بحر الروم
الدولة البيزنطية
بحر بنطش
الدولة الفاطمية
مصر
القاهرة
صحراء إفريقيا الكبرى
السودان
النوبة
الحبشة
اليمن
دولة الصليحيين
الدولة العباسية
بلاد الخزر
البلغار
المجر
مملكة الفرنجة
النفود
اليمامة
المدينة
مكة
دمشق
بيروت
طرابلس
تونس
بلرم
صقلية
القيروان
قسنطينة
برقة
الإسكندرية
الفسطاط
أسوان

دولة مصر والشام (٣)

أيام صلاح الدين الأيوبي ٥٦٤ - ٥٨٩ هـ / ١١٦٨ - ١١٩٣م

وقد بقيت هذه الأراضي داخلة في سلطنة مصر والشام إلى نهاية دولة الأيوبيين سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م وإن تقاسم رجال البيت الأيوبي بلاد الشام والجزيرة إمارات بينهم (إقليم موحد داخل في سلطنة صلاح الدين والأيوبيين)

دولة مصر والشام ④
عصر المماليك البحرية ٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م
وعصر المماليك البرجية ٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢-١٥١٧م
أسماء الأقاليم
موضحة على
الخريطة وحدودها
بألوان مختلفة
(بلاد برقة داخلة في سلطنة المماليك)
البحر المتوسط
الديار المصرية
بلاد العرب
أرمينية
القسطنطينية
الأتراك العثمانيون
أنقرة
سلاجقة الروم
قونية
أبطاليا
أزمير
دوقية أثينا
أثينا
كريت
أملاك البندقية
قبرص
رودس دخلت في طاعة بارسباي
قبرص دخلت في طاعة السلطان بارسباي سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م
إمارة آل ذي القدر
الجلائريون
٧٤٠-٨١٣هـ/١٣٣٩-١٤١٠م
ثم الصفويون
٩٠٧-١٠٥٩هـ/١٥٠٢-١٦٤٩م
الإسكندرونة
أنطاكية
حلب
حماة
حمص
طرابلس
بيروت
دمشق
عكا
حيفا
غزة
القدس
الإسكندرية
القاهرة
القلزم
أيلة
قنا
أسوان
المدينة
مكة
جدة
عسير
دولة بلاد النوبة
(دخلت في طاعة سلطنة المماليك)
بلاد البجة
بلاد السودان
مقياس الرسم ١:١٩٠٠٠٠٠٠

دولة مصر والشام
في عصر محمد علي ١٨٠٥ – ١٨٤٨م
دولة مصر ١٨٠٥ – ١٨١٢م.
البحر الأسود
الدولة العثمانية
الاستانبول
بورصة
أنقرة
كوتاهية
أزمير
قونية
المورة
أثينا
كريت
نصيبين
الموصل
كركوك
قبرص
حلب
حمص
بيروت
عكا
غزة
دمياط
رشيد
الإسكندرية
البحر المتوسط
دير الزور
بغداد
كرمنشاه
همدان
قم
إيران
أصفهان
البصرة
عبادان
شيراز
صحراء النفود
تبوك
العقبة
السويس
سيناء
صحراء ليبيا
الفيوم
مصر
المنيا
أسيوط
قنا
أسوان
المدينة
ينبع
الدرعية
القطيف
الرياض
الهفوف
مكة
جدة
الطائف
بيشة
الربع الخالي
صنعاء
حضرموت
عدن
خليج عدن
السودان
الخرطوم
أم درمان
الحبشة
الصومال
جنوب السودان
إفريقيا الوسطى
بحيرة فكتوريا

مصر والشام

ابتداءً من العقد الأول للنصف الثانى من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى تبدأ فى الظهور وحدة سياسية جديدة يمكن أن نسميها دولة مصر والشام التى ستتطور مع الزمن حتى تصبح سلطنة مصر والشام ابتداءً من العصر الأيوبى . هذه الدولة شملت مصر والشام وأحياناً كانت سلطتها تشمل الشام كله وأحياناً أخرى جزءاً منه أو معظمه بتعبير أدق ، وقاعدة هذه الدولة مصر ، وليس معنى ذلك أن بلاد الشام كانت تبعية لذلك خاضعة لمصر ، وإنما كان البلدان بلداً واحداً يتكون من قسمين مصر والشام ، وقد تسمى بلاد الشام نيابة السلطنة ، ولكن ليس معنى هذا أنها خاضعة لمصر وإنما معناه أن مصر كانت قاعدة السلطنة ، أما بلاد الشام فكانت الجزء الشمالى منها ويحكمها إما قائد من أكبر رجال الدولة أو نائب للسلطنة يقيم بدمشق ، وقد يدخل الحجاز فى تبعية دولة مصر والشام وقد لايدخل ، ولكنه على أى حال كان يعتبر داخلاً من الناحية المالية على الأقل فى هذه الوحدة السياسية الكبيرة ، ومن بداية ظهور هذه الوحدة فى العصر الطولونى كان على صاحب مصر أن يرسل الأموال السنوية إلى بلاد الحجاز لمعاونة حكامها على القيام بمسئولياتهم قبل الحرمين الشريفين ومطالب الحج الذى كان يكلف صاحب الحجاز نفقات طائلة ، وحتى قبل قيام ذلك الكيان السياسى كان على والى مصر فى عصر الولاة أن يرسل الأموال إلى عامل دولة الخلافة ، وهى المسئولة عن بلاد الحجاز والحرمين الشريفين وموسم الحج فى حالة دخول الحجاز فى دولة مصر والشام ، وكان الواقع أن هذه الدولة تابعة – اسمياً على الأقل – لدولة الخلافة وهى إذ ترسل الأموال إلى الحجاز فهى تنوب عن دولة الخلافة فى القيام بنفقات الحجاز سواء أكانت دولة مصر والشام على خلاف أو وفاق مع دولة الخلافة .

ومصر المعنية فى هذه الدولة هى كل بلاد مصر بحدودها التاريخية منذ الفتح العربى ، أى أنها تمتد جنوباً إلى مملكة النوبة ودنقلة ولو أن بلاد النوبة كانت تعتبر محالفة لمصر أو معاهدة لها ، وبينهما اتفاق يسمى البقط (من اللاتينية Pactum) كان يلزم أصحاب النوبة بأداء جزية سنوية رمزاً للبقاء على العهد ، أما من ناحية الشرق فكانت مصر تمتد حتى ثغر عيذاب على البحر الأحمر وتشمل معظم بلاد البجاة أو البشاريين ، وأما من ناحية الغرب فكانت الحدود تشمل صحراء مصر الغربية كلها وتدخل فيها واحة سنترية (واحة سيوة) ، وتمتد غرباً حتى تشمل بلاد برقة وتدخل فيها بداخة بلاد ساحل البحر المتوسط من الإسكندرية إلى برقة ، وكانت منطقة الساحل هذه تسمى مراقية وهى الصيغة العربية لاسم Marmarica

أما بلاد الشام فيقصد بها بلاد الشام فى المصطلح العربى أى كل البلاد الواقعة بين نهر الفرات وتشمل جزءاً من الجزيرة الفراتية من ناحية الشرق حتى البحر المتوسط من ناحية الغرب ، ومن الحدود الشمالية للجزيرة العربية وتمتد من العقبة حتى شاطىء الخليج العربى حتى جبال طوروس وامتدادها إلى الشرق شمالاً .

خريطة ١٤٠

مصر والشام فى العصر الاموى

خريطة ١٤١

دولة مصر والشام (١)

العصران الطولونى والإخشيدى

٢٥٤ – ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ – ٩٠٥ م

رمضان ٣٣٣ – شعبان ٣٥٨ هـ / إبريل ٩٤٥ – يونيو ٩٦٩ م

العهد الطولونى .

وقد ولدت هذه الوحدة السياسية فى حكم أحمد بن طولون أى بعد قيام الدولة الطولونية بقليل ٢٣ رمضان سنة ٢٥٤ هـ – ٢٩ صفر ٢٩٢ هـ / يوليو سنة ٨٦٨ – يناير ٩٠٥ م ، وقد نشأت دولة مصر والشام نتيجة خلاف طويل وقع بين أحمد بن طولون وأحمد الموفق طلحة أخى الخليفة العباسى المعتمد وصاحب الكلمة النافذة فى دولته ، وكانت نتيجة هذا الخلاف أن قرر أحمد بن طولون غزو الشام وإدخال مايستطيع إدخاله من بلادها فى ولاية مصر ، وبالإضافة إلى ذلك كانت فى أحمد بن طولون فروسية وعاطفة إسلامية عميقة جعلتاه ينزع إلى المشاركة فى الجهاد على حدود الشام الشمالية أى مايسمى بجند الثغور وإقليم العواصم ، ولاغرابة فى ذلك فإن أحمد بن طولون قضى سنوات طويلة من شبابه فى طرسوس من بلاد الثغر ، وهناك تعلم فنون الفروسية والحرب ، بالإضافة إلى مادرس هناك من علوم الدين واللغة العربية ، وأصل أحمد بن طولون كما نعرف تركى من فرع من الغز ومواطنه فى نواحى بخارى ، ولهذا فإننا نجد ابن طولون يستولى دون صعوبة على الرملة وكل ساحل الشام إلى أنطاكية ودمشق وحمص وحماه وحلب ويدخل المصيصة حيث يقيم حامية من جنده هناك .

وقد جرت بعد ذلك حوادث وصراع طويل بين أحمد بن طولون والموفق ، وفى أحد تطورات هذه الحرب كاد الخليفة المعتمد على الله ينتقل إلى مصر وينقل بذلك الخلافة الإسلامية إلى الفسطاط ، ولكن ذلك لم يتم ، واستمر الصراع قائماً حتى وفاة الموفق طلحة ثم أبى العباس أحمد المعتمد وولاية أبى العباس أحمد المعتضد بالله بن الموفق فى ٢٠ رجب سنة ٢٧٩ هـ / نوفمبر ٨٩٢ م ، وكان أحمد بن طولون قد توفى فى ذى القعدة ٢٧٠ هـ / مايو ٨٨٤ م وكانت وفاته إثر مرض أصابه وهو فى طرسوس فحمل إلى مصر ومات فى الطريق ، وخلفه ابنه أبو الجيش خمارويه ، وتحسنت العلاقات بين الجانبين وعقد صلح جعل ولاية خمارويه تمتد لتشمل بلاد الشام مع التزام خمارويه بإرسال مال مقرر إلى والى الحجاز ، وتأكيداً لذلك الصلح تزوج الخليفة المعتضد من قطر الندى ابنة خمارويه على ماهو معروف ، وقد ظلت مصر تابعة تبعية مباشرة لدولة الخلافة العباسية حتى قيام الدولة الإخشيدية على يد محمد بن طغج الإخشيد فى رمضان ٣٣٣ هـ / إبريل ٩٤٥ م ، وخلال هذه الفترة اختفت دولة مصر والشام وعادت بعد قيام الدولة الإخشيدية بقليل .

العصر الإخشيدى .

عندما تولى أمر مصر محمد بن طغج الإخشيد – بعد أن كانت ولاية عباسية – كانت أحوال دولة الخلافة سواء فى العراق أو فى الشام ومصر وإفريقية قد تغيرت تغيراً بعيد المدى وساءت أحوالها إلى درجة أصبح معها من العسير إنقاذها وإعادتها إلى سابق قوتها ، فقد تعاقب على عرش الخلافة العباسية منذ أيام المعتضد ستة خلفاء آخرهم أبو القاسم عبد الله المستكفى بالله بن المكتفى الذى تولى محمد بن طغج الإخشيد فى أيامه ، وكان السلطان فى الدولة قد انتقل إلى الوزراء ثم أمراء الأمراء ، وكان الوزير عندما تولى ابن الإخشيد أمر مصر هو أبو الفرج محمد بن على السامرى ، ولم يكن من كبار الوزراء وأقويائهم ، وكانت القوة فى الدولة كلها بيدى القائد التركى تكين . وفى نفس الوقت كانت الدولة الفاطمية قد قامت فى بلاد إفريقية فى ٤ ربيع الآخر ٢٩٧ هـ / ديسمبر ٩٠٩ م وبدأت بعد استقرارها فى إفريقية فى مهاجمة مصر من ناحية الغرب معتمدة على جندها الكثير من الكتاميين المغاربة ، وقبل أن يتولى محمد بن طغج الإخشيد مصر كان الفاطميون قد حاولوا غزو هذه البلاد فيما بين سنتى ٣٢١ و ٣٢٤ هـ / ٩٣٣ – ٩٣٥ م وتمكنت قوات العباسيين من رد الفاطميين بفضل ماأداه محمد بن طغج الإخشيد من بسالة ، وكانت نتيجة ذلك أن عهد إليه الخليفة العباسى فى ولاية مصر فوقع صلحاً مع الفاطميين وطمع الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله فى أن ينضم إليه محمد بن طغج الإخشيد ، وبذلك تدخل مصر فى دولة الفاطميين دون حرب ، ولكن الإخشيد ظل يسوف حتى أصبح صاحب السلطان فى مصر ، وكان له السلطان أيضاً فى بلاد الشام منذ التاريخ الذى ذكرناه .

وكانت المنافسة شديدة بين الإخشيد وابن رائق الذى ولته الخلافة العباسية أمر الشام ، ووقعت الحرب بينهما وانتصر فيها الإخشيد ، ولكنه طلباً للراحة عقد صلحاً مع ابن رائق يقضى بأن يكون للإخشيد ناحية الرملة ومايليها جنوباً من بلاد الشام ويكون لابن رائق مايلى ذلك شمالاً ، وفوق ذلك تعهد الإخشيد بدفع جزية سنوية لابن رائق قدرها ١٤٠,٠٠٠ دينار فى السنة ، مع أن الناس استنكروا ذلك لأن الإخشيد هو المنتصر إلا أن ذلك الرجل دل بتصرفه هذا على أنه رجل عاقل ، فبعد سنتين من توقيع الصلح توفى ابن رائق وصارت بلاد الشام كلها للإخشيد حتى حلب ، وبالإضافة إلى ذلك دخلت مكة والمدينة تحت سيادة الإخشيد ، وأصبح هذا من القوة بحيث جعل رجاله وقواده يوافقون على المبايعة لابنه أبى القاسم أونوجور والياً على مصر والشام والحجاز ، وفى أواخر أيام الإخشيد ساءت العلاقة بينه وبين سيف الدولة الحمدانى على إثر استيلاء هذا الأخير على حلب ، واضطر الإخشيد إلى عقد صلح مع الحمدانى تنازل فيه عن حلب للحمدانى وتعهد بدفع جزية سنوية لقاء احتفاظه بدمشق ومايليها جنوباً من بلاد الشام ، وتوفى الإخشيد بدمشق فى ٢١ ذى الحجة سنة ٣٣٤ هـ وهو فى السادسة والستين من عمره ، ونقل إلى بيت المقدس ودفن فيها ، وكانت ولايته لمصر فيما يقول المؤرخون إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ويومين وخلفه ابنه أبو القاسم أونوجور وكان صبياً دون الرابعة عشرة من عمره فتولى الوصاية عليه وعلى كل أملاك الإخشيد عبده الحبشى كافور ، وكان كافور رجلاً ذكياً حسن السياسة استطاع أن يحصل من الخليفة على عهد بتولية الأمير الصغير أونوجور على مصر والشام فيما عدا منطقة حلب ثم صارت إليه بعد ذلك حلب وطرسوس .

وعندما كبر أونوجور وقعت الوحشة بينه وبين كافور لأنه أراد أن يتخلص من وصاية كافور ليستقل بالأمر ، وانقسم جيش الدولة إلى قسمين الكافورية والإخشيدية ، ولكن اليد العليا ظلت لكافور فاستمر صاحب الأمر فى الدولة وكان يعطى مولاه أونوجور أربعمائة ألف دينار فى السنة ، وعندما توفى أونوجور انفرد بالأمر أبو المسك كافور حتى نهاية الدولة . وإن كان كافور ظل وفياً لولد من أولاد أبى الحسن على بن إخشيد وهو أبو الفوارس أحمد بن على .

ولم تسعد مصر والشام أثناء هذه الولاية ، فقد وقعت فى مصر كوارث طبيعية ، فأصيبت بزلازل مروعة وشب فى الفسطاط حريق هائل دمر ألفاً وسبعمائة من منازلها ، وأغار ملك النوبة على مصر ودمر البلاد الواقعة بين الشلال الأول وإخميم .

وفى عهد كافور حاول المعز لدين الله الفاطمى غزو مصر وأرسل جيشاً وصل إلى الواحات فأرسل كافور جيشاً طرد الفاطميين من البلاد ولكنه اعترف اعترافاً سطحياً بسيادة الفاطميين ، ولكن ذلك كله كان سياسة منه ، إذ إنه كان فى الحقيقة غير مستعد للتنازل عن شيء من سلطانه ، وعندما توفى كافور انفتح الباب أمام الفاطميين لتحقيق حلمهم الكبير بالاستيلاء على مصر والانتقال إليها كما سنرى .

خريطة ١٤٢

خريطة ١٤٣

دولة مصر والشام (٢)

الدولة الفاطمية فى مصر والمشرق

يبدأ العصر الفاطمى فى مصر بدخول جوهر قائد المعز لدين الله الفاطمى الفسطاط فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ ولكن الخلافة الفاطمية فى مصر تبدأ بدخول المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين فى مدينة الإسكندرية فى ٤ شعبان ٣٦٢ هـ / ٣٠ مايو ٩٧٣ م ، ثم دخوله القاهرة بعد ذلك بشهر ونزوله فى القصر الذى بناه له جوهر قائده عندما دخل البلاد قبل ذلك بأربع سنوات ولم يطل عمر المعز فى مصر فقد توفى فى ٥ ربيع الثانى ٣٦٥ هـ / نوفمبر ٩٧٥ م .

أى أنه حكم مصر سنتين وتسعة شهور هجرية وأثبت فيها أنه أقدر خليفة فاطمى عرفته مصر ، لأن الذين جاءوا بعده كانوا أقل منه فى كل ناحية . وعلى أى حال فإن المتواتر فى كتب التاريخ أن مصر تحولت من إمارة مستقلة فى الظاهر إلى خلافة مستقلة بنفسها وأن شعب مصر لم يعترف فى قرارة نفسه بتلك الخلافة لأنها كانت شيعية إسماعيلية فى حين أن الغالبية من أهل مصر كانوا أهل سنة وجماعة ولكن الفاطميين عندما دخلوا مصر أعطوا أهلها أماناً يعطيهم الحق فى التمسك بمذهبهم السنى ومايتعلق به من إقامة الشعائر الدينية على المذهب السنى ومايتبع ذلك من تقاليد قومية عرفها المصريون منذ دخولهم فى الإسلام .

وبعد دخول القائد جوهر مصر بادر بإرسال أكبر قواده جعفر بن فلاح إلى بلاد الشام ليضمها إلى مصر لأنه كان يظن أن مهمته هى الاستيلاء على كل بلاد الدولة العباسية وإحلال الدولة الفاطمية محلها ، ولكن جعفر بن فلاح عندما وصل إلى الرملة لقيه جيش الحسن بن عبد الله بن طغج والى الرملة ودمشق للإخشيديين والعباسيين ، وقد انهزم هذا الإخشيدى ووقع أسيراً فى يد جوهر وأخذ إلى مصر ثم إلى بلاد المغرب فبقى بها حتى توفى فى سنة ٣٧١ هـ / ٩٨١ م ، وتقدم جوهر واستولى على طبرية من واليها الذى كان يليها من قبل الإخشيديين ، ثم دخل دمشق وخطب فيها للخليفة المعز الفاطمى فى المحرم ٣٥٩ هـ / نوفمبر ٩٦٩ م ، وبذلك تكون دولة مصر والشام قد استمرت فى العصر الفاطمى .

ولكن الفاطميين لم يكادوا يستقرون فى مصر حتى واجهوا عداء القرامطة لهم ، والقرامطة فرقة سياسية دينية شيعية المذهب تنتسب إلى رجل يسمى حمدان قرمط كان من كبار دعاة المذهب الإسماعيلى ، وقد أنشأ دولة قرمطية صحراوية فى إقليم الأحساء وأول أمراء هذه الدولة هو أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى من حوالى ٢٨٦ إلى ٣٠١ هـ / ٨٩٩ إلى ٩١٣ م وخلفه أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد الحسن بن بهرام الهجرى ٣٠١ – ٣٣٢ هـ / ٩١٣ إلى ٩٤٣ – ٩٤٤ م وهو أقوى رجال هذه الدولة وأطولهم حكماً ، ويليه فى الأهمية الحسن بن أحمد بن بهرام المعروف بالحسن الأعصم (حوالى ٣٥٠ إلى ٣٥٨ هـ / ٩٦١ إلى ٩٦٩ م) ثم جاء بعده أبو يعقوب يوسف بن الحسن الجنابى (٣٥٨ إلى ٣٦٦ هـ / ٩٦٩ إلى ٩٧٦ م) وبعد وفاته صار حكم الدولة القرمطية إلى مجلس من شيوخ القرامطة يسمى مجلس الخمسة ، وكانت الدولة قد ضعفت ولم يعد يحسب لها حساب ولكنها ظلت تحكم منطقة الأحساء وعاصمتها القطيف ويتبعها جزيرة البحرين وكانت تعرف إذ ذاك بجزيرة أوال .

ولم تكن دولة القرامطة دولة بالمعنى الصحيح ، ولكنها كانت قوة عسكرية بدوية تستطيع إقلاق راحة الدول المجاورة وتعتمد فى حياتها على الغارات التى تشنها على البلاد المجاورة وتغنم منها وتعود جيوشها إلى مراكزها فى الأحساء . وكان القرامطة أعداء ألداء للدولة العباسية طوال أيامهم ، أما علاقاتهم مع الفاطميين فكانت علاقات صداقة أول الأمر فلما أصبح الفاطميون خلفاء مصر انقلب عليهم القرامطة وأخذوا يشنون الغارات على مصر والشام ، وقد بينا على الخريطة الحملات التى قام بها القرامطة على البصرة وبغداد والكوفة أيام أبى سعيد الجنابى وابنه أبى طاهر القرمطى وعلى الحجاز ومكة ، وسرقتهم للحجر الأسود وأخذه إلى الأحساء ، حيث ظل هناك حتى أعادوه إلى مكة بتوسط الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، ثم حملات الحسن الأعصم على الشام ومصر ، وهى مبينة هناك بالتواريخ مما يغنينا من ذكرها الآن .

وكان الحكم الفاطمى فى مصر حكماً ناجحاً مستقراً حتى نهاية حكم الخليفة الحاكم بأمر الله وهو ثالث الخلفاء الفاطميين فى مصر (٢٩ رمضان ٣٨٦ هـ – ٢٧ شوال ٤١١ هـ / سبتمبر ٩٩٦ إلى يناير ١٠٢١ م) وبعد ذلك اضطرب الحكم اضطراباً شديداً ، وانتقل السلطان إلى الوزراء فأصبحوا المسيطرين الحقيقيين على الدولة ، لأن الخلفاء الفاطميين تدهور أمرهم وخصوصاً أيام الخليفة المستنصر أبى تميم معد الذى حكم ستين سنة هجرية من ١٥ شعبان ٤٢٧ هـ حتى ذى الحجة ٤٨٧ هـ / مايو ١٠٣٦ م حتى ديسمبر ١٠٩٤ م بلغت الدولة فى أثنائها دركاً سحيقاً من التدهور والضعف لم ينقذها منه إلا الوزير أبو النجم بدر الجمالى المستنصرى أمير الجيوش (مولى جمال الدولة ابن عمار الذى استدعاه المستنصر وولاه الوزارة فى جمادى الأولى ٤٦٦ هـ / يناير ١٠٧٤ م عندما استفحلت الأزمة الاقتصادية التى تسمى الشدة المستنصرية ، والتى دامت سبع سنوات ذهب فيها كل رخاء مصر ووصلت إلى الحضيض ، وقد تمكن بدر الجمالى من وقف التدهور وإعادة التوازن الاقتصادى والاجتماعى والعسكرى أيضاً ، وبهذه النهضة المتواضعة عاشت الدولة الفاطمية فى مصر حتى وضع صلاح الدين الأيوبى نهايتها فى المحرم سنة ٥٦٧ هـ / سبتمبر ١١٧١ م عندما أسقط الخطبة على المنابر للخليفة الفاطمى وأقام الخطبة للخليفة العباسى على منبر الأزهر ثم بقية منابر مصر ، وبذلك انتهت الدولة الفاطمية من الوجود وحلت محلها الدولة العباسية حتى قامت الدولة الأيوبية فى مصر والشام سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م .

وقد ظل سلطان الفاطميين ثابتاً ومستقراً فى كل بلاد مصر طوال العصر الفاطمى ، بل إن الخلافة الفاطمية كانت تشمل نظرياً عدا بلاد مصر التى تمتد إدارياً إلى برقة بقية بلاد ليبيا ثم بلاد إفريقية حتى الحدود الغربية لإفريقية عند نهر شلف حيث كان يحكم الزيريون الصنهاجيون باسم الفاطميين حتى انفصلوا عنهم كما رأينا فى الفصل الخامس

بالمغرب ، وقد تنازل الفاطميون عن طرابلس لأوليائهم بنى زيرى فى عهد الخليفة العزيز ثانى الخلفاء الفاطميين ، أما صقلية فظلت تابعة لمصر اسميا حتى تولاها بنو الحسين الكلبيون أولياء الفاطميين كما ذكرنا فى الفصل الخاص بالمغرب والأندلس .

وفيما يتعلق ببلاد الشام كان الصراع بين الفاطميين وخصومهم فى بلاد الشام مستمراً طوال العصر الفاطمى ، ولذلك فإن السلطان الفاطمى تراوح بين الامتداد إلى حلب وأنطاكية فى بعض الأحيان ، واقتصر على جنوبى فلسطين وبخاصة مايلى الخط المار بغزة من بلاد فلسطين ، وعندما نزل الصليبيون أرض الشام ظن وزراء الفاطميين أنهم يستطيعون التعاون معهم على أعدائهم فى الشام ، بل انتهزوا فرصة الفوضى التى سادت الشام عند نزول الصليبيين وسارعوا فاحتلوا بيت المقدس الذى كانوا قد فقدوه ، ولكنهم اضطروا إلى التخلى عن كل بلاد الشام عندما قامت الإمارات الصليبية فى الشام ومملكة بيت المقدس فى القدس ، بل تخلى الفاطميون عن عسقلان آخر معاقلهم فى بلاد الشام وسقطت فى أيدى الصليبيين ، وقد ذكرنا ذلك كله . وعلى أى حال فقد كان الحكم الفاطمى فى بلاد الشام مزعزعاً مضطرباً ، وفى معظم الأحوال كان السلطان الفاطمى فى بلاد الشام مجرد مظهر لاينطوى على حقيقة ؛ لأن بلاد الشام وفلسطين كانت طوال الأمر متنازعة بين أمراء النواحى هناك ، أما فى بلاد الحجاز فقد خطب للفاطميين على منابر مكة والمدينة بمجرد قيام دولتهم فى مصر ، بل امتد النفوذ الفاطمى فشمل بلاد اليمن كلها حيث قامت الدولة الصليحية وهى دولة موالية للفاطميين ، وقد بينا ذلك كله فى الفصل الخاص بالجزيرة العربية .

وجدير بالذكر أن حدود مصر الجنوبية اتسعت فى أواخر العصر الفاطمى وذلك أن الفاطميين عندما استقدموا بنى هلال وبنى سليم بن منصور من الجزيرة العربية لحرمان القرامطة من معاونتهم لأنهم كانوا متضمنين إليهم وأنزلوهم فى صعيد مصر ثم سمحوا لهم بعبور النيل والإغارة على بلاد المغرب - فتحوا الباب لقبائل العرب فى سيناء وصحراء مصر الشرقية فتدفقوا على الصعيد واستقروا فيه وقامت قبيلة منهم هى قبيلة بنى الكنز أو الكنوز بدخول النوبة والاستقرار فيها وكان هذا بداية لزحف العرب إلى الجنوب وانتشارهم فى شمالى السودان وتعريبه ، ثم الامتداد منه إلى الجنوب وتحويل السودان إلى بلد عربى كما سنرى فى الخرائط التالية من هذا الفصل .

خريطة ١٤٤
دولة مصر والشام (٣)
العصر الأيوبى

فى مصـــــــــــــــر من ٥٦٤ هـ - ٦٥٢ هـ / ١١٦٨ م - ١٢٥٤ م

فى دمشق ومعظم بلاد الشام من ٥٧٢ هـ - ٦٥٨ هـ / ١١٧٦ م - ١٢٥٩ م .

فى حـــــــــــــــلب من ٥٧٩ هـ - ٦٥٨ هـ / ١١٨٣ م - ١٢٥٩ م .

فى بــــلاد الجزيــــرة من ٥٨١ هـ - ٦٥٨ هـ / ١١٨٥ م - ١٢٥٩ م .

فى اليمـــــــــــــــن من ٥٦٩ هـ - ٦٤٩ هـ / ١١٧٣ م - ١٢٥١ م .

ابتداءً من العصر الأيوبى بل من أواخر أيام نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى تبدأ دولة مصر والشام فى الظهور فعلاً بمظهر دولة واحدة ، وذلك بعد أن نجح نور الدين محمود فى ضم مصر إلى جبهة الجهاد الإسلامى بعد استخلاصها من أيدى الفاطميين ، وفى أواخر أيام نور الدين كانت قاعدة هذه الوحدة السياسية الكبيرة فى حلب وهى المركز الأساسى لنور الدين ، وإن كان نور الدين بسبب تنقله المستمر بين نواحى دولته فى الشام والجزيرة لايكاد يستقر فى قاعدة واحدة .

ولكن منذ استقرار صلاح الدين الأيوبى فى مصر بدأت القاعدة تعود إلى مصر ، وعندما نجح صلاح الدين فى إعادة تجميع نواحى الدولة بعد وفاة نور الدين وتمكنه من التغلب على كل منافسيه فى السلطنة أصبحت دولة مصر والشام حقيقة واضحة ووحدة تاريخية قائمة بذاتها بحيث إنه من العسير التأريخ لمصر وحدها أو الشام وحدها أو بلاد الجزيرة وحدها خلال العصر الأيوبى كله ، بل إن مساحة دولة مصر والشام التى تصبح من ذلك الحين سلطنة مصر والشام تتسع وتتأكد ، فإن صلاح الدين بن نجم الدين ابن أيوب فى الفترة الأولى من ولايته على مصر نائباً عن نور الدين محمود كان يخشى دائماً من أن يعزله نور الدين عنها ؛ ولهذا فقد بدأ منذ استتباب الأمر له فى مصر يفكر فى نواح أخرى يمكن أن ينتقل إليها بأهله وجنده ، وإقامة دولة خاصة به فيها لأنه لم يكن يستطيع مجال مواجهة نور الدين إذا وصل الأمر بينهما إلى درجة المواجهة العسكرية ؛ لهذا بدأ صلاح الدين فى تاريخ مبكر بإرسال نفر من أقاربه أو رجاله يستطلعون الأحوال فى بلاد النوبة واليمن وبرقة .

فأما فى بلاد النوبة حيث كانت تسيطر قبيلة الكنوز العربية - نسبة إلى الأمير كنز الدولة - وهى من أتباع الفاطميين فإن رجال هذه القبيلة ماكادوا يسمعون بنقل الخطبة فى مصر من الفاطميين إلى العباسيين حتى شنوا هجوماً على جنوب مصر ، فأسرع صلاح الدين وأرسل أخاه توران شاه بحملة قوية للقضاء على حركة الكنوز الذين كان يؤيدهم نفر قليل من النوبيين ، وبهذه المناسبة جعل صلاح الدين أخاه هذا أميراً على عمالات قوص وأسوان وعيذاب والنوبة ، وقد تم لتوران شاه القضاء على حركة الكنوز ، وعندما استدعاه أخوه إلى القاهرة ترك مكانه نائباً ومعه قوة عسكرية ليثبت امتداد دولة مصر والشام على بلاد النوبة ، فلم يعد هناك شك فى أن حدود مصر الجنوبية تصل إلى دنقلة ، وسنرى بعد قليل أن ميناء سواكن على البحر الأحمر كان تابعا فعلاً لدولة مصر والشام ، وأما فى بلاد برقة فإن رجال صلاح الدين ذهبوا إلى هناك واستطلعوا الإقليم وأيدوا دخوله فى دولة مصر ، ولم تدع الحاجة إلى أكثر من ذلك لأن نور الدين محمود توفى فى شوال سنة ٥٦٩ هـ / ١٥ مايو سنة ١١٧٤ م وبدأ الأمر يستقر لصلاح الدين فى مصر ، وأصبحت المهمة الرئيسية أمامه هى توحيد بلاد الشام تحت سلطانه وإعادة وحدة مصر والشام ، وقد بدأ فى ذلك فى ربيع الثانى ٥٧٠ هـ / أكتوبر ١١٧٤ م عندما دخل دمشق وتغلب على جماعة الأمراء التى كانت تلتف حول الملك الصالح إسماعيل وهو غلام فى الثانية عشرة من عمره وبايعه نفر من رجال نور الدين لكى يحكموا باسمه ، ومن دمشق دخل صلاح الدين حمص ثم حماة فى ديسمبر سنة ١١٧٤ م وفى إبريل ١١٧٦ م دخل حلب وأصبح سلطاناً على مصر والشام ، وعاد بعد ذلك إلى مصر لكى يثبت أركان دولته فى القاهرة ، وبهذه المناسبة بدأ فى بناء قلعة صلاح الدين المشهورة إلى اليوم على جبل المقطم ، وقد بدأ بناءها سنة ١١٨٣ م . وبعد أن أتم صلاح الدين بناء تحصينات القاهرة والإسكندرية جمع جموعه وسار نحو بلاد الشام ليبدأ تاريخه المجيد فى حرب الفرنجة أو الصليبيين فى بلاد الشام .

ولسنا بحاجة هنا إلى تتبع نشاط صلاح الدين فى حروبه مع الصليبيين فى بلاد الشام فقد سبق أن ذكرنا من تفاصيل الحروب الصليبية مايتناسب مع موضوع ذلك الأطلس ، ولكننا نقول إن سلطان صلاح الدين لم يستقر نهائياً فى بلاد الشام والجزيرة كلها إلا بعد القضاء على كل نزعات الانفصال والتآمر مع الصليبيين التى قام بها بعض الطامعين وأصحاب النزعات الأنانية الصغيرة من أدعياء الإمارة فى بلاد الشام والطامعين فى السلطان من أمراء الجزيرة من الأرتقيين ومن انضم إلى هؤلاء من أمراء سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، ولم يتم لصلاح الدين التخلص من هؤلاء جميعاً إلا فى أواخر سنة ١١٧٩ م ، وابتداءً من السنة التالية ١١٨٠ م بدأ بالفعل جهاد صلاح الدين للصليبيين ، ويكفى أن نقول إنه حتى شهر مايو ١١٦٥ م لم يكن صلاح الدين قد فرغ من أمر هؤلاء المناوئين الصغار الذين كانوا يعينون الصليبيين إما مباشرة أو غير ذلك بالوقوف فى وجه الوحدة الإسلامية .

وقبل هذا التاريخ بزمن طويل كان صلاح الدين قد دخل فى صراعه مع الصليبيين ، وكان همه الأول ابتداءً من سبتمبر ١١٧١ م القضاء على إمارة صليبية خطيرة يتولاها فارس فرنجى شديد التعصب ضد الإسلام وهو أرناط وهو الاسم العربى الذى يطلقه المؤرخون العرب على Arnaud de chatillon صاحب قلعة الكرك الذى كانت بلاده تشمل الشوبك أيضاً وكان هذا الرجل يتطلع إلى المسير جنوباً والهجوم على الأماكن المقدسة الإسلامية فى المدينة ومكة ، وبنى بالفعل حصوناً متقدماً فى الجنوب فى اتجاه أيلة على البحر الأحمر مثل Montreal و Belvoire كما كان يقوم باعتراض طريق التجارة بحكم موضع بلاده ، ولهذا نجد أن هم صلاح الدين الأول كان متجهاً إلى تحصين الحدود الجنوبية لفلسطين ومحاولة وقف نشاط أرناط حتى تتاح له الفرصة للقضاء عليه نهائياً ومعاقبته على ماكان يدبر نحو الحرمين الشريفين ، وقد بذل صلاح الدين جهداً كبيراً فى ذلك وأنفق سنوات طويلة واجتهد فى الاستيلاء على الكرك قاعدة ذلك الرجل ، ولم يطمئن باله مؤقتاً إلا بعد أن استولى على مدينة شقيف وأقام فيها قوة من جنده واطمأن بعض الشىء من هذه الناحية ، وتفرغ بعد ذلك لمواجهة الصليبيين فى بقية نواحى الشام ، وهذا الاهتمام من جانب صلاح الدين بجنوب فلسطين جعله يضاعف اهتمامه بتأكيد سلطانه على الحجاز وتحصين بلاده الشمالية لأن أرناط بلغ فى بعض غاراته إلى تيماء وعاث فيها فساداً ، وقد أقام صلاح الدين أخاه الملك العادل على جنوب فلسطين . ومعنى ذلك أن بلاد الحجاز حتى حدود تهامة وعسير أصبحت جزءاً رئيسياً من أجزاء سلطنة مصر والشام ، وبلغ من اهتمام صلاح الدين

بخليج العقبة والبحر الأحمر أنه عمر ميناء القلزم وعنى بميناء جدة لأن أرناط عندما وجد أن الوصول إلى الأراضي المقدسة الإسلامية عسير بالبر عمر أسطولاً في ميناء أيلة أو العقبة ، وأرسل سفناً بلغت إلى أحواز ثغر عيذاب فاستولى صلاح الدين على أيلة وأخذ منها أسرى من الصليبيين ، وكذلك قبض رجاله على بعض الصليبيين الذين وصلوا إلى عيذاب وأرسلوا جميعاً مصفدين بالأغلال حيث ذبحوا مع الهدى الذى أهداه الحجاج لله سبحانه في ذى الحجة سنة ٥٧٨ هـ / ٦ أبريل سنة ١١٨٣ م ، وقد ذكرنا في فصل الحروب الصليبية كيف انتصر صلاح الدين على الصليبيين في موقعة حطين في ٤ يوليو ١١٨٧ م وبعد هذا النصر الحازم وماتلاه من دخول بيت المقدس استكمل صلاح الدين سلطانه على بلاد الشام فأخذ كل بلاد مملكة بيت المقدس ووقع في أسره ملك بيت المقدس Gui de lusignon ونفر من فرسان الصليبيين من بينهم أرناط ، ولم تكد عين صلاح الدين تقع عليه حتى أمر بقتله في الحال عقاباً له على ماأقدم عليه من جرأة التفكير في العدوان على الحرمين الشريفين ، أما بقية الأسرى فقد افتدوا أنفسهم وعاملهم صلاح الدين بكل إنسانية .

وعقب استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سقطت في يده كل موانىء الشام فيما عدا موانىء إمارة طرابلس وأنطاكية ، وبعد دخول صلاح الدين القدس وصلت الحملة الصليبية الثالثة ، وكان أول ماستولت عليه ميناء عكا ومايليها شمالاً ، وبعد ماوقع بين صلاح الدين ورجال الحملة الصليبية الثالثة من حروب تم الاتفاق على صلح الرملة الذى اضطر فيه صلاح الدين إلى التنازل للصليبيين عن جزء من ساحل الشام يمتد من يافا إلى ساحل إمارة طرابلس مع السماح لمن يريد من الصليبيين الحج إلى بيت المقدس دون أن يحمل سلاحاً مع هدنة مدتها ثلاث سنوات وثلاثة أشهر .

هذا هو صلح الرملة الذى وقع في ٢ سبتمبر ١١٩٢ م ، وقد وقعه صلاح الدين على رغمه لأن أمراءه لم يقدموا له العون الكافي في الوقوف لمناهضة الصليبيين ، ولما كان الصليبيون في الحملة الثالثة قد استعادوا عكا وماجاورها كما رأينا فقد سلم صلاح الدين بالأمر الواقع وتوفى في ٤ مارس ١١٩٣ م تاركاً بقية مهمة القضاء على مابقى من الوجود الصليبي في بلاد الشام لمن يأتي بعده ، وقبل أن يسلم روحه إلى بارئها كان قد قام بدور عظيم وحاسم في تاريخ الإسلام والتاريخ العالمي .

وقد روينا في فصل الحروب الصليبية كيف قام من جاء بعد صلاح الدين من الأيوبيين والمماليك بتصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام .

خريطة ١٤٥

دولة مصر والشام (٤)
عصرى المماليك البحرية والبرجية

أولاً : عصر المماليك البحرية من ٦٤٨ هـ – ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ م – ١٣٨٢ م .

خلال ذلك العصر تم القضاء على كل ماكان للصليبيين من أملاك على سواحل الشام كما رأينا ، وبقيت سلطنة مصر والشام بحدودها التى ذكرناها قائمة في مصر والشام وبلاد الحجاز وسواحل اليمن وبرقة وبلاد النوبة كما هي .

ثانياً : عصر المماليك البرجية من ٧٨٤ – ٩٢٢ هـ / ١٣٨٢ – ١٥١٧ م

بقيت حدود سلطنة مصر والشام على ماهى عليه خلال العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، وفي أيام السلطان بارسباى ضمت إلى سلطنة مصر والشام قبرص ورودس كما رأينا في الفصل الخاص بالحروب الصليبية .

خريطة ١٤٦

دولة مصر والشام أيام محمد على ١٨٠٥ – ١٨٤٨ م

انتهى العصر المملوكى بدخول مصر والشام والعراق في الدولة العثمانية عندما قام السلطان سليم الأول بحملته المعروفة على بلاد الشام ومصر وقضى على سلطنة المماليك ، وأصبحت هذه السلطنة بكل أملاكها وتوابعها جزءاً من دولة آل عثمان ، وتحولت إلى ولايات أو سناجق بحسب التنظيم الإدارى للدولة العثمانية كما سنرى في الفصل الخاص بها .

وقد سبق أن استولى الأتراك العثمانيون على العراق بعد انتصارهم على الصفويين الفرس في معركة تشالديران،ونتيجة لهذا فقد خرج العراق نهائياً من سيطرة الفرس ودخل في إمبراطورية آل عثمان ، وانضم بهذا إلى المجموعة العربية داخل الدولة العثمانية

وقد رأينا في كلامنا على تاريخ الجزيرة العربية أن « محمد على » بعد أن قامت دولته في مصر كلفه السلطان العثمانى بقيادة حملات عسكرية على جزيرة العرب للقضاء على الحركة السلفية التى قادها السعوديون تحت راية الدعوة السلفية التى نادى بها الإمام محمد ابن عبد الوهاب،وتولى تحويلها إلى دولة سلفية عربية ، فأرسل محمد على حملته الأولى يقودها ابنه طوسون سنة ١٨١٢ م ثم توالت حملاته على النحو الذى وصفناه ، وكانت نتيجة ذلك ضم الحجاز وجزء من عسير إلى دولة مصر وبذلك بدأت دولة مصر والشام في الظهور من جديد وفيما بين ١٨٣٠ و ١٨٤٠ م وهى فترة الذروة للنشاط المصرى في جزيرة العرب أصبح الحجاز داخلاً في دولة مصر بصورة رسمية حتى انسحب المصريون من كل ماامتد إليه سلطانهم في مصر والشام سنة ١٨٤٠ م .

وقبل ذلك بسنوات وابتداءً من ١٨٢٠ م كان محمد على قد بدأ في فتح السودان بعد تمام إنشاء جيشه المصرى القومى الجديد ، وقد تمكنت القوات المصرية من التوسع في بلاد السودان حتى وصلت إلى سواكن ثم مصوع على البحر الأحمر ، وفي نفس الوقت سارت قوات مصرية وضمت بلاد دارفور في شرق السودان ، وفي سنة ١٨٣٠ م عين محمد على أول وال لمصر على السودان ، وهذا الوالى استقر في مدينة الخرطوم التى أنشأها المصريون سنة ١٨٢٢ م ، وبذلك تكون دولة مصر قد شملت الحجاز وجزءاً من عسير بل وصلت إلى اليمن ، هذا بالإضافة إلى امتدادها إلى الجنوب في بلاد السودان مما أعطى طابعاً جديداً لدولة مصر ، فقد بدأت في الظهور وحدة سياسية إقليمية جديدة هى دولة وادى النيل التى تضم مصر والسودان .

وبينما كانت قوات مصر تتوغل في بلاد السودان كانت الدولة العثمانية قد استعانت مرة أخرى بمحمد على لإخماد ثورة اليونان على الحكم العثمانى ابتداءً من ١٨٢٢ م ، فأسرع محمد على وبعث بابنه إبراهيم في قوة مصرية عزت جزيرة كريت واستولت عليها وفتحت بلاد المورة وهى الجزء الجنوبى من بلاد اليونان وأخمدت الثورة هناك سنة ١٨٢٧ م ، وقد أزعجت هذه الفتوح فرنسا وانجلترا فقررتا إرسال حملة بحرية حطمت الأسطول المصرى في معركة نوارين في جنوبى بلاد اليونان سنة ١٨٢٧ م ، وعقب ذلك انسحب المصريون من اليونان وإن بقيت كريت تابعة لمصر حتى سنة ١٨٤٠ م .

وعقب ذلك طالب محمد على السلطان العثمانى بتعويضه عن خسائره في حرب اليونان التى لم تعد عليه بأى فائدة ، ولكن السلطان العثمانى رفض ذلك بتأييد من الدول الأوروبية التى كانت تخشى توسع مصر فشرع محمد على في فتح الشام ، وفيما بين ١٨٣٠ م و١٨٣٣ م كانت جيوش مصر يقودها إبراهيم باشا بن محمد على قد فتحت كل بلاد الشام وهزمت جيوش الدولة العثمانية في موقعة نزيب ، ثم توغلت في آسيا الصغرى وهزمت جيوش الدولة العثمانية في موقعة قونية التى فتحت الأبواب أمام الجيوش المصرية للوصول إلى بورصة مما اضطر السلطان العثمانى إلى عقد معاهدة صلح هى معاهدة هنكيار اسكله – سى سنة ١٨٣٣ م ، وبها حصل محمد على على ولاية عكا بما فيها نابلس والقدس ثم ضم السلطان إلى مصر ولايات دمشق وحلب وأضنة ، وبذلك عادت سلطنة مصر والشام إلى الظهور لآخر مرة في تاريخها إذ أصبحت تتكون من مصر والسودان والحجاز وبلاد الشام جميعها حتى جبال طوروس بحدودها التى عرفناها فيما مضى من هذا الفصل ، وقد دامت الدولة هذه المرة عشر سنوات متوالية من ١٨٣٠ م إلى ١٨٤٠ م ، ولم تنته إلا بعد انسحاب قوات مصر من بلاد الشام وعقد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م التى انحصرت فيها حدود الدولة المصرية على بلاد مصر مضافاً إليها مافتحت من بلاد السودان .

وصـول المصريـين إلـى الخليـج .

تتبعنا نشاط التدخل المصرى في الجزيرة حتى انتهائه سنة ١٨٤٠ م ، والآن نعود لاستكمال أعمال المصريين في شرق الجزيرة فنقول إن التدخل المصرى حدث على دورين : الدور الأول هو الذى فصلنا أمره ، وقد اشترك فيه طوسون بن محمد على ، ثم محمد على نفسه ، ثم ابنه إبراهيم ، وينتهى هذا الدور سنة ١٨١٩ م وهى السنة التى احتل فيها إبراهيم ابن محمد على منطقة نجد وبخاصة ناحيتى القصيم والدرعية ، ومن هناك اتجه إلى الأحساء حيث احتل القطيف ثم اتجه إلى الشمال بحذاء الخليج قاصداً دخول البصرة ، وهنا أدرك الخوف السلطات التركية من وصول المصريين إلى العراق والتحام قواتهم من هناك بالقوات المصرية في الشام ، ونتيجة لذلك تحرك داود باشا والى العراق العثمانى وطلب إلى الدولة العثمانية أن تقف سير إبراهيم باشا وبالفعل توقف إبراهيم باشا .

وبعد انتصار المصريين على الأتراك في معركة قونية وعقد معاهدة كوتاهية سنة ١٨٣٣ م عاد « محمد على » يجدد نشاطه في بلاد العرب فيحالف رجلاً من أمراء آل سعود هو خالد

ليكون حليفاً ودليلاً للمصريين فى توسعهم فى الأحساء ، وبالفعل دخلت القوات المصرية الأحساء والقطيف للمرة الثانية بقيادة إسماعيل أغا وحليفه الأمير خالد بن سعود ، وهنا نجد شيخ البحرين عبد الله بن أحمد آل خليفة يتحرك للقيام بعمل يحول بين المصريين واحتلال البحرين ، وكانت السلطات العثمانية فى العراق تشاركه هذا الخوف فحاولت التحالف مع الأمير فيصل بن تركى السعودى ، ولكن « محمد على » أقام فى سنة ١٨٣٨ م قائداً جديداً طموحاً على نجد هو خورشيد باشا فتحرك خورشيد باشا من عنيزة نحو الرياض حيث التقى بقوات الأمير خالد بن سعود واستسلمت الرياض وتراجع فيصل بن تركى إلى معقله فى مدينة دلم ، ولكن خورشيد باشا استولى عليها ، وانتقل الأمير فيصل بن تركى إلى القاهرة فى ديسمبر عام ١٨٣٨ م ، وحاول على رضا باشا والى بغداد إثارة العراقيل فى وجه المصريين بكل سبيل مخافة استيلائهم على البصرة وتحقيق حلم إبراهيم باشا بن محمد على فى فصل الولايات العربية عن الدولة العثمانية وإنشاء دولة عربية .

وجزع الإنجليز من تقدم المصريين نحو الأحساء واحتلالهم القطيف واستعداداتهم للاستيلاء على البحرين ، فعملوا بالتعاون مع الشيخ عبد الله بن أحمد والعثمانيين على وقف تقدم المصريين ، ومع ذلك فقد أعلن خورشيد باشا فى نهاية الأسبوع الثالث من مايو ١٨٣٨ م أن نجد كلها وبلاد العرب من الحجاز إلى الخليج داخلة فى دولة مصر ، وأن الأمير فيصل بن تركى حليف المسلمين ، وأن سلطانه وصل إلى عسير .

وقد اجتهد الأتراك فى تحريض بعض بطون بنى خالد مثل العماير وبنى هاجر للتصدى للمصريين ، ولكن محمد أفندى رفعت وكيل خورشيد باشا فى الأحساء تمكن من تثبيت سلطانه فى هذه الناحية ، وهنا تحركت انجلترا للعمل وحرضت شيخ البحرين عبد الله ابن أحمد على العمل معها لمنع المصريين من الاستيلاء على بلاده ، واستعان الإنجليز بالفرس للوصول إلى هذا الغرض ، وأخيراً تم الاتفاق بين الشيخ عبد الله بن أحمد ومحمد أفندى رفعت بعد مفاوضات انتهت يوم السبت ٧ مايو ١٨٣٩ م عند خور حسان قرب قطر على أن يدخل شيخ البحرين فى حلف المصريين ، وتعهد شيخ البحرين بإخراج قبائل المواجر والعماير من كل نواحى الأحساء ، واعترف كذلك بأن أهل قطر من البدو والحضر حلفاء المصريين يؤدون الزكاة لمحمد أفندى رفعت ويقيم محصلاً لمصر فى البحرين ، وأثناء ذلك ذهب سعد بن مطلق صاحب واحة البوريمى إلى خورشيد باشا ودخل فى حلفه فى مارس ١٨٣٩ م ، وكلمه خورشيد باشا بالذهاب إلى الشارقة وإقناع حكامها بالدخول فى الحلف العربى الجديد ، ووافق الشيخ سلطان بن صقر على ذلك .

وأرسلت بريطانيا مندوباً لها ليحضر من شيوخ ساحل الخليج عن سر تفكيرهم فى الانضمام إلى محمد على مع أن هناك اتفاقاً بين بريطانيا وشيخ القواسم سلطان بن صقر على أن يكون تحت حماية بريطانيا ، وهنا نجد أن سعد بن مطلق حليف المصريين يتنصل من حلفهم ، ويقبل عقد حلف مع بريطانيا على يد المستر هنيل مندوب بريطانيا فى الخليج وتم عقد معاهدة صداقة وحماية بين بريطانيا وأمراء الخليج ، وسمى ساحل عمان باسم ساحل عمان المتصالح Oman Trucial Coast .

وفى ديسمبر ١٨٣٩ م وفى نفس الوقت أرسل خورشيد باشا إلى شيوخ شمال الخليج وبخاصة الكويت والمحمرة يدعوهم للانضمام إليهم فاستقبل الأمير جابر الصباح شيخ الكويت مندوب محمد على أحسن استقبال ، وعقب ذلك أرسلت انجلترا مندوباً لها يسمى المستر أدموندز ليقابل الشيخ جابر الصباح الكبير ويباحثه فى الأمر ، فلم يصل له الشيخ جابر كثيراً لأنه كان معجب بمحمد على وشجاعته ، وخاصة بعد انتصار المصريين على الأتراك فى معركة نزيب فى ٢٤ يونيو ١٨٣٩ م وانضمت إلى مصر قبائل المنتفق وبعض عشائر البصرة ، بل انضمت إليهم كتيبة تركية .

وكان فى استطاعة خورشيد باشا التحرك إلى البصرة والاستيلاء عليها خصوصاً بعد موت السلطان محمود الثانى فى ٢٩ يونيو ١٨٣٩ م واستسلام قوى من الأسطول التركى لمصر ، ولكن الدول الأوروبية وبخاصة انجلترا تألبت على محمد على وأخذت تعمل على القضاء على سلطانه خارج مصر ، فأخذ يسحب قواته من الأحساء ثم من نجد لتجميع قواته لمواجهة أعدائه فى الشام فى نهاية يونيو ١٨٤٠ ، بل عاد خورشيد باشا إلى مصر فى بداية أغسطس ١٨٤٠ م تاركاً مصالح مصر فى الحجاز لأنصارها من أمثال الشريف محمد بن عون الذى عينه محمد على حاكماً على الحجاز ، وكذلك عين الأمير خالد ابن سعود حاكماً على نجد وأحمد بن مبارك من بنى خالد حاكماً على الأحساء .

وعقب هزيمة القوات المصرية فى الشام أمام الإنجليز نتيجة لثورة بعض أهل الشام على مصر عقدت اتفاقات مع محمد على فى الإسكندرية فى نوفمبر وديسمبر ١٨٤٠ م وافق فيها محمد على على التنازل عن ملكيته للشام وأضنه وكريت والجزيرة العربية ، بل سلم قطع الأسطول التركى التى لجأت إليه .

المراجع

أحمد فكرى — مساجد القاهرة ومدارسها (ثلاثة أجزاء) القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٥ م ومابعدها .

الإدفوى — كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م)
الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد . تحقيق سعد محمد حسن . القاهرة ١٩٦٦ م .

ابن إياس — أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م)
بدائع الزهور فى وقائع الدهور . أربعة أجزاء تحقيق محمد مصطفى .القاهرة ١٩٧٥ م .

الخطيب البغدادى — أبو بكر أحمد بن على (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) .
تاريخ بغداد ١ — ١٤ . القاهرة مكتبة الخانجى ١٩٣١ م .

ابن خلكان — شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م)
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١ — ٨ تحقيق إحسان عباس . بيروت دار الثقافة ١٩٦٩ — ١٩٧٢ م .

ابن دقماق — إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م)
الانتصار لواسطة عقد الأمصار جزءان ، مطبعة القاهرة بدون تحقيق .

ساويرس بن المقفع — أسقف الأشمونين
تاريخ بطاركة الإسكندرية تحقيق يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وآخرين.القاهرة مطبوعات جمعية الآثار القبطية جـ ٢ قسم ٣ وجـ ٣ قسم ١ القاهرة ١٩٥٩ ، ١٩٦٨ م .

على مبارك بن سليمان — (ت ١٣١١ هـ) الخطط التوفيقية ١ — ٣ دار الكتب المصرية ١٩٦٦ م .

ابن العماد — عبد الحى بن أحمد بن محمد الحنبلى (ت ١٠٨٩ هـ)
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ١ — ٨ طبعة القدسى ، القاهرة ١٣٥٠ — ١٣٥١ هـ .

ابن الفرات — ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧ هـ)
تاريخ الدول والملوك . مخطوطة مكتبة فينا رقم ٨١٤ مصورة فى المكتبة التيمورية فى القاهرة .

ابن القلانسى — أبو يعلى حمزة بن أسد التميمى (ت ٥٥٥ هـ)
ذيل تاريخ دمشق . تحقيق أمدروز . بيروت ١٩٠٨ م .

القلقشندى — أحمد بن على بن أحمد الفزارى . (ت ٨٢١ هـ)
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ١ – ١٤ القاهرة . دار الكتب من ١٩١٢ إلى ١٩٣٨ م .

أبو المحاسن — جمال الدين يوسف بن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١ – ١٢ القاهرة . دار الكتب المصرية ١٩٢٩ – ١٩٥٥ م .

المقريزى — السلوك لمعرفة دول الملوك . بتحقيق د / محمد مصطفى زيادة والدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور . القاهرة ١٩٣٤ م ومابعدها .

النويرى — شهاب الدين أحمد عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ)
نهاية الأرب فى فنون الأدب ١ – ٢٣ طبعة دار الكتب القاهرة ١٩٣٥ م ومابعدها .

أبو شامة — شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ، (ت ٦٦٥ هـ ١٢٦٧ م)
كتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين » جـ ١ ، ٢ بتحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٥٦ م

جمال الدين الشيال — (ت ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م)
مجموعة الوثائق الفاطمية . مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٥٨ م .

تقى الدين أحمد بن على المقريزى — اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا . تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة ١٩٦٧ م

ابن الصيرفى — أبو القاسم على بن منجب (ت ٥٤٢ هـ)
الإشارة إلى من نال الوزارة تحقيق عبد الله مخلص القاهرة ١٩٢٥ م . طبعة المعهد الفرنسى فى القاهرة

صلاح الدين المنجد — ولاة دمشق فى العهد السلجوقى
نصوص مستخرجة من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر . دمشق ١٩٤٩ م .

ابن العديم — كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبى جرادة الحلبى
(ت ٦٦٠ هـ) بغية الطلب فى تاريخ حلب . جرمان .
التراجم الخاصة بتاريخ السلاجقة قام بنشرها على سويلم . مطبوعات الجمعية التاريخية التركية . أنقرة ١٩٧٦ م .

ابن العديم — زبدة الحلب من تاريخ حلب ١ – ٣ تحقيق سامى الدهان
مطبوعات المعهد الفرنسى للدراسات العربية بدمشق ١٩٥١ ١٩٦٨ م .

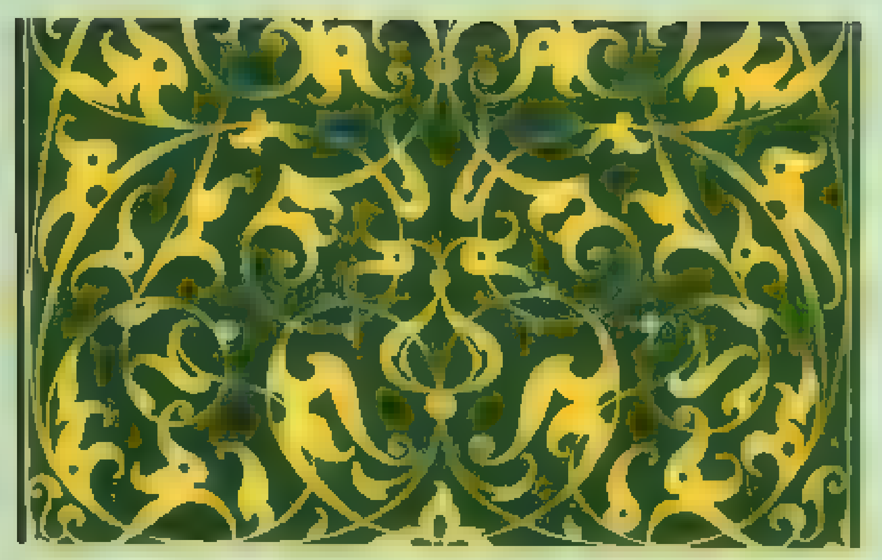

الفصل الخامس عشر

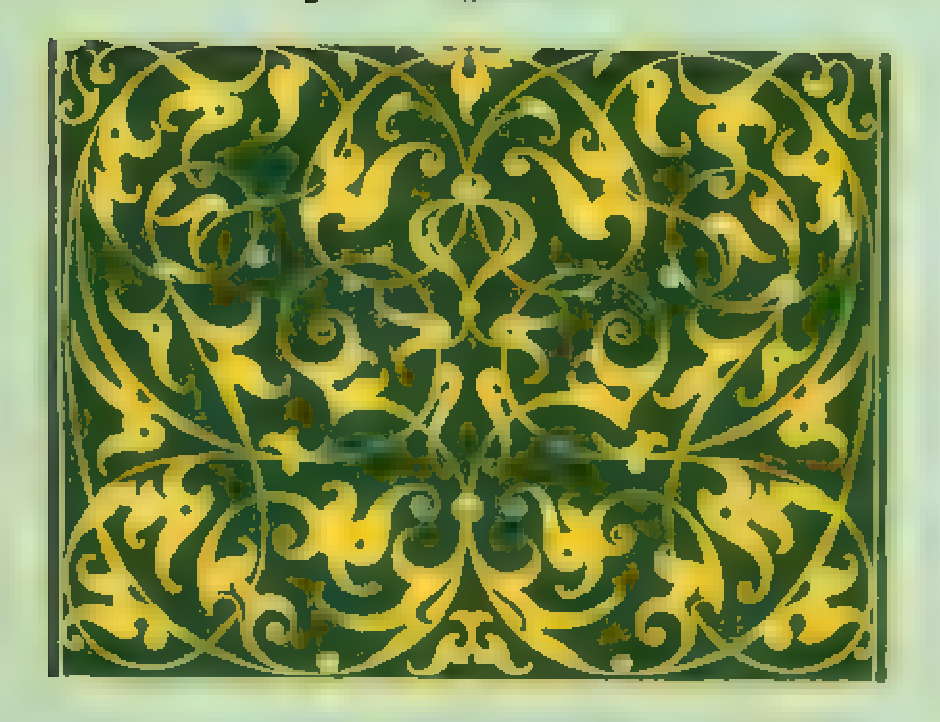

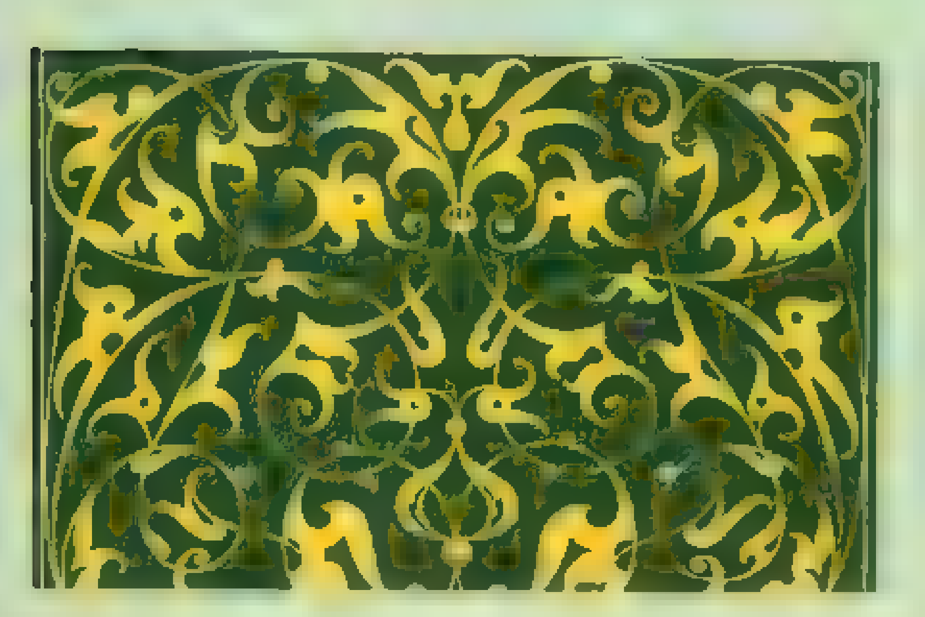

بيان الخرائط

مصر الإسلامية
خريطة
المواقع الجغرافية والتاريخية لأسفل الأرض
(الدلتا)
البحر
دمياط
تنيس
بحيرة تنيس
(المنزلة)
خليج الطينة
الفرما
بحيرة البرلس
رمل الجفار
بحيرة التمساح
البحيرات المرة
خليج أمير المؤمنين
بلبيس
القاهرة
الفسطاط
القلزم
السويس
خليج القلزم
إقليم مصر الأبروشية الثالثة
إقليم أوجستومنيك الأبروشية الأولى
إقليم مصر الأبروشية الرابعة
إقليم أوجستومنيك الأبروشية الثانية
الأبروشية الأولى
الأبروشية الثانية
الأبروشية الثالثة
الأبروشية الرابعة
التقسيم الإداري لمصر
قبيل الفتح الإسلامي

الـــروم
بحيرة نستراوة
(البرلس)
رشيد
بحيرة إدكو
الإسكندرية
بحيرة مريوط
أبو حمص
سخا
المحلة
منوف
وادي هبيب
(النطرون)
البحر
الروم
النستراوية
دمياط
البحيرة
الغربية
الشرقية
القليوبية
مصر الإسلامية
(أسفل الأرض)
فترة الأعمال الكبرى
مقياس الرسم

البحر الرومي

البرلس
دمياط
رشيد
البشرود
نقيزة
البجوم
إدكو
تيدة
ديصا
الإسكندرية
مليج
تنيس
دقهلة
صا
الصراحتين
البحيرة
سخا
المرتاحية
الفرما
الشراك
قرطسا
صان وإبليل
البدقون
خربتا
هربيط
طوه
منوف السفلى
أطراببية
خليج أمير المؤمنين
تربوط
تا
منوف العليا
أتريب
عين شمس

التقسيم الإداري لدلتا مصر
فترة الكور الصغرى
من سنة ٢٠ هـ / ٦٤١ م
إلى النصف الثاني من القرن الخامس الهجري
النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي
نقلاً عن عمر طوسون، جغرافية مصر في العصر العربي

مقياس الرسم ١ : ١٢٥٠٠٠٠

البحر الرومي

دمياط
رشيد
الغربية
الطرابية
الدنجاوية
الإسكندرية
الإبوانية
المزاحمتين
السنهورية
السمنودية
الدقهلية
البحيرة
المرتاحية
الطنتاوية
الفرما
حوف رمسيس
جزيرة بني نصر
جزيرة قويسنا
الشرقية
الفاقوسية
المنوفية
القليوبية

التقسيم الإداري لدلتا مصر
فترة الكور الكبرى
عصر الفاطميين والمماليك والعثمانيين
القرن العاشر الهجري / الخامس عشر الميلادي
نقلاً عن عمر طوسون، جغرافية مصر في العصر العربي

مقياس الرسم ١ : ١٢٥٠٠٠٠

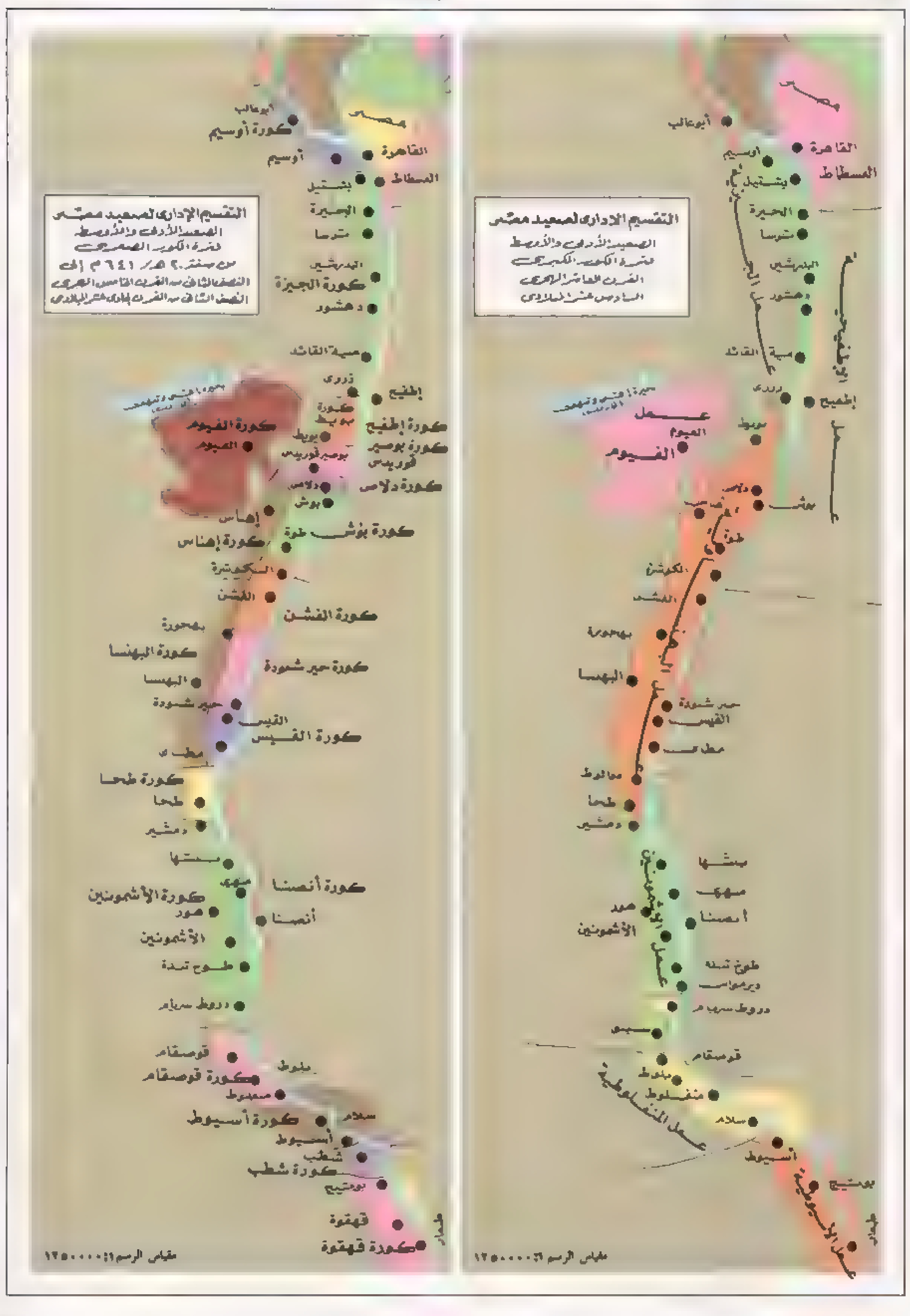
التقسيم الإداري لصعيد مصر
الصعيد الأدنى والأوسط
فترة الكور المصرية
من سنة ٢٠ هـ / ٦٤١ م إلى
النصف الثاني من القرن الخامس الهجري
النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي
مصر
أبو غالب
كورة أوسيم
أوسيم
القاهرة
الفسطاط
بشتيل
الجيزة
شرسا
الدرشين
كورة الجيزة
دهشور
ميدوم
منية القائد
زورى
إطفيح
كورة إطفيح
كورة الفيوم
الفيوم
كورة بوصير قوريدس
كورة دلاص
دلاص
بوش
إهناس
كورة بوش
كورة إهناس
الكنيسة
القمن
كورة القمن
بهجورة
كورة البهنسا
كورة حير شمودة
البهنسا
حير شمودة
القيس
كورة القيس
مطاي
كورة طحا
طحا
دمشير
منشا
كورة أنصنا
كورة الأشمونين
هور
أنصنا
الأشمونين
طوخ تندة
دروط سريام
قوصقام
كورة قوصقام
منفلوط
ملوط
سلام
كورة أسيوط
أسيوط
شطب
كورة شطب
بوتيج
قهقوة
كورة قهقوة
مقياس الرسم ١: ١٢٥٠٠٠٠
التقسيم الإداري لصعيد مصر
الصعيد الأدنى والأوسط
فترة الكور الكبرى
القرن العاشر الهجري
السادس عشر الميلادي
مصر
أبو غالب
القاهرة
أوسيم
الفسطاط
بشتيل
الجيزة
شرسا
الدرشين
دهشور
منية القائد
زورى
إطفيح
عمل الفيوم
الفيوم
بوش
دلاص
الكوشنة
القمن
بهجورة
البهنسا
حير شمودة
القيس
مطاي
طحا
دمشير
منشا
هور
أنصنا
الأشمونين
طوخ تندة
دروط سريام
قوصقام
ملوط
منفلوط
عمل المنفلوطية
سلام
أسيوط
بوتيج
عمل الأسيوطية
مقياس الرسم ١: ١٢٥٠٠٠٠

التقسيم الإداري لصعيد مصر
الصعيد الأوسط والأعلى
فترة الكور الكبرى
التقسيم الإداري لصعيد مصر
الصعيد الأوسط والأعلى
فترة الكور الصغرى
مقياس الرسم ١ : ٢٥٠٠٠٠٠
مقياس الرسم ١ : ٢٥٠٠٠٠٠
منفلوط
أسيوط
شطب
بوتيج
قهقوة
قاو
طهطا
شندويل
أخميم
كورة أخميم
كورة أبشاية
أبشاية
البليا
كورة قناو
قنا
كورة قنا
كورة هو
هو
كورة دندرة
قفط
كورة قوص
قوص
دماميل
الأقصر
كورة أرمنت
أرمنت
كورة الأقصر
الدمقرات
أصفون
كورة إسنا
إسنا
كوم الشقف
إدفو
كورة إدفو
كورة
أسوان
ندبات
أسوان
دندرة
أسوان

مصر العليا
من أسوان
إلى
دنقلة
كركر
دنقل
وابود
دهميت
كلابشة
أبوهور
مارية
كشتمنة
معبد لدكة
العلاق
سيالة
المضيق
معبد السبوع
وادي العرب
الديوان
عامية
أبريم
الدرب
كرسكو
توشكا
أرمنا
أبو سمبل
أرجين
جبل أبو صير
وادي حلفا
سمنة
عكاشة
أمبكول
سنكي
كوشة
المنطقة الممتدة من كوشة إلى دنقلة
كوشة
صاي
جبل مجاوى
واو
معبد صلب
جبل أبو سط
جبل تمدلة
كوكة
جبل أبو هبة
الجندل الثالث
أرجوة
دنقلة

مصر الإسلامية في العصور الوسطى
شبه جزيرة سيناء والدلتا
والصعيد الأعلى وطرق المواصلات
البحر
المتوسط
الإسكندرية
رشيد
دمياط
قبيلة ثعلبة
الجفار
العريش
قبيلة العايد
القاهرة
الجيزة
هضبة التيه
طور سينا
الطور
بحر القلزم
بنو صخر
مدين
مقنا
عينونة
المويلح
العويند
شدوان
رأس محمد
الفيوم
إطفيح
إهناس
البهنسا
ديروط
منفلوط
أسيوط

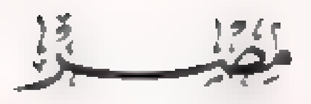

خريطة – ١٤٧ — ١٤٨ — ١٤٩
١٥٠ — ١٥١ — ١٥٢
١٥٣ — ١٥٤ — ١٥٥

منذ أن استقر الإسلام فى مصر وتحولت إلى ولاية إسلامية تابعة للخلافة فى المدينة أولاً ثم فى دمشق ثم بغداد بعد ذلك – بدأت مصر تتحول شيئاً فشيئاً إلى قاعدة رئيسية من قواعد دولة الإسلام ، وعندما قامت فيها دولة أحمد بن طولون ظهر بوضوح أنها تتميز من بين ولايات الدولة الإسلامية باتجاه تقليدى نحو الاستقرار الإدارى والاجتماعى والسياسى ، وهى الخصائص الكبرى الثلاث التى ميزت مصر فى العالم القديم وجعلتها تأخذ دائماً صورة الدولة المستقلة بنفسها المتميزة بشخصيتها ، وقد اختفت كدولة مستقلة عقب الغزوة الفارسية المخربة عليها سنة ٥٢٥ ق م . ولكنها عادت إلى الظهور بعد أقل من قرنين دولة مستقلة يغلب عليها الطابع اليونانى فى العصر البطلمى بعد وفاة الإسكندر الأكبر سنة ٣٢٦ ق م واستمرت مستقلة ذات سيادة حتى الغزو الرومانى سنة ٣٠ ق م . وبينما كانت ولايات الدولة الرومانية تختفى فى بحر الاستعمار العسكرى المدمر لشخصية الأمم التى استعمرها بدأت مصر فى الظهور من جديد مع ظهور المسيحية ، وفى نهاية القرن المسيحى الثالث على وجه التقريب كانت مصر قد استعادت وعيا لنفسها وأخذت تحتل فى العالم المسيحى مركز واحدة من قواعد المسيحية الأربع روما والقسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية ، وقد انتصرت القسطنطينية على روما ثم أنطاكية بفضل الإمبراطور البيزنطى ، ولكن لقيت من مصر عناداً شديداً وانفراداً بشخصيتها ومذهبها المسيحى المونوفيزى المعارض لمذهب الدولة ، وهذا العناد واستقلال الشخصية بالإضافة إلى الثروة الطبيعية هى العوامل التى دفعت المصريين آخر الأمر إلى الترحيب بالعرب والدخول فى دولتهم وفى دينهم .

وعندما أسلمت – من أهل مصر – واستعربت نسبة كبيرة من السكان أخذت مصر الإسلامية فى الظهور وحدة سياسية وإدارية واجتماعية قائمة بذاتها متميزة بشخصيتها ، وهذه هى العوامل الثلاثة وراء استقلال أحمد بن طولون بمصر ، وهو استقلال كاد – كما رأينا – يجعل مصر مركز الخلافة الإسلامية عندما قرر الخليفة المعتمد العباسى اللجوء بنفسه وخلافته إلى مصر ، وإذا كان هذا الأمر لم يتحقق أثناء خلافة الخليفة العباسى المعتمد أبى العباس أحمد بن المتوكل سنة ٢٥٦ – ٢٧٩ هـ / ٨٧٠ – ٨٩٢ م فإنه لم يلبث أن تم بعد قرن من الزمان عندما دخلت مصر قوات الفاطميين بقيادة جوهر الصقلى فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ / يونيو ٩٦٩ م ، وهذا القائد المنتصر كان يقود قوة لابأس بها من الكتاميين البربر ربما كانت كافية لفرض السيادة العسكرية الفاطمية على مصر لفترة محدودة من الزمن ولكنها لم تكن بقادرة على تغيير شخصية مصر أو التأثير فيها تأثيراً حقيقيا ، ولهذا فإن جوهراً – بأمر سيده أبى تميم معد المعز – أعطى المصريين قبل أن تستقر قدمه فى مصر أماناً وتعهداً باحترام شخصية بلادهم لم يكن مألوفاً فى تلك العصور (انظر نص هذا البيان فى الجزء الأول من اتعاظ الحنفا للمقريزى بتحقيق جمال الدين الشيال) ولكنه يدل على أن المعز كان يشعر بأنه يدخل بلداً قوياً يصعب عليه سيادته إلا باحترام شخصيته ، وأى سلطان عليه لن يكون إلا عسكرياً وهكذا كان .

والحقيقة أن المعز الفاطمى عندما دخل مصر فى رمضان ٣٦٢ هـ / يونيو ٩٧٣ م وأعلن نفسه خليفة فاطمياً فى القاهرة لم يصبح بذلك خليفة للمسلمين ولا لجزء ضئيل منهم ، وإنما مصر هى التى تحولت إلى دار خلافة ، ولم تلبث أن تحولت فى الواقع إلى خلافة المسلمين وبخاصة بعد أن أزال المغول الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وقيام دولة المماليك فى مصر على يد المظفر سيف الدين قطز ١٢٥٨ م ، فإن خليفته وهو ركن الدين بيبرس البندقدارى الذى يعتبر بالفعل أول سلطان مملوكى لدولة مصر والشام ١٧ ذو القعدة ٦٥٨ – المحرم ٦٧٦ هـ / أكتوبر ١٢٦٠ – يونيو ١٢٧٧ م لم يلبث أن استدعى أحد أبناء العباسيين وهو أبو القاسم أحمد بن المستنصر بن الظاهر ، وبايعه خليفة عباسياً فى ١٣ رجب ٦٥٨ هـ / يونيو ١٢٦٠ م وكانت هذه خلافة شكلية رسمية بالنسبة له لأنه كان يستمد منها شرعية سلطانه ، ولكنها بالنسبة لمصر كانت حقيقة تاريخية ، فإذا كان لابد أن يكون للمسلمين فى الشرق خلافة سنية ، فلم يكن لها فى ظروف ذلك العصر مكان إلا مصر وقاعدتها القاهرة ، فمصر كانت أقوى وأغنى وأضخم دولة إسلامية .

استقرار مصر الاقتصادى والإدارى والاجتماعى .

وهذا التتبع لتطور مصر التاريخى قبل دخولها العالم الإسلامى وبعده يشرح لنا السبب الذى جعلنا نخصص فصلاً من هذا الأطلس لمصر ونظامها الإدارى ، فإننا رأينا أثناء مامر بنا من فصول تاريخ الإسلام والمشرق أن مصر هى الوزن الكبير المستقر فى تاريخ الشرقين الأوسط والأدنى ، وهذا راجع إلى استقرار تنظيمها الإدارى وتجانس شعبها وتماسكه الإقليمى إذ لم تقل القوى بصورة تعتبر غير عادية فى تلك العصور ، حتى بعد أن دخلت غالبية أهلها فى الإسلام وبقيت منهم بقية لم تجعله تقدر تقليدياً بواحد على أحد عشر (أى ٩,٠٩ فى المائة) ظل الانسجام السكانى والتراحمى قائما بين أهلها ، ولافرق بين المصرى المسلم والمصرى القبطى إلا فى العقيدة ، وهى حقيقة خاصة بالمواطن نفسه وأسرته ، أما فيما عدا ذلك فإن سكان مصر ظلوا متجانسين متماسكين متميزين بخصائص جثمانية وخلقية ومعنوية واحدة . وهذه هى الحقيقة التى جعلتها تبدو دائماً متوازنة مستقرة وهادئة نسبياً حتى فى عصور الأزمات الاقتصادية مهما بلغت حدتها ، وهذه الكتلة المتجانسة المتماسكة هى تقريباً العامل الأكبر فى توازن الأحوال فى العالم الإسلامى الشرقى الذى يعتبر – تاريخياً– منطقة أعاصير تاريخية ، (ولاتزال كذلك) .

وقد لاحظ هذه الحقيقة مؤرخو اليونان ، ولكن مؤرخى العرب أحسوا بها إحساساً أعمق لأنها حقيقة كانوا يعيشونها (ويستفيدون منها) فأبو القاسم بن حوقل الرحالة الجغرافى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى يقول فى كتابه القيم صورة الأرض : « إن فى مصر نظاماً ودولة » وهى عبارة عميقة المعنى بعيدة المغزى ، وهذا الرجل المنصف الثاقب النظرة لم يلقها قطعاً على عواهنها ، وقد أكدها بعده معظم كتاب العرب وبخاصة المقريزى ، إلا أن استقرار مصر وقيامها يرجع أساساً إلى استقرار تنظيمها الإدارى وسلامته ، وكتابه « المواعظ والاعتبار فى الخطط والآثار » المعروف عادة باسم الخطط إنما هو فى الواقع شرح مفصل هذه الحقيقة لأنه دراسة موسعة للتنظيم الإدارى وتطوره وللمالية المصرية وقواعدها ، ولهذا كان لابد من تصوير هذه الحقيقة التاريخية فى هذا الأطلس التاريخى الإسلامى .

وقد أشار إلى أهمية هذه الحقيقة وأهميتها بالنسبة لتاريخ مصر والشرق الأوسط كله شارل دى لاروسيير Charles de la Roncières ومساعدوه الذين ألفوا الجزء الأول من كتاب تاريخ الأمة المصرية Histoire de la Nation Egyptienne paris 1937 وهو أوسع تاريخ كتب لمصر فى لغة أوروبية وأشرف عليه المؤرخ الفرنسى الكبير جابرييل هانوتو Gabriel Hanotau وقد نسبوا هذه الحقيقة إلى ظروف مصر الجغرافية وموضعها وتكوين شعبها وقالوا إنه تكوين متوازن نشأ عنه شعب متجانس عامل نشيط شديد التمسك بأرضه وأصوله وعقيدته ، كما درس ذلك دراسة علمية مفصلة دكتور جمال حمدان فى كتابه « شخصية مصر » وأجملت الكلام عن هذه الحقيقة فى كتابى « مصر ورسالتها » لكن المؤرخين العرب والمسلمين الذين كتبوا عن مصر ووصفها وخصائصها ونظامها الإدارى فى العصور الإسلامية هم الذين يظهرون لنا أهمية حقيقة استقرار مصر بالنسبة لتاريخ العالم الإسلامى فى المشرق ، وقد رأينا كيف أن ثبات مصر وثروتها كانا من وراء قيام الدولة الأموية فى دمشق ، لأن معاوية بن أبى سفيان عندما ضم مصر إلى الشام أصبح أقوى وأغنى شخصية فى الصراع الذى دار للوصول إلى الخلافة ، ثم رأينا أن مصر فى النهاية كانت العامل الأكبر فى القضاء على الصليبيين فى بلاد الشام وتصفية وجودهم هناك ، وهى كذلك التى خلصت العالم الإسلامى من خطر المغول المدمر ، ثم إن مصر تحولت فى أوائل النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى إلى قاعدة خلافة ، وفى العصور الحديثة كانت مصر هى أول من نهض وواجه الهجوم العسكرى والحضارى للغرب أواخر القرن الثامن عشر الميلادى .

وقد تحدث عن التكوين الداخلى لمصر ونظامها الإدارى وسكانها وثروتها مؤرخون عرب كثيرون أورد ذكرهم الجغرافى المصرى المعاصر محمد رمزى صاحب « القاموس الجغرافى للمواضع المصرية » (دار الكتب المصرية) فى كلامه عن التقسيم الجغرافى للبلاد المصرية (ص ٢٨ - ٣٤ من الجزء الأول) وحيث إن كلامه والمراجع التى استند إليها والمبينة فى المتن هى أساس الحقائق الجغرافية المبينة فى هذا الفصل فسأورد هنا أهم فقرات كلامه مع التعليقات التى يقتضيها المقام قال :

التقسيم الجغرافى للبلاد المصرية : تنقسم البلاد المصرية من الوجهة الطبيعية إلى قسمين رئيسيين هما الوجه البحرى أو أسفل الأرض أو مصر السفلى أو الريف ، وهو ما كان فى شمال مدينة مصر[1] والوجه القبلى أو أعلى الأرض أو الصعيد وهو ما كان من جهة الجنوب من مدينة مصر ، وكل قسم منهما ينقسم إلى أقسام صغيرة الغرض منها سهولة حكم الإقليم : جباية ضرائبه والإشراف على شئونه .

ولما كانت مساحة الدلتا وتوزيع فروع النيل تتغير تبعاً لتطور النهر فى الزمن القديم فقد كان هذا التقسيم عرضة للتغيير والتبديل فى العصور التاريخية التى تعاقبت على هذا البلد ، أما فى الوجه القبلى فقد كانت التغييرات مقصورة على الحدود الفاصلة بين حياض الرى فى الصعيد ، وكان اتساع العمران فى الأراضى الزراعية بسبب تنظيم طرق الرى ناشئاً إلى زيادة عدد السكان فى بعض المناطق ، وكان خراب القرى لإهمال تطهير الترع وعدم وصول المياه إلى أراضيها سبباً فى قلة السكان فى البعض الآخر ، هذا إلى جانب أن الاعتبارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كان لها تأثير كبير فى تغيير حدود الأقسام الجغرافية .

ولقد كانت الوحدة الإدارية السياسية قائمة فى عصر البطالمة فالرومان على النوم Nome وهى كلمة يونانية أطلقت للدلالة على الكلمة المصرية هسبو Hespo ومعناها القسم ، وليس لهذه الوحدة من مشابه فى عصرنا الحاضر ، لأنها تدل على وحدة إدارية أصغر من مساحة المديرية وأكبر من مساحة المركز .

وينقسم النوم إلى عدة قرى يطلقون على الواحدة منها كلمة كوما ، وكان يشرف على إدارة النوم حاكم يعرف بالنومارك يجمع الضرائب ويشرف على الإدارة العامة ، ويعاونه فى ذلك قضاة وموظفون وكتبة ، وكان لكل من هذه الوحدات الإدارية القديمة آلهة وكهنة يقيمون الشعائر الدينية فى الحفلات الرسمية ، فكان الأهلون فى منفيس يقدسون التمس ، على حين كان أهل الفيوم يقدسون التمساح ، بين كان أهل طيبة يقدسون الكبش ، وكثيراً ما كانت تنشب الحروب بين كل نوم وآخر بسبب هذه المعبودات المختلفة .

ولما جاء العرب أطلقوا كلمة كورة على النوم ، وكانت الكورة تكبر وتصغر حسب ظروف الزمن والمكان وتفاوت الحضارة والعمران ورغبة الحكومة القائمة بالأمر أو حكام الأقاليم فى إنشاء أو إلغاء كل أو بعض الأقسام الإدارية السياسية لأغراض خاصة أو عامة .

وكانت مصر مقسمة إلى ثمانين كورة قبل حكم الدولة الفاطمية وفى صدرها[2] ، ولاعتبارات رآها رجال الخليفة الفاطمى المستنصر قسم القطر إلى ٢٣ كورة كبيرة تشمل بينها كورة الصعيد ، وهى التى ألغتها حكومة المماليك عملاً فيما بعد ، ويرادف كلمة الكورة فى عصرنا الحاضر كلمة مركز ، وهى كلمة قديمة مستعملة من القرن التاسع الهجرى بمعنى دار الشرطة أو نقطة البوليس كما هو الحال الآن (انظر الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ١٦١) ويرادف كلمة العمل المديرية فى عصرنا الحالى ، وكانت المديرية على عهد العرب الأول تسمى إقليماً .

وأقدم تقسيم عرف بالأقاليم على عهد العرب هو ماذكره المقدسى المتوفى سنة ٣٧٥ هـ فقد قسم مصر إلى سبعة أقاليم ، أولها الجفار وقاعدته الفرما وآخرها الواحات . وفى المقريزى (جـ ١ ص ٨٢) قائمة محررة سنة ٥٨٥ هـ أى فى أوائل عهد الأيوبيين فيها ١٦ عملاً فى الوجه البحرى و ١١ فى الصعيد

ولقد ذكر ابن خرداذبه المتوفى سنة ٢٦٠ هـ أعمال مصر فى كتابه « المسالك والممالك » وذكرها اليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٠ فى كتابه « البلدان » ، وذكرها الهمدانى المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، وقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ هـ فى كتابيهما البلدان أيضاً ، وذكرها المسبحى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ فى كتابه أخبار مصر ، وذكرها القضاعى المتوفى سنة ٤٥٢ هـ[3] فى كتابه المختار ، كما عدها ابن مماتى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ فى كتابه قوانين الدواوين ، وصاحب تحفة الإرشاد الذى كتبها سنة ٦٩٨ هـ وابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩ هـ فى كتابه الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، وقوانين الدواوين ، وصاحب صبح الأعشى (وهو شهاب الدين أحمد) المتوفى سنة ٨٢١ هـ فى ص ٣٦٩ ج ٣ كما عدها صاحب التحفة السنية لابن الجيعان المتوفى سنة ٨٨٥ هـ والظاهرى خليل وغيرهم .

وكان أقصى مابلغت إليه الأعمال أى المديريات فى عهد العرب والترك والجراكسة ٢٦ عملاً ثم تناقصت إلى أن بلغت ١٥ عملاً ، وكان أقصى ماوصلت إليه الكور ٨٠ كورة ، وجاء عد الكور فى كتابى ابن خرداذبة واليعقوبى وفى صبح الأعشى (جـ٣ ص ٣٧٩) نقلاً عن القضاعى ، وفى خطط المقريزى (جـ١ ص ٧٢) ومابعدها ، كما عد الكور الدمشقى المتوفى سنة ٧٢٧ هـ نقلاً عن المسبحى ، وابن دقماق نقلاً عن ابن حوقل المتوفى سنة ٣٦٧ هـ .

وكان عدد الكور والأعمال يزيد وينقص تبعاً للتغيرات الإدارية التى يستدعيها نمو السكان وحالة الأعمال . ومن الواضح أن كل كاتب جغرافى من الذين نقلنا عنهم هذه الإحصاءات عن الكور والأعمال والقرى كان ينقل عن الكتب التى اطلع عليها ، لاحسب عددها الحقيقى - على الطبيعة - فى عصره ، ماعدا الموظفين الرسميين من هؤلاء المؤرخين .

وكان لكل عمل مدينة تعتبر قاعدة له ، وكانت كل كورة تشمل عدداً من القرى ، وكل قرية معتبرة وحدة مالية وإدارية معاً .

وكان المصريون من الفراعنة يتراوحون من ٦ إلى ١٢ مليوناً من الأنفس ، وكانت مصر مقسمة إلى قسمين كبيرين هما الوجه البحرى والصعيد ، وكان فى الوجه البحرى ٢٠ قسماً وفى الوجه القبلى ٢٢ قسماً ، وعدد القرى فى الوجهين ٢٥٠٠ قرية منها نحو ألف قرية كبيرة ونحو ستين مدينة بما فيها الثغور ، أما أيام البطالسة والرومان فكان السكان يتراوحون من ٧ ملايين إلى عشرة ملايين ، وكانت مصر مقسمة فى عهدهم إلى ثلاثة أقسام كبيرة هى الوجه البحرى وكان مقسماً إلى ٣٣ قسماً إدارياً ومصر الوسطى وكانت مقسمة إلى ٧ أقسام ومصر العليا وكانت مقسمة إلى ١٤ قسماً .

وكان مجموع الأقسام فى عهد البطالسة ٥٤ قسماً ، وأبقى الرومان على تقسيم اليونان (أى البطالمة) مصر إلى الأقاليم الثلاثة الكبار ، ولكنهم قسموا الوجه البحرى إلى ٣٢ قسما بدلاً من ٣٣ وجعلوا مصر الوسطى ٦ أقسام ومصر العليا ٨ أقسام ، فكان مجموع الأقسام

---

(١) مدينة مصر يراد بها المساحة الممتدة من أقصى الطرف الجنوبى لمدينة القاهرة المعروف باسم مصر القديمة حتى رأس الخليج هى هذه المساحة التى كانت كل عواصم مصر الإسلامية ، ويدخل فيها جزيرة الروضة وجزائر النيل الأخرى الموجودة هناك وربما أضيفت إليها مدينة الجيزة على الضفة الغربية وامتدادها جنوباً إلى الأهرامات وسقارة وأبى رواش

(٢) السبب فى كثرة عدد الكور وصغر حجمها هو أن كل واحد من هذه الأقسام الإدارية كان لا يمتد على جانبى النيل أو ناحية فرع من فروعه ، بل يعتبر الجزء الواقع على كل ضفة كورة أو قسماً إدارياً قائماً بذاته كما نرى بوضوح فى خرائط فترة الكور المصرية إلى منتصف العصر الفاطمى تقريباً بعد ذلك ضمت الأجزاء بعضها إلى بعض ونشأت الكور الكبرى ، وربما كان السبب فى ذلك هو صغر المساحات المزروعة من أرض مصر خلال عصر المستنصر بالله مما لم يعد يستدعى اعتبار الجزء المزروع على كل ضفة من ضفتى النيل أو الفروع كورة قائمة بذاتها

(٣) اسم الكاتب أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى وكتابه المشار إليه هنا هو « المختار » ولم نعثر عليه إلى الآن وهو الأساس الذى اعتمد عليه كل من تكلموا على تقسيم مصر الإدارى بعد ذلك

فى صدر العهد الرومانى ٣٦ قسماً ، وبعد انقسام دولتهم إلى قسمين كبيرين : الدولة الرومانية الشرقية (وهى البيزنطية) وعاصمتها القسطنطينية ، والدولة الرومانية الغربية وعاصمتها روما ، تبعت مصر للأولى فأعادت تقسيمها إلى ستة أقسام كبيرة : اثنان فى الوجه البحرى وأربعة فى الصعيد .

أما إقليما الوجه البحرى فهما إقليم أوجستامنيك[1] وإقليم مصر . والأول يتكون من أبروشيتين هما أبروشية قسم أول وتتكون من سبعة أقسام وقاعدتها مدينة بلوز أى الفرما ، وأبروشية قسم ثان وتتكون من ستة أقسام وقاعدتها مدينة ليونتو ومكانها تل المقدام بمركز ميت غمر . وأما إقليم مصر[2] فكان مكوناً من أبروشيتين هما أبروشية قسم أول وتتكون من عشرة أقسام وقاعدتها مدينة الإسكندرية ، وأبروشية قسم ثان وتتكون من عشرة أقسام وقاعدتها مدينة كباسا وهى شباس الشهدا بمركز دسوق ، فكان مجموع أقسام الوجه البحرى ٣٣ قسماً بخلاف إقليمى برقة وبنى غازى اللذين كانا تابعين لمصر فى ذلك العهد . وأما الأقاليم الأربعة فى الوجه القبلى فهى أبروشية أركاديا وتتكون من ثمانية أقسام وقاعدتها مدينة أكسرنخوس وهى البهنسا بمركز بنى مزار ، وأبروشية طيبة السفلى وتتكون من تسعة أقسام وقاعدتها مدينة انطينو وهى أنصنا التى كانت بأرض الشيخ عبادة بمركز ملوى ، وأبروشية طيبة الوسطى وتتكون من ١٢ قسماً وقاعدتها مدينة بطولمايس وهى المنشاة بمركز جرجا ، وأبروشيه طيبة العليا وتتكون من أربعة أقسام وقاعدتها مدينة أسوان ، وكان مجموع أقسام الوجه القبلى ٣٣ قسماً .

وكان عدد السكان فى زمن الفتح العربى لايتجاوز ٦ ملايين نفس ، ولما استولى العرب على مصر أطلقوا أسفل الأرض على الوجه البحرى واسم الصعيد على الوجه القبلى ، ثم أبدلوا اسم أوجستامنيك إلى اسم الحوف ، وأطلقوا على إقليم مصر اسم الريف ، وجعلوا الحوف ١٤ كورة بدلاً من ١٣ قسماً كانت فى عهد الرومان ، كما جعلوا الريف ٣١ كورة بدلاً من العشرين قسماً فكان المجموع ٤٥ كورة فى الوجه البحرى ، أما الصعيد فجعلوه ٣٠ كورة أى أن مجموع الكور فى الوجهين كان ٧٥ كورة .

وفى القرن الثالث الهجرى قسم الوجه البحرى إلى ٣ أقاليم كبرى وهى الحوف الشرقى وقاعدته مدينة بلبيس ويتكون من ١١ كورة ، وبطن الريف ويتكون من ٢٠ كورة ، والحوف الغربى ويتكون من ١٥ كورة وقاعدته مدينة الإسكندرية ، فكان مجموع الكور فى الوجه البحرى ٤٦ كورة بخلاف كورة لوبيه غربى الإسكندرية و ٣ كور أخرى هى كورة القلزم (السويس) وكورة الطور ، وكورة إيلة ومدين من بلاد الحجاز حيث كانت تابعة لمصر فى ذلك الوقت .

وكان فى الصعيد ٣٠ كورة فكان مجموع الكور فى مصر وتوابعها إلى آخر الدولة العباسية وصدر الدولة الفاطمية ٨٠ كورة .

وفى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى رأى رجال الخليفة الفاطمى المستنصر إبدال تقسيم القطر كله من كور صغيرة إلى كور كبيرة بلغت ٢٢ كورة ، ١٢ فى الوجه البحرى وعشر فى الصعيد ، وهذا التقسيم هو الأساس الذى ظلت تدور فى فلكه التقسيمات السياسية الإدارية إلى الآن أى قرابة ألف من السنين ، وبلغ فيه عدد القرى فى الوجهين ٢١٤٨ قرية منها ١٦٠١ فى الوجه البحرى و ٥٤٧ فى الصعيد بخلاف الثغور كما رواه لنا أبو صالح الأرمنى المتوفى سنة ٥٠٠ هـ فى كتابه الأديرة والكنائس . ثم احتفظ الأيوبيون بهذا التقسيم وأضافوا إليه كورتين أخريين هما كورة الدنجاوية فى إقليم الغربية وكورة الكفور الشاسعة بإقليم حوف رمسيس ، وبذلك أصبح عدد الكور ٢٤ كورة .

وكان عدد السكان فى حكم دولتى المماليك الأتراك والجراكسة يتراوح بين ٦ ملايين و ١٦ مليوناً من الأنفس ، وفى سنة ٧١٥ هـ أصدر الملك الناصر محمد بن قلاوون مرسوماً قرر فيه أن يفك زمام القطر المصرى ، ويسمى هذا المرسوم « بالروك الناصرى » وأن تسمى الكورة عملاً مع تعديل التقسيم الإدارى السياسى وجعل الأعمال ٢١ عملاً بدلاً من ٢٤ كورة ، فكان الوجه البحرى ١٢ عملاً منها ٣ أنشئت فى تلك السنة وهى القليوبية وضواحى القاهرة وقد فصلتا من كورة الشرقية . ثم ضواحى الإسكندرية ، وقد فصلت من كورة رشيد وكورة البحيرة ، وأمر الملك الناصر كذلك بضم كورة المرتاحية إلى كورة الدقهلية وجعلهما عملاً واحداً باسم أعمال الدقهلية والمرتاحية ، وأطلق على كورة الإبوانية اسم ضواحى ثغر دمياط ، وأمر بضم كورة السمنودية والدنجاوية وجزيرة قويسنا إلى أعمال الغربية ، وضم نواحى حوف رمسيس والكفور الشاسعة إلى أعمال البحيرة . وأمر بجعل الوجه القبلى تسعة أعمال بعد ضم كورة البوصيرية إلى كورة البهنساوية . وأنشأ الأعمال المنفلوطية . ويمكن مراجعة الكور والأعمال بالتفصيل من تعليقات المؤلف عليها فى الصفحات ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٤٢ من الجزء التاسع من النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وكان هذا التقسيم الجغرافى هو الذى استقر عليه الحال طوال حكم دولتى المماليك .

وقد أحصى ابن الجيعان قرى القطر فى كتابه التحفة السنية فى سنة ٨٨٣ هـ وعددها ٢٢٨٧ قرية غير المشتركة مع غيرها فى الزمام ، وفى سنة ٩٣٣ هـ أى فى أوائل الحكم العثمانى فك زمام القطر المصرى ، وهو الذى عرفت دفاتره باسم « الترابيع » وغيرت فيه كلمة أعمال أو كور باسم ولاية ، وقسم القطر كله إلى ١٣ ولاية منها ٧ فى الوجه البحرى و ٦ فى الوجه القبلى ، أى ضمت فيه أعمال الأسيوطية والإخميمية والقوصية بعضها إلى بعض وجعلت ولاية واحدة باسم ولاية جرجا ، وكان الوجه البحرى يشمل القليوبية والشرقية والدقهلية والغربية والمنوفية والبحيرة ، والوجه القبلى يشمل الأطفيحية والفيومية والبهنساوية والأشمونين والمنفلوطية وجرجا ، هذا بخلاف ٦ محافظات هى الإسكندرية ورشيد ودمياط والعريش والسويس والقصير ، وكان يرأس كل ولاية حاكم أو كاشف ويرأس كل محافظة محافظ ، أما القاهرة فكان يرأسها شيخ البلد وهى مقر الوالى التركى .

وسجل فانسليب الرحالة فى القرن السابع عشر الميلادى فى الصعيد الأعلى ٢٤ كشوفية ، وفى مصر الوسطى ٦ كشوفيات وفى الوجه البحرى ٦ كشوفيات والمجموع ٣٦ كشوفية ، ودونت الحملة الفرنسية فى كتابها وصف مصر ١٦ إقليماً فى مصر نصفها فى الوجه القبلى ونصفها فى الوجه البحرى بالحدود الآتية :

(١) طيبة من الكلابشة قبل الشلال إلى فاو بحرى دشنا .

(٢) جرجا من الرئيسية بمركز دشنا إلى شندويل بمركز سوهاج .

(٣) أسيوط من باصونة بحرى صلية السمارنة إلى نزالى جانوب بمنفلوط .

(٤) المنيا من القوصية بمنفلوط إلى أطسا بمركز سمالوط .

(٥) بنى سويف من البيهو بمركز سمالوط إلى آخر حدود مركز الواسطى من بحرى .

(٦) الفيوم بحدودها الحالية فى الصحراء الغربية

(٧) أطفيح فى البر الشرقى للنيل من المطاهرة البحرية بمركز المنيا إلى دير الطين قبلى مصر القديمة .

(٨) الجيزة من مركز العياط بأكمله فى البر الغربى للنيل إلى « أبو الغاوى » بمركز كوم حمادة .

وفـى الوجـه البحـرى :

(١) قليوب من أثر النبى إلى بحر مويس بمركز بنها .

(٢) الشرقية بحدودها لغاية سنة ١٩١٢ م أى قبل إنشاء مركز بنها .

(٣) المنصورة من أسنيت بمركز بنها إلى الغالية بمركز المنزلة .

(٤) دمياط مركز فارسكور والمنزلة من الدقهلية ماعدا الكردى إلى الجمالية ومركز شربين والنصف البحرى من مركز طلخا بالغربية .

(٥) الغربية بحدودها القديمة قبل تعديل سنة ١٨٩٨ م ماعدا مركز شربين وبحرى طلخا .

(٦) منوف حسب حدودها القديمة قبل سنة ١٨٩٧ م .

(٧) رشيد مركز فوه والنصف البحرى من دسوق من الغربية والمحمودية من مديرية البحيرة .

(٨) البحيرة بحدودها ماعدا مركز رشيد .

ولما تولى محمد على حكم مصر سنة ١٨٠٥ م كانت مصر لاتتجاوز الثلاثة ملايين من الأنفس .

---

(١) Augustamnicia أى المنسوبة إلى النهر ، وهى قسم إدارى يشمل مايلى فرع دمياط شرقاً ، والأصل فى الأبروشية أنها قسم دينى من أقسام الكنيسة Parocia

(٢) يفهم من النص أن إقليم مصر كان يشمل جهة الدلتا .

وكان رجال الحملة الفرنسية قد قدروا سكان مصر باثنين من الملايين فقط ، فأمر محمد على بتقسيم مصر إلى أخطاط يشمل كل خط منها عدداً من القرى ، وعلى رأس الخط موظف يسمى حاكم الخط . ونظراً لاتساع دائرة الولايات وضرورة وجود موظفين للإشراف على أعمال حكام الأخطاط ومشايخ البلاد أمر محمد على سنة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م بتقسيم ولاية البهنسا والأطفيحية كل منها إلى أربعة أقسام وعين لكل قسم موظف باسم ناظر قسم ، وكانت هذه أول مرة أنشئت فيها الأقسام أى المراكز فى العصر الحديث

وفى سنة ١٢٣٨ هـ / ١٨٢٢ م قسمت ولايات الشرقية والدقهلية والغربية والبحيرة إلى أقسام كذلك ، وعين لكل قسم ناظر قسم ، وفى سنة ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م أمر محمد على بإبطال اسم ولاية وأن تستبدل بها كلمة مأمورية ، وكانت ٢٤ مأمورية فى الوجه البحرى و ١٠ فى الوجه القبلى ، وكل مأمورية قسمت إلى قسمين فأكثر حسب اتساع دائرتها

ويرأس كل مأمورية موظف باسم مأمور كما يرأس القسم ناظر القسم .

ولما رأى محمد على أن اسم المأمورية يدل فى معناه على أنه أصغر من الولاية أصدر أمراً فى أول سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م بتغيير كلمة مأمورية إلى مديرية وهو الاسم المعتمد إلى اليوم (عصر المؤلف) وقد غير اسم المديريات إلى محافظات فى تسمية الأقاليم المصرية ، وجعل المديريات ١٤ مديرية يرأس كلا منها مدير ، وبذلك رجع محمد على إلى تقسيم البلاد الجغرافى على عهد الفاطميين والأيوبيين فالمماليك

وقد زاد محمد على فى الأقسام الإدارية لتركيز السلطة وتوحيد أعمالها فى المديريات

وبلغ عدد الأقسام الإدارية إلى آخر حكم سعيد ٤٧ قسماً تشتمل على ٣٦٣٩ قرية ، وقد سار إسماعيل على نهج جده فى التعمير والإصلاح ، وبلغ عدد السكان فى إحصاء سنة ١٨٨٢ م حوالى سبعة ملايين من الأنفس ، وأنشىء فى عهده ١٧ قسماً وبلغت الأقسام فى آخر حكمه ٦٤ قسماً .

وأصدر إسماعيل أمراً بإطلاق كلمة مركز بدلاً من قسم فى الوجه البحرى واسم مأمور بدلاً من ناظر قسم على رئيس المركز ومعاون إدارة بدلاً من حاكم خط .

أما فى الوجه القبلى فقد أصدرت وزارة الداخلية منشوراً باستعمال كلمة مركز بدلاً من قسم اعتباراً من سنة ١٨٩٠ م أسوة بالوجه البحرى ، وفى سنة ١٨٨٠ م أصبح عدد المراكز ٧٣ مركزاً ، وفى سنة ١٩٣٧ م صار عدد السكان قريباً من ١٦ مليون نسمة وأصبح عدد المراكز فى الوجه القبلى والبحرى ٧٥ مركزاً تشتمل على ٤١٨٨ قرية مالية وإدارية بخلاف محافظات القاهرة والإسكندرية والقنال والسويس ودمياط .

ونظراً لاتساع دائرة المدن التى فيها عواصم مديريات رأت وزارة الداخلية سنة ١٨٩٠ م ضرورة فصل هذه المدن عن المراكز التابعة لها ، على أن ينشأ فى كل مدينة مأمورية قائمة بذاتها ذات حدود معينة تفصلها عن قرى المراكز ويرأسها مأمور بندر ، للتمييز بينه وبين مأمور المركز ، وقد أنشأت الحكومة منذ تلك السنة ١٢ مأمورية فى مختلف نواحى القطر ٦ فى الوجه البحرى و ٦ فى الصعيد .

وقد أورد المقريزى فى الخطط ج ١ ص ٧٢ (طبعة بولاق) بياناً بالأقسام الإدارية لمصر فى أيامه (عصر المماليك البرجية ، فقد توفى المقريزى سنة ٨٤٥ هـ عصر الظاهر سيف الدين جقمق) وكانت الأقسام الإدارية الكبرى قد سميت أعمالاً ، وكان عدد الأعمال ٢٦ عملاً هى :

الوجه البحرى	الوجه القبلى
شمال مدينة مصر	جنوب مدينة مصر
شرق فرع دمياط	الجيزة
الشرقية	الأطفيحية[1]
المرتاحية	البوصيرية
الدقهلية	الفيومية
الإبوانية	البهنساوية
ثغر دمياط	(الأشمونين)
(بين فرعى النيل)	المنفلوطية
جزيرة قويسنا	الأسيوطية
الغربية	الإخميمية
السمنودية	والقوصية*
[illegible]	
المنوفية	
الستراوية	
فوة والمزاحمتين	
جزيرة بنى نصر	
(غربى فرع رشيد)	
البحيرة	
الإسكندرية وضواحيها	
حوف رمسيس	

والأعمال كما رأينا فى كلام محمد رمزى هى أقسام إدارية أكبر من الكور . وقد ذكر الكور بالتفصيل أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى المتوفى سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٥٩ م وهو أبو علم الجغرافية فى مصر ، وقد عاش فى العصر الفاطمى أى فى عصر الكور الصغرى ، وقبل أن تستبدل بالكور الصغرى أقسام إدارية أكبر هى الكور الكبرى . وانظر بيانها عند المقريزى ص ٧٣ - ٧٤ من الجزء الأول وقد بيناها على الخريطة فأغنى ذلك عن ذكرها وقد بينها بتفصيل أوسع القلقشندى فى صبح الأعشى (جـ ٣ ص ٣٧٩ ومابعدها)

وقد أضاف القلقشندى إلى كور مصر المعروفة فى الدلتا والصعيد مايلى :

« كورة مريوط » ... وهى ناحية غربى الإسكندرية داخلة الآن فى عملها ، بها الأشجار والبساتين . وفواكهها تحمل إلى الإسكندرية .. (وهى عنده الكورة العاشرة)

أن الكورة الحادية عشرة عنده فهى كورة لوبية ومراقية (وأصل التسمية عند اليونان Lybia وتعرّ لوبية أو ليبيا) . قال فى الروض المعطار « محمد بن عبد المنعم الحميرى » : وهى كورة من كور مصر الغربية متصلة بالإسكندرية . وقد قيل إن الإسكندر كان منها

أما عن مراقية فقد قال عنها : وقد ذكر القضاعى فى تحديد الديار المصرية مايقتضى أنها (لوبية ومراقية) بجوار برقة فقال : إن الذى يقع عليه اسم مصر من العريش إلى لوبية ومراقية ، ثم قال : وفى آخر أرض مراقية تلقى أرض أنطابلس ، وهى برقة . والظاهر أن لوبية غربى مريوط ، ومراقية غربى لوبية ، وهى آخر أرض الديار المصرية من جهة الغرب .

وأضاف القلقشندى بعد ذلك (جـ ٣ ص ٣٩١) متحدثاً عن الأقسام الإدارية لشبه جزيرة سيناء ومايليها شرقاً من الأراضى الداخلة فى بلاد مصر :

الحوز الثالث .

كور القبلة وفيها خمس كور :

كورة الطور وفاران . ويريد بها طور سينا ويقول : وهو المراد هنا ، وهو جبل داخل فى بحر القلزم ، على رأسه دير عظيم (دير سانت كاترين) وفى واديه بساتين وأشجار ، وهو على مرحلة من فرضة الطور المتقدمة الذكر فى تحديد بحر القلزم . وكأنها سميت باسمه لقربها منه .

ويستمر القلقشندى قائلاً : وأما فاران (ويريد بها وسط سيناء أما الطور فهى جنوبها) فهى مدينة صغيرة من بر الحجاز على جون على البحر . قال : وجبال فاران ذكر فى التوراة

الثانية — كورة راية والقلزم (ويريد بها شمال سيناء) فأما راية فمن الأسماء التى جُهلت وقد ذكرها ابن سعيد مقرونة بالقلزم ، فقال : وراية والقلزم من كور مصر .

وأما القلزم فهى مدينة قديمة (فى اليونانية Klyzma) على ساحل بحر القلزم ، وإليها ينسب البحر المذكور . وأضاف بعد ذلك : وعلى القرب منها غرق فرعون .

---

(١) وتسمى أيضاً بالكورة الشرقية لأنها كانت تقع شرق النيل وبقية الأقسام الأخرى كانت تقع غربه

* انتهى الكلام من محمد رمزى ، القاموس الجغرافى للمواضع المصرية ، جـ١ ، ص ٢٨ - ٣٤

الثالثة : كورة أيلة وحيزها ، ومدين وحيزها ، والعُوَيْند وحيزها ، والحوراء وحيزها .

أما أيلة فقال : وهي كانت مدينة صغيرة خراباً على ساحل بحر القلزم .. قال في تقويم البلدان : وبها زرع يسير ، وعليها طريق حجاج مصر ، قال وهي في زماننا برج وبه والٍ من مصر ، وليس به مزدرع . وكان بها قلعة في البحر ، فبطلت ، ونقل الوالي إلى البرج .

وأما مدين فضبطها معروف ، وهي في الأصل اسم لقبيلة شعيب عليه السلام ، وكانوا مقيمين بها ، فسميت البلدة بهم ، وهي مدينة « خراب » على بحر القلزم محاذية لتبوك من بلاد الشام ، على نحو ست مراحل منها . وعدها في « الروض المعطار » من بلاد الشام ، وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لبنات شعيب وسقى غنمهن .

وأما العويند فقال في الروض المعطار : وهي مدينة قريبة من نصف الطريق بين جدة والقلزم . قال : وعلى القرب منها مرسى حسا ، ينحدر الماء بها عن أثر قدم من أوسط الأقدام بينه الكعب والأخمص والأصابع لم يمحها الزمان ، ولا تمحى بمرور الماء عليها .

وأما الحوراء (في الأغلب أن هذه هي التي اسمها عند اليونان Leuke kome ولويكو كومو معناها الأبيض أي بمعنى الحوراء) فقال : « وهي مدينة على ساحل وادى القرى بها مسجد جامع ، وبها ثماني آبار عذبة ، وبها ثمار ونخل ، وأهلها عرب من جهينة وبلى قلت : والمعروف في زماننا أن الحوراء منزلة بطريق حجاج مصر . ولعلها على القرب منها .

الرابعة : كورة بدى يعقوب وشعيب ، ولم أعلم حقيقة مكانهما .

قلت (القلقشندى) ذكر القضاعى : أيلة ومدين وما والاهما مما على ساحل بحر القلزم من بر الحجاز في أعمال مصر جرياً على ماتقدمه من إدخال ذلك في تحديد الديار المصرية . على أنه أدخل من جملة الديار المصرية حيزين .

وهذان الحيزان اللذان لم يذكرهما القضاعى هما بلاد الواح أو الواحات ، وهو يقول إن الواح أو الواحات ثلاث كور : واح الأول وواح الوسط وواح القصوى .

الأولى منها مقابل الأعمال البهنساوية .

والثانية مقابل الأعمال الأسيوطية وتعرف بالواح الداخلة . وهي تلى الواح الأول في العمارة وبها مدن مشهورة منها القلمون والقصر وغيرها .

والثالثة مقابل جنوبي الواح الثانية وبين ريف الصعيد وبين جميعها عرض جبل مصر الغربي ، ومسيرته ثلاث مراحل فما دون ، بحسب اختلاف الأماكن والطرق .

والحيز الثانى هو حيز برقة ، وهو يقسمها قسمين : قسم محسوب من الديار المصرية وهو مادون العقبة الكبرى إلى الشرق (يريد عقبة السلوم) ، وقسم محسوب من إفريقية وهو مايلي عقبة السلوم إلى الغرب . ويقول إن قبائل البدو العرب تسود جميعها ، ويصيف : وأمرها إلى صاحب مصر يقطعها بالمناشير تارة لبعض الأمراء ، وتارة للعرب يأخذون عدادها .

وإلى هنا ينتهي مااقتبسناه أو لخصناه عن القلقشندى .

ويستوقف النظر هنا أنه لم يذكر من بين واحات مصر سنترية وهي سيوة أو الفرفرون وهي الفرافرة أو الواحات البحرية .

وقد بيَّنا تقسيم مصر الإدارى وتطوره هنا على الخرائط .

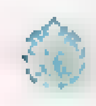

المراجع

محمد رمزى — القاموس الجغرافى لأسماء المواضع المصرية خمسة أجزاء نشرتها دار الكتب المصرية بإشراف الأستاذ الشاعر أحمد رامى والجزء الأخير منها هو الفهرس .

المقريزى — الخطط طبعة بولاق جـ١ ص ٨٢ .

اليعقوبى — كتاب البلدان . طبعة القاهرة بدون تاريخ .

المسبحى — الأمير عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد (٣٦٦ - ٤٢٠ هـ / ٩٧٧ - ١٠٢٩ م) الجزء الثانى .

ابن مماتى — المتوفى سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م كتاب قوانين الدواوين . بتحقيق سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٠ م .

مؤلف مجهول — تحفة الإرشاد مخطوط بدار الكتب المصرية .

ابن دقماق — كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار (بريد مصر) . طبعة القاهرة . بدون تاريخ .

القلقشندى — صبح الأعشى جـ٣ ص ٣٧٩ ومابعدها .

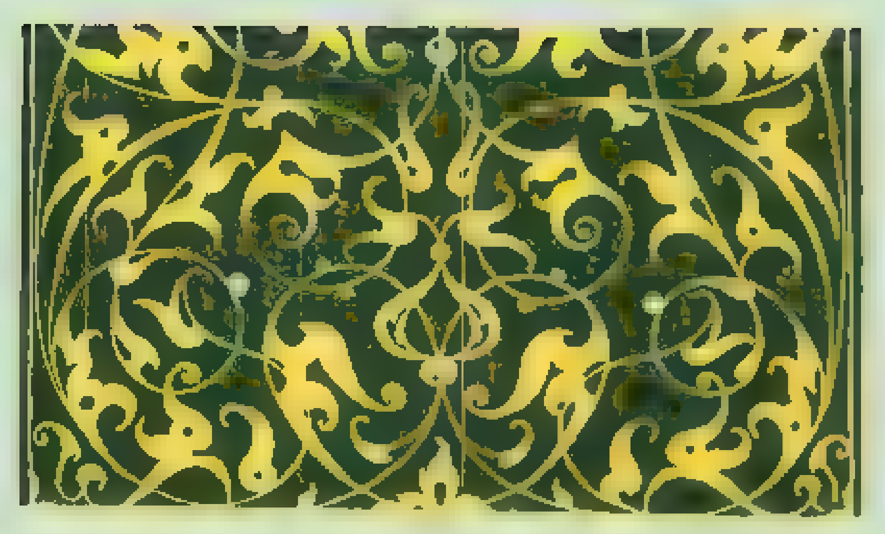

الفصل السادس عشر

مصر والسودان

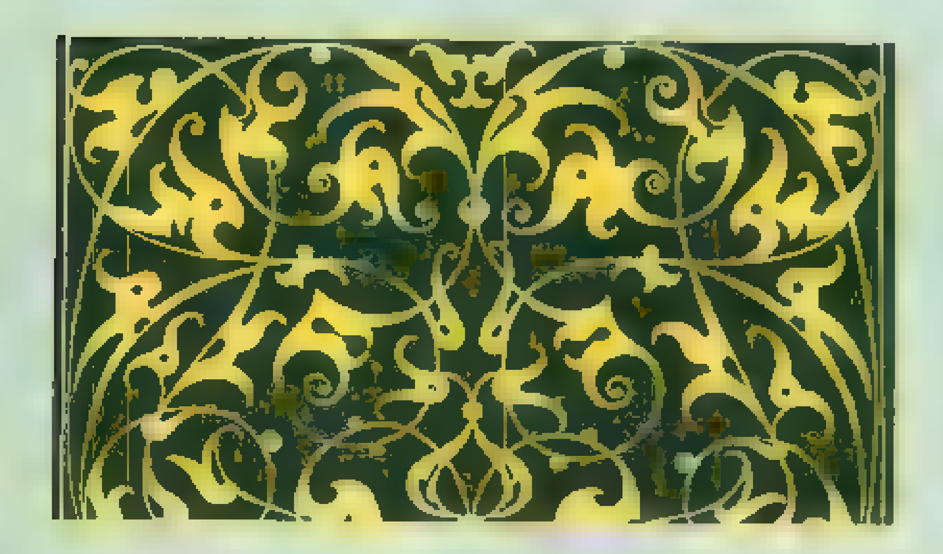

بيان الخرائط

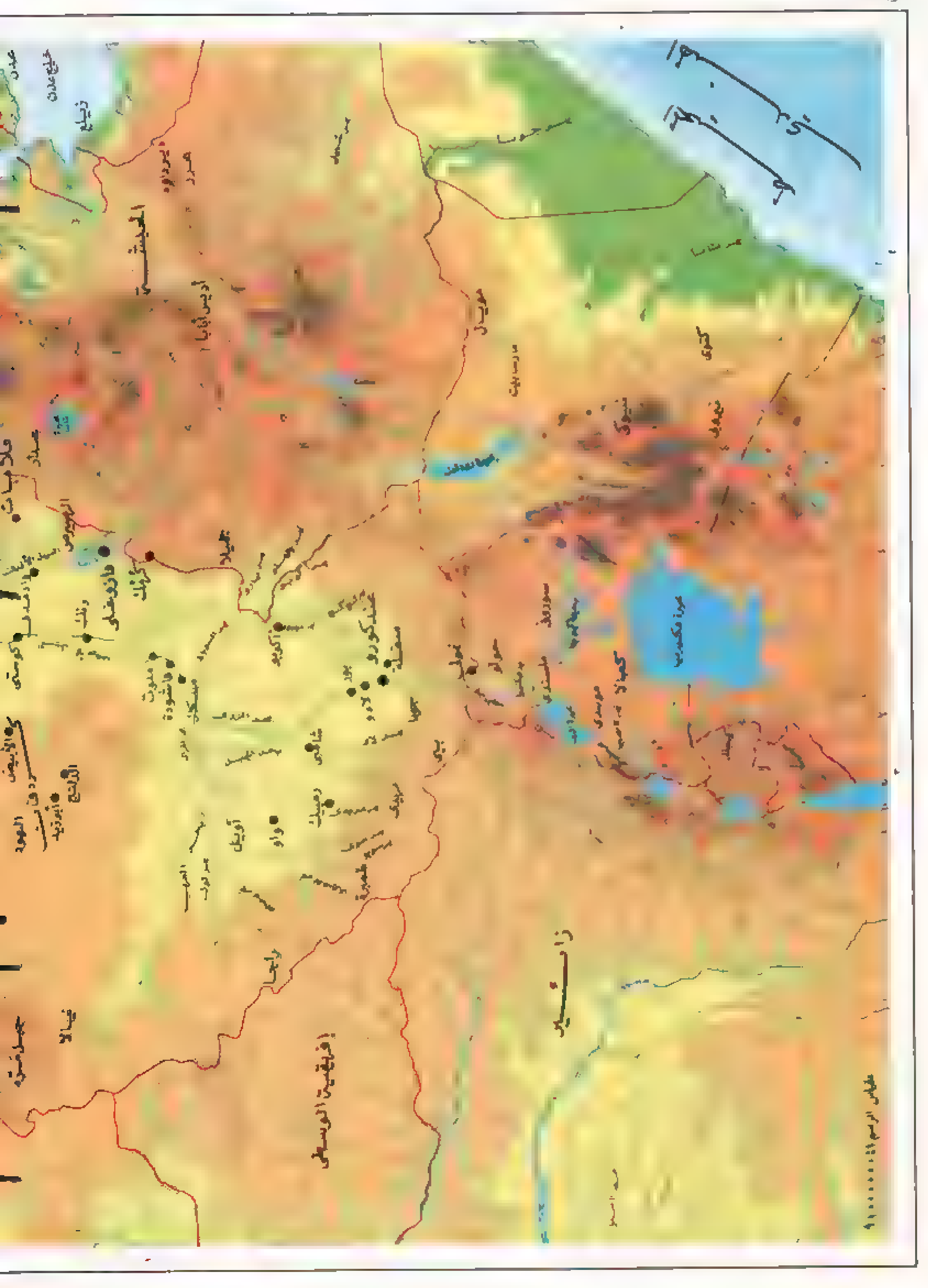

السودان
في العصر الحديث
خريطة مواقع
البحر المتوسط
ليبيا
مصر
السودان
الجزيرة العربية
صحراء ليبيا
صحراء العطمور
برقة
بنغازي
طبرق
السلوم
سيوة
جغبوب
الإسكندرية
رشيد
دمياط
القاهرة
السويس
الفيوم
بني سويف
الواحات البحرية
واحة الفرافرة
أسيوط
سوهاج
قنا
إسنا
أسوان
الواحة الداخلة
الجوف
واحة الكفرة
واحة سليمة
كورشة
دنقلة
كريمة
أبو حمد
سواكن
طوكر
عطبرة
شندي
الخرطوم
كسلا
أسمرة
مصوع
تشاد
العقبة
عمان
تبوك
الوجه
العلا
المدينة المنورة
مكة المكرمة
جدة
بيشة
جيزان
صنعاء
الرياض

دولة الفونج
والممالك والمشيخات التابعة لها
وسلطنة الفور
البحر الأحمر
كوروسكو
ابريم
وادى حلفا
كوشة
صحراء العتمور
واحة سليمة
ساى
مورات
حلك
موشو
مملكة الرباطات
مملكة الشايقية
مشيخة المناصير
أبو حمد
بورسوداد
سكيات
سواكن
بربر
عطبرة
دنقلة العجوز
كورتى
أدراما
مشيخة العبدلاب
مشيخة الشنابلة
شندى
فورزحاب
مملكة الحلافقة
حجر العسل
كسلا
أروما
أكوردات
(ام درمان)
(الخرطوم)
سلطنة الفور
دارفور
الدويم
خشم القربة
تاكا
القضارف
الفاشر
رفاعة
قلابات
بارا
القطينة
سنار
مملكة الفونج
الأبيض
كوستى
سوق أبوسن
قندار
جبل مرة
بحيرة تانا
الرهد
كادقل
كاكا
مملكة فازوغلى
كودك
كوردفان
بحر الغزال
بحر العرب
الحبشة
طمبرة
بور
إفريقيا
الوسطى
بحيرة فيكتوريا

مصر والسودان في عهد الخديوي إسماعيل
١٢٨٤-١٢٩٦هـ / ١٨٦٧-١٨٧٩م
البحر الأسود
البحر المتوسط
الدولة العثمانية
بلغاريا
روسيا
بحر قزوين
العراق
إيران
الشام
مصر
الخليج العربي
البحر الأحمر
خليج عدن
الحبشة
الصومال
المحيط الهندي
القاهرة
الإسكندرية
السويس
أسيوط
أسوان
وادي حلفا
الخرطوم
أم درمان
سواكن
مصوع
كسلا
سنار
الأبيض
دارفور
كردفان
بحر الغزال
بحر العرب
مديرية خط الاستواء
غندكورو
لادو
رجاف
أوغندا
بحيرة فيكتوريا
أديس أبابا
هرر
زيلع
عدن
اليمن
مكة
جدة
المدينة
الحجاز
بغداد
البصرة
البحرين
طهران
الموصل
دمشق
بيروت
حيفا
القدس
غزة
العقبة
سيناء
قبرص
كريت
استانبول
أنقرة
أزمير
قونية
حلب
أضنة
أوجادين
عيذاب
قنا
بربر
شندي
القضارف
الرصيرص
كوستي
فاشودة
مقياس الرسم ١: ١٥٠٠٠٠٠٠

وادى حلفا
كوشة
صحراء العتمور
أبو حمد
دنقلة
سكات
بورسودان
سواكن
عطبرة
شندى
كسلا
أكوردات
أم درمان
الخرطوم
الفاشر
القطينة
بارا
الأبيض
كوستى
سنار
قلابات
بحيرة تانا
دولة المهدى
بحر الغزال
بحر العرب
الحبشة
طمبرة
بحر الجبل
إفريقيا
الوسطى
بحيرة
فيكتوريا
دولة المهدى

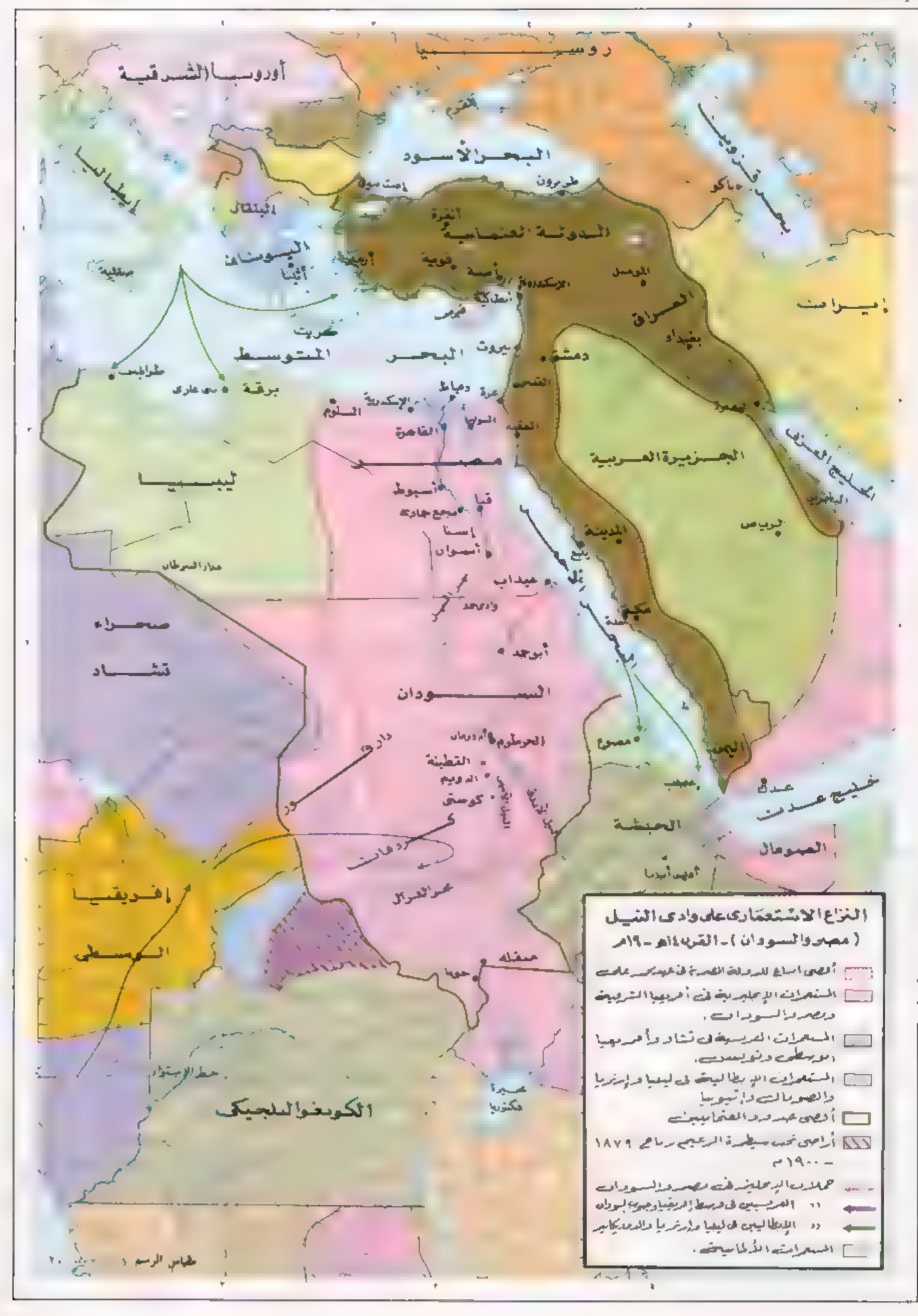
النزاع الاستعماري على وادي النيل
(مصر والسودان) - القرن ١٩م
أراضي تحت سيطرة الزعيم رابح ١٨٧٩ - ١٩٠٠م
روسيا
أوروبا الشرقية
البحر الأسود
إيطاليا
البلقان
اليونان
أثينا
الدولة العثمانية
أنقرة
طربزون
باكو
بحر قزوين
قونية
أضنة
الإسكندرونة
الموصل
العراق
بغداد
إيران
كريت
البحر المتوسط
بيروت
دمشق
طرابلس
بنغازي
برقة
الإسكندرية
دمياط
القاهرة
السلوم
غزة
القدس
العقبة
مصر
ليبيا
أسيوط
قنا
أسنا
أسوان
عيذاب
المدينة
ينبع
مكة
الجزيرة العربية
البصرة
الخليج العربي
البحرين
الرياض
صحراء
تشاد
السودان
الخرطوم
أم درمان
القطينة
كوستى
مصوع
اليمن
عدن
خليج عدن
الحبشة
الصومال
أديس أبابا
بحر الغزال
إفريقيا
الوسطى
الكونغو البلجيكي
خط الاستواء
بحيرة
فكتوريا
مقياس الرسم

مصر والسودان

مع أن السودان يقع – جغرافيا – فى وسط بلاد الإسلام والعروبة إلا أنه كان – تاريخيا – من أحدث البلاد دخولا فى الإسلام ، لأن انتشار الإسلام فيه تأخر حتى القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى ، إذ إن اندفاع المسلمين إلى الغرب بعد تمام فتح مصر شغلهم – فيما يبدو – عن الاتجاه نحو الجنوب ، وربما كانت عروبة أهل السودان أقدم مما تقول كتب التاريخ ، فهى لم تذكر من الهجرات العربية إلى السودان إلا تلك التى تكاثرت فى أواخر العصر الفاطمى ، أوائل القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، ولكننا نستطيع القول إنه بعد أن استقر الإسلام فى مصر أخذت القبائل العربية التى كانت تعمر صحراء مصر الشرقية تزحف جنوبا ، أو تدخل شرق السودان ، وهى التى كان يعمرها جماعات البجاة ، وهم جنس إفريقى بدوى عريق مختلف فى أصوله ، مثلهم فى ذلك مثل النوبيين .

وقد ذكرنا فى أخبار فتوح مصر كيف أن الخليفة العباسى المتوكل أرسل عن طريق والى مصر رجلا يقال له محمد بن عبد الله ويعرف بالقمى إلى بلاد المعدن بمصر ، وجعله واليا عليها ، وولاه القلزم وطريق الحجاز إلى بلاد البجاة والإشراف على حاج مصر (البلاذرى فتوح البلدان) . فلما وافى المعدن حمل الميرة فى المراكب من القلزم ووافى ساحلا يعرف بعيذاب ، فوافته المراكب هناك ، فاستعان بتلك الميرة حتى وصل إلى قلعة ملك البجة فناهضه ، وكان فى عدة يسيرة ، فخرج إليه البجوى فى الدهم على إبل محزمة ، فعمد القمى إلى الأجراس فقلدها الخيل ، فلما سمعت الإبل أجراسها تقطعت بالبجويين فى الأودية والجبال ، وقتل صاحب البجة ، ثم قام بعده ابن أخته وكان أبوه أحد ملوك البجويين ، وطلب الهدنة ، فأبى المتوكل على الله ذلك إلا أن يطأ بساطه ، فقدم (سر من رأى) فصولح فى سنة إحدى وأربعين ومائتين على أداء الإتاوة والبقط ، ورد مع القمى ، فأهل البجة على الهدنة يؤدون الإتاوة ولايمنعون المسلمين من العمل فى معدن الذهب وكان ذلك فى الشرط على صاحبهم . (البلاذرى ، فتوح ٢٨١/١ – ٢٨٢) .

وهذا العمل قام به المسلمون أيام الخليفة المتوكل إكمالا لسيطرتهم على البحر الأحمر ، لأن البجاة كانوا إلى ذلك الحين خارجين عن أرض الإسلام ولاهدنة معهم كما كان الحال مع أهل النوبة ، وكان المسلمون قد استولوا من زمن غير بعيد على جزائر دهلك ، عرجوا إليها من اليمن ، فأتموا بذلك السيطرة على الساحل ، وفتحوا الباب لمن أراد أن يستخرج الذهب من « بلاد الذهب » ويراد بها المنطقة التى يسير فيها وادى العلاق الممتد من قوص إلى ساحل عيذاب المذكور هنا .

والهدنة التى يشير إليها البلاذرى هنا هى التى عقدها عبد الله بن سعد بن أبى السرح والى مصر لعثمان بن عفان ، وكان المسلمون قد بلغوا أرض النوبة على يد عقبة بن عامر ابن قيس الجهنى ، ووجدوا من أهل النوبة مقاومة شديدة ثم صالحوهم على ذلك البقط (من لفظ Pacton اليونانى – Pactur – باللاتينية ومعناه العهد أو الاتفاق) . وبمقتضى هذا الاتفاق كان على أهل النوبة أن يقدموا للمسلمين ثلاثمائة رأس من الرقيق فى كل سنة ، وعلى أن يهدى المسلمون إليهم طعاما بقدر ذلك ، أى أن البقط كان فى الحقيقة معاهدة صداقة لاتحمل معنى الخضوع ، ثم خفف شرط إرسال الرقيق ، فجعل كل ثلاث سنوات ، واستمر العمل به بعد ذلك حتى أواخر العصر الفاطمى .

وكانت الأراضى التى تمتد جنوبى منطقة أسوان تبدأ بإقليم نوباديا وهى أرض النوبيين ، وقد سميت فى النصوص الكنسية البيزنطية Nobadea وتبدأ بعد الشلال الأول وجزيرة بيلة بقليل ، وهناك على الحدود كانت تقوم قلعة تسمى القصر تحجز المدخل إلى بلاد النوبة ، هناك كانت تبدأ بلاد مريس وهى أقدم مايعرف من بلاد النوبة القديمة وتمتد حتى قرية أعلى الشلال الرابع ، وهناك كانت الحدود بين مريس وبلاد مقرة . ويحدثنا ابن سليم الأسوانى – الذى يظن أنه كان يعمل فى خدمة الفاطميين بعد استقرارهم فى مصر – عن بلاد النوبة فى رسالة احتفظ لنا المقريزى بنصها فى كلامه عن بلاد النوبة فيقول إن بلاد مريس كانت تمتد بين الشلالين الأول والرابع ، وإن بلاد مريس كانت مفتوحة للمسلمين يدخلونها للتجارة فيها كيف شاءوا ، وكانت هناك جالية إسلامية كبيرة من النوبيين المسلمين فى الغالب ، لأن ابن سليم يقول إنهم كانوا يتكلمون عربية غير قويمة ، وقال إن البلاد فقيرة تعيش على زرع قليل يقوم به فلاحون يحرثون الأرض بالثيران ، ولايملك الواحد منهم أكثر من فدانين أو ثلاثة من الأرض ، وفى أقصى مريس إلى الشمال حصنان يسميان أبريم وبجراش (اسمه الحالى فرس) وحاكم الناحية رجل يلقب بصاحب الجبل ، وقصره مطل على ضفتى النهر قرب الشلال الثانى ، ولا يمكن دخول الناحية أو مغادرتها إلا بإذنه ، وجنوبى الشلال الثانى تمتد الناحية القاحلة المسماة بطن الحجر ، وقد وصف ابن سليم الأسوانى هذه الناحية وقال إنها تكون الحد العسكرى لبلاد النوبة ، وهناك حامية من الحرس يقيمون عند المقس الأعلى ، ومع أن هذه المساحة القاحلة جزء من بلدة مريس إلا أن السلطان فيها كان لصاحب الجبل ، وهناك يؤذن للتجار بالدخول ، بل تحمل البضائع إليهم عند الحدود ، تجارتهم مقايضة ، وأهم بضائعهم الرقيق والماشية والجمال والحبوب ، ويغفل أهل النوبة بلادهم لكى يستطيعوا القيام بغارات مفاجئة على بلاد جيرانهم ، وبين حامية المقس الأعلى ومدينة تسمى ساى يقع الشلال الرابع عند هذه البلدة ، وكانت هذه البلدة مركزا كنسيا ، وإلى ذلك شمالا ناحية تسمى سقلودة تقع جنوبى أسوان ، وهناك يزرعون الكروم والزيتون ، وهذه الناحية تابعة لوالى أسوان ، وهى مقسمة بين حكام محليين يسمون الولاة السبعة .

ويقول ابن سليم الأسوانى إن ملك مقرة عندما زارها كان يسمى جرجس ، وكانت هناك جالية إسلامية شاركها فى الاحتفال بعيد الأضحى عندما كان فى دنقلة ، وقد نجح ابن سليم فى إعادة التجارة بين النوبة ومصر ، وكان الفاطميون فى حاجة إلى مدد مستمر من العبيد السود لجيشهم .

ومنذ القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى كان السلطان فى الناحية التى تلى حدود ناحية أسوان جنوبا وهى القسم الشمالى من إقليم مريس لجماعة من عرب ربيعة مدت سلطانها على بلاد المعدن ، وقام شيخ أولئك العرب بخدمة كبيرة للخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وذلك أنه ساعده فى القضاء على ثورة أبى ركوة ، وفى سنة ١١٧٤م دخل رئيس أولئك العرب فى طاعة الفاطميين ، ولقبه الخليفة بلقب كنز الدولة ، وعرف قومه بالكنوز ، وعندما قامت الدولة الأيوبية ومدت حدودها إلى الجنوب انسحب عرب الكنوز داخل بلاد النوبة ، ولكن ثغر عيذاب كان قد نهض نهضة كبيرة خلال العصر الفاطمى ، ومد الفاطميون سلطانهم على كل المنطقة الواقعة جنوبى أسوان والتى تعتبر عيذاب ميناءها ، وكانت عيذاب تقع فى بلاد البجة ، وتم الاتفاق بين ملكهم والأيوبيين ، ثم المماليك بعدهم ، على تقاسم إيرادات الميناء التى زادت زيادة كبيرة بسبب احتلال الصليبيين لسواحل الشام وقيام مملكة بيت المقدس ، فكان الطريق الرئيسى لحجاج مصر والمغرب هو طريق وادى العلاق بين قوص وعيذاب .

وعندما قامت دولة المماليك كان الاهتمام الأول لسلاطينهم هو الفتح والتوسع ، فزحفت قواتهم جنوبا وساعدوا عرب الكنوز ومن كان يليهم إلى الجنوب من برابر هوارة ، ودخلوا بلاد مقرة ، وكانت تمر بفترة قلاقل داخلية بسبب النزاع بين أفراد البيت المالك ، ففى سنة ١٢٦٨م غصب الملك داود العرش من خاله ، وأرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يعلن فيها دخوله فى طاعته ، ولكن بيبرس طالبه بأداء البقط ، وفى سنة ١٢٧٥ م قام الملك داود بغارة على ثغر عيذاب ، فسار إليه والى أسوان وعزله وولى مكانه رجلا يسمى شكنده

(إسكندر) وتوجه ملكا على دنقلة داخلا في طاعة سلطان مصر . ولكن الأمر لم يستقر له ففي سنة ١٢٧٦م وقعت الحرب بين المماليك وأهل دنقلة وانتصر المماليك وتوغلت قواتهم حتى دنقلة ، وأصبح الملك شكنده واليا للسلطان المملوكي ، وعومل أهل مقرة معاملة أهل الذمة ، واحتلت حامية مملوكية حصن أبريم وداو .

ولم يتدخل المماليك في بلاد مقرة إلا في عهد الناصر محمد بن قلاوون (في ولايته الثالثة ٧٠٩ - ٧٤١ هـ/ ١٣٠٩ - ١٣٤٠م) تدخل الناصر عسكرياً وأقام على مقرة ملكا نوبيا هو عبد الله بارشومبو سنة ٧١٦ هـ/ ١٣١٦م وقبل ذلك كان المماليك من أيام بيبرس يكتفون بإقامة حامية في دنقلة ، وكان عبد الله بارشومبو هذا قد لجأ إلى القاهرة وأقام بها واعتنق الإسلام ودخل في ولاء السلطان الناصر ، فأقامه ملكا على النوبة ومقرة ، وقد أنشأ عبد الله مسجدا في دنقلة مازال موجودا إلى اليوم وتاريخ بنائه مسجل عليه : ١٠ ربيع الأول ٧١٧ هـ / ٢٩ مايو ١٣١٧ م ثم حدث نزاع بينه وبين رجال كنز الدولة ووقعت الحرب وتمكن الكنوز من عزله وتتويج رجل منهم ملكا على دنقلة .

ويختفي ذكر دنقلة من الحوليات المصرية ، فلا نسمع إلا عن حملة مملوكية أرسلت إلى مقرة سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٣ - ١٣٢٤ م ، ويبدو أن مقرة تحولت فعلا إلى بلاد إسلامية بسبب إسلام ملوكها بالإضافة إلى ازدياد حجم الهجرات العربية . وفي سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٦ م في عصر الأشرف ناصر الدين شعبان ، وهو الثالث والعشرون من سلاطين المماليك البحرية (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٢ - ١٣٧٦ م تقرأ أخبار حملة مصرية على مقرة ربما لإقرار السلام .

ويحدثنا ابن خلدون عن أعمال العنف والفوضى التي وقعت بين العرب بعد أن تكاثروا في مقرة وسادوها ، والحدود الشمالية لمملكة علوة التي تقع جنوبي مقرة تسمى عند العرب بالأبواب ، وهو اسم مازال مستعملا في منطقة الكوشية في بلاد الجعليين جنوبي ملتقى نهر النيل بنهر عطبرة ، وهناك كان يقوم حاكم يسمى ملك الأبواب ، وخلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين كان حكام منطقة الأبواب يتعاونون أحيانا مع سلاطين المماليك في مصر ، ففي سنة ١٢٧٦م بعد أن انهزم الملك داود هرب إلى آخر صاحب الأبواب ، فقبض عليه صاحبها ، وأرسل إلى القاهرة أسيرا وأرسل رسالة إلى السلطان قلاوون يعترف فيها بخضوعه له ويشكو من ملك مقرة وقد سلك حاملو الرسالة طريق عيذاب ، وعندما وصلوا إليها رافقهم مندوب مملوكي ، وفي نفس الوقت وصلت إلى القاهرة بعثة من دنقلة تحمل هدايا للسلطان المملوكي ، وتطلب مساعدة مصر في عقد حلف بين آخر وبعض أعدائه ، ونتيجة لذلك فإننا نقرأ في حوادث ١٢٨٧م أن سفارة مصرية أرسلت إلى آخر وبعض جيرانه من حكام السودان ، ومن ذلك الحين أخذت مملكة علوة في الضعف ، ولم نعد نقرأ اسمها ، ولكن بعد أن سقطت مملكة مقرة لم يبق هناك مايمنع العرب من الدخول في منطقة السهول الواسعة التي يحدثنا عنها ابن سليم الأسواني ، وقد تكاثر العرب هناك وتزاوجوا مع أهل البلاد وأخذ الإسلام ينتشر ، ومع ذلك فإن المراجع البرتغالية التي تتحدث عن العلاقات بين البرتغال والحبشة تذكر أنه كان مايزال في منطقة مملكة علوة عدد كبير من الكنائس ، ولكن يبدو أن ذلك ليس صحيحا ، لأن المراجع البرتغالية لايوثق فيها بهذا الخصوص ، وبدأ العرب يسودون مناطق السواحل حتى سواكن ، بل وصل العرب إلى منطقة كسلا .

شرق السودان من أوائل القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر الميلاديين .

وابتداء من أوائل القرن السادس عشر يبدأ الغموض يسود تاريخ بلاد السودان ، وليس لدينا إلا معلومات قليلة نجدها في كتاب ألفه شيخ سوداني يسمى محمد ود ضيف الله اسمه « كتاب الطبقات » والمراد هنا طبقات المشايخ ، والكتاب مكتوب في لغة عربية ركيكة ، ولكنه يقدم لنا بعض المعلومات ، ولدينا كذلك مجموعة من الوثائق ألفها رجل يسمى « محمد إبراهيم أبو سليم » وقد نشرها وترجمها إلى الإنجليزية ب . م . هولت .

P . m . Holt, Fout Funj land CharTsrs (studies in the histony of the near Zost (london 1973, 1041 - 120)

وهناك أيضا كتاب في تاريخ السودان ألفه الشيخ أحمد بن الحاج أبي علي المعروف باسم كاتب الشونة ، والمراد بالشونة هنا مخزن الغلال ، ويبدو من كلام الرجل أنه كان موظفا في الحكومة المصرية بعد الفتح المصري للسودان ، وكانت الشونة التي يعمل بها هذا الرجل في منطقة الجزيرة على الضفة الغربية للنيل الأزرق ، وفي هذا الكتاب معلومات عن سقوط مملكة الفونج بعد التدخل المصري ابتداء من سنة ١٨٢١م ، والكتاب يتناول في بعض صفحاته أصل الفونج ويعطينا معلومات عن ملوكها الأول في القرن السادس عشر الميلادي ، ويستمر حتى سنة ١٧٢٤م ، وفي ذلك التاريخ تولى عرش الفونج ملك يسمى بديع أبو شلوخ ، وأخباره في ذلك الكتاب كثيرة ، وهذا هو الذي يجعلنا نسمي هذا الكتاب أحيانا بتاريخ مملكة الفونج ، مع أن المعلومات التي يتضمنها يدور معظمها عن بلاد الجزيرة ، ولانجد فيه معلومات كافية عن بقية بلاد المملكة التي كانت تصل إلى النيل الأبيض ، ونكتفي هنا في الكلام عن المراجع لأننا سنورد في نهاية هذا الفصل عن السودان بيانا وافيا بالمراجع

خريطة ١٥٦

السودان في العصر الحديث خريطة مواقع

خريطة ١٥٧

مملكة الفونج

ومملكة الفونج أول دولة إسلامية ذات قواعد سياسية وإدارية ونظام قائم تظهر في السودان النيلي جنوب مصر ، وعلى الرغم من أن ألقاب ملوكها تبدو أحيانا غير عربية فإن الفونج أنفسهم يقولون إنهم عرب ، وكانوا بدويون وثقافتهم بالعربية ، وكانوا ينسبون أنفسهم إلى بني أمية .

وقد اختلفت الآراء في الطريق الذي دخلوا به منطقة مابين النيلين ، فيقول بعض المؤرخين إنهم دخلوا وادي النيل من الغرب وإنهم فرع من ملوك البرنو ، وهناك من يقولون إنهم كانوا في الأصل فرعا من قبائل الشلك ، أما هم فيقولون إنهم من نسل أمراء من بني أمية فروا من العباسيين وهجروا إلى الحبشة ثم صعدوا مع النيل الأزرق حتى منطقة سنار . ويؤيد هذا الرأي المسعودي والمقريزي .

وعلى أي حال فقد كان الفونج يعتبرون أنفسهم دولة عربية إسلامية ، وعلى هذا الأساس ينبغي أن نأخذهم ، وقد ظهروا في وقت اشتدت فيه الحاجة في وسط السودان إلى دولة قوية تقر النظام وتؤمن الناس ، لأن دولة علوة - وتسمى في النصوص السودانية بدولة العنج - كان أمرها قد ضعف تماما ، وتكاثرت القبائل العربية في بلادها ، وقامت الحروب بينها حتى أصبح حوض النيل الأوسط مقسما إلى ممالك ومشيخات كثيرة لا تكف عن الحرب بين بعضها وبعض ، وكانت تسود كل منطقة قبيلة قوية تتمكن من إشعار البقية بقوتها ، ورئيسها يسمى شيخ المشايخ ويلقب بالملك أو المانجل . وكانت نتيجة هذه الفوضى أن تعطلت التجارة ، بل نلاحظ أن التجارة مع مصر اضطربت تماما في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي ، وظهرت الحاجة إلى إقامة نظام سياسي يشمل هذه المنطقة كلها ويقر الأمن فيها .

في هذه الظروف ظهر رجل قوي موهوب هو عمارة دونقاس من بني قبائل الفونج التي استقرت في منطقة سنار على النيل الأزرق ، وكان مركزهم في جبل مويا على بعد ٢٠ كيلو مترا تقريبا إلى غرب سنار الحالية ، فجمع رجاله وقرر القيام بالقضاء على بقايا دولة العنج وإقامة نظام إسلامي جديد ، ثم تحالف مع عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة من جهينة وحلفائه الكثيرين ، وكانوا يسودون المنطقة الواقعة عند ملتقى النيلين ومايليها شمالاً ، ثم التقى الحلفاء فيما بعد مع قوات العنج عند بلدة تسمى أربجي كان قد أسسها عربي يسمى حجازي بن معين حوالي سنة ١٤٤٧ م وانتصروا على العنج وفرت بقاياهم إلى جبال فازوغلي وكردفان ، واختفت بقيتهم في سكان البلاد من المسلمين ودخلوا الإسلام .

وعقب ذلك قامت دولة الفونج وحدودها من سواكن شرقا إلى النيل الأبيض غربا ، ومن أقصى جبال فازوغلي جنوباً إلى الشلال الثالث شمالاً ، أي أنها شملت معظم أراضي مملكتي مقرة وعلوة السابقتين .

وقد انفرد عبد الله جمّاع بالقسم الشمالي من المملكة وجعل عاصمته مدينة قري (قرب خانق سبلوقة) أما عمارة دونقاس فقد بسط سلطانه على الجنوب ، واتخذ مدينة سنار عاصمة له ، ويقال إنه هو الذي أنشأها .

وكانت حدود المملكة من الشمال بلدة حنك ، وعندها تبدأ الحدود الجنوبية لمصر المملوكية في ذلك العصر . وحنك تقع عند الشلال الثالث ، ويذهب نعوم شقير إلى أن مدينة أربجي (قرب المسلمية) أصبحت الحد الفاصل بين منطقة نفوذ عمارة دونقاس ومنطقة نفوذ عبد الله جماع ، وكان كلاهما لا يحكم مباشرة بل عن طريق المكوك أي شيوخ القبائل ، ويقال إن انفراد عبد الله بهذه المنطقة الشمالية تم في أواخر أيام عمارة دونقاس .

وعندما قامت دولة الأتراك العثمانيين مدت حدودها من مصر جنوبا حتى سواكن ومصوع ، فقد احتلتهما ووضعت فيهما حاميتين عسكريتين ، وذلك بعد ثلاث سنوات من استيلاء العثمانيين على مصر أى سنة ١٥٢٠م ، وعرف عمارة دونقاس كيف يقنع سلطان العثمانيين بأنه ملك مسلم ، وأن سكان بلاده عرب مسلمون ، وألا داعى لأن تخشاهم الدولة العثمانية على سلطانها .

وقد تعاقب على مملكة الفونج بعد عمارة دونقاس ثلاثة ملوك أقوياء ثم أحدث تضعف ، وفى أيام الملك عدلان وداى الذى انتهى سنة ١٦١١م قامت الحرب بين بلاد عبدلاب جماع (العبد اللاب) ومملكة الفونج ، وكان شيخ العبد اللاب يسمى « عجيب » وقد انهزم الشيخ عجيب وقتل وفرت عائلته إلى دنقلة ، فقام رجل صالح هو الشيخ إدريس ود الأرباب وتوسط بين الخاصين ، وتم الصلح بينهما وأذن عدلان لعجيل بن عجيب بأن يعود إلى منطقة سلطان أبيه ، وكان عجيب الذى ذكرناه ذا عناية كبيرة بالدين وسعته ، فكان يكرم العلماء والصالحين ، وقد أنشأ رواقا للسنارية فى الأزهر ، وآخر فى مسجد المدينة المنورة

ومع أن عدلان وداى أثبت كفاية فى عمله إلا أن أهل مملكة الفونج عزلوه وأقاموا مكانه بادى سيد القوم ، فسلك مع العبد اللاب سياسة عنف وقوة ، وانتزع السلطان على الأقاليم الشمالية من يد الشيخ عجيب ووضع يده على دنقلة ، وكانت مركز الحدود والجمارك بين المنطقتين ، وفى أواخر سنوات حكم الفونج استقلت قبائل الشايقية التى كانت تسكن منطقة حلفا فى منطقة العبد اللاب ، وكان هذا مظهرا من مظاهر تفكك مملكة سنار ، فقد انقسمت إلى مشيخات قبائلية كل منها مستقلة فى ناحيتها ، ومن أقوى هذه المشيخات العبد اللاب والحلاويين والجعليين والرباطاب والشايقية وكانت هذه الأخيرة تسكن أبعد هذه المناطق إلى الشمال ، وكانوا قبائل شتى لاتنقطع الحرب بينها ، وكانوا يسيطرون على منطقة وادى حلفا كلها ، ويملكون أكبر مدن المنطقة مثل أبى حمد ومروى وكورتى .

وكانت كل هذه الجماعات القبلية السودانية التى نشأت عن تفكك دولة الفونج تعتبر نفسها قبائل عربية ، وكان دينها الإسلام ، وكان أفرادها يتمسكون به تمسكا شديدا ولكن على طريقتهم ، فقد كان العلماء والفقهاء من مصر قد تكفلوا بتعريف أهل السودان بالإسلام ، وأتم هذه المهمة طلاب السودان الذين رحلوا لطلب العلم فى مصر أو فى الحجاز وعادوا فقهاء وشيوخا أجلاء ، ومن هؤلاء أولاد جابر الأربعة : ابراهيم وعبد الرحمن وإسماعيل وعبد الرحيم ، وهم أولاد جابر بن عون بن سليم بن رباط بن غلام الله والد السادة الركابية ، وكلهم درسوا فى الأزهر وعادوا بين مواطنى الشايقية ونفع الله بهم خلقا كثيرين ، وقد هاجر أيضا إلى بلاد الفونج نفر من علماء الأزهر أشهرهم الشيخ محمد القناوى ، وقد علم فى بربر وأنجب ونشر ونكث عمر فى بربر وأنشأ فيها مسجدا يصلى ويلقى دروسه فيه ، وتخرج على يديه الكثيرون من أوائل علماء السودانيين .

وكانت أولى علائم دخول السودان ميدان التاريخ محاولة محمد على صاحب مصر فتح السودان ابتداء من سنة ١٨٠٧م وتوسيع حدود مصر حتى تشمله ، وقد بدأت العملية سنة ١٨٢٠م ، ومهما قيل فى محاولة محمد على فتح السودان فإنها فى الحقيقة كانت نداء قويا أيقظ السودان ونبه أهله إلى أنه قد أصبح عضوا فى أسرة الإسلام والعروبة الكبرى وأن عليه أن يأخذ نصيبه من آلام هذه الأسرة ومسراتها .

والسودان — ذلك البلد العربى العزيز — من البلاد التى دخلها الإسلام دون حرب ، دخلها بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة ، فدون تدخل من أى دولة إسلامية كان الإسلام يسرى فى بلاد السودان فى هدوء يملأ القلوب .

وقد كان لابد أن يتحول السودان النيلى إلى بلد إسلامى بسبب قربه الشديد من جزيرة العرب ، واستمرار هجرات العرب إلى بلاد السودان عبر البحر الأحمر ، ولكن العملية تأخرت بعض الشىء ، لأنه لابد لسيادة الإسلام الفعلية فى أى بلد من تنظيم يتولى العمل ورجال يسألون عنه ، وهذا هو الذى قام به بنو رفاعة وعرب جهينة ودولة الفونج ، ثم واصلت مصر العمل أيام محمد على ، وإن كانت أساليب الإدارة المصرية أيام محمد على غير مصحمة لا لأهل السودان ولا لأهل مصر ، ومع ذلك فقد كانت وحدة مصر والسودان أيام محمد على وما بعدها إلى أواخر أيام إسماعيل من أكبر العوامل فى إتمام إسلام السودان ، ولولا أن إسماعيل الخديوى عهد فى إدارة السودان لزبانية الاستعمار من أمثال السير صمويل بيكر ثم تشارلس غوردون لأصبح السودان كله من شماله إسلاما خالصا ، بل لامتدت دولة الإسلام حتى شملت وادى النيل كله ، فقد أنشأت مصر أيام إسماعيل مديرية خط الاستواء أو إكواتوريا ، ووضعت سياسة ثابتة لنشر الإسلام فى مناطق منابع النيل ، وتوافد العلماء والفقهاء من مصر إلى هناك . وماأفسد هذا العمل الجليل كله إلا الإنجليز الذين هم وراء متاعب العالم العربى كله من السودان إلى فلسطين .

الفتـــــح المصـــــرى .

وفى سنة ١٨١١م وبعد مذبحة المماليك تفرغ محمد على لتتبع بقايا المماليك الذين فروا إلى النوبة ثم إلى بلاد الفونج ، وبعد ذلك فى سنة ١٨١٢م أرسل محمد على سفارة إلى ملك الفونج يطلب إليه أن يطرد المماليك من بلاده ، ولم يكن فى استطاعة سلطان الفونج أن يقوم بذلك ، لأن بلاده كانت تمر بفترة ضعف وفوضى خصوصا فى شرق البلاد ومنطقة دنقلة ، ووصلت محمد على رسالة من الملك ناصر الدين وهو عضو من أسرة الميرغاب التى كانت تحكم منطقة بربر تطلب إلى محمد على المعاونة على خصومه ، وبذلك تجمعت الظروف التى مهدت لمحمد على القيام بفتح السودان خاصة وأن تلك الأحوال أدت إلى توقف التجارة بين مصر وماينها جنوبا ، ثم إن محمد على كان يفكر فى تجنيد قوة عسكرية من السودانيين لأنه كان يريد أن يتخلص من معظم جيشه الألبانى ، ووجد أنه إذا أرسل أولئك الألبان إلى السودان تخلص منهم واستطاع أن ينشىء القوة العسكرية التى كان يفكر فيها ، وابتداء من سنة ١٨٢٠ م بدأت أولى الحملات تتجه إلى السودان بقيادة الابن الثالث لمحمد على وهو إسماعيل كامل باشا ، وكان فى الخامسة والعشرين من عمره ، وكان يساعده رجل يسمى محمد سعيد افندى

وفى يوليو ١٨٢٠ م تجمعت الحملة فى أسوان واتجهت إلى الجنوب نحو دنقلة ، وكان فى المقدمة رجل من رجال الدولة العثمانية هو حسين الكاشف أى جامع الضرائب ، ووصلت الحملة إلى شمال النوبة وفر أمامها المحليون سادة هذه النواحى ، وقام باستقبال الحملة المصرية الملك نمر ملك شندى ، وسارع حكام النواحى بإعلان خضوعهم . وفى الرابع من نوفمبر وقعت موقعة صغيرة عند كورتى بين الحملة وعرب الشيخية ، وقد انهزم هؤلاء واعتصموا فى حصن عند سفح جبل ديقا (يسمى الآن جبل ابن عوف) وهناك ضربهم إسماعيل بن محمد على بالمدافع ، وتقدم نحو شندى دون أن يلقى أحدا من المماليك الفارين ، ثم وقعت بعد ذلك مناوشات انسحب بعدها المماليك إلى الجنوب ، وكان يحكم منطقة شندى الملك نمر صاحب شندى والملك المساعد عند المتمة ، وقد تظاهر الاثنان بالخضوع لمحمد على ، وكذلك فعل الشيخ ناصر ود الأمين شيخ العبد اللاب وهو والد الملك نمر صاحب شندى الذى ذكرناه ، وفى مايو ١٨٢١م عبر الجيش منطقة الشلال الثالث أى أنها دخلت فى قلب سلطنة الفونج ، وفى الطريق تم إخضاع كل الشايقية فى بلاد دنقلة وخضع لها الشيخ سليم شيخ الكبابيش ، وفى أثناء ذلك كله كان الجند الألبان ينهبون ويسرقون على عادتهم فحقد الناس عليهم وأعلن كل رؤساء البلاد — حتى فازوغلى — استنكارهم ، وطالب محمد على بالضرائب من الذهب فأدى أهل البلاد مااستطاعوا ولكنهم لم يؤدوا إلا جانبا ضئيلا مما طلبه قادة الجيش المصرى ، وأخيرا دبر ملك شندى المسمى نمر المؤامرة التى انتهت بإحراق الخيمة التى كان يقيم فيها إسماعيل بن محمد على واحترق هو معها مما أحزن محمد على وزاد فى غضبه وسادت الفوضى فى البلاد ، ثم عاد محمد على فأرسل جندا جديدا لينتقم من ملك شندى بقيادة خورشيد باشا ، وانضم إليه الشيخ عبد القادر الذى دعا زملاءه السودانيين للتفاهم مع المصريين ، وساد السلام فى سنة ١٨٢٨ م بعد أن وصل السلطان المصرى إلى فازوغلى ، ودخل كل أهل البلاد فى طاعته وإن كانت القوات المصرية قد عجزت عن إقرار السلام والأمن فى البلاد ، وفى سنة ١٨٣٦ م بدأ المصريون يتحركون جنوبا ، ولكن سيرهم كان يتم ببطء شديد حتى إنهم لم يصلوا إلى منطقة بحر الغزال إلا فى فترة متأخرة ، وفى سنة ١٨٤٢م وصلوا إلى غندكرو وتولى حكم السودان المصرى رجل من أهل الكفاية يسمى أحمد باشا أبو ودان ، وكان هذا هو الوضع الذى تجد عليه السودان عند موت محمد على سنة ١٨٤٨م ورغم أن « عباس الأول » عرف باتجاهه إلى الجمود وإيقاف كل شىء فإنه لم يسحب شيئا من القوة المصرية فى السودان فظلت البلاد تابعة لمصر .

خريطة ١٥٨

مصر والسودان فى عهد الخديو إسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩ م)

عندما تولى إسماعيل باشا كان ذلك فى عنفوان الحركة الاستعمارية ، وخاف إسماعيل من أن تسرع إحدى الدول الأوروبية باحتلال شىء من السودان فوضع خطة واسعة المدى لحماية الوطن السودانى وفى سنة ١٨٦٩م قرر تعيين رجل إنجليزى هو السير صمويل بيكر ليكون حاكما على السودان ويتم فتحه وإقرار الأمور فيه ، وكان ذلك من أكبر أخطاء إسماعيل باشا ، لأن سياسة صمويل بيكر كانت ترمى إلى هدفين : الأول هو اقتطاع منطقة منابع

النيل وجعلها مستعمرة بريطانية ، والأمر الثاني هو الإساءة إلى أهل السودان وتأليبهم على المصريين ، وقد تم له ذلك ، وعندما انتهت ولايته عُين مكانه قائد إنجليزي من كبار الاستعماريين هو تشارلز جورج جوردون فسار على نفس السياسة حتى انتشر التمرد في البلاد خاصة وقد عمل إسماعيل باشا أيوب والى كردفان على الاستعانة برجل يسمى الزبير باشا كان يحكم المنطقة بأمر من الإدارة المصرية ودخل الفاشر عاصمة كردفان ولحق به إسماعيل أيوب باشا ، ودخلت كل تلك المنطقة في السودان المصري ، وفي ناحية الشرق كان المصريون قد استولوا على ميناءى سواكن ومصوع ، وفي سنة ١٨٧١م وصل المصريون إلى حدود الحبشة ووقعت الحرب بينهم وبين الملك يوحنا الرابع ، وقد توفى هذا الملك بعد قليل واستولى المصريون على مرتفعات إرتريا في سنتي ١٨٧٥ و ١٨٧٦ م .

وفي أغسطس سنة ١٨٧٧م انضمت مصر إلى معاهدة إلغاء تجارة الرقيق ، وبذلك توقفت تلك التجارة رسميا ، وإن كانت قد استمرت بصورة غير رسمية مما أثار عواطف أهل البلاد ، وكانت تلك هي مقدمات الحركة المهدية .

خريطة ١٥٩

الحركة المهدية ١٨٨١ - ١٨٩٨م

ذكرنا تاريخ السودان حتى إسلام أهله وتحوله إلى بلد عربي إسلامي من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر الميلاديين ، وذكرنا كذلك أوليات تاريخ المهدى محمد أحمد ابن السيد عبد الله حتى هجرته إلى جزيرة أبا وتكوينه نواة جماعة الأنصار ، ومناداته بنفسه مهديا وخليفة لرسول الله ﷺ ، وإعلانه أنه يقود حركة لتجديد الإسلام وتحرير بلاده من الترك والإنجليز ، ونوجز فيما يلى بقية تاريخ المهدى وإنشائه دولته في السودان

فلما إن الإنجليز سيطروا على شئون مصر بعد قضائهم على الحركة العرابية ، واحتلالهم مصر ابتداء من ٢٠ سبتمبر ١٨٨٢ م ، وفي هذه الأثناء تطورت حركة المهدية تطورا بعيد المدى لأن الإنجليز سحبوا من السودان الحاكمدار عبد القادر باشا حلمى الذى عينه العرابيون ، وعقب ذلك زادت الحركة المهدية قوة ، وانتشرت في طول البلاد وعرضها وأصبحت الحاميات المصرية في السودان ومن معها من الموظفين الإداريين - كل جماعة منهم في ناحية - شبه محاصرين ، لأن الثوار قطعوا وسائل المواصلات بين نواحي السودان المختلفة .

وابتداء من يناير ١٨٨٤م بدأت الحكومة البريطانية تضغط على حكومة مصر لإخلاء السودان من الجنود والموظفين المصريين بحجة الخوف عليهم من الثوار ، ولكن الحكومة المصرية رغم ضعفها كانت لاتزال تأمل في إعادة تنظيم بلاد السودان التى كانت جزءا مكملا لمصر ، وكان بعض الموظفين المصريين - مثل حكمدار الأبيض محمد سعيد باشا - قد استطاعوا الصمود أمام هجمات الأنصار ، وهم الذين انضموا إلى الحركة المهدية وكونوا جيوشها ، وإلى جانب الأنصار كانت تحت قيادة المهدى قوات من بقايا الجيش المصرى في السودان ، وقد عجزت الحكومة عن إعطائهم رواتبهم فدخلوا في الحركة المهدية وأصبحوا من جنودها ، وأصبحوا يكونون قوات إضافية تسمى بقوات الجهادية ، وقد عجز الأنصار عن الاستيلاء على الأبيض عاصمة مديرية كردفان ، ولكن قائدا من قواد المهدى يسمى حمدان أبا عنجة قاد جماعة من الجهادية ومعه نفر من أفراد قبيلته وهي قبيلة صغيرة تابعة للتعايشة العرب وهم من قبائل البقارة .

وفي سنة ١٨٨٣م أرسل عبد القادر باشا حلمى حكمدار السودان حملة لإغاثة الأبيض ، وكان هذا آخر عمل له قبل مغادرة السودان ، ولكن مدينة بارة القريبة من الأبيض سلمت قبل وصول النجدة ، ووجد محمد سعيد باشا أنه لا فائدة من طول الصمود ، فسلم لجنود المهدى في ١٩ يناير ١٨٨٣م ، واتجه محمد سعيد باشا نحو مصر ، ولكنه هو وضباطه وقعوا في أيدى الأنصار فاعتبروهم أسرى ، ودخل المهدى الأبيض قادما من جبل قدير ، وصلى الجمعة في جامع الأبيض واعتبر ذلك من أكبر الانتصارات في تاريخ الحركة المهدية .

وقبل انسحاب عبد القادر باشا حلمى من السودان في فبراير ١٨٨٣م كان قد تمكن من حماية منطقة الجزيرة التى كانت الخرطوم تعتمد عليها في الحصول على الأقوات .

وخلال السنتين التاليتين لانسحاب عبد القادر باشا حلمى من السودان لم يهتم الإنجليز فيما بين سنتى ١٨٨٣ ، ١٨٨٥م بأمر المصريين المنقطعين في السودان ، وكان رئيس الوزارة البريطانية يرى أن أمور السودان خارجة عن نفوذ بريطانيا ، وأن مصر ينبغى أن تسحب رجالها من السودان ، لأن المهديين في نظر الكثيرين من الإنجليز في ذلك الحين كانوا يقودون حركة قومية خاصة بالسودان ، والحقيقة أن الحركة المهدية جاءت بعد أوانها ، فقد قامت وفي مصر الاستعمار ، وكان عليها أن تواجه القوى الأوربية بأسلحتها وعتادها ومطامعها ، ولو أن الحركة المهدية قامت قبل ذلك بقرين من الزمان لكانت من كبريات الدول الإسلامية التى روينا أخبارها ، لأن المهدى محمد أحمد بن السيد عبد الله كان زعيماً دينياً عظيماً قادراً على تحريك الجماهير ، وكان يقود حركة دينية قومية تستهدف النهضة الإسلامية وتحرير السودان والمسلمين .

وقد نظمت الحكومة الخديوية على مسئوليتها حملة لفتح الطريق بين الخرطوم والأبيض قادها ضابط إنجليزى يسمى وليام هيكس باشا ، فاتجه إلى السودان مع قوات قليلة متمردة رافقه حاكم جديد للسوادن هو علاء الدين صديق باشا ، وفي موقعة شيكان في ٥ نوفمبر ١٨٨٣م التقت حملة هيكس بقوات الأنصار والجهادية فانتصروا عليه وقضوا عليه وعلى علاء الدين صديق باشا وكل القوة المصرية

وفي نفس الوقت كان رودلف سلاتين النمساوى الجنسية حاكما لمديرية دار فور سنة ١٨٨١ م باسم الحكومة المصرية ، وكان قد أعلن إسلامه ووجد أنه لا فائدة في المقاومة ، فدخل في طاعة المهدى ، واستولى الأنصار على دارفور ، وعين المهدى قريبه محمد خالد عاملا على دارفور ، وظل سلاتين باشا في حاشية المهدى مدة اثنى عشر عاما لأنه سلم للمهديين في ٢٣ ديسمبر ١٨٨٣م ، وبعد القضاء على الحركة المهدية عاد سلاتين باشا إلى مصر وكتب كتابه المشهور « النار والسيف في السودان » .

وكانت مديرية بحر الغزال تابعة للإدارة المصرية في الخرطوم وكان يحكمها ضابط إنجليزى يسمى ف . م . لبتون . وقد حاول الدفاع عن المديرية ، ولكن المهدى أرسل قوة من الأنصار استولت على بحر الغزال في إبريل ١٨٨٤م واستسلم لبتون ومات في الأسر بعد أربع سنوات

وأرسل المهدى إلى قبائل الهدندوة وهي من أقوى قبائل البجاة على ساحل البحر الأحمر رجلا من أتباعه يسمى عثمان دقنة يطلب إليهم الدخول في طاعته ، واستطاع عثمان دقنة أن يعقد اتفاقا مع شخصية كان لها مقام عظيم في غرب السودان كله هو الشيخ الطيب المجذوب شيخ الصوفية في منطقة الدامر ، وبمقتضى هذا الاتفاق دخل الهدندوة وكل منطقة ساحل البحر الأحمر فيما عدا سواكن في الدولة المهدية في فبراير ١٨٨٤م ، وابتداء من يناير ١٨٨٤م اشتد ضغط الحكومة البريطانية على مصر لإخلاء السودان ، وفي تلك الظروف أرسل جوردون باشا إلى السودان دون أن يعرف أحد على وجه الدقة ماهى العملية التى أرسل من أجلها ، فأما الحكومة الخديوية التى أرسلته فكانت ترى أن مهمته هي المحافظة على الخرطوم ومنطقة الجزيرة ، حتى تعرف الحكومة المصرية ماذا ستعمل لإعادة تنظيم السودان ، أما السير إيفلين بيرنج (المشهور باللورد كرومر) قنصل عام بريطانيا في مصر وممثل الحكم الإنجليزى بها فكان يرى أن مهمة جوردون هي تنظيم إخلاء السودان من القوات المصرية ، وكان بينه وبين قنصل بريطانيا في مصر خلاف من أول الأمر فقرر البقاء في الخرطوم على مسئوليته ، وأعلن في ١٣ مارس ١٨٨٤م أن القوات الإنجليزية المصرية في الطريق إلى الخرطوم للقضاء على الحركة المهدية وكان هذا خطأ جسيما منه .
وبعد ذلك بقليل قطعت مواصلات التليفون وسائر المواصلات بين القاهرة والخرطوم ، وفي ٢٧ مارس ١٨٨٤م وصل مندوب من المهدى يطالب جوردون باشا بالدخول في طاعته وتسليم الخرطوم وبربر وبلاد الجزيرة فرفض جوردون ، وفي أثناء ذلك وقعت مدينة بربر في أيدى المهدى في مايو ١٨٨٤ م وأصبح جوردون ومن معه محاصرين في الخرطوم ، وتحركت قوات المهدى نحو عاصمة السودان ، وابتداءً من سبتمبر ١٨٨٤ م بدأ حصار الخرطوم ووصل المهدى بنفسه إلى قربها في ٢٣ أكتوبر ١٨٨٤ م وضرب معسكره على الضفة الغربية للنيل الأبيض في مواجهة الخرطوم ، وهنا تحركت حكومة جلادستون وأرسلت قوة مصرية إنجليزية دخلت السودان في يناير ١٨٨٥م ، وخوفا من وصول هذه القوة إلى الخرطوم قرر المهديون الهجوم عليها ، وبدأ هجومهم في الساعات الأولى من ٢٦ يناير ١٨٨٥م وتمكنوا من دخول الخرطوم وقتلوا جوردون في ٢٨ يناير ١٨٨٥م وكان لمقتله رجة عظمى في انجلترا ، ولكن المهديين دخلوا البلد واستولوا على منطقة الجزيرة ، وبذلك أصبح السودان كله فيما عدا سواكن داخلا في دولة المهدى ، ولم يشأ المهدى أن يجعل عاصمته في الخرطوم ، فاتجه إلى قرية صغيرة في شمالها الغربى تسمى أم درمان وجعلها عاصمته ، وفيها نظم حكومته وبنى مسجده وفيها مات .

عصر الخليفة عبد الله التعايشى ١٨٨٥ - ١٨٨٩ م .

كان المهدى قد اختار من بين رجاله أربعة من كبار الزعماء وجعلهم خلفاء له ، وهم عبد الله بن محمد التعايشى ولقبه بالصديق أبى بكر ، وعلى بن محمد الحلو ولقبه بالخليفة

الفاروق ، ومحمد المهدى السنوسى ولقبه بالخليفة عثمان . ومحمد شريف بن حامد ولقبه بالخليفة الكرار ، ويريد به على بن أبى طالب .

وبعد موت المهدى وقع الخلاف بين خلفائه ، ومن أول الأمر انسحب السنوسى عن المهدى وتمكن عبد الله بن محمد التعايشى الذى كان يقود أقوى فرق الأنصار وهم من البقارة قبيلته — من أن يعلن نفسه خليفة رسميا للدولة المهدية ، وكان المهدى قد كتب له كتابا بهذا المعنى قبل وفاته ، وكان المهدى يسمى كبار أنصاره بالأمراء ، وكان عبد الله التعايشى أكبر الأمراء وكان يرفع علما أسود .

وكان عماد قوة التعيشى رجاله من البقارة والجعليين والدناقلة ، وهؤلاء كانوا يكونون نواة القوة العسكرية للدولة المهدية فى عصر التعايشى ، أما الأعمال الإدارية فكانت تقوم بها جماعة الدنقلاوية من أهل بيت المهدى ، ويلقبون بالأشراف ومعظمهم من الموظفين .

وكانت الظروف التى حكم فيها عبد الله المهدى ظروفا عسيرة ، فقد كان الإيطاليون قد استولوا على مصوع ، وكانوا يستعدون للاستيلاء على إرتريا ، فى حين كان الإنجليز فى مصر يحاولون إقناع الحكومة المصرية بإخلاء السودان وإعادة فتحه بقوات إنجليزية مصرية يقودها قائد بريطانى كبير ، ووقع الأختيار على اللورد كتشنر للقيام بهذه المهمة .

وفى نفس الوقت كان ملك الحبشة وهو يوحنا قد طمع فى أراضى السودان وأرسل قائدا من قواده يسمى راس ادار واستولى على القلابات من أراضى السودان ، ولكن السودانيين انتصروا على الأحباش وقتلوا الملك يوحنا وأخذوا رأسه وتاجه وأرسلوهما إلى الخرطوم ، وكان الذى دل هذا النصر قائدا سودانيا يسمى زكى عثمان وهنا أسرع الإيطاليون للاستيلاء على مصوع من أرض السودان ، واحتلوا إرتريا سنة ١٨٨٥م .

وكان المهدى قد نظم حملة لغزو مصر ، يقودها رجل من كبار قواده هو عبد الرحمن النجومى وهو من الجعليين ، وقد انتصر المصريون على النجومى فى توشكى

وفى سنة ١٨٩١م تمكنت قوة مصرية من هزيمة عثمان دقنة قرب مدينة طوكر فى ناحية سواكن ، وبعد سنتين أى سنة ١٨٩٣ م هزم المهديون أمام الإيطاليين فى معركة أغور دات .

ومنذ سنة ١٨٨٦م لم يعد هناك حاكم لإقليم بحر الغزال ، أما مديرية خط الاستواء فكان يحكمها أمين باشا الذى انسحب من المديرية وتفاهم مع استانلى على الانسحاب من السودان ، فأصبحت مديرية خط الاستواء بدون حاكم مصرى أو سودانى ، فضمها الإنجليز إلى مستعمراتهم فى أوغندة ، وكل مافعله التعايشى هو أن أرسل قوة من رجاله إلى بلدة الرجاف فى جنوب السودان .

وابتداء من سنة ١٨٩٦م بدأ العمل الجدى لإعادة فتح السودان فأنشىء خط حديدى من وادى حلفا إلى أبى حمد لنقل الجنود ، واستدعى التعايشى قائده محمود أحمد من دارفور ، وأمره بالمسير للقاء الحملة المصرية الإنجليزية ، وفى ٨ أبريل ١٨٩٨م وبين المتمة وأم درمان التقت قوات كتشنر مع قوات التعايشى يقودها محمود أحمد وعثمان دقنة ، وحصدت المدافع الإنجليزية القوات السودانية فى معركة كررى التى تعرف أيضا بمعركة أم درمان ، وفيها قتل ١١٠٠٠ سودانى وجرح ١٦٠٠٠ ، وبهذا تم القضاء على الدولة المهدية ، ودخل كتشنر وقواته الخرطوم ، وبدأ عصر جديد فى تاريخ السودان .

خريطة ١٦٠

النزاع الاستعمارى على وادى النيل

(مصر والسودان) القرن ١٤ هـ — ١٩ م

كانت بريطانيا قد أصبحت صاحبة السلطان الأعلى فى مصر لأن الخديو محمد توفيق كان فى الحقيقة موظفا فى الحكومة البريطانية خاضعا تماما لأوامر اللورد كرومر ، أما الوزارة المصرية التى كانت تحكم مصر فى أوائل سنوات الاحتلال فقد كانت فى الحقيقة هيئة إدارية تخدم مصالح بريطانيا لا مصالح مصر .

ولهذا فقد سهل على الإنجليز إرغام الوزارة المصرية على الموافقة على فكرة إخلاء السودان من القوات المصرية التى كانت مبعثرة فى نواحى السودان ومحاصرة فى مواضعها ، وجدير بالملاحظة هنا أن معظم المديرين والجنود فى السودان رفضوا مبارحة البلاد رغم سوء الحالة التى كانوا فيها ، لأنهم كانوا يرون أنهم لايمثلون احتلالاً أو حكماً أجنبياً فى بلاد السودان . بل كانوا يرون أنفسهم مواطنين يؤدون واجبهم حيال وطنهم وادى النيل ، وأرسلت قوة بريطانية مصرية للقضاء على الحركة المهدية بقيادة السير الجنرال هربرت كتشنر ، وكانت الموقعة الحاسمة بين هذا الرجل والمهديين عند أم درمان فى ٨ إبريل ١٨٩٨ م ، ودخل كتشنر الخرطوم ، واستقر فيها حاكما ، لكن معظم البلاد كانت خارجة عن سلطانه ، لأن السودانيين رفضوا الاعتراف بالوضع الجديد ، وكان الفرنسيون عندما وجدوا الإنجليز يضعون أيديهم على السودان قد أسرعوا وأرسلوا قوة عسكرية من تشاد ووصلت فاشودا على النيل الأبيض ورفعت العلم الفرنسى هناك ، وكان العرف الاستعمارى فى ذلك العصر يقول إن أى دولة أوروبية تدخل بلدا من بلاد آسيا أو إفريقيا وترفع علمها على عاصمته يصبح البلد ملكا لها قانونا ، ولكن كتشنر استطاع أن يرد الفرنسيين إلى تشاد وتم الاتفاق بين الحكومتين الإنجليزية والفرنسية على أن تقف الحدود بين أملاك انجلترا وفرنسا وبلجيكا على الوضع الذى بيناه على الخريطة ، وفى ١٩ يناير و ١٠ يولية ١٨٩٩ م تمت الموافقة على معاهدتى الحكم المشترك للسودان ، فيما يعرف باتفاقيتى سنة ١٨٩٩ م التى أصبح السودان بمقتضاها خاضعا لحكم مشترك إنجليزى مصرى The Anglo Egyption Condominium

ولأول مرة وضعت حدود مصرية بين مصر والسودان وجعل خط العرض ٢٢° شمال خط الاستواء حدا بين البلدين وكان الإيطاليون بعد احتلالهم إرتريا قد انتزعوا إقليم كسلا من المهديين سنة ١٨٩٤م ولكنهم اضطروا إلى إعادتها لمصر سنة ١٨٩٧ م .

وفى سنة ١٨٩٧ م تمكنت قوات السير رجينالد ونجت Sir Reginald Wingate من إخراج الإيطاليين من كسلا وبذلك عاد جزء كبير من السودان على شاطىء البحر الأحمر إلى الوطن الأم ، وكان المهديون يقاتلون بقيادة ابن أخ لعبد الله التعايشى يسمى الخليفة عبدالله محمود ، فالتقى مع قوات إنجليزية مصرية فى موقعة العطبرة فى ٨ ابريل ١٨٩٨م وأخذ عبد الله محمود أسيراً ، ونفى إلى رشيد حيث توفى .

أما السير رجنالد ونجت فقد عينته بريطانيا حاكما على السودان بعد رحيل كتشنر فى ديسمبر ١٨٩٩ م ، ومن الناحية النظرية كان حاكم السودان الإنجليزى موظفا مصريا يرشحه الإنجليز ، ويصدر بتعيينه مرسوم خديوى ، وانصرف الإنجليز بعد ذلك لإقرار الأمن فى السودان ، فأرسلوا قوة إلى كردفان تغلبت على المهديين فى أم دبيكرات ودخلت الأبيض عاصمة كردفان ، وفى سنة ١٨٩٨ م حاول زعيم سودانى هو على دينار إعلان حكومة مهدية فى الفاشر ، ولكن الإنجليز اضطروه إلى الدخول فى طاعتهم ، فأصبح يحكم كردفان تابعا للخرطوم ، ورفع العلمان المصرى والسودانى فى الخرطوم ، وكانت القوة الحقيقية والقيادة العسكرية تحت رياسة قائد إنجليزى أعطى لقب السردار ، وهو لقب عسكرى هندى نقله الإنجليز إلى وادى النيل ، وكان السردار أيضا موظفا مصريا من الناحية النظرية ، ويعين بنفس الطريقة ، ولكن الحاكم الحقيقى مصر والسودان كان اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى القاهرة ، ومن حسن حظ السودان أنه استثنى من بعض المتاعب التى كانت تعانيها مصر مثل الامتيازات الأجنبية ، وقد ظل ونجت حاكما عاما للسودان إلى سنة ١٩١٦ م وكان دخل السودان عند بداية الاحتلال فى ١٨٩٨ م يبلغ ٣٥٠٠٠ جنيه إنجليزى ، أما المصروفات فقد قدرت بمبلغ ٢٣٥٠٠٠ جنيه إنجليزى ، وكانت الحكومة المصرية هى التى تدفع الفرق ، واستمرت تدفعه إلى سنة ١٩٥٤ م وبدأ الإنجليز يحكمون بلاد السودان على هواهم ، وفى سنة ١٨٩٨ م جمع لورد كتشنر أموالاً من السودانيين لينشىء بها مدرسة تسمى كلية ذكرى جوردون ، وكانت تلك أول مدرسة ثانوية للتعليم الحديث تنشأ فى السودان ، وافتتحت سنة ١٩٠٧ م وأنشئت فيما بعد فيها أقسام متخصصة واحدة للشريعة الإسلامية لتخريج القضاة وواحدة للمهندسين وأخرى للمدرسين،وقام الإنجليز بجهود كبيرة فى ميادين المواصلات والتلغراف وبخاصة سكة حديد وادى حلفا ـــ الخرطوم (١٨٩٧ ـــ ١٨٩٩ م) ثم أضيف إلى ذلك الخط امتداد إلى سنار والأبيض وأنشىء خط حديدى من عطبرة إلى سواكن ثم مد بعد ذلك إلى بور سودان التى أصبحت الميناء الرئيسى للسودان على البحر الأحمر ، وأنشئت فيه أرصفة وترسانات ومنشآت كثيرة وأنشىء خط ملاحة نهرى من الخرطوم إلى بحر الغزال .

وساد الهدوء فى السودان سنوات طويلة بعد ذلك ولم يتأثر بما جرى بالثورة العربية التى أشرنا إليها والتى بدلت الأحوال فى الشرق الأوسط تبديلا تاما ، وفى سنة ١٩١٦ م هاجمت فرنسا أراضى سلطنة دارفور التى كان يحكمها السلطان على دينار تحت الحماية البريطانية ، فكانت النتيجة أن أعلن الرجل خروجه عن طاعة الإنجليز لأنهم لم يقدموا إليه أى معاونة ضد الفرنسيين ، وهرب على دينار إلى جبل مرة حيث قتل فى ٦ نوفمبر ١٩١٦ م وألغيت سلطنة دارفور وظل الأمر على ذلك إلى سنة ١٩٢٤ م

ثم اكتشف الإنجليز أنهم يستطيعون زراعة القطن المصرى طويل التيلة فى السودان فأنشئوا شركة الجزيرة ، وهى شركة بريطانية صرفة وضعت يدها على كل منطقة الجزيرة بين النيلين ، ووضعت هذه الشركة يدها على مليون فدان من الأرض يسكنها ٤٠٠٠٠٠ من السودانيين تحولوا جميعا الى عمال سخرة فى خدمة الشركة الإنجليزية ، وجدير بالذكر أن الذين قاموا بكل مشروعات الرى فى السودان كانوا من المهندسين المصريين ، وامتدت زراعة القطن بالسودان حتى طوكر فى خور بركة ، وفى سنة ١٩٢٢ م أنشئت مزارع أخرى للقطن فى خور الجاش إلى جوار كسلا ، ومد خط حديدى إلى البحر الأحمر لتصدير القطن ، ومعظم الأموال التى أنفقت فى هذه المشروعات كانت من الخزانة المصرية ، وأقام الإنجليز بالسودان مشروعات رى لا تخدم إلا الإنجليز ، وقد احتجت مصر على ذلك لأن المياه التى كانت تستخدم فى رى هذه المزارع كانت تؤخذ من حصة مصر من مياه النيل ، وفى مايو ١٩٢٩ م تقرر إنشاء سد لتنظيم تصريف المياه فى النيل الأزرق هو سد جبل الأولياء الذى أنشىء بأموال مصـــريـــة .

يقظة الوطنية السودانية .

وفى مايو ١٩٢٢ م بدأت فى السودان طلائع القومية السودانية يقودها ضابط سودانى يسمى على عبداللطيف وقبض الإنجليز عليه وسجنوه ، وفى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ م قتل فى القاهرة السير لى ستاك سردار الجيش المصرى ، فبادر الإنجليز إلى عمل من أسوأ أعمال الاستعمار ، ففرضوا على مصر غرامة قدرها نصف مليون جنيه ، وطلبوا إلى الحكومة المصرية سحب كل جنودها من السودان لكى يصبح مستعمرة بريطانية ، وكان يرأس الوزارة المصرية سعد زغلول باشا الذى رفض هذه الشروط واستقال ، وحل محله أحمد زيوار باشا صنيعة الملك والإنجليز فاستجاب لكل ما طلبوه .

وعقب معاهدة ١٩٣٦ م بين مصر وبريطانيا قامت فى السودان حركة وطنية يقودها إسماعيل الأزهرى الذى انتخب رئيسا للمؤتمر العام للخريجين السودانيين ، وفى ذلك الوقت كانت إيطاليا قد احتلت الحبشة بعد إرتريا ، وأجبر السودانيون على الاشتراك فى الحملات التى شنها الإنجليز على الإيطاليين فى الحبشة ، وشدد الإنجليز قبضتهم على السودان ونهبوا أمواله نهبا ، مما أثار ثائرة الوطنيين ، فقامت حركة الختمية تحت قيادة السيد على الميرغنى ، وكانت أسرته معروفة من قديم بالغيرة الوطنية والحماس الدينى والاشتراك مع المصريين للتغلب على الاستعمار البريطانى ، فى حين تزعم السيد عبدالرحمن المهدى ــ وهو ابن للمهدى ولد بعد موته ــ حركة تدعو إلى انفصال السودان عن مصر ، ومن المعروف أن علاقة مصر بالسودان كانت موضوعاً من موضوعات الخلافات المستمرة بين المصريين والإنجليز من أوائل الأربعينات ، ولم تكن مصر تطالب بضمة السودان ، ولكن مطلبها الدائم كان المحافظة على وحدة وادى النيل .

وعندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ فى مصر تغير وجه المطالبة بإعادة وحدة وادى النيل لأن أول رئيس للجمهورية المصرية وهو اللواء محمد نجيب كان نصفه سودانياً ، وبدأت مفاوضات بين مصر والإنجليز لتحديد وضع السودان واتفق الطرفان على أن تقام انتخابات فى السودان تمهيدا لإقامة استفتاء يقرر به أهل السودان مصيرهم بأنفسهم ، وفاز فى الانتخابات إسماعيل الأزهرى الذى كان يمثل اتجاه الوحدة بين قطرى الوادى ، وأيام وزارة إسماعيل الأزهرى ترك الكثيرون من الإنجليز الخدمة فى السودان وتولى مكانهم سودانيون

قيام الجمهورية السودانية .

وكان المصريون والإنجليز قد اتفقوا على أن يقام استفتاء فى السودان يقرر فيه أهل السودان ما إذا كانوا يريدون الانضمام إلى مصر أو الاستقلال ببلدهم ، وأقيم الاستفتاء واختار السودانيون الاستقلال ، واعترفت مصر بجمهورية السودان ، ثم أقيمت انتخابات فى مارس سنة ١٩٥٨ م وكسبها حزب الأمة الذى يرأسه عبدالله خليل ، وبقيام جمهورية السودان المستقلة نقف بالكلام عما يتصل بالسودان فى هذا الأطلس .

المراجع

ابـن خلـدون — كتاب العبر جـ ٥ ص ٩٢٢ . (من طبعة بيروت بدون تاريخ) .

المقريـزى — الخطط طبعة جاستون فييت جـ ٣ (باريس ١٩٢٢ م ص ٢٦٣ ، ٢٦٤) .

عبد الجليل الشاطر بصيلى — مخطوطة كتاب الشونة فى تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية . القاهرة ١٩٦٣ م .

المكـى شبيكـة — تاريخ السودان . (الخرطوم ١٩٤٧ م) .

محمد إبراهيم أبو سليم — الفتح والأرض (وثائق تمليك الخرطوم ١٩٦٧م) .

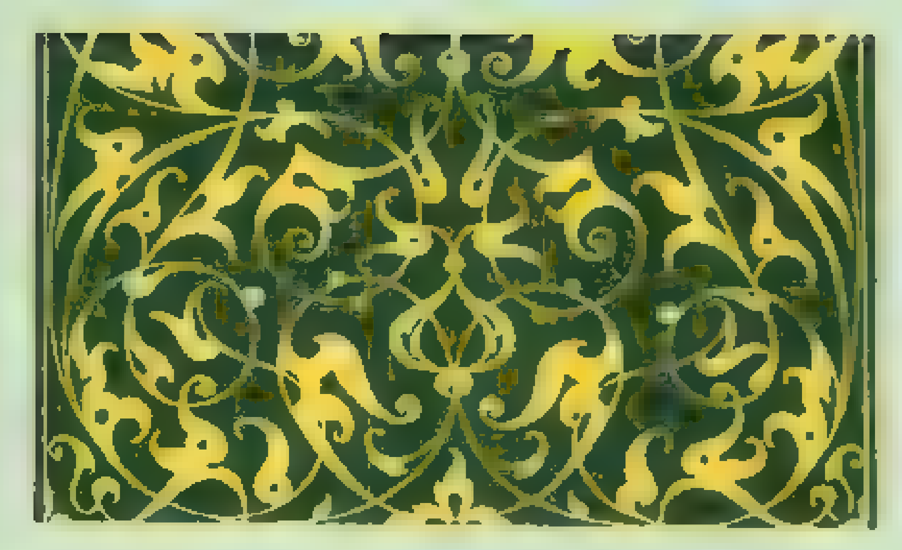

الفصل السابع عشر

الدولة العثمانية

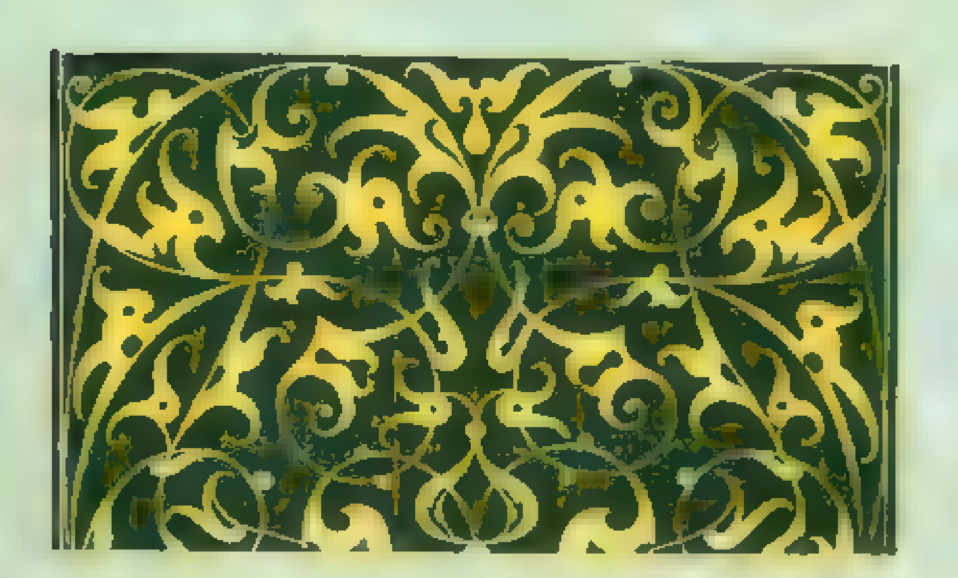

بيان الخرائط

ملحوظة

١ – وردت الخريطة ١٦٣ بعد الخريطة ١٦٥ لاعتبارات فنية

٢ – وردت الخريطة ١٧٠ بعد الخريطة ١٧٣ لاعتبارات فنية

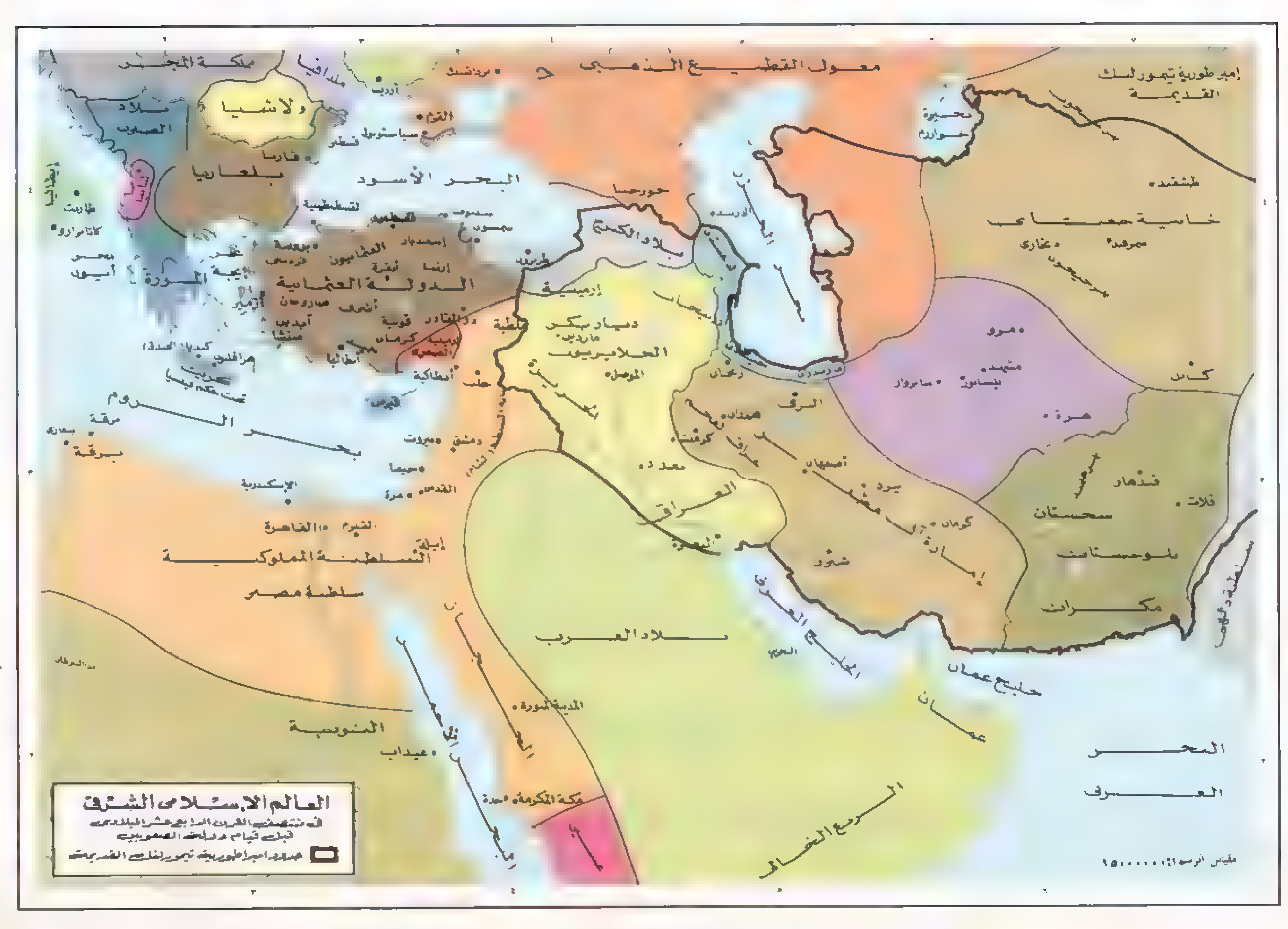
العالم الإسلامي الشرقي
في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي
قبل قيام دولة الصفويين
حدود امبراطورية تيمورلنك القديمة
مغول القطيع الذهبي
امبراطورية تيمورلنك القديمة
مملكة المجر
ولاشيا
بلاد الصرب
بلغاريا
البحر الأسود
القسطنطينية
الدولة العثمانية
بلاد الكرج
خوارزم
بحيرة خوارزم
سمرقند
بخارى
خراسان
مرو
هراة
قندهار
سجستان
بلوچستان
مكران
كابل
قلات
بحر الروم
برقة
الإسكندرية
القاهرة
السلطنة المملوكية
سلطنة مصر
النوبة
عيذاب
بلاد العرب
المدينة المنورة
مكة المكرمة
جدة
عمان
خليج عمان
الخليج العربي
الربع الخالي
البحر العربي
العراق
ديار بكر
حلب
أنطاكية
دمشق
بيروت
القدس
غزة
الموصل
بغداد
أصفهان
الري
شيراز
كرمان
يزد
قبرص
أرمينية
أذربيجان

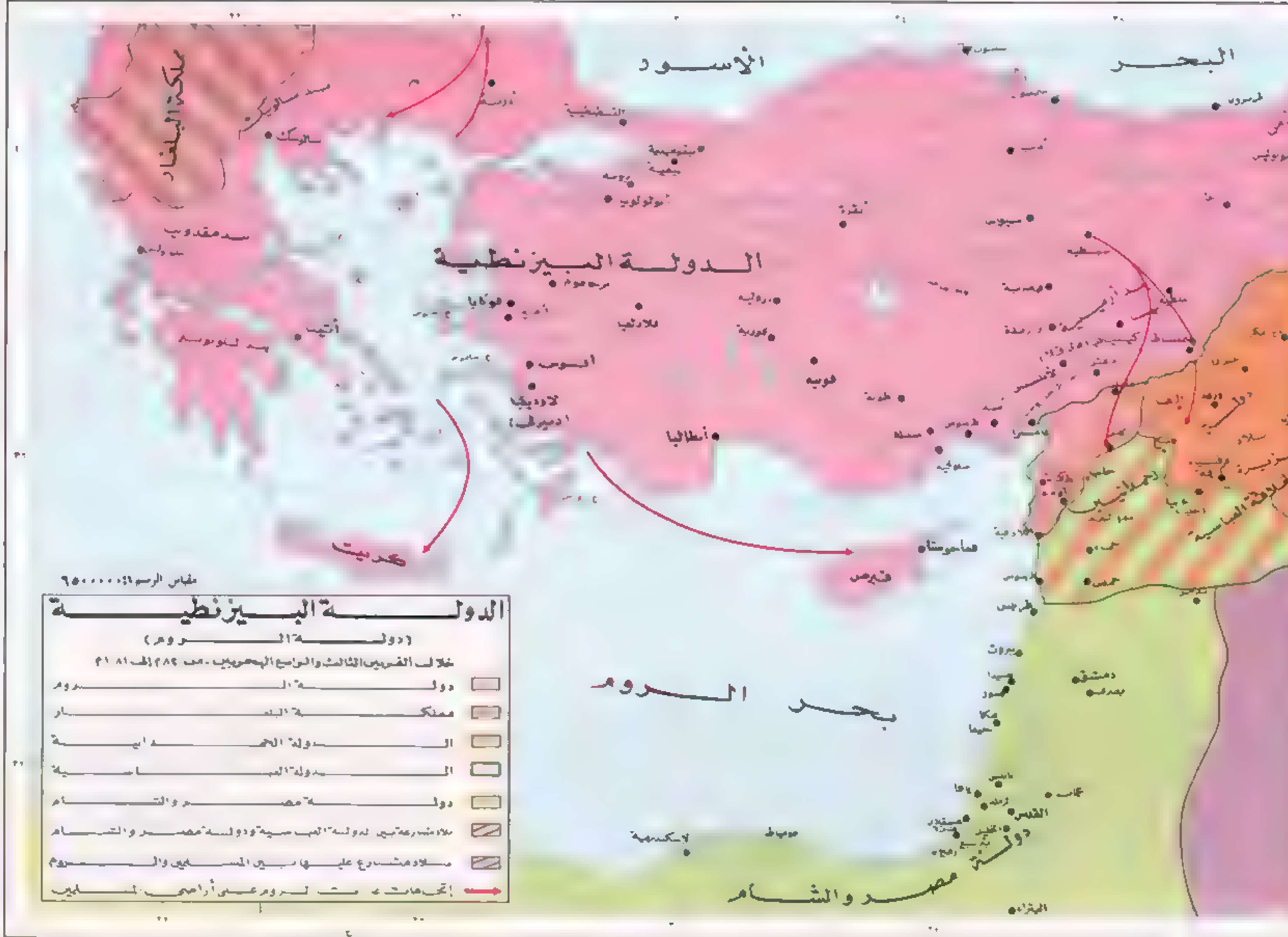
الدولة البيزنطية
(دولة الروم)
دولة الروم
مملكة البلغار
الدولة الحمدانية
الدولة العباسية
دولة مصر والشام
بلاد متنازع عليها بين المسلمين والروم
البحر الأسود
الدولة البيزنطية
بحر الروم
دولة مصر والشام
مملكة البلغار
أنطاليا
قبرص
كريت
أثينا
دمشق
بيروت
القدس
الإسكندرية

ميلاد الدولة العثمانية وتوسعها

حتى نهاية حكم سليم الأول سنة ١٥٢٠م

الدولة العثمانية سنة ١٣٢٦م	المناطق المرتبطة بالتبعية للدولة العثمانية
الدولة العثمانية من سنة ١٣٢٦-١٤٥١م	خط سير الأتراك من موطنهم الأصلي ثم سير فتوحاتهم إلى أيام عثمان
الدولة العثمانية من سنة ١٤٥١-١٤٨١م	خط سير حملات أورخان ومراد الأول وبايزيد في آسيا الصغرى
الدولة العثمانية من سنة ١٤٨١-١٥٢٠م	خط سير تيمورلنك إلى آسيا الصغرى ومعركة قونية ثم سيره إلى أذربيجان
	فتوح سليم الأول للشام ومصر.

بولندا
جديسان
مولداڤيا
البغدان
١٥١٢م
المجر
بودابست
البشناق
القرم
ولاشيا
الأفلاق
١٣٩٣م
سباستبول
البوسنة
دوبروجة
نيقوبولس
كوسوفا
موريا
مونتنجرو
١٤٥١م
الصرب
بلاد البلغار
فارنا
الأسود
إيطاليا
طارنط
أدرنة
تراقيا
إستانبول
قسطمونى
جاليبولي
توقات
كوتاهية
نيقية
أنقرة
أزمير
قرمان
قونية
أثينا
ساموس
صاروخان
المورة
أيدين
رودوس
كريت
قبرص
بحر الروم
برقة
الإسكندرية
رشيد
دمياط
غزة
القاهرة
القلزم
مصر

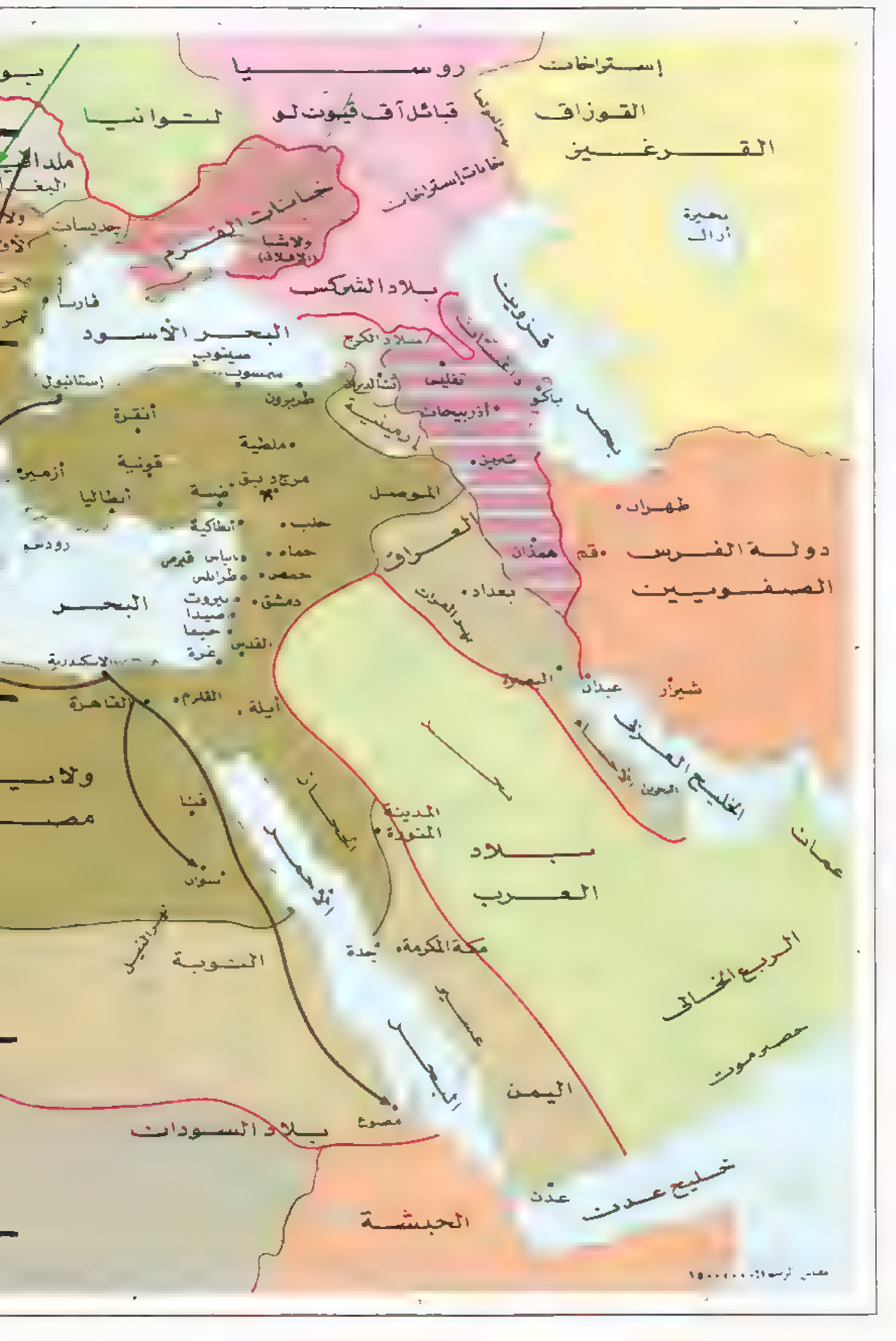
روسيا
إستراخان
القوزاق
القرغيز
لتوانيا
خانات إستراخان
بحيرة آرال
خانات القرم
ولاشيا (الأفلاق)
بلاد الشركس
البحر الأسود
فارنا
سينوب
سمسون
إستانبول
طربزون
أنقرة
ملطية
قونية
أزمير
أنطاليا
مرج دابق
بلاد الكرج
تفليس
أرمينية
أذربيجان
باكو
قزوين
تبريز
الموصل
العراق
طهران
همذان
قم
دولة الفرس الصفويين
بغداد
حلب
أنطاكية
حماه
حمص
طرابلس
بيروت
دمشق
صيدا
حيفا
القدس
غزة
قبرص
رودس
البحر
الإسكندرية
القاهرة
القلزم
أيلة
قنا
أسوان
النوبة
البصرة
عبادان
شيراز
الخليج العربي
الأحساء
البحرين
عمان
المدينة المنورة
بلاد العرب
مكة المكرمة
جدة
الربع الخالي
حضرموت
عسير
اليمن
عدن
خليج عدن
مصوع
بلاد السودان
الحبشة

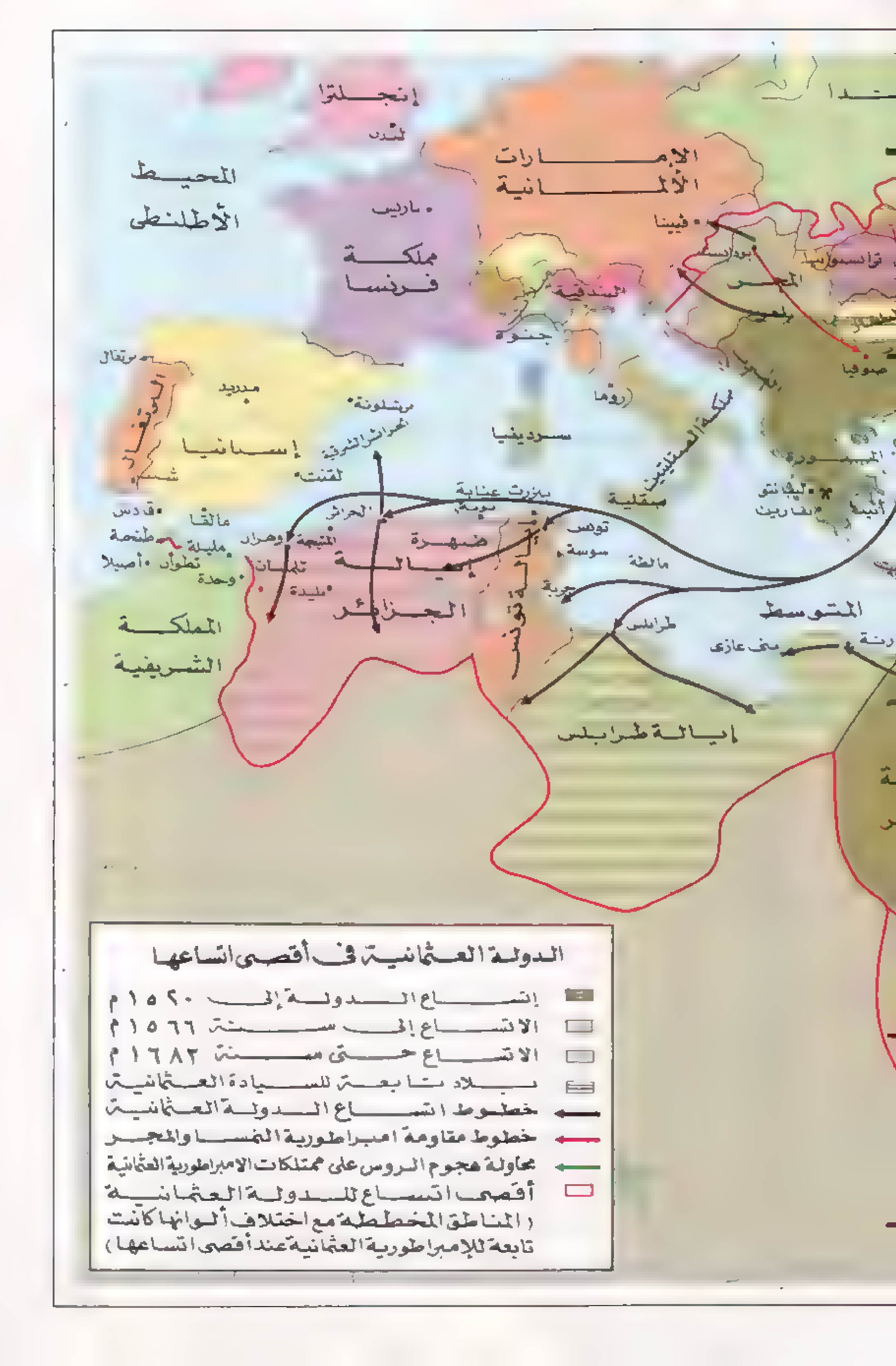

إنجلترا
لندن
المحيط الأطلنطى
الإمارات الألمانية
باريس
مملكة فرنسا
فيينا
البندقية
جنوة
البرتغال
مدريد
برشلونة
إسبانيا
لقنت
قادس
مالقا
طنجة
مليلة
تطوان
أصيلا
وجدة
وهران
تلمسان
مليدة
الجزائر
عنابة
بونة
بنزرت
ضهرة
إيالة الجزائر
المملكة الشريفية
روما
سردينيا
صقلية
تونس
سوسة
مالطة
جربة
طرابلس
المتوسط
إيالة طرابلس
ترانسلفانيا
المجر
صوفيا
المورة
ليبانتو
نفارين
أثينا
الدولة العثمانية فى أقصى اتساعها
إتساع الدولة إلى ١٥٢٠ م
الاتساع إلى سنة ١٥٦٦ م
الاتساع حتى سنة ١٦٨٣ م
بلاد تابعة للسيادة العثمانية
خطوط اتساع الدولة العثمانية
خطوط مقاومة امبراطورية النمسا والمجر
محاولة هجوم الروس على ممتلكات الامبراطورية العثمانية
أقصى اتساع للدولة العثمانية
(المناطق المخططة مع اختلاف ألوانها كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية عند أقصى اتساعها)

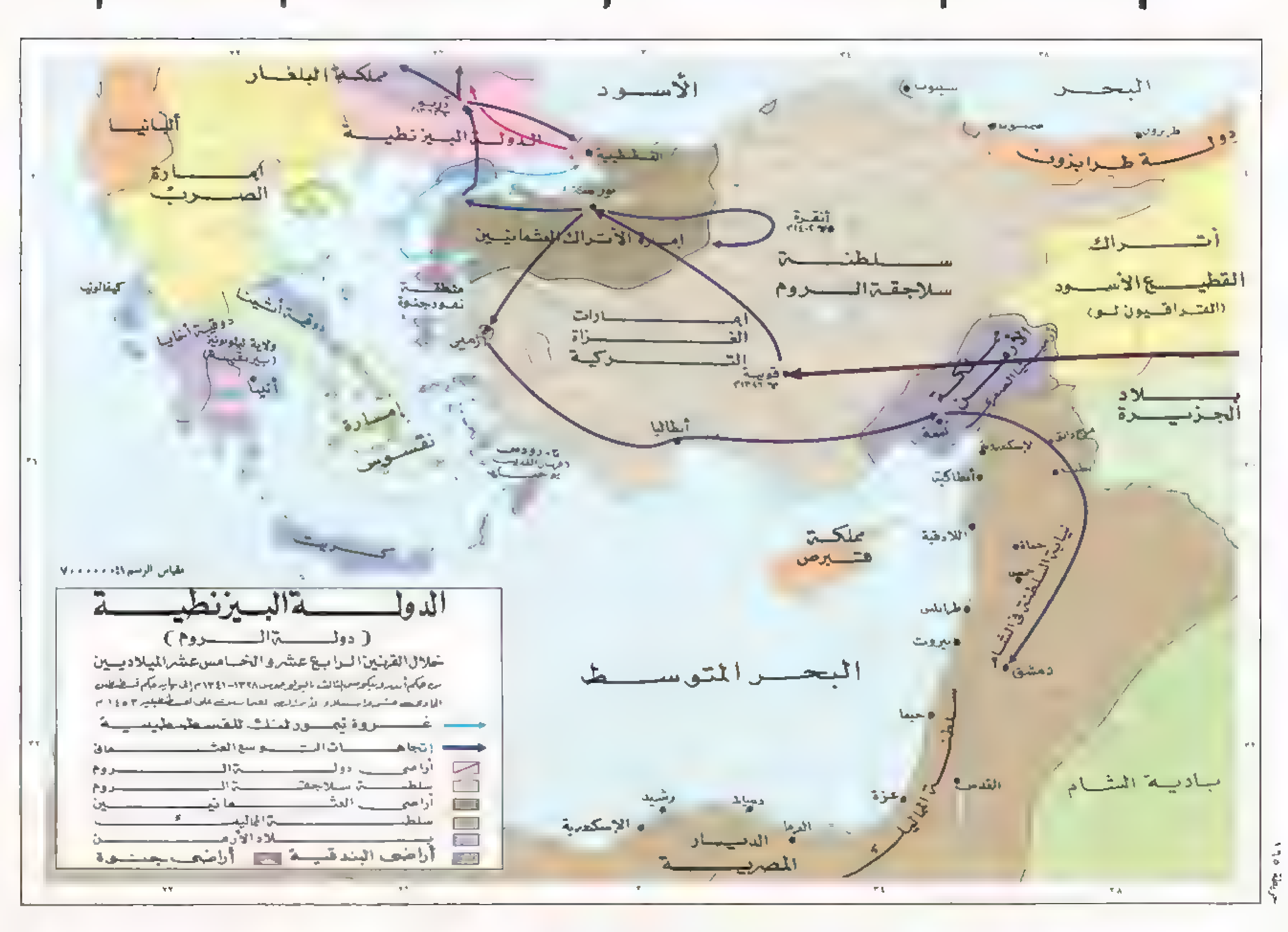
الدولة البيزنطية
(دولة الروم)
خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين
غزوة تيمورلنك للقسطنطينية
إتجاهات التوسع العثماني
أراضي دولة الروم
سلطنة سلاجقة الروم
أراضي العثمانيين
سلطنة المماليك
بلاد الأرمن
أراضي البندقية
أراضي جنوة
البحر الأسود
البحر المتوسط
مملكة البلغار
ألبانيا
إمارة الصرب
الدولة البيزنطية
القسطنطينية
إمارة الأتراك العثمانيين
سلطنة سلاجقة الروم
إمارات الغزاة التركية
دولة طرابزون
أتراك القطيع الأسود
بلاد الجزيرة
بادية الشام
مملكة قبرص
الديار المصرية
إمارة نقسوس
دوقية أثينا
دوقية أخايا
أثينا
أنطاليا
قونية
أنقرة
أزمير
سينوب
طرابزون
أنطاكية
اللاذقية
طرابلس
بيروت
دمشق
حيفا
القدس
غزة
دمياط
رشيد
الإسكندرية
الفرما

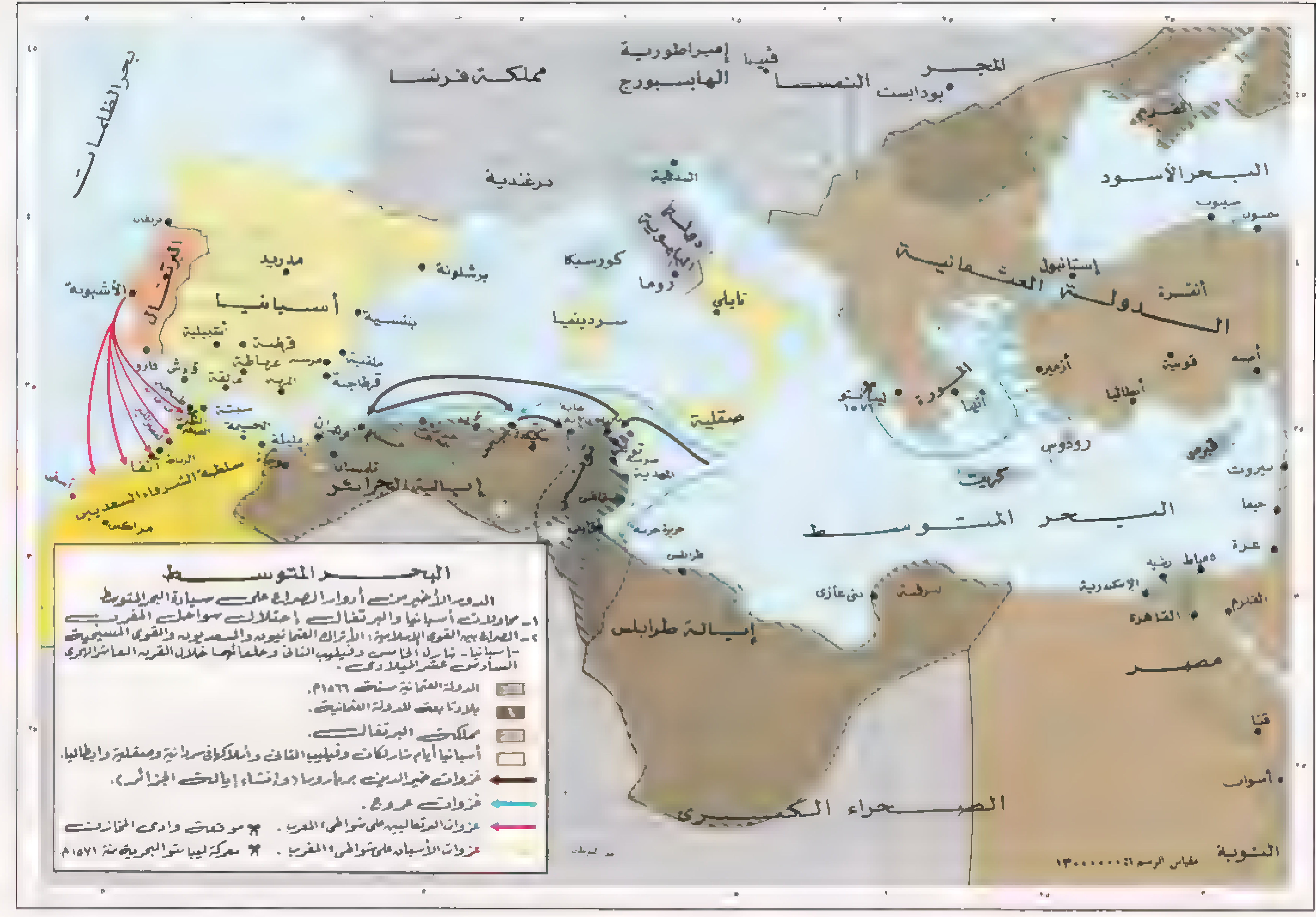
البحر المتوسط
الدور الأخير من أدوار الصراع على سيادة البحر المتوسط
١- محاولات أسبانيا والبرتغال احتلال سواحل المغرب
٢- الصراع بين القوى الإسلامية: الأتراك العثمانيون والسعديون والقوى المسيحية -أسبانيا- شارل الخامس وفيليب الثاني وخلفائهما خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي.
الدولة العثمانية سنة ١٥٦٦م.
بلاد تابعة للدولة العثمانية.
مملكة البرتغال.
أسبانيا أيام شارلكان وفيليب الثاني وأملاكها في سردانية وصقلية وإيطاليا.
غزوات خير الدين بربروسا (وإنشاء إيالة الجزائر).
غزوات عروج.
غزوات البرتغاليين على شواطئ المغرب.
غزوات الأسبان على شواطئ المغرب.
موقعة وادي المخازن
معركة ليبانتو البحرية سنة ١٥٧١م
مقياس الرسم ١: ١٣٠٠٠٠٠٠
مملكة فرنسا
إمبراطورية الهابسبورج
فيينا
النمسا
المجر
بودابست
البحر الأسود
القرم
درغندية
البندقية
دولة البابوية
روما
كورسيكا
سردينيا
نابلي
صقلية
مدريد
برشلونة
أسبانيا
بنسية
قرطبة
أشبيلية
غرناطة
مرسية
ملقة
المرية
قرطاجنة
البرتغال
الأشبونة
بحر الظلمات
سبتة
طنجة
مليلة
وهران
تلمسان
إيالة الجزائر
الجزائر
بجاية
عنابة
تونس
سوسة
المهدية
صفاقس
جربة
طرابلس
إيالة طرابلس
برقة
بنغازي
سلطنة الشرفاء السعديين
مراكش
الصحراء الكبرى
البحر المتوسط
الدولة العثمانية
إستانبول
أنقرة
أزمير
قونية
أطاليا
المورة
أثينا
ليبانتو ١٥٧١
رودوس
كريت
قبرص
بيروت
جبلا
عكا
رشيد
دمياط
الإسكندرية
القاهرة
مصر
قنا
أسوان
النوبة

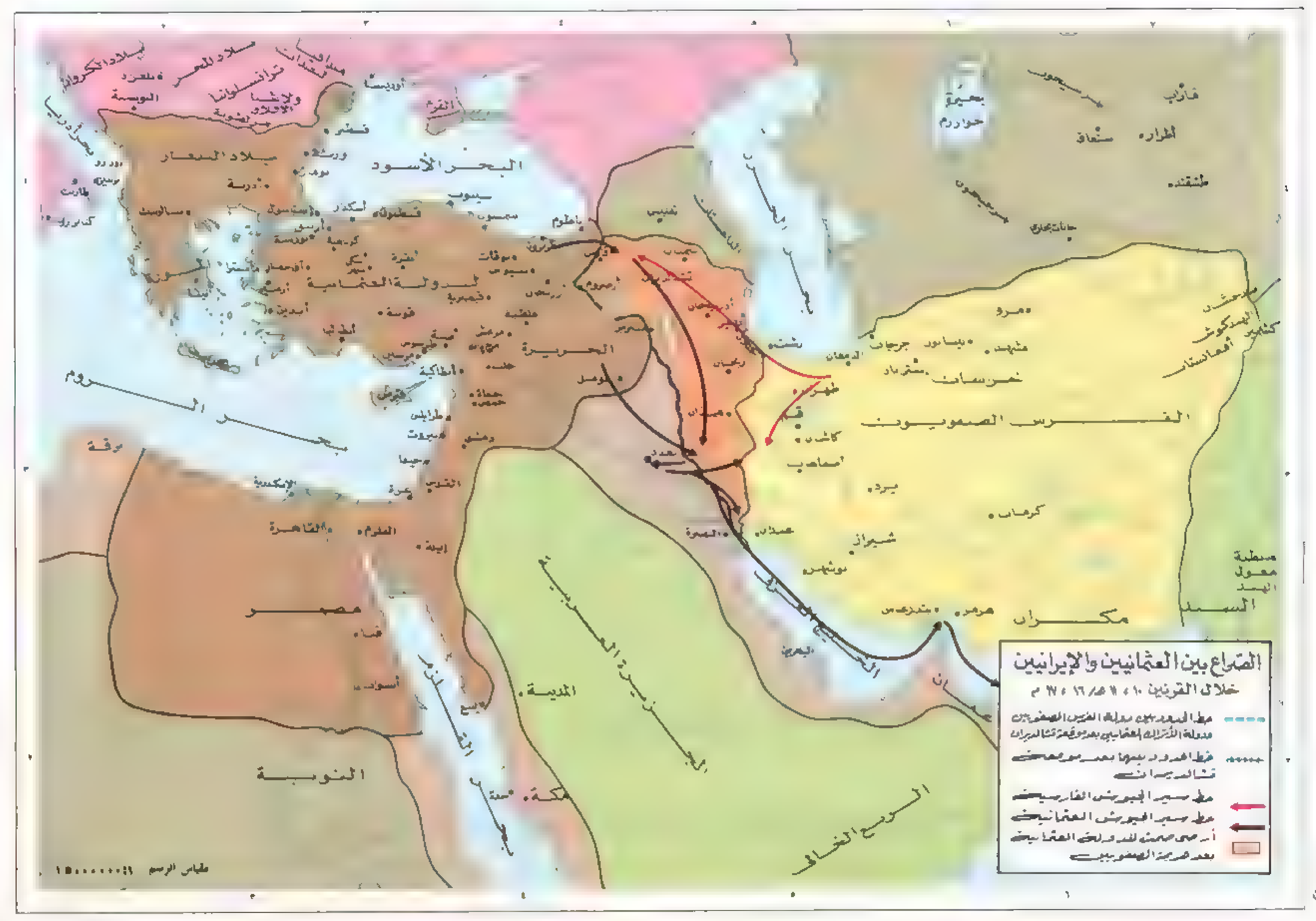
الصراع بين العثمانيين والإيرانيين
خلال القرنين ١٠ و ١١ هـ/ ١٦ و ١٧ م
خط سير الجيوش الفارسية
خط سير الجيوش العثمانية
البحر الأسود
الدولة العثمانية
الفرس الصفويون
خرسان
مكران
السند
الجزيرة العربية
الربع الخالي
مصر
النوبة
القاهرة
المدينة
مكة
البحر الروم
بلاد الصقالبة
برقة
حلب
بغداد
البصرة
تبريز
قم
كاشان
أصفهان
يزد
كرمان
شيراز
هرمز
مشهد
مرو
خوارزم

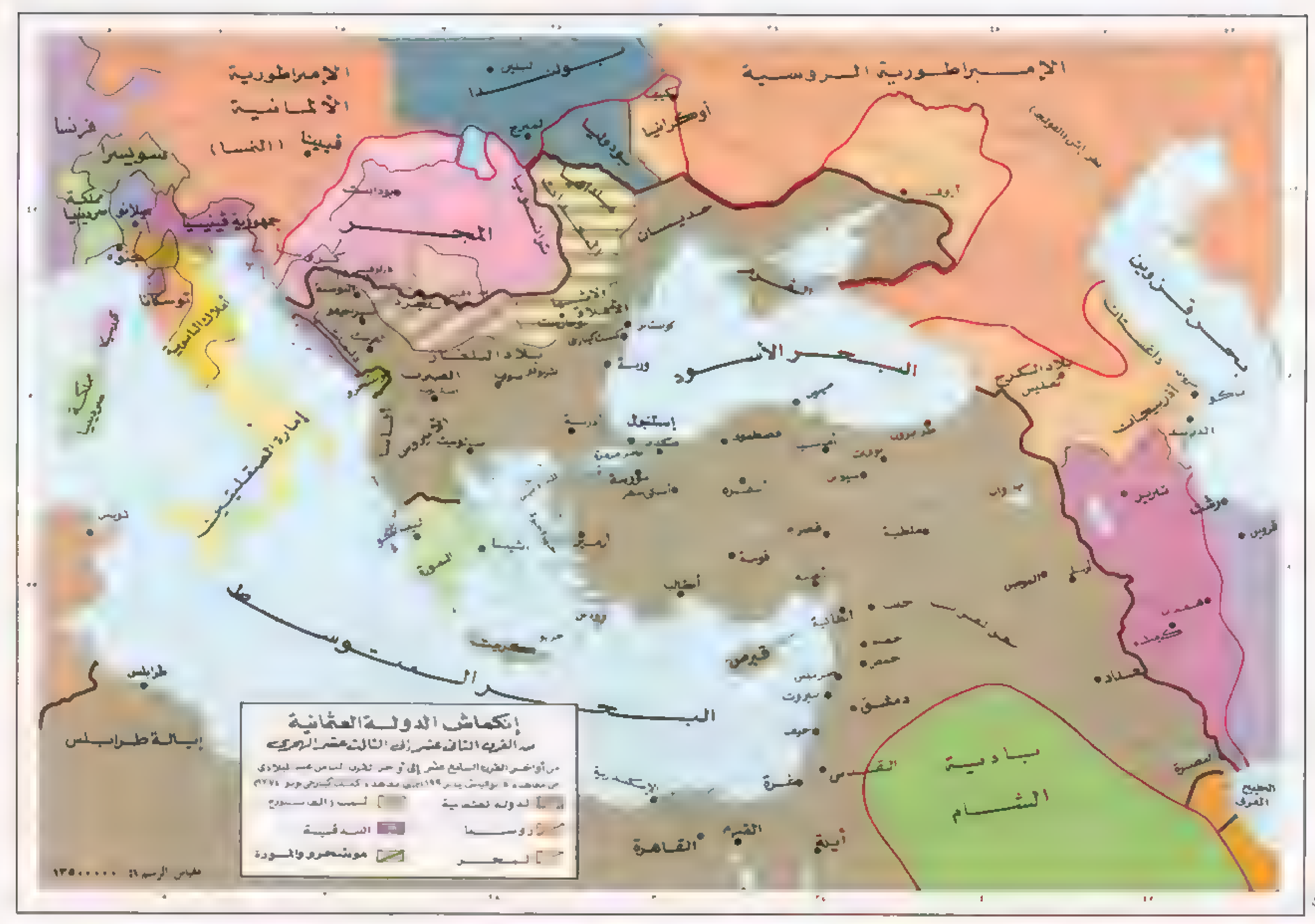

إنكماش الدولة العثمانية
الإمبراطورية الروسية
الإمبراطورية الألمانية
فيينا (النمسا)
فرنسا
سويسرا
جمهورية فينيسيا
بولندا
أوكرانيا
المجر
البحر الأسود
البحر المتوسط
بحر قزوين
إستنبول
قبرص
بادية الشام
القاهرة
القدس
دمشق
بغداد
تبريز
إيالة طرابلس
طرابلس
بلاد البلغار
أذربيجان
داغستان
الخليج العربي
الدولة العثمانية
روسيا
المجر
الصفوية
مونتنجرو والمورة

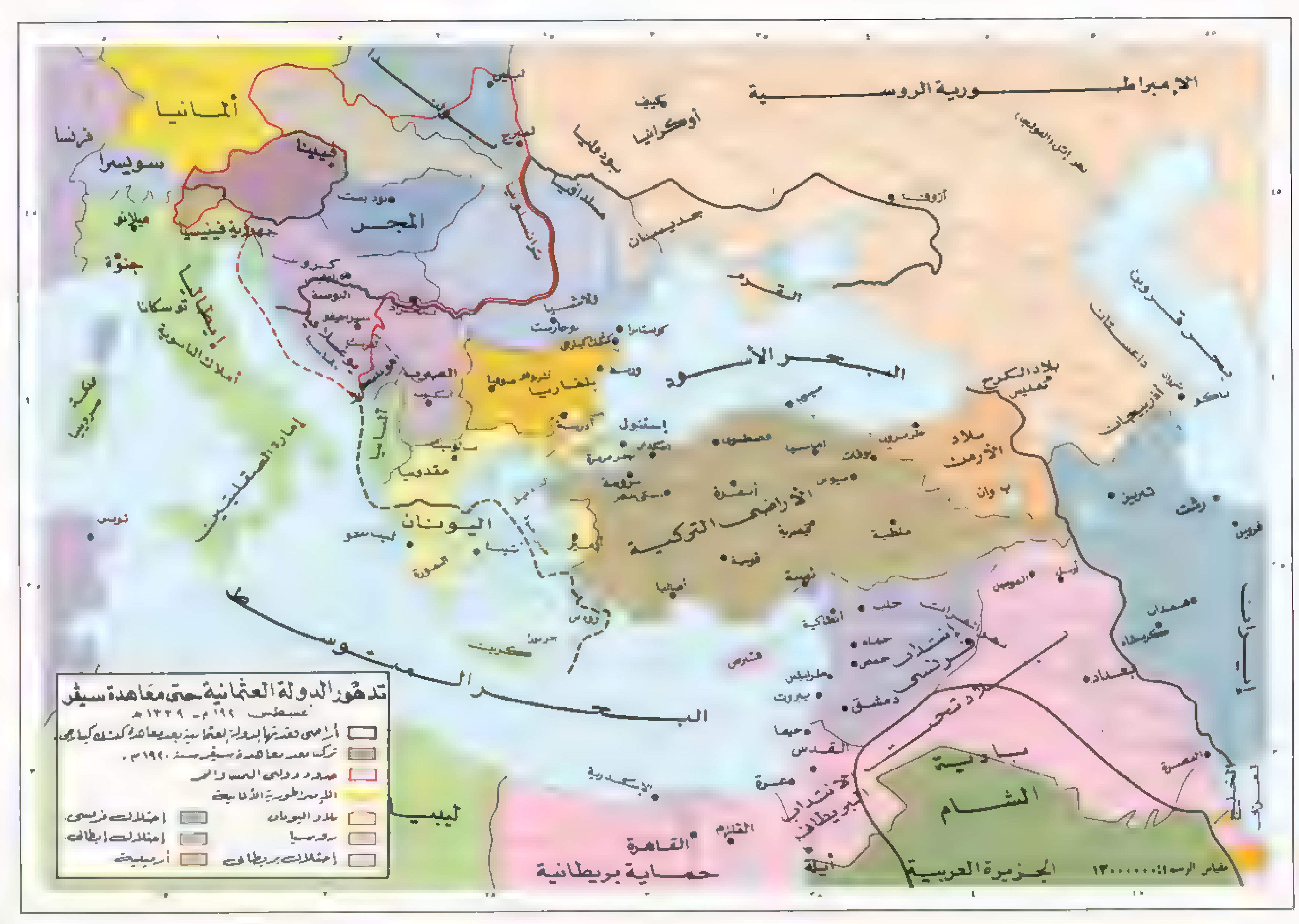
تدهور الدولة العثمانية حتى معاهدة سيفر
تركيا بعد معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠ م.
حدود دولتي النمسا والمجر
الإمبراطورية الألمانية
بلاد اليونان
روسيا
احتلالات بريطانية
احتلالات فرنسية
احتلالات إيطالية
أرمينية
الإمبراطورية الروسية
أوكرانيا
كييف
بودوليا
بحر إتل (الفولجا)
أزوف
القرم
بحر قزوين
داغستان
باكو
أذربيجان
تفليس
بلاد الكرج
بلاد الأرمن
وان
تبريز
رشت
قزوين
إيران
همدان
كرمنشاه
بغداد
البصرة
الموصل
أربيل
ألمانيا
فرنسا
سويسرا
فيينا
بودابست
المجر
ترانسلفانيا
ميلانو
جنوة
جمهورية فينيسيا
إيطاليا
توسكانا
أملاك البابوية
إمارة الصقليتين
البوسنة
الصرب
ألبانيا
مقدونيا
بلغاريا
فارنا
استنبول
البحر الأسود
سينوب
طرابزون
سيواس
أنقرة
الأراضي التركية
قونية
ملطية
أضاليا
حلب
أنطاكية
حماه
حمص
دمشق
انتداب فرنسي
بيروت
طرابلس
قبرص
القدس
حيفا
غزة
انتداب بريطاني
بادية الشام
الجزيرة العربية
العقبة
الإسكندرية
القاهرة
حماية بريطانية
ليبيا
اليونان
كريت
رودس
تونس
البحر المتوسط
مقياس الرسم ١ : ١٣٠٠٠٠٠٠

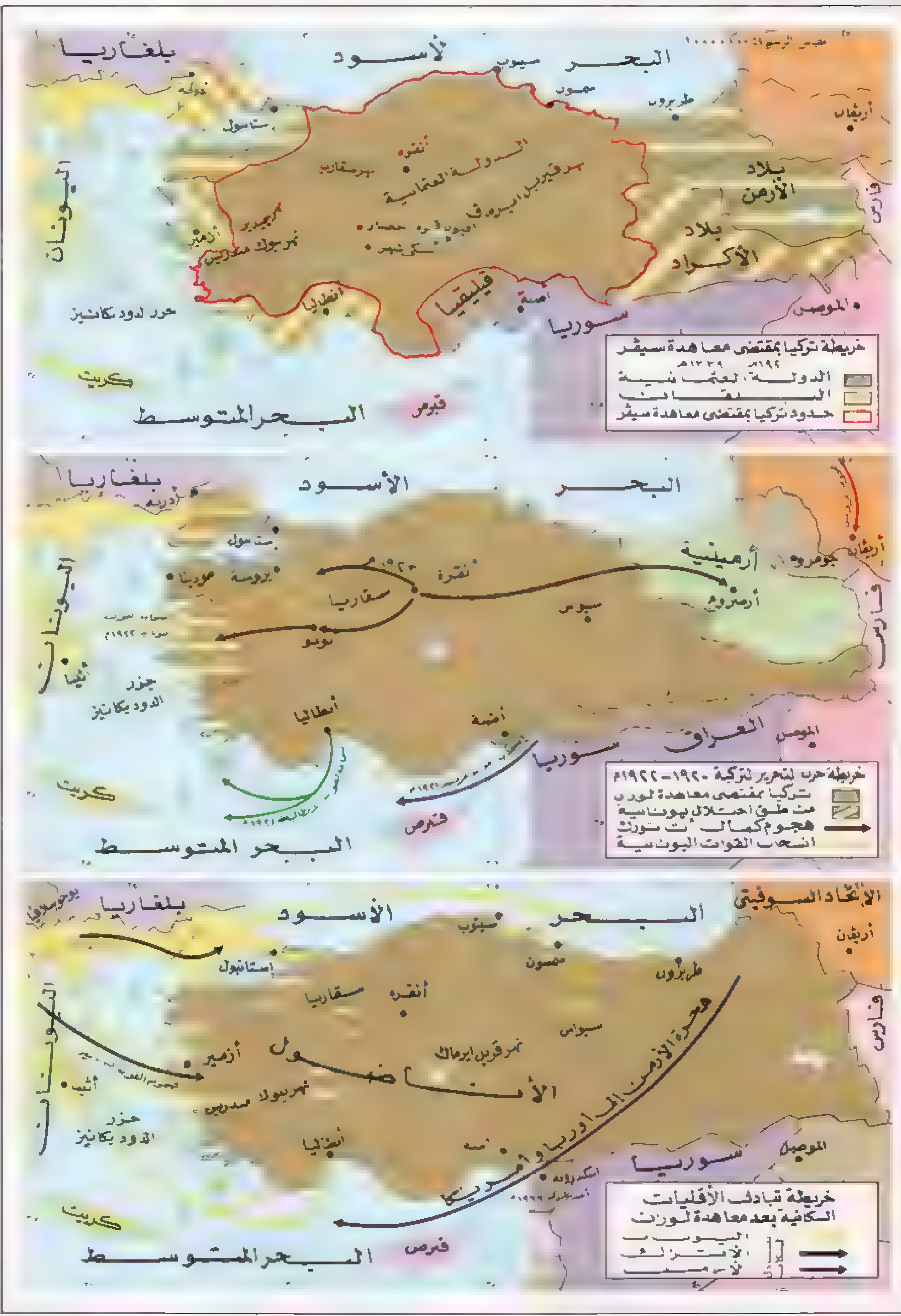
خريطة تركيا بمقتضى معاهدة سيفر
الدولة العثمانية
حدود تركيا بمقتضى معاهدة سيفر
البحر الأسود
البحر المتوسط
بلغاريا
اليونان
سوريا
بلاد الأرمن
بلاد الأكراد
قيليقيا
الدولة العثمانية
أنقرة
سينوب
طربزون
أرزميد
أنطاليا
أضنة
الموصل
كريت
قبرص
خريطة حرب التحرير لتركيا ١٩٢٠–١٩٢٢م
تركيا بمقتضى معاهدة لوزان
مناطق احتلال يونانية
هجوم كمال أتاتورك
انسحاب القوات اليونانية
أرمينية
أرضروم
سيواس
سقاريا
أنقرة
بروسة
أنطاليا
أضنة
العراق
سوريا
قبرص
كريت
جزر الدوديكانيز
خريطة تبادل الأقليات السكانية بعد معاهدة لوزان
الاتحاد السوفيتي
بلغاريا
يوغوسلافيا
الأناضول
إستانبول
أزمير
أثينا
سينوب
طربزون
سيواس
أنقرة
سقاريا
نهر قزيل ايرماك
نهر بويوك مندريس
أنطاليا
الموصل
سوريا
فارس
قبرص
كريت
هجرة الأرمن إلى أوربا وأمريكا
البحر الأسود
البحر المتوسط

روسيا
البحر
سينوب
تفليس
طربزون
أذربيجان
دولة ارمينية
قيصرية
ملطية
تبريز
دياربكر
دولة الأكراد
كردستان
أضنة
الإسكندرونة
حلب
الموصل
كركوك
أنطاكية
اللاذقية
حماه
حمص
سوريا
العراق
طرابلس
بغداد
بيروت
صيدا
دمشق
كربلاء
عكا
حيفا
نابلس
عمان
القدس
فلسطين
الأردن
الجزيرة العربية

بلغاريا
أدرنة
سالونيك
إستانبول
بورصة
أنقرة
اليونان
بحر إيجة
أزمير
أثينا
قونية
أنطاليا
الدوديكانيز
رودس
كريت
المتوسط
البحر
رشيد
الإسكندرية
دمياط
القاهرة
مصر
خريطة تركيا بعد الاحتلال الأجنبي
ومعاهدة صلح سيفر ١٣٣٩هـ - ١٩٢٠م ولوزان ١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م
الاحتلال اليوناني في أزمير وتركيا الأوربية.
الاحتلال الفرنسي في قيليقيا وسوريا وكردستان ولواء الإسكندرونة (انضم لواء الإسكندرونة إلى تركيا سنة ١٩٣٩م)
الاحتلال الإيطالي لمنطقة أنطاليا وما حولها.
دولة الأكراد كما رسمها الحلفاء.
دولة أرمينية كما رسمها الحلفاء.
حدود الدولة التركية بعد معاهدة الصلح في لوزان ١٣٤٣هـ - ١٩٢٣م (أنظر الخريطة التالية).
الاحتلال التركي للواء الإسكندرونة وما حولها ١٩٣٩م
أراضي تحت الاحتلال الإنجليزي.

الدولة العثمانية

خريطة ١٦١
العالم الإسلامى الشرقى فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى قبل قيام دولة الصفويين
خريطة ١٦٢
الدولة البيزنطية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين
خريطة ١٦٣
الدولة البيزنطية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين

ظهور الأتراك العثمانيين ومواطنهم الأولى

نعتمد فى هذه الدراسة الموجزة لتاريخ الدولة العثمانية على آخر ما انتهى إليه المؤرخ العلامة التركى فؤاد كوبريلو فى أصل الأتراك العثمانيين والتطورات الأولى لدولتهم ، وهو يختلف فى أساسياته عما درج الناس على الأخذ به فى هذا الموضوع من الاعتماد على دراسات جيبونز عن تأسيس الدولة العثمانية

Gibbons, Foundation of the Ottoman Empire.london 1916

وكذلك أقوال أعلام مؤرخى هذه الدولة من أمثال يورجا وهامر بورجستال ومن إليهما متقول إن الأتراك المعروفين بالعثمانيين ينحدرون من قبيلة قايى وهى إحدى قبائل الأتراك الغزية التى كانت تسكن شمال بحر قزوين الذى كان يسمى بحر الخزر ، وكانوا يعيشون داخل حدود بلاد الإسلام عندما أخذ المغول يندفعون إلى الغرب بقيادة جنكيز خان على ماذكرناه آنفا ، وعندما احتل المغول بلاد التركستان وهضبة إيران فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى انسحب الأتراك أمامهم وفى جملتهم قبيلة قايى وكان يرأسها قائد يسمى سليمان شاه ، ويقال إن سليمان شاه انضم إلى جلال الدين منكبرتى ابن خوارزم شاه ، وقد ذكرنا أن جلال الدين هذا قد انهزم أمام المغول ، ونتيجة لذلك اتجه سليمان شاه بقبيلته إلى بلاد كردستان ومنها انتقلوا إلى أذربيجان على الحدود الشرقية لآسيا الصغرى ، وهناك استقروا ، إذ وجدوا بلادا كثيرة المياه واسعة المراعى وإن كانت جبلية فى غالب أرضها ، وفى هذا الموطن استقر سليمان شاه بمن معه من الأتراك وتكاثروا حتى ليقال إنهم صاروا فى سنوات قليلة بضعة آلاف بعد أن كانوا بضع مئات فحسب ، وقد حاول سليمان شاه بعد انقشاع الخطر المغولى أن يدخل بلاد الشام ولكنه مات غرقا فى نهر عند حلب وخلفه ابنه أورخان ..

وأورخان هذا هو أبو الأتراك العثمانيين ، وهم ينسبون إلى عثمان ابن أخيه أرطغرل ، وقد اتجه أورخان بمن معه فى آسيا الصغرى باحثا عن موضع يسع لقبيلته التى زادت أعدادها زيادة كبيرة ودخلت بلاد دولة سلاجقة الروم ، وكان سلطانهم إذ ذاك علاء الدين ابن كيقباد ، وكانت دولتهم كبيرة وكانت عاصمتها قونية فى وسط آسيا الصغرى .

وكان الصراع شديدا بين سلاجقة الروم والبيزنطيين فانضم إليهم أورخان ثم خلفه أرطغرل .

دول الغزاة فى آسيا الصغرى .

وكان لأرطغرل ابن يسمى عثمان وكان فارساً باسلاً تمكن من الاستيلاء على قلعتى قرجة حصار وإسكيشهر وماحولهما من بقايا الدولة البيزنطية فى وسط آسيا الصغرى فكافأه علاء الدين الثالث السلجوقى بأن رفعه إلى مرتبة الأمراء ، وأرسل له لواء أبيض وطبلا وكوسات وكانت تلك من شارات الأمراء .

واستمر عثمان ورجاله يتقدمون فى أراضى الدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى فى اتجاه البحر الأسود ، وعندما عاد المغول بقيادة غازان خان نحو آسيا الصغرى سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩م خاف منه علاء الدين الثالث واستغاث بالإمبراطور البيزنطى فغدر به هذا وقتله ، ونتيجة لذلك استقل عثمان بإمارته واعتبر نفسه وارثا لملك سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى وقائما بجهاد البيزنطيين ، ووصل فى حربه مع البيزنطيين إلى غربى آسيا الصغرى ، وهناك استقر بمن معه من قومه فى مواجهة البيزنطيين ، وتحول إلى مجاهد دينى بفضل شيخ من مشايخ الطرق الصوفية هو الشيخ أوديبالى الذى زوجه ابنته ولقبه بالغازى ، ثم يلقب بعد شاه آل عثمان ، وأوصاه أن يهب نفسه للجهاد فى سبيل الله فى أراضى الروم ، ومازال عثمان فى تقدمه حتى بلغ مدينة بروسة على بحر مرمرة ، ودخل فى دولته الكثيرون من الروم البيزنطيين الذين كانوا يسكنون فى هذه النواحى وأسلموا ، وتكونت منهم ومن أولادهم طبقة من الموظفين الإداريين ، ومات عثمان سنة ١٣٢٦ م بعد أن ترك دولة قوية منظمة تنظيما إداريا حسنا ، وخلفه ابنه أورخان (١٣٢٦ – ١٣٦٢م) الذى استولى على بروسة ونقل إليها عاصمته ، ثم استولى على نيقية وهى إزنيق سنة ١٣٣١م ونيقوميديه (إزميت) سنة ١٣٣٧م وأصبحت دولتهم – بعد أن استولت على إمارة صغيرة من إمارات آسيا الصغرى تسمى قره سى فيما بين سنتى ١٣٣٥ و ١٣٤٥م – صاحبة الركن الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ، وتسامع الأتراك فى بقية نواحى آسيا الصغرى بقيام هذه الدولة فتدافعوا نحوها واستقروا فى أراضيها ، وزاد سكان أهلها ، وكان فى العثمانيين ميل إلى التنظيم وحسن الإدارة فبدءوا ينشئون قوات مدربة تدريبا عاليا للقيام بأعمال الغزو .

وكانت دولة السلاجقة فى آسيا الصغرى وعاصمتها نيقية قد ضعفت تماماً وظهرت مكانها إمارات صغيرة من الأتراك الذين تكاثروا فى آسيا الصغرى ، وأصبحوا أهلها الأصليين بعد أن قضوا على من كان قد بقى فيها من الروم النصارى

وفى أثناء ذلك كانت دولة الأتراك العثمانيين تتحول إلى دولة مجاهدة بصورة واضحة جدا ، وذلك بسبب تكاثر جماعات الجهاد الإسلامية فيها مثل جماعة غازيان روم ، أى غزاة الروم ، وهم جماعة قديمة وجدت على الحدود بين دولة الإسلام ودولة الروم منذ العصر العباسى ، ولكنها تطورت الآن إلى جماعة دينية محاربة منظمة ، وانتقل مركزها وقيادتها إلى أراضى الدولة العثمانية وتبناها رؤساء قبيلة آل عثمان ، وحملوا لقب الغازى كما قلنا ، وتكاثر عددهم وصار لهم مركز كبير فى الدولة .

ومن هذه الجماعات أيضا جماعة الإخيان ، وهى الصيغة التركية للفظ الإخوان ، ومفردهم الأخى ، وبهذا الاسم يذكرهم ابن بطوطة الذى يصفهم فى رحلته خلال آسيا الصغرى بأنهم كانوا جماعة من أهل الخير يعينون المسلمين ويستضيفونهم ويكرمونهم وبخاصة الغرباء ، وكانت لهم التكايا والخانات (الخان يقابل الفندق ولكنه فى حالتنا هذه كان دارا تقام لضيافة أبناء السبيل من المسلمين) ومع أن هذه الجماعة لم تكن محاربة إلا أنها كانت تصاحب الجيوش الغازية لتخدم المقاتلين ، وقد اشتهرت جماعات الإخيان بأن فيها أعدادا كبيرة من أغنياء التجار الذين كانوا يجمعون ثروات ضخمة من المتاجرة فى الفراء وزيت السمك ومالى ذلك من الأصناف الغالية التى تدر ربحا عظيما ، ولهذا فإن الكثيرين من هؤلاء التجار الأثرياء كانوا يقيمون المساجد والتكايا للصوفية وأبناء السبيل ، وعندما انضموا إلى الدولة العثمانية أصبحوا هيئة اجتماعية لها رئيس منتخب يلقب بالأخى ، وأصبحت لهم منزلة كبيرة ونفوذ عريض داخل الدولة بسبب ثقافتهم وإخلاصهم وعلمهم

الواسع بشئون الدين ، وكان لهؤلاء الإخوان أثر كبير جدا في النهوض بالثقافة الإسلامية بين الأتراك العثمانيين . يذكر المؤرخ فؤاد كوبريلو أن جماعات الإخوان ورثت جماعات الفتوة التي كانت قد نشطت أيام الخليفة الناصر العباسي ، وأصبحت لها ملابس خاصة ، وقد اشتهرت من بينها قبل قيام الدولة العثمانية إخية أنكرة التي لبس أفرادها سراويل الفتوة ، وكانوا من أغنياء التجار الذين يتبرعون بأموالهم للفقراء والمساكين . ومن هذه الجماعات الدينية باجيان روم التي ذكرها المؤرخ التركي عاشق باشا ، وقال إنها محرفة عن حاجيان روم أي حجاج أرض الروم ، ولكن فؤاد كوبريلو لايقبل هذا الفرض ، ويقول إن باجيان روم ربما كانت جماعة صوفية تكرس نفسها للعبادة ومعاونة الفقراء ، وكانت منهم جماعات من الرجال وأخرى من النساء .

وهذا يكفي لشرح أسباب غلبة الروح الديني على الدولة العثمانية الجديدة ، ويضاف إلى ذلك جماعات التركمان المشهورين ببسالتهم في الحروب ، والتركمان من الترك الغُزّية وقد تكاثروا في الدولة العثمانية وانضم معظمهم إلى الجماعات الصوفية مثل القلندرية والحيدرية ، وتحت معوذ القلندرية تمت جماعة دينية أخرى تسمى أبدال روم ، ويظن أن المراد بذلك أبطال الروم أي أبطال حرب المسلمين مع الروم ، وقد اندمجوا في القرن السابع عشر في الطريقة البكتاشية التي أنشأها الحاج بكتاش الذي يعتبر من أكبر أولياء الأتراك ، ويرجع تاريخ هذه الطريقة البكتاشية التي لقيت انتشارا واسعا في الدولة العثمانية إلى القرن الرابع عشر الذي عاش فيه الحاج بكتاش .

والآن نعود إلى تتبع تطور الدولة العثمانية فنقول :

إن عثمان بن أرطغرل عندما استقر على الساحل الشمالي الغربي لبحرى إيجه ومرمرة وضع لدولته نظاما إداريا محكما ، وجعل بروسة عاصمة لها ، ومات سنة ١٣٢٦ م فخلفه ابنه أورخان ١٣٢٦ م ، وهو الذي أتم تنظيم الدولة في هذه النواحي ، وجدير بالذكر أن الغالبية العظمى من الروم البيزنطيين الذين كانوا يسكنون هذه المناطق دخلوا الإسلام طوعا ، لأن الفقهاء الذين كان السلاطين يستشيرونهم في كل مايتصل بتشريعات الدولة ونظمها أشاروا بأن كل من أسلم بأهله من السكان صار في جملة أهل الدولة ، وهذه الفتوى سهلت على الأتراك الاستيلاء على إمارة قره سي الواقعة على البحر جنوبي بلادهم فيما بين سنتي ١٣٣٥ و ١٣٤٥ م ، وبهذا سيطر الأتراك العثمانيون على كل الركن الشمالي الغربي من آسيا الصغرى ، وتسامع الأتراك في شرق آسيا بانتصارات بني عمومتهم فوفدوا عليهم ألوفا ، وانضموا إلى جيوش الغزاة فتضاعفت أعداد الأتراك العثمانيين مرات كثيرة ، وفي سنة ١٣٥٤م عبر الأتراك بحر إيجة ونزلوا على ساحل اليونان ، واستولوا على غاليبولي ، وكانت بلاد البلقان مقسمة بين أملاك البندقية وبقايا من الدولة البيزنطية ، وكانت مملكة الصرب التي تقع جنوبي شبه جزيرة غاليبولي وتعرف بمملكة ولاشيا الصربية قد شهدت نهضة قصيرة في أيام ملكها أصطفان دوشان ، ولكن بعد وفاته سنة ١٣٥٥م عادت إلى الضعف والتفكك .

كان استيلاء أورخان على غاليبولي بداية تقدم تركي سريع في البلقان ، فسقطت أدرنة سنة ١٣٦٢م ، وعند بلدة تشير نوفا على نهر ماريتزا حطمت قوات الأتراك قوات الصرب سنة ١٣٧١م وبهذا دخل الأتراك إقليم تراقيا وأوغلوا شمالا في بلاد بلغاريا وغربا في مقدونيا ، وفي سنة ١٣٨٦م استولوا على صوفيا عاصمة البلغار ، ثم نيش ، وحاول الصربيون وقف تقدم الأتراك مرة أخرى ولكن قواهم تحطمت نهائيا في موقعة قوصوه Kosova سنة ١٣٨٩م ، وفي نهاية هذه المعركة استشهد السلطان مراد الأول بن أورخان (١٣٦٢ – ١٣٨٩م) فحمل الراية من بعده ابنه بايزيد الأول (١٣٨٩ – ١٤٠٣م) الذي تمكن من إخضاع بلاد اليونان كلها قبل نهاية ١٣٩٣م ، وفي نفس الوقت أصبحت بلاد الصرب ولاية تابعة لسلطان الأتراك ، وبذلك أصبحت القسطنطينية نفسها مهددة بالسقوط ، وحاولت قوات مسيحية مختلفة إنقاذ البلقان بالقيام بحملة صليبية تسمى صليبية نيقوبوليس ، ولكنها لقيت هزيمة كاملة عند هذه المدينة ، وبهذه الانتصارات الكبيرة في وقت قصير ذاع صيت الأتراك العثمانيين في الشرق والغرب على السواء .

ضم الإمارات التركية في آسيا الصغرى .

هذا النجاح السريع الذي أدركه الأتراك العثمانيون في البلقان خلف لهم مشاكل رئيسية كان لابد من علاجها ، فقد كان عددهم قليلاً جداً بالنسبة لأعداد رعاياهم من المسيحيين ، ولهذا فقد ظل سلطانهم في البلقان مقصورا على مجارى الأنهار والطرق الرئيسية ، أما بقية البلاد فقد ظلت خاضعة لأمراء مسيحيين محليين ، ثم إن آسيا الصغرى لم تكن كلها في أيديهم ، فقد كان أمراء من الترك قد أتوا في أعقاب العثمانيين وأنشأوا إمارات مستقلة في أراضي الدولة البيزنطية التي تلاشى كل سلطان لها في آسيا الصغرى .

ورأى السلطان مراد الأول أنه أيضا بحاجة إلى رجال متعلمين ذوى معرفة بالإسلام والشرع لكي ينظموا له دولته على أساس إسلامي ، وذلك كان يستدعي زيادة أعداد الأتراك من ناحية ، ثم اجتذاب ناس من أهل العلم من ناحية أخرى ، وقد بدأ السلطان مراد الأول في ضم الإمارات التركية في آسيا الصغرى إلى دولته بالاتفاقات والمصاهرات والشراء ، ورأى أن ذلك الأمر يطول فعمد إلى استخدام القوة لتوحيد هذه الإمارات تحت سلطانه . وربما كان هذا خطأ منه ، ولكن لم يكن له منه مفر . حقا إن هذه الإمارات كلها كانت إمارات غزاة ، وكانت كلها قد اقتطعت أراضيها بحد السلاح من أعداء الإسلام ، وإنه لم يكن من العدالة أن تستخدم القوة معهم ، و لكن الأتراك العثمانيين بعد أن استقروا في آسيا الصغرى كانوا يواجهون العالم المسيحي كله ، وكانت أقاليمهم تشكل دولة واسعة أو إمبراطورية ، وهذه الدولة كانت بحاجة إلى جند ورجال ومال ، ولم يكن ذلك ميسورا إلا بتوحيد هذه الإمارات كلها تحت لواء واحد .

وكان نجاح بايزيد الأول في فتوحه وفي توحيده آسيا الصغرى كلها تحت لوائه سببا في وقوع الصراع بينه وبين تيمور لنك ، لأن بعض أمراء الترك الذين انتزع بايزيد منهم أملاكهم لجأوا إلى تيمور شاكين من بايزيد ، وكذلك لجأ إلى بايزيد نفر ممن آذاهم تيمور ، وأصبح الصراع بين الأمتين لامفر منه ، ووقعت المعركة الفاصلة بين الأمتين عند أنقرة سنة ١٤٠٣م حيث التقى ١٠٠ ألف تركي مع ٧٠٠,٠٠٠ من رجال تيمور ، ودارت الدائرة على بايزيد فوقع في الأسر ، ويقال إن تيمور وضعه في قفص لإذلاله ، ولكن ذلك غير صحيح ، وفي سنة ١٤٠٣م توفي بايزيد الأول منتحرا في الغالب ، ومع ذلك فإن تيمور لم يقض على دولة الترك ربما لأنه كان في نفسه معجب ببسالتهم ودفاعهم عن الإسلام ، بل إنه انتزع أزمير من أيدى فرسان القديس يوحنا وتركها للأتراك .

ونتج عن المعركة أن اختلت وحدة الدولة وتقاسمها أبناء بايزيد الأول ، فحكم عيسى في بروسة ، وسليمان في أدرنة ، ومحمد في أماسية وهكذا . ولكن ابنه محمدا تمكن من التغلب على إخوته وإعادة الوحدة سنة ١٤١٣ م وحكم محمد الأول من ١٤٠٢ م إلى ١٤٢١ م ، وخلفه ابنه مراد الثاني وعمل على تقوية الدولة وتوثيق روابط أجزائها في البلقان وآسيا الصغرى ، وقد اتعظ مراد الثاني بما جرى لبايزيد الأول نتيجة لأخذ الأمور بالعنف والسرعة ، وسار في عمله بهدوء ورفق ، فلم ينزع من كل الأمراء المسلمين كل بلادهم ، ولم تحل سنة ١٤٥١ م حتى كانت الإمارات التركية كلها قد توحدت بالمصاهرات وأساليب السياسة ماعدا إمارتي قسطموني وقرمان ، وحتى هاتان انضمتا إلى الدولة فيما بين سنتي ١٤٦٦ م و ١٤٨٢ م .

ورغم الحروب الأهلية والمصاعب التي انتابت الدولة في عهد مراد الثاني فإنها سارت في طريقها مندفعة بقوة شبابها وحماس رجالها ، وفي أيامه تطور نظام جزية الأولاد المعروفة في التركية باسم « الدوشرمة » ، وهم صبيان وأبناء النصارى يؤخذون بدل الضريبة ويربون في المعسكرات تربية عسكرية إسلامية نظامية ، ويثقف بعضهم ثقافة إسلامية عالية ، وكان أغلبهم يصبحون جنودا في جيش السلطان وهم الإنكشارية ، أما الباقون فكانوا يتولون وظائف الخدمة في القصور والإدارة وحكم الولايات ، وكانوا عنصرا نافعا نشيطا جدا زاد من قوة الدولة .

وكان السلطان محمد الأول قد أعاد نشاط الغزو إلى الدولة ، فازداد مراد الثاني نشاطا في هذا المجال ، وعرف كيف يعيد إلى الدولة عصر الغزاة كأقوى ماكان في الماضي ، فوسع حدود الدولة في بلاد المورة والإبيروس وألبانيا والصرب . وحوالي سنة ١٤٣٠ م كان قد أعاد السيطرة التركية على كل البلاد التي كانت في حكم بايزيد الأول في آسيا الصغرى والبلقان .

وهنا ارتاعت أوروبا لذلك التقدم التركي السريع ، فنهضت المجر برياسة يانوس هونيادى ، وانضم إليها البولنديون والصرب وأهل الأفلاق (ولاشيا) وتوغلوا في الأراضي البلغارية سنة ١٤٤٣ – ١٤٤٤ م . ولما كان مراد الثاني مشغولا بفتنة في آسيا الصغرى فقد عرض هدنة على يانوس هونيادى ومن معه ، وقبل الصرب الهدنة ، أما المجريون فقد رفضوها وتمكن مراد الثاني من القضاء على فتنة قرمان في آسيا الصغرى ثم أسرع فعبر بحر إيجة ، وفي موقعة فارنا التقى مراد بخصومه من رجال هذه الحرب الصليبية وأنزل بهم هزيمة ساحقة سنة ١٤٤٤ م . وحاول هونيادى التصدي للأتراك مرة أخرى ولكنه لقي هزيمة قاسية أخرى سنة ١٤٤٨ م عند قوصوه (كوسوفا) وقد وضعت هذه الهزيمة حدا للهجوم المجرى .

خريطة ١٦٤ خريطة ١٦٥

ميلاد الدولة العثمانية وتوسعها حتى نهاية حكم سليم الأول ١٥٢٠ م

الدولة العثمانية فى أقصى إتساعها

قيام الإمبراطورية

وفى أيام محمد الثانى الملقب بالفاتح اتسعت حدود الدولة العثمانية إلى حد جعلها بالفعل إمبراطورية صحيحة ذات وزن كبير فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى ، وذلك بعد أن تمكن فى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م من فتح القسطنطينية ، ونقل اليها عاصمة الدولة ، وجدد أسوارها وأخذ يزينها بالمنشآت ويعمرها بالمسلمين ، وأطلق عليها مدينة الإسلام « إسلام - بول » وكان موقعها أوفق مايكون لجمع ولايات الدولة فى أوروبا وآسيا الصغرى بعضها إلى بعض .

وإلى جانب فتح محمد الفاتح للقسطنطينية فقد أدى للدولة خدمات كبرى ، فقد كانت إلى ذلك الحين دولة واسعة ولكنها ممزقة الأوصال تفصل بين أجزائها بعضها وبعض أقاليم لم يتم فتحها ، فقام محمد الفاتح بعملية الربط والإتمام هذه ، ففتح أثينا وماكان يتبعها من أرض فتحا كاملا فيما بين سنتى ١٤٥٨ م و ١٤٦٠ م وأتم إخضاع بلاد الصرب سنة ١٤٥٩م وبلاد البوسنة (١٤٦٣ - ١٤٦٤ م) واعتنق نفر من كبار البوسنيين الإسلام ، وتولوا قيادة الغزو على الحدود الشمالية للدولة ، وتم طرد البنادقة من بلاد اليونان فيما بين سنتى ١٤٦٣ م و ١٤٧٩ م عندما سقط معقلها فى نجروبونتى ، وتمت سيطرة العثمانيين على سواحل البحر الإدرياتى فيما بين سنتى ١٤٧٤ م و ١٤٧٩ م بالاستيلاء على كرويا وإسكدار . وضم السلطان محمد الفاتح إمارة قسطموني فى آسيا الصغرى سنة ١٤٦١ م ، وفى نفس السنة تم استيلاء الأتراك على كل السواحل الجنوبية للبحر الأسود حتى سنوبس وسينوب وطرابزون ، وفى سنة ١٤٧٥ م تم فتح السواحل الشمالية للبحر الأسود واستولى الأتراك على بلدة كافا (فيودوسيا) فى القرم ، وأصبح أهل القرم تابعين للسلطان ، وعندما حاولت قبائل الآق قيونلو أى الشياه البيضاء دخول آسيا الصغرى ردت على أعقابها بعد معركة كبيرة عند أرزنجان سنة ١٤٧٣ م ، وفى نفس الوقت كان محمد الفاتح يعمل فى جد لإتمام تنظيم الدولة وضبط إدارتها ، وقد وفق فى ذلك توفيقا عظيما .

وبعد وفاة محمد الفاتح سنة ١٤٨١ م وقع النزاع بين ولديه بايزيد وجم ، وقد انهزم جم بعد حرب قصيرة (١٤٨١ - ١٤٨٢ م) وفر لاجئا إلى فرسان القديس يوحنا فى جزيرة رودس ، ثم نقل إلى فرنسا ومنها إلى إيطاليا وتوفى أخيرا سنة ١٤٩٥ م فاستراح بايزيد الثانى من هذه الناحية .

وتفرغ بايزيد الثانى (١٤٨١ - ١٥١٢ م) بعد ذلك للغزو فأتم إخضاع بلاد الهرسك خلال سنة ١٤٨٣ م وتمكن من السيطرة على مصبى الدانوب والدنيستر سنة ١٤٨٤ م ، وقد مكن ذلك للأتراك من أن يبسطوا هيمنة تامة على الطريق البرى المؤدى إلى القرم ، واستطاعوا فيما بين سنتى ١٤٩٦ و ١٥٠٣ م أن ينتصروا على البندقية وينتزعوا منها ليبانتو ومودون وكورون ونوارين (نافارين) ودورازو فى ألبانيا . وبهذه الفتوح زاد سلطان العثمانيين فى بلاد البلقان وشرق أوروبا كله ، وكان عليهم بعد ذلك أن ينصرفوا إلى تنظيم هذا الملك الشاسع ، ولكنهم بدلا من ذلك التفتوا إلى الشرق ودخلوا فى حروب مع البلاد الإسلامية ، ففتحوا بذلك جبهة حربية واسعة لم يستطيعوا معها فى النهاية الاستمرار فى النصر على الجبهات المتعددة التى فتحوها .

الصراع مع البلاد الإسلامية .

وفى تلك الأثناء كان سلاطين المماليك يحاولون تثبيت أقدامهم فى منطقة الثغور الشامية والجزرية ، وكانت تسكن هذه الأقاليم قبائل قوية من التركمان وأهمها الورسق والطرغوذ ، وفى شرق آسيا الصغرى فى قيليقية كان أمراء أسرة رمضان أوغلو الأتراك يحكمون تحت سلطان المماليك ، وإلى الشرق من ذلك كانت تقوم إمارة ألبستان تحكمها أسرة ذى القدر وكانت لقيليقية (قال قلا) وألبستان أهمية كبرى بالنسبة للأتراك ، فإن قيليقية كانت تسيطر على الممرات الجبلية المؤدية إلى آسيا الصغرى المعروفة باسم البوابات القيليقية ، أما ألبستان (الأبستين) لأن نهر الفرات فى سيره إلى الجنوب يشق جبال طوروس ويصل إلى سهول الشام .

وكان هناك خلاف على الحدود من هذه الناحية بين مصر المملوكية ودولة آل عثمان منذ أيام محمد الفاتح ، ووقعت بالفعل الحرب بين الجانبين فيما بين سنتى ١٤٨٥ - ١٤٩١ م للسيطرة على قال قلا ، ولم تستطع هذه الحروب حسم الأمور وظلت على ماكانت عليه .

ثم ظهرت بعد ذلك بقليل الدولة الفارسية كمنافس خطير لتركيا نظرا لأن إسماعيل الصفوى الذى تولى أمر فارس من ١٤٩٩ إلى ١٥٢٤ م كان شيعيا متحمسا وصوفيا أخذ العهد على الشيخ صفى الدين الأردبيلى منشىء الطريقة الصفوية ، وقد اجتذبت هذه الطريقة الكثيرين من بدو الأتراك فى آسيا الصغرى نفسها ، فأخذوا المذهب الصفوى وانضموا إلى جيش إسماعيل الصفوى ، وقد اهتم الأتراك بأمر أولئك الصفويين من الناحية السياسية أولا ، ثم من الناحية الدينية ثانيا فقد كان الأتراك سنيين متحمسين للسنة ، وكانوا ينظرون بعين الريبة لانتشار الشيعية فى شرقى آسيا الصغرى ، خاصة وأنه كانت توجد هناك جماعات كبيرة من قبائل القره قيونلو والآق قيونلو المغولية الأصل التى تتركت وتحولت إلى جماعات بدوية لانظام لها ، وربما ساورتهم المخاوف من أن يؤدى ذلك إلى زعزعة السلطان العثمانى هناك ، خاصة وأن الدولة العثمانية كانت تعانى كثيرا من أمر أولئك البدو الأتراك وفوضاهم وعدوانهم المستمر على الأراضى الزراعية والفلاحين ، فأصبحوا الآن يتوجسون من أن تكسبهم الدعوة الشيعية إلى جانبها ويتحولوا إلى إدارة عسكرية فى يدها ضد سلطان آل عثمان ، ثم إن المذهب الشيعى انتشر فى منطقة جبال طوروس وكانت موضع نزاع بين الأتراك والمماليك ، وكان العثمانيون غير راغبين فى التدخل عسكريا على الحدود العربية لدولتهم لأنهم كانوا مشغولين بالحروب فى أوروبا ، وكانوا كذلك يخشون من أن يؤدى ذلك إلى تحالف الصفويين والمماليك ضدهم .

وفى أيام بايزيد الثانى هذا تعرضت الدولة لحرب أهلية ، لأن التقليد فى الدولة التركية كان يقضى بتعيين الأمراء من أبناء السلطان حكاما على الولايات ليتدربوا على شئون الحكم والإدارة ، وكان لبايزيد الثانى ابنان يتنافسان وهما سليم وأحمد ، وكان سليم يحكم ولاية طرابزون على البحر الأسود ، أما أحمد فكان يحكم ولاية قيصرى على الحدود الشرقية ، وقد قامت عليه ثورة شيعية سنة ١٥١١ م فأرسل إليه أبوه بايزيد الثانى مددا عسكريا يقوده القائد على باشا ، وتمكن على باشا من القضاء على الثورة وقتل هو وزعيم الثائرين شاه - قولى فى المعركة ، وتوجس سليم خيفة من انتصار أخيه فغادر طرابزون ونزل بلاد خان التتر فى شبه جزيرة القرم ، ثم طلب من أبيه أن يعطيه ولاية فى أوروبا ليكون أقرب إلى القسطنطينية ، وفهم السلطان غرض سليم ، فتردد فى إعطائه الولاية التى طلبها ، وأخيرا استجاب له وأقامه حاكما على ولاية سمندريا (سمدروفو) على نهر الدانوب . وبعد أن انتصر أخوه على الثورة فى آسيا الصغرى بمعونة على باشا القائد التركى الكبير خاف سليم من أن أخاه ربما يستطيع بمن معه من الجند أن ينتزع العرش لنفسه ، ففضل سليم المبادرة بالعمل وثار على أبيه ولكنه انهزم فى معركة كورولو وفر إلى كافا فى جزيرة القرم سنة ١٥١١ م .

وعاد أحمد منتصرا إلى إسلامبول ، ولكنه فوجىء بأن الإنكشارية يفضلون أخاه « سليم » عليه ، وعقب ذلك قام الإنكشارية بحركة عصيان كبيرة وانتهز سليم الفرصة وقاد جنوده فى ثورة على أبيه وانتزع بالقوة معظم آسيا الصغرى ، وخاف بايزيد من أن يستعين أحمد بالفرس فى حالة ما إذا وجد نفسه سيهزم فاستدعى ابنه الثانى « سليم » من كافا وسلمه العرش . وبدأ سليم العمل (١٥١٢ - ١٥٢٠ م) فهزم أخاه وقتله سنة ١٥١٣ م ، ثم سار نحو الفرس وتوغل فى بلادهم ، وفى الطريق إلى تبريز التقى بجيوش إسماعيل الصفوى فى سهل تشالديران سنة ١٥١٤ م حيث أباد قوات الفرس ووضع حدا لكل خوف من أن يتوغل الفرس الشيعيون فى آسيا الصغرى .

القضاء على سلطنة المماليك .

وبفضل نشاط سليم الأول وقدرته الكبيرة على العمل تمت سيطرة الأتراك على منطقة الحدود بين سلطنة الأتراك وسلطنة المماليك فى سفوح جبال طوروس ، وكذلك تم طرد الفرس من كردستان .

أدرك المماليك أن الموقف على حدودهم قد تغير بصورة خطيرة ورأوا أنه لابد لهم من أن يقوموا بعمل حاسم لحماية بلادهم من خطر الترك ، فخرج قنصوه الغورى سلطان المماليك بكل ماكان لديه من القوة فى صيف ١٥١٦ م ، واتجه إلى الشام ، ولم يكن قنصوه الغورى يقصد الحرب فعلا ولكنه كان يظن أن هذه المظاهرة العسكرية كافية بإقناع الترك بأن ينصرفوا عن أملاكه .

وكان سليم يستعد لحرب الفرس ، ولكنه اتخذ قرارا سريعا بضرب المماليك أولا فاتجه نحو الجنوب من ألبستان سائرا نحو المماليك تاركا مؤخرته مكشوفة معرضة للخطر لو أراد

الفرس التقدم فى آسيا الصغرى ، ولكن الفرس لم يفعلوا شيئا وأتاحوا لسليم الأول الفرصة ليكسب نصرا حاسما على المماليك فى موقعة مرج دابق شمالى حلب فى أغسطس ١٥١٦م وتراجعت فلول المماليك إلى غزة وتحصنوا فيها ، وكان سلطانهم قنصوه الغورى قد مات فى مرج دابق ، وتولى بعده طومان باى وكان رجلا حازما ولكن عهد المماليك كان قد ولى واقتربت ساعتهم ودخلت الخيانة صفوفهم ، وهكذا انهزم المماليك مرة أخرى فى غزة ، ثم كانت هزيمتهم الثالثة والأخيرة فى الريدانية – وهى العباسية اليوم – على أبواب القاهرة فى يناير ١٥١٧ م ، ودخل الأتراك القاهرة وقبضوا على طومان باى حيث أعدمه السلطان سليم عند باب زويلة ، وبسقوط مصر والشام فى يد الأتراك آلت إليهم الأراضى المقدسة فى الحجاز ، وهكذا تمكن سليم الأول خلال خمس سنوات من الحرب التى لاتعرف هوادة من القضاء على دولة المماليك التى كانت تمثل خطرا على حدودهم الشرقية وانتهت إلى الأبد إمكانية اتحاد الفرس والمصريين على الترك .

سليمان القانونـى .

(من ١٥ شوال ٩٢٦ هـ إلى ٨ ربيع الأول ٩٧٤ / ٢٩ سبتمبر ١٥٢٠ – ٢٤ سبتمبر ١٥٦٦م) .

أنفق السلطان سليم معظم جهوده فى الجانب الشرقى من الدولة ، فلما خلفه ابنه الوحيد سليمان الملقب بالقانونى عند الأتراك والعرب ، والجليل أو السامى أو The Magnificent عند الأوربيين كرس كل جهوده للجانب الأوروبى من الدولة .

بدأ سليمان حكمه بداية طيبة فاستولى سنة ١٥٢١ م على بلغراد وكانت إذ ذاك تابعة لدولة المجر ، وكان محمد الفاتح قد حاصرها وعجز عن الاستيلاء عليها ، وبعد خمس سنوات أنزل بالمجريين هزيمة فاصمة عند موهاكس وقتل ملكهم لويس فى المعركة ، فانتقل عرش المجر إلى فرديناند دوق النمسا أخ الإمبراطور شارل الخامس أو شرلكان إمبراطور دولة الهابسبورج ، ونجم لفرديناند منافس هو زابوليا حاكم ترانسلفانيا ، واستعان هذا الأخير بالأتراك وتحول الصراع إلى صراع بين إمبراطوريتين الأتراك والهابسبورج . وقام سليمان بحصار فيينا سنة ١٥٢٩ م دون أن يفلح فى أخذها وأعاد الكرة سنة ١٥٣٢ م ، وهنا نلاحظ كيف أن الإمبراطورية العثمانية قد بلغت من الضخامة والاتساع للمدى ماجعل عسيرا عليها أن تطبق بنجاح طريقة الحرب الخاطفة Blitzkrieg التى كانت تسير عليها إلى ذلك الحين ، فإن نقل الجيوش خلال تلك المسافات الطويلة من شرق الدولة إلى غربها صار أمرا عسيرا ، ومع ذلك فقد ثبت سليمان سلطان العثمانيين على المجر وأقام زابوليا ملكا فى عاصمتها بودا تابعا للسلطان .

وبهذا يكون العثمانيون قد أسوا دولتهم فى أوروبا من الشمال عن طريق سلسلة من الأمراء والملوك التابعين لهم تبدأ بخانية التتار فى القرم ، ثم مملكتى بغدانيا (البغدان) وولاشيا (الأفلاق) ثم مملكة المجر ، ونستثنى من ذلك منطقة الشمال الغربى حيث دخل أشراف البوسنة فى الإسلام ، وأصبحت بلادهم بذلك جزءاً من صميم أرض الدولة العثمانية

وعندما مات زابوليا ملك المجر التابع للسلطان لم يخلف إلا طفلا صغيرا فعاد فرديناند يطمع فى الاستيلاء على المجر ، وكان عليه أن يلاقى جيوش السلطان مرتين ١٥٤١ و ١٥٤٣ م دون أن يوفق ، بل انتهى الأمر بأن زادت قبضة السلطان على جزء كبير من المجر وهو الذى يحيط بمدينة بودا . وبهذا أصبحت بلاد المجر ثلاثة أقسام : قسم داخل فى دولة الهابسبورج فى أقصى الشمال والغرب ، وقسم تابع للدولة العثمانية وسط مجرى نهر الطونة وعاصمته بودا ويشمل حوضى نهرى الساف والدراف ، ثم قسم فى ترانسلفانيا فيما بين نهر التيزا وجبال الكربات . وفى سنة ١٥٥٢ م احتلت جيوش سليمان إقليم بنات التمسفار على نهر التمسفار (التيميسوارا) وذلك لكى يستطيع الإشراف إشرافا فعالا وكاملا على ترانسلفانيا .

وفى الجبهة الآسيوية قام سليمان بحملات ثلاث كبرى ضد فارس أولها بين سنتى ١٥٣٤ و ١٥٣٥ م وانتهت بتثبيت أقدام الترك فى منطقة أرزروم والعراق كله ، والثانية سنة ١٥٤٨ – ١٥٤٩ م أضافت إلى الدولة كل الأراضى شمال شرقى نهر دجلة حتى بحيرة وان ، والحرب الثالثة بين سنتى ١٥٥٤ – ١٥٥٥ م ، وخربت معظم إقليم أذربيجان الفارسى ثم عاد السلطان إلى أماسيا سنة ١٥٥٥ م حيث وقع محالفة مع الشاه ثبتت الحدود بين الدولتين على ماكانت عليه سنة ١٥٥٥ م .

خريطة ١٦٦

البحر المتوسط

الدور الأخير من أدوار الصراع على سيادة البحر المتوسط

نشاط البحرية العثمانية

كانت البحرية العثمانية قد نمت نموا كبيرا أيام بايزيد الثانى ، فقد ساعد الأسطول التركى مساعدة فعالة فى الحرب مع البندقية ، وعاون فى الاستيلاء على رودس سنة ١٥٢٢ م ، والآن وقد أصبحت الدولة تملك مصر والشام فقد أصبحت مسئولة عن حماية مياه الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، وفى نفس الوقت كان خير الدين برباروسا يقود أسطولا قويا يهاجم سواحل بلاد النصرانية وسفنها متخذا لنفسه قاعدة فى الجزائر ، وبدا بوضوح أن صراعا بحريا ضخما لابد أن يقع بين الأتراك والهابسبورج (وكانوا أيضا يملكون إسبانيا) وعلى نتيجة هذا الصراع يتوقف مصير المغرب الإسلامى .

وفى نفس سنة ١٥٣٣ م ذهب خير الدين الى الآستانة ووضع نفسه فى خدمة الخليفة العثمانى فمنحه هذا لقب قبودان (قبطان) ثم وقعت حرب جديدة بين الدولة العثمانية والبندقية (١٥٣٧ – ١٥٤٠ م) استولت فيها الدولة على آخر معاقل البندقية على ساحل اليونان : سينيوريا Signria (فى الجنوب) ونابولى دى رومانيا ، فأسرعت البندقية وتحالفت مع الهابسبورج والبابوية ، وكان شارل الخامس قد أنشأ مايشبه أن يكون حماية على تونس بمعاونة بعض الحفصيين المتأخرين ، وتكون بالفعل أسطول نصرانى لقى الأسطول العثمانى فى معركة بريفيسا سنة ١٥٣٨ م وانهزم الأسطول النصرانى ، فضمن العثمانيون سيادتهم فى البحر إلى حين .

واتسع نطاق عمل الأسطول العثمانى فشمل البحر الأحمر حيث استولى العثمانيون على سواكن ومصوع وأخرجوا البرتغاليين من مياه ذلك البحر ، وفى سنة ١٥٣٨ م سار أسطول تركى عبر البحر الأحمر ولقى البرتغاليين فى معركة ديو البحرية قرب ساحل الكجرات ، ومع أن الأسطول العثمانى انهزم إلا أن هذه المعركة كانت عاملا كبيرا فى زعزعة سلطان البرتغاليين فى بحار آسيا ، وكذلك استولى الأتراك على ساحل الحبشة وهو يشمل أجزاء من سواحل إرتريا والصومال ، فانتعشت التجارة بين آسيا والغرب عن طريق البلاد الإسلامية من جديد . وكانت سيطرة البرتغاليين على بحار آسيا قد حولت التجارة الى طريق البر من الآستانة إلى حلب إلى البصرة وكانت البصرة قد دخلت فى أملاك آل عثمان

وخرجت البندقية من مجال الكفاح بأن عقدت معاهدة مع الباب العالى سنة ١٥٤٠ م ضمنت به لنفسها آخر معاقلها فى المورة ، ولكن الصراع بين الهابسبورج والعثمانيين ظل على قدم وساق ، وانضم أسطول خير الدين إلى الأسطول الفرنسى فى حربه مع الهابسبورج وساعد الفرنسيين على استعادة نيس سنة ١٥٤٣ م ، وفى سنة ١٥٥١ م تمكن العثمانيون من طرد الإسبان من طرابلس ، وحاول الإسبان منازلة الأتراك مرة أخرى قرب سواحل جربة سنة ١٥٦٠ م ، ولكنهم انهزموا ، وكذلك فإن الأسطول العثمانى لم يستطع الاستيلاء على مالطة من أيدى فرسان القديس يوحنا ، وكانوا قد تمركزوا فيها بعد طردهم من رودس .

ولكن السلطان سليمان شغل فى أواخر سنوات حكمه بالنزاعات والفتن بين أولاده ، وكان أشدهم وطأة فى ذلك ابنه مصطفى الذى أثار الفوضى فى آسيا الصغرى وكاد يحرم الجيش العثمانى من فرق الخيالة الممتازة المعروفة باسم السباهى ، وانتهى الأمر بقتل مصطفى سنة ١٥٥٣ م بمساعدة السيدة خرم زوجة السلطان المفضلة والصدر الأعظم رستم باشا زوج ابنتها . ثم وقع النزاع بين سليم وبايزيد ابنى خرم وانتهى بمصرع بايزيد سنة ١٥٦١ م .

وفى سنة ١٥٦٦ م توفى السلطان سليمان القانونى بعد حكم باهر عامر بالفتوحات والانتصارات ، ولم تقتصر أمجاد عصر سليمان على جانب الحرب ، فهذا الرجل كان ينفق بسخاء على المنشآت الكبرى ، فأنشأ المعاقل والحصون فى رودس وبلغراد وبودا وتمسفار ، وأنشأ المساجد والصهاريج والقناطر فى شتى نواحى الدولة وخاصة فى مكة وبغداد ودمشق وكانا غير ما أنشأه داخل الدولة نفسها من روائع العمارة ، وازدان عصره بأسماء رجال عظام فى كل ميدان مثل الوزير السياسى رستم باشا والوزيرين محمد صقللو وكال باشا زاده ، والشاعر بكى الذى عرف بأمير الشعراء ، والمهندس المعمارى الأشهر سنان ابن عبد الله بن عبد المنان ، وقد تم فى عصر سليمان تحويل القسطنطينية إلى مدينة إسلامية ، وهو العصر الذهبى للقوة العثمانية .

الدولـة بعـد سـليمان .

استمر نشاط الغزو والجهاد بعد أيام سليمان زمنا طويلا ، ففى عهد خلفه سليم الثانى من ٩٧٤ ــ ٩٨٢ هـ / ١٥٦٦ ــ ١٥٧٤ م استولى الأتراك على قبرص سنة

١٥٧٠ ـ ١٥٧١ م . وفي نفس هذه السنة الأخيرة أصابت الأسطول العثماني أفدح هزيمة عند ليبانتو سنة ١٥٧١ م وقد تحالفت فيها إسبانيا والبندقية والبابوية وفرسان القديس يوحنا ضد أسطول آل عثمان ، ولكن المتحالفين لم يلبثوا أن انهزموا ، مما أضعف من وطأة هذه الهزيمة ، فاعترفت البندقية بسلطان الأتراك على قبرص سنة ١٥٧٣ م واستعاد الأتراك تونس بعد أن فقدوها مدة قصيرة ، وبهذا النصر الأخير تحدد مصير الصراع بين إسبانيا وتركيا حول السيادة على الشمال الإفريقي بصورة نهائية ، وهكذا أنقذ الأتراك الشمال الإفريقي كله من المصير السيء الذي كانت إسبانيا في عصرها الذهبي تعده للمغرب الإسلامي أيام شرلكان وفيليب الثاني .

خريطة ١٦٧

الصراع بين العثمانيين والإيرانيين خلال القرنين ١٦ ، ١٧ م / ١٠ ، ١١ هـ

وفي أيام السلطان مراد الثالث من (٩٨٢ ـ ١٠٠٣ هـ / ١٥٧٤ ـ ١٥٩٥م) سنحت الفرصة لآل عثمان لكي يحسموا الخلاف مع فارس لصالحهم منتهزين فرصة وقوع فتن أهلية هناك فقام مراد الثالث بثلاث حملات كبرى على فارس . الأولى (١٥٧٨ ـ ١٥٨١ م) توغل العثمانيون فيها شرقا حتى تفليس (تبليزى) واستولوا عليها ، وفي الحملة الثانية (١٥٨٢ ـ ١٥٨٤ م) استولى الأتراك على شروان والداغستان أي على الأراضي المطلة على بحر قزوين ، وفي الحملة الثالثة استولوا على أذربيجان بما في ذلك تبريز ، هذا إلى حملات أخرى وجهها الأتراك ضد فارس من بلاد العراق ، وبهذه فارس خطر عظيم لأن قبائل الأوزبك أصحاب ماوراء النهر هددت باكتساح خراسان ، ولهذا فقد اضطر الشاه عباس الأول (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩ م) إلى عقد معاهدة سلام مع تركيا سنة ١٥٩٠ م تنازل فيها عن داغستان وشروان وبلاد الكرج (جورجيا) وأذربيجان ولورستان .

الحرب مع النمسا .

كان نشاط الغزو مستمراً على حدود الدولة في أوروبا لأن فرق الحدود المعسكرة على ضفاف الطونة كانت تعتبر الغزو جهاداً في سبيل الله لاينقطع . وفي سنة ١٥٩٣ م تمكنت النمسا من هزيمة حاكم البوسنة وقتله في معركة سيساك ، وكان ذلك الحادث بداية لحرب طويلة بين تركيا والنمسا استمرت إلى سنة ١٦٠٦ م ، وقد بدأت الحرب بداية سيئة للسلطان ، فخلعت ملدافيا وولاشيا وترانسلفانيا الطاعة للسلطان سنة ١٥٩٤ م وانضمت إلى الإمبراطور النمسوى ، وأصبحت طرق مواصلات الدولة مع بودا وبلغراد في خطر ، ووجد السلطان محمد الثالث (١٠٠٣ ـ ١٠١٢ هـ / ١٥٩٥ ـ ١٦٠٣ م) أنه لابد أن يتولى القيادة بنفسه ، وتمكن من انتزاع حصن أرلاو الذي يسمى إيجر ، ثم كسب نصرا ضخما في معركة ميزو ـ كيرستس سنة ١٥٩٦ م حيث أباد السلطان الجيش النمسوى ولكن المناوشات استمرت بعد ذلك .

وفي أيام السلطان أحمد الأول بن محمد الثالث استمرت الحرب مع النمسا وفارس فاستعاد الأتراك استرجوم من النمسا وعادت ترانسلفانيا إلى طاعة السلطان وأقيم أصطفان بوكسكاى أميرا عليها ، ولكن فتن الإنكشارية توالت مما اضطر السلطان إلى عقد معاهدة سلام مع النمسا في سيتفاتوروك سنة ١٦٠٦ م عوملت فيها النمسا على قدم المساواة مع الأتراك لأول مرة ، وسمي إمبراطورها بادى شاه ، وأعفيت من الجزية السنوية في مقابل دفع مبلغ ٢٠٠,٠٠٠ قطعة ذهبية دوقية Ducats لتركيا .

وفي سنة ١٦١١ م وقعت معاهدة سلام مع فارس أيضا ، دفعت فارس بمقتضاها مليون رطل من الحرير .

وبعد وفاة أحمد الأول في عام ١٦١٧ م جلس على أريكة السلطنة السلطان مصطفى الذي لم يحكم إلا شهورا قلائل تبين خلالها أنه مريض عقليا فعزل وتولى مكانه عثمان الثاني ابن السلطان أحمد (١٠٢٧ ـ ١٠٣٢ هـ / ١٦١٨ ـ ١٦٢٢م) وقد تبين عندما أراد القيام بحملة يقضى فيها على ملدافيا أن الإنكشارية قد فسد أمرهم تماما وأنهم لم يعودوا يصلحون للحرب ، ففكر في أن يصطنع الذهاب للحج ، وهناك يجمع جيشا من العرب ليقضى به على الإنكشارية ، ولكن أنباء ماعزم عليه تسربت ، فقبض عليه الإنكشارية وأهانوه وقتلوه .

وعاد الأمر بعد موت عثمان الثاني إلى مصطفى بن محمد ثم عزل وتولى مكانه مراد الرابع (١٠٣٣ - ١٠٥٠ هـ / ١٦٢٣ - ١٦٤٠م) وكان رجلا دمويا سفاكا . انتزع من الفرس أريفان وذبح من رجالهم أعدادا ضخمة ، بالضبط كما كان الفرس يعملون مع أعدائهم ، وتوفى سنة ١٦٤٠ م .

وخلفه أخوه ابراهيم وكان رجلا مختل المزاج منصرفا إلى اللهو ، فتولت أمه الأميرة كوزم سلطان زمام الأمور ، وحاولت وقف الفساد الذي استشرى في الدولة ، وبلغ من ضعف الدولة أن السلطان لم يستطع انتزاع كريت من يد البنادقة ، بل إن البنادقة احتلوا مدخل الدردنيل مما سبب مجاعة ، ثم قامت ثورة وعزل إبراهيم وقتل .

وخلفه ابنه محمد الرابع ولم تكن سنه تزيد على ٦ سنوات فتولت الأمور كوزم سلطان جدته . واشتد استبداد الإنكشارية بالأمور فاحتكروا بيع كل شيء حتى الخبز ، ووقع نزاع بين كوزم سلطان وحماتها توركان سلطان ، واعتمدت كل منهما على جماعة من الإنكشارية ، وانتهى الأمر بمقتل كوزم سلطان ، إذ خنقها الإنكشارية بالحبال التي كانت تمسك ستر سريرها .

خريطة ١٦٨

انكماش الدولة العثمانية من القرن الثاني عشر إلى الثالث عشر الهجرى

آل كوبريلي ، الصدور العظام .

وقد نجت الدولة من التدهور المستمر بفضل وزير قدير اختارته توركان سلطان لرياسة الوزارة هو محمد كوبريلي سنة ١٦٥٦ م ، إذ سلك مسلكا قويا عنيفا أعاد النظام ورفع هيبة الدولة ، وهزم البنادقة وأخذ منهم جزيرة طنوس وجزرا أخرى وتمكن من تهدئة الثورة في ملدافيا . وتوفى محمد كوبريلي سنة ١٦٦١ م وخلفه أخوه أحمد فواصل سياسته الحازمة ، ودخل في حرب مع النمسا لم يسعفه الحظ فيها لأن فرنسا وقفت إلى جانب النمسويين ، وهكذا هزمت قوات تركيا في معركة سنت جوتارد سنة ١٦٦٤ م ، ولم تخسر تركيا كثيرا في هذه المعاهدة لأن سلطانها ظل معترفا به على ترانسلفانيا وإن كانت أخليت من القوات التركية ، وبعد حرب طويلة تمكن الأتراك من استعادة كريت ولكنهم سمحوا للبنادقة بأن يحتفظوا ببعض المراكز التجارية في الجزيرة مثل سودا Soudha وسبينالونجا Spinalonga ، وجرابوسا Grabosa .

وفي سنة ١٦٧٢ م شبت الحرب مع بولندا واستولى الأتراك على كامينيتس ولمرج (لفوف) ولوبلين ، وطلب البولنديون الصلح ، ووقعت بين الطرفين معاهدة في بكزاكا Bucazaca سنة ١٦٧٢ م تركت فيها بودوليا للأتراك وأعطيت أوكرانيا للقوزاق وأرغمت بولندا على دفع إتاوة سنوية للأتراك قدرها ٢٢٠٠٠ قطعة من الذهب ، ولكن جان سوبيسكي الذي تولى عرش بولندا بعد ذلك بقليل رفض دفع الإتاوة ، وتجددت الحرب ثم عقدت معاهدة زورافنو التي ألغيت فيها الإتاوة .

وتوفى أحمد كوبريلي سنة ١٦٧٦ م وخلفه قره مصطفى صدرا أعظم ، وكان رجلا شديد الطموح ، ساق تركيا إلى عدد من الحروب دون مبرر ، وقد حاول الاستيلاء على فينا وحاصرها ، وهربت الأسرة الحاكمة من العاصمة ، ولكن جان سوبيسكي البولندى انقض على مؤخرة الأتراك وأوقع بهم الهزيمة ، فاضطر الأتراك إلى رفع الحصار ، وهذا الفشل يعين بداية تدهور تركيا كقوة عسكرية لاتغلب ، ثم إنه دخل في حرب مع الروس انتهت بهزيمته عند رادزين سنة ١٦٨١ م واضطر إلى توقيع معاهدة مع روسيا تنازل فيها عن الأرض التي كان قد استولى عليها ، وكانت نتيجة تهور قره مصطفى أن ثارت في أوروبا من جديد روح الحرب الصليبية فتكون حلف من النمسا والبندقية والبابوية والروسيا ومالطة وتسكانيا ضد تركيا ، وحاول الأتراك كسب فرنسا إلى جانبهم فلم يوفقوا ، وقامت النمسا بغزو المجر وهاجمت البندقية بلاد اليونان وهاجمت روسيا بلاد القرم وغزت بولندا بودوليا ، ثم وقع تمرد خطير من جانب الإنكشارية وتنازل السلطان محمد الرابع عن العرش .

وتولى بعده أخوه سليمان الثاني من ٣ المحرم ١٠٩٩ - ٢٦ رمضان ١١٠٢ هـ / ١٦٨٧ - ١٦٩١ م وأسند الصدارة العظمى لمصطفى كوبريلي ، فقام بمهمته خير قيام واتبع سياسة حزم وتسامح ، وفي نفس الوقت تقدمت قوات النمسا في ترانسلفانيا بعد استيلائها على أرلاو ، ووصلت إلى بلغراد وأسكوب ، ولكن مصطفى كوبريلي تمكن من طردهم واستعاد بلغراد وتمكن من هزيمة الروس في القرم ، وبينما كان الجيش العثماني يحارب في المورة توفى سليمان الثاني وخلفه أخوه أحمد الثاني .

وفى بداية حكم أحمد الثانى (٢٦ رمضان ١١٠٢ - ٩ جمادى الآخرة ١١٠٦ هـ / ١٦٩١ - ١٦٩٥ م) انهزم الأتراك عند سلانكامين فى بلاد الكروات واستشهد مصطفى كوبريلى فى المعركة . وفشل الأتراك فى الاستيلاء على بتروفارادين واستولى البنادقة على جزيرة خيوة ، وفى سنة ١٦٩٥ م توفى أحمد الثانى وخلفه ابن أخيه مصطفى الثانى ابن محمد (٩ جمادى الآخرة ١١٠٦ - ٢٣ شعبان ١١١٥ هـ / ١٦٩٥ - ١٧٠٣ م) واستمرت الحرب مع النمسا حتى انتزع الأتراك مدينة ليبا ولكن الروس استولوا على آزوف . وفى سنة ١٦٩٧ م تمكنت النمسا بقيادة الأمير يوجين من هزيمة الأتراك فى زنتا على نهر التيسا . وانتهت الحرب بتوسط البندقية وانجلترا وهولندا فى توقيع معاهدة كارلوفيتز (يناير ١٦٩٩ م) وبناء على هذه المعاهدة احتفظ الأتراك بإقليم بنات ، واحتفظت النمسا بترانسلفانيا ، واحتفظت بولندا ببلاد كامينتس وبودوليا والأوكراين ، واحتفظت البندقية بالمورة ودلماشيا ، وعقدت هدنة مع الروس مدتها سنتان ، وعقب ذلك تولى حسين كوبريلى الصدارة العظمى ولكنه فشل فى إعادة النظام إلى الدولة وفقدت تركيا آزوف ، وتحرك الإنكشارية من جديد واضطر السلطان إلى التنازل عن العرش وخلفه أخوه أحمد الثالث ابن محمد (٢٣ شعبان ١١١٥ - ٢٠ صفر ١١٤٣ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٣٠ م) .

وبدأ السلطان أحمد الثالث حكمه بالاستجابة لمطالب الإنكشارية وتعيين الصدر الأعظم الذى اختاروه ، وكان شارل الثانى عشر ملك السويد قد انهزم أمام الروس وفر إلى تركيا ، وسمح الأتراك له بالإقامة فى بندر ، وكان هذا سببا فى حرب جديدة بين تركيا وروسيا ، وقام الصدر الأعظم محمد بلطجى بالمفاوضات مع الروس وأعطاهم شروطا سخية مع أن الأتراك كانوا قد انتصروا عليهم ، وبمقتضى هذا الصلح عادت آزوف إلى تركيا وأزيلت الحصون التى كان الروس قد أقاموها على حدود تركيا ، ووافق الروس على عودة شارل الثانى عشر إلى بلاده ، وتنازل الروس عن كل مطالبة لهم بالسلطان على تتار القرم والتتار الذين يسكنون الأراضى البولندية (سنة ١٧١١ م) . وكان هوسبدارات (حكام) ولاشيا وملدافيا قد تعاونوا مع الروس فى هذه الحرب فعزلوا ، وأقام الأتراك مكانهم حكاما من اليونان وظل الأمر على ذلك حتى ثورة اليونان على تركيا سنة ١٨٢١م

وقد قرر الأتراك معاقبة البندقية لأنها حرضت أهل الجبل الأسود على الثورة واستولوا على بعض الجزر على ساحل دلماشيا أهمها جزيرة سريجوا (كتيرا) فاستعادها الأتراك واستولوا على كل ما بقى للبنادقة فى كريت . وتدخلت النمسا لصالح البندقية فأعلن الأتراك عليها الحرب ، ولكنهم هزموا هزيمة كبيرة سنة ١٧١٦ م عند بتروفارادين ، وسقطت فى أيديهم بنات واكتسحوا إقليم بنات سنة ١٧١٧ م وتراجع الجيش التركى إلى أدرنة ، وتدخلت انجلترا وهولندا وتوسطتا فى عقد صلح بساروفتش فى ٢١ يوليو ١٧١٨ م تنازلت بمقتضاه تركيا عن بلغراد وجزء من ولاشيا وبنات للنمسا وأخذت البندقية عددا من الحصون فى ألبانيا ودلماشيا . وقد اتهم الصدر الأعظم ابراهيم باشا بالخيانة لموافقته على هذه المعاهدة ، ولكى يحسن سمعته هاجم فارس ، وانتزع منها أجزاء من الداغستان وأدى ذلك إلى حرب مع روسيا ، وتدخلت فرنسا فى عقد الصلح ، وخسرت تركيا بمقتضى معاهدة الآستانة مدينة باكو والدربند فى يونيو ١٧٧٤ م .

وعقب ذلك انهزم الأتراك أمام الفرس بقودهم نادر شاه قولى فأدى ذلك إلى ثورة شعبية قادها خادم حمام يسمى بطرونه خليل ، وقتل فى الثورة الصدر الأعظم وأرغم السلطان على التنازل ، وخلفه أخوه محمود الأول وهو ابن مصطفى الثانى (١٦ ربيع الأول ١١٤٣ - ٢٣ صفر ١١٦٨ هـ / ١٧٣٠ - ١٧٥٤ م) .

ستون سنة من الحروب المتوالية : ١٧٣٠ ١٧٨٩ م

عقب تولى محمود الأول قتل بطرونه خليل وتفرق أتباعه استمرت الحرب مع فارس ، وانتهت باتفاقية تنازلت بها تركيا عن كل الأراضى الفارسية التى استولت عليها منذ أيام مراد الرابع ، وتنازلت روسيا أيضاً لفارس عن كل الأراضى الفارسية التى كانت قد استولت عليها ، ونتيجة لذلك عقدت معاهدة فارسية روسية ضد تركيا .

وعقب ذلك وقعت أزمة وراثة عرش بولندا سنة ١٧٣٣ م وجرت إلى حرب طويلة بين فرنسا والنمسا وتركيا ، واضطرت تركيا إلى أن تخوض معارك طاحنة على جبهتها مع روسيا وجبهتها مع النمسا وبولندا ولم تنته الحرب إلا سنة ١٧٣٦ م ، وكانت نتيجتها لصالح تركيا فاستعادت بلغراد وكل الأراضى الواقعة جنوب نهر الساف التى كانت قد كسبتها النمسا بمعاهدة بساروفتش ، ونصت المعاهدة على إزالة قلعة آزوف ولاتكون للروسيا سفن حربية فى البحر الأسود ، وتركت منطقة كاباردينا منطقة حاجزة بين روسيا وتركيا (معاهدة بلغراد سبتمبر ١٧٣٩ م) .

وبعد سنتين اشتعلت الحرب مرة أخرى مع نادر شاه (نادر شاه قو لى) وطال أمدها ولكنها انتهت بتثبيت حدود تركيا كما كانت أيام مراد الرابع وحصلت فارس على بعض التسهيلات لحجاج العتبات المقدسة فى العراق .

وتوفى السلطان محمود الأول سنة ١٧٥٤ م وخلفه أخوه عثمان الثالث بن مصطفى (١٧٥٤ - ١٧٥٧ م) وساد عصره السلام بفضل سياسة الصدر الأعظم خوجة راغب ، فعقدت معاهدة مع روسيا وكادت توقع معاهدة سلام مع فرنسا لولا أن إنجلترا مانعت فى ذلك ممانعة شديدة خوفا على مصالحها فى الهند والأراضى الإسلامية .

خريطة ١٦٩
خريطة ١٧٠

تدهور الدولة العثمانية حتى معاهدة سيفر أغسطس ١٩٢٠ م
تركيـــا تحت الاحـــــلال الاجنبـــى

معاهدة كوتشك كاينارجى .

واشتبكت تركيا بعد ذلك فى حرب طاحنة مع روسيا ، وكان عرشها قد صار إلى كاترين الثانية ، ولم يعد الوزير الحكيم خوجة راغب صدرا أعظم ، فثارت الحرب من جديد مع الروس بسبب بولندا . واجتاحت روسيا إقليم كاباروبا واجتهد الرهبان الروس فى إثارة الفتنة فى الصرب وبلغاريا والجبل الأسود ، فأرسلت تركيا إنذارا إلى الروسيا بأن تخلى بولندا ، واشتدت الحرب وانهزم الأتراك هزائم متوالية ، ودخل الأسطول الروسى البحر المتوسط وأحرق الأسطول التركى قرب أزمير واحتل الروس كل الحصون الواقعة بين مصب الطونة ونهر الدنيستر . وفى سنة ١٧٧١ م استولت روسيا على القرم وطالب الروس بحق الملاحة فى البحر الأسود واستمر تراجع الأتراك أمام الروس والنمساويين ، وفى هذه الأثناء مات مصطفى الثالث وخلفه أخوه عبد الحميد الأول ٨ شوال ١١٨٧ - ١١ رجب ١٢٠٣ هـ / ١٧٧٤ - ١٧٨٩ م .

وكانت الأحوال تسير من سىء إلى أسوأ داخل تركيا نفسها ، فزاد اختلال الإدارة وفساد الموظفين وتمرد الإنكشارية ، وبدا بوضوح أن تركيا تسير نحو مصير خطر ، ولم يبد عبد الحميد الأول أى قدرة ، وعندما اقترب الروس من شواطىء (كولاروفجراد) اضطرت تركيا لطلب الصلح ، ووقعت صلح كتشك كينارجى ، وهو أسوأ صلح عرفته تركيا إلى ذلك الحين ، وهو المؤشر الواضح على بداية الاضمحلال التام وبداية المسألة الشرقية ، وقد وقعت هذه المعاهدة فى ٢١ يوليو ١٧٧٤ م أى بعد مرور ١٠٠ سنة على صلح بروث الذى وقعته روسيا مع تركيا ، وهو أسوأ صلح عرفه تاريخ الروسيا . وبمقتضى كتشك كينارجى منح التتار الاستقلال من بولندا إلى بحر قزوين ، ولم يبق للسلطان من سلطة عليهم إلا الاعتراف بأنه خليفة المسلمين ، وأخذت الروسيا كيلبورون وكرش وينى كالى ، وردت لروسيا كرمان وبلجورود ولستروفسكى وأوتشاكوف وبسارابيا ، ومنحت الأفلاق والبغدان استقلالا ذاتيا تحت السيادة العثمانية ، وانتزع الروس حق التدخل فى اختيار حكامهما ، ووافق الأتراك على أن يحمل قيصر الروسيا لقب البادى شاه ، وأطلقت حرية الملاحة فى البحرين الأسود والأبيض لروسيا جنبا إلى جنب مع تركيا ، ودفعت تركيا غرامة ١٥٠٠٠ كيس من الذهب للروس ، وكذلك حصل الروس على حق رعاية رعايا السلطان من الأرثوذكس فى البلاد التركية ، وسيكون لهذا الحق الأخير أسوأ الأثر على مصير تركيا فيما بعد ، ثم إن تركيا اضطرت بعد ذلك فى معاهدة إينالى كاقاك فى ١٠ مارس ١٧٧٩ م إلى الاعتراف بحليف روسيا شاهين غراى خان القرم ، وبعد أربع سنوات احتل الروس القرم وكوبان ، ودخلت جيوش كاترين الثانية القرم منتصرة ، واجتمعت بحليفها يوسف الثانى إمبراطور النمسا وتفاهما على اقتسام تركيا . ثم وقعت حرب عنيفة أخرى اجتاح الروس فيها خوتين وياسى وأوتشاكوف وقتلوا سكانها المسلمين جميعا بأمر القائد الكسندر سوفوروف ، وعلى أثر هذه الكارثة توفى عبد الحميد الأول .

محـاولات الإصـــلاح .

وهكذا انهار المارد التركى دفعة واحدة ، ولكن الحقيقة أنه كان يتدهور من الداخل من زمن طويل ، لأن الإدارة العثمانية فى بلاد الدولة وولاياتها كانت مضطربة وفاسدة ، وكان الموظفون يفقدون شيئاً فشيئاً شعور الاحترام لسمعة الدولة أو حقوق الناس ، وكان الجيش العثمانى قد تضخم إلى درجة جاوزت الحد ، كما أن نوعية الجندى العثمانى كانت تتدهور يوما بعد يوم حتى أصبح الجنود أنفسهم من أكبر مشاكل الدولة ، وكان الحكام الإقطاعيون فى كل ناحية من نواحى الدولة تقريبا قد استولوا على السلطة فى مقابل أداء

مال معين ، وفى الجزائر وطرابلس كان الولاة العثمانيون مستقلين تقريبا ، وفى مصر عاد المماليك فقبضوا على السلطة ولم يعد أحد يهتم بالقواعد السليمة التى وضعها سليمان القانونى ، وتوقف نمو التجارة والصناعة بعد أن كان قد حقق فى أيام سليمان تقدماً عظيماً ، وفى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين عندما كانت الصناعة الأوروبية فى سبيل النهوض – تدهورت التجارة والصناعة وتوقفت فى بلاد الدولة العثمانية عند أشكالها وأحوالها فى العصور الوسطى . باختصار ، وقفت الدولة العثمانية الضخمة عاجزة عن مواجهة أوروبا الناهضة القوية وبخاصة الروسيا التى أصبح القضاء على الدولة العثمانية هدفا رئيسيا من أهدافها ، ولم يمنعها من التهامها إلا وقوف فرنسا وانجلترا فى وجهها خوفا من استيلاء الروسيا على ملك آل عثمان الشاسع ، وفى نفس الوقت قامت الثورات فى كل نواحى الدولة عندما شعر رعاياها بضعفها وعجزها ، ونوجز فيما يلى خطوات تفكك الدولة العثمانية : —

* فى أيام سليم الثالث (١١ رجب ١٢٠٣ — ١٢٢٢ هـ / ١٧٨٩ — ١٨٠٧ م) فقدت تركيا بلغراد واستولت النمسا عليها ..

* وبمساعدة ليوبولد الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة استردت تركيا بلغراد فى ٤ أغسطس ١٧٩١ م وتقرر ذلك فى معاهدة سستوفا (شستوف) ..

* وقررت إنجلترا المحافظة على الدولة العثمانية والحيلولة دون غزو الروسيا لأراض جديدة من أراضى الدولة .

* ولكن كاترين الثانية استمرت فى محاربة تركيا وأرغمتها على قبول معاهدة ياسى وأصبح نهر الدنيستر هو الحد بين تركيا وروسيا .

* وفى سنة ١٧٩٨ م استولى نابليون على مصر ، وعقدت تركيا معاهدة مع روسيا وانجلترا والنمسا ضد نابليون ، وحاول نابليون الاستيلاء على بلاد الشام ولكنه لم يستطع الاستيلاء على عكا واضطر إلى العودة إلى مصر ، وفى نفس الوقت أرسلت روسيا أسطولا غزا جزر الأيونيان .

* وتمكن الإنجليز من تحطيم الأسطول الفرنسى فى معركة أبى قير البحرية قرب الإسكندرية

* وقامت ثورة فى فيدين يقودها قرة جورج بتروفيش واستولى على بلغراد

* وخلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر قامت الثورة السلفية فى جزيرة العرب ولقيت تأييدا كبيرا من أهل نجد ، وتمكنت فى زمن قصير من توحيد نجد والحاق الجزيرة وشرقها تحت لوائها ، ورأت الدولة فى ذلك تهديدا لأملاكها فى العراق وبلاد الشام والحجاز .

* وفى سنة ١٨٠٦ م قام قسطنطين أبسلانتى وإسكندر موروس بإعلان الثورة فى ملدافيا وهى البغدان وولاشيا وهى الأفلاق فى نوفمبر سنة ١٨٠٦ م وفشل الأسطول الإنجليزى فى اقتحام البوسفور .

* وفى نفس الوقت احتلت روسيا ملدافيا وولاشيا .

* وفى أيام السلطان مصطفى الرابع بن عبد الحميد (١٢٢٢ — ١٢٢٣ هـ / ١٨٠٧ — ١٨٠٨ م) اتفق القيصر إسكندر الأول ونابليون فى معاهدة تلزيت على اقتسام الدولة العثمانية واشترط نابليون انسحاب الروسيا من ملدافيا وولاشيا .

* وفى سنة ١٨٠٧ تراجع الأتراك إلى أدرنة ، وفى هذه الظروف سار بيرق دار باشا من روستوف واحتل استامبول ، وقتل السلطان مصطفى الرابع وخلفه السلطان محمود الثانى (١٢٢٣ — ٢٥ ربيع الآخر ١٢٥٥ هـ / ١٨٠٨ — يونيو ١٨٣٩م) وجعل بيرق دار باشا صدرا أعظم وبدأ الاصلاح العسكرى بإنشاء الجيش تمهيدا للقضاء على الإنكشارية ولكنه فشل فى إنشاء ذلك الجيش ، وعاد الإنكشارية إلى سلطانهم القديم .

* وفى معاهدة بوخارست ثبتت الحدود بين روسيا وتركيا عند نهر بروث فى ٢٨ مايو ١٨١٢ م لأن إنجلترا أرادت مساعدة الدولة على الوقوف فى وجه روسيا ، وفى نفس الوقت بدأت إنجلترا محاولاتها للقضاء على محمد على باشا والى مصر الذى توغلت جيوشه فى بلاد الشام .

* وفى سنة ١٨١٧ م انفصلت الصرب عن الدولة بقيادة قره جورج الأسود ، واستولت روسيا على الطريق من نهر تروبى إلى البحر الأسود بين إناپه وبوتى .

* وفى تلك السنوات تمكن محمد على من القضاء على الدولة السعودية الأولى ، وعينته الدولة واليا على الحجاز مكافأة له على ذلك .

* وقام على باشا والى يانينا بالاستقلال بألبانيا واليونان ولكنه قتل سنة ١٨٢٢م ، واستنجدت الدولة بمحمد على لمعاونتها على القضاء على ثورة اليونان ، وتمكنت الجيوش المصرية من القضاء على الثورة واحتلت بلاد المورة وهى الجزء الجنوبى من اليونان ، ولكن الدول أسرعت لمعاونة اليونانيين ومساعدتهم على إخراج المصريين من المورة وإعلان استقلال اليونان ١٨٣٠ م .

* كذلك استقلت ولاشيا وملدافيا واعترفت تركيا باستقلالهما فى معاهدة لندن فى ٧ مايو ١٨٣٢ م ومنهما تكونت دولة رومانيا .

* وفى سنة ١٨٣٠ م بدأت فرنسا فى غزو الجزائر .

* وفى نفس الوقت ثارت البوسنة وألبانيا .

* وفى سنة ١٨٣١م غزا إبراهيم باشا بن محمد على بلاد الشام واضطرت الدولة إلى الاعتراف به واليا عليها ، ولكن العلاقات تدهورت مرة أخرى ، وفكر محمد على فى أن ينتهز فرصة ضعف الدولة العثمانية ويأمر ابنه بغزو آسيا الصغرى ، وهناك من يقولون إنه كان يفكر فى دخول الآستانة وإرغام الدولة على التنازل له عن كل الولايات العربية لإنشاء دولة عربية جديدة ، وبالفعل انتصر الجيش المصرى على الأتراك فى موقعة نزيب سنة ١٨٣٩م ، وعقب ذلك توفى السلطان محمود الثانى فى أول يوليو سنة ١٨٣٩م ، وتولى السلطان عبد المجيد الأول بن محمود الثانى (٢٥ ربيع الآخر ١٢٥٥ — ١٥ ذى الحجة ١٢٧٧ هـ / ١٨٣٩ — ١٨٦١م) .

* وفى تلك الظروف وخوفا من أن يحقق محمد على خطته تدخلت بريطانيا وفرنسا ، وأنزلت إنجلترا جيشا فى بلاد الشام ، فخاف محمد على ووقع معاهدة ١٨٤١م التى تقرر فيها أن يكتفى محمد على بمصر وراثية فى أولاده ، وانسحب محمد على من الشام وكريت وفى هذه المعاهدة تقرر للدولة العثمانية الحق فى إقفال المضايق ضد أى دولة .

* ومصطفى رشيد باشا سفير تركيا فى لندن يصبح صدرا أعظم ويستصدر من السلطان القانون المسمى بالتنظيمات (جولخانه خطى شريف همايونى) .

* وفى سنة ١٨٤٧ م ثبتت الحدود بين فارس وتركيا بمعاهدة أرضروم .

وبدأت حرب القرم فى ٣ نوفمبر ١٨٥٣م عندما ضرب أسطول روسى اسطولا تركيا فى ميناء سينوب فى البحر الأسود ، وبدأت الحرب فعلا فى ١٤ سبتمبر ١٨٥٤م وانتهت فى ديسمبر ١٨٥٤ م ، ووقعت معاهدة باريس وتنازلت فيها روسيا عن ادعاءاتها فى حماية الأرثوذكس ، وتخلت كذلك عن مطالبها فى ولايات الدانوب ، وأعيدت بسرابيا إلى تركيا ، وتقررت حرية الملاحة فى نهر الدانوب تحت حماية لجنة مراقبة دولية ، واعتبر البحر الأسود بحراً مفتوحاً للتجارة العالمية ، وروسيا وتركيا لهما الحق دون غيرهما فى الاحتفاظ بأساطيل فيه ، واعتبرت تركيا عضواً فى الجماعة الأوروبية واتفقت الدول على احترام أراضيها وأصرت الدول على تعهد الاتفاقات الجديدة .

* وأنشئت رومانيا فى سنة ١٨٥٩م بتشجيع من فرنسا والنمسا .

* وبعد مذابح سنة ١٨٦٠م اعترفت الدولة باستقلال جبل لبنان فى ٩ يونيو ١٨٦١م .

ازدياد تدهور الدولة فى عهد السلطان عبد العزيز بن محمود الثانى . (١٥ من ذى الحجة ١٢٧٧ — ١٠ من جمادى الأولى ١٢٩٣ هـ / ١٨٦١ — ١٨٧٦ م)

خلال سنة ١٨٦١ م قامت ثورة الجبل الأسود والهرسك والصرب وانسحب الأتراك من الصرب تماما سنة ١٨٦٢ م بتدخل فرنسا والنمسا .

وفى سنة ١٨٦٩ م منحت كريت الاستقلال الذاتى .

وفى ١٧ مايو ١٨٦٦ م حصل إسماعيل باشا والى مصر على حق حصر الملك فى أولاده ومنحه السلطان لقب خديو فى ٨ يونيه ١٨٦٧م .

وعزل السلطان عبد العزيز فى ٢٩ مايو سنة ١٨٧٦ م على يد مدحت باشا وحزب تركيا الفتاة ، وبعد ذلك بقليل وجد السلطان مقتولا فى منفاه فى سلانيك ، ويقال إنه انتحر بقطع شرايين يده ، واتهم مدحت باشا ورجال حزب تركيا الفتاة بقتله .

السلطان عبد الحميد الثانى بن عبد المجيد .
من ١٠ شعبان ١٢٩٣ إلى ٦ ربيع الآخر ١٣٢٧ هـ / ١٨٧٦ - ١٩٠٩م

* واستمرت الثورات فى كل نواحى الدولة فقامت ثورة الروملى الشرق (رومانيا) وانضمت إليها بلغاريا واعترفت الدولة باستقلال بلغاريا عن تركيا سنة ١٨٥٨ م وأقيم حاكما عليها الأمير الألمانى الكسندر فون باتن برج .

* وفى سنة ١٨٨٩ م اشتدت ثورة كريت وتطلعت اليونان إلى الاستيلاء عليها

* وثار الأرمن فى آسيا الصغرى بتحريض من الأوروبيين ضد الأتراك سنة ١٨٩٤ م وتدخلت انجلترا وفرنسا ، ووضع نظام خاص لحكم الولايات الشرقية فى الدولة ووافقت تركيا على هذا سنة ١٨٩٦م .

* وفى سنة ١٨٩٧م اعتدى اليونانيون على الأتراك وانتصر الأتراك عليهم فى إبريل ١٨٩٧م ، ودفعت اليونان غرامة قدرها أربعة ملايين جنيه وحصلت على تعديل طفيف فى الحدود .

* ووضعت كريت تحت الوصاية الدولية وعين الأمير جورج ابن ملك اليونان حاكما عليها .

* وبدأ التقارب بين ألمانيا وتركيا سنة ١٨٩٩م وأرسلت ألمانيا واحدا من أكبر قوادها وهو الجنرال فون مولتكه لتدريب الجيش التركى (ومن أكبر تلاميذ فون مولتكه من الأتراك مصطفى كمال أتاتورك وأنور باشا) ونالت تركيا حق مد خط سكة حديد الأناضول والحجاز .

وتكونت فى اليونان عصابات تسمى الكومتاجى فى البلقان لمحاربة الأتراك حرب عصابات ، واشتد ضرر هذه العصابات فى مقدونيا ، وقررت روسيا والنمسا وضع ولايات أسكوب ومومانستر وسلانيك تحت سلطة مفتش عام تركى هو حسين باشا حلمى ، ... وضع البوليس فى مقدونيا تحت إشراف مدربين إيطاليين ونمساويين وروس وإنجليز وفرنسيين ولكن الثوار فى مقدونيا استمروا فى حركاتهم .

حركة الاتحاد والترقى .

فى هذه الظروف العصيبة تكونت حركة الاتحاد والترقى للقضاء على السلطان عبد الحميد ، وكان أكبر منشئيها طلعت بك ورحمى بك فى سلونيك ، وانضمت إليها جمعيات الإصلاح التركية الأخرى برياسة ناظم بك ، وانضم إليها الضباط نيازى وأنور ومصطفى كمال وجمال باشا والى الشام خوفا من اتفاق إدوارد السابع ونيقولا الثانى قيصر روسيا على تقسيم تركيا ، وبدأت ثورة الاتحاد والترقى على السلطان فى يوليو ١٩٠٨ م بقيادة نيازى بك فى ريسنا فى سلونيك وطالبت السلطان بإصدار الدستور وقد أصدره فى يوليو من نفس السنة ، وتجمع ثوار الكومتاجى والبلغاريين والصرب واليونانيين حول حركة الاتحاد والترقى وخافت النمسا وروسيا من تلك الحركة ووضعتا مشروعا سريا لتقسيم تركيا فيما بينهما قبل أن يشتد ساعد حركة الاتحاد والترقى ، وبعد ثلاثة أسابيع من الاتفاق أى فى ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٨ م ضمت النمسا إقليمى البوسنة والهرسك وأعلنت بلغاريا استقلالها الكامل ، وتلقت تركيا مبلغ ٢,٢٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى فى مقابل تنازلها عن البوسنة ، وتنازلت روسيا عن خمسة ملايين جنيه استرلينى من دينها على تركيا فى مقابل اعتراف تركيا باستقلال بلغاريا .

وعقب ذلك قامت الثورات فى كل مكان : فى مقدونيا وبلاد الأكراد والأرمن والنساطرة فى شرق الأناضول . وتمكن عزت باشا من تهدئة اليمن سنة ١٩١١ م وقامت ثورة فى العاصمة إستانبول ، وأحنى السلطان عبد الحميد رأسه للعاصفة وعفا عن الثائرين ، ثم ثارت قوات الاتحاد والترقى من سلانيك إلى إستانبول وعزلت السلطان عبد الحميد وولت السلطان محمد (الخامس) رشاد بن عبد المجيد (٦ ربيع الآخر ١٣٢٧ - ٢٣ رمضان ١٣٣٦ هـ / ١٩٠٩ - ١٩١٨م) وحاول السلطان عبد الحميد فى اللحظة الأخيرة إحياء الوحدة الإسلامية والاستعانة بها فى تثبيت نفسه فى السلطنة وأيده فى ذلك قيصر ألمانيا ولكن ذلك كله كان بعد فوات الأوان .

* بدأ محمد الخامس يحكم فى ٢٧ إبريل ١٩٠٩م وانتهزت إيطاليا الفرصة وهاجمت طرابلس وبرقة سنة ١٩١١ م ، وعلى الرغم من فشل الإيطاليين فى التوغل فى الداخل فإن تركيا اعترفت بالأمر وصارت ليبيا كلها لإيطاليا واستولت إيطاليا كذلك على جزيرة رودس .

* ثم قامت الثورة الشاملة فى البلقان كله بتحريض من روسيا خوفا من أن يشتد ساعد تركيا بتأييد الألمان ، وقامت الحرب البلقانية الأولى فى سنتى ١٩١٢ ، ١٩١٣م ، وانهزمت تركيا أمام اليونان والصرب وبلغاريا ومقدونيا بتأييد روسيا ولكن الأتراك ثبتوا فى أسكدار وألبانيا وأدرنة ، وأخيراً وبعد قتال عنيف انسحب الأتراك إلى آخر خطوط دفاعهم فى أوروبا وهو خط شطلجه ، وفى ديسمبر ١٩١٢م تم فى مؤتمر لندن تحديد حدود تركيا فى أوروبا عند إينوس ميديا Inoz Midia . ومع أن تركيا خسرت مقدونيا فى هذه الحرب فإنها نجت بهذه المعاهدة من خطر جسيم وأصبحت أقدر على مواجهة مشاكلها ، ثم تمكن الأتراك من استعادة خط أدرنة منتهزين فرصة اختلاف أهل البلقان ، وثبتت حدود تركيا عند نهر ماريتزا فى ١٤ نوفمبر ١٩١٣م وأخذت اليونان كل جزر بحر إيجة ماعدا تنيدوس والدوديكانيز .

* وقام محمود شوكت باشا يبذل أقصى جهده فى إصلاح شئون الدولة وأرسلت ألمانيا الجنرال ليمان فون ساندرز ليعيد تنظيم الجيش التركى وقام أميرال إنجليزى بإصلاح البحرية التركيه

تركيا فى الحرب العالمية الأولى

كانت انجلترا قد احتلت مصر سنة ١٨٨٢م واحتلت فرنسا تونس فى نفس الوقت ، وتوغلت فرنسا فى الجزائر حتى بلغت الصحراء واحتلت المغرب الأقصى سنة ١٩١٢م ، ونتيجة لذلك كله وجدت تركيا نفسها مضطرة إلى التحالف مع ألمانيا على أمل أن تستطيع المحافظة على مابقى لها ، وعندما قامت الحرب فى نوفمبر ١٩١٤م دخلت تركيا تلك الحرب إلى جانب ألمانيا ، وهنا قام مايعرف بالثورة العربية على تركيا وقادها الأمير حسين بن على والى الحجاز واشترك فيها أهل الشام والفلسطينيون وبفضل هذه الحركة تمكن الإنجليز من دخول القدس فى ٩ ديسمبر ١٩١٧ م ، وكانت روسيا قد تقدمت فى أرض تركيا ولكنها خرجت من الحرب فى ٣ مارس ١٩١٨م نتيجة هزائمها المتوالية ، واستعادت تركيا كل أراضيها التى فقدتها من سنة ١٨٧٧م وذلك فى معاهدة بريست ليتوفسك التى وقعتها مع ألمانيا وحلفائها ، وسارعت إنجلترا بإعلان حمايتها على فلسطين ومصر ، وفى نهاية الحرب بانهزام ألمانيا وتركيا اضطرت تركيا إلى الخروج من الحرب ووقعت هدنة مع الحلفاء فى ٣٠ اكتوبر سنة ١٩١٨ وبمقتضى هذه الهدنة احتل الحلفاء المضايق وإستانبول .

خريطة ١٧١

خريطة ١٧٢ خريطة ١٧٣

- تركيا بمقتضى معاهدة سيفر
- حرب التحرير التركية
- تبادل الأقليات

ميلاد تركيا الحديثة

عقب توقيع هذه الهدنة اعتقد الناس أن تركيا فعلا قد انتهت ولكن عددا من ضباط الأتراك من بقايا جمعية الاتحاد والترقى تجمعوا فى أطنة وأعلنوا أن تركيا ستحارب لاستعادة أراضيها ، واستعادوا من كميات من الأسلحة تركها لهم الألمان وتجمع جنود الأتراك حول أولئك الضباط ورئيسهم مصطفى كمال .

وفى ١٨ مايو ١٩١٩ م ترك مصطفى كمال ورفقاؤه إستانبول قبل أن يحتلها الحلفاء وذهبوا إلى صمسون ومنها إلى أماسيا حيث اجتمعوا مع عدد من الضباط من أمثال رءوف بك وعلى فؤاد باشا والكولونيل رفعت ، والتقت جماعات الأحرار فى أرضروم فى يوليو ١٩١٩ م ثم عقدوا مؤتمرا فى سيواس فى شرق آسيا الصغرى فى سبتمبر ١٩١٩ م وأعلنوا استقلال تركيا .

وفى إبريل ١٩٢٠م عقد اجتماع وطنى كبير فى أنقرة واختير مصطفى كمال قائدا لقوات التحرير .

وفى أثناء ذلك كان السلطان محمد السادس قد وقع معاهدة سيفر واعترف باحتلال الإنجليز والفرنسيين لإستانبول واليونان لأزمير . وفى معاهدة سيفر أعطيت الولايات الست الشرقية من الأناضول لجمهورية إرمينية التى أنشأتها تلك المعاهدة ، وقام كاظم كرة بكر بطرد الأرمن من شرق آسيا الصغرى إلى قارص والكسندروبول التى تقع اليوم فى جمهورية إرمينية السوفيتية وتسمى لنيناكان ووقعت اتفاقية بين روسيا وتركيا . وفى ذلك الحين وقفت

روسيا التى كانت الثورة الشيوعية قد قامت فيها إلى جانب حركة التحرير التركية لأنها كانت حربا ضد الحلفاء ولكن الروس عدلوا عن الاتفاقية وأخذوا من الأراضى التركية أردهان وأرمين وباطوم ، وفى معاهدة قارص فى ١٣ أكتوبر ١٩٢١ م لم تحتفظ روسيا من أرض الأتراك إلا بباطوم .

وبتحريض من رئيس الوزراء الإنجليزى ديفيد لويد جورج تقدم اليونان من أزمير واحتلوا اسكيشهر وأفيون كره حصار ، ولكن عصمت إينونو تمكن من وقف تقدمهم وتقدمت جيوش مصطفى كمال وانتصرت على اليونان انتصارا حاسما فى موقعة نهر سقارية ، وأخرج اليونان من آسيا الصغرى واحتل الأتراك أزمير وانسحب الإنجليز والفرنسيون من إستانبول ، وفى معاهدة لوزان فى ٢٤ يوليو ١٩٢٣ م اعترفت الدول باستقلال تركيا وجعلت حدودها فى الغرب نهر ماريتزا بما فى ذلك أدرنة ، واعترفت تركيا بانفصال سورية والعراق عنها ، أما حدود تركيا فى الشرق فكما هى الآن وكما حددناها على الخريطة الخاصة بتحرير تركيا وفيها نرى أن الأرمن أخرجوا جميعا من الأراضى التركية وأقامت لهم روسيا السوفيتية جمهورية اشتراكية عاصمتها أريفان . وفى سنة ١٩٢٢ م أعلن مصطفى كمال إلغاء الخلافة وذهبت دولة آل عثمان وحلت محلها الجمهورية التركية الحالية .

المراجع

أحمد عبد الرحيم مصطفى — أصول التاريخ العثمانى ، القاهرة ١٩٨٢ م .

توفيق علي برو — العرب والترك فى العهد الدستورى (١٨٩٢ – ١٩١٤ م) القاهرة ١٩٦٠ م

شارل ديل — البندقية ، جمهورية أرستقراطية . ترجمة أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر . القاهرة ١٩٤٧ م .

عبد السلام عبد العزيز فهمى — السلطان محمد الفاتح . بيروت ١٩٧٥ م .

عبد العزيز محمد الشناوى — الدولة العثمانية دولة مفترى عليها . ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٨٠ م .

علي حسون — تاريخ الدولة العثمانية . دمشق ١٩٨٠ م .

عماد أحمد الجوهرى — العراق والتوسع الصفوى . مجلة دراسات الخليج العربى . الكويت . عدد ٢٠ السنة الخامسة . أكتوبر ١٩٧٩ م

فاضل حسين — مؤتمر لوزان وآثاره فى البلاد العربية . بغداد ١٩٦٧ .

كارل بروكلمان — تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكى . بيروت ١٩٧٧ م .

محمد أنيس — الشرق العربى والدولة العثمانية . القاهرة ، بدون تاريخ

محمد فؤاد كوبريلى — قيام الدولة العثمانية . ترجمة د. أحمد السعيد سليمان . القاهرة ١٩٦٧ م .

د بارتولد — تاريخ الترك فى آسيا الوسطى . ترجمة د. أحمد السعيد سليمان . القاهرة بدون تاريخ .

محمد نامق كمال — كتاب ملحمة الفتوحات العثمانية . حيفا ١٩٠٩ م .

مصطفى طوران — أسرار الانقلاب العثمانى . ترجمة كمال خوجة ، دار السلام ، بيروت ١٩٨٠ م .

Allen , W E.D., Problems of Turkish Power in the Sixteenth Century (General Asian Research Center . London 1936) .

Armstrong , H C Jrey wolf , Mustafa Kemal An intimate study of a Dictator . New York , 1972 .

Barker , James , Turkey in Europe . London 1977 .

Boxer , E .R., The portuguese sea borne Empire 1415 - 1825 . London 1977 .

Clark , Edson L ., Turkey - New York , 1898 .

Creasy , Edward s., History of the Ottoman . Turks with a new introduction by zeine , N ., Zeine , khayats , Beirut 1961 .

Dnalcic , H., the Ottoman Empire , the classical Age 1300 - 1600 . London 1973 .

The Times Atlas of World History . Hammond - New - Jersey 1978 .

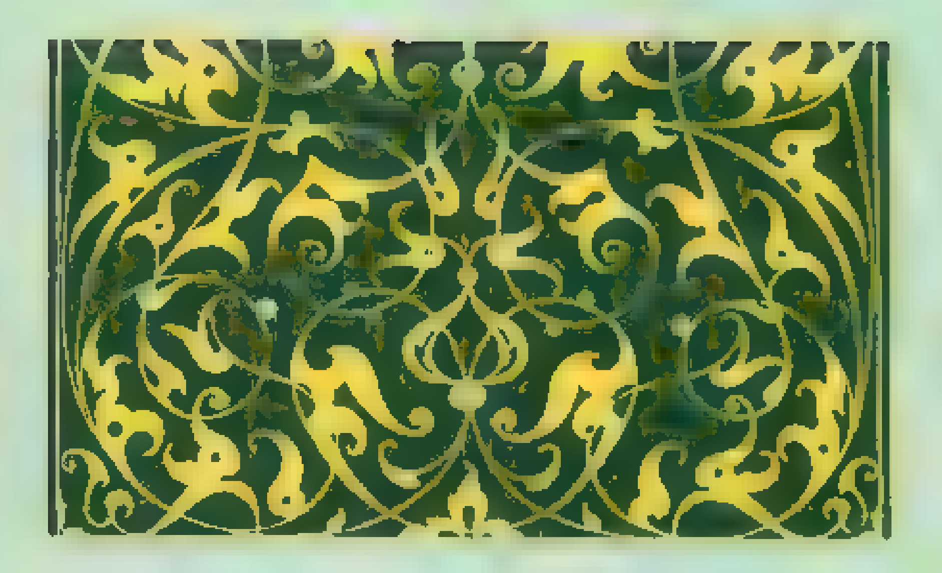

الفصل الثامن عشر

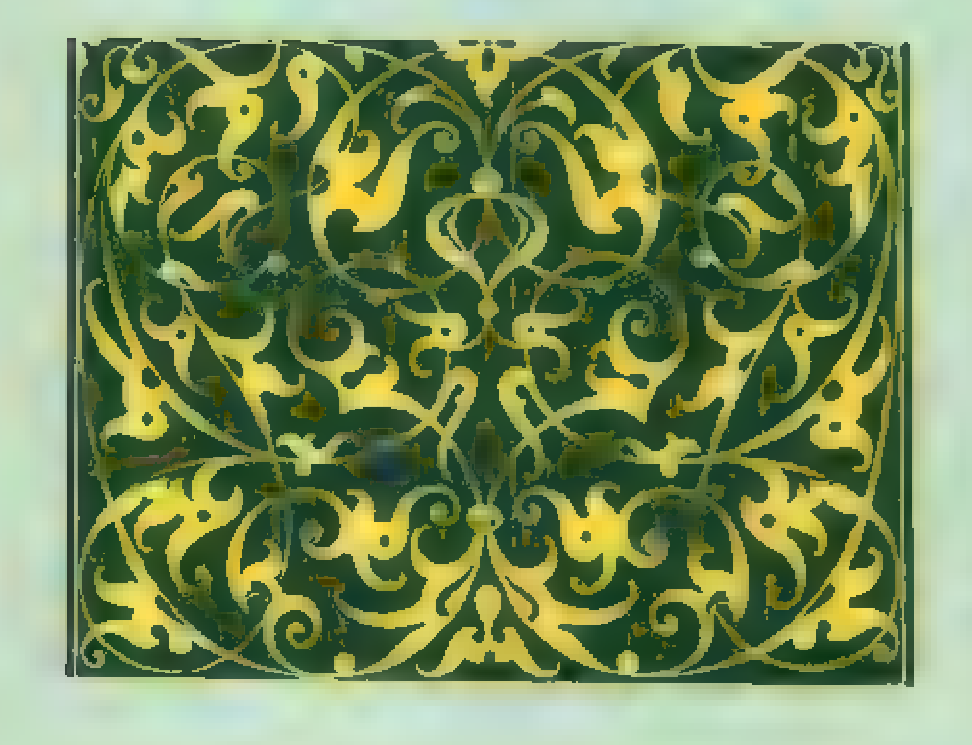

الإسلام يوسع عالمه

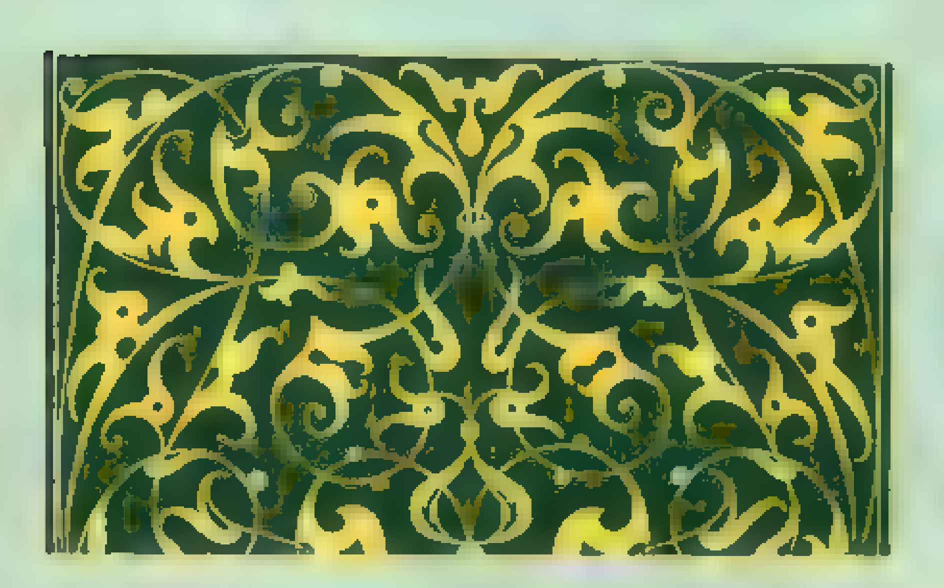

بيان الخرائط

ملحوظة - وردت الخريطة ١٧٦ بعد الخريطة ١٧٧ لاعتبارات فنية

الدول الإسلامية
مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠
البحر المتوسط
المحيط الأطلنطي
خليج غينيا
سجلماسة
القليعة
فزان
سبها
أوباري
مرزوق
غات
تندوف
توات
تاموست
تغازى
أرواب
تادمكة
تنبكت
ولاتة
أودغشت
الكعارتة
كومبي صالح
بلاد غانة
بلاد مالي
نياني
جني
بيتكو
كوكة
جاو
بلاد التكرور
نواكشوط
الكانم
بحيرة تشاد
الحوسا
كاتسينا
كانو
زارية
كونغ
تابو
سكوندي
الفطرون
مدروسة
بلمه
بلاد العير
أغادس
بيطو
بوري
يارة
نيني
جبال الأطلس

الدول الإسلامية

في غرب ووسط أفريقيا المدارية والاستوائية بعد القرن الخامس عشر الميلادي – التاسع الهجري

هجرات الفولانيين المسلمين

خليج غينيا

دولة صنغاي
سلطنة الكانم والبرنو
بلاد الهوسا
وضعنا خطاً تحت أسماء الدول غير الإسلامية

مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠

الأغواط
ورقلا
عين صالح
غرداية
مزاب
تندوف
الساقية الحمراء
تغازى
تاوديني
طوارق
ودان
أدرار
تشيت
أروان
تادمكة
ولاته
أوليت
تمبكت
جاو
صنغاي
جنة
الكانم
البرنو
بلاد الهوسا
كانو
كاتسينا
زاريا
واداي
اليوروبا
دولة بنين
دولة أويو
دولة الأكان
شعب الديولا
(ماليكى)
الجوكون
أكرا
سكوندى
تاكو
رأس بالماس
الأطلسي
المحيط

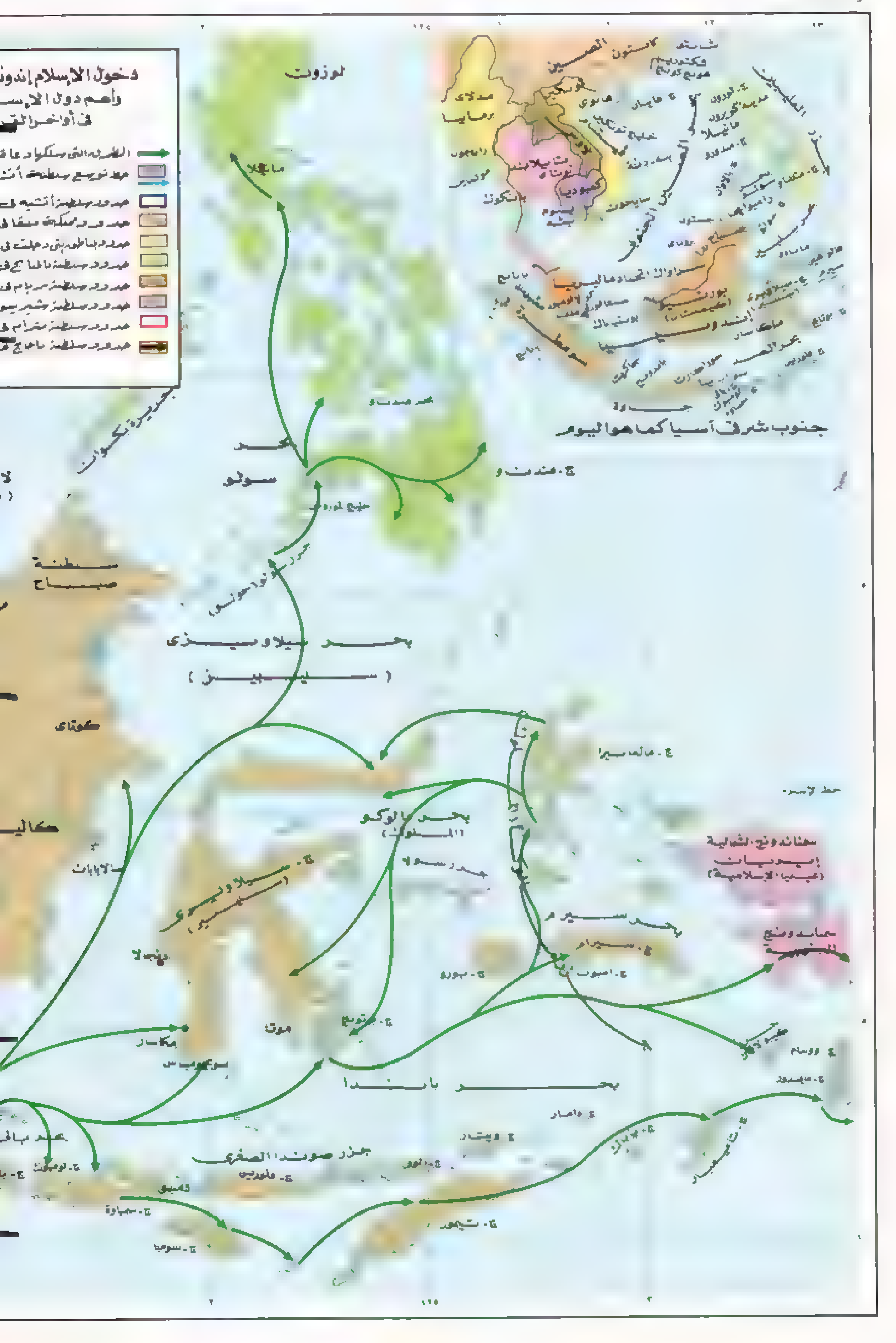
دخول الإسلام إندونيسيا
وأهم دول الإسلام
في أواخر القرن
لوزون
مانيلا
بحر سولو
مندناو
بحر سيلاوسيزي
(سيليبس)
كوتاي
سلطنة صباح
بحر مالوكو
(الملوك)
سيلاويزي
(سيليبس)
مكاسار
بحر باندا
بحر سيرام
سيرام
جزر صوندا الصغرى
غينيا الجديدة
تيمور
جنوب شرق آسيا كما هو اليوم
الصين
بورما
تايلاند
كمبوديا
فيتنام
ماليزيا
إندونيسيا
بورنيو
سومطرة
جاوة
بحر الصين
الفلبين

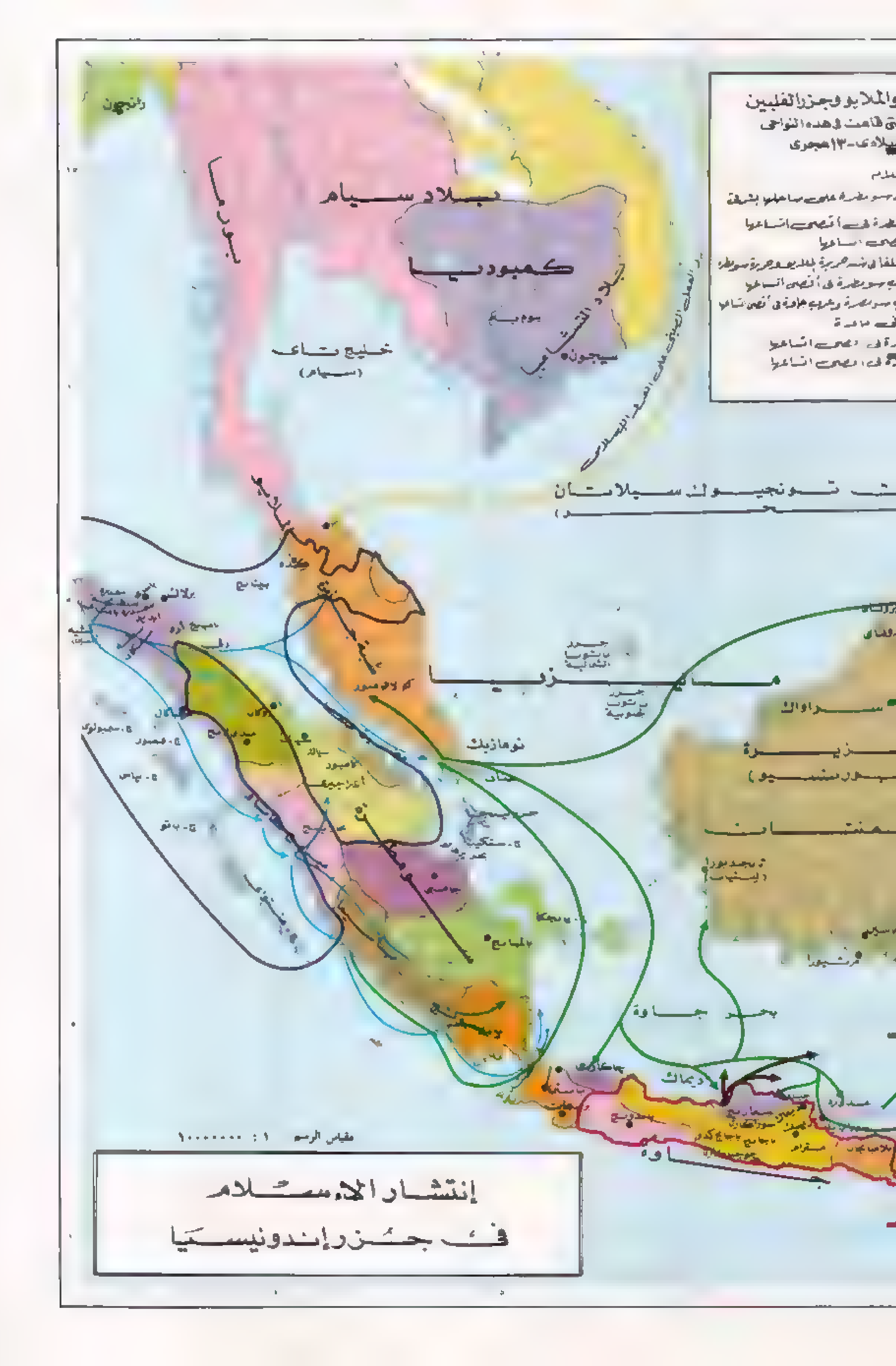

رانجون
بلاد سيام
كمبوديا
خليج تاى
(سيام)
سيجون
ماليزيا
سراواك
بحر جاوة
جاوه
مقياس الرسم ١ : ١٠٠٠٠٠٠٠
إنتشار الإسلام
في جزر إندونيسيا

شرق إفريقية الإسلامي
مناطق دخلت في الإسلام في شرق أفريقيا
الخطوط البحرية الخاصة بهجرة المسلمين إلى أفريقيا من آسيا
توسعات المسلمين المتوالية بعد الهجرة الداخلية.
الجزيرة العربية
النوبة
السودان
اليمن
حضرموت
بحر العرب
خليج عدن
البحر الأحمر
الحبشة
الصومال
ساحل سومبرة
المحيط الهندي
مدغشقر
مكة
جدة
صنعاء
الحديدة
عدن
كسلا
الخرطوم
جورجوري
رأس حفون
زيلع
بربرة
هرر
أديس أبابا
مقديشو
قسمايو
لامو
ماليندي
ممباسة
زنجبار
دار السلام
كلوة
بحيرة فيكتوريا
نيروبي
أروشا
كمبالا
موزمبيق
سفالة
خط الاستواء
مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠

الإسلام يوسع عالمه

يتناول هذا الفصل انتشار الإسلام فى الصحراء الكبرى الإفريقية وإفريقية المدارية والاستوائية فى غرب القارة الإفريقية ووسطها وشرقها فيما عدا السودان النيلى الذى فرغنا منه من قبل ، وكذلك انتشار الإسلام فيما يلى إيران وماوراء النهر شرقاً حتى شرق آسيا وجنوبها الشرقى . أى أن هذا الفصل يتناول معظم ماانتشر فيه الإسلام من البلاد سلمياً دون فتح أى ماافتتحه الإسلام بقوته الذاتية التى أودعها الله فيه دون حروب ، وهذا فقد سميناه الإسلام يوسع عالمه .

وفى صراعه الطويل لاجتذاب البشر إليه وإدخالهم فى دين الله تعرض الإسلام لمصاعب جمة وخاض صراعاً طويلاً انتهى به إلى أن أصبح اليوم ثالث الأديان الكبرى التى يدين به البشر ، وهى على الترتيب البوذية (بفروعها ومذاهبها المختلفة) ، المسيحية ، الإسلام ، وهناك أديان أخرى كثيرة جداً يدين بها البشر ولكنها أقل من هذه من حيث عدد الداخلين فيها ، ومما يستلفت النظر أن [illegible] الإسلام [illegible] فيه هيئة دينية وظيفتها المحافظة عليه ونشره كما نجد فى المسيحية مثلاً ، وإنما هو انتشر عن طريق شعوب آمنت به وحملت لواءه وأدخلت فيه شعوباً وأراضى أخرى ، ثم انتشر [illegible] دينه وحبب إليهم الجهاد فى سبيله . وإذا نحن قارنا بين مساحة الأراضى التى دخلت الإسلام عن طريق دول مسلمة والتى دخلته عن طريق الدعاة والتجار لوجدنا أن البلاد التى دخلت الإسلام تطوعاً تبلغ ثلثى عالم الإسلام ، وفى عالمنا الراهن مازال الإسلام ينتشر رغم العوامل الكثيرة ورغم القوة التى ترصد لمكافحته ، فمن عشر سنوات كان واحد من كل ستة من البشر يدين بالإسلام واليوم تبلغ نسبة المسلمين فى العالم واحداً من كل خمسة ونصف ونحن عندما نتكلم عن الإسلام فإننا نعنيه بمذهبيه السنة والشيعة ، لأن الحقيقة أن السنة لايختلفون عن الشيعة إلا فى مسائل لاتمس العقيدة ، فالمسلمون جميعاً يؤمنون بالله الواحد ، كما يؤمنون برسوله محمد ﷺ ، ويصلون ، ويصومون ، ويحجون ، ويخرجون الزكاة ، وهذا هو المهم الذى يجمعنا ، وماعدا ذلك تفاصيل لاتمس صلب العقيدة .

خريطة ١٧٤

الدول الإسلامية فى غرب ووسط إفريقية المدارية والاستوائية

القرن الخامس عشر الميلادى / التاسع الهجرى

فى الفصل الخاص بالمغرب درسنا انتشار الإسلام فى الشمال الإفريقى كله ووصوله إلى إقليم فزان على أبواب إفريقية المدارية فى وسط القارة الإفريقية ، ونتابع الآن انتشار الإسلام فيما يلى ذلك جنوباً وشرقاً وغرباً .

فى نهاية القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى أخذ الإسلام ينتشر جنوبى فزان فى بلاد غنية بالواحات تسمى فى النصوص الإسلامية باسم بلاد كوار التى هى اليوم جزء مما يعرف ببلاد تشاد ، ووصل عن طريق التجار والمسافرين إلى مشارف إفريقية الوسطى ، ومن هذا الطريق هاجرت فى القرن الثالث الهجرى قبيلة بربرية لانعرف ماذا كان اسمها فى موطنها الأول فى المغرب ، واستقرت بعض الوقت عند مناجم الملح التى تقع إلى الجنوب الغربى من جبال تبستى — والطريق من مناجم الملح جنوباً يؤدى إلى بلاد الكانم والبرنو التى سنتحدث عنها — ثم اتجهت غرباً إلى حوض النيجر ، واستقرت فى غرب المنطقة التى يسميها العرب بلاد الساحل ، والمقصود بذلك الساحل الجنوبى من بلاد الصحراء الكبرى إذ إن هذه الصحراء عندهم هى بحر الرمال . وحدود منطقة الساحل تمتد إلى الغرب حتى تصل إلى المحيط ، وصفة الساحل — وهى ساحل بحر الرمال والواحات فى ذلك البحر الرملى — تسمى بالجزائر ، أما لفظ الواحة أو الواح أو الواحات فهى لاتطلق إلا على واحات مصر الغربية وهى سيوة (صنترية عند العرب) والفرافرة (الفرفرون عندهم) والبحرية (وهى البحرين عندهم) والواحات الخارجة والداخلة ، واللفظ مصرى قديم معناه الماء .

وفى منطقة الساحل الهجرية هذه عرفت تلك القبيلة البربرية المهاجرة باسم سوننكة ، وتمكنت من السيطرة على إقليم الساحل كله ، ومدت سلطانها حتى حوض النيجر الأعلى ، وسيطر رجالها على مدن مثل ده تيكت (تومبكتو) وماسة وجنة على حوض النيجر ، تغلب أهلها على قبائل الإقليم المجاور لهم مثل البمبارا والوعقارا والتكرور والفولا ، واتخذوا لأنفسهم عاصمة تتوسط ملكهم هى غانة ، وموضعها اليوم قرية تسمى كومبى أو كومبى صالح إلى الشمال من باماكو الحالية عاصمة جمهورية مالى ، وقد ذكر ذلك كله محمود كعت فى كتابه المعروف باسم الفتاش .

وقد اتسع ملك السوننكة واختلطوا بالسكان وصاهروهم ، ولكنهم ظلوا يحتفظون بشخصيتهم ولون بشرتهم الشديد السمرة ، فهم فى الحقيقة فى لون أهل النوبة وأهل الحبشة ، فكان رعاياهم من السود يعتبرونهم غرباء ، وظل ملكهم قائماً حتى نهاية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى .

وقد حمل الإسلام إلى السوننكة فى مواطنهم فى إفريقية التجار والدعاة القادمون عن طريق فزان وكوار ، وقد تحدث محمود كعت فى كتابه « الآنف الذكر » ووصف ملوكهم بأنهم ملوك الذهب ، وسمى مملكتهم مملكة غانة نسبة إلى عاصمتها أو مملكة كيمغ نسبة إلى أول ملوكها ، ومعنى كيمغ ملك الذهب .

مملكة غانة فى أوج قوتها .

فى نهاية القرن التاسع الميلادى قامت قبيلة من قبائل السوننكة وهى سى سى أو صوصو ، وقضت على ملك آل كيمغ وحلت محلها ، وكان الصوصو قد اختلطوا بأهل البلاد ، ولهذا لم يجدوا صعوبة فى بسط سلطانهم على كل ماكان يملكه أسلافهم ، أما بقايا السوننكة من البربر فقد هربوا إلى إقليم التكرور عند مجرى نهر الغامبيا وتغلبوا على التكاررة الذين يعرفون فى النصوص الأوروبية باسم التوكولور ، فتفرقوا فى البلاد وأقام الكثيرون منهم فى الصحراء ، واختلطوا بشعب الطوارق ومنهم من ذهب إلى بلاد غانة .

ولم يكن السوننكة السود كلهم على الإسلام ، وإنما كان منهم الكثيرون من الوثنيين ، وكان الدين الحنيف ينتشر بينهم ويحل محل الوثنية شيئاً فشيئاً ، وهؤلاء المسلمون الغانيون الذين دخلوا الإسلام على أيدى السوننكة هم الذين مهدوا لتحويل بلاد غانة كلها إلى الإسلام عندما فتحها المرابطون فيما بعد ، واتسع سلطانها وتمكن ملوكها من الاستيلاء على مدينة أودغشت وكانت مركز التجارة الرئيسى لكل القوافل الصادرة من غانة وغيرها من بلاد إفريقية المدارية إلى بلاد المغرب عبر الصحراء ومسافة عرضها هناك شهران ، فإذا عبرت قوافل أودغشت الصحراء الكبرى قرب ساحل المحيط الأطلسى وصلت إلى واحات سجلماسة عاصمة إقليم تافلت .

وكانت مدينتا أودغشت وسجلماسة أكبر مراكز التجارة فى إفريقية كلها ، وقد تحدث عنها الجغرافيون العرب فى تفصيل كثير ، وأوفاهم كلاماً عنها أبو عبيد البكرى وحسن الوزان المعروف باسم ليون الإفريقى والشريف الإدريسى وابن حوقل ، ولهذا يعتبر استيلاء حكام غانة من السوننكة على أودغشت حادثاً فاصلاً فى تاريخ انتشار الإسلام فى إفريقية المدارية لأنه مكن الغانيين من السيطرة على طريق التجارة ، وطريق التجارة هذا هو طريق الإسلام ، وقد اندثرت أودغشت اليوم ، والبكرى يقول إنها كانت تقوم على مسافة شهرين من سجلماسة ، وعلى خمسة عشر يوماً من مدينة غانة القديمة التى كانت

تسمى كومبى صالح وتقع على مقربة من بليدة تجدادست Tegdadust شرق منطقة توجنت Togent .

واستولى الصوسو على أهم المدن غربى نهر النيجر مثل ولاتة (أنشئت فى القرن التاسع الميلادى) وأبارة وكرفة وسامة ، وخلال قرنين بلغت مملكة غانة الثانية التى أنشأها الصوصو أوج اتساعها وقوتها .

وقد وصف امتدادها د . إبراهيم على طرخان المؤرخ المصرى (القاهرة ١٩٧٠ م ص ٣٠) فقال : « وشملت من الأقاليم الهامة أدكار وهود وباسيكورو ووجادو فى الشرق ، ودياذا فى الغرب ، وكانياجا موطن الصوصو فى الجنوب الشرقى ، والواقع أن مدى اتساع إمبراطورية غانة ليس معروفاً بالضبط ، ولكن المحقق أن نفوذها كان واسعاً بحيث إنها كانت صاحبة السيادة والنفوذ فى جميع المساحات الواقعة بين النيجر والمحيط الأطلسى ، وصارت أعظم قوة سياسية فى السودان الغربى ، فدخلت فى طاعتها بلاد أعالى السنغال وفرعه باولى وحدود مملكة التكارزة ، ومن المحتمل أن تكون قد امتدت إلى أطراف منطقة الغابات الاستوائية ، والقريبة من مواطن الوثنيين المعروفين فى الكتب العربية باسم الكفار اللملمية ولعل هؤلاء هم المعروفون عند العوام بنمنم ، وقد اشتهر أمر مدينة غانة ، ومعظم أهلها من المسلمين ، ولكن الوثنية كانت منتشرة بين أهلها ، وكان فى القسم الإسلامى من مدينة غانة - وهو معظمها - أحد عشر مسجداً كما يقول البكرى . أما فى مدينة الملك المجاورة لها فكان يوجد مسجد واحد كبير .

مدينة أودغشت بين المسلمين وملوك مملكة غانة

كانت أودغشت مركزاً تجارياً ضخماً فى إفريقية المدارية الغربية ، وكانت تقع فى شمال حوض السنغال وهى أول مايلقاه من يعبر الصحراء الكبرى قدماً من الشمال من كبار المدن ذات الأسواق العامرة ، وكان سبب غناها أنها كانت السوق الكبيرة للذهب الذى يستخرج من بعض أنهار إفريقية المدارية ، ثم إنها كانت تقع فى منطقة غنية واسعة الموارد فكانت لذلك عماداً كبيراً لمملكة غانة .

وكانت قبائل صنهاجة الصحراء - وهى صنهاجة اللثام التى أنشأت دولة المرابطين كما قلنا فى الفصل الخاص بالمغرب - تمتد حتى تصل إلى أودغشت وحوض السنغال ، وقبل أن تستولى قبائل صنهاجة الصحراء (جدالة ومسوفة ولمتونة ... إلخ) على أودغشت كانت شهرتها بالذهب قد طبقت الآفاق .

وقبل أن يدخل المرابطون ناحيتها كان الإسلام قائماً فى أودغشت ، وكان القرآن يعلم فيها للصغار فى الكتاتيب (البكرى صفة إفريقية والمغرب طبع دى سلان - الجزائر سنة ١٨٥٧ م ص ١٥٨) ويقول : « وكان ملك أودغشت فى الخمسين وثلاثمائة (أى فى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) يسمى تين يروتان بن ويسنو بن نزار وهو رجل من صنهاجة ، وكان قد دان له أكثر من عشرين ملكاً من ملوك السودان كلهم يؤدى له الجزية . وكان عمله مسيرة شهرين فى مثلها فى عمارة ويعقد فى مائة ألف نجيب » وهذا فيما علمنا أكبر تجميع من الجمال ملكه إنسان فى التاريخ ، ولاندرى إن كان هذا الملك مسلماً أو غير مسلم ، ولكن أهل أودغشت كان فيهم إسلام كثير نشره فيهم تجار المغرب والصنهاجيون منهم خاصة ، وشيئاً فشيئاً أسلم معظم أهل أودغشت وأصبحت مركزاً للإسلام فى إفريقية المدارية . وكان ذلك قبل مجيء المرابطين .

دخول المرابطين أودغشت وإسلام مملكة غانة .

وكانت مملكة غانة خطراً شديداً يهدد بربر صنهاجة الصحراويين فى الطرف الغربى للصحراء الكبرى الفاصلة بين المغرب وإفريقية المدارية ، وبخاصة لمتونة ومسوفة وجدالة وجدولة وبنو وارث وتارجا ، وكانت هذه القبائل مهددة من الشمال فى نفس الوقت بقبائل زناتة التى بسطت سلطانها على المغرب الأقصى كله خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، بعد انقضاء الدور الأول من تاريخ دولة الأدارسة على يد الفاطميين فى حدود سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م ، ونتيجة لنزاع هؤلاء مع الأمويين فى الأندلس انتهز الزناتيون الفرصة وسادوا المغرب الأقصى حتى استولوا على سجلماسة وضغطوا على صنهاجة الصحراء ضغطاً خطيراً .

وهذا الشعور بالخوف على المصير والضياع بين الزناتيين من الشمال وسلطان غانة من الجنوب كان الدافع الحقيقى الذى جعل يحيى بن إبراهيم شيخ قبيلة جدالة يرحل إلى المشرق باحثاً عن وسيلة يستطيع أن يجمع بها كلمة قومه ، ويوحدهم لتحريرهم من استبداد الزناتيين من الشمال وضغط الغانيين من الجنوب .

وفى الفقرة الخاصة بالمرابطين من فصل المغرب من هذا الأطلس روينا تاريخ المرابطين ، وكيف انقسمت دولتهم من بداية حكم يوسف بن تاشفين إلى قسمين : قسم يجاهد فى الشمال بقوده يوسف بن تاشفين ، وقسم يجاهد فى الجنوب يقوده أبو بكر بن عمر ، وهذا القسم الجنوبى وصل إلى حوض السنغال ثم استولى على غانة ثم تومبوكتو وولاتة وبلاد قبيلة جنى ثم وضع يده على مناجم الذهب الكبرى شمالى جبال فوتاجالون وكانت هذه المناجم - إلى جانب تبر الأنهار - أعظم مصدر للذهب فى الدنيا حتى اكتشاف أمريكا ، وبهذا الذهب اشتد ساعد الحركة المرابطية ، وبخاصة إذا ذكرنا سيطرتها التامة على طرق التجارة الرئيسية من المغرب الأقصى إلى إفريقية المدارية والاستوائية .

وهذا يفسر لنا كيف تمكن المرابطون من الزناتيين الذين كانوا يسودون أحواض ووديان درعة وأم الربيع وتانسيفت فى المغرب الأقصى بالإضافة إلى إقليم تافللت وعاصمته سجلماسة حول منابع نهر الملوية .

قيام دولة غانة الإسلامية .

استولى المرابطون على أودغشت سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ثم اتجهوا بقيادة أبى بكر ابن عمر إلى غانة واقتحموها سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م وقضوا على الوثنية فيها وعملوا على تحويل بلاد غانة كلها إلى بلاد إسلامية ، وهكذا يكون أبو بكر بن عمر قد حول جزءاً كبيراً من بلاد إفريقية المدارية الغربية إلى الإسلام ، وجعله جزءاً من دولته ومركزاً لنشره فى بقية هذا الجزء من بلاد السودان الغربى ، وهذا الرجل استشهد مجاهداً سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م وقد وقف بالإسلام على أبواب إفريقية الاستوائية عند منطقة الغابات الكثيفة .

ومنطقة الغابات الإفريقية الاستوائية تبدو للمقبل من الشمال وكأنها سياج ضخم لايمنعه من نفاذه الاستوائية الكثيفة وبقيت كانت حدود منطقة الغابات الاستوائية حاجزاً هائلاً يمنع شعوب إفريقية المدارية من دخول إفريقية الاستوائية

فأما الحاجز الصحراوى الذى كان يمنع أهل المغرب من الوصول إلى إفريقية المدارية فقد حطمه الإسلام ، وهاهو ذا الآن يتأهب لاقتحام حاجز الغابات الاستوائية بالضبط كما أزال الإسلام الحواجز فى شرق آسيا بين أجناس العرب والهند والفرس والترك والصينيين .

وقد ضعف سلطان المرابطين على غانة بعد موت أبى بكر بن عمر سنة ١٠٨٧ م ولكن الإسلام ظل ينتشر فى تلك النواحى ويتوسع ، وبهذا يكون أبو بكر بن عمر قائد الجناح المجاهد الجنوبى من المرابطين قد قدم للإسلام خدمة لاتقل أهمية عما أداه يوسف بن تاشفين للإسلام فى المغرب والأندلس .

وكانت نهاية دولة غانة الإسلامية على يد فريق من قبائل الصوصو الذين كانوا يسكنون جنوبى مملكة غانة غربى الحوض الأدنى للنيجر ، وقد رأينا أن فريقاً منهم قضى على دولة غانة الأولى

وقد خضع بقية الصوصو لملوك غانة المسلمين حتى إذا تفرق أمرهم وضعفت مملكتهم أعلنوا استقلالهم وانفصلوا عن دولة غانة ثم هاجموها بادئين بغزو إقليم دابارا المجاور لهم وكان جزءاً من دولة غانة ، ولما لم يصادموا رد فعل قوياً من ناحية ملوك غانة قام أحد رؤساء صوصو وهو صو ماغورو بالتقدم شمالا ، واستولى على مدينة غانة عاصمة الدولة سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م وقضى على الدولة ، وهرب فريق من سكان غانة المسلمين بقيادة زعيم يسمى الشيخ إسماعيل إلى مدينة ولاتة إلى الشمال وأنشأ مركزاً تجارياً كبيراً أصبح بعد ذلك من أعظم مراكز التجارة فى إفريقية الغربية الإسلامية .

تمكن صوماغورو من الاستيلاء بعد ذلك على كل بلاد دولة غانة ، ثم اصطدم فى الجنوب برجال دولة إسلامية صغيرة كانت إذ ذاك ناشئة فى كانجابا ، وأصحابها من قبائل الماندنجو التى سنتحدث عنهم فى الفقرة التالية فانتصر عليهم وقتل ولدين من أولاد ملكهم ناريه فماك .

أما أصغر الأولاد (وهو الابن الثانى عشر للملك ناريه فماك) فقد أعفاه من القتل لأنه وجده ضعيفاً مريضاً ، وبهذا نجا من الموت وأصبح فيما بعد مؤسس مملكة مالى المشهور فى التاريخ باسم مارى جاطة أى ولد الأسد ، وقد هرب إلى الجنوب ، وكان ذلك فيما بين سنتى ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م و ٦٢٩ هـ / ١٢٣٠ م ، وفى منفاه البعيد أخذ مارى جاطة يجمع الأنصار ويستعد للانتقام ممن قضوا على ملك أبيه ، وقد تمكن من ذلك سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م بعد مغامرات ومخاطرات ، ثم دخل مدينة غانة وقضى على بقية

الصوصو ثم خرب بلادهم تماماً سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م ، وكان ماري جاطة مسلماً وعلى يديه قامت ثانية الدول الإسلامية في إفريقية المدارية الغربية وهي دولة مالي .

دولة مالي الإســـلامية .

حلت دولة غانة في رياسة المغرب الإفريقي المداري دولة مالي . ومالي اسم حديث بعض الشيء لدولة قديمة تعاقبت عليها الأسر المالكة قبل الإسلام ، وقد أنشأها قبيل عظم من أهل السودان الغربي يسمى بالماندنجو .

ولقبائل الماندنجو أسماء أخرى كثيرة أطلقها عليهم جيرانهم ، وسنذكر أهمها فيما بعد ولكن هذا الاسم هو الاسم الذي غلب عليهم وأخذه البرتغاليون

أما قبائل الهوسى الذين يسمون عادة باسم الهوسا (وسنتحدث عنهم) وهم جيرانهم من الشرق فقد أطلقوا عليهم اسم ونقارة أو نجارة ، وهم يعنون بهذه التسمية فرعين من فروع شعب الماندنجو ، وهما فرع السوننكة الذي تحدثنا عنه ، وهو منشىء دولتي غانة الوثنية والإسلامية ، وفرع الحولا

أما الفولا أو الفولانيون وبعض التكاررة فيسمونهم باسم مالنكه وعنهم أخذ الاسم الفرنسيون فاستخدموا لفظ مالنكة Malinké في الكلام عن الماندنجو

وتطلق عليهم قبائل البامبارا (التي تسكن إلى جنوبهم وهي فروع من الماندنجو) اسم مالي .

وأصل اسم الماندنجو غير معروف على التحقيق ، فهناك من يقول إنه [illegible] ماندي وهو لفظ معناه المدينة أو العاصمة ، فهم على هذا القول أهل المدينة أو [illegible]

التكـــرور .

ومن الخطأ القول بأن الماندنجو هم التكرور أو التكاررة ، إذ إن الحقيقة أنهم شعب غير الماندنجو [illegible]
التكرور ، ولفظ تكرور والجمع تكاررة أو تكارة (بالفرنسية Takruri - Toucouleurs)
يستعمل في السودان الشرقي للدلالة على كل أهل السودان الذين يسكنون غربهم إلى المحيط ، وبمثل يطلق لفظ الفلاتة في السودان النيلي على كل قادم من نيجيريا . والتكاررة [illegible] من أهل السودان الغربي يسكنون حوض نهر السنغال الأوسط ، فالسنغاليون تكاررة ، وقد يطلق الاسم تكرور أو توكور ومن هنا جاء الاسم الفرنسي الذي ذكرناه ، وأصلهم فرع من الفولا أو الفولانيين وهم شعب كبير معروف في كل إفريقية المدارية أصلهم البعيد من بربر إقليم فزان ، عبروا إلى ناحية تشاد ، ومن ثم انتشروا وتكاثروا واختلطوا بالسكان وأصبحوا سودانيين ، وإن كانوا أقل سواداً من جيرانهم . وفي أراضي السهوب الممتدة من غرب نيجيريا الحالية إلى ساحل المحيط ، وعلى هذا الساحل من السنغال إلى الكاميرون تمكن الفولا من إنشاء عدد من مراكز التجمع الفولانية الكبيرة في إقليم فوتاتورو ، وفي السنغال ، وعند سفوح جبال فوتاجالون في غينيا وفي إقليم ماسينا في جمهورية مالي الحالية وفي إقليم بيننكو في جمهورية الفولتا العليا ، وفي ناحية واسعة تمتد من شمال نيجيريا والكاميرون تسمى بلاد أومدرة

والفولانيون الذين استقروا في إقليم فوتاتورو في السنغال هم الذين عرفوا بالتكاررة [illegible] نتحدث عنهم .

وفي موطنهم هذا أسلم التكاررة على يد عبد الله بن ياسين في اندفاعه نحو الجنوب ، وتحمسوا للإسلام حماساً شديداً ، وفي الجزء الأدنى من نهر السنغال الذي يسكنونه تقع [illegible] عبد الله بن ياسين [illegible] لأصحابه [illegible] جماعته [illegible] المرابطين ، ومن قلب بلاد التكرور خرجت الحركة المرابطية التي احتضنتها قبائل صنهاجة الصحراء (أهمها لمتونة ومسوفة وجدالة وبنو وارث وتارجاه) التي حملت الدعوة بعد ذلك ، وعندما انقسمت حركة المرابطين إلى قسمين شمالي وجنوبي كان التكاررة أو التكرور [illegible] الإسلام في إفريقية المدارية الغربية ، وهم الذين نهضوا بحركة الحاج عمر التي سنتحدث عنها في القرن التاسع عشر الميلادي ، وقد تمكنت جماعات منهم سكنت إفريقية المدارية من السنغال إلى إريتريا من إنشاء دويلات إسلامية إفريقية كثيرة

وعندما قامت دولة مالي خضع لها التكاررة ولكنهم ظلوا كتلة إسلامية متماسكة داخل الكيان المالي مسيطرة على بلاد فوتاتورو في السنغال ، وكان لهم أثر بعيد في إسلام دولة مالي نفسها .

والآن نعود إلى تاريخ مالي حيث تركناه .

سيطر الماندنجو وهم أصحاب دولة مالي على البلاد الممتدة من نهر النيجر إلى المحيط الأطلسي ، وأقاموا قبل وصول الإسلام إلى هذه النواحي أسراً حاكمة مثل أسرة التروريين في حوض [illegible] الكونتيين (نسبة إلى كوباته) شمالي بلاد التروريين ، وأسرة كيتا [illegible]
[illegible] الخاصيين هم يسمى موسى دنجيو [illegible] ١٢١٨ م [illegible]
إنه من سلالة بلال الحبشي مؤذن الرسول ﷺ وأنه جاء طفلاً من الحجاز ، أو جده أبوه إلى بلاد الماندنجو وتزوج منهم واستقر في بلاد التكرور ثم دخل في عداد جماعة السولا (بالباء الخفيفة وهم جماعة من العسكريين المرتزقين كان ملوك أسرة الكونتيين يعتمدون عليهم) ودخل ابنه في عداد هذه [illegible] وتمكن من الوصول إلى السلطان وأنشأ أسرة كايتا ، [illegible] كوى [illegible]
خالق كل شيء ثم حرف « الله – كوى » إلى الأكويتا ثم كويتا ثم كايتا ، والغالب أن هذا كله مجرد فرض لأن كايتا كان لقب أسرته من أول الأمر ثم اخترعت الأسطورة بعد [illegible]

وقد اتخذ موسى دنجيو أو موسى الأكوى أو موسى كايتا مدينة جريبة في إقليم كانجابا عاصمة له . وأنجب موسى عدداً كبيراً من الأولاد ، خلفه أكبرهم ويسمى ماري فاماجان أو ماري فامغان الذي ظل يحكم حتى سنة ١٢٣٠ م وقد بذل أثناء حكمه جهوداً كبيرة لنشر الإسلام بين رعيته

وقد خاض ماري فامغان Naré Famaghan حروباً طويلة مع إخوته الذين نازعوه العرش ، وتغلب عليهم [illegible] الأمر ونقل عاصمته إلى شرق جبال الفوتاجالون .

وعندما توفي سنة ١٢٣٠ م خلفه ابنه كونتيوغو – سنيا – كايتا ، وفي أيامه قام سومانجورو ملك الصوصو بهجوم عنيف على دولة مالي وهزم الماندنجو وقتل ملكهم وعشرة من إخوته ولم ينج من هذه المذبحة إلا ابنه الأصغر سندياتا

نشرد سندياتا في الأقاليم الجنوبية لدولة مالي وفي صحبته نفر من أصحابه الشجعان ، وتمكن من أن يجمع جيشاً قوياً من الماندنجو ويقودهم في صراع عنيف مع ملك الصوصو الوثني ، وتمكن من الانتصار عليه سنة ١٢٣٥ م في موقعة حاسمة عند كوينا غرب باماكو الحالية ، وطرد الصوصو من بلاد مالي ، وأعاد الاستقلال إلى بلاده وتربع على عرشها ، وغلب عليه اللقب الذي أطلقه أصحابه عليه وهو ماري جاطة أو ماري دياتا ومعناه الأمير الأسد أو أسد مالي

ويعتبر ماري جاطة البطل القومي للبلاد ، وهو أعظم سلاطين مالي على الإطلاق ، فقد وسع حدود مالي وغزا بلاد الصوصو وأخضعهم تماماً ، إلى قرب مابقي من مدينة غانة القديمة ، وقسم دولته إلى اثني عشر قسماً إدارياً ولى على كل منها رجلاً من كبار قواده ، وكان عظيم الاهتمام بإدخال كل رعاياه في الإسلام ، وينسب إليه إدخال زراعة القطن في مالي ، وفي أيامه ازداد رخاء مالي وتكاثر سكانها وعمهم كلهم الإسلام ، ومازال يحاول حتى أدخل فرع الوانجارا كله – وهو من أكبر فروع الماندنجو – في الإسلام .

وفي أيامه ثبتت عاصمة مملكة مالي في بلدة نياني ، وقد اهتم بها وعمرها حتى أصبحت من أكبر المدن الإفريقية ، ومن اسم نياني اشتق اسم مالي الذي أطلق على المملكة كلها ، وحل محل اسم مملكة الماندنجو التي ضمت كل أراضي مملكة غانة السابقة مضافاً إليها بلاد الماندنجو بكل فروعها ، فامتدت هذه المملكة حتى شملت حوض نهر غمبيا أيضاً ، وشملت كذلك بلاد التكرور في حوض السنغال ، وبلاد الجلف (يسمون في الكتب الأوروبية باسم الولف) Wolof ، فأصبحت بذلك أكبر مملكة ظهرت في إفريقية المدارية في العصور الوسطى ، إذ شملت كل غرب إفريقية المدارية من المحيط الأطلسي ومعظم حوض النيجر الأعلى والأوسط حتى الحدود الشمالية للغابة ، وقد قدرت مساحة مملكة غانة الإسلامية بمساحة أوروبا كلها ، وقد عرفت دولة مالي أيام ماري جاطة باسم مالي الجنوبية أما مالي الشمالية فهي مالي التي غزاها الصوصو وخربوها وحكموها حتى طردهم منها ماري جاطة كما ذكرنا . وقد توفي سنة ١٢٥٥ م ، ويسمى ماري جاطة أحياناً باسم الملك سندياتا (١٢٣٠ – ١٢٥٥ م) مؤسس إمبراطورية مالي ، وقد أبدى من القدرة في الحكم والنشاط والبطش مامكن له من السيطرة على هذه الدولة الكبيرة ، وقبل وفاته سنة ١٢٥٥ م كان قد وحد الدولة ونظم الإدارة وشجع الزراعة ولاسيما زراعة القطن .

وخلفه على عرش مالي ابنه منسا أولي وكان من أعظم حكام مالي ، حكم من ١٢٥٥

١٢٧٠ م وكان محباً للسلم ، قام بتأدية فريضة الحج ، وقد أشار القلقشندى إلى مرور منسا أولى فى طريقه إلى الحجاز بالقاهرة أيام السلطان بيبرس فى قافلة كبيرة اجتازت الدرب الصحراوى المعروف بطريق غات الذى يمتد من عند المدينة وينتهى عند أهرام مصر ، وقد كان لمرور منسا أولى فى القاهرة صدى بعيد لأنه فرق مالاً كثيراً على الناس فى ذهابه وعودته وعقد سلماً مع السلطان بيبرس الذى أكرم وفادته وأحسن استقباله ، وعندما عاد إلى بلاده عظم شأنه وازداد جاهه ومد ملكه إلى بلاد وتقارة واستمرت هذه الدولة قوية تنشر سلطانها على بلاد مالى كلها ، وبلغت ذروة سلطانها فى عصر السلطان منسا أولى – وجدير بالذكر أن منسا معناه السلطان – وقد حكم منسا موسى الذى يعرف أيضاً باسم ككن موسى من ١٣١٢ – ١٣٣٧ م وكان جاهداً فى سبيل الإسلام ومصلحاً كبيراً ، وبعد أن استقر سلطانه قام بالحج إلى الحجاز ، ومر بالقاهرة أيام الناصر محمد بن قلاوون فى سنتى ١٣٢٤ و ١٣٢٥ م وكما فعل جده الملك منديالة فرق أموالاً كثيرة فزاد جاهه واحترامه .

وبعد أن عاد إلى مالى ثبت سلطانه على ولاتة وتومبوكتو ووصلت قواته إلى مدينة جاغ فى مجرى النيجر الأوسط وامتدت دولته فى آخر حكمه إلى بلاد التكرور غرباً وإلى حدود مملكة الكانم وبورنو شرقاً ، وبلغ نفوذه شمالاً إلى قلب الصحراء عند بلدة أروان وبلدة تادمكت وهى مدينة فى صحراء المغرب على مسيرة خمسين يوماً من بلدة غانة ، وحرص منسا موسى على المحافظة على استقلال ديار جنى المجاورة له على مجرى نهر النيجر ، وكذلك سالم مملكة الموسى التى كانت تشغل حوض نهر الفولتا فى جنوب إمبراطورية مالى .

وخلفه على العرش شقيقه منسا سليمان (١٣٥٢ – ١٣٥٩ م) وكان ملكاً شديد الإيمان بالإسلام ، شيد المساجد والمدارس وجلب إلى بلاده الفقهاء على مذهب الإمام مالك خاصة ، وفى أيام منسا سليمان زار بلاد مالى الرحالة المغربى ابن بطوطة وتنقل فى ربوعها ولقى السلطان والتقى بطائفة كبيرة من العلماء والتجار ، وقد حدثنا بذلك فى وصف رحلته ، وقد دخل ابن بطوطة بلاد مالى فى جمادى الأولى سنة ٧٥٣ هـ / يونية ١٣٥٢ م وغادرها فى المحرم سنة ٧٥٤ هـ / فبراير ١٣٥٣ م ، وهو يصور بلاد مالى فى صورة دولة إسلامية زاهرة ، وبعد منسا سليمان أخذ أمر دولة مالى فى التدهور بسبب سوء الحكم وفساد التدبير وهجمات أعدائها عليها ، وأهمهم هنا رجال دولة صنغى ثم الفولانيون والتكاررة وأخيراً البرتغاليون .

وكان ملوك صنغى من ألد أعداء مالى ، فمازالوا يهاجمونها حتى اضطر سلطان مالى محمد الأول وهو من أحفاد لوبن مارى جاطة إلى الاستغاثة بالأتراك العثمانيين سنة ١٤٨١ م وكانوا قد ثبتوا أقدامهم فى طرابلس وبلاد إفريقية (تونس) والجزائر ، ولكنهم لم يسعفوه ، فاستعان بالبرتغاليين سنة ١٤٨١ م فلم يكن حظه معهم بأحسن من حظه مع الأتراك ، ولكنه فتح أبواب بلاده للبرتغاليين فعرفوا طرقها ومسالكها وأحوالها مما كان له أثر سيىء بعد ذلك فى تيسير مهمة الاستعمار .

وعلى أى حال فقد ضعف أمر مالى ضعفاً شديداً ابتداء من القرن السادس عشر تحت ضربات صنغى التى حلت محلها فى الرياسة السياسية فى غرب إفريقية المدارية .

خريطة ١٧٥

الدول الإسلامية فى غرب ووسط أفريقيا المدارية والاستوائية بعد القرن الخامس عشر الميلادى التاسع الهجرى

دولة صنغى أو صنغاى

الصنغى (صنغاى) قبيلة من أهل السودان الغربى يسكنون من قديم الزمان على ضفاف النيجر الأوسط ، ومدينتهم الكبرى هى جاو التى ستصبح عاصمة دولتهم ، وتمتد حدود بلادهم حتى تشمل المسافة الواسعة عند الانحناء الكبير فى مجرى نهر النيجر .

وتجاورهم من الشمال جماعات من الطوارق ، وهم خليط من سكان الصحراء القدامى والبربر وبقايا المرابطين ، وهم – أى الطوارق – يسيطرون على طرق الصحراء الكبرى التجارية وواحاتها وهم ليسوا لصوص صحراء أو قطاع طرق كما يصفهم الفرنسيون ، وإنما هم شعب إفريقى قائم بذاته له خصائصه النبيلة من الشهامة والشجاعة وعزة النفس حتى إنهم يلقبون بأمراء الصحراء ، وجاء اسمهم وهو الطوارق من اسم قبيلة من صنهاجة الصحراء تسمى تلرجا ، وكان أهل تلرجا قد امتدوا فى الصحراء الكبرى ، وعندما قامت دولة الموحدين انضموا إلى العرب الهلالية الذين كانوا يحاربون الموحدين إلى جانب بنى غانية المسوفيين أعداء الموحدين ، وعندما انتصر الموحدون نهائياً على بنى غانية والهلالية بقى رجال التارجا فى الصحراء واتخذوها موطناً ، وعرب العرب اسمهم من تارجا إلى طارقة والجمع طوارق والنسبة إليهم طارقى ومع مرور الزمن أصبح الطوارق قوة يحسب لها ألف حساب فى الصحراء الكبرى .

وتجاور الصنغى من الغرب والجنوب جماعات شتى من أهل السودان أهمها الماندنجو أصحاب غانة ، وقد تحدثنا عنهم ، والجورمان والموسى الذين يسميهم مؤرخو العرب الموشى ، وهم يسكنون أقاليم ياتنجا وجورمان والكمارتة والمسينا ، وتمتد بلاد صنغاى شرقاً حتى تتصل بالبورنو والكانم فى إقليم تشاد .

وكان الصنغى فى أول أمرهم جماعات متماسكة من قبائل نهر النيجر التى لاتدخل فى جماعة الماندنجو الكبيرة وظلت أعدادهم تتزايد حتى سيطروا على البلاد التى ذكرناها

ومن فروع الصنغى نذكر السودكو وكانوا يعملون فى صيد السمك فى نهر النيجر ، وربما يكون أصلهم من مهاجرة المغرب ، وهناك أسطورة شعبية تؤيد هذا القول فتزعم أن مهاجرين من البربر وصلا إلى حوض النيجر الأوسط عبر الصحراء ، وكانا ذوى علم وتجربة ، فتمكنا من كسب ثقة الصنغى فبايعوهما ملكين عليهم . وجاء من بعدهما أولادهما الكثيرون .

ومن ملوك الصنغى من السودكو هؤلاء أسرة ديا التى حكمت صنغاى من القرن السابع الميلادى إلى القرن الرابع عشر الميلادى ، ومن أشهر ملوكهم الملك كوغا أو كوكيه الذى يذكره ابن حوقل .

وهؤلاء السودكو هم الذين أسسوا مدينة جاو ومدينة بوميا ، وانتشروا حتى بلدة جنى وهى مركز منافسيهم جماعات البوذو وكانوا صيادى سمك أيضاً .

وكان الملوك من أسرة ديا يحرضون الصنغيين من أهل المدن على الاستمرار فى دفع السودكو إلى الشمال تخلصاً من منافستهم لهم .

ثم قام الملك ضيا الخامس عشر باتخاذ جاو عاصمة له فى قلب بلاد السودكو وهذا الملك هو الذى تحول إلى الإسلام وتبعه فى ذلك الصنغيون والسودكو ، وكان استيلاء الملك ضيا على جاو عظيم الأهمية ، لأن الطرق الصحراوية التى تؤدى إلى فزان وطرابلس ومصر تشرع من عندها ، ومازالت إلى يومنا هذا المحطة الأخيرة لطريق السيارات من مدينة الجزائر إلى نيجريا .

وقد دخل الإسلام بلاد صنغاى من زمن بعيد من ناحية الطريق الصحراوى الأوسط ، ولانستطيع تحديد تاريخ وصوله بلاد هذا القبيل القوى من أهل السودان ، ولكنهم يظهرون على مسرح التاريخ فى القرن الحادى عشر الميلادى وعلى رأسهم ملوكهم المسلمون الذين جاءوا بعد الملك ضيا .

وقد تعرضت بلاد صنغى للغزو من قبل دولة مالى أيام توسعها ، فقام على بن مارى جاطة الأول بغزوها ، ثم غزاها سيكرة الذى اغتصب عرش مالى من أحفاد مارى جاطة ردحا من الزمان ، وتمكن من الاستيلاء على جاو عاصمة صنغى ، ولكن سلطان مالى على صنغى لم يدم طويلاً ، فلم يلبث هذا السلطان أن تراخى ، فلما عاد السلطان منساككى موسى من حجه سنة ١٣٢٥ م أمر قائده سجمان الذى يسميه ابن خلدون سغمنجة فغزا صنغى واحتل عاصمتها جاو ، ثم زارها ككنى موسى وابتنى فيها جامعا ، وترك فيها حامية ، وأخذ عدداً من رؤسائها وأبناء أمرائها رهائن وفرض عليها الجزية ، ثم دخل ككنى موسى مدينة تنبكت وكانت خاضعة لصنغى ، وقد رحب به أهلها لأنهم كانوا يئنون من سلطان صنغى عليهم ونهب أموالهم ، وكان ذلك سنة ٧١٨ – ٧١٩ هـ / ١٣١٨ – ١٣١٩ م وفيها بنى داراً للمملكة أو للحكم جعلها مستقر حكمه .

وبعد عودة ككنى موسى إلى مالى قامت قبائل الموشى أو الموسى الوثنية بغزو تنبكت حوالى سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م ونهبتها وخربتها ، ثم عادت تنبكت بعد ذلك إلى سلطان مالى وظلت خاضعة لها مدة قرن من الزمان حتى عادت صنغى إلى الاستيلاء عليها بعد أن قوى شأنها .

وفى عهد مغان الأول ابن منساككن موسى سنة ٧٣٨ – ٧٤٢ هـ / ١٣٣٧ – ١٣٤١ م هرب رهائن صنغى وعادوا إلى بلادهم ، وكانوا نفراً من خيرة رؤساء قبائل الصنغى وأمرائهم ، وكان منساككن موسى يعرف أن وجودهم عنده هو أكبر ضمان لطاعة أهل صنغى ، ولهذا كان يشدد الحراسة والرقابة عليهم ، فلما جاء ابنه مغان أهمل هذه الحراسة ، فتمكن الرهائن من تدبير هربهم والعودة إلى بلادهم ، وكان فيهم أميران من أمراء صنغى هما على كولن وأخوه سليمان نار ، فجمعا قومهما وتمكنا من التغلب على حامية الماندنجو فى جاو ، ثم مضيا قدماً فى استخلاص بلاد الصنغى من حكم مالى ، وتصدى لهما منسا سليمان الذى خلف منسا مغان الأول بنجاح واسترجع الكثير من بلاد صنغى ، ولكنه عجز عن استرجاع جاو عاصمتها .

وتولى على كولن العرش فى جاو سنة ١٣٥٥ م ، واستقلت صنغى عن مالى بعد أن ظلت خاضعة لها نصف قرن ، ثم أخذت فى التوسع فى أراضى مالى منتهزة فرصة ضعفها وتألب أعدائها عليها ، وبخاصة قبائل الموشى أو الموسى ، وكانت على الوثنية ، بلادهم تقع جنوب بلاد مالى ، وكانت لاتكف عن العدوان على بلاد الإسلام فى مالى وغيرها ، عبر رجالها منطقة بحيرة دبو Debo المتصلة بنهر النيجر ، وعندما قامت دولة صنغى الإسلامية أخذ رجال الموشى بها يهاجمونها وينتهبون بلادها .

وقد أخذ على كولن لقب سن أو شن ومعناه الخليفة أو السلطان أو نائبه ، وهو مؤسس أسرة سن وهى ثانية الدول التى قامت فى بلاد صنغى ، والأولى هى دولة الأزو ، التى قضت عليها مالى .

ظلت حدود دولة صنغى مقتصرة على العاصمة جاو وماحولها أيام سن الأول على كولن وأخيه وخليفته سن سليمان نار ، ولكن خلفاءهما اتبعوا سياسة غزو أراضى مالى ، ففى عهد سن محمد داع وهو العاشر فى سلسلة ملوك أسرة سن خرب الصنغيون عاصمة مالى وأسروا الكثير من أهلها ، ثم استولى سن سليمان دام وهو السابع عشر من ملوك صنغى على بلاد ميم التى تسمى أيضاً باسم ميما ، وكانت ميم من بلاد مالى وحربها ، وقد وصفه القاضى محمود كعت صاحب « كتاب الفتاش » بالفسق والفجور

تولى العرش بعد سليمان دام أكبر ملوك أسرة سن وهو سن على الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لملك صنغى الواسع - سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م - وتوفى ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م - وكان رجلاً جريئاً واسع النشاط قليل التقيد بقواعد الإسلام ، لأن رجال الدين كانوا يعترضون عليه كثيراً فأبغضهم وكثر إيذاؤه إياهم وعدوانه على المساجد والزوايا التى كانوا يقرءون فيها ؛ ولهذا حمل عليه السعدى صاحب كتاب تاريخ السودان واتهمه بالظلم والفجور ، وكانت أم سن على من قبائل الماندنجو أصحاب مالى .

ومع ذلك فقد كان سن على - الثامن عشر من ملوك أسرة سن - أعظم فاتح مسلم ظهر فى بلاد السودان الغربى ، فسمى بعلى بر أو على الكبير أو السى أو الشى فقط ، وقد أنشأ خلال سنوات حكمه - السبع والعشرين - دولة تعادل مساحتها دولتى إيران والعراق معا تمتد من سيجو على نهر النيجر إلى مايعرف اليوم باسم داهومى ، فطار صيته حتى وصل إلى أوروبا ، وأرسل إليه الملك جوان (يوحنا) الثانى ملك البرتغال سفارة تخطب وده .

وفى سنة ١٤٦٨ م غزا سن على تنبكت وكان الطوارق يحتلونها منذ سنة ١٤٣٥ م ، وكانت مركزاً تجارياً كبيراً حافلاً بالمتاجر والمساجد وأهل العلم والدين ، فطرد منها الطوارق وجعلها العاصمة الثانية لبلاده ، ثم وقع الخلاف بينه وبين العلماء فاضطهدهم وأودع الكثيرين منهم فى السجن ، ثم أحرق البلد .

ثم استولى على جنى ، وهى ثالث بلدة على نهر النيجر فى تلك العصور بعد جاو وتنبكت ، وكان يحكمها رجال من السوننكة المسلمين الذين جعلوها إمارة صغيرة غنية ، لأن تجارة الذهب تحولت من غانة إليها ، وكانت شهيرة بعلمائها ومساجدها ، ويقول السعدى إن سن على لم يستطع الاستيلاء عليها إلا بعد حصار دام سبع سنوات وسبعة أشهر وسبعة أيام ثم دخلها بحد السيف ، ولكنه لم يفعل بها مافعله فى تنبكت ، وإنما اكتفى بالتوثق من طاعتها وعاد إلى جاو

ثم سار مرة أخرى وهاجم بلاد المجموعات الوثنية الكبرى الباقية فى جنوب حوض النيجر مثل البورجو (البرقع) واستولى على عاصمتهم وأطال الإقامة فيها قبل أن يهاجم قبائل الموشى ثم قبائل الدوجون فى عقر ديارهم - وكانت بلادهم جبال الباندياجارا - دون أن يستطيع التغلب عليهم ، فانصرف عنهم وعاد إلى محاربة الطوارق . ويذهب بعض الباحثين الفرنسيين إلى أن إصراره على محاربة الطوارق كان ناشئاً عن كراهته للإسلام ، والحق أن الرجل لم يكن عدوا للإسلام وإنما كان مبغضاً للفقهاء وعلماء القرى الذين أصروا دائماً على اتهامه بالفجور والفسوق والخروج على الدين .

ثم هاجم بلاد الفولا أو الفولانيين ، وأصلهم من بربر الصحراء جنوبى بلاد السوس ، وكانوا قبيلاً قوياً نشطاً ، واشتهروا كذلك بجمال نسائهم وذكائهن ، فكانت الواحدة منهن إذا تزوجت أميراً أو كبيراً سودانياً لم تلبث أن سيطرت عليه وعلى قصره ، أما رجالهم فلم يلبثوا بفضل علمهم أن استولوا على الوظائف الكبرى فى دولة صنغى ، فأثار ذلك حفيظة سن على فطردهم من الوظائف وحمل عليهم ، ثم قام بمهاجمة أراضى الفولا فى حوزها ثلاث مرات سنة ١٤٦٥ م وسنة ١٤٧٠ م وسنة ١٤٨٨ م فاشتد الدعاء عليه فى هذه البلاد الإسلامية .

وكأنما استجاب الله لدعاء الناس ، فلما قام مرة رابعة بغزو بلاد الفولا فى سنة ١٤٩٢ م غرق وهو يحاول عبور نهر أثناء علو تياره ، وخلفه ابن له مرتد عن الإسلام ، فعزله الصنغيون وولوا على أنفسهم قائد جيشه محمد بن أبى بكر الطورى سنة ١٤٩٣ م ، وأنشأ أسرة مالكة جديدة هى أسرة أسكيا أو أسكى أو الأساكى

أسرة أسكيا

يقول السعدى صاحب كتاب تاريخ السودان فى أصل هذا الاسم إن بنات سن على كن « أدكيا » ؛ ومعناه لايكون إياه ؛ أى عسى ألا يكون هذا هو غاصب عرشنا . فلزمت هذه الصيحة آل الطورى ، وأصبحت اسماً على بيتهم . والطورى هو الذى تحرف إلى تورى فى استعمالنا اليوم ، وأولى بنا إذا قلنا سيكوتورى أن نقول الشيخ التورى .

ازدهرت صنغى بازدهارها فى عصر الأساكى خاصة وقد كان السلاطين من هذا البيت متمسكين بالإسلام مما زاد تعلق الناس بهم ، وقد حكم محمد بن أبى بكر الطورى أو الأساكى من ١٤٩٣ م إلى ١٥٢٨ م ، وقد نظم بلاده تنظيماً حسناً ، فقسم دولته إلى ولايات ، وولى على كل منها عاملاً من المخلصين له من أهل البلاد المسلمين ، واتخذ تنبكت عاصمة له ، واستقدم إليها العلماء والفقهاء وأكرمهم وأكثر من بناء المساجد والزوايا ، وأفاض المال على الفقهاء والعلماء الذين كانوا يقرءون العلم على الناس فى هذه المساجد . . . إلخ

وفى سنة ١٤٩٧ م قام أسكيا محمد بن أبى بكر الطورى بالحج إلى بيت الله الحرام واصطحب معه خمسمائة فارس وألف جندى وحمل معه ٣٠٠,٠٠٠ مثقال من الذهب ، وقد استقبله شريف مكة من أسرة الحسنيين استقبالاً كريماً ومنحه لقب خليفة ، وعاد محمد الطورى إلى بلاده وقد ازداد حماسه للإسلام فشدد الحملة على قبائل الموسى فى ياتنجا وأدخل الكثيرين منهم فى الإسلام .

وعلى الرغم من قضاء صنغى على ملك مالى فإن سياسة الصنغيين فى ترك حكم الأقاليم فى يد أهل الطاعة لهم من سكان البلاد أتاح الفرصة لحكام مالى الماندينجيين فى الاحتفاظ بجانب كبير من استقلالهم ، بل إن كبيرهم فى مالى ظل يحتفظ بلقب منسا ، فلما شدد أسكيا محمد بن أبى بكر الطورى قبضته على بلاد مالى استغاث آل منسا المالييون بالأتراك العثمانيين سنة ١٤٨١ م وكانوا قد ثبتوا أقدامهم فى الجزائر ، ولكن استغاثتهم لم تثمر عن شىء

ويذهب المؤرخون البرتغاليون إلى أن محمد الأول منسا ملك مالى اتجه إلى البرتغاليين طالباً إعانته على سلطان صنغى ، وأن هؤلاء أسرعوا بالاستجابة خوفاً من مجىء الأتراك العثمانيين إلى إفريقية الغربية ، فأرسل ملك البرتغال سفارتين جاستا خلال البلاد وتعرفتا على أهلها ، ورسم رجالها الخرائط والصور ، مما كان له أثر سىء بعد ذلك على بلاد السودان الغربى عندما شرع البرتغاليون فى إنشاء المراكز والقلاع الحصينة المعروفة باسم الفروكتورات على سواحل المغرب وإفريقية ، ولم يقدم البرتغاليون لمنسا محمد الأول أى مساعدة .

وقد حاول أسكيا محمد الطورى الامتداد نحو الشرق ولكن الهوسى تصدوا له فلم يستول إلا على ثلاث من دويلاتهم - وكانت بلاد الهوسى (الهاوزا) مكونة من ولايات صغيرة متجاورة يحالف بعضها بعضا - فاتجه إلى الشمال ، ووقع بينه وبين حكام الأطراف التابعين لدولة السعديين سلاطين المغرب الأقصى فى ذلك الحين وقائع كثيرة استولى فيها على مناجم الملح الشهيرة فى جنوبى دولة السعديين ، ولكن أسكيا داود (١٥٤٩ - ١٥٨٢ م) تنازل عنها لسلطان السعديين فى مقابل مبلغ سنوى قدره ١٠,٠٠٠ مثقال من الذهب .

وبعد موت أسكيا محمد الطورى اختلف أبناؤه على خلافته - وكانوا فيما يقال نحو المائة - ولكن الأمر عاد فانتظم واستقام سلطان الصنغى فى ملكهم الواسع ، وعمرت تنبكت وازدهرت حتى بلغ صيتها بالغنى والأمن ووفرة الذهب بلاد أوروبا ، وتوافد العلماء عليها ، وانتشر التعليم بين أهلها حتى أصبحت الكتب العربية أعظم المتاجر وربما أوفرها هناك وفى هذه الفترة أى أواخر القرن السادس عشر الميلادى زار تنبكت الرحالة المغربى الحسن الوزان الذى ارتد عن الإسلام وتنصر باسم ليو الإفريقى (ويقال إنه عاد إلى المغرب وإلى الإسلام فى أواخر أيامه) وزار أيضاً بعض بلاد الصنغى الأخرى وقال « إن مرابح تجارة الكتب فاقت مرابح تجارة الذهب » وأضاف أن المصاحف والكتب الدينية الأدبية العربية كانت موضع فخر الناس ، وأن ثروة الرجل ومكانته كانت تقدر بعدد الكتب فى خزائنه وعدد الخيل فى مرابطه .

وبينما كانت بلاد صنغى فى هذا الازدهار جاء الغزو المغربى فكان ضربة قاصمة ونهاية لدولة صنغى ، وعلى يد المغاربة انتهى أمر دولة صنغى وعادت مالى إلى الظهور وحاول ملوكها الاستعانة ببعض الحكام المحليين ولكنهم لم يستطيعوا شيئاً ، وحاولوا التعرض للحاكم المغربى فلم يوفقوا إلى شيء .

وعقب ذلك اختفت دولة مالى هى الأخرى ، فكأن الغزو المغربى كان نهاية عهد الدول الإسلامية السودانية الكبرى بالضبط كما كان غزو نادر شاه قولى الأفشارى شاه فارس للهند وتخريبه لدلهى نقطة البداية لانحلال سلطان المسلمين فى الهند ، وقد وقع الحادثان المؤسفان فى نفس الوقت وهو عصر نهاية الدول الإسلامية الكبرى التى سادت عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، وهى على الترتيب من الشرق إلى الغرب سلطنة مغول الهند ثم دولتا الصفويين والأفشاريين فى إيران ، ثم دولة سلاطين مماليك مصر والحجاز والمغرب إلى حدود المغرب الأقصى ، ثم دولة سلاطين السعديين فى المغرب الأقصى ثم دولتا مالى وصنغى فى بلاد السودان الغربى .

وقد أكلت هذه الدول الإسلامية بعضها بعضاً بينما كان أهل الغرب يجمعون صفوفهم للانقضاض على العالم الإسلامى .

غزو سلاطين المغرب لبلاد السودان الغربى .

فى ذلك الوقت كان عرش مراكش عاصمة سلاطين السعديين أصحاب المغرب الأقصى قد آل إلى أحمد المنصور الملقب بالذهبى (١٥٧٨ - ١٦٠٣ م) فى ظروف مواتية لزيادة قوة البيت السعدى وهم من الشرفاء الحسنيين ، فقد كسب أخوه وسلفه عبد الملك فى ٤ أغسطس ١٥٧٨ م نصر وادى المخازن على البرتغاليين ، وهى المعركة المعروفة أيضاً بمعركة الملوك الثلاثة ، وكانت نتيجة هذا النصر خروج البرتغاليين نهائياً من بلاد المغرب وانقطاع أطماعهم الاستعمارية فيه ، ونتج عن ذلك النصر أن البيت السعدى العلوى قفز إلى مراتب البيوت الحاكمة الكبرى فى عالم النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى ، فوفدت السفارات الأوروبية على بلاد فاس . وأصبحت فاس عاصمة دولة كبرى تمتد من تلمسان إلى طنجة ومن طنجة إلى أقصى السوس جنوباً عند وادى درعة .

وقد تمكن أحمد السعدى الذى اتخذ لقب المنصور من إقامة دولة منظمة قوية أقرت الأمن ونشرت الرخاء فى الوطن المغربى كله ، وقد اتخذ السلطان أحمد المنصور الذهبى الأتراك العثمانيين نموذجاً يحتذيه ، وإن كان شديد الحرص دائماً على ألا يمد سلطانهم إلى بلاده فاتبع النظام التركى فى ترتيب قصره وشئون دولته واتخذ من الأتراك مدربين لجيشه ونظم هذا الجيش على أسس عثمانية واتخذ لقب باشا لعمال النواحى ، وكان فى جيشه أعداد كبيرة من الإسبان الذين دخلوا الإسلام ، والكثيرون منهم كان آباؤهم أندلسيين تنصروا بالقوة فعادوا إلى الإسلام ودخلوا فى خدمة سلطان المغرب الأقصى ، وكان فى الجيش كذلك أعداد كبيرة من السودان وأهل القبائل البربرية والمتسللين من الجند العثمانى ، وكان عدد رجال ذلك الجيش عظيماً ونفقته ثقيلة ، ففكر السلطان أحمد المنصور فى فتح بلاد السودان للفوز بذهبها الكثير الذى طبقت شهرته الآفاق فى تلك العصور ، واختار لقيادة حملة الفتح واحداً من الأندلسيين العائدين إلى الإسلام الذين انضموا إلى جيشه وهو جودر باشا ، وجعل معظم جيشه من أولاد الإسبان الأندلسيين ، وكانت تلك فكرة غير موفقة من ذلك السلطان الطموح ، لأن بلاد السودان كانت تقوم فيها دولة صنغى المسلمة وكان سلاطينها من آل سن أو شن رجالاً أقوياء يعيشون فى صراع دائم مع الوثنيين ، وكانوا يعملون على توسيع رقعة الإسلام من حولهم ، ثم إن المغرب الأقصى كان يجنى خير الثمرات من تجارته النشيطة مع السودان ، وكان علماء المغرب هم حملة الثقافة والعلم الإسلامى فى تلك البلاد الواسعة ، وكان ينبغى على المنصور الذهبى أن يفكر فى أن حملة كهذه تعبر الصحراء وتقطع ألوف الكيلو مترات فى الفيافى والقفار لابد أن تكلف صاحبها مالاً طائلاً ولاتعود عليه بعد ذلك بما يساوى ذلك العناء كله

سارت الحملة فى فوضى شاملة سنة ١٥٨١ م وهلك فى رمال الصحراء من رجالها مئات ، وكان هدفها الأول مناجم الملح فى تغازا ، وكانت مصدراً كبيراً من مصادر الإيراد لسلطان صنغى . فبدأت الحملة بالاستيلاء على واحات جرارة وتوات فى جنوبى الجزائر الحالية ، وعندما رأى ملك البرنو - سنتكلم عنهم بعد قليل - أن جيوش سلطان المغرب قد اقتربت من حدوده أعلن طاعته ودعا لسلطان المغرب على منابره .

وبعد خمسة أشهر من رحلة مهلكة فى الصحراء وصلت الحملة إلى بلاد صنغى وأوقعت هزيمة كبيرة بهم فى موقعة تونديبى على بعد ٥٠ كيلو متراً شمال جاو فى ١٢ إبريل ١٥٩١ م ، ثم دخل الجيش جاو فوجدها خاوية على عروشها قد غادرها أهلها ، فاستقر جودر باشا برجاله فى تنبكت وشعر رجال الحملة بخيبة أمل كبرى عندما علموا أن مناجم الذهب مازالت بعيدة جداً عنهم ، وأنهم لابد أن يسيروا قدر ماساروا فى بلاد صحراوية أيضاً حتى يدخلوا فى الغابة ويصلوا إلى سفوح جبال الفوتاجلون ، وشك السلطان أحمد المنصور فى صدق جودر باشا فعزله وأرسل مكانه قائداً مغربياً يسمى محمود زرجون فوصل إلى تنبكت وأخذ الرياسة من جودر وانتقل هذا الأخير إلى جاو .

وتفرق أمر صنغى وانتقل بعض رجالها إلى دندى تاركين بلادهم نهبا للطوارق والبامبا والبامبارا والفولا .

أما القائد محمود زرجون فلم يوفق فى إرسال مقادير الذهب التى كان السلطان يطالبه بها فعزله وتولى مكانه القائد منصور ، وهكذا لم يوفق الغزو المغربى إلا فى الفوز ببعض الذهب ، وأما القائد جودر فقد انتظر حتى هدأت الأحوال ثم عاد إلى مدينة مراكش محملاً بالأموال ، وأما بقية جنده فقد بقوا فى البلاد وتزاوجوا مع أهلها وأصبحوا منهم واشتركوا معهم فى الدفاع عن البلاد ضد هجمات الطوارق والبامبارا أصحاب سيجو والماندنج أصحاب مالى القديمة .

ويئس سلاطين المغرب من بلاد السودان واكتفوا بمقادير الذهب الكثيرة التى أرسلتها إليهم الحملة الأولى ، فلما توفى آخر الباشوات الذين أقاموهم على تنبكت سنة ١٨٢٠ م لم يبعث لهم السلطان خلفاً له ، وترك أمر السودان للجند المغاربة الأندلسيين فعاثوا فى البلاد فساداً ، ولكنهم ظلوا متفوقين على أهل البلاد بسبب انفرادهم باستعمال البندق ، ولم تكن البنادق ترمى إذ ذاك بالبارود ولكن بقطع الرصاص فى حجم البندقة ترمى بقوس حديدية ، وبسبب مهارتهم فى الرمى بها أطلق عليهم اسم إرما أو الأرما وهو تحريف لفظ الرماة العربى .

وقد أصبحت طبقة الأرما السودانية المغربية هى الطبقة الأرستقراطية فى البلاد منهم النبلاء وأبناء القادة وبناتهم ، ومن الغريب أن جنودهم من غير الرماة اشتغلوا بالحرف وبخاصة صناعة السلطات ورمى الأحذية .

وقد انتهى السلطان أحمد المنصور الذهبى من وراء هذه المغامرة التى قضى فيها على دولة إسلامية مجيدة فى فجر عصر الاستعمار وذلك بمقادير التبر العظيمة التى ذكرناها ، وقد اشتهر أمر المنصور الذهبى بالغنى وتحدث الزوار الأوروبيون عن سخاء السلطان المغربى ، على أن معظم الذهب الذى جاءه لم يكن من مناجم الذهب فى بلاد الفوتاجلون ، وإنما من نهب المدن ومن مصادرات أموال التجار والناس ، وكل ذلك يرجع إلى ذلك النوع الردىء من الجنود الذين استخدموا فى تلك الحملة .

نهضة الإسلام فى السودان بزعامة الفولانيين والتكاررة .

كان الفولا أو الفولانيون شعباً من الرعاة موطنه الأصلى فى حوض السنغال . وقد انتشرت فروع هذا الشعب وجماعاته فى كل المساحة الواسعة الممتدة من السنغال إلى إقليم تشاد ، واشتهرت منهم أربعة فروع كبيرة هى :

(١) الفولانيون السنغاليون المعروفون بفولا فوتاتورو .
(٢) الفولانيون الغينيون المعروفون بفولا الفوتاجلون .
(٣) الفولانيون فى إقليم ماسينا وبلاد الحوسى (الهاوزا) .
(٤) الفولانيون فى أداماوة فى شرقى نيجيريا .

دولة الفولانيين السنغاليين فى إقليم فوتاتورو .

دخل الفولانيون فى الإسلام على أيدى المرابطين منذ القرن الحادى عشر الميلادى كما قلنا وتحمسوا له وقاموا بدعوته وكسبوا إلى جانبهم التكاررة أو شعب التكرور ، وموطنه الأول فى شمال حوض نهر غمبيا وهم بدو أيضاً ، وقد اختلط الفولانيون بالتكاررة على مر الزمن وأصبحوا عماد الإسلام فى بلاد السودان الغربى حتى قيل إن بلاد التكرور وهى ملتقى أجناس شتى بحكم موقعها تشبه المدينة المنورة من حيث إنها مركز إشعاع دينى إسلامى عظيم .

وقد خضع التكاررة لدولة غانة قبل أن تدخل الإسلام ، ثم أصبحوا حلفاء المرابطين ، ودخلت الإسلام على أيديهم جماعات كبيرة منهم وحاربوا فى صفوفهم ، وبفضلهم أصبحت منطقة الفوتاتورو مركزاً كبيراً للدعوة الإسلامية ، وقد سبق أن ذكرنا أنه يقال إن الفولانيين أصلهم قبيلة من صنهاجة الصحراء ، وهم فى العادة ينسبون أنفسهم إلى قبيلة مسوفة وهى إحدى كبريات قبائل صنهاجة الصحراء ، واستمر التكاررة والفولانيون خاضعين لدولة غانة

الإسلامية ثم خضعوا لدولة مالى ، وفيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين قامت أسرة من أسر قبائل الجيف التى تسمى عادة بالولف – وهم قبيلة هجين من الفولانيين وبربر الصحراء – بإقامة دولة بزعامة أنجاجا آنجيان ، وفى سنة ١٧٧٦ م قام زعيم من التكارورة هو الإمام (تحرف فى لغتهم إلى المامى) بالثورة على سلطان الجلف وقتل ملكهم ، وأدخل هذا الفريق من التكارورة فى الإسلام ، وقامت بفضله دولة إسلامية قوية فى كل حوض السنغال (أى بلاد الفوتاتورو) تضم الفولانيين والتكرور والولف ، وقد استمرت هذه الدولة قائمة عاملة على نشر الإسلام فيما حولها حتى قضى عليها المستعمرون الفرنسيون .

دولة الفولانيين فى منطقة جبال الفوتاجلون وهى غينيا .

منطقة الفوتاجلون منطقة جبلية واسعة ، وهى تعتبر خط تقسيم مياه تنحدر منها إلى الغرب أنهار السنغال والجمبيا والكوتكورى ، ومنها منبع نهر النيجر ويسير شمالاً بشرق ، وله فرع ينحدر من الجبال غرباً نحو المحيط الأطلسى .

ونظراً للارتفاع ووفرة المياه فى ذلك الإقليم نجد بلاد الفوتاجلون منطقة غنية بالزراعات والماشية وهى ذات جو معتدل ، وفى القرن السادس عشر الميلادى فى فترة اضمحلال دولة الصنغاى دخلت هذه البلاد الغنية جماعات من الفولا السنغاليين ومن الفولا الضاربين فى بلاد الماسينا ونشرت الإسلام بين أهلها ، والراجح أن هذه الجماعات المهاجرة من الفولانيين كانت هاربة من سلطان الأساكى رؤساء صنغاى .

وبعد أن تم إسلام الفولانيين فى إقليم الفوتاجلون نجدهم يبايعون بالمُلك شيخاً عالماً ذا قوة وعزم وهو ألفع كراموكو ، والفع أو الفا لفظ عربى محرف مقتبس من لفظ الفقه أو الفهم ، وقد تلقب بهذا اللقب المؤرخ القاضى الفع محمود كعت صاحب كتاب الفتاش ، فاجتهد الفع كراموكو فى القضاء على الوثنية فى بلاده حتى أصبحت بلاداً إسلامية خالصة .

وخلفه زعيم من أسرة أخرى من الفولا هو إبراهيم سورى فأكمل عمل سابقه ، وعندما توفى وقع النزاع على السلطان بين الأسرتين ، ثم اتفقتا حوالى سنة ١٧٨٤ م على تبادل العرش كل سنتين فيملك الفع أو الفا من أسرة كراموكو هو وأصحابه سنتين ثم يتنازل عن العرش هو وأصحابه ووزراؤه للمرشح من أسرة السورى فيتخذ الوزراء والقواد من قبيلته ، وقد عرف هذا النظام من التناوب باسم نظام الفايا ، والفايا جمع الفا أو الفع فى لغة الفولا ، وقد ألغى الاستعمار هذا النظام بعد استيلائه على البلاد .

الفولانيون فى إقليم الماسينا الداخل فى بلاد الهوسى .

من الفولا جماعة من إقليم فوتاتورو أى وادى السنغال إلى إقليم ماسينا عند التقاء النيجر بأحد فروعه قرب بحيرة دبو وإقليم بانى ، وهناك استقروا وكثرت معهم قطعان ماشيتهم وزادت ثرواتهم ودخلوا فى طاعة مالى فكافأهم سلطانها بأن عين أحد رؤسائهم وهو ماجا جالو حاكماً (أردو بلغتهم) لإقليم بغلما ، وعاش الفولا فى سلام مع سادة الدول المتتابعة من غانة ومالى وصنغى والبامبارا ، ولكن أحدهم حاول الثورة على أسكيا داود فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى فتمكن هذا من القضاء عليه وعلى أنصاره .

وهاجرت جماعات أخرى من الفولا إلى إقليم ليتاكو على الضفة الشرقية للنيجر وكان توفيقهم هناك عظيماً ، وفى القرن السابع عشر نجد واحداً منهم يبسط سلطانه على المنطقة الواقعة فى وسط منحنى النيجر كلها ، واستمر أولاده وأحفاده على سلطانهم هذا حتى انضموا سنة ١٨٦٠ م إلى دولة سوكوتو على يد سلطانها عثمان دان فوديو .

الفولانيون فى أدماوة فى شرق نيجيريا .

وهناك هجرة فولانية رابعة تعتبر من الناحية الإسلامية أهم من الهجرات الثلاث السابقة وتدل على أن الفولا كانوا بحق من أنشط الجماعات القبلية السودانية فى العمل على نشر الإسلام وتوسيع رقعته فى بلاد السودان الغربى .

ففى منتصف القرن الثامن عشر كانت جماعات من الفولا قد استقرت فى إقليم جوبير وهو منطقة داخلة فى بلاد الهوسى ، وفى سنة ١٧٥٤ م ولد فيها عثمان دان فوديو أو فوجيو الذى تربى وتشبع على حب الإسلام والولع بالتبحر فى علومه ، واشتهر بالتقى والورع مما جذب حوله الأتباع ، فأسلم على يده عدد كبير من أهل هذه الناحية ، فلما صار لجماعته هذا القدر من الاتساع والحماس ثارت مخاوف رجال الهوسى فى إقليم جوبير ، وعندما أحس عثمان دان فوديو ذلك منهم واستوثق من قوى جماعته أعلن الحرب على الهوسى سنة ١٨٠٤ م وأصبح سيد المنطقة ، واتخذ لنفسه لقب الشيخ وأمير المؤمنين ، ثم أكمل الاستيلاء على بلاد الهوسى مثل كوتسينا وزارية ونوبه وكبه ، وأنشأ من ذلك كله سلطنة جعل سوكوتو عاصمتها وأخذ يتوسع فى بلاد قبائل اليوروبا .

وحاول عثمان دان فوديو أن يستولى على بلاد البورنو إلى الشرق ولكن هؤلاء وقفوا فى وجهه بقيادة قائد عسكرى يسمى الكانمى ، وانتهى الأمر بأن اتفق الجانبان على التصالح ووقف القتال

وفى تلك الأثناء ظهر بين الفولا الذين استقروا فيما كان يعرف باسم أدماوة وهى الكاميرون شيخ عالم مجاهد يسمى أدما خلع عليه الناس لقب مؤدب أو موديبو بلغتهم ومعناها العالم الفقيه ، وكان عثمان دان فوديو قد أتم إخضاع بلاد الهوسى واستقر فى عاصمته سوكوتو سنة ١٨٠٩ م ، وفى سنة ١٨١١ م نجده يستدعى موديبو أداما ويسلمه رايته البيضاء وهى رايته فى الجهاد ويكلفه بمواصلة الحرب حتى ينتشر الإسلام فيما على نهر البنوى جنوباً ، وهو فرع كبير من فروع النيجر فنهض أداما بالمهمة وأدخل كل مايعرف اليوم بالكاميرون فى الإسلام ، وأصبح اسم الإقليم أدماوة نسبة إليه وتوفى موديبو أداما سنة ١٨٤٧ م . وخلفه ثلاثة من أبنائه على التوالى ، وفى سنة ١٩٠١ م احتل الإنجليز البلاد وأقاموا رابع أولاده واسمه موديبو أداما أيضاً أميراً على تلك البلاد التى أصبحت مستعمرة .

وفى تلك الأثناء ظل عثمان دان فوديو سلطاناً فى بلاده وهى إقليم جوبير فى منعطف نهر النيجر ، فلما توفى سنة ١٨١٨ م تقاسم ملكه اثنان من أسرته هما أخوه عبد الله ، ويكتب اسمه وينطق عبد الاى ، وابنه محمد بلو ، وحكم عبد الله الولايات الغربية من المملكة وجعل عاصمته بلدة جاندو ، وأما محمد بلو فقد أخذ الولايات الشرقية وهى فتوحات عثمان دان فوجيو شرقاً واستمر يحكم من سوكوتو عاصمة أبيه ، وقد تكشف محمد بلوعن رجل علم يؤلف فى التاريخ والدين ، وقد بدأ تاريخه لمملكة أبيه بخطأ فاحش هو إنكار كل ما كان للهوسى قبل ذلك من أعمال بل إنه قضى على الوثائق والمؤلفات الخاصة بهم .

حمادو الشيخ .

كانت فتوحات عثمان دان فوديو فى الغرب ذات آثار عميقة على جماعة الفولا الضاربة هناك ، فقد حركت نفوسهم للدعوة للإسلام وظهر من بينهم حوالى سنة ١٨٧٥ م داعية مجاهد عظيم يسمى حامدوبارى فى منطقة الماسينا ، وقد اشترك حامدوبارى فى جيوش عثمان دان فوجيو التى قامت بفتح بلاد الهوسى ، وتمكن من الانتصار على أعدائه عند بلدة نوكوما سنة ١٨١٨ م . ومكافأة له على ذلك منحه عثمان دان فوجيو لقب الشيخ ، وجعله أميراً على منطقة ماسينا فاستولى على بلدة جنى وتنبكت ، ومد سلطانه على جزء من بلاد البامبارا وأنشأ لنفسه مدينة جعلها عاصمة له وسماه حمد الاى أى الحمد لله .

وتمكن حامدو الشيخ – أو حامدو سيكو – بلغة القوم هناك – من تنظيم دولته تنظيما دقيقاً فقسم هضاب الماسينا إلى ولايات ، وأقام على كل ولاية والياً وقاضياً وأنشأ مجلساً للحكم من أربعين شيخاً وأضاف إليهم ستين شيخاً آخرين من كبار العارفين ، وجعل هذه الهيئة مركز السلطة العليا فى البلاد ، واجتهد فى إقرار الناس فى الأرض وإخراجهم من البداوة فعمرت البلاد والطرق بمتاجر الفولا والباميارا والديولا – أصحاب ناحية كونج – والهوسى القادمين من نواحى بحيرة تشاد والتكرور من السنغال والمغاربة والطوارق وعلى هذه الصورة من الاستقرار والازدهار وجد الرحالة الأوروبيون دولة الفولا فى حوض النيجر عندما بدءوا يتوغلون فى أراضى القارة مرتادين ومكتشفين وزعموا أنهم وجدوا البلاد فى حالة فوضى لتبرير الاستعمار .

وقبل أن يموت حامدو الشيخ سنة ١٨٤٨ م لقى فى سنة ١٨٣٨ م حاجاً سودانياً هو الحاج عمر الذى كان له دور كبير فى تاريخ هذه البلاد قبل وقوعها فى قبضة الاستعمار .

الحاج عمر .

لم يكن الحاج عمر من الفولا ولكنه كان من التكاررة ، وقد ولد فى سنة ١٧٩٧ م بقرب بلدة بودور فى إقليم الفوتاتورو أى السنغال واسمه الكامل عمر سيدوتال ، وقد نشأ مسلماً ورعاً فمضى من شبابه الباكر باحثاً عن الشيوخ فى نواحى الفوتاتورو والفوتاجلون ولقى عثمان دان فوجيو فى سوكوتو وحامدو الشيخ فى حمد الاى .

ثم ذهب إلى الحج ، وعاد ليصبح خليفة الطريقة التيجانية فى ناحيته ، وأخلص فى العبادة وفى خدمة أهل الطريقة ، فارتفع شأنه بينهم وأصبح من أصحاب البركة ، أى الذين يمنحون البركة للناس ويستجاب دعاؤهم ، وتمكن من توثيق روابطه مع زعماء المسلمين فى بلاد السودان فأهداه الكانمى امرأة تقية اتخذها زوجة وأهداه محمد بلوانثتين ، وعلا شأنه فثارت مخاوف زعماء البلاد ، فرأى أن الأصوب أن يطمئن قلوبهم وينزوى للعبادة فى قرية صغيرة

حصينة هي ونجواى في موضع حصين في جبال الفوتاجلون ، وهناك تجمع حوله أنصاره وأخذت أعدادهم تزيد حتى أصبحوا جيشاً كبيراً من التكارورة فهاجم مراكز الماندنجو أى ماليون ، وهاجم البامبارا سادة إقليم كعارته وانتزع من أيديهم بلدة فوررو ، وأصبح له جيش من ٤٠٫٠٠٠ مقاتل ، وهدد سكان الفوتاجلون فاستنجدوا بالفرنسيين فأرسلوا قوة من الجيش بالمدافع والبنادق فوقفوا تقدم جيوش الحاج عمر .

ثم اتجه الحاج عمر نحو تنبكت واستولى عليها وضمها إلى مملكته الواسعة التي شملت بلاد الماسينا والفوتاتورو ، ثم اشتبك في قتال مع أمير من أمراء الماسينا ، وانهزم وفر إلى الجبال سنة ١٨٦٤ م حيث مات .

وكان الحاج عمر مسلماً ورعاً وبطلاً عظيماً من أبطال تاريخ الإسلام في غرب إفريقية ، وقد قضى الفرنسيون على دولة الحاج عمر وأولاده عندما مدوا سلطانهم على شمال وادى النيجر فيما بين سنتي ١٨٨٩ و ١٨٩٢ م .

ســـــامورى .

وكان آخر من حاول إنشاء دولة في السودان الغربي قبل الاستعمار الأوروبي رجلاً من الماندنجو يسمى سامورى الطورى ، وقد ولد حوالى ١٨٣٥ م في وادى الباولى وكسب أنصاراً كثيرين ، وكان مسلماً صادقاً ولكنه لايصل إلى شأو الحاج عمر وأراد أن ينشىء دولة فيما عرف الآن بجمهورية غينيا ، وكان الفرنسيون قد وضعوا خططهم للاستيلاء على كل هذه البلاد ، ولهذا كانت خططه محكوماً عليها بالفشل من أول الأمر ، ويذهب الفرنسيون إلى أن حركته كانت فوضى ونهباً لأى قرية لاتدفع له الإتاوة ، ولكن هذا غير صحيح والذين استولوا على البلاد كلها ونهبوها نهبا هم المستعمرون .

وقد صارع السامورى الاستعمار صراع الأبطال ، واتخذ لقب الإمام واشترى لجنوده البنادق من تجارن الإنجليز ، ولكن الفرنسيين طاردوه ، وكذلك البريطانيون ، فارتد السامورى إلى شمال ليبريا الحالية وهناك حاصره المستعمرون حتى وقع في أسرهم في سبتمبر ١٨٩٨ م مع ابنه وروجته فنفوه إلى الجابون وهناك مات سنة ١٩٠٠ م .

وبموت سامورى الطورى انتهى أمر الدول الإسلامية في السودان الغربي ، وورثها كلها الاستعمار ، وبدأ يمد سلطانه ويثبته بالحديد والنار .

ولايسع المتتبع هذا التاريخ إلا الإعجاب بشعوب إفريقية الغربية ، وبما أقامته من دول ذات نظام قائم على شريعة الإسلام وما أخرجوا من أبطال يعدون مفاخر لشعوب الماندنجو والفولا والتكرور ، والواقع أن الاستعمار لم يكتف بالقضاء على هذه الدول والحضارات بل اجتهد في تشويه سمعتها وسمعة رجالها ، وزعم رجاله أنهم كانوا قبائل همجية من أكلة لحوم البشر ، وأن الأوروبيين هم الذين أخرجوا هذه البلاد من الهمجية إلى الحضارة وهذا غير صحيح .

الإســــلام في الســـودان الأوســـط .

يقصد بالسودان الأوسط النواحي المدارية الشاسعة الممتدة من الضفاف الشرقية من النيجر الأوسط حتى منطقة بحيرة تشاد .

ثم المناطق التي تلى ذلك شرقاً حتى دارفور ووداى وهي الجزء الغربي من السودان النيلى ، وسنتكلم هنا عن أربع مناطق قامت فيها دول إسلامية كبيرة هي منطقتا الكانم والبرنو ثم منطقة دارفور ومنطقة الحوسى المعروفة بالهوسا .

الكانم والبرنو ودارفور .

تقع منطقة الكانم والبرنو حول بحيرة تشاد ، وهي بحيرة كانت واسعة المساحة غزيرة المياه ولكنها تجف الآن شيئاً فشيئاً ، وهي الآن مستنقعات تتخللها الجزر ، وفي وقت ليس بالبعيد ستجف هذه البحيرة تماماً فتتحول أراضيها إلى أراضى زراعية .

وصل الإسلام إلى هذه المنطقة في زمن مبكر مقبلاً من إقليم فزان الذى فتحه المسلمون أيام عثمان بن عفان على يد نافع بن عبد القيس الفهرى .

ومن هذا الطريق دخل الإسلام إقليم كوار ، وهو إقليم يمتد طولاً من الشمال إلى الجنوب عن طريق سلسلة من الواحات تمتد من فزان إلى إقليم بحيرة تشاد ، وهذا هو الطريق الرئيسى الأول الذى سلكه الإسلام إلى قلب إفريقية ، والطريق الثانى من وادى النيل إلى دارفور ووادى فتشاد ، أما الطريق الثالث فيسير بحذاء المحيط الأطلسى من المغرب الأقصى ويسير جنوباً مع المحيط الأطلسى حتى يدخل إفريقية المدارية ، وهذا هو الطريق الذى سلكه المرابطون ، وقد قامت بدور كبير في انتشار الإسلام في إقليم تشاد وإقليمى وداى ودارفور شرقيه قبيلة بربرية لانعرف عنها إلا القليل تسمى زغاوة أو رواوة ، هاجرت من موطنها الأول بمنطقة القبائل شرق مدينة الجزائر الحالية وانتقلت إلى إقليم فزان واستقرت هناك ، وهاجرت كتلة كبيرة منها إلى إقليم واداى ثم دار فور وهناك اتخذت لنفسها موطناً جديداً واجتهد رجالها في نشر الإسلام هناك ثم هاجر بعض فروعها ومعهم مهاجرون عرب من عرب « الشوا » وهو اختصار للفظ الشاوية ومعناه رعاة الشاة أو الأعناز وجماعة من العرب تسمى أولاد سليمان هاجروا من فزان عندما استولى عليها الأتراك العثمانيون ، ومن فروع الشوا في عرب السودان السلامات وخزام والجعادنة والعامد والدكاكير ، وقد أنشأ هؤلاء العرب ومن صاحبهم من البربر مملكة في إقليمى دارفور وواداى بين سنتى ١٠٨٥ و ١٠٩٧ م ، وأول مانسمع عنه من ملوكهم الملك حومى أو هومى ، وقد اتخذ لقب السلطان وقد توفى وهو عائد من الحج إلى مكة ، وخلفه ابنه دونامة وكان شديد التعلق بالإسلام حتى إنه حج ثلاث مرات ومات في حجته الثالثة ، وبلغت دولته أوجها في أيام سلطان يسمى دونامة أيضاً ويلقب باسم دبالامى وقد حكم من سنة ١٢١٠ إلى ١٢٢٤ م على قول ، أو من سنة ١٢٢١ — ١٢٥٩ م على قول آخر ، وكان أبوه السلطان سليمان أول سلطان للكانم من أصل سودانى صريح ، وشملت دولته بلاد الكانم وواداى وجزءاً من دار فور وقد أنشأ هذا السلطان قوة كبيرة من الفرسان قوامها ٣٠٫٠٠٠ فارس ووسع بهم رقعة مملكته حتى وصلت إلى حدود فزان شمالاً ومن واداى شرقاً إلى حوض النيجر غرباً وبسط سلطانه على شعب صنمى ولم يكن هذا الشعب قد نهض بعد نهضته التى تحدثنا عنها ، وفي أيامه نشطت التجارة مع مصر والمغرب نشاطاً عظيماً ، واتخذ سلطان الكانم لنفسه وكيلاً مقيماً في القاهرة مهمته الإشراف على تنظيم قوافل التجارة والحج ، وفي سنة ١٢٤٢ م أنشىء بالأزهر رواق خاص لطلاب الكانم وأنفق السلطان على طلاب الرواق وكان لقبه الرسمى في مصر « ملك الكانم وسلطان البورنو » .

وقد ضعف أمر سلطنة الكانم بعد أيام إدريس وثارت عليها بعض شعوب السودان التى كانت خاضعة لها مثل الصاوى وهم سكان البلاد الأصليون ، والتوبو سكان جبال تيبستى ، وقبائل البولالة الضاربة حول بحيرة فترى الصغيرة الواقعة جنوبى بحيرة تشاد ، وكذلك مثل ابنه عمر الذى يقال إنه حكم فيما بين سنتى ١٣٩٤ و ١٣٩٨ م ، واضطر سلطان الكانم نتيجة لذلك إلى الانتقال من بلد الكانم إلى ناحية البورنو غربى بحيرة تشاد وعاصمتها كوكا وأصبح سلاطينهم يلقبون من ذلك الحين بسلاطين البورنو ، واستمر الصراع مع البولالة قرناً من الزمان حتى تمكن السلطان إدريس كاتاكارمى من التغلب عليهم وإعادة سلطان الكانم عليهم من جديد ، وقد حكم هذا السلطان فيما بين سنتى ١٥٠٤ و ١٥٢٦ م .

وآخر سلطان من سلاطين البورنو نسمع عنه هو السلطان إدريس الأوما الذى حكم في النصف الأخير من القرن السادس عشر ، ربما من ١٥٧١ إلى ١٦٠٣ م وقد اتصل إدريس هذا بوالى إيالة تونس التركى وحصل منه على بنادق ومدربين وبهذا السلاح الجديد تمكن إدريس الأوما من تثبيت سلطانه ومده حتى شمال مايعرف اليوم بالكاميرون ، وبسط سلطانه شرقاً حتى بحيرة فيترى وتغلب كذلك على قبائل التوبو في جبال تيبستى ومد سلطانه على إقليم كوار . وانتهى أمر سلطنة البورنو بأن سيطرت عليها دول الحوسى ، وفي القرن التاسع عشر تعرض البورنو لهجمات الفولا واضطر أحمد بن على سلطان البورنو إلى الاستعانة بالقائد المشهور محمد الكانمى وكان يعيش في القاهرة فأقبل وتولى الأمر ، ومن ذلك الحين أصبح صاحب السلطان في دولة البورنو ، وهو لم يعلن نفسه سلطاناً ولكنه اكتفى بلقب الشيخ الكانمى وأدار الأمور وولى السلاطين ، وكان مقامه في مدينة كوكا على الشاطىء الغربى لبحيرة تشاد ، ولقب السلطان هناك يطلق على شيخ القبيلة أو الناحية .

بـــلاد الهـــاوزا .

الهاوزا هى الصيغة العربية لاسم يطلق على مجموعة من البلاد تقع فيما بين جبال العاير التى تقوم غربى إقليم كوار وعاصمته بلما وتمتد حتى الضفة الشرقية لنهر النيجر ، وأهل هذه البلاد يسمون أنفسهم الهاوزا ، وهو اسم يطلق عندهم على المناطق الواقعة شرقى نهر النيجر وتمتد منطقة الهاوزا حتى تصل إلى الحدود الغربية لبلاد البورنو .

وجبال العاير تقع على الحدود الجنوبية للصحراء شمالى نهر النيجر وبينها وبين النهر منطقة صحراوية واسعة يسودها طوارق الصحراء ، والسفوح الشمالية للجبال قاحلة ، أما الجنوبية فخشنها وديان تنحدر منها نهيرات تتلقى مياه الأمطار ، ولهذا فإن الجزء الجنوبى من هذه الجبال خصب وعامر بالحياة والخضرة والناس والثروة .

والتاريخ الأسطورى الذى يقصه الهاوزا عن أنفسهم يقول إن بعض قبائل الصحراء غزت

جبال العاير فى القرن الحادى عشر الميلادى ففر أمامهم الناس واستقروا فى ناحية جوبير من نواحى جنوبى الصحراء الكبرى شمالى نهر النيجر وشرقه ، وربما كانت تلك الغزوة من نتائج دخول العرب الهلالية المغرب ابتداءً من سنة ١٠٤٦ م فقد هربت قبائل الصحراء أمامهم حتى وصلت الجماعات السودانية الهاربة أمامهم إلى الغابات الاستوائية ، ولاصحة لنقول بأن القبائل البربرية التى اندفعت إلى الجنوب ودفعت أمامها غيرها كانت قبائل الطوارق ، لأن الطوارق شعب إفريقى قديم كان يعمر الصحراء الكبرى ، وقد ظلت فى مواطنها حتى دخلت الصحراء الكبرى فى القرن الثانى عشر الميلادى بقية قبائل صنهاجة الصحراء التى أقامت دولة المرابطين ثم انهزمت أمام الموحدين ، وبخاصة عندما احتدم الصراع بين الموحدين وبقايا المرابطين بقودهم بنو غانية المسوفيون .

وكانت إحدى قبائل صنهاجة الصحراء تسمى تارجا أو تاركا ، هاجر بعضها إلى نواحى تلمسان فى العصر المرابطى ، وبقى فى الصحراء معظمهم فى مواطنهم الأولى فى الصحراء الواسعة بين مجرى وادى درعة جنوبى المغرب الأقصى ، وامتدت منهم فروع ناحية الشرق وانتشرت فى نواحى الصحراء الكبرى وسموا بالطارجيين أو التاركيين أو الطوارق والمفرد طارق ، وانتشروا فى جنوب الصحراء الكبرى انتشاراً واسعاً فلما لحق بهم الهاربون أمام الموحدين من بنى عمومتهم من بقايا قبائل صنهاجة الصحراء تزايدت أعدادهم وازدادت قواهم ، وسادوا معظم الأقاليم الصحراوية القاحلة فى قلب الصحراء الكبرى وعرفوا فجاجها شبراً شبراً وأصبح يطلق عليهم جميعاً اسم الطوارق . وهذا هو أصل هذا الشعب المسلم العريق القوى الذى يعمر الصحراء الكبرى ، وقد اشتهروا باللثام الذى يغطون به وجوههم ولهذا يعرفون بالملثمين وعرفوا كذلك بملابسهم الزرقاء وهى من نسج أيديهم ويصبغونها بالنيلج وهو كثير فى صحراء مصر الغربية ، وقد طال الصراع بين الطوارق وكل من حاول دخول الصحراء الكبرى بمن فى ذلك الفرنسيون ، وقد عجز هؤلاء عن سيادتهم فهادنوهم وهابوهم وسموهم بأمراء الصحراء .

ونعود إلى الهاوسا فنقول إن اسمهم هنا ليس اسم جنس معين بل هو اسم لغة اشترك فى الكلام بها عدد من القبائل فى المنطقة التى ذكرناها من شرق نهر النيجر حتى تشاد ، ومعظم بلاد الهاوسا تقع اليوم فى جمهورية نيجيريا كما هو مبين على الخريطة ، وكانت للهوسا لغة تكتب بحروف خاصة وقد كتبوا بلغتهم كتباً كثيرة ، وعندما غزت بلادهم قبائل الفولا فى القرن التاسع عشر الميلادى قضوا على كل ماوجدوا من كتب الهاوسا وأشهر بلادهم كانو وكاتسينا وبيرام وزازية ودوار ورنقرة ، وكل منها وحدة سياسية قائمة بذاتها ولكنها كلها دخلت الآن جمهورية نيجيريا ، وفى أيام استقلالها كان لها ملك واحد مركزه كانو وأول ملك لهم يسمى باجودا وهو حفيد لبطل أسطورى يسمى أبو يزيد

وقد دخل الإسلام بلاد الهاوسا فى القرن الرابع عشر الميلادى أثناء حكم ملكهم ياجى (١٣٤٩ — ١٣٨٠ م) ، وقد أدخل الإسلام إليهم علماء ودعاة قدموا من بلاد مالى وبلاد البرنو والسودان النيلى ، وقد اختلط الإسلام عندهم بعناصر وثنية ولكن البعثات الإسلامية والأزهرية تعمل على تصحيح عقيدتهم .

خريطة ١٧٦

شرق إفريقية الإسلامى

انتشار الإسلام فى شرق إفريقية

كان ينبغى أن تكون بلاد شرق إفريقية من أولى بلاد العالم إسلاماً نظرا لمواجهتها لجزيرة العرب مهد الإسلام أو قربها منها ، ولكن شرق إفريقية وبخاصة مايقع منها على سواحل المحيط الهندى معقدة التركيب الجغرافى والبشرى ، مما جعل توغل الإسلام فى بلاد شرق القارة (فيما عدا مصر) عسيراً وبخاصة أن الحبشة كانت من قديم الزمان بلداً مسيحياً جبلياً ، وقد تركها المسلمون دون فتح مراعاة لما كان يقال من أن ملكها أيام رسول الله ﷺ كان يعطف على المسلمين ويأويهم فى بلادهم كما هو معروف فى السيرة النبوية ، ولكن يظهر أن ذلك الملك توفى أو قامت عليه ثورة فعزل وحل محله ملوك فى غاية التعصب الدينى وإن كانوا فى جهل شديد رغم اتصالهم الوثيق بالكنيسة القبطية المصرية ، وقد دخلت المسيحية الحبشة من مصر ، حملها إلى هناك راهبان إسكندريان فى قصة معروفة ، وكانت النتيجة أن أصبحت الحبشة — وكانت تعرف فى العصر القديم باسم مملكة أكشوم — بلاداً قبطية الديانة على المذهب المونوفيزى ، وهو مذهب الكنيسة المصرية ، ثم امتدت المسيحية من أكشوم إلى البلاد الجبلية التى تعرف بالحبشة ، وإذا كان الإسلام قد استطاع أن يغزو ممالك السودان القبطية فلأن أراضيها سهول استطاع العرب اكتساحها شيئاً فشيئاً ، ولكن نواة المسيحية فى الحبشة كانت فى الأقاليم الجبلية المرتفعة فلم يصل إليها الإسلام والمسلمون ، ولابد أن نقرر هنا أن معظم السهول المنخفضة الداخلة فى بلاد الحبشة الحالية مثل هرر

وتيجرى بلاد إسلامية ، وجدير بالذكر أن نسبة المسلمين من الأحباش تصل إلى مايزيد على أربعين فى المائة ، فإذا أضفنا إلى ذلك مسلمى إرتريا التى تستعمرها الحبشة ارتفعت النسبة إلى سبعين فى المائة لأن الإرتريين كلهم مسلمون .

وعلى الرغم من ذلك فقد تكفلت القبائل العربية المهاجرة عبر البحر الأحمر أو الزاحفة من مصر بغزو بلاد البجاه على شاطىء البحر الأحمر ثم بلاد عفر وهى المعروفة اليوم بجيبوتى ، وكان لعفر عيذاب أهمية كبيرة فى ذلك بصفته رأس معبر من الحجاز إلى إفريقية . واستولى أوائل العرب أيضاً على زيلع وسيطروا منها على طريق هرر التجارى المؤدى إلى أعالى الحبشة ، وكثر استعمال تجار العرب لهذا الطريق ، وكالعادة ساد الإسلام مع التجار وطرق التجارة ، ونشأت على الطريق المؤدى إلى قلب الحبشة إمارات أو مشيخات إسلامية صغيرة مثل رفقات وأدل ومودة وجدابة جنوبى نهر هوش ، وانتشر الإسلام بين قبائل سدامة الحبشية المستقرة وماحولها من قبائل البدو ، ودخل فى الإسلام كذلك ملوك بلاد كوش ، وأصبحت مدينة هرر فى مملكة دوارة مركزاً إسلامياً هاماً وإن تكلم أهلها لغة سامية خاصة بهم ، وقد أصبحت هذه المشيخات الإسلامية الصغيرة نطاقاً حال بين امتداد الحبشة نحو الجنوب والجنوب الشرقى ، وكان الصراع دائماً وعنيفاً بين هذه الممالك وملوك الحبشة ، وفى أوائل القرن السادس عشر وفى سنة ١٥٢٧ م على وجه الدقة ظهر بين المسلمين زعيم قوى هو الإمام أحمد جراق الذى تمكن من فتح الحبشة وأزال ملك النجاشى ، ولكن هذا الرجل لم يعش طويلاً إذ إنه قتل فى المعارك سنة ١٥٤٢ م وتفرق رجاله .

وتجدد الاتجاه إلى إدخال الحبشة فى الإسلام مرة أخرى عندما هاجرت قبائل الجالو الوثنية إلى داخل الحبشة فى موجات متعاقبة ابتداءً من سنة ١٥٣٧ م تقريباً ، وقد هاجرت هذه القبائل إلى منطقة سدامة شرق بحر الغزال .

وكانت فيها جماعات إسلامية كثيرة فأزالتها فلم يبق الإسلام إلا فى هرر ومايتبعها من الأراضى وبلاد عفر والصومال ، وتوسعت قبائل الجالو واحتلت هضاب الحبشة وقد أسلم بعضها وتنصر البعض الآخر . وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت الحبشة تعانى من مصاعب داخلية أتاحت للجالويين المسلمين الفرصة لكى يضموا بلدهم على الكثير من أراضى الحبشة ، ووجد الكثير من قبائلهم مثل الوللو وراية ويجو فى الإسلام وسيلة تمكنهم من العيش متميزين عن الأمهريين ، وقد حاولت قبائل الجالو المسلمة أن تسيطر على النجاشية وهى نواحى المرتفعات .

وخلال القرن التاسع عشر كمل إسلام قبائل الجالو على يد تجار المسلمين ودعاتهم فأصبحت كل أراضيهم إسلامية ، وبفضل هؤلاء جميعاً أصبحت كل القبائل الساكنة فى حوض نهر جبة إسلامية ، وأهمها قبائل جما وجيرة وليمو وجمة وجيمة أى جفار فيما بين سنتى ١٨٢٠ م ، ١٨٧٠ م .

وخلال القرن التاسع عشر أيضاً تحولت معظم قبائل إرتريا إلى الإسلام وكانت قبل ذلك مسيحية ، ومن بين هذه القبائل التى أسلمت مجموعة القبائل التى تتكلم بلغة التيجرى والقبائل الثلاث المسماة بيت أسجيدى وقبيلة ماريا وقبيلة بيلين أبو بوغوص المشتغلة بالزراعة ، وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى عادت الحبشة فتماسكت ونهضت واستعادت وحدة أراضيها وتمكنت من وقف تقدم الإسلام فى أراضيها ، وقام على رأسها ملوك أقوياء مثل تاودروس ثم منليك الذى استعان على المسلمين بمعونات أوروبية وقد حكم من سنة ١٨٨٩ م إلى سنة ١٩١٣ م ، وبفضل هؤلاء وأمثالهم اتسعت الحبشة ودخل فى بلادها مسلمون ووثنيون كثيرون ثم أضافت أوروبا إليها بعد الحرب العالمية الثانية بلاد إرتريا فضاعفت قوتها .

انتشار الإسلام فى بلاد القرن الإفريقى .

قسم العرب الساحل الإفريقى إلى أربع مناطق هى :

(١) ساحل البربرة عند القرن الإفريقى وإلى غربه وجنوبه ، وأهله كوشيون إلى جنوبى مقديشو وسكانه خليط من الكوشى والزنج .

(٢) بلاد الزنج أو ساحل الزنج . وكانوا وثنيين فى جملتهم ، وقد أنشئوا مدنا تجارية ساحلية ، وكانوا يخصصون لملك لهم فى مجمعة .

(٣) ساحل سوفالة وهى أرض الذهب ولهم ملك قاعدته صيونة

(٤) أرض الوقواق وهى مايلى بلاد الساحل جنوب ذلك وتدخل فيها بلاد موزمبيق ، وربما كان المراد بجزائر واق الواق جزيرة مدغشقر .

وكان المسيطرون على تلك المدن التجارية الساحلية كوشيين ، أما سكان الدواخل فهم من البانتو ، وكان هؤلاء الأخيرون يتحركون نحو الشمال مع الزمن حتى نجدهم فى جنوب ساحل البربرة بين سنتى ٥٠٠ ، ٨٠٠ ميلادية ، وقد تحدث عن هذه البلاد الساحلية المسعودى فى كتاب مروج الذهب والإدريسى وعلى بن سعيد ، وكلهم ذكروا مدن الساحل وأهمها مقديشو وبراوة ومركة ولمو وباتة وماليندى وموزمبيق وكلوة ، وكلها كانت بلاداً إسلامية قامت فيها دول يطلق عليها وعلى كل الموانىء الإسلامية على الساحل الشرقى لإفريقية دول الطراز ، ويطلق على سكانها بصفة عامة اسم السواحليين وكان اهتمام أهلها بالتجارة كبيراً ولذلك فقد كانت دول الطراز دولاً غنية تميزت بخليط سكانى إفريقى يغلب عليه الجنسان العربى والبانتو ونشأت عندهم ثقافة تسمى عادة بالشيرازية فيما بين سنتى ١١٥٠ ، ١٥٠٠ ميلادية .

والشيرازية منسوبون إلى على بن سلطان بن الحسن بن على ابن أحمد سلاطين شيراز من أرض فارس ، وكانت أمه سوداء وقد نفر منه إخوته من أمهات بيضاوات فأخرجوه من البلاد سنة ٩٧٥ م ، فذهب إلى إفريقية مع أولاده الستة وبضع مئات من المهاجرين واشتروا جزيرة صغيرة تسمى كلوة ، واشتغل هو وأصحابه بالتجارة وتبعهم فى ذلك أولادهم ومن دخل فى الإسلام معهم ونشأت عن ذلك جماعة الشيرازية .

وقد أنشأ الشيرازية مراكز تجارية كثيرة على الشواطىء الإفريقية . وفى القرن الثالث عشر كانوا قد سيطروا على التجارة على الساحل الإفريقى من ماليندى إلى موزمبيق ، وفى سنة ١٣٣٢ م زار ابن بطوطة كلوة وقال إن سكان سلطنة كلوة كلهم سود مسلمون ، وقد نشر الشيرازية الإسلام داخل البلاد ونشأت هناك حضارة متميزة تسمى حضارة الزنج ازدهرت ازدهاراً عظيماً فى القرن الرابع عشر الميلادى ، واتسع نطاق الحضارة الشيرازية حتى سوفالة ، وفى سنة ١٤١٠ م أرسلت كلوة سفارة إلى بكين .

وقد اختفت هذه الثقافة خلال فترة سيادة البرتغاليين على تلك السواحل ، وقد أضر البرتغاليون بالإسلام على الساحل الإفريقى الشرقى ضرراً بالغاً مع أنهم لم يحتلوا إلا نقطاً قليلة من الساحل الإفريقى .

وفيما بين أواخر القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر شهد الساحل الإفريقى موجات متصلة من مهاجرى اليمن ، وكان فى جملة المهاجرين نفر من الفقهاء فأدخلوا هناك المذهب الشافعى ونشروه بين السواحليين ، وعنى هؤلاء الفقهاء بكتابة السواحلية بحروف عربية ، وكانت قبل ذلك لغة غير مكتوبة ، ومن اختلاط العناصر الحضارية الإسلامية مع بقايا الحضارة الشيرازية والبنتوية تكون نسيج الحضارة السواحلية المعروفة لنا اليوم وهى حضارة يغلب عليها الطابع الإسلامى .

وكان سلطان العمانيين قليلاً على مراكزهم التجارية على الساحل الإفريقى حتى تولى السلطان سعيد بن سلطان من أسرة البوسعيديين سنة ١٨٠٦ م فتمكن من تثبيت نفوذه فى مسقط ثم وجه اهتمامه إلى الساحل الإفريقى وأنشأ فى جزيرة زنجبار عاصمة لسلطانه هناك ، ويعتبر عصر هذا السلطان عصراً حاسماً فى تاريخ الساحل الشرقى الإفريقى ، فإن نشاط المسلمين التجارى توغل فى أيامه إلى داخل القارة فى بلاد تنجانيقا وموزمبيق ونياسا ، وأنشأ المسلمون محطات تجارية فى عمق القارة ولكنهم لم يبذلوا جهداً خاصاً فى نشر الإسلام بين شعوب القارة جنوب خط الاستواء ، ومع ذلك يمكن القول إنهم فتحوا الأبواب للإسلام ثم أخذ الدعاة يتوغلون داخل القارة .

ونتيجة لهذا نجد أن الذين دخلوا الإسلام من البانتو فى المنطقة الاستوائية أو جنوبها هم الذين كانت لهم علاقات تجارية وثيقة مع العرب والسواحليين أول الأمر .

أما انتشار الإسلام على نطاق واسع فى تنجانيقا فيرجع إلى سنة ١٨٨٠ ميلادية بعد احتلال الألمان لتلك المنطقة ، ويذهب الألمان إلى أنهم أصحاب فضل فى نشر الإسلام فى تنجانيقا ، لأنهم أقروا الأمن فى البلاد وفتحوا الطرق ولم يقوموا بأى عمل يقف سير الإسلام ، بل يذهبون إلى أنهم تركوا الإسلام ينتشر لأنهم وجدوا فيه نوعاً معقولاً من التنظيم الاجتماعى والتشريعى يساعدهم على الحكم ، والحقيقة أن المستعمرين - فيما عدا الفرنسيين والبرتغاليين - كان اهتمامهم موجهاً إلى استغلال البلاد استغلالاً مادياً فلم يهتموا بنشر المسيحية ، ولاشك فى أن الإسلام تضاعف انتشاره فى القارة الإفريقية جنوبى خط الاستواء أثناء فترة الاستعمار . وعندما قامت بلاد إفريقية المستقلة اليوم كان الحكام فى معظمهم ممن تربوا فى مدارس المبشرين فنشأوا مسيحيين ومعظمهم اليوم يعمل على وقف انتشار الإسلام مستعينين فى ذلك بجماعات المبشرين من البروتستنت والكاثوليك

خريطة ١٧٧
دخول الإسلام إندونيسيا والملايو وجزر الفلبين وأهم دول الإسلام التى قامت فى هذه النواحى فى أواخر القرن ١٩ ميلادى / ١٣ هجرى

انتشار الإسلام فى جزر المهراج

يراد بجزر المهراج مانعرفه اليوم بجمهورية إندونيسيا وأجزاء من مملكة ماليزيا والجزء الإسلامى من جزر الفلبين .

والذى أطلق هذا الاسم على تلك الجزر هو المسعودى فى كتاب « مروج الذهب » أما بقية الكتاب المسلمين فيسمونها بأسماء جزرها : سومطرة وجاوة وشبه جزيرة الملايو وما إلى ذلك ، وبعض المسلمين يسمون سومطرة جاوة الكبرى وجاوة باسم جاوة الصغرى وهكذا ، وهذه البلاد إسلامية انتشر الإسلام فيها من جزيرة إلى جزيرة على أيدى الدعاة والتجار .

ومن العسير تحديد تاريخ بدء دخول الإسلام هذه الجزائر العظيمة ، وتقول المراجع إن تجار المسلمين أنشئوا لأنفسهم مراكز تجارية على سواحل سومطرة وشبه جزيرة الملايو من وقت مبكر ، ربما من أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الهجريين ، الثامن والتاسع الميلاديين ، وقد أتى أوائل التجار أول الأمر من جزيرة العرب : من عمان وحضرموت والساحل الجنوبى لليمن ، وبعد ذلك وصل إلى هذه الجزر تجار المسلمين من الهنود ومن شبه جزيرة الكجرات التى يسميها المسعودى جوجرة . واتخذ تجار العرب الأول مراكزهم الأولى على الشاطىء الغربى لسومطرة وكانوا يسمونها جندرة ، وكانوا أهل سنة على المذهب الشافعى ، أما الهنود فقد دخلوا الجزر بالمذهب الحنفى ، ويحكى ابن بطوطة أن سلطان سومدرة المسلم فى القرن الرابع عشر الميلادى كان على علاقات ودية مع سلاطين دهلى من المغول ، وقد كانت هذه الجزر معروفة معرفة تامة عند العرب ، فهم الذين سموا ساحل شبه جزيرة الملايو كله « بار » ومعناه بركلة « اسم الساحل » ، وكذلك كان العرب يسمون الجزء الجنوبى لبحر الصين بحر كندرنج أو كدرنج ويليه شمالاً بحر الصنف وهو البحر الواقع شرق الهند الصينية ، والمسعودى يطلق أحياناً اسم جزيرة الزابج أو الزانج أو الرامنى على جزيرة سومطرة والجزر الصغيرة الواقعة إلى غربها .

انتشار الإسلام فى جزيرة سومطرة .

ويبدو أن أول جماعة إسلامية كبيرة قامت فى إندونيسيا كانت فى الطرف الشمالى لجزيرة سومطرة أو سومدرة فى موضع يسمى أتجيه أو أتشيه ، ويقال كذلك إن أول من حمل الإسلام إلى هناك داعية عربى يسمى عبد الله عارف ، وقام تلميذ له يسمى برهان الدين بحمل الدعوة حتى ناحية بريامان على الساحل الغربى لسومطرة .

وبلغ من تمكن الإسلام هناك أن رجلاً مسلماً استطاع أن يقيم أسرة حاكمة فى أتشيه ، ويسمى هذا الرجل باسم جيهان شاه ، ويغلب على الظن أنه هندى ثم تزوج من أهل البلاد وتسمى باسم سرى بدوحا .

وظل انتشار الإسلام فى سومطرة مقصوراً على السواحل زمناً طويلاً ، لأن الهندوكية كانت عميقة الجذور فى الداخل تؤيدها مملكة تسمى متاج كابا ، ويقول ماركو بولو الذى زار هذه الجزر فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى إنه كانت هناك مملكة برلاك الإسلامية الواقعة على الساحل الشمالى الشرقى لسومطرة تجاه ملقا ، ومن هذا كله نرى أنه منذ القرن الرابع عشر الميلادى كان الجزء الشمالى لجزيرة سومطرة إسلامياً تقوم فيه مملكة أتشيه التى سميت أتشين وكذلك مملكة برلاك وكلتاهما إسلامية ، وإلى جوار أتشين كانت تقوم ناحية سومدرة التى جاء منها اسم سومطرة .

ومن أتشين تقدم الإسلام فى سومطرة جنوباً حتى وصل إلى طرفها الجنوبى ، وأنشأ المسلمون ممالك باج كاغولو ولامبونج ، ثم صعد الإسلام على الساحل الشرقى حتى وصل إلى مدينة أرو تجاه ملقا أيضاً ، واتصل المسلمون من هناك بمسلمى برلاك ، وكان زعيم الجماعة التى حملت الإسلام هذه المسافة الطويلة يسمى الشيخ إسماعيل ، وكان مرسلاً من عند شريف مكة ، ومن برلاك سار الشيخ إسماعيل إلى مدينة سومدرة التى ذكرناها وتمكن من إدخال هذا البلد فى الإسلام وتسمى ملكه باسم الملك الصالح ، وتزوج الملك الصالح من ابنة ملك برلاك وأنجب منها ولدين ، وعمل على توسيع رقعة مملكته الإسلامية فضم إليها مملكة باساى على الساحل الشمالى لسومطرة ثم أورث كلا من ابنيه نصف مملكته ، وقد كان ابن بطوطة فى سومدرة سنة ١٣٤٥ م وهو يحدثنا عن ملكها المسمى بالملك الظاهر واتساع ملكه وعدله وتقواه وثروته ويبدو أن الملك الظاهر كان أحد ولدى الملك الصالح .

وفي نفس الوقت كان الإسلام قد أخذ طريقه في داخل الجزيرة حيث دخل الناس فيه أفواجاً ولكنه لقي مقاومة في مملكة الباتك في وسط الجزيرة ، وعندما تقضي الهولنديون على السلطان السياسي للباتك انفتح الطريق أمام الإسلام واعتبر الناس الدخول في الإسلام تعبيراً عن احتجاجهم على الهولنديين ، بل بلغ الإقبال على الإسلام في بلاد الباتك أن من كان تنصر من أهلها على يد هيئات التبشير انتقل إلى الإسلام الذي اتخذ طابعاً قومياً محلياً ، وهكذا نجد أن الإسلام اجتذب أهل بلاد بالمبانج الواقعة في جنوب سومطرة ، ولم يتم إسلام سومطرة تماماً إلا في القرن العشرين .

جــــاوة .

دخل الإسلام جاوة من شبه جزيرة ملقا ولم يلبث أن عمها كلها بعد جهود طويلة ومثابرة من الدعاة الذين لم يجدوا مقاومة تذكر ، فإن معظم الجاويين كانوا على الوثنية سهل انضمامهم إلى الإسلام ، ويرجع معظم الفضل في ذلك إلى داعية نشيط يسمى الشيخ إبراهيم المتوفى سنة ١٤١٩ ، وقد تمكن هذا الرجل وتلاميذه من إدخال أهل جاوة كلهم في الإسلام ، وأصبح الشعب الجاوى من ذلك الحين شعباً إسلامياً أصيلاً حتى أنشىء لطلابهم رواق خاص في الأزهر الشريف سمى برواق الجاويين ، وللإسلام في جاوة تاريخ طويل لأن صراع دعاة المسلمين للهندوكية كان عنيفاً ، ويرجع الفضل في انتصار الإسلام إلى أمير من أبناء ملك باجاجاران ، وهذا الرجل مال إلى الإسلام ميلاً شديداً حتى ترك الملك لأخيه واشتغل بالدعوة وذهب إلى جزيرة العرب وتسمى باسم حاجى پروا ، وعندما عاد إلى وطنه اجتهد في إدخال أخيه ومملكته في الإسلام فلم يستطع .

وفي النصف الأخير من القرن الرابع عشر الميلادى قامت حركة جديدة للدعوة على يد داعية يسمى ملك إبراهيم أو الشيخ إبراهيم يقال إنه من أحفاد على زين العابدين حفيد على بن أبي طالب رضى الله عنه ، وقد استقر هذا الرجل داخل الجزيرة بين القبائل الفطرية وأخذ يدعو للإسلام ، وكان أمله أن يكسب إلى الإسلام راجا ماجاپاهيت الهندوكي وكانت مملكته تشمل معظم الجزيرة ولكنه لم يوفق في ذلك ولكن كسب إلى الإسلام جموعاً غفيرة من أهل الجزيرة وتوفى سنة ١٤١٩ م ودفن في جريسيك ، ومازال قبره هناك إلى اليوم ، وقد روى سائح صينى زار جاوة سنة ١٤١٣ م أن المسلمين كانوا قد كثروا في الجزيرة حتى أصبحوا يعدون من الطبقات الظاهرة في المجتمع .

وفي ذلك الحين كانت تقوم في جزيرة جاوة ممالك كثيرة صغيرة وكبيرة أكبرها إمارة ماجاپاهيت الهندوكية التي ذكرناها آنفاً ، وفي أقصى الغرب كانت تقوم إمارات أكبرها تشيرمبون ، وقد انتشر الإسلام في شرق الجزيرة بفضل داعية من أصل ملوكى يسمى رادان رحمة أقامه راجا ماجاپاهيت أميراً على بلدة تومابل على الساحل الشمالي الشرقي فحول أهلها كلهم إلى الإسلام .

وكان رادان رحمة قد أرسل داعية يسمى الشيخ خليفة حسين إلى جزيرة مادورة فتمكن من تحويل أهلها للإسلام ، وبنيت المساجد في كل هذه الأقطار التي دخلت الإسلام ، وفي سنة ١٤٧٨ م تمكن المسلمون من القضاء على سلطنة راجا ماجاپاهيت الهندوكية وانتقلت السيادة في شرق الجزيرة إلى المسلمين ، ثم انتشر الإسلام في جنوب جاوه وإن كان انتشاره تأخر في وسطها بضعة قرون ولكنه تغلب على المصاعب التي واجهته بفضل الدعاة وأهمهم الشيخ نور الدين إبراهيم أحمد ، وقد أرسل هذا الشيخ ابنه مولانا حسن الدين إلى ولاية بنتام في الغرب فنجح في إدخال أهلها في الإسلام وخلال القرن السابع عشر كانت جاوة كلها قد أصبحت إسلامية .

جزيرة بورنيــو « كليمانتــان » .

ومن جاوة وسومطرة انتقل الإسلام إلى جزيرة بورنيو وهي أكبر جزائر المحيط الهادى ، وانتشر على سواحلها الغربية والشمالية . وتحولت سلطنة بروناى إلى الإسلام بعد أن عم الإسلام غربي الجزيرة كله ، أما بلاد الداخل فقد أبطأ توغل الإسلام فيها نظراً لوعورة سطحها وانتشار القبائل البدائية الوثنية في أراضى الدواخل الجبلية التي تغطى معظمها الغابات الاستوائية .

وانتقل الإسلام من جاوة إلى مجموعة جزائر سليبيس (سيلاويزى) وجدير بالذكر أن أرخبيل هذه الجزر التي كانت تسمى بجزر الهند الشرقية يتكون من أربع مجموعات تلى بعضها بعضاً من الغرب إلى الشرق ، وكل مجموعة تتكون من جزر كبيرة وعشرات الجزر الصغيرة . والمجموعة الأولى هي مجموعة سومطرة وجاوة ، والثانية هي مجموعة جزيرة بورنيو والثالثة هي مجموعة جزيرة سيلاويزى والمجموعة الرابعة هي مجموعة جزر ملوكو ، ثم يلى ذلك إلى الشرق جزيرة غينيا الجديدة وقسمها الغربى الذى دخل في الإسلام ويتبع اليوم جمهورية إندونيسيا ويسمى إيريان . وقد قلنا إن الإسلام وصل إلى جزائر سليبيس ودخلت فيه دون صعوبة القبيلتان الكبيرتان اللتان تسيطران على الجزيرة وهما ماكسار والبوجى ، ثم لم تلبث قبيلة الغور التي تقطن الداخل أن أسلمت ، وطلب المسلمون في جزيرة سليبيس أئمة ودعاة من أهل مملكة أتشيه فلبوا طلبهم وأرسلوا إليهم عدداً كبيراً من الدعاة .

وفي أوائل القرن السابع عشر كانت كل مجموعة جزائر سليبيس قد دخلت في الإسلام وتبعتها جزيرة لومبوك ، أما جزيرة بالى الواقعة بين لومبوك وجاوة فقد كان الإسلام قد غزا جزءاً منها عندما أقبل الهولنديون ، وقد افتتن هؤلاء بها نظراً لجمال مناظرها الطبيعية ومعابدها البوذية وحسن نسائها وامتيازهن في الرقص الإندونيسى التقليدى ، فاعتبروها منطقة تسلية ومتعة وسياحة وأنشئوا فيها الفنادق ودور اللهو ، ولم يأذنوا للدعاة بالعمل فيها فتوقف انتشار الإسلام فيها ، ومازالت إلى يومنا هذا جزيرة سياحية ومركزاً للهو .

أما مجموعة جزر الصند الصغرى التي تلى لومبوك شرقاً وأكبرها جزيرة تيمور فقد دخلت في نطاق الإسلام في نفس الوقت أي خلال القرن السابع عشر وقد ضمتها جمهورية إندونيسيا إلى بلادها في الستينيات من هذا القرن عقب وقوع الانقلاب الجمهورى في البرتغال وتفكك الإمبراطورية الاستعمارية البرتغالية .

ومن غرب سومطرة هاجرت إلى شبه جزيرة الملايو جماعات إسلامية فيها تجار ودعاة كثيرون واتجهت إلى الطرف الجنوبى من ملقا ، وأخذت تعمل على نشر الإسلام من أواسط القرن الثانى عشر الميلادى ، ثم صعدت حتى وصلت مدينة ملقا عاصمة مملكة ملقا . ثم أقبل إلى هذه المملكة تاجر وداعية عربى من جدة يسمى سيدى عبد العزيز ، وقد تمكن هذا الشيخ من إقناع ملك ملقا بدخول دين الله وسماه محمداً ، وتبعه في إسلامه أهل مملكته وأصبحت مملكة ملقا أولى الممالك الإسلامية في شبه الجزيرة ، وتبعها غيرها مثل مملكة قويدة في شمال شبه الجزيرة ، وقد تم إسلامها سنة ١٥٠١ م وكانت قبل ذلك هندوكية يحكمها ملك يلقب بالراجا ، وقد دخل الإسلام هذه المملكة على يد داعية عربى يسمى عبد الله ، وأمر الراجا ببناء المساجد في بلاده وجعل لكل مسجد أربعين من القوم لصيانته والإشراف على شئون العبادة فيه ، ثم اتصل راجا قويدة بسلطان أتشيه وأرسل هذا إليه كتاباً يخطب وده وأرسل إليه بعض الكتب الدينية الإسلامية .

وهكذا نرى أن الإسلام في مسيره في جزر إندونيسيا قد قفز من مجموعة من الجزر إلى أخرى بسلام ودون أي حرب ، وفي هذا الجزء من العالم تقوم الآن جمهورية إندونيسيا وهي أكبر بلد إسلامي على الأرض ، وكذلك تقوم هناك مملكة ماليزيا الإسلامية التي تعتبر من أغنى بلاد الإسلام .

الإسلام في جزر الفلبيــن .

قبل أن يصل الإسبان إلى مجموعة الجزائر التي يطلق عليها اليوم جمهورية الفلبين سنة ١٥١٦ م لم تكن هذه المجموعة الكبيرة من الجزر بلداً واحداً ، وإنما كانت جزراً متفرقة تعيش فيها قبائل متنازعة وكانت الجزر امتداداً لجزر إندونيسيا ، وهذه وتلك كانت من منازل الشعب البحرى البولينيزى الواسع الانتشار ، وهو الذى يسكن كل جزائر المحيط الهادى بما فيها اليابان .

وكان الإسلام يمتد في هذه الجزر على مهل قادماً من الجنوب والشرق فوصل إلى جزيرة لوزون وهي الجزيرة الشمالية الكبيرة في نفس الوقت الذى وصل فيه إلى أرخبيل سولو وجزيرة منداناو وهي الجزيرة الجنوبية الكبيرة وكان ذلك في أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

ويغلب على الظن أن الدعاة الذين حملوا الإسلام إلى الفلبين أتوا من سلطنة جوهور الواقعة في الطرف الجنوبى لشبه جزيرة الملايو ، ويذكر مؤرخو الفلبين من المسلمين أن أول من حمل الدعوة الإسلامية إلى بلادهم رجل يسمى « شريف كابو نجوان » الذى وصل إلى جزيرة لوزون أواخر القرن الخامس عشر الميلادى وتمكن هو ومن جاء معه من الدعاة من كسب معظم سكان جزيرة منداناو إلى الإسلام ، وانتشر الدين الإسلامي انتشاراً واسعاً في أرخبيل سولو أو جولو الذى يقع في جنوب الجزر الفلبينية ، وكذلك بدأ الإسلام ينتشر في جزيرة بلاوان أو بهلوان الكبيرة الواقعة غربى مجموعة الجزر .

وعندما وصل الإسبان إلى هذه الجزر سنة ١٥١٦ م بقيادة الجنرال مجلانا ظنوا أن هذه الجزر كلها على الوثنية كما كان الحال في معظم جزر بولينيزيا ، فأعلنوا عن عادتهم

أن هذه البلاد مسيحية ، وسموها باسم ملكهم فيليب الثانى وهو الذى أرسل الحملة على تلك الجزر بقيادة الجنرال سجاسبتا .

ولكن الإسبان عندما توغلوا فى جزيرة لوزون اصطدموا بطلائع المسلمين فسموهم بالاسم الذى كانوا يطلقونه على المسلمين فى الأندلس وهو المورو وسيراد به العرب أو المسلمون ، ومازال هذا الاسم يطلق إلى اليوم على المسلمين فى الفلبين .

ونشب الصراع بين الإسبان الكاثوليك والموروس المسلمين فى جزيرة منداو ، وكان دعاة الإسلام قد صاهروا الناس ونشروا دينهم بينهم ، وكانوا يفعلون ذلك على مهل ودون لجوء إلى عنف ، ثم إنهم كانوا أفراداً متطوعين لاتؤيدهم دولة أو قوة عسكرية ، فجاء الإسبان بجيوشهم يقتحمون البلاد على أهلها كما كان دأبهم فى غزواتهم فى العالم الجديد فنفر الناس منهم وأخذوا جانب المسلمين ، وبدا الإسلام على أنه الديانة القومية ، واستمر الإسلام يواصل تقدمه فى منداو وهى جزيرة وعرة كثيرة الجبال والهضاب والأحراش والمستنقعات ، واجتهد الإسبان بالوسائل الكثيرة التى كانت فى أيديهم فى وقف التقدم الإسلامى ولكنهم لم يوفقوا ، فقد اتسمت الإدارة الإسبانية فى مستعمراتها بالفساد والقسوة ونهب أموال الناس ، وعمدوا إلى تنصير الناس بالقوة فتوقف تقدم الإسلام فى لوزون ، ودارت المعركة فى منداو وخاصة فى نواحيها حيث تعصب للإسلام عدد كبير من رؤساء القبائل ، ومع أن الإسبان أقاموا فى الجزر حكومة منظمة مؤيدة بالسلاح والجند وإطارات حكم فإن فساد الموظفين أدى إلى تعثر الحكم الإسبانى فى الجزر الفلبينية . واستبسل المسلمون فى الدفاع عن دينهم وأرضهم فلم يتمكن الإسبان من التغلب على المسلمين فى جزيرة منداو إلا بعد حروب طويلة ، وفى سنة ١٨٧٨ م أعلنوا أنهم أتموا غزو جزيرة منداو ولم يكن ذلك صحيحاً ، وأرسلوا بعض سفنهم إلى جزيرة بلاوان وأرخبيل سولو وقد تمكن أهل هذه الجزر من إنزال هزيمة بحرية بالإسبان وردوهم إلى لوزون .

وقد أساء الإسبان إلى أهل الجزر كلها إساءات بالغة ونهبوا أموالهم نهباً ، وكانت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر عقود تدهور بالغ فى الإدارة الإسبانية فى إسبانيا ومستعمراتها ، وكانت الولايات المتحدة تعمل بنشاط للقضاء على النفوذ الإسبانى فى أمريكا الجنوبية من منتصف القرن الماضى وخاصة بعد قيام حركات التحرير والاستقلال فى تلك البلاد ، فلما استعانت أهل جزر الفلبين بالأمريكيين بادر هؤلاء بإرسال أسطول كبير أنزل بالإسبان هزيمة قاصمة فى مياه الفلبين ، وعلى أثر ذلك تخلى الإسبان للأمريكيين عن جزر الفلبين سنة ١٨٩٨ م ، ولكن الإسبان قبل خروجهم كانوا قد أنشئوا المؤسسات الكنسية وأرسلوا جماعات الرهبان والمبشرين إلى الجزر ، فسارت المسيحية الكاثوليكية فى طريقها فى الفلبين ، وإلى جانب ذلك أتى الأمريكيون بالمسيحية البروتستنتية وقامت المنافسة الشديدة بين دعاة الديانتين المسيحيتين ولكن الإسلام ظل ينتشر

ولكن محنة الإسلام فى جزر الفلبين بدأت بعد استقلال البلاد بعد الحرب العالمية الثانية وقيام حكومة وطنية على رأسها رئيس من الكاثوليك ، إذ إن القساوسة عملوا على إثارة الحكومة المركزية على المسلمين واتهامهم بالميل إلى الشيوعية ومالى ذلك ، وعندما طال النزاع طالب المسلمون بالانفصال بجزيرة منداو وأرخبيل سولو وإنشاء دولة إسلامية هناك ولكن الحكومة بمعاونة الأمريكيين ظلت تحاربهم وتحصرهم فى الجزء الجنوبى من جزيرة منداو وجزر سولو ، ومازال الصراع قائما إلى اليوم ، ولكن الكفتين غير متعادلتين لأن المسلمين فى الفلبين متفرقون وفقراء ولايقدم لهم أحد من المسلمين معاونة حقيقية فى حين أن الكنائس المسيحية هناك تتلقى معونات ضخمة من كل البلاد المسيحية

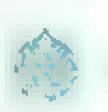

المراجع

أحمد بن فرتوه : السلطان إدريس بن الكانمى من ١٥٧٠ إلى ١٥٨٣ م . نشره محققاً ومترجماً إلى الإنجليزية هـ . بالمر ، وطبعه أمير كانو فى نيجيريا ١٩٣٠ م

حروب إدريس . نشره أيضا هـ . بالمر . بمعاونة أمير كانو فى نفس السنة .

ديهام : الشيخ محمد الأمين الكانمى . نشر فى لندن .

أحمد بابا التنبكتى : (مؤرخ صنهاء) : كفاية المحتاج لمعرفة من ليس فى الديباج . القاهرة ١٣٢٩ م .

عبد الرحمن السعدى : (مؤرخ دول السودان الغربى) : تاريخ السودان . نشره فى باريس المستشرقان الفرنسيان : هوداس وبنوا سنة ١٩٠٠ م

عبد الرحمن زكى : تاريخ انتشار الإسلام فى غرب إفريقية . القاهرة ١٣٩٧ هـ .

إبراهيم على طرخان : تاريخ الإسلام فى غرب إفريقية ، القاهرة ١٩٦٢ م .

توماس أرنولد : السير : الدعوة إلى الإسلام ، وهى ترجمة عربية لهذا الكتاب المشهور The Preaching of Islam قام بها حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد النحراوى وزميل آخر وطبع مراراً فى القاهرة . اعتمدت على طبعة ١٩٥٨ .

Pierre Bertaux , L'Afrique de la préhistoire à l'Epoque Contemparaine . Bordeux . Paris 1973 .

Willis , John Ralph (ed) , Studies in west African Islamic History . Vol . I , the Cultwaters of the Islam . London , 1979 .

Michael Groder and Guda Abdullahi , Nigeria , An Introduction to its History . Longman England 1979 .

Atlas Persada dan Dunia .

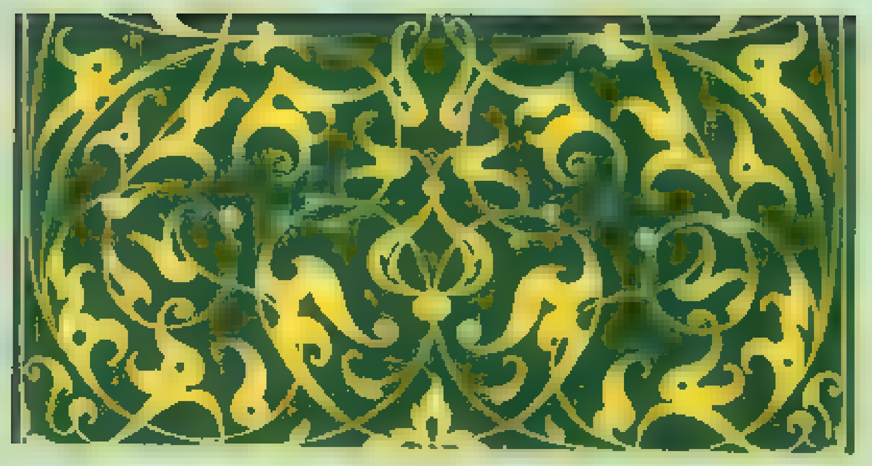

الفصل التاسع عشر

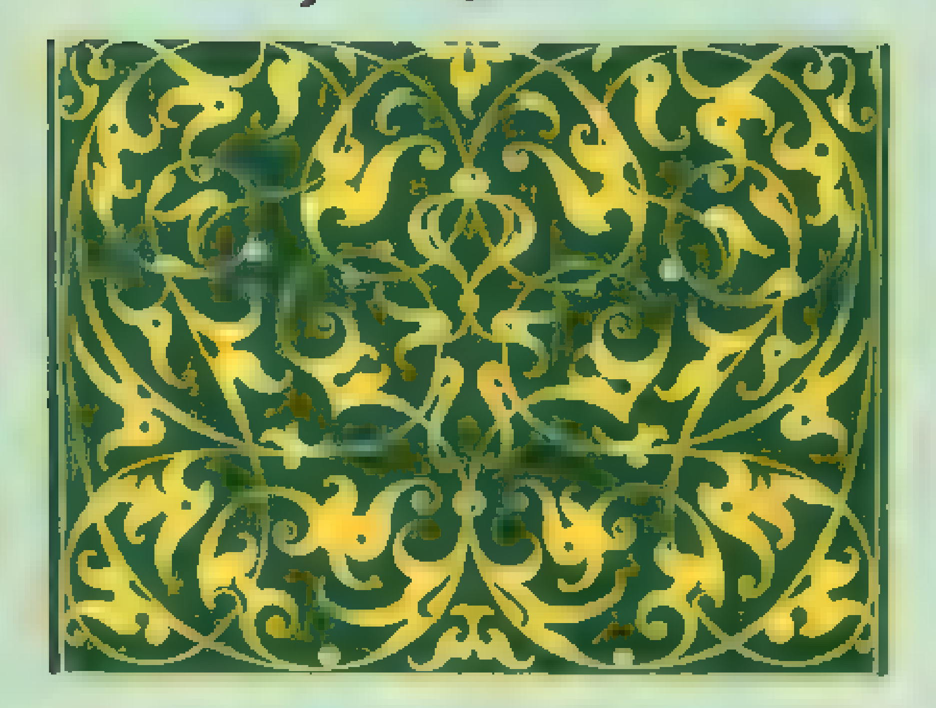

الاقتصاد وطرق المواصلات والحج

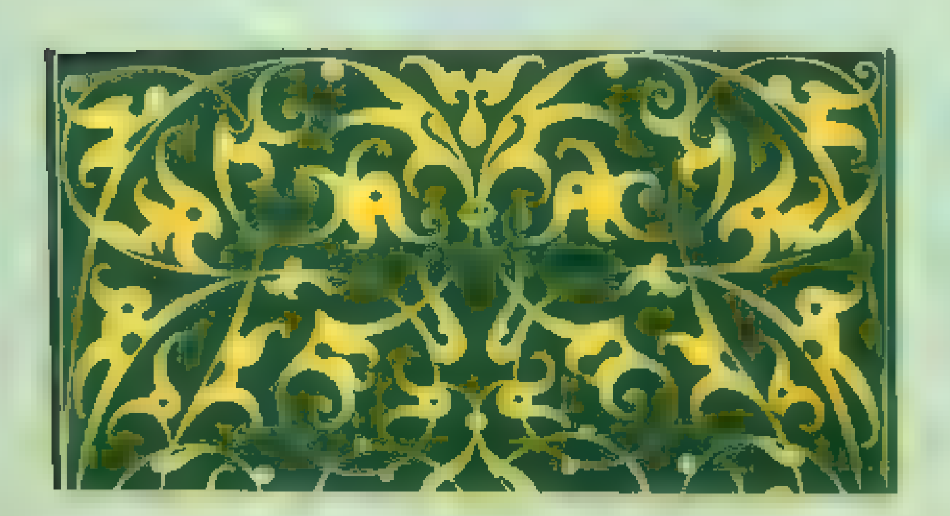

بيان الخرائط

إيران
الجزيرة العربية
بحر العرب
المحيط الهندى
خليج عدن
اليمن
الحبشة
بلاد السودان
مقديشيو
البصرة
دمشق
سمرقند
مقياس الرسم ١ : ٢٠٠٠٠٠٠٠

خريطة إقتصادية للعالم الإسلامي في العصور الوسطى
المحاصيل الزراعية والمعدنية والصناعات
القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي
أشغال خشبية
زجاج
دور صناعة
سمك مملح
مواد صباغة
منسوجات حريرية وقطنية
منسوجات مختلفة
أحذية ومصنوعات جلدية
بسط وسجاجيد
عطور وأدهان
أبنوس
شمع
ثلج
عنبر
لؤلؤ
عاج
فراء
جلود وحيوانات
لحوم
صوف
أجبان
أخشاب نفيسة
كافور
أرز
سمسم
تمر
زيتون
زعفران
بهارات
فواكه ومواد غذائية
قصب سكر
أفيون
قطن
نحاس
صفيح
رصاص
حديد خام
ذهب
فضة
زئبق
أحجار كريمة
نفط
معادن أخرى
المتوسط
المغرب
الصحراء الليبية
تنبكت
جاو
أغادس
كوار
الكانم
سوكوتو
كانو
كوكا
ودان
روما
تونس
طرابلس
برقة

الجزيرة العربية
المحيط الهندى
بحر العرب
خليج عمان
خليج عدن
الحبشة
بلاد السودان
إيران
العراق
كرمان
اليمن
مقياس الرسم ١: ٢٠٠٠٠٠٠٠
خط الاستواء

مملكة الفرنجة
جبال البرت
المغرب
مراكش
الساقية الحمراء
طرابلس
الصحراء الليبية
خريطة إقتصادية
للعالم الإسلامى فى العصور الوسطى
الطرق الرئيسية للتجارة البحرية فى العالم الإسلامى
الطرق الرئيسية للتجارة البرية فى العالم الإسلامى

طرق التجارة البرية والبحرية
في شرق أفريقية وبلاد آسيا
الطرق البحرية
الطرق البرية
بحر الهند
الجزيرة العربية
الصومال
الحبشة
مقديشو
بلاد الشام
العراق
بغداد
البصرة
بلاد فارس
أصفهان
مكران
السند
الهند
بحر هركند
بلاد أسام
الصين
بلاد الخطا
منغوليا
يوننان
سيام
خليج سيام
بحر الصين
بورنيو
سومطرة
جاوة
جزيرة سرنديب
حضرموت
القاهرة
دمشق
الموصل
المدينة
عدن
قاليقوط
كولم
بنجالة
خان بالق (بكين)
خنسا
الزيتون
كلكوا
بحر القلزم

الجزيرة العربية

بحر القلزم

بحر الهند

بلاد فارس

الصومال

درب الحاج العراق
أيام العباسيين وبعدهم (درب زبيدة)
مدن مقدسة في العراق.
مدن رئيسية.
محطات.
درب الحاج.
وادي.
مقياس الرسم ١: ٦٥٠٠٠٠٠
بغداد
البصرة
إيران
العراق
الخليج العربي
البحرين
الدهناء
الجزيرة العربية
بادية الشام
الأردن
النفود
بحر الروم
مصر
سيناء
العقبة
غزة
حيبر
المدينة المنورة
مكة المكرمة
بحر القلزم
وادي الرمة
الرس

الشـــــام
بحر الروم
مصـــر
سيناء
بحر القلزم
الجزيرة العربية
دمشق
الكسوة
المفرق
القطرانة
الحسا
معان
المدورة
تبوك
قلعة المعظم
المدينة المنورة
درب الحاج الشامي
أيام العباسيين وبعدهم
درب الحاج
مقياس الرسم ١ : ٦٥٠٠٠٠٠
بحر الروم
الشام
القدس
القاهرة
السويس
أيلة
سيناء
بحر القلزم
الجزيرة العربية
قنا
درب الحاج المصري
أيام العباسيين وبعدهم
عن طريق وادي النيل
ودرب العلاق وعيذاب
مقياس الرسم ١ : ٥٥٠٠٠٠٠

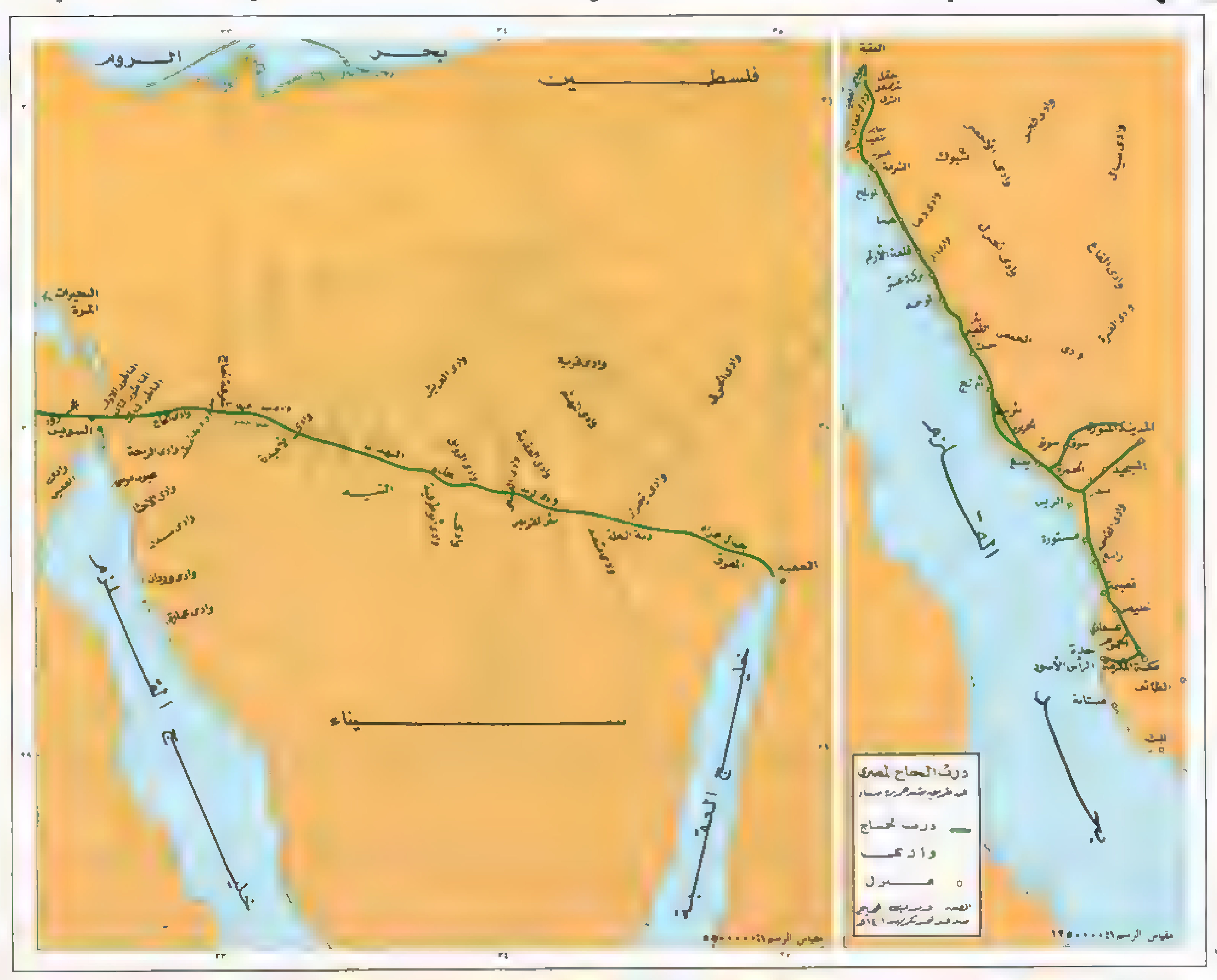
بحر الروم
فلسطين
سيناء
خليج القلزم
خليج العقبة
بحر القلزم
العقبة
السويس
المدينة المنورة
ينبع
مكة المكرمة
الطائف
درب الحاج المصري
درب الحاج
وادي
منزل

الاقتصاد وطرق المواصلات والحاج

خريطة ١٧٨ خريطة ١٧٩

خريطة ١٨٠ خريطة ١٨١

رقعة العالم الإسلامي

يغطى عالم الإسلام مساحة شاسعة من أراضى العالم القديم ، فهو يبدأ من ساحل الأطلسى ولاينتهى إلا عند المحيط الهادى ، وهذه المساحة الواسعة ومعظمها فى إفريقية وشرق آسيا بلاد صحراوية ، ولكن عالم الإسلام يحمل فى أواسط آسيا وبلاد الهند وجنوب شرق آسيا مناطق كانت تعد فى العصور الماضية أغنى مناطق العالم أجمع بالخيرات من منتجات البر والبحر ، كما أن الموقع الجغرافى لعالم الإسلام يعد فى ذاته ثروة كبرى ، فهو يغطى أهم الأراضى من النواحى التجارية فى إفريقية وآسيا ، هذا إلى سيطرته الكاملة على بحار كبرى فى جنوب آسيا وشرقها بالإضافة إلى البحر المتوسط الذى كان فى الماضى قلب العالم المتحضر ومركزه المالى والتجارى . ثم إن كثيراً من الشعوب التى دخلت الإسلام كانت ذات حضارات وزراعات وصناعات قديمة ، واشتهرت بعض شعوب المسلمين بالمهارة فى ركوب البحر وصناعة السفن وأمور الموانى .

عالـم غنـي .

لا غرابة إذن فى أن نجد عالم الإسلام فى العصور الوسطى عالماً غنياً بمنتجاته وخيراته ، هذا إلى أن أهله كانوا يقومون بالدور الأكبر فى الملاحة البحرية العالمية ، وفى تسيير أكبر قدر من القوافل التى كانت تنقل البضائع بين الشرق والغرب .

أسباب التخلف الاقتصادى .

ولكن الصعوبة التى حالت بين المسلمين والوصول بشعوبهم الاقتصادية إلى الحد الذى كان ينبغى أن تصل إليه هى فى سوء النظم الإدارية التى قامت فى كل بلاد الإسلام تقريباً ، فحكوماتها كلها كانت حكومات مستبدة على رأسها خلفاء أو سلاطين أو ملوك مستبدون ، بعيدون جداً عن إدراك حقائق الحياة الاقتصادية وفهم حقيقة أن الاقتصاد لاينمو إلا بالتعاون الكامل بين النظم الحكومية القائمة والشعوب التى تحكمها ، فإن الصناعة والزراعة والتجارة لاتنمو إلا فى ظل نظم سياسية واعية تعرف أن الحاكم الصالح فى هذه الناحية هو الحاكم الذى لايأخذ من رعاياه من الضرائب والجبايات إلا بقدر حاجته ومطالب دولته ، ويترك الباقى فى أيدى الناس ليثمّروه ويقوموا على تنميته ، وتطمئن نفوسهم على أموالهم وجهودهم ، ويزداد نشاطهم فى العمل فيزداد إيراد الحاكم نفسه نتيجة للعدل وبعد النظر وحسن السياسة ، وهذا هو الذى تنبهت له شعوب الغرب الأوروبى ابتداءً من القرن الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى فاهتمت بالزراع والصناع والتجار ، واجتهدت فى ألا تجبى منهم من الأموال إلا مايستطيعون أداءه دون إرهاق ، وزادت ثروات الحكومات نتيجة لذلك فأقبلت تنشىء الجيوش وتمدها بالسلاح وتبنى الأساطيل ، وكانت نتيجة ذلك أن استطاعت هذه الدول أن تنتزع السيادة على الموارد الاقتصادية فى العالم من أيدى المسلمين وغيرهم من شعوب الشرق ، بل استطاعت فى النهاية أن تغزو هذه البلاد وتستولى على خيراتها وتجعلها مستعمرات ابتداءً من القرن السادس عشر الميلادى كما رأينا فى حالات البرتغال وإسبانيا والجمهوريات الإيطالية التجارية .

إهمال المرافق .

ومن أكبر الحقائق التى تؤيد ذلك الخط من التفكير أن دول الإسلام كانت على الجملة من أقل دول التاريخ عناية بالمرافق ، فقد كان الرومان مثلاً يهتمون اهتماماً شديداً بإنشاء الطرق الكبرى والصغرى وصيانتها والعناية بشئون المدن مثل تيسير حصول أهلها على الماء والزاد ، وكذلك حماية المدن من الحريق حيث كان لكل ذلك إدارات خاصة ، فهناك إدارات للطرق والمياه والحبوب والحريق ومثل ذلك مما تحتاج إليه الدول لكى يزداد عمرانها ورخاء أهلها ، مقابل ذلك كله لانجد فى نظم الحكومات الإسلامية شيئاً يذكر ، فلا عناية بالطرق ولااهتمام بالموانى والبحار إلا فيما يتعلق بدور الصناعة الخاصة بالسفن البحرية ، فهنا كانت الدول تهتم بسفن الأساطيل التى تحمى شواطئها حماية لنفسها .

التزام السلطة نحو الأمة .

وإذا نحن تأملنا كتب الشئون المالية التى ألفها المسلمون وهى التى تسمى بكتب الخراج والأموال وجدنا أنها لاتهتم إلا بأموال الحكومة وحقوقها على الناس أى بما تجبيه من الأموال ، ولكننا لانجد فى هذه الكتب كلاماً مفصلاً علمياً عن التزامات الحكومات نحو الناس ، وباستثناء بعض البلاد الإسلامية التى تعود أهلها منذ العصور القديمة العناية بشئون الرى والزراعة فى بلادهم مثل مصر نجد أن الأحوال الاقتصادية لمعظم بلاد الإسلام كانت فى تدهور مستمر ، وكل دول العصور الوسطى الإسلامية كانت تعرف فترات من الازدهار الاقتصادى ثم يتناقص الإيراد شيئاً فشيئاً حتى تفلس الدولة عملياً ، وعلى صخرة الإفلاس الاقتصادى تحطمت معظم دول الإسلام من الدولة العباسية حتى الدولة العثمانية . وحتى مصر التى لم يتوان أهلها قط عن العناية بالأرض والزراعة لم تتحمل نهب الحكام المستمر ، فضعفت كل صناعات البلاد ضعفاً متصلاً حتى إن مدن شمال غرب الدلتا التى اشتهرت على مر التاريخ بأنها أكبر مراكز لصناعة نسيج القطن والتيل ، وكانت تربح من ذلك أرباحاً طائلة — تدهورت ولم يعد إنتاجها الصناعى إلى سابق عهده أبداً ، واختفت مدن تعتبر من أمجاد تاريخ مصر الحضارى مثل تنيس وشطا ودبيق . بل إن النهب الاقتصادى الذى قام به الوزراء أيام الفاطميين مثلاً قد انتهى بكارثة سميت بالشدة العظمى التى وقعت فى منتصف خلافة المستنصر بالله الفاطمى عندما أفلست البلاد إفلاساً تاماً ، وحلت بها المجاعة سبع سنوات متوالية أكل الناس خلالها بعضهم بعضاً ، وقد نسبت هذه الأزمة الاقتصادية الكبرى إلى مازعمه المؤرخون من هبوط مياه النيل سبع سنوات متوالية بدون فيضان يذكر ، ولعل هذا من العوامل التى أدت إلى الكارثة الاقتصادية آنذاك .

الزراعـات .

ولكن الشعوب الإسلامية استطاعت خلال تلك العصور القيام بشئون نفسها ، وعرف الفلاحون فى كل بلاد الإسلام كيف ينتجون من المحاصيل مايكفى حاجة السكان ، وقد اشتهرت بذلك بعض بلاد الإسلام فأنتجت إنتاجاً زراعياً ممتازاً مثل مصر والشام والعراق واليمن وبعض أقطار فارس وبلاد ماوراء النهر والهند وبلاد جنوب شرق آسيا ، وقد عرفت هذه البلاد كيف تجفف الكثير من محاصيلها الزراعية وخاصة الفواكه وتصدرها ، واشتهرت بذلك البلاد التى ذكرناها فكانت صادرات التمر بأنواعه والفواكه المجففة تغل دخلاً طيباً على معظم بلاد الإسلام ، ولم يكن من الممكن لهذه البلاد أن تصدر الحبوب لأن معظم طرق التجارة كانت برية ، ولايمكن نقل الحبوب بالبر نقلاً اقتصادياً ، فكانت معظم القوافل

تحمل الفواكه الجمة والتمور والأعشاب الطبية والمنتجات الحيوانية مثل الجلود والزعفران والسكر والشمع والثلج والكافور والأخشاب ومالى ذلك ، وكذلك صدرت مصر الكثير من منتجاتها الزراعية والحيوانية المصنعة مثل الملابس والعسل وزيت الزيتون ، وقد تميزت بلاد الشام وبلاد الشمال الإفريقى بإنتاج الزيت وتصدير الزيتون والسكر والأخشاب ومالى ذلك ، وكانت الجمال والخيل تعتبر من أهم الصادرات ، وقد اشتهرت جزيرة العرب بتصدير الجمال والخيول الممتازة ، ولكن مقادير ذلك كله كانت قليلة ، وكان عماد الاقتصاد فى كل بلد إسلامى عنصراً أو عنصرين من عناصر الإنتاج مثل القطن والنيل وورق البردى من مصر ، والفواكه الجمة والزيتون والزعفران من بلاد الأندلس والمغرب وإيران وبلاد الشام .

المعـــادن والصناعـــات .

وقد عرفت بلاد الإسلام بغناها بالمعادن ، فالأندلس مثلاً اشتهرت بمناجم الفضة والحديد والزئبق فى نواحى قرطبة وبلنسية وبعض البلاد الواقعة شمال طليطلة ، فكانت الأندلس الإسلامية من أغنى بلاد المسلمين من هذه الناحية وقد عرفت بصناعات معدنية ممتازة من الحديد والنحاس ، وكانت لأهل الأندلس مهارة فى شئون التعدين وهو استخراج المعادن من مناجمها تحت الأرض ثم صهرها وتشكيلها فى صور مصنوعات معدنية ذات أشكال مختلفة وخاصة الأوانى والأسلحة ، هذا إلى أن أهل الأندلس كما سنرى تميزوا بالمهارة التجارية وبناء السفن .

واشتهرت بلاد الشام بصناعات الأخشاب والسفن ، وكل البلاد الساحلية فى الشام كانت مراكز لصناعة السفن ، كما اشتهرت بلاد الشام أيضاً بالمنسوجات القطنية ، ولكن أعظم بلاد الإسلام شهرة بمصنوعات القطن ونسيج الكتان كانت مصر ، أما نسيج الصوف والحرير بأنواعهما فقد اشتهرت به إيران والعراق ، وقد مهر المسلمون فى ابتكار أصناف ممتازة من النسيج بخلط خيوط القطن والصوف والحرير بعضها ببعض بنسب معروفة ، ومن هنا نشأت أنسجة الدمقس [illegible] والسقلاطون [illegible] ، هذا [illegible] من منسوجات الحرير التى اشتهرت بها كل بلاد الإسلام ، وكانت تصدرها إلى بلاد العالم كله وبخاصة بلاد أوروبا ، وكذلك اشتهرت آسيا الصغرى بأخشابها وفواكهها الجافة ، أما بلاد ماوراء النهر فكانت أغنى بلاد الإسلام بالمنتجات الزراعية وخيرات الأرض ومنتجات الأنعام كأصناف الجبن والسمن والعسل ومالى ذلك .

التكامـــل الاقتصـــادى .

ولكن بلاد الإسلام فى مجموعها كانت متكاملة اقتصاديا ، بمعنى أنها لم تكن تستورد من الخارج إلا البضائع التى تحتاج إليها حاجة شديدة ولاتنتجها فى بلادها ، ومثال ذلك الأسلحة فإن الموجود من معادن فى بلاد الإسلام لم يكن يكفى [illegible] البيت والأسلحة والأدوات التى تصنع من النحاس والحديد والبرونز ومالى ذلك وكذلك الأخشاب فى بعض البلاد مثل مصر ، وكانت أخشاب مصر كثيرة أول الأمر ، ولكن الجند الذين كثر توافدهم على مصر استهلكوا الأخشاب لأنهم كانوا يطبخون بها فى خيامهم ، وهذه حقيقة يقررها المقريزى فى كتاب الخطط ، وكانت نتيجة ندرة الأشجار فى مصر أن تعرت الأرض وفقدت الطبقة الخصبة التى تنمو فيها بذور النباتات ، فقل خصب الأرض وجفت وتعرضت البلاد نتيجة لذلك للمحل وقلة الطعام ، وقد كتب المقريزى كتاباً عن المجاعات التى أصابت مصر من القرن الثالث الهجرى إلى أيامه أى القرن التاسع الهجرى ، ولايقل عددها عن أربعين مجاعة وصار الناس يأكلون محصولات الأرض أولاً بأول ، وكل ذلك نتيجة سوء الإدارة وجهل الحكومات بشئون الاقتصاد وعدم اهتمامهم بمعاونة الناس على تنمية الثروات وتنشيط الأعمال .

أما الصناعات التى ازدهرت فى البلاد الإسلامية وبلغت مستوى عظيماً من الإبداع والجمال فهى الصناعات التى تهم الأغنياء وأصحاب الأموال والسلاطين وكبار رجال الدولة وأغنياء التجار ، مثل الأدوات المشغولة معدنية كانت أو خشبية وخاصة ماكان يصنع منها من المعادن والأخشاب الغالية كالذهب والفضة والعاج والأبنوس والأقمشة والملابس المطرزة بالفضة والذهب ، وحيث إن هذه كانت تتوارث ويحرص الناس على اقتنائها ولاتنخفض أسعارها مهما طال بها الزمن فإن هذه الصناعات التى نسميها بالتقليدية قد ظلت زاهرة واحتفظ صناعها بمستواهم التقنى والفنى . ومازالت آثار ذلك باقية إلى اليوم .

بـــذخ وفقـــر .

وقد اختلفت بلاد الإسلام من حيث الغنى والفقر ، وربما كانت أغنى دول الإسلام الدولة العثمانية نظراً لاتساع أرضيها وغنى تلك الأراضى وخاصة فى آسيا الصغرى التى عرفت باسم أناتولى أو الأناضول وبلاد شرق أوروبا التى خضعت للعثمانيين وكانت تعرف بالروملى ، وهذا الغنى فى الدولة العثمانية استمر نحو ثلاثة قرون ثم أخذت الدولة تفتقر بسبب ضعفها العسكرى وعجزها عن حكومة بلادها ، ولكن الأتراك العثمانيين عرفوا فى عصور غناهم كيف يزينون بلادهم بالمساجد العظيمة الباهرة والقصور الفاخرة والمنشآت المعمارية مثل القناطر والقصور والقلاع .

الطبقـــة المتوســـطة .

أما أوساط الناس فى معظم بلاد الإسلام فقد عاشوا حياة محدودة ، أى أنهم كانوا يكسبون بقدر ماينفقون ، وقد اشتهرت هذه الطبقات من صغار الصناع والزراع والتجار [illegible] كانوا متعاونين فيما بينهم يستر بعضهم على بعض ، ويعين بعضهم بعضاً ، وهذا بدوره نمّى فيهم أخلاقاً جيدة من التعاون والتعامل على أساس الخير والمعروف ، وهذا شىء اشتهرت به بلاد الإسلام كلها ، وهذه الطبقات بالذات هى صاحبة الفضل فى رخاء الأحوال النسبى فى كل بلاد الإسلام فهى التى قامت بعبء الأعمال والإنتاج فى حين أن الطبقات الغنية والحاكمة كانت طبقات من المتطفلين الذين كانوا يعيشون على أموال الناس ، والمقريزى فى كتاب : « إغاثة الأمة بكشف الغمة » يقسم الناس إلى سبع طبقات : أولاها وأخصها عنده السلاطين والأمراء والأغنياء أو من يسميهم أهل الحسب والنسب ، ويليهم فى الأهمية كبار موظفى الدولة وكبار التجار وكبار الفقهاء ، ويلى هؤلاء صغار التجار والصناع ، ويلى هؤلاء الزراع ، وهم عند المقريزى فى نفس مستوى المتسولين ، وفى جملة هؤلاء جماعات الطرق الصوفية التى تعيش على الأولياء . ومن هنا نرى أن الميزان الاجتماعى كان مختلاً ، وكان هذا من أكبر أسباب فقر ذلك المجتمع واضطراب أحواله .

العمـــلة .

وكان تعامل الناس بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية ثم بالفلوس وهى العملة المعدنية من النحاس والبرونز ، وحيث إن الناس كانوا يتحاشون التعامل بالدنانير ويدخرونها لوقت حاجة فقد كانت نادرة [illegible] فى الأسواق ، ثم إن الدنانير كانت دائما [illegible] الناس كانوا لايقبلون ديناراً إلا بعد فحص وتدقيق ، أما معظم التعامل فكان بدراهم الفضة ، حيث إن الفضة لايمكن استعمالها فى البيع والشراء إلا إذا خلطت بشىء من النحاس حتى تصلب ولاتبرى بالتعامل – فقد كثر غشها بحسب مافيها من الفضة ، وكان الدينار – وهو [illegible] مثقال من الذهب – يعدل أول الأمر سبعة مثاقيل من الفضة ثم انخفضت قيمة الدراهم حتى أصبح الدينار يصرف بسبعة عشر درهما ، ومازالت الدراهم تنخفض قيمتها حتى أصبح الدينار يصرف بأربعين درهماً ووقف الأمر عند ذلك ، وهنا كان الناس يتعاملون بالدراهم على أنها أجزاء من الدنانير فكان الرجل يبيع الشىء بخمسة دنانير دراهم ، ومعنى ذلك أنه دفع فيه مائتى درهم ، أما الفلوس فكانت للصرف الصغير وكان معظم التعامل بها ، وهذه بدورها انخفضت قيمتها حتى أصبحت هى وزنها من المعدن ، أى أن ضرب [illegible] قيمة ، وكان الناس أحيانا يتعاملون بالأشياء ذات القيمة مثل الثياب والأقمشة فكان الناس يدخرونها كأنها عملة فإذا احتاج الرجل باع ثوباً أو قطعة قماش أو عمامة أو ما إلى ذلك .

التجـــارة .

عرف العالم الإسلامى أنواعاً مختلفة من التجارة أكثرها شيوعاً هى التجارات المحلية التى تتم فى أسواق المدن والأرياف وكان لكل مدينة حى أو أحياء تجارية وأحياء سكنية تقل فيها المتاجر حتى تقتصر على تجارة المأكولات التى لايستغنى عنها أحد .

أما أحياء الأعمال فى المدن فكانت شوارعها متخصصة ، فشارع للنحاسين وشارع للجوهريين أو البزازين وهم تجار الأقمشة ، وكانت أكثر الشوارع عمراناً وأغناها هى التى يتجر الناس فيها فى البضائع عالية الثمن كالمعادن النفيسة والذهب والفضة بصورة خاصة والأقمشة الغالية بشتى صنوفها سواء أكانت محلية أو واردة من الخارج ، والفرش ويراد بها السجاجيد والبسط والطنافس وأدوات الترف من تحف الصناعة الغالية من الصدف والأبنوس والعاج ثم العطور بأنواعها سواء أكانت زيوتاً أم أخشاباً تحرق ليظهر عطرها

كما نجد في البحور بأصنافه ، وهذه البضائع الغالية كانت تباع في شوارع خاصة تعرف بالقيساريات وفي الغالب تكون القيسارية إما ملكاً للحاكم ولعله أو يكون مشاركاً فيه برأسمال كبير .

أما مدن الأرياف والقرى فكانت المتاجر فيها لاتقام إلا في يوم واحد من أيام الأسبوع ، فلكل مدينة في الريف أو قرية سوقها التي يباع فيها ويشترى كل شيء من الأطعمة وغيرها إلى الماشية والثياب ، وقد اشتهرت بعض المدن بأسواقها العامرة نظراً لمواقعها الجغرافية الممتازة ، وكان العالم الإسلامي كله شبكة من الطرق التجارية التي تمتد بين الأسواق والموانيء ، وهذه المدن والموانيء هي التي تحدد اتجاهات الطرق ، وكانت أسواق المسلمين منظمة تنظيماً دقيقاً قائماً على أسس يحترمها كل الناس بما في ذلك الحكومات والأغنياء ، لأن الأسواق كانت سبب رخائهم ففيها كانوا يشترون ويبيعون ويحصلون ثرواتهم الطائلة ، وإذا أنت نظرت إلى الخرائط التي خصصناها للتجارة والأسواق والمنتجات تبينت هذه الحقيقة دون مشقة .

خريطة ١٨٢	خريطة ١٨٣
خريطة ١٨٤	خريطة ١٨٥

الترانسيت

ولكن أهم مابرع فيه المسلمون من أنواع التجارة تجارة النقل أو مايسمى باسم الترانسيت ؛ لأن عالم الإسلام يحتل موقعاً وسطاً في قلب العالم القديم ، فكان المسلمون هم أعمدة التجارة العالمية بالبر والبحر ، فكانوا ينقلون بضائع الهند والصين وإفريقية إلى بلاد أوروبا إما عن طريق البر وطرق القوافل أو عن طريق البحر ، وكانت طرق التجارة البرية بين الشرق والغرب تبدأ من فرغانة داخل غربي الصين وتخترق إيران وبلاد ماوراء النهر ، ثم العراق ، ثم بلاد الشام وآسيا الصغرى فأوروبا ، وقد كثر تأليف المسلمين في وصف طرق التجارة بالبر والبحر في مؤلفات عرفت باسم كتب « المسالك والممالك » أي كتب الطرق والبلاد ، وكما مهرت بعض أجناس المسلمين في تجارة البر وقيادة القوافل مثل أهل إيران وبلاد ماوراء النهر وأهل الشام وأهل اليمن والمغرب فقد مهرت في تجارة البحر وركوب السفن شعوب إسلامية نذكر منها أهل اليمن وحضرموت وعمان ، ويعتبر العمانيون أمهر المسلمين عامة في فنون البحار ، أما أشهر شعوب الإسلام في شئون التجارة بصفة عامة فأهل اليمن وإيران وأهل الشام وأهل المغرب – والسوسية منهم بصفة خاصة وأهل الأندلس الذين كانوا أعظم تجار الحاصلات الزراعية لعالم الإسلام

طـــرق الحــج .

ومن أكبر أسباب عمران الأسواق وطرق التجارة بالقوافل كان الحج ، فإن الحج كان نعمة كبرى على عالم الإسلام ولولا الحج وانتظام أوقاته لما عمرت طرق المسلمين بالقوافل والتجار ؛ لأن كل بلد من بلاد الإسلام كان يرتب شئون تجارته بحسب موقعه من الأراضي المقدسة ، فأهل الأندلس والمغرب الأقصى مثلاً كانوا يخرجون للحج في قوافل ضخمة قبل الموسم بسنة ونصف على الأقل ، وكان كل حاج يحمل معه شيئاً من محصولات بلاده المطلوبة في بلاد أخرى ويبيع ويشترى على الطريق ، وهكذا كانت رحلة الحج عنصراً من عوامل الرخاء الاقتصادى في العالم الإسلامي ، وقد أشرنا فيما سبق إلى منافع الحج إلى جانب ثواب أدائه ، وقد بينا على الخرائط الخاصة بطرق الحج ، وفي الخرائط الخاصة بالمنتجات تستطيع أن تتبين أصناف المتاجر التي كانت تحملها قوافل الحج وتباع في أســـــواقها .

---

(١) سورة الحج الآيات ٢٧ – ٢٩

المراجع

ابن بطوطة — الرحلة ، أحسن طبعاته الفرنسية التى حقق نصها العربى وترجمه إلى الفرنسية C. Defremery و B R. Sanguinetti ونشر النص والترجمة فى ثمانية أجزاء فى باريس ١٨٩٣ م

ابن جبير — الرحلة ، بتحقيق الدكتور حسين نصار . القاهرة ١٩٥٧ م

ابن حوقل — كتاب صورة الأرض . الطبعة الثانية أشرف عليها V.H. Kramers ونشرها فى جزءين فى لايدن سنة ١٨٣٩ م . وهذا الكتاب هو المجلد الثانى من المكتبة الجغرافية العربية Bibliotheca Geographicorum Arabicorum

ابن خرداذبة — كتاب المسالك والممالك . لايدن ١٨٩٩ م (الجزء السادس من المكتبة الجغرافية العربية) .

ابن الفقيه — مختصر كتاب البلدان . لايدن ١٨٨٥ م (المجلد الثانى من المكتبة الجغرافية العربية)

ابن ماجد — شهاب الدين أحمد . كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد وقد نشره مصوراً عن مخطوطة المكتبة الأهلية فى باريس رقم ٢٢٩٢ Gabriel Ferrand ونشره مع ترجمة فرنسية باسم

Le pilote des mers de L'Inde et de la chine et de L'Indonésie .

باريس ١٩٢١ — ١٩٢٣ م . وهذا هو المجلد الأول من كتابه .

Introduction nautique et routiére Arabes et Portugues des XV et XVI . siécles

المسعودى — مروج الذهب ومعادن الجوهر بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد . ٤ أجزاء . القاهرة ١٩٦٤ م

المقدسى — كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . لايدن ١٩٠٢ م (المجلد الثالث من المكتبة الجغرافية) .

ياقوت — كتاب معجم البلدان . طبعة فستنفلد ، خمسة أجزاء ١٩٢٥ م

د أحمد مختار العبادى و د عبد العزيز السيد سالم — تاريخ البحرية الإسلامية فى البحر المتوسط . مجلدان . بيروت ١٩٧٢ — ١٩٧٤ م .

جورج فضلو حورانى — العرب والملاحة فى المحيط الهندى . تعريب د. يعقوب بكر . القاهرة بدون تاريخ .

البكرى — أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز . المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب . وهو الجزء الخاص بالمغرب من كتاب المسالك والممالك . حققه ونشره ديسلان فى باريس ١٨٧٥ م .

د حسين مؤنس — تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس . الطبعة الثانية ١٩٨٦ م

Anderson , R., The sailing ship . London 1926 .

Banbury , E.H., History of Ancient Geography - Z vols - London 1879 - 1883

Chung (kei won) and hourani , E .F., Arab Geographers In korea (Journal of the American Oriental Society - vol - 58 no. 4, December 1938 .

Colomb , P,H., Slave catching in the Indian Ocean london 1873

Fahmy , Aly Mohammad , Muslim sea - power in the Eastern Mediterranean from the seventh to the tenth Century (London 1920) .

Ferrand Gabriel , Relation des voyages et texts geographique Arabes , Turcs et perses relatifs à l'Extreme Orient de VIII. au XVIII . siécles . 2 Volumes . Paris 1913 - 1914 .

Hassan . H ., AHistory of persian Navigation . London 1928 .

Hujzzin , S.A., Arabia and the Far East . Cairo 1948 .

Heud , Histoire du Commerce du levont . 2 ed , 1950 .

بيان الخرائط

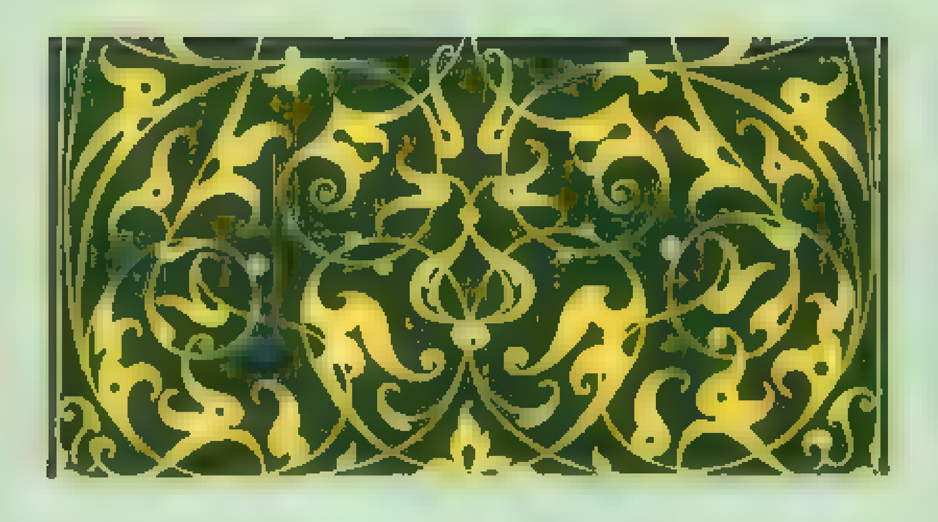

الفصل العشرون

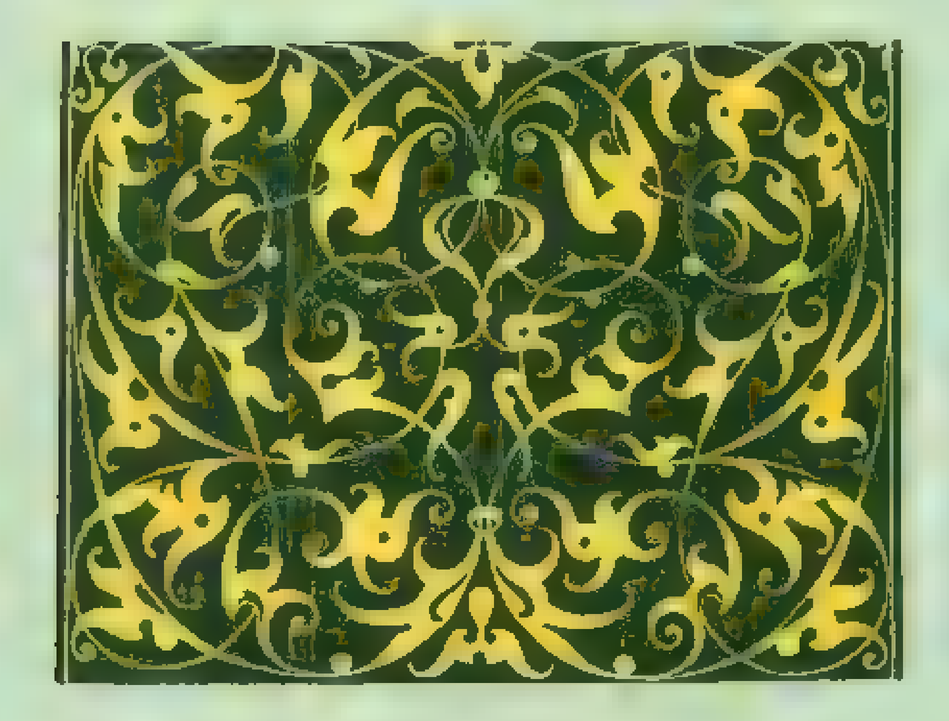

عالم الإسلام في العصور الحديثة

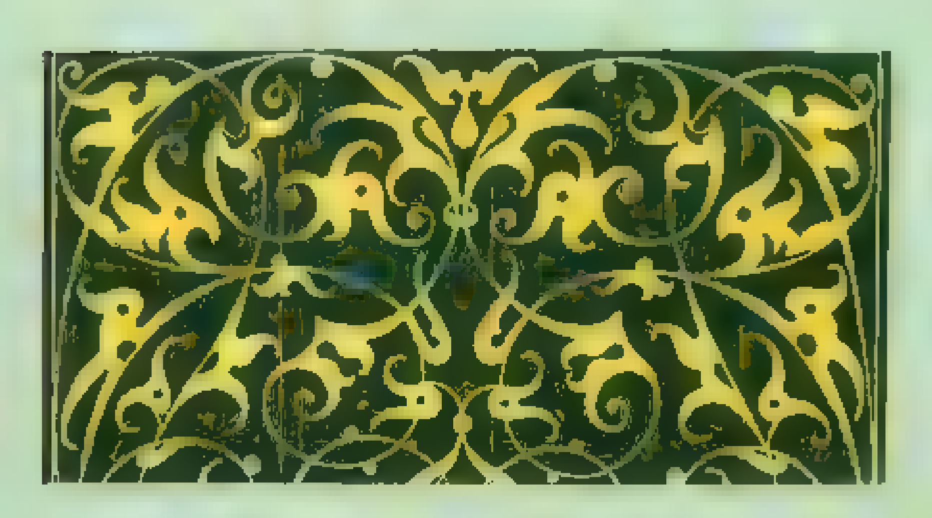

الاتحـــــاد السوفـ
منغوليا
بكين
الصين
بحر اليابان
اليابان
كوريا
بحر الصين الشرقي
فورموزا
بحر الصين الجنوبي
الفلبين
المحيط الهادي
بورما
الهند
دلهي
تايلاند
سيلان
الملايو
بورنيو
إندونيسيا
استراليا
العالم الإسلامي
تحت الاستعمار حتى الحرب العالمية الأولى
الاستعمار
١٦٥٠م-١٨٠٠م
١٨٠٠م-١٨٨٠م
١٨٨٠م-١٩١٤م
الإنجليزي
البرتغالي
الفرنسي
الألماني
الإستعمار الهولندي
الاستعمار الإيطالي
الاستعمار الأسباني
الاستعمار البلجيكي
الاستعمار العثماني
الاستعمار الروسي
مقياس الرسم ١ : ٤٠٠٠٠٠٠٠

إنجلترا
لندن
ألمانيا
فرنسا
إسبانيا
إيطاليا
البحر الأسود
إستانبول
الدولة العثمانية
اليونان
البحر المتوسط
الجزائر
ليبيا
القاهرة
مصر
دمشق
العراق
طهران
السودان
الخرطوم
تشاد
الحبشة
الصومال
كينيا
الكاميرون
نيجيريا
الكونغو
زائير
تنجانيقا
أنجولا
زامبيا
روديسيا
ناميبيا
موزمبيق
جنوب أفريقيا
مدينة الكاب
المحيط الأطلنطي
الهندي

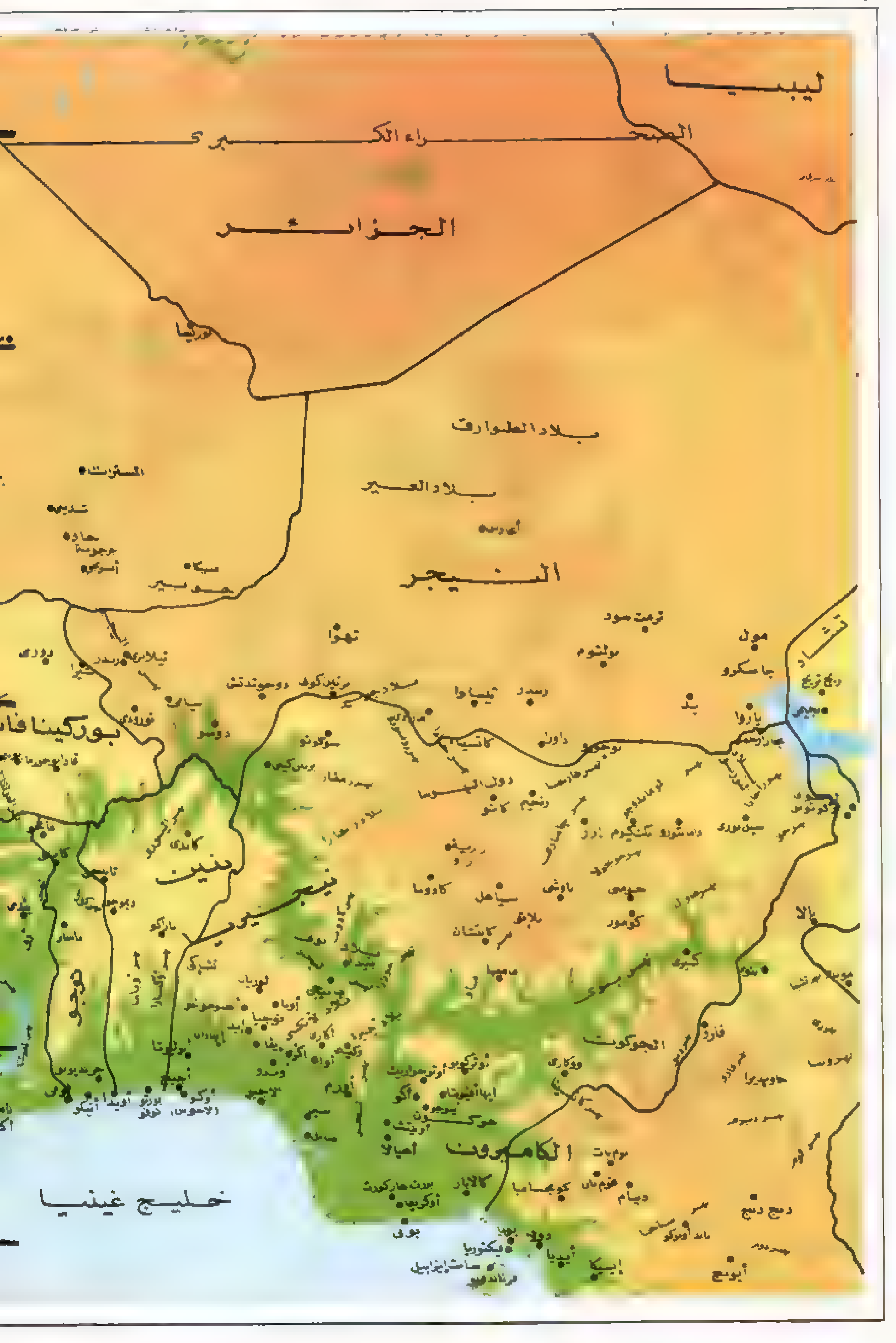
ليبيا
الصحراء الكبرى
الجزائر
بلاد الطوارق
بلاد العير
النيجر
تهوا
مول
تشاد
بوركينا فاسو
بنين
نيجيريا
كانو
سياهل
كادونا
الجوكوت
هركورت
الكاميرون
خليج غينيا

موريتانيا
السنغال
غامبيا
غينيا
سيراليون
ساحل العاج
مالي
غانة
نواكشوط
سان لويس
تيشيت
ولاتة
مقياس الرسم ١ : ٧٠٠٠٠٠٠
الإسلام في غرب ووسط إفريقية
خريطة مواقع جغرافية وتاريخية قديمة وحديثة
٩٠ ٪ سكان مسلمون
٥٠ – ٩٠ ٪ سكان مسلمون
أقل من ٥٠ ٪ سكان مسلمون

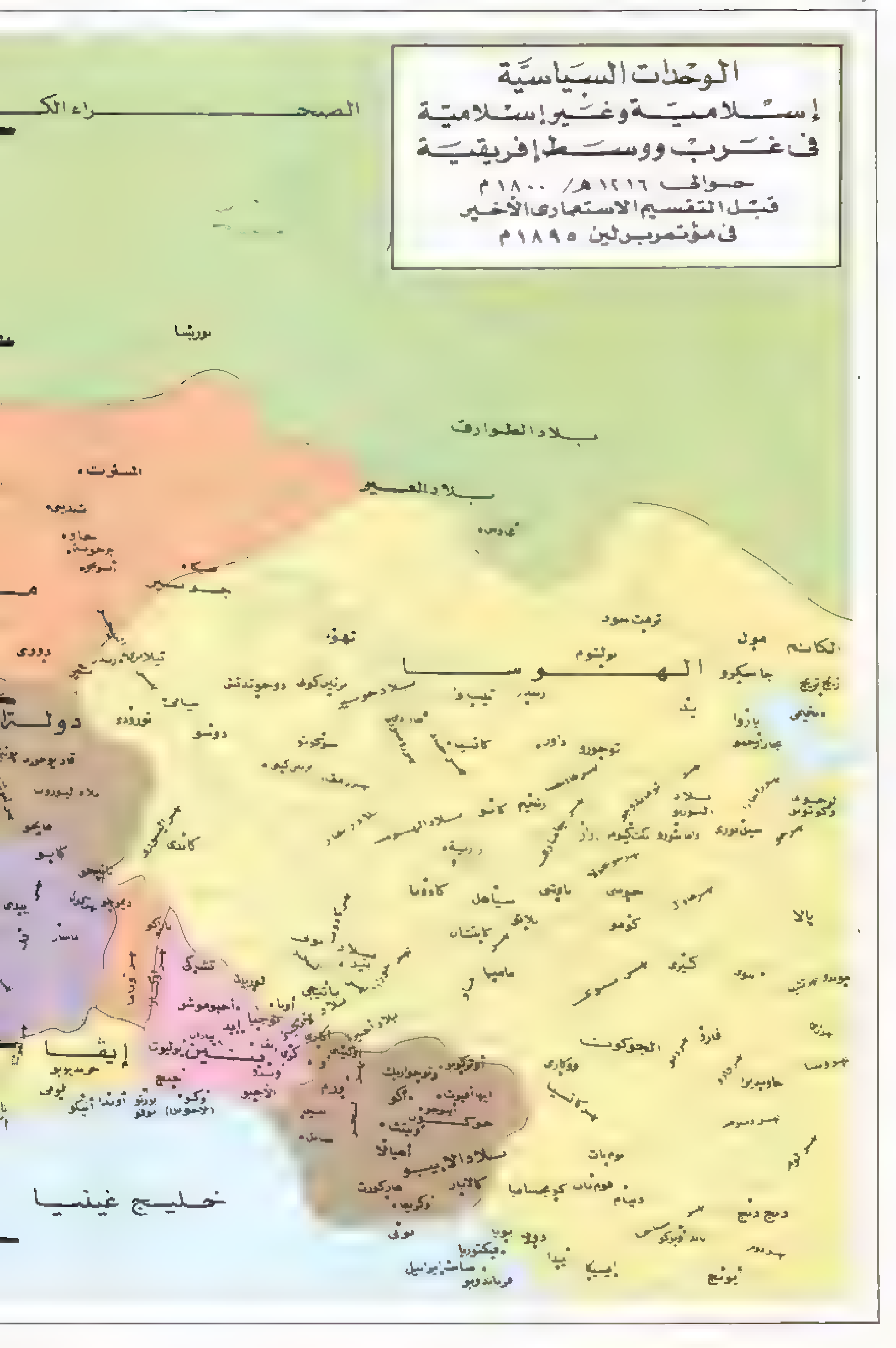
الوحدات السياسية
إسلامية وغير إسلامية
في غرب ووسط إفريقية
حوالي ١٢١٦هـ/ ١٨٠٠م
قبل التقسيم الاستعماري الأخير
في مؤتمر برلين ١٨٩٥م
الصحراء الكبرى
بلاد الطوارق
الهوسا
الكانم
خليج غينيا
بلاد الإيبو
إيفا
بنين
تشرك
كانو
زاريا
باوتشي
بودا
نوب
كبي
أوبا
الجوكون
زمفرا
يوروبا
اليجو

السنغال
سنغاي
غامبيا
ديوالا
أزانتي

المحيط
الأطلنطي
البحر المتوسط
إسبانيا
مملكة الفرنجة
الصحراء الكبرى
خليج غينيا
تونس
مكناس
مراكش
سجلماسة
تقرت
غدامس
ورقلة
توات
تيريس
زمور
الحوض
ولاتة
جنة
بلاد الموسى
بلاد الهوسا
كاتسينا
كانو
البرنو
بلاد اليوروبا
الصحراء الكبرى
مراكز العمران فيها
طرق التجارة
من القرن ١٢ــ ١٨ هـ

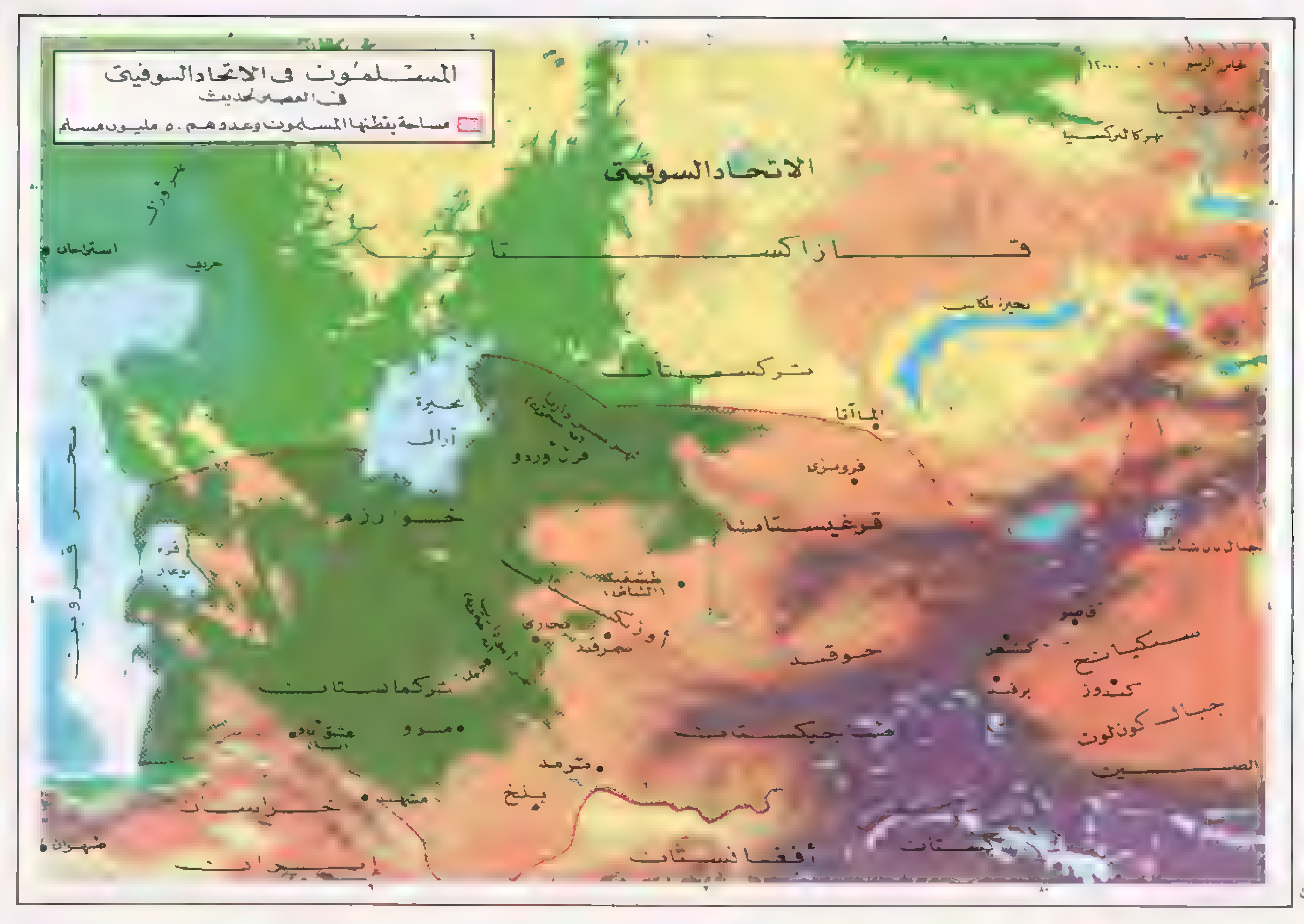
المسلمون فى الاتحاد السوفيتى
فى العصر الحديث
مساحة يقطنها المسلمون وعددهم ٥٠ مليون مسلم
الاتحاد السوفيتى
قازاكستان
تركستان
منغوليا
بحيرة بلكاش
بحيرة آرال
ألما آتا
فرونزى
قرغيستان
قزل وردو
خوارزم
طشقند
أوزبكستان
سمرقند
بخارى
خوقند
تركمانستان
مرو
عشق آباد
ترمذ
بلخ
مشهد
خراسان
طهران
إيران
أفغانستان
طاجيكستان
كاشغر
قمير
يرقند
سنكيانج
جبال كونلون
الصين
استراخان
جريف
بحر قزوين

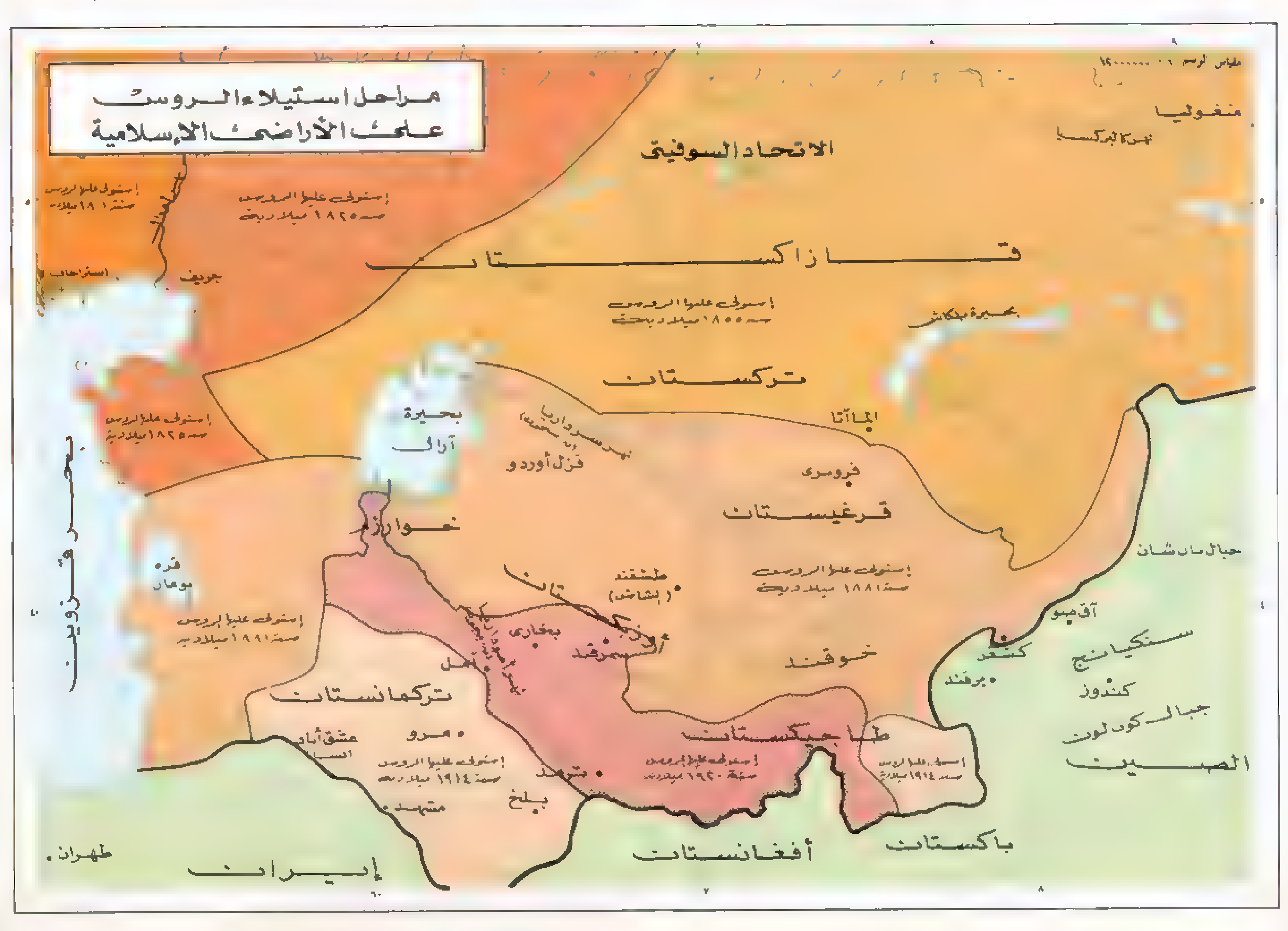
مراحل استيلاء الروس
على الأراضي الإسلامية
الاتحاد السوفيتي
منغوليا
قازاكستان
إستولى عليها الروس سنة ١٨٥٥ ميلادية
إستولى عليها الروس سنة ١٨٢٥ ميلادية
إستولى عليها الروس سنة ١٨٠١ ميلادية
إستولى عليها الروس سنة ١٨٢٥ ميلادية
بحيرة بلكاش
تركستان
بحيرة آرال
قزل أوردو
ألماآتا
قرغيستان
إستولى عليها الروس سنة ١٨٨١ ميلادية
خوارزم
طشقند (تشاش)
بخارى
سمرقند
خوقند
آقصو
كشغر
برقند
سنكيانج
كندوز
جبال كون لون
الصين
جبال تان شان
تركمانستان
مرو
عشق آباد
مشهد
بلخ
ترمذ
طاجيكستان
إستولى عليها الروس سنة ١٩٢٠ ميلادية
إستولى عليها الروس سنة ١٩١٤ ميلادية
إستولى عليها الروس سنة ١٩١٤ ميلادية
إستولى عليها الروس سنة ١٨٨١ ميلادية
قره بوغاز
جروزني
استراخان
بحر قزوين
باكستان
أفغانستان
إيران
طهران

دولة الإمارات العربية المتحدة
مقياس الرسم ١ : ٢٢٥٠٠٠٠
إيران
خليج عمان
الخليج العربي
سلطنة عمان
المملكة العربية السعودية
قطر
الدوحة
أبوظبي
دبي
الشارقة
أبوموسى
طنب الصغرى
رأس الخيمة
أم القيوين
عجمان
دبا
خورفكان
الفجيرة
كلباء
العين
دلما
صير بني ياس
المرفأ
طريف
حميم
شراوة
واهن
مدينة زايد

تركيا
إيران
الجمهورية العربية السورية
المملكة الأردنية الهاشمية
الجمهورية العراقية
المملكة العربية السعودية
الكويت
الخليج العربي
الجمهورية العراقية

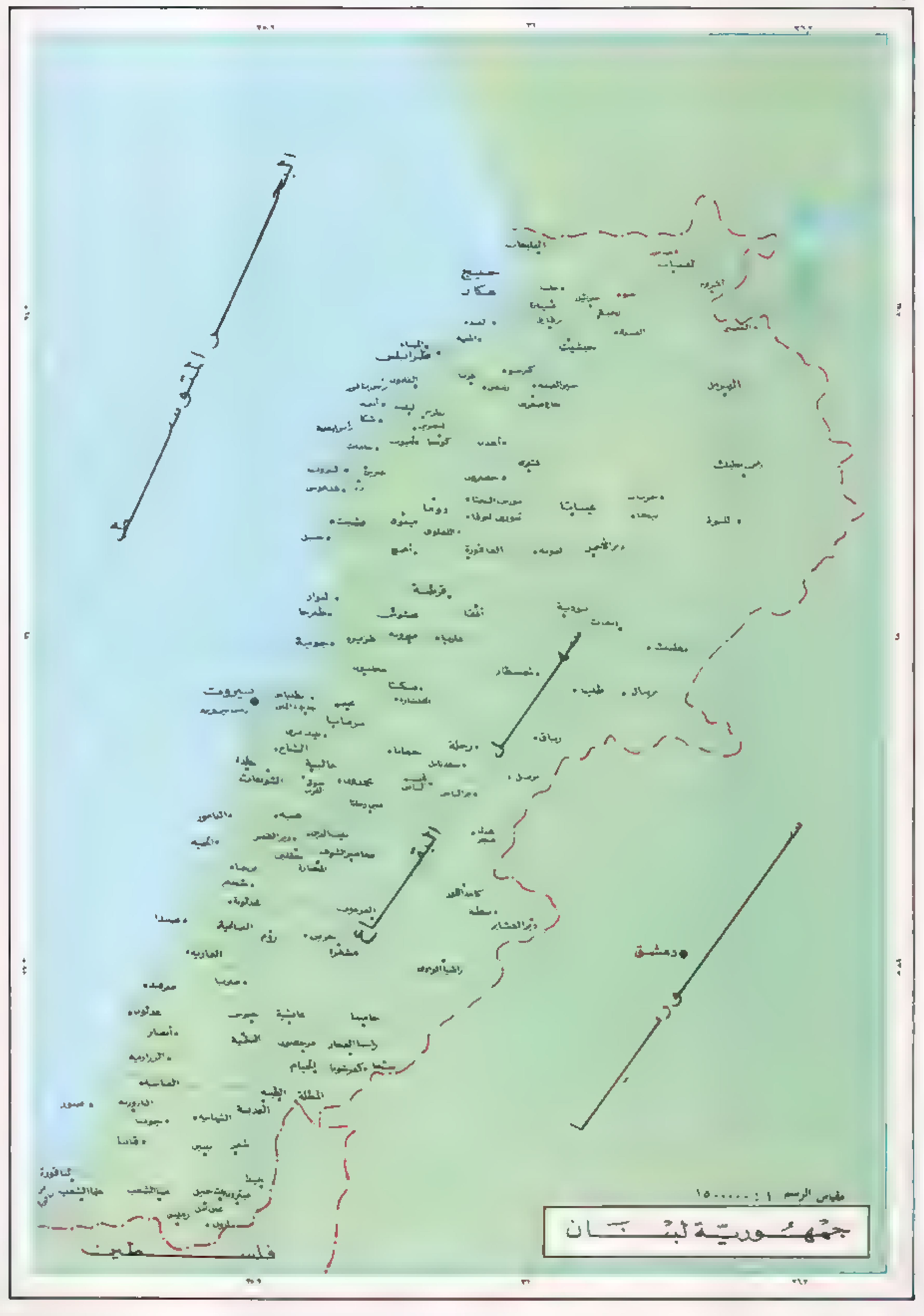

البحر المتوسط
سوريا
فلسطين
طرابلس
بيروت
دمشق
صيدا
صور
جبيل
زحلة
بعلبك
جونية
عكار
مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠
جمهورية لبنان

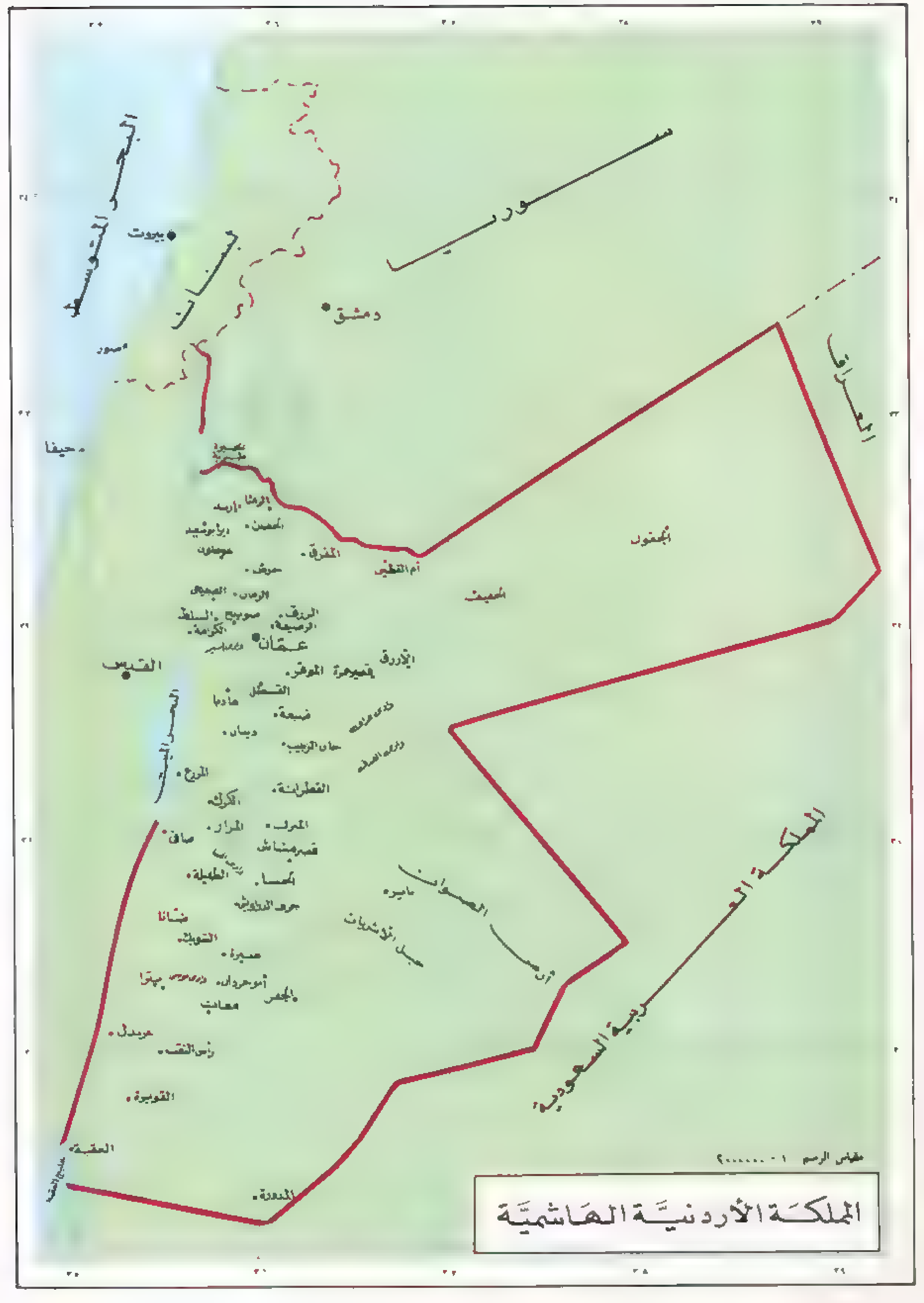

سوريا
البحر المتوسط
لبنان
بيروت
دمشق
صور
حيفا
العراق
الرمثا
إربد
المفرق
أم القطين
الزرقاء
عمّان
الأزرق
القدس
البحر الميت
مادبا
الكرك
المزار
الطفيلة
الحسا
الشوبك
معان
عرندل
رأس النقب
القويرة
العقبة
المدورة
المملكة العربية السعودية
مقياس الرسم ١ : ٥،٠٠٠،٠٠٠
المملكة الأردنية الهاشمية

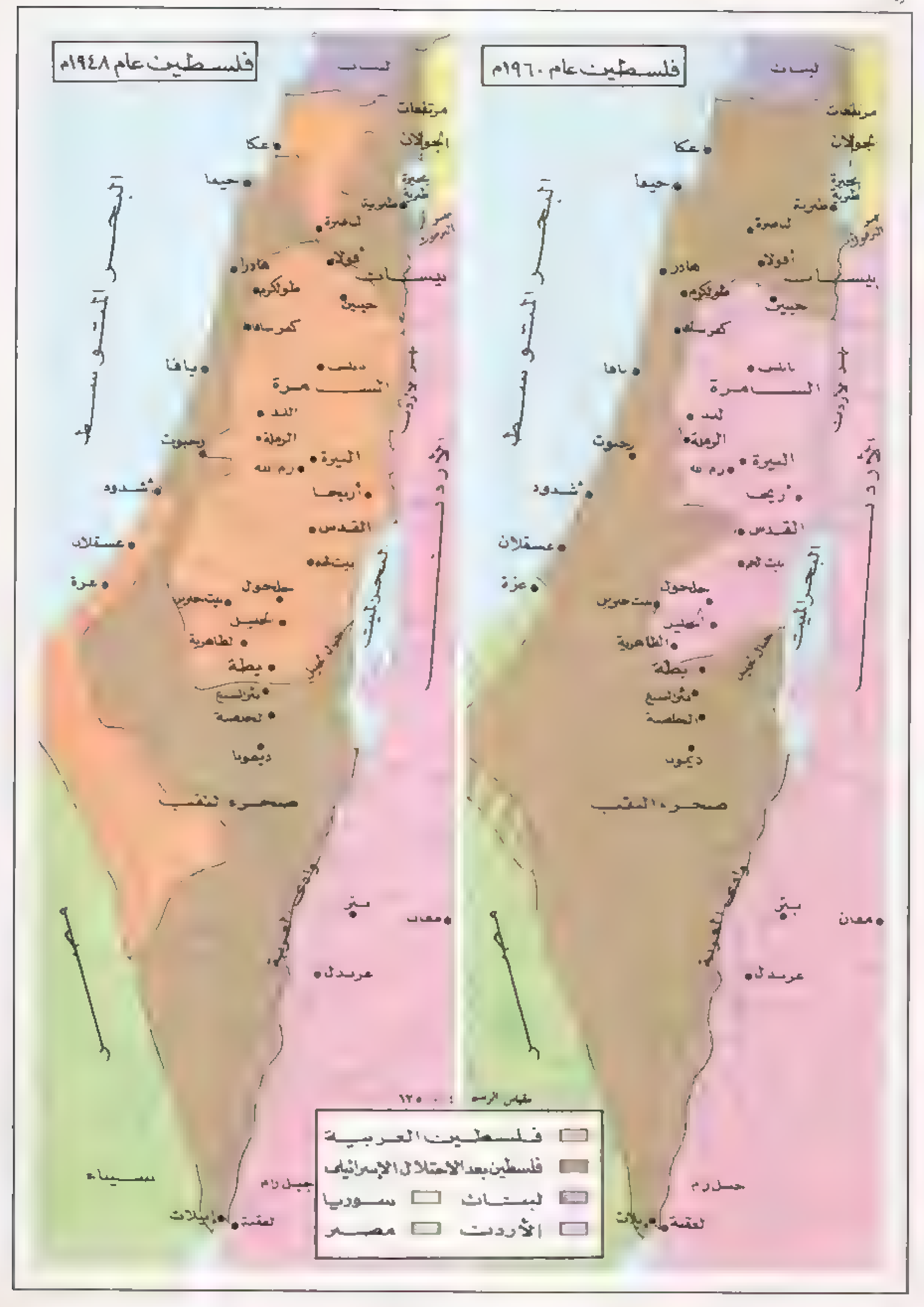
فلسطين عام ١٩٤٨م
فلسطين عام ١٩٦٠م
لبنان
مرتفعات الجولان
عكا
حيفا
طبرية
الناصرة
العفولة
بيسان
جنين
طولكرم
نابلس
يافا
اللد
الرملة
البيرة
رام الله
أريحا
القدس
بيت لحم
عسقلان
غزة
حلحول
بيت جبرين
الخليل
الظاهرية
بطة
الخلصة
صحراء النقب
بئر
معان
عرندل
سيناء
جبل رام
العقبة
إيلات
مقياس الرسم ١ : ١٢٥٠٠٠٠
فلسطين العربية
فلسطين بعد الاحتلال الإسرائيلي
لبنان
سوريا
الأردن
مصر

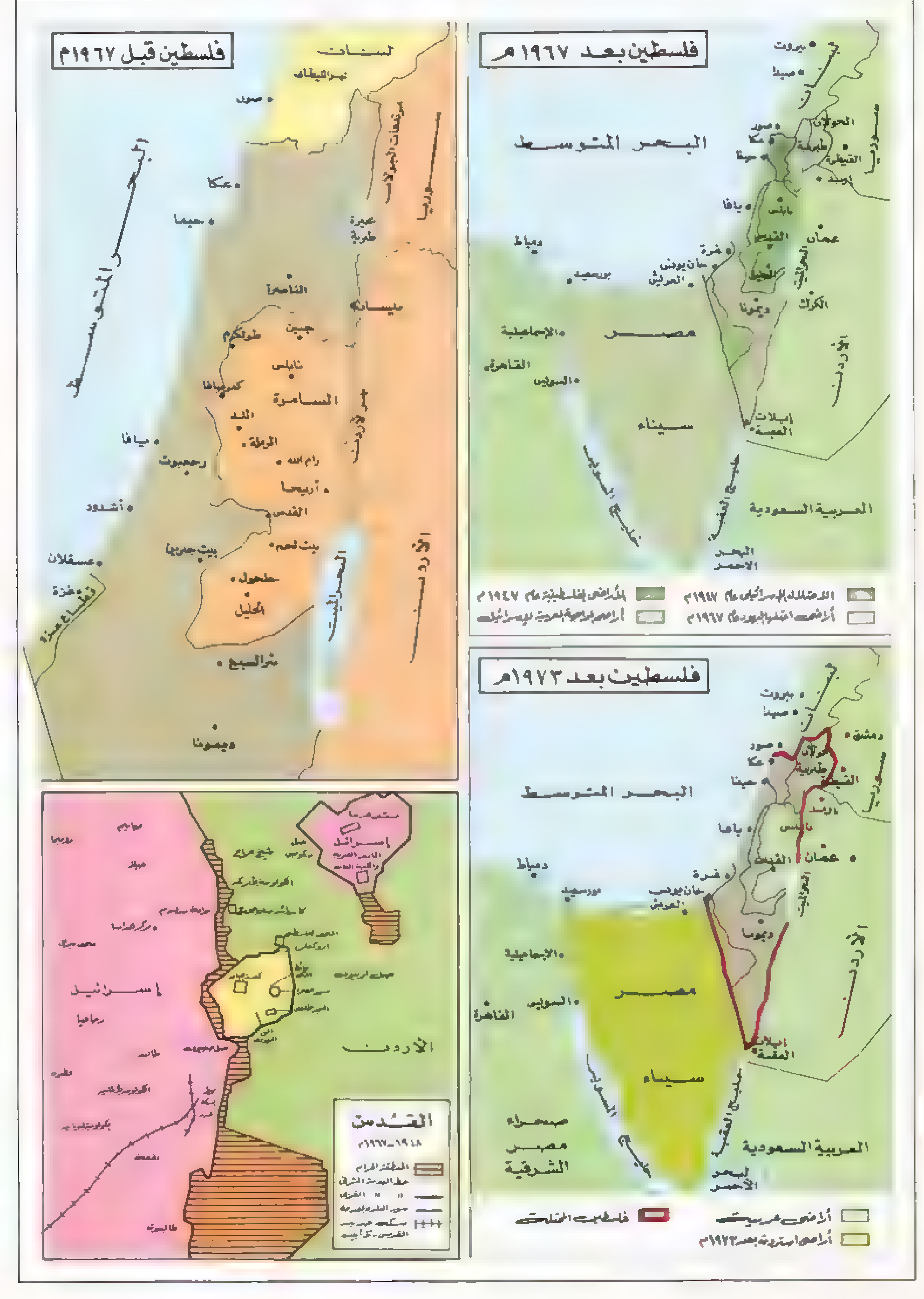

فلسطين قبل ١٩٦٧م
فلسطين بعد ١٩٦٧م
فلسطين بعد ١٩٧٣م
البحر المتوسط
مصر
سيناء
العربية السعودية
الأردن
القدس
إسرائيل

الجمهورية العربية السورية
مقياس الرسم
الجمهورية التركية
الجمهورية العربية السورية
الجمهورية العراقية
المملكة الأردنية الهاشمية
قبرص
الإسكندرونة
أنطاكية
الباب
منبج
حلب
ادلب
اللاذقية
جبلة
بانياس
طرطوس
حماة
حمص
طرابلس
بيروت
دمشق
القنيطرة
الرقة
الفرات
دير الزور
الحسكة
القامشلي
تدمر
البوكمال

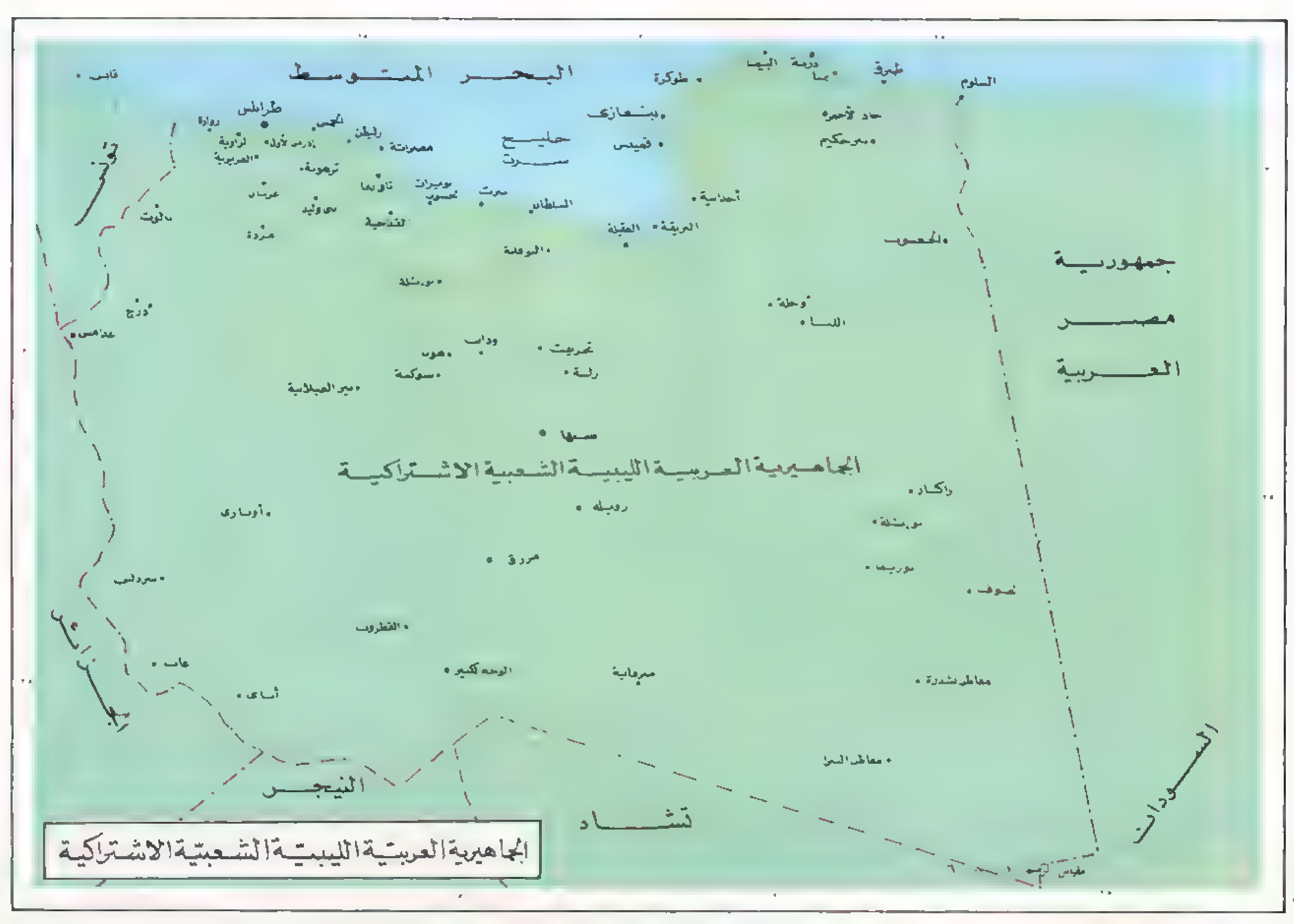
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية
البحر المتوسط
جمهورية مصر العربية
السودان
تشاد
النيجر
الجزائر
تونس
طرابلس
بنغازي
سبها
خليج سرت
مصراتة
زليتن
الخمس
زوارة
الزاوية
ترهونة
بني وليد
غريان
نالوت
غدامس
درج
مزدة
تاورغا
بويرات الحسون
سرت
السلطان
الشويرف
البريقة
العقيلة
أجدابيا
قمينس
طوكرة
درنة
البيضاء
طبرق
السلوم
الجغبوب
جالو
أوجلة
ودان
هون
سوكنة
زلة
غات
أوباري
مرزق
الكفرة
جبل العوينات
هراوة
السدرة
رأس لانوف
الوحدة كبير
القطرون
العوينات

الجمهورية التونسية والجمهورية الجزائرية والمملكة المغربية
البحر المتوسط
المحيط الأطلسي
المملكة المغربية
الجمهورية الجزائرية
تونس
موريتانيا
مالي
النيجر
الساقية الحمراء
جبال أطلس الصحراوية
العرق الغربي الكبير
العرق الشرقي الكبير
هضبة تادميت
مرتفعات الأحجار
الجزائر
الرباط
طنجة
قسنطينة
الأوراس
بسكرة
ورقلة
غرداية
تمنراست
قفصة
القيروان
سوسة
صفاقس
قابس
خليج قابس

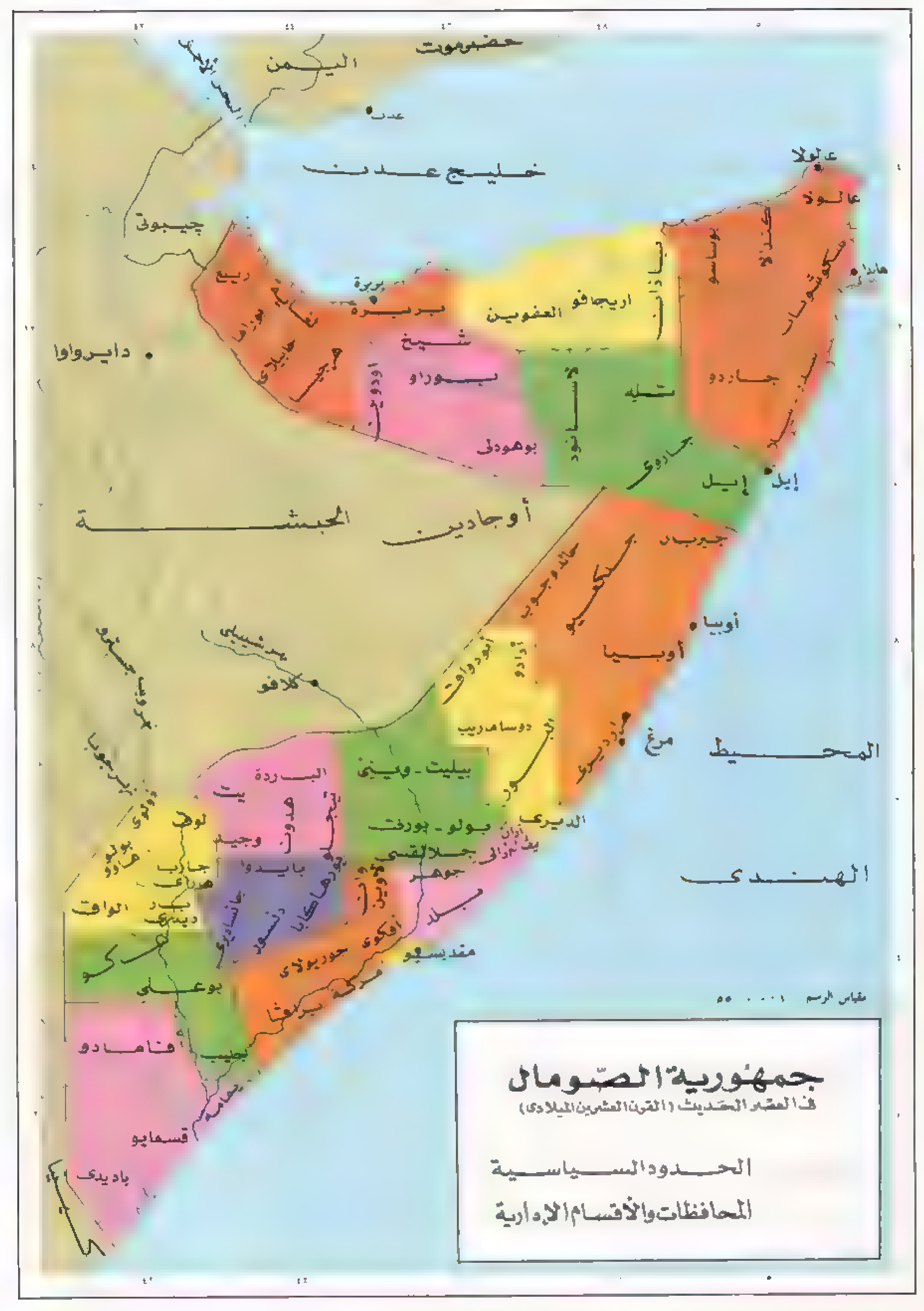
حضرموت
اليمن
عدن
خليج عدن
جيبوتي
عالولا
زيلع
بربرة
شيخ
بوراو
بوهودلي
العفوين
اريجافو
جاردو
أوجادين
الحبشة
إيل
أوبيا
مرغ
المحيط الهندي
دوسامريب
بيليت - وين
بولو - بورت
جوهر
بلد
مقديشو
بايدوا
لوق
كلافو
دايرواوا
بوعلي
جليب
قسمايو
مقياس الرسم
جمهورية الصومال
في العصر الحديث (القرن العشرين الميلادي)
الحدود السياسية
المحافظات والأقسام الإدارية

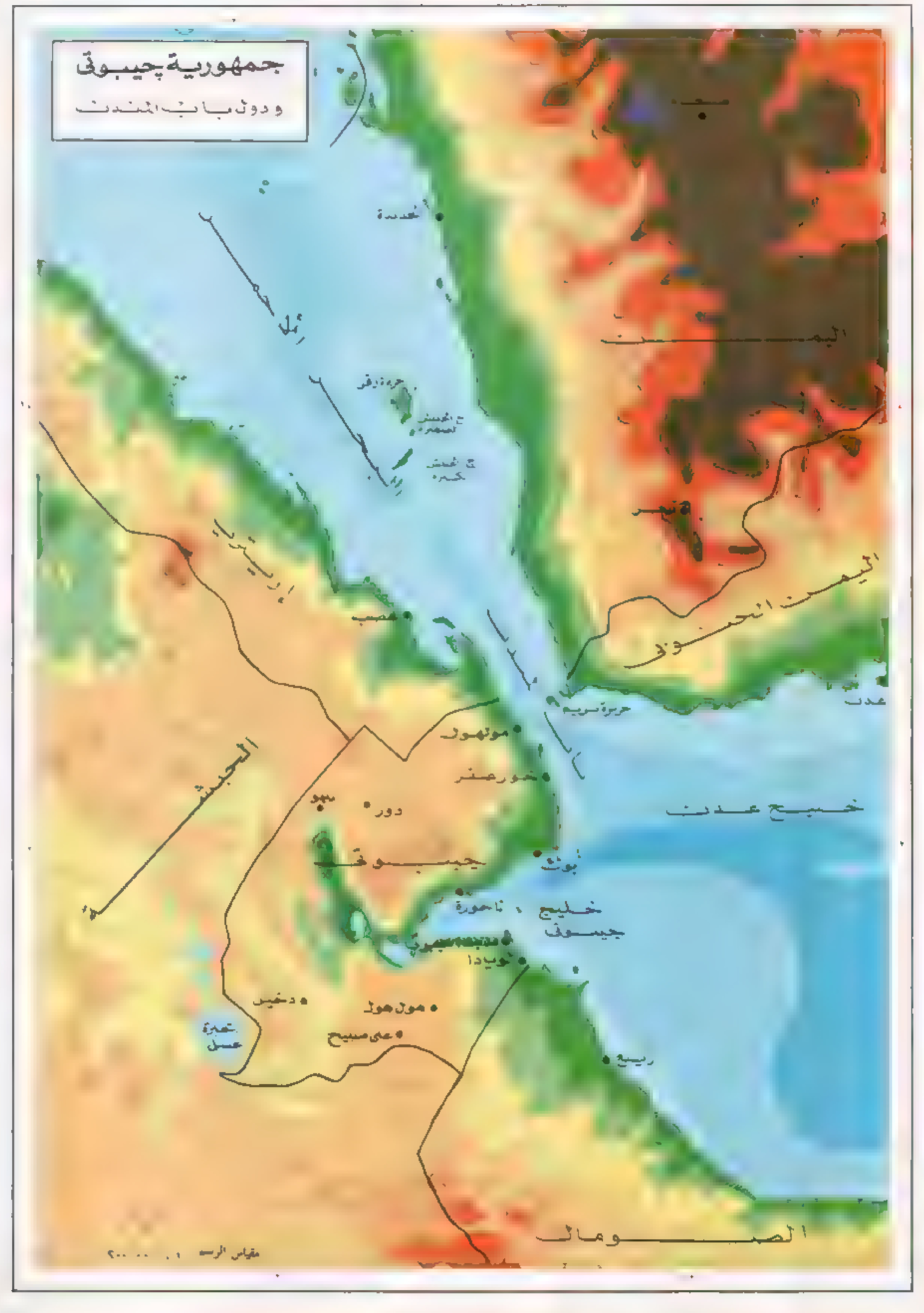
جمهورية جيبوتي
ودول باب المندب
اليمن
اليمن الجنوبي
إريتريا
الحبشة
جيبوتي
خليج عدن
خليج جيبوتي
الصومال
البحر الأحمر
عصب
عدن
تعز
جزيرة زقر
جزيرة بريم
مولهول
خور عنقر
دورا
أبوك
تاجورة
جيبوتي
لويادا
دخيل
مول هول
علي صبيح
بحيرة عسل
مقياس الرسم

الصين الإسلامية
مساحة يقطنها المسلمون وعددهم ٧٠ مليون مسلم
مقياس الرسم
أياخور
بلكاش
بحيرة بلكاش
تالدي كورغان
الاتحاد السوفيتي
إسيي
المآآتا
تقماق
فرونزي
قرماي
زنجاريا
تيان شان
كوتشا
أنديكان
فرغانة
كاشغر
يرقند
سنكيانج
بلاد الأويجور (التركستان الشرقية)
تكلاماكان
الصين
كون لون
ياسين
جلجيت
أقصاي
كشمير
جمو
الهند
التبت
نهر السند

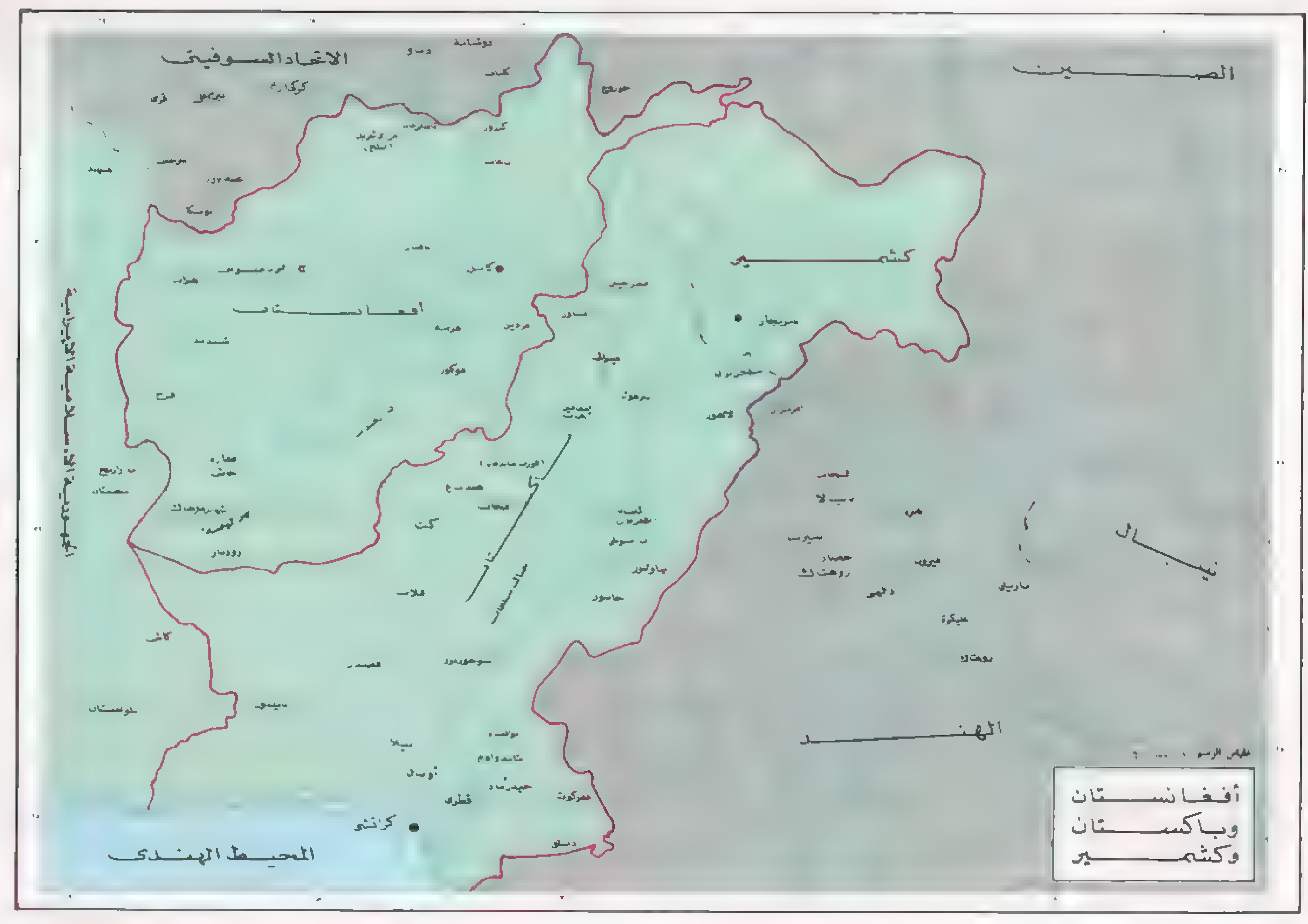
أفغانستان
وباكستان
وكشمير
الصين
الاتحاد السوفيتي
أفغانستان
كشمير
سرينجار
نيبال
الهند
كراتشي
المحيط الهندي
الجمهورية الإسلامية الإيرانية

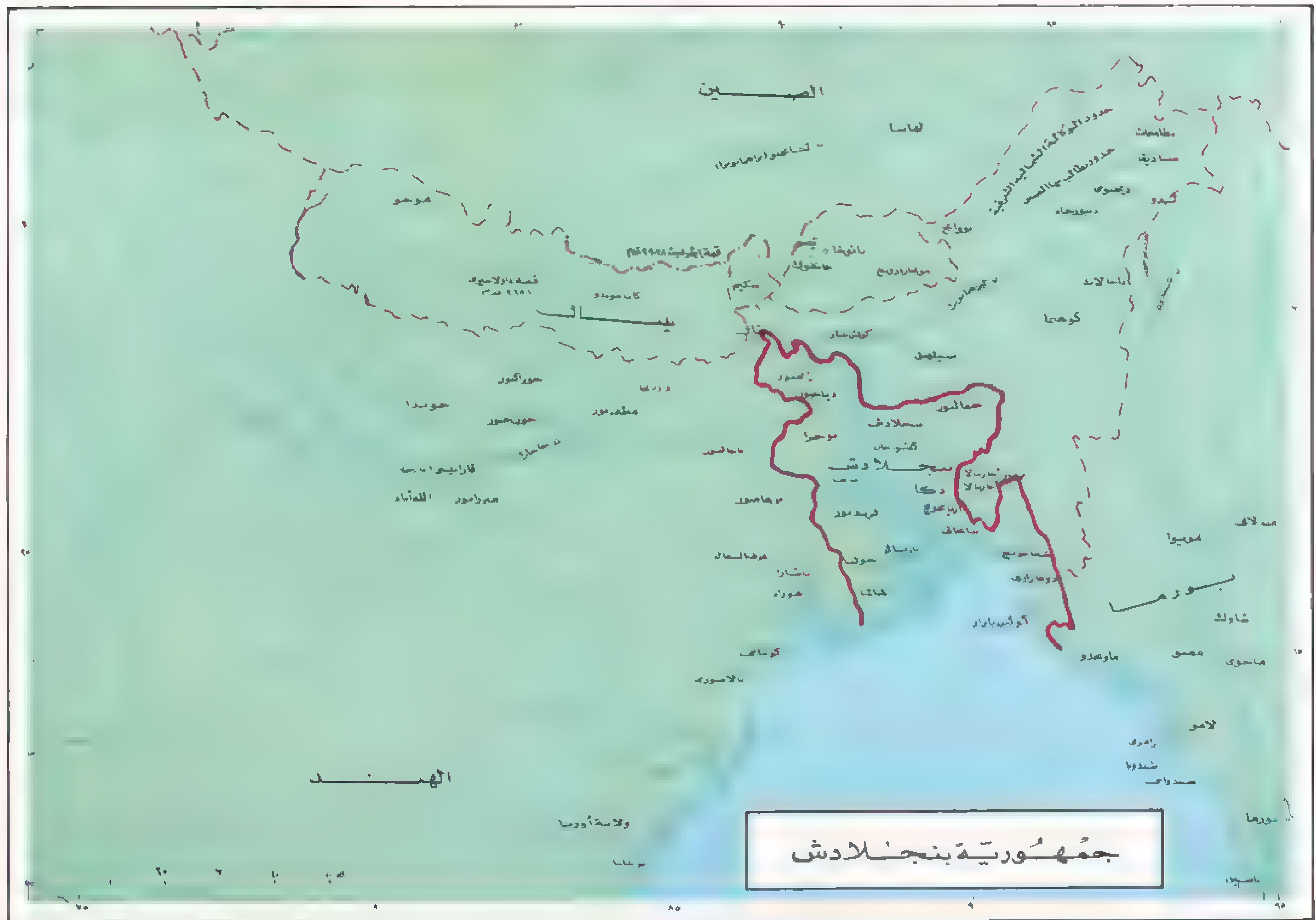
جمهورية بنجلاديش
الصين
الهند
نيبال
بنجلاديش
بورما
لهاسا
كوهيما
دكا
كوكس بازار
ماوعدو
شاولك

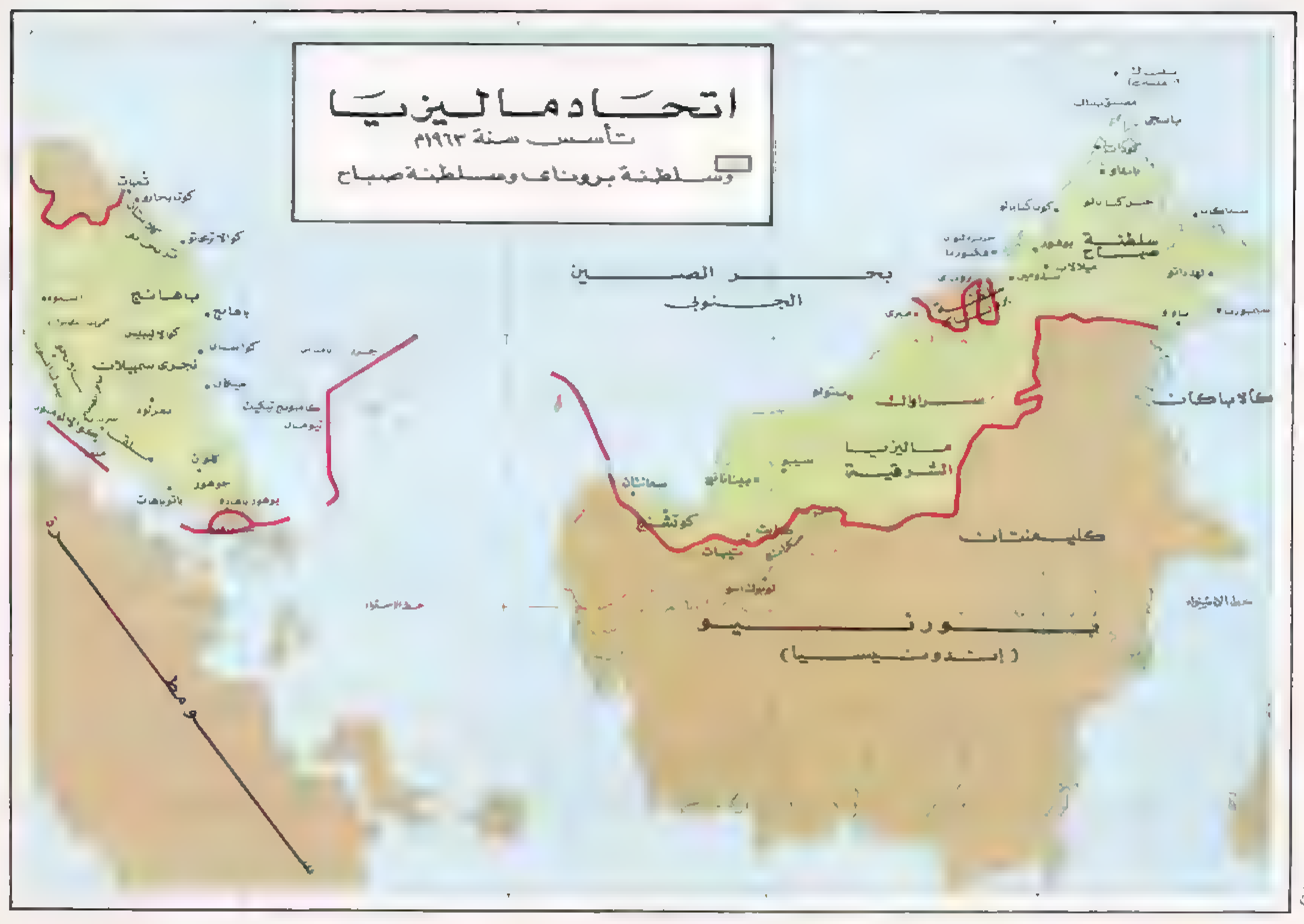
اتحاد ماليزيا
تأسس سنة ١٩٦٣م
وسلطنة بروناي وسلطنة صباح
بحر الصين
الجنوبي
سلطنة صباح
سراواك
ماليزيا
الشرقية
كليمنتان
بورنيو
(إندونيسيا)
بهانج
نجرى سمبيلان
سومطرة
كوتشنج
سيبو
خط الاستواء

الاتحاد السوفيتي
قازاخستان
منغوليا
كرجيزستان
سنكيانج
كوريا الشمالية
كوريا الجنوبية
اليابان
أفغانستان
كشمير
الصين
باكستان
نيبال
الهند
بورما
فيتنام
المحيط
الهادي
تايلاند
كمبوديا
الفلبين
سريلانكا
مالبزيا
سنغافورة
إندونيسيا
غينيا الجديدة
المحيط الهندي
استراليا

المسلمون في العالم اليوم
١٤٠٧هـ-١٩٨٧م
أكثر من ٩٠ ٪ مسلمون
أكثر من ٧٠ ٪ مسلمون
أكثر من ٥٠ ٪ مسلمون
من ٣٠ ٪ إلى ٣ ٪ مسلمون
فرنسا
رومانيا
يوغسلافيا
بلغاريا
إيطاليا
إسبانيا
البرتغال
البحر الأسود
تركيا
تركمانستان
البحر المتوسط
سوريا
العراق
إيران
المغرب
الجزائر
ليبيا
مصر
موريتانيا
مالي
النيجر
تشاد
السودان
نيجيريا
غانا
ساحل العاج
إفريقيا الوسطى
الكاميرون
إثيوبيا
الصومال
كينيا
أوغندا
زائير
تنزانيا
المحيط الأطلنطي
أنجولا
زامبيا
ملاوي
موزمبيق
ناميبيا
زيمبابوي
بوتسوانا

سيبيريا
منغوليا
(بلاد الخطا)
الصين
كوريا
بحر الصين الشرقي
صين الصين
الهند
بورما
خليج البنغال
تايلاند
(الفلبين)
إندونيسيا
المحيط الهندي
أستراليا
بلخ
دلهي
قنوج
ديو
جاوة

رحلات
إبن بطوطة
حطوط سير ابن بطوطة في رحلاته
النرويج
السويد
فنلندا
موسكو
الدولة الروسية
انجلترا
لندن
ألمانيا الغربية
باريس
فرنسا
تشيكوسلوفاكيا
النمسا
بولندا
القوقاز
باكو
أسبانيا
مدريد
البرتغال
طنجة
سبتة
الجزائر
تونس
فاس
مراكش
الرباط
ليبيا
طرابلس
الإسكندرية
القاهرة
مصر
دمشق
القدس
بغداد
الموصل
طهران
إيران
مكة
عيذاب
مصوع
السودان
الخرطوم
تشاد
النيجر
مالي
تمبكتو
موريتانيا
السنغال
نيجيريا
الكاميرون
إفريقيا الوسطى
أثيوبيا
الصومال
مقديشو
كينيا
تنزانيا
كلوه
سفالة
زامبيا
أنجولا
ناميبيا
بتسوانا
جنوب إفريقيا
خليج غينيا
زائير
ظفار
عمان
كرمان
هرمز
عدن
زيلع
ممباسة

بحر آرال
الاتحـــاد الســـوفيتي
جورجيا
الدرسد
تـركمانسـتان
بحيرة قره بوغاز
أذربيجـان
باكو
قـره قـورم
تبريز
أردبيل
المراغة
رشت
ريحان
مهاباد
قزوين
شهمار
طهـران
بابول
بيشهر
جرجان
سلطان أباد
مشهد
نيسابور
خــراســان
همدان
قم
كاشان
كرمنشاه
هراة
فايد
إيــــران
أفغانستان
أصفهان
أردستان
بيرجند
مسجد سليمان
يزد
الأهواز
كرمان
سيسـتان
البصرة
بوشهر
شيراز
كازرون
زاهدان
الكويت
سعيدأباد
باكستان
دولة أباد
لار
بلـوجسـتان
بندر عباس
ق. قشم
مضيق هرمز
مـكـران
جاسك
جواتر
البحرين
قطر
خـليـج عـمـان
المملكة العربية السعودية
الإمارات العربية المتحدة
سلطنة عمان
بحـر العـرب
مقياس الرسم ١ : ٦٥٠٠٠٠٠٠
الجمهورية الإسلامية الإيرانية

عالم الإسلام في العصور الحديثة

الشعوب الإسلامية .

في ذلك التاريخ الطويل الذي رويناه لم نقف عند تطورات سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية لأن الأطالس لاتسجل إلا الحركة السياسية الملموسة والأحداث العسكرية ، مع أن العوامل الحقيقية التي تحرك التاريخ هي عوامل السياسة الداخلية والإدارة والاجتماع والاقتصاد والثقافة . وهذه على وجه التحديد كانت النواحي التي لم يحسن العرب والمسلمون التصرف فيها ، فوقفت مجتمعاتهم جامدة أو تدهورت رغم عنف الحركات السياسية والعسكرية ، والنتيجة أن بلادهم كانت تفتقر وينحط مستواها العام عاماً بعد عام ، وقد أعطاهم الإسلام مفاتيح القوة والتقدم والرقي ، وهي وحدة الأمة وسلامة الأخلاق والاعتصام بحبل الله والعلم والعمل ، ولكنهم فرطوا في ذلك كله ، وبينما كانت أمم الإسلام تعمل وتجتهد وتدرس وتتطلع إلى حياة أفضل أحدثت الدول الحاكمة الطريق عليها وشلت حركتها ونهبت أموالها وضربت أسوأ المثل في التصرف في الأنفس والأموال ، وقد مررنا في دراستنا بدول عظيمة بدأت بدايات حسنة كالسامانيين والغزنويين والأيوبيين والأتراك العثمانيين ، ولكنها كلها كانت ثقيلة اليد على الناس شديدة الطمع في أموالهم قليلة الاهتمام بمصالحهم . ولهذا توقف معظمها بعد سير قليل وتحولت إلى استبداديات فقيرة يتحارب أفرادها على الملك لأنه كان الوسيلة الكبرى للأموال

وقد بدأت أوروبا تخرج من تلك الظلمات من أوائل القرن الرابع عشر حتى تنبه الملوك إلى أهمية المدن وقيمة نشاط أهلها ومايمكن أن يؤتيهم من أموال ، فوثقوا معها ، ... ومنحوها - لقاء إتاوات - الحريات التي أتاحت لها بناء السفن الكبيرة القوية لقطع البحار وجلب المتاجر والثروات

وقد رأينا كيف أن ملوك بيت أفيس في البرتغال وثقوا مع التجار وشجعوهم على ركوب البحار وغزو البلاد والحصول على الأموال ، فاغتنت الدول ونمت الشركات التجارية وقامت بعمليات كما رأينا في شركة الهند التجارية التي اضطلعت بغزو الهند وتحويلها إلى مستعمرة بريطانية ووضعت اليد على مصادر الخير فيها حتى إن الإنجليز بعد القضاء على الفتنة الهندية الكبرى سنة ١٨٥٨ م كانوا يحملون من موانيء الهند كل سنة عشرة آلاف سفينة تحمل مقادير لاتحصى من المواد الخام تشترى بأبخس الأسعار ، ثم تصنع في انجلترا ويعاد بيعها بأرباح طائلة ، فاغتنت بريطانيا غنى طائلاً ، وتمكنت من إنشاء الجيوش الضخمة والأساطيل القوية ، ولحقت بها في هذا المضمار فرنسا وهولندا والبرتغال في حين اندفع الروس يتوغلون شرقاً فاحتلوا - كما ترى في الخرائط - وسط آسيا الإسلامي ، وواصلوا اندفاعهم إلى الشرق حتى وصلوا المحيط الهادي ثم عبروه إلى ألاسكا

وقد استعان الأوروبيون في ذلك بالبارود الذي أخذوه عن أهل الصين ، ثم ... علماؤهم وصناعهم فصنعوا الأسلحة المختلفة من بنادق وطبنجات ومسدسات ومدافع ، واستخدموا في ذلك علوم الكيمياء والطبيعة والمعادن وفنون الهندسة . وفي أوائل القرن التاسع عشر تطور العالم إلى قسمين : قسم أوروبي أمريكي غني قوي متعلم يسود الأرضين والبحر ، وقسم فقير مضطرب منقسم على نفسه لايعرف كيف يسير ... الاختلاف الكبير في المستوى هو الذي أدى إلى اتساع ظاهرة الاستعمار ، ... على العالم كان طاغياً أغرق كل الأمم الضعيفة وابتلعها وحولها إلى مستعمرات ...

وكان من المنتظر أن بلاد الإسلام تستطيع مقاومة موجة الاستعمار بفضل ميراثها الثقافي الضخم ، ولكن هذا الميراث كان عند الشعوب لاعند الدول . ولهذا ثبتت الشعوب واحتفظت بدينها ولغتها وحضارتها ، أما الحكومات فكلها - دون استثناء - انهزمت وفقدت التأييد القوي ، وأصبحت جماعات من أهل الحكم المستبدين ، ولهذا فقد تهاوت بسرعة بالغة عندما اصطدمت بالقوى الغربية المسلحة بالعلم المنظمة سياسياً وعسكرياً ، المؤيدة من شعوبها في الغالب .

الاستعمار .

الاستعمار كظاهرة سياسية عامية قديم جداً من أيام الرومان ، فهم أول شعب في الدنيا ... سياسة عدوان على بلاد أخرى لاستغلال خيراتها لصالحه استغلالاً منظماً طويل الأمد . حقاً ، لقد احتلت شعوب غيرهم قبل ذلك بلاداً أخرى ونهبت شعوبها ، ولكن ذلك لم يكن قائماً على خطة أو طويل الأمد كما نرى عند الأشوريين مثلاً . أما الرومان فقد احتلوا بلاداً واسعة مثل شبه جزيرة إيبريا ومصر وبلاد الشام احتلالاً دائماً غرضه جمع الأموال وخيرات البلاد على المدى الطويل ، وبلغ بالرومان الأمر في هذا المجال أن فرضوا على المستعمرات إتاوات سنوية من الطعام يأخذونها ويفرقونها على سكان روما مثلاً . وعن روما ورث البيزنطيون - وهم الرومان الشرقيون - هذه السياسة الخسيسة التي جعلت من تلك الدولة ... سياسياً وعسكرياً هدفه الأكبر احتلال بلاد أخرى واستغلالها لصالحه

ولم يعرف المسلمون هذه السياسة ، إنما كان دخولهم بلاد الآخرين لكي ينشروا الإسلام فيها ، وكانت عادتهم أن يهاجروا في جماعات كبيرة ويستقروا فيها ويختلطوا بأهلها ويحولوها إلى بلاد عربية إذا استطاعوا ، ولكن نشر الإسلام كان غايتهم الأولى والأخيرة ، وكذلك كانت فتوح غير العرب من المسلمين كما رأينا في تاريخ المسلمين في الهند وقد رويناه . وقد أخطأ الأتراك العثمانيون عندما خرجوا عن هذا الخط الإسلامي العام عندما قدموا الجزية على الإسلام في سياستهم العامة في فتوحهم في بلاد شرق أوروبا النصرانية .

ولكن الاستعمار الحديث الذي نتحدث عنه هنا ظهر نتيجة النمو العلمي والفني في بلاد أوروبا الغربية ، وظهور شعوب غنية بها تحاول الحصول على ميادين واسعة تحتكر أسواقها لمصانعها وتحصل على خيراتها بسعر بخس . وقد بدأ هذا الاستعمار البرتغاليون الذين استغلوا العاطفة الدينية لاحتلال أجزاء من سواحل بلاد المسلمين وغزوهم للعمل على نشر المسيحية ، والحصول عن طريق النهب على خيرات البلاد من مراكز عسكرية ينشئونها على السواحل ويسمونها الفروتيرات . وقد رأيناهم على سواحل المغرب وسواحل بلاد جنوب شرقي آسيا وفي الهند والخليج العربي ومدخل البحر الأحمر . ورأينا كذلك أن البرتغاليين كانوا في الغالب مجرد غزاة . ثم جاء بعدهم الهولنديون والإنجليز والفرنسيون وأخذوا بقوة السلاح يغزون البلاد التي لاتملك السلاح والمتأخرة علمياً وثقافياً ويحتلون أراضيها ويستعبدون شعوبها . ومن أوائل القرن التاسع عشر أخذت أساطيل الفرنسيين والإنجليز تجوب البحار باحثة عن بلاد ضعيفة لكي تنقض عليها وتستغل خيراتها ... ولكن ... لم يتوغل ... داخل البلاد ومحاولة السيطرة عليها إلا حوالي منتصف القرن التاسع عشر . وشيئاً فشيئاً أصبح الاستعمار جزءاً ... من سياسات الدول الأوروبية القوية عسكرياً ، فأخذت تحتل البلاد الضعيفة المتأخرة وتحيلها إلى مستعمرات أو مناطق نفوذ .

وفيما بين نوفمبر ١٨٨٤ م وفبراير ١٨٨٥ م عقد مؤتمر برلين بسبب الاستعمار وتنظيمه وكان الداعي إليه الأمير بسمارك المستشار الألماني ، وكان دافعه إليه أن دوق برابانت الذي تولى عرش بلجيكا باسم ليوبولد الثاني كان رجلاً ذا مطامع قومية واستعمارية واسعة يخفيها خلف ادعاءات علمية وحضارية ، فقد وضع يده على حوض الكونغو بحجة نشر المسيحية والحضارة فيه ، وأرسل الجنود يغزون البلاد وينهبون خيراتها ، واحتجت بلاد

أوروبا ، وثار نزاع بين ليوبولد الثانى وانجلترا ، وأخيراً استقر الرأى على عقد مؤتمر أوروبى أمريكى للنظر فى موضوع المستعمرات . وكان بسمارك يتجه إلى تأييد فرنسا لكى يصرفها عن التفكير فى الانتقام من ألمانيا لاستعادة مقاطعتى الإلزاس واللورين ، وفى ذلك المؤتمر حصل ليوبولد الثانى على الكونغو ملكاً لشركة دولية أنشأها هو ، وعقب ذلك تقرر مبدأ الاستعمار وتقاسمت إفريقية مناطق نفوذ أوروبية لتمصيرها ونشر المسيحية فيها ، وتسابق الإنجليز والفرنسيون والبرتغاليون فى ذلك الميدان ، ومع الزمن أصبح من المقرر ألا يظل بلد إفريقى أو آسيوى عاجز عن الدفاع عن نفسه مستقلاً . ووقع تقسيم إفريقية وماأمكن تقسيمه من آسيا . كما وقعت البلاد الإسلامية فى تلك المصيبة .

ومن سوء الحظ أن كل تلك البلاد كان بين حكامها خلافات ، وكان المتنازعون يستعينون بعضهم على بعض بالأوروبيين فيسرعون بإرسال الجيوش . ومعظم حكام المسلمين كانوا يستدينون دون حساب كما هو الحال فى مصر وتونس وإيران والجزائر ثم المغرب ، ووقعت البلاد الإسلامية تحت الاستعمار الإنجليزى والفرنسى فى حين اضطر حكام بلاد ماوراء النهر أمام تهديد الإيرانيين إلى الاستنجاد بالروس ، فتقدموا يستولون على بلاد ماوراء النهر إقليماً إقليماً ، وقد أخذ الاستعمار صوراً شتى ، ففى البلاد الإفريقية والآسيوية المتأخرة جداً أعطى لفظ المستعمرة Colony معنى الاحتلال العسكرى والسياسى للنهوض بالبلاد وأهلها . وفى البلاد الخالية مثل أمريكا الشمالية أخذ التوسع صورة القضاء على الهنود الحمر والاستيلاء على البلاد وتوزيعها بين المهاجرين ، وفى استراليا ونيوزيلاندا حيث كان السكان قليلين جداً أخذ الاستعمار صورة التوسع القومى . أما فى معظم بلاد الإسلام ، حيث كانت هناك حكومات ونظم قائمة فقد أخذ الاستعمار أشكالاً مثل الحماية والانتداب والمحالفة وماإلى ذلك . وفى مصر كان هدف بريطانيا الاستيلاء على وادى النيل لاستغلال خيراته وتأمين طريق الهند ، وتم استعمارها سنة ١٨٨٢ م وفى سنة ١٩١٤ م أعلنت الحماية عليها ، واتجه الأمر فى السودان إلى فصله عن مصر وتحويله خطوة خطوة إلى ملك بريطانى خاص . أما فى الشمال الإفريقى فقد بدأت فرنسا فى غزو الجزائر ابتداء من ١٨٣٠ م بحجة استعادة ديون لدى الدايات ، ثم نشأت فكرة تحويل الجزائر كلها إلى جزء من الأرض الفرنسية . أما تونس فقد اعتبرت حماية فرنسية منذ دخول الفرنسيين البلاد سنة ١٨٨١ م ، أما فى المغرب الأقصى فقد تم استيلاء الفرنسيين على البلاد على مراحل ابتداء من ١٩٠٦ م ، وجاء الغزو العسكرى سنة ١٩١٢ م من ناحية الجزائر واعتبرت البلاد بعد تمام احتلالها محالفة لفرنسا ، والحقيقة أنها كلها كانت مستعمرات تستغل أراضيها وخيراتها ، ويتولى الحكم فيها حكام عسكريون تحت أيديهم قوات عسكرية تقضى على كل مقاومة .

وبعد الحرب العالمية الأولى تم تقسيم أراضى الدولة العثمانية المنهزمة فى الحرب بين روسيا وانجلترا وفرنسا ، فأما روسيا فكانت تطمع فى الآستانة والمضايق لولا معارضة فرنسا وانجلترا ، وأعطيت أجزاء من الأناضول لليونان وإيطاليا والأرمن والأكراد كما نرى فى خرائط تركيا . وأعطيت سورية ولبنان لفرنسا تحت الانتداب ، واقتطعت انجلترا لنفسها فلسطين وبدأت العمل لتسليمها للصهيونيين . واعترفت أوروبا لإيطاليا بليبيا وإريتريا ثم الحبشة بعد ذلك . أما الهند فقد تحولت إلى مستعمرة بريطانية ومُلك للتاج البريطانى بعد القضاء على الثورة الكبرى التى قامت سنة ١٨٥٨ م ، وبعد ذلك قضى على بقية السلطان الإسلامى فى كل أجزاء الهند . ولما كان المسلمون هم القوة الوحيدة التى دافعت عن الهند فقد اتجه الإنجليز فى القضاء على كل سيادة إسلامية ، واهتموا بإحياء التراث الهندى القديم وتشجيع الهندوكية واستعانوا فى ذلك بكل العناصر المقاومة للإسلام مثل الهندوكيين والسيخ والروهيلا . وحاولت روسيا وانجلترا تقاسم إيران ولكنهما اتفقتا أخيراً على الانسحاب منها . وفى بلاد إفريقية الإسلامية زعم الاستعماريون - الفرنسيون والبرتغاليون بشكل خاص - أنهم يحاربون الإسلام وينشرون المسيحية . وبعد مناقشات طويلة بين الدول الأوروبية انتهت قيادة الحركة الاستعمارية فى إفريقية وآسيا إلى أيدى فرنسا وانجلترا مع اشتراك يسير من جانب البرتغال وهولندا وألمانيا وبلجيكا ، وإليك الخطوط العريضة التى انتهى إليها الاتفاق بين الدول الاستعمارية .

(١) **منطقة النفوذ الفرنسى** فى إفريقية وتشمل بلاد المغرب كلها فيما عدا ليبيا - وكانت تسمى طرابلس الغرب - فقد أعطيت لإيطاليا ، وكذا إفريقية الغربية المدارية والاستوائية والوسطى باستثناء ماأخذته انجلترا وغيرها من بلاد أوروبا ، وهو مبين فيما بعد . هذا بالإضافة إلى جزيرة مدغشقر ، وجيبوتى فى شرق القارة .

(٢) **منطقة النفوذ الإنجليزى** وتشمل غامبيا وسيراليون وساحل الذهب ونيجيريا بالإضافة إلى جنوب إفريقية ووادى النيل .

(٣) **منطقة النفوذ البلجيكى** وتشمل بلاد الكونغو كلها (زائير اليوم) .

(٤) **منطقة النفوذ الألمانى** وتشمل التوجو والكاميرون وجنوب غرب إفريقية (ناميبيا) وهى اليوم تحت سيطرة جنوب إفريقية،وتنجانيقا وروندا وبوروندى فى شرق القارة .

(٥) **منطقة النفوذ البرتغالى** وتشمل أنجولا وموزمبيق والرأس الأخضر .

(٦) **منطقة النفوذ الإسبانى** وتشمل منطقة الريف المغربية والصحراء الإسبانية وغينيا الإسبانية .

(٧) **منطقة النفوذ الإيطالى** وتشمل ليبيا وإريتريا والصومال ثم الحبشة فيما بعد .

واشترك رجال الدين المسيحى فى هذا العدوان الشامل . فظهر مبشرون استعماريون لاهم لهم إلا محاربة الإسلام والإساءة إليه ومن أشهر هؤلاء الكاردينال الفرنسى لافيجيرى ودى برازا ومارشال ولاير ، وكلهم فرنسيون . واشتركت البابوية فى ذلك العمل فأنشأت - على الورق - كاردينالات وأسقفيات فى إفريقية ورصدت لذلك أموالاً طائلة .

وإلى جانب رجال الدين هؤلاء ظهر فى أوروبا رجال سياسة أوروبيون اجتهدوا فى بناء أمجاد شخصية لهم معتمدين على توسيع المجالات الاستعمارية لبلادهم من أمثال بالمرستون رئيس الوزراء البريطانى وكاسلرية وزير الخارجية البريطانى وسيسل رودس الذى اجتهد فى إنشاء مستعمرة بريطانية كاملة فى قلب إفريقية وهى روديسيا التى استقلت الآن باسم زمبابوى وجول فيرى الفرنسى واللورد كرومر والجنرال اللورد جورست الإنجليزى والماريشال ليوتى الفرنسى الذى سيطر زمناً طويلاً على شئون المملكة المغربية .

أما فى آسيا فقد استقر التقسيم على مايلى :

- الهند كلها وقد اعتبرت مستعمرة بريطانية .
- شبه جزيرة الهند الصينية وقد اعتبرت كلها منطقة استعمار فرنسى .
- جزر إندونيسيا وكانت تسمى جزائر الهند الشرقية ، وقد تركت لهولندا .
- جزر الفلبين وقد ظلت مستعمرة إسبانية حتى سنة ١٨٩٨ م ثم انتقلت إلى ملكية الولايات المتحدة بعد حرب انتصرت فيها على إسبانيا .
- مستعمرات برتغالية كثيرة ولكنها صغيرة مثل جوا فى الهند وتيمور فى الهند الصينية وماكاو قرب ساحل الصين . وهى تشبه المستعمرة البريطانية هونج كونج .
- مستعمرات روسية وهى بلاد سيبيريا كلها إلى المحيط الهادى ثم بلاد وسط آسيا الإسلامية (التركستان وماحولها) .

حركات التحرير والتخلص من الاستعمار .

بصورة عامة يمكن القول إن البلاد الإسلامية هى صاحبة الفضل الأكبر فى القضاء على الاستعمار ، فالمناطق ذات الأغلبية الإسلامية فى الهند ظلت دائماً رافضة للاستعمار البريطانى ، وأفغانستان منذ البداية قاومت الاستعمار البريطانى وحافظت على استقلالها ، وإيران لم تخضع للاستعمار الإنجليزى أو الروسى إلا لفترة قصيرة جداً .

ورفضت مصر الاستعمار منذ البداية ، وقام أبطالها الوطنيون منذ أيام أحمد عرابى ثم مصطفى كامل والحزب الوطنى بمعارضة الاحتلال الذى سانده البيت الحاكم فى مصر وهو بيت محمد على . وعقب الحرب العالمية الأولى مباشرة بدأ النضال القومى الواعى بقيادة سعد زغلول وحزب الوفد الذى ورث كل الأفكار الوطنية السابقة عليه مضافاً إليها آراء محمد عبده ورجال الدين الأعلام وعبد الرحمن الكواكبى ومن إليهم من زعماء الإصلاح . وتأيدت الحركة القومية السياسية بجناح مقاتل فدائى أزعج الإنجليز وأرغمهم على إصدار تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ م الذى اعتبرت مصر بمقتضاه مملكة مستقلة (ولكنها ظلت مستعمرة بريطانية يحكمها حكام إنجليز حتى أولاً بمندوب السامى ثم بالسفير) وفى أغسطس ١٩٣٦ م عقدت معاهدة ١٩٣٦ م التى انسحب البريطانيون بمقتضاها إلى منطقة القناة . وظل الأمر على ذلك حتى الحرب العالمية الثانية وهى العامل الأكبر فى القضاء على الاستعمار فى كل مكان .

وفى نفس الوقت قامت الحركات الاستقلالية فى كل بلاد العروبة ، وأقدم البلاد العربية فى ذلك بعد مصر الجزائر والمغرب الأقصى ، أما الجزائر فقد ظهر فيها حزب البيان فى أواخر العشرينات يقوده فرحات عباس الذى بدأ بداية متواضعة فطالب بالمساواة فى الجزائر بين الجزائريين والمستوطنين الفرنسيين الذين تدفقوا على البلاد على اعتبار أنها جزء من الأرض

الفرنسية (!) ثم تطورت أفكار فرحات عباس تدريجيا ، ولكن التحرير الجزائرى قام على أيدى رجال آخرين أولهم رجال حزب الشعب الجزائرى الذى تألف فى الجزائر نفسها . وقد طال نضال هذا الحزب حتى قيام الحرب العالمية الثانية . وبعدها بدأت حركة التحرير الجزائرى بالثورة المجيدة بقيادة جبهة التحرير الجزائرية التى ضربت للناس أروع المثل فى الكفاح القومى ، وقد بدأت كفاحها المسلح ضد الفرنسيين على أرض الوطن الجزائرى ليلة أول نوفمبر ١٩٥٤ م . وفى ٢٠ أغسطس ١٩٥٦ م عقد مؤتمر وادى الصُّمام الذى أنشئت فيه قيادة عليا موحدة للثورة الجزائرية . وبفضل جبهة التحرير الجزائرية استمرت حرب التحرير أكثر من سبع سنوات من ١٩٥٤ م إلى ١٩٦٢ م عندما أرغم الشعب الجزائرى فرنسا على الاعتراف باستقلاله والانسحاب من أراضيه . وقامت بعد ذلك الجمهورية الجزائرية المستقلة التى ضربت للعالم كله أروع مثال للجهاد الوطنى ، فقد سقط فى تلك الحرب أكثر من مليون شهيد جزائرى . وكانت تلك الحرب المجيدة السابقة هى التى احتذاها شعب فيتنام فى حربه مع الفرنسيين أولاً ثم الأمريكيين ، ويسير فى نفس الطريق شعب أفغانستان الذى يحارب العدوان الروسى على بلاده حرباً استحقت إعجاب العالم كله .

أما فى تونس فقد بدأت حركة التحرير بحزب تونس الفتاة الذى أنشأه عبد العزيز الثعالبى سنة ١٩١١ م ثم أنشىء حزب الدستور سنة ١٩١٩ م . ومن سوء الحظ أن البيت المالك التونسى — وهو من بقايا الحسينيين — وقف فى الغالب فى صف المستعمر . وفى سنة ١٩٣٤ م أنشىء حزب الدستور الجديد فى مؤتمر قصر هلال وتولى أمانته العامة الحبيب بورقيبة الذى قاد الحركة الوطنية التونسية قيادة موفقة من ذلك الحين حتى اعترفت فرنسا سنة ١٩٥٥ م بالاستقلال الداخلى لتونس .

وفى سنة ١٩٥٦ م عقد بروتوكول الاستقلال التونسى التام عن فرنسا الذى سمى بوثيقة الاستقلال ، وانتخب السيد الحبيب بورقيبة رئيساً للحكومة

ومن حسن حظ المملكة المغربية أن البيت الحاكم هناك — وهو البيت الشريف العلوى الفلالى — وقف دائماً إلى جانب الشعب وقاد حركة الاستقلال ، وفى سنة ١٩٣٧ م أنشأ المرحوم علال الفاسى وزملاؤه الميثاق الوطنى الذى طالب باستقلال البلاد ورفضته فرنسا وفى سنة ١٩٤٤ م أنشىء حزب الاستقلال وطالب بالاستقلال التام ، وأيده جلالة الملك محمد الخامس الذى تولى بنفسه قيادة الحركة الوطنية مع زعماء البلاد ، مما أدى إلى نفى الملك إلى جزيرة كورسيكا ثم إلى جزيرة مدغشقر فى حين كان علال الفاسى وزملاؤه يناضلون فى أوروبا والبلاد العربية ، واشتد الكفاح المسلح داخل البلاد مما اضطر الفرنسيين إلى إطلاق سراح جلالة الملك محمد الخامس ودعوته إلى الذهاب إلى فرنسا للتفاوض على الاستقلال ، وعاد الملك إلى عرشه سنة ١٩٥٥ م ، وفى سنة ١٩٥٦ م ذهب إلى فرنسا حيث تم عقد معاهدة استقلال المغرب ، ثم ذهب إلى إسبانيا حيث تم الاتفاق على تحرير المنطقة الشمالية . وتم تحرير المغرب سنة ١٩٥٦ م .

الحرب العالمية الثانية ونهاية الاستعمار .

كان للحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥ م) أكبر الأثر فى إنهاء كا ... الاستعمار فى العالم العربى وبقية العالم ، فقد أنهكت فيها قوى فرنسا وإنجلترا وبقية دول أوروبا ، وظهر ماردان جديدان يقودان حركة الدنيا بفضل ثروتهما وقوتهما العسكرية وتقدمهما التكنولوجى هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . وفى سنة ١٩٥٢ م قامت الثورة المصرية التى وقعت مع بريطانيا معاهدة الجلاء سنة ١٩٥٤ م . وكان العراق قد كسب استقلالاً داخلياً سنة ١٩٣٠ م ، وبعد الحرب العالمية الثانية تم استقلاله وفى يوليو ١٩٥٨ م قامت ثورة العراق وقضى على بقايا البيت الهاشمى فيه .

وفى سنة ١٩٤٦ م نالت سورية استقلالها بعد كفاح وطنى مسلح ضربت أثناءه دمشق بالقنابل ، ولكن ذلك لم يثن الشعب السورى المكافح عن هدفه فاستمر يواصل الجهاد حتى تم له الاستقلال . وفى عام ١٩٤٦ م جلا عن لبنان آخر جندى فرنسى وقامت جمهورية لبنان المستقلة .

وفى سنة ١٩٤٥ م أنشئت الجامعة العربية .

وفى سنة ١٩٤٧ م تم استقلال الهند وتقسيمها إلى دولتين إحداهما إسلامية هى الباكستان ، وكانت تنقسم جغرافيا إلى قسمين شرقى وغربى . وقد استقل القسم الشرقى وأنشأ لنفسه فى ١٥ ديسمبر ١٩٧١ م دولة بنجلاديش أى أرض البنغال .

وبعد الثورة المصرية فى يوليو ١٩٥٢ م اجتاحت إفريقية وآسيا حركات التحرير ، فاستقلت كل بلاد إفريقية — الإسلامية وغير الإسلامية — واحدة بعد الأخرى

قيام الدولة الليبية الحديثة

تدلنا دراسات الأثريين وبحوثهم على أن الجو فى البلاد الواسعة التى تعرف عادة باسم ليبيا كان أحسن بكثير فى العصور القديمة ، بل حتى الفتح الإسلامى للبلاد الذى بدأ على يد عمرو بن العاص أواخر سنة ٢١ هـ / وأواخر ٦٤٢ م فكانت الأرض أكثر خضرة وأشجارا ، ومعظم البلاد كانت أرض مراع عامرة بالناس . بل إن العلامة الألمانى شتيمان قال إن جزءاً كبيراً من سكان وادى النيل يرجع إلى الأصول الليبية ، وإن سكان الصحراء الغربية لمصر كانوا ينتمون إلى المغرب الأقصى ويكونون جنساً واحداً ذا حضارة واحدة يسمى شعب ذوى الريشة Feder leute وهم الذين نراهم مصورين على أحد وجهى لوحة نارمر ، وكانت الحروب دائمة بينهم وبين أبناء وادى النيل الذين استقروا فى الوادى وأنشئوا الدولة المصرية القديمة ، وانتصروا يدفعون عن بلادهم بدو الصحراء ، بل استطاعت بعض جماعاتهم ممن كانوا يسكنون صحراء مصر الغربية أن يستقروا فى مصر فى أواخر عصر الرعامسة وينشئوا فى مصر أسرة حاكمة بزعامة ملكهم شيشنق الأول (٩٥٠ — ٩٢٤ ق . م)

وكان سكان الصحراء الليبية هؤلاء رحالة فى الغالب اشتهرت بلادهم بماشيتها . وقد ذكر المؤرخون من شعوبهم : الناسامونيين ، وكانوا يسكنون فى شرق ولاية طرابلس إلى واحة أوجلة ، والماكاى ، وكانوا يسكنون المنطقة المعروفة اليوم بالخمس ، والجرامانتيون ، وكانوا يسكنون نواحى فزان ، وكلها شعوب بربرية غالبيتهم بتر أى رحالة ، وأقلهم برانس وهم المستقرون ، وكلهم كانوا رعاة وصيادين .

وقد هاجر إلى بلادهم فى عصر البطالمة أعداد من الإغريق انضمت إليهم جماعات إغريقية أخرى عبرت إلى برقة وطرابلس من جزائر البحر ، ونظراً لندرة أهل البلاد فقد سماهم الإغريق بالليبيين ، واختلط الجانبان وظهرت ثلاثة أقاليم : بنطابلس أى بلد المدن الخمس وهى أبولونيا (اليوم سوسة) وقورينا (اليوم شحات) وبطولمايس وأرسينوى (اليوم توكرة) وبرنيس أو برنيق (اليوم بنغازى) وكلها مدن إغريقية ، ولكنها كانت زاهرة متحضرة ، وإقليم تريبوليس ، أى إقليم المدن الثلاث ، ويسمى أيضاً تريبوليتانيا وهى طرابلس وصبراتة ، الآن (سرت) وصبرة أو صبراتا ، وإقليم الجرامنتيين وهو فزان .

وقد سمى إقليم بنطابلس باسم سيرينايكا أو كيرينايكا ، وقد سماه العرب قيريى .

وقد عرفت البلاد كلها باسم ليبيا ، وعرفت بسكانها الأشداء ومراعيها الخضراء التى تدهورت شيئاً فشيئاً مع الزمن واشتداد الجفاف ، وقد جرى العرب منذ أيام البطالمة على اعتبار سيرينايكا داخلة فى مصر ، أما طرابلس فقد ضمت فى العصر الرومانى ثم البيزنطى إلى ولاية إفريقية ، وهى تونس الحالية على وجه التقريب . ونظراً لاتساع البلاد وقلة سكانها لم تتعرض لغزوات أو صراعات عنيفة ، وعاش أهلها فى مراعيهم حياة هادئة رخية من مواشيهم وأشجار زيتونهم . وقبيل الفتح الإسلامى ظهرت فى ليبيا قبائل بربرية ذات حضارة رعوية إفريقية مصرية هى لواته وهوارة فى سيرينايكا ونفوسة فى طرابلس ، أما فزان فسارت فى طريقها جزءاً من ليبيا الواسعة .

وعندما فتح عمرو بن العاص مصر كانت بلاد سيرينايكا جزءاً من مصر بحسب التقسيم الإدارى الذى وضعه الإمبراطور موريس ، ولهذا فقد سارع إلى فتحها بعد فراغه من فتح الإسكندرية ، ثم أعقب ذلك بفتح طرابلس . وفى نفس الوقت أرسل نافع بن عبد القيس الفهرى لفتح فزان ، فوصل إلى زويلة وأقر فيها الإسلام وترك فيها حامية عربية ، وبذلك كانت ليبيا من أوائل الأقاليم التى دخلت عالم الإسلام ، وكثرت هجرة العرب إليها مما أسرع باستعراب أهلها وإسلامهم . وأطلق العرب على سيرينايكا اسم برقة وهى بلدة صغيرة شمال الجبل الأخضر ، وقد هاجرت إلى جبال نفوسة جماعات من العرب أسرعت بإسلام أهلها . وكثرت إليها هجرة الخوارج ، فاشتهر أمر جماعة نفوسة من الخوارج الإباضية وذاع صيت مشايخها بالعلم والفقه والعداء للأمويين .

بدء ظهور ليبيا الحديثة .

ونظراً لطول السواحل الليبية (من عقبة السلام إلى قابس) وكثرة مدنها الساحلية وموانيها فقد كانت ميداناً واسعاً من ميادين الصراع بين المسلمين والمسيحيين على سيادة البحر المتوسط ، وتعرضت للغارات المسيحية منذ الفتح الإسلامي إلى العصر الحفصي الذي انتهى سنة ٩٨١ م . وتعرض الشمال الإفريقي كله للغزو الأوروبي ، وعندما قامت الدولة العثمانية نشب الصراع بينها وبين الإسبان الذين كانوا قد استأسدوا بعد سقوط غرناطة ،

وقامت في بلادهم دولة قوية على رأسها شارل الخامس المعروف بشرلكان ، ثم ابنه فيليب الثاني ، وكانا شديدي التعصب الديني والبغض للإسلام ، وتمكنت أساطيل إسبانيا من الاستيلاء على سواحل المغرب من نواحي وهران إلى طرابلس . وكان دخولها طرابلس في ١٨ ربيع الآخر ٩١٦ هـ / ١٥ يوليو ١٥١٠ م ، وأنشأ الإسبان أسواراً وتحصينات في طرابلس خاصة ، ولكنهم لم يجسروا على تخطي أسوار طرابلس . وربما وصلت بعض غاراتهم إلى غريان ، ولكنهم لم يستقروا في طرابلس قط . ولهذا فقد رحبوا بما اقترحه عليهم فرسان القديس يوحنا من الحلول محلهم في طرابلس . وقد قصصنا في تاريخ المسلمين في البحر المتوسط كيف طردت هذه الجماعة من القدس ، ثم من عكا ، فلجأت إلى جزيرة رودس ، وهناك جعلت همها الغارة على شواطىء المسلمين والتعرض لسفنهم حتى غزاهم المصريون أيام السلطان برسباى وأخرجوهم منها ، ثم قضى السلطان سليم على كل أثر لوجودهم في تلك الجزيرة في ديسمبر ١٥٢٢ م فاتجهوا إلى إيطاليا ودخلوا في خدمة البابوية التي وجهتهم لحرب المسلمين . ومن إيطاليا طلب الفرسان من شارل الخامس أن يتنازل لهم عن جزيرة مالطة ليغزوا المسلمين منها ، فوافق واشترط عليهم أن يتولوا أمر الدفاع عن طرابلس ، فوافقوا على ذلك ، وانتقلت السيادة على طرابلس إلى أولئك الفرسان سنة ١٥٣٥ م .

وفي طرابلس تبين أولئك المحاربون المتعصبون أنهم ليسوا أنداداً لأهل طرابلس الأشداء ، واشتد النزاع بين الطرفين ، وأصبح الفرسان محصورين بالفعل داخل أسوار طرابلس تأتيهم أزوادهم من وراء البحر . وفي نفس الوقت كان أهل برقة قد استقلوا ببلدهم ، وكذلك استقل أهل فزان وسيطرت القبائل العربية الليبية على الناحيتين . وظهر في فزان أمير إدريسي الأصل من بني محمد الذين ساحوا شمال المغرب قبل قيام دولة المرابطين ، وقد اتخذ شيخ هذه الأسرة مدينة مُرْزُق عاصمة له ومد نفوذه إلى واحة سوكنة .

العثمانيون في ليبيا .

وفي عهد السلطان سليمان القانوني ، وعلى أثر دخول العثمانيين تونس ثم الجزائر ، قام قائد تركي هو سنان باشا بالاستيلاء على طرابلس ، ورحب به أهلها عندما دخل البلد سنة ١٥٥١ م . لأنه كان بالفعل من عمود رجال بني عثمان . وبعد أن دخلت البلاد في الدولة العثمانية وأصبحت طرابلس ولاية عثمانية ، غادر سنان باشا البلاد تاركاً مراد آغا والياً عليها (١٥٥١ - ١٥٥٣ م) وكان مراد من أفضل من عرفتهم ليبيا من ولاة العثمانيين ، وقد اشتهر بعدله وإصلاحاته ومنشآته ، فازداد عمران طرابلس ، وعاد إليها الكثير من سكانها الذين كانوا قد غادروها سنوات القلق الماضية . ومازال الليبيون يذكرون مراد آغا بعملين جليلين ، الأول تعرضه لغارة نهب قام بها فرسان القديس يوحنا من مركزهم في مالطة في شعبان ٩٥٩ هـ / يوليو ١٥٥٢ م وردهم مدحورين بخسائر فادحة ، والثاني هو إنشاء جامعه المشهور في بلدة تاجورا التي أوى إليها بعد تركه الحكم ، ومازال يزين البلد إلى اليوم ، ثم تولى البلاد طرغود باشا أمير البحر المشهور سنة ١٥٥٣ م . وقد حكم طرغود باشا البلاد حتى سنة ١٥٦٥ م ، وهو أطول ولاة آل عثمان حكماً . وقد رحبت ولايات ليبيا بهذا البطل البحري العظيم ، وأعلنت برقة وفزان ولاءهما للسلطان العثماني فظهرت ليبيا بحدودها التقليدية ، واجتهد هو في تعمير البلاد ونشر الرخاء فيها ، وجعل طرابلس القاعدة الأولى للأسطول العثماني في البحر المتوسط .

ليبيا في عصر الأسرة القره مانلية (١٧١١ - ١٨٣٥ م) .

تعتبر الأسرة القره مانلية صاحبة فضل كبير في بناء الدولة الليبية الحديثة بحدودها الراهنة . وقد كان أحمد باشا القره مانلي تركي الأصل من آسيا الصغرى ، ولكنه وفد على ليبيا ، واشتغل شاباً ، وعمل جندياً في الأسطول التركي في طرابلس ، واستقر في البلاد ودخل في أهلها وتزوج منهم واستعرب ، مما يأذن لنا في القول بأنه أصبح ليبياً ، وكان أحمد شاباً موهوباً طموحاً ، وكانت البلاد قد عانت الكثير من فساد الحكم التركي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين فاستقر رأى أحمد القرمانلي على الوصول إلى حكم البلاد بتأييد من أهل البلاد الذين توسموا فيه القدرة على تحقيق آمالهم في الاستقرار والعدالة ،

وعندما أرسل السلطان سنة ١٧١٢ م مندوباً إلى طرابلس لينظر في أمر مقتل وال عثماني يسمى خليل باشا تمكن أحمد القرمانلي بتأييد أهل البلاد من إقناعه - وإقناع السلطان بعد ذلك - بتوليته أمر ليبيا ، فتم له ذلك ، وسارع بعد ذلك بالقضاء على العناصر العسكرية التركية التي شغلت البلاد بها في مذبحة دبرها لها . واعتمد على عناصر ليبية عربية في بناء قوة عسكرية ليبية .

وبهذه القوة استطاع أحمد القرمانلي أن يثبت نفسه في البلاد ، ثم أنشأ لنفسه قوة مالية وذلك من الإشراف على القوافل التي كانت تفد إلى فزان بمتاجر إفريقية ، واهتم كذلك بإعادة إنشاء الأسطول وتقويته ، وإنشاء دار صناعة جديدة ، فلم يلبث الأسطول الليبي أن ظهر وأخذ بنصيب في تجارة البحر المتوسط ، وأسهم كذلك في أعمال الجهاد البحري ضد الأساطيل الأوروبية ، فسارعت البلاد الأوروبية والأمريكية في كسب وده ، وعقدت معه المعاهدات وأدت إليه الأموال ، فحصل له المال الذي كان لابد منه لبناء الدولة ، وبالمال هيأ لطرابلس وغيرها من البلاد موارد مالية ، وأقنع السلطان العثماني بالاعتراف له بحق توريث الولاية لأبنائه ، ثم أنشأ مسجده البديع الباقي إلى اليوم في طرابلس ، وقد أنشئ على نظام الكليات العثمانية . أي المنشآت المساجدية التي تضم مدرسة ومارستانا وخانقاه

ووجد أحمد باشا في أهل ليبيا خير معين له على ذلك كله ، فأحبه الناس وأيدوه وكثر انضمام الشباب للجيش ، وعمر الرجل برقة ، ونظم شئون فزان وأشرف على شئون الطرق ، وأخذت البلاد شكلها الحديث في أيامه . وتوفى في ١٤ شوال ١١٥٨ هـ / أكتوبر ١٧٤٥ م بعد أن حكم أربعة وثلاثين سنة هجرية وضع أثناءها أساس الدولة الليبية الحديثة ، وخلفه ابنه محمد باشا القرمانلي (١٧٤٥ - ١٧٥٤ م) فسار في طريق أبيه ولكنه أسرف في غزو السفن التجارية الأوروبية مما اضطر انجلترا إلى عقد معاهدة صداقة معه سنة ١٧٥١ م . وخلفه ابنه على باشا القرمانلي (١٧٥٤ - ١٧٩٣ م) الذي طال حكمه وتدهورت الأحوال في أيامه ، فبدأت الثورات عليه ، وتزايدت بعد موته ، وخاصة أثناء ولاية يوسف باشا ثم ابنه على آخر ولاة القرمانلية على ليبيا ، لأن ابنه على باشا أغضب الأهالي بالاستدانة من الأوروبيين ثم عجز عن الدفع ، فلجأت فرنسا وانجلترا إلى ضرب طرابلس بالقنابل ، فعزل على باشا وانتهت الدولة القرمانلية ، وعادت ليبيا إلى الدولة العثمانية حتى بدأ الإيطاليون في غزوها سنة ١٩١١ م .

ويرجع الفضل إلى القرمانليين في إعطاء ليبيا شكلها الجغرافي الحالي ، ففي أيامهم أصبح من المسلم به أن برقة وطرابلس وفزان تعتبر وحدة سياسية والتوغرافية وحضارية واحدة . وإليهم يرجع الفضل في تمدين برقة وطرابلس والنهوض بقواعدها وتجميل مدنهما .

نظرة عامة على العصر التركي .

بعد نهاية أيام القرمانليين ظل الأتراك سادة ليبيا حتى الغزو الإيطالي سنة ١٩١١ م ، ولم تكن هذه الفترة (١٨٣٥ - ١٩١١ م) فترة زاهرة ، نظراً لما شاب الحكم التركي في كل الولايات من مساءات الحكام ، واستبداد جند الوجاقات والإنكشارية ، ومن إفساد وسرقات ونهب ، والدولة العثمانية كانت دولة جليلة ، ولكن إدارتها بعد سليمان القانوني كانت من أسوأ ماعرف المسلمون ، وخاصة في ولاياتها الإسلامية ، ولكن الشعب الليبي أفاد فائدة كبرى من إدارات مراد أغا باشا (١٥٥١ - ١٥٥٣ م) وطرغود باشا (١٥٥٣ - ١٥٦٥ م) والقرمانلية الأول ، فثبتت الوحدة السياسية لليبيا ، ثم إن ولاية فزان أزهرت إزهاراً عظيماً وأصبحت مساوية في الغنى والرخاء لبرقة وطرابلس ، واستقرت في البلاد نظم الإدارة والقضاء ، وقامت في نواحيها الأسر الغنية والمنشآت العامرة من مساجد ومدارس ، وتجلت الخصال التجارية والمالية للشعب الليبي ، وقامت سوق التجارة بين ليبيا وبلاد أوروبا وأمريكا ، ورغم قلة موارد المياه في البلاد فقد أصبح القطر الليبي من أقطار عالم الإسلام الزاهرة .

الغزو الإيطالي لليبيا .

وهذا النجاح الذي حققته ليبيا هو الذي أثار مطامع إيطاليا نحوها ، فإن إيطاليا بعد أن تمت وحدتها ورتبت شئونها وقرت مكانتها وسط العالم الغربي اتجهت أنظار حكومتها إلى اتخاذ مستعمرات ، وكان الاستعمار كما قلنا ظاهرة أوروبية عامة شاعت في بلاد أوروبا (والولايات المتحدة) كلها ، وكانت فرنسا وانجلترا والبرتغال وإسبانيا وألمانيا وروسيا قد تقاسمت مااستطاعت تقاسمه من بلاد إفريقية وآسيا ، فلما استقام أمر إيطاليا طمحت إلى الاستيلاء على مابقى خارج نطاق الاستعمار ، نظرت إلى ليبيا القريبة منها ، وحصلت على موافقة إنجلترا وفرنسا على أن تغزوها ، ولم يكن من المتوقع أن تبدى الدولة العثمانية مقاومة تذكر ، فقامت إيطاليا بإرسال إنذار زعمت فيه أن رعاياها وغيرهم من

الأوروبيين يعانون من سوء الحكم وانعدام الأمن فى ليبيا ، وكان الإنذار فى ١٧ سبتمبر ١٩١١ م ومهلته أربعاً وعشرين ساعة ، وبعد اثنى عشر يوماً بدأ الغزو العسكرى فى ٢٩ سبتمبر ١٩١١ م ، وبلغت القوة الإيطالية ٢٤ ألفاً من المشاة و ٦٣٠٠ من الفرسان مزودين بأحسن الأسلحة ، ومع أن القوة العثمانية لم تزد على خمسة آلاف جندى إلا أن الليبيين أبدوا من المقاومة ماخيب آمال الإيطاليين الذين قذفوا المواقع الليبية بالمدافع الثقيلة ، ولم يستطيعوا الاستيلاء على ضواحى بنغازى (جوليانة والصابرى) إلا بعد عناء طويل وخسائر فادحة ، ومع أن تركيا قد سلمت بالاحتلال الإيطالى لليبيا فى معاهدة أوشى فى أكتوبر ١٩١٢ م إلا أن الشعب الليبى استمر فى المقاومة وعاونته قوات من مصر وشتى البلاد العربية .

الحركـــة السنوســـية

الحركة السنوسية واحدة من ثلاث قوى إسلامية سلفية نهضت – فى نفس الوقت تقريباً – للتصدى للغزو الأوروبى للعالم الإسلامى ، والحركتان الأخريان هما الوهابية السعودية ، والمهدية السودانية التى أنشأها الشيخ محمد أحمد المهدى بن السيد عبد الله ، وقد تحدثنا عن كلتيهما . ومؤسس الحركة هو السيد محمد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الإدريسى فهو من سلالة الأدارسة ، وهو جزائرى الأصل ، فقد ولد فى محلة الواسطة قرب مستغانم فى الجزائر فى ١٢ ربيع الأول ١٢٠٢ هـ / ٢٢ ديسمبر ١٧٨٧ م .

والسنوسية تدخل أول الأمر فى نطاق الصوفية العاملة ، ثم تفرض عليها الظروف أن تدخل ميدان الصوفية المجاهدة ، مثلها فى ذلك مثل معظم الطرق الصوفية المغربية ، وقد بيّنا فى فصل المغرب من ذلك الأطلس كيف أن الحروب والمعارك السياسية فى المغرب استهلكت العصبيات القبلية التى نهضت بعبء الحياة السياسية فى المغرب العربى كله ، وبعد انتشار العرب الهلالية فى المغرب وسيطرتها على نواح واسعة من بلاده صمدت إلى درجة الزوال عصبيات زناتة وصنهاجة ، ووهنت قوى القبائل الضخمة التى أنشأت الدول الهينة ، وبعد سقوط الأندلس تطمعت دول النصرانية القوية وبخاصة إسبانيا والبرتغال فى بلاد المغرب ، فبدأت تغير على سواحله وتنشىء فيها مراكز الاستعمار والتجارة ، ووهنت دول المرينيين والحفصيين عن مواجهة تلك الأخطار ، فبقى عرق الدين وحل محل العصبية القبلية ، وقامت الطرق الصوفية مقام العصبيات القبلية وتولت أمر الكفاح ضد الغزاة من النصارى وإخراجهم من البلاد ، وإنشاء الدول المغربية الكبرى وفى مقدمتها السعدية والعلوية الفلالية الشريفة فى المغرب الأقصى .

وهنا فى ليبيا ، ونتيجة لمطامع أوروبا فى البلاد ، وعجز وتخاذل الحفصيين والعثمانيين عن الدفاع عن البلاد نهضت السنوسية بالمسئولية ، وقد كان محمد بن على السنوسى صوفياً معتزلاً تركز جهده فى إنشاء قاعدة قوية للصوفية السنوسية فى واحة الجغبوب فى صحراء مصر الغربية (إذ ذاك) ثم الكفرة فى قلب صحراء ليبيا ، ووضع لها قواعد العمل والانتشار . وقد تميز شيوخ السنوسية بالمهارة فى إنشاء الزوايا ، وهى المراكز الدينية التجارية الاجتماعية فى الصحراء . وقد جرى السنوسيون فى إنشاء هذه الزوايا على طريقة سليمة وذكية جعلت منها مراكز نهوض دينى واقتصادى واجتماعى فى مناطق الصحراء وبخاصة الجانب الغربى منها ، فإن أساس الزاوية كان مصدر الماء وهو فى العادة بئر أو واحة ، والبئر قد يوجد وقد تحفره الجماعة . فإذا تم الاطمئنان إلى مورد مائى أنشئت الزاوية إلى جواره ، والزاوية يرأسها شيخ وهو فى العادة يتميز بالإيمان الدينى القوى وأمانة اليد التامة والنشاط والإخلاص للطريقة ، ولاتكاد الزاوية تقوم حتى تتحول إلى مركز تجارى ، لأن انتقال المتاجر بين إفريقية المدارية والاستوائية والبلاد العربية شمالى خط الاستواء كان مسألة حيوية ، والتجار كانوا فى حاجة إلى محطات آمنة يستقرون فيها ، ويطمئنون على متاجرهم وأموالهم ويستريحون فيها من متاعب السفر ، وإذا أمكن توسيع مصدر الماء باشر المريدون الزراعة ، وتوافد عليهم الصحراويون دون نظر إلى جنس أو لون ، وقد أثبت السنوسيون كفاية عظيمة فى إدارة الزوايا وتحويلها إلى مراكز نشر للإسلام ، وانتشار الإسلام الواسع فى تشاد ووادای والكمرون يرجع الفضل فيه إلى الزوايا السنوسية ، ويرجع ذلك التطور الواسع إلى الفترة الأخيرة من حياة الشيخ محمد بن على فى الجغبوب ، وكان مركزه قبل ذلك فى الكفرة ، ومن الكفرة كان وصول الطريقة إلى وادای ودارفور وتشاد ، وكان محمد شريف ولى عهد وادای قد دخل فى الطريقة بعد لقائه بمنشئها فى مكة ، وعندما تولى العرش سنة ١٨٣٨ م أصبح من أنشط الناس فى إنشاء الزوايا ونشر الدعوة فى بلاده ، وقد وضع الشيخ محمد بن على قاعدة عظيمة ، هى تحرير الرقيق الذين يدخلون الإسلام وينضمون إلى الدعوة ، فكثر دخولهم الإسلام وأصبحت زوايا السنوسية فى الفاشر فى دارفور من أقوى مراكز الدعوة السنوسية . وقد توفى مؤسس الحركة ٩ صفر ١٢٧٧ هـ / ٧ سبتمبر ١٨٥٩ م . وكانت الحركة إلى ذلك الحين إسلامية عامة ، لأن رأس الدعوة كان شريفاً جزائرياً وقاعدتها فى جغبوب فى مصر ، أما مريدوها فكانوا من كل أجناس المغرب والصحراء الكبرى وإفريقية المدارية والاستوائية .

وخلف السيد محمد بن على السنوسى ابنه الأكبر السيد محمد المهدى السنوسى ، وتدل الطريقة التى رشحه بها أبوه لرياسة الحركة على أن السنوسية كانت قد أصبحت إمارة إلى جانب أنها طريقة صوفية ، حقاً لم تكن لها أرض أو شعب ، ولكن كان لها مبدأ وخطة وطريق ، فهى إمارة قلوب ، ولكنها تحولت بتأثير الظروف السياسية خلال رياسته الطويلة إلى إمارة سياسية (تولى فى ١٢٧٦ إلى ١٣٢٠ هـ / ١٨٥٩ إلى ١٩٠٢ م) . فقد نقل مركز الحركة إلى الكفرة فى ليبيا ، واجتهد فى توطيد علاقاته بكل كبار شيوخ الحركة فى ليبيا ووادای وتشاد ، ومد نشاط الحركة إلى وسط الصحراء وإفريقية المدارية العربية ، فأنشأ مراكز قوات من أنساله فى قلب بلاد الطوارق ، وكسبهم إلى جانبه ، وأنشأ مركزاً سنوسياً كبيراً فى كاوار فى شمال تشاد وشماندرو فى نفس الإقليم وغدامس ، ثم امتدت الحركة إلى البورنو وبلاد النيجر ودخلت فيها جماعات كبيرة من الفولانيين وأهل تمبكتو ، وقد اتجه محمد المهدى السنوسى إلى الابتعاد عن القيادات السياسية التى اجتاحت القارة الإفريقية فى أيامه ، بل إنه رفض الانضمام إلى الحركة المهدية التى قادها محمد أحمد ابن السيد عبد الله فى السودان ، وحافظ الرجل على علاقات طيبة مع الدولة العثمانية ، وإن كان قد رفض وضع حركته فى خدمتها ، ولكنه رغم ذلك تخوف من رجال السلطان فنقل مركز الحركة السنوسية من الجغبوب إلى الكفرة سنة ١٨٩٥ م . وكان ذلك قبل هجوم إيطاليا على ليبيا بستة عشر عاماً فى سنة ١٩١١ م . ومن مركزه الجديد اجتهد فى توطيد سلطان السنوسية فى فزان وبلاد البرنو ووادای . وكان يحكم وادای رجل من أتباع الزبير باشا رحمت صاحب السلطان فى منطقة بحر الغزال يسمى رابح . وقد مد رابح سلطانه على بلاد الكانم والبورنو وهى التى غزاها الفرنسيون وأنشئوا منها وحدة سياسية تسمى « تشاد » . وكان الفرنسيون يسعون إذ ذاك فى إنشاء إمبراطوريتهم الإفريقية . وقبل أن يتوفى محمد المهدى السنوسى فى ٢٣ صفر ١٣٢٠ هـ / أول يونيو ١٩٠٢ م كان الفرنسيون قد أكملوا الاستيلاء على تشاد وأزالوا دولة رابح فيها .

وخلف محمد المهدى ابن أخيه أحمد الشريف . وقد حرص السنوسيون على الإبقاء على علاقات طيبة معهم للمحافظة على زواياهم الكثيرة هناك .

وعندما قرر الأتراك ترك ليبيا للإيطاليين بمقتضى معاهدة أوشى (إلى جوارلوزان فى سويسرا فى أكتوبر ١٩١٢ م) قام آخر الولاة الأتراك بزيارة أحمد الشريف السنوسى فى الجغبوب ، وأسعه أن تركيا ترد ليبيا إلى أهلها ، وتكل إليهم أمر الدفاع عنها ، وبهذا أصبح شيخ السنوسيين أميراً مسئولاً عن البلاد والدفاع عنها ضد المعتدين الإيطاليين .

الإيطاليون يحتلون ليبيا وتصاعد مقاومة السنوسيين وغيرهم من الليبيين لهـــم .

وهكذا تحولت الحركة السنوسية إلى حركة سياسية ، وأصبح عليها من ذلك الحين أن تحمل عبء مواجهة الإيطاليين . وكانت المهمة أكبر من أن تقوى عليها القوات الليبية ، لأن المستعمر الإيطالى كان يمتد بسلاح ومال كثير ، وإن كانت قواه أقل بكثير من قوى الاستعماريين الآخرين ، فتمكن الإيطاليون من الاستيلاء على طرابلس ، ولكن الليبيين انتصروا عليهم فى فزان فى موقعة القرضابية ، قرب مصراتة سنة ١٩١٥ م ، وأخرجوهم من فزان ، وظهر فى ذلك الصراع اسم القائد الليبى رمضان السويحلى .

وكان ذلك فى أثناء الحرب العالمية الأولى . وكانت إيطاليا فى حاجة إلى جمع قواتها ، فقام الليبيون بتنظيم صفوفهم وأنشئوا حكومة القطر الطرابلسى ، وتفاوضوا مع الإيطاليين ، وانتهوا إلى صلح بينهم فى ٢٢ إبريل ١٩١٩ م ، وفى هذا الصلح تقرر أن يرأس حكومة القطر الليبى الحاكم الإيطالى ، وكان يحمل لقب نائب الملك ، وهو اعتراف اسمى ، لأن حكم البلاد كان بيد الليبيين الذين أنشئوا مجلس حكومة مؤلفاً من ثمانية أعضاء من الليبيين واثنين من الإيطاليين يختارهم نائب الملك .

ولكن الفرنسيين تغلبوا على السنوسيين فى فزان . ثم نكث الإيطاليون اتفاقهم مع الليبيين ، وأرسلوا قوات ضخمة إلى ليبيا . واجتاحت العالم العربى موجة من الحماس لليبيا ، وكثر التطوع فى صفوف الجيش الليبى ، واشترك فى الجهاد قواد من مصر مثل عزيز

المصرى ، ومن العراق مثل تحسين العسكرى ، ولكن تفوق الإيطاليين العسكرى أتاح لهم فرصة الانتصار والاستيلاء على طرابلس . وفى ٦ نوفمبر ١٩١٩ م أعلن الإيطاليون أن برقة وطرابلس ملك لإيطاليا ، وشدد ذلك من عزمات المجاهدين ، فاشتد أوار الحرب مع الإيطاليين الذين انضم إليهم الإنجليز خوفاً على مصر ، ومال السيد أحمد الشريف السنوسى إلى الاتجاه نحو المسالمة مكتفيا بالرياسة الدينية للسنوسيين ، فحل محله ابن أخيه السيد إدريس السنوسى حفيد السنوسى الكبير ، وقد رأى مع مساعديه أن يعقدوا الصلح مع الإنجليز ليتفرغوا للإيطاليين ، ولكن إنجلترا أصرت على أن تنضم إيطاليا إلى مفاوضات الصلح ، لأن ذلك كان أثناء الحرب العالمية الأولى ، وإيطاليا كانت حليفة بريطانيا ، وانتهى الأمر باتفاق عكرمة أوطبرق فى ١٦ إبريل ١٩٢٠ م ، وخلاصته أن تستمر طرابلس فى يد الإيطاليين مع الاحتفاظ بمظاهر الاستقلال الداخلى وترك الحرية للسنوسيين فى برقة ، مع إيقاف الحرب بين الفريقين والابتعاد عن الأتراك العثمانيين ، ومعنى هذا أن الاتفاق كان هدنة بين السنوسيين والإيطاليين ، وهو حقيقة ماكان إدريس السنوسى يرمى إليه نظراً لقلة ماكان عند مقاتليه من الأسلحة ، وكان إلى جانب ذلك يرمى إلى المحافظة على زوايا السنوسية فى فزان وغيرها من بلاد إفريقية . وكانت أجدابية عاصمة الإمارة السنوسية فى بنغازى .

الفاشيون واحتلال ليبيا – عمر المختار .

استولى الفاشيون على الحكم فى إيطاليا فى أكتوبر ١٩٢٢ م . وقد أراد رئيس الحركة بنيتو موسولينى أن يقوم نظامه بأعمال ترفع مكانة إيطاليا الدولية ، ولهذا قرر تدعيم مركز إيطاليا الاستعمارى ، وبدأ بليبيا ، فألغى كل الاتفاقات مع الليبيين وأرسل جيوشاً ضخمة إلى ليبيا مع أوامر باستعمال أقسى الأساليب لسرعة القضاء على كل مقاومة فى ليبيا . وبالفعل تم إخضاع طرابلس بعد أن اقترف الإيطاليون أعنف أعمال القسوة . وفى برقة اشتدت المقاومة ، وتكبد الإيطاليون خسائر فادحة ، وخصوصاً ابتداء من ديسمبر ١٩٢٣ م عندما تولى السيد عمر المختار قيادة الحرب الوطنية بعد انسحاب السيد محمد إدريس السنوسى إلى مصر ، والسيد عمر المختار من شرق الجبل الأخضر ، وكان قد أظهر من النجابة فى العلم والشهامة فى الحرب ماجعله الشخصية الرئيسية فى الحركة الوطنية ولقد لجأ الإيطاليون إلى أقسى الأساليب فى الحرب الليبية ، وتمكن الإيطاليون من القضاء على المقاومة ، وألغوا الزوايا ، وأغلقوا المدارس ، وجعلوا اللغة الإيطالية هى اللغة الرسمية فى البلاد ، وقرروا تدريسها فى المدارس . ولم يبقوا فى ليبيا إلا ٥٦ مدرسة ابتدائية و ٤٤ مدرسة إيطالية للإيطاليين ، وأرسل ألوف الإيطاليين من جنوب إيطاليا وصقلية للاستيطان فى ليبيا ، لأن موسولينى قرر أن تكون ليبيا امتداداً للوطن الإيطالى ، وأدخلت على المدن الليبية إصلاحات جعلتها أشبه بالمدن الإيطالية ، وذاعت اللغة الإيطالية على كل لسان فى ليبيا ، واستشهد السيد عمر المختار بعد وقوعه فى الأسر ، وقد حوكم المختار محاكمة صورية حكم عليه فى نهايتها بالإعدام ، وتم تنفيذ الحكم فيه شنقاً فى الساعة التاسعة من صباح الأربعاء ٤ جمادى الأولى ١٣٥٠ هـ / ١٦ سبتمبر ١٩٣١ م فى مدينة سلوق فى إقليم بنغازى .

الحرب العالمية الثانية ونهاية الاستعمار الإيطالى .

منذ قيام الحرب العالمية الثانية وانضمام إيطاليا الفاشية إلى ألمانيا النازية قرر البريطانيون إخراج الإيطاليين من ليبيا ، وقد استدعت سياستهم الاستعانة بالليبيين فى ذلك ، وكان الليبيون السنوسيون المهاجرون إلى مصر كثيرين (بلغ عددهم ستة عشر ألفا) فبايعوا الأمير محمد إدريس السنوسى أميراً لليبيا فى مؤتمر عقدوه فى مصر فى ٧ و ٨ أغسطس ١٩٤٠ م وأيدهم البريطانيون فى مصر ، وانضم الليبيون إلى الإنجليز فى مسعاهم لتحرير ليبيا ، ولم يجد الإنجليز صعوبة فى القضاء على إيطاليا فى ليبيا ، وتم ذلك فى يناير ١٩٤٣ م ، وسار الفرنسيون فى تشاد واحتلوا فزان ، وانتقلت ليبيا بذلك إلى احتلال بريطانى فرنسى .

وبعد نهاية الحرب اتفقت حكومة العمال مع إيطاليا على أن تقسم ليبيا بين إيطاليا وإنجلترا وفرنسا ، فتصبح ولاية طرابلس تحت الوصاية الإيطالية ، وولاية برقة تحت الوصاية الإنجليزية ، وفزان تحت الوصاية الفرنسية . ولكن الزمان كان قد تغير ، وآن أوان زوال الإمبراطوريات الاستعمارية ، وتحطمت أساطير السيادة الأوروبية على الدنيا ، وقامت هيئة الأمم ، ثم إن العلاقات الطيبة التى أقامها محمد إدريس السنوسى مع البريطانيين نفعت ليبيا ، وعندما احتج الشعب الليبى على الاتفاق الإيطالى الإنجليزى الفرنسى وقامت المظاهرات فى ليبيا أيدتها هيئة الأمم وأصدرت توصية بقيام دولة ليبية مستقلة فى ٢١ نوفمبر ١٩٤٨ م ، وأيد مجلس الأمن هذا القرار ، واختار لتنفيذه مندوباً هولنديا هو أدريان بلت . وكان من أوائل ماقرره أدريان بلت هو إقرار ماأجمع عليه الليبيون فى الداخل والخارج من أن يكون الأمير محمد إدريس المهدى السنوسى ملكاً على ليبيا بأقاليمها الثلاثة : برقة وطرابلس وفزان .

وبعد مفاوضات طويلة قامت دولة ليبيا المستقلة بحدودها الحالية فى ٧ أكتوبر ١٩٥١ م ، وأصبحت ليبيا مملكة على رأسها الملك محمد إدريس المهدى السنوسى . ومن أواخر الخمسينيات ظهر البترول فى شرقى ليبيا وزادت حقوله وإنتاجه مع الستينات ، ونتيجة لذلك انتقل الاقتصاد الليبى إلى مرحلة جديدة ، ومع تزايد الإنتاج البترولى أخذت أحوال الشعب الليبى تتغير فى كل ناحية .

وفى أول سبتمبر ١٩٦٩ م قامت فى ليبيا ثورة الفاتح من سبتمبر . وتحولت ليبيا إلى جمهورية ديمقراطية ودخلت فى دور تطور بعيد المدى فى كل ميدان .

القضيــة الفلســطينية

إلى حين قريب جداً كان العرب ينظرون إلى قضية فلسطين على أنها مسألة أخلاقية ، وهي في الواقع كذلك ، والمسئولية فيها تقع في المكان الأول على بريطانيا ، لأنها إذا كانت قد تسلمت فلسطين من عصبة الأمم أمانة فإن الالتزام الخلقي كان يقضي بأن تحافظ عليها لأهلها كما أخذتها إلى أن تردها إليهم ، أما أن تتاجر بها وتفتح أبوابها لليهود لينشئوا فيها وطناً قومياً لهم في مقابل معونتها في الحرب العالمية فأمر لا يجوز ، وهو خطأ أخلاقي جسيم وأسوأ من ذلك تعيين هربرت صموئيل الصهيوني حاكماً لفلسطين بناء على ترشيح حاييم وايزمان ، لأن هذا الحاكم رسم سياسته كلها على تمكين الصهيونية من فلسطين ، وتجريد الفلسطينيين من كل وسيلة للدفاع عن النفس ، فملك اليهود الأرض الكافية ليقيموا عليها أساس الدولة ، وأدخلوا كل من استطاعوا إدخاله من اليهود ، واشتروا الأراضي ، وأنشئوا القواعد العسكرية والمنظمات المحاربة الكافية لإعلان الدولة الإسرائيلية في نهاية فترة الانتداب . وأما مسئولية اليهود فهي مسئولية تدبير طويل ، وعدوان على شعب آمن في أرضه ، والاستيلاء على كل أرضه بالقوة والجشع إلى كل مايجاوره ، بحيث لو أمكن الاستيلاء على أي مساحة من أرض الجيران لتم ذلك بقوة السلاح وادعاها المحتل لنفسه .

والحقيقة أن القضية الفلسطينية قضية سياسية ، وما دامت سياسية فمن الطبيعي جداً أن تنتهك فيها الأخلاق والقيم والحقوق ، وعندما نظر إليها الفلسطينيون من هذه الزاوية منذ حين ، انفتح أمامهم الطريق لاستعادة حقوقهم في أرضهم ، وتمكنوا من الحصول على الاعتراف بهم وبحقوقهم من معظم دول العالم ومنظماته ، وإذا كان قد ضاع منهم الميدان الذي كانوا يستطيعون منه أن يقوموا بحرب ناجحة لاسترداد بلادهم — وهو جنوب لبنان — فإن السياسة العاقلة الذكية ستوجد لهم ميادين أخرى للصراع إذا هم واظبوا وثابروا ولم يفرطوا في حقهم .

ولم يخطىء الفلسطينيون عندما اعتبروا قضيتهم قضية عربية ، وهي في الحقيقة كذلك ، ولكن دول الدنيا في هذا العالم المضطرب المزدحم لا تسمح لها ظروفها بمعاونة شعب آخر بكل المال والسلاح ، ومهما كانت المعونة العربية فهي عاطفية في الغالب ، وماليه بعد ذلك في حدود إمكانيات كل دولة . ولا يمكن أن تزيد المعاونة العربية على ذلك ، ولهذا فإن أكبر خطوة حاسمة في تاريخ النضال الفلسطيني هو قرار المؤتمر الفلسطيني (المجلس الوطني) في القدس في ٢٨ مايو ١٩٦٤ م بإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية ، واعتبارها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني والمتحدث الوحيد باسمه ، فقد قامت بذلك هيئة سياسية فلسطينية مستقلة ، لها تنظيم حكومي وعسكري يتولى قضية فلسطين بنفسه . وشيئاً فشيئاً تتقن هذه الهيئة أساليب العمل السياسي السليم الذي لا يقع في أخطاء جسيمة كأعمال الإرهاب والاعتداء في بلاد الآخرين بغرض الانتقام أو لفت النظر ، مع تجنب إغضاب الدول الكبرى — والدولتين العظميين بصورة خاصة — فإن معاداة هذه الدول لا تأتي بخير ، وشيئاً فشيئاً ، ومع الصبر والتدبير واتحاد كلمة الفلسطينيين جميعاً تسير القضية في طريق السلامة ، وهنا تتفتح الظروف والإمكانيات .

وترجع محاولات الصهيونية إقامة وطن لليهود في فلسطين إلى أواخر القرن الماضي عندما بعثت القومية الصهيونية في أوروبا والولايات المتحدة ، وتجمع لدى اليهود من الأموال هناك ما يمكنهم من تمويل الحركة ، مستعينين في ذلك بصداقاتهم الكثيرة التي أنشئوها في الغرب . وفي أيام تيودور هرتسل بدءوا التسلل إلى فلسطين ، ولكن السلطان عبد الحميد رفض ذلك فاتجهوا إلى انجلترا ، وانتفعوا بتحالف نفر من العرب مع بريطانيا ضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى ، مؤملين أن يعاونهم الحلفاء على بناء دولة عربية على أنقاض الدولة العثمانية ، أي أنهم كانوا يحاولون نفس الشيء الذي كان اليهود يسعون إليه مع اختلاف شاسع في الخط الفكري والأساليب ، وكانت هزيمة الدولة العثمانية دون أن يكسب العرب شيئاً ، لأن المعاونة التي قدمها اليهود إلى بريطانيا كانت كبيرة وفعالة ، وبينما كان الحلفاء يعرضون على أولئك العرب أوهاماً على ورق ، تمثلت في معاهدة سايكس بيكو سنة ١٩١٨ م أصدر وزير خارجية بريطانيا اللورد بلفور في ٢ سبتمبر ١٩١٧ م تصريحه المشهور بموافقة بريطانيا على قيام وطن يهودي في فلسطين . ولم يكن اليهود في حاجة إلى أكثر من هذا التصريح في ذلك الوقت ، لأنه فتح الباب للهجرة الصهيونية ، ولم تكد انجلترا تحصل على الانتداب على فلسطين حتى عينت هربرت صموئيل مندوباً لها ، وبدأ التنفيذ بإنشاء المستعمرات ، والاستيلاء على الأراضي بناء على تخطيط مدروس محكم ، ينتهي بأرض فلسطين إلى أن تكون ملكاً لليهود (فبراير ١٩١٩ م) . وبدأ الصراع المسلح بين العرب الفلسطينيين واليهود على أرض فلسطين ، وهو صراع كان محكوماً فيه على العرب بالفشل منذ البداية . فقد اعتمدوا على حقهم في الأرض ، والحق وحده لا يقف أمام القوة ، واعتمدوا على البلدان العربية ، وكان كل بلد عربي مشغولاً بهمومه ومصيره ، هذا إلى قلة الكفاية ، والجهل بشئون السياسة الدولية . وبينما وقفت الإدارة الإنجليزية في فلسطين إلى جانب اليهود ، وسلمتهم الشرطة والجمارك ، ويسرت لهم الحصول على أرض واسعة ، وتحويلها إلى مستعمرات زراعية ، ومراكز عسكرية — اضطرب أمر الفلسطينيين بين كثرة زعمائهم وعجز البلاد العربية عن العمل الإيجابي السليم لمعاونتهم

وتدخلت الحكومة الإنجليزية ، وأنشأت اللجان للبحث في تقسيم أرض فلسطين بين العرب واليهود ، هذا مع استمرار الصراع الدموي بين الجانبين ، وهو صراع خسره الفلسطينيون في معظم مراحله .

وقد تعددت اللجان البريطانية ، ولجان عصبة الأمم التي وضعت مشروعات التقسيم ، ورفضها الفلسطينيون كلها ، محتجين على أن الأرض أرضهم ، ولا سبيل إلى التنازل عن جزء منها ، وشجعهم على ذلك الحكام العرب الذين ظلوا بعيدين عن السياسة والواقع حتى بعد إنشاء الجامعة العربية . وبعد الحرب العالمية الثانية انتفع اليهود انتفاعاً واسعاً بما جرى لهم على يد النازيين ، وجعلوا أوروبا وأمريكا مسئولتين عن تعويضهم . وحاولت بريطانيا — ظاهرياً في الغالب — إيقاف الهجرة أو حدها ، والحد كذلك من إنشاء المستعمرات والقواعد العسكرية ، وانتهت الثورة التي قامت في فلسطين سنة ١٩٣٦ م إلى لاشيء وخسر العرب معظم المعارك .

وفي سنة ١٩٤٧ م وضعت الأمم المتحدة مشروعاً لتقسيم فلسطين يعطي كلاً من العرب واليهود نصف فلسطين مع تدويل القدس ، وقد أيدت الولايات المتحدة (والصهيونية العالمية ضمناً) هذا التقسيم ، ولكن الفلسطينيين رفضوه معتمدين على إخوانهم العرب ، وكانت النتيجة أن ضاع الجزء الذي كان سيؤول إلى الفلسطينيين بمقتضى هذا التقسيم ، لأن إسرائيل بعد أن بنت لنفسها قوة عسكرية تفوق كل ماسواها في المنطقة ، واطمأنت إلى أن الولايات المتحدة تلبي مطالبها المالية والعسكرية بلا تردد ، مضت تستولي على كل ماتيسر لها الاستيلاء عليه من الأراضي ، واستعدت استعداداً تاماً للاستيلاء بالقوة على أكثر مانستطيع الاستيلاء عليه من أراضي فلسطين عندما تنسحب انجلترا من البلاد عند نهاية الانتداب بعد عشرين سنة من بدئه ، واجتهد اليهود في إرغام انجلترا على تنفيذ الانسحاب من فلسطين بعد الجلاء فأعلنت جماعاتهم الإرهابية حربا على الإنجليز ، ومضوا يقتلون من يستطيعون قتله منهم .

وقد حدث هذا بالفعل في ١٥ مايو ١٩٤٨ م حيث انتهت مدة الانتداب رسمياً ، إذ أعلنت بريطانيا انسحابها ، كما أعلن اليهود دولة إسرائيل في منتصف الليل ، واعترفت أمريكا وروسيا بها خلال الدقائق الأولى من إعلانها ، وأعلنت الجيوش العربية توغل في أرض فلسطين لتحافظ لأهلها عليها ، ولكن القوات العربية كانت تعمل بلا خطة ولا تنسيق عمل ، فكانت النتيجة أن إسرائيل ثبتت نفسها في الأراضي التي كانت قد أعلنت نفسها فيها (كفر سابا وتل أبيب ويافا وريشون لزيون ورحبوت واللد واللطرون والقدس وكفار عصيون) ثم وقعت هدنة بين اليهود والعرب ، ثم عادت الحرب عندما حصل اليهود على

الطائرات والعتاد الثقيل ، وفى أوائل سنة ١٩٤٩ م توقف إطلاق النار بين العرب واليهود ، بعد أن وصلت حدود الأراضى التى تسيطر عليها إسرائيل عند الخطوط المبينة على الخريطة الأولى من خرائط فلسطين فى هذا الأطلس ، وقد بينا مراحل تكونها .

وقد اتبعت إسرائيل أبشع وسائل العدوان والإرهاب مع سكان المناطق التى استولت عليها ، فاضطر من استطاع منهم إلى الفرار بعيدا عن المناطق الإسرائيلية والإقامة فى مخيمات لاجئين ، وبدأت مأساة اللاجئين الفلسطينيين ، بل اجتهدت إسرائيل – عن طريق دعاية واسعة – تقوم أساساً على الكذب – فى تحويل قضية فلسطين إلى قضية لاجئين ، بل ذهب رجالها إلى القول بأنه لا يوجد – ولم يوجد قط – شعب عرقى يسمى شعب فلسطين ، وأرض فلسطين نفسها أصبحت إسرائيل .

وفى خريطة من خرائط هذا الفصل بينا فلسطين وماصارت إليه أرضها تحت الاحتلال الإسرائيلى عام ١٩٤٨ إلى حرب يونيو ١٩٦٧ م .

وفى خريطة أخرى بينا إسرائيل المحتلة كما كانت ترسم نفسها فى الخرائط داخل بلادها وخارجها قبل حرب يونيو ١٩٦٧ م .

ومن الناحية الواقعية لم تسكن الحرب قط بين العرب وإسرائيل حتى نهاية حرب سنة ١٩٧٣ م عندما قامت مصر وسورية بحرب ناجحة ضد إسرائيل التى كانت قد استولت على الضفة الغربية وأخذت تحاول جعلها أرضاً إسرائيلية بأساليب كلها بعيدة عن القانون والإنسانية وأساليب الحضارة ، فهى تزعم أن الفلسطينيين لا حق لهم فى الأراضى التى يعيشون عليها ، وأنهم مجرد لاجئين على الأرض التى كانت من ألوف السنين أرضهم وأرض أجدادهم ، وتكتبا اليوم بقوة السلاح وسوء توجيه التاريخ أرض إسرائيل ، والقدس ليست القدس أصلاً فى زعمها ، بل أورشليم ، والمسلمون الذين يعتبرون القدس قدساً من أقداسهم وفيها المسجد الأقصى الوارد ذكره فى القرآن ، وهو ثالث أقداس المسلمين – لم يعد لهم الحق فى دخوله إلا كما يدخل السائح أو الزائر الغريب .

وقد قامت مصر بعد أربعة حروب طاحنة (١٩٤٨ م – ١٩٥٦ م – ١٩٦٧ م – ١٩٧٣ م) بتوقيع معاهدة سلام مع إسرائيل اعترف كل منهما فيها بحدود رسمية للآخر .

وفى يونيو ١٩٦٧ م وقعت الحرب الثالثة بين العرب وإسرائيل ، وخرجت منها إسرائيل منتصرة ، واستولت على قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء ، وزعمت أن لها حقا فى قناة السويس واستولت من سورية على مرتفعات الجولان ، ومن الأردن على القدس العربية وما بقى من أرض فلسطين ، وسيطرت إسرائيل على المنطقة وبدت الأمور مظلمة جداً للعرب .

ولكن مصر وسورية حاولتا انقاذ الموقف بحرب أكتوبر ١٩٧٣ م وقد تمكنت بعدها مصر من استعادة سيناء ولكن سورية لم تستطع استعادة الجولان ، وظلت القدس كلها والضفة الغربية وقطاع غزة تحت سيادة إسرائيل .

مدينة القدس بأقسامها

والقدس مدينة عربية قبل الفتح العربى بزمن طويل ، فقد كانت الغالبية العظمى من سكانها عربية ، وهى من بلاد غسان قبل أن تدخل فى دولة الإسلام . وإسرائيل تحاول طمس معالمها ، وتحويلها إلى مدينة إسرائيلية – بل عاصمة إسرائيل – بكل وسائل العدوان التاريخى والثقافى ، بما فى ذلك العدوان على المقدسات وإفساد هيئتها بالمنشآت الحديثة حولها .

ورغم كل ماتزعمه إسرائيل من ثبات مركزها فى المنطقة فإن الموقف لايزال خطرا ، والحرب بين إسرائيل والعرب من الصعب تصور انتهائها . والشعب الفلسطينى رغم إنكار إسرائيل لوجوده مازال موجوداً وقويا ومتمسكاً بأرضه وحقيقته ، وفى هذه الناحية لايختلف عرب الضفة وقطاع غزة الخاضعين للسلطان العسكرى الإسرائيلى عن الفلسطينيين المنتشرين فى نواحى العالم العربى وبقية نواحى العالم . وهم لايتزحزحون عن موقفهم هذا مهما فعلت إسرائيل . ومادامو متمسكين بحقهم فلن تغير إسرائيل من الواقع شيئاً ، ففى يوم من الأيام ستعود فلسطين إلى أرضها وأهلها لأن السلاح والضغط لايطفئان شعباً قوياً متعلماً واعيا مثل الشعب الفلسطينى ، فهو داخل الأرض المحتلة وخارجها يزداد مع الأيام قوة وتزداد الدنيا اقتناعاً بحقه فى أرضه .

ومنذ قامت دولة إسرائيل انقلبت هذه المنطقة كلها انقلاباً تاماً ، فأصبحت أرض حروب متصلة ، واندفع الشعب الفلسطينى وأنصاره من العرب فى محاولات عزيزة لإثبات الحق ولفت أنظار الدنيا . وماكان الشعب العربى فى يوم من الأيام بشعب إرهاب أو اغتيالات ، ولكن العدوان يولد العدوان ، والشر يجلب الشر ، والمحروم من حقه المطرود من أرضه الذى يعامل معاملة دون مستوى البشر يخرج عن خلقه الذى عرف عنه .

وقد اندفعت إسرائيل إلى القيام بأعمال عدوانية لم تأتها بخير ، مثل غزو لبنان فى سنة ١٩٨٢ م ثم الانسحاب من جانب منها والاحتفاظ بما تسميه شريط أمان تحميه قوة لبنانية خادمة لمصالح إسرائيل تسمى جيش لبنان الجنوبى ، ومأساة لبنان نفسها مأساة استعمارية قديمة ، فقد خلقها الاستعمار الفرنسى وأقام لبنان على أساس غير سليم ، فلما وقعت مأساة فلسطين تفجرت الأوضاع فى لبنان وبخاصة منذ سنة ١٩٧٥ م . ومعظم أحوال المنطقة كلها فى قلق إلى أن تعود الأمور إلى نصابها ويستعيد شعب فلسطين أرضه ومكانته بين الأمم .

المسلمون فى العالم ومنظمة المؤتمر الإسلامى وجامعة الدول العربية

فى سنة ١٩٨٤ م أصدرت دار ا . ج بريل فى لايدن بهولاندا خريطة عن انتشار المسلمين فى العالم ، ورغم شكنا فى صحة تقديرات أعداد المسلمين الواردة فى كثير من بلدان العالم فى هذه الخريطة إلا أننا سنذكر الرقم الإجمالى لأعداد المسلمين الواردة فيها ثم نناقشها فيما بعد . وفى الكتيب الذى أرفق بهذه الخريطة شرح لتفاصيلها ، يقولون إن مجموع أعداد المسلمين فى الدنيا يبلغ ٨٠٥,٢٨٦,١٥٠ نسمة وحيث إن العدد الكلى للبشر على وجه الأرض يبلغ ٤,٤٨٠,٩٠٧,٠٠٠ نسمة فإن نسبة المسلمين بين سكانها تبلغ ١٧,٩٧٪ أى أن المسلمين يمثلون أقل من خمس سكان العالم .

وهذه النسبة قليلة بالنسبة لما ينبغى أن يكون عليه عدد سكان المسلمين ، لأننا إذا ذكرنا أن الإسلام يطلب من المسلمين أن يجاهدوا فى سبيل تبليغ الإسلام إلى كل ناحية من النواحى بين القطبين ، وتعريف الناس به حتى يدخل فيه من يفتح الله قلبه للإيمان – تبينا أن غالبية أهل الأرض كان ينبغى أن تكون اليوم على الإسلام ، لأن الإسلام واضح وقريب من القلوب ، وماعرفه إنسان حق المعرفة إلا اعتنقه ، وقد انتشر بهذه الفضائل انتشاراً يدعو إلى الدهشة فى شتى العصور فى كل الأقطار التى وصل إليها فى صورة صحيحة ولم يصادف فيها مقاومة نشيطة منظمة يقوم بها رجال أديان أخرى يعملون بنظام على تشويه صورته والعمل على مقاومة تقدمه . وفى العالم إلى يومنا هذا أقطار واسعة يمكن أن ينتشر فيها الإسلام إذا كان نشر الإسلام يقوم على خطط سليمة وتشرف على ذلك هيئات ومنظمات قادرة على تعريف الناس به التعريف الصحيح . حقاً إنه توجد اليوم منظمات بالغة الكفاية تتولى هذه المهمة بنجاح ولكنها قليلة ، والوسائل التى تحت يدها ليست كافية رغم ضخامتها ، لأن القوى المعارضة لانتشار الإسلام كثيرة ومنظمة تشرف عليها دول كبيرة وغنية ، وهناك دولة دينية غنية هى الفاتيكان وظيفتها توسيع نطاق الكاثوليكية فى الدنيا ، ومن بين القواعد الرئيسية فى سياستها مقاومة الإسلام بالذات ، ونحن نعيش فى عصر أصبح كل شىء فيه سياسة : العلم والتجارة والصناعة والزراعة والدين سياسة ، وليست هناك دولة غربية متقدمة إلا تنفق الأموال الضخمة على مقاومة الإسلام وإيقاف توسعه . واتحاد الكنائس العالمى يبذل أقصى مجهوده فى مقاومة الإسلام ، أما البلاد الشيوعية التى تنكر الأديان وتحاربها فكلها تتخذ موقفاً بصورة واضحة من الإسلام حتى إنه ليصعب علينا تماماً معرفة أعداد المسلمين فيها لأنها تتبع فى إطار معاداتها للأديان سياسة عداء بالغ للإسلام ، وهذا العداء نابع من تخوفها من الإسلام ، لأن الشيوعية غلبت المسيحية فى بلاد كثيرة ولكنها لم تغلب الإسلام فى أى بلد ، ويخطىء من يزعم أن اليمن الجنوبى دولة شيوعية . لأن الشيوعية هنا مظهر من مظاهر التناحر السياسى بين المتنازعين على السلطان . أما الشعب اليمنى الجنوبى فمسلم بلا شك ، ولكن الصراع السياسى اضطر جانباً كبيراً من اليمنيين المخلصين إلى الهجرة إلى بلاد أكثر استقراراً يأمنون فيها على دينهم وأنفسهم وأموالهم .

وسنورد فيما بعد بياناً تفصيلياً عن أعداد المسلمين فى كل ناحية وبلد من بلاد الدنيا ، وهذه الإحصائيات شرح وتفصيل لخريطة انتشار الإسلام فى العالم المعاصر التى نوردها هنا . ونحن هنا لانلقى بالاً إلى مايزعمه أعداء الإسلام من القول بأن عالم الإسلام ينقسم إلى سنة وشيعة ، لأن هذا القول مبالغ فيه لأغراض سياسية ، لأن الشيعة يؤمنون بعقيدة الإسلام وشريعته وعباداته ويقدسون القرآن الكريم ، ولايختلفون عن أهل السنة ، ثم الخلافات بعد ذلك على موضوعات خارجة عن أصل العقيدة وأساسيات الدين .

وسأورد فيما يلى بياناً موجزاً عن أعداد المسلمين فى شتى نواحى العالم معتمداً على البيانات التى أعدتها من المؤتمر الإسلامى ورابطة العالم الإسلامى فى جدة ، ومعتمد كذلك على البيانات الواردة فى الكتيب الملحق بخريطة انتشار المسلمين فى العالم التى نشرها مركز الدراسات العليا حول إفريقية وآسيا الحديثتين بباريس بإشراف الأستاذ ركون دلفاك الباحث فى ذلك المركز ونشرتها دار ا . ج . بريل فى لايدن بهولندا ، وقد ورد فى ذلك الكتيب أن الذين قاموا بتحرير خريطة انتشار الإسلام فى العالم وتحرير الكتيب اعتمدوا على كل المراجع التى نشرت فى أوروبا وأمريكا عن انتشار الإسلام فى العالم .

وقد عدلنا الكثير من الأرقام الواردة فى بيانات تلك الخريطة وكتيبها لأننا تبينا أنها محرفة تحريفاً مقصوداً لأغراض سياسية واقتصادية ، وفى تلك الخريطة الفرنسية بيانات عن أعداد المسلمين فى كل بلد من بلاد العالم ، ونحن لانستطيع إيراد بياناتها هنا فهى موسعة جداً وربما كان من الضرورى تأليف كتاب خاص بهذا الموضوع .

توزيع المسلمين فى العالم

أولاً : الشرق الأوسط		١٤٧,٧٦١,٠٠٠
ثانياً : أوروبـــا		
أوروبا الشمالية	٤٧,٨٥٠	
أوروبا الغربية	٥,٧٨٩,٦٠٠	
أوروبا الشرقية	٦,٠٧٠,١٠٠	
المجموع		١١,٩٠٧,٥٥٠
ثالثاً : الاتحاد السوفيتى		٤٤,٢٣٦,٠٠٠
رابعاً : إفريقيـة .		
إفريقية الشمالية	٨٧,٧٧٨,٠٠٠	
إفريقية الغربية	٧٢,١٢١,٠٠٠	
إفريقية الوسطى	٤,٠٥٠,٤٠	
إفريقية الشرقية الشمالية	٢٩,٩٤٥,٠٠٠	
إفريقية الشرقية	١١,٢٠٦,٠٠٠	
إفريقية الجنوبية	٥٠٧,٥٦٠	
جزر المحيط الهندى	٦٦٨,١٥٠	
المجموع		٢٠٦,٢٧٦,١١٠
خامساً : آسيا وأوقيانوسيا (المحيط الهادى) .		
آسيا الجنوبية	٢٤٢,٧٧٤,٠٠٠	
آسيا الشرقية الجنوبية	١٣٣,٠٩٥,٠٠٠	
آسيا شرقية	١٦,٠١٠,٧٠٠	
[illegible]	٢٧٨,٥٠٠	
المجموع		٣٩٢,١٥٨,٢٠٠

سادساً : أمريكــا .

أمريكـا الشماليـة	٢,١١٠,٠٠٠
أمريكـا الوسطـى	٧,٢٥٠
جـزر الأنتيـل	٩٠,٥٤٠
أمريكـا الجنوبيـة	٧٣٩,٥٠٠
المجمـوع	٢,٩٤٧,٢٩٠
المجموع العام	٨٠٥,٢٨٦,١٥٠

بما أن مجموع سكان الكرة الأرضية يقدر بـ ٤,٤٨٠,٩٠٧,٠٠٠ نسمة فإن المسلمين يمثلون ١٧,٩٧٪ من سكان العالم .

وهذه كلها تقديرات غربية . أقل من الحقيقة بنسبة كبيرة ، ويمكننا أن نقول عن ثقة إن عدد المسلمين فى الدنيا يمثل أكثر بقليل من ٢٠٪ من سكان الدنيا ، أى أننا نجد مسلماً من بين كل خمسة من غير المسلمين . وهى نسبة أقل بكثير مما كان ينبغى أن تكون عليه نسبة المسلمين فى الدنيا ، ولكن العوامل التى تحارب الإسلام فى إفريقية وآسيا كثيرة جداً ، وقوية جداً ، والاتحاد السوفيتى لايقل عنفاً فى حرب الإسلام داخل جمهورياته وخارجها عن الفاتيكان ودول الغرب ، وأسباب ذلك العداء تاريخية ، وهناك كذلك عوامل حديثة ،ولكن الإسلام رغم ظروف دوله قوى وغلاب ودائم الانتشار بقواه وفضائله الذاتية .

منظمة المؤتمر الإسلامى .

هذه المنظمة الإسلامية التى تقوم اليوم بدور حيوى فى خدمة الإسلام وأهله فى شتى بقاع الأرض وتخدم الجماعات الإسلامية فى كل ميادين النهوض والحضارة مأثرة خالدة من مآثر الملك المصلح العظيم فيصل بن عبد العزيز آل سعود الذى يعتبر بحق واحداً من رجال الصف الأول من زعماء الإسلام فى العصر الحديث . فقد كانت فكرة إنشاء منظمة حضارية تجمع بلاد الإسلام وجماعاته لتكون رباطاً يجمع كل مسلمى الأرض ويوجه جهودهم فى شتى الميادين ويحميهم من التطورات الشريرة الناتجة عن السياسات المعادية للإسلام – وقد أشرنا إليها – كانت هذه الفكرة تخطر على بال كل مسلم ، وكان قادة أمة الإسلام يعقدون مؤتمرات إسلامية يتذاكرون فيها أحوال الأمة الإسلامية ، فلما كانت الدورة السابقة التى اجتمعت فى عمان سنة ١٣٧٨هـ/ ١٩٦٧ م دعا الملك فيصل إلى عقد مؤتمر قمة إسلامى للنظر فى إنقاذ فلسطين من الخطر الصهيونى الذى بلغ مبلغ الخطورة على عالم الإسلام كله فى صيف ذلك العام والنظر كذلك فى كيفية استعادة القدس الشريف من الاحتلال الصهيونى الذى استولى على القدس الشرقية على أثر حرب يونيو ١٩٦٧ م .

وعقب ذلك وقع حادث محاولة إحراق المسجد الأقصى يوم ٢١ أغسطس ١٩٦٩ م على يد عناصر صهيونية ، فرأى المسلمون بأعينهم أن إنشاء المنظمة الإسلامية التى دعا إليها الملك فيصل أصبح ضرورة إسلامية لابد منها . وعندما انعقد مؤتمر القمة الإسلامى الأول فى الرباط فى المغرب الأقصى فى رجب ١٣٨٩ هـ / سبتمبر ١٩٦٩ م دعا الملك الحسن الثانى ملك المغرب – وكان هو الداعى لعقد ذلك المؤتمر – إلى ضرورة تحقيق فكرة إنشاء المنظمة الإسلامية ، ووافق رجال المؤتمر على ذلك وصدر بها بيان .

وفى محرم ١٣٩٠ هـ / مارس ١٩٧٠ م عقدت دورة لوزراء خارجية الدول الإسلامية فى مدينة جدة وتقرر فيها رسمياً إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامى ، وفى الدورة الثالثة لوزراء الخارجية تمت الموافقة على ميثاق المنظمة فى مدينة جدة فى شهر محرم ١٣٩٢ هـ / فبراير – مارس ١٩٧٢ م فى اجتماع وزراء خارجية الدول الإسلامية .

وفى مؤتمر القمة الإسلامية الثانى المنعقد فى لاهور بباكستان فى المحرم – صفر ١٣٩٤ هـ / فبراير ١٩٧٤ م اتخذت قرارات سياسية واقتصادية هامة منها قرار إنشاء صندوق التضامن الإسلامى وغرضه تمويل أوجه النشاط الثقافية والروحية والاجتماعية لمنظمة المؤتمر الإسلامى ، ونشر الدعوة الإسلامية ، وتشجيع البحث العلمى ، ودعم صمود الشعب الفلسطينى فى القدس الشريف والأراضى الفلسطينية المحتلة . وفى اجتماع مؤتمر قمة تال أنشىء البنك الإسلامى للتنمية ، ومهمة هذا البنك تلبية احتياجات الدول الأعضاء فى المنظمة فى مجالات التجارة والصناعة وتشجيع التبادل التجارى بينها ، وتكونت كذلك مؤسسات اقتصادية متخصصة لدعم التعاون بين الدول الإسلامية وإنشاء المراكز الثقافية الإسلامية وتدعيمها فى العالم ورعاية الجماعات الإسلامية ثقافياً فى جميع أرجاء المعمورة ، وأنشئت كذلك وكالة أنباء إسلامية ومنظمة إذاعات الدول الإسلامية .

وميثاق المؤتمر الإسلامى يحدد الأهداف والمبادىء التى تسعى دول المؤتمر إلى تحقيقها وهى :

الأهــداف والمبــادىء

(أ) الأهــداف .

تتمثل أهداف المؤتمر الإسلامى فيما يلى :

(١) تعزيز التضامن الإسلامى بين الدول الأعضاء .

(٢) دعم التعاون بين الدول الأعضاء فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية وفى المجالات الحيوية الأخرى . والتشاور بين الدول الأعضاء فى المنظمات الدولية .

(٣) العمل على محو التفرقة العنصرية ، والقضاء على الاستعمار فى جميع أشكاله .

(٤) اتخاذ التدابير اللازمة لدعم السلام والأمن الدوليين القائمين على العدل .

(٥) تنسيق العمل من أجل الحفاظ على سلامة الأماكن المقدسة وتحريرها ودعم كفاح الشعب الفلسطينى . ومساعدته على استرجاع حقوقه وتحرير أراضيه .

(٦) دعم كفاح جميع الشعوب الإسلامية فى سبيل المحافظة على كرامتها واستقلالها وحقوقها الوطنية .

(٧) إيجاد المناخ لتعزيز التعاون والتفاهم بين الدول الأعضاء والدول الأخرى .

(ب) المبــادىء .

تقرر الدول الأعضاء وتتعهد بأنها فى سبيل تحقيق أهداف الميثاق تستوحى المبادىء التالية :

(١) المساواة التامة بين الدول الأعضاء .

(٢) احترام حق تقرير المصير وعدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأعضاء .

(٣) احترام سيادة واستقلال ووحدة أراضى كل دولة عضو .

(٤) حل ماقد ينشأ من منازعات فيما بينها بحلول سلمية كالمفاوضة أو الوساطة أو التوفيق أو التحكيم .

(٥) امتناع الدول الأعضاء فى علاقاتها عن استخدام القوة أو التهديد باستعمالها ضد وحدة وسلامة الأراضى أو الاستقلال السياسى لأية دولة عضو .

أما الأعضاء فهم على وجه التحديد كل الدول ذات الأغلبية الإسلامية ، وكذلك معظم الدول التى يكون للمسلمون أقلية ذات شأن بين سكانها ، ويبلغ عدد أعضاء المنظمة ثلاثة وأربعين دولة من بينها فلســطين .

جامعة الدول العربية .

يكون العرب نواة الأمة الإسلامية لأن بلادهم هى مهد الإسلام ولغتهم هى لغة القرآن ، وهم ورثة التراث الإسلامى الفكرى المجيد ومعظمه محرر باللغة العربية ، ثم إن بلادهم تكون كتلة جغرافية متراصة من مجرى نهر دجلة إلى المحيط الأطلسى ، وهم يحتلون منطقة من أهم مناطق الأرض من الناحية الاستراتيجية والتجارية ، ولو أنهم استطاعوا أن يفيدوا من كتلتهم المتراصة ومن موقعهم الجغرافى لكانوا قوة من قوى الأرض الكبرى ، وهذا هو السبب فى اجتهاد الدول الكبرى فى خلق العقبات التى تحول بين العرب والإفادة من خصائصهم الفريدة . وحتى وجود إسرائيل فى قلب المنطقة العربية وتقويتها وتزويدها بالسلاح يمكن اعتباره وسيلة من وسائل التفريق بين العرب وإضعافهم .

وإنشاء الجامعة العربية يرجع إلى رغبة الدول العربية المستقلة فى أوائل الأربعينات فى الترابط لكى تستطيع حماية مصالحها ومعاونة الدول العربية الباقية تحت الاحتلال ، وهى نزعة وجدت منها بريطانيا وسيلة للسيطرة على العرب ، وقد أعلن المستر أنطونى إيدن وزير الخارجية البريطانية فى سنة ١٩٤١ م أن بريطانيا تشجع الدول العربية على الترابط والاتحاد .

وبدأت الدول العربية فى التفاوض بشأن إنشاء اتحاد أو ائتلاف عربى خلال سنة ١٩٤٤ م ، واجتمع ممثلو مصر والعراق وإمارة شرق الأردن والسعودية واليمن وسوريا ولبنان ، وتشاوروا فى شأن هذه الرابطة العربية التى انتهوا إلى تسميتها بجامعة الدول العربية ، وانتهوا إلى اتفاق مبدئى تم التصديق عليه فى مدينة الإسكندرية سنة ١٩٤٥ م وسمى ببروتوكول الإسكندرية . وعلى أساس هذا الميثاق قامت الجامعة العربية ، ثم انضمت السودان إليها سنة ١٩٥٦ م ثم المملكة المغربية وتونس سنة ١٩٥٨ م ثم الجزائر بعد استقلالها سنة ١٩٦٢ م ثم جمهورية اليمن الشعبية سنة ١٩٦٨ م وتوالى انضمام الدول العربية حتى ضمت كل الدول العربية بما فيها الصومال وجيبوتى وموريتانيا . وتقرر اتخاذ القاهرة مقراً لها وفيها كانت سكرتاريتها العامة .

وأهداف الجامعة العربية كما هى مبينة فى ميثاقها تندرج تحت أربع نقط هى :

(١) توثيق الصلات بين الدول الأعضاء .

(٢) تنسيق خططها السياسية من أجل تحقيق التعاون بينها .

(٣) المحافظة على استقلال الدول الأعضاء .

(٤) التعاون بين هذه الدول فى الشئون الاقتصادية والمالية والمواصلات وشئون الثقافة والشئون الاجتماعية والصحية .

وأنشىء للجامعة مجلس مكون من رؤساء الدول المكونة لها ، وتقرر أن يجتمع ذلك المجلس مرتين فى السنة على الأقل خلال شهرى مايو وأكتوبر ، وينعقد المجلس كذلك إذا طلبت ذلك دولتان من دول الجامعة . وقد تقرر أن تكون القرارات الإجماعية ملزمة لكل دول الجامعة ، أما مايتقرر بالأغلبية فغير ملزم .

وقد أرفق بميثاق الجامعة ملحق خاص بفلسطين يعتبرها دولة مستقلة ، ويلزم الجامعة بالسعى إلى تحقيق استقلال فلسطين بالتعاون الإيجابى مع ممثل الشعب الفلسطينى .

وللجامعة العربية لجان فنية دائمة لدراسة الموضوعات الفنية المختلفة التى تعرض على مجلسها ، وتقوم هذه اللجان أيضاً بتنفيذ قرارات المجلس ، ولها كذلك منظمات فرعية متخصصة للاقتصاد والشئون الاجتماعية ، ولكن أهم منظماتها المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ، وهى منظمة ضخمة منشأة على نظام مؤسسة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة وتتبعها إدارات خاصة لهم الأمية ونشر المخطوط ومائل ذلك .

وعقب توقيع مصر معاهدة السلام مع إسرائيل عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ م قطعت الدول العربية علاقاتها الدبلوماسية مع مصر ، ونتيجة لذلك علقت علاقات مصر السياسية مع دول الجامعة ، وسحبت معظم الدول العربية سفاراتها من مصر ، وانتقلت الجامعة العربية إلى تونس ، ووزعت منظماتها على البلاد العربية كلها - عدا أمانة الجامعة التى تتولاها تونس - وهى تعمل بصورة عادية ، والجامعة من الناحية الدولية معترف بها منظمة إقليمية ، ولها مركز دولى كبير .

المراجع

فيشـــر — تاريخ أوروبا في العصور الحديثة ترجمة الأستاذين أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع الطبعة السادسة سنة ١٩٥٠ م ، القاهرة

تاريخ العرب الحديث والعالم — تأليف نخبة من الأساتذة الجزائريين . الجزائر

الجبرتـــي — عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، طبعة بولاق ٤ أجزاء ، ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٤ م .

عبد الرحمن الرافعي — تاريخ الحركة القومية المصرية ، ٨ أجزاء ، طبعة دار المعارف .

عبد العظيم رمضان — تطور الحركة الوطنية في مصر من ١٩١٨ م إلى ١٩٣٦ م . الطبعة الثانية القاهرة ١٩٨٣ م .

ابن غلبون الطرابلسي — التذكار فيمن ملك طرابلس وماكان بها من الأخبار . القاهرة ١٣١٩ هـ .

أحمد النائب الأنصاري — كتاب المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب . جزءان . استانبول ١٣١٧ هـ .

طاهر أحمد الزاوي — عمر المختار . الحلقة الأخيرة من الجهاد والوطن في طرابلس . القاهرة ١٣٥٠ هـ .

محمد فؤاد شكري — السنوسية دين ودولة ، القاهرة ١٩٤٨ م .

د. حسن سليمان محمود — ليبيا بين الماضي والحاضر . مجموعة الألف كتاب . القاهرة ١٩٦٢ م .

Walter Laqueur (ed), The Arab Israeli Leader . London, 1970 .

في آخر هذا الكتاب قائمة بمختار مما نشر في اللغات الأوروبية عن فلسطين والقضية الفلسطينية وإسرائيل ، أما المراجع العربية فكثيرة جداً ، لأن القضية من أكثر مايشغل بال العرب في عصرنا . ولهذا كثرت الكتب والمؤلفات ، ولكن أحسن مانشر بالعربية صدر عن مركز الدراسات الفلسطينية في بيروت . والقارىء يجد في سلسلة منشورات المركز كل ماهو بحاجة إليه من دراسات علمية . وقد اعتمدت في هذه الدراسة والخرائط على تلك الكتب ، ولكني اعتمدت في الخرائط على كتاب — أطلس قيم نشرته منظمة الجامعة العربية للتربية والعلوم والثقافة .

J . Lowell , Ragats , A Bibliography for the study of African History in the Nineteenth and Twentieth Centuries , Washington 1945

E .F . Gantier , L'Afrique noure occidentale . Paris 1935 CH . André Julien , Histoire de L'Afrique du nord defis Languite L'occupation Française Paris L'afrique du nord en marche . paris 1957 .

Bertaux, Diene, L'Afrique de la Pre - Histoire à Epoque Contemporain Paris 1965

Eraziani , R., Verso il Fezzan - Tripoli 1930 .

Jean Despois , La Eolonis A Tien Italienne . Problemes et Methades . Paris 1935 .

Maugini , A., Tripolitania E cirenaica de Fson te al Probleme Della Eolonizune . Athi 111 .

Piccioli , La Nowelle Italia D'Oltremare 2 vols . Milano 1934 .

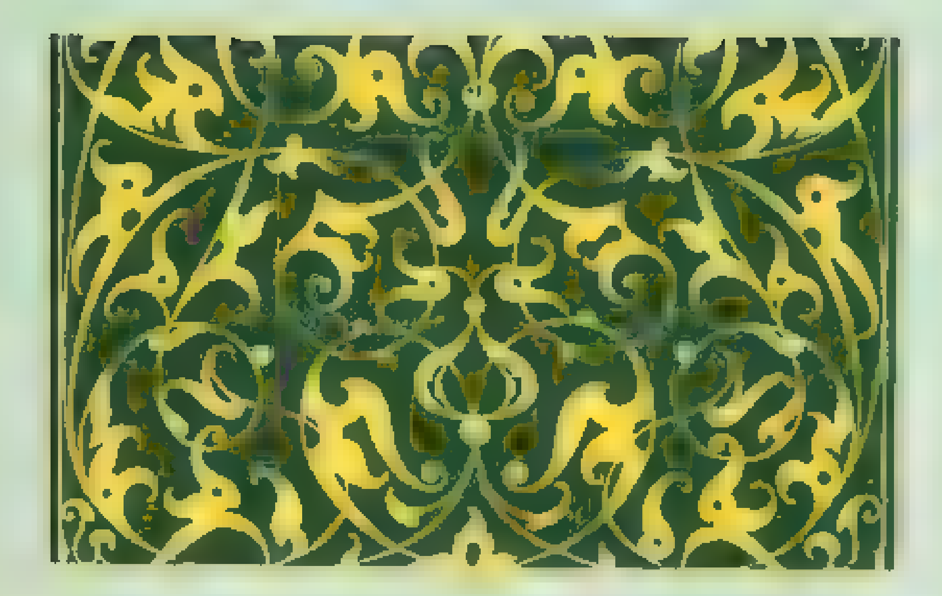

الفهرست

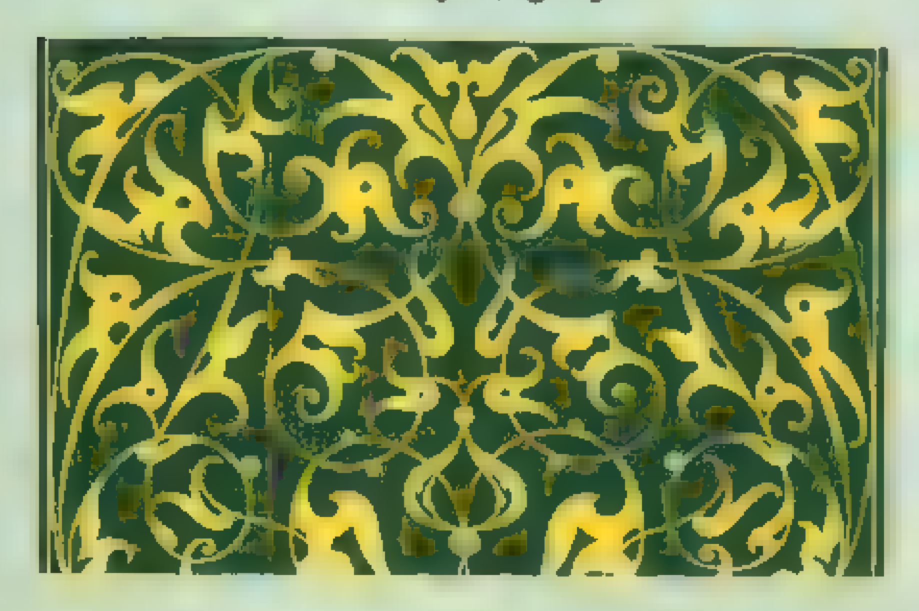

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالفهارس

هذه كلمات وجيزة اقتضاها ترتيب الفهارس ، لما تضمنه هذا الترتيب من قواعد قد لاتبدو واضحة جلية للقارىء والدارس ، لذا لزمت الإشارة إليها ، تيسيراً على الدارسين ، وتحقيقاً للإفادة منها ، والانتفاع بها ، وماالتوفيق إلا بالله

• • •

١ – (ابن) تحذف ألفها في الترتيب ، إذا وقعت في وسط الاسم أو آخره ، ولاتحسب إلا إذا وقعت في أوله

٢ – (أبي) التي ترد هكذا في نص الأطلس حسب إعرابها تحول في الفهرس إلى (أبو) مرفوعة ، حيث لايصح البدء بمجرور

٣ – إذا وردت بعض الأسماء برموز معينة مثل : ا.م. الرافعي مثلاً تحسب الرموز حسب ترتيبها كأنها من أصل الاسم

٤ – (أل) أداة التعريف لااعتداد بها مطلقاً ، ولاتحسب إلا في مثل لفظ : (الله أسـاد)

٥ – التاء المربوطة تعتبر (هاء) ؛ لذا تسبقها التاء المفتوحة ، فمثلاً : (دولت) تأتي في الترتيب قبل : (دولة)

٦ – الحرف المشدد هو حرفان متماثلان أدغم أحدهما في الآخر ، لذا يحسب حرفين فمثلاً : (دبق) تأتي في الترتيب قبل (دقّ) ، و (صيفيا) تأتي قبل (الصيوم) ، و (ابن الوليد) تأتي قبل (أمنحوت) وهكذا

٧ – في فهرس تضاريس الخرائط أسقطنا من الترتيب الرمز (ج) وكلمات جزيرة ، وجزر ، واعتبر الترتيب مبدوءاً باسم الجزيرة أو الجزر

٨ – كل مابين القوسين في أسماء الأعلام والأماكن هو لمجرد التعريف والتفسير ، ولايحسب مطلقاً في الترتيب

٩ – ماورد من الأرقام صفة لما قبله مكتوباً بالحروف لايعتد فيه بالترتيب الرقمي ، وإنما يكون الترتيب حسب ترتيب أحرف الهجاء ، فمثلاً (الثالث) يأتي في الترتيب قبل (الثاني) ، و (التاسع) قبل (الثامن) وهكذا

١٠ – المدّ فوق الألف (آ) هو حرفان صار الثاني فيهما مداً من جنس حركة الأول ، لذا يُعامل على أنه حرفان بدىء أولهما بالهمزة ، فمثلاً (آنة) تأتي في الترتيب قبل (أمّ) ؛ لأن الأول همزة فمد فنون ، أما الثاني فهو همزة فميم مشـددة

١١ – المضاف والمضاف إليه في الترتيب كالكلمة الواحدة ، وكذلك الصفة والموصوف حيث تُدرج في ترتيب الحروف كأنها كلمة واحدة ، فمثلاً (سليم الأول) تأتي في الترتيب قبل (سليم منصور) وهكذا

١٢ – الهمزة تسبق الألف في الترتيب ، فمثلاً (فؤاد) تأتي قبل (فاسكو)

١٣ – واو العطف في وسط الأسماء تحسب في الترتيب كأنها حرف من الحروف الأصلية في الأسماء

١٤ – وردت بعض أسماء نادرة جداً غير مرفوعة مثل : (الأمريكين) ، (الفرنجين) فأثبتناها في الفهارس كما هي لتكون مطابقة للأصل

عبد الحكيم عاطر
رئيس لجنة وضع فهارس أطلس تاريخ الإسلام

أعلام

« أ »

صفحة

(الباء)

« ت »

« ج »

« ح »

« س »

« ش »

« ص »

« غ »

« ف »

« ق »

أنساب

« أ »

صفحة

« ب »

« ت »

« ث »

مدن

(أ)

« غ »

« ف »

« ق »

« ك »

« ل »

« م »

تضاريس

(ب)

بحر

بحيرة

(ج)

جبل

جزيرة

« خ »

خليج

« ش »

شبه جزيرة

« م »

محيط

« ن »

نهر

« و »

وادى

مدن (خرائط)

« أ »

(ذ)

« ز »

« السين »

« ش »

« ض »

« ط »

« ظ »

« ع »

(غ)

« ف »

« ق »

« ل »

« ن »

(هـ)

تضاريس (خرائط)

« أ »

بئر

« ب »

بحر

بحيرة

(ج)

جبال

جزيرة

خليج

(م)

محيط

(ن)

نهر

(هـ)

هضبـــة

(و)

واحـــات

وادى

شكر واجب

خلال سنوات العمل الطويلة في هذا الأطلس أسعدني الحظ بمعونات كريمة من نفر من أفاضل أهل العلم ما بين أساتذة وطلاب ، ويسرني أن أقدم لهم الشكر بين يدي هذا العمل .

وأبدأ بشكر صاحب الفضل في تحريكي لهذا العمل ، لأن نفسي كانت تتوق إلى عمل هذا الأطلس منذ أيام الدراسة في باريس ، وهنا رأيت أن الأخ الأستاذ **أحمد الرومي** جدير بأن يكون أول من أشكره هنا ، وأشكر في نفس الوقت الأستاذ **محمد سعيد صباغ** الذي وقف معي في هذا العمل حتى أواخر السبعينات عندما تأثر عمله في النشر نتيجة للفتنة التي استعرت نيرانها في لبنان وحالت بينه وبين مواصلة عمله في النشر والأطالس وتوقف عن رعاية العمل

وأسعدني الحظ بأن يتولى الأخ الأستاذ **أحمد راتب** صاحب **دار الزهراء للإعلام العربي** تعهد هذا الأطلس وإحاطته بالعون المادي والمعنوي حتى تم نشره والحمد لله .

وهنا لابد من شكر السنيور **جيوفاني دي أغوسطيني** صاحب مؤسسة خرائط كارتوجرافيا في ميلانو بإيطاليا ، وإن كنا في المراجعات قد اضطررنا إلى إعادة عمل عشرات الخرائط ورسمنا في القاهرة عشرات أخرى .

وعاونني من طلابي السيد الدكتور **إحسان صدقي العمد** مدرس حالياً في قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الكويت ، وهذا الأخ الكريم كان تلميذي في الدراسات العليا ، ولكنه علم بالغيرة والطبع والخلق ، وقد ساعدني في عمل خرائط أبواب السيرة النبوية والفتوح الإسلامية الأولى ، وكذلك في كتابة نصوصها التي أعيدت كتابتها بعد ذلك مراراً ، ولم يبخل عليّ بأي معاونة علمية والاستفادة من مكتبته العامرة ، ولازمت أستعين به إلى المراحل الأخيرة من عمل ذلك الأطلس ، وأعانني كذلك من طلابي السيد العقيد السابق **عماد الهداوي** في عمل فصول من الأطلس مثل الجداول التاريخية والحروب الصليبية والهند وأوائل الدولة العثمانية .

وأشكر من إخواني العلماء السيد حمد الجاسر علامة الجزيرة الذي أعانني بعلمه في عمل فصل الجزيرة العربية وتحقيق مواقع الجزيرة العربية ، والسيد الدكتور **عبد العال الشامي** الأستاذ بقسم الجغرافية في كلية الآداب جامعة القاهرة ، فقد عاونني في خرائط الفصل الخاص بمصر وراجع معي بعض الخرائط .

وأشكر السيد الدكتور **أحمد شحاته** أستاذ الخرائط في معهد الدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة ، فقد أعاد رسم خطوط الكثير من الخرائط بعد أن رسمتها ، وأشكر كذلك السيد الأستاذ **محمد الرفاوي** الخرائطي بالمساحة العسكرية بالقاهرة فقد تفضل برسم خرائط كثيرة من الفصول الأخيرة في الأطلس .

وقد وجهت الشكر الخالص للأخ الأستاذ الكريم **أحمد راتب** صاحب **دار الزهراء للإعلام العربي** ناشرة الأطلس ، وهو عالم كاتب راجع كل خرائط الأطلس ونصوصه وأعانني بعلمه في التصحيح والتقويم ، وأشار عليّ بإضافة خرائط وفصول خاصة بالعصور الحديثة ، ويسعدني أن أعيد شكره هنا فهو صاحب الفضل الأكبر في ظهور هذا الأطلس .

وإن أكرر شكري للأستاذ **أحمد راتب** لايفوتني أن أشكر العلامة الأستاذ **أحمد عادل كمال** ، فقد راجع الأطلس نصاً وخرائط وأفادني بآرائه وتصويباته وعلمه الغزير بتاريخ الإسلام والمسلمين .

وبعد أن تولت **دار الزهراء** نشر هذا الأطلس أنشأ الأستاذ **أحمد راتب** قسماً في داره للعمل معي في إخراج الأطلس ومراجعته واستكمال خرائط الأطلس وعلى رأس ذلك القسم الأخ الصديق **فتحي محمد صوالي** نائب مدير الدار والأخ **محمود حلمي** اللذان بذلا جهداً مضنياً في مراجعة الخرائط وإعادة رسم الكثير منها ، وكذلك رسم الكثير من الخرائط الأخيرة بناء على المسودات التي كنت أعددتها ، وأشرفا كذلك على إعداد الأطلس في صورته الأخيرة ، كما قاما بالإشراف على طباعته ، وعمل معهما في ذلك جمع غفير من العاملين في دار **الزهراء للإعلام العربي** من رسامين وفنيين وخطاطين ومراجعين ومساعدين ، فلهؤلاء جميعاً الشكر الواجب ، والثناء الجميل .

وبعد فإن كلمات الشكر هذه هي كل ما أدين به لفضل أولئك السادة ، وأرجو ألا تكون الذاكرة قد خانتني فأنساني الشيطان بعض أهل الفضل والمعروف ، فإن فترة العمل كانت طويلة والذاكرة خوانة ، وأرجو ممن يكون قد نسيته أن يجد لي من كرم نفسه عذراً .

وشكر أهل الفضل على ماقدموا واجب يستحق ، وهو فضيلة إسلامية ، فإن الله سبحانه وتعالى قد أحب الشكر من عبـاده فقـال :

﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ وفتح كتابه الكريم بحمده الذي نتقرب إليه بترديده صباح مساء .

ومهما يعمل مخلوق فهو لن يبلغ الوفاء بفضل الخالق سبحانه ، فقد أعطى ووهب وأغاث ، ولا فضل فوق فضله ، ولا عطاء يعدل عطاءه ، فله أصدق الحمد ، وعلى رسوله الذي اصطفاه وبعثه إلينا رحمة وهدى ونوراً أفضل الصلاة والتسليم ، وكل ماترى في هذا الأطلس من نص ورسم يدل على محمد صلوات الله عليه فقد هدانا وأدخلنا عالم النور بأمر ربه ، والله سبحانه من وراء القصد مستعان على كل فضل ، ورسوله مقتدى به في كل عمل صالح .

والحمد لله بداية ونهاية وعلى رسوله السلام فهو نبي الخير والعلم والهداية .

المؤلـف

القاهرة في جمادى الأولى سنة ١٤٠٧ هـ
ينايـــــر سنة ١٩٨٧ م

The last three chapters were added during the last two years to give a precise picture of the history and problems of the Islamic world during modern times . Consequently , special attention was given to the Palestinian question .

It goes without saying that it is rather difficult for anyone to appreciate the effort exerted in making this atlas , except those who are acqainted with our Arabic references and their nature . They are numerous and some of them are full of events . Nevertheless , all our references lack accuracy , as one reads in them , for instance , that the town « Feed » is midway between Mecca and Basra , yet nobody knows definitely its whereabouts . The same could be applied to « ZatErq » and « Qarn Manazel » which lie to the North of the route to Iraq via Mecca , but again their definite location is unknown .

Abstract words require no limit , whereas maps do , for one could locate each town in its proper place according to one's own discretion and then , on reading the original , one discovers that the town has been misplaced . Thus the work is repeated several times demanding more effort .

I could not find anyone to tolerate the difficulties of such a work until Al - Zahraa Establishment undertook the publication of the Atlas . In its proprietor , Ahmed Raef , I found a great help , as he is a scholar and a historian . Moreover , he has recruited a group of active youth who have contributed to the revision and correction of the Atlas whereby the work came out successfully .

I do not want to emphsize my personal effort lest I should be considered as seeking praise ; a matter which I have never thought of . I only want to make the reader share the difficulties with me .

I spent willingly the last sixteen years in serving the Islamic cause ; that is why my only aim is to make out of this work a meticulous , and comprehensive achievement .

Concluding these lines of presentation of the Arabic edition of this Atlas of the History of the World of Islam , I should acknowledge that much of the credit for this final production should go to my friend Mr . Ahmad Raef , director of the ZAHRAA ESTABLISHMENT FOR ARAB MASS MEDIA , which published this Atlas and spared no effort or cost to produce it in this beautiful form . He also revised the whole work and gave me valuable advice about the text and the maps . As space will not allow my giving a complete list in English of the maps , I have limited myself to providing a list of the contents of the chapters of this Atlas .

May Allah bless us all .

The Author

Cairo 1987

ATLAS OF THE HISTORY OF ISLAM ,
BY ,
HUSSAIN MONES ,
PROFESSOR AT CAIRO UNIVERSITY ,
MEMBER OF THE ACADEMY OF THE ARABIC LANGUAGE ,
CAIRO .

Ever since I began my career in the service of the history of Islam I felt the pressing needs for a good and comprehensive atlas of that history . We can never be able to gain a real hold of that history without a well - planned and designed atlas . Islam - by its very nature - is extremely dynamic : most of the nations that embraced it were inspired with an irresistible drive towards expansion and the building up of a state . The student of that history fails , in most cases , to follow the progress of Islamic states because of the rapid change and movement involved in their rise and fall . Many scholars and institutes have declared their intention of establishing maps of the whole history of Islam or parts of it and they have indeed been able to produce works of distinction and value .

Yet the need for a comprehensive and detailed atlas is still pressing . Around 1970 , I was invited to Germany to collaborate with a group of scholars in designing an atlas for the Middle East .

There , I was able to learn some of the techniques involved in the making of historical atlases . From there I proceeded to France and England to carry on further research .

In 1972 I began by establishing the working text from which the atlas should be developed . This was not easy at all and it had to be repeated time and again until , I was able to establish a series of maps that would cover a reasonable and systematic number of chapters , divided into maps that would cover adequately the whole march of events throughout the history of Islam .

I could not find anybody who would work with me and I had to do everything by myself . This proved to be an almost impossible venture . Slowly and with exhausting patience I proceeded with the work paying the utmost attention to every detail myself .

The list of maps of every chapter was revised and modified at least three or four times . This had to be done in the process of designing the maps . Some times the text was rewritten more than once to suit the exact significance of its accompanying maps . At length , and at the end of twelve years of continuous work , I finished the first version of the atlas , comprising texts and maps . I spent two years more in revising the whole work to correct errors , fill in the gaps and add new material . Once the task was finished I realized that I had obtained a new version of the history of Islam based on maps and diagrams .

I hope I am not mistaken in my feeling towards the work I have undertaken . The whole history of Islam is told here in 20 chapters with 213 maps and about **500** pages of text which tell , in an extremely succinct narrative that nevertheless ignores nothing of importance , the whole evolution of events in the entire world of Islam , throughout all its fourteen centuries .

CHAPTER 15 - P

EGYPT

CHAPTER 16 - Q

ISLAMIC STATE OF THE NILE VALLEY (EGYPT AND SUDAN)

CHAPTER 17 - R

THE OTTOMAN EMPIRE

CHAPTER 18 - S

THE LATER DEVELOPMENT OF ISLAM IN AFRICA :
THE SAHARA AND TROPICAL AND EQUATORIAL AFRICA - ASIA EAST OF INDIA

CHAPTER 19 - T

THE ECONOMY ROUTES OF COMMUNICATION BY EARTH AND SEA AND PILGRIMAGE

CHAPTER 20 - V

ISLAM IN MODERN TIMES : BEFORE , UNDER AND AFTER WESTERN DOMINATION . COUNTRIES WITH ISLAMIC MAJORITIES - ISLAM IN THE WORLD OF TODAY - THE CONTERMPARARY WORLD OF ISLAM TOGETHER WITH THE ORGANIZATION OF ISLAMIC COUNTRIES - THE ARAB LEAGUE - THE PALESTINIAN QUESTION .

ATLAS OF THE HISTORY OF ISLAM

CONTERNTS

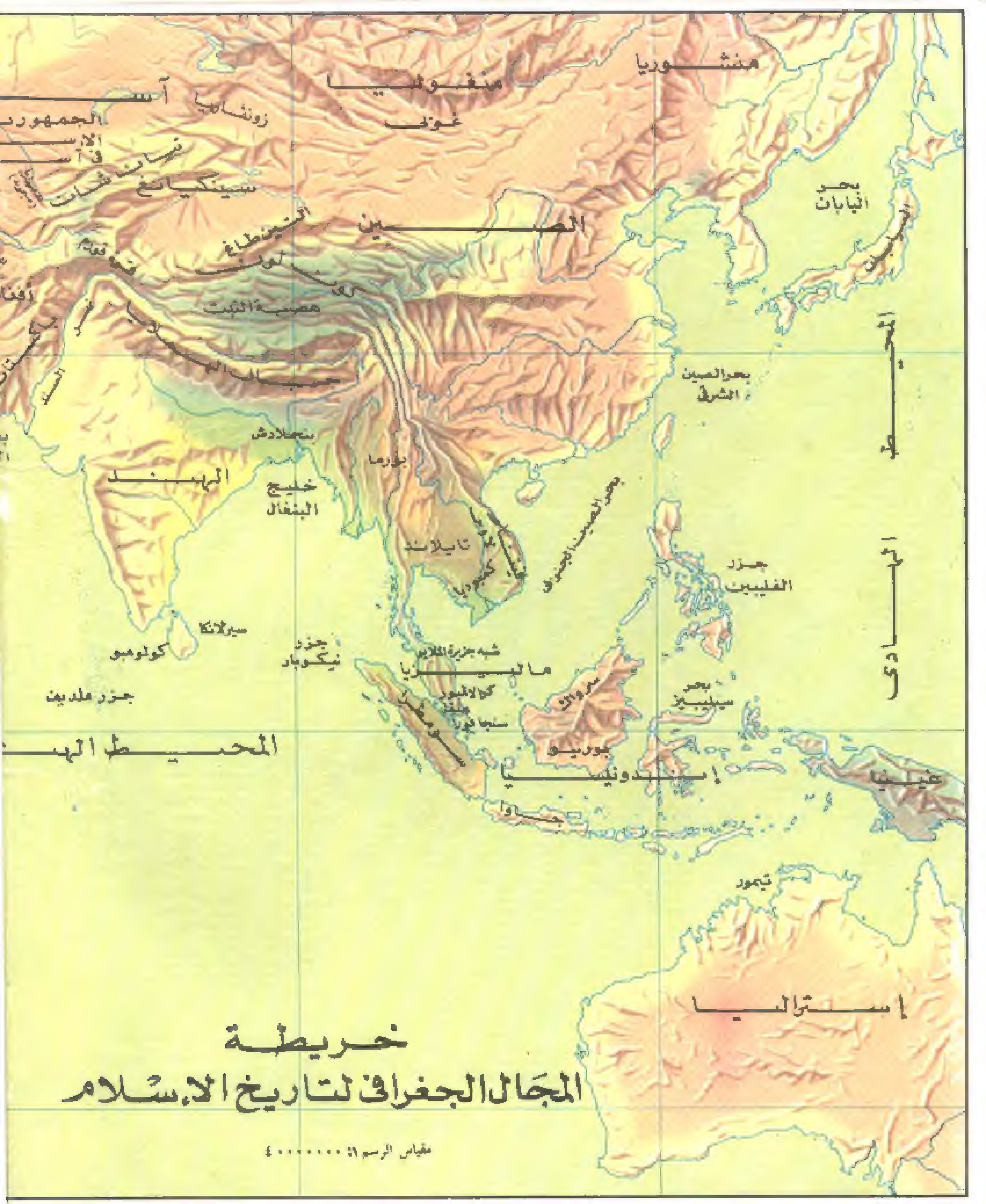
منشوريا
منغوليا
غوبي
الصين
بحر اليابان
بحر الصين الشرقي
هضبة التبت
بنجلادش
الهند
خليج البنغال
بورما
تايلاند
بحر الصين الجنوبي
جزر الفليبين
سيرلانكا
كولومبو
جزر نيكوبار
شبه جزيرة الملايو
ماليزيا
كوالالمبور
جزر ملديف
بحر سيليبس
بورنيو
إندونيسيا
جاوا
تيمور
استراليا
خريطة
المجال الجغرافي لتاريخ الإسلام
مقياس الرسم ١: ٤٠٠٠٠٠٠٠

أوروبا
جبال الألب
البرينية
شبه جزيرة
إيبيريا
(الأندلس)
سردينيا
الأدرياتيك
البلقان
صقلية
البحر الأسود
جبال القوقاز
بحر قزوين
تركيا
الأناضول
قبرص
مضيق جبل طارق
جبال الأطلس
الرباط
البحر المتوسط
سوريا
دمشق
لبنان
القدس
فلسطين
بغداد
طهران
القاهرة
الكويت
مصر
ليبيا
الجزائر
المدينة
مكة
البحرين
الخليج العربي
الرياض
الإمارات
عمان
السعودية
البحر الأحمر
الربع الخالي
اليمن
إفريقيا
موريتانيا
أغادس
النيجر
تشاد
السودان
السنغال
فولتا العليا
غينيا
نيجيريا
ساحل العاج
سيراليون
غانا
خليج عدن
جيبوتي
الحبشة
الصومال
إفريقية الوسطى
خليج
غينيا
خط الاستواء
الكاميرون
الجابون
زائير
كينيا
فكتوريا
زنجبار
تنزانيا
المحيط
الأطلنطي
أنجولا
زامبيا
زامبيزي
روديسيا
ناميبيا
صحراء كالاهاري
جنوب إفريقية

الزهراء للإعلام العربي

أطلس تاريخ الإسلام